
النبوغ المغربي
في الأدب العربي
تأليف
عبد الله كنون
١-٣


النبوغ المغربي
في الأدب العربي

النبوغ المغربي

في الأدب العربي

تأليف

عبد الله كنّون

الجزء الأول

مقدمة الطبعة الثانية

هـذا الكتاب

لما ألفتُ هذا الكتاب ، لم أكن أهدفُ به الى تميز أدب المغرب بميزةٍ ليست في الأدب العربي العام ، ولا الى تخصيصه ببحث مستقل يجعله في نظر المغاربة أو غيرهم كتاباً خاصاً بأدب قطر من أقطار العروبة على حِدَته ، وانما كان مقصودي الأهم من تأليفه ، هو بيان اللَّبنَة التي وضعها المغرب في صرح الأدب العربي الذي تعاونت على بنائه أقطارُ العروبة كلُّها ، وذكر الأدباء المغاربة الذين لم يُقصّروا عن إخوانهم من المشارقة ومغاربة بقيّة أقطار المغرب العربي في العمل على ازدهار الأدبيات العربية على العموم .

وذلك لأني رأيت منذ نشأتي الأولى إهمالَ هذا الجزء من بلاد العروبة في كتب الأدب وكتُب تاريخ الأدب ، حتى لقد تُذكر تونس والجزائر ، وبالحرَى القيروان وتلمسان فضلاً عن قرطبة واشبيلية ، ولا تُذكرُ فاس ومرّاكش بحال من الأحوال . وظننتُ أولاً أن ليس لبلادي في هذا المجال مشاركة ، وإنما حسبُها ميادينُ البطولة والجهاد والفتح ، ولذلك لا يسعُ المؤرخين وكتّاب التراجم الا أن ينوهوا بشخصيات يوسف بن تاشفين ، وعبد المؤمن بن علي ، ويعقوب المنصور ، وأبي الحسن المريني ، وأضرابهم من أبطال المعارك وأرباب الحكم والسلطان ، ويُثنوا على أعمالهم ومساعيهم في خدمة الاسلام ، وتوطيد دولته ؛ في حين أنهم لا يُعيرون اهتماماً لرجال العلم والأدب ، ولا يُعرّجون على ما كان لهذا الوطن العزيز من صَولة في عالم الفكر ومَيدان العِرفان .

ثم لما بحثتُ ونقبتُ ، وجدتُ كنوزاً عظيمة من أدبٍ لا يقصُر في مادّته عن أدب أيّ قطر من الأقطار العربية الأخرى ، وشخصياتٍ علميّة وأدبيّة لها في مجال

الانتاج والتفكير مقامٌ رفيع . ولكنَّ الاهمال قد عفَّى على ذلك كله ، وعدمَ الاهتمام بجمعه في كتاب ، والتَّنبيه عليه في خطاب أدَّى الى وَأدِه ، فاحتاج الى من يبعثُه من مرقده .

وقد شمَّرتُ عن ساعد جِدّي ، وأنا يافِع لم يَبقُل بعدُ عارضي ، فتتبعت جميعَ ما وصلت اليه يدي من آثار أدبية مغربيّة ، وأخبار عن أدباء المغرب وعلمائه ، ممَّا وقفتُ عليه في الكتب والأوراق والمحافظ ، أو تلقَّفته من أفواه المشائخ والأدباء والأقران ، وجمعتُ ذلك كلَّه في كتاب النبوغ ودفعتُ به الى المطبعة منذ بضع وعشرين سنة ، لعلِّي أرفعُ الضيمَ عن بلادي ، وأُثبتُ مركزها في حظيرة العلم والأدب ، على ما هو عليه مركزها في السياسة والحرب أو أعظمَ .

ولقد وُفِّقتُ الى ما أردتُ أو بعضٍ مما أردتُ ، على ضعف وسائلي المادية والأدبية في ذلك الحين ، فكان للكتاب صدًى بعيدٌ في الداخل والخارج ، نبَّه الزُملاء والناشئين بعدُ الى العناية بهذه الناحية من تاريخهم ، وأثارَ اهتمام الباحثين والمَعْنيِّين بهذه الشؤون في الشرق والغرب، حتى قال فيه أميرُ البيان المرحوم الأمير شكيب أرسلان « ان من لم يقرأه فليس على طائل من تاريخ المغرب العلمي والأدبي والسياسي » وصار العلامة الأستاذ كارل بروكلمان ، الحجةُ في تاريخ الأدب العربي يعتمده في مُلحقات كتابه العظيم ، عن تاريخ هذا الأدب . ولا يُمكِنُني في هذه العُجَالة أن أستوعِبَ أسماءَ جميع الأدباء والكُتَّاب الذين تناولوه بالنقد والتقريظ في مُختَلِف الصحف والمجلات منذ صدوره الى الان . ولكني أُشير الى إقرار العالم الايطالي الشهير جيوفاني بيانكي في مقال له بمجلة الشرق الحديث[١] عن الكتاب «بإبرازه للمساهمة التي أبداها المغرب في الآداب العربية،تلك المساهمة التي أهملتْ حتى اليوم ، ولم تُقدَّر كما كان ينبغي » وهذه هي الغاية التي من أجلها الفتُ النبوغ . وكذلك أشير الى ما جاء في مقال عنه للدكتور محسن جمال الدين ، نُشِر بمجلة الأديب البيروتية منذ عهد قريب[٢] وهو قوله : « ان فضيلة هذا الكتاب في أنه يختص بدراسةِ

١ – انظر ترجمته في مجلة العالم العربي (عدد اول سنة ثانية) بقلم المستشرق « اميليو بوسي » ، وكان الكاتب اطَّلع على الترجمة الاسبانية للكتاب .

٢ – عدد سبتمبر ١٩٥٨

أدب بلاد المغرب الأقصى وتاريخه ويستخرج النصوص من خزائنها النادرة ، ذات المخطوطات النفيسة ، ويعرِضُ لنا نماذَجها الحسنة . ودراسةِ شخصياتها المعتبرة ، وهو بعيد عن ابتذال القول وضعف الرأي ... والذي يدرس منا كتاب « النبوغ المغربي » فستُدهِشُه هذه الوفرة الزاخرة من اسماء الرجال والمؤلفات والنصوص ، ويتأكد بعدها أن أغلب أصحاب حِرْفة الأدب عندنا أو حَمَلَة العلم في جامعاتنا ، لم يسمعوا بها أو يقتنوا من آثارها ، أو يحفظوا بعض أشعارها ونثرها ، وما عملُ المؤلف المفضال ، والصديق الكريم الا صيْحَةً داويةً ، ودعوةً حارَّة ، وغَرْساً مُثْمِراً لجيله الحاضر ، ولأجيالنا القادمة في الوطن العربي كافَّة ، وفي عالم الحضارة العالمية الواسعة » وهذا وصفٌ للمجهود الطائل الذي بذَلَتْه في تأليف النبوغ ، بقلم استاذ جامعي يعرِف قيمةَ البُحوث المبتكرة التي لم تُنْسَجْ على منوال سابق .

وكان المرحوم الاستاذ سعيد حِجّي يُعلِنُ عنه في جريدة المغرب عند صدوره بهذه العبارات « حادث خطير في تاريخ المغرب ، ظهورُ كتاب النبوغ المغربي في الأدب العربي ، أول كتاب من نوعه ، وأوفاهُ في موضوعه » ، وألقى بأحد نوادي سلا محاضرةً عنه بعنوان (خطوة عظيمة في تاريخ الفكر المغربي) نشرها في العدد الثامن وما بعده من الملحق الثقافي لجريدة المغرب .

ثم كانت موافقةً عجيبةً أن أُعلنَ في مصر عن جائزة للدولة قدرها خمسمائة (٥٠٠) جنيه ، خُصِّصَتْ لمن يؤلف عن الأدب العربي في القطر المصري ، من الفتح الاسلامي الى العصر الحاضر . . فكتب الأستاذ حِجّي مُعلِّقاً على هذا النبأ بالملحق المذكور ما يلي : « من حُسن الصُّدَف أن تهتم وزارة معارف مصر بوضع جوائز عن الأدب المصري في الماضي ، في نفس الأسبوع الذي يصدر فيه كتاب مغربي عن الأدب المغربي في ذلك الماضي ، فيكون المغرب أسبق الى تلك المفخرة من كل الأمم الناطقة بالضاد ولكن يجب أن نتساءَل ماذا ينالُ مؤلفنا من تقدير ادارة العلوم والمعارف ، وما يستحقُّه من تشجيع من جمهور المثقفين ؟ فنحن نُهيبُ بتلك الادارة الى الاهتمام بهذا المؤلَّف الحافل ، ونرجو أن تشتري منه بضع مئات من النسخ تقديراً لمجهودات مؤلفه الثمينة ، وتشجيعاً لمثل هذه المباحث القيمة . » وقد كان الجوابُ على هذا النِّداء النبيل هو صُدورُ قرار عسكري بمَنْعِ رَواج الكتاب ، ومُعاقبةِ من تُضبَط عنده نسخة منه . ونصُّ ما كتبتْه جريدة السعادة ،

لسانُ حال حكومة الحماية ، بعددها رقم ٤٥٩٢ في هذا الصَّدَد تحت عنوان بلاغ عسكري (أصدر سعادةُ الجنرال خليفةُ سعادة القائد الأعلى للجنود بالنيابة أمراً يقضي بمنع الكتاب المُعنوَن بالنبوغ المغربي في الأدب العربي الصّادر باللغة العربية في تطوان من الدُّخُول الى المنطقة الفرنسية بالمغرب الأقصى ، وكذلك بيعه وعرضه وتوزيعه ، ومن خالف ذلك يُعاقبُ بمقتضى القوانين المقرَّرة » ..

واذا كان لهذا القرار دَلالةٌ فهي تأكيدُه لكون الكتاب عملاً وطنيا فوق كونه عملاً أدبياً ولذلك استحق أن يحظَى من الاستعمار الفرنسي الغاشم بهـذا الجزاء الظالم .. وكان أنْ ثارتْ ثائرةُ الصحف الوطنية بتطوان ضد هـذا التدخل العسكري الاستبدادي في شؤون الفكر والثقافة ، فكتبت كل من جريدة « الحرية » وجريدة « الوحدة المغربية » مقالات نارية تنتقد فيها القرار المذكور وتُندِّد بالحريّة الفرنسيّة المزعومة ، مما جعل الصحافة الاستعمارية تُصاب بالسُّعار ، فتصُبُّ جامَ غضبِها على الوطنية المغربية عموماً ، وتخصَّني بحملات عدائية انتهزها الأذنابُ والمنافقون ، فلم يقصروا في الأذى والضرر .

ومن الانصاف أن أقول ان هذا كان في الجنوب أو المنطقة السلطانيّة إذ ذاك . وأما في الشمال أو المنطقة الخليفيه ، فقد تلُقـّي الكتاب بقبول حسن من لدن السلطة ، واقتنت منه ادارة المعارف كميّةً من النسخ ، ووزَّعتها على المكتبات والمعاهد في المنطقة . ثم لما تُرجِمَ إلى الاسبانية بمعرفة الاستاذين خيرُونيمُو كريُّو أورد ونييز ومحمد تاج الدين بوزيد ، قابلته المحافلُ الأدبية في أسبانيا بمزيد من التقريظ والتقدير ، وبلغ الأمر أن وصلتني رسالة من وزارة الخارجية الاسبانية بتاريخ ١٨ نوفمبر ١٩٣٩ تعلمني بان وزارة المعارف العمومية لهذه البلاد ، قد منحتني درجة دكتوراه شرف للآداب من جامعة مدريد بمناسبة صدور كتابي النبوغ المغربي في ترجمته الاسبانية ، وتدعوني الى زيارة اسبانيا في رحلة تستغرق شهراً على نفقة الحكومة . وجاءت هذه التحية الكريمة في الوقت المناسب ، فمحَتْ من نفسي آثار المعاملة السيئة التي عومل بها الكتاب من السلطات الفرنسية وعُملائها ، ورددتُ الجواب بالشكر وعِرفان الجميل ولكني أجَّلتُ السفر الى أن يشاء الله تجنُّباً للقيل والقال .

هذه قصّةُ كتاب النبوغ المغربي باختصار ، من لدن التفكير في وضعه وجمعه ،

الى ما بعد طبعه ومنعه . والآن وقد مرت على ظهور طبعته الأولى هذه المدةُ الطويلة ، وكثر الطلب عليه من مختلف الجهات وخصوصاً بعد استقلال المغرب ، وتوجُّه الأنظار الى هذه البلاد التي كانت محاطةً بستار حديدي من نظام الحماية ، يمنع الاتصال بينها وبين شقيقاتها العربيات ، والأوطانِ الاسلامية الأخرى ، وسائر العالم الحر ، فان الحاجة أصبحت جدّ ماسّة إلى إعادة طبعه ، وتقديمه وثيقةً وسنداً الى جميع هؤلاء الذين يهمهم الوقوف على تاريخ المغرب الفكري وماضيه الحضاري . ولكن بعد مراجعته طبعاً وتجديد النظر في محتوياته من مادة وفكرة وترتيب ، ضرورةَ أنَّ المعلومات التي كانت لدينا زمنَ تأليفه هي غيرُ المعلومات الآن ، والتفكيرُ وسائر وسائل العمل ، قد تطورت بتطور الزمن ، فلم يكن بُدّ من ادخال تعديل جوهري عليه يتلخص فيما يلي :

أولاً — اضافة المواد الجديدة التي وقفنا عليها بعدُ ، سواء فيما يرجع الى تراجم الأشخاص أو الآثار الأدبية ، أو الدراسات الموضوعية التي تناولناها في مُختلِف العصور ، فقد ظهرت في عالم الطباعة كتب مهمة لها اتصال وثيق بموضوعنا كمجموعتي رسائل موحدية ، ورسائل سعدية ، ورابع البيان المغرب لابن عذاري ، ومُغرب ابن سعيد ، والغصون اليانعة ، ورايات المبرِّزين له ، واطّلعنا على الحماسة المغربية للجراوي ، ونثير الجُمان لابن الأحمر والمدارِك للقاضي عياض ، ورحلةِ ابن رُشَيد ، وغير ذلك من المخطوطات النادرة التي تحتوي على موادّ أساسية في الموضوع كان من الضروري أن تُضاف الى أماكنها وتُكمِّل عناصر البحث .

ثانياً — تصحيح بعض الأغلاط التي وقعت لنا في كتابة بعض التراجم ، ونسبة بعض الآثار الأدبيّة والعلميّة لغير مَن هي له ، والحكم في بعض المسائل بما ظهر لنا خلافه وما الى ذلك . ويُقوّي الداعيَ الى هذا التصحيح أننا رأينا الذين كتبوا في موضوع الأدب المغربي يقلّدوننا في تلك الأغلاط ، سواء الذي صرّح منهم باعتبار النبوغ من مراجعه ، والذي لم يُصرّح بذلك ، وهو أمر مؤسف يدلّ على ضعف الهمَم ، وكلال العزائم ، في الذين تصدّوا حتى الآن لهذا البحث ، على الرغم من تيسير صِعَابه ، وتذليل عِقابه . ولذلك كان لزاماً علينا أن نُبادِرَ بتصحيح كلّ غلط من هذا القبيل ولو للمحافظة على هذه الثقة (العمياء) التي وضعها فينا الزملاء الكرام .

ثالثاً — تحرير بعض الفصول من التأثير السياسي ، والعاطفي الذي كتِبَت به ، نتيجةً لما كان المغرب يمرُّ فيه من ظروف سياسيّة ، وأحوال اجتماعيَّة مُعاكِسَة لمطامحه العليا ، وآماله الكبرى ، في الوحدة والاستقلال ، والتطور داخلَ إطار العروبة والاسلام .. ومن أخطر ذلك السياسة البربرية التي انتهجها الاستعمار الفرنسي للتفرقة بين عناصر المواطنين المغاربة ، وتأليب بعضهم على بعض أخذاً بمبدأ فرِّق تَسُدْ .. فكان الكتاب كلما سنحت الفرصة ، يحملُ على هذه السياسة حملةً شعواء ، ويوجّه القارىء المغربي في الاتجاه السليم الجافي لهذه العنصريَّة المقيتة ، والذي هو الحقُّ والصواب ، فالآن لمَّا شالتْ نعامة الاستعمار ، وفشلت سياستُه في هذا الصَّدد ، لم يبق موجبٌ لذلك التوجيه ، أو على الأقل للَّهجة الشديدة التي كتِبَ بها ذلك التوجيه .

رابعاً — تحوير في التصميم الذي وُضِعَ عليه الكتاب ، فنحن لقلَّة المعلومات التي كانت عندنا عن العصر المرابطي أو لضُعفِ استعدادنا في استخراج هذه المعلومات من تضاعيف الكتب والمراجع العامة ، كنا أدمجنا هذا العصر في العصر الموحدي . والآن وقد توفّرت لدينا معلومات قيمة عن المرابطين وعهدِهم، فصَلْنا عصرَهم عن عصر الموحدين ، وخصَّصناه بدراسات مهمة عن الاتجاه السياسي ، والحركة العلميّة ، والحياة الأدبيّة ، وميَّزناه بخصائصه التي ينفردُ بها عن العصرالموحدي. وبالطبع فقد خلَّصنا هذا العصر أيضاً من الاشتباكات التي كانت تجمع بينه وبين العصر المرابطي ، لمَّا كانا مُتداخلَين ؛ وبذلك نكون قد أعدْنا كتابة العصر الموحدي من جديد ، كما أننا كتَبْنا العصرَ المرابطي كله ابتداءً .

ويُضَافُ الى هذا التَّحْوير تقسيمُ الكتاب الى ثلاثة أجزاء ، فالجزءُ الأول للدِّراسات ، والثاني للمُنْتَخَبات النَّثْرية ، والثالث للمُنتخبات الشعرية ، وقد كان قَبْلُ مُقسّماً الى جزئين فقط يجمع الجزءُ الثاني بين دفَّتَيْه المنتخبات الشعرية والنَّثرية معاً .

والى هذا فقد أضفنا زياداتٍ كثيرة الى غالب الفصول ، وخاصَّة فيما يتعلَّق بنهضة الفنون ومُشارَكة المرأة في مختلف مجالات النشاط الفِكْري للشَّعب . وبعضُ الكلمات في هذا الصَّدَد ، وهي جُهْدُ مقلّ ، تفوق ما كُتِبَ بشأنه في بعض التواريخ العامَّة للأدب العربي جملةً .

ولا حاجة بي إلى القول إنّ روح البحث المجرّد التي سيطرت على الكتاب في طبعته الأولى هي التي تتقمّصُه في طبعته الثانية ، وأن التثبت والتحرّي وعدم إلقاء الكلام على عواهنه ، هي الموازينُ القِسْط التي تحكّمتْ في كل جملة من جُمَلِه ، إن لم أبالغ فأقول في كل كلمة من كلماته . ومع ذلك فما أُبرّئهُ من نقص ، ولا أُحاشيه من خطأ ، لعلمي بأن الكمال لله . وأن العصمة لا تكون الا لِنَبيّ . واللهُ المسؤول أن يكسُوَه حُلل القَبول ، وأن يجعله سادّاً للفراغ الذي يشعر به الجميع في هذا الباب « ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحدٍ أبداً ولكنّ الله يُزكّي من يشاء ، والله سميعٌ عليم » .

طنجة في ربيع الثاني ١٣٨٠
وأكتوبر ١٩٦٠

عبدالله كنون الحسني

عرض وتحليل



عَرضٌ وتحْليل

بقلم المرحوم الأمير شكيب أرسلان

كتب أمير البيان الأمير شكيب أرسلان رحمه الله بحثاً مستوفى عن كتاب النبوغ المغربي حين صدوره في صورة عرض وتحليل . ونحن نثبت هنا القسمين المنشورين منه بجريدة « الوحدة المغربية » الغراء الصادرة بمدينة تطوان في عددها ٢٢٤ و ٢٣٤ المؤرخين في ٤ صفر و ٢٩ ربيع الثاني ١٣٦١ ، ونقدمهما بين يدي الكتاب تتويجاً له وتحلية :

١

قرأتُ الجزء الأول من هذا الكتاب الممْتِع الذي أخرجه للنـــاس فذّاً في بابه السيد الشريف ، والعلامة الغطريف الأستاذ عبدالله كنون من مفاخر القطر المغربي في دوْرنا الحالي . وقد كنتُ أعهد نفسي من بين المشارقة ، الرجل الذي اطّلع أكثر من غيره في تاريخ المغرب وأهله ، وأنعم النظر فيما يتعلق بثقافتـــه وسياسته وسائر شؤونه ؛ ولكني رأيتُ نفسي بعد أن طالعت هذا الكتاب الصغيرَ حجْمُه ، الكبير قدْره كأني لم أعلم عن المغرب قليلاً ولا كثيراً ، وكدتُ أقول إن مَن لم يطّلع عـلى هذا الكتاب لا يحِقّ له أن يدّعي في تاريـخ المغرب الأدبي علماً ، ولا أن يُصدر على حركاته الفكرية حُكماً . وكما قيل في كتاب « نفح الطيب » للعلامة المقري أنه كتاب نفــح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وكلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، الذي من لم يقرأه فليس بأديب ، يمكنُ أن يقال إن من لم يقرأ كتاب «النبوغ المغربي في الأدب العربي » فليس على طائل من تاريـــخ المغرب العلمي والأدبي والسياسي ؛ بل هذا الكتاب في موضوعه أجدر بالاطلاق الشامل من كتاب « نفح الطيب » في موضوعه ؛ وذلك بأن نفح الطيب على جلالة قدره حشر بين دفّتيه غثّاً وسميناً ، وعالياً ونازلاً ، وأطــال حيث ينبغي الاختصار ، وأوجز حيثُ النفوس تشتاق الى

الاطالة والاكثار . وأيضاً فقد يكون الأديب أديباً ولم يقرأ « نفح الطيب » ، فأما « النبوغ المغربي في الأدب العربي » فهو خلاصة مَنْخولة ، وزُبْدة ممخوضة ، استخلصها صاحبها من مئات الكتب المصنّفة ، وألوف من الأحاديث التي لـَقِفَها من أفواه العلماء الذين أخذ عنهم ، وقلما رأيتُ مؤلفاً جمع المعنى الكثير في اللفظ القليل ، وجاء في ضمن ٢٥٠ صفحة بالعريض الطويل في درجة هذا التأليف الذي هو ثمرة تحقيق وتدقيق ، ودرس عميق لم يخرج الى قراء العربية أحسن منه في بابه .

أشار العلامة مصنف «النبوغ العربي» في مقدمة كتابه الى جمعه فيه بين العلم والأدب والتاريخ والسياسة ، والى تصويره الحياة الفكرية في المغرب ، من لدن قدوم الفاتح الأول الى يوم الناس هذا ، ولـَعَمْري إن من قرأ هذا الوعدَ الذي جزم به المؤلف اعتقد في البدء أنه بالغَ فيه جدّاً ، وحمّل نفسه إدّاً ، وزعم الإحاطة بموضوع تعجز عنه الجملة ، ولا تفي به الكتب الجَمّة ، وادّعى فتحَ مغالِقَ تنُوءُ مفاتِحُها بالعُصْبة . إلا أنه عندما يبدأ القارىء بالمطالعة ، يجد المؤلف قد وعد فانجز ، وقرب الأقصى بلفظ مُوجز ، وكان فعله محققاً لقوله ، وقد مزج في كتابه بين الحركات الفكرية والحركات السياسيّة مزْجاً عجيباً ، حقّق فيه الصلة الطبيعية التي لا تكاد تنفك في كل دَوْر من أدوار الأمم بين العلم والسياسة ، بحيثُ لا يرقى الواحد منها إلا رقي الآخر برُقيّه كاللازم والملزوم . وهو وإن لم يكن توخّى ذكر الفتوحات والمغازي ، ولا حاولَ استقصاء مآثر السيف في جانب مآثر القلم ، فقد ضمّن في تضاعيف كلامه على تطور الحركات العقليّة في المغرب من لَدُن الفتح العربي الى الآن ، لمحة دالّةً يفهم منها القارىء تطور السياسة وتعاقب الدول المختلفة التي سادت المغرب من ذلك اليوم الى الآن ، فلا يسير المطالع لهذا الكتاب إلا على ضوء من أول الكتاب إلى آخره ، ولا يكادُ يُشكِلُ عليه فيه مسألة ، ولا يستعجمُ موضوع ، ولا يفتقر مقامٌ الى مقال . وهو مع هذا كله من الكتب المختصرة ، فكأنما أراد به صاحبه لا مثالاً للتاريخ فحسب ، بل مثالاً للبلاغة .

ومن أول ما شغل المؤلف به ذهن القارىء قضيّة خفاء الأدب المغربي على المشارقة ، وإنكار كثير من هؤلاء لكثير من مزايا إخوانهم المغاربة . وهو غيرُ ملوم في الاحتفال بهذه القضية ، وفي كونه نصّ عليها في أول كتابه ، لأن للمغاربة حقاً

في المطالبة بمكانهم في الأدب العربي الذي هم من جملة حَمَلة ألويته ، بل من نخبة عُمّار أنديته ، ولكن الأمر على حد ما قال الشاعر :

والنّجمُ تستصغرُ الأبصارُ رؤيته والذنبُ للطّرْف لا للنجم في الصغر

فالمشارقة الذين يعزُو إليهم إخوانهم المغاربة جهل مقامهم في الادب ليس منهم واحدٌ يلزُّ في جملة العلماء المحققين ، وانما هم من صغار المتأدبة الذين علموا شيئاً وغابت عنهم اشياء . ولم تكن قبل اليوم علاقاتُ العالم بعضها ببعض كما هي في هذا العصر ، الذي جعلت فيه الاختراعات العلمية ومظاهر أسرار الكهربائيّة ، القاصي قريباً والمجهول معلوماً والبلدان النائية بلداً يكاد يكون واحداً ، والأسفار المشتطة سفراً قاصدا . وقد كان المغرب من قبل في زاوية من الأرض ليس وراءها الى الغرب سوى بحر الظلمات . نعم لم يزل المغرب كما كان من الجهة الجغرافية ، ولكنه أصبح اليوم قريباً بالباخرة والطائرة ، والسِّلكي واللاّسِلْكي والهاتف والراديو ؛ فصار الشرقيُّ يعرفُ عن المغرب وأهله في اليوم الواحد ما لم يكن يعرفه في السنة بطولها . فالان إذا جهل الشرقي أحوال المغرب وعميت عليه مآثره ، يكون جديرا باللوم ، وحقيقاً بالرثاء لقصور معارفه . فأما عمّا مضى فلا يتوجه اللوم وأسبابُ الاتصال قليلة ، ووسائل التعارف محدودة .

ولا تنسَ الانحطاط الذي طرأ على العالم الاسلامي شرقيّه وغربيّه ، فانه في مقدمة أسباب جهل بعض أجزائه بأحوال البعض الآخر . ولا تنسَ أيضاً تكالب الاستعمار الأوربي ، وكون أهمّ شروطه الفصل والقطع والضرب بالأسداد بين البلاد المستعمَرة وأخواتها ، والأمم المستضعفة ومن تمتُّ اليهم بصلة دين أو نسب أو لغة . فهذا كله جعل أمور المغرب مجهولةً عند غير المحققين من أهل الشرق . ولو كان الاستقلال السياسي موفوراً للعالم الاسلامي ، لمَا وقع من التجاهل والتناكر هذا الذي وقع أخيراً وجعل الأخ لا يعرف شيئاً عن أحوال أخيه ؛ فقد عهدنا عندما كان الاسلامُ اسلاماً ، وكانت الرجال رجالاً أن الحركات الفكريّة إذا شاعت في المشرق شاعت في المغرب ، وإذا نبغ شاعر أو كاتب في أحدهما تناقل الناسُ أقواله للآخر ، واذا كتب الإمام الغزالي كتاباً في أقصى الشرق تدارسهُ الفقهاء في أقصى الغرب ، وعمِلَ به الموحدون والغزالي بعدُ في الحياة . وإذا ألّف سعدُ الدين التّفتازاني كتاباً في خُراسان أو ما يليها تكلّم عليه ابنُ خلدون في فاس أو تونس في عُرض كلامه على مَلَكة المشارقة في العلوم العقليّة ، والتفتازاني لا يزال حيّاً . واذا ألّف ابن هشام كتاباً في النحو وهو

في مصر ، ولم تكن المطبعة قد عُرِفت يومئذٍ ، لم تمض أشهرٌ حتى امتلأت أسواق الورّاقين في مدن المغرب بنُسخ هذا الكتاب وابنُ هشام يومئذ حيّ ؛ وجعله مثل ابن خلدون موضوعاً في مقدمته لذكر ملكة المتأخرين في علوم العربيّة ، وهلمّ جرّاً . فالرُّقيُّ الفكري متّصِلٌ بالاستقلال السياسي اتصال النتيجة بالمقدّمة . ولقد فُقدت في الأدوار الأخيرة من العالم الاسلامي أسبابُ الاتصال بما طرأ من التفكّك ، ومصير بلاد الاسلام طرائقَ قِدداً ، تليها دولٌ مختلفة ، أكثرها خارج عن الاسلام ، بل أكثرها عدوٌّ للاسلام كاشحٌ يعمل لمحوه من الدنيا . ومن المعلوم أنه لا يعمل للاسلام غيرُ دول الاسلام نفسِها ، فلا عجَب بعد هذا أن يجهل بعضُنا مكانَ بعض وأثرَ بعض ؛ بل العجبُ أن تعلم اليدُ اليمنى باليد اليسرى ونحن على ما نحن عليه من تفكك الأجزاء وتقطّع الأوصال ، والسياسة كما قلنا هي والأدب شريكا عِنَان ، وفرَسا رِهَان .

وقد أصاب الأستاذُ صاحب « النبوغ المغربي » في عدم إطلاقه القول على المشارقة أنهم جاهلون بأقدار المغرب ، فانه قيّدَ ذلك بقوله « انكار كثير من المشارقة لكثير من مزايا المغاربة » وفي هذا القيد قد أخرَج محرِّر هذه السطور من هذه الجملة الخاسرة ، فاني على ما بي من قصورٍ وتقصير ، وعيوبٍ تضيقُ فيها المعاذير ، أقدِرُ أن أدّعي بحقٍّ سبقَ غيري من جميع العالم العربي الى معرفة مزايا المغرب وأهلِه ، وإيجاب عَدمِ التفرقة بحال من الأحوال بين مغرب ومشرق ، أقول هذا من باب التحدث بنعمة الله .

٢

عالج السيد عبدالله كنون في صدر كتابه هذا حادثين جليلين هما من أهم حوادث الفتح الاسلامي في العالم ، وهما إسلامُ البربر ، هذه الأمة العظيمة التي لولا دخولها في الاسلام لكانت بلاد شماليّ افريقيا كلها أقطاراً معادية للاسلام ، مُنَاوئة للعروبة بخلاف ما هي عليه الآن من الاعتصام بهما وتكوينهما جزءا لا ينفكُّ من أجزاء العالم الاسلامي ولا يقلُّ شأناً عنه عن مصر والشام وجزيرة العرب والأناضول وفارس وهلمّ جرّا ؛ بل حصناً منعاً تتكسر على جوانبه هجمات الأمم التي لا تطيق وجود الاسلام في الأرض . وكذلك حادثُ استعراب البربر الذين أصبحوا بتأثير الدين

الحنيف واللسان العربي الشريف كتلة واحدة هم والعرب ، يعادون من عاداهم ويوالون من والاهم ، ويكونون دائماً يداً واحدة على من سواهم ، وإن وجدت في الأحايين بين الفريقين منازعات ومشاجرات فلا تكون إلا من قبيل تنازع قبائل العرب أنفسهم بعضها مع بعض ، أو من باب المنازعات العائلية التي لا تمنع أصحابها من الاتحاد على الأجنبي وتناسي جميع الأحقاد بإزاء الخطر العام ، وهذا على حد المثل العامي القائل ... (أنا وأخي على ابن عمي ، وأنا وابن عمّي على الغريب .) ولله در القائل ..

وذَوِي ضِبَابٍ مُضمِرِين عَدَاوَةً قَرْحَى القُلوب مُعاوِدِي الأَكْنَادِ
نَاسَيْتُهم بَغْضَاءَهُم وَتَرَكْتُهم وهُمُو إِذَا ذُكِرَ الصَّدِيقُ أَعَادِي
كَيْمَا أُعِدَّهُمُو لِأَبْعَدَ مِنْهُمُو ولَقد يُجَاءُ إِلى ذَوِي الأَحقَادِ

بل البربرُ في المواقف العامة هم أقربُ إلى العرب من العرب بعضهم إلى بعض . ولئن كان التاريخ قد روى بين العرب والبربر مخاصماتٍ شعبية عامة كما جرى في الأندلس مثلاً بعد فتحها بقليل وأوجب نكوصاً كانت عواقبهُ السيئة فيما بعد . فقد ندر وقوع هذه الحوادث ذات الشكل العام بين الأمتين وغلب عليهما الشعور بالوحدة الاسلامية حتى صارتا مِصْدَاق قوله تعالى : « انَّ هذه أُمتكم أُمَّةً واحدةً وأنا ربُّكم فاعْبُدون » .

ولا ننسى ما قام به البربر في التاريخ الاسلامي من جلائل الأعمال في الذبِّ عن حوض هذه الملَّة ، سواء على أيدي المرابطين أو الموحدين أو بني مرين أو غيرهم ، مما يجعلهم في مقدمة صفوف المجاهدين الذين تتباهى بمآثرهم أمة محمد ، وعلى كل حال يمكننا أن نقول بحسن اهتداء البربر وتآخيهم مع إخوانهم العرب حملة القرآن الأوَّلين إمتدَّتْ جزيرة العرب من شرْقيِّ البحر الأحمر الضيّق إلى شرقيِّ الأوقيانس الاطلنطيقي الواسع ، فصارت هذه الأقطار كلها سلسلةً عربيّةً إسلاميّةً غير منفصلةٍ ولا متعصّبة . وهذا قد وفّاه حقّه الاستاذ كنون ، وأوضح أسباب انتشار الاسلام من أول الفتح بين الأمة البربرية ، وذكر من

هذه الأسباب التي أوجبت إقبال البربر على هذا الدين زرافاتٍ ووحداناً ، ونبذهم ما عداه ، ما لا يقدرُ العدو الألدُّ والخصمُ الأعنَد ان يُكابر فيه او يتعامى عنه ، وذكر الخلفاء الذين في أيامهم ازداد انتشار الاسلام بين البربر مثل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، الذي أرسل اليهم طائفةً من الفقهاء يعلمونهم القرآن وأصول الدين . ولا عجب وهو الخليفة العادل الوَرِع المقرون اسمُه باسم عمر بن الخطاب رضي الله عن الاثنين ، حتى قيل في عدلهما عَدلُ العُمَرين ، وسارت الأمثال في ورَع الثاني كما سارت في ورَع الأول ، وروى المؤرخون أنه لما كثر اسلام القِبْط في مصر وارتفعت الجزية عمن أسلم منهم ، شكا عاملُ مصر الى عمر بن عبد العزيز نُقصان الجباية عما كانت عليه ، وذلك بسبب فشُوّ الاسلام في القبط ، فأجابه بتلك الكلمة الشهيرة... ويحك إنّ محمداً لم يجيء جابياً ، وإنما جاء هادياً . اذن كان جديراً بهذا الخليفة الورع أن يهتمّ بالاستقصاء في اسلام البربر ، والإمعان في تأديبهم بآداب القرآن حتى غرَس فيهم هذه النَّجابة المعروفة ، وأوقدَ في قلوبهم هذه الحميَّةَ الاسلامية التي لم تفارقهم من ذلك اليوم . وذكر مآثر موسى بن نُصَير رحمه الله في هذا الباب حتى لم يمض الا قليل فظهر الطابعُ العربي على البربر ، ونبغَ فيهم العلماء والخطباء بالعربية الفصحى ، وحسبُك شاهداً طارق بن زياد الذي خطب قبل الموقِعة التي هُزِمَ فيها لُذَريق ملك الأندلس، تلك الخطبة الطنَّانة التي لو حاول مثلها قُسُّ بن ساعدة ، أو سَحْبان وائل ، لم يأت بأفصح ولا بأبلغ منها ، ولقد كنتُ أُفكر مليّاً في أمر هذه الخطبة وأقول في نفسي .. هنا لغزٌ من ألغاز التاريخ لا ينحلُّ معناه بالسهولة فقد اتفقت الروايات على كون طارق بن زياد بربريّاً قحّاً ، وكذلك اتفقت الروايات أيضاً على كونه هو لا غيره صاحب الخطبة الرنانة المعدودة من انموذجاتِ الخطب العربية فكيف يمكن التلفيق بين هذين الأمرين المتناقضين،وأنّى لطارقٍ البربريّ مثلُ هذه العربية، وكنتُ أُفكر في أنّ طارقاً قد يكون أحسن تعلم العربية كما أحسن ذلك كثيرٌ من أبناء جيله ، وكما تعلّمت العربية رجالُ فارس حتى بُزوا في العربية أقرانهم من أنفس العرب ، ولكني لم اكن مستريح البال من جهة إتقان طارق للعربي الفصيح وبلوغه فيه هذه الدرجة العليا، وكان يحزّ في صدري أن تلك الخطبة كانت بلاغتُها في المعنى، وانما وضعها رواة العرب في هذا القالب الفصيح الذي سحر الألباب ، وما زلتُ

متردداً في هذا حتى جاءني ثَلَجُ اليقين على يد الأستاذ عبدالله كنون الذي جزم بأن هذه الخطبة النادرة انما كانت من جملة ثمرات انطباع البربر بالطابع العربي البحت[١] .

ثم أشار الأستاذ الى مثار الخلاف لأوّل الفتح بين العرب والبربر ، فلم تأخذه العصبيّة للعرب الذين هو منهم ، بل من أشرف بيوتاتهم ، سبيل المؤرخ الصادق الذي لا يحابي في الحق ، بل سبيل المسلم العامل بمقتضى شريعته ، الحافظ قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » الرّاوي حديث رسوله صلى الله عليه وسلم وهو : « ليس مِنّا من دَعا الى عصَبيّة . » فذكر أن مثار النزاع بين الأمتين كان استبداد العرب بوجوه المنافع ، واستئثارهم بمناصب الدولة من أيام الامام ادريس رضي الله عنه ، فكان هذا الأمر سبباً للتنافس بين الفريقين في المغرب ، وأنا أقول ان هذا الأمر نفسه قد كان سبباً لتنافسهما في الأندلس منذُ اوائل الفتح ، حتى إن فريقاً من البربر بلغ منهم السُّخط أن تركوا الجهاد في الطّرف الشمالي من بلاد الجلالقة حيث كان منهم العدد الأغلبُ من المجاهدين ، فأصبحت تلك الثغور عورة ، ورجع الأسبان فاستولوا عليها ، وكان بذلك مبدأ المقاومة الاسبانية ونموُّ شوكتها ، ولم تزل مع الزمن تنمو

---

١ – يستشكل بعض الباحثين صدور خطبة طارق بن زياد منه وهو بربري قُحّ ، يُستَبعد أن تكون له هذه العارضة القوية في اللغة العربية ، حتى يأتي بتلك الخطبة البليغة . وهو استشكال في غير محله ، (أولا) لأن طارق بن زياد ان كان أصله بربرياً فقد نشأ في حجر العروبة والاسلام ، بالمشرق ولم يكن هو الذي أسلم أولاً بل والده ، بدليل اسمه زياد فانه ليس من أسماء البربر ، ولا شك أنه كان من مُسلمَة الفتح المغربي الأول ، وأنه انتقل الى المشرق حيث تولاه موسى بن نُصير ونشأ ولده في هذا الوسط العربي الذي كوّنه وثقّفه . (ثانياً) لأن نبوغ غير العرب في اللغة العربية منذ اعتناقهم الاسلام أمر غير بدْع حتى يستغرب من طارق ، وهو قد نشأ في بيت اسلامي عربي . فعندنا سلمان الفارسي الذي قضى شطر حياته في بلاد عجمية فلما أسلم بعد ذلك تفتّق لسانه بالعربية الى أن قال فيها الشعر ، وبيته المضروب به المثل في الاعتزاز بالاسلام واعتباره هو نسبه الذي يفخر به ، اذ افتخروا بقيس أو بتميم ، لا يخفى على أحد.

ونمثل ببربري آخر ، غير طارق وهو عِكرمة مولى ابن عباس الذي قال فيه الشعبي : ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة ؛ ومقامه في العلم والرواية لا يُجهَل ؛ (ثالثاً) لأنه ليس في الخطبة من صناعة البيان ما يمنع نسبتها لطارق ، وبلاغتها في نظرنا انما ترتكز أولا وبالذات على معانيها ، والمعاني ليست وقفاً على عربي ولا عجمي . نعم يمكن أن يكون.وقع في هذه الخطبة بعض تصرف من الرواة بزيادة أو نقص ، ونحن قد صححنا فيها بالفعل احدى العبارات التي لم تكن واضحة الدلالة على معناها ولكن هذا لا ينفي أصل الخطبة ولا يصح أن يكون حجة للتشكك في نصها الكامل. هذا رأينا ولكل وجهة ، والأمير شكيب رحمه الله لشدة المودة التي كان يخصنا بها جعلنا حجة في صحة نسبة الخطبة لطارق ولسنا هناك .

وتزداد حتى آلت الى ما آلت اليه ، مما لا حاجة الى ذكره ، ولو كان قومُنا العرب عملوا يومئذ بقاعدة المساواة الاسلامية ولم يحابوا أنفسهم على اخوانهم الجــــدد ، ولم يجعلوا في الاسلام عالياً ونازلاً لما كان وقع ذلك الخرق الذي انتهى في الاندلس بذهاب المُلْك ووقوع الهُلْك ، ونجمت عنــــه في افريقيا نفسهـــا أضرارٌ جسيمة لا شك فيها .

وقد ذكر صاحب النبوغ المغربي هذه الحقائق في عرض كلامه على تاريخ الحركة الفكرية في ذلك القطر العظيم ، وذلك لما تقدّم لنــــا من اتصال الحركة الفكرية بالحركة السياسية والحركة الاجتماعية الى الحد الذي لا يمكن معه ذكر احداهما من دون ذكر الاخرى ، ونبّه الأفكار الى نكتةٍ هي من الأهمية بمكان ، وهي السؤالُ لماذا لم يكن في المغرب الاندماج تاماً كما وقع في الشام والعراق والاندلس حيث قــد القت العروبة بجرانها وعمت السَّهل والوعر ، ولم يبقَ ثمّة الا اقطار عربية لا تفترق عن جزيرة العرب في شيء ؟ فاورد على الفرق الواقع أسباباً معقولة سنخوض فيهــا بفصل تال .

•

أول تقريظ

أول تقريظ

كان أول تقريظ للنبوغ المغربي هو ما كتبه صديقنا العلامة الأديب السيد الحاج محمد بن اليمني الناصري حين اطلع عليه وهو يطبع بتطوان . فنحن اعتزازاً بصداقة هذا الأخ الكريم واعتداداً برأيه الجميل في الكتاب نسجل تقريظه هنا في المقدمة وفاء وذكرى . ونصه :

كل من درس تاريخ الادب العربي في المغرب الاقصى على وجه العمَوم فانه لا بد ان يخرج بنتيجة طيبة تقضي بان منْبِتَ المغاربة منبتٌ طيِّب يخرج نباته باذن ربه بل يشهد لأهله الأباة الأحرار بالنبوغ الفطري ، والتفوق الفكري ، والذكاء النادر ، والذهن الحاضر .

ومن كابر في ذلك فليستعرض امامه ما تدفقت به براعةُ صديقنا الاستاذ الاكبر ، الذي أعظمَ التاريخ عملَه وأكبر ، المرشد المهذب ، والناصح المشذب ، ذي الاعمال الجليلة والخلق السني ، ابي محمد سيدي عبدالله الكنوني الحسني ، لا زال يرْتع في بُحبُوحة العيش الهني ، في هذه الصفحات البيض التي بيّض بها وجهَ وطنه ، واستخدم في استخراج دفائنها فائق مواهبه وفطنه ، فسدّ بها في الادب العربي اكبر ثَلْمَه ، وسجّل بها في سجل الخلود نبله وعلمه ، بيّضَ الله وجهه يوم تبيضُّ وجوه وأتاه في نفسه وشعبه ما يؤمله ويرجوه ، على اكمل الوجوه .

ايها الصديق العزيز :

لقد فُقتَ بهذا العمل الجليل شيوخك واقرانك حتى برّزْتَ في الميدان ، على الشيوخ والكهول والشبان ، فكنت لهم في هذا البحر الخضم اعظم ربّان ، اذ مثّلتَ النهضة المغربية فكرياً وأدبياً وسياسياً في الإبّان ، فاستحققتَ ان يُرفع ذكرك ، ويحلّق بأفكارنا فِكرُك ، فنقول :

يَا بَنِي ٱلضَّاد تَحَلَّوْا بالنبـوغ المغـربيّ

فَهْوَ واللهِ مِثَـالٌ للشُّفُوف العَـربيّ

مَثَّلْته صَفَحَـاتٌ من مُحِيـطٍ أدَبِيّ

يتجـلَّى فيـه ذَوْقٌ للفتى الحُرّ الأَبِيّ

مُوقِظِ ٱلشَّعْب بشِعْرٍ مُشْعِـرٍ كلَّ غَبيّ

وبنَـثْر كنَثِيرٍ من صَحَاح الجوْهرِيّ

بَذَّ أعـلامَ علومٍ فضلُوا كلَّ سَرِيّ

إذْ أتى بالعَمـل الفـذّ الجليـل العبقَرِيّ

وتحرَّى صَوْبَ صِدْقٍ فيـه بالحُرّ حَرِيّ

فلْيَعِشْ حُرّاً طلِيقاً في سمَا الفِكْر السَّنِيّ

رَافِلاً في خَيْر عَيْشٍ كامِلِ القَصْدِ هَنِيّ

وكتبه عن عجل صبيحة ٢١ صفر الخير عام ١٣٥٧ هـ وهو على جنـاح السفر عبد ربه تعالى محمد بن اليمني الناصري الرباطي عفا الله عنه .

●

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

فاتحة الكتاب

هذا كتاب جمعنا فيه بين العلم والادب والتاريخ والسياسة ورمينا بذلك الى تصوير الحياة الفكرية لوطننا المغرب وتطورها في العصور المختلفة من لدن قدوم الفاتح الاول الى قريب من وقتنا هذا ؛ فالحركة العلمية وما طرأ عليها من نشاط وفتور ، في جميع العصور ، مبسوطة فيه أحسن البسط. والسياسة واتجاهاتها التي كانت تتخذها بحسب طبيعة كل دولة مفصلة فيه تفصيلا مستوفى . وهكذا التاريخ بقسميه السياسي والأدبي ؛ ومنه التراجم . وقد احتوى جملة وافرة من تراجم الملوك والوزراء والقواد والفاتحين والعلماء والأدباء والفقهاء والمتصوفة وغيرهم .

والأدب لا نقول الا أنه الروح المتغلغلة فيه والحلة التي يبدو فيها للناس بل نقول اننا ما تعرضنا لغيره من الابحاث الاخرى الا لنربط حلقات البحث الموصل الى اكتناه حقيقة ماضينا الادبي وتجليته على منصة العروس ليشاهده من كان يجادل فيه ومن ثم كان اسم هذا الكتاب (النبوغ المغربي في الادب العربي) .

وقد كثر عتب الادباء في المغرب على اخوانهم في المشرق لتجاهلهم إياهم ، وانكار كثير منهم لكثير من مزاياهم ، ولكن أعظم اللوم في هذا مردود على اولئك الذين ضيعوا أنفسهم وأهملوا ماضيهم وحاضرهم حتى اوقعوا الغير في الجهل بهم والتقول عليهم ، وهو معذور وحسبه انه لم يقصر تقصيرهم بل سعى فأخفق ولا عيب على من بلغ جهده . ونحن نعتقد اننا بتقديم هذا الاثر الضئيل الى الدوائر العلمية سنزيل كثيراً من التوهم والتظنن في تاريخ المغرب الادبي وسنرفع حجاب الخفاء عن جانب مهم من الحياة الفكرية لاهل هذا القطر. وسوف ينقضي تجني اخواننا من بحاث الشرق

على آثارنا وتحامُلِهم على آدابنا لان ذلك لم يكن منهم عن عمْد وسوء قصد وانما هو ارتياء واجتهاد .

* * *

أما عن ترتيب الكتاب فاننا جعلناه على جزأين وخصصنا الجزء الاول للبحث والاستنتاج والثاني للآثار الادبية . ثم الجزءُ الأول خمسة عصور : عصر الفتوح، ونعني بها الفتوح الاولى وفتح مولاي ادريس. وعصر الموحدين وفيه الكلام على المُرابطين . وعصر المرينيين وفيه الكلام على الوطاسيين . وعصر السّعديين . وعصر العَلويين . والجزء الثاني قسمان : قسم المنثور وقسم المنظوم . وانما اخّرنا الآثار الادبية الى الجزء الثاني ولم نذكر ادبيات كل عصر معَه رغبـة في عدم توقف المطالع وتلهيه عن مواصلة البحث وتكوين فكرة عامـة عن جميع العصور مع ما في ضم تلك الآثار بعضها الى بعـض من تأليف مجموعة ادبية نفيسة تكون وحدها دليلاً ناطقاً على ما للوطن العزيز من ماض ادبي حافل . هذا على كثرة ما اغفلناه منها (لأن قُرَيْشاً قصُرَتْ بهم النفقة) ولولا ذلك لخرَجتْ هذه المجموعة مُضاعفة عمّا هي عليه .

وفضيلةُ هـذا الكتاب في أنه ليس لقطر من أقطار العروبة اليوم نظيره ، اذ أن جميع كتب الادب وتاريخه عامةً تنتظم البلاد العربية جمعاء — ما عدا المغرب بالطبع . وعملٌ مثلُ هذا لا يخفى على العارف ما يقتضيه من جهود جبّارة ومشاقّ عظمى واذا تذكّرَ ـ مع ذلك ـ ان مصادرَ هذا البحث الجليل،هي أقلُّ من القليل، ومع قلّتها فان كثيراً منها محفوظ في الخزائن الخاصة التي لاطمع في الوصول اليها بمجان او مال ، فانه يكون أسبق منا الى طلب المخارج والتماس المعاذر فيما عسى أن يكون وقع لنا من التقصير والزّلل والخطأ والوهم ولا سيما مع السُرْعة في اخراجه للناس لشدة الحاجة اليه وكثرة الطلب عليه وكان يلزمُ ان يبقى سنين طويـلة تحت التهذيب والتنقيح .

وهناك نقطة سوف لا يُماري أحدٌ من قراء هذا الكتاب في أنه امتاز بهـا عن كثير مما تُخرجُه مطابعُنا في هذه الايام وهي أنه ليس فيه حرف واحد كُتِبَ

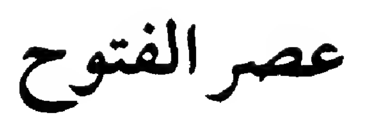
انتصاراً للنفس او تعريضاً باحد تملُّقاً لشخص أيّاً كان ، ولست أبالي بعد هـــذه ما يوجَد فيه من عيب او يوصَف به من نقصان .

* * *

ولا اضع القلم من يدي قبل ان اتوجه بكلمة شكر وثناء الى الاخ العالم المؤرخ الواعية السيد عبد السلام ابن سودة الذي أمدَّني بكثير من الفوائد والمعـــلومات ، وسوَّغني من الخزانة السّوديّة القيّمة كلّ ما لم يكن في اختها الكنونية من الاصول والمستندات . وإني احمد الله على أن لم يجعل عليّ لأحد — غيره — مِنّةً في هذا الامر ، وأغناني عن « مَدَرَةِ » الخزائن الذين هم مُصيبة العلم في هذا القطر ، حتى المكتبة العامة بالرباط على مساس الحاجة الى كثير مما فيها لم يقدَّرْ لي أن ارجع اليها في شيء للحجز بيني وبين السفر في غالب المدة التي كنت أشتغل فيها بهذا الكتاب .

ولا أبخسُ بقية الخلصاء ، حظوظهم من الشكر والثناء ، كالاديب السيد محمد العربي الزكاري الذي نقل الكتاب بخطه الجميل من مبيَّضته والاستاذ الكبير الحاج محمد بنونة الذي اعتنى بتصحيح جلّه ، على كثرة شغله وكتب اسمه بالقلم الكوفي الجميل ، والعلامة السيد محمد داود الذي صحح بعض الملازم ايضا ولم يزل مهتما بأمره منذ الايام التي كان يصدرُ فيها السلام حتى لقد همَّ بطبعه على نفقته وتقديمـــه هدية لمشتركي مجلته لو لم يضطرَّ الى توقيفها بعد . والشريفين المرحوم السيد عبـــد السلام القصري والسيد محي الدين الريسوني والسيد محمد العرفاوي والسيد عبدالله بنـــاني والسيد عبد السلام الطنجي والسيد محمد العربي ابن جلون، كلٌّ واحد على ما بذل من جُهْدٍ او مال في سبيل اخراج هذا الكتاب والحرص على اتمام طبعه منـــذ اكثر من ثلاث سنين حين قُدِّمَ إلى المطبعة — فالله تعالى يجازيهم جميعا عن العلم والأدب خيرا.

واني لأسجّل لهم هذا الذكر الحسن هنا قياماً بالواجب الذي يحتّمه الاخلاص والمروءة والدين، فما شكر اللهَ من لم يشكُر الناس . نسأله تعالى أن يلهمنا رشدنا ويقينا شرَّ أنفسنا وينفعنا بما علّمنا ويزيدنا عِلماً وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .


عصر الفتوح

الفاتحون الحقيقيّون

لم يتمَّ فتح المغرب كلّه الا في زمن يزيد بن معاوية سنة ٦٢ ه ، على يد ُعقبة بن نافع ، ذلك البطل العظيم الذي غامر بنفسه ، وأقحمها المخاطر في سبيل نشر الدعوة الاسلامية وبثّها بهذه الأصقاع . ففي الحقيقة إن هذا الفتح الأول لبلاد المغرب ، وما كان سابقاً عنه ، إنما هو مقدمة وتمهيدٌ له .

وأول ما ُفتحَ من البلاد طنجة ، ثم وَليلي[1] ، وهما اذ ذاك حاضرتا المغرب ، ثم استرسلت الفتوح بعدُ في سائر القبائل المغربية ، التي كانت تنقطع الاطماع دونهـــا لتحصّنها ومناعتها وشدة بأسها ، والتي طالما حاولت إيقاف جيش الفتح الاسلامي عند حدّه ؛ فقاتلها ُعقبةُ قتالاً ذريعاً واستنزلها على ُحكمِه . ثم تقدم إلى السّوس ؛ ففتح تارودانت عاصمته ، ومضى لا يلوي على شيء ، حتى وقف بساحـــل المحيط الأطلسي ، حيث رفع يده الى السماء وقال : « اللّهُمَّ اشهَد أني بذلت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيتُ في البلاد أُقاتل من كفَر بك ، حتى لا ُيعبد احدٌ من دونك . » فانتشر الاسلام بالمغرب من أقصاه الى أقصاه ، وبدأ ُيصارع الوثنية المستحكمة فيه . ولولا قتل ُعقبة بتَهوذة من مدن الزّاب ، بعد ذلك بسنتين لما بقيَ لهـا معه ظهورٌ ألبتّة في المـــدة القريبة . ولكنَّ وقوع ذلك الحادث المؤلم في مثل تلك الظروف الحرجة ، كان ضربة لازب على عدم نجاح الآمال المتعلّقة باستقرار الحالة ، بعد الفتح ، واستتباب الأمن والراحة المتيسّر في ظلها كلُّ عسير ، والممكن معهما تذليلُ جميع الصعوبات القائمة بأعمال الفاتح الكبير .

اضطرب الحبل بعد موت ُعقبة بن نافع ، وانتقضَت الامور بافريقية الشمالية ، وعمّت الفوضى وغلبت الفِتن . وجرت بعد ذلك حوادثُ كثيرة لا شأن لنا بها ؛

---

١ – هي المدينة الرومانية الأثرية المسماة « فلو بيليس » *Volubilis* الواقعـــة بقربة من زرهون ، وكانت عند قدوم الامام ادريس ما تزال عامرة .

فكان من النتائج المتحتّمة الوقوع أن توقفت دواليبُ الحركة الاسلامية ، وضعُفت العوامل والأسباب الباعثة ، والمُشوّقة الى الدخول في الإسلام ، حتى ارتدّ عنه مَن كان أسلم حديثاً ، ولم تُخالِطْ بشاشتُه قلبَه .

وفي زمن الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ هـ ، قَدِم موسى بنُ نُصَيْر والياً على افريقية . فقبَض على زمام السلطة بيدٍ من حديد ، وضبَط الشؤون واستصلح الأحوال ، فأصبحت البلاد تمرحُ في بَحبوحة الأمن والنظام ، وتتمتع بسكينة وطمأنينة لا عهد لها بهما من قبل . فكان هذا هو الفتح الثاني الحقيقي ، وقد قاتل المرتدّين عن الاسلام ، وبذَلَ قصْرَه في حملهم على الرجوع إليه ، والتمسُّك بحبله المتين . وكان يشتري العبْدَ يظن انه يقبل الاسلام من بعد أن يُجرِّب فِطنته ويُمَحِّص عقله ، ثم يُمضيَ عِتْقَه ويتولاه .

وهكذا شيَّد صرْح الاسلام في « افريقية[1] » والمغرب ، وأقام دعائمه على السياسة الحكيمة والسِّيرة العادلة ، فلم يبق يُخشى عليه الانتقاضُ بعدَ هذه الجهود العظيمة ، والمتاعب الجسيمة .

وفعلاً فقد استمرَّ الحالُ على ذلك سنينَ عديدة ، انصرف العزم فيها الى تعمير الخراب وتجديد المندثر . وفي اثنائها فُتحت الأندلس بجيوشِ المغاربة المسلمين الصّادقي الإيمان . وكان يُظنُّ أنه لما يَرْجِعُ السيف الى غِمده ، يَنصرف العزم الى ترقية مستوى البلاد العلمي والأدبي ، بعد رُقيِّها عمراناً واقتصاداً وسياسة . ولكنَّ خطراً جديداً أصبح يهدد هذا القطر المغربي القليل الحظ . فلم يُتح له ان يجاري الاقطار الإسلامية الاخرى في النهضة والتجدُّد ، والأخذ باسباب الحضارة والتمدن ، بعد أن ظنَّ أنه اجتاز دورَ الإنشاء والتكوين . ذلك هو خطرُ الخوارج[2] النازحين إليه من الشرق ، المضطهدين من حكوماته ، حيث إنهم لم يجدوا مجالاً فسيحاً لترويج بِدْعتهم وبثِّ دعايتهم في أمنٍ وأمان مثلَ المغرب . وقد قاسى منهم الأمرَّين ، وذاقَ

١ - يُطلق مؤرخونا إفريقية على المغرب الأدنى والأوسط ونحن نتبعهم في ذلك احياناً .

٢ - دخل الدعاة الخوارج الى المغرب من العراق في أوائل المائة الثانية ، فبثوا دعوتهم بين المغاربة وتلقاها عنهم رؤوس القبائل ، ففشت في دهمائهم . وكانت خوارج المغرب إباضيّة وصُفريّة ، وهما فرقتان معروفتان من فِرَق الخوارج .

بسببهم من المحَن والأهوال صنوفاً وألواناً ، حيثُ لعبوا دوراً خطيراً في حوادثه السياسيّة وأثاروا فِتَناً وحروباً ، كان كلٌّ من العرب والمغاربة في غنى عنها . غير أنّ هـــذه الحال لم تدُم ؛ فقد شاء الله أن تنجليَ ، وينجليَ معها كلُّ ضير وضرر على مستقبل البلاد .

فبينا الإيمان متذبذب ، والشعور الديني آخذٌ بالضعف لبُعد العهد بالهداة المرشدين السّاري اليهم نور النبوة ، أمثال عُقبة ، وموسى . وفيما الأقوال والخلافات المذهبيّة رائجةٌ ، ونزغات الملحدين ووساوس اهل الضّلالات متسرّبة الى نفوس هذا الشعب الفطريّ السّاذج ، إذ أتى ادريسُ بن عبد الله ، فارّاً بنفسه من الرشيد الذي اضطهد شيعته الخارجين عليه ، وشتّتهم شذرَ مذرَ . فكان دخولُ هذا الفرع الزكي الى المغرب فاتحة عصرٍ جديد ، طالما تاقت له النفوس واشرأبّت اليه الأعناق .

وما وَطِىءَ ثرى البلاد المغربية ، حتى وفـــدت عليه القبائل معلنةً بمبايعته ، داخلةً في طاعته . فبدأ أعماله بتأسيس الدولة الادريسية سنة ١٧٢ ه بمعونه إسحَق ابن عبد الحميد الأورَبي والي مدينة وليلى ، وسعي مولاه راشد . وهي أول دولة عربية مستقلّة في المغرب . وبعد أن توطّد له الملك ، جهّز الجيوش واستنفر المقاتلة، وخرج غازياً يضربُ في بلاد المغرب طولاً وعرضاً ، حتى دوّخه جميعه ، وقضى على حركات الخوارج وسكّن فِتَنَهم المندلعة اللّهيب ؛ فلم تقم لهم بعدها قائمة . ثم تقدّم الى تلمِسان ففتحها سنة ١٧٣ ه ودخلها ، فنظر في أحوالها . وبنى بها مسجدا . ثم عاد الى وَلِيلى ، وقـــد استقام له امر المغرب ، وتمّ له اقتطاعه من جسم الخلافة العباسية ، وإزالة كل سلطة دينية او سياسية ، كانت لها عليه . وكان هذا هو ثالث الفتوح الاسلامية المهمة .

كيف انتشر الإسلام في المغرب

هكذا كان تطور الحركة الاسلامية وسيرها بالمغرب مدّة قرن كامل . وهكذا كان حرص ولاةِ العرب شديداً على إشادَة معالم الاسلام بهذا القطر ، وتثبيت أركانه وإقامة دعائمه . حتى ارتكز فيه ارتكازاً قوياً ، وتمكن من نفوس سكّانه أيما تمكن.

فاصبح وكأنما آوَى الى وطن وسكن هما أعرفُ به منه بهما . فكيف تمّ ذلك ؟ وما هي العوامل والاسباب التي سنَّت الوصول الى هذه الغاية ؟

إن المغاربة الذين كانوا قد اعتادوا حياة الفوضى ، وأَلِفُوا التمرد والعصيان ، بعد ان تمكن منهم العرب وكسَرُوا شوكتهم ، أصبحوا مقتنعين بعدم إجداء المقاومة عنهم وذهاب كل مجهوداتهم في الدفاع سدًى ، لما رأوه من شدّة مراس العرب للحروب وطول مغالبتهم لاعدائهم . فلم يسعهمْ ، والحالة هذه ، الا الإذعان لسطوتهم وتسليم مقاليد الامور اليهم . فساسوهم بالحكمة والانصاف ، وأخذوهم بالعدل والمساواة ، حتى أوَوْا الى ظل الطاعة ، واخلدوا الى السكينة والهدوء .

هنالك تذوّقوا طعم السّلم لأول مرة ، وانصرفوا الى ادارة شؤونهم وتدبير مصالحهم . وبدأُوا يشعرون بهناءة الحياة ، ويجدون لذاذتها .

ثم نظروا فيما تخلّف بايديهم من عادات الوثنية ، وبقايا الديانات الأخرى المحرّفة . فلم يجدوا في ذلك شفاء غلّتهم ونقع أُوامهم ؛ فأخذوا يتطاولون بأعناقهم الى الدين الجديد الذي جاء به الفاتحون الأقوياء ورأوه موفيًا بأغراض الحياة ومآربها ، ضامناً لمصالح البشر في المعاش والمعاد . فكان منه إليه خير داعية ومرشد ، أنارَ أمامهم السبل ، وأبان لهم معالم الرُشد . وسرعان ما استمالهم الى جانبه ، وادخلهم في حظيرته . وكان اكثرُ ظاهراته تأثيرا عليهم ثلاثا .

ا — يُسْرُ شريعته ، وسماحته غير المحدودة . فكلُّ تعاليمه هيِّن سَهْل ، يمكن الإحاطة به والقيام عليه في غير تعب ولا عناء . والإسلام كما لا يخفى ، دين الفطرة الخالي من التكاليف الشاقة التي تجعله عبئاً ثقيلاً على كواهل معتنقيه . اذ ليس فيه الا ما ينطبق على النظر والمصلحة العامة .

ب — حسنُ معاملته لكل من يدينُ به ويحتمي بحماه ، فما هو إلاّ أن يتعلّق بسبب من أسبابه ، حتى يُصبح عضواً عاملاً في جماعته الكبيرة ، لا يميزه عن بقية اعضائها مميّز ، ولا يفصل بينه وبينهم فاصل . واعتبر ذلك في ابن الكاهنة المغربية و

المشهورة في التاريخ بطول مقاومتها للاسلام، ومحاربتها للآتين به، حتى ماتت[1]، فانه ما لبث ان وَلِيَ على قومه بعد إسلامه، ولاّه حسّان بنُ النّعمانِ عاملُ عبد الملك بن مَرْوان على افريقية، الذي قاسى من أُمّه الأمرّين.

ج – رِفقُ الولاة المسلمين وعدلهم، وتشرُّبهم بروح الديمقراطية الحق التي جاء بها الاسلام، مع ما كانوا عليه من الأخلاق الفاضلة والسجايا الكاملة. حتى لقد أكبر هؤلاء المغاربة ديناً أنجب مثل أولئك الرجال الأفذاذ، وكوّن مثل تلك الشخصيّات الكبيرة التي يندُر وجودُها في التاريخ.

على أن المغاربة لم يُعادوا الإسلام في أول الامر. ولم يُقاوموه تلك المقاومة العنيفة، إلاّ لجهلهم بحقيقته، وعدم إحاطة علمهم بمحاسنه ومزاياه. وقد فطن لذلك الولاة العرب بعد حين؛ فرتّبوا لهم الفقهاء والقرّاء يُلقّنونهم العربية ويُبصّرونهم بالدين. فلما اكتنهوا كنْهَه، وعرفوا حقيقته، وتمرّسوا بتعاليمه السامية وآدابه العالية، أصبحوا من أكبر دُعاته وأحمى أنصاره. فجاهدوا في سبيله الجهاد الأكبر، وبذلوا النفس والنفيس لإبلاغ دعوته الى أقاصي البلاد. فهم الذين فتحوا الأندلس وسهّلوا طريقها للعرب، وما زالوا بعد ذلك حاميتها وذادتها الى آخر العهد بها. وهم الذين اقتحموا مجاهل إفريقية، وحملوا الهداية الإسلامية والثقافة العربية إلى السّوادين كما هو معلوم.

استِعرابُ المغارِبة

نتيجةٌ طبيعيةٌ أن يستعرب المغاربة بعد إسلامهم، ويتعلموا لغة التنزيل الذي هو دُستور الإسلام وأُقْنُومُه، والمصدرُ الاول لجميع أحكامه وتعاليمه. فانما بالعربية تُفهم اصوله وفروعه، وتُقرَّرُ شرائعه وأحكامه. على انه اذا كان الاسلام، دينُ

[1] – هي الكاهنة داهية التي تزعمت قومها جراوة، وقاتلت المسلمين في جبال أوراس فهزمتهم، وكان عليهم حسان بن النعمان ولم يلبث أن جاءه المدد من الشرق؛ فكرّ عليها وأوقع بها وبجموعها سنة ٧٤ هـ.

الفطرة والخُلُق القويم ، مستعدّاً بذاته للانتشار ؛ فكذلك هذه الفُصحى ، لغة البيان والشعر ، تمتلك برقّتها القلوب ، وتستلب العقول . وأحْرِ بالشعب الذي دخلاه معاً ، فرحّب بهما واحسن اقتبالهما ، أنْ يشهد التطور العتيد ، والفتح الجديد في مِزاجه وعقليّته وحياته العامة .

ولقد سارت العربيةُ في المغرب أول الامر بسير الإسلام، مترسمةً خطاهُ متتبّعةً آثاره. حتى إنها لو كانت بقيت من ذلك الوقت تنمو وتُثمِر ، لكانت الآداب العربية قد أتت أُكْلَها من ذلك الوقت أيضاً ؛ ولكنّ عوائق كثيرة حالت دون سيرها المطّرد ، وتقدُّمِها المستمر . فتأخرت بذلك النهضة الادبية في المغرب ، وتقدمت في الأندلس ، التي فُتحت بعده ، حيث لم تجد في طريقها شيئاً من تلك العراقيل .

وأول ما بدأ نشاط هذه الحركة ، في أيام حسّان بن النعمان الغسّانيّ ، أحد ولاة إفريقية من قبل عبد الملك بن مروان . فانه كان من المهدين السبيل لتقدم الثقافة العربية واستقرار الحضارة الاسلامية بالمغرب. فدوّن الدواوين، ورسّم اللغة العربية، أي جعلها لغة الدولة الرسمية ، فأوجب بذلك تعلُّمَها على السكان ، المسلمين وغير المسلمين . ثم بعد ذلك ، أنزل عمر بن عبد العزيز بافريقية والمغرب عشرةً من الفقهاء يعلمون الناس القرآن ويفقّهونهم في الدين . كذلك فعل موسى بن نُصير ؛ فرتّب عدداً من الفقهاء والقراء للغرض نفسه . وهذه كلها محاولات كان لها نتيجتها الطيّبة ، وأثرها المحمود في سرعة استعراب المغاربة ، وطبعهم بالطابع العربي الصميم. كما شوهد ذلك يوم فتح الأندلس ، حيث خطب طارقُ بن زياد وهو مولىً مغربيٌّ لموسى بن نصير ، خطبته المشهورة في جيشه الذي أناف على اثني عشر الف جندي ، فيهم ثلاثمائة فقط على اكثر تقدير من العرب ، ففَهِمها الجيش كله ، وأثرت فيه تأثيرها البليغ المشهود في اندفاعه الى حومة الوغى ، وتهافته على الموت بايمان وحماس . فكيف يفسّر هذا بغير سرعة انتشار العربية ، كالسرعة التي انتشر بها الاسلام ؟

أما والأمر هكذا ، فما الذي قضى عليها بعد ذلك ، وأوقف سيرها لأمدٍ بعيد جداً ؟ هنا مضلّة الأفهام ، ومزلة الأقلام. والذي يظهر لنا أنها تلك الفِتنُ والحروب التي نشِبَتْ بين العرب والمغاربة فيما بعدُ . والتي كان مثارُها التعصّب الأعمى والعنصرية المقيتة . ومما لا شك فيه ، ان بعضَ الحُصون والمعاقل المنيعة التي لم يكن

وصلها الإسلام او وصلها ولم يتمركز فيها ؛ لم يكن للعربية ان تهاجمها أو تتمكن فيها. فالبربرية ، ولو أنها انهزمت أمامها ، لم تجد خيراً من أن تحتفظ بالرمق الباقي منها في ذلك البعض من الحصون والمعاقل . وهناك حقيقة ، في شعف جبال الأطلس ، كان متربعها ومقيلها ، حيث بقيت تتنازع البقاء . فآناً تجد من يأخذ بضبعها من متعصبة المغاربة ومتحمسيهم ، أو ممن لاناقة له ولا جمل في هذا الامر ، وانما همه بذر الشقاق والخلاف بين العنصرين المتمازجين والجنسين المتحدين[1] فتنهض وتستوي ؛ وآناً تبقى مهملة منبوذة ، لا يؤبه لها ولا يحفل بها ، وذلك غالب أمرها . بل فيما عدا عصر الفتوح الذي نحن فيه ، وفيما بعده بقليل ، لم يبق لها بجانب العربية ظهور ولا صولة مطلقاً . وخصوصاً بعد قيام الدول العربية البحت من بني مرين والسعديين والعلويين، كما ستجد تفاصيل ذلك في تضاعيف هذا الكتاب.

الصراع بين العرب والمغاربة

اذا عدنا لذكر الصراع القائم بين العرب والمغاربة ؛ فلسنا نقصد صراعاً دينياً من نوع ما سبق ، فنكون نقضنا حكمنا بان المغاربة لم ينتقضوا على الاسلام أولاً ، إلا لأنهم جهلوه فعادوه ، وإنما نقصد هذا الصراع السياسي الطويل الذي ثارت عوامله بين العنصرين المتنافسين فيما بعد ، بسبب تداول الحكم وتنازع السلطة .

ولعل مثار النزاع أولاً إنما كان لأجل استبداد العرب بوجوه المنافع،واختصاصهم بالمناصب العالية في الدولة ، فبدأت المطالبة بالمساواة في الحقوق . ثم استفحل الداء فبدأ المغاربة يشعرون بالخطر يتهددهم ، وأنهم ان لم يتلافوا الحال ، ربما أفضى الأمر الى محو وجودهم السياسي . فهاجت حميتهم وثارت عصبيتهم ، وهبوا مندفعين كالسيل الجارف يريدون في البدء نيل حقوقهم المهضومة، وتثبيت مركزهم المتضعضع. ثم لما استحلوا الظفر واستمرءوا طعم الظهور ، لم يبقوا قانعين بما حصلوا عليه . فتعلقت آمالهم بالملك والإمارة ، وساروا في سبيلهم متحمسين .

---

١ — هذا ما فعله الفرنسيون حين احتلوا المغرب ، وقد باءت جهودهم ولله الحمد بالفشل .

ونستشهد التاريخ في إثبات هذا الرأي ؛ فنجد أن أول ما وقع هذا الاستبداد في دولة الإمام إدريس ، حيث يتحدث المؤرخون أنه في سنة ١٨٩ هـ وفدت عليه وفود العرب من بلاد إفريقية والأندلس ، في نحـــو خمسمائة فارس من القَيسيَّة والأزْد ومَذحِج وبني يحصُب والصَّدَف وغيرهم . فسُرَّ بوفادتهم وأجزل صِلاتهم وقرَّبهم ، ورفع منازلهم وجعلهم بطانتَه دون المغاربة . فاعتزَّ بهم لانه كان فريداً بين هؤلاء ، ليس معه عرب ، فاستوزَر عُمَير بنَ مُصعَب الأزدي ، واستقضى منهم عامِرَ بن محمد بن سعيد القيسي قيس عَيلان الخ كما في القرطاس . ولكننا نلاحظ انه لم يظهر أثر سيّء لهذه السياسة الاستئثاريّة ، كما يحسُنُ أن تُسمّى ؛ في ذلك الحين على عهد الإمام إدريس . ولعل ذلك يرجع لما كان له ولهم من عظيم المنزلة عندهم ، وصدق المحبة فيه . فلم يكونوا ينظرون إلى أعماله بعين الشك والرّيبة ، كما نظروا إلى أعمـال أولاده من بعده . ولأنَّ الأمر في أوائله قلَّما يُنتبه إليه ، فلا يظهر ما يكون نتيجة له أو أثراً عنه . وكلُّ ما نريد أن نقوله ، هو ان هذا السلوك كان مبدأ الاستبداد على المغاربة ومنشأ الخلاف على العرب ؛ وان لم يظهر أثر ذلك إلاّ بعـــد أن تدهورت سياسة الأدارسة واختلَّت إدارتُهم ، فقويت الهمم وشُدَّت العزائم على مقاومتهم والسعي في مناوأتهم .

فظهر على مسرح التاريخ موسى بنُ أبي العافية فجدّ في أثر الدولة الفتية يُصلي رجالها نيراناً مُستعِرة ، ويشنُّ عليهم كل غارة شعواء ، حتى قوَّض أركانهـا المتينة وهدّ بُنيانها الشامخ وكاد يستأصلهم ، لولا أن أخذت الناس الشفقة عليهم ، فمنعوه منهم ، فأقلع عنهم خِزيانَ حقيرا . وما كاد يستريح ويأخذ في تدبير شؤونه حتى انبرى له بَنو عُبَيد فساقوه بعصاهم . ومن هنا تعلم أن المغاربة لم يكونوا يُريدون الانفراد بالسلطة أول الأمر ، وإنما كانوا مغلوبين على أمرهم ومضروباً على أيديهم ؛ فأرادوا الدفاع عن أنفسهم ونيل حقوقهم المهضومة ؛ وإلاّ فان أبا عبد الله الشّيعي كان يدعوهم الى بَيعَة الفاطميين العلويين . وهل كانوا بالمغرب إلاّ داخلين في دعوة مماثلة ومُبايعين للأدارسة العلويين ؟ فلا يخلو هؤلاء الخارجون معه إمَّا ان يكونوا مغرورين او مُنتَهزين الفرصة للحصول على مطامعهم في ظل الدولة الجديدة على حد قول الشاعر :

إذا لم يكُن للمرء في دولة امرىءٍ نصيبٌ ولا حظٌّ تمنّى زوالهــا

وما ذاك عن بُغْض لها غــيرَ أَنه يرَجِّي سواها فهو يَهْوَى انتقالَها

وكان ظهور الدولة الفاطمية على مسرح السياسة المغربية سبباً لقيام نزاع كبير بينها وبين الأمويين أصحاب الاندلس ، على المغرب . فما كانت تطفأ لظى الحرب بينهم إلاّ وتشعل من جديد . وقد لقي المغرب من جرّاء ذلك عنَتاً شديداً . ثم قامت دولة مَغراوَة وبني يَفرَن فكانت دولةً مغربيةً محضة ، وان لم يرَ المغربُ على عهدها إلا الحروب الطاحنة والفتن الداخلية الماحقة ؛ فكان عهداً مظلماً توقفت فيه جميع الحركات الناشئة من علميَّة وأدبية ، وانقرض العُمران ، وكادت الفوضى تقضي على هذه البلاد ؛ لو لم يتداركها الله بعبد الله بن ياسين مؤسس دولة المرابطين .

الوسط الفكري في هذا العصر

رأينا كيف تأخر فتح المغرب الى ما بعد مُنتصف المائة الأولى للهجرة ، وأنه لم يقرّ قرارُه بعد الفتح الأول ، ولا سكنت ثائرته . بل سرعان ما قتل الفاتح في إحدى جولاته بمدن إفريقية ، وعادت البلاد كلها الى عهد الفوضى والاضطراب ، مما دعا الى تجريد حملة ثانية على هذا الإقليم بقيادة موسى بن نصير ، رأبت منه الصّدع ورتقت الفتق ، وشغلت المغاربة الى حين بالعبور الى الاندلس والقتال في تلك البلاد التي كانت الى الامس القريب تستتبعُهم وتتحكم فيهم .

وفيما بين هذين الفتحين كان كثير من المغاربة لم يفهموا حقيقة الدعوة الاسلامية ولم ينظروا الى العرب الا كما كانوا ينظرون الى الرومان والروم وغيرهم ، ممن وغل عليهم ودوّخَ أقطارهم من قبل قصد الاستغلال والاستئثار . ولقد قالت الكاهنة داهية لقومها : « انما تطلب العرب من المغرب مُدنه وما فيها من الذهب والفضة ، ونحن انما نريد المزارع والمراعي ، فالرأي ان تخرّب هـذه المدن والحصون ونقطع أطماع العرب عنها » . وبالطبع فان من يكون هذا رأيه في القوم لا يقبل ما أتوا به من شرع ودين ، ولا يتأثر بما يحملونه من علم وعرفان .

ونقِلَ عن ابنِ أبي زيد القيرواني أنه قال : ارتدت البربر اثنتي عشرة مرة ،

من طرابلس إلى طنجة ، ولا شك أن هذا الكلام إن أريد به الردّة الحقيقية ، فانما يتنزّل على أقوام من البربر لا على جميعهم ، وإن اريد به الثورة والعصيان وشقّ العصا على الدولة ، فهو صحيح في جملته . على أن الخلفاء والولاة الذين تتابعوا على حكم المغرب لما تنبهوا إلى وجوب تعليم المغاربة وتلقينهم مبادىء الدين الحنيف ، فرتبوا لهم الأئمة والفقهاء يعلمونهم ويرشدونهم ، أمنوا بعد ذلك من انتقاضهم وعرفوا السبيل الى تفهيمهم حقيقة ما جاءوا به . ومن يومئذ لم تعُدْ ثورات المغرب والحروب التي نشبت بعدْ ، إلا تمرُّداً على الولاة الظالمين او فتنةً يُوقِدُها ذوُو الأغراض من الخوارج وأصحاب المطامع السياسيّة ، ويستغلّون فيها المغاربة البُرءاء أسوأ استغلال.

وفي الحقيقة إنَّ جناية الخوارج على المغرب لا تعادلها جناية ، فانها تسببت في انقسامه على نفسه ، وتسْليط بعضِه على بعض ، مما أدّى إلى بقائه زهاء ثلاثة قرون طعْمةً لنيران الحروب ومَيْداناً لتجريب الحظوظ ، وهو في كل ذلك إنما يزداد سوءَ حالة من ناحية انتشار الجهل وعدم الاستفادة ، مما أتى به الفاتحون العرب ، حملةُ الهداية الاسلامية ومنوّرو الشعوب .

وثمّة عاملٌ آخر ، الى جانب انعدام الاستقرار واضطراب الأمن ، كان له اسوءُ الاثر في عدم استفادة المغاربة مبكّراً من علوم العرب وآدابها وبُطء نهضتهم وظهور المثقفين فيهم ؛ ذلك هو أن المغرب لبعده عن مواطن العرب الأصلية او التي توطنوها بعد الفتح الاسلامي ، لم يتخذه العرب مقرّاً لهم ومسكناً ؛ وانما كانوا يحلّون في إفريقية وعاصمتها القيروان ، التي كانوا هم المنشئين لها والممصّرين ، أو يجتازونه الى الاندلس ، حيث يجدون أنفسهم في بلادٍ شبه مستقلة عن قاعدة الخلافة وطائلة السلطان. ولذلك ما لبث الجناحان المغربيان الشرقي والغربي ، أن نهضا وحلّقا ، فتكوّنت في إفريقية الأغلبيّة ، وفي الاندلس الاموية ، حركاتٌ فكرية وأوساطٌ علمية وأدبية راقية ، بخلاف المغرب الذي لم يكن يستقرُّ فيه إلا أفرادٌ قلائل من الولاة العرب ، أو بعضُ الجنود من جفاة الأعراب الذين ليسوا في قَبيل ولا دَبير من شؤون الفكر وحياة العلم والأدب . وهم مع ذلك قليلٌ وقليل جداً ؛ حتى إنّ جيش طارق بن زياد الذي فتح الأندلس لم يكن فيه إلا ثلاثمائة عربي أو ثلاثة عشر على الخلاف في ذلك ، وهو اثنا عشر الفاً ... وقد علِمْتَ أن إدريس الثاني استقبل في سنة ١٨٩ هـ وفود العرب من بلاد إفريقية والأندلس وهم نحو الخمسمائة فارس فقرّبهم واستأنس بهم

لأنه كان فريداً بين المغاربة ليس معه عرب ... وما هو خطر خمسمائة فرد في قطر يعدُّ سكانه بالملايين؟ فلا جرم إذا بقي المغرب على جهله وتأخُّره ولم يسرع إلى التطور والتعرُّب والنقل عن اساتذته الجُدُد كما نقل عنهم أشقّاؤه وجيرانه .

على أننا إن صوَّرنا الحياة الفكرية في هذا العصر بهذه الصورة القاتمة ، فلا نمرُّ بدون ان نشيرَ الى ذلك البصيص من النور الذي كان يومضُ خلالها أحياناً ، منبعثاً من مصدر الإشعاع بفاس ، أعني جامع القرويين ... فمن المعلوم أن هذا المسجد الذي يعدُّ أقدم جامعةٍ علمية في العالم الإسلامي ، قد أُسس في هذا العصر ؛ وبالضبط في سنة ٢٤٥ هـ وكانت التي بَنَته سيدةٌ فاضلة من مهاجرة القيروان ، تُسمَّى أمَّ البنين الفِهريّة .

ولما كانت المساجد في المجتمع الإسلامي تؤدي مهمَّتين : مهمة دينية ، ومهمة ثقافية . إذ تلقى في أروقتها دروسٌ في مختلف العلوم والفنون ، فإنا نعتقد أن جامعَ القَرويين منذ إنشائه كان مركزاً للدراسات الدينية والأدبية ، التي لم تنقطع منه أبداً ، وأنّ تأسيسه كان مبدأ الارتكاز للحياة الفكرية في المغرب ، بالرغم من وجود مساجد أخرى سابقةٍ له في فاس وغيرها . ولا أدلَّ على ذلك من أن كبار علماء المغرب الذين عرفناهم ، إنما نبغوا بعد التاريخ الذي شُيِّد فيه ذلك المسجد العامر .

على أنّ مراكز ثقافية أخرى كانت تقوم في كلٍّ من سبتة وطنجة والبصرة[1] وأصيلا . وهي باستثناء سبتة قد عرض لحركتها فتورٌ أو اضمحلت بالمرة أثناء هذا العصر نفسه ، وإن تخرَّج منها أعلام لهم مكانتهم في تاريخ الحركة الفكرية بالمغرب . إذاً فقد كانت هناك دروس ، وكانت هناك هيئة علمية ، وانْ كنا لا نعرف من خبر هذه الهيئة وأثر تلك الدروس إلاّ الشيء القليل .

ولعل أهمَّ ما نسجّله عن الحياة الفكرّية في هذا العصر ، التي قلنا أن تأسيس

---

١ — مدينة البصرة أُسست في عهد الادارسة بالقرب من مدينة القصر الكبير ، وكانت داخلة في ولاية القاسم بن ادريس لما قسم اخوه محمد المغرب بين اخوته . وازدهر عمرانها ثم خربت على يد ابي الفتوح ابن زيري الصنهاجي في العصر نفسه .

جامع القرويين كان مبدأ الارتكاز لها في المغرب ، هو ظهورُ المذهب المالكي في الفقه ، وسيطرته على المذهب الكوفي الذي كانت له الصَّولة في المغرب ، وبالتالي قضاؤه على المذاهب الأخرى التي كانت منتشرة في جهات مختلفة من هذا القُطر ؛ كالمذهب الخارجي الذي كانت تعتنقه إمارة بني مِدرار في سجلماسة ، والبرغواطي[١] الذي كان باض وفرَّخ في تامَسنا والاعتزالي الذي كان منتشراً هنا وهناك ، كالشيعي الذي يُقال إنَّ قرنه طلع مع نشوء الدولة الادريسيّة . وعلى كل حال فان مذهب مالك لم يتوطَّد أمرُه في هذا العصر كمذهبٍ فقهيٍّ فقط ، ولكن كعقيدة أيضاً فان التلازم بين طريقتيه في الفقه والاعتقاد ، وهي اتّباع السنّة ونبذ الرأي والتأويل ، ممَّا لا يخفى .

وقد كان الفضل في اتجاه المغرب هذا الاتجاه لرجال من أبنائه البرَرَة ، أرادوا إشباع نهمَتهم من العلم ، فتحمَّلوا عن ديارهم ومساقط رؤوسهم ، وضربوا في طول البلاد الاسلاميّة وعَرضها طلباً للمزيد من المعرفة ورغبةً في سعة الرواية ، ثم عادوا إلى وطنهم يتفجَّرون علماً ويلتهبون إخلاصاً .

فأخذ عنهم من لم يستطع الرحلة من مواطنيهم ، وقاموا جميعاً بتأسيس قواعد العلم ومعاهد الدّين في مختلف انحاء البلاد . وهؤلاء أمثالُ أبي هرُون البصْري ، الذي كان أول من أدخل كتاب ابن الموّاز الى الاندلس ، وأحمد بن الفتح المليلي ، ودَرَّاس بن اسمعيل ، وجبرالله بن القاسم الفاسي ، وأبي جيدة بن أحمد ، وأبي محمد الأصيلي ، وابن أبي غافر ، وعيسى بن علاء السّبتيّين ، وعيسى بن سعادة الفاسي الذي تنازعه الفقهاء والمحدثون لما توفي بمصر ، كلهم يدَّعيه ويقولُ أنا أحقُّ بالصلاة عليه ، وابن سمحون الطنجي بالحاء المهملة ، ومحمد بن يحيى الصديني واولاده ، وابن الزُّويزي الذي كان يضرب به المثل في صحة الفُتيا ، يقولون : لا أفعله ولو أفتاك

---

١ – هذه النسبة الى قبيلة برغواطة بالراء . ويقول ابن هشام اللخمي في كتاب لحن العامة وابن دحية في كتاب المطرب نقلا عن كتاب تثقيف اللسان : إنها باللام ، فالنسبة إليها بلغواطي . ولصاحب القرطاس رأي آخر في ذلك ينظر فيه عند الكلام على قتال ابن ياسين للبرغواطيين . ونحن قد اثبتنا هذه الكلمة على ما هو مشهور فيها . وانظر لمعرفة المذهب البرغواطي كتاب القرطاس في الموضع المشار له ، والبيان المعرب في ص ٢٢٦ ج ل .

به ابن الزُّويزي ، والقاضي ابن محسود ، والحسن ابن عليّ الفـــاسي ، وأحمد بن العجوز وولده عبد الرّحيم وأحفاده ، وخلف بن مسعود الرُّعيني المعروف بابن أُمنيّة ، وابن أبي مسلم الصّدفي ، واحمـد بن قاسم السّبْتي ، وسليمان بن أحمد الطنجي الاستاذ في القراءات ، وعثمان بن مالك فقيه فاس وزعيم الفقهاء في وقته . كتبَ عنه تعليقٌ على المدوّنة هو من أقدم ما كتبَ المغاربة عليهـــا ، وأبي بكر بن زوبع السّبتي وابن حمود الطنجي ، له شعر في مناسك الحجّ ، وعـلي الهوّاري الفاسي ، والحسن القرشي من أهل فاس ، له كتابٌ سماه التصنيف ، وحمزة بن يوسف الحرّار منها ، وابن التّبّان كذلك وابن يربوع السبتي ، وابن أبي الرّبيع المكناسي ، وعلي ابن هرون الطنجي ، وأيوب بن محمد فقيهِ المصامدة في وقته ، وأبي القاسم بن محرز ، وسليمان بن عذراء فقيهي المرابطين ، وتونارت بن تيدي من فقهاء المصامدة أيضاً ، ولمتاد بن بلين اللّمتوني ، الذي كان المثل يضرب بفتـــواه في الصحراء ، وعثمان بن سعيد البصري ، وكان يتفقه على طريقة أهـل العراق وسعيد بن خلف الله البصري أيضاً ، له جزءٌ في مسائل من سؤالات أبي هرون البصري وصاحبه عبدالله بن يعيش لأحمد بن مُيسّر الاسكندراني ، وقاسم بن محمد المعروف بابن المأموني ، له كتـاب المناسك وموسى بن ياسين ، له كتب حسان ، في الحساب والفرائض ، وغيرهم ممن يطول تتبعهم .

ونُترجمُ منهم هنا ، درّاس بنَ اسمعيل ، وأبا جيدة بنَ أحمد ، وأبا محمد الأصيلي وابنَ العجوز ، وأبا عِمران الفاسي ، وإن كان الأصيلي استوطن الأندلس بعد رجوعه من رحلته ، والفاسي أقام بالقيروان ردحاً طويلاً من حياته . إلاّ اننا نذكرهمـــا كعَلمين من أعلام هذا العصر البارزين .

درّاس بن إسماعيل

هو أبو ميمونة درّاس بن اسمعيل الفاسي ، كان كاسمه ، كثير الدرس . سَمِـــع من شيوخ فاس ، ورحل الى المشرق ، فحجّ وجال في الاندلس وافريقية ، ولقي جماعة من العلماء . روى الحديث وقرأ الفقه ، وسمع بافريقية من أبي بكر بن اللّبّاد وغيره وبالأندلس من شيوخها . ولقيَ عليّ بن أبي مطر بالاسكندرية ، وسمع منه كتاب ابن

المواز ، وحدّث به بالقيروان ، سمعه منه أبو محمد بن أبي زيد وأبو الحسن القابسي وغيرُهما . ودخل أيضاً الأندلس مجاهداً وتردد بها في الثغر ؛ فسمع منه أبو الفَرَج عبدوس بن خلَف ، وخلفُ بن أبي جعفر وغير واحد ... وهو ممن أدخل مذهب مالك إلى المغرب ، وكان الغالب على أهله مذهب الكوفيين . وكان رحمه الله فقيهاً محدّثاً حافظاً ، من أهل الفضل والدين . ولما وصل إلى القيروان اطّلع الناس من حفظه على أمر عظيم ، حتى كان يقال ليس في وقته احفظ منه . وكان نزوله بها عند ابن أبي زيد . وله بفاس مسجد يُعرفُ به بحيّ مَصمودة ، ويقال إن قبلته أقوم قبلةٍ بفاس ، وبه كان يُدرّس الفقه بعد رجوعه من المشرق . توفي ببلده سنة ٣٥٧ هـ ودفن بخارج باب الفتوح منها ، حيث بُنيت عليه قبة جميلة . ويُحكى أن أبا محمد بن أبي زيد القيرواني قدِم فاساً لزيارته ، فوجده قد توفي في ذلك اليوم فحضَر جنازته وأقام بقبره ثلاثة أيام . وكان ذلك سبب زيارة القبور بفاس عددَ تلك الايام الى الآن. ولمّا اراد الرّحيل الى بلده أنشد :

قِفْ بالَمقابِر للتوديع يا حادِ فإنّ في جَوْفها قَلْبي وأكبادي

أبُوجِيدَه

هو أبو جيدةَ بنُ أحمد اليزْنسني من أهل فاس ، ومن كبار أهل العلم والفقه والصّلاح بها . له رحلة إلى المشرق ، لمّا رجع منها خرج أهل فاس كلّهم للقائه ، الرجال والنساء ، فكان هؤلاء في ناحية وأولئك في ناحية ، وذلك كلّه فرحاً به وإجلالاً له . واشتهر بفتواه في حُكم أرض المغرب ، التي أنقذ بها البلاد والعباد من سطوَة الجبابرة . وذلك أن عامل المنصور بن أبي عامر لما تغلّب على فاس قال لهم : أخبروني عن أرضكم أصُلحٌ هي أم عَنوة ؟ فقالوا لا جواب عندنا حتى يأتي الفقيه ، يعنون أبا جيدة ... وكان يعمل في بُستان له خارج المدينة . فلما جاء سأله ، فقال : ليست بصُلح ولا عَنوة ، وإنما أسلم عليها أهلُها فبقيت لهم . فقال العامل : خلّصكم الفقيه . وهذه الفتوى هي مضمون كلمة الرئيس الأميركي مُنرو « أمريكا للأميركيين » فقد سبقه إليها أبو جيدة بعدة قرون ...

وكان ابو جيدة راسخَ القدم في فقه مالك والشافعي معاً ، وله تأليف في الوثائق على طريقة الشافعيّة . وتوفي رحمه الله سنة ٣٦٥ هـ ودفن خارج باب المسافرين ، أحد أبواب فاس ، حيث يوجد قبره في جامع هناك . وقد ترك الناس تسميتَها القديمة وسمَّوْها باب سيدي بو جيدة اعترافاً بفضله وتخليداً لذكراه .

الأصيليّ

هو أبو محمد عبد الله بنُ إبراهيم بن محمد الأصيلي الإمام المحدّث الفقيه راويةُ البخاري . والأصيلي نسبةً إلى أصيلا المغرب ، كما جزم به ابنُ الطيّب الشرقي محشّي القاموس ، وأيّده مرتضى في التاج . وقال : يدلُّ له عدُّه في الغرباء الطارئين على الأندلس . قال أبو الوليد بنُ الفَرَضي : « ومن الغرباء في هذا الباب عبد الله بن إبراهيم بن محمد الأصيلي من أصيلا ، يُكنّى أبا محمد . سمِعتُه يقول : « قدمت قرطبة سنة ٣٤٢ فسمعت بها من احمد بن مُطرّف واحمد بن سعيد ، وكانت رحلتي الى المشرق في محرم سنة ٣٥١ ودخلت بغداد فسمعت بها من أبي بكر الشافعي وأبي بكر الأبهَري » وقال في الديباج : « وحجّ فلقي بمكة سنة ٥٣ أبا زيد المروزي ، وسمع منه البُخاري ، وأبا بكر الآجُري ، وبالمدينة قاضيَها أبا مروان المالكي . وحدّث عن الدّار قُطني ، واضطرب في المشرق نحو ثلاثة عشر عاماً ، وسمع ببغداد عرضتَه الثانية في البخاري من أبي زيد ، وسمعه أيضاً من أبي احمد الجرجاني وهما شيخاه في البخاري وعليهما يَعتمِد » ثم انصرف إلى الأندلس فقرأ عليه الناس كتاب البخاري وانتهت اليه الرئاسة بها ، فوَلِيَ قضاء سرَقُسطة وقام بالشورى مدةً في قرطبة وغيرها . وصنّف كتاب الآثار والدّلائل في خلاف مالك وأبي حنيفة والشافعي ، وكان من حُفّاظ مذهب مالك . ومن أعلم الناس بالحديث وأبصرهم بعِلله ورجاله ، وتوفي يوم الخميس ١٩ ذي الحجة ٣٧٢ .

ابنُ العجوز

عبدُ الرحيم بن احمد الكتامي المعروف بابن العجوز يكنّى ابا عبدالرحمن من اهل سبتة . كانت له ولأبيه في قومه كتامة ، وفي المغرب رياسةٌ بالعلم ، واليه كانت الرحلة في

المغرب في وقته ، وعليه كانت تدور الفُتيا . وله عَقِبٌ نجباء في العلم ، عبد العزيز وعبد الرحمن وعبد الملك . رَحلَ عبد الرحيم الى الاندلس وافريقية ولازم ابا محمد بن أبي زيد واختصّ به وسمع منه كتاب النوادر والمختصر وغيرهما ، وسمع من درّاس ابن اسمعيل وأبي محمد الأصيلي ووهب بن ميسرة الحجازي . وكانت رحلته في نحو الثمانين وثلاثمائة . اخذ عنه الناس بسبتة علماً كثيراً وتفقهوا عليه وسمعوا منه . وكان من حفاظ المذهب العالمين به . روى عنه أبو القاسم بن المأموني وغيره من فقهاء سبتة وفاس وتوفي سنة ٤١٣ .

أبو عِمْرَان الفاسي

موسى بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي نسبة إلى غفجوم ، فخذ من قبيلة زناتة . كان بيته بفاس بيتاً معروفاً مشهوراً ، يعرفون ببني حاج ، وله عقِب ، وكان فيهم نباهة . واليه ينسب درب أبي حاج بالطالعة من المدينة المذكورة . استوطن القيروان وحصلت له بها رئاسة العلم ، وتفقّه بأبي الحسن القابسي، ورحل الى قرطبة فتفقّه بها عند الأصيلي وسمع من أبي عثمان وعبد الوارث واحمد بن قاسم وغيرهم . ورحل الى المشرق وحجّ ودخل العراق؛ فسمع من الفتح بن أبي الفوارس وأبي الحسن المستملي . ودرس الأصول على القاضي أبي بكر الباقلاني ، ولقي جماعة وسمع من أبي ذرّ . قال حاتم بن محمد : كان ابو عمران من أحفظ الناس واعلمهم ، جمع حفظ المذهب المالكي إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم ومعرفة معانيه . وكان يقرأ القرءان بالسّبع ويجوّدُه ، مع معرفته بالرجال وجرحهم وتعديلهم . أخذ عنه الناسُ من اقطار الاندلس والمغرب واستجازه من لم يلقه. وألّف كتاب التعاليق على المدونة وخرّج عوالي حديثه في نحو مائة ورقة .قال حاتم بن محمد: ولم ألق احداً أوسع علماً منه ولا أكثر رواية .وذكر أن الباقلاني كان يعجبه حفظه ويقول: لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبد الوهاب[1] ــ وكان اذ ذاك بالموصل ــ لاجتمع عندي علمُ مالك، انت تحفظه وهو ينظرهُ . وفي كتاب بيوتات فاس لابن الأحمر ان الطغاة من اهل فاس العاملين عليها

[1] القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي ، من أعلام مذهب مالك (٣٦٢ - ٤٢٢) انظر ترجمته في الديباج لابن فرحون - مثلا - ص ١٥٩ .

لمَغْراوة أخرجوه منها لأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، وهو يفيد أنه استقرّ بفاس بعد رجوعه من رحلته ، ثم خرج منها مضطراً .

وتوفي في سنة ٤٣٠ وهو ابن ٦٥ سنة .

• • •

هذا في الناحية العلميه ، وفي الناحية الأدبية ، يمكنُ أن نشيرَ الى هذه الظاهرة العجيبة التي تتمثلُ في استعراب جميع قبائل الشمال المغربي ، ما عدا الريف بحيث تـنُوسيَت فيها البربريةُ تماماً . ويقال إنّ الفضل في ذلك يرجع للأدارسة الذين آوَوْا إليها بعد خروجهم من فاس وأسّسوا بها دولتهم الثانية على يد القاسم كنُّون منهم ، تلك الدولة التي كانت قصَبَتُها في قلعة حجر النّسر بجبل سُماتة[1] . ولا يبعُد ذلك على النظر ، فان اكتناف هذه القبائل بمدينة سبتة وطنجة وأصيلا والبصرة ، وكلها كانت مراكز حركة أدبية نشيطة ، مما يقوّي بواعثَ هذا الاستعراب . ولعل أقوى الأدلة على صحة هذا القول ، هو انتشارُ السُّلالة الأدريسية في هذه القبائل انتشاراً لا يوجد له نظير في ناحية أخرى من نواحي المغرب . وهو دليل باقٍ إلى الآن ، يحملنا على القول إن تأثير الأدارسة في استعراب البربر وتطوّرهم الفكري اكثر مما نظن .

فاذا ذهبنا نَقيسُ عملَهم في هذا الباب بعمل أُمراء نُكُور[2] أبناء صالح بن منصور ، وقد تأسّست هذه الإمارةُ في الريف قبلَ قيام الدولة الأدريسية وبقيتْ

---

١ – وقع في وهَلِنا لأول مرة مررنا بهذا الموقع الحصين المسمى الى الآن بحجر النسر في قبيلة سُماتة أنه المكان الذي اقام فيه الأدارسة دولتَهم الثانية ولم نجد من نعتمد عليه في ذلك ونعتضد به ، سوى الأوهام وكلام العوام . حتى وقفنا على ما يثبت ذلك عند النسّابة ابن رحمون في كتابه شذور الذهب ، فانه جزم به في مواضع من الكتاب المذكور وقال أنه يُعرَفُ ايضاً بحجر الشرفاء وبدار القَرار لِقَرار الادارسة فيه عند تغلب الدول عليهم وان كان وقع له في احد النقول أنه في قبيلة بني زجّل حول شفشاون . والاول اثبت ومثله عند النقيب الريسوني في كتاب فتح العليم الخبير . وعليه فما في دائرة المعارف الاسلامية من أن هذا الموقع غير معروف ، فيه قصور .

٢ – مدينة النكور بالريف أسسها ادريس بن صالح بن منصور سنة ١٣٢ . وخربها يوسف ابن تاشفين سنة ٤٧٣ .

إلى ما بعدَ انقراضها ، نجدُ انه لا نسبة بينهما في ذلك ؛ وهذا الريف ما يزال يرْطنُ بالبربرية لحدّ الآن .

وباستثناء هذه الظاهرة التي نسجلها بكل ارتيـــاح ، نرى أن الغموض يساورُ الناحية الأدبية في هذا العصر أكثرَ من الناحية العلمية. فاذا استطعنا ان نَعُدّ أفراداً من العلماء ونترجم لهم ولو على سبيل الاجمال ، فاننا لا نستطيع ذلك بالنسبة إلى الأدباء . وغايةُ ما يمكننا ان نفعله هو ان نذكر اسماء بعض هؤلاء الادباء الذين وردَ ذكرهم عرَضاً في الكتب وفي المنازعات السياسية او المذهبية بسبب بيت او بيتين من الشعر الذي يرويه لنا هذا المؤلف أو ذاك ؛ على انه مما قيلَ في الموضوع .

ولعل من ألمع هذه الأسماء وأشهرها في هذا المعنى اسمَ ادريس الثاني ثم ولده القاسم، وعُبَيد الله بن يحيى بن ادريس، والحسن الحجّام ، وابراهيم المؤَبل وعبدالله الكفيف الطنجي وسعيد بن هشام المصمودي وابراهيم بن محمد الأصيلي ، وابراهيم ابن أيوب النُكُوري . وسوف نورد لبعضهم في الجزأين الثاني والثالث بعض الآثار .

عصر المرابطين

سياسة الدولة

في ذاك الجوّ السياسي المضطرب الذي خضع له المغرب مدى ثلاثة قرون أو تزيد ، ومن صميم الشعب المغربي الذي سئم حياة الفوضى والقلق ، قام الرجلُ الذي رسم لهذه البلاد خطّة العمل ، وقاد أهلها إلى قرارة المجـــد ومستوى العظمة ، فعرفوا واجبهم من يومئذ وما تخلفوا عنه قط . وكان الرجل تلميذاً غير مباشر للشيخ أبي عمران الفاسي السابق الذكر ، والذي نفته السلطة الغـــاشمة من بلده فاس لأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر . فنحن إذاً بازاء خرّيج لتلك المدرسة الإصلاحيّة التي لم يتح لها أن تقوم بدورها في أرض الوطن فأدّته من بعيد على أحسن الوجوه .

ويتعلق الأمر بأحد زعماء قبيلة صنهاجة العظيمة وهو يحيى بن ابراهيم الكدالي، فانه لما حجّ ومرّ في طريق عودته بالقيروان ، اجتمع بأبي عمران هذا وتحدّث إليه عن سوء الحالة الاجتماعية بالمغرب وما عليه القبائل من الجهل باصول الدين وفروع الشريعة . فبعث معه بكتاب إلى تلميذه واجّاج بن زلو اللمطي وكان فقيهاً صالحاً وإقامته بمدينة نفّيس بالجنوب المغربي ، يأمره فيه ان يبعث معه من تلاميذه من يصلح للدعوة والارشاد ، ويصبرُ على لأواء الصحراء . ولحسن الحظ فقد وقع اختياره على تلميذ من الحذّاق الأذكياء الفقهاء النبلاء أهل الدين والفضل والتقى والورع والأدب والسياسة والمشاركة في العلوم ، كما وصفه ابن أبي زرع ،هو عبدالله بنُ ياسين الجزولي؛ فخرج مع يحيى بن ابراهيم حتى وصل بلاد كدالة من قبائل صنهاجة ، وهم ولمتُونة إخوةٌ يجتمعون في أب واحد . وكانوا يسكنون آخر بـــلاد الإسلام ، ويحاربون السودان ، ويليهم من جهة المغرب البحر المحيط[1] .

---

١ - هكذا حدد مواطنهم الاولى صاحب القرطاس ، وتلك عبارته . ويعني بآخر بلاد الاسلام الصحراء الكبرى فقد كانت غاية ما انتهت اليه الدعوة الاسلامية اذ ذاك ثم بلغت بفضل جهود المرابطين الى ما وراء التخوم الصحراوية من افريقية السوداء .

دخل عبدالله بن ياسين بـــلاد صنهاجة بقصد تعليمهم القرآن وتفقيههم في الدين فوجد القوم على جهل مُطبق لا يفرّقون بين حلال وحرام ، ليس معهم من الاسلام الا الشهادتان ويتزوجون اكثر من أربع نسوة ، فجعل يقرئهم القرآن ويبيّن لهم شرائع الاسلام ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، فثقلت وطأته عليهم ونفرت منه قلوبهم ، وحدث أن مات حاميه والذابُّ عنه الزعيم يحيى بن ابراهيم فتوفـّرت الأسباب على منابذته والاعراض عنه ، فخرج مع من ثبت منهم على دعوته الى رباطٍ ناءٍ في أقاصي الصحراء حيث أقاموا يعبدون الله ويطبقون تعاليم دينه .. وقيـــل إن يحيى بن إبراهيم كان ممن خرج معه الى هذا الرباط بعد ان تنكـّر له قومـــه ونبذوا طاعته ولم يمت إلا بعد ذلك . وأيّاً كان فانهم ما لبثوا هنالك الا قليلا حتى تسامع بهم الناس فكثر عليهم الوارد ونزع اليه التوّابون ممن جفوه قبلُ . وبلغ عددُ من اجتمع عليه من أشراف صنهاجة نحوَ ألف رجل ، فسمّاهم هو أو سمّاهم الناس « المرابطين » من أجـــل مُلازمتهم لذلك الرّباط .

ولم يزل عبد الله بن ياسين مُقيماً برباطِه على الحالة التي وصفناها حتى قويَت جموعُه وكثرت وفوده ، فندَبهم الى جهاد مَن خالفهم مِن قومهم وقال لهم : « يا معشرَ المرابطين ! إنكم جمعٌ كثير ، وانتم وجوه قبائلكم ، ورؤساء عشائركم ، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم الى صراطه المستقيم فوجب عليكم أن تشكروا نعمَته عليكم ، وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا في الله حق جهاده . فقالوا له : ايهـــا الشيخ المبارك ؛ مُرنا بما شئتَ تجدنا سامعين ، ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعَلنا . فقال لهم : « اخرجوا على بركة الله وأنذِروا قومَكم وخوّفوهم عقاب الله وابلغوهم حجّتَه ؛ فان تابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عما هم عليه فخلّـُوا سبيلهم ؛ وإن أبوا من ذلك وتمادَوا في غيّهم ولَجّوا في طُغيانهم استعنـّا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتـّى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » .

وقد كان هذا هو دُستور الدولة المرابطيّة الذي سارت عليه منذ قيامها ، وقانونها الأساسيّ الذي لم تحِدْ عنه قطّ . إنها قامت لاصلاح الفساد وتطهير المجتمع من عوامل الشر ونشر الفضائل الدينيّة وتطبيق الشريعة الاسلامية كما جاء بهـا صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم . وهي كما عمِلت وفقَ هذه المِسطرة في قبائل المغرب التي أفسدها الدُّعاة والخوارج من أصحاب البدع والنزعات الضالـّة ، حتى أنقذ الله بها هذا القطر

من الهاوية التي كان قد تردّى فيها ، فانها قد سارت على نفس المسطرة لمّا اصبحت مدعوةً إلى القطر الأندلسي الذي أفسده تحلـّل ملوك الطوائف من كل الالتزامات الدينيّة والسياسيّة وانغماس أهله في الملاهي والملذّات .

ولقد عمِل المرابطون مع عبدالله بن ياسين على تثبيت دعائم الاسلام في بلاد صنهاجة أولاً ثم في بقية البلاد كسجلماسة ودَرعة وسوس ، إذ كانت على ما كان عليه أهلُ صنهاجة من الجهل والزيغ والفساد . وكان عبد الله يرتـّب العمّال في كل البلاد التي يحلُّ بها ويأمر باقامة العدل واظهار السنـّة وأخذ الزكاة والعُشُر من القبائل وإسقاط ما سوى ذلك من المغارم التي طالما كانت السبب في تمرُّدهم وانحرافهم عن الجادّة . وقاتل في مدينة تارودانت قوماً من الرّوافِض يقال لهم البَجَليَّة ، منسوبين إلى عبد الله البَجَلي الرافضي ، كان قدِم إلى سوس حين قدم عُبَيْد الله الشيعي الى افريقية ، فأشاع هنالك مذهبه فورِثوه بعده جيلاً عن جيل ، لا يرون الحقّ إلا ما في أيديهم ، فطهّر تلك الناحية من بدعتهم وردّهم الى السنـّة . كما قاتل بَرغواطة ببلاد تامَسنا السّاحليّة المعروفة اليوم بالشّاوية ، وكانوا أهل نِحلة فاسدة وزَيْغ عن الدين .

وفي أثناء المعركة التي انتهت باستئصال شافَتِهم ، توفي رحمه الله شهيداً مبروراً ، وقد قضى في تربية المرابطين وإعدادهم للمهمة العظمى التي قاموا بها مدة حكمهم للمغرب ؛ إحدى وعشرين سنة ، لأنّ دخوله للصحراء مع يحيى بن إبراهيم كان سنة ٤٣٠ واستشهادَه كان سنة ٤٥١ ، وهي مدة لا تعدُّ شيئاً إذا قِسناها بالنتائج التي حصلت فيها . فقد طُهِّر المغرب من الظلم والفساد ، وتوحَّدت أقاليمه بعد طول الفرقة ، وقُطِع دابرُ الخلاف المذهبي والسياسي الذي كان سبباً في كثير من الحروب الداخلية العنيفة ، وتمحّضت جهودُ المغاربة من يومئذ لبناء مستقبل بلادهم وإحلالها المحلّ اللائقَ بها بين بقية بلاد الاسلام والعروبة .

وكان يلي أمر المرابطين حين وفاة ابن ياسين الأمير ابو بكر بن عمر اللمتوني الذي لم يلبث أن سلم سلطاته لابن عمه يوسف بن تاشفين وانقطع هو الى الجهاد في بلاد السودان مع الاشراف على شؤون الصحراء .

وكان يوسف ذا همة عالية وحزْم وعزْم ؛ فلما أُسند اليه الأمر عزَم على تصفية ملك المغرب وانتزاع ما بقي منه بيد مَغْراوة وبني يَفْرن . وهكذا استولى على

فاس ونقل كرسيّ المملكة منها الى مراكش التي بناها سنة ٤٥٤ . ثم طمح الى تملُّك المغرب الأوسط فلم ينشَب أن أخذ عاصمتَه تلمسان من يد مغراوة ، ثم افتتح مدينة تَنَس ووهران وجَبَل وانشَريس وجميع أعمال شِلف الى الجزائر . وفي سنة ٤٧٥ كان قد صفا له أمر المغربيْن معاً . ثم ان مُستَخْلِفَه الامير ابا بكر بن عمر كان قد مضى الى الصحراء يجاهد في سبيل الله حتى بلغ حدود السودان ونهر النّيجر ، ولما توفي سنة ٤٨٠ دخلتْ هذه البلاد كلها في طاعة يوسف، فعظم بذلك أمره وذاع صيته في البـــلاد . ومن ثَمَّ توجّهت اليه انظار أهل الأندلس وتعلّقت به آمالهم في النجدة والانقاذ .

وكانت بلاد الأندلس منذ سقوطِ الدولة الأموية ، تخضع لملوك الطوائف الذين تنازعوا النفوذَ فيما بينهم ، واستبدُّوا بولاياتها المختلفة . ولم يكن عندهم غَناء في دفاع العدوّ المغير ، لتفرُّق كلمتهم وانهماكهم في اللهو والمجون ، على حين أنّ عدوهم آخذٌ لهم بالمرصاد ، يستخلص منهم الجزية لقاءَ الكفّ عن قتالهم ، ولا يفتأ يتنقّص بلادهم من اطرافها مهدداً لهم بالاكتساح الشامل عند اول فرصة . وذهاباً مـــع الغاية في التهديد قام الفُنسُ السادس ملك قشتالة برحلةٍ جاس فيها خلال ديار ملوك الطوائف حتى وصل الى ساحل المحيط من شاطىء مدينة طرِيف وأقحم بفرسه في اليمّ وقال هنا يجب أن انتهي بجنودي . وقد هلع المسلمون لذلك اشدّ الهلع وايقنوا بالخطر الداهم ان لم يتداركهم الله بلطفه ، وليأسهم من ملوكهم فانهم لم يكونوا ينتظرون الغوث إلا من الخارج وقد فكـّر أهل قرطبة في الاستنجاد بعرب افريقية ،فقال لهم قاضيهم أبو بكر بن أدهم : «أخاف إذا وصلوا الينا ان يخربوا بلادنا كما فعلوا بافريقية ويتركوا الفرنج ويبدأوا بنا. والمرابطون أصلح منهم واقرب الينا ». وشعر ملوك الطوائف بانحراف رعاياهم عنهم وسوءِ رأيهم فيهم وتشوفهم الى المرابطين، فلم يسعهم تحت ضغط الرأي العام الا استصراخ يوسف بن تاشفين والاحتماء به من العدو المشترك . وهكذا عبر المعتمد بن عباد ملكُ اشبيلية الى العدوة ، فلقي يوسف وابلغه رغبة اهل الاندلس في الجواز اليهم ونصرتهم على عدوهم ؛ فما كان منه إلا أن لبّى دعوتهم واستنفر الجيوش والمقاتلة الى الجهاد . وعبر البحر الى الاندلس ؛ فلقيه أهلها وملوكها وعلى رأسهم المعتمد بن عبـاد والمتوكل بن الافطس وغيرهما . ونازل الفنس السادس وجيشه العظيم بسهل الزلاقة من ناحية بطليوس فانتصر عليه وهزمه شرّ هزيمة حيث لاذ بالفرار في ثلـّةٍ من الجند مستتراً تحت جناح الظلام .

وكانت هذه الواقعة الحاسمة في يوم الجمعة ١٥ رجب ٤٧٩ هـ وتعرف بالزلاقة ، وبها تنفس الاندلسيون الصعداء وامنوا على انفسهم ودينهم . ولما انتهت المعركة اجتمع ملوك الطوائف ، واقبلوا على يوسف يهنئونه بالفتح المبين ، وحيّوه بإمرة الاسلام فصار يدعى امير المسلمين من ذلك اليوم ، وهو أول من تلقب به من ملوك الاسلام فيما نعلم ، ولم يجرؤ هو ولا أولاده من بعده ان يتلقبوا بأمير المؤمنين تأدباً مع خليفة بغداد ، وان كانوا قد بلغوا في قوة النفوذ والسلطان ما لم يكن للخليفة منه قليل ولا كثير .

ورحل يوسف الى المغرب بعد ما ترك قطعة من جيشه تحت تصرُّف ملوك الاندلس لحماية الثغور ودفاع العدو ، ولكن هؤلاء سرعان ما راجعوا حياتهم العابثة ، وعادوا الى التناحر فيما بينهم وضيّعوا الجند وعرّضوا بلادهم للفقد من جديد . فجاء الصريخُ الى يوسف من فقهاء الاندلس واعيانها وعامّتها فاسرع اليهم ، وكان العدُو قد أخذ في الانقضاض على بلاد الاسلام ، فأوقفه عند حده ، وقضى على ملوك الطوائف وضمّ بلاد الاندلس الى المملكة المغربية ، وبذلك أنقذها من الاضمحلال ومن المصير الذي لقيته بعد نحو اربعة قرون .

وتوّج يوسف حياته الحافلة بتاج الصدق والاخلاص فأعلن انضواءَه تحت لواء الخلافة الاسلامية وكتب للخليفة العباسي أحمد المستظهر بالله يُبايعُه ويطلب منه تقليداً على ما بيَده من أعمال الأقاليم فأجابه لذلك وخاطبه بأمير المسلمين ، وناصر الدين. وكان رسوله الى الخليفة الفقيه عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الاشبيلي وولده القاضي أبا بكر بن العربي الإمام المشهور . وبعد ورودِ التقليد عليه من الخليفة ضرَب السكّة باسمه ونقَشَ على الدينار « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين . وكتب على الدائرة « ومَن يبْتَغ غيرَ الإسلامِ ديناً فلن يُقبَلَ منه وهو في الآخرة مِن الخاسرين » وكتب على الصفحة الأخرى « عبد الله أحمد أمير المؤمنين العباسي » وعلى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكّتِه . وطار ليوسف بهذه السياسة الحكيمة والسّيرة النيّرة ذكرٌ جميل في أقطار المشرق والمغرب ، حتى خاطبه أقطاب الفكر في العالم الإسلامي حينئذ ، من أمثال الإمام الغزّالي والقاضي أبي بكر الطـّرطوشي . ويُقال إن الغزالي كان عقَد النيّة على زيارته فتوفيّ يوسف قبل أن يتهيّأ له ذلك .

وقد ردَّ يوسف بسياسته هذه المغرب إلى أحضان الجامعة الإسلامية بعد ان كان الولاة قبله قد اقتطعوه من جسمها .. وتلك بلا شك خطَّةٌ مستمدّةٌ من تعاليم عبد الله بن ياسين التي كان يُلقيها إلى تلاميذه المخلصين ومنهم يوسف بن تاشفين الذي قام عليها أصدق قيام . ولو كان ملوك الاسلام يحمِلون مثل هذا الشعور الذي كان يحمِله يوسف ، ويسيرون بهــذه السيرة التي سار عليها لما تفكّكت عُرى المملكة الاسلامية ، ولما صار المسلمون بعد ذلك خولاً للأجانب تتداولهم أيدي الاستعمار في الشرق والغرب ؛ فهم لا يُنقذهم من سيطرة الأغيار إلا هذه السياسة الرشيدة التي هي سياسة الجامعة الاسلامية .

يوسُفُ وَالمعْتمَد

من الثابت تاريخياً أن يوسف بن تاشفين لم يعد الى الأندلس بَعــد معركة الزلاّقة ويستخلص هذا القُطر من أيدي ملوك الطوائف إلا بعد أن كتب إليه العلماء والخاصة والعامة يناشدونه الله ورابطة الاسلام ان يبادر لإنقاذهم من سيطرة ملوك السُّوء الذين انصرفوا بعد رجوعه للمغرب ، الى لهوهم ومجونهم وأغفلوا نصائحه في نبذ التخالف والتدابر ، وأهملوا أمر الجند وضنُّوا عليه بالمؤونة ، فاصبحت البلاد من جديد معرّضةً لحملات اعدائهم اليقظين المنتهزين للفرص . وحضَّه علماء المغرب وساسته وقوّاده وزعماء الرأي فيه على تلبية طلب هؤلاء ، فتردّد في الأمر وبقي يقدم رجلاً ويؤخر أخرى . ثم كتب الى علماء المشرق وعلى رأسهم يومئذ حجّةُ الاسلام الغزّالي فأفتَوه بوجوب المسارعة الى ذلك ، وإلا فيكون مؤاخذاً أمام الله والناس والتاريخ .

فلما رأى إجماع الأمة ، علمائها وساستها ورجال الحرب فيها عـلى رأي واحد ، عزَم متوكـّلاً على الله وسار الى الاندلس أما أهلها فتلقوْه بالفرح والسرور ، وأما هؤلاء الملوك المعبَّر عنهم بملوك الطوائف : فمنهم من القى القِياد ولم يدفعه الهوَس إلى التهوُّر في القتال غير المجدي ؛ ومنهم من تعنَّت واستحدث من الضعف قوةً لم يكن يستحدثها في محاربة من كان يؤدي إليهم الخراج من ملوك النصرانية ، فكاشف جيش المرابطين بالعداء وناشبه القتال . وكان من بــين هؤلاء المتوكل بن الأفطس صاحب بَطَلْيَوْس الذي جُنّب الى مصرعه فانتهى حديثه من يومئذ ، والمعتمد بن عبَّاد

الشاعر الغزِل الرَّقيقُ الذي أوصى يوسف رجاله بالعناية به فأبقَوْا عليه ، ولكنه ملأ الدنيا بكاء وعويلا !..

وهل تدري ما فعل به بعد ؟ لقد كانت معاملته له بحيث لو لم يتفق المؤرخون على روايتها لقلت إنها من المستحيل على ملك بَربري متوحِّش ، كما يطيبُ لكثير من كتّابنا وأدبائنا المهذَّبين أن يصفوه . لقد عامله بما لم تُعامِل به أوروبا الحديثة نابُليونَ العظيم[1] وشتّان بين نابُليون والمعتمد ! لقد أرسله الى طنجة عروس المغرب ، فلبث فيها ثم في مَكناس شهوراً الى أن فرغ الفاتح من أعماله وتقرَّر مصيره في أغماتَ. لا تقل وما أغماتُ ؟ واين تجيء أغماتُ من اشبيلية ؟ فلم تكن أغمات إحدى القرى المهجورة في بلاد الصحراء والجزُر المنقطعة في ظلمات المحيط ، فهي كانت عاصمة الدولة قبلَ بناء مراكش ، ويقول المؤرخون عنها انها مدينة كبيرة في ذيل جبل كثير الاشجار والثمار والأعشاب والنباتات . ونهرها يشقها وعلى النهر أرحيَةٌ كثيرة تدور صيفاً ، وفي الشتاء يجمُدُ النهر ويمرُّ عليه الناس والدواب . وأهلها ذوو يَسار وأموال ، ولهم على أبوابهم علاماتٌ تدلُّ على مقادير أموالهم . زاد ياقوت : وليس بالمغرب فيما زعموا بلدٌ أجمع لأصناف الخيرات ولا أكثرَ ناحيةً ولا أوفَر حظاً ولا خِصباً منها .

وفي كلتا المدينتين طنجة وأغمات لم يكن بمنزلة المحبوسين السياسيّين التي نعرفُها في هذا العصر ، بل كان مُطلق الحرية ليس عليه أدنى حَجْر ، ولا على من يريد زيارته والوصول اليه . وقد اجتمع به شعراء طنجة وأدباؤها وطارحوه أحاديث الشعر والأدب كما وفَد عليه جلُّ أدباء الأندلس وهو في أغمات ، وكانوا يقضون معه الأوقات الطويلة . وكذلك غيرهم من كل من يمتُّ له بصلة أو يُدلي إليه بسبب ، وحسبُك انه استدعى ذات مرة طبيب يوسف الخاص لمعالجة بعض حريمه فلبَّى هذا طلبَه ، ولو علمَ كراهيّة يوسف لذلك لما أقدم عليه .

فليتَ شعري ماذا يُنكر أصحابُنا من هذه المعاملة التي هي في منتهى التسامح

---

١ – المقارنة هنا في قوة السلطان وعظم الشخصية لا غير والمقصود إظهار نبل يوسف على تقدم زمنه بالنسبة الى اوربا الحديثة .

مع رجلٍ أقلّ ما يُقال فيه أنه أعطي مُلكاً فلم يُحسِن سياستَه ، وقد أنكر شعبُه تصرُّفاته ، وعرّض الفردوس العربي للفقد في مُنتَصف القرن الخامس الهجري بعَبَثِه واستهتاره ، ثم حملَ السّلاح على حماة البلاد الذين أنقذوها من السقوط في يد العدو على حين انهم لم يفرغوا بعدُ من لمّ شعثها ورأب صَدعها ؟!

إننا مهما تملّكتنا الأريحيّة الأدبيّة وأخذ منا الجمال الفنيّ واستحوذ علينا الخيال الشعري ، لا يبلغ بنا ذلك إلى حد إهمال شخصيّتنا والتهاون في حفظ كياننا ، فنفضّل قول بيتٍ من الشعر على إنقاذ مملكةٍ من أزهى ممالك العرب والاسلام وأوسعها وأغناها وأعظمها حضارةً وعمراناً ورقيّاً !..

ليس يبلغ بنا استهواء المظاهر الحضارية الخلاّبة ، والبذخ والترف ، ومجالس اللهو والطرب ، وعزف القِيان وغناء النّدمان ، وتطيين البساتين بالمسك والعنبر[1] وتشييد القصور وزخرفة الدُّور الى الاستكانة للذل والصغار وأداء الجزية التي يوجب الاسلامُ والشرف أخذها لا إعطاءها . ففي الحقيقة إن عمل يوسف جليل ، وجليلٌ جداً ، وفوق ما يظنه الظانُّ ويقدّره أولئك الكتّاب والأدباء الخياليون . والاسلام والمدنيّة والعلم كلها مدينة ليوسف بن تاشفين وممنونةٌ له بانقاذ الأندلس وبقائها في يد العرب مدة أربعة قرون أخرى . ومن المحقق أنه لو لم يسارع يوسف الى إنقاذ الاندلس في ذلك الحين لما وجد ابن رُشد ولا ابن طفيل ولا ابناء زهر ولا ابن العربي ولا ابن الخطيب ولا ، ولا ، ممّن انجبتهم تلك الجزيرة من رجال العلم والفلسفة في حياتها الثانية التي كان يوسف سبباً فيها ، فضلاً عن غيرهم من رجال الدين والأدب الذين ازدهرت على أيديهم تلك الحضارة العديمة النظير وهذا مما لا يشك فيه أحد ، وانما ألمعنا اليه هنا وان لم يكن من موضوعنا لننبّه على غلط اولئك الذين اندفعوا في تغليب اهوائهم وتحكيم عواطفهم ورموا المجاهد العظيم يوسف بن تاشفين بما أملاه عليهم تعصبهم للمعتمد بن عباد من صفاتٍ ذميمة وألصقوه به من تهم باطلة ، ولو كانوا حقاً ذوي غيرة على دولة الأدب والشعر ، لوجّهوا حملاتهم العنيفة الى من كان يعمل على هدم كيانها وتعفية أثرها في ذلك القطر العزيز بالتمهيد لاستيلاء العدو عليه

[1] — هذه اشارة الى يوم الطين في قصة المعتمد المشهورة مع حظيته الرميكية . وانظر عنها نفح الطيب ج ٢ ص ٤٨٤ .

واجلاء العرب عنه كما صار في نهاية القرن التاسع الهجري فذهبت ريحُ العروبة والاسلام منه الى الآن ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ويحلو لنا ان نختم هذا الفصل بكلمة في الموضوع للعلامة الناصري صاحب الاستقصا فانه قد شعر أيضا بهذه الحملة المدبّرة ضدّ امير المسلمين فكتب قائلاً : واعلم انه قد يوجد هنا لبعض المؤرخين حطٌّ من رتبة امير المسلمين وغض عليه : إما في كونه بربرياً من أهل الصحراء بعيداً عن مناحي المُلك والأدب ورقة الحاشية ؛ وإما في كونه تحامل على ملوك الأندلس حتى فعلَ بهم ما فعل وذلك حيثُ عاين حُسْنَ بلادهم ورفاهية عيشهم .. واعلم ان هذا الكلام جدير بالرد، وأصله من بعض أدباء الأندلس الذين كانوا ينادمون ملوكهم ويستظلّون بظلّهم ويغدون ويروحون في نعمتهم ، فحين فعل امير المسلمين بسادتهم ورؤسائهم ما فعل ، أخذهم من ذلك ما يأخذُ النفوسَ البشرية من الذبِّ عن الصديق والمحاماة عن القريب حتى باللسان ، وإلاّ فقد كان اميرُ المسلمين رحمه الله من الدين والورع على ما قد علمتَ ، ومن ركوب الجادّة وتحرّي طريق الحق على الوصف الذي سمعتَ ، وهذا ابن خلدون إمام الفنّ ومتحري الصدق قد نقل ان ملوك الأندلس كانوا يظلمون رعاياهم بضرب المكوس وغيرها ، ثم وصلوا أيديَهم بالطاغية وبذلوا له الاموال في مظاهرته إياهم على امير المسلمين ؛ ثم لم يُقدِم على قتالهم واستنزالهم عن سرير مُلكهم حتى تعدّدت لديه فتَاوى الأئمة الاعلام من اهل المشرق والمغرب بذلك . فافهم هذا واعرفه ، والله تعالى يقابل الجميع بالعفو والصّفح الجميل بمنّه وكرمه » .

الحياة الفكرية في هذا العصر

لقد آن للبحث العلمي أن يُنصف دولة المرابطين ويقول فيها كلمة عادلة لا تتأثر بعصبيّة بلدانية ولا بحميّة دينيّة . فقد رأينا كيف كان التشيُّع للأندلس سبباً في تشويه شخصية يوسف بن تاشفين من بعض الكتاب والأدباء حتى أدّى الحالُ الى تجاهل عمله العظيم في إنقاذ ذلك القطر العزيز من المصير المؤسف الذي صار إليه فيما بعد . ونجد بعض المؤرخين المسيحيين من أمثال المستشرق الهولندي رِينْهَيرت

دوزي[1] يصبُّون جامَ غضبهم على المرابطين ودولتهم ، ويجعلون مبـــدأ اضمحلال الأندلس من تاريخ استيلاء الدولة المرابطية عليها ، ناسين أو متناسين ان اضمحلال الأندلس سياسياً إنمـا كان السبب الاول فيه تكالب النصارى على المسلمين وإذكاء نار الحرب عليهم بلا هوادة، منذ اليوم الذي وطئت فيه أقدامهم أرض شبه الجزيرة. وقد شعُر الأندلسيون انفسهم بالخطر الذي كان يتهددهم قبل عبور المرابطين اليهم ، وعبَّر شاعرهم عن ذلك أصدق تعبير في هذه الأبيات البليغة التي قالها عند سقوط مدينـــة طُليْطِلة في يد عدوِّهم وهي :

شُدُّوا رَوَاحِلكم يا أَهْـلَ أندلُس فما المُقامُ بها إلَّا مِن الغَلَطِ

ألثوبُ يَنسُلُ من أَطْرافـه وأرى ثوبَ الجزيرة مَنسُولًا من الوَسطِ

مَن جاوَر الشرَّ لا يأْمنْ بَوائِقَه كيفَ الحيَاةُ مع الحيَّاتِ في سَفَطِ ؟

فمن الحق ان يقال إن المرابطين هم الذين مدُّوا حياة الأندلس السياسية وأبقوهـا في قبضة الأسلام زُهاء أربعة قرون اخرى ، وهـذا هو ما يغيظ المستشرق دُوزي ومن سلك سبيله في التحامل على الدولة المرابطية .

أما اضمحلال الاندلس معنوياً فليس هناك من ينكر ان الازدهار الذي عرفته في ايام المرابطين ، ثم الموحِّدين بعدهم ، يكاد يفوق ما كان لها منه في أيام الخلفاء وملوك الطوائف وخاصة في ميدان العلوم والآداب . إن مُعظَم أعلام الفلسفة والطب الاندلسيين ، هم ممن عاشوا في هذا العصر او نبغوا بعده بقليل . فابو بكر بن بَاجّة المعروف بابن الصائغ الفيلسوف والطبيب والموسيقار هو ممن أظلَّته دولة المرابطين وخدم رجالها بعلمه وفنّه . وابو الوليد بن رشد وابو بكر بن طُفيْل وابناء زُهْر هم

---

١ — مستشرق هولاندي.(١٨٢٠ — ١٨٨٣) له كتابات عديدة عن تاريخ اسبانيا الأدبي والسياسي. وهو في الحقيقة أول من فتح ميدان البحث عن الأندلس الاسلامية في وجه المستشرقين ، ونشر كتباً عربية قيمة تتعلق بهذا الموضوع . إلا أنه كان شديد التعصب وحمل حملات شعواء على المرابطين الذين قاموا بحرب الانقاذ للاندلس في القرن الخامس الهجري والافارقة عموماً ، فتسربت أفكاره الى كثير من الباحثين بعده اوربيين وشرقيين . وما يزال الكثير من الكتاب في هذا الباب يقعون تحت تأثيره .

ممن نبغوا في أعقاب هذا العصر وانتشرت معارفهم في العصر الموحّدي الذي يليه . فالرُّشْدية إذن، هذا المذهب الفلسفي الذي هو طابع الحياة الفكرية الأندلسية، إنما ظهرت في هذا العصر الذي يزعُم صاحبُنا انه عصر اضمحلال الأندلس. وقُل مثل ذلك أيضاً في الميمونيّة ، وهي فلسفة موسى بن ميمون التي نسجَت على منوال الرُّشدية في التوفيق بين العقـل والدين بالنسبة لليهودية . واعلام الفقه والتصوُّف مثل ابن رُشد الكبير وأبي بكر بن العربي وابن عَربي الحاتمي وابن سَبْعين هم كذلك من رجال هذا العصر أو عصر الموحدين . وكبار اللغويين والنُّحاة والمفسِّرين والمقرئين فضلاً عن مؤرّخي الآداب ، والشعراء والكتاب ، الذين أنجبتهم الأندلس في حياتها الثانية بعد خضوعها لدولة المرابطين ، هم ممن لا يأتي عليهم العدّ ، ولا يتّسع المقـام حتى لذكر المشاهير منهم . فهل هذا هو الاضمحلال المتحدَّث عنه ؟

نعم لقد اضمحلـت قرطبة فذهبت تلك العمارة التي كانت بهـا على عهد الخلفاء ، وخَربت مدينة الزّهراء التي انشأها عبد الرحمن الناصر فامَّحَت معها معالمُ حضارة باهرة ، ولكنّ ذلك كان قبل دخول المرابطين الى الأندلس، فمسؤوليّته لا تقع عليهم.

ويعزو المستشرق الكبير تدهور الحياة الفكرية في الأندلس على عهـد المرابطين والموحدين الى تعصُّب الولاة واضطهادهم للعلماء ، وهو ان كان يعني حادثة احراق كتاب الإحياء للغزالي التي جرَت على عهد المرابطين وما بَدر من المنصور الموحدي من إساءةٍ الى الفيلسوف ابن رُشد ، فليتَ شعري كيف غفَـــل عن اضطهاد ابن مَسرَّة واحراق كتب خليل بن عبد الملك المعروف بخليل الغفلة في عهد المروانيّة ، وإحراق كتب الفلسفة والتعـــاليم اليونانيّة التي كانت في مكتبة الحكَم من قِبَل المنصور بن أبي عامر ، واضطهـاد ابن حَزم ، وإحراق كتبه في دولة ابن عبَّاد . ولماذا لم يعتَبر ذلك نكسةً للفكر وبدءَ اضمحلال الأندلس المعنوي ؟

إن مثل هذه الأقوال التي هي أشبه بحديث خُرافة منها بحديث العلماء : إن دلّت على شيء فانما تدل على نزعةٍ خاصّة أبعد ما تكون عن روح البحث والتحقيق ، والواجب على المؤرخ الذي يحترم نفسه أن يترفّع عن سفاسف الأقوال ، ولا سيّما إذا كانت لا تستنِدُ الى دليل من نقل أو نظر .

لقد كان أساس دعوة المرابطين العلمُ ، وعليه قامت دولتُهم . وإنّ رحلة يحيى

ابن ابراهيم الكدالي التي تمخّضت عن دخول عبد الله بن ياسين الى الصحراء لأعظمُ دليل على ذلك . وكانت نزعة عبد الله الى علم الفقه والدين أقوى منها إلى أي علم آخر ، بالطبع لأنه كان عالِماً دينيّاً ، فغلب هذا الميلُ على الدولة ، ومن ثم كان تقديمها للفقهاء واختصاصها لهم دون مَن عداهم من أرباب المعارف المتنوعة ، برغم ما صار إليها من جيوش العلماء والفلاسفة من جرّاء فتح الاندلس وضمها الى الايالة المغربية . ولم يكن هؤلاء يطمعون في القرب من الدولة قرب حظوة على ما يقول المؤرخون ؛ إلا أن يتلبس أحدهم بلباس الفقهاء وعلماء الدين كما فعل مالك بن وهيب ؛ فرقي الى منصب وزير لعلي بن يوسف[1] . ولكن هذا لا يعني أن اضطهاداً فكرياً كان ينالُ غير هذا الصنف من العلماء او ان حقوقهم كانت مضيعة ، فان غاية الامر أن وظائف الدولة كانت من نصيب رجال الشريعة ، وفيما عدا ذلك فان كل العلماء كانوا قائمين بنشاطهم الفكري لا يعترض سبيلهم معترض . وأي ضير في أن تجعل مقاليد الحكم بيد الفقهاء وهم أحقُّ الناس بها وأولى : إذ كانوا حملة الشريعة التي هي قانون البلاد ودستورها المقدّس ؟

ثم إن اصطناع الدولة لنوع خاص من العلوم كثيراً ما كان ظاهرة ملحوظة في غير ما دولة من دول الشرق والغرب ، فلم يعب عليها بل اعتبر من أسباب نهضة ذلك العلم ، وخيراً وبركة على رجاله والمشتغلين به . على ان اهتمام المرابطين بعلوم الدين كان يزينه وصفٌ شريف وخلق نبيل هو تشبُّعه بالرُّوح السلفي المتسامح ؛ الخالص من شوائب التنطع والتعمق ، وعدم مجاراته للخلافات المذهبيّة والبدع والأهواء التي كانت حينئذ تنخر جسم الوحدة الاسلامية بالشرق . فالعقائد أبسط ما يكون ، وقواعد الاسلام وشعب الايمان كما بينت في حديث جبريل ، والزهد والتقشف هما شعار الدولة وطابعها الخاص . واعتبر أنت بأمير المسلمين علي بن يوسف وما كان عليه من متانة الخلق وقوة الايمان وصدق اليقين والانقطاع إلى العبادة ، قبلَ أن تنظر إلى أبيه العاهل الكبير وهو يعملُ مع الخدمة في بناء جامع مراكش ويحمل الطوب والحجر بيده وعلى كاهله إلى البنّائين . ويزيد المؤرخون انه كان

---

١ - تولى امير المسلمين علي بن يوسف عرش المغرب بعد وفاة أبيه في سنة ٥٠٠ وله من العمر ٢٣ سنة وتوفي سنة ٥٣٧ .

صائماً في تلك المدة كلها .. فلم يكن تدين المرابطين خدعة ونفاقاً ، كما لم يكن مذهباً خاصاً ونحلة متميزة ، يضطهدون الناس من أجل الدفاع عنها وعدم مخالفتها .

وهنا تبرز قضيّة إحراق كتاب الإحياء للامام الغزّالي في ايام علي بن يوسف ، فانّ هذا الكتاب لما وصل الى المغرب ، ونعني به هنا ما يشمل الأندلس والمغربين الأقصى والأوسط ، نظر فيه رجال الفقه والدين فرأوه محشوّاً بما لا عهد لهم به من آراء المتكلمين ومذاهب الصوفيّة . وقد تداولته الأيدي من خاصة الناس وعامتهم ؛ فقرّروا مجافاته لظاهر الشريعة وساذج العقيدة وحذروا الناس من مطالعته والنظر فيه ، فما كان من رجال الدولة إلا ان أمروا بجمعه وإحراقه ، ولم يعتبروا موالاةَ الغزّالي لدولتهم ولا نظروا الى المودةِ التي كانت بين يوسف وبينه ، والمكاتبات التي جرت بينهما والثناءِ الذي كان يُثنيه الغزالي على يوسف ، حتى لقد همّ بزيارته وقصد البحر ليركب اليه فبلغه موتُه فرجع . وهذا إن دلّ على شيء ، فانما يدلُّ على أن الدولة حقيقةً كانت خاضعةً لرأي الفقهاء لا تورِد ولا تُصدر إلا عن نظرهم ، ويدلُّ هذا بالتالي على ان القانون كانت له السيطرة على الجميع وأن رجال الدولة كانوا هم أول من يحترمه . وذلك في نظرنا غاية المدح والتقريظ للمرابطين الذين لم يَثبُت في تاريخهم أنهم أراقوا مِحجَم دمٍ في غير ساحة الحرب ، ومن ثَمّ فانهم لم يحكموا بالقتل قط على خارج ولا مخالف ، ولو قتلوا أحداً لكان المعتمدُ أحقّ بالقتل لما ألّب عليهم من الخصوم وبارزهم به من العداوة .. أما غيره من ملوك الطوائف الذين استسلموا فانما نقلوهم الى مراكش وأطلقوا سراحهم ، بل لقد ثار عليهم ثوارٌ بعد ضمّ الاندلس الى المغرب . وكان مع هؤلاء الثوار شخصيات أدبية معروفة ، فتَلَمَّت في الذّروة والغارب من الثورة[١] ، كما كانت هناك شخصيات أخرى تتولى مناصب ساميةً ولا تزال تُشنّع عليهم وتطعن فيهم ، فطالما غضّوا النظر عن هذه ولم يعاقبوا تلك الا بعقوبات طفيفة قد لا تتجاوز الحِرمان السياسي من الحقوق المدنية كما نُعبّر اليوم ، ومَن يدرينا أن ذلك من تأثير خضوعهم لأحكام الشرع وعملِهم بقول فقهاء الاسلام ؛ دِين العدالة والتسامح ؟ .

١ – نشير الى ثورة الرئيس ابن الحاج على أمير المسلمين علي بن يوسف وانضمام الكاتب ابن أبي الخصال اليه ويأتي في الفصل التالي مزيد بيان لذلك .. والى ابن الطلاع الفقيه القرطبي الذي كان كثير العصبيّة لبني عباد متجاهراً بها فاخر عن الفتيا والشورى لذلك .

وإلى ذلك فان مما ينبغي ان يُعلَن ان قضية الإحياء إنما أثارها وتولى كِبْرها ابو عبدالله بن حَمْدِين قاضي قرطبة ، وكذلك قضية إزعاج ابي العباس بن العريف من المريّة الى مراكش انما كانت بسعي فقهاء بلده .

ولا ننكر أن بعضَ فقهاء المغرب تواطأوا مع فقهاء الأندلس على رأيهم في الاحياء ، ولكنا نجد أبا الفضل بن النَّحْوي من علماء المغرب الأوسط ، يَعارض فُتيا ابنِ حمدين وينتصر للغزالي . وكان قد انتسخ كتاب الاحياء وجعله ثلاثين جزءاً . فاذا دخل شهر رمضان قرأ في كل يوم منه جزءا ، وكان يقول : وددت اني لم انظر في عمري سوى هذا الكتاب . وكذلك أبو الحسن البرْجي من فقهاء المرية عارض في هذه الفتيا، وأوجب في نُسخ الإحياء لمَّا أحرقها ابن حمدين تأديب محرقها وتضمينه قيمتها لانها مال مسلم. وقيل له أتكتب بما قلتَه خطّ يدك ؟ فقال سُبْحَنَ الله ! « كبُر مقتاً عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون » . ثم كتب السؤال في النازلة وكتب فتياه بعَقبه . ودُفع الى أبي بكر بن عمر بن أحمد بن الفَصيح وأبي القاسم بن ورْد وغيرهما من فقهاء المريّة ومشائخها ، فكتب كلٌّ واحد منهم فيه بخطه : « وبه يقول فلان » مسلّمين لعلمه وزهده . فغاظ ذلك ابنَ حمْدين لمَّا بلغه وكسر من حدّته . وكتب الى قاضي المريّة حينئذ أبي عبد الملك مروان بن عبد الملك بعزله عن الخطّة التي له ؛ فأخبرَ بزهده وانقباضه عن الدنيا . وكان عليٌّ بنُ حِرزهِم من فقهاء فاس قد وافق أولاً على تلك الفُتيا التي تدينُ كتابَ الإحياء ، ثم بدا له فرجع عنها ..

وهكذا نرى ان هذه الفتنة أندلسيّةٌ في الأصل ، وأن رجال الدولة إنما أخذوا فيها برأي الأغلبيَّة من رجال الفقه ، والرّسميّين منهم بالخصوص ، كابن حمْدين الذي كان قاضياً بعاصمة الأندلس ، وهم مع ذلك لم يستَقصوا ولم يتتبَّعوا من خالف من أهل العلم الأمر العاليَ الصادر في هذا الصّدد تسامحاً منهم وتغاضياً . ولعلّهم كانوا يكبحون من جماح المتحمّسين للقضيّة ، ولولا ذلك لربَّما سطا ابنُ حمْدين بفقهاء المريّة الذين وافقوا أبا الحسن البرجي على فتياه ، إذ بعيدٌ أن يخلو بعضهم من خُطة إفتاءٍ أو شهادةٍ أو تدريسٍ أو خطابةٍ أو إمامة ...

هذا ونحن نُشرك الأندلس في الحديث عن المغرب لأن يوسف بن تاشفين بتوحيده للبلدين وحّدَ تاريخهما وجعَلهما وطناً واحداً يتبادلُ سكانه المصالح والمنافع ، وقد

انتفت بينهم الفوارق السياسيّة وزالت الحواجزُ الاصطلاحيّة ، فسكن بعضُهم إلى بعض ، وتقاربوا واتصلوا لا كما كان تقارُبهم واتصالهم من قبـــل ، بل بصفة مجديّة ومؤثرة في جميع مناحي الحياة .. فالمغرب يبذُل حمايته للأندلس ويدافع عنها العدوّ المُغـــير، والأندلس تبذل ثقافتها ومعارفهـــا للمغرب ، فرجالها في خدمة الدولة ، وكتّابها وشعراؤها يزينون بلاط مراكش . وقد فعل الاحتكاك بالأندلسيين الأفاعيل في تقدُّم الحياة الفكرية بالمغرب ونهضة العلوم والآداب . وكما كانت الأندلس مهاجَر مَن لم تساعده الحـــال من أبناء المغرب في العصر السابق ، صار المغرب مهاجَر الأندلسيين في هذا العصر ، وأصبحت مراكش حاضرة المغرب يومئذٍ وكرسيَّ مملكته ؛ مهوى أفئدة المثقّفين ومطمح أنظار المتأدبين ، وفي هـذا الصدد يقول عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجِب: « وانقطع الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من الجزيرة من أهل كل علم ُفحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه من بعده من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتّفق اجتماعُه في عصر من الأعصار » .

ولعل في هذا ما يدفع القول بأن غيرَ الفقهاء لم يكن لهم قبول في هـذه الدولة ، فالأمر على ما يظهر إنما يتعلّق بالنفوذ والسّيطرة ، وتلك هي سيادة القانون التي يمثّلها الفقهاء كما قدّمنا. على أن غالِبَ أهل العلم والأدب في العصور المتقدمة كانوا ممن درسوا الفقه وشاركوا في معرفة أصوله وفروعه . ولقبُ فقيه كثيراً ما كان يُطلق على العالم بأي علم كان ولو لم تكن له ممارسة للفقه ، فربمـــا عنى المؤرخون الذين يتحدثون عن تقريب الدولة للفقهاء واختصاصها لهم انها قربت اهل العلم[1] واختصتهم بالرعاية من دون الزعماء واهل العصبيّات القبلية كما كان الشأن في الدول التي قبلها بل والتي بعدها وقد قال ابن خلدون في المقدمة: إنما كان القضاء في الأمر القديم لأهل العصبيّة من قبيل الدولة ومن إليها كما هي الوزارة لعهدنا بالمغرب .

ومهما يكن من أمر فان علم الفقه على مذهب الإمام مالك الذي سجلنا توطده في العصر السابق قد واصل تقدمه في هذا العصر ، وعقدت المجالس الحافلة في كل من

---

١ – انظر الحلل الموشية ص ٥٩ ففيها عبارات تشهد لما قلناه

سبتة وفاس ومراكش للمناظرة عليه ، وامتزجت دراسة الفقه بعلم الأصول ، وظهر الاشتغال بعلم الكلام على طريقة أهل النظر والتأويل ، ولم يكن قبل ذلك مما يشتغل به أحد ، وعني كثيرون بعلم القراءات . هـــذا العلم الذي لم ينقطع الاشتغال به في المغرب في مختلف العصور ، وهو من فروع علم التفسير . ونشط الاشتغال بعلم الحديث والرواية فكثرت الرحلات لسماعه والأخذ عن رجاله رغبة في علو الاسناد والضبط والاتقان . وكان علم التصوف مما له الشفوف في هذا العصر ، ونظرة واحـــدة في كتاب التشوّف لابن الزيات تظهر القارىء على كثرة من كان يأخذ بطريق القوم من رجال المغرب في هذا العصر . ولكن مما يلاحظ أن تصوفهم إنمـــا كان رياضة ومجاهدة ولم يكن هذا التصوُّفَ الفلسفيَّ الذي أنكره الفقهاء على الغزّالي فأحرقوا كتابه ، وعلى ابن العريف وابن برجـــان والميورقي فحملوا أمير المسلمين عليَّ بن يوسف على إشخاصهم إلى مراكش ، ثم ندم على ما فرط منه في حقهم بعد ذلك . ولم تكن العلوم الفلسفية والرياضية والطب قليلة الحظ من العناية بها والاقبال عليها ؛ فقد رأينا كبير فلاسفة العصر أبا بكر بن باجة يحظى برعاية أحـــد امراء المرابطين ، ويسكن مدينة فاس . ولا شك انه قد أُخذت عنه علوم جمة في العاصمة العلمية . وكان ابو العـــلاء بن زهر الطبيب ممن حظي عند عليّ بن يوسف ، وهو الذي أمر بجمع مجرّباته بعد موته ؛ فجمعت بمراكش وبسائر بلاد المغرب والأندلس وانتسخت في جمادى الآخرة سنة ٥٢٦ . وكان الفيلسوف مالك بن وهيب وزيراً له . كما سبقت الاشارة إلى ذلك ، ولما أظهر المهدي بن تومرت دعوته بمراكش وأُحضر بين يدي أمير المسلمين ، كان ابن وهيب هذا هو الذي تولى مناظرته ، لأنه كان قـــد تثقف بفنون العلم والمنطق والكلام في الشرق ، فلم يقدر على مصاولته غير ابن وهيب . وقبل ضمّ الأندلس إلى المغرب كان بسبتة ابنُ مرّانة ، وهو من اعلم الناس بالحساب والفرائض والهندسة والفقه وله تلامذة وتآليف ، ومن تلامذته ابنُ العربي الفرضي الحاسب ، وهو من اهل بلده . وكان المعتمد بن عباد يقول : أشتهي أن يكون عندي من أهل سبتة ثلاثة نفر : ابن غازي الخطيب ، وابن عطاء الكاتب ، وابن مرّانة الفرضي ، ذكره ياقوت في معجم البلدان . ونظنّ أن غير سبتة من بقية مدن المغرب العلميّة كانت مثلها في احتوائها على رجال من ذوي المعارف العامة ، وإنما الآفةُ في ضيـــاع أخبارها والاهمال الذي يمنى به هذا الصنف من العلماء خاصة .

وظهر في هذا العصر أيضاً الاشتغالُ بالعلوم الأدبيّة واللسانية من نحوٍ ولغـــةٍ

وشعرٍ وكتابة وكما نبغ في كل العلوم التي ذكرنا أفرادٌ عديدون ، كذلك نبغ في الأدب والشعر أفرادٌ نجـد تراجمهم لأول مرة إلى جانب تراجم نظرائهم من الأندلسيين وغيرهم في المجموعات الأدبية المعروفة : كقلائد العقيان وذخيرة ابن بسّام وغيرهما . وشارك الأمراءُ المرابطون والرؤساء منهم في طلب العلم والتحصيل ، فنجد مثلاً أبا الحسين بن سرّاج وهو من أعـلم الناس بالنحو واشعـار العرب وحكاياتها ولغاتها واخبارها يجتمع إليه للسماع منه نحو الخمسين من رؤساء الملثّمين مع مهرة الكتّاب كأبي عبدالله بن أبي الخصال وتلك الطبقة . ونجـد مثل ابن أيوب الفهري راوية الحديث المسلسل في الأخذ باليد[1] يأخذه عنه جمٌّ غفـير من الناس فينافسهم في ذلك الامير سير بن علي بن يوسف ، والرئيس المنصور بن محمد ابن الحاج اللمتوني . وكان المنصور هذا من رجال العلم والفضل ، سمع بمرسية من أبي علي الصدفي ، وله سماع كثير من شيوخ جلة وفي بلاد شتى كأبي محمد بن عتّاب وأبي بحر الأسدي بقرطبة ، وطارق بن يعيش ببلنسية وغيرهم . وكان ملوكي الأدوات سامي الهمة نزيه النفس راغباً في العلم منافساً في الدواوين العتيقة والأصول النفيسة . جمع من ذلك ما أعجز أهل زمانه . قالوا : وهو فخرٌ لصنهاجة ليس لهم مثله ممن دخل الاندلس . ومثله زاوي بن مناد المعروف بابن تقسوط في كثرة السماع والأخذ عن أبي علي الصدفي وغيره ، وكان ديناً فاضلاً معنيّاً بالعلم وكتب بخطه على دقته علماً كثيراً . وكذلك الامير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين المعروف بابن تعيّشت[2] والي مُرسية ، سمع من أبي عليّ الصدفي وكان له منـه دولةٌ[3] خاصة في منزله ، وله أيادٍ جمة في رعاية العـلم والأدب فضلاً عن نجدته وشجاعتـه . « وبالجملة فهو من بيت جهـادٍ واجتهاد » كما قال ابن الأبّار في معجم أصحاب أبي علي . ثم زاد قائـلاً : « وفي دولة اخيـه عليّ نفقت العلوم والآداب وكثر النبهاء وخصوصاً الكتاب » . وحكى ابو بكر بن الصيرفي في

---

١ - هو حديث رواه المذكور فيحالة أخذ رجال سنده كلٌّ منهم بيد الآخرقائلاً : أخذ بيدي فلان وقال : حتى يصل الى الصحابي الذي رواه عن النبي (ص) وهو البراء بن عازب (رض) قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحّب بي وأخذ بيدي ثم قال لي بابراء : أتدري لأي شيء أخذتُ بيدك؟ قال قلت خيراً يا نبي الله . قال لا يلقى مسلم مسلماً فيبَش‍ّ به ويرحب به ويأخذ بيده إلا تناثرت الذنوب بينهما كما يتناثر ورق الشجر اليابس .

٢ - هو اسم أمه عُرِفَ به . ٣ - يعني درساً خاصاً .

تاريخه أن علياً هذا استجاز أبا عبد الله أحمد بن محمـــد الخولانيّ جميع رواياته لعُلوّ اسناده فاجاز له . وأبوه أبو يعقوب مع نشأته في الصحراء كان لا يُمضي أمراً إلا بمشورة الفقهاء ، وفي هذا النص مِصداقٌ لما قدمناه عن المراكشي من نشاط الحياة الفكريّة في هذا العصر ، زيادةً على ما تضمنه من كون أمير المسلمين نفسه كان يهتم بالحديث والرواية ، حتى إنه ليَستجيز العلماء ذوي السَّنَد العالي . وكان الأمير ميمون ابن ياسين أيضاً ممن عُنيَ بالرواية وسماع العلم . وله رحلة حج فيها وسمعَ بمكة من أبي عبد الله الطَّبري صحيح مُسلم سنة ٤٩٧ وسمع بها أيضاً من أبي مكتوم بن أبي ذرّ الَهرَوي صحيح البخاري في أصل أبيه أبي ذَرّ وابتاعه منه بمـال جزيل فأوصله إلى المغرب .

ولما ذكر الحافظ السِّلفي أبا مكتوم هذا في كتابه الوجيز قال : « كان ميمون بن ياسين من أُمراء المرابطين رَغِبَ في السماع منه بمكة واستقدمه من سَراة بني شَبابة ، وبها كان سكناه وسُكنى أبيه أبي ذَرّ من قبْله . فاشترى منه صحيحَ البخاري أصل أبيه الذي سمع فيه على أبي إسحق المُستملي وغيره بجملة كبيرة وسمِعَه عليه في عدة أشهر قبل وصول الحجيج » . ثم قفَل ميمونٌ هذا وحدَّث بالأندلس ، فسمِع الناس منه باشبيلية وغيرها. وممن حدث عنه أبو إسحق بن حَبيش وأبو القاسم بن بشكوال وأبو إسحق بن فَرقد وأبو بكر بن خير وغيرهم . فهل بعد هـــذا غايةٌ في التعلُّق بالعلم وتشجيعه من رجال الدولة المرابطية ؟

واشتهر بالأدب وقول الشعر منهم الأمير أبو بكر بن إبراهيم المَسوفي الصنهاجي المعروف بابن تافلويت صهرُ علي بن يوسف ، وكان والياً على تلمسان وعلى سَرقُسطة ويأتي بعض شعره في قسم المنتخبات .

ولم يقتصر هذا الولوع بالعلم والنُّبوغ في الأدب على الرجال منهم بل ان النساء شاركن أيضاً بنصيبهن في ذلك . وممن احتفظ التاريخ باسمائهن من نوابغ المرابطيّات الأميرة تميمة بنت يوسف بن تاشفين أخت عليّ ، وتكنى أمَّ طلحة . سكنت فاساً وكانت كاملة الحسن راجحة العقل مشهورةً بالأدب والكرم . وحكايتُها مع كاتبهـا تأتي في الجزء الثاني . ومنهن زينب بنت إبراهيم بن تافلويت أخت أبي بكر المذكور آنفاً ، كانت زوجاً للأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين وكانت من أهـل الخير

والتصاون والنوافل والصدقات وأعمال البرّ ، تحفظ جملة وافرة من الشعر ومدَحها الشعراء وأثنوا عليها كثيراً . ومثلها أختُها حوّاء .

وإن ننس لا ننس جامعَ ابن يوسف وهو بمراكش مثلُ القرويّين بفاس ، فهو من مُنشآت هذا العصر . ومنذ بناه علي بن يوسف لم يزل المركزَ الثاني للدراسات العلمية والأدبية بالمغرب . على ان القرويين لم تفتأ تُحاط بالعناية الكاملة من الزيادة فيها كلّما ضاقت أرجاؤها ، وتجديد معالمها التي يتسوّر إليها الدُثور . وقد نقِض بناؤها في أيام علي بن يوسف وعمِلَ على توسعتها من جميع الجهات فبلغت بلاطاتها من الصحن الى القِبلة عشر بَلاطات[1] . واحتُفل في عمل القبّة التي بأعلى المحراب وما يُحاذيها من وسط البلاطين المتصلين بها فصُنع ذلك بالجصّ المُقربَص الفاخر الصنعة ، ونُقشتَ واجهة المحراب بالنقوش المذهبة الجميلة ، ورُكّب في شمسيّاته أنواع الزجاج الملوّن البديع ، إلى غير ذلك من فنون الزخرفة وضروب الزينة . وكان كل ما أُنفِق في ذلك من تبرعات المحسنين، إذ لم يزل هذا المسجد العظيم منذ تأسيسه من الشّعب واليه، وذلك هو سرُّ عظمته الخالدة . لكن الذي يلفت الأنظار من اهتمام الدولة بالقرويين وتعزيز مركزها كمعهد دراسيّ عالٍ هو بناء المدارس التي تُتّخذ لايواء الطلبة وتدريس بعض العلوم التي يكون المسجد غير مناسب لتدريسها بسبب ما تقتضيه من إجراء بعض التجربات واستعمال بعض الآلات . وقد بدأ ذلك في هذا العصر إذ ثبت أنه كانت هناك بفاس مدرسةٌ من بناء يوسف بن تاشفين تُعرف بمدرسة الصّابرين ومن الجائز أن يكون هناك غيرُها . والغريب هو أن يتوافق المغرب والمشرق في وقت إنشاء المدارس، لأنّ هذا التاريخ هوالذي أنشأ فيه الوزير نِظام الملك مدرسته العلميّة ببغداد وهي أول مدرسة في الشرق كذلك .

ويطول بنا تتبع الجزئيات التي تدل على اهتمام الأمراء المرابطين بنهضة العلم والأدب مع أنها تفاريق قليلة خلَصت من الاهمال الذي أصاب تاريخ هذه الدولة ونجدها مبثوثةً هنا وهناك . ولو وصل الينا تاريخ ابن الصّيرفي الذي سبق نقل ابن الأبّار عنه لكان فيه شفاءٌ للنفس من هذه الناحية ؛ وكان ابن الصيرفي هذا واسمه ابو

[1] – بلاطات المسجد في إطلاق المغاربة هي رواقاته .

بكر بن محمد الأنصاري الغرناطي أحد الشعراء المجوّدين له تاريخٌ مفيد قصَرَه على الدولة اللمتونية وكان من شعرائها وخدّام أمرائها وتوفي سنة ٥٥٧ أي بعد انقراض هذه الدولة بقليل ، فلا شك ان تاريخه يكون أوثق مصدر عن المرابطين ودولتهم .

ونرى أننا أطلنا بتسمية الأمراء المرابطين الذين كانت لهم شهرةٌ بالعلم والأدب في حين أننا لم نُسمّ أحداً غيرهم ممن اشتهروا بالتفوّق في علم من العلوم المتقدمة الذكر عدا الافرادَ الثلاثةَ من أهل سبتة الذين ذُكروا عرضاً أثناء الحديث عن العلوم الحِكميّة . ولو أردنا تسمية جميع من نبغ في باب من أبواب المعرفة من أهل هذا العصر لطال بنا الكلام لأنهم كثيرون جداً ولكنّا نقتصر على الشخصيات البارزة منهم تجنباً للاطالة .

فمن الفقهاء عبد الملك المصْمودي قاضي الجماعة بمراكش ، وابراهيم بن جعفر اللّواتي الفقيه المُشاوَر المعروف بابن الفاسي ، وعبدالله بن سعيد الوجْدي قاضي بلنسية ، ومنصور بن مسلم بن عبدون الزّرْهوني المعروف بابن أبي فوناس الفقيه الحافظ المشاوَر ، وعبدالله بن محمد بن ابراهيم اللّخمي النّكوري قاضي الجماعة بمراكش ، وعبدالله بن احمد بن خلّوف الأزْدي السبتي المعروف بابن شبُّونة أحد حفاظ المذهب المناظرين عليه ، وعبدالمنعم بن عبدالله بن علّوش المخزومي الطنجي ممن ولي القضاء بغير موضع من الأندلس ، وابو عبدالله بن محمد الأموي السبتي قاضيها ومفتيها الفقيه الفرضي المفسّر ، وإبراهيم بن أحمد البصْري من قضاة سبتة أيضاً .

ومن رجال الحديث والرواية بكار بن برهون بن الغرديس ، من بيت شهير بفاس ، ونزل هو سجلماسة ، وكان قد حجّ قديماً وسمع البخاري من أبي ذرّ الهرَوي . وقد رحل إليه أبو القاسم بن ورْد الذي قيل فيه إنه لم يكن بالأندلس مثله ، فلقيه بسجلماسة وسمع منه الصحيح . ومنهم القاضي أبو عبدالله محمد بن عيسى التميمي وولده عبدالله . وإبراهيم بن أحمد بن خلف السّلمي ، عُرف بابن فرتون ممن لقي أبويْ علي الصدفي والغساني وابن الغرديس وتلك الطبقة . ناهيك بكبير محدثي المغرب القاضي عياض الذي يُعدُّ بحق مفخرةً لهذه البلاد . وهو وإن كان ممن أدرك عصر الموحدين إلا أن نبوغه وظهوره كانا في هذا العصر .

وثَمّ أفرادٌ أفذاذٌ من بيوتات علمية شاركت في الفقه ورواية الحديث وغيرهما من

العلوم كبني العجوز السبتيّين الذين اشتهر أوائلهم في العصر السابق ، وقد ترجمنا لواسطة عِقْدهم عبد الرحيم ، وبني سَمَجون الطنجيين ، وبني ملْجوم الفاسيين .

ومن اهل القراآت والتفسير أبو بكر محمد بن علي المعافِري السبتي ، عُرف بابن الجوْزي ، وهو خالُ القاضي عياض له تصنيف حسنٌ في التفسير لم يكمل وآخر في التوحيد . وكان مُتفنّناً في العلوم ومن أهل البلاغة والشعر . ومن شعره ما نسب لأبي الفرج بن الجوزي غلطاً لاشتباه اسميهما ، ومنهم المقرىء ابو عبدالله القيسي المكناسي ، وأحمدُ بن الحطيئة التميمي الفاسي كان رأساً في علم القراآت وأقرأ الجمّ الغفير من الناس .

وأما التصوف فقد أشرنا إلى كثرة من تعاطاه ، وأحسن من كان يمثله من الوجهة العلمية والعملية أبو علي بن حرزهم .

وكان القاضي أبو القاسم بن محمد المعافري السّبتي ممن جمع بين علوم الفقه والحديث والأصول والكلام ورحل الى المشرق ودَرّس العلمين الأخيرين كثيراً . وكذلك يوسف بن الكلبي الضرير كان ممن اشتغل بعلم الكلام على مذهب الأشعرية ونظّار أهل السنّة وسكن سبتة ودرّس بها وبغيرها من مدن المغرب . وأبو محمد عبد الغالب السالمي المتكلم أيضاً هو ممن سكن سبتة ونشر بها علمه . وهؤلاء الثلاثة كلهم من شيوخ القاضي عياض وهم الطليعة الأولى التي نشرت علم الكلام بالمغرب على مذهب الأشاعرة . إلا أن المغربي الأصيل منهم هو الأول .

وبالاضافة إلى ابن مرّانة السبتي الذي ذكرنا نبوغه في علم العدد والهندسة ، نذكر القاضي أبا الحسن بن زنباع الطنجي ممن نبغ في الطب والعلاج ، وكان إلى ذلك من أعلام الأدب البارزين .

وفي علم النحو واللغة والأدب اشتهر ابو علي الحسن بن طريف السبتي ومروان ابن سمجون الطنجي فضلاً عن الأدباء والشعراء الذين نبغوا في هذا العصر مثل ابن زنباع المذكور آنفاً ويحيى بن الزّيتوني وعبد العزيز السوسي وابن القابلة السبتي . وسعيد بن حنيف ، وابن عطاء الكاتب ، وابن غازي الخطيب . وسنترجم لخاصة الخاصة ممن سمّيناهم من الشخصيّات العلميّة والأدبية قريباً .

رِعَايةُ المُرابطين للأدبِ وأهْلِه

لم يكن المرابطون أقلّ بِرًّا بالأدب وأهله منهم بالعلم والعلماء . وليس أدلّ على نفي ما يتهمهم به خصومهم في مُجافاة الأدب وعدم الاهتمام به ، من هـــذه الرعاية الكريمة التي أولاها أمراؤهم لعليَة الأدباء ، من كتاب وشعراء ، منذ اليوم الذي توطَّدت فيه دعائمُ ملكهم . ولقد كانت عنايتُهم بأدباء الأندلس على الخصوص فائقة الحد ، حتى لم يبق منهم أديب مرموق لم يُنَط به عملٌ في بَلاط أمير المسلمين بمراكش أو في ديوان أحد الأمراء بالأقاليم .

وأول من نذكر منهم الكاتب عبد الرحمن بنُ أسباط الذي كان في خدمة يوسف ابن تاشفين قبل دخول هذا إلى الأندلس . وهو الذي استشاره يوسف في الأمر عند ورود كتاب المعتمد عليه فقال له : إن أرض الأندلس ضيّقة ، انما يعمُر المسلمون منها الثُمُن وسبعة أثمان يعمُرها النصارى ، ومن دخلهـــا كان تحت حكم صاحبها . وهذا الرجل الذي استدعاك ليس بينك وبينه صداقة قديمة فربما اذا جُزت اليه وقُضي الغرض أمسكك بها ، فاكتب إليه انه لا يمكنك الجواز إلا أن يعطيك الجزيرة الخضراء ؛ فتجعل فيها أثقالك وجندك ويكون الأمر حينئذ بيدك متى شئتَ الصدور عنهـــا صدرت ؛ فعمِل باشارته ولم يعبُر الى الأندلس حتى سلَّم اليه المعتمد الجزيرة الخضراء فشحنها بالعتاد والرجال .

واستكتب يوسف بعد ذلك أبا بكر بن القَصيرة وكان من وزراء المعتمد وكتّابه . وهو الذي أجاب عن كتاب الأذفونش[1] الى يوسف عند عبوره الى الأندلس . وكان الأذفونش يحاول أن يصرف يوسف عما عزم عليه من نصرة عرب الأندلس فأغلظ له في القول ووصف ما معه من القوة والعدد وبالغ في ذلك . ولهذا احتفل ابن القصيرة في جوابه أيّما احتفال ، وكان كاتباً مُفلِقاً ، فلما قُرِىءَ الجواب على يوسف قال هذا كتاب طويل ، وأحضر كتاب الأذفونش وكتب على ظهره : « الذي يكون ستراهُ »

١ – ذكر في الاستقصاء ١٢٤ ج ل ان كلمة الاذفونش لقب لملوك الأسبان وما نراها إلا تعريباً لاسم الفونش .

وقيل انه كتب : « الجوابُ ما ترى لا ما تسمع » وأرسله اليه . فلما وقف عليه الأذفونش ارتاع له وعلم أنه بُلِيَ برجل له دهاءٌ وحزم يفعل ولا يقول . ويظهر من بعض عبارات الفتح في القلائد ان الكاتب المذكور تعرَّض لبعض شدائد الدهر قبل أن يُسعده الحظُّ بالالتحاق بخدمة أمير المسلمين .

وكتب ليوسف كذلك الوزير محمد بن عبد الغفور ، وهو الذي كتب مرسوم ولاية العهد لولده عليّ . وكتب له أيضاً أديبُ الأندلس عبد المجيد بن عبدون باستدعاء منه له ، وكان قد التحق بخدمة الأمير سير بن أبي بكر اللمتوني . وهو صاحب الرائية المشهورة في رثاء بني الأفطس ملوك بَطليَوس .. ومن حسن أدبه وقوة عارضته أنه بكى فيها مخدوميه السابقين وأفاض في ذكر محاسنهم ولم يُعرِّض فيها بالمرابطين ولا أشار لهم بكلمة سوء وإنما أنحى باللوم على الدهر وتفنّن في ذكر غدره بالكرام بما أحزن القلوب وأقضَّ الجنوب . وقيل إنه إنما كتب لعلي بن يوسف . وعلى كل فان عنايتهم به ظاهرةٌ واستدعاءهم له مؤكَّد وقد قابل هو هذه العناية بمثلها إذ كان رجلاً لبقاً يقدِّر الأشياء بقدرها ويفهم ماجريات الأحوال فرثى أولياء نعمته الأولين ولم يبخس مخدوميه الجُدُد حقَّهم ولا أنكر عارفتهم .

لا كما وقع للوزير أبي محمد بن أبي الخصال وكان من أنبه الكتاب عند علي بن يوسف وأكبرهم مكانةً لديه ، غير أنه على ما يظهر لم يكن مخلصاً في خدمته لهم . ولمَّا انهزم جيش بَلنسية أمام ابن رُذمير[1] كلَّفه أمير المسلمين أن يكتب اليهم رسالة توبيخ ، فأبدأ وأعاد في تبكيتهم والإزراء عليهم ، وكأنه اهتبَلها فرصةً لاظهار مكنون حقده على المرابطين جملةً ، فكان من فصول تلك الرسالة قوله : « أيْ بني اللَّئيمة ، وأعيارَ الهزيمة ، إلامَ يُزيِّفكم الناقد ، ويردُّكم الفارس الواحد ؟ »

ألَا هَلْ اتاها على نأيِها ... بِما فَضَحَت قومَها غامِدُ
تمَنَّيتُمُ مائتَيْ فارسٍ ... فرَدَّكم فارسٌ واحِدُ

---

١ — هو الفونس الأول ملك أراغون ، وانظر عن حروبه مع المرابطين كتاب القرطاس أثناء ترجمة علي بن يوسف .

فلَيتَ لكم مارتباط الُخيول ضَأْناً لهــا حالِبٌ قاعِدُ

ومَن لرُعاة الإبل ، بالجد المقبل ، فلولا مَن لدينا مِن ذويكم ، وضراعتُهم الينا فيكم ، لألحقناكم بصحرائكم ، وطهّرنا الجزيرة من رحضائكم ، بعد أن نوسعكم عقاباً ، ونجدّ أن لا تلوثوا على وجهٍ نقابا .. » الى آخرها وهي طويلة . فكانت هذه الرسالة سبباً في تأخيره عن الكتابة . وقال علي بن يوسف لأخيه أبي مروان ، وكان متخططاً ايضاً في كتابته : لقد كنا في شك من بُغض أبي محمد للمرابطين والآن قد صحّ عندنا .

وكان ابو محمد هذا قد أوى الى ظل المنصور بن محمد بن الحاج اللمتوني أمير قرطبة لما ثار على علي بن يوسف « ومع ذلك فلما وقع الرضا على ابن الحاج ووُلي ما ولي من أعمال المغرب عاد ابن أبي الخصال الى مكانته منه ، حتى توفي هـذا الأمير بالثغر الشرقي من الأندلس وبقي هو ببيته مُنزوياً لم ينله من المرابطين سوءٌ إلى أن اغتيل في فتنة ابن حمدين سنة ٥٤٠ .. فهل بعد هذا غاية في البرّ والتسامح ? ولو صدر بعضُ ما ذكر من أبي محمد في عهد ملوك الطوائف لكان ذلك كافياً في الإطاحة برأسه . واعتبر أنتَ بقضية ابن عمّار مع المعتمد مع مـا كان بينهما من عظيم المودة وقـديم الماتّة ، ومنها يتبيّن لك نبلُ المعاملة التي قابل بها أمير المسلمين إساءة ابن أبي الخصال ، إذ لم يزد على أن أعفاه من كتابته » . هذا على حين ان أخاه أبا مروان بقي متميزاً عنده ومن خدمة دولته بالصدارة .

ولا ندع هذهِ الحادثة تمرُّ دونَ ان نقيمها حجـةً على مَن يتّهم المرابطين بعـدم الذوق الأدبي وكثافة الإحساس الفني ، ولذلك كسِف الأدب في عهدهم واضمحلّ اضمحلالاً مؤسفاً ، بل لا نعدمُ من يجرّدُهم حتى من معرفة اللسان العربي ؛ فكيف فطن عليٌّ بن يوسف لمغامز ابن أبي الخصال وتورياته التي ظن أنها تخفى على مخدومه ، إن لم يكن ثقفاً لقفاً وعلى جانب من العلم يدرك به سوء النية التي أملتْ على كاتبه رسالته تلك ?

وما بالنا لا نقول مثل هذا ايضاً في يوسف نفسه ، وقد قرأ عليه الكاتب القدير ابو بكر بن القصيرة جوابه للاذفنش ، فقال هذا جواب طويل ، وأملى عليه كلمته التي ذهبت مثلاً أو كتبها بنفسه وهي قوله : « الجواب مـا ترى لا ما تسمع » ! .. فهل

صاحب هذه الملاحظة وذلك الجواب يكون لا يعرف العربية ؟ وهل موقف يوسف هذا إلا مثل موقف أبي مسلم الخراساني من رسالة عبد الحميد الكاتب التي بعثها اليه عن مخدومه مَروان الحمار آخر خلفاء بني أُمية ، وكانت من الطول بحيث تقع في مجلد ، فلما وصلت الى أبي مسلم أحرقها ولم ينظر فيها . وكذلك قدَّر يوسف في رسالة ابن القصيرة أنها لا يكون لها التأثير المطلوب في نفس الأذفنش بسبب طولها وربما أهملها لنفس السبب فعوّضها بعبارته البليغة التي أقضّت مضجعه !

وقالوا إن شعراء الأندلس مثلوا امام يوسف بعد انتصاره في موقعة الزلاقة وأنشدوه مدائحهم فيه ، وان المعتمد بن عباد قال له : ايعلم امير المسلمين ما قالوه ؟ فقال : لا ؛ ولكنهم يطلبون الخير . فليت شعري لماذا احتاج هنا إلى من يترجم له ولم يحتج اليه في فهم رسالة ابن القصيرة وانتقادها ؟ وهلا عدُّوا جواب أمير المسلمين على فرض صحة الحكاية من باب ما يسمّى عند البديعيين بأسلوب الحكيم ، فما غرض الشعراء بمدحه إلا طلب خيره ؟!..

أما ما نرويه نحن في هذه القصة ، فهو انه كان يحثو التراب بيده وهم يلقون قصائدهم ، فقال قائل : إنه يعرّض لهم بقول النبي (ص) : « احثوا في وجه المدّاحين التراب » !

ولا ننسَ في هذا الباب ما يروى عنه من أنه لما جال في بلاد الاندلس وتطوّف على أقطارها شبّهها بعُقاب رأسه طليطلة ومنقاره قلعة رباح وصدره جيّان ومخالبه غرناطة وجناحه الايمن بلادُ الغرب وجناحه الايسر بلاد الشرق . قال في الحلل الموشية . « وبالنظر الى كيفيّة وضعها وتمثيلها في الصفرة[1] يبدو بيان هذا التشبيه الذي هو راجعٌ الى سياسة أمرها واعتبار أحوالها » فهل صاحب هذا التشبيه البديع لا يفهم مثل قول ابن زيدون ؟

حالَتْ لفقدكم أيامُنا فغدَتْ ... سُوداً وكانتْ بِكُمْ بِيضاً ليَالِينا

---

١ – يعني الخريطة .

الذي يُقال ان المعتمد كتب به اليه ، فلما قرىءَ عليه قال : لعله يطلب منـــا جواري سوداً وبيضاً !.. فيا للصبيانيّات تروى للتنقيص من ذوي الأخطار !.

نعم لقد أهدى يوسف للمعتمد جارية نروي خبرها في الجزء الثاني ، وهذا الخبر وحده كافٍ في الدلالة على ما كان ليوسف من عناية بالأدب وأهلـه والفنّ وأربابه ، حتى الجواري المغنيات المؤدّبات !.. ولا غروَ فتلاميذُ مدرسة ابن ياسين أقـلُّ ما يتوفر فيهم المعرفة باللغة العربية . على ان النبغاء في العلم والفقه من اللمتونيين قـــد ظهروا قبل دخول ابن ياسين إلى الصحراء ، وقد تقدم ذكر بعضهم في العصر السابق.

وممن كتب لعلي بن يوسف من أدباء الأندلس باستدعاء منه الوزير ابو القـاسم بن الجد المعروف بابن الأحدب ، وأبو بكر بن محمد المعروف بابن القبطرنه .. ونصنا على الاستدعاء وأنه من أمير المسلمين نفسه لاظهار كامل العناية التي لقيهـــا هؤلاء الأدباءُ من رئيس الدولة وما كان لهـــذا الرئيس من عظيم الالتفات الى ذوي الكفايات الادبية من رجال الأندلس .

ومن قول أحدِ شعرائهم فيه مشيراً الى تقديم والده على أخيه تميم وهو أصغر منه :

لَئِنْ كانَ في الأَسنان يُحْسَبُ ثانياً علِيٌّ وفي العليـــاء يُحسَب أوَّلاَ
كذلِكُمْ الأَيْـــدي سوَاءٌ بَنانُهـــا وتَخْتَصُّ منهنَّ الخنـــاصِرُ بالُحلى

أما من التحق بخدمة بقية الامراء المرابطين من أدباء الأندلس ولقوا منهم كل بِرّ ورعاية فكثير ، منهم الفيلسوف الأديب ابو بكر بن باجة الذي كتب للأمير أبي بكر إبراهيم المعروف بابن تافلـْويت وحظيَ عنده حظوةً كبيرة ، وله فيه مدائح كثيرة . ولما توفي رثاه بعدّة مراتٍ تعبيراً عن وفائه له ، لما كان يجده عنده من مزيد الرعاية وحكايته معه لمّا سمع موشّحةً له في مدحه فحلف لا يمشي ابن باجة لداره إلا على الذهب تأتي في الجزء الثاني . ومدَح هـــذا الاميرَ أيضاً الشاعرُ ابن سارة الشَّنْتَريني . وهذه الاشعار كلها مذكورة في قلائد العِقيان .

ومنهم الفَتـْح بنُ خاقان الكاتب البليغ صاحب كتابَي القلائد والمطمح المعروفين ،

وقد الف كتابه القلائد باسم الامير ابراهيم بن يوسف بن تاشفين ، وأشادَ في مقدمته بمحاسنه وبفضله في إحياء رسم الادب بعد دروسه . وكان هذا الامير مُمدَّحاً مقصوداً من كبار الأدباء الأندلسيين لكرمه وشجاعته وأريحيته الأدبيّة . فممن مدحه الشاعر المجيد أبو اسحق بن خفاجة على قِلة رغبته في صحبة الملوك ومدْحه لهم . والوزير ابو بكر بن رحيم وابو الفضل بن محمد بن الأعْلَم الشَّنْتَمري وابو عامر بن عَقيد وابو الحسين بن نَسَيْفون وغيرهم ، ومدائحهم له ثابتة في القلائد والمُغرب لابن سعيد ، ما يمنعنا من ايرادها إلا خشيةُ التطويل .

وكان الامير عبدالله بن مَزْدليّ مثل الأمير ابراهيم في قصد الأدباء إياه ومدحهم له ، وممن مدحه القاضي ابو محمد بن عطِيَّةَ صاحبُ التفسير ، والوزير أبو جعفر بن مَسْعدة ، وكان كاتباً له ، والوزير ابو عامر بن أرقم ، له فيه قصيدة بارعة . ولهذا الوزير مقامة أدبيّة في اسم الامير تميم بن يوسف الذي كان هو أيضاً مألف أهل الأدب ومَعْقِد آمالهم .

ويطول بنا الأمر لو أردنا أن نتتبّع كل مَن آوى الى ظِلّ المرابطين من رجال الأدب فشملوه برعايتهم وأحاطوه بعنايتهم ، وكان في ذلك تشجيعٌ للحركة الأدبية وضمانٌ لازدهارها الذي ظهر أثره في المؤلّفات العديدة الموضوعة في هذا العصر ، وناهيك بقلائد الفتح بن خاقان وذخيرة ابن بسّام ، ولا يقتصر البرُّ بالأدب وأهله في هذا العصر على المرابطين من ملوكٍ وأمراء ، بل إن غيرَهم من الولاة كانوا كذلك يُشجّعون الأدبَ ويُظهرون مزيد العناية بأهله ، والناس كما يقال على دين ملوكهم . فهذا الرئيس أبو الحسن بن عَشرة من أهل سَلا كان من أهل العلم والنباهة جواداً مُمدّحاً ، قصده الشعراء والأدباء من كل جهة وناحية ، وخصوصاً من الأندلس ، وكان يلي قضاءَ بلده . ودخل الأندلس غازياً في سنة ثمان وثلاثين واربعمائة ، أعني قبل قيام دولة المرابطين ، فامتدحه جماعةٌ من أدبائها . ورحَل إلى الشرق لأداء فريضة الحجّ فامتُدح بالمهدّية ومصر وغيرهما . وتوفي سنة ٥٠٢ ببلده سَلا بعد أن أورث بنيه سُؤدداً ضخماً وشرفاً جمّاً .

ومثله أبو مروان بن سمَجون الطنجي رأس هذا البيت ، الذي يُعتبر مفخرةً لطنجة ، بما أنجب من علماء وأدباء عديدين . وكان هو نفسه من رجال العلم والأدب

شاعراً بليغاً وخطيباً فصيحاً . وله جـاه عظيم عند أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حتى إنه ليُعَدُّ نائبَه في شمـال المغرب والقُطر الأندلسي بأجمعه . وقصده الشعراء ومدحوه بأبلغ القول مما يأتي بعضه في المنتخبات .

على أننا لا ننتهي من هذا الحديث حتى نسجّل أن هذه الرعاية التي كان يحظى بها الأدباء الأندلسيّون من الأمراء المرابطين ، وكانت داعيةً لمداخلتهم لهم واختلاطهم بهم ؛ قـد أثـّرت في الأدب الأندلسي تأثيراً محسوساً فظهر بمظهر القوّة والجزالة واختفت منه عناصر الضُّعف والفُسولة التي كانت سائدة عليه أيام ملوك الطوائف . وانتحى الشعراء في شعرهم مناحي الجِدّ والتوُّقر بدل ما كانوا منغمسين فيه من البطالة والمجون ، وذلك نتيجة لتشبعهم بروح الحفاظ الذي كان يسيطر على رجال الدولة وارتفاع معنويات أهل الاندلس عموماً بما آتاهم الله من نصر على عدّوهم بعـد ما كانوا اصبحوا طعمة سائغة له . وقد سجل دوزي بغيظ هذه الظاهرة الجديدة التي طرأت على الأدب الاندلسي من جرّاء توجيه الأمراء المرابطين له ، واعتبرها تدهوراً في حقه ، في حين أننا نعتبرها انتعاشاً وبعثاً للأدب العربي الأصيل . والى القارىء مثالاً على ذلك هذه القصيدة التي يقولها الوزير ابن أرقم مدحاً للأمير عبدالله ابن مزدلي :

سرَيْتَ والليلُ من مَسْرَاك في وَهَل ... مُـبرَّأَ العَزْم من أيْنٍ ومن كسل

وسِرتَ في جَحْفَل يهدِي فوارسَه ... سناك تحت الدُّجى والعارِضِ الهَطِلِ

والبدرُ محتَجِبٌ لم تدْرِ أنجـمُه ... أغاب عن سَرَرٍ أم غاب عن خجَلِ

هوتْ اعادِيك مِن سارٍ يُؤرِّقُه ... رَكْضُ الجواد وحمْلُ اللّامة الفُضُلِ

إذ الملوك نِيامٌ في مَضاجِعهم ... مُسْتحسِنُونَ بهـاءَ الحَلْي والحُلَلِ

لِلّه صومُك بِرّاً يومَ فِطرِهِم ... وما توخَّيْتَ من وَجْهٍ ومن عَمَلِ

نحرْتَ فيه الكُماةَ الصِّيدَ مُحتَسِباً ... وحسبُ غيْرِك نَحرُ الشاءِ والإبل

إذَا صَرِيرُ المدَارَى هزّهم طرَباً ... ألهاكَ منه صريرُ البيض والأسلِ

وان ثنَتْهم عن الإقدام عاذلةٌ ... مضيتَ قُدْماً ولم تأذن الى العَذَلِ

كم ضمَّ ذا العيدُ من لاهٍ به غزِلٍ ... وانت تُنشِدُ أهلَ اللهو والغَزلِ

في الخَيْلِ والخافِقَاتِ البيض لي شُغُلُ ... ليس الصَّبَابةُ والصَّهْبَاءُ من شُغُلي

ظلَلْتَ يومَك لم تَنْقَع به ظمأً ... وظَلَّ رُمحك في عَلٍّ وفي نَهَلِ

وكلَّما رامتِ الرومُ الفرارَ أتتْ ... من كل أوْبٍ وضمَّتْها يَدُ الأجلِ

فصار مُقْبِلُهم نَهْباً ومُدْبِرُهم ... وعاد غانِمُهم من جُمْلة النَّفَلِ

فكم فككتَ من الأغلال عن عُنق ... وكم سددتَ بهذا الفتح من خَللِ

أنت الأميرُ الذي للمجدِ هِمَّتُه ... وللمَمالِك يَحْمِيهَا وللدُّولِ

وللْمَواهِب أوْ للخَطِّ أنمُلُه ... ما لم تَحِنَّ إلى الخَطِّيَّة الذُّبُلِ ...

ونسجّل هنا قوله او للخط التي تصحّفت في القلائد بالحظ ، وإنما هي الخط يعني الكتابة فكأنه يقول في أنامله : انها للسيف والقلم والكرم !..

تراجم بعض الشخصيات من هذا العصر

والآن نقدم تراجم بعض شخصيات هذا العصر الذين برّزوا في احد ابواب المعرفة التي قدمنا الكلام عليها ، متممين بذلك وصف النشاط العلمي والأدبي الذي وجد في المغرب على عهد المرابطين ، فنضعُ الصورةَ في إطارهـــا و نُحيطُ بالموضوع من جوانبه كلها .

عَبْدالله بن سَعيد الوَجْدي

يكنى أبا محمد و نسبته الى مدينة وجْدة عاصمة المغرب الشرقي. وليَ قضاء بلَنْسية لأول فتحها في الدولة اللمتونية واسترجاعها من الروم في رجب سنة ٤٩٥ وعلى يديه وتحت نظره تمَّ بناءُ المحراب بالمسجد الجامع منها في سنة ثمان وتسعين . وفي جانبـــه كان اسمه مخطوطاً إلى أن ملكـَها الروم ثانيةً في آخر صفر سنة ٦٣٦ قاله ابنُ الأبّار. وكان من جلـّة الفقهاء الحفـّاظ لمسائل الرأي القائمين عليها . وكان يُناظرُ عليه ويجتمع في ذلك إليه . وبه تفقـّه ابو حفص بنُ واجب وغيره . وقد حدَّث عنه ابو العرب عبد الوهاب بن محمد التـُّجيبي وابو عبدالله بن خليـــل القيسي نزيل مراكش وتوفي ببلنسية قبل سنة ٥١٠ .

ابراهيمُ بنُ جَعْفر اللّواتي

هو الفقيه المشاوَر ابو اسحق ، المعروف بابن الفاسي ، من أهـل سبتة . أخذ عن شيوخ بلده . ولزم الفقيه ابا الاصبغ بن سهْل وكتب له في قضائه بطنجة وغرناطة وسمع منه جميعَ كتبه وحدَّث بها عنه ، وكان بصيراً بالشروط والوثائق ؛ بل لم يكن في عصره من هو أقوَمُ عليها منه ، عارفاً بالاحكام متفنـّناً في معارف شتى . شاورَه القضاةُ بالمغرب والأندلس ، ودرّس الفقه زماناً. وأخذ عنه من الاكابر القاضي عياض

وأمثاله . وكان عاقلاً مَهيباً كثيرَ الوقار لا يتكلم أحد في مجلسه إلا بمسألة عِلم أو كلام فيه نفع . وألف مختصر ابن أبي زمنين فنحا فيه أحسن مَنحىً . وكانت وفاته في ٨ جمادى الأولى من عام ٥١٣ .

ابو عبدالله التميمي

الفقيه القاضي ابو عبدالله محمد بن عيسى بن حسين التميمي ، مولده بفاس سنة ٤٢٩ وانتقل به أبوه الى سبتة وهو شاب ؛ فطلب العلم على أبي عبدالله المسيلي وغيره . ورحل الى الأندلس ثلاث رحل ، إحداها في شبيبته الى اشبيلية ؛ فقرأ بها الأدب على أبي بكر بن القصيرة ، والثانية الى المَرِيَّة سنة ٤٨٠ فأخذ عن ابن المُرابط وأجازه الدّلائي ، والثالثة سنة ٨٨ الى قرطبة فسمع من ابن الطلاّع وأبي مروان بن سِراج وغيرهما . واتّسع في الأخذ وتقلّد الشورى وتولى القضاء بسبتة وبفاس، وكان عارفاً بالفقه والحديث حافظاً ضابطاً كثير الكتُب مَليح الخط والإنشاء والمحاضرة، من أعقل أهل زمانه وأفضلهم وأسمَتهم، تامّ الفضل، كامل المروءة عند الخاصة والعامة ، عظيم القدر ، وهو شيخ القاضي عياض الذي صدّر به فهرستَه ، لازمه للمناظرة عليه في المدوّنة والموّطأ وسماع المصنفات وأجازه جميع رواياته . قال : وكان من أحسن القضاة سيرةً وأنزهِهم ، وأجرأهم على الطريقة القويمة ، فمضى فقيراً حميداً واحتفل الناس بجنازته. وولِع العامة بنعشه مسحاً بالأكف ولمساً بأطراف الثياب تبرّكاً به رحمة الله عليه . توفي في ٢١ جمادى الأولى سنة ٥٠٥ وله ولد أسمه عبد الله من أهل العلم بالحديث والرواية والاتقان .

القاضي عياض

هو أبو الفضل عياضُ بن موسى بن عياض اليَحصُبي السَّبتي . كان إمام وقته في الحديث وعلومه ، عالماً بالتفسير وجميع علومه فقيهاً أُصولياً عالماً بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم ، كاتباً شاعراً مُجيداً ، ريّان من علم الأدب ، خطيباً بليغاً ، صبوراً حليماً جميلَ العِشرة جواداً سمحاً كثير الصدقة دَؤوباً على العمل صلباً في الحق . هكذا وصفه ابنُ فرحون في الدّيباج .

دخل الأندلس ورحل الى الجزائر الشرقيّة منها طالباً للعلم وأكثر الأخذ فنافت شيوخُه على المائة ، فيهم القاضي أبو بكر ابن العربي وأبو الوليد ابن رُشد الجدّ وابن عَتّاب وابن حمدين والمازري وأبو علي الصَّدَفي وغيرهم . وفي قلائد العقيان كتاب توصية به من أمير المسلمين إلى ابن حمدين لمّا قصده للأخذ عنه . وهذه من المناقب التي تُروى للمرابطين في الاعتناء بالعلم والاهتمام بنشره .

قال ابن بَشكوال : وجَمَعَ من علوم الحديث كثيراً وله عناية كبيرة به واهتمام بجمعه وتقييده ، وهو من أهل التفنّن في العلم واليقظة والفهم .

وبعد عودته من الأندلس أجلسه أهل سبتة للمناظرة عليه في المدوّنة وهو ابن ثلاثين سنةً او يُنيفُ عليها . ثم أُجلس للشُّورى ثم وَليَ قضاء بلده مدةً طويلة حمِدت سيرته فيها . ثم نُقِل الى قضاء غرناطة ، قال ابن الخطيب : وبَنى الزيادة الغربيَّة في الجامع الأعظم وبنى في جبل المينا الرّاتبة الشهيرة .

ولما ظهر أمرُ الموحّدين بادر الى الدخول في طاعتهم ، ثم انحرف عنهم لما اضطربت أحوالهم بثورة ابن هود ؛ فنقلوه الى مراكش مُشرّداً به عن بلده ، وبهـا توفي سنة ٥٤٤ ومولده بسبتة في شعبان ٤٩٦ .

وللقاضي عياض التصانيف البديعة منها إكمال المعْلم في شرح مسلم كمَّل به مُعْلم شيخه المازري . ومنها كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى ، أبدع فيه كلّ الابداع وسلّم له أكفاؤه براعته فيه ، ولم يُنازعه أحدٌ في الانفراد به ولا انكروا عليه مزيّة السبق اليه ، بل تشوفوا للظفر به وأنصفوا في الاستفادة منه وحمله عنه الناس فطارت نسخه شرقاً وغرباً . وهو في الحقيقة كتـاب فريد ، دحض به مزاعم الملاحدة ومطاعنهم على المقـام النبوي الشريف ، وأتى في ذلك بالعجب العُجاب مما لا ينكره إلا أعمى القلب مطموس البصيرة . ومنهـا مشارق الانوار في تفسير غريب الحديث المختص بالصّحاح الثلاثة : وهي الموطأ والبخـاري ومسلم ، وضبط الالفاظ والتنبيه على مواضع الأوهام والتصحيفات وضبط أسماء الرجـال . وهو كتاب لو كتب بالذهب لكان قليلاً في حقه . ومما قيل فيه شعراً :

مَشارقُ انوارٍ تبـدّت بسبتةٍ ومن عَجب كونُ المشارق بالغرب

فأجيب هذا القائل :

وما شرّفَ الاوطانَ إلا رجالُها والاّ فلا فضلٌ لتُربٍ على تُرْبِ

ومنها كتاب التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة ، جمع فيه غرائب من ضبط الألفاظ وتحديد المسائل ، وكتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك وهو المشتهر بالمدارك . وغير ذلك مما نشيرُ إليه بعد .

وله رسائل أدبية وديوانُ خطب ومقاطيع شعرية سنلمُّ بها في المنتخبات .

وكان ابو الفضل بمنزلة من الجدّ في تعظيم الشريعة والذبّ عن حرمها ، بحيث أن الفتح بن خاقان الكاتب المشهور صاحب قلائد العقيان، دخل عليه يوماً وهو بمحكمته ؛ فاشتم منه رائحة الخمر ورأى عليه آثار نشوتها ، فغضب عليه وجرّده من ثيابه وحدّهُ الحدّ الشرعي ولم تأخذه في الله لومة لائم . وخرج الفتح من عنده ثائراً حنقاً وهمّ ان يحذف ذكره من قلائده؛ فقيل له ان ذلك يكون أدعى لاشتهار القضية وظهورها فعدل عن ذلك . ولكن القاضي الأديب بعد أن خرج الفتح من عنده أتبعه بصلةٍ سنيّة إبقاءً على ودّه واسترضاء لخاطره وضرباً للمثل في ان التمسك بقواعد الاسلام وحفظ حدوده لا ينافي الاريحية الأدبية ولا يذهب بظرف الأديب ورقة حاشيته . رحمه الله .

عيسى الملجوم

ابو موسى عيسى بن يوسف بن عيسى بن علي الأزدي ، عرف بابن الملجوم ، لقبٌ جرى على أحد أجداده في شبيبته لحبسة كانت في لسانه . وبنو الملجوم من بيوتات المجد القديمة بفاس ، وقد رفع ابن القاضي في الجذوة نسبهم الى المهلّب بن أبي صفرة . ونبغ منهم عدّة أفراد في الفقه والحديث والأدب ، ورأسوا بالعلم وتولوا القضاء وأدركوا شرفاً كبيراً . وكان عيسى هذا عارفاً بالفقه ذاكراً للمسائل، متقدّماً في علم الفرائض ، محدثاً حافظاً راوية . سمع ببلده من أبيه قاضي الجماعة أبي الحجّاج ، وأبي الفضل ابن النحوي وأبي الحجاج الكلبي الضرير ؛ وبأغمات

من أبي محمد اللخمي سبط ابي عمر بن عبد البرّ . ودخل الاندلس فلقي بقرطبة أبا عبد الله بن الطلاّع وأبا بكر حازم بن محمد وأبا علي الغسّاني وابا الحسين بن سِراج وابا محمد بن عتّاب . ثم دخل الأندلس ثانية فلقي باشبيلية ابا عبدالله بن شَبْرين وكتب اليه ابو عبدالله الخوْلاني وابو علي الصَّدَفي وغيرهما . وتولى القضاء بفاس وبمكناس ، وكان من أهل الجلالة والأصالة ، راويةً جمّاعةً للدواوين العتيقة والدفاتر النفيسة . وابتاع من ابي علي الغساني أصله من سنن أبي داود الذي سمع فيه على أبي عمر بن عبد البَرّ ، وهو أصل أبي عمر ، كان قد صار الى أبي علي بخمسة آلاف دينار بعد أن نسخ منه أبو علي بخطه وقابله وأتقنه . وناهيك بهذه الهمّة العالية وهذا الشغف بالعلم . ولعله اراد ان يسدي إحساناً في صورة معاملةٍ ، الى شيخه الذي يأبى من رؤية المِنّةِ عليه لأحد ، شأن أمثاله من علماء السلف رحمهم الله . حدّث عنه ابو محمد بن فُليْح وابنه أبو القاسم عبدُ الرحيم وقال : ولد يوم الاثنين مُستهلّ ذي القعدة ٤٧٦ وتوفي في رجب عام ٥٤٣ .

أحمد بن الحُطيئة

الشيخ ابو العباس احمد بن عبدالله بن أحمد بن هشام بن الحُطيْئة الّلخمي الفاسي ، كان رأساً في القراءات السبْع ومن أهل العلم والصلاح . ولد بفاس سنة ٤٧٨ وانتقل الى مصر فقرأ على ابن الفحّام . وقرأ عليه شُجاع بنُ محمد بن سِيّدهم وروى عنه الحافظ ابو الطاهر السّلفي . وعُرض عليه القضاء بمصر أيام العُبيديين ؛ فاشترط ان لا يقضي بمذهب الدولة فأبوْا وتوفي آخر المحرم سنة ٥٦٠ .

عليّ بن حرزهم

او ابن حَرازِم كما هو الجاري على الألسنة فيه وفي كثيرين غيره ممن هم على اسمه . وصوّب الساحلي الأول في كتابه بُغية السالك وهو الذي في كتب الأقدمين .

هو ابو الحسن علي بن اسماعيل بن محمد بن عبدالله بن حِرزهم، يعتلي نسبه الى عثمان بن عفان (رض) . ولد ونشأ بفاس وكان من كبار فقهائها ومدرّسيها العُبّاد

الزهّاد . قال الساحلي : كان عالماً فقيهاً محدّثاً حافظاً مدرّساً زاهداً في الدنيا ، سالكا في طريق القوم من أهل التحقيق ، مُشاركا في علوم الشريعة لكنه أميَلُ الى التصوُّف . أحكم كتابَ الإحياء للغزّالي وضبطَ مسائلَه فكان يستحسنه ويثني عليه. درّس بفاس وأخذ عنه ناس الطريقَ كالشيخ أبي مَدْيَن الأنصاري وأبي عبدالله التّاوُدي . ودخل مراكش فدرّس بها العلم وتابَ على يده خلق كثير وزهّد أميرها في الدنيا .

نعم فقد كان في أول الأمر ممن حملَ على كتاب الإحياء واستنكر ما فيه ، ثم غلبت عليه نَزعةُ التصوُّف فرجعَ عن رأيه فيه كما سبق الإلماعُ الى ذلك . ونظر ؛ كما يقول ابن قُنفُذ في كتابه أنس الفقير ، فيما كان يُنكرهُ منه ، فوجده موافقاً للكتاب والسنة .

ولما قدم الشيخ أبو مدين إلى فاس دخل لجامع القرويين وسأل عن مجالس العلماء فسار اليها مجلِساً بعد مجلِس ، قال: وأنا لا يثبُتُ في قلبي شيءٌ مما اسمعه من المدرّسين الى ان جئتُ الى شيخ كلّما تكلّم بكلام ثبَت في قلبي وحفظته . فلما فرغ دنوت منه وقلت له حضرت مجالس كثيرةً فلم أثبت على ما يقال وأنت كلُّ ما سمعتُه منك حفظتُه ، فقال لي: هم يتكلمون بأطراف السنتهم فلا يُجاوز كلامهم الآذان وأنا قصدتُ الله بكلامي فيخرج من القلب فلازمته . وكان هذا الشيخ هو علي بن حرزهم ، توفي رحمه الله سنة ٥٥٩ .

ابُوالقاسِم المعَافري

هو الفقيه الأصولي المتكلّم أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد المعافري من أهل سبتة. له رحلة سمع فيها بالأندلس من القاضي أبي الوليد الباجي وببلاد إفريقية ومصر والحجاز من جماعة كابن فضّال بمصر وابن الصبّاح بتونس ولقي بمكة الفقيه عبدالحق[١]

١ - هو ابو محمد عبدُ الحق بن محمد بن هارون السهمي القرشي ، فقيه صقلية . تفقه بشيوخ القرويين وحج ، فلقي القاضي عبد الوهاب وأبا ذر الهروي ، وله في مذهب مالك تآليف جليلة . توفي سنة ٤٦٦ .

والإمام أبا المعالي الجوَيني وابن صاحب الخمس بصقلية وغيرهم . ودرس هناك الأصول والكلام ودرَّس ذلك ببلده سبتة مدة حياته. قال القاضي عياض : وعليه أخذ ذلك جماعةٌ من شيوخنا وأصحابنا ، ورحل اليه الناس في درس ذلك عليه . وَوليَ قضاء بلده سبتة والخطابة بمسجدها كما تولى قضاء الجزيرة الخضراء. وتوفي آخر محرم سنة ٥٠٢ .

الحسن بن طريف النحوي

الشيخ الصالح أبو علي الحسن بن علي بن طَريف ، من أهـــل سبتة ويعرف بالتَّاهرتي شيخُ بلده في النحو ، له سماع من الفقيه حجّاج بن المأموني وأبي عبد الله ابن سعدون وأبي الأصبغ بن سهـــل وأبي محمد أبي قُحافة . وأخذ عن أبي تمّام القطيني وغيره بالأندلس ودرَّس النحو عمُره بسبتة . وأخذ عنه جماعةٌ منهم القاضي عياض وغيره . وتوفي في ١٩ ذي الحجة ٥٠١ .

مروان بن سمجون

أبو عبد الملك مروان بن عبد الملك بن إبراهيم بن سمجون اللَّواتي الطنجي ، زعيم المغرب وشيخه وذو الجاه العريض والقول المسموع فيه. هكذا عرَّفه القاضي عياض في فهرسته ثم قال: كان من أهل العلم والفقه والأدب، وله سماع عال من المصريين كابن َنفيس وابن ُمنير وأبي محمد بن الوليد ونمطهم ، وقرأ القرآن على المقرئين بهـــا وجالس الفقيه عبدالحق بصقلية ، وسمع من أبي علي المعروف بابن مدكيُو فقيه سجلماسة بها ، عن ابي محمد بن أبي زيد ، وحصّل علماً جماً ، وكان يقول – كما عند صاحب معجم البلدان – لم أدخل الى الشرق حتى حفظتُ أربعة وثلاثين الف بيت من أشعار الجاهليـــة ، وكان ذا شهامة وجزالة وفصاحة . أخذ نفسه بالإعراب في كلامه مع الخاصة والعامة، فلا يكاد يؤخذ عليه لحن . وولي الصلاة والخطبة والفتيا بسبتة ، ثم انتقل إلى طنجة صدر الدولة المرابطيّة ؛ فولي صلاتها وخطبتها وفتياها ، ثم تقلد أحكامها وانصرفت إليه جميع امور الأندلس والمغرب ، وفوَّض إليه أميرُ المسلمين يوسف في كبـــار مهامه . وكان مهيباً صلباً . وله شعر وخطب فصيحة قوية العارضة كثيرة الغريب .

مولده سنة ٤٢١ ووفاته في ٢٠ رجب ٤٩١ وهو من بيت بني سمجون اللواتيين الطنجيين الذين ظهر منهم في هذا العصر والعصر الذي يليه كثير من أهل العلم والفضل . ورحل بعضهم الى الاندلس واستقر فيها ، فظهر منهم بها أيضاً علماء فضلاء .

ابو الحسن بن زنباع

هو القاضي الأديب ابو الحسن بن زنباع ويقال فيه أيضاً ابن بيّاع الصنهاجي ، من أهل طنجة ، نسبه اليها القلقشندي في صبح الأعشى . وقال : ترجم له في قلائد العقيان واثنى عليه وانشدَ له أبياتاً منها :

وقد تَحمي الدُّروعُ من العَوالي ولا تَحمِي من الَحدقِ الدُّرُوعُ

ويوخذ من تحلية الفتح له بالفقيه القاضي وصفته بالمشاركة في العلوم والآداب والفصاحة والبيان ، والطب أيضاً ، أنه شخصيّة علمية فذّة ؛ وأن الأدب هو أقل بضاعة كان يتميز بها فصار اليوم اكثر ما نذكره به . وشعره مع ذلك طبقة عالية من حيث البلاغة والانسجام والإجادة في مختلف الأغراض ، فهو مفخرة لقبيله وحجة على المنكرين براعة المغاربة في الأدب وخاصة في هذا العصر . وسنثبت آثاره في محلها من قسم المنتخبات .

يحيى بن الزَّيتوني

هو أحد الادباء الذين نبغوا في هذا العصر ، من أهل فاس . كان أديباً أريحيّاً خفيف الروح رقيق الحاشية متظرفاً حسَنَ المذهب ؛ له شعر بديع وتصرُّف مطبوع . ذكره ابنُ بسّام في الذخيرة وقال : كان حاضر الجواب ذكيّ الشهاب ، ثم اورد واقعة حال جرت بينه وبين أبي الوليد بن زيدون بمجلس المعتمد ، قصد فيها اديب الأندلس أن ينال من المترجم ولكن هذا أفحمه ، وسنوردها مع بعض شعره في محلها .

ابن القابلة السَّبتي

ابو محمد عبدالله بن هرون المعروف بابن القابلة السبتي. ذكره بن دِحْيه في كتابه المطرب من أشعار أهل المغرب وقال إنه من شعراء سبتة المطبوعين . وهو ممن ترجمهم ابنُ بسَّام في الذخيرة وأوردهم ابنُ سعيد المغربي في كتابيْه رايات المبرّزين وعنوان المرقصات المطربات من شعراء المائة الخامسة . ولا نعلم من أحواله شيئاً غير ما تدلُّ عليه كنيته من مكانةٍ اجتماعية متواضعة . على ان ابنَ دحية لم يذكره بكنيته وإنما نسبه الى ابيه ، وهو الوحيدُ الذي ذكر اسم أبيه فيما وقفنا عليه .

وثَمَّ شاعرٌ آخر يُعرفُ بابن القابـــلة أيضاً وهو محمد بن يحيى الشّلْطيسي من رجال المغرب لابن سعيد وله قرابةٌ أدباء يعرفون بهذه الكنية مذكورون في الصِّلة وصِلة الصِّلة .

وللمترَجم شعر جميل نُورده في المنتخبات .

تسمية بعض الكتب المؤلفة في هذا العصر

وبعد فهذه جريدة بأسماء الكتب التي أُلّفت في هـــذا العصر ، من العلماء الذين ذكرناهم ، على حسب ما وقفنا عليه . وبالضرورة فهي لا تُحيط بجميع مؤلّفات عهد المرابطين ، وإنما تعطي أمثلة منها :

في الفقه :

مختصر كتاب ابن أبي زمنين لابراهيم بن جعفر .
الإعلام بحدود قواعد الإسلام للقاضي عياض .
نظم البرهان على صحة جزم الآذان له .
مسألة الأهل المشروط بينهم التزاور له .
أجوبة القرطبيين له .
الأجوبة المحبّرة على الأسئلة المتخيّرة له .

المقاصد الحسان فيما يلزم الانسان له .
النوازل القضائية له .
التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة له .

في الحديث والتفسير

تفسير لأبي بكر بن الجوزي السبتي .
إكمال المعْلِم شرح صحيح مسلم للقاضي عياض .
الشفا في التعريف بحقوق المصطفى له .
الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع له .
بغية الرائد لما تضمنه حديث أمّ زرع من الفوائد له .
مشارق الأنوار في غريب الحديث والآثار له .

في التوحيد

تصنيف لأبي بكر بن الجوزي السبتي .

في التاريخ

ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك للقاضي عياض .
الغُنية له في شيوخه وهي فهرسته .
معجم شيوخ أبي علي الصدفي له .
الفنون الستّة في تاريخ سبتة له .

في الأدب

ديوان خطب لمروان بن سمجون .
غُنيَة الكاتب وبغية الطالب في الصدور والترسل للقاضي عياض .
سرّ السراة في أدب القضاة له .
ديوان خطب له .

عصر الموحدين

إنقلاب

لم تكن دولة المرابطين أعظمَ استقراراً ولا أكثرَ اطمئناناً منها حينما ظهر المهدي ابن تومرْت على مسرح التاريخ وضرب ضربتَه القوية التي قوَّضت اركان ذلك البنيان الشامخ وأتت عليه من الاساس . على أنّ من يَستقرىءُ الأحوال بتعمُّق ، يَجدُ أن بذور الثورة كانت تنمو هنا وهناك ، والقومُ في غفلة عما يجري حولهم . ولعل ابن تومرْت لم يرحل الى المشرق إلا وهو يحمل في رأسه فكرةَ الثورة على الواقع المغربي ، وخاصةً في ميْدان الاجتماع وما يرجع لنزعة الدولة العَقَديَّة والمذهبية . ولعله رأى بعينيْ رأسه ، وهو يتجول في ميدان المغرب والأندلس ، نُسخَ الإحياء تُضرم فيها النار ، والناس بين موافق ومخالف ، فتاقت نفسه لتحقيق الحق في هذا الموقف الغريب ، إذ ليس من الجائز أن يكون الاسلام في المشرق غيره في المغرب .

ومن هنا يجيء اتصالُ زعيم الانقلاب الموحدي بحجة الاسلام الغزالي في رحلته ، وقراءته عليه ، وسؤال هذا له عن المصير الذي لقيه كتابه في المغرب ، وعن احوال المرابطين ثم دعاؤه عليهم -- فيما يَروي المؤرخون -- بتمزيق مُلْكهم ، ذلك الدعاء الذي يُعتبر في الحقيقة دعوةً الى الثورة عليهم . ومما لا شك فيه أن المهدي رشَّح نفسه لهذه المهمة ، من يومئذٍ . وما يمنعه من ذلك ؟ وهذا الإمام الغزالي الذي أيّد سياسة المرابطين أيام العاهل الكبير يوسف بن تاشفين ، عادَ فسحب تأييده لها ايام ولده عليّ .

وكان المهدي رجلاً من سوس ، ومن قبيلة هَرْغَة بالذات ، إحدى قبائل المصامدة واسمه محمد ، وإنما اشتهر بالمهدي بعد إعلانه لدعوته ، وهو ينتسب في آل البيت عليهم السلام وخرج طالباً للعلم سنة ٥٠١ فدخل الأندلس ورحل الى المشرق ؛ فحجّ ولقي الأئمة وحصل على علم غزير ، وكان ذا فصاحة ولسَن وحُجة قوية ، إلى ورع ونُسك وغيرة شديدة على الدين ، مما جعل منه داعية من الطراز الأول ، فلم يلبث أن نزل الى الميدان مصلحاً دينياً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويدعو الى التوحيد على طريقة

الأشاعرة ، من تأويل المتشابهات وعدم اقرارها على ظاهرها فراراً من الوقوع في التجسيم . وكان أكثر ما يحفز همته للعمل ما يراه من انتشار البغي والفساد مع سكوت علماء الدين على ذلك . ولقد بدأ في طريق عودته الى المغرب من رحلته التي دامت زُهاء عشر سنوات ، يصطدم بالعامة وأولي الأمر ، إذ كان كلما رأى مُنكراً تقدم بتغييره ، فيريق الخمور ويكسر آلات اللهو والطرب ويغلظ على أهل المجون ، كما فعل في الاسكندرية والمهدية وتونس وقسنطينة وبجاية وتلمسان وغيرها . وما كان ينجيه من طائلة العقاب الا ما يلوح عليه من سمة الخير ، ومساندة الرأي العام له إذ كان المجتمع الاسلامي ما يزال يؤثر الطهارة ويتمسّك بقانون الأخلاق .

ويظهر من سيرته هذه أن الرجل كان مخلصاً في دعوته أشدّ الإخلاص ، وأنه لم يكن يهمه مُلْكٌ ولا دنيا إلا بلوغ قصده في محاربة الفساد وتجديد الدين . ولولا ذلك لما عرّض نفسه للخطر مراراً في غير موطنه ، حيث لا يرجو مُلْكاً ولا يجد من قومه أعوانا يشدُّون أزره ويحمون ظهره . ولقد أشخص بين يدي أمير المسلمين بمراكش عند ما جهَر بدعوته وكثر انتقاده للحكام فلم يرَ فيه غير داعية ديني مخلص ، وتأثر بكلامه ثم أمر بتخليته على الرغم من إلحاح أهل مجلسه عليه في البطش به وتحذير مستشاريه له مما سيؤول اليه أمره .

والذي نريد ان نقوله هو ان الرجل كان صاحب فكرة إصلاحية عمل لتنفيذها بالوسائل المألوفة قبل أن يكون طالب مُلك يرتكب كل محظور للحصول عليه . وبذلك تعلم انه فوق ما تُقول عليه ورمي به من التلبيس والشعوذة وعضائه الأمور . وهذا هو رأي ابن خلدون الناقد البصير . فاستمع الى ما يقوله في هذا الصدد عند تعرضه لتصحيح كثير من أغلاط المؤرخين في مقدمته الحافلة :

« ويلحق بهذه المقالات الفاسدة والمذاهب الفاشلة ،ما يتناقله ضعفة الرأي من فقهاء المغرب ،من القدح في الإمام المهدي صاحب دولة الموحدين ونسبته الى الشعوذة والتلبيس ، فيما اتاه من القيام بالتوحيد الحق والنعي على أهل البغي قبله ، وتكذيبهم لجميع مدّعياته في ذلك ، حتى فيما يزعم الموحدون أتباعهُ من انتسابه في أهل البيت . وإنما حمل الفقهاء على تكذيبه ما كمَن في نفوسهم من حسده على شأنه ، فإنّهم لمّا رأوا من نفوسهم مناهضته في العلم والفُتيا والدين بزعمهم ، ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأي ،

مسموع القول ، موطـّأ العقِب ، نقِموا ذلك عليـــه وغضُّوا منه بالقدح في مذاهبه والتكذيب لمدّعياته . وأيضاً فانهم كانوا يأنسون من ملوك لمتونة أعدائه ، تجلّـةً وكرامةً لم تكن لهم من غيرهم ، لِما كانوا عليه من السّذاجة وانتحال الديانة ؛ فكان لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتصاب للشّورى ، كلٌّ في بلده وعلى قدره في قومه ، فأصبحوا بذلك شيعَةً لهم وحرباً لعدوهم ، ونقِموا على المهدي ما جاء به من خلافهم والتّثريب عليهم والمناصبة لهم ، تشيُّعاً للمتونة وتعصُّباً لدولتهم . ومكان الرجل غيرُ مكانهم وحاله غير معتقداتهم . وما ظنُّك برجل نقَم على أهل الدولة ما نقم من أحوالهم وخالف اجتهاده فقهاءهم ، ونادى في قومه ودعا الى جهادهم بنفسه ، فاقتلع الدولة من أصولها وجعل عاليها سافلها ، أعظم ما كانت قوةً وأشدَّ شوكةً وأعزَّ انصاراً وحاميةً . وتساقطت في ذلك من أتباعه نفوسٌ لا يُحصيها إلا خالقها ، قد بايعوه على الموت ووَقوه بأنفسهم الهلكَة . وتقرّبوا الى الله تعالى بإتلاف مهَجهم في إظهار تلك الدعوة والتعصّب لتلك الكلمة ، حتى علت على الكلِم ودالت بالعُدوتين من الدول ؛ وهو بحالةٍ من التقشف والحصَر والصّبر على المكاره والتقلّل من الدنيا ، حتى الولد الذي ربما تجنَح اليه النفوس وتخادع عن تمنيه . فليت شعري ما الذي قصد بذلك ان لم يكن وجهَ الله ، وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في عاجله ؟ ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تمَّ أمره وانفسحت دعوته « سُنـّة الله التي قد خلت في عباده » .

وكما أنه لم يقُم لطلب الملك على ما علمت ، فانه لم يقمْ لطلب ثأرٍ له عند دولة المرابطين ، لأنها لم تُؤذِه بشيءٍ ولم تمدَّ اليه يداً بسوء . وكون تنازُع الزعامة بين المصامدة الذين ينتسب اليهم وصنهاجة التي ينتمي لها المرابطون ، هو الباعث له على القيام كما قيل بذلك ، ضعيفٌ جدّاً ؛ وخصوصاً مع ما عُلِم من ديانته وتقواه وعدم تمسكه بأسباب العصبية التي نهى عنها الاسلام . على انه لم يثبُت أن هناك تنازعاً كان قائماً بين المصامدة وصنهاجة عند ظهور المهدي بن تومرت . والثابتُ هو ان دعوته كانت تحتضن مختلف القبائل لأنها قامت تحت شعـــار التوحيد ، كما كانت دعوة عبدالله بن ياسين تنتظم صنهاجة وغيرها ولذلك سمّى أتباعه بالمرابطين . فالأمر في الحالين معاً يتعلق بدعوة دينية أكثر مما يتعلق بعصبية قبلية . نعم لقد كان أنصار المهدي في غالب الأمر من المصامِدة ، وذلك لانـــه آوى إليهم وأقام فيهم مدةً يدعو الى فكرته وينشرها بينهم بكل قواه ، بعدما يئس من استجابة العلمــاء له في نبذ التقليد وطرح الجمود ،

والقيام بتغيير المنكر الذي كان يجري على مرأىً منهم ومسمع . وبدل ان يمدوا إليه يد المعونة ويعزّزوا موقفه ، قاوموه وحرّضوا أمير المسلمين عليه ؛ فلم يسعه الا النجاةُ بنفسه واللجوء الى قومه ينشد عندهم الحماية والنُّصرة . ولقد لجأ منهم الى مأمن حقاً ، حيثُ انتصب لنشر العلم وبثّ أفكاره ومبادئه في غير خوف ولا رقابة . وكان أكثر ما يدعو الى الأخذ بمذهب الأشاعرة في الاعتقاد ، وخاصةً في تأويل المتشابه من الآيِ والأحاديث ، الذي كان المغاربة لا يجنحون اليه أخذاً بمذهب السلف في ترك التأويل وإقرار المتشابهات كما جاءت ؛ مشدّداً النّكير عليهم في ذلك وربما رماهم بالتجسيم . ولذلك سمّى أتباعه بالموحدين تعريضاً بخصومه من رجال الدولة والفقهاء وعامةِ أهلِ المغرب الذين كانوا كلهم على مذهب السلف في العقيدة . وكان من رأيه القول بعصمة الإمام، على رأي الإمامية من الشيعة . وألّف في ذلك كتابه الذي افتتحه بقوله (أعزُّ ما يطلبه) فصار هذا الافتتاحُ عَلماً على ذلك الكتاب، ولم تُحفظ عنه فلتةٌ في البِدْعة سوى، هذه على ما يقول ابن خلدون . ويظهر لنا انه مزج بين المهدوية والإمامية[1]، ولذلك كان اتباعه يعتقدون فيه الامرين معاً . وقد لبث الخطباء مدى طويلاً في ايام الموحدين يذكرونه بوصف الامام المعصوم المهدي المعلوم من فوق منابر المغرب كافةً . وعلى كل حال فانه عكف على التعليم وتربية من استجاب له من قومه في جبال سوس ، فكنت تراه طوال يومه يعقد المجالس الخاصة والعامة يلقي فيها الى الناس مذاهبه وآراءه ، متخذاً في ذلك الأساليب الموصلة الى المقصود بسرعة ؛ فتارة يملي بالبربرية وتارة بالعربية ، وكذلك فعل في تأليف الكتب مثل المرشدة ، وهي عقيدة خالية من البدعة ، مما يدل على انه لم يكن يعلن بآرائه السياسية للعموم أو أن تاليفه لها سابق عن إعلانه بمذهبه هذا الجامع بين المهدوية والإمامية . ومهما يكن من أمر ، فان هذا التطور السياسي إنما طرأ على دعوته بعد خروجه من مراكش ولجوئه الى سوس . يدلنا على ذلك إجماع المؤرخين على عدم ذكرهم لشيء من آرائه السياسية فيما كان يصدر عنه من أقوال قبل ذلك ، وفي مناظرته للعلماء بمراكش بين يدي علي بن يوسف على الخصوص . وكما تنتشر النار في الهشيم كانت هذه الآراء مع مذهبه في التوحيد تنتشر في القبائل ، وفي كل يوم يرتفع صيته ويؤمه الناس من كل جهة ، فيعرف كيف يستميلهم إليه ويدخلهم في

١ – انظر كتابه أعز ما يطلب ص ٢٤٥ وما بعدها .

دعوته ، حتى أصبح سلطاناً مطاعاً في جميع القبائل ، والمغرب إذ ذاك وفي كل وقت هو القبائلُ . وقد تأوَّل الجميع عليه ما كان يحدثهم به عن المهدي والامام المعصوم ، فصاروا لا يدعونه إلا بأحد اللقبين .

وكانت هذه الأخبار تصِلُ الى مراكش فتثير حفيظة الدولة عليه . وكلما اشتدت صولته كلما أوجست الخيفة منه ، فتعضُّ اصابعَ الندم على إفلاته من يدها . وصممت العزم على مناوشته بالقتال ومبادأته بالمحاربة ، فأرسلت اليه أوَّل طليعة في سنة ٥١٥ وهو بجبل تينمّل من بلاد سوس فهزمها .

ولا حاجة بنا الى القول إن المهدي ثابر في محاربة القوم ومناجزتهم القتال . وكانت الحرب بينهم سجالاً . غير أنه لم يفرح بالانتصار على خصومه في موقف مشهود . ومع ذلك فانه كان قويَّ العزم صحيح العقد في جهادهم واثقاً بالنصر عليهم وغلبتهم والإدالة منهم ، كما وعد بذلك أصحابه وهو يجود بنفسه . وكان حرّياً أن يشهد الدولة المرابطيّة تخرُّ من فوق عرشها العالي ويتهدَّم بنيانها الشامخ ، لولا أن المنيّة عاجلته فتوفيّ وهو في زهرة العمر ٥٢٤ وخلفه رفيقه عبد المؤمن بن علي الكوميُّ الفتى الجلدُ الصبّور ، الذي كان لقيَ المهدي في ملاَّلة قريةٍ ببجاية ، وهو في طريقه الى المشرق بقصد طلب العلم . فعدَل عن رحلته وصحِب المهدي مكتفياً بالدراسة عليه ، وهذا أحلّه منه محلاً خاصاً وأشركه في أمره وكاشفه بخبيئة نفسه ، وكان هو وارثه وخليفته من بعده بعهدٍ منه ؛ فواصل عمله في محاربة المرابطِين بدون انقطاع ، وجمع همّة الموحدين على هذه الغاية ، فلم يضع السيف من يده حتى دخلت دولة المرابطين في خبر كان .

وكانت هذه الدولة قد شاخت قبل الأوان وتمكّن منها الضعف أيّما تمكُّن ؛ فانهار كلُّ ما بناه لها ذلك العاهل العظيم يوسف بن تاشفين من آثار المجد الرفيع ، وأركان العز المنيع . وذلك ان ولده علياً برغم صلاحه كان ضعيفاً مستضعَفاً ؛ فغُلب على أمره واستقل الولاة بالأقاليم وعاد العُتوُّ والفساد في القبائل كما كان ، وبرزت المرأة الى مَيدان السياسة فلعِبت دورها الذي طالما زلزل العروش وقلب الممالك . وهذا كافٍ في صرف النظر عن هذه الدولة وتوجيهه الى مَن يُحيط وحدة الأمة بسياج الحكمة والتدبير ويحقق أملها في مواصلة النهوض والتقدم . لذلك فان العقلاء

من أهل المغرب وعامّة أهل الأندلس ساعدوا حركة العصيان وناصروها في السّر والاعلان . والقبائل قد شاهدنا ما كان من رياضة المهدي لهم وتخريجهم في مدرسته ؛ فلم يكونوا محتاجين الى تجديد عهـد ولا تثبيت طاعة ، فسُرعان ما دانت البلاد لعبد المؤمن الذي قوّض دعائم الدولة المرابطيّة ودوّخ المغرب من أدناه الى أقصاه . وسُرعان ما استقرّت الأحوال واستتبّ الأمن وعادت الأمور الى نصابها ؛ فقامت دولةُ الموحدين بمراكش شامخة البُنيان رفيعة الأركان . وتمّ الانقلاب الموحدي العظيم في مدة لم تكن تكفي في بادىء النظر لتجهيزه فأحرى تنفيذهِ . ولله في خلقه شؤون .

توحيد المغرب العربي

لـئِن كان المهدي بن تومرت هو صاحب دعوة الموحدين والقائمُ على دولة المرابطين والممهّدُ للانقلاب والواضعُ لخطط الثورة التي اتـُّبِـعت بالحرف ، فان عبد المؤمن هو رجلُ الدولة الذي اضطلع بتنفيذ جميع برامج الثورة والاستيلاء على مملكة المرابطين وتحقيق وحدة الشمال الافريقي ، مع الحرص على تطبيق مبادىء الدعوة الموحدية في الحقلين الديني والاجتماعي بأمانة واخلاص . ولقد صدق المهدي حين قيل له إن الموحدين قد هلكوا ، وذلـك في وقعة البحيرة التي جرت بينه وبين المرابطين واستأصلت مُعظمَ أصحابه ، فقال : ما فعل عبد المؤمن ؟ قيل : هو على جواده قد احسن البلاء . قال ما بقي عبد المؤمن فلم يَهلِك أحد ...

نعم لقد كان عبد المؤمن بالنسبة لدعوة الموحدين كيوسف بن تاشفين بالنسبة لدعوة المرابطين ، هو الذي ابلغها كالها وقرْطسَ أهدافها ونهض بأعبائهـا المادية والمعنوية نهوضاً تاماً ، فلم يُخلف ظنّ إمامه حين اختاره لصحبته ومعاونته على مهمته منذ لقيَه أول امره ، ولا حينَ قال فيه هذه الكلمة ورشّحه لخلافته من بعده . وهكذا لما بويـع له من طرفِ الموحدين خرج مُغيراً على بلاد تادِلةَ ودرعةَ وغُمارة فاستولى عليهـا وتسابق الناسُ الى الدخول في دعوته أفواجاً ، وانتقضت القبائل على المرابطين ؛ مما يدل على أن التعفـُّن السياسي كان بالغاً فيها مداه . ثم صرَف عزمه لفتح بلاد المغرب

فخرج من تينَمَّل سنة ٥٣٤ في غارةٍ طويلة دامت سبعَ سنين ، فلم يرجع منها حتى فتح المغربين الاقصى والاوسط . وهلك عليُّ بنُ يوسف وابنه تاشفين الذي وُلـِّي بعده في تلك الاثناء وألقت إليه فاس وتِلمِسان ومراكش بالمقاليد أواخر سنة ٥٤١ فخلصت له مملكةُ المرابطين في المغرب بأجمعها .

ثم بدأ يهتمُّ بأمر الأندلس ، فما عتَّم أن قدِم عليه وفدُها وهو بمراكش للبيعة سنة ٥٤٢ وأرسل إليها جيشاً بقصد تمهيدها ومدافعة العدوّ الذي اغتنم فرصة الانقلاب الموحدي فأغار على أطراف البلاد .

وطمح الى الاستيلاء على بقيـّة الشمال الافريقي . وكانت دولة بني زيري الصنهاجيّين المعروفين ببني حمَّاد ، تسيطرُ على القسم الشرقي منه بما فيه من ولاياتٍ جزائرية وتونسيـّة ، إلا أنها قد ضعُف أمرُها وتطاول عليها الثوار من عرَب هِلال . وعدا النورمانيـّون وهم إفرنجُ صقلـّية على السواحل فأخذوا صفاقـُس وسوسة والمهديَّة ، ولقي السكان منهم هولاً عظيماً ، فتوجـَّه عبد المؤمن الى هذه الناحية سنة ٥٤٦ ومهـَّد أمرها باستيلائه على بجاية وقلعة حمَّاد وقُسنطينة . ورجع الى المغرب ، ثم عاد اليها سنة ٥٥٤ بجيش جرَّار ؛ فدخل تونس وضرب الحصار على المهدّية ، وهي من أمنع ما يكون ، يحيط بها البحر من ثلاث جهات ، فتركها محاصرةً برّاً وبحراً . ومضى يفتح طرابلس وصفاقـُس وسوسة ، وجبال نفوسة وسائر بلاد افريقية الى برقة . ثم سقطت المهدّية في يده أواخر السَّنة بعد هزيمة الأسطول الذي أتى لنجدتها .

ورجع عبد المؤمن الى المغرب وقد ضبط أمر هذه البلاد وأصلح شأنها ولم يسترح إلا قليلاً . ثم عبر البحر الى الأندلس سنة ٥٥٦ ونزل بجبل طارق وكان قد أمر ببنائه وتحصينه ، وكان يسميه جبل الفتح ؛ فأقام به شهرين وأشرف منه على أحوال الأندلس ، ووفد عليه قوادُها وأشياخُها ؛ فأمر بغزو غرب الأندلس فغُزي وكان الظفرُ فيه للمسلمين . ثم عاد الى المغرب وأخذ في الاستعداد للجهاد ؛ فأمر بانشاء الأساطيل ونظر في استجلاب الخيل والاستكثار من أنواع السلاح والعُدد . وحين كان على أتم أهبَة وافاه الأجل المحتوم في جمادى الثانية سنة ٥٥٨ برباط سلا . وكان أعظم أعماله بعد إرساء قواعد الدولة الجديدة هو توحيد أقطار الشمال الافريقي ، أو ما يسمى اليوم بالمغرب العربي وتكوينه منه دولةً قوية زرعت الرُّعب في قلوب الأعداء ؛

فحقق بذلك أعظم أمل لا يزال يُخالج نفوس السّاسة والمهتمّين بمستقبل هذه البلاد ، خصوصاً في العصر الحاضر ، الذي أصبح شعاره قول الشاعر « وإنما العزة للكاثر ».

ولما تولى ولده يوسف سار على أثره في الحزم والتدبير وحياطة مملكته الشاسعة الأطراف ، وكان له بالاندلس اهتمام خاص . جاز اليها جوازه الأول سنة ٥٦٧ فاستولى على شرقيّها ، وكان لم يدخل قبل في طاعتهم وحقق أمل والده في غزو أرض العدو فكانت له فيها وقائع منصورة . وأقام بالاندلس يغزو ويعمرُ البلاد ويشيد الآثار مدة خمس سنين ، ثم رجع الى المغرب وخرج الى افريقية سنة ٥٧٥ فتعهد نواحيها بالاصلاح والتنظيم ، وعاد الى مراكش بعد ان قضى سنتين في رحلته هذه . ثم جاز الى الأندلس جوازه الثاني سنة ٥٧٩ حيث أُصيب في ساحة الشرف على أبواب مدينة شنترين وتوفي في ربيع الثاني سنة ٥٨٠ وبويع هناك لولده يعقوب المنصور الذي بلغت الدولة في أيامه الى منتهى القوة والعظمة . وكان عهده العهد الذهبي للمغرب سواء من ناحية استبحار العمران وازدهار الحضارة أو من ناحية استقرار النظام وانتشار العدالة ؛ فكانت المرأة تخرج من بلاد نول فتنتهي الى برقة وحدها ، لا ترى من يعرضُ لها ولا من يمسُّها بسوء . وكان الدينار يقع من الرجل في الشارع العمومي فيبقى ملقى لا يرفعه أحد عدة أيام الى أن يأخذه صاحبه . ويمكث القاضي الشهر وأكثر لا يجد من يحكم عليه لتناصف الناس وارتفاع مستواهم الخلقي . وكان المنصور ينظر بنفسه في المظالم ، حتى إنه لينظر في قضية الدرهم والدرهمين وينصف من نفسه ويمتثل لحكم القضاة . وبقدر ما كان له من جولات مظفرة في تثبيتَ السلطة بأقطار إفريقية ، كان لا يغفل عن القطر الأندلسي والسهر على حركة الجهاد فيه ، حتى يفلّ من غرب العدو المستأسد على أهله . أما في إفريقية فان أهم عمل قام به لضمان استتباب الأمن هناك هو تدبيره لأمر العَرب من بني هلال الذين طالما أقلقوا راحة السكان منذ أن سرّحهم الفاطميون للتشويش على ملوك بني زيري ، فلم يرَ أصلح لهم من نقلهم الى المغرب حيث أعمرهم ناحيتي الحوز والغرب ، فانقطعوا عن الصحراء التي كانوا يعتصمون بها من السلطة بعد ما يعيثون في الأرض فساداً . وبذلك انحسمت مادّتهم وأفادوا في تعريب الناحيتين المذكورتين وما اتصل بهما من مواطن البربر .

وأما في الأندلس فانه منذ ولي لم يفتر عن مواصلة الجهاد بنفسه وبواسطة كبار

قواد جيشه ، إلا أن المعركة الكبرى التي خاضها ضد الفونس الثـــامن ملك قشتالة[١] كانت أجلّ أعماله الجهادية . وتسمى غزوة الأرك باسم الحصن الذي دارت حوله . وكانت يوم الخميس ٩ شعبان سنة ٥٩١ وشارك فيها جيش الأندلس والعرب والموحدين وسائر قبائل المغرب فضلا عن المتطوعة والعبيد ؛ فهزم العدو هزيمة شنعاء وقتل من رجاله عدد كبير . وأما الأسرى والغنائم فشيء يفوت العدّ والاحصاء. وكانت هذه الواقعـــة أُختَ الزّلاّقة في خضدِ شوكة النصارى والتمكين للاسلام في أرض الأندلس الى أمد بعيد .

وقد اشتهر ان السلطان صلاح الدين الأيوبي استنجد بيعقوب المنصور في حربـــه مع الصليبيين على بيت المقدس، ورجاه أن يبعث بأساطيله ليحول بينه وبين أساطيلهم المتدفقة على بـــلاد الشام فلم يجبه ، وأن ذلك فيما يروي المؤرخون لكون صلاح الدين لم يخاطبه في رسالته بأمير المؤمنين . وهـــذا تعليل بارد لا نراه يتفق مع أخـلاق المنصور وعلو همته وبُعْدِ نظره ، وإنمـا الحقيقة أن صلاح الدين كان سرّح مولاه قراقوش لبلاد المغرب سنة ٥٦٨ ففتح طرابلس ومـــا والاها من البلدان ووضع يده في يد العرب وابن غانية[٢] وشغّب كثيراً على المنصور مما سبب له متاعب جمّة في بلاد افريقية، لولاها لكان له في بلاد الأندلس فتوحات عظيمة لا تُقدّر بقيمة . فهذا هو السبب الحقيقي في إعراض المنصور عن نجدة صلاح الدين الذي ضربه من الخلف وأراد ان يغرّر به لاتمام الضربة والاّ فأعمـــال المنصور في الجهاد واعلاءِ كلمة الاسلام لا تقِلُّ عن أعمال صلاح الدين .

ويقال إنه بعد ان صرف رسوله جهّز من أساطيله لهذا الغرض ١٨٠ قطعة ومنـــع

---

١ — *A. G. Palencia : His. de La Españà musulmana. p. 108.*
وقد اضطربت كلمة المؤرخين العرب فبعضهم يجعله الفونس الثالث وبعضهم يجعله التاسع وكلاهما لا يصح .

٢ — بنو غانية هم بقية من المرابطين كانوا يَلون جزائر شرق الأندلس المعروفة اليوم بالبليار . وكثيراً ما شوشوا على الموحدين بهجومهم عـــلى مدن الساحل الافريقي المواجه للجزائر المذكورة . وكان أولهم محمد بن علي بن يحيى المَسوفي ، عُرِف بغانية أمّه ، وآخرهم يحيى بن إسحق بن محمد المذكور والقائم منهم على المنصور هو علي أخو يحيى .

النصارى من سواحل الشام . ويؤيد هذا ما كان له من الصيت عند أهل الشام ، حتى إنهم أقاموا له مشهداً بالقرب من دمشق على ما عند ابن خلكان .

وتوفي المنصور سنة ٥٩٥ وخلفه ولده محمد الناصر وكان كأبيه همةً ونجدةً وشجاعة . وفي أوائل ايامه واجه ثورة ابنِ غانية بافريقية فقضى عليها وقتل ابنَ غانيةَ وأراح البلاد من فتنته وعَيثه . وبعث بأسطول من مرسى الجزائر الى جزائر شرق الأندلس المعروفة بالبَلْيَار ؛ فاقتحمها وكانت هي مَعقِلَ بني غانية ، استقلُّوا بها منذ اضمحلال دولة المرابطين . وباستيلاء الناصر عليها انهارَ آخرُ حصن للمرابطين كانوا يُروّعون به أمن السكان في شرق الأندلس وافريقية ويهددون منه سلامة الدولة الموحّدية . ومع أن هذا العمل الذي افتتح به الناصرُ مدَّة حكمه يدل على توفيقه وحسن سياسته ، فان الحظّ خانه في الواقعة التي جرت بينه وبين القوات المتحدة للممالك النصرانية بالأندلس في صفر سنة ٦٠٩ وتسمى بالعِقاب[1] وكانت من الوقائع الفاصلة التي عجّلت بسقوط الاندلس وأدالت بها للنصرانية من دولة الاسلام ، ثم كانت هي مبدأ سقوط الدولة الموحدية وإن دامت بعدها أكثر من نصف قرن .

ان هذا الاستعراض السريع لما بذله رجال الدولة الموحدية من جهود جبارة في سبيل إقرار الوحدة المغربية والدفاع عن تراث الاسلام في اسبانيا لِمَا ينبىء عن عقيدة راسخة وايمان قوي بالمهمة السامية التي كان على المسؤولين في الدولة الجديدة ان يضطلعوا بها . فما كانت دعوة المهدي إلا دعوة توحيد وتجديد للمفاهيم الإسلامية التي تبعث روح القوة والعزم في نفوس المسلمين فينهضون للعمل بجد لحماية بيضتهم وحفظ كيانهم المادي والمعنوي . وتحت تأثير هذه الدعوة اندفع الموحدون لمقاومة القوات المسيحية الحليفة من ممالك قشتالة وليون ونبارّة وأراغون التي تدفقت على بلاد الاندلس معزّزة بعطف البابا وبالفرسان الصليبيين الذين جاءوا من مختلف بلاد أوربا يريدون سحق المسلمين . كذلك كانت مملكة النورمان الناشئة في صقلية أوائل القرن السادس الهجري قد اقتحمت مُدُن الشاطىء الافريقي

١ – هو بكسر العين موضع بين جيان وقلعة رباح ، قاله في الروض المعطار .

واستولت على ثغر المهديّة أعظم حصن في هذا الشاطىء . فلولا قيام الدولة الموحدية التي استطاعت ان توحد الصفوف وتجمع الكلمة وتكوّن من أقطار افريقيـة الشمالية هذه القوة العتيدة التي حاربت في آن واحد في كلتا الجبهتـين الاندلسية والافريقية لعصفت القوات النصرانية ببعض تلك البلاد أو بها جميعاً في ذلك الحين .

وقد ظهر من سياق الاحداث التي قارنت قيام هذه الدولة أن ملوك الموحدين قطعوا تلك الصلة التي تقرُّ بتبعيّة المملكة المغربيه لدولة الخـلافة العبـاسية كما كان عليه الأمرُ في دولة المرابطين . ومن ثمَّ فانهم لم يحجموا عن اتخاذ لقب أمير المؤمنين وانتحال وصف الخليفة نفسه ، ولعل ما شجّعهم على ذلك هو حكمهم للاندلس وافريقية الشمالية جميعاً ، وكان بنو أُميّة بمجرد توطد مُلْكِهم في الأندلس قد ادَّعوا الخلافة وتلـقّبوا بأمير المؤمنين ، فضلاً عن ضعف أمر الخلافة العباسيّة في هذا العهد ، ولا سيما وقد مات العاضد لدين الله آخرُ خلفـاء الفاطميين الذين كان قيامهم من المغرب ، فـأقام صلاح الدين الأيوبي منافسُ يعقوب المنصور دعوةَ بني العباس في مصر ، وقبْله في سنة ٥٤٩ أي عنـد استتباب الأمر لعبد المؤمن ، كان الخليفة العباسي المقْتفي لامر الله كتب عهداً لنور الدين محمود ابن زَنكي مخدوم صلاح الدين وولاّه مصر وأمره بالمسير اليها . وكان قد تملـّك دمشق في ذلك العام ، فلم يمنعه من قصد مصر إلاَّ شغله بحرب الفرنج[1] . والمقصودُ أن هـذه العوامل مجتمعةً كانت تشجع ملوك الموحدين على الاتصاف بالخلفاء وأمراء المؤمنين مع ما عُلِمَ من انتسابهم في قيْس عَيْلان بن ِ مُضَر ، وكون ِ دعوتهم كما أرادها المهدي أولَ مرة تستهدف إصلاحَ أحوال المسلمين عامةً ، بدليل قيامه بالنكير للأوضاع الفاسدة في مصر بل حتى في مكة على ما يُروى في ترجمته ،فما بالهم لا يرون أنفسهم أحقَّ بها واهلها ؟..

واذا كان هذا من أهم الفوارق بين دولة الموحدين ودولة المرابطين التي لم تَنْقَدْ في حبل الادّعاء قط ، فانّ السيطرة التامة على كامل التراب المغربي من بلاد نول الى أرض برقة هو مما تميزت به الدولة الموحدية في الميْدان الحربي وجعلها في الوقت نفسه

١ – تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٩١ .

دولة بحرية قوية ذات اسطول عظيم يضمن لها السيادة المطلقة على غرب البحر الابيض المتوسط ومضيق جبل طارق ، بحيث لم تكتف بحماية الشاطىء الافريقي بل منعت تدفق القوات الصليبية القادمة من الغرب على سواحل الشام ، هذا الى ما جنته البلاد من ثمار الدعوة الموحدية ، اذ كانت دعوة إصلاحية تقدمية ، في الميدان الثقافي والديني مما نتناوله بالبحث في الفصول الآتية .

الدولة والثقافة العربية

ما هزّ عطفيه بين البيض والأسل   مثلُ الخليفة عبد المؤمن بن علي

بهذا المطلع المطرب وحده ، وهذا البيت البليغ المفرد ، مدح محمدُ بن أبي العباس السمعانيُّ عبدَ المؤمن بنَ عليّ الذي استعاده منه واستعاده ، وأمره بان يقتصر عليه ، وأجازه فيما يقول العمادُ الإصبهانيّ في كتاب الخريدة بالف دينار قائلاً له : لقد قلتَ في هذا كلّ شيء .

نعم ، لقد قال فيه كل شيء . أليس قد مدحه بالشجاعة والتفوق فيها ، حتى نفى عن غيره أن يكون هازّاً عطفيه مثله ، في الوغى المرتفعة بين السيوف اللامعة ؟ وانظُر أنتَ الى رشاقة هذا التعبير وما فيه من الحسن والجمال ، أليس يدعو الى الاعجاب بحسن خَلقِ عبد المؤمن قبل الاعجاب بحسن خُلقه وبرشاقة قدّه واعتدال مشيته قبل شجاعة قلبه وثبات جأشه ؟ وفوق هذا وذاك أليس قد دعاه بالخليفة ؟ وهذه هي الأمنية الحلوة التي طالما تمنّاها ملوك الاسلام وحلموا بها في منامهم ، حتى المضروبُ على أيديهم منهم ، فيعدّون الشرف الصميم والفخرَ العظيم والغاية التي لا قبلها ولا بعدها أن يُنعتوا بالخليفة ، فيكونوا ظلّ الله في أرضه ووارثي سرّ النبوة وواضعي أيديهم على رقاب ملايين البشر . لذلك فعبد المؤمن الناقد البصير يحقّ له ان يُشير على السمعاني بالاقتصار من القصيدة على مطلعها هذا لأنه كما قال قد جمع كل شيءٍ يمكن ان يقوله شاعر في ملك ذي صولة وبأس مثلِ عبد المؤمن . وهو من جهة

أخرى خشي أن يدرسَ البيتُ ويَضيعَ في تضاعيف القصيدة فإبقاؤه على حاله من الفردية أدعى الى حفظه وسيره وتخليده في الناس .

وبعد ، فهذا مثال واحد من امثلة تنشيط عبد المؤمن للادب والاخذ بضبعه واكرام أهله وإحلالهم منه المحل اللائق بهم ، وإدرار الصلات الطائلة عليهم ؛ ففي كل رحلة ، وفي كل احتفال عيدٍ وغيره ، وفي جميع المظاهر العادية وخلافها والمقابلات الرّسمية والمواقف العامة ، كان يجلس الى الشعراء ، وما أكثرهم في دولته ؛ فمن اندلسيين الى مغاربة الى أفارقة ومنهم الى مصري وشامي وعراقي وغيرهم ، يحاورهم ويساجلهم فينثرون عليه من عقود مدائحهم كل نفيس غال ، فيحسن الاستماع اليهم ويسرُّ من ثنائهم عليه وينتقد هذا ويقرّظ ذاك ، وفي الاخير يجيز الكل ويفيض عليهم من سيب عطائه وبحر نواله .

وهنا يحسن أن أورد للقارىء ما ذكره صاحب المعجب في وصف احتفاله ببيعة أهل الأندلس له على ظهر «جبل الفتح» كما كان يسمي هو جبل طارق ملخصاً قال : « ونزل الجبل المعروف بجبل طارق وسماه هو جبل الفتح فأقام به أشهراً وابتنى قصوراً عظيمة ، والمدينة الباقية الى اليوم ووفد عليه وجوه أهل الأندلس للبيعة كأهل مالقة وغرناطة ورندة وقرطبة واشبيلية وماو الى هذه البلاد ، وكان يومٌ عظيم اجتمع فيه من وجوه البلاد ورؤساها وأعيانها وملوكها من العدوة والأندلس ما لم يجتمع لملك قبله ، واستدعى الشعراء وكان على بابه طائفة أكثرهم مجيدون ، فكان أول من أنشده ابو عبدالله محمد بن حبوس من اهل فاس قصيدة اجاد فيها ما أراد :

بلغَ الزمانُ بِهَدْيكُم مَا أَمَّلا   وتعلَّمت أيامُه ان تعدِلا

وبِحَسْبِه أَنْ كان شَيْئاً قابِلاً   وَجد الهدايةَ صُورةً فتَشكَّلا

وانشده ابنُ الشريف المعروف بالطليق المرواني :

ما لِلْعِدَا جُنَّةٌ أَوْقى مِن الهرَب ؟

فقال عبدُ المؤمن الى أين ؟ الى أين ؟ رافعاً بها صوته فقال الشاعر :

أينَ المفَرُّ وخيْلُ اللهِ في الطَّلب ؟!

وأينَ يذهبُ مَن في رأسِ شاهقةٍ وقد رمَتْهُ سماءُ الله بالشُّهب

حدَّثْ عنِ الرُّوم في أقْطارِ أندَلُسٍ والبَحْرُ قد مَلأ العِبْرَيْنِ بِالعَرب

فلما أتمَّ القصيدة قال عبد المؤمن بمثل هذا تمدح الخلفاء ! وأنشد ابنُ سيّد الاشبيلي الملقب باللص :

غَمِّضْ عن الشمس واستقصِرْ مَدَى زُحل
وانظر الى الجبل الرَّاسي على جبل

أنَّى استقرَّ بِه ؟ أنَّى استقلَّ به ؟
أنَّى رأى شخصَه العالي فلم يَزُل

فقال له عبد المؤمن لقد أثقلتنا يا رجل ! فأمر به فأجلس . وأنشد محمد بنُ غالب البلنسيُّ المعروف بالرُّصافي :

لو جِئْتَ نارَ الهُدى منجانِبِ الطُّور قَبَسْتَ ما شِئتَ من علم ومن نور

الخ » هذا وغيره يفيدك بالخبر اليقين عن عناية الموحدين بالأدب ويدلك على نشاط الحركة الأدبية ونفاق سوقها في هذا العصر الزاهر ، حتى عمَّت البدو والحضر والعرب والبربر ؛ فأخصبت الأفكار وتفتحت العقول واتت الآداب والفنون أُكلها الشهي وثمرها الجنيّ . أما الفضل في ذلك كله فانه يرجع الى عبد المؤمن وحده الذي عرف من أين تؤكل الكتف ، فاستغلَّ جميع عناصر الحياة التي كانت متوفرة في عهد الملوك المرابطين قبله ولم يَترك من وسائل التشجيع وأسباب التنشيط شيئاً الاّ فعله ، واستحدث في ذلك أساليب خاصةً به ، وكيفيات لم يتّبِع فيها أحداً . ولعلَّ

ذلك راجعٌ لما تلقّفه عن استاذه ومربيه المهدي بن تومرت من أنواع المعارف وفنون الآداب ، ولما تطور فيه من الأطوار ، ولعبه من الأدوار ، وما جرّبه بنفسه من تصاريف الدهر وتقلبات الزمان ، فليس يُنكر انه استفاد من ذلك كله وأنه في مدرسة الحياة هذه ، درس علوم الاجتماع والنفس بأجمعها . غير أنّا إن اعتبرناه هو منشىء الحركة وموجدها وصاحبَ الفضل الكبير فيها ؛ فلا ننسى ما بذله خلفاؤه الصالحون ، كيوسف ابنه ويعقوب المنصور ومحمد الناصر وغيرهم من أعقابه وأحفاده ، والأمراء الموحدين الآخرين الذين كانوا مقيمين بالأندلس وإفريقية ؛ فإنّ لهؤلاء أيضاً فضلاً كبيراً في قيام الحركة الأدبية واستمرار تقدُمها الى الأمام . إنما نحن في سائر تلك البلاد لا يهمنا إلا المغرب إذ هو موضوع كتابنا هذا وقد وقفناك على مبدأ الأمر فيه فلنوقفك على منتهاه .

كان عبد المؤمن رجلاً ثقْفاً حاذقاً متحققاً بكثير من فنون العلم والأدب ، قد تلقّف عن المهدي بن تومرت ما اتى به من المشرق ، وزادته الايام حنكةً وتدريباً على الأمور ، فجعلت منه ذلك العبقريّ الفذّ ، الذي يندُر ان يجود الزمانُ بمثله إلا في الفيْنة النادرة . ولقد استخدم مواهبه كلها في تثبيت مركز الدولة وتقرير مستقبلها الحفيل بالعظائم ، حتى شاد لها ذلك العز المكين والفخر المبين ، الذي بقيَ ذكره مخلداً في بطون التواريخ . وكان همّاماً بكل معاني الكلمة لا يستعظم مطلباً ولا يستبعد غايةً ، ملوكياً ، كما يقول المراكشي ؛ كأنه ورث الملك عن آبائه واجداده ، فلم يقصُر نظره على أمر خاص من امور سياسة الدولة ، ولم يوجه عنايته الى ناحية واحدة من النواحي العديدة التي يتطلبها إصلاح المجتمع ، بل كان يُقبل بكلتيه على كل أمر جليلٍ أو حقير ، صغيرٍ أو كبير فيرتقُ الفتوق ، ويرأب الصدوع ، ويتقن عملية المزْج والتلقيح بين العناصر المختلفة ، والأجناس المتباينة ، ولقد خصّ الأندلس قبل المغرب برعايته وحمايته ، وعرَفَ ما لأهلها من فضل ويدٍ في تقدُم المعارف العامة ، واستخلص منهم صَفوْة الصّفوْة ، واختصّ بعلمائهم ، وقرّبهم من مجلسه ، وجعلهم بِطانتَه وأهل مشورته ، فأفاد ذلك المغرب والمغاربة كثيراً .

ولا نُريدُ أن نطيل بالكلام على ما عمِله أعقاب عبد المؤمن في هذا الصدد ، فما جئنا بنموذج مما عمله هو ، إلا ليكون نموذجاً عاماً عن جميع أعمال أعقابه ، خصوصاً وقد تتبّعوا خُطاه ، وترسّموا آثاره في ذلك ، ومن لم يزد منهم على ما عمله هو في البرّ

بالعلماء والعلم ، لم يُقصّر عنه أصلاً ، غير ان تأثير هذه السياسة التعليمية لم يبلغ من القوة في زمنه ، بحيث تظهر نتائجه لكل انسان ، ما بلغ في زمن يوسف ابنه ، ويعقوب حفيده ، ومن بعدهما ، اذ قد ازهر غرس عبد المؤمن وأثمر ، بتعهد ابنائه له بالسّقي والري ، فتفتحت الأفكار ، وتنورت العقول ، واتسعت المدارك ، وبلغ الشعب المغربي إلى درجة عالية من الثقافة العلمية ، حتى لقد استجلى المنصور ذلك ، واصبح مضطراً الى عدم الاستمرار في مغالطة الشعب الناهض ببعض التعاليم والشعائر ، التي أتت بها دولتهم ، وكانت الغاية منها سياسة محضة كالمهدوية وعصمة الامام ؛ فتقدّم بإلغائها الى الشعب الذي قابلها بمزيد الحماس ، لمّا كان باقياً على سذاجته ، ونبذها نبْذ النواة ، لمّا حصْحص الحق وتبين الصبحُ لذي عينين . على أن الغريب في أمر هذه الدولة التي رأينا ما بذلته من جهود في خدمة الثقافة الاسلامية العربية ، ونقل الشعب المغربي من حضيض الجهل والجمود الى أوْج المدنية والعرفان ، هو اعتناؤها الزائد باللغة البربرية ، وعدم نسيانها لها ، حتى بعد استقامة أمرها ونجاح مطلبها ، فلقد بلغ من محافظتها عليها ، وتكريمها لأهلها ان حظرتْ الوظائف الدينيّة على من لا يحسنُ التعبيرَ بها ، بل عزلت الخطباء ، وخطيب القرويين نفسه من الذين ليسوا ببربر أو ليسوا ممن يتكلمون البربرية ، ثم ولّت مكانهم من يضطلع بالمهمة المزدوجة ، وينطِقُ اللغتين[1] معاً .

والحق أن هذا تصرف غريب ، وفي منتهى الغرابة ، يجعلنا نقف امامه حائرين مشدوهين ، لا نعرف سبيلا الى التوفيق بينه وبين ما قدمناه من سهر الدولة على تعميم نشر العلم والثقافة العربية .

أما المؤرخون ، فلم يذكروا لنا السبب الحامل على هذه السياسة الرجعية التي

---

١ – أشار صاحب القرطاس الى هذا الإجراء في موضعين من كتابه ، أثناء كلامه على بناء القرويين حيث قال : « فلما دخل الموحدون المدينة يعني فاسا ، بدلت أحوال بأحوال ، ورجال برجال ، وبدل الخطباء والائمة بجميع البلاد ، فكان لا يؤم الا من يحفظ التوحيد بلسان البربر » . واثناء الكلام على خطباء القرويين حيث ذكر انهم لما دخلوا فاسا عزلوا خطيب القرويين أبا محمد مهدي ابن عيسى ، وقدموا مكانه الفقيه أبا الحسن بن عطية « لأجل حفظه اللسان البربري لأنهم كانوا لا يقدمون للخطابة والامامة الامن يحفظ التوحيد باللسان البربري » ولم يشر الى هذا الأمر في اثناء كلامه على الدولة الموحدية .

سلكتها الدولة بإزاء رجال الدين العرب ولا كيف كان تأثيرها في نفوس هؤلاء ، وفي نفوس الجماهير الشعبية ، وخاصة في كبريات المـــدن كفاس ومراكش وسبتة وطنجة ، والى أي مدى بلغ انتشارها وكان نجاحها ؟

وأما نحن فنستطيع أن نقول في قليل من التردُّد والحذر ، إنه ربما كانت هذه السياسة من تقليد الموحدين الأعمى لابن تومرت ، واقتدائهم به في إلقائـه دروسه بالعربية والبربرية ، وكتابته تآليفه باللغتين ؛ فإن يكن ذلك كما قلنـــا ، فانه من الأغلاط الفادحة ، والاخطاء الفاحشة . وعجيبٌ صدوره من عبد المؤمن العارف بمقتضيات الأحوال ، ومناسبات الأمور إذ أن الظروف الزمانية والمكانية التي اضطرَّت المهدي الى ذلك ، هي غير الظروف التي قامت فيها دولة عبد المؤمن وتمركزت .

فابن تومرت كان مفتقراً الى حماية البربر له ، ومضطرّاً الى مُصانعتهم لمساعدته في القيام بنشر دعوته ، وهو مع ذلك قد بثَّ العربية في تلك الأوساط البربرية البحت ، وارتكب أعجب الأساليب في تلقينها لمن يجهلونها[1] .

ولم يستعمل البربرية إلا بقدر الحاجة اليها . أما عبد المؤمن فقد كان على الضد من ذلك كله ، إذ كان طورُ التأسيس وتأليف البربر قد انتهى بالنسبة اليه ، وأصبح هو وحده صاحب النفوذ المطلق في البلاد ، بعد أن قضى على المرابطين ، وأنشأ الدولة الموحدية باسم الدين . فلمَ لم يُرَسِّم لغة القرآن ، ويستغني بها عن غيرها ؟ ولمَ هـــذا التعصب للبربرية الذي أدَّى الى تنحية رجال الدين عن وظائفهم ، واحلال آخرين ربما كانوا أقلَّ منهم علماً وإخلاصاً في محلهم ؟ لا نرى ما يُسَوِّغُ لعبد المؤمن هذا التصرف الغريب ، اللهم الا ان يكون باعثُه عليه احد أمرين كلاهما يرجح الآخر :

١ – فإما أن يكون مرادُه تحدّي العرب بذلك ، ليتوسل الى ابعادهم عن

---

[1] – من ذلك فيما حكى المؤرخون ، ان طائفةً من المصامدة عسر عليهم حفظ الفاتحة لشدة عجمتهم فعدد كلمات أم القرآن ، ولقب بكل كلمة منها رجلا منهم ، وصفهم صفاً ، وقال لأولهم : اسمك الحمد لله ، وللثاني رب العالمين وهكذا حتى تمت كلمات الفاتحة ، ثم قال لهم : لا يقبل الله منكم صلاة حتى تجمعوا هذه الأسماء على نسقها في كل ركعة ، فسهل عليهم الأمر ، وحفظوا أم القرآن .

مواقف الزعامة الدينية ، ومواطن قيادة الفكر العام خوفاً من انتقادهم عليه في يوم ما ، ونبذهم طاعته بالعراء كما حدث بالفعل في أيامه الأولى ، فقد ثاروا ضده مرتين ، مرة في سَلا بقيادة ابن هود ، ومرة في سبتة بقيادة القاضي عياض . ولا نرتاب في أن ثورة ابن هود كانت سياسية محضة ، لاتباعه خطة المهدي حَذوَ القُذَّة بالقذّة ، أملاً في النجاح الذي حصل للمهدي ، وقد ساعده الحظ في أول الأمر ، وكتِب له النصر في جميع المواقع حتى كاد يتغلب على جميع مملكة عبد المؤمن الشاسعة .

ويقول ابن ابي زَرْع : انه لم يبقَ بيد عبد المؤمن الا مراكش فقط ، الا ان صاحب الحُلل الموشية قال : ان فاساً بقيت معه كذلك . ثم دارت عليه الدائرة ، وتمكن عبد المؤمن من إخماد ثورته ورجَع الأمر الى نصابه .

وأما ثورة القاضي عياض ، فقد كانت مزيجة بين دينية وسياسية ، ولكنها دينية اكثر منها سياسية ، إذ ان أهل سبتة ، قاوموا الموحدين أولاً نزوعاً منهم عن الخضوع لسلطة بدعية تعتقد في الامام ، والعصمة ، ما يُنكره أهل السنة الذين كان عياض من زعمائهم ، فهذه وجهة نظر عياض ومن كان معه من العلماء السنيين أيضاً ولكن لما سقطت كل البلاد المغربية في حوزة الموحدين ، لم يبق لهم الا التسليم طوعاً أو كرهاً ، وهو الذي كان ، ثم لما حدثت ثورة ابن هود ، اغتنم القوم الفرصة ، فأعادوا الكرة استينافاً لتأييد رأيهم الاول ، وتحدياً لسلطة الموحدين التي رأوا منها انحرافاً ظاهراً عنهم ، ولربما اشتموا منها رائحة الغدر بهم ، وقد اضطروا اخيراً الى التسليم ايضاً ، وتشتت شمل القائمين بالثورة ، وتربص ببعضهم حتى توفي حتف أنفه .

٢ — وإما ان يكون أراد استرضاء البربر بذلك ، واستبقاءهم على حالهم الأول ، إذ كان قد تقرّر عندهم أنهم اهل التوحيد الحق ، والاسلام الصحيح ، وغيرهم مبتدعةٌ ومقلدون ، لا يصح الاقتداء بهم كما لا يصح ان يقفوا مواقف الوعظ والارشاد لئلا يضلوا العامة ، وينحرفوا بهم عن مذهب الدولة ، فهو قد اتخذهم تكأة يستند اليها في اقامة سلطانه ببث المذهب المهدوي الإمامي في الناس .

ومعلوم ان ليس من يقرّره للعامة ، ويبينه لهم الا البربر الذين تلقوه عن صاحبه مباشرة إذ كانت أكثرية الرعية وجلُّ أهل العلم ، ان لم نقل كلهم في البلاد سنيين ، لا يرضون بالدخول في ذلك المذهب ، فأحرى ان يقوموا بالدعاية له .

هذا أو ذاك هو ما يكون الحامل لعبد المؤمن على سلوك هذه السياسة الرّجعية كما حبب الينا أن نسميها ، ولئن كنّا لا نعرف متى توقف العمل بها ، فاننا نعرف أن حظها في النجاح كان قليلاً جداً ، اذ لم يكن لها تأثيرٌ ما في ناحية من نواحي النهضة الأدبية المستجدة في ذلك العهد ، إما لحصرها في دائرة مخصوصة ، وهي الدعــاية الدينية كما علمت؛ وإما لان الموحدين أنفسهم كانوا لا يساعدون تقدمها في السرّ ، وان ساعدوها في العلانية ، فلذلك لا خوف على العربيــة ما دامت دائرة انتشار البربرية محصورة ، لم تشمل من المرافق العامة ، والمصالح المشتركة سوى ما ذكر ؛ زد على ذلك أن الأغلبية التي لا تغالب عربية ، فهي لا تتأثر بهذه الشرذمة القليلة من الدُعاة البربريين ، كما أن أهل الكفاءة والاستعداد الذين احتلوا المناصب الرفيعـة والمراتب العالية في الدولة بالرغم عنها ، وبحكم مساس الحاجة الى مؤهلاتهم العلمية ومواهبهم العقلية ، كلهم عربٌ مغاربة وأندلسيون ، فلا خوف على ما كان أولئك القادة حاميته وذادته . وهكذا لم يلبثوا ان صبغوا الدولة بالصبغة العربيـة ، وطبعوها بطابعهم الصميم .

●

الحركة العلمية

بُذرت بذور النهضة العلمية الكبرى التي نمت وترعرعت على عهد الموحدين في ايام المرابطين . وكانت الغاية المتوخّاة من حركة عبد الله بن ياسين هي نشر الدين والتمكين لتعاليمه السّمحة من النفوس ؛ فاستتبع ذلك رفع راية العلم والعرفان ، ضرورة أنّ الدين الاسلامي والمعرفة متلازمان . ولما قام المهدي بن تومرت بحركته كان يرمي الى غاية أبعد من غاية سلفه وهي تجديد الدين . وهذه مهمّة تقتضي من التوسّع في العلم أكثر مما يقتضيه نشر الدين، فلذلك كانت العلوم على اختلافها من عقليّة ونقليّة ألزم للدعوة الموحديّة من أختها المرابطية بطبيعة الحال .

وبكل اعتبار فان الأساس الذي وقع عليه البناء في هذا العهد هو من وضع المرابطين . فقد كانت تلك الحماسة الدينية وما صحبها من الإقبال على طلب العلم ولو الديني فقط ؛ مما دفع بالناس الى حبّ البحث والاطلاع ، وأدّى الى الاحتكاك بالأندلسيّين والنقل عنهم ... وكما أنّ العرب في العصر الأول أيام حكم الأمويّين بقوا على السذاجة البدويّة والفطرة الإسلامية ولم يعنوا عناية كبرى بغير شؤون السياسة والدين ، وكانوا يتهيأون بعامل التطوّر للدخول في غمار المدنية العباسيّة ويستعدّون لها بمختلف العُدد والوسائل ؛ فكذلك المغاربة في العصر السابق كانوا يتهيأون لهذا العصر ويستعدون لاقتطاف أزهاره، واجتلاء أنواره . فما إن اقبلت تباشيره وأناخت ركائبه حتى أخذ كلّ شيء اتجاهه وجرت الأمور في مجاريها الطبيعيّة ، حثيثة السير ثابتة الخطى نحو التقدم والكمال .

ولنعتبر ذلك في الحركة العلميّة التي تعنينا الآن ، فهذا علم الفقه على مذهب مالك قد واصل تفرّعه وانتشاره كما كان قبلُ أو أكثر. ونتيجةً للتفاعل مع الدعوة الجديدة فقد مال أهله الى الترجيح والتأويل ونبذوا التعصّب لأئمتهم ومشائخهم ، وجعلوا البحث والنظر رائدهم في معرفة الحقائق وتقرير الأحكام ؛ فرجعوا بذلك الى أُصوله ومصادره الأولى من الكتاب والسنّة وما اليهما ، حيث وجدوا من الدولة العتيدة ميلاً

اليها وتعضيداً لأهلها . لكن من غير ان تحملهم على ذلك حملاً وتلزمهم به قسراً ، حتى اشتطّ يعقوب المنصور ثالث خلفاء الموحّدين وتصلّب في تنفيذ خطّة ابن تومرت ومحاربة علم الفروع قصدَ الإجهاز عليه . فأحرق كتب المذهب وعوّضها بالصّحاح العشرة والمنتخب الذي اختاره منها . ويقول المراكشي في هذا الصدد : « وفي ايامه انقطع علمُ الفروع وخافه الفقهاء وأمر باحراق كتب المذهب بعد ان يُجرّد ما فيها من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن ، ففُعِل ذلك . فأحرق منها جملةٌ في سائر البلاد كمدوّنة سحنون وكتاب ابن يونُس ونوادر ابن أبي زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبراذعي وواضحة ابن حبيب وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها . لقد شاهدت منها وأنا يومئذٍ بمدينة فاس يُؤتى منها بالأحمال فتوضع ويُطلق فيها النار . وتقدّم الى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيءٍ منه وتوعّد على ذلك بالعقوبة الشديدة ، وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدّثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة ؛ الصّحيحين والترمذي والموطّا وسنن أبي داود وسُنن النّسائي وسنن البزّار ومسند ابن ابي شيبة وسنن الدارقطني وسنن البيهقي ؛ في الصلاة وما يتعلق بها على نحو الاحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة . فأجابوه الى ذلك وجمعوا ما أمرهم بجمعه ؛ فكان يمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه . وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب وحفظه الناس من العامة والخاصة ، فكان يجعل لمن حفظه الجعل السني من الكسا والأموال . وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث . وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجدّه ، إلا أنهما لم يظهراه واظهره يعقوب هذا . يشهد لذلك عندي ما أخبرني به غير واحد ممن لقي الحافظ أبا بكر بن الجدّ أنه أخبرهم قال : « لما دخلتُ على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس فقال لي يا أبا بكر أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله . أرأيت يا أبا بكر ؟ المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا ؛ فأي هذه الأقوال هو الحق وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك فقال لي وقطع كلامي : يا أبا بكر ليس إلا هذا ، وأشار الى المصحف ، أو هذا ، واشار الى كتاب سُننِ أبي داود ، وكان عن يمينه ، أو السيف ! فظهر في أيام يعقوب هذا ما خفي في أيام ابيه وجدّه . وانتهى أمرهم معه الى ان قال يوماً بحضرة كافة الموحدين يسمعهم وقد بلغه

حسدهم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه إياهم ، وخلوته بهم دونهم ، يا معشر الموحدين انتم قبائل فمن نابه منكم أمرٌ فزع الى قبيلته ، وهؤلاء – يعني الطلبة – لا قبيل لهم إلا أنا ، فمهما نابهم أمر فانا ملجأهم ، والىّ فزعهم والي ينتسبون . فعظم منذ ذلك اليوم أمرهم وبالغ الموحدون في برهم واكرامهم فمن هنا تعلم ان الحالة بقيت كما كانت في أيام المرابطين مدة حكم عبد المؤمن وابنه يوسف الى أيام المنصور . أما أن هذا كان مقصد أبيه وجده ، فهو مما لا شك فيه ، بل إنه كان مقصد ابن تومرت بالأصالة وقد عمل عليه ودعا إليـــه في دروسه وكتبه ، إلا انه لم يكن صارما في ذلك مثل المنصور .

وعلى ما يبدو في فعل المنصور هذا من تضييق خناق الحرية الفكرية وتقييـــد إرادة أهل العلم فانه أفاد الحركة العلمية من الوجهة العامة فائدة جلىّ؛ حيث جعل الناس يقللون من الإكباب على النظر في عـلم الفروع المجرَّد ، وينصرفون الى دراسة الفقه في أصليه العظيمين أعني الكتاب والسنة . فظهر الاشتغالُ بعلم التفسير وعكف الناس على تفهم كلام الله عز وجل ودراسته دراسة علمية صحيحة ، ونبغ المفسرون العديدون مثل عبد الجليل القصري والحرَّالي والمزدغي . كما انتشر علم الحديث رواية ودراية واقبل الناس على الأخذ عن رجاله والتأليف في فنونه المختلفة. وكان الأخوان ابو الخطاب وأبو عمرو ابنا دحية السبتيان وابن القطان الفـــاسي ومحمد بن قاسم التميمي من ألمع محدثي هذا العصر .

الفقه والتصوف :

وبما ان النظر الفقهي قد تطوَّر فان التصوُّف لم يبق يعدُ منكراً كذي قبلُ ، ولم يبق للفقهاء على أهله تلك الصولة . فظهر جماعة من الصوفية الكبار أصحاب النزعات الفلسفية وانبثت مذاهبهم المختلفة في الناس . ولا نقصد الأندلسيين منهم كابن عربي الحاتمي وابن سبعين والششتري وغيرهم ؛ فان في الصوفية المغاربة من كانوا ذوي آراء وأنظار غريبة فلسفية واجتماعيـــة ورياضية ، كأبي الحسن المسفر وأبي العباس السبتي وأبي محمد صالح الآسفي . والجدير بالذكر هو أن النهضة الموحدية أثـَّرت على العقول في الأندلس والمغرب تأثيراً متشابهاً فأصبح الفكر الاسلامي في كلا

القطرين محرَّراً من القيود التي كانت تجعله يثور لاقـــل بادرة من الخروج عن دائرة المُسلَّمات والقواعد والرسوم المتعارفة . فشتان بين عهد المرابطين الذي كان فقهاؤه في كل من الأندلس والمغرب يُحرِّمون الإحياء وغيرها من كتب الغزّالي ويحكمون بإحراقها؛ وبينَ هذا العهدالذي ينبُغ فيه مثلُ ابن عربي الحاتمي وينشر كتابه الفتوحات المكيَّة وغيره فلا يحرِّك الفقهاء ساكناً في سبيل الإنكار عليه ، مع عِظَم الفرق بين محتويات الإحياء ومحتويات الفتُوحات ممـا لا تُقِره المذاهب الفقهية بأجمعها وربمـا (ورُبَّ للتكثير) يتعارض مع جوهر العقيدة الاسلامية في كثير من المسائل .

علم الكلام :

وكذا الكلام أخذ حظه الكامل من الانتشار فقد كان ابن تومرت يُلزم أصحابه بدراسته إلزاماً . وكان الموحدون على العموم يعتبرون من لم يعرف العقائد على سبيل التفصيل وعلى طريقة الأشعري بالأخص يعتبرونه كافراً ليس معه من الاسلام الا الاسم. ومن ثَمَّ سموا أنفسهم بالموحدين ونبزوا المرابطين خصومهم بالمجسمين . وألَّف المهدي لأصحابه عقائد مختصرة باللسانين العربي والبربري كما سبق القول ، فتأثر الناس خُطاه وصنَّفوا في هذا العلم الكتب العديدة . وكان من أطولهم يـــداً وأحسنهم عارفةً في هذا السبيل عند العامة الشيخ أبو عمرو عثمان بن عبدالله بن عيسى السلالجيّ . وهو الذي على يده وقع تحوُل أهل فاس من المذهب السلفي في العقيدة الى المذهب الأشعري تبعاً للتيار العام الذي اكتسح المغرب بأجمعـه في هذا الامر نتيجة لدعوة ابن تومرت . ولكن قد شيبَ صفْو هذا العلم في أوائل أيام الموحدين بمـــا أضافوه اليه من تعاليم شيعية بِدْعية جرياً وراءَ ما كان يذهب اليه داعيتهم المهدي بن تومرت من ذلك المذهب . فقد كان الاعتقاد بالامام وعصمته شائعاً في ذلك الوقت وكانت الخطب على منابر المغرب والأندلس وافريقية التي تنيفُ على ألفي منبر لا بد ان تشتمل على الدعاء « للامام المعصوم المهدي المعلوم » حتى تقدّم بمنع ذلك يعقوب المنصور على ما ألمعنــا اليه سابقاً فكانت حسنةً من حسناته وكفارةً عن جميع ما يؤخذ عليه بشأن العلم والعلماء . وعلى كل حال فان علم التوحيد أو علم الكلام — كما سُميَ قديماً — انما انتشر في هذا العصر . وما كان قبله انما هو من قبيل المحاولات الأولى . ومِثـــله علم أصول

الفقه، فقد تبوأ من بين العلوم في هذا العصر مكاناً عالياً ووجد من القرائح المغربية مجالاً خصباً لنموه وازدهاره .

وهذا ان العلمان هما مما نقلـــه المغرب عن المشرق مباشرة وقد نبهنا في عصر المرابطين على الطليعة الأولى من رجالهما الذين أدخلوهما الى المغرب . ثم جاء المهدي بن تومرت وقد أخذهما عن ائمتها الراسخين من أهل المشرق فبثهما وحفز الهمم لطلبهما وكان انتشارهما سبباً في تقريب شقة الخلاف ما بين الفقهاء والمتكلمين والمتصوفة ، لما يحملان عليه من النظر في الأدلة وعدم المسارعة الى الانكار قبل معرفة مدرك الخصم ، وبذلك زال النزاع الشديد الذي كان قائماً بين هذه الطوائف من العلماء . والذي كان يبعث بعض الفقهاء من أهل هذا العصر على أن يقول مثل هذه المقالة المنقولة من كتاب الحلال والحرام لراشد الفاسي. قال فيه: «سمعت من أبي محمد عبدالله بن موسى الفشتالي أنّ التائب إذا اقتصر على ما عند علماء الشريعة أولى وأسلم له، بل لا يجوز اليوم اتخاذ شيخ لسلوك طريق المتصوفة أصلاً؛ لانهم يخوضون في فروعها ويهملون شروط صحتها ، وهو باب التوبة ، إذ لا يصحّ بناء فرع قبل تأسيس أصله. وسمعته يقول: لو وجدت تآليف القشيري لجمعتُها والقيتها في البحر . قال وكذلك كتب الغزّالي . وسمعته يقول . إني لأتمنى على الله أن أكون يوم الحشر مع أبي محمد بن أبي زيد لا مع القُشيري والغزّالي بل مع أبي محمد يشكر فذلك أكثر أمناً لي على نفسي » . . .

على ان الغريب في الأمر هو أن هذه الكتب التي كانت تعدم وتحرق لا تلبث ان تحيى وتروج ايضاً وهذه الإحياء ألم يحرقهـــا علي بن يوسف ؟ فكيف عادت الى الظهور ؟ إذ لا شك انها المعنيّة في كلام الشيخ الفشتالي . وإذا قيل إنّ كتب الغزالي قد انتشرت من جديد بسبب قيام دولة الموحدين التي يُعتبر مؤسسها خرّيج المدرسة الغزّالية وناشر تعاليمها في المغرب ، فكيف يقال في كتب الفقه المالكي التي أحرقها المنصور وقد قيل ان عبد المؤمن نفسه أمر باحراقها لمّا استتبّ له الأمر ؟.. والجواب انه في هذا العصر كان جلّ الاعتماد على الحفظ والاستظهار . فبعد حرق هذه الكتب لم يصعب على الناس ان يجدوا من يستظهرها بلفظها وتكتب عنه . وهذا الشيخ أبو محمد عبدالله بن محمد بن عيسى التادلي الفاسي الفقيه الحافظ المحصّل المتوفي سنة ٦٢٣ يذكر المؤرخون في ترجمته أن المدونة كتبت من حفظه بعد أن أحرقها الموحدون أي في

نفس الوقت تقريباً . ومما لا شك فيه ان غيره كثيرون ممن كُتبت الكتب الأخرى المحروقة من لفظهم وحفظهم .

والذي نريد أن نسجّله هنا هو أن المذهب المالكي لم ينهزم مطلقاً أمام الدعوة الى الاجتهاد التي كان الموحدون يتزّعمونها ، ولا أمام المذهب الظاهري الذي نشط نشاطاً كبيراً في هذا العصر . وذلك برغم الحملة المنظّمة من رجـال الدولة للقضاء عليه . فها أنت ترى كتبه الأمّهات يُعاد كتبها بفور إحراقها . وسترى في تسمية تآليف فقهاء العصر ما وُضع حول هذه الكتب من دراسات وما عُمِل لها من شروح . وأنا لنعدُّ من فقهاء المذهب المالكي الذين نبغوا في هذا العصر العشرات قبل أن نعُدّ ظاهريّاً واحداً أو فقيهاً متحرّراً ممّن يميـل الى الاجتهاد . ناهيك بأبي محمد يشكر الجراوي الذي سبق ذكره في كلام الشيخ الفشتالي ، فانه من فقهاء العصر وممّن كتب على المدونة ، وأبي محمد صالح الفاسي الذي بقي مثلاً مضروباً عند فقهاء المذهب للعدل المبرّز ، وأبي القاسم الجزيري صاحب المقصد المحمود في تلخيص العقود وهو الكتاب الذي اعتمده الناس في كتابة الوثائق ولم يقدموا عليه غيره ، وأبي الحسن المتّيوي الفقيه الحافظ صاحب الشرح العظيم على الرسالة بالنقل لأقوال الأئمة الذين تدور عليهم الفتوى . الى غير هؤلاء ممن يطول الأمر بتعدادهم . بل أنا لنسجل ما قام به أحد فقهاء المالكية من ردّ فعلٍ على حركة انتشار المذهب الظاهري ممثّلٍ في التهجّم على ابن حزم إمام الظاهرية بالأندلس والمغرب ، ممّا أدّى الى عقد مجلس علمي بمراكش للنظر في القضية . وهذا الفقيه هو ابو زكريا الزّواوي أحد أفراد هذا العصر علماً وصلاحاً . وكان مقيماً ببجاية . واليك ما كتبه الغُبريني عن هـذه الواقعة في كتابه عُنوان الدراية . قال :

« ولما كان من أمر الفقيه أبي زكريا الزواوي في شأن ابن حزم ما قـد اشتهر ، وتعصّب له ناس ورفعوا القضيّة للخليفة بمراكش اقتضى نظر الفقيه أبي زكريا رضي الله عنه أن يتوجّه عنه الفقيه ابو محمد عبدالكريم الحسني المراكشي . فتوجه وحمل تآليف الفقيه أبي زكرياء ورده على ابن حزم المسمى حجة الأيام وقدوة الأنام . ولما وصل حضرة مراكش استحضره أمير المؤمنين بين يديه بمحضر الفقهاء وعرض تآليف الفقيه عليهم وكان الفقيه ابو محمد عبد الكريم هو النائب في الحديث فأحسن وأجاد وأطلع أمير المؤمنين ومن حضر من الفقهاء على كلام الفقيه رضي الله عنـه ممّا دلهم على فضله

ودينه وعلمه ، فكان من قول الخليفة « يترك هذا الرجل على اختياره فان شاء لعن وان شاء سكت » . وانقلب ابو محمد عبد الكريم وهو المبرور ، وسعيه المشكور ، رضي الله عنه وأرضاه » .

وهذه الحادثة إن مثلت المعركة التي كانت قائمة بين المالكية وخصومهم ، فانها تدل على فشل الجهود التي بذلت لصرفهم عن مذهبهم وعلى ازدهار هذا المذهب في حين كان خصومه يعملون على ذبوله .

وعلى كل حال فان مما لا ريب فيه ان الفقه المالكي قد استفاد من هذه المعركة ، غير الانتصار على الخصم ، التلقيح بمادة الحياة الأصلية بالنسبة الى كل المذاهب الاسلامية ؛ وهي الرجوع الى الكتاب والسنة فلم يبق ذلك الفقه الساذج الذي يقارن أقوال أئمة المذهب بعضها ببعض ، ويرجعها في النهاية الى رواية ابن القاسم عن الامام مالك ، بل صار يعتمد على الأدلة وينظر في الخلاف العالي . وبذلك أخذ خير ما في الدعوة المعارضة له وأحرز كيانه .

وكذا وقع في انتشار مذهب الأشعري العقدي بعيداً عما شيب به من تعاليم شيعية غالية على ما كان المهدي يدعو اليه . فان الامام السّلاجي الذي تجند لنشر العقيدة الأشعرية كان من أبعد الناس عن تلك الشبه وأكثرهم تمسكاً بالسنّة . فلما أخذ الناس عنه العقيدة المذكورة لم يكن فيها شيء من تلك الشوائب وحمى الله المغرب وأهله من الغلو والانحراف في العقيدة والمذهب .

هذا وقد قلنا إن الموحدين كانوا يدعون الى الاجتهاد ونحن نعني ما نقول خلافاً لما شاع من أنهم كانوا على مذهب الظاهرية . فان احداً من مؤرخيهم لم ينقل ذلك عنهم ، وليس يكفي أن يظهر المنصور إعجابه بابن حزم لنحكم بانه وقومه على مذ [١] كيف والذي ثبت من عمله أنه جمع من كتب السنة أحاديث في العبادات

---

[١] المقري في النفح أن المنصور مرّ بأوقية من أرض شلب فوقف على قبر الحافظ أبي محمد بن حزم وقال : عجباً لهذا الموضع يخرج منه مثل هذا العالم ! ثم قال : كلّ العلماء عيال على ابن حزم .

كان يمليها على الناس ويجعل لمن حفظها الجعل السني على ما مرّ ؟ فالأمر يتعلق بالدعوة الى العمل بالسنة أكثر من الانتماء الى مذهب معين . ويقول التاج ابن حمويه السرخسي الذي رحل الى المغرب في أيام المنصور واتصل به اتصالا وثيقاً حسبما اثبته المقري في نفح الطيب عنه : « والذي علمت من حاله أنه كان يجيد حفظ القرآن ويحفظ متون الأحاديث ويتقنها ويتكلم في الفقه كلاماً بليغاً . وكان فقهاء الوقت يرجعون اليه في الفتاوي . وله فتاوي مجموعة حسبما أدّى اليه اجتهاده . وكان الفقهاء ينسبونه الى مذهب الظاهر وقد صنّف كتاباً جمع فيه متون أحاديث صحاح تتعلق بالعبادات سماه الترغيب » فليتنبه الى قول السرخسي (وله فتاوى مجموعة حسبما ادى اليه اجتهاده) وما تفيده هذه العبارةُ من مَيله الى الاجتهاد . والى قوله (وكان الفقهاء ينسبونه الى مذهب الظاهر) وما تعطيه هذه الجملة من انهم يتجنوْن عليه بذلك . وقد رأيتَ ان الفقيه الزواوي كان يجهر بلعن ابن حزم ، وأن أمره عُرض على الخليفة بمراكش فأقره على رأيه . وذلك مما يدل على أن الموحدين لم يكونوا ظاهرية والا لما قبلوا لعْن امامهم وكبير علماء مذهبهم .

والحجة الكبيرة في أن القوم لم يكونوا على مذهب أهل الظاهر هي مجموعة كتب المهدي بن تومرت هذه التي نشرها المستشرق المجري جولدزهير وتشتمل على كتاب أعز ما يطلب والعقيدة المرشدة وكتاب الطهارة الذي يقال ان المنصور جمع كتاباً في الصلاة على منواله ، الى غير ذلك من تعاليق المهدي وكلها ليس فيه ذكر للظاهرية ولا لعَلَم من أعلامها .. بل ان في تعاليقه الأصولية ما يعارضها وهو أثبات القياس ومدْحه مما لا يجنح إليه أهل الظاهر كما هو معلوم . واذا كان هذا إمامُ الموحدين ومهدّيهم الذي أسس دولتهم ومهّد مذهبهم لا يرى رأي الظاهرية ولا يبدي نحوها أدنى ميْل فلا شك أنّ خلفاءه كانوا كذلك . وانما كان الفقهاء ينسبونهم اليها تشنيعاً عليهم كما يقال اليوم في كل من كان سلفيّ العقيدة : إنه وهّابي ، تنكيتاً عليه وتنفيراً من مذهبه[1] . ونظنُّ ان ميل المهدي واتباعه الى الاجتهاد جاءهم من الشيعة الذين

---

١ – مما يشهد لما قلناه ، هذه الأبيات التي يقولها ابن عربي الحاتمي تبرياً من الظاهرية ، وهو ايضاً ممن رُميَ بها :

نسبوني الى ابن حزم واني	لست ممن يقول قال ابنُ حزم
بل ولا غيرُه فان كلامي	قال نصّ الكتاب ذلك حكمي
أو يقول الرسول أو أجمع	الخَلقُ على ما أقول ذلك علمي

اخذوا بعض آرائهم ومزجوا بها مذهبهم . والشيعة كما لا يخفى يقولون بالاجتهاد ولا يدّعون انقطاعه .. وهذا هو السبب الذي نفسّر به انصراف الفقهاء المغاربة عن دعوة الموحدين الى الاجتهاد ، حيث انها كانت مشوبةً بما لا يقبلونه من تعاليم شيعية تقدمت الاشارة اليها .

* * *

العلوم الأدبية :

هذا ملخص الخبر عن حركة العلوم الدينية في هذا العصر . ونقول الآن كلمتنا في العلوم الأدبية متوخّين الايجاز ما أمكن. ولا بد من النص أولاً على أن المراد بالعلوم الأدبية ما يشمل النحو واللغة والعروض والبيان والتاريخ والسِّير. وقد رأينا بعضَ ما كان لهذه العلوم من الرواج في العصر السابق على قدر ما تعطيه المصادر الضَّنينة بمثل هذه المعلومات . أما في هذا العصر فقد اتسعت دائرة انتشارها وتخلفت لدينا بعض الآثار التي تدل على ان هناك نهضةً حقيقيةً كانت تتدرّج بهذه العلوم في مدارج التطور والتقدم ، تماماً كما وقع في العلوم الدينية وغيرها . ففي خصوص علم النحو ظهر النُّحاةُ الذين كان لهم مقام كبير ، وألّفوا الكتب التي ما تزال تعرّف بعلو قدرهم وتنبيء عن رسوخ قدمهم في هذا العلم ، كأبي موسى الجزولي صاحب الكرّاسة الشهيرة في النحو ، وتسمى أيضاً المقدمة الجزولية ، وبعضهم يسميها القانون والاعتماد . وكابن معطٍ صاحب الألفية النحوية التي عمل ابنُ مالك ألفيته على مثالها، بل ان التفوق في هذا العلم أدّى الى وجود مدارس نحوية هنا وهناك، تفرّدت بآراء خاصة في بعض مسائل الإعراب وغيره . فهذه مدرسةُ فاس التي سيختلف أهلها مع مدرسة تلمسان في مسألة صرف أبي هُرَيرةَ . وهذه مدرسة سبتة التي تخالف الجمهور في ضمّ النكرة المقصودة إذا نُوّنتْ اضطراراً . وهذه مدرسة طنجة التي توجه اسئلة نحوية الى مدرسة اشبيلية . واخيراً هذه مدرسةُ المغرب بعامة التي لا تسمّي لولا شرطاً ولا لو إلا إذا كانت بمعنى إنْ ، أي حين تكون مجرّدةً من الامتناع ؛ وذلك في الغايات نحو قوله عليه السلام — احفظوا عني ولو آية . أشار له العلامة ابن غازي .. وان عبّر هذا عن شيء فانما يعبر عن الدراسات القيمة التي كان المغاربة يقومون عليها ويوجّهون جهودَهم اليها في هذا العلم . ومثل النحو اللغة

والعروض والبيان ، فقد كانت لها سوقٌ رائجةٌ وكان اللغويون المعنيُّون بحفظ متن اللغة كاللغويين الباحثين في مسائلها يأتون بالطريف المعجب في تسمية الأشياء وتحقيق معاني الألفاظ . فهذا المحدّث ابو الخطاب بن دِحْية السّبتي يقول الغبريني عنه في عنوان الدراية : « إنه كان من أحفظ أهل زمانه باللغة حتى صار حوشيُّ اللغة عنده مستعملاً غالباً عليه . ولا يحفظ الانسان من اللغة حوشيَّها إلا وذلك أضعاف أضعاف محفوظه من مستعملها » . وروى أن والي بجاية جهَّز قطعاً بحريّة بعث فيها بعض الغزاة الى المغرب فأخذ خديمٌ لأبي الخطاب في جملة هؤلاء الغزاة أثناء إقامته ببجاية . فكتب الى الوالي رسالةً مغلقةً من كثرة ما استعمل فيها من الغريب ، فلم يفهم الوالي معناها حتى استحضر كتب اللغة ؛ الصّحاح وغيره . ولم تتضح له حتى سافرت المراكب . قال الغبريني :

« وهـذا أقلّ عوارض الخروج عن العادة وعدم سلوك السبيل الجادّة » وإن كان ذلك الوالي لمزيد اعتنائه بالشيخ أبردَ بِردٌ خديمه . فصُرف اليه بعد أن وصل الى وهْران . وهذه الرسالة الغريبة سنوردها في المنتخبات . وكذلك أخوه ابو عمرو بن دحية السبتي كان مثله في الحفظ للغة والذكر لغريبها ، فضلاً عن كونه من رجـال الحديث كأخيه . وروى ابن رُشَيْد في رحلته عنه بواسطةٍ ، أنه دخل الى أشبيلية قادماً من بلنسية فجاء الى جامع العدبَّس بها قال : فجاءني رجل فسألني من أين جئتَ ؟ قلت رحلت من بلنسية في طلب علو الرواية في الحديث فقال : هل تذكر شيئاً في اللغة ؟ فقلت هي بضاعتي . فقال ما اسم البصل في لغة العرب ؟ فقلت الدّوْفَص . فقال : وما شاهده ؟ فقلت له قال الحجّاج لطاهيه : اطبخ لنـــا عرْبربيّة[1] وأكثِر دَوْفصها . قال فولّى عني ثم أقبل ومعه مملوك بيده سبنيّة[2] بثياب وقرطاسٌ فيه مائة دينار فدفعها إليّ وقال استعِنْ بهذا على طلب العلم . وقال انا ابنُ زُهْر ألفتُ كتاباً في الطب ذكرت فيه جميع الأعشاب (بجميع الأسماء وعجزت عن اسم آخر للبصل بالعربية) فالآن قد تم الكتاب[3] ثم قال هذا قليل في حق مسألة من العلم .

---

١ – اي طعاماً مصنوعاً من العربرب ، والعربرب هو حب السّمّاق نوع من الشجر حامض الطعم .
٢ – أي منديل فيه كسوة . وانظر تفسير سبنية في بحث عاميتنا والمعجمية في كتابنا « خل وبقل » .
٣ – ما بين الهلالين ممحو من مخطوطة الرحلة المنقول عنها وهي المودعة بمكتبة الاسكوريال . وما اثبتناه هو الأقرب للمعنى المراد .

وقد نشطت المباحث اللغوية في هذا العصر نشاطاً كبيراً ويكفي للدلالة على ذلك ان نشير الى ما كتبه الامام ابو القاسم السُّهَيلي المالقي نزيل مراكش ودفينُها من التحقيقات البالغة الأهمية في هذا الصدد ، وخاصة في كتابه الروض الأنف الشهير . والى مـــا كتبه العلامة ابن هشام اللخمي الاشبيلي مولداً السبتي داراً من التعاليق والشروح في النحو واللغة وتقويم اللسان ، وأهمها كتابه في لحن العامة الذي ردّ به على الزبيدي وعلى ابن مكي في الموضوع فصحَّح ما وهما فيه ، وتعرض للحن عامّة زمنه ، مما يدل على تضلُّعه واتساع مادّته . وبالجملة فهو كتابٌ مفيدٌ جداً في الاطلاع على تطوّر الدراسات اللغوية في المغرب والأندلس معاً .

ونشأت في هذا العصر فكرة نظم المسائل اللغوية تسهيلاً على الطلاب اذ كان النظم أكثر ضبطاً وأيسر حفظاً . ومن ذلك أُرجوزة العلامة ابن المُناصف المسماة بالمذهبة في الحلى والشّيات . وقد نظمها بمراكش في جمادى الأولى عام ٦٢٠ فحُملت عنه وسُمعت عليه كثيراً : ومنه نظم العلامة ابن مُعطٍ لجمهرة ابن دُرَيد ونظمـــه لصَحاح الجوهري وهي محاولةٌ جريئة كما لا يخفى .

ولا نذكر هنا النحويين واللغويين كأبي عليّ الشَّلَوْبين وابن خروف وابن عُصفور وابن مضا وابن مالك وغيرهم ممّن أظلّهم عصر الموحدين ، إلا على سبيل التذكير بما كان لعلوم العربية نحواً ولغةً من عظيم الازدهار في هذا العصر ، ولا سيما وأكثر هؤلاء ممّن زار المغرب وأقام فيه فأخذ عنه الطلاب ونشر معارفه بكل مكان .

وبخصوص علم العروض من العلوم الأدبية نذكر أنه في هذا العصر نبغ العلامة ضياءُ الدين الخزرجي السَّبتي صاحب القصيدة الشهيرة بالخزرجيّة في هذا الفنّ والتي يسميها المشارقة بالرّامزة . وهي بقدر ما تدل على معرفته بالعروض تدل على رسوخ قدمه في الأدب حيث استطاع أن يُضمّن أغراض هذا العلم في قصيدة لا تتجاوز مائة بيت بما استخدم في ذلك من الرّموز والإشارات حتى عُدّ شرحها فيما بعد من المأثُرات. وكذلك العلامة ابن أبي الجيش الانصاري صاحب العروض المعروف باسمه فانه من نوابغ هذا العصر . وليس هو صاحب الخزرجية ولا هذه هي عروضه كما يخلط بينهما بعض الكتاب . ولابن مُعطٍ ايضاً نظمٌ في العَروض ذُكر في ترجمته . هـــذا الى ما وضعه الأندلسيون من تآليف عديدةٍ أُخذت عنهم بالمغرب والأندلس وكان لها رواج

يستتبع بالطبع رواج فنّها . ولا نُغفل في هـــذا الباب ما اخترع من الأعاريض والأوزان الشعرية الجديدة كالموشّحات والأزجال . فان هذه وان كانت قد اخترعت في الأندلس ولقيت من أمراء العهد المرابطي كأبي بكر بن تافلويت كلَّ تشجيع إلاَّ أنها انما بلغت أوْجَ الكمال في هذا العصر .. ففيما يخص التوشيح نرى جماعة من فرسانه ينقطعون الى أمراء الموحدين الذين كانوا يُعرفون بالسّادة يمتدحونهم بموشّحاتهم التي كانت تقع منهم أحسن موقع . ونجد سابق هذه الحلبة الوزير أبا بكر بن زُهر قـــد اختص بالخليفة يعقوب المنصور وحظيَ عنده حظوةً لا مزيد عليها . فممّا لا ريب فيه ان اصطناع رجال الدولة من الموحّدين لأهل هذا الفن ، هو اصطناعٌ للفنّ نفسه ينمُّ عمّا وراءه من إعجاب وتقدير ، لا سيا وقد كان نظر الأدباء المحافظين في التوشيح ليس بذاك ، كما يُشعر به كلامُ المراكشي في المعجب الذي امتنع عن رواية شيء من موشحات ابن زُهر « لأنَّ العادة لم تجرِ بإيراد الموشحات في الكتب » تماماً كما ينظر بعضهم اليوم الى هذا الشعر الحرّ . فتقريب الموحدين للوشّاحين واحتفالهم بهـــذا الفنّ من القول ؛ فيه تشجيعٌ لهم وتنشيطٌ ، إذ الناس على دين ملوكهم كما يقولون .
وانظر الى هذه الجزئية التي رُويت عن السيد أبي عمران موسى بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن والي إشبيلية ؛ فقد أُنشد له من شعره قوله يخاطب الأديب أبا الحسن بنَ حَريق يستحثُّه على نظم الشعر في عَروض الخبَب :

خُذْ فِي الأَشْعَـارِ على الخَبَبِ ... فقُصُورِكَ عنه من ٱلْعَجَبِ
هـذا وَبنُو الآدابِ قَضَوا ... بِعُلُوِّ مَحَلِّكَ في ٱلرُّتَبِ

فإن منها يظهر ان هؤلاء الامراء كانوا يوجهون الأدباء ويقترحون عليهم ما يقولون وكيف ينظمون ومثل هذه الجزئية رويت عن المنصور نفسه .

واذا كنا ذكرنا أبا بكر بن زُهر وهو أندلسي لنقول إن التوشيح ازدهر على يده ؛ فان الوشاح المغربي الذي يعد فريد عصره هو القاضي ابو حفص بن عمر الأديب الشهير ؛ له موشحات مشهورة يغنى بها في الأقطار كما قال ابن سعيـــد المغربي في الغصون اليانعة ، وإن كان لم يصلنا منها شيء ، مع الأسف ، وما قيل في التوشيح يقال في الزجل ويزاد أنهم في فاس اخترعوا وزناً جديداً منه سموه عروض البـلد

ونوّعوه الى انواع ، كل نوع منها له اسم . وذلك هو ما يتحدث عنه ابن خلدون في المقدمة ، بعد كلامه على الزجال ابن قزمان وطريقة أهل الأندلس في نظم الزّجل فيقـول : « ثم استحدث أهل الامصار بالمغرب فناً آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة كالموشح فنظموا فيه بلغتهم الحضرية وسموه عروض البلد وكان أول من استحدثه منهم رجلٌ من أهـل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير ، نظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن الإعراب إلا قليلاً ؛ فاستحسنه أهـل فاس وولعوا به وتركوا الإعراب الذي ليس من شأنهم ، وكثر شيوعه بينهم ، واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه أصنافاً الى المزدوج والكازي والملعبـة والغزل ، واختلفت أسماؤها باختلاف ازدواجها وملاحظاتهم فيها . »

فهذه مدرسة جديدة للزجل نشأت بالمغرب وعملت على تطوره شكلاً ومضموناً؛ من حيث وضعت له إسماً جديداً هو عروض البلد ونوّعته الى أصناف تندرج تحت هذا الاسم العام، وان كان لكل صنف منها اسمٌ خاص بحسب الغرض الذي يتناوله. وقد سمّى ابن خلدون بعد ذلك بعض زعماء هذه المدرسة ؛ فذكر منهم ابن شجاع التازي والكفيف الزرهوني . والنماذج التي أعطاها من ازجالهم هذه ، ترينا كيف تطور موضوع الزجل فاصبـح يستوعب أهم الأغراض الشعرية كالحمـاسة والحرب والمدح والوصف والوصايا والحكم ، بعد ان كان قاصراً أو يكاد على الحب والخمر ، والطبيعة والزهر . ولقد اطرد هذا التطور في الشعر الملحون ، وهذا هو ما يسمى به الزجل اليوم ، في المغرب . فصار يتضمن من الملاحم والقصص والتمثيل ما بقي يعوز الشعر المعرب في العالم العربي كله الى فجر النهضة الحديثة .

ويجب ان نشير الى أن تسمية الناس له بالشعر الملحون هي من قبيل الوصف الكاشف، لأنه أدب الطبقة العامية، نظمته هي أو نظمه لها أفراد يحسنون الإعراب. ولكنهم تركوه قصد الإبلاغ ، لا لكونه ليس من شأنهم كما مرّ عن ابن خلدون آنفاً. ويدلُّ على ذلك قول الصّفي الحلي في كتابه العاطل الحالي الموضوع في الزّجل[1] وقد

١ – النص الوارد هنا ذكره الدكتور عبد العزيز الأهواني في كتابه « الزجل الأندلسي » نقلاً عن مصورة العاطل الحالي الموجودة بمكتبة جامعة القاهرة .

تعرّض لذكر الزّجال المغربي المعروف بابن غُرلة ونصه : « وقد كان ابن غرلة الشاعر المغربي وهو من اكابر اشياخهم ، ينظم الموشح والمزنم فيلحن في الموشح ويعرب في الزجل تقصداً واستهتاراً ، ويقول : إن القصد من الجميع عذوبة اللفظ وسهولة السبك . وكان الوزير ابن سناء الملك يعيب عليه ذلك ، ولهذا لم يثبت شيئاً من موشحاته المزنمة في دار الطراز . فانظر كيف كان يلحن ويعرب تقصداً واستهتاراً، واللحن هو المعتاد في الازجال اذا نظمها الخاصة من الأدباء يتركون إعرابها مجاراة للعامة ؛ بل إنهم كثيراً ما يتركون الإعراب حتى في الموشحات تسهيلاً لها وتمليحاً . فعملُ ابن غُرلة ليس بدعاً في هذا الشأن ، ولكنّ لَمْزابن خلدون لأهل فاس بكونهم ليس من شأنهم الإعراب هو الذي ليس له محلٌ من الإعراب .

وابنُ غُرلةَ هذا هو من زجّالي عصرنا الذي نتكلم عليه، وكان عاشقاً لأختِ الخليفة عبد المؤمن التي تسمّى رُميلة فيما يقول الحلّي ، ونظنُّ انها ابنةُ الخليفة لا أُخته ، ومن موشّحاته الموشحة الطنانة الموسومة بالعروس التي نظمها في عشيقته وقتله الخليفة بسببها لتوُّهمه من مطلعها وما يليه الاجتماع بها . والواقعة مشهورة على زعم الحِلّيّ . قال : « وكان حسنَ الصورة جليل القدْر ذا عشيرة . وكانت هي أيضاً جليلة القدر جميلة الخَلق فصيحةُ اللسان تنظِمُ الازجال الرائعة الفائقة .

هذا وسنثبت بعض ما أشرنا اليه من الموشّحات والأزجال في باب خاص في قسم المنتخبات .

بقيَ كلامنا في التاريخ والسِّيَر من العلوم الأدبية . والذي نقوله عنهما إنهما لم يكونا أقلّ حظاً ولا أبخسَ نصيباً من غيرهما في الرواج والانتشار ؛ ففي هذا العصر وُضع أولُ تاريخ نعرفه عن المغرب حاملا هكذا اسم المغرب ، الأمرُ الذي سيصبح تقليداً مُتـَّبعاً في الكتب التي توضع بعدُ في تاريخ هذه البلاد. وهذا التاريخ هو كتاب المُعجِب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي . ولئن كانت كتبٌ أخرى في التاريخ والتراجم قد وضعت قبله ، مثل أخبار البصرة ، وأخبار سجلماسة ، وأخبار نكور لمحمد بن يوسف الورّاق ، وتاريخ الدولة اللمتونية لابن الصيرفي ، وكتاب المدارك في التعريف بأعلام مذهب مالك، وتاريخ سبتة ، للقاضي عياض وغير ذلك . فان واحداً من هذه ليس كتاباً جامعاً لتاريخ المغرب بصفته بلاداً ذات وحدة

وكيان مثل كتاب المعجب ، فضلاً عن انها لم تصلنا وعن كونها بأقلام غير مغربية اذا استثنينا كتاب المدارك . ومما يُسجَّل بغاية الاعجاب للعلماء المغاربة من هذا العصر ، هذا النوع من التآليف في السيرة النبوية الذي يُعدُّ حدثاً بديعاً فيها ؛ وهو المتعلق بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم . فقد كان العزفيون رؤساء سبتة[1] قد أحدثوا فيها الاحتفال بالمولد الشريف ، ولم يكن ذلك معروفاً في المغرب ولا في غالب الاقطار الاسلامية . وألَّف كبيرهم العلامة ابو العباس أحمد بن محمد كتاب الدرّ المنظم في مولد النبي المعظم ، الذي اكمله ولده الرئيس أبو القاسم فجاء في مجلد كبير . وفي مقدمة هذا الكتاب يشيرُ أبو العباس الى سبب إحداثهم لذلك ويقارن بين احتفال النصارى بعيد الميلاد المسيحي ومشاركة المسلمين لهم في ذلك وإهمالهم لمولد نبيهم (ص) . وهو مع إقراره بان هذا العمل بدعةٌ لم يكن على عهد السلف الصالح رضوان الله عليهم ؛ فانه يجعله من البدع المستحسنة استناداً لقول عمر (رض) في الاجتماع على تراويح رمضان نِعمتْ البدعة هذه ويخرّجه على حديث أنسَ (رض) كان لأهل الجاهلية يومان في كل سنة يلعبون فيهما . فلما قدِم النبي (ص) المدينة قال: كان لكم يومان تلعبون فيهما قد أبدَلكم الله بهما خيرا : يوم الفطر ويوم النَّحر . وذلك لأنه أراد بهذا العمل أيضاً صرف المسلمين ولا سيما الصبيان عن الاحتفال بالأعياد المعظمة في الأديان الاخرى ، حتى لا ينشأوا على تعظيم تلك الأديان ، الذي رُبما أدَّى بهم الى الكفر ، والعياذُ بالله .والكتابُ على كل حال مهمٌ في بابه . وليس هو الوحيد الذي وضعه علماؤنا في الموضوع ، فان لأبي الخطَّاب بن دِحية السَّبتي أيضاً كتاب التنوير في مولد السراج المنير ، ألَّفه للملك المعظَّم أبي سعيد التُّركماني صاحب إربل لمَّا قدم عليه فوجده يحتفل بالمولد الشريف كما يفعل أهلُ بلده سبتة . ويُنفق في ذلك أموالاً عظيمة ، فوضع له الكتاب المذكور وقرأه في أثناء الاحتفال ، فأعطاه ألف دينار جائزةً عليه ، وأخذه عنه فسمعه منه الناس بعد ذلك . وممَّن سمعه منه المؤرخ ابن خلكان كما يذكر ذلك في كتابه وفيات الأعيان . على أن الكتُب في التاريخ والسِّيَر غير ما ذكرنا كثيرةٌ وأخصُّها كتاب النِّبراس في تاريخ بني العباس لأبي الخطَّاب بن دِحية ، وتاريخ

---

١ — بيت العزفيين كان من بيوتات سبتة النبيلة وكان لهم بها رئاسة علمية وسياسيه ابتدأت من هذا العصر واستمرت الى عصر المرينيين . ويأتي ذكرهم بمناسبته .

الموحدين للبَيدق والذّيل على صلة ابن بَشكوال لابن فرتون وكتب ابن عبد الكريم التميمي وغيرهما مما يأتي مستوفىً في تسمية الكتب المؤلفة في هذا العصر على العموم . ولكنّ ما لا بد أن ننبه عليه هنا ، ونحن نؤرخ الحركة الأدبية في المغرب ، هو المؤلفات الخاصة بالأدب وتاريخه . ولقد كاد كتاب المعجب أن يكون تاريخ أدب أكثر منه تاريخ سياسة . والسبب في ذلك أن المراكشي ألّفه في المشرق ليُطلع أهله على ما خفيَ عنهم من شؤون أهل المغرب السياسية والأدبية . وهكذا أيضاً ألف أبو الخطّاب بن دِحية ، المُطرب ، من أشعار أهل المغرب ، وهو إن يكن كسَلفه مليئاً بأدب الأندلس ليس فيه من آثار أهل المغرب الا القليل ، فكفانا أنّهما معاً أثران مغربيان ينمّان عن أدب صاحبيهما وعبقريّتهما .

وإن ننسَ لا ننسَ كتاب صفوة الأدب ، وديوان العرب ، الذي ألّفه الشاعر أبو العباس الجرّاوي على وضع كتاب الحماسة لأبي تمّام وضمّنه مختاراتٍ من الشعر العربي في مُختلف أبوابه ، ولم يغفُل أن يضُمّ اليه من شعر الأندلسيين والأفارقة ما جعله يمتاز عن حماسة أبي تمام . ويُعرف بالحماسة المغربية . وقد وصلنا مختصره الذي اطّلعنا منه على غزارة حِفظ مؤلّفه وحُسن صنيعه . وبالجملة فان نهضة علوم الأدب في هذا العصر كانت شاملةً . وما يمنعُنا من تتبع مظاهرها إلاّ خشيةُ التطويل ، ويأتي مزيد بيانٍ لها في الكلام على الحياة الأدبية .

* * *

العلوم الحكمية :

وأما العلوم الحكمية فانها انتشرت انتشاراً كبيراً لم تبلغه في أي عصر آخر ، حتى لقد كان هذا عصرها الذّهبيّ في المغرب ، وكان الموحدون ، والحقّ يقال ، أشبه الدول الاسلامية بالعباسيين في الأخذ بضبع هذه العلوم وتنشيط رجالها . لكن أربى عليهم في ذلك كإرباء المأمون على سائر العبّاسيين يوسف بن عبد المؤمن ؛ فهو مأمون هذه الدولة الذي ناصرعلوم الفلسفة ووالي أهلها.وكان هو نفسه متحققاً بكثير من أجزائها مشاركاً في جملةٍ من فنونها . ويقول المراكشي إنه استظهر من الكتاب الطّبي الملكي أكثره مما يتعلق بالعلم خاصّةً دون العمل . ثم تخطّى ذلك الى ما هو

أشرف منه من أنواع الفلسفة . وكان ممّن صحبه من العلماء المتفنّنين أبو بكر محمد بن ُطفيل أحد فلاسفة الاسلام. له تصانيف في أنواع الفلسفة من الطبيعيات والإلاهيات. وكان يأخذ الجامكيَّة مع عدة أصناف من الخدَمة من الأطباء والمهندسين والكتَّاب والشعراء والرُّماة والأجناد ؛ الى غير هؤلاء من الطوائف . قال المراكشي : « وكان أميرُ المؤمنين أبو يعقوب شديدَ الشَّغَف به والحب له . بلغني أنه كان ُيقيمُ في القصر عنده أياماً ليلاً ونهاراً لا يظهر . ثم قال : « ولم يزل أبو بكر هذا يجلب اليه العلماء من جميع الأقطار وُينبّهه عليهم ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذي نبَّهه على أبي الوليد بن رشد ، فمن حينئذٍ عرفوه ونبُه قدره عندهم . أخبرني تلميذه الفقيه الاستاذ أبو بكر بن داود بن يحيى القُرطبي قال ، سمعت الحكيم أبا الوليد يقول غير مرّة : لمَّا دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبو بكر بن ُطفيل ليس معهما غيرهما . فأخذ أبو بكر ُيثني عليّ ويذكر بيتي وَسلفي ويضمُّ بفضله الى ذلك أشياء لا يبلغها قدري . فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي وَنسبي أن قال : ما رأيهُم في السماء ، يعني الفلاسفة ، أقديمةٌ هي أم حادثة ، فأدركني الحياء والخوفُ فأخذت أتعلّل وأُنكر اشتغالي بالفلسفة ، ولم أكن أدري ما قرّر معه ابنُ ُطفيل ، ففهم أمير المؤمنين منيّ الرّوع والحياء ؛ فالتفت الى ابن ُطفيل وجعل يتكلم على المسألة التي سألني عنها ويذكر ما قاله ارسطوطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة. ويورد مع ذلك احتجاج أهل الاسلام عليهم ، فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنّها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له ، ولم يزل يبسُطني حتى تكلّمت ؛ فعَرف ما عندي من ذلك ، فلما انصرفت أمر لي بمال وخِلعة سنيّة ومركب . قال وأخبرني تلميذه المتقدم الذكر عنه ، قال : استدعاني أبو بكر بنُ ُطفيل يوماً فقال لي : سمعت أمير المؤمنين يشتكي من قلقِ عبارة أرسطوطاليس أو عبارة المترجمين عنه ، ويذكر غموضَ أغراضه ويقول : لو وقع لهذه الكتب من ُيلخصها ويقرّب أغراضها بعد أن يفهمها جيداً لقرُبَ مأخذها على الناس ، فان كان فيك فضلُ قوة لذلك فافعل . واني لأرجو انتفي به لِما اعلمُه منجوْدة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك الى الصناعة ، وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كبرة سنّي واشتغالي بالخدمة (كان وزيراً ليوسف) وصرْفِ عنايتي الى ما هو أهمُّ عندي منه . قال أبو الوليد : فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم ارسطوطاليس » .

هذا ما عمله يوسف بن عبد المؤمن في سبيل تقدُّم هذه العلوم بمملكته . وهاك ما عمله ولده يعقوب المنصور ممثلاً في عنايته الفائقة بفذّ من أفذاذ هذه الطبقة . فحكى المؤرخون أن الطبيب أبا بكر بنَ زُهْر كان ملازماً له ومختصاً به وكان يقيم عنده المدد الطويلة ولا يرخّصُ له في السفر الى رؤية أهله وصلةِ الرحم بذويه وقرْباه، حتى قال يوماً يتشوّق الى ولدٍ له صغير :

وَلِي واحِدٌ مِثلُ فرْخِ ٱلْقَطا   صَغيرٌ تخَلَّفتُ قَلْبي لدَيْه

وأُفْرِدتُ عنه فيَا وَحْشَتي   لِذاكَ ٱلشُّخَيْصِ وذاكَ ٱلوُجَيْه

تَشوّقَني وَتَشوَّقتُه   فيَبْكِي عليَّ وأبكي عَلَيْه

وَقَد تَعِبَ ٱلشَّوقُ ما بَيْنَنا   فمنه إليَّ وَمني إلَيْه

فسمعها المنصور فأرسل المهندسين الى اشبيلية وأمرهم ان يحتاطوا علماً ببيوت ابن زُهْر وحارته ثم يَبنوا مثلها بحضرة مراكش ففعلوا ما أمرهم في أقرب مدةٍ ، وفرشها بمثل فَرشهِ وجعل فيها مثل آلاته ؛ ثم أمر بنقل عيال ابن زُهْر وأولاده وحشمه وأسبابه الى تلك الدار ، ثم احتال عليه حتى جاء الى ذلك الموضع فرآه أشبه شيء ببيته وحارته ، فاحتار لذلك وظنّ أنه نائم وأن ذلك أحلام ، فقيل له ادخُل البيت الذي يشبه بيتك فدخله فإذا ولده الذي تشوّق اليه يلعب في البيت ، فحصل له من السرور ما لا مزيدَ عليه ولا يُعبَّر عنه . فهل سمع بمثل هذا الامر في إكرام العلم والعلماء وهل بقيت بعد هذا غاية في ذلك السبيل ؟

ولا تقصر الهمة الموحدية عن أختها العباسية زيادة على ذلك في التنقيب عن الكتب النادرة وطلب المؤلفات الغريبة من سائر الجهات حتى لقد جمع يوسف بن عبد المؤمن الألوف المؤلفة منها ، وكانت مكتبته تضاهي مكتبة الحكم المستنصر بالله الأموي . وقد اورد في المعجب هذه الحكاية التي تدل على ما كان يبذله في هذا السبيل من الترضيات الكبيرة . قال : « أخبرني أبو محمد عبد الملك الشذوني أحد المتحققين بعلمي الطب واحكام النجوم قال : كنت في شبيبتي استعير كتب هذه

الصناعة ، يعني صنعة الأحكام ، من رجل كان عندنا بمدينة اشبيلية اسمه يوسف يكنى ابا الحجاج يعرف بالمراني بتخفيف الراء ، كانت عنده منها جملة كبيرة وقعت الى ابيه في أيام الفتنة بالاندلس ، فكان يعيرني إياها في غرائر ؛ احمل غرارة وأجيء بغرارة من كثرتها عنده، فأخبرني في بعض الأيام انه عدم تلك الكتب ، بجملتها . فسألته عن السبب الموجب لذلك فأسرَّ إليَّ أن خبرها أُنهي الى امير المؤمنين فأرسل الى داري ، وأنا في الديوان لا علم عندي بذلك . وكان الذي أُرسل كافور الخصي مع جماعة من العبيد الخاصة وأمره ان لا يروّع أحداً من أهل الدار وان لا يأخذ سوى الكتب وتوعده والذين معه أشدّ الوعيد إن نقص أهل البيت إبرةً فما فوقهـا . فأخبرت بذلك وأنا في الديوان فظننته يريـد استصفاء أموالي فركبت وما معي عقلي ، حتى أتيت منزلي فاذا الخصيُّ كافورٌ الحاجب واقف على الباب والكتب تخرج اليه . فلما رآني وتبين ذعري قال : لا باس عليك وأخبرني أن أمير المؤمنين يسلم عـليّ وأنه ذكرني بخير ولم يزل يبسطني حتى زال ما في نفسي ، ثم قال لي : أهلُ بيتك هل راعهم احدٌ أو نقصهم شيءٌ من متاعهم ؟ فسألتهم فقالوا : لم يرعنا أحد ولم ينقصنا شيء . جاء ابو المسك حتى استأذن علينا ثلاث مرّات فاخلينا له الطريق ودخل هو بنفسه الى خزانة الكتب فأمر باخراجها . فلما سمعت هـذا القول منهم زال ما كان في نفسي من الروع . وولوه بعد أخذهم هذه الكتب منه ولاية ضخمة ما كان يحدث بها نفسه » .

وكان لخزانة الكتب عندهم ولاية خاصة لا يولاها إلاّمن ، ومن ، لأن أمرها عظيم لديهم . وممن وليَ النظر فيها أيام يوسف بن عبد المؤمن ، القاضي أبو محمد بن الصقر ، وكان من أحسن العلماء نظراً في كثير من الفنون . فقام عليهـا أتم قيام ، واستنسخ لها كثيراً من المجلدات الضخام ، وكان كلما بالغ في النصيحة والخدمة كلما بالغوا له في العطايا والهبات .

فهذا وغيره مما اغفلنا ، فضلاً عما جهلناه ، يعطيك صورة واضحة لما كانت عليه هذه العلوم من الرواج والانتشار في عصر الموحدين الذين لم يألوا جهداً في البر برجالها والاحسان اليهم . ولا تنسَ المنة التي طوقوا بها عنق العالم المتمدن بانتشالهم الفيلسوف ابن رشد من وهدة الخمول ، وإحلاله في المحل اللائق به . فقد علمت أنهم الحاملون له على تلخيص فلسفة الأقدمين كما روى المرّاكشي عنه . وإن كانت بـدت من

يعقوب المنصور في حقه نزوة فإن ذلك لا يقدح في موقف الدولة كلها إزاء رجال العلم . على أنه نفسه تدارك ما فات وعاد فاصلح ما أفسده . خصوصاً وقد كان سبب امتحانه له سياسياً محضاً كما فصل ذلك المؤرخون . فإنه في شرح كتاب الحيوان لارسطو طاليس لما ذكر الزرافة وصفها فقال : «وقد رأيتها عند ملك البربر بمراكش» فلما بلغ ذلك يعقوب حقدها عليه . ثم إن اعداء ابن رشد وجدُوها فرصة مناسبة فأغروا المنصور عليه ، واتخذوا اشتغاله بالفلسفة ذريعة الى ذلك ، فرفعوا اليـــه رقاعاً فيها ما يقتضي الكفر والمروق والغرطقة ، مثل ما كان في إحداها حاكيـا عن الفلاسفة اليونان ، «فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة» في اشباه لذلك . فاستدعاه المنصور وأوقفه عليها وقال هذا خطك ؟ فأنكر . فأمر باخراجه من عنده وطرده ، ولعنه الحاضرون . ثم ندم بعد ذلك على ما صدر منه وارسل يستدعيه ، فجـــاء واعتذر إليه واكرمه وبقي عنده حتى مات بمراكش رحمه الله . وقد كان له مندوحة عن وصف ولي نعمته بملك البربر ، وهو في الحقيقـــة ليس ملك البربر فقط ، ولكن للسان عثرات .

وفي أيام المنصور هـــذا استبحر العمران بالمغرب وزهت الحضارة وتقدم فن المعمار بتقدم حركة البناء ، إذ بنى المنصور مدينة رباط الفتح الفيحـــاء ، وقصبة مراكش وجامعه الفخم بها ومنار الكتبية العظيم بمراكش أيضاً ومنار حسّان الضخم بالرباط ومنار الخيرالدة باشبيلية الذي هو من أعاجيب الدنيا . وانشأ في جامعه بمراكش المقصورة والمنبر « الأتوماتكيين » وكانا موضوعين على حركات هندسية بحيث يبرزان لدخوله دفعة واحدة ويغيبان لخروجه كذلك . كانت هذه المقصورة كبيرة تسع أكثر من ألف رجل ، كما عند صاحب الحلل . والذي صنعهما هو الحاج يعيش المهندس الذي بنى جبل الفتح لعبد المؤمن وقد أعيى الأدباء وصفها حتى قال ابن مجـــبر فيها قطعته الخـــالدة :

طَوْراً تكونُ بمَن حوَتْه مُحيطةً   فكأنَّهـــا سُورٌ من الأَسوار

وتكونُ طَوْراً عنهمُ مخبُوءةً   فكأنهـــا سِرٌّ من الأَسرار

وكأنَّمـا علِمَتْ مقـادِيرَ الورى   فتصرَّفت لهمُ على مِقْـــدار

فاذا أَحسَّت بالأَميرِ يزُورها في قَوْمِه قامَت الى الزُّوار

يبْدُو فتبْدُو ثم تخفَى بعْدَه كتَكَوُّنِ الهَالات لِلأَقمار

فطرب المنصور لسماعها ولم يرض بما قيل في مقصورته غيرها .

كذلك بنى عدّة مساجد ومدارس في كل من افريقية والأندلس والمغرب ومنها المسجد الأعظم بمدينة سلا ومدرسته الباقية الى الآن شاهدة بان هذا المسجد يضاهي القرويين في الضخامة والجفوة كان من معاهد العلم المقصودة حتى احتيج الى بناء مدرسة حوله . ويعدُّ بناء المدارس في هذا العهد من مظاهر التقدم العلمي ، وقد أصبح تقليداً متبعاً حتى من أفراد الشعب . ونشير هنا بالخصوص الى مدرسة الشيخ أبي الحسن الشّاري من أعلام هذا العصر التي أنشأها في مدينة سبتة وكان لها صيت بعيد .

وفي مراكش كان يوجد مجمعٌ علمي يسمى بيت الطلبة ، وهو يذكرنا ببيت الحكمة الذي كان في بغداد على عهد المأمون . وكان مألفاً لأهل العلم من أصليين وطارئين . وإذا علمنا أنه كانت هناك وظيفة يسمّى صاحبها رئيس الطلبة ، فغير بعيد أن يكون هو عميد هذا البيت . وكان الموحّدون يطلقون اسم الطلبة على أهل العلم عامة وأهل الحديث خاصة ولا يولون هذه الوظيفة إلا العلماء الراسخين أمثال المحدث ابن القطان والقاضي ابن المالقي . وفي هذا البيت استُقبِل ابو عمر بن عات ، وألقيت عليه أحاديث من صحيح مسلم محوّلة المتون والأسانيد فأعادها الى أصلها . فإن لم يكن بيت الطلبة هذا مدرسةً للحديث كالتي أنشأها نورُ الدين محمود بن زنكي في دمشق ، فهو في أقلّ تقدير مجمعٌ علمي كما قلنا ، تفردت به مراكش الموحدّية عن سائر عواصم المغرب وافريقية والأندلس .

ومما حلّى به المنصور جيدَ أعماله التمدينية ورصّع تاج الحضارة المراكشية المستشفى العظيم الذي يقول صاحب المُعجب فيه : « ما أظن في الدنيا مثله » . وناهيكَ بها شهادةً من رجل جاب الأقطار واخترق الأمصار . وهاك صفته نقلاً عنه :

« وبنى بمدينة مراكش مارستاناً ما أظنُّ أن في الدنيا مثله ، وذلك أنه تخيّر

ساحة ً فسيحة بأعدل موضع في البلد ، وأمر البنائين باتقانه على أحسن الوجوه فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزّخاريف المحكمة ما زاد على الاقتراح ، وأمر ان يُغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار والمشمومات والمأكولات ، وأجرى فيها مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت ، زيادةً على أربع برَك في وسطه ، إحداها رُخام أبيض . ثم أمر له من الفرُش النفيسة من أنواع الصّوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت ، وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام وما يُنفق عليه خاصة ً ، خارجاً عما جَلب اليه من الأدوية وأقام فيه من الصّيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال ، وأعدّ فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء ، فاذا نقه المريض فان كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقلُّ ، وان كان غنيّاً دفع اليه ماله وتركه وسبَبه ، ولم يقصُره على الفقراء دون الأغنياء بل كلُّ من مرض بمراكش من غريب حُمِلَ اليه وعولج الى أن يستريح أو يموت . وكان في كل جمعة بعد صلاته يركبُ ويدخله يعود المرضى ويسأل عن أهل بيت ، بيتٍ يقول : كيف حالكم وكيف القومة عليكم الى غير ذلك من السؤال ، لم يزل مستمرّاً على هذا الى أن مات رحمه الله » .

وفي هذه القطعة دليل على تقدُّم علم النّبات والفلاحة فضلاً عن الطب والكيمياء، وبستان المسرّة أعظم دليل على ذلك . وهو بستانٌ أحدثه عبد المؤمن بضاحية مراكش ، طوله فيما يقول ابن عذارى وصاحبُ الحُلل ثلاثة أميال وعرضه قريبٌ من ذلك . وكان فيه كلُّ فاكهة تُشتهى وجلب إليه الماء من أغمات زيادةً على ما استنبط له من العيون الكثيرة . وأنشأ فيه صِهريجاً واسعاً كالبحيرة كان يمرّن فيه الجنود وشيوخ الموحّدين على العَوم والتجذيف كما في الحُلل . وهذا الصّهريج هو المعروف بالمنارة الكائن في أكدال بمراكش . قال ابن إليَسع : وما خرجت أنا من مراكش في سنة ثلاثٍ وأربعين وخمسمائة إلا وهذا البستان الذي غرسه عبد المؤمن يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه ثلاثين الف دينار مؤمنيّة على رُخص الفاكهة بمراكش . قال النّاصري : « ودعاه ابن عذارى ببُستان المسرّة وقال انه بظاهر جنان الصالحة . ولشهرة هذا البُستان وموقعه من الناس لهجت به صبيانهم وسجعوا به فيقولون :

يا جرادة مالحة ، أين كنت سارحة ، في جِنان الصّالحة ... في أسجاع غير هذه

تجري علـــى ألسنة الصبيان . وما زال هذا النشيد الشّعبي مرويّاً عند الصّغار حتى الآن .

ثم بعد هذا لا نخالُ القول بتقدم الصنائع النفيسة والفنون الجميلة كالنقش والتزويق وعمل الفسيفساء والقربص إلا خبراً بمعلوم . فقد رأيت ما كان بها من الاهتبـــال ، وعليها من الإقبال، حتى انهم لم يخلوا منها المستشفى الذي أُنشئ لغير من يهمهم أمرها من المرضى . ولكنّ الغاية في هذا الباب هو ما عمله عبد المؤمن في تحلية المصحف العثماني الإمام . وقد كتب في ذلك وزيره ابن طُفيْل رسالةً بديعةً نرى أنفسنا مضطرين الى نقل ما يتعلق منها بهذا الغرض . قال بعد ان استهلها ببيان كيفية وصوله الى عبـــد المؤمن بطريق الهدية من أهل قُرطبة بعد أن تعلقت به نفسه جدّ التعلق ، لكنه أبى أن يَسلـُبهم تلك الذخيرة الثمينة ويوحش أُنسَهم بفقده حتى جادوا به بمحض اختيارهم طيبةً به أنفسهم :

« ثمّ إنهم أدام الله سبحانه تأييدهم ، ووصل سعودهم ، لِمـا أرادوا من المبالغة في تعظيم المصحف المذكور واستخدام البواطن والظواهر فيما يجب له من التوقير والتعزيز ، شرعوا في انتخاب كسوته ، وأخذوا في اختيار حِليته ، وتأنقوا في استعمال أحفظته ، وبالغوا في استجادة أصْونته ، فحشروا له الصنـاع المتقنين ممن كان بحضرتهم العليّة ، وسائر بلادهم القريبة والقصيّة . فاجتمع لذلك حُذّاقُ كل صناعة ومَهَرة كل طائفة من المهندسين والصوّاغين والنظّامـين والحلاّئين والنقّاشين والمرصّعين والنجّارين والزوّاقين والرسّامين والمجلّدين وعرفاءِ البنّائين ولم يبق من يوصف ببراعة ، وينسب الى الحِذق في صناعة ، إلا أُحضر للعمل فيه ، والاشتغال بمعنًى من معانيــه ، فاشتغل أهل الحيل الهندسية بعمل أمثلة مخترعة ، وأشكال مبتدعة ، وضمّنوهـــا من غرائب الحركات ، وخفيّ إمداد الاسباب للمسببات ، ما بلغوا فيه منتهى طاقتهم ، واستفرغوا فيه جهد قوتهم . والهمة العلية ادام الله سموها تترقى فوق معارجهم ، وتتخلص كالشهاب الثاقب وراء موالجهم ، وتنيف على مـــا ظنوه الغاية القصوى من لطيف مدارجهم ؛ فسلكوا من عمل هذه الأمثلة كلَّ شِعْب ، ورأبوا من منتشرها كلَّ شَعب وأشرفوا عند تحقيقها ، وابراز دقيقها ، على كل صعب ، فكانت منهم وقفة كادت لها النفوس تيأس عن مطلبها ، والخواطر تكرُّ راجعة عن خفي مذهبها ، حتى اطلع الله خليفته في خلقه ، وأمينه المرتضى لاقامة حقه ، على وجهٍ انقادت فيه تلك الحركات

بعد اعتياصها ، وتخلصت أشكالها عن الاعتراض على أحسن وجوه خلاصها ، ألقَوْا ذلك أيدهم الله بنصره ، وأمدَّهم بمعونته ويُسره ، الى المهندسين والصُّناع فقبلوه أحسن القبول ، وتصوَّروه بأذهانهم فرأوه على مطابقة المأمول . فوَقفهم حسنُ تنبيه ما جهلوه على طور غريب من موجبات التعظيم ، وعلموا أن الفضل لله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وسيأتي بعد هذا إشارة الى تفصيل تلك الحركات المستغربة ، والاشكال المؤنقة المعجبة ، مما صنع للمصحف العظيم ، من الأصونة الغريبة ، والأحفظة العجيبة ، أنه كُسِيَ كله بصوان واحد من الذهب والفضة ذي صنائع غريبة ، من ظاهره وباطنه ، لا يشبه بعضها بعضاً ، قد أجري فيه من الوان الزجاج الرومي ما لم يُعهد له في العصر الاول مثالٌ ولا عَمَر قبله بشبهه خاطر ولا بال ، وله مفاصل تجتمع اليها أجزاؤه وتلتئم ، وتتناسق عجائبه وتنتظم ، قد أُميلت للتحرك أعطافها ، وأُحكم إنشاؤها على البغية وانعطافها ، ونظّم على صحيفته وجوانبه من فاخر الياقوت ونفيس الدّر وعظيم الزُّمرُّد مـا لم تزل الملوك السالفة ، والقرون الخالفة ، تتنافس في أفراده ، وتتوارثه على مرور الزمن وترداده ، وتظنُّ العزَّ الأقعَس ، والملْك الأنفس ، في ادّخاره وإعداده ، وتسمّي الواحد منها بعد الواحد بالاسم العَلَم لشذوذه في صنعه واتحاده ، فانتظم عليه منها ما شاكله زهْر الكواكب في تلألئِه واتّقاده ، وأشبه الروض المزخرف غِبَّ سماءٍ أقلعت عن إمداده ، وأتى هذا الصّوان الموصوف رائق المنظر ، آخذاً بمجامع القلب والبصر ، مستولياً بصورته الغريبة على جميع الصور ، يدهش العقول بهاءً ، ويحير الألباب رُواءً ، ويكاد يُغشي الناظر تألُّقاً وضياء ؛ فحين تمّت خِصاله ، واستركبت أوصاله ، وحان ارتباطه بالمصحف العظيم واتّصاله ، رأوا أدام الله تأييدهم ، وأعلى كلمتهم ، مما رزقهم الله تعالى من ملاحظة الجهات ، والإشراف على جميع الثّنيات ، ان يُتلطّف في وجه يكون به هذا الصّوان المذكور طوراً متصلاً وطوراً منفصلاً ، ويتأتّى به المصحف الشريف العظيم أن يُبرز تارة للخصوص متبذّلاً وتارة للعموم متجمّلاً ، إذ معارج الناس في الاستبصار تختلف ، وكلٌّ له مقام اليه ينتهي وعنده يقف ، فعُمل فيه على شاكلة هذا المقصد . وتُلطف في تتميم هذا الغرض المعتمد ، وكُسيَ المصحف العزيز بصوان لطيف من السُّندس الأخضر ، ذي حِلية عظيمة خفيفة تلازمه في المغيب والمحضر ، ورُتّب ترتيباً يتأتّى معه ان يُكسى بالصّوان الأكبر ، فيلتئم به التئاماً يُغطّي على العين من هذا الأثر . وكمُل ذلك كله على أجمل الصفات وأحسنها ،

وأبدع المذاهب وأتقنها ، وصُنع له مِحملٌ غريب الصنعة ، بديع الشكل والصبغة ، ذو مفاصل ينبو عن دقتها الادراك ، ويشهد بهـا الارتباط بين المفصلين ويصحُّ الاشتراك ، مُغشّى كلّه بضروب من الترصيع ، وفنون من النقش البديع ، في قطع الأبنوس والخشب الرفيع ، لم تُعمل قط في زمن من الأزمان ، ولا انتهت قط الى أيسره ثواقب الأذهان . مُدار بصنعة قـد أُجريت في صفائح الذهب ، وامتدت امتداد ذوائب الشهب ، وصُنع لذلك المحمـل كرسيٌّ يحمله عند الانتقـال ، ويشاركه في أكثر الأحوال ، مرصّع مثل ترصيعه الغريب ، ومشاكل له في جودة التقسيم وحسن الترتيب ، وصُنع لذلك كله تابوتٌ يحتوي عليه احتواء المشكاة عـلى أنوارها ، والصدور على محفوظ أمكارها ، مُكعّبُ الشكل ، سام في الطول ، حسن الجملة والتفصيل ، بالغٌ ما شاء من التتميم في أوصاله والتكميل ، جـار مجرى المحمل في التزيين والتجميل ، وله في أحد غواربه باب رُكِّبت عليه دفّتان قد أُحكم إرتاجُهما ، ويُسِّر بعد الإبهام انفراجُهما ، ولانفتاح هذا الباب وخُروج الكرسي من تلقائه ، وتركُّب المحمل عليه ، ما دبّرت الحركات الهندسية ، وتُلقّيت التنبيهات القدسية ، وانتظمت العجائب المعنوية والحسّية ، والتأمت الذخائرُ النفيسة والنفسيّة ، وذلك ان بأسفل هاتين الدّفّتين فيصلاً فيه موضع قد أعدّ له مفتاح لطيف يُدخل فيه . فاذا دخل ذلك المفتاح فيه وأديرت به اليد انفتح الباب بانعطاف زائدة الدّفتين الى داخـل الدّفتين من تلقائهما ، وخرج الكرسيُّ من ذاته بما عليه الى أقصى غايته . وفي خلال خروج الكرسي يتحرك عليه المحمل حركةً منتظمةً مقترنةً بحركةٍ يأتي بها من مؤخّر الكرسي زحفاً الى مُقدّمه . فاذا كمُل الكرسي بالخروج وكمُل المحمل بالتقدم عليه ، انغلق الباب برجوع الدّفتين الى موضعها من تلقائها دون أن يمسّها أحد ، وترتيب هذه الحركات الأربع على حركات المفتاح فقط دون تكلف شيء آخر . فاذا أدير المفتاح الى خلف الجهة التي أدير اليها أولاً ، انفتح أولاً الباب وأخذ الكرسي في الدخول والمحمل في التأخر عن مقدم الكرسي الى مؤخره ؛ فاذا عاد كلٌّ الى مكانه انسدّ الباب بالدفتين ايضاً من تلقائه . كلُّ ذلك يترتّب على حركات المفتاح كالذي كان في حال خروجه . وصحّة هذه الحركات اللطيفة على أسباب ومسبّبات غائبة عن الحسّ في باطن الكرسي ، وهي مما يدقُّ وصفها ويصعُب ذكرها ، أظهرتهـا بركات هذا الأمر السعيد ، وتنبيهات سيدنا ومولانا الخليفة أدام الله تعالى أمرهم ، وأعز نصرهم . »

هذا ما أردنا نقله من رسالة ابن طفيل وهي على طولها ممتعة ومفيدة في معرفة مدى ما وصلت اليه هذه الصنائع الدقيقة من الرقي والكمال . ودون هذا فان صنائع أخرى جليلة كانت في غاية من التقدم والاتقان كصناعة الأسلحة بجميع أنواعها والآلات الحربية والسفن ، وكان لهذه دورٌ كبيرة في مختلف الموانىء . وفيها صنع الاسطول المغربي العظيم الذي كان يصول ويجول في عرض البحر . واقرأ إن شئت في نفح الطيب ما للشعراء في وصفه من القصائد الطنانة التي تستشعر منها روح الفخار وتتعرف عظمة الاجداد .

وفي هذه الاثناء كان الشريف الادريسي في صقلية يتقرّى البلاد بحراً وبرّاً لأجل أن يؤلف كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، فيخلف لنا ذلك المستند الجغرافي الذي ما برح مرجعاً مهماً للمستكشفين وأرباب الرحلات ووضعة الخرائط والمصورات .

واذا كانت مظاهر الحضارة لشعب من الشعوب تتمثل في شتى نواحي حياته الاجتماعية كما تتمثل في النهضة العلمية والصناعية فان من أخص هذه النواحي ما يتصل بخفض العيش وترف البيت ، وأجلى ما يتمثل فيه ذلك المطبخ . ومن ثم قال بعض الحكماء : « أرني مطبخ أية أمة أحدثك عن حضارتها » . والواقع ان المطبخ المغربي في هذا العصر بلغ الغاية من التفنن في إعداد أنواع المطاعم والمشارب واتقانها بما لا نعرف له مثيلاً الآن . وقد أفدنا هذا من كتاب في الموضوع لمؤلف معاصر[1] تحدث إلينا عن أكثر من خمسمائة لون من ألوان الطعام والشراب والحلوى والمربّى وما الى ذلك مما كان يعمل للخلفاء الموحدين والأمراء منهم ورجال دولتهم على العموم . ومنهم ما يحمل اسم بعضهم لكونه كان يعجبه كثيراً أو لكونه من اقتراحه . ومنها ما يعرف باسمه العم ، ومنها ما يعرف بصفته . وبعض هذه الاسماء لا يزال عندنا مستعملاً . والمهم هو أن من هذه الأطعمة ما ينسبه بعض الناس اليوم الى الأتراك ويعتقدون أنه مما أخذ عنهم أثناء حكمهم للقطر الجزائري بموجب المداخلة

---

١ – هو مخطوط مجهول المؤلف ، كتب الاستاذ وريسي المستشرق الاسباني المعروف بحثاً عنه في مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الخامس الصادر في سنة ١٩٥٧ .

والاتصال ، مع أنه مما كان موجوداً في عصر الموحدين هذا ، قبـــل ظهور الاتراك ووصولهم الى المغرب بكثير .

ولعل قائلا يقول وما نصيب المرأة في هذه النهضة الشاملة الكاملة ، وهي التي إذا عدمت مشاركتها في عمل ما يعتبر غير كامل ولا شامل . والجـــواب أن المرأة المغربية كانت دائماً عنصراً فعالاً في تطور البلاد وتقدمها وازدهارها . وقد ذكرنا عملها العظيم في العصر الأول الذي يتمثل في تأسيس كلية القرويين ومشاركتها في الأعمال السياسية والأدبية في العصر المرابطي . ولا يشذُّ هذا العصر عن سالفيه في أخذ المرأة بأسباب النهوض ، بل إنه يعطينا أمثلة رائعة لمساهمتها في ضروب النشاط الفكري باطلاق من علمي وأدبي. فمن الاسماء اللامعة التي عرفت بصفتها العلمية السيدة زينب ابنة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن . كانت عالمة فاضلة أخذت علم الكلام عن أبي عبدالله بن ابراهيم ، وهي زوج ابن عمها السيد أبي زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن . ومن نساء الشعب السيدة خيرونة التي ألف الامام السلاجي عقيـــدته البرهانية من أجلهـــا . ولا شك ان لها يداً في نشر التوحيـــد على مذهب الأشعري بـــين نساء أهـــل فاس إسوة باستاذها الذي ألمعنا الى عمله في هذا الصدد . ومنهن في علم الرواية والحـديث الشَّيْخة أمُّ المجـــد مريم بنت أبي الحسن الشاريّ صاحب المدرسة بسبتة . ومنهن في علم الفقه السيدة مَحلة المراكشية التي كانت من حفاظ المدونة ، ومنهنَّ في التصوُّف والعلوم اللّدُنـِّية السيدة منيةُ بنت مَيْمون الدُكـّالي وسواها كثيرات. وهذا الصنف من السيدات هو الذي يتسامح كتـّاب الطبقات بذكره في مؤلفاتهم ؛ فلذلك نقف على العدد العديد منهنّ ، في حين ان الأصناف الأخرى إنما تذكر اسماؤهن عرضاً في تضاعيف الكتب . ولعلَّ الاتصال الذي كان مسموحاً به في العُرف لهؤلاء السيدات بصفتهنّ من الصالحات القانتـات له دَخَلٌ في ذلك . واما في العلوم الأدبيـــة والكتابة والشعر فقد سبقت الاشارة الى السيدة رُمَيْلة من بيت الخلافة الموحدية ، وما كان لها من فصاحة وبلاغة في النـَّظم . ومن نساء الشعب النابغات في ذلك السيدة الشريفة أمةُ العزيز بنت أبي محمد بن الحسن ابن أبي الجسَّام الحسيني السبتي . ذكرها ابن دحية في المطرب وقال انها أخت جده لأمه . ومنهنّ السيدة حفصة بنت القاضي أبي حفص بن عمر . وقد ذكرها الشاعر

أبو العباس الجراوي في شعره وذكر نبوغها على طريقته في الهجاء والتعريض، فأجاب عنها والدُها ولم تتنزّل هي لجوابه ترفعاً وتصاوناً. ومنهنّ السيدة ام النساء بنت عبد المؤمن التاجر الفاسي، ذكرها ابن عربي الحاتمي في كتاب المحاضرات وقال إنها تجيد الشعر وقد أنشدت للسيد أبي علي صاحب فاس عند ولايته عليها قصيدة تقول في مَطْلِعها :

جاء البشيرُ بوعدٍ كان يُنتظرُ فأصبح الحقُّ ما في صَفْوِه كَدَرُ
مِن خيْر هادٍ غدا بِالهَدْي يَأمرُنا وفي أَوامِرِه التَسْدِيدُ والنَّظَر

وفيها تصفه بالشجاعة :

لَيْثٌ إذَا اقتحَم الأَبطالُ حومَتها يُفْني الكَتائِبَ لا يُبقِي ولا يَذَرُ

ويضيق المقام عن استيفاء الكلام على جميع مظاهر النهضة العلمية الكبرى في هذا العصر فلنكتف بهذا القدر فان فيه غنية لذوي الألباب .

الهيئة العلميّة وآثارها

نرى من تتمة البحث السابق ، أن نُذيِّله بكلمات مختصرة جداً في حياة بعض الأفراد الذين كانوا قِوام الحركة العلميّة في هذا العصر ، فنُحيي ذكرياتهم ، ونتعرّف أحوالهم ولو بصفة إجمالية ، ونُضيف الى ذلك جريدةً بأسماء الكتب المؤلفة فيه ، في مختلف العلوم والفنون ، فنُحيط عِلماً بالمجهودات الطائلة التي بذلها أسلافنا رحمهم الله في خدمة العلم، ونتصوَّر الحركة العلميَّة الموحديَّة على حقيقتها، حتى لا نبقى متشوِّفين بعد ذلك إلى زيادة بيان .

ابو القاسم الجزيري

عليُّ بن يحيى بن القاسم الصّنهاجي ، يكنّى أبا القاسم وأبا الحسن ، أصله من بلاد الريف ونزل الجزيرة الخضراء فنُسب اليها . كان فقيهاً متمكناً يشتغل بالتدريس وعقد الشروط ، ثم وَليَ قضاء الجزيرة ، وكان متواضعاً كثير الأوراد صاحب علم وعمل . وله في الشروط مختصر مفيد جدّاً سمّاه بالمقصد المحمود في تلخيص العقود ، كثر استعمال الناس له لجودته ودلالته على معرفته ، قاله ابن الأبار . وهو من مصادر تحفة الحكّام لابن عاصم ، كما صرّح بذلك في خطبتها . وتوفي في الجزيرة في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٥ وهو ابن ٦٠ سنة .

ابو محمّد صالح

فقيه فاس وصالحها ، أبو محمد صالح بن جنّون الهسكوري المضروب مثلاً بين الفقهاء للعدل المبرّز . وهو الفائق في العدالة بمعنى الشهادة ؛ لجمعه بين المعرفة والنزاهة . ولذلك يختصُّ بأحكام عن بقيّة العدول أي الشُّهود ، وأول من ضربه

مثلاً لذلك ابنُ عرفة الفقيه المشهور . أخذ المترجم عن الشيخ أبي محمد يَشكر فقيه فاس قبله وأخذ عنه الفقيه أبو الفضل راشدٌ الوليدي صاحب كتاب «الحلال والحرام» والشيخ أبو إبراهيم الأعرج صاحب « الطـُّرر على المدوّنة » وله تقييد على الرسالة كُتِب من إملائه في درسه لها . وتوفي سنة ٦٥٣ وهو غير أبي محمد صالح صاحب الطريقة الصوفية التي جعلت من أهم أغراضها الحج الى بيت الله الحرام . نعم إنّهما كانا متعاصرين ، والأول فاسيٌ ، والثاني آسفي .

عَبْدالجليل القصري

أبو محمد عبد الجليل بن موسى بن عبد الجليل الأوْسي الأنصاري من اهل القصر الكبير ، وبالنسبة اليه شُهر ، روى عن ابن حُنَين أخذ عنه الموطا بفاس ولازم أبا الحسن بن غالب بالقصر الكبير ، وحدّث بكتاب اليقين من تأليفه ، كما روى عن غيرهما . وألّف كتاب تفسير القرآن وشُعَب الايمان وشرح الأسماء الحسنى والأسئلة والأجوبة ، وفسّر مُشكل الكتاب والسُّنّة في سِفر وسط وغير ذلك . وتآليفه كلها جليلة مفيدة في بابها لم يُسبَق اليها ، وكلامُه في طريق التصوّف سهـل محرّر مضبوط بظواهر الكتاب والسنة ، قاله ابن الزُبَير ، وكانت له مشاركة في علوم شتّى ، وتصرُّف في الأدب واللغة والنحو وغير ذلك ، ورزق من علاء الصيت وجميل الذكر ما لم يُرزقه كثير من الناس ، وتوفي رحمه الله بسبتة سنة ٦٠٨ .

المـَزدغي

هو ابو الحجّاج يوسف بن عمران المزدغي الفاسي ، احد الفقهاء الأعلام . أخذ بفاس عن أبي ذرّ الخُشَني وأبي محمد بن زَيدان ، ولقي بتلمسان الفقيه أبا عبد الله بن عبد الرحمن التُّجيبي؛ فأخذ عنه وأجاز له. ورحل الى الأندلس فقرأ بقرطبة وإشبيلية على جلـّة أشياخها ، وكان عالماً بالنحو واللغة والبديع ، ذاكراً للتاريخ والآداب ، ينصُّ كتاب زهر الآداب وكتاب الأمالي ومقامات الحريري وكتب السِّيَر نصاً

واقتصر على إقراء الحديث والتفسير فكان إماماً فيهما ، وله تفسير جليل وصل به الى سورة تبارك الملك وهو من أبدع التفاسير . وله تآليف مفيدة في فنون شتى ، منها كتاب الفرق بين الأغنياء المعتنيين والفقراء المضطرين ، وما يجب في ذلك على الولاة الآمرين وعلى جميع المسلمين ، وهو فيما يجب للفقراء في أموال الأغنياء ، وكتاب في الوباء وضعه على حديث « إذا نزل الوباء الخ » . وعقيدة وشرح الأحكام ، وأرجوزة في علم الأصول مفيدة قريبة المرام أولها :

الحمد لله العليِّ الأعلى رب العوالي والعُلا والسُّفلى
ومِلِكِ الدنيا ويوم الدين ومُبدِع الخلق بلا مُعين
أحمدُه حمداً يوازي فضلَه فليس شيء في الوجود مثلَه

ولد سنة ٥٧٧ وتوفي سنة ٦٥٥ .

محمد بن قاسم التميمي

من أهل فاس يكنى أبا عبد الله ، سمع من ابن حنين وغيره ، ورحل الى المشرق رحلة حافلة ، أقام فيها خمسة عشر عاماً ، ولقي نحواً من مائة شيخ أكثرَ من الرواية عنهم وتوسع في السماع منهم ، وأجاز له بعضهم . ومن أعلامهم أبو طاهر السلفي وأبو عبدالله الحضرمي وأبو محمد بن برّي وأبو القاسم البوصيري وسواهم . وجمع في ذلك فهرسة كبيرة سماها بالنجوم المشرقة في ذكر من أخذت عنه من كل ثبت وثيقة ، واختصر منها جزءا اقتصر فيه على مسموعه من أكثرهم دون استيفاء أسمائهم ، ومن مصنفاته أدب المريد ورسالة الحنين الى الأوطان ، واللمعة في ذكر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده السبعة والإنابة في ذكر طريق أهل الاستجابة ، والمستفاد من مناقب العباد والزهاد بمدينة فاس وما يليها من البلاد وغير ذلك . وكان من رجال الحديث والمعرفة بتراجم الرجال ، ومن أهل التصوف والصلاح ، وحدّث بالمشرق والمغرب . وممن أخذ عنه ابن الكردبوس وابن عربي وتوفي ببلده في حدود سنة ٦٠٤ .

ابن القطان

هو المحدث الحافظ النظار أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى بن ابراهيم الكتامي الحميري الفاسي المعروف بابن القطان. سمع أبا عبد الله بن الفخار فاكثر عنه وأبا الحسن بن النقرات وأبا جعفر بن يحيى الخطيب وأبا ذر الخشني وجماعة. وكان من أبصر الناس بصناعة الحديث وأحفظهم لأسماء رجاله، وأشدهم عناية بالرواية مع تفنن ومعرفة ودراية، جمع برنامجاً مفيداً في شيوخه، نقل منه ابنُ الأبار في التكملة، ورأس طلبة العلم بمراكش، ونال دنيا عريضة بخدمة السلطان. وله تآليف منها كتاب النزع في القياس، في ابطال القياس، وكتاب الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام لعبد الحق الاشبيلي، ومختصر النظر في أحكام النظر، ومقالة في المكاييل والأوزان. وتوفي بسجلماسة وهو قاضيها في شهر ربيع الأول سنة ٦٢٨.

عثمان السلالجي

هو الشيخ المتكلم النظار أبو عمرو عثمان بن عبد الله بن عيسى، ويقال عَسْلوج القيسي الفاسي، عُرف بالسلالجي نسبة الى جبل سليلجُو بقرب مدينة فاس، كان راسخ القدم في علم الاعتقاد على مذهب الامام الأشعري، وكان المغرب في أيام طلبه لا يزال يعتنق مذهب السلف في العقيدة، وصادف ظهور الموحدين ودعوتهم الى المذهب الأشعري فتكبد المشاق في طلب هذا العلم. ثم جاهد جهاد الأبطال في سبيل نشره وتعميمه بين الناس ومن ثم قيل إنه هو الذي أنقذ أهل فاس من التجسيم أي من اتباع مذهب السلف الذي كان الموحدون يسمُّون اتباعه مجسمين، نكاية بأعدائهم المرابطين الذين كانوا على هذا المذهب. وقد أراد رجال الدولة الجديدة تقريبه وإلحاقه بحاشيتهم فعزف عن ذلك، وانقطع الى بث العلم، مخلصاً النيّة في ذلك لله عز وجلّ، مجنباً نفسه التورُّط فيما كانوا يدعون اليه من البدعة، وينتحلونه من مذاهبها. أخذ عن محمد بن عيسى التادلي وأبي الحسن بن حرزهم

ومحمد بن الرمّامة وغيرهم من شيوخ فاس ، وأتقن علم العقـائد على ابن الاشبيلي وألـّف عقيدته البرهانية لامرأة صالحة كانت بفاس تسمى خيرونة وهي في صفحات وتوفي بفاس سنة ٥٧٤ هـ .

ابن الكتّاني

هو العلامة المتكلم ، الأصولي الأديب ابو عبدالله محمد بن عبد الكريم الفندلاوي الفاسي يعرف بابن الكتّاني . قال ابن الابار : كان إماماً في علم الكلام وأصول الفقه ، مدرّساً لذلك حياته كلها ، وكان له حظ من الأدب ، وله رجزٌ في أصول الفقه ، أخذ عنه وسمع منـه . وروى عنه جماعة منهم أبو محمد النّاميسي وأبو الحسن الشاري ، وقال : أخذت عنه جملة وافرة من إرشاد أبي المعالي وتلخيصه تفهّماً ، وسمعت عليه رجزه . وله أيضاً كتاب تفسير الأكيال والأوزان نقل عنه بعض شراح الرسالة . وهو ممن أخـذ عن الامام السلاجي ، وتوفي في ذي الحجة سنة ٥٩٦ .

ابو العبّاس السّبتي

أحمد بن جعفر الخزرجي أحد كبار المتصوفة ومشاهيرهم الآخذ بمذهب غريب في الدين ، مولده في سبتة بلده سنة ٥٢٤ واستوطن مراكش وبها توفي سنة ٦٠١ .

كان مذهبه ألا يترك لنفسه ناضاً من المال إلا قدر ما يقوته وعياله في يومه ، وباقيه يتصدق به . وكان يرى أن أهل الجمال من النساء الفقـيرات تجب الصدقة عليهن مخافة فسادهن ، وأن القبيحات لا يتصدق عليهن حتى يستغني الملاح ، وكان يرى أن الرجل اذا اعتلّ في جسده عضوٌ يتصدق بديتّه ويبرأ . فهو أول اشتراكي وضع للاشتراكية مبادىء وقوانين كما ترى . وحدّث أبو القاسم عبد الرحمن ابن إبراهيم الخزرجي قال : بعثني أبو الوليد بن رشد من قرطبة وقال لي : إذا رأيت أبا العباس السبتي بمراكش فانظر مذهبه واعلمني به . قال فجلستُ مع السبتي كثيراً

الى أن حصلت مذهبه فأعلمته به ، فقال لي أبو الوليد : هذا رجل مذهبه أن الوجود ينفعل بالجود . وكان فصيح اللسان قادراً على الكلام ، لا يناظره أحد إلا أفحمه ، حتى كأنَّ مواقع الحجج من الكتاب والسنة موضوعة على طرف لسانه . وكان مع ذلك حليماً صبوراً عطوفاً يحسن الى من يؤذيه ، ويحلم عمن يسفه عليه ، براًّ باليتامى والمساكين ، رحيمـــاً بهم ، يجلس حيث أمكنه الجـــلوس من الأسواق والطرقات ، ويحضُّ الناس على الصدقة ويأتي بما جاء في فضلها من الآيات والآثار فتنهال عليه من كل جانب فيفرقها على المساكين وينصرف .

وكان ناسكاً متعبِّداً ورده القرآن يتلوه آناء الليل وأطراف النهار . وقـــد اتخذه أنيساً وسميراً واستخرج منه من دقائق العلوم ولطائف الإشارات في المجاهدة ورياضة النفس شيئاً عجيبـــاً . وبالجملة فهو رجلٌ من أعـــاجيب الدنيا ، وترجمته أوسع من هذا .

عَبْدالسَّلام بن مَشِيش

هو الشيخ العارف الكامل أبو محمد عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر بن علي بن حُرمة بن عيسى بن سلاّم بن المزوار بن حيدرة بن محمد بن ادريس بن ادريس بن عبدالله الكامل ابن الحسن المثَّنى بن الحسن السِّبط بن علي بن أبي طالب ، كعبةُ العـلم المُنيف ، ونبعة النّسب الشريف . بَيْد أنه لم يعتمد غير العمل الصالح ، وسلوك المنهج الواضح ، قائلاً في صلاته المشهورة الآتية : اللهم ألحقني بنَسبه ، وحققّني بحَسبه . وقد سأله رجلٌ أن يوظف عليه وظائف وأوراداً يعملُ بهـا فقال : أرسولٌ أنا ؟ الفرائض مشهورة ، والمحرمات معلومة ، فكن للفرائض حافظاً ، وللمعاصي رافضاً ، واحفظ نفسك من ارادة الدنيا وحبِّ النساء وحب الجاه وايثار الشهوات ، واقنع من ذلك بما قسم الله لك ، إذا خرج لك مخرج الرِّضى فكن لله شاكراً ، وإذا خرج لك مخرج السخط فكن عليه صابراً . ورفضُ الدنيا قطبٌ تدور عليه الخيرات ، وأصل جامع لأنواع الكرامات ، وحصون ذلك كله أربعة : الورع وحسن النية وإخلاص العمـل ومحبة العلم . ولا تتمُّ له هذه الجملة إلا بصحبة أخ صالح ، او شيخ ناصح . وكلامُه

رحمه الله كله من هذا القبيل ، ويكفيك أنه بمثل هذه الدروس الجامعة تخرّج عليه الشيخ أبو الحسن الشاذليُّ مؤسس الطريقة الشاذلية المنتشرة في العالم الاسلامي ، فهو أحد أقطاب التصوف الذين عليهم المدار . توفي رحمه الله شهيداً حوالي ٦٢٥ قتله بجبل العَلَم قومٌ بعثهم لقتله ابن أبي الطواجين الكتامي الساحر المتنبي . فدفن بقُنَّة الجبل المذكور .

أبو مُوسَى الجَزُولي

عيسى بن عبد العزيز بن يللبَخت بن عيسى بن يوماريلي اليزدكتي الُجزولي المراكشي . كان إماماً في النحو ، كثير الاطلاع على دقائقه وغريبه وشاذه ، وصنّف فيه المقدمة التي سمّاها بالقانون فأتى فيها بالعجب العُجاب . وهي في غاية الايجاز مع الاشتمال على شيء كثير من النحو ، ولم يُسبق الى مثلها ، واعتنى بها جماعة من الفضلاء فشرحوها ، ومنهم من وضع لها أمثلة . ومع هذا كله فلا تُفهم حقيقتُها ، وأكثرُ النحاة ممن لم يكن أخذوها عن موفق يعترفون بقصور أفهامهم عن إدراك مراده منها . فانها كلُّها رموز واشارات ، هذا ما يقوله ابن خلكان عنها ، قال : ولقد سمعت من بعض أئمة العربية المشار اليه في وقته : « أنا ما أعرفُ هذه المقدمة وما يلزم من كوني ما أعرفها أن لا أعرف النحو » . وفي هذا الكلام مبالغة لعل الحامل عليها هو هذه الصياغة المنطقية التي صيغت بها المقدمة من الحدود والتعاريف والقضايا الكلية التي تنطبق على الأحكام الجزئية مع خلوّها من الأمثلة والشواهد التي توضح المعنى المراد ، فجاءت بذلك مركّزة تركيزاً يجمع زبدة النحو ومهماته في ألفاظ قليلة ، ومن ثَمَّ قال فيها مجد الدين بن ظهير الإربلي منوّهاً بهذه الظاهرة التي كانت سبب التحامل عليها من هؤلاء :

مُقدّمة في النحو ذَاتُ نتيجةٍ تناهتْ فأغنَتْ عن مقدّمة أُخرى
حبَانا بها بحرٌ من العلم زاخِرٌ ولا عجَبٌ للبَحْر أن يقذِفَ الدُّرا

وتُسمّى المقدمة ايضاً بالكرّاسة والقانون والاعتماد .

سافر ابو موسى الى المشرق فحجّ ولازم ابن برّي بمصر ، ثم عاد فتصدّر للاقراء ببجاية والمريّة ، وأخذ عنه جماعة منهم الشلوبين وابن معطٍ . وكان قارئاً حافظاً جيّد التفهيم حسن العبارة . ولي خطابة مراكش وله أمالٍ في النحو ، ومختصر الفَسر لابن جِنّي في شرح ديوان المتنبي ، وشرح اصول ابن السراج وغير ذلك . وتوفي سنة ٦٠٧ بمراكش رحمه الله .

ابن مُعْطٍ

هو الإمام زين الدين أبو زكريا يحي بن معط بن عبد النور الزواوي القبيلة المغربي الأصل والنشأة الجزولي البلد . اشتغل بالعربية على أبي موسى المتقدم فتمهّر فيها وكان مُبرّزاً في علم الأدب ، قادراً على النظم للعلوم . ورحل الى بلاد مصر فلقي المشايخ ، وباحث العلماء وناظرهم . ثم انتقل الى دمشق وسكن بها طويلاً ، وولاّه الملك المعظم النظر في مصالح المساجد وفي ذلك الوقت نظم الفيّته في النحو التي عمِل ابن مالك على مثالها الفيّته المشهورة . ولما توفي الملك المعظم نقله الملك الكامل الى مصر ؛ فتصدر بالجامع العتيق لإقراء الأدب . وله غير الألفية نظمٌ في العَروض ونظم جمهرة ابن دريد في اللغة . وشرع في نظم كتاب الصحاح للجوهري فمات قبل اكماله . كانت ولادته سنة ٥٦٤ وتوفي سنة ٦٢٨ رحمه الله .

إبْنا دِحْيَه

هما الشيخان المُحدّثان الحافظان اللغويان الأديبان أبو عمرو عثمان وأبو الخطاب عمر ابنا الحسن بن علي بن محمد الُجميّل بالتصغير ، وبه كانا يُعرفان أولاً ؛ فيقال لكل منهما ابن الُجميّل، ثم عرفا بعد بابني دِحيَة لانتسابهما الى دحية الكلبي الصحابي الجليل، وأصلهما من مدينة سبتة . كانا عَلَمَين شهيرين في حفظ الحديث والمعرفة بعلم اللغة وأيام العرب وأشعارها، والنحو والتاريخ وغير ذلك ، أخذا ببلاد المغرب وافريقية والأندلس عن مشايخها المعروفين، وانفرد ابو الخطاب بالتجول في بلاد المشرق؛ فدخل

الشام والعراق وخُراسان وما والاها، واكثر من السماع وأخذ عنه الناس كذلك. ومرّ في طريقه الى خراسان بمدينة إربل؛ فوجد ملكها مُظفَّر الدين التركماني مولعاً بعمل المولد النبوي فألف له كتاب «التنوير في مولد السراج المنير». واستقر هو وأخوه بمصر، وكان لصاحبها الملك الكامل بن أيوب عناية كبيرة بهما، وبنى لأبي الخطاب دارَ الحديث الكامليّة بالقاهرة ثم سلمها لأخيه أبي عمْرو، وكانا يميلان الى النظر والاجتهاد وربما نُسبا الى الظاهرية، ولأبي الخطاب تآليف مفيدة مضت الاشارة الى بعضها ويأتي ذكرها جميعاً في نهاية هذا الفصل، وتوفي أبو الخطاب في سنة ٦٣٣ وأخوه أبو عمرو بعده بسنة.

عَبْدالواحِدالمرّاكشي

هو عبد الواحد بن علي التميمي، مؤرخ دولة الموحّدين. ولد بمراكش سنة ٥٨١ وأخذ بفاس والأندلس عن جماعة من العلماء، وعُنِيَ بالأدب واللغة فكان طوداً راسخاً في فنونهما. وله قلم بارع في الانشاء، وطبع سائل في الشعر. وكان حُلوَ النادرة، عذب الفكاهة، لطيف المحضر، رقيق الحاشية. خدم الأمير إبراهيم بن يعقوب المنصور أيام ولايته على اشبيلية فنال عنده حظوة كبيرة، وامتدحه بقصائد فذّة كان يُجزل له عليها العطايا والهبات.

ثم سافر الى مصر سنة ٦١٣ وفيها ألف كتابه المعجب في تلخيص أخبار المغرب جمع فيه بين تاريخ الأندلس والمغرب السياسي والأدبي من لدن فتح الأندلس الى سنة ٦٢١ أي الى مدة خلافة يوسف بن محمد الناصر الموحدي، يستعرض أهمّ حوادث السياسة وأحسن صور الحضارة في كل عصر، ثم لا يلبث أن يسرقه طبعه، فيستطرد مواضع أدبية لها قيمتها في معرفة الحياة الفكرية في ذلك العصر، وذلك كله بأسلوب رصين متزن، لا تشوبه ركاكة ولا تشويش، مع تحري الصدق وتوخي الانصاف كما قال: «ولم أثبت في هذه الأوراق المحتوية على دولة المصامدة وغيرها إلا ما حققته نقلا من كتاب، أو سماعا من ثقة عدلٍ، أو مشاهدة بنفسي؛ هذا بعد ان تحرّيتُ الصدق وتوخيت الانصاف في ذلك كله، وجهدتُ ألا انقصَ

أحداً ذرّة مما له ، ولا أزيده خرْدلة مما لا يستحقه » ولذلك فان هـذا الكتاب يعدُّ من أوثق المصادر في تاريخ هذا العصر .

ابن فرتون

أبو العباس أحمد بن يوسف السُّلمي الفاسي المعروف بابن فرتون . هو أحدُ أعلام الرواية والتاريخ ، أخذ ببلده فاس عن أبي ذرّ الخشني ، وأبي القاسم عبـد الرحيم ابن الملجوم ، وابن عمه عبـــد الرحمن ، وأبي محمد بن حوط الله ، وأبي القاسم بن زانيق وعدد غيرهم . وانتقل من بلده الى سبتة فأخذ بها عن عالم كثير من أهلها ومن الواردين عليها ، ودخل الأندلس فأخذ بالجزيرة الخضراء وبمالقة عن أهلهـا . ولما كان بحصن بليش من شرقي مالقة ، عرض له ما أوجب رجوعه الى سبتة فبقي بها ولم يخرج عنها الى حين وفاته ، واجتمع له سماع جمّ ، وكتب بخطه كثيراً وقيّد واعتنى غاية الاعتناء حتى كان آخر المكثرين . وكان ذاكراً للرجـــال والتواريخ ، ولكثير من متون الأحاديث وقسط صالح من الجرح والتعديل وطبقات الناس ، وألف برنامجا ضمنه ما رواه ، وألف الاستدراك على كتاب السهيلي المسمى بالتعريف والإعلام ، كما ألف كتابه الذيل على صلة ابن بشكوال ؛ فكان أول من فتـح باب التذييل عليها الذي تبعه فيه ابن الزبير وهو تلميذه بكتاب صلة الصلة ، وابنُ عبـد الملك المراكشي بكتاب الذيل والتكملة ، وابن الأبار بكتاب التكملة الخ . وكان كتاب ابن فرتون مادّة لجميعهم ، وعاش ابن فرتون زاهداً ورعاً ، ما اعتزّ بغـير دينه ، ولا تصدّى لأحد من أهل الدنيا ولا تعرّض لخطة ولا غيرها . وتوفي في ٢٦ شعبان سنة ٦٦٦ .

الادريسي

هو العلامة الجغرافي الشهير ، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس ، كان جده ادريس من ملوك الحموديين بالأندلس ، ومات سنة ٤٤٤ قبل اخراج الحموديين

من مالقة وإضافة مملكتهم الى غرناطة . أما هو فولد بسبتة بلده ، ولعل سلفه كانوا انتقلوا اليها بعد سقوط دولتهم . خرج الادريسي سائحاً في شمال افريقيا وآسيا الصغرى والأندلس ، ثم استدعاه روجار الثاني ملك صقلية فقدم عنده ففرح به واكرم نزوله . وفي صقلية ألف كتابه « نزهة المشتاق في معرفه الآفاق » وصنع كرة سماوية ودائرة أرضية كلاهما من الفضة واستعمل في ذلك ثلث الفضة التي أعطاها له الملك ، ولما أتم العمل فيها زاده الملك مائة الف درهم وشيئاً كثيراً من التحف . وألف أيضاً « روض الأنس ونزهة النفس » برسم غليوم الأول ولد روجار ، وهو أطول من نزهة المشتاق . وذكر أبو الفداء هذا الكتاب ولكنه سمّاه كتاب الممالك ، وله أيضاً كتاب « الأدوية المفردة » وذكره ابن سعيد ، وانتفع منه ابن البيطار . وقد نقلت قطع من كتاب نزهة المشتاق الى لغات أوربا . وتوفي الادريسي حوالي ٥٦٩ رحمه الله .

أبو الحسن المسفّر

هو الشيخ الحكيم أبو الحسن علي بن خليل المسفر السبتي ، عرف بلقب المسفر الذي يعني أنه من أهل صناعة تفسير الكتب . وربما كان من آل المسفر الأشراف الحسينيين المعروفين بفاس . ذكره ابن عربي الحاتمي في كتاب « محاضرات الأبرار وقال فيه : كان هذا الشيخ جليل القدر حكيماً ، عارفاً غامضاً في الناس ، محمود الذكر . رأيته بسبتة ، له تصانيف ، منها : منهاج العابدين الذي يعزى لأبي حامد الغزالي وليس له ، وإنما هو من مصنفات هذا الشيخ ، وكذلك كتاب النفخ والتسوية الذي يعزى الى أبي حامد أيضاً وتسميه العامة « المضنون الصغير » ، ولهذا الشيخ أيضاً القصيدة المشهورة : « قل لإخوان رأوني ميتا ... » وتأتي في المنتخبات. ولا شك أن هذا الشيخ كان من فلاسفة العصر النازعين الى التصوف ، سالكاً في ذلك مسلك أبي حامد الغزالي وكتبه المذكورة تدل على ذلك ، إلا أنه لم يتحامل على الفلسفة والفلاسفة تحامل أبي حامد ، وقد لقيه الشيخ محي الدين بن عربي وتذاكر معه وهو في سن الشيخوخة ، فهو على ما يظهر لم يجاوز المائة السادسة .

ابن الياسمين

ابو محمد عبد الله بن محمد بن حجّاج ، من أهل مدينة فاس ، وأصله من بني حجاج أهل قلعة فندلاوة . رياضي برع في عدة علوم كالمنطق والهندسة والتنجيم والهيئة ، وخاصة الحساب والعدد ؛ فكان لا يدرك شأوه فيهما ، ولا ينازع في الاختصاص بمعرفة دقائقهما وغوامض مسائلهما . وله أيضاً القدم الراسخ في علوم الأدب والباع الطويل في نظم الشعر ، أخذ علم العدد عن ابي عبدالله بن قاسم ، وكان من خدّام يعقوب المنصور ثم ولده الناصر من بعده ، فحصلت له رياسة كبيرة وبلغ منزلة نفسها عليه أعداؤه ، له أرجوزة في الجبر قرئت عليه وسمعت منه باشبيلية سنة ٥٨٧ وله غيرها ، توفي ذبيحاً بمراكش سنة ٦٠١ رحمه الله .

الحسن المراكشي

هو العالم الرياضي الشهير ، أبو علي الحسن بن علي المراكشي مؤلف كتاب (المبادي والغايات في علم الميقات) الذي يقول فيه صاحب كشف الظنون أنه أعظم ما صُنّف في هذا الفن ، وذكر أنه رتبه على أربعة فنون : ١ — في الحسابيات وهو يشتمل على سبعة وثمانين فصلاً ، ٢ — في وضع الآلات وهو يشتمل على سبعة أقسام ، ٣ — في العمل بالآلات وهو يشتمل على خمسة عشر باباً ، ٤ — في مطارحات يحصل بها الدُّربة والقوة على الاستنباط ، وهو يشتمل على أربعة أبواب ، في كل باب منها مسائل على طريق الجبر والمقابلة . وعلى هذا الكتاب قامت شهرة المراكشي بين علماء الغرب ، واعتبروه من أعظم فلكيّي العرب . وقد نقل العلامة سيديو زُبدته الى اللغة الفرنسيّة ، وكذلك نقل البارون كارادفو فصلاً منه يتعلق بالاسطُرلاب . وللمراكشي كتب أخرى في مباحث رياضية عامة ، وكان يعيش في النصف الأول من المائة السابعة .

يوسف بن سمعون

أبو الحجاج بن يحيى بن إسحاق الطبيب الرياضي المعروف بابن سمعون ، وهو جده العاشر او التاسع عرّف به ابن القِفطي في أخبار الحكماء فقال : هـــذا كان طبيباً إسرائيلياً من أهل فاس ، وكان أبوه بها يُعاني بعض الحِرف السُّوقيَّة ، وقرأ هو الحكمة ببلده فساد فيها ، وعانى العلوم الرياضية وأجادها وكانت حاضرةً على ذهنه عند المحاضرة . وقد ارتحل الى مصر ، واجتمع بموسى بن ميمون القرطبي رئيس اليهود بمصر ، وقرأ عليه شيئاً وأقام عنده مدة ، واجتمع هو وإياه على إصلاح هيئة ابن أفلح الأندلسي وتحريرها . ثم خرج من مصر الى الشام ونزل حلب ، أقام بهـا مدة وسافر منها تاجراً الى العراق ودخل الهند وأثرى حاله . ثم ترك السفر وأخذ في التجارة ، وقصده الناس للاستفادة منه ، فأقرأ جماعة من المقيمين والواردين ، وخدم في أطبَّاء الخاص في الدولة الظاهريَّة بحلب ، وكان ذكياً حاد الخاطر ، وانعقدت بينه وبين ابن القِفطي مودة تحدث عنها هذا في كتابه . توفي سنة ٦٢٣ .

* * *

أهم آثار الأدباء والعلماء في هذا العصر

وهذه جريدة بأهم آثار العلماء والأدباء في هذا العصر ممـــا وقفنا على تسميته من كتب ورسائل ودواوين شعرية منسوبة لأصحابها ، مع الاشارة الى وَفيات من لم نترجم لهم اختصاراً .

كتب التفسير والحديث وتوابعها .

تفسير القرآن لابن عبد الجليل القصري ، شُعَب الايمـــان له ، تنبيه الأنام في مُشكِل الحديث له ، شرح أسماء الله الحسنى له ، الناسخ والمنسوخ لأبي الحسن الحصَّار المتوفى سنة ٦١١ . المدارك في وصل مقطوع حديث مالك له ، مفتاح اللبّ المقفل لفهم الكتـاب المنزل لابي الحسن الحرّالى المراكشى المتوفى سنة ٦٣٧ ، تفسير القرآن

للمزدغي ، شرح حديث إذا نزل الوباء بأرض له ، كتاب الاستدراك والاتمام لكتاب السهيلي المسمّى بالتعريف والأعلام بما أُبهمَ في الكتاب العزيز من الأسماء والأعلام لابن فرتون . كتاب النزع في ابطال القياس لابن القطان الفاسي ، كتاب الوهم والايهام الواقعين في كتاب الأحكام لعبد الحق الاشبيلي له ، كتاب مختصر النظر في أحكام النظر له . تعقب كتاب الوهم والايهامَ لابن القطان لابن الموّاق المتوفى سنة ٦٤٢ ، شرح مقدمة صحيح مسلم له ، شرح الموطأ له ، اختصار الموطأ للمهدي بن تومرت ، اختصار مسلم له ، كتاب أحكام الطهـــارة من الحديث له ، كتاب تحريم الخمر من الحديث له ، كتاب الجهاد له ، كتاب الغلول له ، الآيات البينات في ذكر ما في اعضاء رسول الله ﷺ من المعجزات لأبي الخطاب بن دحية ، نهـــاية السُّول في خصائص الرسول له ، أنوار المشرقَين في تنقيح الصحيحين المشرقين له ، شرح أحاديث الشهاب للقضاعي له ، العلَم المشهور في فضائل الأيام والشهور له ، مُصنَّف في رجال الحديث له .

كتب الفقه والتصوف :

وهج الجمر في تحريم الخمر لأبي الخطاب بن دحية ، منهاج التحصيل فيما للائمة على المدونة من التأويل لأبي الحسن الرّجْراجي ، الطـُّرر على المدونة لأبي ابراهيم الأعرج المتوفى سنة ٥٨٣ ، حاشية على المدوّنة لأبي محمد يشكر المتوفى سنة ٥٩٨ ، حاشية أُخرى عليها لراشد الفاسي المتوفي سنة ٦٧٥ كتاب الحلال والحرام له ، مجموعـــة الفتاوي له ، شرح الرسالة بالنقل لأبي الحسن المتيوي المتوفى سنة ٦٦٩ ، تقييد على الرسالة لأبي محمد صالح ، مقالة في المكاييل والأوزان لأبن القطان الفاسي . أنوار الافهام في شرح كتاب الأحكام للمزدغي ، كتاب الفرق بين الأغنياء المعنيين والفقراء المضطرين له ، كتاب الوافي في الفرائض لأبي الحسن الحرّالي المراكشي ، كتاب المقصد المحمود في تلخيص العقود لأبي القاسم الجزيري ، كتاب اليقين لابي الحسن ابن غالب ، منهاج العابدين لأبي الحسن المسفر ، كتاب الإنابة الى طريق أهـــل الاستجابة لمحمد بن قاسم التميمي ، الايضاح في طريق أهل الصلاح له ، كشف أحوال المفتون عن الدنيا والدين له ، بستان العابدين له ، أدب المريد له ، أنوار السرائر وهي الرائية المشهورة في التصوف لابي العباس الشريشي السلوي المتوفى سنة ٦٤١ ، الحزب الكبير لابي الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ ، حزب البحر له .

كتب الكلام والأصول :

كتاب اعزّ ما يطلب للمهدي بن تومرت ، العقيدة المرشدة له ، التنزيهات له ، التسبيحات له ، الامامة له ، تعاليق في الاصول له ، العقيدة البرهانية للسلالجي ، عقيدة المزدغي ، أرجوزة في الأصول له . أرجوزة في الكلام لأبي الحسن الحصار ، شرحها له ، أرجوزة في الاصول له ، البيان في تنقيح البرهان له . رجز في أصول الفقه لابن الكتاني ، كتاب الايمان التام بمحمد عليه السلام لأبي الحسن الحرّالي المراكشي ، عصمة الأنبياء لابي الخطّاب بن دحية .

كتب التراجم والسير

برنامج عبد الرحيم بن الملجوم المتوفى سنة ٦٠٣ ، فهرست أبي الصبر ايوب المتوفى سنة ٦٠٤ برنامج أبي العباس العزفي المتوفى سنة ٦٤٩ ، كتاب الدرّ المنظم في مولد النبي المعظم له ، فهرس أبي الحسن الشاري المتوفى سنة ٦٤٩ برنامج ابن القطان الفاسي . اختصار المدارك لابن حمّادة السبتي ، برنامج ابن فرتون ، الذيل على صلة ابن بشكوال له ، شيوخ الدّار قطني لابن الموّاق . النجوم المشرقة فيمن أخذت عنه من كل ثبت وثقة لمحمد بن قاسم التميمي ، مختصره له ، اللمعة في ذكر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده السبعة له ، المستفاد في مناقب العباد والزهاد بمدينة فاس وما والاها من البلاد له ، التنوير في مولد السراج المنير لابي الخطاب بن دحية ، سلسلة الذهب في نسب سيد العجم والعرب له ، المستوفي من أسماء المصطفى له ، الابتهاج في المعراج له ، التحقيق في مناقب أبي بكر الصديق له ، التشوّف الى رجال التصوف لابن الزيات المتوفى سنة ٦٢٨ .

كتب التاريخ والجغرافية

المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي ، كتاب أبي بكر بن علي الصنهاجي المعروف بالبيدق ، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس لأبي الخطاب ابن دحية ، تاريخ الأمم في أنساب العرب والعجم له ، أعلامُ النصر المبين في المفاضلة بين أهل صفين له ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الادريسي ، روض الأنس وبهجة النفس له ، أنس المهج وروض الفرج مختصر مما قبله له .

كتب الأدب والدواوين الشعرية

مختصر الأغاني للأمير سليمان الموحّد ، ديوان شعر له ، صفوة الأدب وديوان العرب وهي الحماسة المغربية ، لأبي العباس الجراوي ، ديوان عتيق الفصيح المتوفى سنة ٥٩٥ ، ديوان ابن حبوس ، المطرب من أشعار اهل المغرب لأبي الخطاب بن دحية ، مجموعة خطب بليغة له ، مرج البحرين في فوائد المشرقين والمغربين له ، كتاب الأنساب والشعر لابن رقيّة المتوفى سنة ٦٠٥ ، البرهان في ذكر حنين النفوس الى الأحبة والأوطان لمحمد بن قاسم التميمي ، شرح مقامات الحريري لابن الزيات .

كتب النحو واللغة

المقدمة لأبي موسى الجزولي ، شرحها له ، الأمالي له ، شرح أصول ابن السراج له ، مختصر الفَسْر لابن جنّي في شرح ديوان المتنبي له ، الألفية لابن معط ، نظم في العروض له ، نظم جمهرة ابن دريد له ، نظم الصحّاح له ، شرح الجزولية لأبي العباس الشريشي السلوي ، شرح المفصل له ، شرح الجمل للزجاجي لأبي القاسم بن الزيات المتوفى سنة ٦٦٥ الصارم الهندي في الرد على الكندي في مسألة من علم العربية لأبي الخطاب ابن دحية .

كتب حكميّة ورياضية :

المعقولات الأوّل لأبي الحسن الحرّالي المراكشي ، السر المكتوم في مخاطبة النجوم له ، تفهيم معاني الحروف له ، كتاب الأدوية المفردة للشريف الادريسي ، جامع المبادي والغايات في علم الميقات للحسن المراكشي ، كتاب في القطوع المخروطية له ، اصلاح هيئة ابن افلح ليوسف ابن سمعون ، ارجوزة الجبر لابن الياسمين ، تلقيح الافكار في العمل بحروف الغُبار له . النفخ والتسوية لأبي الحسن المسفر .

* * *

هذا قُلٌّ من كُثْر مما لم نطّلع عليه من المؤلفات الموضوعة في هذا العصر للعلماء المغاربة فقط ، دع ما كان يؤلفه برسم الخزانة السلطانية غير المغاربة من علماء الأندلس وافريقية ، وقد رأيتَ ان كل ما الفه ابنُ رشد من الكتب الحكمية كان بطلب يوسف ابن عبد المؤمن . فالمكتبة المغربية في هذا العصر ، كانت من أغنى المكاتب بالمؤلفات

النادرة ، وزادها أغنى ما كان يضعه المؤلفون كل يوم من الكتب المفيـــدة في مختلف العلوم ، فكانت ثروتها لا تزيد على مرّ الايام الا كثرة ، وما يمنعها من ذلك والناس في ذلك العصر لم يكونوا يبيعون كتب أسلافهم لأوربا بأبخس ثمن ، بل كانوا يستخلصونها منها بأغلى قيمة ، وينافس عامتهم في ذلك خاصتهم ، وقد سمعت ما عمله الملك الموحدي يوسف بن عبد المؤمن في هذا الصدد ، فاسمع ما عمله احد افراد العلماء وهو القاضي عيسى بن أبي حجاج بن الملجوم ، وبنو الملجوم من بيوتات فاس القديمة ؛ فانه ابتاع من أبي علي الغساني أصله من سنن أبي داود ، الذي سمع فيه على أبي عمر بن عبد البر ، وهو أصل أبي عمر ، وكان صار الى أبي علي ؛ بخمسة آلاف دينار بعد ان نسخ منه بخطه وقابله وأتقنه .

وكان الامام المجتهد فخرُ بيتـه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن الملجوم المعروف بابن رقيّة ، جمّاعةً للدواوين العتيقـة والدفاتر النفيسة ؛ فاجتمع لديه ما لم يجتمع عند أحد من أهل المغرب ، وكانت خزانتُه وحيدة في المغرب ، بيعت ُخرَمُها بعد وفاته بستة الاف دينار .

فحيا الله تلك الهمم ، ما كان أعلقها بالمعالي وأطرقها لأبواب الفخار !

الحيـاة الأدبيّـة

نما الأدب المغربي في عهد المرابطين وترعرع ، ولكنه لم يقوَ قوّة الأدب الأندلسي ويُسيطر على الميدان .

على أنه مع ذلك لم يكن ضعيف المادّة ولا مُنحسر الموجـة ، بل كان ذا روح معنويّة قوية تمثّل الواقع المغربي في أجلى مظاهره ، ذلك الواقع الذي لم يفتأ أن أثّر في الأدب الأندلسي نفسه فانتشله من هوّة الضعف والابتذال التي كان وقع فيها على ما ألمعنا اليه فيما مضى . فلما قام الموحّدون ، وقامت معهم تلك النهضة العلميّة الأدبية ، التي سبق توصيفُها ، تحوّل مجرى السّفينة الأدبيّة الى المغرب ، وسيطر عليها الأدباء المغاربة يُزجونهـا بمعرفة وحِذق ، وتعينُهم على ذلك ريحٌ رُخاء من لطف تدبير الموحدين وحسن سياستهم .

وقد سبق ذكر ما كان لهم من العطف على الأدب والتشجيع لأهله ، حتى لقد كان واحدهم يُثيب على البيت والبيتين يُمدَح بهما بالألف والألفين ، بل كان الآخر يبلـُغه عن شاعره وقوعُه فيه وتعريضه بأصله فيقول أعاقبه بالحلم عنه ، وهي نفسُ الهفوة التي أخذوها على الفيلسوف أبي الوليد بن رشد ، فلم يتسامحوا مع العلماء ، وتسامحوا مع الشعراء ، مما يدل على أن ضِلعَهم مع الأدب كان كبيراً .

وقد رأيت مقام الشعراء من عبد المؤمن في جبل طارق ، وكيف كان أول من أنشده في ذلك المقام شاعرٌ فاسي ، وكان هو يُعقِّبُ على قصائد الشعراء بالنقد أو التقريظ ، ثم أُعيد هذا الموقف ، ولكن بأعظم من ذلك مع حفيده يعقوب المنصور لمّا رجع من غزاة الأرك المشهورة بالأندلس ، فورد عليه وفودُ المهنئين والشعراء من كل ناحية ، فكان كل واحـد منهم يُنشد من قصيدته بيتاً أو بيتين لكثرتهم ويترك رُقعتها أمامه ، فما استتمّوا الإنشاد حتى حالت رِقاع القصائد بينه وبين الناس ، وهذا إن ثبتَ على حقيقته ، كان أعظم شاهد على ما بلغته الحياة الأدبية في هـذا العصر من النـُّموّ والازدهار .

ولكنّ منشأ النبوغ لم يكن هذا الذي ألمعنـــا اليه من رعاية الموحّدين للأدب وتنشيطهم لأهله فقط ، وإنما هو متولّد من جملة أسباب أخرى ، منها النّفَس على الأندلسيين الذين كانوا قـد طلعوا في سماء الأدب بدوراً ساطعة ، ونجوماً لامعة ، وكانوا يغلِبون أهل البلاد من المغاربة عند المفاخرة ويُطاولونهم حين المنافرة ، وتُعد المناظرة التي وقعت بمجلس والي سبتة الأمير أبي يحيى بن أبي زكرياء في هذا الصدد بين أبي الوليد الشّقُندي ، وأبي يحيى بن المعلّم الطنجي من أحسن الأمثلة على ذلك ، وقد أمر الأمير كلاً من الأديب الأندلسي والأديب المغربي بكتابة رسالة في تفضيل قُطره ، غير أن رسالة المغربي لم تُحفظ . ومن هـــذا يُعلم أن الخصومة بين أدباء العُدوتين ، كانت لا تنقطع ، والأندلسيُّون بالطبع كانوا يحجُّون جيرانهم بما يعدّون من نبغائهم الكثيرين . وهذا وحده كافٍ للمحجوج في الانقطاع الى الطلب والعكوف على التحصيل . ومنها الطِّماحُ الى الخدمة في دواوين الحكومة وشغل المناصب العالية التي كان أعلاها يومئذ منصب الوزير ، وهـــو في الحقيقة رئيس الكتاب ، ونرى من أبناء مراكش البرَرة من وضَع هذه الغاية نُصب عينيه ، وجهدَ في الوصول اليها فما لبثَ أن حصّلها بحزمه وعزمه ، وذلك هو الوزير أبو جعفر بن عطية . على أن ما يرجَح بهذه الأسباب كلها هو عموم الحاجة الى التثقيف والتهذيب ، وقد شعُر الناس بهذه الحاجة منذ قيام عبد الله بن ياسين بحركته الإصلاحية ، ثم زاد شعورهم بهـا من حين الانقلاب الذي قام به المهدي بن تومرت . فنُتجَ عن ذلك كلّه أن تقدمت الحركة العلمية الى الامام ، واتجهت النهضة الأدبية اتجاهاً جديداً يرضي الجماعة الذين كانوا لا يفتئون يناظرون خصومهم من أهل الأندلس في موجبات الفخار .

وعلى ذلك فلم تكن الآداب المغربيـة صورة طبق الأصل للآداب الأندلسية ، كما يظنه البعض بل كانت قائمة بنفسها ، تعبر عن شعور اهلها ولا تتأثر بالأندلس إلا كما تتأثر بالشام والعراق. فهذا ميمون الخطابي لا تجد بن تقارنه في متانة أسلوبه وبلاغة معناه، وعنايته بالحكم الفلسفية إلا المتنبي. وهذا أبو العباس الجرّاوي لا تشبهه إلا بأبي تمام في اهتمامه باللفظ قبل المعنى ، ثم اغرابه في بعض الاحيان حتى تختلف فيه الظنون، ولم يقصُر وجه الشبه بينهما على هذا الحد فيظهر أن شاعرنا كان يتتبع آثار أبي تمام في كل شيء ، حتى ألف حماسته فانتشرت بالمغرب وأغنت عن حماسة أبي تمام .

أما الأدب الأندلسي فنجد أثره واضحاً كما نبه عليه المراكشي في ابن حبوس الفاسي

الذي كان يتشبه بابن هانىء ، متنبي المغرب ، في القصد الى الألفاظ الرائعة والقعاقع المهولة ، وإيثار التقعير ، كما نراه من جهة الرقة والانطباع ممثلاً في الوزير ابن عطية الذي يشبه الوزير ابن عمار في كثير من أحواله .

والخلاصة أن الأدب المغربي هو غير الأندلسي ، وأنه لم يتأثر به الا نسبيّاً ، لأن الأدباء المغاربة من غير شك كانوا يتعمدون مخالفة طريقة زملائهم الأندلسيين في الشعر والنثر ، قصد مقابلة التحدي بمثله . فان الأندلسيين كانوا يكثرون على المغاربة من تعداد محاسن أدبائهم ، وابتكارات شعرائهم ، التي بذّوا بها غيرهم ، كما ترى ذلك في رسالة الشقندي التي مرّت الإشارة إليها . ولم يكن لدى من أخذوا أنفسهم بالتأدب لكم الأفواه الصاخبة ، بتعجيزهم ، إلا أن يقرعوا الحجة بالحجة ، ويعارضوا الدليل بالدليل . وهذا غير السرق والتقليد . زيادة على أن هؤلاء ، لم يكونوا قد استغرقوا في الحضارة والمدنية ، وانغمسوا في الرّفاهية والبلهنيّة كما كان ذلك حال الأندلسيين ؛ فكانت تغلب عليهم رقة الطبع ودقة التصوير . بل كانوا لا يزالون أقوياء النفوس ، أقوياء الطباع ، كما كان الشأن في شعراء المشرق الذين نظرنا بهم وهم عرب أقحاح ، تنقلوا في البادية ، واعتادوا على خشونتها فغلبت عليهم متانة الأسلوب وجزالة اللفظ .

وبناء على هذا ، فاننا نستطيع أن نقول إن الأدب المغربي منذ نشأ الى أن ترعرع ، كانت له في الغالب طريقة غير طريقة الأدب الأندلسي ، ولا نستشهد على ذلك غير أديب بارع من أُدباء الأندلس ، بل خاتمة أدبائها ، وهو الوزير أبو عبد الله بن زمرك الذي تحدّث عن هذا الأدب الى علَم من أعلام الفكر الأندلسي وهو الإمام الشاطبي ، بعد رحلة قام بها الى المملكة المغربية . وهاك ما قاله الشاطبي في كتابه (الانشادات والافادات) حسبما رواه المقري في النفح : « أفادني صاحبنا الفقيه الكاتب أبو عبدالله بن زمرك إثرَ إيابه الى وطنه من رحلة العدوة في علم البيان فوائد أذكرُ منها الآن ثلاثاً ، (الفقه في اللغة) وهو النظر في مواقع الألفاظ ، وأين استعملتها العرب ، ومن مثل هذا الوجه ـ قَرِمَ وعَام ـ اذا اشتهى ، لكن لا يستعمل قرمَ إلا مع اللحم ، ولا يستعمل عام الا مع اللبن فتقول عمتُ الى اللبن ، وكذلك قولهم اصفر فاقع ، وأحمر قاني ، ولا يقال بالعكس وهذا كبير ، (والثانية) تحري الالفاظ البعيدة عن طرفي الغرابة والابتذال ، فلا يستدل

بالحوشيّ من اللغات ، ولا المبتذل في ألسن العامة ، (والثالثة) اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى او تشوش عليه ، إذ المقصود الوصول الى بيان المعنى الى أقصاه ، والاتيان بما يحصله سريعاً ويمكنه في الذهن ، وتحري كل صيغة تمكن المعنى وتحرض السامع على الاستماع ، (وأخبرني) ان كتّاب المغرب يحافظون في شعرهم وكتابتهم على طريقة العرب ، ويذمون ما عداها من طريقة المولدين ، وأنها خارجة عن الفصاحة ، وهذه المعاني الثلاثة لا توجد إلا فيها » .

وهذا الكلام إن كان قيل في أُدباء العصر المريني فهو بأن يصدق على أدباء هـذا العصر أولى؛ لأن هذه الصفات التي ذكرها ابن زمرك تتحقق فيهم أكثر من غيرهم ضرورة أن الثقافة الأدبية ، بل الثقافة على العموم كانت في هذا العصر أوسع وأمتن منها في العصر المريني ، وان الروح المعنوية التي تنعكس في أقوال الأدباء ، وانتـاج الكتّاب لم تبلغ في عصر من عصور المغرب ، ما بلغته في هذا العصر من القوة والظهور . ولا يبعـد أن يكون ابن زمرك في كلمته تلك قصَد الحكم على الأدب المغربي بعامّة مما يشمل العصر الموحدي والعصر المريني ، سيما وقـد بقيت تلك الصفات هي سمة الأدب المغربي الى العصر الأخير ، وأعني به العصر العلوي ، حين جاء العلامة الشيخ محمد بيرم التونسي صاحب كتاب « صفوة الاعتبار » فأكد قول ابن زمرك بما لا يخرج عن مضمونه في اللفظ ولا في المعنى .

والخلاصة، إن تحرّي الفصاحة والصدق وطرح التصنع والابتذال كانت وما زالت من أهم ميزات الأدباء المغاربة ، وهم لذلك أقرب ما يكون من طريقة العرب وشعراء العصور الأولى من عصور الأدب العربي .

ويلوح لنا اننا بلغنا الغاية في تصوير الحياة الأدبية الموحدية على ما وصل اليه علمنا منها ، فلنصنع لهذه الصورة إطاراً من تراجم الأدباء المذكورين فيها يزيدها على حسنها حُسناً .

ابو جعفر بن عطية

هو الكاتب الوزير ، أبو جعفر أحمد بن عطية القُضاعي المراكشي ، من فتيانها العصاميين الذين تبوّأوا ذرى المجد بمحض جدّهم واجتهادهم .

كتب أولاً عن ملوك لمتونة ، ولما أدبرت أيامهم حضر في بعض الفتوحات الموحدية مع أحد قواد عبد المؤمن ؛ فكتب عنه الى عبد المؤمن رسالةً بديعة يخبره فيها بالفتح ، ويصف كيفيّة الواقعة ؛ فأعجب بها عبد المؤمن وسأل عن مُنشئها ، فأخبر أنه ابو جعفر ، فطلبه للكتابة عنده . ثم ترقّى به الحال فصار وزيراً . قال في نفح الطيب : « وكانت وزارته زيناً للوقت ، وكمالاً للدولة . » واشتمل عليه عبد المؤمن فبلغ منه منزلةً كثر حُسّاده عليها ، فكادوا له حتى أوقع به سنة ٥٥٢ كما في القرطاس أو ٥٣ كما في المعجب .

ويُعد أبو جعفر من أكبر الأدباء الذين لهم التصرُّف التام في الشعر والنثر ، وآثاره كلها تتكافأ بلاغةً وانسجاماً . ولقد شهد له عبد المؤمن بعد وفاته بعلو كعبه في الأدب ، فانه امتحن الشعراء بهجوه، فلما أسمعوه ما قالوا أعرض عنهم وقال: ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه .

ابن حَبّوس

هو ابو عبدالله محمد بن حبوس ، الفاسي الشاعر النابه المجيد ، قال المراكشي في المعجب : كانت طريقته في الشعر على نحو طريقة محمد بن هانىء الاندلسي في قصد الألفاظ الرائعة ، والقعاقع المهولة وايثار التقعير ، وكان في دولة لمتونة مقدماً في الشعراء حتى نقلت اليهم عنه حماقات ، فهرب الى الأندلس وجرى له بها امورٌ غريبة، وكان حظياً عند عبد المؤمن وابنه يوسف ، ونال في أيامها ثروة .

وقال ابن الأبار : كان عالماً محققاً ، وشاعراً مفلقاً ، تقدم في ذلك أهل زمانه ، ويوقف على جودة شعره من ديوانه ، توفي سنة ٥٧٠ ومولده ببلده سنة ٥٠٠ .

سليمان الموحدي

هو صاحب السيف والقلم ، الأمير ابو الربيع سليمان بن عبدالله بن عبد المؤمن الكومي الموحدي . كان من الكتاب البلغاء والشعراء المجيدين ، وهو أديب بني عبد المؤمن ونابغتهم الفذ ؛ درج في بيت الرياسة والملك ، ولم يمنعه ذلك من الاشتغال بالأدب والاكباب على التحصيل ، فنشأ متأدباً أريحياً يتعشق المجد ، ويصبو الى العلى ، وما لبث أن قُدِّم الى ولاية بجاية من قِبَل ابن عمه الخليفة يعقوب المنصور . ولما ثار بها عليُّ بنُ غانية ، نُقل الى ولاية سجلماسة ، وكان في كلتا ولايته كعبة القصاد من أدباء البلاد ، يأتونه عاقدي الآمال على إلطافه وبرّه ، فيصدرون عنه ، وكلهم السنة مدح وثناء عليه .

وممن تحدث الينا عنه من ادباء الشرق التاج ابن حَمُّويه السرخسي قال : اجتمعت بالسيد أبي الربيع حين قدم الى مراكش بعد وفاة الخليفة يعقوب المنصور لمبايعة ولده محمد الناصر ، وكان في تلك المدة يلي مدينة سجلماسة وأعمالها فرأيته شيخاً بهيّ المنظر ، حسن المَخْبَر ، فصيح اللسان باللغتين العربية والبربرية .

وقال صاحب المغرب في حقه : لم يكن في بني عبد المؤمن مثله في هذا الشأن الذي نحن بصدده وكان قد تقدم على مملكتي سجلماسة وبجاية ، وكان كاتباً شاعراً أديباً ماهراً ، وشعره مدوّن وله ألغاز . له ديوان شعر جمعه كاتبه محمد بن عبد ربه المالقي ، وله أيضاً مختصر الاغاني . وتوفي حوالي سنة ٦٠٠ .

ابو حفص عمر

هو القاضي الأديب، أبو حفص بن عمر بن عبد الله بن محمد بن عبدالله بن عمر السُّلمي من أهل أغمات ، بها ولد وسكن مدينة فاس . روى عن جده لأمه أبي محمد عبدالله ابن علي اللخمي . أجاز له في صغره وعن أبي مروان بن مَسَرّة وأبي عبدالله بن الرمّامة ، وأخذ عن أبي بكر بن طاهر كتابَ سيبويه تفهُّماً . وكان من أهل

المعرفة والفقه ، أديباً شاعراً مجيداً ، غلب عليه الأدب حتى عُرف به وشُهر ، مع جودة الخط وبراعة الأدوات .

وولي قضاء تلمسان وفاس واشبيلية ، وكان في غاية الظرف ، إذا أقبل شُمّت رائحة الطيب منه على بُعد وكان منزله كأنه الجنّة ، مما جعل اعداءه ينالون منه عند السلطان ، ويقولون انه غير حافظ للناموس الشرعي ، بكثرة تغزُّله واشتهار مقطعاته وانهماكه في العشق ، فنقل بسبب ذلك من قضاء فاس الى قضاء اشبيلية ، ولم ينله أدنى مكروه لنعلم بديانته وعفّته . وله في المنصور أمداح رائعة ، وله موشحات مشهورة ، كان يغنى بها في الأقطار ، كما يقول ابن سعيد المغربي ، وشعره كله بديع ، ينمُّ عن رقة طبع وسلامة ذوق ، وإغراق في الحضارة والمتاع . توفي سنة ٦٠٤ باشبيلية .

ابو العبّاس الجراوي

هو ابو العباس احمد بن عبد السلام الجرّاوي من أهل تادلا ، وسكن مدينة مراكش ، الشاعر الخنذيذ الهجّاء المقذع ، من أبرز الشخصيات الأدبية في دولة الموحدين . خدم بشعره الخليفة عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور ، وكان له مع يوسف بالخصوص شأن غير شأنه مع الآخرين ؛ فكان يُعدّ شاعر دولته الخاص ، وكان لا يبرح مجلسه ، ووقعت له معه نوادر غريبة ، تدل على رفيع مكانته منه ، قال ابن خلكان : « وكان هذا الأديب نهايةً في حفظ الأشعار القديمة والمحدثة ، وتقدم في هذا الشأن ، وجالس به عبد المؤمن ، ثم ولده يوسف ، ثم ولده يعقوب ... وكانت له نوادر نادرة مستظرفة عند اهل الأدب . » وكان بَذيّ اللسان فاحش الهجاء ، هجا قومه وبلده ، وكثيراً من الناس فهو حُطيئة عصره غير مدافع ، ثم قال ابن خلكان : « وجمع كتابا يحتوي على فنون الشعر على وضع الحماسة لأبي تمام الطائي وسماه (صفوة الادب وديوان العرب) وهو كثير الوجود بأيدي الناس ، وهو عند أهل المغرب كالحماسة عند اهل المشرق ... وله كل شعر مليح ، وكان شيخاً مسناً جاوز الثمانين سنة ، وتوفي في آخر أيام يعقوب المنصور ، بل بعده سنة ٦٠٩ باشبيلية .

الخطّابي

هو ميمون بن علي بن عبد الخالق الخطابي ، نسبة الى قبيلة من صنهاجة ، من أهل مدينة فاس ، ويعرف بابن خبّازة نسبة الى خاله الشاعر المشهور بابن خبّازة ، قاله ابن القاضي .

هذا كان شاعراً فحلاً نهاية في متانة الشعر وروعته وجماله ، كأنما ينحت الكلام من صخر ، ويفرغه في قالب الإجادة والاحسان ، ثم يخرجه وقد تحوّل الى صور شعرية بليغة النظم والتركيب ، سامية المغازي والمقاصد . وأعانه على ذلك فقهه باللغة وروايته الواسعة للشعر مع تفننه في أساليب البلاغة ، ومعرفته بمآخذ الكلام ، فلا يقرأ القارىء بعض قصائده الطنانة إلا وهو يحسب أنه يقرأ للمتنبي ونظرائه من كبار الشعراء . وقال ابن القاضي : « كان سريع البديهة ناظماً ناثراً ، مع الاجادة والتفنن في أساليب الكلام معرفة وإتقاناً في هزله وجدّه على اختلاف اللغات . » ولا يعرف له ديوان مجموع على كثرة شعره : إما لانه لم يدوّن أشعاره ، وإما لأن يد التلاشي لعبت به كما لعبت بكثير من آثار غيره من الأدباء والعلماء . وعلى كل فليس الشاعر بالديوان ولا بكثرة رواته والناقلين عنه ،وإلا فكم من دواوين مكدسة في زوايا الخزائن ليس لأصحابها عافاهم الله في الشاعرية من حظٍّ ولا نصيب .

وهكذا يقال في كل من مضى ويأتي من الشعراء الكبار الذين لم نذكر أن لهم ديواناً مجموعاً . ولي الخطابي حسبة الطعام بالعاصمة المراكشية . وتوفي بالرباط سنة ٦٣٧ .

ابن عَبْدُون المِكناسي

أبو عبدالله محمد بن عبدون بن قاسم الخزرجي المكناسي ، شاعر مطبوع ، من اكبر أدباء المغرب في هذا العصر .

كان رقيق الحاشية ، شديد التظرّف ، غزلاً رقيقاً بديعاً ، يجيدُ الوصف ، وله

فيه مذهب حسن ، وعلى أسلوبه رونق ، وفي معانيه عذوبة ولطف وخفة ، بل إن جملة شعره وجدان تفيض به روحه ، وينفجر به قلبه ، فلذلك تجده شديد التأثير في النفس ، حسن الموقع منها .

توفي سنة ٣٥٨ على ما عند ابن القاضي ، وفي الذخيرة السنية ما نصه : « وفي سنة ٦٥٩ توفي بمكناسة الفقيه الاستاذ المقرىء الكاتب البارع ، أبو عبدالله محمد ابن عبدون بن قاسم الخزرجي ، أديب وقته ، وشاعر عصره ، في العشر الأول لذي القعدة منها . » وهو غير ابن عبدون الأندلسي ؛ فان ذلك اسمه عبد المجيد .

عصر المرينيين

الوجهة السياسية

دامت دولةُ الموحدين الى آخر أيام الناصر ولدِ المنصور ، وهي مثـــال القوة والعظمة ، وجلالِ الشأن ، ورفعة السلطان ، ثم أخنى عليها الذي أخنى على لُبَد ، وجرت فيها سُنَّة الكون، فتداعت أركانها ، وتقوَّضت دعائمها ، وسرعان ما سقطت من حالق العزّ الى حضيض الهوان .

كان فاتحة ما أصابها من الكوارث ، وقعة العِقاب المشؤومة، التي تألبت عليهـــا فيها دول النصرانية بجذافيرها، ودحرتها اندحاراً شائناً ، بسبب ضعف القيادة وعدم اجتماع كلمة الرؤساء والمحاربين من جرّاء غرور الناصر وخيانة الأندلسيين له . فهو قد اغترّ بكثرة ما حشده من الأجناد ، وجمعه من الأعداد فلم يأبه لمقاتلة الأندلس الذين كانوا أعرف من غيرهم بثغور العدو ، وأبصر بمواطن الضعف من بلاده . وهم حيث لم يستشعر وجودهم ، ولا عرف فضلهم ، عزموا على عدم مناصحته ، وبذْل المعونة له ؛ وهكذا وقعت الكرَّة على المسلمين وبقيت هذه الوقعة عبرةً للمعتبرين .

ثم فشت بعد ذلك جملة امراض في جسم الدولة ، ومات الناصر مكبوتاً مغموماً ، فانتثر بموته عِقْد رجالات الموحدين ، وظهرت خيانة رؤسائهم في إقامـــة ولده المستنصر مقامه ، وكان دون بلوغ ليتمكنوا من الاستبداد به ، والضغط على إرادته ، كذلك ظهرت طماعية الولاة الذين اطلقوا ايديهم في أموال الرعية وأمتعتها ، ونبـغ دعاةُ الفتنة في كل صُقع وقبيل ، وسلك المفسدون الى الشر كلَّ سبيل . أما الأندلس فلا تسل عما نزل بها من الويلات والمحن ، إذ انقسمت على نفسها ، وتغلب الأشقياء فيها على الأطراف ، وانبرى العدو اليها ثانياً يسوم أهلها الخسف والعذاب . وأما إفريقية فقد ابتدأت تستعد للانفصال تحت رئاسة الموحدين الذين كان عبد المؤمن أقطعهم فيها الإقطاعات ، وسوَّغ لهم بها الجبايات فشاءوا الآن أن يجازوه جزاء سِنِمَّار ، بجحد نعمته ، وتفريق وحدة مملكته .

وبالاختصار فقد كثُرت الفتوق في جسم الدولة ، وتعددت الاضطرابات هنـــا

وهناك ، فأعوز رجل حديد الإرادة مثل عبد المؤمن وأين نحن من عبدِ المؤمن وأين عبدُ المؤمن منا ؟ وانت خبيرٌ بمصائر الدول حين تصلُ الى هذا الحد من الاختلال وسوء الادارة ، ولا تجدُ من يأخذ بضبعِها ، ويضطلع بتدبير شؤونها ، فلا أسترسل في الحديث عن ذلك التدهور الفظيع ، والسقوط السريع .

إنما الذي يستوقف النظر ، ويسترعي الفكر ، هو سرعة انقراض هذه الدولة واستيلاء الضعف عليها أعزّ وأقوى ما كانت ، فما هي إلا غدوةٌ الى الأندلس أو روْحة ، حتى قُضيَ كلُّ شيء ، ودخلت دولة الموحدين فجأة في دوْر الاضمحلال والعدم ، فأديل منها بنو مَرين الذين عاجلوها فأجهزوا عليها قبلما تتمكن من رأب صدوعها وعلاج أدوائها .

وفي الواقع إنها لفرصة نادرة اهتبلها هؤلاء البدو النازحون الى المغرب من الصحراء ، قصد الامتيار والتربع بمراعيه الخصبة ، على عادتهم في كل سنة ، حينما تجدب أراضيهم ، وتصوّحُ نباتاتهم . فما ان دخلوا المغرب هذا العام ، حتى وجدوا المعالم قد تبدلت ، والمشاهد قد تغيرت ، وخلت الأوطان من السكان وبقيت الحقول والمسارح هملاً من غير راع ، ولا متعهد، فنمت وربت . وكأنما كانت تعرف ما سيؤول إليه أمر هؤلاء الغرباء ، فأوتهم الى ظلها ، وبسطت لهم أكنافها فنزلوها وتقرّوْها ، وطاب لهم بها المقيل ، فسمع بهم بقيّة إخوانهم ، فنسلوا إليهم من كل حدَب ، وأقاموا معهم مغتبطين بما يصادفونه من الخصب والرّخاء والعيش الرّغد . على هذه الصفة كان دخولهم أولاً الى المغرب ، ولما استقرّ بهم المقام ، ولم يجدُوا من يقف في وجههم ويصدُّ عاديتهم عن البلاد ، شجعوا وأقدموا على شنّ الغارات والإجلاب بخيلهم ورَجلهم على الحواضر والبوادي . ومن هذا الوقت نشأت عندهم فكرة الاستيلاء والتغلب على المغرب ، فاقبلوا يعملون على تنفيذها وتحقيقها . وكذا الحوادث التاريخية الكبرى تبدأ عادية بسيطة ثم لا تزالُ تنمو وتستفحل حتى يعظم قدرُها ويجلّ خطرُها .

ولم تكن هذه القبائل ؛ بنو مرين وزناتة عموماً ، في بلادها فوضى لا نظام لها ولا قانون ، بل كانت خاضعة لأحكام الشرع الشريف في معاملاتها وأحوالها الشخصيّة ، وكانت تقيم على رأسها زعيماً كسائر القبائل ، يسمّى بالأمير تحقيقاً

لاستقلالها الذاتي . وفي حين دخولها للمغرب ، كان هذا الامير هو عبد الحق المريني رأس هذه الدولة ، وأبو الأملاك منها ، وكان رجلاً فاضلاً ديّناً متورعاً ، له نفوذ وجاهٌ في قبائل زناتة كلها ، فظل يجاذب الموحدين حبل الملك زمنـــاً ، ثم قضى وخلفَه أولاده أبو سعيد عثمان وابو معرّف محمد وأبو بكر ، فاستمرّ التنافس بينهم وبين ملوك الموحدين الذين ما كان اكثر عددهم وأقلّ مدتهم على العادة في هذه الفترة التي يعقبها السقوط . ثم لما آذنت شمسهم بالزّوال ، وظلهم بالانقـلاب أوقع بهم بنو مرين في معركة تعرف بيوم المشعلة ، وقعة فاصلة لم يرفعوا بعدها رأساً ولا أبدوا حراكاً ، وجاءت نوبة يعقوب بن عبد الحق رابع الإخوة المذكورين فـلم يكن من الصعب عليه ان يستأصل شأفتهم ويجتثّ جذورهم في سنة ٦٧٤ ، وكذلك خلص له المُلكُ بالمغرب ، فأعلن نفسه سلطاناً وتلقب بالمنصور .

تقلّص ظلُّ الموحدين من المغرب ، واستتبّ الأمر لبني مرين ، فـــلم يبق من ينازعهم في شيء ، لذلك نرى أن مجال العمل المفيد قد أصبح فسيحاً أمام السلطان الجديد،إنما هو لم يترك بعد ميدان الحرب والسياسة فتقدم الى افريقية يريد استلحاقها، كما كانت في أيام الموحدين ، وهيهات ذلك فقد فات الفوت ، ودخلت تلك البلاد في ملك بني عبد الواد ، وبني حفص القائمين بها ، ولم يبق محل للعملية التي أجراها عبد المؤمن لتحقيق الوحدة المغربية ، وضم أطراف البلاد الافريقية ، فتلك قد اكتنفها من الظروف المؤاتية ما لم يكن منه هنا قليل ولا كثير ، لذلك كان الاقدام على الحرب في هذه الحال مجازفة ، قلمـــا تأتي بنتيجة غير الشر المستطير ، فالذي ينبغي عمله حينئذ هو الاتحاد والتعاون على تشييد صروح العدل والنظام وإصلاح أحوال البلاد ، وتبادل المصالح المشتركة .

وأما الحرب وخصوصاً بين شعبين إسلاميين متجاورين ، فانما تسبب من الضرر والبلاء ما يعسر معَ طول المدة تداركه وتلافيه .

غير أنّ اولئك القوم لم يكونوا يحسبون هـــذا الحساب ، ولا يقيمون لهذه الاعتبارات وزناً. فلذلك لا نعجب من تسابقهم الى تحقيق هذه الغاية ، وهي الاستيلاءُ على بلاد إفريقية مهما كلفهم ذلك من الجهد والعناء ، ومهما كان فيه من إزهاق الأرواح البريئة ، وتقاتـل المسلمين بعضهم مع بعض . ثم منهم من كان مرابطاً دائماً على معاقل

تلك البلاد ، لا يرفع عنها الحصار أبداً ، ومنهم من كان عكوفه على الحرب فيها ، سبباً في نبوغ الثوّار عليه ، واختلال شؤون مملكته ، ومع ذلك لم ينقطع طمعهم فيها ، ولم تنثن عزيمتهم عنها حتى جاء أبو الحسن ، فخرُ هذه الدولة وأحد عظماء سلاطين المغرب ، فلم يلبث أن فتحت له أبوابها على المصاريع ، ودخل إليها حتى وصل الى تونس ، وضمّ المغرب كله بعضه الى بعض ، وأخذ في تنظيمه وإصلاحه على طريقة تكفل له النجاح والتقدم . لكن أجلاف العربان من بني سُلَيم ، وبقايا بني هلال إخوتهم[1] الذين كانوا يعيثون في الأرض فساداً ، ويأخذون الاتاوات من الناس ظلماً وعدواناً لما رأوا شدّة شكيمته على أهل البَغي والعناد وجدّه في سدّ أبواب المطامع ، وحسم أصول الفساد ثاروا به وقطعوا عليه خطّ الرّجعة ، فوقع في الشَّرَك وعمِيَ خبرُه على شعبه .

وجاء الطاعون الجارف فأخلى البلاد ، وافنى العباد ، فأرجف الناسُ بموت السلطان ، واختلّت الأمور وكاد اليأس يستولي على النفوس ، فوثب ولدُه ابو عِنان وبايع نفسه ، وانتصب على عرش والده المحصور في تونس . فلما سمع والده بذلك ركب البحر وقفل راجعاً في اسطوله الذي كان يُنيف على الخمسمائة قطعة ، ولكن الحظ السيىء كتب على أسطول المغرب العظيم أن يتحطّم في البحر ، فتضمحلّ حينذاك القوة البحرية لهذا القطر الذي طالما جال بها وصال ، فذهبت مع أمواج الخِضمّ جميع القواد والأبطال ؛ لكن الخسارة كل الخسارة في العلماء الذين كان السلطان لايستغني عنهم ، ويستصحبُهم في حضَرِه وسفَرِه . وقد كان معه منهم في هذه الوجهة جم غفير فذهبوا ضحيّةَ سياسته الهوجاء ، وهو نفسه إنما نجا على لوح من ألواح بعض السُّفُن المتكسّرة ، بقي يتخبّط فوقه حتى رماه الموج في أحد شواطىء مملكته ، وكانت هذه النكبة مما ينقطع لها نياط القلب ، ولا يرقأ لها دمع العين .

ولما رجع أبو الحسن ، كان ولده قد ثبَتَ مركزُه ، وأمِرَ أمْرُه فلم يشأ ان يتنزّل له عن العرش فتقاتلا ، وإنه لمن المؤسف ان يقع هذا بين الولد والوالد ، وثبت على عهد الوالد رجالٌ من صحّت نِيّاتهُم ، وخلصت ضمائرُهم ؛ لكن الوالد المسكين

---

[1] – كان المنصور الموحدي نقل عرب بني هلال من افريقية الى المغرب واوطنهم فيه ، وقد بقيت منهم هنالك بقايا هم الذين عاودوا سيرتهم الأولى مع إخوتهم بني سُليم .

كانت أيامه في انصراف، فلم ينشَب ان تُوُفـيَ رحمه الله. وقد كان بنى فأحسن البناء، إنما لم يُتمّ الله مراده، وقام الولد الشاب وتتبّع خطوات أبيه، فتمسَّك بفتوحاته في تلك البلاد، ونظر في أحوالها بعين الحكمة والسداد، لكن ما لبث الأمر بعده ان رجع الى مبدإه، وعاد لتونس استقلالها وللجزائر سلطتها وبقي المغرب قائماً بنفسه في أُخرَيات ايام هذه الدولة .

هذه كانت سياسة المرينيين في إفريقية، وهي كما رأيتَها لا تدل على مهارة وحسن تدبير، بل غاية ما فيها، وتسبَّب عنها فعلاً تفريق كلمة المسلمين الموحَّدة، وبذرُ العداوة بين قلوبهم النقيَّة، زيادة على إضعاف قوتهم المادية والمعنوية، ممـا يسهّل طريق استيلاء العدو عليهم وتمكـُّنه منهم.

ونحن إذا وقفنا محقـّين بجانب يوسف بن تاشفين، ودافعنا عن سياسته الناجحة في ضم الأندلس الى المغرب، ورمينا في وجوه خصومه بكل ما تقوّلوه عليه، لا يمكننا هنا أن نقف مُبطلين بجانب المرينيين وندافع عنهم ونعتذر لهم، لأنه شتَّان بين عمل يوسف، وعمل المرينيين، ولئن جنى المغرب، وجنت الأندلس من حركة يوسف ما جنَياه من الثمار الصالحة، والنتائج الحسنة، فلم يجنِ المغربُ ولا افريقية من سياسة المرينيين فيها إلا الخسائر المتوالية في المال والرجال . وبالتالي تضعضُعَ المركز الدولي الذي كان لها في العالم وهذا أمر ليس من صالح كلا الطرفين في شيء، بل ليس من صالح الشرق ولا الاسلام ولا العرب . على أن العقل لا يجوّزُ بسرعة إمكان تغلب الدولة المرينية على هؤلاء، وهم مثلهـا دولة ناشئة شديدة الشكيمة، قويَّة المراس، فلم يبقَ الا انهم أخطأوا سبيل المصلحة وهو الاتحاد معهم على ردِّ عادية العدو بالبلاد الأندلسية، حتى، لا يزيدَ طغيانه على أهلها، ويعلم أن من وراء اتحاد ملوك النصرانية اتحادَ ملوك الاسلام، فيقلـّلَ من غُـلوائه، ولا يشتطَّ في عدوانه ولو كتب ذلك لكان المسلمون متوطـِّنين باندلسهم الى الآن، لا ينغـّص عيشَهم فيها شيء .

ثم بعد ان تبينا هذه الناحية من سياسة بني مرين، نصرف النظر الى ناحية اخرى من سياستهم، وهي موقفهم بازاء الاندلس، فمنها يظهر لك مزيد اعتنائهم بافريقية، بل ربما يلتَبسُ عليك الأمر في التوفيق بين سياستهم الأولى في افريقية، سياسةِ الفتح والغزو، وسيرتهم الثانية في الأندلس المباينةِ لتلك تمـام المباينة، وذلك أنهم في

الاندلس كانوا قد اتخذوا رُبُطاً وجنوداً لمناوشة الأسبان في القتال ، ودفاعهم عن بلاد المسلمين . وكان أول جيش ذهب منهم إليها ، في أيام يعقوب المتقدم الذكر ، وهو نفسه جاز إلى الأندلس أربع مرات . لا تسأل عن أعماله الحربية فيها ، ومواقفه المشرّفة ؛ فكانوا يستولون فيها على الحصون والمدن العديدة ، لكنهم لم يكونوا يتمسّكون بها أبداً ، انما كانوا يزفّونها هديّةً الى أمراء بني نصر، أصحاب الأندلس .

وانك لتعجب من هذه السماحة ، وهذا الإيثار ، مما لا علّة له إلا حُسْنُ نياتهم في الجهاد فقط ، كما كانوا يصرّحون هم أنفسهم بذلك . ولا تقل ان ذلك نتيجةُ العجز ، وعدم القدرة على اقتحام الأندلس وضمها الى المغرب ، فان من يجرُؤُ على حرب دولتين َفتيّتين من الدول المغربية الصميمة بافريقية ، لا يتهيّبُ حرب بني الأحمر ؛ خصوصاً وقد كانوا في حرب مع المخالفين عليهم من بني جِلدَتِهم ، أو مع الأسبانيين ، ولا تقل أيضاً أن البحر كان هو الحاجز بينهما والمانع من تنفيذ هذه الفكرة، ولو طافت برؤوس السلاطين من بني مرين، لأنا نعلم أن أُسطولَ المغرب في ذلك الحين كان من الأساطيل التي تُضرَبُ بها الأمثال، وقد ذكرنا ان جملة قِطَعِه التي كانت مع أبي الحسن في وقعة افريقية خمسمائة قِطْعة ؛ فلا يجوز أن يُقال إن البحر هو الذي كان حائلاً عن إقدامهم على شنّ الغارة على الجزيرة الأندلسية وانتزاعها من أيدي مالكيها، والمتصرفين فيها . واذا لم يكن هذا ولا ذاك هو السبب الحقيقي في انصرافهم عنها الى افريقية ، فليكن هذا السبب الذي نذكره ، وهو الذي تُؤيّده وقائع الأحوال وشواهد العِيان ، فالمرينيون خلَفُ الموحدين كانوا يعرفون ما نزل بسلفِهم من الضعف والانحلال بسبب ذلك القطر الاندلسي ، ومحافظتهم عليه ، ولئن قيل إنه كان سببَ عزهم ومجدهم فقد يُقال أيضاً انه كان سبب تعْسهم ونحسهم، فمن المحقّق انه لولا واقعة العقاب لم يتمكن للمرينيين ان يستولوا على المغرب ، ويُقلّصوا ظلّ نفوذ الموحدين عنه . فهذه العِبرَةُ التاريخيّة هي التي كانت تثنيهم عن المغامرة في أخذ الأندلس وانتزاعها من أيدي بني نصر ، ولو فعلوا لنجحوا في ذلك من أول وهلة ؛ لكنهم كانوا ينظرون الى العاقبة فيتخوّفون منها . ولنفرض أنهم أخذوها ، أليس ما يلزمها من التحصين الدائم ، والدفاع المستمر مُنْهِكاً لقواهم ، كاسراً لشوكتهم يوماً ما ، كما سبق ففعل بالمرابطين وبني مؤمن ؟ نعم . فنظرهم هذا سديد ، وأسدّ منه نظرهم الى توحيد افريقية ، لو كان ممكناً إذ ذاك . ولذلك فقد انصرفوا عن الأندلس انصرافَ المختار

لا اليائس،ثم أقبلوا على افريقية فلم يُغنِ حذَرٌ من قدر، وكانت هي السبب في ضعفهم وانحلال قوتهم ، كما لو ذهبوا الى الأندلس فيما كانوا يُقدّرون . وقولنا انهم انصرفوا عن الأندلس ليس على إطلاقه فقد قدّمنا انهم كانوا يُقيمون فيها الرُّبط والمقاتلين ، بل لقد كان ملوكهم كثيراً ما يعبُرون إليها فيُقيمون فريضة الجهاد خالصةً نياتُهم في ذلك، نقيّةً ضمائرهم. ولقد قاموا باكثر مما يجب عليهم من ذلك، ولاَقوْا من العدوّ الذي كان يُراوِغهم ، ويعبث بالعهود التي يعقدونها معه، أذىً كثيراً ، وكان يتعرض لسَخَطهم فيُنزِلون به أشدَّ أنواع النّقمَة ،وأقسى ألوان العقاب وهم في ذلك محقون ومنصفون ؛ وكلٌ من عَلِم بُعد الشُّقة ، وتحقّقَ صعوبة ركوب ثَبَجِ البحر في ذلك العصر لأنقاذ المستصرخين ، وحماية الضَّعَفَة من أهل الأندلس ، عذرَ هؤلاء المغيرين إذا أتوا حَنِقينَ غُضابى ؛ فاقتصُّوا منه على قدْر فعله ، وجازَوْه بما يستحق ، فانه كان يتركهم حتى يعودوا إلى مواطنهم بعد أن يكونوا عقدوا معه الُهدنة التي يكون هو الطالب لهـا ، فينقضُ على جوارِه من المسلمين، ويفعل فيهم الأفاعيل، فما إن يصِلُ الصريخ الى فاس وتأتي النجدة حتى ينفُذ الوعيد ويسبق السيفُ العذَل. وهكذا كان احترام الأوربيين للعهود الدّوليّة في القرون الوسطى ـ ولا يزال ـ مُعلّقاً بمصالحهم الآنيّة وبما تمليـه إمكانيّاتُهم وظروفهم الحربية فقط لا غير .

ولكن دعنا من هذا ، ولننظر في موقف ملوك بني نصر الأندلسيين بإزاء الدولة المرينية لنتعرّف بعد ذلك على من تقعُ مسؤولية ضياع الأندلس ، فقد رأينا من قبل موقفَ الأندلسيين المرذول ، موقف الفضيحة والعار ، والخيانة والِخذلان ، في وقعة العقاب المشؤومه، حتى تسبّبوا في تصدُّع اركان تلك الدولة الشامخة وأدخلوا الضعف على الأمة المغربية التي لم تكن تعرُفه من قبل . وفي أيام المرينيين، نجدُ أنَّ هؤلاء الذين سمّوا أنفسهم ملوكاً ، بينما يستنجدون بأسود العَرين من بني مَرين ، فيخفُّ هؤلاء لمساعدتهم وإنقاذهم بدافع الرّغبَة في الجهاد والذبّ عن بيْضة الإسلام ، إذ يتحالفون مع الاعداء عليهم؛فلا يكاد جنود المغرب يركبون البحر،حتى يجدوا العدوّ في أسلاب أولئك المستصرخين كامناً لهم ، معترضاً كالشجى في حلق الزُّقاق،فتنشَبُ الحربُ، ويشتد ضِرامها.فأما حين يُكتب النصر للمسلمين وهو الغالب،فان الناكثين يعتذرون ويقدمون أنفسهم للخدمة ، ولا يعدَمون من وسائل النفاق، وأساليب الِخداع ، ما يسترضون به السلطان؛واما في حال غَلبَة العدوّ، فإنهم يُولـّونه أيضاً الأدبار خشية تقوّيه

عليهم فيرجعون لبني مرين أيضاً،لأنهم ليس لهم عضُدٌ ولا ناصر غيرهم. ولقد حدث مرة أن أرسل السلطان رأس أحد القواد الأسبان ممن أوقع بالمسلمين وقائعَ فظيعة، أرسله الى مَلِك بني نصر ليُظهره الى المسلمين فيحمَدون الله الذي أمكن من عدوهم اللدود. لكنَّ ملك بني نصر طيّبه وجعله في صندوق مُحَلّى وأرسل به الى ملك الأسبان يتملّقُه، فانظر الى التخاذل كيف يكون، والى السقوط من حالق العزّ الى حضيض الهون ... ولا يظن القارىء أنهم كانوا يخافون منهم على بلادهم، فقد قدّمنا أن فكرة الاستيلاء على الأندلس لم تدر قط بخَلد ملوك المرينيين، والا فهم لو أرادوها لم تُعْجزهم بحال، وقد قدّمنا أنهم لما كانوا يستولون على حِصْن أو بلد، سَرْعانَ ما يُسلمونه اليهم قاصدين بذلك إزالة النُّفرة من أنفسهم، وتقويةَ الروابط معهم، ولم يكونوا يُبْقون بأيديهم إلا جبَلَ طارق والجزيرة الخضراء، وجزيرة طَريف، وهذه إنما يبقونها لربط خيط المواصلة بين العُدوتين، وإنزال المقاتلة وادّخار المؤونة مما مصلحته عائدة على الأندلس، لكن أولئك القوم لم يكونوا يراعون هذا الجميل، وإنما ينظرونه بعين عوراء وأخرى مغمّضة.

وماذا حدث بعد ذلك؟ حدث ان الدولة المغربية لم تبقَ على شيء من القوة بسبب ما استنفدت من مجهودها هذه الحروب الطاحنة، ثم قامت قيامةُ بني مرين؛ بالتهالك على السلطة، وتنازع الإمارة فانتهى الأمر بسقوطهم، وانتصاب دولة بني وطاس، وهم فرعٌ من بني مرين؛ إلا انهم ليس فيهم غَناؤهم فضعفت الأمة ومرج أمرُها، واشتغلت بمشاكلها الداخلية،وحروبها الأهلية. فكأنما بُدّلت الأرضُ غيرَ الأرض، والناسُ غيرَ الناس. وفي هذه الأثناء كانت النداءاتُ على العادة تتوالى من أهل الأندلس على المغرب وهو لا يستجيبُ لنداء، لانه كما علمت منتحرٌ مضرَّجٌ بالدماء، نعم كان يتسرَّبُ إليهم آونة بعد أُخرى، فوجٌ من مُتطوّعة المقاتلين ومتحمسة المجاهدين؛ ولكن كان جهده أن يُبلغ الأخبار، ويبسط الأعذار، والعدوُّ إذ ذاك لامٌّ شعثه، آخذٌ أُهبته قويٌّ متّحد، مُنيخٌ بكلكله على المسلمين، يُذيقُهم العذاب المهين، حتى حصلت الكارثة، ونفذ سهم القضاء ولا حول ولا قوة الا بالله.

قلنا إنّه لما سقطت دولةُ المرينيين خلفتها دولة الوَطّاسيّين، إلا أن هذه لم يصحبها توفيقٌ فكانت ذنَباً طويلاً للدولة المرينية، يجري عليها ما يجري على أعقاب الدول، من مُصاحَبة الفشل، ومُعاناة العِثار، وقد بقيت كذلك حتى أخلت المكان للدولة السعدية التي سنتكلم عليها بعد هذه.

في دائرة العروبة والإسلام الصحيح

يقول كثير من المؤرخين ونسّابة المغرب : إن بني مرين فخذٌ من زناتة ، يمتّون في عداد قبيلتهم هذه الى قيس عيلان ، فهم عربٌ خلّص ، لا شك في ذلك ، وقال شاعرهم عبد العزيز المَلْزوزي في نظم السلوك :

فجاوَرتْ زِناتةُ البرابِرا ... فصيَّروا كلامَهم كما ترى
ما بدَّل الدهرُ سوى أقوالِهم ... ولم يُبدِّلْ مُنتهَى أحوالِهم
بل فعلهم أرْبى على فعل العرب ... في الحال والإيثار ثم في الأَدب
فانظُرْ كلامَ العرب قد تبدَّلا ... وحالَهم عن حاله تحوَّلا
لا يعرِفون اليومَ ما الكلامُ ... وما لهم نُطقٌ ولا إفهام
وان تمادَتْ بهم الأَحوالُ ... لم تَبْقَ في الدهر لهم أقوال
كذاك كانت قبلَهم مَرينُ ... كلامُهم كالدرِّ إذ يَبين
فاتّخذوا سواهمُ خليلا ... فبدَّلوا كلامهم تبديلا

وهذا ظاهر على القول بعُروبة البربر ، والخلاف في ذلك شهير ، فلا نطيل به هنا. وسواء صح ذلك أم لم يصح ، فالواقع أن بني مرين كانوا يعملون للنهضة والتجدُّد في دائرة العروبة ، لا يخرجون عنها اصلاً ، فخدموا العربية خدمةً صادقة ، ورفعوا لها مناراً عالياً ، وكفى أنّنا لم نعد نسمع بعد توليتهم الحكم بشيء من التمييز الذي كان للبربر في دولة بني مؤمن ؛ بل كان هذا آخرَ العهد بحياة الفُرقة والعُنصُريّة المقيتة . فعلا شِعارُ العروبة كلَّ الشعارات ، وضمت الضاد جميع المغاربة في شتى المصالح

والمرافق ، الأمر الذي كان يجب أن يتمّ منذ جلوس أول عربي صميم تولّد من بربريّةٍ صميمةٍ على عرش المغرب ، وهو ادريس الثاني بن كنزة بنت إسحاق بن عبد الحميد الأوْربي ، بل منذ أن قاد طارق بن زياد وهو البربري الصريح جيش المغرب الذي فتح الأندلس ؛ فركّز فيها راية العروبة فلم تزل فيها عاليةً خفاقةً الى آخر العهد بها .

وهكذا أيضاً كان عمل المرينيين في الناحية الدينية سليماً من أيّ نزعة ، خالصاً من كل بدعة . فاذا كان المذهب الأشعري في العقائد قد تقرر في العصر السابق، وصار هو الغالبَ على اكثرية المغاربة ، فقد علمت انه تقرر بعيداً عن تأثير الدولة ، وخالياً مما كانت تضيفه اليه من آراءَ شاذة مأخوذةٍ عن المعتزلة وغُلاة الشيعة. على انه قد عمّ العالم الاسلامي ، وأصبح هو والمذهب الماتُريدي[1] المذهبَيْن العَقَديَيْن الرّسميَّين السائدين في سائر مملكة الاسلام . وفي الفقه ساد المذهب المالكي نهائياً لكفاح اتباعه المستميت في العصر السابق ، ولمناصرة الدولة الجديدة له. على ان الحرية المذهبيّة لم تقيّد قطٌّ في المغرب . فبقي أفرادٌ عديدون في هذا العصر وفي العصور التي بعده يميلون الى المذهب السّلَفي في العقائد ، وآخرون يأخذون بمذهب أهل الحديث في أحكام العبادات . أما الذين يُدرّسون الحديث على انه مادّة الفقه وأصله المتفرّع عنه فكثيرون. وفي بعض الأحيان كانت الدولة نفسُها تناصر المذهب السلفي، وتشجّع العلماء على النظر والاجتهاد ، كما حصل في أيام السلطان سيدي محمد بن عبدالله في العصر العلوي . وعلى كل حال فان مذهب أهل السنة سواء في الاعتقاد أو الفقه قد توّطد منذ هذا العصر في المغرب . ولم يقُم بعد الموحدين دولةٌ تَنزعُ نزعة مخالفة لِما عليه الجمهور وسواد المسلمين . ولقد أعاد السلاطين من بني مرين الى اذهان الناس ما كان من أُبَّهَـة الخلافة الأموية بالأندلس في قصورهم ومصانعهم ورؤسائهم وجنودهم ؛ فكان خروج السلطان لصلاة الجمعة والعيدَيْن ، وللمناسبات الأخرى يقع في مشْهد عظيم ، وموكب فخيم . وكانت هذه المظاهر الشائقة كثيراً ما تُغري كبار الذوات العلمية والأدبية في الأندلس والمغرَبْين الأدنى والأوسط ، فيفارقون بلادهم غير آسفين عليها ، ويؤمّوْن الحضرة الفاسيّة حيثُ يتمتعون في كنَف الدولة المرينية بأسنى مـا كان يتمتّع به رجالات الدول السالفة كالعباسيين والأمويين مما سمعوا به ولم يرَوْه .

---

١ — نسبة الى مؤسسه ابي منصور الماتريدي امام أهل السنة فيما وراء النهر ، والماتريدية اولأشعرية متفقون في اصول العقائد وليس بينهما خلاف إلا في أمور ثانوية .

وكفى بابن خلدون وابن الخطيب وابن الأحمر وابن رضوان وابن مرزوق وابن جزَيّ والمقّري وكثيرين غيرهم من العظماء الذين تفيئوا ظلّ هذه الحضرة المرينية ، وتقلّبوا في نعمتها لما إنها كانت في عصرها حاميةَ بيضة الاسلام ، وموئلَ العروبة ، دليلاً على ما نقول .

ولقد سار أولئك السلاطين في أقامة مراسم الخلافة على سَنَنٍ لاحِبٍ فكانوا يعقدون المجالس للمناظرة والمحاضرة ، ويطارحون الأدباء ، ويحاورون الشعراء . أما العلماء فلا تسل عن شدّة تقريبهم لهم واختصاصهم بهم حتى ان جمهوراً منهم ذهب ضحيّةَ هذا التقريب والاختصاص في وِجْهة أبي الحسن الإفريقية كما سبق القول. وقد قيل إن عدد من غرق من العلماء في أسطول هذا السلطان اربعمائة عالم ، فما بالك بمن لم يركب الأسطول ونجا ؟ فما ظنك بمن لم يصحَبْه في تلك الوِجهة ؟ وهذا يعني أن العلماء كانوا مُتوافِرين بحيث بلغ عدد الذين يصحبون السلطان — ولا يكونون عادةً إلا من جهابذة أهل العلم — ذلك الرقم المرتفع جداً . وهذا يعني أن الدولة كانت في خدمة العلم ، بحيث انصرفت الهمَمُ الى طلبه ، واشتدّ التنافس في تحصيله ، فكثر العلماء نتيجةً لذلك ، وفعلاً فان ما عمله المرينيُّون في هذا الصدد يجعلهم حَريّين بلقب دولة العلم الذي يُطْلِقُه عليهم بعض المؤرّخين ، ولقد بذُّوا بمآثرهم العلمية جميع من تقدّم أو تأخر من ملوك المغرب . فمدارسهم الفنية العديدة لم يستطع أحدٌ أن يأتي بمثلها الى الآن . وخزائنُ الكتب كذلك لا تزال تنطق بفضلهم على الحركة العلمية في هذه البلاد منذ أسّسوها ، ولا سيما خزانةُ القرويّين التي أنشأها السلطان أبو عنان وأودعها كما يقول الجزنّائي في زهرة الآس « الكثير من الكتب المحتوية على أنواع من علوم الأبدان والأديان ، واللسان والأذهان ، وغير ذلك من العلوم على اختلافها ، وتنوُّع ضروبها وأجناسها ، ووقفها ابتغاءَ الزُلفى ورجاء ثواب الله الأوفى ، وعيَّن لها قيِّماً لضبطها ومناولة ما فيها ، وتوصيلها لمن له رغبة. وأجرى له على ذلك جرايةً مؤبَّدة تكرمةً وعنايةً وذلك في جمادى الأولى سنة ٧٥٠ . » وأسّس أبو عنان كذلك بالقرويين خزانة مصاحف ، احتفل في بنائها وتشييدها بما لم يُسبق اليه ، وأعدّ فيها جملةً كبيرةً من المصاحف الحسنة الخطوط ، وكلّف بها من يتولى أمرها على أحسن الشروط . وقبل أبي عنان عقد السلطان يعقوب المنصور صلحاً مشروطاً مع (شانجُه) ملك اسبانيا ، كان مما شرطه عليه فيه ان

يُوجّه اليه كتب العلم التي بقيت ببلاده للمسلمين ؛ فوجّه اليه منها ثلاثة عشر حِملاً فيها كثيرٌ من المصاحف وكتب التفسير والحديث والفقه واللغة ، فأرسلها المنصور الى فاس وحبَّسها على طلبة العلم . ولقد جاوزت عنايتهم بهذا الشأن بلادَ المغرب الى الخارج . فهذا السلطان أبو الحسن يوقف على المساجد الثلاثة المقدّسة ثلاثة مصاحف كتبها بخطّه ،وجمع لها القراء والخطّاطين والنقاشين ، وأخرجها في حُلّةٍ فريدة من الفن المغربي البديع ، وأرسلها وقفاً كما قلنا الى مسجد مكة ، ومسجد المدينة ، وبيت المقدِس ، وأوقف عليها من الضياع والرِّباع ما يقوم بكفاية القائمين عليها والقارئين فيها . وكانت المساجد والمشاهد والمُنشآت التي خدموا بها الدين كثيرة ايضاً ، ناهيك بأن أبا عنان منهم هو أول من نصب صواريَ الصوامع ، ونشر فيها الأعلام[1] في أوقات الصلاة نهاراً والسُّرُجَ ليلاً ، يستدِلُّ بذلك من بَعُد ومن لم يسمع النداء وجعل علم يوم الجمعة أزرق للاستذكار . وفي ذلك اعتناء بأمور الأوقات ، وما يتعلق بها من وجوب الصلوات وما يترتّبُ عليها من وجوه الحقوق في العادات والعبادات وفيه قيل :

نورٌ به عَلمُ الإيمان مرتفعٌ   للمُهتَدين به للحق إرشاد

يأتونَ من كل صَوْبٍ نحوه فلهم   لَديه للرُّشد إصدارٌ وإيراد

وفي الحقيقة إن كل واحد منهم كان مثالا للملك العربي المسلم العامل لعزّ قومه ودينه ، فلا يفتأ يجدُّ ويجتهد في إشادة مجدهما وتخليد مآثرهما ، وبقدْر حرصهم على الوحدة المغربية الذي قدّمنا الكلام عنه وقلنا إنهم أخطأوا الطريق إليه ، كان حرصهم على الوحدة الإسلامية عموماً ، فأنت قد رأيت مقدار تفانيهم في الدفاع عن معقل المدنيّة الإسلامية ، والحضارة العربيّة في بلاد الأندلس ، ومبلغ نُصْحِهم لملوكها ، حتى إنهم كانوا معهم مثل الأَجراء يعملون لهم ، لكن بدون أجرة ، بل هم كانوا يدفعون اليهم المبالغ الطائلة من الأموال والسلاح والعتاد . كذلك كانوا على اتصال دائم بملوك الاسلام في مصر والشرق ؛ فكم كاتبوهم وهادَوْهم وعقدوا

[1] — ولا نظير لذلك إلا في بعض بلاد الشام خاصاً بالظهر والعصر والمغرب التي يفيد فيها نشر العلم .

أواصر المودّة والائتلاف معهم ، وأوفدوا اليهم الوفود والسفراء من خيرة رجال المغرب الاداريين ، وذوي العلم والأدب وأهل البيت المالك ، كلّ ذلك يدلنا على ما كان لهم من صدق النيّة ، وإخـــلاص الطوية ، في خدمة الدين والوطن ، وتعزيز الروابط الجنسيّة والملية بينهم وبين الدول العربية والاسلامية المعاصرة .

فلا جرم بعد هذا ان نقول إن كل أعمالهم ومآتيهم للنهضة والتجدُّد ، كانت في دائرة العروبة والاسلام الصحيح ، لا تزيغ عنها قيد فتر ، وإنهم خدموا العربية والدين خدمة صادقة ، ورفعوا لهما منارا عاليا ، وما بعد العيان بيان .

الحركة العلمية

إن تأثير الانقلاب المريني على الحالة الفكرية ، لم يكن ذلك التأثير القوي الذي تتبدل معه معالم الأمور وتتغير مجاري الأحوال ؛ لذلك فان الحركة العلمية قد بقيت في نشاطها وتقدمها ، كما كانت على عهــد الموحدين . وإن كان قد اعتراها في فترة الانقلاب بطبيعة الحال شبه انقطاع أو فتور ، فانها بعد ان انتصبت الدولة المرينيــة وتشيدت أركانها قد عادت فاسترجعت ما كان لها قبلُ من القوة والظهور .

نعم لقد استأنفت الحركة العلمية سيرها الى الأمام في ظل الدولة المرينيــة التي ما فتئت ترعاها وتُشجّعُها بمدّ يد الإعانة الى رجالها وتنشيطهم حتى ينصرفوا لخدمتها ، بل إنّ رجال الدولة أنفسهم كانوا يُقدّمون لها أجلّ الخدمات مما لا يقوم به إلا أجلُّ العلماء . إذ كان الواحد منهم يُكبُّ في نشأته على الدراسة والتحصيل ولا يمنعه ما هو مأخوذٌ به من قيود الملك وأدوات الرياسة ، أن يدأب على النظر في فنون العــلم والمعرفة ، حتى يصيرَ من رجالها المعدودين . فقد كان السلطان أبو سعيد عثمان بن يعقوب المنصور من أهل العلم ، وكان أخوه الأمير أبو مالك ممن لهم اليد الطولى في الأدب ، وعارضةٌ قوية في قرْض الشعر ، وكان السلطان أبو الحسن بن أبي سعيد من كبار العلماء . ففي حياة والده كان معدوداً في أطباء الخاصّ ، وفي مدة تولّيه الحكم اكثرَ من مجالسة العلماء والأدباء ، ومذاكرتهم ومحادثتهم ، وكان شديد الإلفِ لهم ، لا يصبرُ على مفارقتهم ، وكلُّ جنسٍ لجنسه إلف . وكذلك أخوه الأمير أبو علي كان محباً للعلم ، مولعاً بأهله ، منتحلاً لفنونه ، وله بصرٌ بالبلاغة واللسان ومَلَكةٌ في نظم الشعر ، وهو الذي تنافس مع أخيه أبي الحسن على الكاتب عبدِ المهيمن الحَضرمي في حياة والدهما حتى كادا يقتتلان عليه فألحقه والدهما بمعيّتِه . وكان السلطان أبو عنان ابن أبي الحسن فقيهاً يُناظِرُ العلماء الجِلّةَ ، عارفاً بالمنطق وأصول الدين ، وله حظٌّ صالح من علمي العربية والحساب ، وكان حافظاً للقرآن عارفاً بناسخه ومنسوخه ، حافظاً للحديث عارفاً برجاله ، فصيح القلم ، كاتباً بليغاً ، حسن التوقيع ، شاعراً مُجيداً . له مُقطّعات شِعْريّة حسنة تورّد في محلها . ومثل ذلك يقال في السلطان أبي العباس

أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن وولده أبي فارس عبد العزيز . فلا غرو أن تنشَطَ الحركة العلمية في هذا العصر ، وهي تحظى برعاية ملوك من هذا القبيل ، يُمثّلون النشاط الفكري في جميع ميادينه . ولنفصّل الكلام في كل بابٍ بابٍ ، كما فعلنا في عصر الموحدين .

ولعل القارىء لا يزال يذكر أننا قسّمنا العلوم هناك الى ثلاثة أقسام ، فالعلوم الشرعية تليها العلوم الأدبية ثم العلوم الكونية : أما العلوم الشرعية ، وهي الفقه والحديث والتفسير وتوابعها فقد نُحِيَ فيها منحى التبسُّط والتفريع . وإن يكن شيء من ذلك قد وقع في العصر قبله ؛ إلا أنه في هذا العصر قد زاد الأمر زيادة ظاهرة ، وبلغ التوسع في ذلك منتهاه . يدلنا على ذلك كثرة الفقهاء الذين نبغوا في هذا العصر ، والتآليف العظيمة التي وُضعت في فروع الفقه . ونحسب أن ذلك كان نتيجة الضغط على رجال هذه العلوم في عصر الموحدين والتحرُّش بهم وإن الضغط يعقُبُه الانفجار كما تعلم ؛ فكان هذا هو ردُّ الفعل على تلك الحركة الاستفزازيّة المنافية لاستقلال الناس في أذواقهم ومشاربهم ، وحُرّيّتهم في أعمالهم ومآتيهم . وإذا صحّ اعتبار هذا السبب هو الباعث على نشاط هذه العلوم من جديد ورواجها هذا الرّواج كله ؛ فلا يصِحُّ اعتباره سبب ما طرأ عليها من التضخُّم والنماء ، إلا من طريق غير مباشِر ، وهو ما أشرنا اليه من كثرة المشتغلين بها ، فكثر البحث والتعمُّقُ في البحث ، فكثر الاستنباط والتفريع في الاستنباط ، فكثُرَتْ مسائل هذه العلوم كثرة لا مزيد عليها . أضف الى ذلك أن الطلبة في هذا العصر ، كانوا لا يستنكفون من الطلب ولو بعد بلوغ المرتبة العليا في التحصيل . فقد كانت هناك طبقةٌ منهم لا يمكن أن يقاس بها أكابر علمائنا الآن ، لا تفترُ عن الطلب ، وهي بعد من كبار العلماء . واعتبر بما حُكِيَ عن الكانوني ، وكان من أئمة الفقه ، الذين لا يُشقُّ لهم غبار ، أنه كان يدرّس المدوّنة بالقرويّين ، ويأتي عليها بابحاثٍ وتعاليقَ وشروحٍ مستجادة ، فكان يجلس اليه أكثر من مائة معمّم ، وهم حُفاظ المدونة إذ ذاك . وهذا حافزٌ قويّ لما ذكرنا كان من نتيجته أن اتّسعَت دائرة هذه العلوم اتساعاً عظيماً .

ودون هذه العوامل المختلفة ، التي أدّت الى نشاط علم الفروع ، ذلك النشاط العظيم ، فان هناك عاملاً آخر لا يقلُّ عنها شأناً في هذا الصدد ، وهو ما كان لطلبة

العلم المذكور في هذا العصر من سموّ المنزلة عند الخاصة والعامة ، بسبب وقوفهم مع الحق ، وسيرهم على الجادّة ؛ فكان أن عظمت سلطتهم على النفوس وقوي نفوذهم في رجال الدولة . فالفتوى والقضاء ، ومناصب الشرع كلها كانت مستقلة عن التدخل الحكومي أو التعرّض لها من الرؤساء ، وكلمة القاضي كانت نافذةً في أكبر كبير ، كأصغر صغير . وحسبُك أنه لما وقع الشجار بين القاضي أبي الحسن الصُّغَيِّر ، والوزير ابن يعقوب الوَطّاسي ، بسبب تعقّب هذا الأخير لحُكم القاضي ، لم يكن من السلطان إلا أن سخِط على وزيره وعزله شرَّ عزل .

وهذه المكانة التي كانت لرجال الدين عند الشعب ، هي التي جعلت العلاّمة عبد العزيز الورياغلي يثور بآخر سلاطين بني مرين ، ويقلِبُ الدولة المرينيّة رأساً على عقب ، لما سوّل للسلطان أن يوَلّي على فاس رجلاً يهودياً يسوم أهلها سوء العذاب . أرأَيت الى أي حدٍّ بلغ نفوذ الفقهاء في الأمة ، فلِمَ لا ينصرفون لخدمة علمهم الذي به رقوا هذه الدرجة من المحبوبيّة .

ونقول إن هذه النهضة المباركة التي نهضها علم الفروع بسبب الإقبال الشديد على طلبه ، قد أفادت العلم من حيث هو ، وأفادت الأسلوب العلمي اكثر ، حيث قد أدخلت عليه تحسيناً مشهوداً في آثار علماء هذا العصر الممتازة بكثرة الجمع والتحصيل ، وحسن التصرف والتعليل ، وفي دروسهم التي كانت كأنها بحارٌ تزخَرُ بالفوائد ، وترمي بالفرائد ، فهذا أبو محمد عبدالله الورياجلي أحد صدور الفقهاء ، وممن كانت اليه الرّحلةُ في عصره لأنه كاد يتفرد بمرتبة الاجتهاد ، وكان يعرف المذاهب الأربعة معرفة جيدة ، فكان يُدرّسُها ويُرَجّحُ مذهب مالك ، وكانوا يقيسونه في علمه بالمازَري ولا يعدون به طبقته ، وأجوبته تدل على غزارة معرفته اذ لا يذكر فيها إلا الخلاف العالي . قالوا : وكان من عادته أنه يشتغل بالتدريس في فصل الشتاء والربيع ؛ وفي المصيف والخريف يرابط بالثغور . وهذا ابن الصبّاغ أملى على حديث « يا أبا عُمَير ، ما فعل النُّغَير » أربعمائة فائدة كلها مما استخرجه بفكره الثاقب من هذا الحديث الشريف .

والغاية في هذا الباب ما روي عن أبي القاسم عبد العزيز بن أبي عمران موسى العبدوسي أحد أفراد بيت العبدوسي الذين ظلوا رجالاً ونساء حاملين راية الفقه والحديث بفاس

والمغرب زمانا طويلاً . وقد رَحل ابو القاسم هذا الى تونس ، ودرَّس بها فقضى التونسيون العَجَب من وعيه للعلوم وكثرة حفظه. وكثير من علمائهم أوقفوا دروسهم وحضروا عنده رغبة في الأخذ عنه ، واتصال السند به . وكان الناس يستبقون الى المسجد ويأخذون مجالِسَهم فيه قبـل صلاة الصبح ، وتغُصُّ بهم رحاب المسجد فيجلسون خارجه حتى يكون من بخارجه أكثر ممن بداخله . وكان هو يُسْمِعُ الكلّ بصوته الجهير . ولما رأوا تفرُّده باتقان علوم الشريعـة من فقه وحديث وتفسير ، قالوا إنه لا يحْسِنُ غيرها ، فاقترحوا عليه أن يقدّم لهم درساً في العربية فدرَّسها أيضاً وبهرهم ما شاهدوه مما هو فوق الطاقة ، فأجمعوا حينئذ على إمامته وتفوُّقه في العلوم ، وأنه لا يضاهيه في جمعه وتحصيله أحـدٌ من المعاصرين سواء بافريقيا والمغرب .

وبعد ، فاسمع ما يقوله علماؤها عنه نقلاً عن أحمد بابا : « قال القاضي أبو عبدالله ابنُ الأزرق ، كتب إليَّ أبو عبدالله الزلديوي المفتي بتونس ، يعرّفني بحـاله من الحفظ مما يُقضى منـه العجب ، أنه ورد علينا في أُخرَيات عام سبعة عشر وثمانمائة ، الفقيه العالمُ الحافظ أبو القـاسم بن الشيخ الإمام أبي عِمران موسى العبدوسي بكتاب في يده من قبل الامام أبي عبدالله بن مرزوق يقول لنا فيه ، يردُ عليكم حافظ المغرب الآن ؛ فقلنا هذا من قبيـل مبالغات الإخوان في التوصية باخوانهم . فلما اجتمعنا به وأقام عندنا أزيَدَ من عام رأينا منه العجب العُجاب من حفظ لا نتوهَّمُه يكون لأحد. ولقد كان عندنا بتونس الشيخ أبو القاسم البُرْزلي ، سلم له معاصِرُوه في حفظ الفقه وأشياخ المدوَّنة والناس دونه في ذلك ، وببِجَاية الشيخ أبو القاسم المشذالي كذلك . وحضرْنا مجالسهم ، فما رأينا ولا سمعنا بمثل العَبدوسي في حفظه وعلمه ، وعلمنـا صِدْق ابن مرزوق فيما وصفه به ، وكان كما قال الشاعر :

فلما التَقَيْنا صدَّق الخَبَرَ الُخبْرُ

بل صغَّرَ الخبَرَ الخُبر » . ثم قال في وصف درسه : « وكذلك فعلت أنا ، تركت مجلس تدريسي وحضرتُ عنده لآخذ شيئاً من طريقه ، فرأيت شيئاً لا يدرك الا بعناية ربانية ، موقوفٌ ذلك على من رزقه الله الحفظَ ينفق منه كيف يشاء. لازمناه

حضراً وسفراً ، وعلمنا طريقه تفكراً ونظراً ، ولا يقدر على طريقته إلا من رُزِقَ فطنة كاملة الاستواء ممدَّةً من جميع القُوى الروحية والبدنية .

أما إذا أقرأ المدونة فاستمع لما يوحى : يبتدىء في المسألة من كبار أصحاب مالك ، ثم ينزل طبقة طبقة حتى يصل الى علماء الأقطار من المصريين والافريقيين والمغاربة والاندلسيين وأئمة الاسلام وأهل الوثائق والاحكام حتى يكلَّ السامع وينقطع عن تحصيله الطامع . وكذا إذا انتقل الى الثانية وما بعدها ، هـذا بعض طريقته في المدونة . وأما إذا ارتقى الكُرسيَّ ، يعني كرسيَّ التفسير ، فترى امرأ معجزاً ينتفع به من قدِّر له نفعه من الخاصة والعامة . يبتدىء بأذكار وأدعيـة مرتبة ، يكرّرها كل صباح ومساء يحفظها الناس ويأتونها من كل فجٍّ عميق. وبعد ذلك يقرأ القارىء آية فلا يتكلم بشيء منها الا قليلاً ، ثم يفتتح فيما يناسبهـــا من الأحاديث النبوية ، وأخبـــار السلف وحكايات الصوفية وسِيَر النبي وأصحابه والتابعين . ثم بعدها يرجع الى الآية ، وربما أخذ في نقل الأحاديث فيقول الحديث الأول كذا والثاني كذا والثالث كذا الى المائة فأزيد ، ثم كذلك في المائة الثانية ، والشكُّ في الثالثة » .

ثم قال : « وكذلك فعل في إقرائه للعربية ، فبدأ بأصحاب سِيبَويه ، ثم نزل الى السِّيرافي وشُرَّاح الكتاب وطبقاتِ النحويين حتى ملَّ الحاضرون وكلوا . ومازال كذلك حتى ذهبوا ولم يُرَاجع في ذلك، وقد كان قصدُهم اختبارَه وامتحانه» اهـ. بتصرف يسير للايضاح . واذ قد تبينت هذه الظاهرةُ التي كانت غالبةً على علم الفروع في هذا العصر ، فانا نقول انها طريقة منهجية إصلاحية ، اختصَّ علماء المغرب دون غيرهم بالعمل عليها، والدعوة اليها إذ في هذا الوقت ، بدأ العمل بتلك المختصرات العقيمة ، وسرى هذا الداء الوبيل ، داء الاختصار ، الى العلوم الاسلامية عامة، فقلل فائدتها ؛ فكان علماؤنا يُشدّدون النكير على ذلـــك ، ويَصدُّون الطلبة عن قراءة الكتب التي نحى بها أصحابها هذا المنحى . ويروى عن القبّاب أنه كان يقول إنَّ ابن بشير وابن شاسٍ وابن الحاجب أفسدوا الفقه . ولما حجَّ اجتمع بابن عرفة في تونس فأطلعه ابن عرفة على مختصره الفقهي ، وقد شرع في تأليفه ، فقال له القبَّابُ مـــا صنعتَ شيئاً ، فقال ولِمَ؟ فقال إنه لا يفهمه المبتدي ، ولا يحتاج اليه المنتهي . فتغير وجه ابنِ عرفة حينئذ . قالوا وكان هذا هو السبب الحامل له على بسط العبارة في

أواخر مختصره . ومثل القبّاب في ذلك اليَزْناسني الفقيه الكبير ، فانه كان صاحب ابن شاس، واستشاره هذا في وضع مختصره الجواهر ، فأشار عليه ألا يفعل ؛ فلم يعملْ ابنُ شاس باشارته . وقد ألمعنا الى الاثر السيء الذي أثرتْه هذه المختصرات في العلوم الإسلامية بالخصوص ، وراجع الفصل التاسع والعشرين من المقالة السادسة من مقدمة ابن خلدون لتعرف تأثيرها في العلوم مطلقاً ، فلا ريب إذا عددْنا ما اتّبعه علماؤنا المغاربة في هذا العصر طريقة إصلاحية منهجية .

هذا وقد تناولنا الكلام على العلوم الاسلامية جملة ، واعطينا عليها من العبدُوسي مثالاً مشتركاً . وان ظهر اننا نخصُّ الفقه بمزيد العناية ، لأنه في الواقع كان اكثرها انتشاراً . ولو ذهبنا نُعدُّ رجاله البارزين الذين ما زالت الفتوى والأحكام منذ هذا العهد الى الآن تدور على أقوالهم واجتهاداتهم لضاق المجال عن استيفائهم ؛ ولكنَّ ذلك كله لا يغطي على ما كان لغير الفقه من الظهور ، وخاصة علم الحديث رواية ودراية ، وعلم التفسير وتوابعه. فبالإضافة الى مثال العبدوسي نذكر المحدّث والرحالة الشهير ابن رشيد الفِهري الذي جال في أقطار افريقية ومصر والشام والحجاز ولقي من اعلام الرواية الجمّ الغفير ، وأكثر من هذا الشأن ، وتوسع في الأخذ وذهب في ذلك الى ابعد غاية . وكان له تحقق بعلوم الحديث وضبط أسانيده ، وتميز رجاله ، ومعرفة انقطاعه واتصاله ، وألف فيه التآليف المفيدة ، وحسبك برحلته الفريدة التي سماها (ملءَ العيبة فيما جُمع بطول الغيبة، في الوجهتين الكريمتين الى مكة وطَيْبة) المشحونة بالمسائل الحديثة والأسانيد العديدة ، التي روى بها أُمهات كتب هذا الفن ، والأجزاء المختلفة المؤلفة فيه دليلاً على رسوخ قدَمه ، وكونه من الحفّاظ الذين يقلُّ لهم النظير مع كمال الثقة ، وشهرة العدالة ، والتمسك بالسنة والعمل بالحديث ، وإن خالف ما عليه الناس مما يعزز ما قلناه في الفصل السابق من أن الحرية المذهبية لم تُقيَّد قط في المغرب ، وإن صار المذهب الرسمي فيه هو المذهب المالكي وكذلك العقيدة السّلفية لم تقطع منه برغم سيادة المذهب الأشعري .

وهذا ابن حجر يقول عن صاحبنا ابنُ رشيد في الدُّرر الكامنة : « وكان على مذهب أهل الحديث في الصفات يُمرُّها ولا يتأول ، كان يسكتُ لدعاء الاستفتاح ويُسِرُّ البسملة . . . » ومن كبار محدثي هذا العصر الرئيس عبدُ المهَيْمن الحَضْرمى الذي جمع الى البراعة في الأدب والعربية

التفوّق في علم الحديث حتى حلاه ابن خلدون بامام المحدثين ، وله مشيخة حافلة تحتوي على ألف شيخ ، مع أنه لم تكن له رحلة ، ومن ثم قال فيه المقري الكبير : « جمع فأوعى واستوعب أكثر المشاهير وما سعى ، فهو المقيم الظاعن ، الضارب القاطن . » ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الكرسوطي الفاسي ؛ كان الى تضلعه بالفقه ، محدثا ضابطا عارفاً برجال السند ومراتب الحديث ، يستظهر كثيراً من كتبه المطولات ، وألف فيه تآليف حسنة .

ومنهم الامام الحافظ ، التاريخي ابو عبدالله محمد بن عبد الملك الأوسي الأنصاري المراكشي صاحب الذيل والتكملة ، على تاريخ ابن الفرضي لعلماء الاندلس وصلة ابن بشكوال له ، ومقامه في الحفظ للحديث والأخذ عن المشايخ مما لا يخفى . ومنهم الرّاوية النقادة أبو عبدالله محمد بن محمد بن علي العبدري الحاحي الرحالة الشهير ، وسعة روايته وقوة عارضته مما يعرف بالوقوف على رحلته ، ومنهم الشيخ المحدث الكبير أبو زكرياء يحيى بن أحمد السراج الفاسي . كان أيضاً رحالة ، مكثراً من الرواية ، مقتنيا للكتب ، ضابطاً لها . له سماع عظيم وفهرسة جامعة في مجلدين . الى غير هؤلاء ممن يطول ذكرهم .

أما المفسرون فمنهم ابنُ العابد الفاسي الذي اختصر تفسير الكشاف للزمخشري وجرّده من مسائل الاعتزال .

وابنُ البناء العددي الذي له موضوعات كثيرة في التفسير وحاشية على الكشاف، وأبو القاسم السلوي وله تفسير جليل، وأبو علي الشوشاوي وله كتاب الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة ، ضمنه من علوم القرآن فنوناً عديدة وجعله عشرين قسماً ، كل قسم منها يحتوي على مسائل مختلفة ؛ فهو من المحاولات الطيبة لجمع علوم القرآن ، على غرار ما فعل البدرُ الزركشي في كتابه البرهان ثم السّيوطي في الإتقان .

ثم فيما بقي من العلوم الشرعية مثل التصوف والكلام ، لا نرى أنهما كانا منتشرين بكثرة لما علم من ان السذاجة التي تخيم مع الفقه حين تدول الدولة له، لا تجامع التصوف ، وأنت قد رأيت الحرب التي قامت بين الفقه والتصوف في العصر المرابطي ، إلا أن النتيجة هنا لم تكن كالنتيجة فيما سبق ، فلم يقضِ الفقه على التصوُّف ، ولكنه أخضعه لسلطانه . وقد يقال إن العصر بالنسبة للتصوف كان

عصر تمحيص بسبب هيمنة الفقهاء عليه ، وما أحسن التصوّف يسير في ظلال الفقه. إذ يكون هو لبُّ الشريعة المكنون ، وسرُّها المصون ، وقد كان من أقطابه في هذا العصر ابنُ عبّاد الرُّندي الذي قضى أكثر حياته في فاس ، وابن الحاج الفاسي ، وأحمد زرُّوق . وكتبهم فيه لا تزال من خير المصادر للتصوّف الموزون بميزان الشرع .

ومهما تجوَّزنا في الكلام ، وعممنا في الإحكام ، لا يمكننا ان نهمل الإشارة الى علم أصول الفقه وعلم القراءات ، وما نالها في هذا العصر ايضاً من العناية الخاصة ، والأول من توابع الفقه والثاني من توابع التفسير ؛ فالأصول كثر دارسوه ، وظهرت طبقة ممن كادوا يختصون به فوضعت فيه التآليف المهمة ، وطبعته بطابع الفقه المالكي مما لم يتهيأ لغيرهم من قبل .

والقراءة ونعني بها ما يشمل التجويد والرسم والقراءات المأثورة والغريبة وتوجيهاتها ، ما من أحد من صدور فقهاء هذا العصر الا وكان له إلمام بها كلاً أو بعضاً ، وقد وضعت فيها التآليف أيضاً ، إلا أنها على كل حال لم تبلغ في هذا ما بلغته من الذيوع في العصر بعد هذا .

هذا ما يرجع الى العلوم الدينية ، والنشاط الذي طرأ عليها في هذا العصر ، والجهود العظيمة التي بذلت في خدمتها حتى بلغت في الجملة الى المستوى اللائق بها . فلننتقل الآن الى علوم الأدب لننظر كيف كان سيرها في هذا العصر أيضاً . ونقول: انها جارت سنّة النشوءِ والارتقاء فبلغت الى قمة المجد والكمال ، وكان هذا عصرها الذهبي في المغرب ، والنابغون فيها في هذا العصر كانوا أساتذة من بعدهم ، بل طبقت شهرتهم العالم العربي ، وما تزال ذكراهم فيه حيّة الى الآن . فأما النحو واللغة ، فانهما لم ينالا قط من التقدم ما نالا في هذا العصر ، وذلك لأن الدولة عربية الصبغة تقدر جهود العاملين على رفع شؤون العروبة ، وليس لها التفاتٌ الى غير ذلك مما توحي به العنصرية المتخلّفة كما سبق القول ، فلا عجب وقد اتحدت وجهة العمل أن ينبغ في هذين العلمين وفي سائر العلوم العربية رجال عظام ممن يفتخر بهم المغرب ، ولا يقلوُّن أبداً عن نظرائهم في بقية العالم العربي . فمن هؤلاء النوابغ ابن أجرُّوم ، وابن الجراد وابن هانىء ، وابن المرحّل ، وابو القاسم الشريف ، والمكودي ،

وسواهم ، ناهيك منهم جميعاً بابن أجرُّوم ، ذلك الرجـــل الذي استطاع أن يخـــلد اسمه أبد الدهر بوريقات لا تتجاوز عــدد أصابــع اليد الواحدة ، لا تحتوي على تفكير عميق ، ولا على فلسفةٍ جـــديدة ، وإنمـــا هي قواعد أوليَّة من عـــلم النحو ، مقرّرةٌ لدى الجميع . فما السرُّ في هــذا الخلود الذي أُتيح لهذا الرجل ، حتى لقد فتح لنفسه مجالاً بين جدران مدارس القرن العشرين ، وحتى أطلق الناس اسمه على النحو كأنما هو واضعُه ? فقالوا الأجرُّومية ، وأرادوا النحو ، ممّا لم ينله سيبَوَيه نفسُه ? ذلك السر هو النبوغ النـــادر الذي أوحى اليه بمقدمته على هذا الوضع العجيب . فبينما النحو قد خضع لقوانين المنطق وأصبح دراسة عقلية عقيمة ، إذ طلع ابن اجرُّوم بمقدمته التي يعرض بها أُصول هذا العلم في سذاجة تشبه عقل الطفل ، وترتيب يتوافق وآخر مــا قرَّرته البيداغوجيَّة الجديثـــة في أساليب التعليم . فلا جرَم إن علا اسمُه على الأسماء وتمجَّدت ذكراه بين الخالدين . ولقد كان للتقدُّم الذي نالته هذه العلوم في هــذا العصر تأثيرٌ كبيرٌ في تقويم ألسنة العامة ، وتذوُّقهم لأسرار اللغة العربية . أما الخاصة فقد كان ُجلُّ كلامهم إن لم نقل كله ، مستقيماً يجري على الضوابط اللغوية .

وهذا الوزير عبد المهيمن الحضرمي يقولون في ترجمته إنَّ كلامه كان كلُّه معرَباً ، وكذلك ابن عبد المنعم الصنهاجي السبتي من كبار اللغويّين والنحاة في هذا العصر ، لم يستظهر أحدٌ في زمانه من اللغة ما استظهره كما قال ابن الخطيب عنه في الإحاطة : « وكان يعرب أبداً كلامه » وألف ابن هانىءٍ اللخميُّ كتاباً فيما تلحن فيه العامة ، فجعل اللحن خاصاً بالعامة ، واستطاع أن يعُدَّ هذا اللحن لما كان قليلاً ، ومــدح كثيرٌ من الشعراء كثيراً من زعماء القبائل المغربيّة ، فكانوا يثيبونهم الثواب الجزيل بسبب تذوُّقهم لجمال هذه الأمداح . وحسبُكَ بأمداح ابن الخطيب في رئيس جبــل درن أبي ثابت الهنتاني . وربما يكون حديث (اللـَّظافة) الذي اثبتناه في قسم المنثور من هذا الكتاب أدلَّ من كل ما تقدَّم على تغلغل انتشار العربية وآدابها في الأمة ، وشدّة الاقبال عليها من سائر الطبقات .

وكان العلامة ابن هانىء اللخمي الى إمامته في العربية وتأليفه فيها ، متضلعاً في الأدب بارع الكتابة والشعر ، وألف كتاب الغرَّة الطالعة في شعراء المائة السابعة ، لذي يعتبر كتاب ابن الخطيب المسمَّى بالكتيبة الكامنة في شعراء المائـــة الثامنة

كالتذييل عليه ، ومثـله أبو القاسم الشريف الذي يعرف بالشريف الغرناطي وهو سبتي ، وإنما قيل له الغرناطي لإقامته زماناً بغرناطة ، وتوليه قضاءها وهو من المؤلفين في العربية والأدب وشرحه لمقصورة حازم مما طبّقت شهرته الآفاق . ومن أعماله الأدبية المرموقة شرحه للقصيدة الخزرجية المعروفة بالرّامزة في علم العروض ، مفتضاً خاتمها بعد أن استعصت على كثير ممن رامها قبله ، ولذلك سمّاه رياضة الأبيّ من قصيدة الخزرجي ، وهو ممّا يدلُّ على حصافة عقـله وقوّة فهمه ، بَلَهَ دلالته على تمكنه من علم العَروض ورسوخه فيه ... ومالك بن المرحّل فضلاً عن كونه شاعر العصر بـل شاعر المغرب هو ايضـاً ممّن ألف في اللغـة والأدب كتباً عدة منظومةً ومنثورةً ، منهـا نظم غريب القرآن لابن عُزَيْـز ، ونظم اختصار إصلاح المنطق لابن العربي ونظم فصيح ثعلب مع شرحـه ، ونظم الثلث الأول من أدب الكتاب لابن قُتيبة ، بعد ترتيبه ، وترتيب الأمثال لأبي عبيد ، وأرجوزةٌ في العَروض ، واخترع وزنـاً من أوزان الشعر هو مجزُوءُ الدُّوَبيت المركّب من فعِلُن مُفاعَلَتن َفعُولن ، ومثلِها بحذف َفعِلُن للجَزء كما ذكره العلامة محمد بن عبد المجيد بن كيران في رسالةٍ له في مبادىء العَروض ، الى غير هذا مما يطول تتبعه من حركة انتشار علوم العربية وازدهارها .

ومن دون العربية ، فان التاريخ قد نال عناية عظمى من أبناء هـذا العصر ، ومن نوابغه فيه المؤرخ العظيم صاحب الفضل على مؤرخي المغرب جمـلة ، ابن أبي زرْع ، وما أدراك ما ابن أبي زرع ، صاحب القِرطاس وزهر البستان وغيرهما ، ومنهم ابنُ عذارى المراكشي صاحب البيان المغرب الشهير ، وأبو الحسن الجزّنائي صاحب زهرة الآس في تاريخ بناء مدينة فاس ، وأبو إسحاق التّاورْتي صاحب تاريخ أبي سعيد عثمان الأصغر ، وفيه كان ابنُ خلدون ولسان الدين ابن الخطيب وابن الأحمر وغيرهم ممّن أوى الى كنف المرينيين واستظلّ بظلهم . والتاريخ الخلدوني نفسه مؤلف باسم أبي عِنان وبرسم خزانته ، كما أن فيه أيضاً كان صاحبُ الحلل الموشيّة في الأخبـار المراكشية ، وصاحب الذخيرةالسنيّة في تاريـخ الدولة المرينية . ومن كتّاب التراجم ، ابن عبد الملك المراكشي صاحب الذيل والتكملة وناهيك به . وأبي عبدالله الزّرْعي الجدْميوي السبتي التاريخي الحافظ ، له تاريخ في نحو من أربعين سفراً مُرتّب على حروف المعجم في أخبار العلماء والأدباء والتعريف بهم ، وفي ضمن ذلك من بليغ النظم والنثر والحكايات والفوائد والنوادر ما لا يوصف ذكره في بُلْغة الأمنية .

وعلى ذكر المؤرخين ، لا ننسى الرحّالين وبينهم وبين المؤرخين ارتباط كبير . ففي هذا العصر كان ابن بطوطة ذلك الرجل العصامي الذي بقي متجوّلاً في أطراف الكرة الأرضية اكثر من عشرين سنة وعاد الى بلاده متوّجاً بإكليل الغار . وفيه كان ابن رُشيْد صاحب رحلة مِلءِ العَيْبة ، والعبْدري صاحب الرحلة الشهيرة وغيرهم .

وبالجملة فجميع الفنون الأدبيـــة قد ازدهرت في هذا العصر أيَّما ازدهار ، ولا خصوصية بذلك لما ذكرنا ؛ فان غيره مثله ، وما طوينــا ما طوينا إلا لاندراجه تحت المذكور ، ولقصدنا الى الاختصـــار . وفي جدول الكتب المؤلفة في هذا العصر بلاغ للمستزيد .

* * *

العلوم الكونيـة :

وأما العلوم الكونية ، فقد تفهم أن نهضة الفقه قضت عليها وعاقت انتشارها لِما عُلِمَ من تخاصم أهلها وتطاول من أُديل منهما على من دال بحكم قاعدة من عَزّ بَزّ . ولكنّ ذلك كان قبل نبوغ ابن رُشد الذي حمل راية الفقه باليمين ، وراية الفلسفة بالشمال ، فكان إماماً فيهما معترفاً بتقدمه من الجانبين كليهما ، نعم هي وإن لم يقف انتشارها فلم يعُمّ كما كان في العصر السابق ، أو قل إن وجهة الناس لم تبق مصروفة الى كل مباحثها وأصولها وفروعها كما كانت من قبل ، بل وقع الاقتصار على ما كانت حاجة الأمة ماسة اليه ومتعلقة به من فروع العلوم الرياضية والطب والكيمياء وما الى ذلك ؛ فان هذه كانت تستفرغ مجهود الباحثين من علماء هذا العصر الذين توفروا على دراستها وتحقيقها ، حتى بلغوا في ذلك شأواً بعيداً . على اننا نرى أن الذي كان يُعْوز هذه العلوم لتطفر طفرة أخرى مثل ما حصل لها أيام الموحدين ، هو تأييد الدولة ، وقيام مَلكٍ محب للفلسفة ، كيوسف بن عبد المؤمن ، يقرّب أهلها ويرفع من قدرهم فيرتفع شأنها ويطّرد نموها ، والا فقد كان هناك رجال ممن شاركوا في جميع فروع التعاليم ، ومنها الفلسفة ، ينتصبون للتعليم ويأخذ الناس عنهم معارفهم المنوعة ، ومنهم بسبتة ابو عبدالله محمد بن هلال إمام التعاليم وشارح المجسطي في الهيئة ، أخذ عنه ابن النجار التلمساني ، وكان مبرزاً في سائر التعاليم . ومنهم بفاس خلوف المغيلي اليهودي ، اختفى عنده العلامة الآبلي لما أكرهه صاحبُ تلمسان على العمل ؛ ففرّ الى فاس ولازم شيخ التعاليم المذكور ، فأخذ عنه فنونها

ومهر فيها ، ثم لحق بمرّاكش فنزل على ابن البناء ولازمه فتضلع عنه في علم المعقول والتعاليم والحكمة ، ورجع الى فاس فانثال عليه طلبة العلم ، وانتشر علمه بكل مكان .

إنما الذي لا مرية فيه أن معظم النشاط العلمي في هذا العصر كان منصرفاً الى الرياضيات من حساب وجبر وهندسة وفلك ، والنابغون فيها كانوا أكثر من غيرهم ، وكان على رأسهم الإمام ابو العباس بنُ البناء العددي ذلك الفلكي المشهور ، والحاسب المعروف الذي بذّ أهل عصره ومن بعدهم بكثرة تحقيقه وطول باعه في العلوم الرياضية والاسلامية جمعـــاء ؛ فحسب الآتين بعده ، أن يقتصروا على كتبه وما خلـّفه من تراث علميّ طائل . فكان حاسباً عددياً لا ينافسه في هذا أحد كما أقرَّ له بذلك فطاحل أهل العلم من معاصريه ، وكان فلكياً بارعاً أتى بتحقيقات عديدة خالف بها كثيراً مما تقارّ عليه أهل الفن قبله . ولا ريب فانه كان مفكّراً جبّاراً لا يؤمن إلاّ بما يهديه اليه فِكره بعد البحث الدقيق ، والاستنتاج الصّحيح . وقـد خلـّف أكثر من مائة كتاب كلـّها مثال التحرير والاتقان ، وشهد ابن خلدون لكتبه الحسابية بالجودة ، وبها كانت الدراسة في عصر ابن خلدون .

وكان هنالك أيضاً الجاديري الفلكي البـــارع ، صاحب الروضة التي شرحت بشروح عديدة ، وكانت بها الدراسة في المعهد القروي . وهـــذا الفاضل ، له أيضاً عدةُ أبحاث خالف بها المتقدمين من أهل هذا الفن .

وحبذا لو ان أهل الإخصاء من ابناء جـــلدتنا تجرّدُوا لبحث آثار أسلافهم هذه ، والمقارنة بينها وبين آثار المحدثين من علماء الغرب ، إذن لوجدوا كثيراً من النظريات التي يفخر هؤلاء بالاهتداء اليها أوّلُ . وهي من نتيجة جهود اولئـــك الاسلاف .

وكان هناك السطـّي صاحبُ جداول الحوفي في الفرائض التي دل بهـا على حسن نظره في الحساب والرياضيّات . وأبو زيـــد اللجائي ، وكان له باع طويـــل في الهندسة والحساب والهيئة ، وله آلة فلكيّة تذكر في ترجمته ، وغير هؤلاء كثير ممن نبغ في هذه العلوم وألف فيها التآليف المفيدة .

وفي خصوص الطب نبغ أبو الحسن عليّ بن الشيخ الطبيب بن أبي الحسن علي العَنسي المرّاكشي ، وربما كان ولداً أو حفيداً للرياضي الكبير الحسن المراكشي الذي سبق ذكره في العصر الموحدي لأنه اختلف في اسمه : فمنهم من ذكره باسم الحسن ومنهم من ذكره باسم أبي الحسن ؛ فيكون هو جدّ هذا . وله نظمٌ من مجزوٍّ الرجز في الأنكحة وصفاتها وما يطلب أو يتجنَّب فيها ، والأمراض السرّية وعلاجها وطبائع النساء وما يحمد أو يذمّ منهن ، وضعه برسم خزانة السلطان أبي الحسن المريني . وربما كان مشاركاً في غير الطب من العلوم الكونيَّة ، ولكننا لم نقف له إلا على هذا الأثر . وفي الطب والكيماء القديمة والعلوم العقلية من الفلسفة والتعاليم نبغ أبو العباس أحمد بن شعيب الجزنائي الشاعر الكاتب . قال ابن خلدون : « نظمه السلطان أبو سعيد المريني في جملة الكتاب ، وأجرى عليه رزق الاطباء لتقدمه فيه ، فكان كاتبه وطبيبه ، وكذا مع السلطان أبي الحسن بعده . »

وترجم في كتاب بُلغَة الأمنية ومقصَد اللبيب فيمن كان بسبتة من مدرّس وأُستاذٍ وطبيب سبعة أطبّاء فيهم امرأة قائلاً : وقد كان بسبتة في هذه الطبقة جماعةٌ من الأطباء والشجّارين — لعله يريد العشّابين — سوى من ذكرناه ، لم يبلغوا في العلم والمكانة مبلغ هؤلاء تركتُ ذكرهم .. فاذا كان هذا عددُ الأطباء العلماء في بلدةٍ واحدة هي سبتة ، فماذا يكون عددُهم في بقيّة المدن وخاصةً العواصم كفاس ومراكش ، لا شك أن هذه الطبقة من العلماء الطبيعيّين والرياضيّين والفلاسفة ، ضاعت تراجمُ الكثير منهم ، وضاعت بالتالي أعمالهم العلميّة من كتُب ونظريّات وتجارب . ومعالمُ الحضارة المغربيّة الباقيةُ عن هذا العصر وغيره من العصور تنطِق بأنها حضارةٌ مبنيَّةٌ على أُسسٍ علميَّة وفنّية متينة . ولئن كان ملوك بني مرين قد قصّروا في حماية علم الفلسفة ومدّ اليد الى علماء الطبيعيّات كما فعل ملوك الموحّدين ؛ فانهم ناصروا الفنون الجميلة ، وأخذوا بضبعِها بما كان لهم من ذوقٍ فنّي جميل حتى نهضت نهضتها الكبرى ، ولا سيّما فنُّ العمارة والنقش والزُّخرُفة وما اليها من الصناعات التي بلغت في هذا العصر أوْجَ الكمال . وقد بقيت شواهد ذلك ماثلةً للعيان في مباني الملوك المرينيّين من مثل مدرسة العطّارين والصفّارين والبوعنانيّة والأندلس بفاس ، ومدرسة فاس الجديدة ومدارس مكناس وسَلا ومراكُش وغير المدارس من المساجد والزّوايا والرُّبُط والقناطر وسِقايات الماء في هذه المدن وغيرها

– وحكاية السلطان أبي الحسن في بناء المدرسة الجديدة بمكناس معروفةٌ ، وهي أنه لمّا رُفع اليه ما صُرف في بنائها استغلى ذلك ، فلمّا وقف عليها وأعجبته أخذ حسابها وغرّقه في صهريجها وأنشد :

لا بَاسَ بالغالي إذا قِيل حسن   لَيْس لما تَستَحْسنُ العَيْنُ ثَمَن

وتلك غايةٌ في تخليد المآثر ليس بعدها غاية ، وقد بلغ ما أنفقه على المدرسة التي بناها بغربيّ جامع الأندلس من حضرة فاس وهو حينئذ وليُّ عهد والده أبي سعيد ما يزيدُ على مائة ألف دينار ، وهي ما هي في ذلك الوقت . ومدرسةُ العطّارين التي هي من بناء والده أبي سعيد ، والمدرسةُ البوعنانيّة التي بناها ولدُه أبو عِنان هما بالخصوص قِطعتان خالدتان تقومان حجّةً على عِظمِ النهضة الفنّية في هذا العصر ، وعلى ما كان لبني مَرين من يدٍ بيضاء في هذا الصدد .

وإن ننسَ لا ننسَ هنا الساعة العجيبة المنصوبة على باب المدرسة البوعنانية ، فانها كانت تُعَدُّ آيةً في دقّة الصُّنع وحُسن الوضع ، وآثارُها لا تزال ماثلةً هنالك ، وقد يكون من المفيد هنا أن ننقل لك ما ذكره ابنُ بطوطة في معرض مدح أبي عنان ، وقد ذكر اعتناءه بجبل طارق ونصُّ كلامه : « وبلغ من اهتمامه أيّده الله بأمر الجبل ، أن أمر ببناء شكل يُشبه شكل الجبل المذكور يُمثّل فيه شكل أسواره وأبراجه وحُصونه وأبوابه ودار صنعته – التي أنشأها والدُه أبو الحسن – ومساجده ومخازن عُدده وأهرية زُروعه وصورة الجبل وما اتصل به من التُّربة الحمراء ؛ فصُنع ذلك بالمشْوَر السّعيد[1] – بفاس – وكان شكلاً عجيباً أتقنه الصناع إتقاناً لا يعرف قدره إلا من شاهَد الجبل ، وشاهد هذا المثال . وما ذلك إلا لتشوُّقه الى استطلاع أحواله واهتمامه بتحصينه وإعداده . » فهذا وحده كاف في الدلالة على الرقي الذي بلغته هذه الفنون في العصر المريني . ولكنّ مزيّة هذا العصر ليست في هذا الرقي ، بل في أن علماءه كلّهم مغاربةٌ لا يمتّون بسبب الى بلادٍ غير المغرب ، وقد كان علماءُ العصر السابق أعني فلاسفته جلّهم ان لم نقل كلهم

١ – يطلق المشور في اصطلاح المغاربة على البلاط الملكي ، وانظر بحثنا المعنون بعاميتنا والمعجمية في كتاب حل وبقل .

من الأندلسيين فنَضِجت في هذا العصر العقول ، وتفتّحت الأفكار ، وظهر النبوغ المغربي بأجلى مظاهره في جميع ميادين العلوم ، ولم يبق الشعبُ المغربي عالةً في نهضته العلميّة على سواه ، بل ان أبناءه أصبحوا قدوة غيرهم في الدراسات العلمية المختلفة ، وقبلة أنظار طلاّب المعرفة من جميع الجهات .

المرأة المغربية :

ونختم الكلام في هذا الفصل بالإشارة الى مساهمة المرأة المغربية في بناء صرح النهضة العلمية في هذا العصر ، كما فعلت في غيره من العصور ، تلك المساهمة الفعّالة التي وإن أُغفل الكلام عليها في كثير من المصادر التاريخية ، فإنها تأبى إلا أن تُعلن عن نفسها من وراء وراء . ولنعطِ على ذلك مثالاً في حقل العلوم الدينيّة السيدة أُمّ هانيء بنت محمد العبدوسي الفقيهة الصالحة أخت الإمام الحافظ عبدالله العبدوسي . قال الشيخ زروق في كنّاشته : كانت فقيهةً ذات علم وصلاح ، طعنت في السنّ الى قرب المائة ، وتوفيت سنة ٨٦٠ ، زاد ابن غازي وهي آخر فقهائهم . ومثلها أختها فاطمة ، وكذلك السيدة أُمُّ البنين الفقيهة الصالحة جدّة الشيخ زروق ، والسيدةُ رحمة بنت الجنّان ووالدة الشيخ ابن غازي ، والسيدتان عائشة وأمة الله بنتا الحافظ ابن رشيد الذي استجاز لهما المشائخ ، وستُّ العرب بنت عبد المهيمن الحضرمي التي أجاز لها ابن رُشَيد .

وفي الميدان الأدبي نذكر الأديبة أُمّ الحسن بنت أحمد الطنجالي نزيلة لوشة ، وقد ترجمها لسان الدين ابن الخطيب في كتابه التاج المُحلّى فقال : ثالثة حمدونة وولادة ، وفاضلةٌ جمعت الأدب والجادة ، وتقلّدت المحاسن قبل القلادة ، وأولدت أبكار الأفكار قبل سن الولادة . نشأت في بيت أبيها ، لا يدخر عنها تدريباً ولا تنبيهاً ، حتى نبض إدراكها ، وظهر في المعارف حراكها ، ودرّسها الطبّ ففهمت أغراضه ، وعلمت أسبابه وأعراضه ... ولما قدم أبوها من المغرب ، وتكلم بخبرها المُغرِب ، توجّه بعضُ الصّدور الى اختبارها ومطالعة أخبارها ، فاستنبل أغراضها واستحسنها ، واستطرف لسنها ، وسألها عن الخط وهو أكسد بضاعة جلبت ، وأشحّ دِرّة حلبت ، فأنشدَته من نظمها شعراً في الموضوع . وكذلك الأديبة

صفيّة العزفية من بيت العزفيين وُلاة سبتة المعروفين ، وقد مدحتها الاستاذة الأديبة الشاعرة السيدة سارة بنت أحمد الحلبي بقصيدة مطلعها :

إذا ما ذكرتُ الشرقَ طِرتُ له شوقاً . تقول فيها :

ولكن بِمَنْ أضحتْ وَحيدةَ عَصرِها   نَسيتُ من الأشواق ما جَلَّ أوْ دَقَّا

وَمن مِثلُ ذَاتِ العلم والحِلم والنُّهى   لقد سار سَيرَ الشمس مُعجزُها الأرْقَى

لقد سار سيرَ الشمس فخرُ صَفيّة   ونوَّر ، إكْباراً لها ، الغربَ ، والشَّرْقَا

وصُبحُ جارية أحمد بن شُعيب الجزنّائي الفيلسوف الكاتب الشاعر ، كانت تنظمُ الشعر ، ولمّا ماتت حزن عليها أشدّ الحزن ، ورثاها بمراثٍ مؤثِّرة تُذكر في المنتخبات .

أما في الميدان العلمي فسنُترجم للطَّبيبة عائشة بنت الجيّار مُكتفين بها ، ونحن على يقين من أنّ هناك كثيراتٍ من السيدات الفاضلات اللائي كنّ يشاركن في غير ما ذُكر من ضروب المعارف ، ولكنّ أخبارهنّ لم تُحفظ بسبب الاهمال الذي مُني به تاريخنا الأدبي سواءً بالنسبة للنساء والرجال ، والله ولي التوفيق .

●

الهيئة العلمية وآثارها

من العسير جداً أن نحاول تقديم بعض الشخصيات البارزة من أعضاء الهيئة العلمية في هذا العصر الى القارىء كما فعلنا في العصر قبله . فلئن أمكن ذلك هناك ، فلانحصار التبريز في أشخاص معينين ؛ أما هنا فالشخصيات كثيرة ، وكل مبرز في فنه ، وخصوصاً رجال الفقه والدين فان هؤلاء لا يكادون يحصون ، وفضلاً عن كثرتهم ، فانهم متكافئون في الرتبة ، فماذا نفعل ؟ هل نطوي ذكر هذا الصنف من العلماء ونضرب عنه صفحاً ونأخذ بقاعدة منع الجميع أرضى للجميع ، أم نذكر بعضاً ونترك بعضاً ، وان غمطنا حق هذا البعض المتروك ؟

لا نظن أن القارىء يوافق على طي ذكر الجميع ، ولعله يكون أكثر شوقاً الى معرفة بعض المعلومات عن بعض علماء هذا العصر كما في العصر السابق ، فلنذكر بعض أفرادٍ منهم على أنهم نموذج ومثال فقط ، لا على أنهم اللب والخيرة ممن لم نذكرهم ، وفي ظننا أننا بذلك نخرج من الورطة ونخلص من التبعة .

ابو الحسن الصغير

علي بن عبد الحق الزرويلي الشهير بأبي الحسن الصغير بصيغة التصغير ، فقيه كبير من الصدور الحفاظ ، كان مجلسه من أعظم المجالس بفاس ، يحضره الجم الغفير من خيرة الطلبة وعلية الفقهاء ، ويقصده الناس من أقاصي البلاد . وَليَ قضاء تازة على عهد السلطان أبي يعقوب يوسف ، ثم وليَ قضاء فاس في أيام حفيده أبي الربيع سليمان . وعضده السلطان فانطلقت يده على أهل الجاه ، وأقام الحق على الكبير والصغير ، والقوي والضعيف ، من غير مداراة في ذلك ولا محاباة . وقامت بسببه فتنة بين السلطان المذكور ووزيره عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي حيث ان أبا الحسن كان قد اقام حد الشرب على أحد سفراء ابن الأحمر ، فاهتاج هذا السفير ،

وقصد الوزير المذكور ، وشكا اليه القاضي . وحجّته أن هذا مما لا يُعامل به سفراء الدول ، فكاد الوزير أن يوقع بالقاضي لولا أن حال السلطان بينه وبينه . وحمل ذلك الوزير على شقّ عصا الطاعة ، والائتمار على خلع السلطان ، غير أن كيدَه رجع في نَحره .

أخذ أبو الحسن عن راشد الفاسي ، وعنه الجمُّ الغفير . ودخل الأندلس سفيراً فتهافت الأكابر للأخذ عنه ، وطُلِبَ منه التدريس في غرناطة ففعل ، وبُهت الناس من حفظه . وله كتبٌ منها مجموعة الدر النثير في النوازل والأحكام ، وتقييدٌ على المدونة في عدّة مجلدات . وكان في أيام طلبه قيّد على الرسالة تقييداً نبيلاً ، ثم قُيّدت عنه بمجلسه عليها وعلى التهذيب تقاييدُ كثيرةٌ متداولة بأيدي الفقهاء ، فلذلك ما اختلفت نُسخها وكانت وفاته سنة ٧١٩ ه .

القبّاب[٧]

هو الفقيه الامام الحافظ ، أبو العباس احمد بن قاسم بن عبد الرحمن الجُذامي الفاسي شُهر بالقبّاب ، كان أحد صدور الفقهاء في عصره من حفّاظ مذهب مالك ، وأئمة الدين والورع . درّس العلم طول حياته ، وأفتى وألّف التآليف القيّمة ، ووليَ القضاء بجبل طارق ، ودخل غرناطة سفيراً . وحجّ فلقيَ الأفاضل من أهل العلم والصلاح ، وفي وجهته هذه ، اجتمع بابن عَرَفة في تونس ، وأطلعه هذا على مختصره ، فأبدى عليه ملاحظته السابقة الذكر ، وكان بينه وبين الامام العُقباني التلمساني مناظرات جمعها العقباني في تأليف سماه « لباب اللباب في مناظرة القباب » وهي منقولة في المعيار . وللمترجم فتاوى مجموعة أول ما نقل في المعيار منها ، وله أيضاً اختصار أحكام النظر لابن القطان ، أسقط منه الدلائل والاحتجاج ، وله شرحُ قواعد الاسلام لعياض في غاية الاتقان ، وشرح بُيوع ابن جماعة مفيدٌ جداً ، أخذ عن السطّي وابن فرحون والقاضي الفشتالي وغيرهم ؛ وأخذ عنه الامام الشاطبي وابنُ الخطيب القُسنطيني وجماعةٌ . وكانت وفاته سنة ٧٧٩ .

ابن عبد الملك المراكشي

أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري ، ثم الأوسي من أهل مراكش ، العلامة الحافظ التاريخي النقّاد . وُلد سنة ٦٣٤ وتوفي سنة ٧٠٣ ، روى عن أبي الحسن الرُّعيني وصحبه كثيراً ، وأبي عبد الله محمد بن علي بن محمد بن هشام ، وأبي الوليد بن عُفَير وغيره ، وأجاز له أبو جعفر بن الزُّبير صاحبُ صلة الصّلة ، وكان رحمه الله نبيل الأغراض ، عارفاً بالتاريخ والأسانيد ، نقّاداً لها ، حسن التهدّي جيِّد التصرف ، أديباً بارعاً ذا معرفة باللغة العربية والعروض ومشاركة حسنة في الفقه . ألّف كتاباً جمع فيه بين كتابَي ابن القطّان الفاسي وابن الموّاق المراكشي على كتاب الأحكام لعبد الحق مع زيادات نبيلة من قبَله . وأما كتابُه الذيـــل والتكملة لكتابَي الموصول والصلة ، فانه العمل العلمي الضّخم الذي اشتهر به ، وقد استوفى فيه تراجم عدّة ممن لم يذكره ابن الفرَضي وابن بَشكوال في كتابيهما . وترجم لمن أتى بعدهما من الأعلام تراجم حافلةً مستوعبةً لآثار المترجَمين وأخبارهم ومروياتهم وشيوخهم مع النّقد للروايات والنظر في تلك الآثار ، مما يدلُّ على اطلاع واسع ، واستحضار نادر وهو في تسع مجلّدات ، يوجد أكثرها مفرّقاً في مكتبات العالم . وقد وَليَ ابنُ عبد الملك قضاء مراكش مدةً ثم أُخِّر عنه . وكانت وفاته بتلمسان .

ابن رُشيد

أبو عبد الله محمد بن عُمر بن رُشيد الفِهري السَّبتي ، رحّالةٌ شهير ، ومن الأئمة الحفّاظ الوعاة والخطباء المصاقع . مولده بسبتة سنة ٦٥٧ ، وبها نشأ وتوفي بفاس في محرم فاتح عام ٧٢١ ودفن بمطرح الجلّة من القِباب .

كان محدّثاً مسنداً متضلّعاً بالنحو واللغة والعروض ، ريّان من الأدب ، حافظاً للأخبار والتواريخ والسيَر مشاركاً في الأصلين ، عارفاً بالقراءات السَّبع ، خطيباً مبدهاً كثير التَّرحال والتّجوال في البلاد .

دخل الأندلس في سنة ٦٩٢ فقدّم للخطابة و[illegible] بمسجد غرناطة الأعظم، وأقام بها مدةً . ثم قفل راجعاً الى فاس ، فنال بها أيضاً مراتب عالية تليق بقدره . ورحل الى المشرق مرّتين ، فتجول وأكثر الأخذ عن المشائخ ، ثم عاد والّف رحلته (ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين الى مكة وطيبة) واستقرّ بفاس حتى توفي . وله غير الرحلة كتب أُخرى تأتي تسميتها ، وله خطب ومقطعات وأخبار أدبية يأتي بعضها في محله .

ابن الحاج الفاسي

أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي المعروف بابن الحاجّ ، أحد جهابذة المتصوفين وأعلام السنّة الراسخين سمع ببلده من جلّة الشيوخ . وقدم مصر فصحب الشيخ أبا محمد بن أبي جمرة ، وسمع بها وحدّث . وكان عارفاً بمذهب الإمام مالك، ومن أهل الزُّهد والخير والصلاح ، وأثّرت فيه صحبة أهل القلوب ، فصنّف كتابه المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على كثير من البدع المحدثة والعوائد المنتحلة . وهو كتاب حفيل جمع فيه علماً غزيراً والاهتمام بالوقوف عليه متعين . توفي رحمه الله سنة ٧٣٧ هـ .

الشيخ زرُّوق

أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي ، شهر بزرُّوق ، الامام الأشهر ، والعارف الأنور . ولد عام ٨٤٦ وتوفي والداه قبل سابع ولادته ، فكفلته جدّته الفقيهة أمُّ البنين ، واشتغل بالصناعة فتعلم السّكافة ، ثم طلب العلم في السادس عشر من عمره فدرس على مشاهير أهل بلده ، ورحل الى المشرق فأخذ به عن جماعة من الأعيان ؛ ثم رجع وقد تضلع بعلوم الشريعة ، واتقنها غاية الاتقان ، ولا سيما التصوف ، فقد انفرد بمعرفته وبجودة التأليف فيه لتحريره له على أصول

الشريعة تحرير الجوهر وتصفيته تصفية الكبريت الأحمر ، فلذلك ما دعي (بمحتسب الأولياء والعلماء) .

له كتب عديدة يميل فيها الى الاختصار والتحقيق منها ، وهو أشهرُها قواعد التصوُّف ومنها عدّة المريد ، ومنها النصيحة الكافية ، وغيرها وهي تزيد على العشرين سنأتي على ذكرها بعدُ . وتوفي بطرابلس الغرب عام ٨٩٩ هـ .

ابن الشّاط

أبو القاسم قاسم بن عبدالله بن محمد بن الشاط الأنصاري السبتي ، والشاطُ اسم لجده ، وكان طوالاً فجرى عليه . كان نسيج وحده في أصالة النظر ونفوذ الفكر وجودة القريحة وتسديد الفهم الى حسن الشمائل وعلوّ الهمة والعكوف على العلم والاقتصار على الآداب السنيّة والتحلي بالوقار والسكينة ، أقرأ بسبتة الأصول والفرائض وكان مقدماً فيهما موصوفاً بامامتهما . وكان موفور الحظ من الفقه حسن المشاركة في العربية كاتباً مرسّلاً ريان من الأدب وله نظر في العقليات .

قرأ على الاستاذ ابن ابي الربيع وعلى الحافظ أبي يعقوب المحاسبي وغيرهما وأجاز له أبو القاسم بن البراء ، وأبو محمد بن أبي الدنيا وأبو العباس بن الغماز وأبو جعفر الطباع وأبو بكر بن فارس وغيرهم وأخذ عنه الجلّة من أهل الأندلس كالأستاذ أبي زكرياء بن هذيل وأبي الحسن بن الحُباب والقاضي أبي بكر بن شبرين وغيرهم . وله تآليف منها أنوار البروق في تعقب مسائل القواعد والفروق ، وغُنية الرائض في علم الفرائض وغيرهما . وكان مجلسه مألفاً للصدور من الطلبة والنبلاء من الناس . مولده في عام ٦٤٣ بمدينة سبتة وتوفي بها عام ٧٢٣ هـ .

ابن غازي

هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن علي بن غازي المكناسي ، ثم الفاسي ، شيخ الجماعة بها . نشأ بمكناس كما نشأ بها أسلافه ، ثم ارتحل الى فاس في طلب العلم ، فاقام بها مدة ،

ولقي من مشايخها عدةً ضمّنهم ثبَته الذي سماه بالتعلل برسوم الأسناد بعد انتقال أهل المنزل والنّاد . ثم عاد الى مكناس فأقام بها بين أهله وعشيرته زمناً ، ثم انتقل نهائياً الى فاس ، فاستوطنها وبقي بها حتى توفي سنة ٩١٧ هـ .

كان رحمه الله استاذاً ماهراً في القراآت ووجوهها، مُبرّزاً في علوم العربية والفقه والتفسير والحديث وعلم الرجال والسيَر والتاريخ والأدب، درس على القوْري وغيره. وأخذ عنه الجماهير إذ قد تفرد برئاسة الهيئة العلمية في عصره ، ولم ينازعه أحد في ذلك . له شفاء الغليل في حل مقفل خليل ، بيّن فيه هفوات بهْرام والمواضع المشكلة من مختصر الشيخ خليل المالكي ، أجاد فيه ما شاء ، وهو من أحسن الموضوعات عليه وله تكميل التقييد وتحليل التعقيد ، كمّل به تقييد أبي الحسن الصُّغيِّر على المدوّنة ، وحل مُشكل كلام ابن عرفه في مختصره في ثلاثة أسفار . وله غير ذلك مما يذكر في محله .

ابن بُـرّي

أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد بن الحسن التّازي الشهير بابن بَرّي ، أحد المهرة في العلوم العربية والقراءات ، وكان كاتباً بليغاً لغوياً عروضياً متفنناً في كثير من العلوم وله خطٌ بارع ونَظمٌ جيّد . وهو صاحبُ الدُّرر اللوامع في قراءة نافع وغيرها من الكتب النحوية والعروضية . وتوفي سنة ٧٣١ هـ .

الخَـرّاز

أبو عبدالله محمد بن محمد بن ابراهيم الأَموي المعروف بالخرّاز ، كان إمامَ القُراء بفاس وهو صاحب موْرِد الظّمآن في علم الرسم . وكان يُعلّم الصّبيان وذلك سِرُّ نجاحِ أسلافِنا ، إذ كانوا يُسنِدون الأمور الى أهلِها فلا يظلمونها . وتوفي رحمه الله سنة ٨١٨ هـ .

أبن آجُرُّوم

أبو عبدالله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي الفاسي ، عرف بابن آجرُّوم النحوي المقرىء الشهير . مولده عام ٦٧٢ ووفاته عام ٧٢٣ بفاس . وأخذ عن أبي حيّان وعنه محمد بن علي الغساني وله من غير المقدمة شرح حرز الأماني في القراءات ونظمٌ في قراءة نافع سماه البارع .

المكّودي

أبو زيد عبد الرحمن بن علي بن صالح المكّودي الفاسي ، إمامُ النحاة في عصره . ونسبَتُه الى بني مَكّود إحدى قبائل هوّارة الذين مستقرّهم فيما بين فاس وتازة . كان بيتُهم من بيوتات فاس العريقة في العلم والجاه وكان لهم زقاق يُعرف بهم . وكان أبو زيد هذا من مفاخرهم ، إماماً في النحو واللغة والعروض وسائر فنون الأدب ، درّس كتاب سيبويه بمدرسة العطارين وهو آخرُ من درّسه بفاس وبعده صار العمل على الفية ابن مالك التي وضع هو عليها شرحه المشهور . ومن كتبه غيرَ شرح الألفيّة شرحُ الأجرومية ، وشرحُ المقصور والممدود لابن مالك والبسطُ والتعريف في علم التصريف ونظم المعرّب من الألفاظ والمقصورةُ في مدح النبي ﷺ ، نحو ثلاثمائة بيت . وقد نكّتَ فيها على حازم وابن دريد ، وتأتي في القسم المنظوم . توفي رحمه الله عام ٨٠٧ هـ.

ابن هانئ

أبو عبدالله محمد بن هانىء اللخمي السّبْتي ، من كبار علماء العربية ، ومؤلّفي الأدب في هذا العصر ، قال ابن الخطيب في حقّه : « عَلَمٌ تشيرُ له الأكفّ ويعمَلُ

الى لقائه الحافر والخُفّ ، رفع للعربية ببلده رايةً لا تتأخر ، ومرج منهـا الجنَّةً تزخر ، فانفسح مجال درْسه ، وأثمرت أدواح غرْسه ، فركض مـا شاء ، وبَرح ودوّن وشرح ، الى شمائل يملك الظرْفُ زمَامها ودعابةٍ راشت الحلاوة سهامَها » .

له كتب مهمة جداً منها شرح التسهيل لابن مالك ، تنافس الناس فيه ، وكتاب الغُرّة الطالعة في شعراء المائة السابعة ، وكتاب إنشاد الضّوالّ وإرشاد السؤال في لحن العامة ، وهو مفيد ، وكتاب قوت الُمقيم ودوّن ترْسيل أبي الُمطَرِّف بن عُمَيرة وضمّه في سفْرين . وله لطائف أدبية تأتي في محلها . وقد استُشْهد في حصار جبل طارق في ذي القعدة عام ٧٣٣ ورُثِيَ بقصائد منها قصيدة أبي بكر بن شبرين التي يقول فيها :

قد كان ما قال البَريد فاصبِرْ فحزْنكَ لا يُفيـد

أوْدَى أبْنُ هانىء الرِّضى فاعْتَادَني للثُّكْلِ عِيـد

ابُوالقَاسِم الشَّريف

أبو القاسم محمد بن احمد الشريف الحسني السبتي ، القاضي الفاضل ، نخبَة الأدباء في وقته ، كان متُبحّراً في العلوم الأدبية من تاريخ وأخبار ونحو وبيان وعَروض ، متقدّماً في الفقه والأحكام ، مع توقُّد الذهن وأصالة الإدراك . وليَ الكتابـة والخطابة والقضاء عن ملوك بني الأحمر في الأندلس ، وطار صيتُه ونبُه ذكره ، وقـد أخذ عن أبيه وعن ابن هانىء وابن رُشَيد وغيرهم ، وعنه ابنُ الخطيب وسواه ، وله تصانيف بارعة منها رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة ، وهو شرح لمقصورة حازم ، ورياضة الأبيّ وهو شرح على الخزرجية في العروض . وكان أوّل من فكّ ختِامها بعد أن أعجزت نبهاءَ الوقت وشرْحُ تسهيل ابن مالك وديوان شعر ، وسنثبت طرفاً من أدبه في المنتخبات .

مولده بسبتة في ربيع الأول عام ٦٩٧ وتوفي قاضيا بغرناطة في شعبان عام ٧٦٠هـ.

ولكثرةُ مقامِه بغرناطة يُطلِق عليه بعضُهم الشريف الغرناطي وليس بغرناطي كما علمت .

ابنُ أبي زرع

أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عُمر بن أبي زرع الفاسي المؤرخ الثقة ، صاحب أجمع تاريخ للمغرب من لدُن قيام الدولة الادريسية الى وقته ، وهو العصر المريني .. وقد اختلِفَ في اسمه ونسبه اختلافٌ كبير ؛ ولكن الراجح هو ما ذكرنا . ولا نعرف عن حياته إلا القليل ، لأنه ضنّ على قراء تاريخه بلمْحةٍ ولو خاطفةٍ من التعريف بنفسه .. وذكر الحلبي في الدرّ النفيس أنه كان عدلاً يحترف التوثيق بسماط العُدول بفاس ، وذلك مما يدل على تثبُّته ونزاهته فيما نقل من الأخبار عن تاريخ الدول السابقة والدولة التي عاصرها وهي دولة المرينيّين . وعلى كل حال فان كتابه المعروف بالقرطاس واسمُه الكامل (الأنيس المطرب برَوض القرطاس فيأخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس) هو أهمُّ مصدرٍ لتاريخنا الوطني منذ انفصال المغرب عن دولة الخلافة العباسية الى هذا العصر ، وقد اعتمده ابن خلدون وذكره ابن الخطيب في الإحاطة وأثنى عليه كثيرٌ من العلماء . وله غير القرطاس تاريخ مُطوَّل يُسمّيه أزهار البستان في أخبار الزمان يُعتبر في حكم الضائع الآن . وكانت وفاته رحمه الله بعد سنة ٧٢٦ .

ابنُ بَطُّوطه

أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللّواتي الطنجي ، الرحّالة الشهير ولد ونشأ ببلده طنجة . ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره أوحتْ إليه نفسه الكبيرة بالتّرحال والتّجوال ؛ فامتطى صهوةَ الاغتراب من وطنه وأخذ يذرعُ الأرض طولاً وعرْضاً . وكان خُروجه من طنجة سنة ٧٢٥ فجال في المغرب وافريقية وطرابلس وبرقة ومصر والشام والعراق واليمن وسواحل افريقية الشرقية وجزائر

بحر فارس ، ودخل الأناضول وجال فيها وقدم بلاد القرم وساحَ في جنوبيّ روسيا ودخل الى بلاد البَلْغار والقُسطنْطينيّة . ثم جال في البلاد الواقعة شرقي بحر الخزَر ودخل خُوارزْم وبُخارى وخُراسان وقِندَهار ووادي السِّند وأقام بدهلي حاضرة الهند ونُصِبَ على القضاء فيها . ثم ساح في الأقطار الصينيَّة والتترية ودخل سَيلان وسومَطرة وجاوه وباكين قاعدةِ الصين وابتُلِيَ هناك بالأسر وتملَّص بعد خطب طويل ، فانقلب راجعاً الى المغرب . وكان قد بارح بلاده منذ ٢٤ عاماً . وما لبث أن وصل الى طنجة حتى عاد الى الرحلة فدخل اسبانيا وتطوف فيها . ثم عاد وقصد السلطان أبا عِنان المريني بفاس فحظيَ عنده وأفاض عليه من عطائه ما أنساه تجشّم الأسفار واقتحام الأخطار . وذهب رسولاً منه الى بلاد السودان ، ثم عاد الى فاس وبها ألقى عصا التسيار وألف رحلته (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) . ومات سنة ٧٧٧ أو ٧٩ هـ .

ابن البنّاءِ العدَدي

أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي ، العلامة الفلكي والحاسب المشهور ، كان أبوه بنّاءً وطلب هو العلم فبلغ فيه الغاية القصوى . وُلد بمراكش سنة ٦٥٤ وطلب العلم بها ثم بفاس فاتقن العربيَّة وآدابها ، وحصَّلَ علوم الشريعة وبرَع في العلوم الفلسفية ولا سيَّما الرياضيَّة ، فكان لا يُدرَك شأوه فيها ولا يُبلغُ مداه . وعلى الأخصّ الهيئة والعَدد منها فان إليه انتهى عِلمُهما بالمغرب ، وعنده اجتمع ما تفرّق منهما بأيدي قدماء الرياضيّين من إسلاميين وغيرهم ، ولا يُعرف فيمن أتى بعده من تحقّق تحقّقه بمعرفة أسرار الفلك وحركات النجوم ، وبالعدد والضمّ والتفريق فيه ، وإنما غاية العلماء بعده في ذلك تفهُّم كتبه وتناوُلها بالشرح والتفسير ، مثلما فعل ابنُ هَيدُور وغيرُه ، فانه شرح تلخيص ابن البناء الحسابي ورفع الحجاب له أيضاً .

وتلخيصُ ابن البناء هذا هو الذي قال عنه ابن خلدون أثناء الكلام على الحساب من العلوم العددية « أنه ضابط لقوانين أعماله مفيد » ورفع الحجاب قال عنه : « هو كتاب جليل القدر أدركنا المشيخة تُعظّمه وهو جدير بذلك » . ولابن البنّاء كتبٌ كثيرة نأتي على ذكرها بعد هذا . وكانت وفاته ببلده سنة ٧٢١ .

ابن البقال

محمد بن محمد بن علي بن البقال أبو عبد الله العلامة الأصولي المعقولي الفيلسوف ، من أهل تازة ، عرّف به بلديّه الأستاذ أبو الحسن بن برّي فقال : كان من العلماء المحقّقين المحصّلين المشاركين ، أخذ أوّلاً بتازة علم الفرائض والعدد على أبي عبد الله العبّاس بن مهدي والنحوَ والكلام على أبي عبد الله التسرجالي واستوطن فاساً ودأب على القراءة واستفرغ وسعه في المعقول سنين عديدة ، حتى حصّل التعاليم وأتقنها ثم أخذ أخيراً في التفسير والفقه الخلافي وكان له حظٌّ وافرٌ من اللغة والأدب والبيان والعروض والشعر والكتابة . وكان آخر عمره كثير التلاوة للقرآن ، محافظاً على صلاة الجماعة ، وله وِردٌ من الليل . وبالجملة ما رئي في وقته من حصّل من علوم الفلاسفة مثل ما حصّله مع الديانة والوقوف مع الشريعة . وأخذ في آخر عمره في تدريس الفقه ، فكان آيةً . وتوفي بفاس سنة ٧٢٥ ودُفِنَ أثر صلاة الجمعة داخلَ باب الفتوح ، وقد قارب الخمسين . قال في نيل الابتهاج : وله أجوبةٌ حسنة في التفسير والأصول أجاب بها أبا زيد بنَ العشّاب .

اللجائي

أبو زيد عبد الرحمن بن أبي الربيع اللجائي الفاسي ، العالم الرياضي الكبير . كان متحققاً بأجزاء من علم الهندسة والهيئة والحساب . نشأ في حجر والده أبي الربيع . وكان من فقهاء فاس ، وممن أخذ عن القرافي . وهو الذي أدخل مختصر ابن الحاجب الفقهي الى فاس ، فكان يأخذه بطريقته من قراءة الفقه ، ولكنه رأى ذاتَ يوم في النوم كأنه صعدَ الى السماء وأخذَ يُقلّب نجومها واحداً بعد واحدٍ فقصّ رؤياه على أبيه ، فقال له أقصدْ ابنَ البنّاء وخذْ عنه علومه ، قال ابن قنفذ : « كان اللجائي آيةً في فنونه ، ومن بعض أعماله أنه اخترع أسطرلاباً ملصوقاً في جدار والماءُ يُديرُ شبكته على الصفيحة ، فيأتي الناظرُ فينظر الى ارتفاع

الشمس كم هو وكم مضَى من النهار ، وكذلك ينظر ارتفاع الكوكب بالليل وهو من الأعمال الغريبَة ، وقد وقفتُ عليه زمانَ قراءتي بين يَديْه » . وتوفي سنة ٧٧٣ هـ .

عَائِشَة بنتُ الجيَّار

هي الطبيبَةُ البارعة عائشةُ بنت الشيخ الكاتب الوجيه أبي عبـد الله بن الجيّـار المحتَسِب بسبتة ، قرأت الطب على صِهْرها الشيخ الشهير أبي عبد الله الشَّريسي ونبغت فيه . قال في بُلغَة الأمنية : أدركتُها رحمة الله عليها وقد بلغت من السن نحو سبعين سنةً . وكانت امرأةً عاقلة عاليةَ الهمة ، نزيهةَ النفس ، معروفة القدر لمكان بيتها. لها تقدُّمٌ بالطبع وجزالةٌ في الكلام ، عارفةٌ بالطب والعقاقير ، وما يرجع الى ذلك ، بصيرة بالماء وعلامته وتأثل لها بطريقتها صيتٌ شيَّده الأمراء ، فطالما كانوا يجيزونها بالهدايا والتُّحف وغيرها ، لأجـل ما خبرُوه من حِرْفتِها ، وكانت لها رباعٌ تستغلُّها . ولم تزل سيدة محفوظة المنصب الى أن توفيت بعد أن عهدت بتوقيف رباعها في سبيل البرّ وسبُل الخيرات رحمها الله ونفعَنا .

* * *

اسماءُ الكتب المؤلفة في هذا العصر

وهاك الآن جدْولاً بأسماء الكتب المؤلفة في هذا العصر مما وقفنا عليه فقط ، لأننا لا ندّعي إحصاءها جميعاً . كيف وأصحاب الكتب انفسُهم لا يجوزُ أن يدّعي أحدٌ الاحاطةَ بمعرفتهم ، فما بالك بكتبهم ؟ وقد سِرْنا في ذلك على الترتيب الذي توخّيْناه في العصر السابق .

كتب الحديث والتفسير وتوابعها :

ترجمان التّراجم في بيان وجه مناسبة تراجم البخاري لابن رشيد ، السَّنَن الأبين في السَّنَد المُعَنْعَن له ، المُحاكمة بين مسلم والبخاري له ، تعليق على البخاري لأحمد

زرُّوق ، جزء في علم الحديث له . التعلُّل برسوم الاسناد بعد انتقال أهـل المنزل والنّاد لابن غازي ، نظم الطرق العَشْر له ، اختصار فتح الباري لابن هــلال المتوفى سنة ٩٠٣، شرح أحاديث الشّهاب لابن منصور المَغْراوي السجلماسي من أهل هذا العصر ، الروض الأنيق في شرح المُوَطأ له ، حلّ أغراض البخاري المُبهَمَة في الجمع بين الحديث والترجمة له ، شرح الشفا للزَّموري من أهل القرن التاسع ، شرح الشّفا لابن السكاك المتوفى سنة ٨١٨، شرح المُوطأ للزناتي المتوفى سنة ٧٠٢ مشيخة عبد المهيمن الحضرمي المتوفى سنة ٧٤٩ برنامج مشيخة أبي محمد بن أبي مسلم الأنصاري القَصْري المتوفى سنة ٧٧٣ ، شرح ابن بَرّي له . تجريد الصِّحَاح الثلاثة : البخاري ومسلم والترمذي ؛ لأبي عبدالله الكرسوطي الفاسي المولود سنة ٦٩٠ ، حاشية على صحيح مسلم لابن الشاطّ . أربعون حديثاً في الجهــاد لأبي القاسم التُّجيبي السبتي المتوفى سنة ٧٣٠ ، اختصار الكشاف لابن العابـد الفاسي المتوفى سنة ٧٦٢ ، تفسير الباء في البسملة لابن البَنّاء العدَدي ، تفسير الاسم فيها له، تفسير سورة الكوثر له، تفسير سورة العصر له ، حاشية على الكشاف له ، الدليل في مرسوم خطّ التنزيل له ، المُتشابه اللّفظِ في القرآن له ، كتاب تسمية الحروف وخاصيَّة وجودها في أوائل السور له . تفسير القرآن لأبي القاسم السّلوي من أهل القرن التاسع ، شرح مسلم له ، مورد الظمئآن في رسم القرآن للخرّاز ، عُمدةُ البيان في الرسم أيضاً له ، شرح الحُصْريَّة في القراءات له ، شرح ابن برّي له ، شرح العَقيــلة في القراءات له . الدرر اللوامع لابن بَرّي ، التحفة في القراءات لميْمون الفخّار المتوفى سنة ٧١٦ الدرّة له ، المورد له ، شرح مورد الظمئآن للشّوشاوي المتوفى سنة ٩٠٠ الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة له ، الأجوبة في التفسير لابن البقّال المتوفى سنة ٧٢٥ ، النافع في أصل حرف نافع للجادِيري المتوفى سنة ٨١٨ على ما في الجذوة ، شرح ضبط القيْسي له ، شرح ابن برّي له ، فهرست له ، نظم التّيْسير في القراءات لابـن المرحّل ، شرح حرز الأمـاني في القراءات لابن آجرُّوم ، البارع في قراءة نافع له ، الشافي في اختصار التيسير والكافي لابي القـاسم بن عمران الحضرمي السبتي المتوفى سنة ٧٥٠ .

كتب الفقه والتصوف وتوابعهما :

شرح مختصر خليل ثمان مجلدات للقـُوري المتوفى سنة ٨٧٢ ، المنهل المورود شرح

المقصد المحمود للجنّان من أهل القرن الثامن ، شرح وثائق الغرناطي له ، القواعد الخمس لأبي سعيد الرُّعَيني الفاسي المتوفى سنة ٧٧٩ المقدّمات له ، شرحها له ، الجامع المفيد له ، تنبيه الغافل وتعليم الجاهل له ، اختصار مقدمة ابن رُشد له ، الروضة البهيّة في البَسملة والتّصلية له ، المِهاد في الجهاد له ، الأسئلة والأجوبة له . المسائل الفقهيّة المنوطة بالأحكام الشرعية لابن منصور المغراوي السجلماسي . الغُرَر في تكميل الطُّرَر . طرر أبي ابراهيم الأعرج للكرسوطي الفاسي ، الدرر في اختصار الطرر له ، تقييدان على الرسالة كبير وصغير له ، تلخيص التهذيب لابن بَشير له ، تقييد على مختصر الطُّليطلي له ، تقييد على المدوّنة لابن أبي يَحيى التُّسولي المتوفى سنة ٧٤٩ ، شرح الرسالة له ، شرح التهذيب له ، الأجوبة له ، كتاب المناسك لابن هِلال ، الفتاوى له ، تقييد على المدوّنة لعبد النّور العِمراني ، الفتاوى له ، تحرير المقالة في نظائر الرسالة لابن غازي ، المسائل الحِسَان له ، شفاء الغليل له ، تكميل التقييد له ، إرشاد اللبيب الى مقاصد الحبيب له ، الكلّيّات الفقهية له ، الجامع المستوفي بجداول الحَوفي في الفرائض . رسالة الإخوان من أهل الفقه وحمَلة القرآن لابن ميمون الإدريسي المتوفى سنة ٩١٧ ، مراسِمُ الطريقة في علم الحقيقة لابن البنّاء العدَدي ، شرحه له ، عواطف المعارف له ، عمل الفرائض له ، الفصول في الفرائض له ، مقالة في الاقرار والانكار له ، مقالة في المدبّر له ، رسالة في إحصاء أسماء الله الحسنى له . الدرُّ النّثير لأبي الحسن الصُّغَير ، تقييد على المدونة له ، تقييد على الرسالة له ، تقييد على التهذيب له ، نظم في الفرائض لعبد العزيز اللّمطي ، نظم في التصوّف له . نهاية الرائض في الفرائض للجَدْميوي من أهل القرن السابع ، كفاية المُرتاض في تعالِيل الفرّاض له ، مفتاح الغوامض في أصول الفرائض له ، نصح ملوك الاسلام في تعريفهم بحقوق أهل البيت لابن السكّاك ، تعليق على تقييد أبي الحسن الصغير للتازغدري المتوفى سنة ٨٣٢ ، الوثائق للقاضي الفشتالي المتوفى سنة ٧٧٩ ، الجمع بين كتابي ابن القطان الفاسي وابن المواق على أحكام عبد الحق الاشبيلي لابن عبد الملك المراكشي ، المفيد في الفقه لابراهيم الفِجيجي المتوفى حوالي سنة ٩٠٠ ، تقييد على المدونة لأبي عمران العبدوسي المتوفى سنة ٧٧٦ ، تقييد على الرسالة له ، تقييد على التهذيب له ، شرح المدونة للزّناتي ، شرح الرسالة له ، تقييد على المدونة لأبي موسى الجنَاتي المتوفى سنة ٨٣٠ ، حِلْيَةُ الأعيان في شرح عمدة البَيان وهي مختصر للوَغْلِيسي في فرائض

الأعيان للشُّوشاوي الفتاوى له ، تعليق على المدونة للسطي المتوفى سنة ٧٥٠ ، تعليق على مختصر ابن شاس له ، شرح الحوْفيـة له ، اختصار أحكام ابن القطان للقبّاب المتوفى سنة ٧٧٩ ، شرح قواعد القاضي عياض له ، شرح بيوع ابن جماعة له . تحفة الحكام للزّقّاق المتوفى سنة ٩١٢ ، المنهج المنتخب على قواعد المذهب له ، معتَمد الناجب في إيضاح مُبهمات ابن الحاجب لأنقشاب من أهل القرن الثامن، شرح الرسالة له. المجالس في الفقه للقاضي المكناسي المتوفى سنة ٩١٧ ، التنبيه والإعلام فيما قضى به القضاة وافتى به المفتون من الأوهام له . تقييد على الرسالة نُسَخ متعددة لعبد الرحمن الجُزُولي المتوفى سنة ٧٤١ ، غُنْيَةُ الرّائض في علم الفرائض لابن الشاطّ ، دلائل الخيرات لأبي سليمان الجُزُولي المتوفى سنة ٧٨٠ ، حِزبُ سبحانَ الدّائم له ، كتاب في التصوُّف له . المباحثُ الأصلية ، نظم في التصوف لابن البنّاء السّرقسطي الفاسي ، المدخل لابن الحاج الفاسي ، النصيحة الكافية لأحمد زرُّوق ، إعانة المتوجّه المسكين على طريق الفتح والتّمكين له ، النُّصْحُ الأنفع له ، عُدّة المُريد له ، قواعد التصوف له ، الأصول في الفصول له ، تُحفَة المُريد له ، الروضة له ، مُزيلُ اللبس عـــن أسرار القواعد الخَمْس له ، شرح الرسالة الكبير له ، شرح الرسالة الصغير له ، شرح الأرشاد له ، شرح القُرطبيَّة له ، شرح الغافقيَّـــة له ، شرح المباحث الأصلية له ، شرح الحِكَم العَطائية أربع وعشرون نسخة له ، منهـــاج حزب البحر له ، شرح الحزب الكبير له ، شرح مُشكِلات الحزب الكبير له، شرح حقائق المقّري له ، شرح قِطَع الشُّشْتَري له ، شرح الأسماء الحسنى له ، شرح مَراصِد ابن عُقْبة له .

كتب الكلام والمنطق والأصول :

شرح العقيدة القُدْسيَّة لأحمد زَروق ، الاقتضاب والتّبيين في علم أصول الدين لابن البنّـاء العددي ، رسالة في الفرْق بين الخوارق الثلاث المعجزة والكَرامة والسِّحْر له ، مُنتهى السُّول من علم الأصول له ، تنبيه الفهُوم على مَدارِك العُلوم في الأصول له ، شرح تنقيـح القرافي له . شرح تنقيح القَرافي للشُّوشاوي ، الأجوبة في التفسير والأصول لابن البَقّال ، أنوار البُروق في تعقُّب القواعد والفروق لابن الشاطّ . اختصار حدُود الشّيرازي للرُّعَيْني الفاسي . نظم في الكلام لعبد العزيز اللّمْطي ، نظم في المنطق له ، نظم في الجدَل له ، نظم في الأصول له .

كتب التراجم والتاريخ والجغرافية :

الغرّة الطالعة في شعراء المائة السابعة لابن هانيء، الذيل والتكملة لابن عبدالملك المراكشي ، البيان المغرب لابن عذاري المراكشي . الذّخيرة السّنيّة في أخبار الدولة المرينية ، القرطاس لابن أبي زرع ، أزهار البستان في أخبار الزمان له ، المغرب في صلحاء المشرق والمغرب للرعيني الفاسي ، الرحلة له ، نظم مراحل الحجاز له ، نظم رجال الحلية لابن جابر المكناسي ، الرّوض الهتون في أخبار مكناسة الزّيتون لابن غازي . زهرة الآس في بناء فاس لأبي الحسن الجزنائي من أهل القرن الثامن ، تاريخ أبي سعيد الأصغر للتاورتي مات أول القرن التاسع . الإشادة في ذكر المشتهرين من المتأخرين بالإجادة لأبي القاسم العزفي المتوفى سنة ٧١٧ ، ملء العيبة لابن رشيد . تحفة النظّار لابن بطوطة، رحلة العبدري الحاحي . تاريخ عبدالله الزّرعي الجذميوي السبتي في ٤٠ سفراً ، كتاب الكوكب الوقّاد فيمن حل بسبتة من العلماء والصلحاء والعبّاد للحضرمي ، بلوغ الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة من مدرس وأستاذ وطبيب له ، فرغ منه يوم الخميس ٢١ شعبان ٨٢٤ .

كتب الأدب والدواوين الشعرية :

ديوان ترسيل أبي المطرّف ابن عميرة لابن هانيء ، رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة لأبي القاسم الشريف ، رياضة الأبي في شرح قصيدة الخزرجي له ، ديوان شعره له . إحكام التأسيس في أحكام التجنيس لابن رشيد ، إيراد المريد روائد التسجيع والترصيع له ، وصل القوادم بالخوافي في ذكر أسماء القوافي له ، جزء في العروض له ، المقصورة المكّودي ، أرجوزة في العروض له ، ذلك في الرحلة ، نظم الثلث الأول من أدب الكاتب له ، العشريات الزهدية له ، الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والأخرى له ، نظم في البيان لعبد العزيز اللمطي . المنفرجة التازية لابن يحبش التازي المتوفى سنة ٩٢٠ ، الروض المريع في صناعة البديع لابن البنّاء العددي ، عيوب الشعر له ، قانون في معرفة الشعر له، قانون في الفرق بين الحكمة والشعر له، نزهة الناظر لابن جابر ، تسميط البردة له، القصيدة الصيدية لابراهيم الفجيجي وهي قصيدة تشتمل على فنون من الوصف والحماسة وتدبير الصيد وغير ذلك مما

يتعلق بهذه الرّياضة الجميلة . شرح المقامات الحريرية للزّناتي ، النُّصْحُ التام للخاص والعام . قصيدة في المواعظ والحكم لأبراهيم التّازي المتوفى سنة ٨٦٦ .

كتب النحو واللغة :

شرح التّسْهيل لأبي القاسم الشريف ، شرح كتاب سيبويه لابن رُشَيْد ، نظْمُ فصيح ثعلب لابن المرحّل ، شرحه له ، نظم غريب القرآن له ، نظم اختصار اصلاح المنطق له ، الرّميُ بالحصَى والضّربُ بالعَصَا له ، ردّ به على ابن أبي الرّبيع النحوي ، الأجرُومية لابن آجروم ، الكلّيات النحوية لابن البنّاء العددي ، شرح الألفية للمكّودي ، شرح الأجرومية له ، البسْط والتعريف في علم التصريف له ، نظم المُعرّب من الألفاظ ، شرح المقصور والممدود له ، تحفة الناظر في غريب الحديث للرُّعَيْني الفاسي ، شرح غَريب الشّهاب لابن مَنصور المَغْرَاوي السجلماسي ، شرح غريب البخاري له ، شرح غريب الموطأ له . المذكر والمؤنث للجاديري ، شرح الألفية لابن غازي ، شرح الآجروميّة لأبي عبدالله الشريف من أهل القرن الثامن ، شرح شواهد الشريف شارح الأجروميّة للدّقّون المتوفى سنة ٩٢١ ، نظم الآجروميّة لميمون الفخار ، لاميّة الجُمَل للمَجْراد المتوفى سنة ٧٧٨ ، شرح جُمَل الزّجّاجي لأبي عبدالله الغافقي السبتي المتوفى سنة ٧٣٠ ، شرحه أيضا لأبي محمد بن مسلم الأنصاري القصري . ألفية في النحو لعبد العزيز اللمطي .

كتب في مختلف العلوم الكونيّة

علم الجدْوَل لابن البنّاء العدَدي ، شرحه له ، التلخيص في الحساب له ، رفع الحجاب في الحساب له ، مقدمة على أُقْلِيدس له ، المُسْتَطِيل في بيان أحكام النجوم له ، المدخل الى علوم النجوم له ، جزء في العَمل بالرُّومي له ، مِنْهاج الطالب في تَعْديل الكواكب له ، علم الأسْطرُلاّب له ، العَمَل بالشكاريّة والدرْقَالِية له ، رسالة في ذكر الجهات وبيان القِبْلة له ، جزء في الأنْواء وصُوَر الكواكب له ، كتاب الفِلاحة له ، قانون معرفة الأوقات بالحساب له ، قانون في معرفة فصول السنة له ، قانون في تَرْحيل الشمس له ، طبَائعُ الحروف له ، صناعة الأوْفَاق له ، مقالة في العزائم والرُّقَى له ، مقالة في عمل الطلّسْمَات له ، مقالة في الزّجْر

والفأل والكهانة له ، مقالة في خط الرَّمْل له ، اليَسَارة في تقديم السيّارة له ، رسالة في كُرِيّة الأرض له ، رسالة في تحقيق رؤية الأهلّة له ، الردُّ على من قال إن وقتَ العصر يُعلَمُ بوقوع قُرْصِ الشمس على بَصَرِ القائم مُقابلاً له ، نظم أبي مَقْرَع في علم الهيئة . الدّوْحة المشتبكة في ضوابطِ دار السكّة لأبي الحسن بن يوسف الحكيم المديوني ، شرح تلخيص ابن البنّاء العدَدي لابن هَيْدور المتوفى سنة ٨١٦ ، شرح رفع الحجاب له ، روضة الأزهار في علم الليْل والنهار للجادِري ، اقتطافُ الأنوار في اختصار روضة الأزهار له ، كتاب في العمل بالاسطرلاب والصّفيحَة الشكّارِيّة والرُّبُع بالحساب والجَدوَل له ، تنبيه الأنام على ما يحدُث في أيام العام له ، شرح نظْم أبي مقرَع له ، مُنْيَةُ الحُسّاب في علم الحساب لابن غازي ، شرحها له . السمْلالِيّة ، رَجزِيّة في الحساب لإبْرَاهيم السملالي من أهل القرن التاسع ، نظْمُ المَرْقَبَة العُلْيا في تعبير الرؤيا لابن جابر ، كنوز الأسرار ولواقح الأفكار لأنقشّاب ، رَجزٌ في علم الأوفاق لعمر بن عبد العزيز الجزنائي ، توفي في أوائل القرن التاسع . موسوعة منظومة تحتوي على نيف وعشرين علما لعبد العزيز اللمطي .

الحيَـاة الأدبيَّـة

قدَّمنا أن هذا العصر كان هو العصرَ الذهبيّ للعلوم الأدبية في المغرب . وعليه فيكون هو أزهى عصور الانتاج الأدبي فيه ، لأن هذا الانتاج يتبعُ غالباً تلك العلومَ رُقيّاً وانحطاطاً ، خصوصاً عندما يكون الاعتماد على الدراسة والتلقين ، لا على السَّليقَة والطَّبع .

وفوق ذلك ، فانّ الوسَط الأدبي في المغرب ، لم يبلُغ من الرُّقي في عصر من العصور ما بلغ في هذا العصر ، فقد اشترك في تكوينه جميعُ الطبقات من الملوك فمَن دونهم الى السُّوقة . أما الملوك فقد علمتَ أن أكثر سلاطين بَني مَرين كانوا من أهل العلم والمعرفة والمشارَكة في فنون الأدب ، وبالطبع فان وُزَراءهم وحجّابَهم وقُوّادَهم فضلاً عن كتّابهم وقضاتهم كانوا كذلك ؛ إذ يستحيلُ أن يقرُبَ بساطَ الملوك ، إذا كانوا ملوكاً بمعنى الكلمة ، غير أهل الكفاآت النادرة من أرباب المعارف المتنوعة ، وكذلك كنتَ لا تجد في منصِبٍ من مناصب الدولة الا رجلاً كُفوءاً لا يُؤتى من قُصور ، ولا يُعاب من تقصير ، حتى ذوو البيوتات الذين كانوا يتوارَثون الرياسة في هذا العصر كبَني العَزَفي وعبد المهيمن وأبي مَدينَ والمكُّودي والقبائلي ، لم يكونوا على ما عُهِدَ في أمثالهم من الاعتداد بالأحساب والاتكال على الأنساب وإنما كانوا كما قيل :

إنّا وَإنْ أَحسابُنا كَرُمَتْ لسْنَا عَلى الأَحْسابِ نتَّكِلُ

نبني كما كانت أَوَائِلُنـا تبني ونفعَلُ مثلَ مـا فعلوا

[illegible] ممَّن دون الملوك ، ولكنهم فوق السُّوقة . وأُما السُّوقة فقد أشرنا فيما سبق [illegible] أثَرت فيهم نهضة علوم اللسان وما مكّنت لهم من تذوُّق أسرار اللغة وفهم أغراض الأدب ، حتى لمن كان منهم في طبَقَة صاحب حديث « اللـَّظافة » الآتي

ولا يخفى أن في هذا العصر استفحَل ذلك الشعرُ العاميّ الذي يتحدَّث عنه ابنُ خلدون في المقدَّمة ، وهو من نظم عوامّ المغاربة ؛ فيكون من الدلائل القاطعة على تمامِ استعرابِهم ، وبالتالي على رُقيّ الوسَط الأدبي عندهم ، لأنهم ما نقَلوا الشعرَ من رَطانتِهم الى العربية حتى كان قد تغَلغَل الرُّوح العربي فيهم الى حدٍّ بعيدٍ جداً . ولا عِبرة بما في ذلك الشعر من ألفاظٍ ركيكةٍ وتراكيبَ ضعيفة ، وإنما العِبرةُ بكونه نظماً على الأسلوب العربي وبألفاظ عربية في الجملة ، يصدر من عوامّ المغرب الذين لم يَثقَفوا علماً ولا أدباً .

والعجَبُ ممَّن خَفيَ عليه هذا الأمر ، فراحَ ينعي على المغرب حظَّه من اللغة والأدب ، ويَستشهدُ بذلك الشعر الذي هو من قول عوامِّ أهله . ولقد كان خَليقاً أن يستشهد به على قوَّةِ انتشار اللغة العربيّة وآدابها في المجتمَع المغربي الذي يقول عامَّتُه مثلَ ذلك الشعر ؛ ولكنه لِقُصوره لم يعرِفْ أن للمغرب شعراء كأعظم شعراء بلاده ان لم يكونوا أعظمَ منهم . وابنُ خلدون لم يجعل هؤلاء العوامَّ هم شعراء المغرب ، وإنما أتى بهم دليلا على ضُعف الملكَة الشعريّة عند أهل الأمصار ، وخصوصاً الأعجام منهم. ولو زاوَلوا الصناعة بالتعليم ، وهو يُغرِقُ على عادته في هذه النظرية فيتناسى ما لأهل هذه الأمصار من اليد الطُّولى على العربية وآدابها خصوصاً في عصره ، وقد كان مُحاطاً بكثير من نُبغائهم الذين لا يقصِّرون عن غيرهم في فنٍّ ولا أدب ؛ فجاء مؤلفا كتاب المطرب في أدب الأندلس والمغرب ، ففَهِما عنه أن أُولئك العوامَّ هم شعراء المغرب ، فانكرا العلم والأدب على المغاربة ، فظَلَما المغربَ والتاريخَ الأدبي أشدَّ الظُّلم ، وكانا كمن يسمَعُ أزجالَ عوامّ المصريّين فيحكم على مصْرَ بالعُقْمِ الأدبي ناسياً الشوْقيّاتِ وغيرَها من الآيات البينات[1].

وبعدُ فما نريدُ أن نقوله هو أن هذا الوسطَ الأدبيَّ الطافِحَ بعناصر الحياة ،

---

١ – ان مثل هذا الغلط كثيراً ما يقع فيه كتاب الشرق ، وما نبهنا على هذا الكتاب بخصوصه الا لأنه من أحدث ما اطلعنا عليه في هذا الباب . وعلى كل حال فاللوم لا يتوجه عليهم بقدر ما يتوجه علينا نحن الذين اهملنا أنفسنا حتى صرنا كما قال القائل :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلسنا من الأموات فيها ولا الأحيا

كان هو مَهْدَ هذه الحركة الأدبية الذي فيه نشأت ، ومنه درَجَتْ ، فما ظنُّك بما تكون عليه من قوّة المادّة والرُّوح ؟

نعم ، وقد كان هذا الوسط يُغْري كثيراً من ذوي الشخصيّات الأدبية الكبيرة في افريقية والأندلس فيَؤمُّون الحضْرةَ الفاسيّة ، ويستوطِنُونَها ناسِينَ بما يلقَونَه فيها من التّجِلّة والإكرام ، أوطانَهم الأصليّة ومعاهِدَ شبابهم الأولى ، وعلى رأس هؤلاء ابنُ خلدون وابن الخطيب وابن جُزَيّ وغيرُهم ممّن سبقت الإشارةُ الى بعضِهم . وقد كان انتقالُهم الى المغرب في هذا العصر طَوْعاً ومن تِلقاءِ أنفسهم ، بل اختياراً وإيثاراً له على أوطانهم لا كما كان في العصر السابق كرهاً واضطراراً ، لأنّ عاصمة الدّولة ومقرّ السلطة المركزيّة كان في مراكش ، فلا مَعْدى لِذوي المصالح وأرباب الكِفايات من اللُّجوء إليها ولا كذلك في هذا العصر ، فان قِيام دولة بني نصْر في غَرناطة ، والدولة الحفصِيَّةِ في تونس ، ودولةِ بني عبد الوادْ في تلمسان كان حريّاً أن يصرفَ وجْهَ النُّخْبَة من أبناء هذه البلاد عن المغرب ، مع أن الأمر كان كما قُلنا بالعَكس ، فما ذلك إلا دليل على أن الجوّ الأدبي في المغرب هو الذي كان يستمِيلُهم اليه .

والحاصلُ أن في هذا العصر بلغَ الأدبُ المغربي كمالَه ، فتخلَّص من سائر التأثيرات الأجنبيّة عن النفس المغربيّة ، وشقّ لنفسه طريقاً نحوَ الغاية المقصودة ، وهي سَدُّ حاجة تلك النفس الظامِئَة الى حياة أدبيّة حُرّة تتمثّل فيها عواطِفُها ومشاعِرُها وسجاياها ومزاياها مُصوَّرةً بصورةٍ طِبْقِ الأصْل لا رِياء فيها ولا تصنُّعَ ولا ادّعاء ولا تقليد ؛ فبلغ تلك الغايةَ وأوْفى عليها بمَزيد التفنُّن والإبداع ، ولا سيّما في الشعر الذي حمَل الطابَع المغربي وحْدَه منذ هذا العصر ، فتَجِدُ الحقيقةَ فيه تسبِقُ الخيالَ ، والطّبْعَ يغلِبُ الصُّنْع والقَصْد الى الوُضوح أكثرَ من التعمُّق ، والرّقّةَ والجَزالةَ والسهولةَ في غير ضَعْفٍ ولا غرابَة ولا فُسولة ولا تَنَطُّس وصْفَ الشاعر ابن زمْرَك لطريقة أدباء المغرب بأنّها عربيّة ، وهو الذي نقلناه في الكلام على الحياة الأدبية في العصر السابق ، ويكفي أن في هذا العصر نبَغَ ذلك الشاعر الذي يحِقُّ أن يقال عنه ، إنه شاعرُ المغرب الأكبر ، ونعني به مالكَ بن المُرحّل الذي طبّقت شُهرته العالم العربي على رغم ما مُنِيَ به أُدباءُ المغرب من خمُول الذكر ، والذي لم يسَع ابنَ خلدون إلا أن يعترفَ بشاعريّته

على ما عُلِمَ من تحفُّظه الشديد ؛ ولكن يا أسفي لضَياع شعر هـذا النابغة الفَذّ وغيره من شعراء هذا العهد ، الذين نعتقد أنه لو وصلَتْ الينا جميعُ آثارهم لَمَا بقي من يُنغِضُ رأسا عند ذكر أدب المغرب ، لا من أمثال صاحب رسالة المُفاخرة بين العُدْوَتَيْن ، ولا من أمثال صاحِبَيْ كتاب المطرب .

ونذكر الآن مختصَر تراجم النابهين من أدباء هـذا العصر ، لأن الاتّساع في ذلك والاحاطة بجميعهم مما يضيق عنه صدرُ هذا الموضوع .

مالك بن المرحّل

هو أبو الحكم مالكُ بنُ المُرحّل السبتي ، أعظمُ شعراء المغرب شهرةً على الاطلاق ، ولد سنة ٦٠٤ ونشأ بسبتة خاملَ الذكر خفيَّ المنزلة فأنهضَه أدبُه وشعْرُه ، وعوَّضاهُ من الخمول الظهورَ ؛ فكان في عصره شاعرَ المغرب غيرَ مُدافَع ، وأطبعَ شعرائه أسلوباً وأرشقَهم لفظاً ، وأبلغهم معنىً . استعانَ على ذلك بالمقاصد اللّسانية لغةً وبياناً ، ونحواً وعروضاً وقافيةً وحفظاً للجيّد من الشعر ، واضطلاعاً بمعرفة معانيه وتراكيبه ؛ فانه كان في ذلك نافذَ الذّهْن ، شديدَ الادراك ، قويَّ العارضة ، سريعَ البَديهة . وكان قد تلاَ القرآن بالسّبْع ، وذلك مما زاده بصراً بأسرار العربيّة .

كان ابنُ المُرحّل يتعاطى صناعةَ التّوْثيق ببلَدِه سبتة ، واستُقْضِيَ مرةً ببعض الجِهات ، وكان مدّاحاً ليعقوب المنصور المريني ومختصاً به ، وعلى تعمِيره ، وتقدُّمه في السنّ لم يضعُفْ في رواية العِلْم والشعر والمُلحِ والفوائد ، بل كان إنما يزداد سعة درْع وانفِساحَ بَاع في ذلك ، ومن شِعْرِه لما بلغ الثمانين سنةً :

يا أيُّها الشيخُ الذي عُمْرُه ... قد زادَ عشْراً بعد سَبْعينا

سَكِرْتَ من أكْوَاسِ خَمْرِ الصِّبَا ... فحَدَّك الدهرُ ثمَانينا

وله تآليفُ سبقَ ذكرها ، وأخبارُه وأشعاره تأتي في المنتخبات ، وتوفي بفاس سنة ٦٩٩ هـ .

الملزُوزي[1]

هو أبو فارس عبدُ العزيز الملزوزي ، شاعرُ الدولة المَرينيّة وبُلبُلُها الصدّاح ، يأتي بعد ابن المرحّل في قوة العارضة وتدفّق الطّبْع والتفنّن والابداع في ضُروب القول . وكان المنصورُ شديدَ التقريب له فرافقَه في جميع حركاته ، ما كان منها بالأندلس أوْ بغيرها ، وصدر منه في وصف تلك الوقائع الحربيّة قصائد فخْمَة ، منها تلك التي قالها بعد عودة المنصور من غزْوته الكبرى بالأندلس سنة ٦٨٤ وهي مَلْحَمَةٌ فريدةٌ في الأدب المغربي تُناهز أبياتها المائتين والخمسين بيتاً ، هنّأهُ فيها بالنصر على العدوّ وعدّدَ أياديه على الرعيّة ، ونوّه بالأبطال من قبائل زِنَاتة ، فاجازه المنصور عليها بعشرة ألاف دينار ، وأعطى مُنشِدِها بين يديْه وهو الاستاذ ابو زيد الغَرَابِلي الفَ دينار ، وسنُثْبِتُها في محلها من هذا الكتاب . وللمَلْزُوزي أرجوزةٌ بارعة سمّاها نظم السُّلوك في أخبار من نزل المغرب من الملوك . وقد استشهدنا بأبيات منها فيما تقدم .

ابُوالعبّاسِ العَزفي

هو أبو العباس أحمد بن الرئيس أبي طالب اللّخمي من بيت العزَفي الذي تداول رياسة سبتة من لندن أواخر دولة الموحّدين ، كان شاعراً غزِلاً رقيقَ الحاشية ، شفّاف الدّيباجة ، بديعَ التشبيه ، حسن المُقَابلة ، وهو فاضلُ أهل بيتِه في هذا الباب ، على أنه ما فيهم الا فاضلٌ ابنُ فاضلٍ ، ذكرَه أخوه الحافظ أبو القاسم في كتابه (الإشادة في المشتهرين من المتأخرين بالإجادة) فقال في حقه : « هو أخي الذي بإخائه أُزهى وأنتخي ، وكبيري المُعتمَد باجلالي وتوقيري ، ولولا خوفي من أن يلزَمني ما لَزِمَ مادحَ نفسِه ، لأطنبتُ في وصف ما له من المحاسن التي فاق بها

أبناءَ جِنْسه ، مع أنها لم تزَلْ على مَنصّة البيان مَجْلُوَّة ، وبألسِنَة الإبداع مَتْلُوَّة » دخل غرناطةَ سنة ٧٠٥ فلَقِيَ بها كلَّ تجِلّة وإكرام ، وبقي بها الى أن توفي في ٢٨ ذي الحجة عام ٧٠٧ هـ .

ابو العبّاس الجزنائي

هو أبوالعباس أحمد بن شُعَيْب الجزنائي الفاسي ، شاعر كاتب متضلّع في فنون الأدب ، حافظ للجيّد من الشعر ذُكِر أنه كان يحفظ عشرينَ الفَ بيت للمُحْدَثين . وكان له بصرٌ نافذٌ في نقْد الشعر ، وشِعْرُه مما سابَقَ به الفُحول وكِتابَتُه حسنة وخطُّه جيِّد . وكان كاتباً في ديوان الإنشاء عند أبي الحسن المريني ، وتسرَّى جاريةً روميّةً اسمُها صُبْح من أجمل الجواري وأحسنِهنّ ، ولقّنَها حظّاً من العربية ، فنظمت الشعر ؛ وكان شديد الغرام بها فهلكتْ فلم يُطِقْ عليها صبراً ، وقال فيها أشعاراً رائعة هي مثال البلاغة والانسجام .

وكان من أهل المعرفة بصناعة الطب ، والنظر في التعاليم ، وتهتّك في علم الكيمياء ، وخلعَ فيها العذار وله فيها موضوعات كثيرة . توفي بتونس في جملة مخدومه أبي الحسن يوم عيد الأضحى سنة ٧٤٩ هـ .

ابو عبد الله المكودي

هو أبو عبدالله محمد بن عبد الرحمن المكودي الفاسي ، شاعر مُبْدِع من أهل الظرف والأدب والانطباع ، بيتُه فيما علمتَ من بيوتات فاس العَريقة في المجد والحسب . نبَغ بالشعر فبَرَّزَ فيه ، واشتغَل بالكتابة في الديوان السلطاني زماناً ؛ إلا أنه شاعراً أكثرُ منه كاتباً . وهو من الشعراء الذين يُعنَوْن بتصوير العواصف

النفسية الدّقيقة ، والتعبير عن الإحساسات القلبيّة العَميقة ، فيكون لشعرهم أثرٌ جميل في النفوس ، ووَقْعٌ حسن في القلوب . وكان قد غلب عليه الشّرابُ واللهْو ، فزَرَى به ذلك ، وحطّ من قدره ، فلم يُلحَظْ بالعَين التي كان يجب أن يُلحَظ بها ، ولم يرتفِعْ ذكرُه ما بين الأدباء والشعراء المعاصرين . ولقد دخل غرناطة فيما يُحدّثُنا به ابنُ الخطيب ، فلم يُؤْبَه له ، ولم يُحتَفَل به ، وهكذا الاسترسالُ في مجاهل الهوى يُخِلُّ بالشرف ، ويقدَحُ في المروءة وتوفي سنة ٧٥٣ هـ.

ابنُ عَبْدالمنّان

أبو العباس أحمد بن يحيى بن أحمد بن عبد المنّان الأنصاري الخزرجي من أهل مكناس ، كاتبُ الدولة المرينية الشاعر الأديب ، الوصّاف المُعجب . كتب أولاً لأبي عِنان وله فيه أمداح بارعة ، ثم للسعيد أبي بكر وأبي سالم إبراهيم ، وأبي عُمر تاشَفين، وأبي زيّان محمد ، وأبي فارس عبد العزيز، وأبي زيّان الثاني، وأبي العباس أحمد المستنصِر ، وصفَه الأميرُ اسمٰعيل بنُ الأحمر في نَثير الجُمان فقال: « به تشرّف المصر وتظرّف العصر ، وحِيطَ الصُّقع ، وخِيطَ الرُّقع ، فتباهى الكلام بإقدامه ، وحطّ رأس التطوُّع بين أقدامه ، إن وصَف بَيّن ، وإن حلّى زيّن » . وهي أوصافٌ تُنبىءُ عمّا كان له من الكفاية والاقتدار في المَيدانين السّياسي والأدبي ، وشعرُه مُنوّعُ الأغراض ، ينتقِلُ فيه من فنٍّ إلى فن بغاية السُّهولة ، ولذلك يطولُ نفَسهُ ، ويأتي بالسّابقات الجياد . وهو لطيفُ التصوير ، بليغُ التعبير ، وصَف الساعة العجيبَة التي ركّبها أبو عِنان في مُواجَهة مدرسته بفاس فأحسن الوصف ، وكذلك وصفَ قتلَ الأسد بين يدَي مخدومِه المذكور ، بقَصرِه من المدينة البيضاء فاس الجديد ، ودُخولَ المحتال في الأكرَة المُعدّة للتحرُّش بالأسد والشبَكة المُعدّة لصيد الأسود في الفلاة وغيرَ ذلك؛ فأجاد في الجميع إجادَةً بالغة . وسنورِدُ هذه الآثار البديعَة في المنتَخَبات ، وتُوفي ابنُ عبد المنّان سنة ٧٩٢ .

ابن جابر المكناسي

هو أبو عبد الله محمد بن جابر الغسّاني المكناسي ، شاعرٌ مُجيد عالمٌ بالقراءات وتوجيهها ، مُتصرّفٌ في فنون العربيّة والأدب ، أكثرُ شعره الوصفُ والنّظم التعليمي . ويمتازُ بالسلاسة والعُذوبة وقُوّة التخيُّل . كان له شهرة مُطبّقة في أيام حياته ، وكان في مكناس كعبةَ القُصّاد من الأدباء والطلبة وغيرهم يجدون لديه ما تصبو إليه أنفسُهم من مُذاكرة الأدب ، ومُدارسَة اللغة ، وكان حُلوَ النّادرَة ، بديعَ الحكاية ، فكِهَ المحْضَر ، لا يكادُ جليسُه يسلو عنه . له "نزهَةُ الناظر لابن جابر" في وصفِ بلدهِ مكناس وله غيرُها . وتوفي سنة ٨٢٧ هـ .

وهو غيرُ ابنِ جابر صاحب البديعيّة فان ذلك أندلسي .

•

عصر السعديـين

سياسة الدولة

هذه ثانيةُ دولة عربيّة صريحة قامت في المغرب بعدَ الأدارسة ، بل ثانيةُ دولة علويّة بقطع النظر عمّا أرجفَ به خصومُها من الطّعن في نسبها . وهي لم تستنِدْ في قيامها الى مهدويّة ولا الى عصبيّة ، وإنما من أول الأمر كان نهوضها لتحقيق أمنية وطنيّة ، هي تنظيمُ القوّات الجهاديّة وقيادتُها لطرْد الأجانب المحتلّين لشواطىء البلاد وذلك بطلبٍ من المجاهدين أنفسهم ، فأشبَهت في هذا الأمر الدولة الإدريسية من حيثُ كونُها مطلوبةً لا طالبةً ، وكون نهضتها سياسيّة من أول الأمر لم تُموّه بشيىءٍ من الدعاوى الكاذبة ؛ وكونُ القائمين بنُصرتها والمنضَوين تحت لوائها هم البَربَرُ الذين قاموا بنُصرة الأدارسة من قبل ، وانضَوَوا تحت لوائهم . والعَجيبُ هو أنهم نصروهم على دولة بني وطّاس البربريّة ، فلم ينظروا إلى ما تقتضيه عصبيّة النّسب واللغة والقوميّة من الاحتماء لهم والدفاع عن سلطانهم أن يَزول ، وفي زواله فشلُ أمرهم وذهابُ رِيحهم ؛ لكنها كانت زاغت عن الصراط المستقيم واشتغلت بالتهالُك على طلب السلطة ، وظنّت الملكَ هو هذه المواكب التي يظهرون فيها بمظاهر الفخفخة والاختيال ، من غير نظر في مصالح الرعيّة ولا اهتمام بتحصين البلاد من هجمات العدو . فسَرعانَ ما اختلّت الأمور ، وتعرّضت الأمة لشقاء الاحتلال وتحكّم الأجنبي فيها فكثُرت إغارةُ البرتغاليّين على الشواطىء واحتلّوا منها ما احتلّوا وأخذوا يُعدّون العُدّة لضمّ أطراف المغرب بعضِها الى بعض ، وتمثيل مأساة عام ١٩١٢ في ١٥١٢ ، فكيف لا يتّحدُ البربر والعرب على رفع هذا العار عنهم وتلافي الخطر المُحيق بهم ؟ وبعدُ فهل تريد دليلاً أقوى من هذا على صِحّة إسلام البربر وصدق إيمانهم وتغلغل الروح الديني والتعاليم المحمدية في نفوسهم ، حيث غلّبُوا الرابطة الدينية على العصبيّة الجنسيّة والأخوّة الاسلامية على النّعرة القوميّة ، فدلّوا بذلك على اتحادهم مع العرب وائتلافهم بهم اتحادَ الروح مع الجسم وائتلافَ اليمين بالشمال ؟ اللّهم إنّ من يزعُم غيرَ ذلك ، ويُكابرُ في هذه الحقيقة الملموسة فانما غرضُه السّعايةُ وبثُّ سموم البغضاء بين ذوي القرابات الوشيجَة والأرحام المُشتبكة .

دبّت عواملُ الانحلال في جسم الدولة الوَطّاسية وأخذ الضعفُ منها مأخذاً عظيماً فقصُرَت سلطتها على حواضر المغرب ، ولم يبق لها نفوذ فيما عداها من البلاد النائية ، والقبائل العاتية . وقد استنفذ مجهودَها واستفرغ قوّتها ما كان قائماً بين أفرادها من التنازع على نيل السلطة والاستبداد بصولجان المُلك ، ثم ما كانت تُعانيه من قتال العدوّ المحتلّ بالثغور ، وخصوصاً القريبة من عاصمة الدولة فاس ؛ فلم يكن لديها قوّةٌ كافيةٌ تمكّنها من القيام بدور حاسم في السواحل السوسيّة البعيدة حيث طغى سيلُ المستعمرين البرتغاليّين ، لمّا عرفوا أنهم بمنجًى من طلب رجال الدولة وتعقّب آثارهم ، ولذلك أخذوا في بناء المعاقل والحصون والتهيُّؤِ والاستعدادِ لليوم الذي له ما بعدَه ؛ فضاق المسلمون بهم ذَرعاً وغصّوا بمكانهم من تلك البلاد التي هي حلقُ السُّوس وفمُ عاصمة الجنوب .

ورأت قبائلُ المصامدة المباركة ذلك فساءَها أن يكون عبيدُها بالأمس أسيادَها اليوم، وأن تبلغُ القِحَة بأولئك البُلْه الأغرار الى أن يتحدّوها في بلادها، ويجرُءوا على خصْي أُسودِ الشّرى في عَرينها ؛ فتقدّموا إليهم بنفوس أبيّة وأُنوفٍ حَميّة . لكنهم لما كانوا يعرفون أن يدَ الله مع الجماعة ، وأن القوّةَ في الاتحاد ، أخذوا يبحثون عن ذلك الشخص الذي يولّونه قيادَهم ؛ فسرْعانَ ما أُرشدُوا اليه فكان هو الشريف أبو عبدالله محمد القائم بأمر الله وكان مُقيماً بدرْعة ، فبعثوا اليه فقَدِم عليهم . واجتمع فقهاءُ المَصامِدة وشيوخ القبائل ، وبايعوه فكان هو واضع الحجر الأساسي في بناء هذه الدولة الشامخ ، ولقد ساعده الحظُّ وكُتِبَ له الظّفَر فأجْلى الأعداء عن أرض الوطن وزحزَح قَدَمهم التي كانت قد رسخَتْ فيها ، فتيمّنَ المسلمون بطلْعته وتفاءَلوا بطائره .

وكان له ولدانِ أُرْضِعا أفاويقَ النّجابة والبراعة ، واقْتَعَدا أسنمةَ النّجدة والشجاعة فدعى الناس الى بيعة أكبرهما وهو أبو العباس أحمدُ الأعرج الذي دخل مراكش سنة ٩٣٠ وحاربَ الوطّاسيّين وجاذَبهم حبْل السلطة في المغرب زماناً ، حتى تدخل الناس في الصلح بينهما فانبْرَم عقْدُه على أن يكون للأشراف السعديّين من تادلة الى السوس ، وللوطاسيّين من تادلة الى المغرب الأوسط . وكان السّاعي في عقْد هذا الصلح جماعة من العلماء والشرفاء والأعيان. ثم شالَتْ نعامةُ السلطان أبي العباس الأعرج ونهضَ أخوه أبو عبدالله محمد الشيخ المَهْدي ، وكان شهماً ذكيّاً عاليَ

الهمّة ، رفيع القدر ، عالماً متفنّنا ، أديباً أريحيّاً سياسيّاً محنّكاً ؛ فذلّل الصّعاب وسنّى العقاب ، وتغلّب بطول أمله وحسن مصابرته للأمور على جميع المشاقّ ، وكان يقول : « ينبغي للملك أن يكون طويل الأمل ، فان طول الأمل لا يحسن الا منه ، لأن الرعيّة تصلح به » فمهّد البلاد وأخضع العباد ودخل فاس سنة ٩٥٠ وأجلى منها آخر ملوك بني وطّاس . ثم قضى عليه بعد ذلك وعلى دولته فصفا له ملك المغرب من أقصاه الى أقصاه ؛ فقعّد قواعده وشاد مبانيه ، وأحيى مراسم السّلطنة الدارسة ، ومعالمها الطامسة ، وكانت سيرته وسياسته كلها مثال الحزم والضبط ودليل الحكمة والاقتدار .

ثم تلاه ابنه عبدالله الغالب فاقتفى أثره في حسن السّيرة ، وكان محبوباً من الشعب بجميع طبقاته . ونشطت الحركة الاقتصادية في زمانه ، وكثر البنيان ، واستبحر العمران ، وكانت أيامه كلّها أيام دعة وأمن ورخاء وعافية ، ولما توفي قام على العرش ولده محمد ، وكان للغالب أخوان تغرّبا بالجزائر مدّة توليته الملك خوفاً على أنفسهما منه ، وهما الغازي أبو مروان عبد الملك المعتصم بالله ، وأبو العباس احمد المنصور الذّهبي . فحين سمعا بوفاة أخيهما واستيلاء ابنه على الملك، وانتزاعه تراث أبيهما من أيديهما ، لم يرضيا بالدّنيّة ، ووثبا وثبة الأسد الهصور ؛ فلم يهدأ لهما بال حتى دبّرا بينهما خطّة الدفاع عن حقّهما المغتصب ؛ فسافر الغازي أبو مروان الى القسطنطينيّة العظمى ومثل بين يدي السلطان سليم الثاني وطلب إليه أن يمدّه بجيش يدخل معه المغرب فينتزع الملك من ابن أخيه ، فلم يجبه الى طلبه لاشتغاله بأمر تونس التي كان الاسبان يهاجمونها في ذلك الحين. فبقي هناك حتى جهّز السلطان حملة سنان باشا التي انتزعت تونس من أيدي الأسبان فصحبها أبو مروان وأبلى فيها بلاء حسناً ، ثم كان هو أول من أبلغ بشارة الفتح الى السلطان فجازاه على ذلك بأن أمر كتيبة من الجيش التركي الجزائري يبلغ عددها أربعة آلاف رجل ، فدخلت معه الى المغرب بعد أن اشترطت عليه أن يعطيها عشرة آلاف عن كل مرحلة .

وما إن شارف فاس حتى خرج اليه ابن أخيه ، لكنّ جيش هذا انضمّ الى عمه . وكان الغازي يكاتب القواد والوزراء أيام مقامه بالجزائر ويعدهم ويمنّيهم . فلما جاء كانوا كلّهم على هواه ، فانقادوا اليه ، وهكذا رجع الملك الى نصابه

فاستقلّ به أبو مروان ناهضاً بأعبائه ، مضطلعاً بشؤونه ، وكانت تلك المدّة التي قضاها مشرّداً عن بلاده وَوطنه قد عمِلت عملَها في تنشئته وتدريبه على السعي المحمود والعمل النافع . كما أن تجوُّلاته ومشاهداته قد اكسبته خبرةً واسعة بجميع الشؤون ، ودُرْبةً سياسية نادرة ، فأدخلَ عدّةَ إصلاحاتٍ مهمةً على الإدارة والسياسة ، أهمّها ما كان مختصاً بتنظيم الحربيّة ، حيث اقتبس سائرَ نُظُم الجُنْدية العثمانية . وسار بالجند المغربي في سبيلها حتى بلَغ النهاية ، فلم تحُلَّ واقعةُ وادِي المخازن حتى كان لديه جيشٌ مُنظّم مُدرَّب على أصول الحربية الفنيّة يندُر وجُودُ مثله في ذلك الحين عند الممالك المعادية كالاسبان والبرتغال ، وهما إذ ذاك من أعظم شعوب أوربا قوةً وأمضاهم شوكةً .

وقد شاهدْنا نتيجةَ هذا الاصلاح العَمَلي للجيش في قهره أكثرَ من مائة الف جُندي أرادَ ملكُ البرتغال أن يستذل بهم المغرب ويُخضعَه لحكمه ؛ فساءَ فالُه ، وخاب أمله ، وكان كالباحث عن حتفه بظِلفه ، والجاذعَ مارِنَ أنفه بكفّه ؛ إذ وقع مُتردّياً في هاوية البَوار ، وباءَ هو وجُيوشُه الكثيفة بالدّمار ، وذلك في واقعة وادي المخازن الشهيرة التي جرَتْ يومَ الاثنين مُنسلخ جمادى الأولى سنة ٩٨٦.

نعَمْ شاهَدْنا هذه النتيجة السارَّة ، وان لم يُكتَب لبَطَلها العظيم ان يُشاهِدها مع الأسف حيث انه تُوفِيَ أثناء المعركة محمُوماً . لكنّا نُؤمن أنه ما أغمض عينَيه حتى أغمضها عن يقينٍ ثابت ، واعتقادٍ راسخ بالنّصر والغلبة ، حيث عرف أنه قد بنَى وأحسَن البناء فاطمأن قلبُه ، وهدأ روْعُه ، وصَعِدت رُوحه الى الملأ الأعلى تُشرفُ من بَرْزخها على مَيْدان القتال ، وتُبارِكُ المجاهدين وتستقبِلُ أرواحَ الشهداء في عِلّيّين .

ولما انكشفت المَوْقعَةُ عن انْدحَار العدو وانكِسَاره ، نظر الناسُ فوجدُوا سُلطانهم قد تُوفي ، فما كان بأسرع منهم الى بَيْعَة أخيه وخليفتِه ورَفيقه في غُرْبته السلطان أبي العباس أحمد المنصور الذَّهَبي . وإنه ليَوْمٌ عظيم وعيد فخم حيث خرج الناس من الموقعة وهم سُكَارى بنشوة النصر . وزاد فرحَهم انتصاب هذا الملِك الهمام على عرش آبائه الكرام لِمَا كانوا يعرِفونه من نجدتِه وشجاعته ،

وجُوده وحِلمه وأخلاقه العَاليَة التي لا يمْكِن تَعدادُها هنا ، فناهيك به من يوم اجتمعت فيه أسباب الفرح ، وغابتْ عنه مُوجبَات التـّرح .

وماذا أُحدّثُك بعدُ عن سيرَة هذا السلطان وما بلغه المغربُ في أيامه السعيدة من القوة والعظمة والحضارة والرقي والرّفاهية والعُمران ؟ لقد كان المنصورُ بحقٍّ وَاسطة عِقْدِ الملوك السعديِّين ، وقد رأيت أنه لم يكن فيهم الا فاضل ابنُ فاضل ، ومن يُنشِدُ معَ القائل :

إذَا سيِّدٌ منَّا خَلَا قامَ سيِّدٌ   قَوُولٌ لِمَا قال الكرامُ فَعُول

فالمنصور كان عالماً الى درجَةِ الاجتهاد ، والى أن جَزم علماءُ عصره بأنـهُ المجدّدُ في القرن العاشر . وكان أديباً شاعراً كاتباً سابَق فحُول الصّناعتَيْن من أُدباء دولته ، وكان سياسيّاً مُحنّكاً وقائداً شجاعـاً وإداريّا مُنظّماً ومُصلِحاً اجتماعياً كبيراً . وبالجملة فلقد اجتمعت فيه أوصافُ الزّعامة وأشراطُ الإمامة ، حتى لقد كان دماغ الأمة المفكّر وقلبَها النابض ويَدها العامِلة .

يكفيك أن تنظرَ الى مشاريعه العِظام ومآتيه الجِسام ؛ فمن فتْحِ السُّودان وتُواتَ وتيكُرارين ، حتى أصبحتْ الصحراءُ الأفريقيةُ كلُّها في قبضة يده وتحت تصرُّفه ؛ فاتّسعَتْ دائرةُ نفوذِه الى ما لم يبلُغْه قبلَه في هـذه الجهة سلطانٌ واكتسَت المغربُ بذلك جلالةَ قدر ورفعةَ شأن ، وجعَـلَ يتقلّبُ في النّعماء كيف شاء ؛ إذ لا يخفى أن هـذه البلاد الشاسعة كانت تحتوي على منابع الثروة الطائلة ، وكنُوزِ الغِنى الوافر ؛ فقد كان الذهب يُجْبى اليه منها بالأحمال ، وكان في دار سكّةِ المنصور أربعَ عشْرةَ مائةِ مِطرَقة كلَّ يوم تضربُ الدينارَ الوَهّاج ، وهذا غَير المصُوغات والحُـلِيّ ، ولذلك سُمِّي المنصورَ الذَّهبيَّ -إلى إحيائه سُنَّةَ المشُورة وجعْلِه الحكومةَ شرعيةً أشبَه شيء بالحكومات الدُّسْتُورية النيّابية ، وذلك بفتحِه للدّيوان الشُّوري الذي كان يعقِدُ مجالِسَه كلَّ يوم أربعاء من الأسبوع ، ويحضُرُه وجُوه الأمة وسُراتُها فيتفاوضون في شؤون المملكة وتدبير سياستها ، فلا يقطعُ في أمر بدون أن يعرف رأيَ الأمة فيه — الى بنائه للقصور التاريخيَّة العظيمة كالبديع ، وغير القُصور من الحُصون والجُسور — الى إعادته تنظيمَ الجُنْد من جديد

مُوَفِّقاً بين النظام المستعجم الذي جنح له أخوه المعتصم ، وكرهه الناس وقوفاً مع العوائد ، والنظام العربي الذي كان قبله ؛ فجاء في غاية ما يكون من النظام والترتيب . وسيأتي وصفه في قصائد شعرائه في قسم المنظوم — الى تنشيطه للصنائع الوطنية بأنواعها وإدخال ما لم يكن معروفاً منها قبلُ ، وتعضيده للفلاحة الذي أتى بأحسن النتائج ، حتى في أنواع المزروعات التي لم يسبق للبلاد بها عهد ، كقصب السكّر الذي نجحت زراعته نجاحاً كبيراً ، مما أدّى الى إنشائه لمعاصر السكّر العديدة في بلاد سُوس ومراكش والغرب ، حتى كثُرت هذه المادّة الضّروريّة بالمغرب ولم يبقَ لها ثمن ، فكانت أكثرَ صادراته الى أوروبا وغيرها . وكان يُبادِلُ الايطاليّين بها الرُّخام — الى غير ذلك مما يطول تتبُّعه .

ولا يمكننا أن نأتيَ في هذه النبذة على وصفِ ضخامة ملك أبي العباس المنصور وحُسن سيرته ، وإنما حسبُنا أننا أشرنا الى لُمَعٍ من ذلك . ويقال بالجملة إن أيامه كانت غُرّةً في جبين التاريخ المغربي ، وإنّ الدولة السعدية لو لم تُنجِب إلا إيّاه لكفاها فخراً . على أن الدهر الخؤون لم يلبث أن أعلن حربه عليها بعد وفاة المنصور فتردّت من ذلك العلو الشاهق الى الحضيض الأسفل .

ومن السُّخف أن يُحاول الانسان الكلام على حياة هذه الدولة بعد وفاة المنصور وإن امتدّت الى حين . وكذلك نحن ننتهي هنا ، وفي اعتقادنا أننا أعطينا القارىءَ صورةً مُصغّرةً من سياسة هذه الدولة وسيرتها في رعيتها التي أولتها قيادَها وسلّمت لها أمرها عن رضًى وطيب خاطر منها ؛ فلم تُخيِّب فيها ظنّها ، وأتت بما يتناسب مع طيب عنصرِها وشرفِ أصلها ، إلا ما كان من أفراد قليلين لا يُمكنُ أن يُؤخذ الأبرياءُ بذنبهم ، وهم فوق ذلك شبّانٌ أغرار لم يصدُروا في شيءٍ من أعمالهم عن خبثِ نية أو سوءِ قصد .

الحركة العلمية

لو صح ناموس النشوء والارتقاء وكان كل شيء في هذا الوجود مطرداً مستمراً يتصل أوله بآخره، وترتبط أطرافه بعضها ببعض، لكان للمعارف اليوم في بلاد المغرب شأن غير هذا الشأن؛ إذ قد رأيت ما كانت عليه من التقدم والانتشار في عصر المرينيين، فما ظنك لو بقيت سائرة نحو غايتها القصوى من التكمل والنماء منذ ذلك العهد الى الآن ؟

ولا نقصد أنها في هذا العصر تقصر عما كانت عليه في العصر السابق أو تقل عنه شأنا، وانما نتأسف للوقوف الذي اعتراها في تلك الفترة التي كانت الدولة الوطاسية مسيطرة فيها على المغرب والتي لم تذق البلاد فيها طعم السلم والراحة، حتى كاد اليأس يستولي على النفوس، لولا أن تدارك الله هذه الأمة بضم شملها واجتماع كلمتها على يد زعيم هذه الأسرة السعدية المباركة كما سبق القول .

وحينئذ بعد استقرار الأحوال ورجوع الأمن الى نصابه، عاد لكل شيء رونقه وبهجته، وأقبل كل على شأنه . ورجال العلم أيضاً أخذوا في إحياء ما اندثر وجمع ما تبعثر من سالف ذلك المجد العلمي والتاريخ الأدبي؛ فلم تنشب حركة العلوم والآداب أن عاودها النشاط والانتعاش، وخصوصاً بعد ما أنست من الملوك السعديين وعلى رأسهم المنصور الذهبي ذلك التعضيد الذي سبقت الإشارة اليه .

بيد أنها إن كانت نهضت من جديد فانها لم تعدم ما يقعد بها عن استئناف السير الى الامام، نتيجة للركود العام الذي أصاب الحياة الفكرية، فمنذ هذا العهد في سائر بلاد الاسلام؛ فقد أصبح العلماء وأكثرهم نشاطاً وأعظمهم اجتهاداً هو من يقف عند الغاية التي وصل اليها من قبله في هذا العلم أو ذاك ومن يجتر المقررات التي وقع الفراغ منها قبله . فان أظهر براعة وأبدى تفوقاً ففي هذه

الظاهرة التي عمّت فأعمَتْ ، وهي ظاهرة الاختصار والتعمّق فيه التي أشرنا في العصر السابق الى مضارها الجسيمة ، حتى أفضَى الأمرُ الى أن أصبحت العلوم في حالةٍ من الغموض والإبهام تصدُّ عنها كثيراً من الطلاب . وهذا الأمر إن لم يكن أخّرها كثيراً ، فقد عاقَها عن التقدم والانتشار طوال المدة التي بقيت فيها قيْدَ الإنشاء والاعادة .

العلوم الشرعية :

ويُقال بالجملة ان العلوم الشرعية كالفقه والحديث والتفسير قد كانت منتشرةً بكثْرة على نِسْبَة ترتيبها هذا ، الذي ذكرناه ؛ وإنما الذي ظهرت عليه آثارُ التحوُّل هو الفقه ، فالغالب ان كتبَه التي كانت مُستعمَلة في العصر المريني قد اطرِحَتْ الآن ولم يبق منها الا القليل ، وأُخِذَتْ كتبٌ أُخر مختصرةٌ عِوضاً عنها وظهر نشاطٌ كثير وتنافسٌ في شرح هذه المختصرات والتعليق عليها .

وإن نَنْس لا ننس ما جدَّ في هذا العصر من كثرة الإقبال على عُلُومِ القراءة وشدَّة العِنَايَة بها ، حتى لقد تخَصّص بها علماء كثيرُون لا يُزاولُون غيرها من العلوم ، كما شارك فيها سائرُ العلماء ، بل كان وصفُ العَالميّة لا يَكمُل الا بها . ويمكننا أن نقول إن هذا كان عصرها الذّهَبي في افريقية كلها ، الذي بلَغتْ فيه الى أوْج الكمال . وحسبُك دليلاً أن وَقْفَ القُرآن الذي وقع الاجماع عليه وجرَى العمل به في المغرب منذ ذلك الوقت الى الآن ، إنما وُضِعَ في هذا العصر وكان واضعُه هو الاستاذ الصهاتي .

أما الكلام فقد قامت له ايضاً دولته ، إذ وُجِدَ ما حفَزَ الهِمَم للاشتغال به ، وهو تلك المناظرة العنيفة التي قامت بين الشيخين الخرُوبي واليَسيتْني أولاً ، وبين هذا الثاني والشيخ الهبطي ثانياً ، في مسألة الهيللة ، هل الحق سبحانه وتعالى مما يدخُل في النفي بلا ، وهل تنتفي بها أُلوهيَّةُ الصنم وغيره مما عُبدَ من دونه باطلاً أم لا ؟ وقد استمرت هذه المناظرة زماناً طويلاً وثار بسببها شَرٌّ كبير بين العلماء حتى تدخّل السلطان نفسُه فيها ولم يُجْدِ ذلك شيئاً . وبقيت المسألة على حالها الى أن تأدّتْ الى العصر العلوي ، فلم تعدَم من يروّجُها من الطلبَة . ثم تصدّى لها

أبو علي اليوسي فلم يترك مقالاً لقائل على عادته ، وقطعت جهيزة قول كل خطيب .

ولم تكن هذه المناظرة هي الوحيدة من نوعها فقد قامت بين اليسيثني ايضاً ، والشيخ عبد الوهاب الزقاق مناظرة أخرى في مسألة خلف الوعد من الله تعالى ، فقال الزقاق ان ذلك يصح منه ، وخالفه اليسيثني . وألف كل منهما في المسألة منتصراً لرأيه ، مما يدل على زيادة اعتنائهم بهذا العلم وكثرة اشتغالهم به .

وأما التصوف فقد كان طغى عليه سيل التدليس والتلبيس ، فقيض الله له مثل ابن خجو والهبطي ، فهذباه ونقحاه . وكان الشيخ أبو العباس الصومعي ، حامل رايته علماً وعملاً ، وممن لم يستغل مقامه وجاهه ولا استغله أحد على كثرة هذا الصنف في المتصوفة بهذا العصر .

هذا ما يرجع الى علوم الشريعة . وأما علوم الأدب فالنحو بالخصوص مما ظهر عليه أثر التحول جلياً واضحاً ، فاقتصر طلابه على اثنين أو ثلاثة من الكتب المختصرة أو المنظومة لا يجاوزونها الى غيرها أبداً ، وقد نشط العلماء في شرح هذه الكتب والتعليق عليها نشاطاً لا مزيد فوقه .

وأما علوم البلاغة فانها كانت نافقة جداً ، إلا أن أثرها في الألفاظ كان أقوى منه في المعاني ، وعلى الأخص عند بعض الأدباء الذين شغفوا بالبديع فأكثروا منه الى حد الإغراب . وقد كان على رأسهم المنصور الذهبي الذي هو في ملوك المغرب كابن المعتز في ملوك المشرق إلا أن هذا لم تدركه حرفة الأدب كما أدركت سلفه .

وأما علم التاريخ فهو الوحيد من علوم الأدب الذي ازدهر في هذا العصر ازدهاراً كبيراً إذ رزق رجالاً أكفاء انصرفوا لخدمته ووجهوا اهتمامهم اليه ، وبالخصوص تاريخ السعديين الذي لولا هذه العناية لظل محجوباً عن الباحثين ، كتاريخ الوطاسيين قبله ، محاطاً بالغموض الذي يحوج المؤرخ الى الرجم بالظنون وافتراض الفروض ولعل هذا الاهتمام كان منشأه تعضيد الأشراف السعديين للمؤرخين وعلى الأخص المنصور الذي اجتمع في بلاطه عدد كبير منهم كالعلامة المقري صاحب نفح الطيب وأزهار الرياض وغيرهما وأبي العباس بن القاضي وعبد العزيز الفشتالي ومحمد بن علي

النَّسَب ومحمد بن عيسى الكاتِب وغيرِهم . ناهيك بفِدائِـه لابن القاضي المذكور لمّا وقع في أسرِ الافرنج بألوف الدنانير الذهب .

العلوم الكونية :

وهذا في العلوم الأدبية . وأما العلوم الكونيّة فما كان ممـا تقتضيه في الجملة ، طبيعة العُمران البشري وخلّة الاجتماع الإسلامي فانه كان منتشراً بكثرة ، وذلك كالهندسةِ والهيئةِ والطب وما إليها . وما عدا ذلك فلم نقِف له على خبر .

أما الطب فقد كان للدولة مزيدُ اعتناء بأهله واهتمام بشأنه ، وحسبُك ما أسداه المنصور لطبيبه الخاص أبي عبد الله محمد الطبيب ، وما خلع عليه هو ورجالُ دولته لما استقلَّ من مرضه المَخوف وتداركه الله على يد الطبيب المذكور عام ٩٨٧ وكان هناك أطباء كثيرون منهم أبو القاسم الوزير صاحبُ كتاب المفردات المشهور وأحمد المُريد وابنُ سعيد المَرغيثي وغيرهم . ومما يدل على ارتقاء شأن الطب في هذا العصر ما وصفه المنصور من أنواع الوقاية والعلاج في كتابه الذي بعثه الى وَلدِه بمراكش عند ظهور الوباء ونصُّ المراد منه : « والى هذا أسعدكم الله أولُ ما تبادرون به قبل كل شيء هو خروجكم إذا لاح لكم شيء من علامات الوباء ولو أقلُّ القليل حتى بشَخْص واحد ، ثم لا تغفُلوا عن استعمال التِّرْياق أسعدكم الله ، فالزموه واذا استشعرتم بسلامةٍ بحرارةٍ وتخوّفتُموها فاستعمِلوا الوصف من الوزن المعروف منه ولا تُهمِلوا استعمالَه . وأما ولدُنا حفظه الله لِمكان الشبيبة فحيث يمنعه الحال من المداومة على الترياق فهـا هي الشُّربة النافعة لذلك قد تركناها كثيرة هنا لكم عند التونسي فيكون يستعمِلُها هو والأبناء الصغار المحفوظون بالله ، حتى اذا أحسَّ ببَرْد المَعِدة من أجلها تَعطوه التِّرياق فيعود اليها . والبراءةُ التي تَرِدُ عليكم من سوس أو من عند الحاكم أو من عند ولد خالكم أو من عند غيرهما لا تُقرأُ ولا تدخُل داراً بل تُعطى لكاتبكم هو الذي يتولى قراءتَها ويُعرّفكم مُضَمَّنها . ولأجل أن الكاتب يدخُل عليكم ويُلابِسُ مقامكم فلا يفتحها إلا بعد إدخالها في خَلّ ثَقِيف وتُنشَر فتيبس وحينئذ يقرأها ويُعرّفكم بِمُضَمَّنِها إذ ليس يأتيكم من سوس ما يستوجِبُ الكتمان » .

ومما في هذه الرسالة مما يتعلق بالبَيْطَرة وهي طب الحيوان قوله : « وأوصيكم

أعزّكم الله أن تتفقّدوا فرسَنــا الأحمر الصغير ولا تتركوهم يُعطونه القَصيل لئلاّ يكثُر لَحْمُه ويُزادَ ألمُه ، بل انظر من يَركبُه كل يوم ، بل لا يُنزع السّرجُ بالكُلّيّة عن ظهره بياضَ النهار كله وأعطوه لصاحب روض المَسَرّة يركَبُه في ذهابه وايابه للمَسرّة أو لداره وأوصوه أن لا يركبه غيرُه . »

وأما الهيئة فقد كان لها فضل انتشار أيضاً ، لِمكَانِ الحاجة اليهــا في معرفة أوقات الصلاة والامساك والافطار في الصوم وغير ذلك ، وقد أُلّفت فيها وحدهـا ومع الحساب كتب عديدة . ومن علمائها المشهورين : البُوعقيلي والمَرغيثي وغيرهُما .

وفي غير ما ذكر نقول أنهم ذكروا في ترجمة المنصور كدليل على نبوغه وعبقريته أنه قرأ كتابَ أقْليدس الهندسي وفكّ جداولَه بنفسه من غير استعانة على ذلك بأحد لفقد « من يُحسِنُ ذلك الشأن في عصره » . وهذا لا يتوافق مع ما عُرِف عن هذا العصر من استبحار العمران وكَثرة البنيان وشيوع فنون الزخرفة من النقش والتزويق وغير ذلك مما لولاه لما أمكن بناءُ قصر البَديــع العديم النظير وغيره من الحصون المَنيعة والقناطر الرفيعة التي تحتاج في وضع تصميماتهــا وبنائها الى جهود الجبابرة ، وعقول الجهَابذة من رجال الفن والهندسة المِعْمارية .

وفعلا فاننا نرى أنه كان هناك رجالٌ ممن يُحسِنون « ذلك الشأن » أو عــلى الأقل ممن شارك فيه نظرياً مثل ابن القاضي الذي ألف كتاب المدخل الى الهندسة ، وأبي القاسم الغُول الذي ألف كتاب كيفية قَسْم المياه على قواديس الديار . ولا بد ان يكون هناك آخرون لم نَعرِفهم وعنهم اخذ هذان وغيرُهما ، فبإضافة هؤلاء الى الرجال العَمليّين الذين كانوا موجودين بكثرة يتّضح ما في قولهم لفقد من يحسن ذلك الشأن في عصره ، من المبالغة . إنما الواقع أن الاشتغال بهــذه العلوم كان نِسْبيّاً وبمقدارٍ مع طغيان الاقبال على العمل دون النظر ، والأولُ وإن كان هو الأجدَى والأنفعَ إلا أن الثــاني له خَطرُه ومَزيّتُه في حِفظ الذّمــاء العِلْمي وصَوْن التّراث الفني .

ولا نظنّ الكلام على الآثار الفنية الرائعة التي تخلّفت عن هذا العهد وأخصّها قصر البديــع بمراكش وما توحي به من رسوخِ قدَم الصانع المغربي في فنون المِعمار وعمل

المُقرّبصات والزّليج والنقش على الجِصّ والخشب والتلوين والتذهيب وما الى ذلك – إلا من الكلام المُعاد ، لا سيما وهذه مقابرُ السعديين بمراكش ما زالت ماثلةً العيان تغني مشاهدُتها عن كل بيان. أما قصرُ البديع فقد نُقِضَ مع الأسف الشديد، ولم تبقَ الا أوصافُه المُعجِبة المُطرِبة مُسجّلةً في الأشعار البليغة التي قيلتْ فيه وكُتِب على جدرانه ، ويتضمن قسمُ المنظوم من هذا الكتاب جملة صالحة منها. لكن الذي ينبغي تسجيلُه في الكلام على الحياة الفنيّة في هذا العصر هو النهضة الموسيقيّة التي تتمثّل في المحافظة على الطرب الأندلسي بجميع ألحانه ونغماته. وقِطعه وأدواته، ثم تجديده وتكميله بما هو منه بسبيل كإضافة بعض الآلاتِ وتوليد بعض الطبُوع ، ومن ذلك طبْع الإستهلال الذي استنبطه الحاج علي البَطلة ، من أهل فاس ، على عهد السلطان عبد الله الغالب بن محمد الشيخُ المهدي وهو خارجٌ عن شجَرة النّغمات الأصول والطبُوع المتفرّعة عنها ، التي وضعَها الموسيقيون لذلك . ولكنّ الغالبَ عليه أن يكون فرعاً من الذّيل كما في كتاب الحايك الموسيقار المشهور . وإلى هذا فان ضُروباً من الزّينة في اللباس والفِراش والأثاث على العموم قد ابتُكِرت في هذا العصر ، مما يدل على ذوق فنّي رفيع . ونذكر على سبيل المثال من ذلك المنصوريّة التي يُقال إن المنصور الذهبي أولُ من لبِسها ، وكذلك الحائِطي ، ويُطلَقُ على الستُور المُزخرفة التي تُزيّن بها جُدرانُ البيُوت وقاعاتُ الجلوس . وللشعراء فيه أوصاف جميلة . ومن الجدير بالذكر أن المرأة كان لها يدٌ طولى في هذا الصدد ، فقد سجّل المؤرّخون أن العَريفة بنت خَجُّو – وأسرةُ خَجُّو أسرةٌ معروفة بالعلم والفضل – هي التي هذّبت حواشيَ مُلكِ السعديّين وخاصةً في داخل قُصورهم وحالاتِهم في الطعام واللباس وعاداتهم مع النساء وما الى ذلك ، إذ كان قيامُهم أولاً من البادية ، فلم يكونوا يتقيّدون بآداب الحضارة وسِيَر أهلِها .. وعلى ذكر المرأة لا ينبغي أن نُنهيَ الكلام في هذا الفصل حتى نُشيرَ الى ظاهرةٍ حريّةٍ بالتّسجيل في مَيدان النّشاط النّسْوي المغربي ألا وهي مساهمةُ المرأة في الحكم والسياسة أواخرَ أيّام بني وطّاس وأوّلَ عهدِ السعديّين ، إذ شاهَد الناسُ لأول مرّةٍ على دستِ الحكم في مدينة تطوان السيّدة عائشة بنتَ علي بنَ راشد ، وهي سيّدةٌ من بيت شريف ؛ فإنّ والدها السيّد علي بن راشد كان شخصيّةً لامعةً في الجهاد ، وترأّس بناحية غُمارة واختطّ مدينة شَفشاوُن بقصد تحصين تلك الناحية من نَصارى سبتَة. وكانت ابنتُه هذه التي اشتهرت بالحُرّة ذاتَ ذكاء ودهاء ومعرفةٍ وسياسة ، تزوّجت

بالسيد المنظري الصغير حاكم مدينة تطوان وحفيد القائد أبي الحسن المنظري الكبير مجدد بنائها وحاكمها الأول . فلما توفي زوجها تولت هي حكم المدينة وضبطتها أحسن ضبط ؛ ثم تزوجها السلطان أحمد الوطاسي وبنى بها في تطوان في شهر ربيع الأول سنة ٩٤٨ . ونجحت في السفارة السيدة سحابة الرحمانية والدة عبد الملك المعتصم بطل معركة وادي المخازن ؛ فانها كانت أول من أبلغ بشارة فتح تونس الى السلطان العثماني بالقسطنطينية وطلبت منه كمكافأة لها على ذلك مساعدة ابنها بجيش الجزائر على استعادة ملك والده ، فأجاب طلبها ، الأمر الذي لم ينجح فيه عبد الملك نفسه من قبل . وفي الميدان الحربي أثبتت السيدة مريم أخت عبدالملك هذا كفاءتها في قيادة ثلاثة آلاف جندي من الرماة تركهم أخوها بمعيتها في قصبة مراكش فامتنعت بها على ابن أخيهما محمد أثناء انتزاع ملك والدهما منه . ولم يكن نبوغ المرأة المغربية في هذا العصر قاصراً على الناحية السياسية والحربية ، فقد اشتهرت في ميدان العمل الاجتماعي السيدة مسعودة الوزكيتية والدة المنصور الذهبي ، ومن منشآتها الخالدة بمراكش المسجد الجامع بباب دكالة منها وجسر وادي أم الربيع وغير ذلك من أعمال البر والإحسان الكثيرة . واشتهرت بالعلم والتقوى والصلاح السيدة عائشة بنت أحمد بن عبد الله بن عمران والدة ابن عسكر المؤرخ السياسي المعروف . وكان لها في المجتمع المغربي مقام محترم جداً . على أن النساء من هذه الطبقة كثيرات في هذا العصر فلا نطيل بذكرهن .

الهيئة العلمية وآثارها

نذكر هنا على جاري العادة ملخص تراجم المشاهير من علماء هذا العصر ، ونتبعها ببيان أسماء الكتب التي ألفت فيه في مختلف ضروب المعرفة ، تتميماً للفائدة وإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه .

سُقَيْن

هو أبو محمد سُقين السُّفياني العاصمي القَصْري أحد مشاهير رجال الحديث بالمغرب ، روى عن الشيخ زرُّوق وابن غازي وأبي الفَرج الطَّنْجي وأبي مَهدي الموساوي وغيرهم . ورحَل الى المشرق سنة ٩٠٩ فحجَّ وسمِع بمصر من أصحاب ابن حجَر كالقَلْقشندي وغيره ، فحصلت له رواية واسعة لم يُحصِّلها غيرُه ممن كان في وقته ، ثم آبَ الى السُّودان ودخل كنو وغيرَها فعظَّمه أهلُها واكبُّوا على الأخذ عنه . وبقيَ يتجوَّلُ مدةً ، ثم رجع لفاس سنة ٩٢٤ فتولى الخطابة بجامع الأندلس والفتوى وأقبل على قراءة الحديث ، حتى توفي سنة ٩٥٦ وكان قد خرج لضريح مولاي بو سلهام فجلس ذاتَ يوم على شاطىء البحر يقرأُ دلائلَ الخيرات فخرجتْ فيه إحدى سفُن الافرنج ، فقاتل حتى قُتِلَ شهيداً مبروراً رحمه الله .

وقد قيّد بخطه كثيراً من فوائد الحديث وجمع كثيراً من الكتب ، وكان مُشاركاً في الطب أقرأ ألفيّة ابن سينا وعنه أخذها النّاسُ .

القَصّار

هو أبو عبدالله محمد بن قاسم القيْسي الفاسي عُرفَ بالقصّار الفقيه المحدث النسّابة ، ولد بفاس سنة ٩٣٨ وأخذ بها عن مشائخَ عِدّة . وبرّز في الحديث فصار

إماماً فيه مُقدَّما على غيره تُضرب أكبادُ الإبل للأخذ عنه والسماع منه . وكان نسَّابةً واعية ، عارفاً بتشعُّب الأنساب ومحل افتراقها واجتماعها حافظاً ثقةً عدلاً ضابطا شديد الاتباع للسنَّة ، ظاهرَ الخَشية والورع على قدم السلف الصالح . وليَ الفتوى على عهد أبي العباس المنصور والخَطابة والإمامة بمسجد القرويّين . وسعى الحسَدةُ في تأخيره عن هذه الوظائف عند خليفة السلطان على فاس؛ فكتب السلطان من مراكش بتجديد عهد الولاية له قائلا إننا لا نُبدّله بمن هو مثله فضلاً عمن هو دونه .

ووليَ أيضاً نظارة أحباس الضُّعفاء والمساكين ، وكان لا يولاّها إلا ذوو الدّين المتين من العلماء العارفين بقسمة الأرزاق العادلين فيها مثل يحيى السرّاج الذي كان ناظرَها قبل القصار .

وبقي القصار حاملاً رايةَ العلم بفاس والمغرب ، ناهضاً بأعباء ما كلّف به من الوظائف ، حتى اخترمته المنيّة في رمضان ١٠١٢ ؛ فانتقل الى الدار الآخرة بعد ان جدّد مَعالمَ الدين الدارسة ، وأحيى مراسمَ العلم الطامسة . وطار له صيتٌ عظيم في بلاد المشرق والمغرب، فحدّث الشيخُ عبد الواحد بنُ عاشر أنه لقيَ بمصر في رحلته الحجازيّة الشيخَ عبدالله الدّنوشري فسأله عن أشياخه فذكر منهم القصّار فقال الدنوشري يمدحه :

قد حاكَ شقّاتِ العلوم أيمّةٌ وكَسَوْا بها بالفضل مَن هو عار
رقّت حَواشِيها ورَاق طِرازُها لكنّها تحتاجُ للقَصّار

وقد ضاع بفقده علمٌ كثير ، لأنه لم يُؤلف كتاباً قطّ ، ولم يُخلّف بعده أثراً يذكر ما عدا فِهرسَته وانظامه الكثيرة ومُسوّداته التي بِيعَتْ وزْناً بالأرطال .

أحمد الفاسي

هو أبو العباس احمد بن يوسف الفِهْري الفاسي الحافظ الثقة ، ولد سنة ٩٤١ بالقصر الكبير وطلب الحديث بفاس فبَرّز فيه حتى كان يحفظُ أحاديث الصحيحين

جميعها ، ويستحضر ما اتفقا عليه وما انفرد به أحدهما عن الآخر ، وما خالف في متن أو سند ، تصحح نسخها من لفظه . وضم إلى ذلك المعرفة البليغة بالرجال والعلل وكل ما هو من وظيفة المحدث . وبوصف ديانته الكاملة أيضاً صح أن يطلق عليه الحافظ الضابط الثقة .

وله تآليف منها شرح العمدة لعبد الغني المقدسي في الأحكام ، وحاشية على شرح الصغرى للسنوسي في الكلام ، ورسالة في حكم الذكر جهرة وأخرى في حكم السماع ، وأخرى في وزن الأعمال وتكفير النيات وأخرى في أولاد المشركين ، وغير هذا وكانت وفاته عام ١٠٢١هـ

السراج

هو أبو زكرياء يحيى بن محمد السراج الحميري الفاسي ، حفيد يحيى السراج المحدث الكبير المتوفى في العصر السابق . كان هذا فقيها مقدما فيه ، وولي الفتوى بفاس والامامة والخطابة بمسجد القرويين ، وولي أيضا نظارة أحباس الضعفاء والمساكين ، فقام بها خير قيام ، وكان يدرس المدونة بمدرسة العطارين ويستحضر ما قيد عليها ، وله حاشية على مختصر خليل وفتاوى تشهد بمزيد فضله ، ولد بفاس سنة ٩٢١ وتوفي سنة ١٠٠٨ هـ .

ابن عاشر

هو أبو مالك عبد الواحد بن احمد بن علي بن عاشر الأنصاري الفاسي ، أحد القراء والفقهاء المشاهير ، ولد بفاس سنة ٩٩٠ وقرأ على الجلة من علماء عصره ، وكان أستاذاً عارفاً بالقراءات وتوجيهها وبالضبط والرسم وجميع ما هو من وظيفة المقرىء . فقيهاً مشاركاً في الأصلين والحديث والتفسير والتصوف والنحو والعروض والبيان والمنطق والطب والهيئة والحساب . على قدم السلف في الزهد

والورع والقيام بوظائف الدين حتى الغَزو والرّباط في سبيل الله، نزيهاً متواضعاً شديد الإنصاف يأخُذ العلم عمّن هو دونه ، ويتولى جميع أموره بنفسه .

له النظم المعروف بالمرْشد المُعين على الضروري من علوم الدين ، جمع فيه بين العقائد والفقهيّات والتصوف وهو من الكتب التعليمية النافعة . قال ابن الطيب القادري : «وسمِعْنا أنه ابتدأ نظمه حين أحرم بالحج فنظم أفعال الحج مرتبةً بقوله:

وإنْ تُرِدْ ترْتِيبَ حجِّك اسْمَعا بيانَهُ والذِّهنَ منك اسْتَجْمِعا

ثم لما انفصل عن حجّه كمّل ما يتعلق بالقواعد الخمْس من الضروري الذي لا يسعُ المكلّفَ جهْله» وله شرح مَوْرد الظمْآن للخراز في الرسم ، ونظم في العمل بالرُّبُع المجيَّب وغير ذلك ، وتوفي رحمه الله عام ١٠٤٠ هـ .

ميّارَه

هو أبو عبدالله بن أحمد ميّارة الفاسي من أعلام الفقه في هذا العصر ومشاهير المؤلفين فيه ، ولد ببَلدِه فاس سنة ٩٩٩ واشتغل بطلب العلم ؛ فمَهر وظهر وبرّز في علم الفقه ، فكان راسخ القدم في الأحكام مستحضراً للنقُول ذاكراً للنوازل ، عمْدةً في ذلك . وما تزالُ كتبُه من أهمِّ المراجع الفقهيّة وكُتبِ الدراسةِ المختارة في هذا الباب . له شرح المُرْشد المعين على الضروري من علوم الدين كبير وصغير ، وشرح تحفَة الحكّام وشرْحُ لاميّة الزّقّاق ، وتكميل المنهج وشرحُه ، كمّل به المنهج المنتخب في قواعد المذهب للزقاق واختصر شرْح الحطّاب على مُختصر خليل في ثلاثة مجلدات وسماه زُبْدةَ الأوطاب في اختصار الحطاب وله أيضاً نصيحةُ المغترين في الرد على ذوي التفرقة بين المسلمين ، وهو تزْييفٌ للنظرية العُنْصُريّة التي نبغ دعاتها في هذا العصر خاصّةً بمدينة فاس . وأخذ عن ابن عاشر وأبي العباس المقّري وعبد الرحمن العارف وأبي الحسن البطّيوي وغيرهم . وكانت وفاته سنه ١٠٧٢ .

الصُّمَاتي

هو أبو عبـــدالله محمد بن أبي جُمُعَة الصُّماتي الهبْطِي ، الأستاذ المقرىء صاحب تقييد وقف القرآن الذي جرى عليه عملُ أهل المغرب عموماً من َلدُن زمن واضعه الى الآن . توفي بفاس سنة ٩٣٠ ﻫ .

اليسّيثني

هو أبو عبد الله محمدبن أحمد بن عبد الرحمن اليَسيثني الفاسي، الفقيه المتكلم النظار، ولد سنة ٨٩٧ ونشأ حريصاً على طلب العلم مجتهداً فيه . أخذ بفاس عن مشاهير أعلامها ، ورحل الى المشرق سنة ٩٣٠ فأخذ عن أهـل تلمسان وقسنطينة وتونس ومصر ومكة ، فاتسعت دائرة معارفه ، وكثر تحصيله . ثم رجع الى فاس فتولى بها الفتوى ، ودرّس الفقه والأصول والنحو والبيان والحديث والتفسير وكان زاهـداً ورعا متفانياً في النصح والارشاد ، وألف تآليف محرّرة ، منها رسالة في تصحيـح قبْلة فاس وأخرى في طهارة بَوْلِ المريض غير المتغير وأخرى في مسألة خُلْفِ الوعيد من الله تعالى وأخرى في مسألة الهيللة وأخرى في حقوق الملك والرعية وغير ذلك . وتوفي سنة ٩٥٩ ﻫ .

المَـنجُور

هو أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الله المنجور الفاسي ، علامة داهية متفنن . انفرد في عصره برياسة الفقه والأصول والكلام والمنطق والنحو والبيان والعروض والتاريخ ، وكان موسيقياً بارعاً ، وكان أحد الأبطال في لعب الشّطرنج والنـَّرد .

خدم العلم مدّة حياته فبرّز في صناعة التدريس والتأليف وبذّ أقرانه بسلامة

الذّوق وصفاء الذّهن وصحّة الفهم ، حتى كان يقال عنه إن فهمَه لا يقبَل ُ الخطأ . وصار في الأخير رئيس الهيئة العلميّة بالمغرب غير مُدافَع . وكان أبو العبّاس المنصور يُجلّه ويكرمه ويحضّه على التأليف كثيراً ، ويُعطيه العطايا السنيّة ، فحدّثنا الإفراني عنه أنه كان يقول : ما عهِدنا بذل المِئين إلا في أيام الأشراف السعديّين ، وما عهدنا بذل الألوف إلا في أيام المنصور .

له في الكلام شرح مقاصِد ابن زكرى ، وفي الفقه شرح المنهج المنتخب للزقاق ، وفي النحو شرح الألفية وضَعَه بأمر المنصور وغير ذلك . ولد سنة ٩٢٦ وتوفي سنة ٩٩٥ ه .

الهَبطي

هو أبو محمد عبد الله بن محمد الَهبطي الطّنجي ، العالم العامل الناصح المُخلِص . قال في الدوحة : « كان رضي الله عنه آيةً من آيات الله تعالى في أرضِه وعبادِه ، قائماً على قدم الجِدّ في الزهد واتباع السنّة ، والانزواء عن الدنيا وتعليم العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . لا يترك أحداً من أهله وبنيه وأصحابه يخرُجُ عن التقشّف وينقطِعُ في الدنيا ولم يُرَ أحدٌ من الرجال والنساء بزاويته إلا أن يكون تالياً لكتاب الله أو ذاكراً لأسمائه ومتعلّماً لمعرفته الى أن لقيَ الله تعالى على ذلك . »

قال : « وكتبتُ من خط الشيخ أبي الحسن الأغزاوي المعروف بالحاجّ ، قال أبو زيد عبد الرحمن بن شُرَيْح أن الله تبارك وتعالى يبعَثُ لهذه الأمة عند رأس كل مائة مَن يُجدّدُ لهـا دينَها الحديث ، ولا يبعُد أن يكون منهم الشيخ سيدي أبو محمد الَهبطي رضي الله عنه . » قال : « وقد قال هذا القولَ كثيرٌ من الأعلام ، وكان الشيخ أبو القاسم بن علي بن خجّو يقول هو غزّاليُّ هذا الزمن . ولقد منّ الله به علينا وعلى المسلمين . » وناهيك بها شهادةً من مثل ابن خجّو . ثم قال :

« وكان أحرص الناس على تعليم الله ، ويأمرُ من يلقى بتعليم الأهل والأولاد والعبيد والُخدّام والإماء عملاً بقوله ﷺ « لأن يَهديَ اللهُ على يدِك رجلاً واحداً خيرٌ

لملك من حُمرِ النَّعَم » . وكان كثيراً ما يحُضُّ على فهم مدلول الشهادة بل اتخذ ذلك هِجِّيراه ، لِما رأى من استيلاء الجهل على الخلق ، وألَّف في علم الهيللة أجزاءً كثيرة أكبرُها جِرماً وأكثرُها فائدةً كتابُ الإشادة بمعرفة مدلول كلمة الشهادة ، وكانت سيرتُه الذكرَ والذِّكرى وبذلَ النصيحة لكافّة الورى . »

وله أيضاً ألفية عامرة الأبيات بالنصح والارشاد وذمِّ البدع الشائعة في الوقت وما عليه مُتصوِّفةُ الزمان من المنكرات والمحظورات ، ونظمٌ في العدة معروف وغير ذلك . وتوفي عام ٩٦٣ ﻫ .

ابن خجّو

هو أبو القاسم بن علي بن محمد بن خَجُّو الخَلُوفي الحسَّاني ، الفقيه شيخ السنة وأحد العلماء الناصحين . درس بفاس على مشاهير العصر كالعلامة ابن غازي والشيخ زروق وأضرابهما ، وكان صوفياً فاضلاً مُتورِّعاً سالكاً نهجَ الحقِّ شديد الشكيمة على أهل البدع ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، باذلاً في نُصرةِ السنة غايةَ مجهوده لا يُبالي مَن خالفه ، مُنصِفاً عديم المثال في جدِّه واجتهاده وعِلمه وعمله .

له كتبٌ غايةٌ في التحرير والاتقان ، وكلُّها تدور على مِحوَر الاصلاح الديني والارشاد التعليمي والنصح المَمحوض ، منها كتاب الغنيمة وكتاب ضياء النهار وكتابُ النصائح وشرحُ نظم الهبطي في العدة وشرحُ نظم بيوع ابن جماعة للسَّنوسي وغير ذلك . وفي شرحه لنظم البيوع ذكر جملةً من البدع الشائعة في عصره فاستغرق ما ينيفُ عن الأربعين صفحةً في عدِّها واستنكارها .

وكان السلطانُ محمد الشيخ السعدي ، لما صفا له مُلكُ المغرب ودَخل فاس بَعث الى سائر أهل الفقه والعلم أن يحضُروا عنده ، فكان من جُملةِ من حضَر أبو القاسم فأعجبَ به السلطانُ كثيراً وأجلَّه وأكرمه ، ورغِبَ اليه في الاقامة بفاس فاجاب طلبه وقال فيه : (ما رأيتُ أفضلَ منه علما وصلاحا .) وتوفي سنة ٩٥٦ ﻫ .

أحمد الصّومعي

أبو العباس أحمد بن أبي القاسم بن سالم بن عبد العزيز بن شُعَيْب الشّعبي الهَرَوي الزّمّراني دَفينُ الصّوْمَعة من بلاد تادَلة ، الشيخ الصوفي الرّاسخُ القدم في طريق القوم عِلماً وعملاً ، وصَفه الحافظُ أبو العباس المقّري وكان قد لقيه بمراكش فقال : « هو نفعَ الله بعُلومه آيةٌ من آيات الله في المجاهدة لا يكادُ يفتُر عن ذلك أصلاً . استغرق نهارَه وليلَه في انواع الطاعات من صلاةٍ وذكرٍ وقراءةِ قرآنٍ وإقراءِ عُلومِ الحقيقة . شاهدتُه وكثيرٌ من تآليفه تُقرأُ بين يديه ، وشاهدتُ من كثرة حِفظِه لحكايات الصالحين عجباً ، يذكر بكل محل ما يُناسبه ، وله ولوعٌ باقتناء الكتُب ، حتى لقد تركَ يوم موته ما يقرب من ألفٍ وثمانين مجلداً . وقد قصَده الناسُ لزيارته من البلاد الشاسعة ورأيتُه يومَ الجمعة بجامع الكتُبيّين والناسُ يزدحمون على تقبيل يده وطلبِ الدعاء منه ، حتى لا يخْلصَ منهم إلاّ بعد جهد جَهيد ، وكانت له زاويةٌ بالصّوْمَعة يُطعمُ بها الطعام ، ثم سكن مراكش وتركَ بعضَ بنيه بالزاوية مُقتفياً سُنتّه » له مؤلّفات عديدة اكثرُها في التصوف كشرح الحِكَم في أربعة أسفار ومُختَصره ومُختَصر مُختَصره ، وشرح المباحث الأصلية ، وشرح منَازل السائرين للشيخ الامام الهَرَوي ، وغير ذلك . قال المقري لما استَجَزْته رحمه الله أخرجَ لي ستين مجلداً كلّها من تصنيفه . وتوفي ببلده الصومعة في سنة ١٠١٣ .

ابنُ القاضي

هو أبو العباس أحمد بن القاضي المكناسي ، نسبةً الى قبيلة مكناسة لا الى مدينة مكناس ، الفاسي ولد عام ٩٦٠ وزاوَل قراءةَ العلوم ببلده ، ثم رحل الى المشرق فدَرَس به على المشاهير ، ثم انقلب راجعاً الى فاس فأسره بعضُ قرصان الافرنج وفداه أبو العباس المنصور بمال جزيل .

وكان مُتضلّعاً من علوم الفقه والحديث والعربية والتاريخ . وهو الغالب عليه، بله الحساب والفرائض ، واستقضي بسلا ردحاً من الزمان ثم آب الى فاس فأكبّ على التدريس ، وكان مشغوفاً بنشر العلم وبثّه فلم يزل كذلك حتى توفي عام ١٠٢٥ وخلّف عدّة كتب نفيسة خدم بها التاريخ المغربي خدمة تذكر أبد الدهر فتشكر ، وهي المنتقى المقصور على محاسن ابي العباس المنصور ، وجذوة الاقتباس فيمن كان من الاعلام بفاس ودُرّة الحجال في أسماء الرجال ذيل به تاريخ ابن خلكان وغير هذه مما يأتي ذكره .

القدّومي

هو أبو العباس أحمد بن قاسم الغسّاني الشهير بالقدّومي ، إمام العربية وشيخ الإقراء في عصره . كان عارفاً بالنحو معرفة تامة ، وعليه المدارُ فيه ، متحققا بالقراءات وتوجيهها وبالضبط والرسم وجميع ما هو من وظيفة المقرىء وألف حاشية على شرح الألفية للمُرادي وهي نفيسة للغاية . وكانت وفاته سنة ٩٩٢ ه .

الزيّاتي

هو ابو علي الحسن بن يوسف الزياتي النحوي المقرىء ، ولد عام ٩٦٤ وطلب العلم بفاس فنبغ في علوم العربية والقراءات من نحو وتصريف ورسم القرآن وضبطه ، أخذ عن القدّومي وغيره وألف شرح الجمل للمجراد وحاشية شرح الضبط للتنسي وغير ذلك . وتوفي سنة ١٠٢٣ ه .

البُعْقيلي

هو أبو زيد عبد الرحمن البُعْقِيلي الجزولي ، العالم الفلكيّ البارع له تعقبات على المنجمين تدل على تضلعه بالفن وهو الذي أحدث الساعة الرخاميّة بالجامع

الأعظم بتَارُودانت • وله شرْح روضة الأزهار وشرح اليسارة وغير ذلك . وتوفي سنة ١٠٠٦ قال أبو عبدالله ابن المبارك الأقاوي : « لم أتأسف على موت فقيـــد تأسفي عليه ، لانقراض علوم الهيئة بموته ، ولم يخلف مثله فيها . »

أبو القاسِم الوزيْر

هو أبو القاسم بن محمد بن ابراهيم الغسَّاني الفاسي المعروف بالوزير ، أحد مَهَرة الأطبَّاء في هذا العصر ، خدَم في أطبَّاء الخاصّ عند أبي العبّاس المنصور وألـّف كتباً منها شرح نظم ابن عَزرون في الحُمّيات ، وحديقة الأزهـــار في شرح ماهية العُشْب والأزهار المعروف بمفردات الوزير وغير ذلك . ولد عام ٩٦٠ وكان حياً عام ٩٩٤ هـ .

الغوُل الفشْتالي

هو أبو القاسم المعروف بالغول الفشتالي ، الفقيه القاضي المتطبب المشارك في كثير من التعاليم ، له رسالة في الطوّاعين ، ونظم جيد في الطب ، ورسالة في كيفية قسم المياه لقواديس الديار وغير ذلك . وتوفي عام ١٠٥٩ .

* * *

اسماءُ الكتبِ المؤلفة في هذا العصر

وإليك الآن بيانَ الكُتب المؤلـّفة في هذا العصر ، مُضافاً اليها ما ذكرناه في هذه التراجم لتتألـّف من الجميع قائمةُ المجموعةِ النفيسة التي ضُمّت من جديـــد الى المكتبة المغربية :

كتب الحديث والتفسير وتوابعها :

اللُّباب في تفسير الكتاب للحاج الشُّطَيبي المتوفى سنة ٩٦٠ ، حاشية على تفسير الزمخشري وغيره للمنصور الذَّهَبي . الفتح النَّبيل في أسماء العَددِ في التنزيل لابن القاضي ، الدُّرُّ الأزهَر في مُناسَباتِ الآيات والسُّوَر لعبد الله بن طاهر الشريف المتوفى سنة ١٠٤٥ ، نظمُ اصطِلاح الحديث له ، حاشية على تفسير الجَلالَين لعبد الرحمن العارف المتوفى سنة ١٠٤٦ ، تفسير الفاتحة له ، حاشية على البخاري له ، نظمُ نُخبة الفِكَر لابن حجر في الاصطلاح للعربي الفاسي المتوفى سنة ١٠٥٢ ، تفسير القرآن لعلي بن عبد الواحد الأنصاري السِّجِلماسي المتوفى سنة ١٠٥٤ ، نظمُ اصطلاح الحديث له ، شرح ابن بَرِّي له ، إتقان الصَّنعة في قراءة السَّبعة لأحمد بن شُعيب المتوفى سنة ١٠١٥ ، حاشية على شرح الضَّبط للزَّياتي ، شرح الخرَّاز لابن عاشر .

كتب الفقه والتصوّف وتوابعها :

شرح العُمدة في الأحكام ، لعبد الغني المَقدِسي ، لأحمد الفاسي ، شرح الرَّائيَّة للشَّريشي في التصوّف له ، رسالة في حكم الذكر جهرة له ، رسالة في حكم السماع له ، رسالة في وزن الأعمال وتكفير النيّات له ، رسالة في أولاد المشركين له . شرح الرسالة المُسمَّى بالإيضاح لأحمد بن علي الشتوكي المتوفى سنة ٩٦٥ ، المرشد المعين على الضروري من علوم الدين لابن عاشر ، حاشية على شرح التَّتَائي الصغير على المختصر له ، زُبْدَةُ الأوطاب في اختصار الحطّاب لميارة ، شرح تُحفة ابن عاصم في الأحكام له ، شرح تُحفة الزقّاق فيها له ، شرح المرشد المعين نسختان كبير وصغير له ، تنبيه المغترين على حِرمةِ التَّفرقة بين المسلمين له ، حاشية على مختصر خليل للأبار المتوفى سنة ١٠٧١ ، الفتاوى له ، شرح تُحفة ابن عاصم لعلي بن عبد الواحد ، نظم أصول الفقه له ، حاشية على المختصر لعبد الرحمن العارف ، حاشية على المَحلّي في الأصول له ، حاشية على المختصر للسَّراج ، الفتاوى له ، حاشية على خليل للجَنَّان المتوفى سنة ١٠٥٠ ، حاشية على خليل لأبي محمد التَّمَجْرُوتي المتوفى سنة ٩٨٠ ، الرَّوض اليانع في فوائد النكاح وآداب المُجامِع له ، نيلُ الأمَل فيما به جرى العَمل لابن القاضي . تنبيه الصَّغير من الوِلدان في الردّ على زاعِم الفتوى آجليان للكُلالي المتوفى سنة ١٠٤٧ ، المسألة الإمليسيَّة في الأنكحة الإغريسيَّة له ، نظم أحكام العِدَّة

للهَبطي ، ألفية في النصائح الدينية له . شرح نظم العِدّة لابن خجُّو ، شرح نظم بيوع ابن جماعة له ، كتاب الغَنيمَة له ، كتاب ضياء النهار له ، كتاب النصائح له ، كتاب اللائق لمُعَلِّم الوثائق لأحمد بن عرضون المتوفى سنة ٩٩٣، مُقنِع المحتاج في آداب الأزواج له ، اختصاره له ، كتاب في آداب الصحبة له ، نظم في أحكام الزكاة للعَربي الفاسي ، شرح الرسالة لحسن بن داود الرّسموكي ، شرح التّلقين له ، مَدارِج الرّاغب في شرح مختصر ابن الحاجِب له ، شرح نظم بيُوع ابن جمَاعة له ، كشْفُ قِنَاع الالتِباس عن البِدَع الشائعة بفاس للعُقَيْلي المتوفى سنة ١٠٧٦ ، سِلاح أهل الإيمان في مُحاربَة الشيطان العُثْماني المتوفى سنة ١٠٢٧ ، بِدَاية السُّلوك الى بسَاط مَلِك الملوك له ، شرحه له ، تَنْبِيه الغافل على مرتبة العامل له ، الانتِبَاه في صِدْق عُبُوديَّة العبد لِموْلاه له ، نظم الشُّهداء له . وَصْلَةُ الزُّلفى في التقرب بآل المصطَفى للشيخ أحمد وعلي المتوفى سنة ١٠٤٧ ، بذْلُ المُناصحة في فِعْل المُصافحة . فلك السعادة في فضل الجهاد والشهادة للهادي السجلماسي المتوفى سنة ١٠٥٦ ، تصحيح البِدَاية وتحقيق النّهاية للصَّوْمعي المتوفى سنة ١٠١٣ ، الدرر في فضائل الأدعية له ، لُبابُ اللُّباب في معاملة الملك الوهاب ثلاث نسخ له ، بداية المُريد نسختان له ، مصباح السالكين له ، مفتاح السعادة له ، نُور المِصْباح له ، نَتائِجُ الأفكار له ، نصيحَة الرّاغب له ، وَسِيلة الصديق له ، الزهرة العالية له ، شمْسُ المَواسِم له ، حِزبُ الوسِيلة له حِزْب الفَتْح له ، شرح مَنازل السّائرين له ، شرح الحِكم العَطَائيَّة ثلاث نسخ له ، شرح حِزْب البَحْر له ، شرح الشريشيّة له ، شرح المَباحِث الأصلِية للحاج الشُّطَيْبي ، شرح المَشِيشِيَّة للتُّجِيبي المتوفى سنة ١٠٣٠ ، شرح المباحث الأصلية له، شرح الشّرِيشيَّة له ، شرح المشيشيّة للزياتى .

كتب المنطق والكلام

الإشادة بمعرفة مدلول الشهادة للهبطي ، مَراصِدُ المُعتمد في مقَاصِد المُعتقِد للعربي الفاسي ، الطّالِع المُشرق من أُفق المَنطِق له ، تَلقِيحُ الأذهان بتنقيح البُرهان له ، العقيدةُ الكبرى لعبدالله بن طاهر الشريف، العقيدة الصغرى له، شرح مَقاصِد ابن زكرى في التوحيد للمَنجُور ، حاشية على شرح كبرى السّنُوسي في التوحيد له ، شرح المقاصد لعبد الواحد الفلالي المتوفى سنة ١٠٠٣ ، شرح الكُبرى

للحَفْصِي المتوفى سنة ١٠٣٧ ، شرح صغرى السنوسي في التوحيد له ، نظمٌ في المنطق له ، حاشية على الصغرى لأحمد بن علي الشريف العلمي المتوفى سنة ١٠٢٧ حاشية على الصغرى للزّياتي ، شرح صُغْرى الصُّغرى للسنوسي في التوحيد للسَّكْتاني المتوفى سنة ١٠٦٢ ، حاشية على شرح الصغرى له ، حاشية على شرح الصغرى لعبد الرحمن العارف ، حاشية على مختصر السَّنُوسي في المنطق لعلي اليَاصلُوتي المتوفى سنة ١٠٣٩ .

كتب النحو والتصريف والبَيَان وما اليها

حاشية على مُطَوَّل السعد في علوم البلاغة لعلي اليَاصلُوتي، مَراقِي المجد في آيات السعد للمَنْجور، شرح ألفية ابن مالك له، حاشية على شرح المرادي للألفية لعبد الواحد الفلالي ، إعرابُ أوائل الأحزاب لداود بن محمد السَّمْلالي، نظمٌ في تصريف الأفعال لحسن بن داود الرَّسْموكي ، حاشية على شرح المُرادي للقَدُّومي ، حاشية على شرح المكودي للالفية لِمَجْبَر المتوفى سنة ٩٨٥ ، شرح لامية ابن مالك للمَكْلاتي المتوفى سنة ١٠٤١، شرح جُمَل المَجْراد للزياتي، حاشية على شرح المَكْلاتي له ، حاشية على شرح الألفية للمكودي له ، حاشية على شرح الشريف على الأجرومية له ، شرح النصف الأول من توضيح ابن هشام له ، شرح الجُمل للرَّسْمُوكي المتوفى سنة ١٠٤٩ ، حاشية على المكودي له ، شرح الأجرومية لعلي بن عبد الواحد ، نظمٌ في التصريف له ، شرح الألفية لقاسم ابن القاضي المتوفى سنة ١٠٢٢ ، شرح تصريف المكودي له ، حاشية على شرح الشريف له ، نظم الأجرومية للعَرَبي الفاسي ، شرح نظم الضَّرير المراكشي في البيان لإبْراهيم ابن محمد التَّمَنَارتي .

كتب التراجم والتاريخ والرحلات :

كتاب الجُمان في تاريخ الزَّمان للحاج الشُّطَيْبي ، دوْحةُ الناشِر لِمحاسِن مَن كان بالمغرب من أهل القرن العاشر لابن عَسكَر المتوفى سنة ٩٨٦ ، مَناهِلُ الصَّفا في تاريخ دولة الشُّرفا لعبد العزيز الفشتالي ، الممدود والمقصور من سَنَا أبي العباس المنصور لمحمد بن عيسى المتوفى سنة ٩٩٠ ، نظْمُ وفياتِ ابن قُنْفُذ لمحمد بن علي الفشتالي ، ذيلُ نظمِ الوفيات للمَكْلاتي ، المُنتقى المقصور على مآثر أبي العباس

المنصور لابن القاضي ، درة الحجال في أسماء الرجال له ، جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بفاس له ، غنية الرائض في طبقات أهل الحساب والفرائض له ، درة السلوك فيمن حوى الملك من الملوك له ، لقط الفرائد من حقائق الفوائد له ، الإلمام ببعض من لقيته من علماء الاسلام لعبد الواحد الفلالي ، الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة لعبد الرحمن التمنارتي المتوفى سنه ١٠٧٠ ، التعريف برجال البخاري لعلي بن عبد الواحد ، نظم السيرة له ، المعزى في أخبار أبي يعزى للصومعي ، مرآة المحاسن للعربي بن الفاسي وهي ترجمة والده ، أنوار الزمان بقدوم مولانا زيدان لقاسم ابن القاضي ، النفحة المسكية في الرحلة التركية لأبي الحسن التمجروتي المتوفى سنة ١٠٠٣ .

كتب الأدب والشعر :

شرح لامية العجم للماغوسي ، مقدمة لديوان المتنبي مع ترتيبه على حروف الهجاء له ، مدد جيش التوشيح لعبد العزيز الفشتالي ، مقدمة لديوان المتنبي له ، شرح مقصورة المكودي له ، شرحها أيضاً لعبد الواحد الفلالي ، ديوان خطب لعلي بن عبد الواحد ، ديوان شعر لعبد الرحمن التمنارتي ، ديوان شعر لعبدالله ابن طاهر الشريف ، شرح ديوان المتنبي للنابغة الهوزالي .

كتب الطب والهيئة والحساب وما الى ذلك :

حديقة الأزهار في شرح ماهية العشب والأزهار لأبي القاسم الوزير ، نظم ابن عزرون في الحميات له ، أرجوزة في الطب للغول الفشتالي ، رسالة في الطواعين له ، رسالة كيفية قسم المياه لقواديس الديار له ، نظم في الطب لعلي بن عبد الواحد ، نظم العمل بالربع المجيب لابن عاشر ، تصحيح قبلة فاس لليسيثني ، شرح روضة الأزهار للبعقيلي ، شرح اليسارة له ، البرق الوامض في الحساب والفرائض لقاسم ابن القاضي ، شرح سلك اللآلي في المخمس الخالي له ، محاذي على قصيدة ابن ليون في التكبيس له ، محاذي على الروضة له ، شرح جداول الحوفي لابن القاضي ، شرح الروضة لأحمد معشوب ، المقنع لابن سعيد المرغيثي المتوفى سنة ١٠٨٩ ، شرحان عليه كبير وصغير له ، اليواقيت في الحساب والفرائض

والمواقيت للعُقَيلي ، شرح المُنيَة له ، شرح الروضة له ، المُقرَّب في الربع المُجَيَّب لاحمد بن حُمَيدة المطرفي المتوفى سنة ١٠٠١ ، شرح الروضة له ، كتاب في الكيمياء للحاج الشُّطَيبي ، كتاب في السياسة للمنصور الذهبي .

الحياة الأدبيّة

كانت الحركةُ الأدبية في عهد بني وطَّاس قد وقفَتْ وقوفاً كلِّياً إذ لم تجد مُضطرباً في ذلك الجوّ المضطرم بأعاصير الفِتن والحُروب . فلما قامت الدولة السعدية واستَتَبَّ الأمن والراحة بدأ الأملُ يَتجدَّد في نهضة الأدب وانتعاشِ روحه من جديد ، لا سيَّما وقد ظهَر من تَنْشيط الملوك السعديين له وأخْذهم بضَبْعِه ما قوّى ذلك الأمل ، وبالفعل فما جاءت أيام المنصور الذهبي حتى عاد لدولة الأدب سالفُ مجدِها وسابقُ عزِّها ، فصِرْنا نرى أفواجَ الشعراء تمُوجُ في بَلاط ذلك السلطان وبُلغاء الكتَّاب يَغَصُّ بهم ديوانُه ، وعُدْنا نشْهَد مُساجلةَ السلطان لأهل مجلِسه ومُطارحتَه ايَّاهم اللطائفَ الأدبية .

وانك لتَعُدَّ من نوابغ أدباء هذا العصر الذين زانوا طلعتَه ، وطرَّزوا حُلَّتَه ، ولا تعُدُّهم لأنهم كثير . لكن قيْدومَهم على الاطلاق وزعيمَهم باتفاق هو فخرُ الدولة السعدية وذُخْرُها إمامُ النظم والنثر ، عبد العزيز الفَشْتالي الذي كان المنصور يقول في شأنه : « نفتَخِرُ به على ملوك الأرض ، ونباري لسانَ الدين بنَ الخطيب . » وفي الحقيقة إنه من حسنات هذا العصر ، ومن أفضل أدباء المغرب الذين برَّزوا في الصِّناعتَين ، وكان مُتَولياً في دولة المنصور رئاسة ديوان الإنشاء ، فكان الكلُّ يعترفُ برياستِه ويُقرُّ بفضله .

وهناك أديبٌ فشْتالي آخَر هو الوزير ابنُ علي . وكان كاتباً شاعراً ايضاً . ومن الأدباء ايضاً النابغةُ الهَوْزالي الذي كان يُعتَبر بحقّ شاعرَ الدولة ، وهو متنبِّي النَّزْعة ، فخمُ الألفاظ ، جزْلُ المعاني ؛ إلا أن آثاره ضاعت ولم يصِلْ الينا منها غيرُ النزْر اليسير .

أما غـــير هؤلاء فهم ممن يُمثلون المدرسةَ الأندلسيَّة في رقـَّة الشعر وسلاستِه وانطِباعه ، وناهيكَ بأبي الحسن الشامي والقاضي الشاطبي والوزير الشيَظِمي من ثالوثٍ شعْريّ جميل .

وهناك طائفةٌ من الشعراء كانت تمزجُ الجِـدَّ بالهَزْل ، وتنفخُ في الفنّ روحَ الفكاهة ، مستَقِلـَّةً بهذا المذهب ، تجيىءُ فيه وتذهب ، وكان المنصورُ يُعجبُه ذلك منها ويُثيبُها عليه كثيراً ، وقد انفرَد عصْرُه بهذا اللون من الأدب أو كادَ إلاّ انه لم يتمكـَّن من القوة والظهور ، لأن وفاةَ المنصور قضت عليه في مَهْده . ومن أفراد هذه الطائفة ابن عمْرو الشاوي ورابحُ بن عبدِ الصمد ، وأبو اسحاق الزّرْويلي ، ولسنا في حاجة الى ذكر العلماء والقضاة والرؤساء الذين كانوا يتعاَطونَ الأدب ويطلعون بين آونة وأُخرى على الجمهور بنتائج أفكارهم ، خصوصاً في الأعياد والمواسم والحفَلات العديدة التي كان المنصور يُقيمُها لغَير مناسبة ، ولهاً ، فان هؤلاء أكثرُ من أن يُحْصَوا . بلهَ الأدباء غيرَ المغاربة ممَّنْ أوَوْا الى حرَمِ المنصور ، وتفيَّئوا ظلـَّه من شاسع البُلدان ، ونازح الأقطــار ، إذ كان يَرْفع أقدارَهم ويُنزلهم منازلهم . وفي مقدمة هؤلاء أبو العباس المقـّري صاحبُ نفح الطيب .

ولقد انتظم في مجْلِسه يوماً وفدٌ عُمْدته ثلاثة أشخاص مكـّي ومدَني ومقدسي؛ فقام المكيُّ وقال يا أمير المؤمنين إن المساجدَ الثلاثةَ التي تشَدُّ اليها الرّحال قد شدَّ أهلـُها اليك الرّحلة وأنشد :

إنَّ أَميرَ الُمؤمنين أحمدُ ... بحرُ النَّدى وفضلُه لا يُجْحَدُ

فَطَيْبَـةٌ ومَـكَّةٌ أَهْلُهَا ... وَالمسجِدُ الأقصى بذاك تَشْهَدُ

ثم قال : نصرَكَ الله إنه لم يتـَّفِق مثلُ هذا لِملك قُصِدتَ إيالتُه ، قال المقـّري وهو رَاوي الحِـكاية ، فتبسـّم لذلك أيـّده الله وأجزلَ لهم في العطاء وإجراءِ النفقة عليهم كما هو دأبُه بكل وافِدٍ عليه من أي بلد كان .

على أن المنصور نفسَه حَريٌ بأن يُعَدَّ في شعراء هـــذا العصر ، فهو مِن ملوك

المغرب كابن المعتز في ملوك المشرق كما تقدم ، وقد كان كلفاً مثله بالبديع من جناس وتورية وتفريع ؛ وفيما ثبت من آثاره بقسم المنتخبات دلائل ناطقة بطول باعه وقوة عارضته . ومثله ولده زيدان وابنا أخويه محمد المتوكل بن عبد الله الغالب ، والأمير محمد بن عبد القادر بن محمد الشيخ المهدي في البراعة الأدبية ونظم الشعر البليغ ، وسنورد لكل منهم بعض الآثار في محلها ، وإذا كان لنا أن نستخلص من هذا الواقع التاريخي بعض الحقائق فهي أن الحياة الأدبية تتأثر بالحياة السياسية الى أبعد حد ؛ ذلك أنه لما تدهورت سياسة البلاد في آخر عصر المرينيين وعلى عهد الوطاسيين كان الأدب يعاني حالة من الركود كاد لا يبقى له معها وجود ، ثم لما أذن الله بانبعاث القوات الشعبية وزحفها لتدارك الحالة تحت قيادة الأشراف السعديين دبت الحياة في النفوس ، وانتعشت الأحوال فهب الأدب من مرقده ، وكان تشجيع رجال الدولة لأهله معيناً على نموه وازدهاره .

وقد أعطيناك هذه الصورة المصغرة عن الحياة الأدبية في هذا العصر ، ولعلك تتشوف الى تراجم بعض الأدباء سالفي الذكر ، فدونك ما يقتضيه المقام ، من ذلك.

عبد العزيز الفشتالي

هو الوزير صاحب القلم الأعلى ، أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي الفاسي ، ولد سنة ٩٥٢ ودرس بفاس على العلامة المنجور ، وأبي العباس الزموري والقاضي الحميدي وعبد الواحد الشريف وغيرهم ، وبرع في فنون الأدب والتاريخ والسياسة ؛ فعلت رتبته عند المنصور وزهت به دولته ، حتى قال المنصور عنه كلمته السابقة . وقال صاحب سلافة العصر في حقه : « كاتب المنصور ، وربيب تلك الدولة المشيدة القصور ، وخادم سناها الممدود والمقصور . المعترف لسان البراعة عن حصر مناقبه بالقصور . فاضل زهت به الأقلام والأعلام ، وأقرت بفضله العلماء الأعلام وخضعت لأدبه سماسرة الكلام . وأضاءت بأنوار بلاغته حنادس الظلام . فهو إذا نثر أفحم الورقاء ذات السجع ، وإذا نظم أخجلت أفكاره دراري السماء ذات الرجع ؛ فجاء بما شاء وكيفما شاء ، من محاسن الأشعار والإنشاء .. » الخ ، أما

منزلته في الكتابة فانه طبقة عصره غير مدافع ، وأما في الشعر فانه متين السبك محكم الرصف ، ناصع الألفاظ حسن التصرف في جميع فنون الشعر ، لا سيما الوصف الذي أجاده وتقدم فيه بشاهد قصائده العديدة التي قالها في قصر البديع الذي بناه المنصور بمراكش فنقشت على جدرانه وسقوفه ، وطرزت بها فرشه وأروقته مما يأتي طرف منه في قسم المنظوم ، وله تصانيف منها مناهل الصفا في تاريخ دولة الشرفاء ، أي السعديين ، مشتمل على تاريخ هذه الدولة منذ نشأتها الى وقته ، وعلى نبذة من محاسن المنصور في عدة مجلدات . ومنها مدد الجيش ، ذيل به جيش التوشيح لابن الخطيب ، قال في النفح : (استهله بقوله « الحمد لله الذي أمد جيش محمد بعترته ») وأتى فيه بكثير من موشحات أهل العصر من المغاربة وضمنه من كلام أمير المؤمنين المنصور ما زاده حسناً ورونقاً ، ومنها مقدمة في ترتيب ديوان المتنبي على حروف المعجم ، ومنها شرح مقصورة المكودي ، وبالجملة فهو من مفاخر هذه الدولة كما قال المنصور عنه ، وكانت وفاته سنة ١٠٣٢ .

النابغة الهوزالي

أبو عبدالله محمد بن علي الهوزالي شاعر الدولة الرسمي ، كان شديد الاتصال بالمنصور والقرب منه يقوم عنده في الاحتفالات الرسمية والمواسم والأعياد ينشده ويعجب هو بشعره كثيراً ، ويصله ويخلع عليه .

وكان قوي المراس على المعاني الشعرية فخم الألفاظ نابه المعاني ، جيد النظم رائع الأسلوب ، متضلعاً من اللغة والأدب ، بصيراً بمواقع الكلم ، متصرفاً في ضروب المدح أحسن التصرف ، ووصفه الشيخ عبد الواحد الشريف فقال : « الفقيه المتفنن ذو الفهم القويم والادراك المستقيم ، قائد العويصات بنواصيها ومستنزل عصم القوافي من صياصيها ، شعلة الذكاء الذي يزرى سناه بنور ذكاء » وقد علمت أنه كان يلقب بالنابغة ولا ندري ما اذا كان مرادهم بذلك الوصف أو التشبيه ، وله شرح على ديوان المتنبي ، وكان يلي قضاء المدينة المحمدية أعني تارودانت . وتوفي بمراكش في شعبان سنة ١٠١٢ .

ابن عيسى

هو أبو عبدالله محمد بن احمد بن عيسى الصنهاجي ، كاتب سِرِّ المنصور ، وأحد أعيان أدباء دولته ، له تضلع بعلوم العربية ومعرفةٌ كبيرة بالتواريخ وأيام الناس وسِيَر الملوك ، وقَلمُه في الكتابة بارع ، وعارضَتُه في الترسُّل قوية وله شعر قليل ، وألـَّف كتاب الممدود والمقصور من سنا أبي العباس المنصور ، قال المقري ، : وهذه التـسْمِيَةُ وحدها مُطـْرِبة . توفي في سِجْنِ مخدومه بفاس سنة ٩٩٠ .

ابن علي الفشتالي

أبو عبدالله محمد بن علي بن ابراهيم الفَشْتالي ، أحـــدُ وزراء المنصور ، ومن صدور الأدباء في عصره ، كان كاتباً مُجوّداً ماهراً في الصناعة ، شاعراً بارعاً متفنناً في ضروب النظم . قال صاحب الرَّيْحانة في حقه : « وَزيرُ مولاي أحمد ، أديب فاس ورَيْحانةُ فضلائِها الاكياس . تقدَّم فيها مُتقلِّداً قِلادَةَ إنشائها ، فائقـاً برَسائله على سائر أدبائها ؛ وله ماءُ شِعْرٍ تشرَبُه أفواهُ الأسمـاع ، ورياضُ منثور تُغَرِّدُ حمائِمُ قوافيه بمُطرِب الأسجاع » .

من مآثره الأدبية اللاميةُ التي نظم فيها ما تضمَّنه تأليفُ ابن قنفذ في وفيات الاعيان من زمن البعثة الى تمام المائة الثامنة ، وزاد عليه الى تمام الف سنة راءزاً الى التواريخ بنَقْط الحروف الابجديَّة على ما شاع عند أدباء العصور المتأخرة ، وقـد ذيَّلَ على هذه القصيدة الأديبُ المكلاتي وأشار الى وفاة المترجم بقوله :

« شكَى » الدرُّ فقْدَ ناظِمٍ وبكَى له بُكاءَ مُحِب بانَ عن مُتَرَحِّــــل

وذلك في سنة ١٠٢١ .

ابو الحسن الشامي

هو أبو الحسن علي بن أحمد الخزرجي الشامي ، به شهر قومه لأن من الشام كان قدوم سلفهم ، وهم من بيوتات فاس ، وكان لهم مع أبي العباس المنصور مصاهرة ، وكان ابو الحسن هذا أحد شعراء دولته والمقربين منه ، وهو شاعر مفن كلف بادخال البديع والمحسنات اللفظية في شعره ؛ لكن حيث لا يظهر عليها أثر التكلف والصنعة ، يحكم الوصف ويجيده وأبدع من وصفه غزله الذي يستثير عاطفة الحب من مكامنها في القلوب .

له لطائف أدبية نظماً ونثراً سنأتي على ذكرها في محلها ، ومن وصفه عند ابن معصوم : « أديب له في الأدب مذهب ، طرازه بحسن البلاغة مذهب ، وشعره ألطف من دل الحبيب ، وأسحر من مقلة الشادن الربيب ؛ يتصور فيه ولا يتكلف ، ويتقدم ولا يتخلف ؛ فهو اذا تغزل أهدى نفحات نجد ، واذا تذكر أورى لفحات شوق ووجد ، على أن عليه من الجزالة ديباجة ، تفوق عبقري الوشي وديباجه ، ولا يشينه من الكلام حوشيه ولا يلم بساحة أنسه وحشيه » . توفي سنة ١٠٣٢ .

ابن عمرو الشاوي

أبو عبدالله محمد بن عمرو بن أبي القاسم الشاوي . قال الشيخ عبد الواحد الشريف في وصفه : « الفقيه الأديب الكاتب الذي ارتفع صيته في مقامات الأخلاق وسما ، وغدا بين النظراء في عذوبة الشمائل علما . وحصل من الأدب اليانع على حظ وافر ونصيب ، ورمى الى غرض الإجادة في منازعه بالسهم المصيب ، وتدرع من حسن الخلق جبة لا تلقيها رياح الانزعاج والغضب ؛ فنسلت القلوب الى محبته من كل حدب ، فلأن ، ابقاه الله تضرب به في لين العريكة الأمثال ، وتتهاداه لفضائله وفواضله الملوك والأقيال ، وأناله من الخير الجزيل كل منال . »

ويظهر من هذا ، ومن بعض نوادره مع المنصور أنه كان ظريفاً خفيفَ الروح حُلوَ الحديث ، فلم نعْدُ به طوْرَه حين عددناه في شعراء الفكاهة ، بل إن مَنزَعه هذا في شعره شديدُ الوضوح ، بحيث لا يحتاج الى مَن يُنبِّه عليه ، وهو مع ذلك فصيحُ العبارة لطيف الاشارة ، لا يتكلّف ولا يتعمّق ، فيكادُ يكون كلامُه مِرآةً تتمثّل فيها سهولة خُلُقِه التي يتحدث عنها الشيخُ عبد الواحد الشريف . وقد اثبتنا في المنتخبات نبذةً من آثاره كغيره من أدباء هذا العصر . .

عصر العلويين

الدّولة الشريفة

انتشر عقدُ الدولة السعدية وتقلّص ظِلّها من المغرب ، إثرَ اشتداد النّزاع وشبُوب الحرب بين أولاد المنصور الذهبي في طلب العرش والفوْز بصوْلجان الملك . وكان قد أمِرَ أمْرُ الدّلائيّين أهل الزاوية التي أسسها الشيخ أبو بكر الدّلائي[1] ؛ فاشتهرتْ بإيواء الطلبَة ونشْرِ العلم وإحياء رسوم الدين زيادةً على بذْل الطعام للصادر والوارد واعانة المحتاجين واغاثة الملهوفين ؛ فاغتنم رئيسُها في هذه الاثناء الشيخ محمد الحاج الدلائي حفيدُ الشيخ أبي بكر المذكور ، فرصةَ ضعف نفوذ الدولة وشغلها عن حكم البلاد فلفّ لفّه ، وزحف الى مكناس وفاس فتملّكهما ، ولم يلبث أن أسس الدولة الدلائية التي قاومها المولى محمد بن الشريف رأس الملوك العلويين . ولكنه لم ينل منها مالاً إذ حصَل الصلح بينه وبين الرئيس الدلائي، على أن ما حاذى الصحراء الى جبل بني عَيّاش فهو للمولى محمد بن الشريف ؛ وما دون تلك الى ناحية الغرب فهو لأهل الدّلاء .

ثم لما تُوُفِّيَ المولى محمد بن الشريف وتولّى أخوه مولاي رشيد لم يرْضَ بهذه القِسمة الجائِرة ، فتقدم واستولى على جُلّ بلاد المغرب ، ثم حارَب الدلائيين فظهر عليهم وتتبّعهم حتى كاد يُفنيهم . وقصَد زاويتَهم فأوقعَ بها الواقعة الحاسمة ، وشرّد بأهلها فصفا له مُلكُ المغرب ، ولم يبق له منازع فيه وذلك سنة ١٠٧٩ .

ولما توفي تولى أخوه السلطان المظفّر أبو النصر إسماعيل بن الشريف ثالثُ سلاطين هذه الدولة وأعظمُهم شُهرةً وأجلّهم قدراً ، كان عاملاً لأخيه على بلاد المغرب ، ومتَوَطّناً بمدينة مكناس التي صارت عاصمتَه من بعدُ . فلما تمّتْ مبايَعةُ الناس له ، نهَض لتمهيد البلاد وإخضاع من كان خارجاً عن الطاعة من أهل السوس وقبائل

١ – لا يعرف بالضبط موقع هذه الزاوية الآن وإنما المحقق أنها كانت تقع بناحية .وادي أم الربيع قريباً من تادلة . ولعلنا لا نخطىء إذا عيّنا لها بلاد تامسنا المعروفة اليوم بالشاوية ، ومن ثم شُهِر بعض الدلائيين بنَسب المسناوي .

البربر ؛ فاستنزلهم جميعاً من صَياصيهم ، ولما طلبوا منه الأمـــان أجابهم الى ذلك ليتَفرَّغ الى منازلة الأجانب المحتلّين بشواطىء المغرب ، والمستولين على أهم ثغوره منذ اضطراب أحوال الدولة السعدية .

فسار الى المَهْدية واستخلصها من يد الاسبان ، ثم أرسل جيشاً كثيفـــاً لحِصار العَرائش وأصيلا ، وكانتا بيدهم ايضاً فطردهم عنهما . وفي ذلك الوقت ورَد الخبرُ بإخراج الانكليز من طنجة ، فتمَّ بذلك سرورُ المواطنين وعظـُم فرَحُهم ، وأقاموا الاحتفالات في كل مكان ، وقد كانوا من فرْطِ البَثِّ والحُزْن على أخذ العرائش في أيام الفتنة قد لبِسوا الأحـــذية السُّودَ ؛ فبقيت في أرجلهم حتى افتتحها مولاي اسماعيل ، فانتزعوها حينئذ ولبسوا هذه النعال الصُّفر .

ثم وجَّه المولى اسمعيل عزمَه الى فتح ثغرَي سبتَة ومليلة وشدَّد عليهما الحصار مدةً طويلة ، وانصرف الى الصحراء فدخل بلاد السودان ، واستوْلى عليها فامتدت حكومتُه اليها جَنوباً ، وشرقـاً الى بَسْكرة من بلاد المغرب الأوسط ، وبذلك اتسعت مملكتُه ، وعظـُم صيتُه ، وهابَه ملوكُ أُوربا فمَن دونهم .

وكان مولاي اسماعيل قد عُنِيَ بجمع عبيد المغرب ، واتخَذَ العَصَبِيَّة منهم ، فأعَدَّ عسكراً قوياً شديداً من جنْس السَّواد بلغَ في حياته الى مائة وخمسين ألفـــاً مُفرَّقةً في القِلاع التي بناها بجميع أنحاء المغرب للحِراسة وتأمين السُّبُل ، وبَنى بازاء كل قلعَة منها فندُقاً لإيواء التجار وعابري السبيل ، فجاء هذا العمل دليـلاً على مزيد حزمه وحُسن تدبـــيره ، إذ أمِنَ بذلك انتقاض القبائل على حكومته ، ووطـَّدَ دعائم السلم الذي هو أساسُ الحضارة وأصل التمدين .

وهكذا ساد الأمن وعمَّ العدل ، ففاضت الخيرات ، وكثـُرت النعم مع الرخاء المفرط ، فلا قيمة للقمح ولا للماشية ، والعُمَّال تَجبي الأموال ، والرَّعية تدفـع بلا كُلفة . وأقام السلطان مولاي إسمعيل مشتغلاً بتجديد عاصمته مكناسة الزيتون ، وكان لا يَبغي بها بديلاً ، فلا تسَل عمّا شيَّده فيها من الآثار الهائلة والمصانع الضخمة ممّا يكِلُّ لسان البليغ عن وصفه ، ولا يتصوّره على حقيقته إلا من وقف عليه .

هذا قُلٌّ من كـُثر مما عمِله مولاي إسمعيل لصالح المغرب ، الى أن رفع رأسه

عالياً ما بين البلاد . وما أن انتقل الى رحمة الله حتى قام خلفاؤه فنَسفوا بتنازعهم ذلك البُنيان الشامخ نسفاً ، وبدّلوا أمنَ البلاد خوفاً وقوّتها ضُعفاً ، فكادت تصير الى ما كانت عليه قبلُ من الفوضى والاختلال ، لولا أن تداركها الله بولاية المولى محمد ابن عبد الله فخر هذه الدولة ، وباعِث مجد المغرب من بين الأنقاض . وقد اجتمع الناس عليه بعد وفاة أبيه مولاي عبد الله بن اسمعيل ؛ فبايعوه لِما كان ظهر منه أيامَ ولايته على مراكش ، في عهد أبيه ، من حسن السياسة وكمال النَّجدة وجَودة الرأي ، فلم يلبَث أن ضربَ على أيدي أهل الفساد ، وساح في أنحاء البلاد متفقّداً لأمورها ، مستصلحاً لأحوالها ، فاجتمعت على محبته القلوب ، وأخلصت له الضمائر .

ثم أخذ يُجدّد ما درَس أو كاد من آثار عظمة المغرب ، فحصَّنَ العواصم والثغور ، وشيَّدَ بها الأبراج والمعاقِلَ المنيعة ، وشحَنَها بالمدافع والعساكر القوّية ، واستكثر من إنشاء السُّفُن الحربية وتدريب البحّارة على العمَل فيها بتلك المُناورات التي كان يُقيمُها من حين لآخر في عَرض بحر الزُّقاق وسواحِل المحيط .

وبَنى مدينة الصَّويرة ، واعتني بها غاية الاعتناء ، فكان بناؤها من حسن سياسته إذ أبطل بها حِصنَ أكَدير ومرساه الذي كان الثوّار يتداولونه ويُسرّحون منه شحن السلع افتياتاً على الدولة ، فانقطع بالصويرة أملُهم في ذلك ، لا سيما وقد جاء مرساها غايةً في حسن البناء .

ونظر المولى محمد بن عبد الله في علاقاته مع الدول نظرة توفيق وسداد ، فعقد عدّة معاهدات مع ملوك أوروبا وغيرها كلُّها في صالح بلاد المغرب . أما الدولة العثمانيّة فقد كان من أعظم أنصارها وأصدق محبّيها ، تقدَّم فخطب وُدَّها في أيام السلطان مصطفى الثالث ، إذا أرسل اليه رسولين ، ومعها هديّة فاخرة فيها خيل عِتاق وسُروج مُحلاّتٌ بالذهب وسيوف مُرصَّعة ، فقُوبِلت هديّته بالسرور ، وأرسل اليه السلطان المذكور مركباً مُثقلاً بالمدافع والقنابل والبارود وكثير من أدوات الحرب .

ثم لما وقعت الحرب بين الروسيا والدولة العثمانية مدّة السلطان عبد الحميد الأول الذي تولّى بعد السلطان مصطفى الثالث ، بادر المولى محمد بن عبد الله فأرسل الى والي الجزائر أربع سُفُن حربيّة مُثقلَة بالهدايا وآلات الحرب ، ورغبَ اليه أن

يرسلها الى القسطنطينيّة ؛ فأساء ذلك الوالي الوَساطة وردّ عليه ردّاً قبيحاً، فلم يمنعه ذلك من المُضيّ في سبيل التقرّب من الدولة العثمانيّة ونُصرتها ؛ فبعث الى السلطان سفيراً بهدايا نفيسة ، وعرض عليه استعدادَه لكل ما يطلب منه من المعونة ، وبيَّنَ له أسفَه من تقاطُع ملوك المسلمين لا سيَّما في ذلك الحين . وأعجَبُ من ذلك أنه طردَ سفير الروسيا الذي كان بطنجة وقتئذٍ لمّا بلغه خبر الحرب المذكورة ، فكان حادثاً ديبلوماسياً خطيراً .

والغايةَ في هذا الباب أنه كان مرةً في سفَر فوافق يومَ عيد الأضحى في الطريق قال الكنسوس : « فخطب السلطان بنفسه ودعا للعثماني » وهذا من انصاف الملوك الذي هو مَلِكُ الانصاف . ومن دلائل حرصه على تمتين الرابطة الدينية بينه وبين ملوك الاسلام أنه زوّجَ ابنتَه للشريف سرور أمير مكّة فجهّزها بمائة الف دينار وزفّها اليه في موْكِب عظيم وأرسل برُفقتها من الهدايا والتحف الى أمير طرابلس ومصر والشام شيئاً كثيراً . فهذا الاهتمام من المولى محمد بن عبدالله بتمكين أواصر المحبّة بينه وبين ملوك الاسلام، هو من أعظم فضائله في نظرنا ، ولو لم يكن له مَنقَبةٌ الا هو لكفى . فان من المعلوم ان ملوك الاسلام لو جرَوا على هذه السنّة المحمودة وراَعوا هذا الواجب الأكيد لما وجدَ العدو أبد الدهر سبيلاً الى استعبادهم والتحكّم فيهم .

ولما توفي المولى محمد بن عبدالله اضطربت الأمور أيضاً ولم يَلِ بعده خيرٌ من مولاي سليمان الذي كان مثالاً مُجسّماً للعدل والديموقراطية الاسلامية إلا أنه كغيره ، لم يكن مُوَفّقاً في سياسة الدولة وتثبيت السلم .

أمّا مِسْكُ الختام ولَبِنةُ التّمام فهو السلطان المرحوم مولاي الحسن الذي تولى بعد وفاة أبيه المولى محمد بن عبد الرحمن سنة ١٢٩٠ ، وقد كان العُتوُّ والفساد ضاربَيْن أطنابها في قبائل المغرب جميعاً ؛ فتمكن بحكمته وحسن سياسته من تأليف تلك القبائل وإعادتها الى حظيرة الطاعة ، واجتهد في اصلاح البلاد والسير بها في طريق الرُّقي المادي والأدبي ، خصوصاً فيما تشتدّ إليه حاجةُ الدولة لحفظ استقلالها وضمان سلامتها؛فأرسل فَوْجاً من الطلبة الى أوربا بقصد التخرج في فنونها الصناعية، وأسّس معملاً كبيراً للسلاح بفاس ، واقتنى مراكبَ بخاريّةً كان يَصِحُّ جعْلُها نَواةً

لعِمَارةٍ بحريّة مُهمّة ، وكان في علاقته مع دول الغرب دائمَ التيقُّظ والحـــذَر لم يُسْلِسْ قِيادَه لواحدة منهن على ما كُنَّ يُبدينَه من التودُّد الزائد .

وكان لا يفتُر من الجَوْس خِلال المملكة ، وفي هذه الفكرة السديدة من توطيد الأمن وغيره ما لا يخفى . وكان لعامّة الشعب تعلّق كبير به ، وحبٌ زائد على حبهم لأنفسهم وذلك دليل على شفقتِه وغيرته على الدين والوطن ، وكان عازماً على رَبطِ أنحاء مملكته بخطوط السكة الحديدية وإنشاء التلغراف وغير ذلك ؛ إلا أن المَنيَّة عاجَلَتْه قبل أن يحقق أملَ رعيته فيه فتوفي مأسوفاً عليه سنة ١٣١١ وكان رحمه الله قد بنى فأحسن البناء ولكنَّ لسانَ الحال يُنشِد :

أرَى ألْفَ بانٍ لا يَقُومُ بِهادمٍ فكَيْفَ بِبَانٍ خَلْفَه ألْفُ هادِمِ ؟[1]

---

١ — الى هنا انتهينا بالتاريخ السياسي للدولة الشريفة في الطبعة الأولى ، ولم نزد عليه شيئاً الآن ، لأنه في الحقيقة نهاية عهد الاستقلال و[illegible] [illegible] والحماية أي العصر [illegible] ، [illegible] أراد من القراء [illegible] [illegible]

الحركة العلمية

فترت الحركةُ العلمية في المغرب بعد وفاة المنصور الذهبي فتوراً كبيراً ، لا سيما عند ما أراد السلطان المأمون بن المنصور الملقبُ بالشيخ من العلماء أن يوافقوا على احتلال العدوّ لمدينة العرائش فلم يرتضوا ذلك ، وخرج الكثير منهم فارّين بدينهم الى البوادي ؛ فكان لذلك من التأثير السيء على الأوساط العلمية في المدن المغربية وخصوصاً فاس ما لا يخفى .

ولكن من الألطاف الخفية أن ظهرت الزّاوية الدلائية في ذلك الحين ، فكأنما بعثها الله لحفظ تراث العلوم والآداب الذي كاد أن يضيع ، فقامت عليه خير قيام . وما هي إلا مدة قليلة حتى صارت مركزاً مهماً لنشر الثقافة العربية بين قبائل المغرب ، ومأرزاً حصيناً للعلوم الاسلامية بالبلاد ، وقد تخرَّج فيها عددٌ لا يحصى من العلماء الفطاحل ، والأدباء الأماثل ، يكفي أن نذكر منهم علامة المغرب في هذا العصر أبا علي اليوسي . والواقع أنه لو لم يقض عليها مولاي رشيد ذلك القضاء المُبرَم لكان للمعارف اليوم بالمغرب ، وخصوصا القبائل ، شأنٌ غير هذا الشأن . ولكن ما يشفع لمولاي رشيد هو أنه بعد تخريب الزاوية ، نقل أهل العلم من رجالها مُكرَمين الى فاس ، حيث عكفوا على التعليم والتذكير من غير خوف ولا نكير . وكان كثيراً ما يتعهدهم ببرّه وألطافه ، بل إن منهم مَن كان من جلسائه وخواصّ أهل حضرته وهو العلامة أبو عبدالله المرابط من أفاضل أهل بيته في النحو واللغة .

ولا مفهوم لهؤلاء ، فانَّ ذلك كان شأنه مع أهل العلم قاطبةً ، وفيما يحدّثنا المؤرخون أن مجلسه كان لا يخلو منهم ومن رجال الدين وأهل الخير والصلاح ، وهو لا يزال يُسْني لهم العَطيات ويغْدِق عليهم الصّلات .

ومن مآثره العلمية الباقية بفاس مدرسة الشرّاطين المُحكمةُ البناء الجميلة الشكل الأنيقةُ الوَضع ، وقد أسسها لدراسة العلم وسكنى طلابه ، وجعلها ثلاث طبقات تشتمل على مائتي بيت واثنين وثلاثين بيتاً وقبّةٍ للصلاة .

وهو الذي أحدث نُزْهة الطلبة الرَّبيعيَّة التي يُقيمونهـا سَنَويّاً على ضِفاف وادي الجواهر بمدينة فاس ويمثلون فيها أدواراً هزْليـة ترْويحاً للنفس من عَناء لدَّرس ، وتشارك فيها السُّلطةُ ويحضرها الأهالي وتدوم مُدَّةَ أسبوع وربمـا حضرها السلطان نفسه اعتناءً بأمر الطلبة . وكانت همة المولى اسمعيل مصروفة في الغالب الى تقوية الدولة والتشييد والعمارة والبناء ، ولكنَّ ولدَه ووليَّ عهده كان - المولى محمد العالِم أقام سوقاً نافقة للعلم والأدب ، وجمع عليه من أهل الفضل والنباهة كلَّ عالم نحرير وأديب شهير ، وفي أيام خلافتــه عن والده بإقْليم سُوس ، قصدَتْه الوفود من تلك النواحي النائية الضاربة في جَنُوب المغرب وصحرائه ولا سيا إقليم شَنْجِيط ، وكان هذا الاقليم يتمخضُ عن حركة أدبية قوية ، فمدحه شعراؤُه بما طال العهدُ بمثله من الشعر الفحل ، واطّلع الناسُ بسبب ذلك على ما كان بجنوب المغرب من نهضة علمية مباركة ، وخاصةً في علوم اللغة والآداب . وفي الحقيقة ان مولاي محمد العالم كان شخصية أدبية فذَّة ، وله آثار شعريةٌ ونثرية فريــدة ، ولولا خلافه على أبيه الذي أوْدَى بحياته لكان أسدى الى المغرب أيادِيَ بيضاء من حيثُ البعثُ والتجديدُ في ميدان المعارف والفنوْن .

وعلى هذا السَّنن جرى المولى محمد بن عبد الله الذي كان دائم الاستصلاح للحالة العلمية والاستنهاض لهمَم العلمــاء ، كي يجاروا الزمن في تطوُّرِه ، ويَلبَسوا لحالِه لَبوسَها ؛ بل كان قد مضى الى أبعدَ من هذه الغاية فأراد أن يمثّلَ دوْرَ يعقوب المنصور الموحدي في القضاء على عِلم الفروع ، وعِلم الكلام معاً ، والعنايةِ بنَشرِ كتُب السنة وتعويضها من كتب الفقه .

وبالفعل فقد بعثَ بأوامره في هذا الصدد الى كافة علماء المغرب، وألزمهم باتّباعها والتدقيق في تنفيذها ، الا انه لم يشتَطَّ في ذلك اشتطاطَ يعقوب المنصور فلم يُحرِقْ الكتب التي أمر بنبذها ، ولم يُحرّم النظر في كتب الخلاف عموماً، وانما أمر بالرُّجوع الى الأمَّهات التي منها الاستمداد ؛ وعليها الاعتماد مع عدَمِ الاقتصار عليها والإعراض عن كتاب الله وسُنَّةِ رسوله اللذين هما المرجعُ الأول والأخير لأحكام الشريعة .

وألّف بنفسه عِدَّة كتب زاوج فيها بين الأصول والفروع والنصوص الفقهيـة والحديثية ، منها كتاب مَسانيد الائمة والفُتوحات الإلهية ، وذلك لينهــجَ للعلماء

طريقَ العمل سواء في التدريس أو التأليف ، وكان يَصِفُ نفسَه في أوائل كُتُبِه ؛ فيقول المالكي مذهباً الحنبلي اعتقاداً مؤكّداً عدم أخذه بطريقة الأشاعرة في العقائد، وكانت هي الطريقة المعتمَدة في المغرب منذ العصر الموحدي ، وفي الأوامر التي كان يُصدِرُها بشأن تنظيم الدراسة في القرويين كثيراً ما أشار الى الاقتصار في علم الكلام على عقيدة ابنِ أبي زيْد القيْرَواني التي ضمَّنَها رسالته المعروفة ، وهي عقيـدةٌ سلفيَّة خاليةٌ من التأويل الذي يجنَحُ اليه الأشاعرةُ كما نبَّهنا على ذلك مراراً .

ولنثْبِتْ هنا نصَّ المنشور الذي أصدره بهذا المعنى سنة ١٢٠٣ لتتمثَّل في ذهنِ القارىء صورةٌ جليَّة عن حالة التعليم في أوائل هذا العصر التي لا تختلفُ عما وجدناها عليه في زماننا هذا ، وما كانت تتطلَّبُه من الاصلاح الذي أدخل عليها المولى محمد بن عبدالله كثيراً منه قبل النهضة الحديثة بنحو المائة والخمسين سنة ، ولفظه بعد الافتتاح: « ليَعلمِ الواقفُ على هذه الفصول ، أننا أمرنا باتباعها والاقتصار عليها ولا يتعداها الى ما سواها :

الفصل الأول : في أحكام القضاة ، فان القاضي الذي ظهر في أحكامه جوْر وزور وما يقرُب من ذلك من الفتاوى الواهية مثلُ كَوْنها من كتب الأجْهُورية[1] ولم يبلغ سَنَدُها الى كتب الأقدمين فان الفقهاء يجتمعون عليه ويعزلونه عن خطة القضاء ولا يحكم على أحد أبداً .

الفصل الثاني : في أئمة المساجد ، فكلُّ إمام لم يرْضَه أهلُ الفضل والدين من أهل حَوْمَتِه[2] يعزلونه في الحين ويأتون بغيره ممن يَرْضوْن امامتَه .

الفصل الثالث : في المدرسين في مساجـد فاس ، فإنا نأمرْهم أن لا يدرسوا الا كتابَ الله تعالى بتفسيره وكتابَ دلائل الخيرات في الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن كُتُب الحديث المسانيد والكتبَ المُستَخرَجةَ منها والبخاري ومسلماً من الكتب الصحاح ، ومن كتب الفقه المدَّونةَ والبيـان والتحصيل ،

---

١ المراد بها شروح المختصر الخليلي للشيخ على الأجهوري وتلامذته الخرشي والشبرخيتي ، والزرقاني فقد حذّر الفقهاء من الاعتماد عليها لكثرة أغلاطها الا ما سلمه محشوها .

٢ أي اهل حيه الذي يسكنه .

ومقدِّمةَ ابن رُشد والجواهرَ لابن شاس والنوادرَ والرسالةَ لابن أبي زيد وغيرَ تلك من كتب الأقدمين، ومَن أرادَ تدريس مختصر خليل فانما يدْرسه بشرح بهرام الكبير والموَّاق والحطَّاب والشيخ علي الأجهوري والخرْشي الكبير لا غير . فهذه الشُّروح الخمسة بها يُدرس خليل مقصورا عليها ، وفيها كفاية ، وما عداها من الشراح كلُّها يُنبذُ ولا يدرس به ، ومن ترك الشرَّاح المذكورين ، واشتغل بالزرقاني وأمثاله من شراح خليـــل يكون كمَن أهرَق الماء واتبَع السراب . وكذلك قراءة سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم كالكَلاعي وابن سيِّد الناس اليَعْمُري ، وكذا كتب النحو كالتسهيل والألفية وغيرهما من كتب هذا الفن ، والبيان بالإيضاح والمطوَّل ، وكتب التصريف ، وديوان الشعراء الستة ، ومقامات الحريري ، والقاموس ولسان العرب وأمثالها مما يُعِينُ على فهم كلام العرب لأنها وسيلة الى فهم كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وناهِيك بها نتيجةً . ومن أراد علم الكلام فعقيدةُ ابن ابي زيد رضي الله عنه كافية شافية يستغني بها جميعُ المسلمين . وكذلك الفقهاء الذين يقرأون الأسْطرلاَّب وعلم الحساب فيأخذون حظَّهم من الأحباس لما في تلك من المنفعة العظيمة والفائدة الكبيرة لأوْقات الصلاة والميراث ، وعلى هذا يكون العمل ان شاء الله .

ومَن أراد أن يخوض في علِم الكلام والمنطق وعلوم الفلاسفة وكتب غُـــلاةِ الصوفية وكتب القَصص فليتعاطَ ذلك في داره مع أصحابه الذين لا يدرُون بأنهم لا يدرون ، ومن تعاطى ما ذكرنا في المساجد وَنالتهُ عقوبة فلا يلُومَنَّ الا نفسه ، وهؤلاء الطلبة الذين يتعاطون العلوم التي نهيْنا عن قراءتها ما مُرادُهم بتعاطيها الا الظهور والرِّياء والسُّمعَة ، وأن يضلُّوا طلبة البادية فانهم يأتُون من بلدهم بنيَّة خالصة في التفقه في الدين وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحين يسمعُونَهم يدرسون هذه العلوم التي نهيْنا عنها يظنون أنهم يُحَصِّلون على فائدة بها فيتركون مجالس التفقه في الدين واستماعَ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم واصلاحَ ألسنتهم بالعربية فيكون ذلك سبباً في ضلالهم . » ا هـ باختصار وتصرف يسير

وبالتأمُّل في فصول هذا المنشور يظهر ما كان للمولى محمد بن عبدالله من النية الحسنة في إصلاح حالة التعليم مما لو استمرَّ العمل به الى الآن لكان له نتائج طيبه ، لكن أبطله من بعده وَلدُه مولاي سلمان لاختلاف وجهـــة نظره عما كان برا

والِدُه ، فرجع ما كان الى ما كان . ثم عاد المولى عبدُ الرحمن بنُ هشام فجدَّدَه في الجملة بمنشور آخر وان لم يكن له مفعول في صرف العلماء عن طريقتهم وكتبهم المفضلة ، وعلى كل حال فقد كان لهذا المنشور تأثيرٌ ظاهر في إحياء علوم التفسير والحديث ، وإذكاءِ الرغبة فيهما لا سيما وقد كان للمولى سليمان غبطة كبيرة في التفسير مما كان باعثاً على مزيد الاعتناء به . وفي أيامه نبغ المفسر الكبير الشيخ الطيب بن كيران . كما نبغ في الحديث الحافظ أبو العلاء العراقي ، وتأثر الفقه أيضاً بروح المنشور فانتعش بعد الانتكاس ، وسرت فيه نسْمةُ الحياة فلم يبق قاصراً على نصوص الفقهاء المجرَّدة ، وأقوال الخلافِيِّين غير المسندة ، وذلك بفضل انتشار كتب السلف والاطلاع على آثار الأقدمين مع حُسْنِ النظر في الكتاب والسنة . والفقهاء النابغون في هذا العصر لا يأخذهم الحصرُ ، إنما نحن نشير لمن كانت لهم يدٌ ظاهرة في تجديد رسوم الفقه ، ولا يزالُ تأثيرهم على العقول قوياً ظاهراً حتى وقتِنا هذا كأبي علي بن رَحَّال والبنَّاني والرُّهُوني .

وهؤلاء هم ممن ثبتت لهم المشاركة في باقي علوم الشريعة أيضاً ، فلا يُفهم من كلامنا أنهم كانوا قاصرين على الفقه ، ولا حاجةَ الى القول انهم كانوا متضلعين في العلوم الآلية أيضا ، انما لا بد من القول إن هناك آخرين كانوا في هذه العلوم مَقْطُوعِي القَرين ، وممن تلقَّى رايتها باليمين وهؤلاء كأحمد بن مبارك اللمطي وأبي العباس الهِلالي وأبي حفص الفاسي ؛ وفي اللغة والنحو بالخصوص نبغ أفراد كثيرون لا يقصرون عن نبغاء العصور المتقدمة في هذين العلمين ناهيك بابن الطيِّب الشرقي وابن بُونة وابن زكرى .

أما فيما عدا ما ذكِر من العلوم الأدبية ، فان التاريخ والجغرافية لم يكن حظُّهما من الانتشار بأقلَّ من أي علم آخر ؛ فالكتب التي ألفت في تاريخ الدولة الشريفة وتراجم علماء هذا العصر تعدُّ بالعشرات وكذا الرِّحْلات وكتُب الأنساب . وإذا ذهبنا نعُدُّ مَن كتَب في هذا الموضوع طال بنا المجال فلنقتصر على تسمية بعض الأفراد كالإفراني وابن الطيب القادري والزَّياني والكَنْسوس .

بقي الكلام في العلوم العقلية ونقول انها كالسابق ، كانت منتشرةً بمقدار وبعض الرياضيات كالحساب والهيئة كان الاعتناء بها أكثر ، وألِّفتْ فيها كتب عديدة .

والطب ايضاً لم يَعْدم من كان مَعْنياً به ، ومَن ألف فيه من رجال هذا العصر ، وقد كان من المبرِّزين في العلوم العقلية والكونية على العموم أبو زيد الفاسي وابنُ سُليمان الرُّوداني وأحمد بن مبارك اللمطي وبرع في الطب بالخصوص عبد الوهاب أدَرَّاق وعبد القادر ابن شقرون وعبد الله بن عزُّوز المراكشي .

ولا ننسى أنه في هذا العصر وقَع تسْجيلُ الموسيقى الأندلسية باعتناء المتفنِّن البارع محمد بن الحُسَين الحائِك الذي ساءه ما آل اليه حالُ هذه الموسيقى من الضيَّاع ، فعمِل على انقاذها بوضْع كنَّاشتِه الشهيرة باسْمه ، الحاوية لجميع الأغاني التي تتكوَّنُ منها النوباتُ أي القِطعُ الموسيقية الإحدى عشَرةَ التي بقيت من الطرب الأندلسي ، وهي رمل المايَة ، الاصبهان ، المايَة ، ارَصْد الذَّيل ، الاستهلال ، الرَّصد ، غريبة الحُسَين ، الحِجاز الكبير ، الحجاز المشرقي ، عراق العَجَم ، العُشّاق . ثم نظّمها بحسب تلك النوْبات وأشار في ملاحظات هامة الى بعض الفروق والاختلافات بين تلك الأغاني وكيفيّة استعمالها ، فحفِظ بهذا العمل الهيكل العام لهذه الموسيقى وكان ذلك هو التسجيل الأول لهذا الفن الأندلسي الرفيع .

ومـا دُمنا أشرنا الى الفن وبعض مظاهر نشاطه ، فلنذكر أنه في هـذا العصر ايضاً وقع تفنـُّن كبير في تحْسين الخط المغربي وما يرجعُ اليه من الزُّخْرفة الكتابية وجدْوَلة الكتب الملوَّنة والتنمُّق في وضْع التراجم المذْهَبة . وتقرَّرت الأصول الفنـّية لأنواع الخطوط حتى وُضعَت لها الأسماء الأعلام التي تُمَيِّز بعضَها عن بعض كالمبْسوط الذي تـُكتَبُ به المصاحف القرآنية ، والمُجَوهَر الذي يُستعمل في كتابة المراسيم السلطانية ونَسخِ كتُب الحديث الشريف وما الى ذلـك والمُسْنَد الذي تـُنسخُ به الكتب العلمية وغيرُها . وقد امتازت بجوْدة الخط وجماله بعضُ المدن كفاس ومكناس وَسَلاَ وبعضُ القبائل كالأخماس التي عُرفَ أهلـُها بحُسْن الخط ، وكتبوا المؤلفات العديدة التي بقيتْ شاهداً على ما كان لهذه القبيلة من ماضٍ علميّ زاهر. ويلحقُ بالخط المغربي الأرقامُ الحسابيةُ المعروفة بالغُباري وبحرف الغُبار وهي التي تسميها الكتب الافرنجية الأرقام العربية (*Les chiffres arabes*) ولا تـُستعمل الا في بلاد المغرب من الوطن العربي على أنها منتشرة في جميع أقطار العالم .. ويُقال إن أول من أدخلها الى اوربا هو البابا سِلـْفِستر الثاني وكان ممن أخذ العلم ببلاد الأندلس والمغرب . ومع العلم بأنها عربية قطعاً لا ندري أول من استعملها ولعلها من اختراع

عربِ المغرب ، ولعـــل الغُباري الذي تَحمِلُ اسمَه هو مُخترعُها ، وأقدمُ نصّ رأيناه ذكرها بهذا الاسم كتابٌ لابن الياسمين تقدم ذكره في العصر الموَحّدي . ونحن انما أشرنا اليها هنا على سبيل جمع النّظائر ، فهي والخطُّ المغربي مما تتشخّصُ به الثقافة العربية في هذه البلاد ، وللقول بأن هناك أرقاماً أخرى كانت تُستعمل عند الموَثّقين خاصةً في قَسم التّركات وحساب المُخَارَجات؛ وربما استعملت في المحاسبات العادية وترقيم صفحات الكتب، ويقال لها القلَمُ الفارسي. ولئن لم نجزِم بأنّ حرف الغُبار من اختراع أهل المغرب فلا نشكّ في أن القلم الفاسي من ابتكار المغاربة وأهـــل فاس بالخصوص وهو لذلك يُشبِهُ الخطّ المغربي في أشكاله الهندسية ويُسايرُه في جمال الوضع وحسن الهِندام . ويقال إنه مأخوذ من القلم الرُّومي القديم ، ذكرَه الشيخُ أحمد سُكَيْرج في تآليفٍ له في صفـة أشكال القلم الفاسي . على أن القلم الرومي نفسَه يُشبه في بعض أشكاله الخط المغربي ، فأمْرُه مُشكِل. ونظنُّ أنه دخلَه أيضاً تحويرٌ ليحصل الانسجامُ بينه وبين الكتابة العربية للعِلم بأن الأرقام الرومانية كانت من الكثافة بحيث تركها أهلها لِحرف الغُبار .

والذين ألّفوا في القلم الرومي ممن اطلعنا عليهم كالعلامة أبي عبدالله محمد ابن أحمد الصباغ لم يذكروا شيئاً عن كيفية اقتباسه وإنما كان وكْدهم أن يطبقوه على العمليات الحسابية المعروفة والمعدودات المغربية من الرُّطل والأوقية والمِثقال وما الى ذلك .

والخلاصة أننا بازاء ثلاثة أنواع من الأرقام : (الغُباري) وهو الشائع المأخوذ به في عموم الأعمال ومن جميع الطبقات (والفاسي) وكان خاصاً ببعض الأعمـــال وبعض الطبقات (والرُّومي) وقد انقرض قديماً وخلَفه الفاسي . والموضوع بحاجة الى دراسة فنيّة من بعض فوائدها الوقوف على ما كان لأسلافنا رحمهم الله من رسوخٍ في العلوم الرياضية وابتكارٍ في أساليبها ونظرياتها .

وفي أعقاب هذا العصر وبالضبط في أيام السلطان محمد بن عبد الرحمن أُسِّسَتْ المطبعة الحجرية بفاس وجعلت تُخرِجُ كتب العلم القيّمة بخطوط ممتازة وتصحيح كامل ، وهي التي ما تزالُ لحد الآن قيْدَ البصر وبهجةَ النظر تتَنافسُ فيهـا الناس ، ويكفي أن يقول الشخص ان هذا الكتاب مطبوع بالمطبعة المحمدية ليُصبِحَ عِلْقَ مَضَنّة وذخيرةً من ذخائر الخزائن العلمية المعدودة .

هذه خُلاصَةُ الكلام عن الحركة العلمية في هذا العصر ، وترى أنْ ليس بينها وبين ما كانت عليه في العصر السابق كبيرُ فرق إلا في التوسُّع الذي يقتضيه طول هذا العهد ، ولذلك اختصرْنا الكلام فيها على أن هذه النُّبْذة مع اختصارها حاوية لأهمّ ما تجب معرفته من ذلك ، وبقي الكلام على مساهمة المرأة في هذه الحركة وهي مساهمةٌ تامّةٌ برغم ما ينقصنا من معلومات في هذا الشأن .

وأول من نذكر من السيدات المُبرِّزات في ميدان المعارف الاسلامية السيدة خُناثة بنت بكّار زوج السلطان مولاي اسمعيل وأمَ ولده السلطان مولاي عبد الله ، كانت فقيهة عالمة ، بارعة أديبة ، خيِّرةً ديِّنة ، لها كتابة على الإصابة في معرفة الصحابة ، لابن حجَر ، وكان لها كلام ورأي وتدبير مع السلطان ومُشاورة في بعض أمور الرعية فانها كانت له وزيرة صِدق وبطانة خير كما قال الوزيرُ الإسحاقي في رحلته . وكانت قد توجهت الى الحج في أيام ولَدِها مولاي عبد الله ، وصَحِبها حفيدُها سيدي محمد بن عبدالله وحاشية كبيرة من جملتها الوزير المذكور الذي كتب رحلتَه بهذه المناسبة ، فقُوبلت بحفاوة عظيمة من أهل الحرمَيْن الشريفين وفرقت هناك على المحتاجين وذوي البُيوتات ما يزيد على مائة الف دينار وأكرمها العلماء ومدحها الشعراء . ومن جملة ما مُدِحت به قصيدةٌ للشيخ محمد بن علي بن فضْل الحُسَيْني الطبري إمام المقام الابراهيمي استهلّها بقوله .

غَنَّى على عُودِ السُّعود هَزارِي ... وشدَا على الأَوتار بالأوطار

ويقول في أثنائها :

فاحتْ بها أَرْجاءُ مكة رغبةً ... ومحبَّةً من سائر الأَخيار

وهْي الحقيقةُ بالجلالة في الورى ... فجلالَةُ الأَضياف ليس بعار

توفيت رحمها الله بفاس سنة ١١٥٩ . ثم نذكر السيّدة زوج الشيخ سيدي المختار الكُنْتي التي كانت أيضاً من العالمات الفاضلات ، وقد ختَمت المختصر الخليلي التي كانت تُدَرِّسُه للنساء في اليوم الذي ختمه زوجها بجهَة أخرى حيث كان ...

مجلسه للرجال ، وألّف ولدُهما أبو عبد الله محمد في ترجمتها كتابَه الطّريفة والتّالِدَة في مناقب الشيخ الوالد والشيخة الوالدة .

ونبغت في نظم الشعر السيدة مريم الشّقراوية الشّنجيطيّة ، واشتهرت به وكانت تمدح أكابر العلماء ويمدحونها حتى بكّتَها أحدُ الشيوخ فأمسكت .

وفي مَيْدان التعليم الأوّلي كان هناك معلّمات يقُمن بتعليم البنات والأولاد الصغار الكتابةَ والقراءةَ والقرآن الكريم ومبادىءَ العلوم الضرورية ، فلم يكن يخلو حي من أحياء المدن الكبيرة من « دار فقيهَة » تُعتبَر بمثابة مدرسة أولية ، ولقد أدركنا نحن منها العشرات مما يدلُّ على ما كانت المرأة المغربية تقوم به من دور عظيم في نشر المعرفة وتثقيف النشء .

وهناك نوعٌ آخر من التعليم وهو التربية الدينية ، وكان للنساء بها اهتمام كبير ، إذ كان بعضُهُنّ ينتَصِبْنَ لتلقين النساء المتقدّمات في السنّ واجباتهن الدينية ، ويندُبنَهُنّ الى التوبة ويعلّمنَهُنّ بعض الأدعية والأذكار ممّا يقومُ به شيوخ التصوّف ، وقد أدركنا نحن الكثيرات من السيدات اللائي كنّ ينهَضن بهذه المهمة الرّوحية خيرَ نهوض ، وبذلك كان النساء على جانب عظيم من العفاف والطهارة وحُسن التبعّل ، وكانت السعادة الزوجية تغمُر البيتَ والأسرةَ والمجتمَع بالرّضى والطمأنينة والحبور ، ولله عاقِبَةُ الأمور .

الهيئة العلمية وآثارها

لا يتّسع لنا المجال للاتيان على تراجم أعيان علماء هذا العصر كلّهم ، لأن عددهم كثير ، فنكتفي بأكبر عدد يمكن ذكره في هذا المختصر مُتعلّلين بأن بين يدينا مجالاً فسيحاً في كتاب (ذِكرَيات مشاهير رجال المغرب) وكتاب (شخصيّات مغربيّة) حيثُ نوفّيهم جميعاً حقّهم ، ونُكفّرُ عن ذنب إغفال من لم نذكُره ها هنا والله سبحانه الموفق . وقد سِرنا في ترتيبهم على حسب سِني وفيّاتِهم لا على ترتيب العلوم ، لأن ذلك أدعى لعدم ظنّ التحيُّز وما اليه ، فليَغتفِر لنا القارىء المُنصِف ذلك .

ابن ناصر

أبو عبد الله محمد بن ناصر الجعفري الزّيني دفينُ درعة ، الإمام جبلُ السنّة وشيخ أهل العلم والعمل في عصره . كان له مشاركة في علوم الشريعة وعلوم العربيّة ، وله قدمٌ راسخ في التصوّف ، شديد الاتباع للسنّة في سائر أحواله ، حتى في لباسه وطعامه ، سالكاً في ذلك سبيل المرجاني وابن أبي جمرة وابن الحاجّ صاحب المدخل . وقام بمهمّة الإرشاد والتعليم فهدى الله به خلقاً لا يُحصَون ، وكان لاخلاصه ونصحه إذا وعظَ أثّر وعظُه في النفوس ، وإذا تكلّم انتقش ما تكلّم به في قلوب سامعيه .

وقد سافر للحج مرّتين فكثُر الآخذون عنه شرقاً وغرباً وهو ممدوح أبي علي اليوسي بقصيدته الدالية المشهورة . وله رسائل جامعة لوِصايا ونصائح غالية من غير تكلّف ولا تعمُّل ، وغير ذلك . وتوفي عام ١٠٨٩ رحمه الله .

عبد القادر الفاسي

أبو محمد عبد القادر بن علي بن يوسف الفهري ثم الفاسي ، به شُهِرَ هو وأهلُ بيتِه ، الإمام العالم العَلَم ، بركةُ فاس وحُجّة المغرب في عصره ، وُلدَ بالقصر

الكبير سنة ١٠٠٧ وبه نشأ ، ثم رحَل الى فاس في طلب العلم واستقر بهـا وتصدَّر للتدريس فعظـُم النفع به ، وكثـُر الأخذ عنه ، وقد وقـَع الأطباق من مشائخ عصره على تحقـُّقِه بسائر العلوم . ولا تجد عالماً أو متعلـّماً إلا وهو من تلامذته أو تلامذتهم .

وكان متمسِّكاً بالسنـَّة ، وَرِعاً زاهداً ، له قدَمٌ راسخ في العبادة وقيام تامٌ على نوافل الخير . ومع سعة علمه وطول باعه في الفنون ، لم يؤلـِّف كثيراً وإنمـا ترك بعض آثار هي بالنسبة لِعلمِه الغزير كغيض من َفيض ، ونُقطة من بحر ، وهي العقيدة والفقهيـّة المشهورتان ، وأجوبَةُ مسائله ، ونحو ذلك ، وتوفي سنة ١٠٩١ هـ .

الـرّوداني[١]

أبو عبد الله محمد بن سليمان الرُّودَاني السُّوسي ، العلامة الجـامع الفيلسوف الفلكي البارع . وُلِدَ بتارودانت سنة ١٠٣٧ وبها نشأ . وحين بلغ سن الرشد تاقت نفسُه للتعليم فخرج وقرأ بدَرعَة . ثم رحل الى سجلماسة ومراكش فأتقن طرَفاً من علم الحكمة والهيئة والمنطق ، إلا أنه لم يقض وَطرَه من ذلك ؛ فرحل لفاس بقصد تتميم الدراسة ، ثم سار الى الجزائر فأخذ بها عن شيوخها وحج وجاور بالمدينة المنورة وأخذ عن علماء مصر والشام ؛ فامتلأ وطابه من المعارف ، وأصبح كما يقول المُحِبي في الخلاصة فرْد الدنيا في العلوم ، المالك للمجهول منها والمعلوم وكانت له يدٌ صَنَاعٌ في كثير من الحرف والصنائع ، كالطـَّرْز العجيب والتسفير والخِرَازة والصِياغة وجـبر قوارير الزُّجاج المكسَّرة وعمل الاسطرلاب ، وابتدع آلةً نافعة في عـلم التوقيت والهيئة لم يُسبَق اليها ، وهي كرة مستديرة الشكل مُنعَمَةُ الصَّقْل مدهونة بالبياض المموَّه بدهن الكتان يحسبها الناظر بيضة من عسجد لاشراقها مسطرة كلـّها دوائر ورسوم ، قد رُكـّبت عليها أُخرى مجرَّفة منقسمة نصفين ، فيها تخاريم وتجاويف لدوائر البروج وغيرها ، مستديرة كالتي تحتها مصقولة مصبوغة بلون أخضر ، فيكون لها ولِما يبدُو من التي تحتها منظر رائـق وهي تغني عن كل آلة في فن التوقيت والهيئة ، مع سهولتها لِكوْن الأشياء فيها محسوسةً والدوائر المتوهمـة مشاهدة وتخدم لسائر البلاد على اختلاف أعراضها وأطوالها . وقد ألف هو رسالة

بيّن فيها كيفية استعمالها وكيفية صنعها فراجعها إن شئت في الرحلة العياشية

وبالجملة فهو أحد حكماء الاسلام وجهابذة الأعلام ، وبقدر ما كان متضلّعاً في العلوم الحكمية كان متمكنا في علوم الأدب والشريعة ، وألف كتباً مفيدة منها منظومة في علم الميقات خالف فيها كثيراً من مذاهب أهل هذا العلم وشرحها ؛ ومنها صِلةُ السلف بوصول الخلف وهو فهرس جامع قلّ أن يكون له نظير . وتوفي بالشام عام ١٠٩٥ .

عبد الرحمن الفاسي

هو أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفِهْري الفاسي العالم المشارك المتفنن ، مفْخَرةُ بيته ونادرة وقته ، ولد سنة ١٠٤٠ ونشأ في حجر والده فحفظ القرآن في سنّ مبكرة جداً . ثم أكب على تعاطي العلم فلم يلبث أن صار فرداً متحققاً بسائر العلوم العقلية والنقلية التي تدرس في القرويين ؛ ففضلاً عن علوم العربية والأدب والفقه والحديث كان له مشاركة في العلوم الفلسفية والطبيعية والرياضية من حساب وجبر وهندسة وطب وكيمياء ومنطق وما الى ذلك ، وألف في هذه العلوم كلها كتبا منظومة ومنثورة ، وضمّن المنظومة منها كتابه المسمى بالأقنوم في مبادىء العلوم الذي يُعدّ دائرة معارف العصر ، تكلم فيه على نحو مائة وخمسين علماً ؛ فاستوفى حدودها ، واستوعب نظرياتها بأوجز عبارة وأحسن اشارة . وله في الفقه نظمُ العمل الفاسي وهو مجهود قيّم تمم به ما كان الامام الزقاق قد ابتدأه في لاميته ، من جمع المسائل التي جرى العمل بها في الأحكام الشرعية ، مراعاة للاعراف والظروف ، وان لم تكن من الراجح ولا المشهور ، فأربى عليه واتسع في ذلك بما لا غاية بعده . وفي السيرة له مفتاح الشفا ، ذيل به شفاء القاضي عياض وجوّدَه وأتقنه جداً . وله غير ذلك مما يذكر في موضعه . وتوفي سنة ١٠٩٦ .

ابو علي اليوسي

أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي ، نسبة الى أيت يوسي ، قبيلة في عِدَاد

برْبر مَلْوية ، نابغةُ علماء هذا العصر ومن أفضل المتحققين بالعلوم العقلية والنقلية على سبيل العموم . تخرج بأهل الدِّلاء وجال في المغرب ، فدخل سجلماسة ودَرعة وسوس ومرّاكش ودُكالة وأخذ بها عن مشائخَ عِدَّة ذكرهم في فهرسته ، ثم القى عصا التسيار بالزاوية الدلائية ، فعَكَف فيها على نشر العلم حتى أوقع مولاي رشيد بأهلها ، فنقله الى فاس . وهنالك أقبل اليه طلبة العلم وتزاحموا على بابه ، فتصدَّر للتدريس بالقرويّين فلم يتخلف عن مجلسه الا القليل من مُنافسيه .

ثم خرج الى البادية فاستوطن قبيلتَه ، ودرَّس بها العلوم الدينية والأدبية ، فانتشرت عنه فنون المعارف في قبائل المغرب ، ولم يَألُ جهداً في التعليم والارشاد والاصلاح والتذكير ، إذ كان على قدَم السَّلف الصالح في حُسن الهَدي واقامة شعائر الدين حتى قال فيه عَصْرِيُّه العلامة أبو سالم العيَّاشي :

مَن فاته الحَسَنُ البَصْريُّ يُدْرِكُه فلْيَصْحَبِ الحَسَنَ اليُوسِيَّ يَكْفِيه

وكان أبو علي أديباً عبقرياً راويةً للشعر ، يستحضرُ ديوان المتنبي وأبي تمام والمعرّي وقصائدَ كثيرة لغيرهم ، كل ذلك على طرَف لسانه . وهو نفسُه شاعرٌ مُجيدٌ مُكثِر ، الشِّعر عندَه أسهل من النَّفَس ، بل كان يقول : لو شئتُ أن لا أتكلمَ الا بالشعر لفعلتُ . وديوانُ شعره معروف ، وقد عمِلنا مُنتخباً منه . وله كتاب المحاضرات وزهْر الأكَم في الأمثال والحكم والقانون في ابتداء العلوم ، وكلها كتب نفيسه مفيدة وغيرها . وتوفي سنة ١١٠٢ هـ .

المسْناوي

أبو عبدالله محمد بن أحمد المَسْناوي الدِّلائي الفاسي العلامة الكبير أحدُ اركان الكلية القروية وممن نفَخ فيها روحَ التجديد ، وقام بنهضة علمية صحيحة ، كان راسخَ القدم في علوم العربية والفقه والحديث والتفسير والكلام ، آيةً في الحفظ والأتقان ، قد أُعطِيَ الملكة العجيبة في التدريس والعارضة القويَّة في الفتوى فأصبح الحجَّة الذي لا يُنقَضُ قوله ، ولا يكون الرجوع إلا إليه ، على أنه كان يتحرَّى الجوابَ

في مسائل النكاح والطلاق تورُّعاً منه وخيفةَ التورُّط في أمر استحلال الفروج ، وإنما كان غالبُ أجوبته في مسائل الاعتقاد واحوال المعاش والمعاد ، وانتصر لسنّة القبض في الصلاة في ذلك الوقت الذي كان جُلُّ الاعتماد فيه على الفرعيّات المنقولة عن علماء المذهب ، من غير رجوع الى الأصول الثابتة والسنة الصحيحة ؛ فكان ذلك من أعلام تجديده وترفُّعه عن التقليد والأخذ بالمُسلَّمات . أخذ عن عبد القادر الفاسي والحسن اليوسي وعبد السلام القادري وأضرابهم وأخذ عنه ابن الطيِّب الشرقي وكثيرون غيره . وكان عظيم الهيْبة حسَنَ السَّمْتِ ، باديَ الوَقار ؛ كريم الأخلاق ، متحببا الى الناس بهيَّ الطَّلعة ، يود رائيه أن لا يحدر منه طرْفَه . ألف رسالة نصرة القبض والرد على من زعم عدم مشروعيته في النفل والفرض ، وصرف الهِمَّة الى تحقيق معنى الذمَّة ، والقول الكاشف عن حكم الاستنابة في الوظائف وغير ذلك . وكانت وفاته عام ١١٣٦ .

أبو علي بن رَحّال

أبو علي الحسن بن رحال المَعْداني المكناسي ، حافظ المذهب المرجوع اليه في الفتوى والقضاء . كان له اتساع عظيم في النوازل ، وعارضة قوية في الفقه ، تولّى تدريس المدرسة المتوكلية من طالعة فاس فكان يجلسُ عند طلوع الشمس ويتمادى الى الزوال ، لا يضجَر ولا يملّ مع كثرة ما يُلقى اليه من الاسئلة والأبحاث ؛ فيُجيب لا يعجزه شيء من ذلك ، حتى دُعيَ صاعقةَ العلوم ، وقد وَليِ قضاء فاس الجديد وقضاء مكناس وبها توفي في رجب سنة ١١٤٠ هـ . له شرح عظيم على المختصر في ستة عشر مجلّداً وحاشية على شرح الخرشي عليه ، وحاشية على شرح ميارة على التُحفة ، وكتب أخرى في مسائل مختلفة وهي كلّها في غاية التحرير والاتقان والجمع والتحصيل . ويحدّثُنا ابن الطيِّب القادري عن أخلاقه فيقول : إنه كان كثير الإنصاف ، شديد التواضع ، سليم الصدر ، كريم النفس ، بعيداً عن التصنُّع ، مصيباً في كلامه ، مفضالاً جواداً ؛ وكان كثير العيال والأولاد ، لأنه مِطلاقاً مِزواجاً ، عظيمَ النفقة لذلك ، رحمه الله .

الإفراني[1]

أبو عبد الله محمد الصّغير الإفراني المراكشي ، العلامة المؤرّخ الأديب ، صاحب المِنَن على التاريخ المغربي والأدب بتآليفه المفيدة ، التي منها نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ؛ وهو في تاريخ الدولة السعديّة وصدرِ دولتِنا العَلويّة ، ومنها صفوَة ما انتشر من أخبار أهل القرن الحادي عشر في تراجم الأعيان ، ومنها المُغرِب في أخبار المَغرب والمَسلَك السهل في شرح توشيح ابن سهل وغيرها . والحقُّ أن كُتُبَه سدَّت ثُلمَة في التاريخ المغربي ، لولاه لبقينا منها في حيرةٍ شديدة ، فهو من أولئك الأفراد الذين بلّغوا للاحفاد مآثر الأجداد بأمانة واجتهاد . توفي رحمه الله في حدود سنة ١١٤٠ ﻫ .

ابن زكري[1]

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن زَكري الفاسي العلامة المحقّق المشارك المدقّق . كان في أول نشأته يمتَهِنُ الدّباغة ، وكان يحضُر مجالس العلم الليليّة ؛ فيعي كل ما يسمع ؛ ثم تفقده شيخُه في بعض الأيام فقال إني تأخّرتُ في دار الدبغ فقال له لا تعُد اليها ، ورغِبَ الى أبيه أن يحرِصَ على تعليمه فانه أولى له ؛ فأكبَّ على الدرس حتى أدرك ما أدرك ونبَغ في العربية نبوغاً فائقاً وفي الفقه والحديث والتفسير والتصوّف والأدب فلم يكن يُقَعقَعُ له بالشِّنَان في كل ذلك . وألّف تآليف مُحرَّرة تشهَدُ بطول باعه وكثرة اطلاعه ، منها شرح الفريدة للسيوطي في النحو ، جوّدَه غاية ، وشرحُ البخاري ، وشرحُ النصيحة الزرّوقية ، أبدأ فيه وأعاد . وله الهمزية التي عارض بها همزيّة البوصيري في المديح وشرَحها في جزءين ، وكتاب في ذمّ النظرية العنصرية من قبيل كتاب ميارة في الموضوع ، سمّاه الفوائد المتبعة في العوائد المبتدعة وغير ذلك .

وكان لابن زَكري ثروة طائلة فكان يُواسي بها الفقراء ، ويُكثِرُ من صنائع

المعروف عند الناس ، وكان له جلساء من ذوي اليسار ، فكان يحضُّهم على الصدقة وفعل البرّ كثيراً ، وترجمته واسعة ، وللزّبادي فيه كتاب سماه العَرف الشّحري في بعض فضائل ابن زكري . وممّا مُدِحَ به قولُ العَلَويّ شاعر شنجيط :

وَأَنْتَ ابنَ زكْرِيٍّ إمامٌ محقِّق   تفردتَ في العليا بِدُون شَبِيه
إذَا غُصْت في بحث خلَصْتَ بدُرِّه   وخلَّيْتَ عن سَفْسَافِه ورَدِيــه
يمـــدُّك في اتقان علم تبُثُّـــه   قياسُ أُصوليّ ونصُّ فقيـــه
وَقَاكَ الذي أبداكَ كالنجم يَتَّقِي   به الغَيَّ من يبغِي الهُدَى وَيعِيه

توفي ابن زكري سنة ١١٤٤ هـ .

عَبدالقادِربنُ شقرُون

هو أبو النَّصْر عبد القادر بن العربي بن محمد بن علي بن شَقْرُون المكنـاسي ، الطبيب الماهر المتفنن . كان ذا براعة في صناعة الطب ، متصدّراً للتعليم والعِلاج ، أقرّ له الجميـعُ بالتفوق في ذلك وحُسن التصرُّف ، فلم ينازعه أحد. وهو في الأدب فاضل مجيـــد ، ينظم الشعر البليغ ، ويُرَسِّل ترسُّلاً حسنا - . رحل الى المشرق فحجّ وجال في تلك الديار مُتطلّعاً مستفيداً ، ثم رجع واستقرّ ببلده مكناس حتى توفي . وألّف كتاب النفحة الوردية في العشبة الهنديّة ، وكتاب منـــافع الأطعمة والأشربة والعقاقير ، ونظم الرّجَزيّة المعروفة بالشّقْرُونيّة في الأغذيـــة والأدوية وهي مشهورة ، ونظْمُها سلسٌ ، وتقع في زُهاء ٧٠٠ بيت ، والمهمُّ أنها تتنـــاول الكلام على طبيعة الأغذية المغربية المعروفة ، وتصِفُ العلاج بناءً على ذلك فهي من الأعمال الطّبية الصادرة عن دراسة وخِبرة تامَّتَيْن . وللمترجم لطائف أدبية نثبت بعضَها في المنتخبات .

عبد الوهاب أدرّاق

هو الطبيب النطاسي الأديب أبو محمد عبد الوهاب بن أحمد أدرّاق بفتح الهمزة والدال وتشديد الراء بعدها الف ثم قاف ، وهو لقبُ أُسرته الذي عُرفَت به ، وكانت أسرة نبغ منها عدد من الأطباء واصلها من فاس . والمترَجمُ هو أكبرهم قدراً وأشهرهم إسماً ، انتهت اليه رياسة الطب في زمنه ، وبلغ في الصناعة مكانة عالية وكانت الملوك تُجِلُّه وتعظمه ، وكان الى معرفته بالطب أديباً بارعاً ونحوياً متمكِّناً وفقيهاً نظّارا .. أخذ عن اليوسي وطبَقتِه ، وألف في الطب العلمي والطب الشّرعي تآليفَ منها أرجوزة ذيَّل بها أرجوزة ابن سينا المعروفة في الطب ، وأرجوزةٌ في حبِّ الافرنج وهو الداء الزُهري المعروف . وكتاب هَزِّ السَّمهَري على من نفى عيبَ الجذري . وله تعليقٌ على كتاب النُزهة للشيخ داود الأنطاكي وغير ذلك . وتوفي رحمه الله عام ١١٥٩ وممَّن يُذكرُ من أطباء هذه الأسرة والدُ المترجَم أحمد وقريبُه محمد الذي دخل طنجة في عهد احتلالها من الانكليز بقَصد مُلاقاة الأطباء النّصارى ورُؤية الشخص الذي صوَّروه لتعلُّم التشريح مُعاينةً .

ابن عبد السّلام بنّاني

أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بناني النّفزي الفاسي الفقيه العلامة المُحدِّث القُدوة ، كان ذا مشاركةٍ تامَّة في العلوم ، وله إقبال عظيم على التعليم ، رحَل الى المشرق وتقلَّب في البلاد فحصَّلت له روايةٌ واسعة ، وكان مائلاً الى التصوُّف حسن الهدي حسن السَّمت ، وكثُر الانتفاع به وتخرَّج على يده المشائخُ الكبار كابن الحسن نسيبه والشيخ التاودي والعلاّمتين قصّارة وبردلّة وغيرهم . ألَّف شرحَ الاكتفاء في ستَّة أسفار فطار كلَّ مطار ، واشتهر أيَّ اشتهار ، وألف غيره ، ولو لم يكن له إلا هو لكفاه . وبالجملة فقد كان من الرجال الكاملين والعلماء العاملين ، وقد أفرِدَت ترجمتُه بالتأليف . توفي رحمه الله سنة ١١٦٣ هـ .

ابن الطيب الشرقي

أبو عبد الله محمد بن الطيب الصَّميلي الشَّرقي الفاسي الإمام اللُّغويُّ الشهير، ولد بفاس سنة ١١١٠ وأخذ عن جلَّة عُلمائها كالمسْناوي والوَجّاري وبنّاني المذكور قَبْلَه وغيرهم ، وبرَع وفضل وصارَ إمامَ أهل اللغة في عصره غيرَ مُدافَع . وكان له مُشارَكة في سائر العلوم ورواية واسعة . رحَل الى المشْرِق فحجَّ ودرَّس بالحرَم النَّبوي ودخل الى الرُّوم من طريق الشام ، ورجَع من طريق مصر وأخذ عنه في الشام ومصر خَلقٌ كثير . وله تآليف خدَم بها اللغة خدْمةً جُلَّى ، ورفع بها لبلاده مناراً أسْنى من النجم وأعلى ، منها حاشيَتُهُ العَديمةُ النظير على القاموس في أربع مُجلَّدات التي منها كان استِمدادُ الشيخ مرتضى صاحب تاج العَروس فإنَّه أحدُ تلامذته الذين أخَذوا عنه بالمشرق ، وهو يعترفُ في أول شرحه أن تخْريجَه في هذا العِلم كان على يد مُترَجمِنا . وله شرحُ نظم الفصيح لمالك ابن المُرحَّل ، وشرحُ كفاية المتحفِّظ ، وشرح المُزْهِر في علوم اللغة للسيوطي سمَّاه المُسْفِر عن خبايا المُزْهِر ، وله ضَوءُ القابوس في زوائد الصّحاح على القاموس ، وشرح ديوان الستَّة ، وحاشيةٌ على دُرَّة الغوَّاص للحريري وغير ذلك مما هو مذكور في غير هذا المحل . وتآليفُه تنيف على الخمسين ، وكلُّها مضرب الأمثال في التحرير والاتقان . وله شعر كثير ، وعلى الجملة فهو كما قال المُحبِّي عنه في خُلاصَة الأثر فرْدٌ من أفراد العالم فضلاً وذكاءً ونُبلاً . وكانت وفاته بالمدينة المنورة سنة ١١٧٠ ودفن عند قبر حَليمة .

الهِلالي

أبو العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي السِّجلماسي ، أحدُ الأئمة في الفقه والحديث والبيان واللغة والمنطِق والحِساب والهندسة . درَس على أعلام سجلماسَة وفاس وفاق جميع أقرانِه في تحقيق هذه العلوم ؛ فكان لا يُدرَك شأوه ، ولا يُبلغُ مداه فيها . وألَّف كتباً جليلة كفتح القدُّوس في شرحِ خطبة القاموس ، وإضاءة

الأذموس من اصطلاح صاحب القاموس ، ونور البصر في شرح خطبة المختصر ، أبدأ فيه وأعاد ، وأبان عن رسوخ قدمة في مقام الاجتهاد . وله الزواهر الأفقية في شرح الجواهر المنطقية وهو على شرح المنظومة المعروفة بالقادرية في المنطق لأبي الفضل عبد السلام القادري؛ وشرحها هذا قلّ أن يكون له نظير ، استقى من بحره من أتى بعده . وله أيضاً الياقوتة الفريدة في نظم لبّ واجب العقيدة وهي تسعة أبيات ضمّنها العقائد الواجبة كلّها بدلائلها العقلية من غير رمز ولا لغز فجاءت آية في البلاغة ، وله النصيحة المشهورة التي يقول في أولها :

يا أيّها الانسان هبّ مِن كَراك   واصحُ من السُّكْر الذي قد اعتَراك
إن الرّحيلَ يا أخي قَريبُ   وكلُّنا مُسافِرٌ غَريب

وقد رحل الى المشرق مرّتين وألف رحلة مفيدة . وتوفي عام ١١٧٥ هـ .

أبو العلاء العراقي

أبو العلاء ادريس بن محمد بن ادريس بن حمدون الحسيني العراقي الفاسي ، شُهِرَ هو والسادة أهل بيته بالنسبة الى العراق لقُدوم سلفهم منه ، هذا كان حافظ المغرب في عصره ، حصَل على رياسة الحديث فلم ينازع فيها . وكان قد انصرف اليه بكليته منذ ابتداء طلبه ، فلم ينشَبْ ان بلغ فيه الغاية حفظاً ورواية ودراية ، ومهر وبهر ودرّس ورأس حتى أقرّ له بالفضل في تلك شيوخه فمن دونهم ؛ فكان يلقّب بسيوطي زَمانه ، وقال عنه شيخه أبو حفص الفاسي إنه أحفظ من ابن حجر . وسأله أحمدُ بن المبارك صاحبُ الإبريز وهو من شيوخه عن طريق بعض الأحاديث ، فذكر له على البديهَة ستّ طرُق فقال له لله درُّك ، لقد تعِبَ ابنُ حجَر ولم يُخرِّج له الا طريقَين، وبالجُملة فهو من مفاخر هذا القطر السعيد في العصر العتيد ، له المستَدرك على الجامع الكبير للسيوطي فيه نحو العشرة آلاف حديث ، وفتحُ البصير في التعريف بالرجال المخرَّج لهم في الجامع الكبير ، والدُّرر اللوامع في الكلام على أحاديث جمع الجوامع، وتكميلُ مناهِل الصّافي تخريج أحاديث الشّفا،

وتخريجُ أحاديث الشّهاب للقُضاعي وشرحٌ على شمائل الترمذي ، وشرح إحيــاء المَيْت للسيوطي ، وشرحُ الثُّلثُ الأخير من المشارق للصَّغاني بأمر مَوْلوي ، وقد أكمَله ولدُه عبدالله . وكان أيضاً محدثاً فاضلاً ، وله غيرُ ذلك . وفي كتُبه هذه حرَّر الكلام على كثير من الأحاديث وبيَّن ما هو الحقُّ فيها وناقش كبارَ الحفاظ بكلام كافٍ واضح شاف . توفي رحمه الله عام ١١٨٣ هـ .

ابن الطَّيِّب القَادِري

أبو عبدالله محمد بن الطيِّب بن عبد السلام القادري الحسَني الفاسي العلامة المؤرخ النسَّابةُ الواعية . ولد سنة ١١٢٤ وكان طوِيلَ البــاع ، واسعَ الاطّلاع ، مقيِّداً للأوابد ، جمَّاعاً للشَّوارد ، له قلم بارع في الانشاء وتصرف في العلوم الشرعية والأدبية مع التقلُّل من الدنيــا والزهد والورع والاطمئنان والسَّمت الحسَن . من آثاره نشرُ المَثَـاني في أخبار أهل القرن الحادي عشر والثاني وهو نسختان طُبِعت إحداهما ، والمخطوطةُ أوسع من المطبوعة ، والتِقاط الدُّرر في أخبار أهــل المائتين الحادية والثانية عشر ، والإكليل والتَّاج في تذييــل كفاية المحتاج للشيخ أحمد بابا ، والزَّهر الباسم في مناقب سيدي قاسم أبي الخصاصي وغيرُها. أخذ عن ابن المبارك وابن عبد السلام بناني وابن قاسم جسُّوس وغيرهم . وتوفي في شعبان عام ١١٨٧ هـ.

التّاوُدي بْنُ سُودَه

هو أبو عبدالله التاودي بن الطالب بن سودة المُرِّي الفاسي، الإمام العالم العلاَّمة شيخُ مَشائخ المغرب جُملة ومُجدِّد سندِ التعليم في القرن الثاني عشر . كان مُقدَّماً في كل العلوم لا سيَّما التفسير والحديث والفقه والتصوف والكلام والمنطق والأصول . أخذ عن جِلَّة مشائخ عصره ، وأخذ عنه الجَمُّ الغَفير الذي يستحيلُ عَدُّه . ولمَّا حجَّ درَّس بالحرمَيْن الشريفَين ومصر فتسارع النَّاسُ للأخذ عنه لِما رأوْه من حفظه وإتقانِه ، وقد تمَّم اللهُ عليه النعمة بطول العمر فتخلَّف عمَّن كان معه في عصره ،

وحازَ رياسةَ العلم بفاس والمغرب كلّه ، فما بقيَ أحدٌ ممن ينتمي الى العلم بالمغرب الا وله به صلة . وقد جمعَ مع ذلك الاجتهادَ في العبادة والسّخاءَ وحسنَ الخُلُق والمحبّة العظيمة لآل البيت ، والاعتناءَ بأمور الناس ، وخصوصاً الضعفاء منهم ، فتمالأت القلوب على محبته ، واجتمعت الألسن على مدحه ، وله تآليف عظُم النفع بها ، وتنافس الناس فيها . منها حاشية على البخاري في أربعة أجزاء وحاشية على الزرقاني كذلك ، وشرح التحفة لابن عاصم ، وشرح الزقاقيــة ، وشرح الأربعين النووية ، وشرح جامع الشيخ خليل وغير ذلك . توفي رحمه الله سنة ١٢٠٩ هـ .

الطَيِّب بن كِيرَان

أبو عبدالله الطيب بن عبد المجيد بن كِيرَان الفاسي العلامة المَعْقوُلي النظّــار المفسِّرُ الكبير . ولد سنة ١١٧٢ وأخــذ عن الشيخ التاودي والمُحشّي بناني وأضرابهما ، وعنه الفقيه ابنُ عبد الرحمن والكُوهَن وغيرُهما . وقد تفرّد في وقته بالجمع بين عِلمَي المعقول والمنقول ، والفُروع والأصول ، وله في العربية باعٌ مديد ونظمٌ سديد . وكان يُدرّس التفسير بالقرويين ، يستحضر أقوال المفسّرين جميعــاً ويقابلُ بينها ويناقشها ويردُّ الزائف منها بالدلائل القويّة والحجج البيّنة . وكان يحضُر مجلسَه أعيانُ الطلبة والسُّلطانُ فمَن دونه من رجال الدولة ، وبالجملة فهو من أفذاذ العلماء الذين لا يجودُ الدهر بواحــد منهم إلا في الفَيْنَة النّادرة . وترجمتُه لا تقتضي الاختصار ، فهذا الكلام لا يفي بأقل القليل من حقه ، له تفسير جليل من سورة النساء الى حم غافر ، وكتب أخرى تنيفُ على العشرين مُحرّرة جدّ التحرير . وكانت وفاته سنة ١٢٢٧ هـ .

ابن بُونَه

هو العلامة النحوي الكبير ، مَفخَرةُ شنجيط أبو عبد الله محمد المختار بن بُونَة الجكَني الشّنجيطي . كان ممّن طلب العلم وهــو كبير ، بسبب أن امرأةً ضرب

ولدَها فخاصمته وعيَّرته بالجهل ، فأنفَ لذلك وسار من غير علم أبويه يريد العلامة المُختار بن حَبيب فوصل اليه وشرع أولاً في قراءة الأجروميّة عليه . ولم يزل يترقّى به الحال حتى بلغ ما بلغ من المكانة العالية في علم العربية ، وصار رُحلَة وقتِه وإقليمه ، فكان الناس ينثالون اليه من كل وِجهة وقَبيل . وأخذ عنه مَن لا يُحصى عدداً ، وتنافست القبائل في إقامته عندها لِينشُرَ فيها ما عنده من العلم وخاصةً علمَ النحو والكلام ، لأنهما كانا بضاعتَه المتوافرة . وكان الطلاب قَبلَه لا يتجاوَزون ما في ألفية ابن مالك ، وشروحِها مع عدَمِ معرفة الخُطَّة التي يمكن بها للطالب أن يخزُن في ذهنِه بها ما يكون قريبَ التناوُل عند الحاجة الى ذلك ، حتى نظَم لهُم ما تخلَّف عن الألفية ممّا تضمَّنَه التسهيل ، وألصَقَ كلَّ شَذرة بما يُناسِبُها ، وضمّ الى ذلك طُرّته المُفيده ، وأتى على كل مسألة بالشواهد من كلام العرب . وهذا النظم هو المعروف بالاحمِرار لأنه مزَجه بالألفية مزجاً جيّداً وكتبَه بالحُمرة للفَرق بينه وبين نظم ابن مالك واستدرك عليه أبواباً عدّة كالقَسَم وجوابِه ، والتسمية بلفظ كائناً مَن كان وتتميم الكلام والإلحاق ومخارِج الحروف والهِجاء وغير ذلك ممّا جعَل عددَ أبياته ضِعفَ عددِ الألفية ، وزيادةَ مع إحكام النظم وتنسيقه بحيث تحسِبُه من الأصل لا فرقَ بينه وبينه . ولابن بُونَة كتب أخرى غير الإحمِرار ، وكان حيّاً في أوائل القرن الثالث .

الرُّهوني[1]

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الرُّهوني الوَزّاني ، الإمام العلامة الحافظ المُتقِن . اشتَغل بقبيلته رُهونة ، ولما أكمَل دِراستَه طلبَ التعليم بوَزّان فبَقيَ هناك مدّة ، ثم ذهب الى فاس لِمواصلة القراءة بها فتخرّج في الفقه على مشاهير رجالها. ورجع لوَزّان وبها ألّف حاشيتَه المشهورة على بناني ، مُحَشّي الزرقاني. قال في الفكر السّامي : « وهي أهمُّ كتُبه ، دلّت على فضله وتمكُّنه من علم الفقه ، فضلَ تمكُّن فلقد أجادَ فيها كلَّ الإجادة ، وأفاد أحسنَ الإفادة ، وسلَك في التحقيق طريقاً صريحاً ، ومَهيَعاً صحيحاً ، ينقُل كلامَ المتقدمين الذي هو الأصل بلفظِه ممّا دلّ على نشاطه في الإطلاع وثُقوبِ حفظِه ، وبسبَب ذلك

فضَحَ أغـْلاطـاً كثيرة وقعَتْ لِمَـن قبله في الاختصار والتلخيص ، أفسَدُو بهِـِما كلامَ المتقدمين ، وَغيَّروا الفِقـْه عن مواضِعه ، فهي ممّا ادَّخَره للمتأخري فكانت حجةً على المتقدمين ، فجزاه الله خيراً عن علمـه وحرية فكره ووضو طريق نقده . وأعانه على ذلك ما عثَر عليه من الكتب المهمة ، في المذهب ، التي يظفر بها الأجاهِرةُ ومن ناقشَهم كالرَّماصي وبنّاني والتاودي وأمثالهم . غير أن الحاشية طالت فجاءت في ثمان مُجلدات لكونها تجلب في المعارك الكبرى نصُوص المتقدمين بالحرف الواحد ؛ ولذلك جاء شيخ شيوخنا سيدي الحاج محمد كنـو واختصرها بحذف النصوص وحلاها بفوائد يأتي بغالبها أول الأبواب ، كأصل الباب من السنة أو الكتاب أو نحو هذا مما لا يخلو من فائدة وقرب على المطالع ما عسى أن يطول عليه من استيعاب نصوص الرهوني ، وقد طبع الاختصار بهامش الأصل ا هـ . منه بتصرف يسير . ونقول هنا انه قد سقط من الاختصار في النسخة المطبوعة الشيء الكثير الذي لا نُبْعِدُ ان قلنا انه قَدْرُ العُشر أو أكثر منه ، وذلك كل ما كان يلحقه المختصر في هوامش النسخة المخطوطة التي وقع عليها الطبع . ومن رأى كتبه رحمه الله عرف أنه كان كثيرَ الالحاق فيها حتى ليساوي الملحق الأصل في بعض الأحيان . ومن كتب الرهوني التحصُّن والمَنْعَة ممن اعتقد أن السنة بِدْعة في اثبات أن السنة السكوت عند تشييع الجنائز ، وله غير ذلك . وتوفي رحمه الله سنة ١٢٣٠ هـ .

حمدون بن الحاج

أبو الفيض حمدون بن عبد الرحمن ابن الحاج السُّلمي المِردَاسي ، العلامة الأديب بُوصِيريُّ عصره وخَفاجيُّ مِصره ، ولد ونشأ بفاس وتلقى دروسه العلمية بالقرويين عن الشيخ الطيب ابن كيران وغيره . وما عتَّم أن صار له الشأو الذي لا يُلحق في العلوم الدينية والأدبية معاً . وكان شاعراً مجَوِّداً بارعـاً ، طلع في أفق السلطنة السُّلَيْمانية بدراً لامعا ، وشهاباً ساطعا .

ألف تآليف عديدة منها نظمُ مقدمة ابن حجَر وشرْحُه سماه نفْحَة المِسْك

الدّاري لقارىء صحيح البخاري وحاشية على تفسير أبي السعود ومتبُوعه البيضاوي وأخرى على مختصر السعد وقصيدة ميمية في السيرة في نحو ٤٠٠٠ بيت وشرح عليها في خمسة أسفار ، وجمع شعره الذي مدح به السلطان مولاي سليمان في ديوان سماه السليمانيات وحلاّه بشرح نفيس وله غير ذلك .

وكان قد وَلِيَ الحِسْبة بفاس ثم المظالم بناحية الغرب ، فبالغ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورفع الظلامات عن الناس ، وكان أهم الأمور عنده الصلاة ، فكان يُقيم الناس من دكاكينهم لأدائها . وتوفي رحمه الله سنة ١٢٣٢ .

الزّياني

هو ابو القاسم بن احمد بن علي بن ابراهيم الزّياني الفاسي ، من صدور كُتّاب الدولة الشريفة ووزرائها المشاهير كان له معرفة بالتاريخ والأدب والتنجيم وغير ذلك . وله قلم حديدي ولسان سليط ، وفيه جرأة وصرامة . لعِب أدواراً مهمة في السياسة المغربية ، وتقلبت به الأحوال ، وعانى كثيراً من الأهوال ، وأوفده السلطان سيدي محمد بن عبدالله سفيراً الى الاستانة ، فقام بالمهمة خير قيام ، وألف رحلته المشهورة ؛ وكان في احدى الحادثات قد أصيب رأسه بضربة سيف فطارت جمجمتُه فجعل مكانها طرَفاً من القَرْع فاحتف به اللحم وتماسك وعاش طويلاً فناف عمره على المائة ، وقد قضى حياته الطويلة في الخدمة السلطانية كاتباً ووزيراً ومُشيراً وسفيراً . وألّف عدة كتب منها التّرجمان المُعرِب عن تاريخ دول المشرق والمغرب وألفية السلوك في وَفيات الملوك ، والحادي المطرب في رفع نسَبِ شُرفاء المغرب . وكانت وفاته سنة ١٢٤٩ .

محمّد كنّون

هو العالِم السّلَفي الفقيه الحافظ المُتقِن أبو عبدالله محمد بن المَدني بن علي بن عبدالله كَنّون بفتح الكاف المعقودة وتشديد النون المضمومة ، اسم بربري معناه

القمر ، كان لُقِّب به القاسم بن محمد بن القاسم بن ادريس الحسني فجرى على عَقِبه ، وهم يقطنون بقبيلةِ بني مَستارة ، وكان الذي انتقل منهم الى فاس هو عبدالله الجد الثاني للمترجم ، ولذلك يُزاد في نسَبه المستاري الفاسي . وُلِد ونشأ بفاس ، واشتغل على كبار علماء عصره مثل الفقيه ابن عبد الرحمن ، واحمد المرنيسي ، والطالب ابن الحاج ، والوليد العِراقي ، وعبد السلام بو غالب . وما لبث أن صار فرداً يشار اليه في تحقيق مقاصد العلوم ، المنطوق منها والمفهوم ، وحصل على رتبة الاجتهاد أو كاد وطار صيته في البلاد ، وعمَّ النفع به القاصيَ والدان ، وتفوَّق على الكثير من أشياخه فضلاً عن الأقران . وصفه في الاستقصا بعالم فاس والمغرب ، وجزم كثيرون بانه مجدِّدُ القرن الثالث عشر ، وقال لنا غير واحد من أشياخنا إن وصف الفقيه في عصره صار علَماً بالغلبة عليه ، لا ينصرف إذا أطلق إلا إليه . وقال في الفكر السامي : « هذا الشيخ من أكبر المتضلِّعين في العلوم الشرعية الوَرِعين المُعلِنين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وخاتمهم في المغرب شيخ شيوخنا وشيخ شيوخ جُلِّ المغرب ، رأس علمائه في القرن الثالث عشر بلا منازع . كان فقيهاً محدِّثاً نحوياً لغوياً مَعقولياً مُشاركاً محقِّقاً نزيهاً قوّالاً للحق ، مطبوعاً على ذلك ، غير هيَّاب ولا وَجِل ، مِقداماً مهيباً عاليَ الهمة ، دَءُوباً على نشر العلم والإرشاد والنهي عن المناكر والبدع التي تكاثرت في أيامه ، لا يخشى في الحق لومة لائم ، يحضُر مجلسَه الولاة والأمراءُ أبناءُ الملوك وغيرُهم وهو يُصرِّح بانكار أحوالهم وما هم عليه ، مبيِّن لَهناتهم ، غير مُتشدِّق ولا متصنِّع ، بل تعتريه حالٌ ربّانية ، ولكلامه تأثير على سلطان النفوس ، رُزِقَ في ذلك القبول والهيبة على نحول جسمه . ووصلته بذلك إذاية وُسجِن ، لكن بمجرَّد سِجنه اعتصب الطلبة وقامت قيامة العامة فأطلِق سبيله ، لذلك فهو أحق ما يُقال في حقه مجدِّد لكثرة النفع به وانتشار العلم عنه ، وعن تلامذته وقيامه بالنهي عن المناكر وقتَه .

وكان شديداً على أهل الطُّرُق ، وما لهم من البِدَع التي شوَّهت جمال الدين ، والمتصوِّفةِ أصحاب الدعاوى التي تُكذِّبها الأحوال ، وما كان أحد يقدِرُ على الرد عليه مع شدة إغلاظه عليهم وعلى غيرهم وسلوكه في ذلك مَسلَك التشديد بل التطرف في بعض المسائل ، ومع ذلك هابه علماءُ وقته ولم يجرُؤُوا على انتقاده لأنه كان يتكلم بالحال لا بالمقال ، وتحققوا خُلوص نيته ومطابقةَ سرِّه لعَلانيته » اهـ منه بلفظه . له كتب كثيرة ، منها الاختصار وتقدم الكلام عليه في ترجمة الرهوني ، وله

تعليق على الموطأ مشحون بالفوائد الحديثة ، وساذج الفقه ، وله حاشية على شرح فرائض المختصر للشيخ بنيس ، وكتاب الزجر والاقماع عن آلات اللهو والسماع ، وكتاب التسلية والسلوان لمن ابتلي بالاذاية والبهتان ، ونصيحة النذير العريان في التحذير من أهل الغيبة والنميمة والبهتان ونصيحة ذوي الهمم الأكياس فيما يتعلق بخلطة الناس ، والدرر المكنونة في النسبة الشريفة المصونة ، والدرر المستنيرة بشرح حديث لا عدوى ولا طيرة ، والنوازل وخلاف ذلك من الكتب في مسائل فقهية خاصة ، والرسائل في مواضيع إصلاحية دينية وسياسية . وترجمته رحمه الله أوسع بكثير من هذا ، وقد استوفى الجانب الديني منها الشيخ مصطفى المشرفي في كتاب الدر المكنون .
ونحن لم يكن في نيتنا أن نترجم له في هذا الكتاب ، ولكن صديقنا المرحوم فقيد الوطن السيد الحاج عبد السلام بنونه ألح علينا كثيراً في ترجمته لما رأى الكتاب خالياً منها قائلا : إن مثل الفقيه كنون لا يجوز أن يخلو من ذكره كتاب يوضع بين يدي الناشئة لتذكيرها بمجدها الطارف والتليد ، وعظمة تاريخها القريب والبعيد ، فنزولاً على رأيه ذكرنا هذه الترجمة المقتضبة من أقوال الناس فيه ، وكانت وفاته رحمه الله ليلة الجمعة فاتح ذي الحجة الحرام عام ١٣٠٢

ولنكتف بهذا القدر ، فاننا لو تتبعنا تراجم العلماء في هذا العصر لما وسعنا هذا الكتاب كله ، وقد أتينا على جملة من أعيانهم ومن بقي منهم نعوض عن تراجمهم ذكر مؤلفاتهم ، وان كنا لا نذكر أيضاً إلا المهم من تلك المؤلفات ، إذ لو قصدنا الى استيعابها لأوقعنا القارىء في الملل الذي لا نشك في عدم احتماله إياه ، وكفاك من القلادة ما أحاط بالعنق .

كتب التفسير والحديث وتوابعها :

البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة المتوفى سنة ١٢٢٤ ، حاشية على الجامع الصغير له ، التفسير الكبير لابن سعيد الدمناتي ، تفسير القرآن للشيخ الطيب ابن كيران ، شرح حديث إنما بقاؤكم فيمن سلف من الأمم كما بين صلاة العصر الى غروب الشمس له ، شرح حديث لا يدخل الجنة ولد زنى ولا ولد ولده له ، شرح ألفية العراقي في علم الحديث له ، قال في الاسناد : له تفسير القرآن لأبي الحسن الدمناتي المتوفى سنة ١٣٠٦ ، حاشية على البخاري له ، حاشية على مسلم له ، حاشية

على النَّسائي له ، حاشية على أبي داود له ، حاشية على التِّرمِذي له ، حاشية على ابن ماجَه له ، حاشية على تفسيري أبي السُّعود والبيضاوي لحمدون بن الحاج ، نفحة المسك الداري لقارىء صحيح البخاري له ، شرح البخاري للحَضيكي المتوفى سنة ١١٨٩ ، شرح الشفا له ، شرح نظم نُخبة الفِكَر في اصطلاح الحديث له ، حاشية على البخاري لعبد القادر الفاسي ، زاد المُجِدّ الساري الى قراءة صحيح البخـــاري للتَّاوُدي ابن سودة ، حاشية على سُنَن أبي داود له ، شرح المشارق للصَّغاني له شرح الأربعين النَّوَوية له ، شرح أول ترجمـة من البخاري للكَـوهَن المتوفى سنة ١٢٥٤ ، شرح آخر ترجمة منه له ، إمداد ذوي الاستعداد الى معالم الرواية والاسناد له ، شرح الموطأ للحَريشي المتوفى سنة ١١٤٨ ، شرح الشفا له ، شرح منظومة ابن زكرى التلمساني في الاصطلاح له ، شرح الموطا للسَّدْراتي المتوفى سنة ١٢٥٣ ، شرح الموطـّا لمحمد كنون ، الدرر المستنيرة في شرح حديث لا عدوى ولا طيرة له ، المُستدَرك على الجامع الكبير لأبي العلاء العراقي ، الدرر اللوامع في الكلام على أحاديث جمـع الجوامع له ، تكميل مناهـل الصفا في تخريج أحاديث الشفا له ، تخريـج أحاديث الشهاب له ، شرح شمائل الترمذي له ، شرح الثلث الأخير من المشارق بأمر سلطاني له ، تكميل شرح المشارق لولده عبدالله المتوفى سنة ١٢٥٤ ، الجَمْع بين الكتب الخمسة والموَطـّا للرُّوداني ، الأوَّليّات له ، صِلة الخلف بوصول السلف له ، اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر لأبي سالم العَياشي المتوفى سنة ١٠٩٠ ، اتحـاف الاخِلاَّ بأسانيد الأجِلاَّ له ، شرح الشمائل لابن قاسم جَسُّوس المتوفى سنة ١١٨٢ ، شرح الشمائل لبدر الدين الحَمُّومي المتوفى سنة ١٢٦٦ ، شرح الشمائل لابراهيم التادلي المتوفى سنة ١٣١١ ، شرح الحِصْن لمحمد بن عبد القادر الفاسي المتوفى سنة ١١١٦ ، شرح نظم النُّخْبَة له ، حاشية على شرح الحصن للتمَّـاق المتوفى سنة ١١٥١ ، شرح الأربعين النووية للعلماء الأربعة أحمد التاودي ابن سودة المتوفى سنة ١٢٣٥ وعبـــد القادر بن شقرون الفاسي المتوفى سنة ١٢١٩ ومحمد بَنّيس المتوفى سنة ١٢١٤ والشيخ الطيب ابن كيران . عشَرةُ أحاديث لكل عالم على ترتيبهم المذكور بأمر سُلطاني ، شرح تيْسير الوصول الى جامع الأصول للقاضي عبد الهـــادي العلوي المتوفى سنة ١٢٧١ ، شرح الشفا لمحمد بن عبد الرحمن الدّلائي المتوفى سنة ١١٤١ ، شرح الشفا لابن عبد السلام بناني ، مفتاح الشفا لأبي زيد الفاسي ، استطابة التحديث بمُصطلح أهل الحديث له ، اللَّمْعَة في قراءة السبعة له ، شرح الفية الاصطلاح للعِراقي لأحمد

أحُوزي فهرسة له ، سمّاها قِرى العَجْلان ، حاشيةٌ على الجعْبري شارح حِرْز الأماني للمنجَرة المتوفى سنة ١١٧٩ ، حاشية على شرح الخرّاز لابن عاشر له ، شرح الداليه في وقف حمْزَة وهِشام على الهمْزة له ، حاشية على الجَعْبري لابن عبد السلام الفاسي المتوفى سنة ١٢١٤ ، شرح الدالية له ، التوضيح والبيان في مَقْرأ نافع بن عبد الرحمن للبدْراوي المتوفى سنة ١٢٥٧ ، حاشية على الجعبري له ، شرح الدالية له ، إعراب القرآن للحسن الباعمراني ، حاشية على تفسير الجلالَيْن لعبد الرحمن الحائك المتوفى سنة ١٢٣٧ .

كتب الفقه والتصوف وتوابعهما :

شرح المختصر لأبي علي بن رحّال ، حاشية على الخرشي له ، حاشية علي ميّارة على التحفة له ، الارتفاق في مسائل الاستحقاق له ، كشف القِناع في تضمين الصُّناع له ، رفعُ الالتباس في شركة الخمّاس له ، شرح المختصر للمجْلِدي المتوفى سنة ١٠٩٤ ، أُمُّ الحَواشي له ، كتاب الحِسْبَة له ، اختصار المعيار له ، شرح المختصر لابن عبد الصادق الدكالي المتوفى سنة ١١٧٥ ، شرح المرشد له ، شرح المختصر لإبراهيم التادلي، شرح الرسالة له ، شرح تحفة ابن عاصم له ، شرح الزقاقية له ، شرح فرائض المختصر له، شرح المرشد له، شرح خطبة المختصر للهلالي، شرح فرائض المختصر لِبَنّيس ، حاشية على شرح الموّاق للمختصر لعبد الرحمن الحائك ، حاشية على شرح أبي الحسن للرسالة لعلي بَركة المتوفى سنة ١١٢٠ ، الدّرَر الحِسَان فيما يخاطب به الانسان من الاسلام والايمان والاحسان له ، العَلَم المبسوط في حكم بيع المضغُوط لأحمد أحُوزي ، فتح العلاّم على قواعد الاسلام له ، نوازل فقهية له ، الدرر في نظائر المختصر لِعُمر الكَرْسيفي ، رجزٌ في قَسْم التركات وشرحه له ، رسالة في تحرير الصّاع النبوي له ، الكوثر الثّجاج في نظم مختصر المدخل لابن الحاجّ له ، حاشية على الخرشي لمولاي سليمان المتوفى سنة ١٢٣٨ ، حاشية على الخرشي للفقيه ابن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٢٧٥ ،حاشية على الخرشي للمهدي ابن سودة المتوفى سنة ١٢٩٤، حاشية على الزرقاني شارح المختصر لابن الحسن بناني المتوفى سنة ١١٩٤ ، حاشية على الزُّرقاني للتاودي ابن سودة ، شرح التحفة له ، شرح الزقاقية له ، النوازل له ، حاشية الرهوني على الزرقاني وبناني ، التحصُّن والمنعة ممن اعتقد أن السنة بدعة له ، اختصار حاشيه الرهوني لمحمد كنُّون ، حاشية على بنّيس على الفرائض له ،

رسالة في النشوز له ، رسالة في الشهادة والقضاء والفتوى له ، النوازل له ، شرح التحفة لأبي حفص الفاسي المتوفى سنة ١١٨٩ ، شرح الزقاقية له ، شرح الزقاقية للشدادي المتوفى سنة ١١٦٣ ، حاشية على ميّارة على التحفة له ، النوازل له ، شرح الزقاقية لابن عبد السلام بناني ، شرحها أيضاً لأبي عبد الله الوَرْزَازي المتوفى سنة ١١٦٦ ، حاشية على ميّارة على التحفة للرغَاوي المتوفى سنة ١١٥٠ ، البهجة في شرح التحفة للتّسُولي المتوفى سنة ١٢٥٨ ، شرح الشامل له ، حاشية على شرح التاودي على الزقاقية له ، النوازل له ، رجزٌ فيما انفرد به ابن عاصم عن خليل لابن طاهر الهوّاري المتوفى سنة ١٢٢٠ ، شرحَ فرائض الرسالة لمحمد الحامدي ، شرح الزقاقية له ، تهدئة النفوس المُرتبكَة بتحرير ما يحِلُّ وما يحرم من التركة لمحمد بن علي الشتُّوكي ، نظم العمل الفاسي لأبي زيد الفاسي ، نظم العمل المُطلق وشرحه للرباطي المتوفى سنة ١١١٤ ، شرح العمل الفاسي له ، نصرة القبض للمسناوي ، القول الكاشف عن حكم الاستنابة في الوظائف له ، صرْف الهمَّة الى تحقيق معنى الذمّة له ، النوازل له ، إزالة الدَّلْسَة في أحكام الجلسة للتمّاق ، النوازل له ، الوثائق الفرْعونية لبنّاني فِرْعَون المتوفى سنة ١١٦١ ، النوازل لبَرْدَلَّة المتوفى سنة ١١٣٣ ، فتح المُغيث في حكم اللحن في الحديث للافراني ، شرح المرشد لبدر الدين الحمُومي ، شرح الحِكَم العَطائية له ، شرح الوظيفة الزروقية له ، شرح المَشِيشِيَّة له ، حاشية على ميارة على المرشد للطالب ابن الحاج المتوفى سنة ١٢٧٣ ، شرح رائية ابن ناصر في قواعد الاسلام للتّجمُوعتي المتوفى سنة ١١١٨ ، مَعُونة الاخوان بمعرفة أركان الأيمان والاسلام والاحسان لعبد السلام القادري المتوفى سنة ١١١٠ ، تتميم الافراح بتنعيم الأرواح له ، نظم بُيُوع ابن جماعة لأبي سالم العيّاشي ، شرحه له ، القول المُحكم في عقود الأصمّ الأبْكم له ، تحرير الكلام في أمر النبي صلى الله عليه وسلم في المنام له ، تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية له ، نظم أصول التصوف لزرُّوق له ، رسالة في تزاور أهل الجنة وتحشّرهم للطيب ابن كيران ، شرح كتاب العلم من الإحياء له ، شرح الحكم العطائية له ، شرح المشيشية له ، شرح النصيحة الهلالية له ، تحريك الهمم العَوال الى مراتب الكمال له ، الزجر والإقماع عن آلات اللهو والسماع لمحمد كنون ، التسلية والسُّلوان لمن ابتُلِي بالإذاية والبهتان له ، نصيحة النذير العُرْيان في التحذير من أهل الغيبة والنميمة والبُهتان له ، نصيحة ذوي الهمم الأكياس فيما يتعلق بخلطة الناس له ، ايقاظ المفتون المغرور ممن تُذمُّ عواقبه يوم

النشور له ، رسالة في الرؤيا له ، اختصار رسالة العَجيمي في الطرق الصوفية له ، شرح النصيحة الزروقية لابن زكري ، الفوائد المتبعة في العوائد المبتَدعـــة له ؛ اختصار شرح النصيحة الزروقية لأبي مدين الفـــاسي المتوفى سنة ١١٨١ ، الابريز لأحمد بن المبارك المتوفى سنة ١١٥٦ ، ازالة اللبس عن المسائـل الخمس له ، اختصار المدخل لابن عجيبة، شرح الحكم له ، شرح المباحث الأصلية له ، شرح الحزب الكبير لابن عبد السلام بناني ، شرح المشيشية له ، شرح الحزب الكبير لأحمد الوزير المتوفى سنة ١١٤٤ ، شرح المشيشية له ، شرح دلائل الخـيرات ثلاث نسخ للمهدي الفاسي سنة ١١٠٩ تبصرة العامل وتذكره الغافل للطيب المريني المتوفى سنة ١١٤٥ ، مُرقي الأنام الى غـُرفِ دار السلام لعبـــد السلام جسُّوس المتوفى سنة ١١٢١ ، رسالة الصوفي للصوفي لا بن عزُّوز المراكشي المتوفى حوالي سنة ١٢٩٥ ، الأسئلة والأجوبة له في الفقه ؛ كتاب استنشاق الفرج بعد الأزمة للمدني بن جلون المتوفى سنة ١٢٩٨ ، العَزيمة في سلوك الطريق المستقيمة للأزاريفي ، القَمْع في تهذيب الطبع له ، ورْدة الجيوب في الصلاة على النبي المحبُوب لمحمد بن عبد العزيز الرَّسْموكي ، كتاب نزهة الناظر وبهجة الغُصْن الناضِر لأحمد بن عبد القادر التَسْتاوتي ، المتوفى سنة ١١٢٧، شوارق الأنوار وطوَالِعُ الأسرار له . المزايا فيما حدث من البدع بأم الزوايا لابن عبد السلام الناصري المتوفى سنة ١٢٣٩ .

كتب المنطق والكلام والأصول

القَادرِيَّة في المنطق لعبد السلام القادري ، النَّسيم المعبق في توجيه الخلاف الوارد في المنطق له ، تنبيه المُعْرِضين عن آيات السموات والأرَضين له ، الخَريدة في المنطق لحمدون ابن الحاج ، الحُلل في علم الجدَل لأبي زيد الفاسي ، شرح الطَّالِع المُشرق في علم المَنطِق له، المُستَفاد في أصول الاعتقاد له، رجَز في المنطق لابن طاهر الهوَّاري، اللئالي المنثورة في مُناقشة سعيد قدُّورة ، شارح السُّلَّم له، رجز في الكلام له، شرح مختصر المنطق له ، مناهِج الخَلاص لليوسي ، شرح السلَّم له ، شرح المقاصد لابن يعقوب المتوفى سنة ١١٢٨ ، حاشية على المحلِّي له ، حاشية على مختَصر المنطِق له ، حاشية على الكُبرى لأبي حفص الفاسي، حاشية على مختصر المنطق لابن الحسن بنَّاني، شرح السلَّم له ، حاشية على شرح قدُّورة على السلَّم لأحمد بن المُبارك ، ردُّ التشديد

في مسألة التقليد له ، حاشية على شرح قدُّورة لابن منصور الشفشاوني المتوفى سنة ١٢٣٢ ، حاشية على بنَّاني على السلَّم له ، حاشية على المحلّي له ، حاشية على قدُّورة له ، حاشية على بنَّاني على السلَّم له ، حاشية على قدُّورة لأقصبي المتوفى سنة ١٢٥٠ ، حاشية على بنَّاني على السلَّم للمهدي بن سودة ، حاشية على المحلّي له ، القول المُسلَّم على نظم السلَّم لابراهيم التادلي ، شرح مختصر المنطق له ، شرح الصغرى له ، شرح الجوهرة له ، شرح جمع الجوامع له ، شرح القادريّة للهلالي ، الياقوتة الفريدة له ، شرح الخريدة لمحمد بن حمدون بن الحاج المتوفى سنة ١٢٧٤ ، شرح الخريدة للطيب ابن كيران ، رسالة في المقولات العشر له ، شرح توحيد الرسالة له ، شرح توحيد المرشد له ، شرح رسالة مولاي سليمان في الكسب له ، رسالة في الرد على الوهَّابيّة ، رسالة في قول الغزالي ليس في الأمكان أبدع مما كان له ، رسالة في المطالب السبعة للمدني بن جلُّون ، الحكم بالعدل والانصاف فيما بين علماء سجلماسة من الاختلاف لأبي سالم العيّاشي ، الدرّة السنيّة الفائقة في كشف مذاهب أهل البدع من الخوارج والروافض والمعتزلة والزنادقة للزيّاني ، معراج الوصول الى سماوات الأصول لابن زاكور ، مراقي السُّعُود نظم جمع الجوامع لابن السُّبكي وشرحه لعبد الله بن ابراهيم العلوي المتوفى سنة ١٢٣٠ ، الأسئلة والأجوبة في الأصول لابن عزُّوز المراكشي ، نظم الورقات لمحمد الحامدي .

كتب النحو واللغة والبيان :

شرح التسهيل للمُرابط الدلائي المتوفى سنة ١٠٨٩ ، شرح الألفية له ، شرح البَسط والتَّعريف في علم التصريف له ، شرح كافية ابن مالك لابن الطيب الشَّرقي ، شرح الاقتراح له ، شرح لامية الأفعال له ، حاشية على المرادي له ، حاشية على التسهيل له ، حاشية على المُغني له ، حاشية على القاموس له ، ضوء القابوس في زوائد الصحاح على القاموس له ، شرح نظم الفصيح له ، شرح كفاية المتحفظ له ، المُسفِر عن خبايا المُزهِر له ، حاشية على دُرَّة الغوَّاص له ، إقرار العَين في إقرار الأثر بعد ذهاب العَين ، جمع فيه من تصانيف اللغة شيئاً كثيراً له ، شرح شواهد الكشَّاف له ، شرح شواهد البيضاوي له ، شرح شواهد التوضيح له ، شرح شواهد التلخيص له ، شرح الأجروميّة لابراهيم التادلي ، شرح الألفية له ، شرح

فريدة السيوطي له ، شرح كافية ابن الحاجب له ، شرح القَطر له ، شرح الأزهرية له ، شرح الشُّذُور له ، شرح لامية الأفعال له ، شرح جُمَـــل المجراد له ، رسالة المجاز وشرحها له ، شرح التلخيص للقزويني له ، حاشية على السَّعد له ، شرح الألفية لأبي نافع المتوفى سنة ١٢٦٠ ، شرح الألفية للطرُنباطي المتوفى سنة ١١١٤ ، شرح الفريدة لابن زكرى ، شرح خطبة القاموس للهلالي ، إضاءة الأدموس من اصطلاح صاحب القاموس له ، شرح لاميَّة الأفعال لابن يعقوب ، شرح التلخيص له ، شرح خطبة السعد له ، حاشية على المكودي لأحمد بن الحاج المتوفى سنة ١٣١٠ ، حاشية على الأزهري على الأجروميّة له ، حاشية على التسهيل للرُّوداني ، حاشية عـــلى التوضيح له ، مختصر التلخيص وشرحه له ، حاشية على المكودي الهَرنيسي المتوفى سنة ١٢٧٧ ، حاشية على المرادي للمَنجرَة ، حاشية على المكودي لابن جلثُّون المتوفى سنة ١١٣٦ ، حاشية على التصريح لابن منصور الشفشاوني ، حاشية على السعد له ، حاشية على المغني لأبي حفص الفاسي ، حاشية على بَحراق للطالب ابن الحاج ، حاشية على التوضيح لابن الحسن بنَّاني ، حاشية عـــلى المكودي للعربي بن سودة المتوفى سنة ١٢٢٩ ، حاشية على لاميّة الأفعال له ، حاشية على المكودي لعلي بَرَكة ، شرح الأجروميّة له ، شرح شواهد ابن هشام لمحمد بن عبد القادر الفاسي ، نظم الموضح لمحمد بن حمدون بن الحـــاج وشرحه له ، ابتهاج الأرواح في أصول النحو لأبي زيد الفاسي ، ذات الحلل في الجمل له ، القَطف الدَّاني في علم البيان والمعاني له ، إحكام المعروف من أحكام الظروف لعبد السلام القادري ، الجود بالموجود في المقصور والممدود لابن زاكور ، الحسام المسلول في قصر المفعول على الفاعل والفاعل على المفعول له ، رسالة في لو الشرطيّة للطيب ابن كيران ، رسالة في ما أنا ضربت إلا زيداً له ، رسالة في مثلُك لا يَبخَل وغيرُك لا يَجود له ، رسالة في الهمزة المسهَّلة له ، رسالة في توجيه «إنما يخشى الله من عباده العلماءَ» على قراءة مَن رفَع اسم الجلالة ونصَب لفظ العلماء له ، رسالة في النكرة واسم الجنس وعلمه والمعرف بلام الحقيقة ولام العهد له ، رسالة في مبحث الجامع الخيالي له ، نظم الاستعارة له ، نظمُ الاحمرار وطرَّته لابن بونـَة ، نور الأقاح وشرحه له . فيض الفتاح في علوم البلاغة لعبد الله بن ابراهيم العَلَوي الشنجيطي ، نظم المغني لابن هشام لعبد العزيز الرَّسمُوكي ، كافية النهوض في صناعة

العَروض له ، حاشية على صَحاح الجوهري له ، شرح الجوهر المكنون لأحمد بن محمد الفاسي ، شرح نظم المغني لمحمد الأدوزي ، شرح خطبة الألفية للكَردودي المتوفى سنة ١٢٦٨ ، حِليَة العروس في نظم اصطلاح صاحب القاموس له ، مختصر القاموس للوجاري المتوفى سنة ١١١٤ ، نزهة الجُلاّس في أنواع الجناس لابن طاهر الهواري ، شرح نظم الاستعارة للبُوري المتوفى سنة ١٢٤٣ ، شرح نظم الاستعارة لأقصبي ، حاشية على السعد للمهدي ابن سودة ، حاشية على السعد لحمدون ابن الحاج .

كتب السير والتراجم والأنساب

العِقد المُنضَّد بجواهر مفاخر محمد للمهدي الفاسي ، كفاية المحتاج من خبر صاحب التاج له ، فخرُ الثّرى بسيّد الورى لمحمد بن عبد الرحمن الدّلائي ، زهرُ الحدائق في سِيَرة خير الخلائق له ، دُرّة التيجان ولُقَطة اللؤلؤ والمَرجان في أنساب شرفاء المغرب له ، شرح الاكتفاء له ، نفـائِسُ الدرر في سيرة سيّد البشر لمسْعود جَمُّـوع المتوفى سنة ١١١٩ ، الروضة ، وُسْطى وصغرى في السّيرة له ، ذخيرة المحتاج في سيرة صاحب اللّوَاء والتّـاج في خمسينَ مجلَّداً للمُعطي ابن الصّالح الشرقـاوي المتوفى سنة ١١٨٠ ، ميميّةُ السيرة في أربعة آلاف بيت وشرحُها لحمدون ابن الحاج ، الهمزية وشرحُها لابن زَكرى ، شرح الاكتفاء لابن عبد السلام بنّاني ، شرح البردة له ، شرح سيرة ابن فارس لابن الطيب الشّرقي ، شرح سيرة ابن الجَزَري له ، الأنيس المُطرب فيمن لقيتُه من أدباء المغرب له ، حاشية عـلى الاكتفاء لأحمـد الوزير ، شرح همزية البوصيري له ، شرح البردة له ، شرحُها أيضاً لأحمد بن محمد الفاسي ، جَلاءُ القلب القاسي في التعريف بالمهدي الفاسي له ، شرح الهمزية لبَنّيس ، مُعجَم أسمـاء الصحابة لعبد الرحمن العراقي ، اختصار الحِليَـة لعبد الله العراقي المتوفى سنة ١٢٣٤ ، المَقْصَد الأحمد في التعريف بأحمد بن عبد الله لعبد السلام القادري ، العَرْف العـاطر فيمن بفـاس من أبناء الشيخ عبد القـادر له ، الإشراف على نسَب الأقطاب الأربعة الأشراف ، الجيلاني وابن مشيش والشاذلي والجزولي له ، مُعتَمَد الرّاوي في مناقب أحمد الشاوي له ، نيل القرُبات بأهل العَقَبات له ،

رجاءُ الإجابة بالبَدْريين من الصحابة له ، عِقْد اللئال فيما له صلى الله عليه وسلم من الآل له ، مَطْلِع الإشراق في الأشراف الواردين من العراق له ، نشر المثاني في أخبار أهل القرن الحادي عشر والثاني لابن الطيب القادري ، التقاطُ الدُّرَر في أخبار أهل القرن الحادي عشر له ، الإكليلُ والتاج في ذيل كِفاية المحتاج له ، الزَّهْر الباسم في مناقب قاسم الخصاصي له ، الاستشفاءُ من الألم في التلذُّذ بذكر صاحب العلم لابن زاكور ، جُهْدُ المقِلّ القاصِر في نصرة الشيخ عبد القادر للسناوي ، نتيجة التحقيق في بعض أهل النسب الوثيق له ، البُدور الضاوية في ذكر أهل الزاوية الدلائية لسليمان الحوَّات المتوفى سنة ١٢٣١ ، الروضة المقصودة في مآثر بني سُودة له ، قُرَّةُ العيُون في الشرفاء القاطنين بالعيُون له ، السر الظاهر في أولاد الشيخ عبد القادر له ، الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب لابن الطيِّب العَلَمي ، أعيان الأعيان لمحمد بن أحمد الفاسي المتوفى سنة ١١٧٩ ، شرح درة التيجان له ، العَرْف الشَّحْري في بعض فضائل ابن زكري للزَّبادي المتوفى سنة ١١٦٣ ، التعريف بابن عباد له ، أزهار البستان في طبقات الأعيان لابن عجيبة ، صفوة ما انتشر من أخبار أهل القرن الحادي عشر للافراني، طَلعَة المشتري في التعريف بالزمخشري له ، تكملة التكملة للديباج ، لِبَاب بن أحمد بيب الشنْجِيطي ، طبقات الحضيكي لمحمد بن أحمد الحَضِيكي ، مختصر الاصابة له ، سنَا المُهتدي الى مفاخر الوزير اليَحْمَدي لعلي مصبَاح ، روض البهار في ذكر جملة من شيوخنا الذين فضلهم أجلى من النَّهار للطالب ابن الحاج ، رياض الوَرْد فيما انتهى اليه هذا الجوهر الفَرْد له ، وهو في ترجمة والده حمدون بن الحاج ، الإشراف على بعض من بفاس من مشاهير الأشراف له ، نظم اللئال في شُرفاء عقَبة ابن صَوَّال له ، الفية السلوك في وفيات الملوك للزياني ، الحادي المُطرب في رفع نسب شرفاء المغرب له ،الدر النفيس في بني محمد بن نفيس للوليد العراقي المتوفى سنة ١٢٦٥ ، تحفة الاخوان ببعض مناقب شرفاء وزان للطاهري المتوفى سنة ١١٩٣ ، شذور الذهب في خَيْر نسب للتهامي بن رحمون ذكر فيه الأشراف الادارسة عامة ، الأنجم الزاهرة في الذرية الطاهرة له ، جعله خاصاً بالأشراف العلميين ، فتح العليم

الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الأمير لمحمد بن الصادق بن ريسون ألّفه بأمر السلطان سيدي محمد بن عبدالله .

كتب التاريخ والرّحْلات

المُغرِب في أخبار المَغْرب للافراني ، نزهَة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي له ، الترجمان المعرب عن تاريخ دول المشرق والمغرب للزّياني ، الروضة السّلمانية في الدولة الاسماعيلية وما تقدمها من الدول الإسلامية له ، البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف له ، التاج والاكليل في مآثر السلطان الجليل له ، الترجمانة الكبرى في أخبار العالم براً وبحراً له ، رحلة الحذّاق لمشاهدة البُلدان والآفاق له ، الجَيْشُ العَرَمْرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السّجلماسي للكَنْسُوس ، المُعرب المُبِين عما تضمنه الأنيس المطرب وروضة النّسرين لابن زاكور ، نشرُ أزاهر البستان في الرحلة الى الجزائر وتِطْوان له ، الدر المنتخب المُستَحْسَن في تاريخ دولة مولانا الحسن لأحمد بن الحاج ، ماء الموائِد وهي رحلة الحجاز لأبي سالم العياشي ، رحلة الحجاز لأحمد بن ناصر المتوفى سنة ١١٢٩ ، رحلة الحجاز لابن الطيب الشرقي ، رحلة الحجاز لابن عبد السلام الناصري ، بلوغ المرام بالرحلة الى بيت الله الحرام للزبادي ، رحلة الوزير في افتكاك الأسير لأبي عبدالله الوزير المتوفى سنة ١١١٩ ، نتيجَة الاجتهاد في المُهادَنةِ والجهاد وهي رحلة الى اسبانيا لأحمد الغَزّال المتوفى سنة ١١٩١ ، رحلة حجازية للتّجاني بن باب الشنجيطي ، نزهة الإخوان في تاريخ تطوان لعبد السلام سكيرج المتوفى سنة ١٢٥٠ ، المعارج المُرْقيَة في الرحلة الشرقيّة للرافعي التطواني .

كتب الأدب ودواوين الشعر .

عُنوان النفاسة في شرح ديوان الحماسة لابن زاكور ، مِقْباسُ الفَوائِد في شرح ما خَفِيَ من القلائد له ، الصّنيع البديع في شرح الحِلْيّة ذاتِ البَديع له ، تفريجُ الكُرَب بشرح لامية العرب له ، النّسَمات البنَفْسَجيّة في شرح الخزرجية له ،

أنفعُ الوسائل في أبدع الخطب وأبرَع الرسائل له ، الروض الأريض في بديع التوشيح ومُنتقى القَريض له ، المسْلكُ السَّهْل في شرح توشيح ابن سهل اللافراني ، شرح بانت سعاد لابن الحسن بناني ، المُحاضرات لليوسي ، زهرُ الأكَم في الأمثال والحِكَم له ، شرح الدالية له ، ديوان شعر له ، تحفَةُ الأريب ونزهة اللبيب لأبي مَدْيَن الفاسي ، المُحكم في الأمثال والحكم له ، ديوان خطب له ، سراجُ الطلاّب في أدب طلب العلم للمَسَّاري ، نُضار الأصيل لعبدالله شطّير المتوفى سنة ١٢١٤ ، ديوان شعر لمحمد بن يعقوب التطواني ، القصائد العشرة في التشوُّق الى البقاع المطهَّرَة للعَلمي ، مقصورة في المديح لأحمد الوزير ، ديوان خطب للرهوني ، ديوان خطب للبَدْراوي ، ديوان شعر لأبي سالم العياشي ، ديوان شعر على طريقة الصُّوفية لابن عجيبة ، ديوان السُّلَيمانيّات لحمدون ابن الحاج ، ديوان شعر للرافعي التطواني ، ديوان شعر لعبد السلام القادري ، ديوان شعر للزياني ، كتاب الأنيس المغني عن الجليس له ، الشمَقْمقيَّة لابن الوَنان ، ديوانُ شعر على طريقة أهل التصوف للحرّاق المتوفى سنة ١٢٦١ ، ديوان شعر للتّجاني بن باب الشنجيطي ، شرح مقصورة ابن دُرَيْد للشيخ سيدي الأبْيِيري ، ديوان شعر لعلي مصباح ، أنس السمير في نوازل الفرزدق وجرير له ، اليواقيت الأدبية بجيد المملكة المحمدية لأحمد الغزال ، الأطروفة الهندسية والحكمة الشطرنجية الأنسية له ، نتيجة الفتح المستنبطة من سورة الفتح له ، اليواقيت الأدبية في الأمداح النبوية له .

كتب في مختلف العلوم

القَانون في ابتداء العلوم لِليُوسي ، الأزهار الطيِّبة النَّشر في المبادِي العَشر للطالب بن الحاج ، الأقنُوم في مبادىء العُلوم لأبي زيد الفاسي ، المختار في حِساب الغُبار له ، قلائد العَسْجَد في علم العَدد له ، النتائج الحِسّيَة في المعَالم الهَندسية له ، تمهيد السَّلاسة في علم السِّياسة له ، توْطِئَةُ الشَّراسة في علم الفِرَاسة له ، مَطالِع الضيَّا في علم الكيمِيَّا له ، القُطوف في أسرار الحروف له ، الإغراق في علم أسرار الأوفاق له ، تحفة الأثير في علم التّكْسير له ، عَرُوس الصَّباحة في عِلم المساحة له ، كشفُ الحجاب في علم الاسطرلاب له ، الجَوْهر المنظوم في علم النُّجوم له ، الكامل في الاستغناء عن الجداول له ، المطلَب في

الرُّبع المجيَّب له ، الغرَّة في بيت الإبْرة له ، النيل في خط الرَّمل له ، الرَّقمة في علم الحكمة له ، المناهج في استنطاق الزَّيارج له ، الاشارة في علم الشَّطارة له ، تحفة الاخوان والأولياء في صنعة السيمياء للزياني ، كشف أسرار المحتالين الأشقياء الذين يزعمون علم الكيمياء له ، رسالة في الحساب لابراهيم التــادلي رسالة في العمَل بالرُّبع المجيَّب له ، شرح المقنع له ، زينة النَّحْر في علم البحر له ، أغاني السِّيقَا في علم الموسيقى له ، نظم في علم الميقات وشرحه للرُّودَاني ، ذيل ارجوزة ابن سينا لعبد الوهاب ادرَّاق ، رجزٌ في حبٍّ الافرنج له ، هزّ السمْهَري على مَن نفَى عيْبَ الجذري له ، تعقُّبات على الشيخ داود في النزهة له ، الشّقْرُونية في الطب لعبد القادر بن شقرون ، النفحة الوَرْديّة في العُشْبَة الهنــدية له ، ذهاب الكُسوف في الطب لابن عزُّوز المراكشي ، الأسئلة والأجوبة في الطب له ، إثمِدُ البَصائر في معرفة أحكام المظــــاهر له ، كشفُ الرموز في العقاقير والأدوية له ، بحرُ الوقوف على أسرار الحروف له ، حلُّ المعقُود وعقــد المحـــلول له ، السر الوافي والترتيب الكافي له ، رسالة في ابطال الكيمياء للمدَني بن جلُّون ، شرح المقنع في التوقيت لأبي عبدالله للوَرْزازي ، أجنحة الرّغاب في معرفة الفرائض والحساب وهو شرح للسملالية وتكملتِها لأحمـــد الرسموكي ، شرح القَلَنْصَادي له ، قَطَفُ الأنوار في شرح روضة الأزهار في التوقيت لعبد الرحمن البوعقيلي ، شرح اليَسارة له ، كتـــاب في الحساب بالقلم الرومي لمحمد بن أحمد الصباغ .

الحيـاة الأدبيّـة

لم تكـُن عِنايةُ الدولة الشريفة بنهضة الأدب ورُقيّه ، بأقلّ من عناية غيرها من الدول السابقة الذكر ؛ فقد بذَل رجالُها جهوداً تُذكر فتُشكر في سبيل تقدّمه وتنشيط أهله حتى قامت الحركة الأدبيّة على قدم وساق ، ونفقَت سوُقها أشدّ النّفاق ، فلو أننا نظرنا الى أوّل ملك مهّد البلاد وأخضع العباد وهو مولاي رشيد لوَجدناه قد أجاز بألفَين وخمسمائة دينار على بَيْتَيْن من الشعر مُدِحَ بهما وهما :

فاضَ بحرُ النّوالِ في كل قُطر من نَدَى راحَتَيْك عَذْباً فُراتا
غَرِقَ ٱلنَّاسُ فيه فالْتَمَسَ ٱلْفَقْرُ خَلاصاً فلم يَجِدْهُ فَمَاتا

وكذلك المولى محمد بن عبد الله أجاز ابنَ الوَنـّان لمـّا مدحه بقافيته المشهورة بألف دينار ، ومولاي سليمان كان كثير العطاء ، عظيم السخاء ، ولا تسَلْ عمّا وصل منه الى شاعره ومُخلـّد مآثِره الشيخ أبي الفيض حمدون ابن الحاج من الهِبَات والصِّلات .

وبفضل هذا التشجيع نبغ كثير من الأدباء كتـّاباً وشعراء ممّن ازْدان بهم هذا العصر ، وكانوا مفخرة هذا القُطر ، وقد يأتي في الرّعيل الأوّل منهم الوزير اليَحمَدي وعليّ مِصباح وابن زاكور وابن الطيِّب العَلـَمي صاحب الأنيس المطرب ، وابن الوَنـّان ومحمد بن الطيِّب سكيرج والطيِّب بن صالح الرزيني والوزير ابن ادريس العَمراوي والكَنسوس بَلهَ غيرهم ممّن لم يصلوا الى مرتبتهم ، فإنهم كثير لا يسعُنا ذِكرُهم في هذه الكلمة الوجيزة ، وإن كنـّا سنذكرهم مع بعض مآثِرهم في الجزء الثاني والثالث .

وهؤلاء المذكورون هم ممّن عُرِفوا بالقُدرَة على التعبير والتفنـّن في أساليب

التّحبير نظماً ونثراً مع متانة القول وإحكامه والذّهاب في أغراض الكلام مذاهبَ الموهوبين من أدباء العربيّة الكبار . فلم يُؤثّر عليهم ما عُرف عن هـذه العصور المتأخرة من ضعف الملَكات اللّسانيّة بسبب ضعف الحركة العلمية واتّجاهها ذلك الاتّجاهَ العقيم المتردّد بين الاختصار أو الشّرح أو التّعليق إلا فيما نَدَر ، بل كان أن شقّوا لأنفسهم طريقاً الى المجد وَسط تلك الدُرُوب الملتَويَة ، فأبانوا عن نبوغهم وعبقريّتهم ، وكان الشعر في أوائل هذا العصر أسبَقَ الى النهوض من النثر وخاصةً في الكتابة الدّيوانيّة ، ولذلك نعثُر على رسائلَ رسميّة من مُستوى إنشائي ليس بذاك ، في حين أن القصائد الشعريّة التي قيلت في مولاي إسمعيل وابنه مولاي محمد العَالِم ولا سيما من شعراء شنجيط ، كانت في مستوى عالٍ من البلاغة والانسجام ، ثم فيما بعد دولة سيدي محمد بن عبد الله ارتقَت صِناعَةُ الكِتابة ، ولا سيّما النثرُ الفني الى المكانة التي قال فيهـا العلامة محمد بَيرَم الخامس في كتابه صفوَة الاعتبار : « لَعمْري إنّ صناعةَ الإنشاء في الدول العربية كادت تكون الآنَ قاصرةً على دولة مراكش » ولا نشكُّ أن للوزير ابن ادريس ومن أتى بعده من بُلغاء الكُتّاب يداً طُولى في ذلك .

وان ننسَ لا ننسَ الزواية الدّلائيّة وما لها من يد على الحركة الأدبيّة في هـذا العصر ، فانها التي أنعَشَت روحَ الأدب بعد خمودها بأثر سقوط الدولة السعدية . وقد نبغ من أهلها زيادةً على المتخرجين فيها كثيرٌ من الأدباء كالشّرقي بن أبي بكر ومحمد ابن المسناوي ومحمد بن أحمد بن الشّاذلي الدّلائيّين وغيرهم . وقد لبِثَ الأدبُ المُعاصر يحمِلُ طابَعها الخاص زمناً غيرَ قصير ممثّلاً في أسلوب اليوسي القويّ الرّصين ، ومُتأدّياً الى ابن زاكور بطريق شيخه اليوسي ، واليوسي من أعظم المتخرّجين في الزاوية المذكورة كما سبق القول .

ونتخلّصُ الآن الى ذكر تراجم زعماء الحركة الأدبية في هذا العصر تتميماً للبحث واحاطةً بالموضوع من جميع جوانبه :

ابن زاكور

هو أبو عبدالله محمدبن قاسم بن محمد بن عبدالواحد بن احمد بن زاكور الفاسي الأديب المتفنن الرحّالة شيخ الأدباء في عصره صاحبُ اليراع المُرهَف ، والفكر المُثقّف ، المحرّر الذي برّزَ على أقرانه وفاق أهـــل زمانه بكثرة اطلاعه وشدة اضطلاعه بالفنون الأدبية ، والعلوم العربية وغيرها ، فكان كاتباً بليغاً ، وشاعراً مُبدِعاً ومؤلفاً مُجوّداً من أكبر مؤلفي الآداب من المغاربة . قال عنه في الأنيس المطرب :

« وحيدُ البلاغة ، وفريدُ الصِّياغة ، الذي أرسخَ في أرض الفصاحة أقدامَه ، وأكثرَ وثوبَه على حلّ المُقفَلات وإقدامَه ، فتصرّف في الإنشاء ، وعطَف إنشاءَه على الإخبار ، وإخبَاره على الإنشاء ، وقارَع الرِّجال ، في ميادين الارتجال ، وثار في مُعتركِ الجدال ما شاء وجال ، فهو الذي باسمِه في الأوانِ هُتِف ، وهو الذي يعرفُ في كل العلوم من أين توكَل الكتِف » الخ .

أخذَ بفاس عن جماعة منهم العلامـــة أحمد بن الحاج الكبير ، وعبد السلام القادري ، وأبي علي اليوسي ، ورحل فأخذ بتطوان عن علاّمتها الشيخ علي بركة ، وبالجزائر عن مفتيها محمد بن سعيد قدُّورة وغيره .

وله مؤلّفات مُرصَّعات مُفوّقات جزْلةُ العبارة لا يشُقّ فيهـا أحد غُباره ، منها عُنوان النفاسة في شرح ديوان الحماسة في ثلاثة أسفار ، ومِقْباس الفوائد في شرح ما خَفيَ من القلائد ، قلائد الفتح ابن خاقان وتفريج الكُرَب بشرح لاميـــة العرب ، وديوانه الذي أسماه الرّوض الأريض في بديع التوشيح ، ومنتقى القريض وقـد عملنا منه مُنتخباً ونشرِ منذُ زمان . وغير ذلـك ، وكانت وفاته بفاس سنة ١١٢٠ .

عبدالله العلوي

أبو محمد عبدالله بن محمد بن عبدالله بن الطالب العلوي نسبة الى قبيلة إدَوَعِلي من إقليم شَنْجِيط ، الأديب الكبير الشاعر البليغ لِسانُ قومِه المُعرِب عن مَغربيَّتِهم وعربيَّتهم العريقتَين . وَصفَه في كتاب الوسيط فقال : « العـالم النِّحرير المُقدَّم على أهل قطره من غير نَكِير ، كَلَّ عن مداه كلُّ جواد، يعترفُ بذلك الحاضرُ والباد، وانتشر صيتُه في تلك الصَّحارى والأقطار حتى صار كالشمس في رابعة النهار » طلب العلم حتى تضلَّع منه ، وكانت له مشاركة في علم الفقه والمنطق والرياضيات ، فضلا عن علوم العربية والأدب وطمحَت نفسُه الى الاتصال بالأعتاب السلطانية ، وكان ذلك في اقبال الدولة العلوية ؛ فاتَّصل بالسلطان مولاي اسمعيل فحظِيَ عنده، وكان ذلك في وقت نبوغ المولى محمد ابن مولاي اسمعيل المعروف بالعالِم الذي اشتهر علمه وفضله ، فكان من خاصَّتِه ، وكان يُكرِمُه اكراماً بالغاً ، فكان يَفِدُ عليه ثم يرجع الى بلاده. وكلما تذكر تلك الشمائل العالية والأيادي الحاتمية تَتَصاغرُ عنده الصحراء وأهلُها فيرجع الى الحضرة السلطانية ويبقى في كنَف الأمير ورعايتِه الى ما شاء الله ، حتى حصلَ منه ما هو معلوم من الخُرُوج على والدِهِ فانقطع عنه . وله فيه وفي السلطان مولاي اسمعيل قصائدُ طنَّانة ، ويكفي أن نقول أن نفَسه في شعره نفَسٌ شَنجِيطيٌّ ؛ فإنّ تفوُّقَ أهل شنجيط في علوم العربية والنبوغ الذي ظهر منهم في هـذا العصر وخاصةً في نظم الشعر العربي المتين ممَّا لا خفاءَ به على أحد . وكان المترجم حيّـاً في صدر القرن الثاني عشر .

ابن الطيّب العلمي

أبو عبدالله محمـد بن الطيب الشريف العَلمي اليُونسِي ، وُلِدَ ونشأ بفاس ودَرَس على أعلامها ، وتخرَّج في الأدب بابن زاكور ، وهو من أكبر أدباء العصر ،

وأصحاب البراعة في الصِّناعَتين . له في الشعر طَبْعٌ متَدفِّق رقيق ، وفي الكتابة أسلوبٌ رَاق مُنسَجِم ، والفاظه فصيحة ومعانيه واضحة ، ورُوحه مرحٌ نشيط ، حتى إنه ليُعْدي قارئه من فَرْط الخِفَّة والسهولة ، وكان لأهل فاس افتتانٌ عظيم بشعره . وألَّف الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب ترجم فيه اثني عشر أديباً من أهل عصره بقلم فَتْحِيٍّ شائق ونفسٍ خاقانيٍّ رائق ، وقد ضمّنه مع ذلك كثيراً من شعره الفائق ، فجاء ديواناً أدَبيّاً مُمْتِعاً يدلُّ على رسوخ قدم مؤلفه في صناعة الانشاء وقَرْض الشعر ، وله أيضاً القصائد العَشرة في التشوُّق الى البِقاع المطهرة ، وكان كثيراً ما يهتفُ بديار الحجاز ، ويتشوَّقُ الى زيارة ساكنها عليه الصلاة والسلام فشَرّق عام ١١٣٤ فمات في طريقه اليها بمصر رحمه الله .

عَلي مصبَاح

أبو الحسن علي بن أحمد بن قاسم بن موسى مصباح ، به عُرفَ هو وقَوْمه ، وهم من بَني يَصلْوت من قبيلة الأخماس . أديب ماهر كاتب شاعر ، نبغ في أيام الدَّوْلة الاسماعيلية ، واختصّ بالوزير اليحْمَدي ، فكان كاتِبَه ومُساعِده ، وله فيه أمداح بليغة ضمَّنها كتابه الذي ألَّفه فيه وسمّاه سَنا المُهْتدي الى مفاخر الوزير اليحمدي ، وهو كتاب قال عنه أكنسوس (ملأهُ مؤلفُه آدَاباً غضّة ، أنصعَ من جَوْهرَيْ الذّهب والفِضّة) وله أيضاً كتاب أُنس السّمير في وقائع الفرزدق وجرير ، وديوانُ شعر جمَعَه بنفسه وأثبتَ بآخره مجمُوعةً من رسائله الأدبية ، وبالجملة فهو من أعلام الأدب في هذا العصر ، وشِعْرُه مُنوَّعُ الأغراض ، رقيقُ الدّيباجة ، عذبُ الألفاظ ، وقد أثبتنا بعضَ آثاره في المنتخبات . وكانت وفاته بعد عام ١١٥٠ .

ابن الوَنّان

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن الوَنّان المُلُوكي الفاسي ، شاعر فَحْل ، صاحبُ قريحة سيّالة ، وخاطر متدفق وفكر نقّاد ، كان والدهُ مُتعلّقاً بالسلطان محمد بن عبدالله ، وكان صاحبَ نوادر ومُلَح ، فكنّاه السلطان المذكور أبا الشمقمق ، ثم توفي فعَمِلَ ابنُه أرجوزتَه الشهيرة وقصَدَ بها السلطان ؛ فتعذّر عليه الوصولُ اليه ، فتحيَّن خروجَه في بعض الأيام واعترضَه في موكبه وصَعِدَ على نَشزٍ عالٍ من الأرض ونادى بأعلى صوته :

يا سيّدي سِبْطَ النَّبي أَبُو الشَّمقْمَقِ أَبي

فعرفه السلطان وأمر باحضاره الى منزله فحضر وأنشدَ الارجوزة المذكورة فوقعتْ منه المَوقِعَ الحسن ، وأجزل صِلتَه ورفع منزلته ، وقد عُرِفت أرجوزتُه هذه بالشمقمقية ، واشتهرت بين أدباء المغرب اشتهاراً لا مزيد عليه ، وهي تحتوي على كثير من الفنون الأدبية والأغراض الشعرية ، مثل الغَزل والنسيب والوصف والحماسة والمدح والهجاء والحِكَم والأمثال وأيام العرب وأخبارِها وعوائدِها وأحوالِها ، مما يدلُّ على غزارة عِلْمِه فضلاً عن تدفُّق قريحته وقوة ملكَتِه ، وهي قافِيةٌ في نحو ثلاثمائة بيت ، وله نظمُ مسائل ابن خَميس وغيره . وتوفي سنة ١١٨٧ .

ابن إدريس العَمراوي

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن عبد الله العَمراوي ، من أهل فاس وأشرافِها الأدارسه ، كان أديباً ماهراً له باع مديد في الإنشاء ، ومَلَكَة قوّية في الشعر ، ومُشارَكةٌ نبيلة في الفنون . وكان من ذوي الهِمَم الطامحة الى العلوّ والرياسة ؛

فاتصل بالسلطان المولى عبد الرحمن بن هشام فحظِيَ عنده وترقّت به الحال فتولّى الوزارة ، فكان كما قال عنه الكنسوس : « عِصام الدولة وحِليَة جمالِها ، ومَجلى محاسِنها ومظهَر كمالِها ، فبآثاره تزري دولةُ بني مولانا هِشام ، بدولة بني مَروان بالشّام ، ساعدته أحكامُ السُّعود ، وعاملته بإنجاز الموعود ، فأدرك في ظِلال دولة السلطان المؤيّد مولانا عبد الرحمن من الجاه والعِزّ والصولة ، ما لم يُدركه الوزير المُهلّبي مع مُلوك الدّيلم ومُعِزّ الدولة ؛ فضحِكت له الأيام بعد عُبُوس ، وأركبته أعز المراكب ، وألبسته أفخرَ الملبوس ، وبيتُه في فاس منبِتٌ طيّب ، وأصلُه الأصيل ناشىء عن واكِفٍ من الأصالة صَيِّب الخ » . توفي سنة ١٢٦٤ .

أكنسوس

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد أكَنْسُوس المراكشي . العلامة المؤرّخ ، الأديب المتفنن صاحب التاريخ العامر عن الدولة الشريفة المسمّى بالجيش العرَمرَم الخُماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي ، وكان بينه وبين الزّياني مُنافَسة حملَتْه على انتقاصه ونقده بحقّ وغيره في مواضعَ من تاريخه المذكور . انفرد بالرياسة الأدبية في عصره ، فلم يُنازَع فيها ، وهو خاتِمَةُ الأدباء الفُحول الذين اشتملتْ عليهم هذه الدولة في عهدها الأخير ، وكتابته عالية النفَس ، وشعرُه من النوع السّهل المتنِع . هذا مع تضلُّعه في علوم الشريعة ، ورسوخ قدمه في كثير من الفنون وله غيرَ التاريخ كتبٌ أُخرى في مواضيع شتى . وكانت وفاته بمراكش سنة ١٢٩٤ .



النبوغ المغربي

في الأدب العربي

تأليف

عبد الله كنون

الجزء الثاني



رسالة من المستشرق بروكلمان

الى المؤلف

هالة في ٧ رجب ١٣٦١

حضرة الاستاذ العلامة الشيخ السيد عبدالله كنون الحسني ،
تحية واحتراما .

وبعد ؛ فقد قبلت كتابكم العزيز المسمى بالنبوغ المغربي في الادب العربي الذي أكرمتموني بارساله الي ، فابتدأت بقراءته واستفدت منه كثيراً في تاريخ الآداب المغربية مما فات بحثي الى الآن . وارجو ان اصرف مضمونه العزيز لفائدتي وفائدة أصحابي المستشرقين في استدراك كتابي الأول في تاريخ الآداب العربية ، الذي هو الان مطبوع في مدينة ليدن . وكذلك قبلت كتابيكم في شرح الشمقمقية ومقصورة المكودي وقرأت ما كتبتم في مقدمة الكتابين في أحوال المؤلفين . وابتهجت بظرافة المقصورة ، وثقافة الأرجوزة المشهورة ، فان كتبكم لم يبلغ الي صيتها في هذه الازمان المشوشة لولا ان ارسلتموها الي .

وتفضلوا يا حضرة السيد العزيز بقبول احترامي وتحياتي العاطرة والسلام .

كارل بروكلمان

المنتخبات الأدبية
قسم المنثور



بسم الله الرحمن الرحيم

قسم المنثور

ذكرنا في مقدمة الكتاب أننا نؤخر جميعَ الآثار والمُنتخبات الأدبية الى الجزئَيْن الثاني والثالث حيث نضُمُّ بعضَها الى بعضٍ ، ونؤلفُ منها مجموعةً نَفيسة حاوِيَةً لأهمّ ما صدر عن أدباء العصور المُختَلِفة من بديع النظم والنثر . وها نحن أولاءِ نقدم للقارىء الأديب تلك الآثار والمُنتخَبات البديعة ، مُقسِّمين لها على قسمين ، قسم المنثور المُضمَّن في هذا الجزء ، وقسم المنظوم المُضمَّن في الجزء بعدَه ، مُبَوِبين كلَّ قسم أبواباً بحسب أغراضه وفنونه ، غير مُتعَرضين بشرح أو بيان الا للغريب والغـامض الذي لا يسهُل فهمه على كل الناس ، وذلك رغبةً في الايجاز وعدم التشويش على المطالعين .

وقد بدأنا بقسم المنثور لأن النثر أصلُ الكلام ، ونفْتَتِحُه بالتحميد والصلاة للتَّيمُّن ، وبعد ذلك نذكر الُخطب لأنها أولُ المحفوظ من نثر العرب ، ثم المُناَظرات َلِمزِيد شبَهِها بالخطب في الأسلوب والغَرَض ، ثم الرسائل وهي أهمُّ أغراض النثر ، ثم المقـامات وهي ِقصَصٌ قصيرة ُتكتَب بأسلوب أدبي َمسْجوع ، وتشتمل على إفادات وانشادات ، ثم المُحاضرات وهي من موضوع المقامات لاشتمالها مثلها على القصة والفائدة ، ثم المقالات وهو باب جديد في الأدب العربي على اعتبار المعنى الحديث للأدب الذي َيرِمي الى عدّ جميع الأشكال الكلامية التي يستخدمهـا الانسان للتعبير عن آرائه بلسانه أو قَلمه ، سواء في الدرس الفني واللغوي أو البحث العلمي والفلسفي موضوعاً للأَدب يجِبُ أن ُيـــدرَس وُيبحَث بروح أدبية محضة .

والله الُمسْتَعان وعلَيْه التّكْلان .

التحميدُ والصّلاة

تحميد للقاضي عياض

جمَع فيه بين توحيد الجلالة وتمجيد صاحبِ الرسالة

الحمد لله المُنفرِد باسمه الأسْمَى المختص بالمُلْك الأعزّ الأحْمَى ، الذي ليس دُونَه منتهىً ولا وراءه مَرْمى ، الظاهر لا تخيُّلًا ولا وَهْما ، الباطن تقدُّساً لا عُدْماً وَسِعَ كلَّ شيء رحمةً وعلما ، وأسبَغَ على أوْلِيَائه نِعَماً عُمّا[1] ، وبعثَ فيهم رسولا من أنفُسِهِم أنفَسَهم عَرَباً وعُجْما ، وأزكاهم مَحْتِداً ومَنْمَى ، وأرجَحَهم عقلا وحِلْما وأوفَرَهم علما وفهما ، وأقواهم يقينا وعزْما ، وأشدَّهم بِهِم رأفةً ورُحْمَى ، زكَّاهُ روحاً وجِسما ، وحاشاه عَيْباً ووَصْما ، وآتاه حِكْمة وحُكْما ، وفتح به أعيُناً عُمْيا وقلوبا غُلْفا وآذاناً صُمّا ، فآمَن به وعزّره ونصَره مَن جعل الله له في مَغْنَم السعادة قِسْما ، وكذَّب به وصدَفَ عن آياتِهِ مَن كتب الله عليه الشقاء حَتْما ، ومَن كان في هذه أعْمى فهُو في الآخرة أعمى ، صلى الله عليه صلاة تَنمُو وتُنمَى ، وعلى آله وسلم تسليماً .

---

١ — بضم العين أي شاملة .

تسبيح للمهدي بن تومرت

سُبْحانَ مَن أرْسَى مِهَاد الأرض بالشَّامخات[١] ، وارتفعَتْ بقدرته السماوات ، ودبَّر الأزمان بالنور والظُّلُمات وتدكْدَكَت[٢] لجَلاله القَاسِيَات ، وأثَارَ السحابَ بالعاصِفَات ، وأنزلَ الثجَّاجَ من المُعْصِرَات[٣] ، فأخرج به من الأرض البَرَكَات وقسَم بعدْلِه الأقوات .

سُبْحانَ من قيَّد الخَلْق بالحركات والسَّكَنات ، وصوَّرَهم بِتَبَايُن الهَيْئات وسَخَّرهم بتسلُّط الحاجات ، وأظهَر عجْزَهم بتبَدُّل الحالات ، وحتَّم جهْلَهم بالغَيْب والتَّكْيِيفَات ، وما تبلُغه الدَّلالات ، ولا تُحِيطُ به الإِدْرَاكَات ، وحذَّرهم من تَجاوُز المَحْدُودات ، وتعَدِّي المَعْقُولات ، الى القَوْل بالتَّكْيِيفَات ، والقطع بالتَّخْيِيلات ،

سُبْحَانَ من أوْضحَ لِعباده الآيَات ، وأظهَر لهم الدَّلاَلات ، على فَاطِر السماوات فنَطقَت بوجودِه الجَمادات ، وشهِدَتْ على عظَمتِه المخلوقات ، وأخْبَرَتْ بكَماله الآياتُ فقالَتْ بلِسَان الحال مبِيِّنَات ، فَاقتْ عظَمتُه الغايات ، لا تَتنَاهى له المقْدُورات ، ولا تنحَصِرُ له المعلُومات ، جلَّ عن التَّكْيِيفَات ، إِلَهِ مَن في الأرض والسماوات .

---

١ — يعني الجبال ٢ — أي تفتت ٣ — أي السحب • والثجاج : المطر .

دُعاءٌ ومُناجاةٌ لأبي العباس السَّبْتي

اللَّهمَّ أَفْضَلْتَ فعَمَّ إفضالُك ، وأنعمتَ فتمَّ نوالُك ، وغفرْتَ الذنوب فتكامَل إحسانُك . وستَرتَ العُيوب فتواصل غُفرانُك ، اللَّهم لك الحمدُ على عقل ثقَّفْتَه، ولك الحمدُ على فهم وفَّقْتَه ، ولك الحمد على توْفِيقٍ هدَيْتَه ، جلَّ جلالُك وتعالَى ، وانْهَلَّ جودُك وتوالَى ، وجرَى رِزْقُك حلَالاً ، وتعالَيْتَ في دُنُوِّك وتقرَّبْتَ في عُلُوِّك، فلا يُدْرِكُكَ وَهْم ، ولا يُحيطُ بك فَهْم ، وتَنَزَّهْتَ في أَحَدِيَّتِك عن بِدَايَة ، وتعاظَمْتَ في أُلُوهِيَّتِك عن نِهَاية ، أَنتَ الوَاحِدُ لا مِن عَدَد ، والباقي بعْدَ الأبد، لك خضَع مَن ركَع كما ذَلَّ لَك مَن سَجد ، (قُل هُوَ اللهُ أحد، اللهُ الصَّمَد ، لم يَلِدْ ولم يُولَد ، ولم يكُن له كُفُواً أحد)

إلَهِي كيفَ يُحيطُ بك عِلْم خلقْتَه ، أم كيف يُدرِكُك بَصرٌ أنتَ شقَقْتَه ، أم كيف يدنُو منك فِكْرٌ أنت وفَّقْتَه ، أم كيف يَشكُرك لسانٌ أنت أنطَقْتَه ، اذا تلَمَّحت البَصائر عادتْ بنور سلطانك كَلِيلَة ، وإذا تجمَّعت عظائمُ الجرائم كانت في جَنْبِ غفرانِك قَلِيلة، سبقْتَ السَّبْقَ فأنتَ الأول ، وخلَقْتَ الخَلْق فعليك المُعَوَّل ، وعُدْتَ اذا جُدْتَ يا خير مَن تطوَّل ، عجباً لقلوب كيف استمرَّت على الأُنسِ بِسوَاك ، ولأرْوَاح كيف شكَرتْ من لا يقدر على شيْءٍ لوْلَاك ، ولنفوس سَكِرَتْ من شراب جدْوَاك ، ولأكُفّ جمَعتْ وقد استقرَضْتَها هلاَّ

جادت بذَاك ، كيفَ يُناجيك في الصَّلَوات ، مَن يعصيكَ في الخَلَوات ،
أم كيف يدعوك لِلمهُمَّات مَن ينساك لِلشَّهوَات ،

إلَهي كيف خُتِمَتِ الأَلْسُن بالليل وقد قلتَ هل من سَائِل ،
وكيف كَفَّت الأكُفُّ وسَبيلُ الجود سَائِل ، وكيف سهَا عن خطابك
مَن لا تَعِظُه الوسائل وكيف يَبِيعُ ما يبقي بما يَفْنَى وإنَّما هي أيام قلائل ،
يا رُوحَ القُلوب أين طُلَّابك ، يا ربَّ الأرباب أين أحبابُك ، يا نُورَ
السماوات والأرض أين قُصَّادُك يا مُسبِّب الأسباب أين عُبَّادك ، مَن الذي
عامَلك بِلُبِّه فلم يَرْبح ، ومن الذي جاءك بِكَرْبِه فلم يَفْرَح ، أيُّ
صَدْرٍ صدر عن بابك الكريم فلم يُشْرَح ، مَن الذي لاذَ بجنابك العَلِيّ
فاشتهَى أن يَبْرَح ، واهاً لِقُلوب مَالتْ الى غَيْرك ما أرادتْ ، ولِنُفوس
تُحِبُّ الراحةَ هلَّا طلبتْ مِنك واسْتَفَادَت ،

صلاةٌ لعبد السلام بن مَشِيش

وهي المعروفة بالصلاة المشيشيّة

اللَّهُمَّ صلِّ على مَن منه انشَقَّت الأسرار وانفلَقَتِ الأنوار ، وفِيه
ارتقَتِ الحقَائق ، وتنزَّلت علُومُ آدمَ فأعجَز الخلائق ، ولهُ تضَاءلتِ
الفُهوم ، فلم يُدرِكْه مِنَّا سابِق ولا لاحِق ، فرِيَاضُ المَلَكُوت بزَهْرِ
جَمالِه مونِقَة ، وحِيَاضُ الجَبرَوت بِفَيْض أنواره مُتدَفِّقَة ، ولا شَيْءَ
إلَّا وَهُو به مَنُوط ، اذْ لوْلاَ الوَاسِطةُ لذَهب كما قيل المَوْسُوط ،

صلاةً تليقُ بكَ منك اليه ، كما هو أهلُه ، اللهمَّ إنّه سرُّكَ الجامعُ الدالُّ عليك ، وحجابك الأعظمُ ، القائمُ لك بين يديك ، اللهم ألحقْني بنَسبِه ، وحقِّقْني بحسَبه ، وعرِّفْني إيّاهُ معْرِفَةً أسْلَمُ بها مِن موارِدِ الجهْل وأكْرَعُ[1] بها مِنْ مَوارِد الفَضْل ، واحْمِلْني على سَبيله الى حضْرَتِكَ ، حمْلًا محْفُوفاً بنُصْرتك ، واقْذِف بِي على البَاطِل فأدْمَغَه ، وزُجَّ[2] بي في بِحار الاَحدِيَّة وانشُلْني مِن أوْحالِ التَّوْحيد وأغْرِقْني في عَيْنِ بَحْرِ الوَحْدَة حتَّى لا أرَى ولا أَسْمَعَ ولا أَجِدَ ولا أُحِسَّ إلّا بِها واجعَل الحِجَابَ الأعظَمَ حياةَ رُوحِي ورُوحَه سِرَّ حقيقَتي وحقيقَتَه جامِعَ عوالِمي بتحْقِيق الحَقِّ الأول، يا أولُ يا آخِرُ يا ظَاهِرُ يا بَاطِن ، اسمَعْ نِدَائِي بمــا سمِعْتَ به نِداءَ عبدِكَ زكَرياءَ عليه السلام ، وانصُرْني بكَ لَك ، وأيِّدْني بكَ لَكَ واجْمَعْ بَيْني وبَيْنَك ، وحُلْ بَيْني وبَيْنَ غَــيْرِكَ ، الله ! الله ! الله ! (إنَّ الذي فَرضَ عليكَ القُرْءانَ لَرَادُّكَ إلى مَعَاد ، ربَّنا آتِنا مِن لَدُنْك رحمةً وهيِّءْ لنا مِن أمرِنا رَشَداً)

الحِزْبُ الكَبيرُ[3] لأبي الحَسَنِ الشاذِلي

ويشتمِلُ على أدْعِيَةٍ وأذْكَارٍ ذَاتِ نفسٍ صُوفِيٍّ عالٍ ونَزْعةٍ فَلْسَفِيَّةٍ رائعَةٍ

بسم الله الرحمن الرحيم ، واذا جاءَكَ الذين يؤمنون بآياتنا فقُلْ سلام

---

١ — أي اشرب . ٢ — أي ارم . ٣ — للشاذلي أحزاب أخرى فلذلك يعرف هذا بالكبير والحزب عندهم طائفة من الكلام في موضوع الذكر والدعاء كاحزاب القرآن .

عليكم ، كتَب ربُّكم على نفسه الرحمةَ أنه مَن عمِل منكم سُوءاً بجَهالة ثم تاب من بعده وأصلَح فانه غفور رحيم .. بديـــعُ السماوات والأرض أنَّى يكونُ له ولد ولم تكُن له صاحِبَـــة ، وخلَق كلَّ شيء وهو بكل شيء عليم ، ذلكُم الله ربُّكم لا اله الا هو خالقُ كلِّ شيء فاعبُدوه وهو على كل شيء وكيل ، لا تُدرِكُه الأبصارُ وهو يُدرِكُ الأبصارَ وهو اللطيف الخبير .. الرَ .. كهيعَص .. حَمعسَق .. ربِّ احكُمْ بالحق وربُّنـا الرحمنُ المُستعَانُ على ما تَصِفون .. طه ما انزلنا عليك القرآن لتَشْقَى إلا تَذْكِرَةً لِمن يخشَى ، تـــنزيلاً مِّمن خلقَ الارضَ والسماواتِ العُـــلَى ، الرحمنُ على العرش استَوى ، له ما في السماوات وما في الارض وما بينهما وما تحتَ الثَّرى ، وإن تَجهَرْ بالقول فانه يعلَم السرَّ وأخفَى ، الله لا اله الا هو له الأسماء الحسنى ،

اللهم إنك تعلم أني بالجهالة معروف ، وأنتَ بالعلم موصوف ، وقـــد وسِعتَ كل شيء من جهالتي بعِلمك ، فسَعْ ذلك برحمتك ، كما وسعته بعلمك ، واغفر لي انك على كل شيء قـدير . يأَللهُ يا مالكُ يا وهّاب ، هَبْ لنا من نُعماك ما علمتَ لنا فيه رضاك ، واكسُنا كسوةً تَقِينا بهـا من الفتن في جميع عطاياك ، وقدّسنا بها عن كل وصف يوجب نقصا مما استأثرت به في علمك عمَّن سواك ، يا أَلله يا عظيم يا علي يا كبير ، نسألك الفقر مما سواك ، والغِنى بك حتى لا نشهَدَ الا اياك ، والْطُف بنـا فيهما لطفا علمتَـــه يصلُح لمن والاك واكسُنا جلابيبَ العِصْمِة في الانفـاس

واللَّحَظات ، واجعلنا عَبِيداً لك في جميع الحالات ، وعلِّمنا من لَدُنْك علما نصير به كاملين في المَحْيَا والممات ،

اللهم أنت الحميد الرب المجيد الفعَّالُ لما تريد ، تعلَمُ فرَحنا بماذا ولماذا وعلى ماذا ، وتعلَم حزَننا كذلك ، وقد أوجبتَ كوْنَ ما أردتَه فينا ومنا ولا نسألُك دفْعَ ما تُريد ، ولكن نسألك التأييدَ بروح من عندك فيما تُريد كما أيدتَ أنبياءَك ورُسلَك وخاصّة الصدّيقين من خلْقك ، انك على كل شيء قدير ، اللهم فاطرَ السماوات والارضِ عالمَ الغيب والشهادة ، أنت تحكمُ بين عبادك ، فَهَنيئاً لمن عرفك ، ورَضِيَ بقضائك ، والويلُ لمن لم يعرِفْك بل الويلُ ثمَّ الويلُ لمن أقرَّ بوحدانيتك ولم يرضَ بأحكامك ، اللهم ان القومَ قد حكمتَ عليهم بالذُّلِّ حتى عزُّوا ، وحكمتَ عليهم بالفَقْد حتى وَجدُوا ، فكلُّ عز يمنع دونك فنسألك بدَلَهُ ذلاّ تصحبه لطائف رحمتكَ ، وكلُّ وجد يحجُب عنك فنسألك عِوَضه فقدا تصحبه أنوارُ محبتك ، فانه قد ظهرت السعادةُ على من أحببتَه ، وظهرت الشقاوة على من غيرُك ملَكَه ، فهَبْ لنا من مواهب السعداء واعصِمْنا من موارد الاشقياء .

اللهم انا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم ، فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم ، وقد أمرتَنا ونهيتَنا والمدحَ والذَّم ألزمتَنا ، فأخو الصلاح من أصلحتَه ، وأخو الفساد من أضللتَه ، والسعيد حقاً من أغنيتَه عن السؤال منك ، والشقي حقا من حرمتَه مع كثرة السؤال لك ، فأغنِنا بفضلك عن سؤالنا منك ، ولا تحرِمْنا

من رحمتك ، مع كثرة سؤالنا لك واغفر لنا انك على كل شيء قدير ، يا شديـــدَ البطْش ، يا جبار يا قهار ، يا حكيم نعوذ بك من شر ما خلقت ، ونعوذ بك من ظُلْمة ما أبدعت ، ونعوذ بك من كيد النفوس فيما قدَّرْتَ وأردت ، ونعوذ بك من شر الحساد على ما أنعمتَ ، ونسألك عز الدنيا والآخرة كما سألكَه نبيُّك سيدنا محمد ﷺ ؛ عزّ الدنيا بالايمان والمعرفة ، وعزّ الآخرة باللقاء والمشاهدة ، انك سميع قريب مجيب .

اللهم اني أُقدِّمُ اليك بين يَدَيْ كل نفَسٍ ولمحَة وطَرْفة يَطرِفُ بها أهلُ السماوات وأهلُ الأرض ، وكُلِّ شيْءٍ هو في علمك كائن أو قد كان أُقدِّمُ اليك بين يدي ذلك كله (اللهُ لا اله الا هو ، الحيُّ القَيُّوم ، لا تأخُذُه سِنَةٌ ولا نَوْم ، له ما في السماوات وما في الارض ، مَن ذَا الذي يشفَع عندهَ الاَّ بإذْنِه ، يعلَمُ ما بـــين أيديهم وما خَلْفَهم ، ولا يُحيطُون بشيء من علمه الا بما شاء ، وَسِعَ كُرسيُّه السماواتِ والأرضَ ، ولا يَؤودُه حِفْظُهما وهو العَلِيُّ العظيم) أقسمتُ عليك ببَسْط يديْك ، وكرم وجهك ، ونور عينيك ، وكمال أَعيُنَك ، أن تُعطِينَا خـــير ما نفذَت به مَشيئَتُك ، وتعلَّقت به قدرتُك ، وأحاط به علمُك واكْفِنا شرَّ ما هو ضدّ لذلك ، وأكمِلْ لنا دينَنا وأتِمْ علينا نعمتَك ، وهَبْ لنا حِكْمةَ الحكمة البالغة مع الحياة الطيبة ، والمَوْتة الحسنة ، وتولَّ قبضَ أرواحنا بيدك ، وحُلْ بيننا وبين غيرك ، في البَرْزَخ[1] وما قبْلَه

١ — هو لغة الحاجز بين الشيئين وهنا مكان استقرار الارواح من الموت إلى البعث.

وما بعدَه بِنُور ذاتِك ، وعَظيم قدرتك وجميل فضلك ، انك على كل شيء قدير .

يا ألله يا علي يا عظيم يا حليم يا حكيم يا كريم يا سميع يا قريب يا مجيب يا ودود ، حُلْ بيننا وبين فتنة الدنيا والنِّساء والغَفْلة والشهوة وظُلْم العباد وسُوءِ الخُلق ، واغفِرْ لنا ذنوبنَا واقْضِ عنا تَبِعاتِنَا واكْشِفْ عنا السوء ونجِّنا من الغمّ ، واجعل لنا منه فرَجاً ومَخرَجاً انك على كل شيء قدير . يا ألله يا ألله يا ألله ، يا لطيفُ يا رزّاق يا قويُّ يا عزيز ، لك مَقاليدُ السماوات والارض تبسُطُ الرزقَ لمن تشاء وتَقْدِرُ ، فابسُط لنا من الرزق ما تُوَصِّلُنا به الى رحمتك ، ومن رحمتك ما تحولُ به بيننا وبين نِقْمَتِك ، ومن حِلْمَك ما يسَعُنا به عَفوُك واختِمْ لنا بالسعادة التي ختمتَ بها لِأَوْليائك ، واجعل خيرَ أيامِنا وأسعدَها يومَ لقائك ، وزَحزِحنا في الدنيا عن نار الشَّهْوة ، وأدخِلْنا بفضلك في ميادين الرحمة ، واكسُنا من نورك جلابيبَ العِصْمة ، واجعل لنا ظهيراً من عقولنا ومُهَيْمِناً من أرواحنا ، ومُسخِّراً من أنفُسِنا ، كي نسبِّحَك كثيراً ونَذكُرَك كثيراً إنَّك كنتَ بنا بصيراً . وهَبْ لنا مُشاهَدةً تصحَبُها مُكالَمة ، وافتحْ أسماعَنا وأبطارَنا واذكُرنا اذا غفلْنا عنك ، بأحسنِ ما تذكُرنا به إذا ذكرناك ، وارحمنا اذا عصَيْناك بأتمِّ ما ترَحمُنا به اذا أطعْناك ، واغفر لنا ذنوبَنا ما تقدَّم منها وما تأخَّر ، والطُف بنا لطفاً يحجُبنا عن غيرك ولا يحجبنا عنك ، فانك بكل شيء عليم .

اللهم انا نسألك لساناً رَطْباً بذكرك ، وقلبـــا مُنعَّماً بشكرك ، وبدَناً هَيِّناً لَيِّناً لطاعتك وأعطِنا مع ذلك ما لا عيْنٌ رأت ولا أُذنٌ سمِعَتْ ولا خطرَ على قلْبِ بَشَر ، كما اخبر به رسولُك ﷺ ، حسَبَ مَا علِمْتَه بعِلْمك ، وأغنِنَا بلا سبب ، واجعلْنا سبَب الغِنَى لأوليائك ، وبرْزخاً بينهم وبـــين أعدائك ، انك على كل شيء قـــدير ، اللهم إنا نسألُك ايمانا دائماً ، ونسألك قلباً خاشعاً ، ونسألك علماً نافعاً ، ونسألك يقيناً صادقاً ، ونسألك دِيناً قَيِّماً ، ونسألُك العافيـــةَ من كل بَلِيَّة ، ونسألك تمامَ العافية ونسألك دَوامَ العافية ، ونسألك الشكرَ على العافية ، ونسألك الغِنَى عن الناس ، اللهم انا نسألك التوبة الكامـــلة ، والمغفرة الشاملة ، والمحبَّة الجامعة والخُلَّة الصافيـــة ، والمعرفة الواسعة ، والأنوارَ الساطعة ، والشفاعة القائمة ، والحجة البالغة ، والدرَجة العاليـــة ، وفُك وثَاقنا من المعصية ، ورِهَاننا من النعمة بمواهب المِنَّة ، انك على كلّ شيء قدير ، اللهم انا نسألُك التوبةَ ودوامَها ، ونعوذ بك من المعصية وأسبابها ، وذَكِّرْنا بالخوف منك قبل هجوم خطَراتِها ، واحمِلْنا على النجاة منها ، ومن التفكُّر في طرائقِها ، وامْحُ من قلوبنا حَلاوةَ ما اجتنيناه منهـــا واستبدلها بالكَراهة لها والطَّعْم لِما هُو بضِدِّها ، وأَفِضْ علينا من بحر كرمك وفضلك وجودك وعفوك حتى نخرُجَ من الدنيا على السلامة من وَبالِها ، واجعلْنا عند الموت ناطِقين بالشهادة عالِمين بها ، وارأفْ بنـــا رأفةَ الحبيب بحَبيبه عنـد الشدائد ونُزولها وأرِحْنا من هموم الدنيـــا وغُمومِها بالرَّوْح والرَّيْحان الى الجنة ونعيمها ،

اللهم انا نسألك توبةً سابقةً منك الينا لتكون توبتُنا تابعةً اليك منا ، وهبْ لنا التلقّيَ منك كتلقّي آدمَ منك الكلماتِ ، ليكون قُدْوَةً لِوَلدِه في التوبة والأعمال الصالحات ، وباعِدْ بيننا وبين العِناد والإصرار ، والشّبَه بإبليس رأسِ الغُواة واجعَلْ سَيّئاتِنا سَيّئاتِ مَن أحببتَ ، ولا تجعل حسَناتِنا حسَناتِ من أبغضْتَ ، فالاحسانُ لا ينفع مع البغض منك ، والاساءَةُ لا تضرُّ مع الحب منك ، وقد أبهمتَ الامرَ علينا لِنَرجُوَ ونَخافَ فآمِنْ خوفَنا ولا تُخيِّبْ رجاءَنا ، وأعطِنا سؤْلَنا فقد أعطيْتَنا الايمانَ من قبل أن نسألك ، وكَتبتَ وحببّتَ وزيّنتَ وكرّهتَ وأطلقتَ الألسُنَ بما به ترجَمْتَ ، فنِعْم الربُّ انتَ ، فلك الحمدُ على ما أنعمَت فاغفر لنا ولا تعاقبنا بالسَّلْب بعد العَطاء ، ولا بكُفران النعم وحِرْمان الرّضى ، اللهم رضّنا بقضائك ، وصبّرْنا على طاعتِك ، وعن مَعصيتِك ، وعن الشهوات المُوجبات للنقص والبُعْد عنك ، وهبْ لنا حقيقةَ الايمان بك ، والتوكل عليك ، حتى لا نخافَ غيرك ، ولا نرجُوَ غيرك ، ولا نحبَّ غيرك ، ولا نعبُدَ شيئاً سواك ، وأوزِعْنا شكرَ نَعمائك ، وغطّنا بِرداء عافيتك ، وانصُرنا باليقين والتوكل عليك ، وأَسْفِرْ وُجوهَنا بنُور صِفاتك ، واضحِكْنا وبَشّرْنا يوم القيامة بين أوليائك ، واجعل يَدَك مبسوطةً علينا وعلى أهلينا وأولادِنا ومن مَعنا برحْمتِك ، ولا تَكِلْنا الى أنْفُسِنا طرْفَةَ عين ولا اقلَّ من ذلك ، يا نِعْم المجيب ، يا مَن هُو في عُلوِّه قريب يا ذا الجلال والاكرام ، يا مُحِيطاً بالليالي والأيام ، اشكُو اليك من غمِّ الحجاب ، وسوء الحساب ،

وشدَّة العقَاب وإنَّ ذلك لَواقع ، ما له من دافع ، إن لم ترحَمْني لا اله الا أنت سبحانَك إنِّي كنت من الظالمين ، ولقد شكا اليك يعقوبُ فخلَّصْتَه من حزْنه ، ورددتَ عليه ما ذهب من بصره ، وجمعتَ بينه وبين ولَده ، ولقد ناداك نوحٌ من قبلُ فنجيتَه من كَرْبه ، ولقد ناداك أيوبُ من بعدُ فكشفتَ ما به من ضُرِّه ، ولقد ناداك يُونسُ فنجيْتَه من غمِّه ولقد ناداك زكرياءُ فوهبتَ له ولداً من صُلْبه ، بعد يأس أهــله وكِبرِ سِنّه ، ولقد علِمْتَ مَا نَزل بابراهيم فأنقذْتَه من نار عَدُوّه ، وأنجيتَ لُوطاً وأهلَه من العذاب النَّازِل بقومه ، .. فها أَنا ذا عبدُك إن تُعذِّبْني بجميع ما علِمتَ فأنا حقيق به، وان ترحَمْني كما رَحِمْتَهــم مع عِظَم إجرامي فأنتَ أولى بذلك وأحقُّ من أكرَم بِه ، فليس كرمُك مخصوصاً بمن أطاعك ، وأقبلَ عليــك ، بل هو مبذُولٌ بالسبْق لِمن شئتَ من خلْقِك وان عصاك وأعرضَ عنك ، وليس مِن الكرم أن لا تُحْسِنَ الاَّ لِمن أحْسَن إليك ، وأنتَ الْمفضلُ الغَنِيّ ، بل من الكرم أن تُحسِنَ الى من أساءَ اليك ، وأنت الرحيم العليّ ، كيف وقد أمرتَنا أن نُحسِنَ الى من اساءَ الينا ، فأنتَ اولى بذلك منا ، ربَّنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفرْ لنا وترحَمْنا لَنكُونَنَّ من الخاسرين . يا ألله ، يا ألله ، يا ألله ، يا رحمانُ يا رحيم يا حيُّ يا قيُّوم ، يا مَن هُوَ هُوَ يا هُوَ إن لم نكُنْ لِرحمتِك أهلاً أن ننالَها فرحمتُك أهلٌ أن تنالَنا ، يا ربَّاهُ يا مُغيثَ من عصاه أغِثْنا يا ربُّ يا كريم ، وارحَمْنا يا برُّ يا رحيم ، يا مَن وسِعَ كُرسيُّهُ السماواتِ والأرضَ ولا يؤُودُه حفظُهما وهو العلي العظيم ، أسألُك

الايمانَ بحفظك ، ايمـانا يَسْكُن به قلبي من هَمّ الرزق وخوف الخلق واقرُبْ مني بقُـــدرتِك قُرْباً تمحَقُ به عني كل حجاب محقْتَه عن ابراهِيمَ خَلِيلك، فم يحتجْ لجبريلَ رَسُولك، ولا لسؤاله منك، وحجَبْتَه بذلك عن نار عَدُوه ، وكيف لا يُحجَبُ عن مضَرَّة الأعداء مَن غيَّبْتَه عن منفعَة الأحباء ، كلَّا إنِّي أسألُك أن تغيبني بقُربِك مني حتى لا أرى ولا أَحِسَّ بقرب شيء ولا ببعده عني ، انك على كل شيء قدير ، افحَسِبتُم أنمـــا خلَقْناكُم عَبَثاً وأنكم الينا لا تُرجَعون ، فتَعالى اللهُ المَلِك الحقُّ ، لا اله الا هو ربُّ العرش الكريم ، ومَن يَدْعُ مَع الله إلهاً اخر لا بُرْهانَ له بِه فإنَّمـــا حِسابُه عند ربِّه ، إنَّه لا يُفْلِحُ الكافِرُونَ ، وقُلْ ربِّ اغفِرْ وارْحمْ وأنتَ خيرُ الراحِمين ، هو الحيُّ لا اله الا هو فادعُوه مُخلِصينَ له الدِّينَ ، الحمدُ لله رب العالمين .

صلاة محمد بن سليمان الجزولي

من كتابه دلائل الخيْرات

أفضلُ صلوات الله ، وأحسنُ صلوات الله ، وأجلُّ صلوات الله ، وأجملُ صلوات الله وأكمل صلوات الله، وأسبَغُ صلوات الله، وأتمّ صلوات الله، وأظهر صلوات الله ، وأعظم صلوات الله ، وأذكى صلوات الله وأطيب صلوات الله ، وأبرَك صلوات الله ، وأوفى صلوات الله ، وأسنى صلوات الله ، وأعلى صلوات الله، وأكثر صلوات الله، وأجمع صلوات الله ، وأعمُّ

صلوات الله ، وأدوَمُ صلوات الله ، وأبقى صلوات الله ، وأعزّ صلوات الله ، وأرفع صلوات الله على أفضلِ خلق الله ، وأحسن خلق الله ، وأجلّ خلق الله ، وأكرم خلق الله ، وأجمل خلق الله ، وأكمل خلق الله ، وأتمّ خلق الله ، وأعظم خلق الله عند الله ، رسول الله ، ونبي الله ، وحبيب الله ، وصَفِيّ الله ، ونَجِيّ الله ، وخليل الله ، ووليّ الله ، وأمين الله ، وخِيرَةِ الله مِن خَلْق الله ، ونُخبَةِ الله من بَرِيَّة الله ، وصَفْوَة الله من أنبياء الله ، وعُرْوَة الله ، وعِصْمَة الله ، ونِعْمة الله ، ومفتاح رحمة الله ، المختار من رُسُل الله ، المنتخب من خلق الله ، الفائز بالمَطلَب في المَرْهَب والمَرْغَب المُخْلَص فيا وُهِب ، أكرم مبعوث ، أصدق قائل ، أنجح شافع ، أفضل مشفَّع ، الأمين فيما استُودِع ، الصادق فيا بلَّغ ، الصادع بأمر ربِّهِ ، المُضطَلِع بما حُمِّل ، أقرب رُسل الله الى الله وَسِيلةً وأعظمِهم غداً عند الله منزلة وفضيلة ، وأكرم أنبياء الله الكرام الصفوة على الله ، وأحبهم الى الله ، وأقربِهم زُلْفَى لدَى الله ، وأكرم الخلـق على الله ، وأحظاهم وأرضاهم لدى الله ، وأعلى الناس قدراً ، وأعظمهم مَحَلاًّ ، وأكملهم مَحاسِنَ وفضلاً ، وأفضل الأنبياء درَجةً ، وأكملهم شريعة ، وأشرف الأنبياء نِصاباً ، وأبينِهم خِطاباً ، وأفْضَلِهم مَوْلِداً ومُهاجَراً وعِتْرَةً وأصحاباً وأكرم الناس أرُومةً ، وأشرفهم جُرثُومة ، وخيرهم نَفْساً ، وأطهرهم قلبا ، وأصدقهم قولا ، وأزكاهم فعلا ، وأثبتهم أصلا ، وأوفاهم عهدا ، وأمكنهم مجدا ، وأكرمهم طبعا ، وأحسنهم صُنعا ، وأطيبهم

فرعا ، وأكثرهم طاعة وسمعا ، وأعلاهم مَقاما ، وأحلاهم كلاما ، وأزكاهم سلاما ، وأجلهم قدرا وأعظمهم فخرا ، وأسناهم نُورا ، وأرْفعهم في المَلأ الأعلى ذِكْرا ، وأصدقهم وعدا ، وأكثرهم شكرا ، وأعلاهم أمرا ، وأجملهم صبرا ، وأحسنهم خيرا ، وأقربهم يُسرا ، وأبعدهم مكانا ، وأعظمهم شانا وأثبتهم بُرهانا ، وأرجحهم مِيزانا ، وأولهم ايمـــانا ، وأوضحهم بيانا ، وأفصحهم لسانا ، وأظهرهم سلطانا .

صلاة لابراهيم التازي

وتُعرف بالصلاة التازيّة

اللهم صلّ صلاةً كاملةً وسلم سلاما تاما على محمد نبيٍّ تنحَلُّ به العُقَد ، وتنْفَرِج به الكُرَب ، وتُقضَى به الحوائجُ وتنالُ به الرغائب، وحُسْنُ الخواتم ، ويُسْتَسْقَى الغَمامُ بِوَجْهِه وعلى آله وصَحْبِه ،

تحميدٌ لمحمد مَيّارة

يذكُر فيه هدايةَ الاسلام وجهادَ النبي عليه السلام

الحمد لله مُرشِد هذه الأمة لِما اختار لها من الايمــان والاسلام شِرْعةً ومِنْهاجاً مُعينِ مَن أرادَ به خيرا على فَهْم قواعِدهما وحفظ فرُوعهما حتى امتزَجتْ بلحومهم ودمائهم امتزاجا ، فانتفعوا بمعرفة ضَرُورِيٍّ عِلْم دينِهم ونفعوا من الخلق أفراداً وأزواجا ، نحمَدُه ونشكره على نِعَمه التي

لا نُحصيها وكيفَ يُحصَى البحر سَيَّاحاً والقَطْرُ ثَجَّاجاً[1] ونَستَعينُه ونستغفره لذنوبنـــا التي ارتكبناها انحرافا واعْوِجَاجاً ، ونُؤمِنُ به ونتوكل عليه افتقارا اليه واحتياجا ، ونَبرأُ من الحَوْل والقُوَّة اليـه بَراءَةً نجدُ لها سرورا وابتهاجا ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا التي صَيَّرت حلْوَنا مُرّا وعَذْبَنا أجاجا ، مَن يَهْدِ اللّهُ فلا مُضِلَّ له ومن يَضلِلْ فلن تجدَ لِداء ضلاله عِلاجا ، ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة تُمازِجُ الروحَ والطُّوع مِزاجا ، وتكون لكل خير سُلَّماً ومِعْراجا ، ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محمدا عبـــده ورسوله الذي أطلعه الله في ظلمات الشرك سِرَاجا وأمره بمحاربة أهل الكفر حتى دخلوا في دين الله أفواجا ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الذين حفِظُوا دينَه وأذَاعُوه فصار مصباحا وهّاجا ، صلاة وسلاما نَستَمْطِرُ بهـــما العفوَ استمطارا ونَستَنْتِجُ الغُفران استنتاجا .

صلاة لمحمد بن ناصر

من كتابه الغَنِـيمَة ، (حرف الهمْزة)

اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة تكون لنا مَعاذاً من الشيطان ومَكْلأً ، اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل

---

١ — سياحا أي جاريا والقطر بالفتح المطر ، وثجاجا بالتشديد أي مُنصبا والوصفان منصوبان على الحال .

سيدنا محمد صلاة تغفر لنا بها ما جنيناه عمْداً أو خطأ ، اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة تسدّدنا بها في أمورنا كلها مَعاداً ومَبْدأ ، اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة تجعل لنا بها مَهْيَعاً الى رضوانك مُوَطّأ[1] . اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة تجعل لنا بها عندك قدْراً وخطرا وقُربا وحبا وشرفا ومَغْبَأ[2] ، اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة تجعل لنا بها في الجنة مَقيلاً ومُبوّءاً .

صلاة للمُعطِي بن الصّالح

من كتابه الذّخيرة ، يذكر فيها شرف الاسراء بالنبي ﷺ

اللهم صل وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد سلطان المملكة المتوّج بتاج اليُمْن والبُشرى ، ومحل الخير والبركة ، المبعوث بالرفق والهداية واليُسْرى ، الذي لما أردتَ أن تُشَرِّفَ قدره على ما فوق العرش وتحت الثّرى ، وتُظهر مَزِيَّتَه على أحبائك وأصفيائك دُنيا وأُخرى ، أسْرَيْتَ به الى بِسَاطك لِتُرِيَه ما خَفِيَ عن العقول من أسرار قدرتك ، وباهِر آياتك الكُبرى ، وتطلِعَه على ما رمزتَ له به في دَقائقِ رَقائِق سُورة

١ – المهيع الطريق والموطأ الممهد .
٢ – أي اعتباراً .

الإسراءِ، وتُتحِفَه بكمال القُرْب والاصطفاءِ وتُخْبِرَهُ بأنه أولى بــذلك المقام وأحرى ، وأنه الامام الأعظم والحبيب الأكرم والصفيُّ المؤيد بخطاب «أفتُمارُونَه على ما يَرى» والنبي المُشرَّف بقولك «ولقــد رآه نَزْلةً أُخرى عند سِدْرَةِ المُنتهَى عندها جنةُ المأْوَى إذْ يَغْشَى السِّدْرَة ما يغشَى ما زَاغ البصرُ وما طغَى لقد رأَى من آياتِ ربه الكُبْرَى» فصلِّ اللهم عليه وعلى آله صلاة تشرَح بها صدورنا للذِّكْرَى، وتحفظنا بها من نَكَبات الدهر وَعوارِض العُسْرى ، وتَهُبَّ علينا نَوافِح بَركتِها المحُمَّدية كلَّ حين تَتْرى ، بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين .

تحميد لخالد العُمَري

من خطبة له إثْرَ عَزْل أحد وُلاة الَجوْر بمدينة طنجة عام ١٢٤٣ هـ

الحمد لله الذي كَشف عنا البلايا ودفع عنا المَكارِهَ ونفَى عنا الأسواء، وصرَف عنا بغَيْرته الصَّمدانِيَّة كأساً كنـا نتجرَّعها ولا نكاد نُسيغُها من أيدي أرباب العَسْف والأهواء ، ومال بجيش اليُسْر على جيش العُسْر فانجابت عنا بحمده أحلاك العنَا ، والحمد لله الذي صرف عنـــا الأذى وأذهب رفقاً بنا معشر المسلمين عنا الحزَن ، وكَحَل بيُمناه جفونَنا بعد ما أَلِفت السُّهادَ من أجل الفساد بِمِرْوَدِ الوَسَن ، فاعتظنا ولله مَزيـــدُ الحمد من ليالي النحوس والَخنَى ، ليالي السعود والَهنا ، والحمد لله الذي كبَتَ العدوَّ وجبَر الصدْعَ وغـــيَّر الشيطانَ وقد شابَتْ من مَفْرِقه النَّواصِي واللِّمَم،

وردَّ عز وجل اليدَ العادِيَةَ عنا ، ردَّ الغَيُور يدَ الجـاني عن الحُرَم ، فاستوجب منـا أن نَلْهَج بالحمدِ والشكرِ له على كل حال ، وما كان من حال . بلسان العَجَل لا بلسان الوَنا ، نحمده تعالى ونشكره ، على ما خوَّلنا من سوابغ النعم ، ونستقيله عز جنابه ونستغفره من نَواهِيَ أقيستُها تُنتِجُ فوَادِحَ النِّقم ، حمداً واستغفاراً يحصل بهما للحامِد والمُستغفِر مِثْلُ ما يحصل للمُفْرِدِ والقَارِنِ[1] من التَّكْرِمَة في مِنَى ، ونُومِنُ به ونتوكل عليه ونبَرأُ من الحول والقوة اليه ، توكل من أناب ، وبَراءَة من جنتْ يـداه من غرُوس التكريم ثَمر المُنَى ، ونعوذ به من شرور أنفسنا التي لم يُوقَفْ لها على حساب ، ومن سيئات أعمالنا التي أثبتَتْهـا أقلامُ الكرام الكاتبين في كِتاب ، فانه جل وعلا خيرُ واقٍ يقينا من وَقْع مالها وللهوى من بيضٍ وسِهامٍ وقَنَا ، مَن يَهْدِ اللهُ فلا صارف له عن التشَبُّثِ بأذْيَال الدِّين ، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له ولا ناصر ولا مُعين ، وما التوفيق الا من عند الله والله خلَقَكُم وما تعملون سرّاً وعلَناً .

صلاة للمُختار الكُنْتِي

من كتابه نفْح الطّيب ، ضمّنها عَمُودَ النسب الكريم

اللهم صل وسلم على أشْبَهِ ولَدِ ابراهيم بابراهيم ، المشرَّف بالطَّوَاسِين

---

١ – المفرد هو المحرم بحج ، والقارن هو المحرم بحج وعمرة ، وكلاهما له ثواب جزيل ، ومنى من أماكن الحج المعروفة .

والحَوَامِيمْ[١] اللهم صل وسلم على المُنَبأ من ذُرِّيَة نَابِتٌ[٢] الذي شرَفُه وذكْرُهُ والتَّنْوِيهُ به في جميع الدهور ثَابِت ، اللهم صل وسلم على المختار من ضِئْضِيء[٣] عَدْنان المَحْبُوّ بالسبْع المَثانِي والقُرآن . . الخ .

١ – الطواسين السور القرءانية المفتتحة بطس والحواميمْ السور المفتتحة بحم والأوْلى أن يقال لها آل حم .

٢ – نابت هو ولد اسمعيل عليه السلام .

٣ – بكسر الضادَين أي أصل .

الخُطَب

خُطبة
لطارق بن زياد

قالها في جيشه الذي فتح به الأندلس بعد ان أحرق الأحفان التي حملتهم الى الجبل المسمى باسمه قطعاً لاملهم في الرجوع .

أيها الناس : أينَ المفرّ ؟ البحر من ورائكم والعدوّ أمامكم وليس لكم واللهِ الا الصِّدقُ والصبر . واعلموا انكم في هذه الجزيرة اضيع من الأيتام في مأدُبة اللئام . وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه ، واسلحته واقواته موفورة . وانتم لا وزرَ لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم الا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم . وإن امتدت بكم الايامُ على افتقاركم ولم تنجزوا لكم امراً ، ذهبت ريحكم وتعوّضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم . فادفعوا عن انفسكم خذلان هذه العاقبة من امركم بمناجزةِ هذا الطّاغية ، فقد ألقت به اليكم مدينته الحصينة . وإنّ انتهازَ الفُرْصة فيه لممكنٌ ان سمحتم لانفسكم بالموت وإني لم احذّركم امراً انا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخصُ متاعٍ فيها النفوسُ (من

غير[١] ان) أبدأ بنفسي . واعلموا انكم ان صبرتم على الأشقّ قليلاً استمتعتم بالأرفه الألذّ طويلاً ، فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسي فما حظّكم فيه بأوفى من حظي . وقد بلغكم ما انشأتْ هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان ، الرّافلات في الدُّرّ والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي التّيجان . وقد انتخبكم الوليدُ بنُ عبد الملك اميرُ المؤمنين من الأبطال عُرباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا . ثقةً منه بارتياحكم للطّعان ، واستماحكم بمجالدة الابطال والفرسان ، ليكون حظّه منكم ثوابَ الله على إعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصةً لكم من دونه ومن دون المومنين سواكم . واللهُ تعالى وليُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذِكراً في الدّارين . واعلموا اني اولُ مجيب الى ما دعوتكم اليه وأني عند مُلتقى الجمعين حاملٌ بنفسي على طاغية القوم « لُذريق » فقاتله ان شاء الله تعلى فاحملوا معي فان هلكتُ بعده فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطلٌ عاقل تسندون اموركم اليه وان هلكتُ قبلَ وصولي اليه فاخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بانفسكم عليه واكتفوا لهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون .

١ — هذه الكلمة ليست بالاصول التي وقفنا عليها وبدونها لا ينسجم الكلام وفي رواية اخرى للخطبة ولاحملنكم بالاثبات والتأكيد، ومع ذلك يبقى في الكلام تقطيع.

خطبة إدريس الأزهر

قالها بإثْرِ مُبايَعته وهو ابنُ احدى عشْرةَ سنةً

الحمد لله أحمدُه واستعينُه واستغفرُه واتوكلُ عليه واعوذُ به من شر نفسي ومن شرِّ كل ذي شر ، واشهد ان لا اله الا الله وان محمـــدا عبدُه ورسولُه ارسله الى الثَّقَلَيْن بَشيراً ونـــذيراً وداعياً الى الله بإذْنِه وسِراجاً مُنيراً ﷺ وعلى آلِ بيتـــهِ الطاهرين الذين أذهبَ اللهُ عنهم الرِّجْسَ وطهَّرهم تطهيرا ـ ايها الناس ! إنَّا قد وَلِينَا هـــذا الأمر الذي يُضاعف للمُحسِن فيه الأجر ، وللمُسيِء الوِزْر ، ونحنُ والحمدُ لله على قصدٍ جميل فلا تمدُّوا الاعناقَ الى غيرِنا ، فان ما تطلبونه من اقامة الحق انما تجدونه عندنا .

خطبة اخرى له

لما فرغ من بناء فاس وحضرتْ الجمعةُ الأولى صعِدَ المنبر وخطب الناس ثم قال :

اللهم انك تعلم اني مـا اردتُ ببناء هـذه المـــدينة مُباهاةً ولا مفاخرة ، ولا سُمْعَةً ولا مُكابَرة ، وانما اردتُ ان تُعبدَ فيها ويُتلَى كتابُك وتُقام حدودُك وشرائُع دينك وسنَّةُ نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ما بَقِيَت الدُّنيا . اللهم وفِّقْ سُكَّانها وقُطَّانَهَا للخير وأعنهم عليه ، واكْفِهم مَؤُونةَ اعدائهم ، وأدِرَّ عليهم الرزقَ وأَغْمِـــدْ عنهم سيفَ الفِتْـنَةِ والشِّقاق ، انك على كل شيء قدير .

خطبة لعبدالله بن ياسين

خطبها في شيوخ المرابطين وقد طُعِنَ في حروبه
مع « بَرَغواطة »

يا مَعْشَرَ المرابطين : انكم في بلاد اعدائكم ، واني مَيِّت في يومي هذا لا مَحالة ، فاياكم ان تجبُنُوا وتفشَلُوا فتذْهَب رِيحُكم ، وكونُوا أُلْفَةً وأعوانا على الحق واخواناً في ذات الله تعلى ، واياكم والمُخالفةَ والتحاسُدَ على طلب الرِّياسة فان الله يؤتي مُلكه من يشاء ويَستَخْلِفُ في أَرْضِه من أحبَّ من عباده ، ولقد ذهبتُ عنكم فانظروا من تقدِّمونه مِنكم يقومُ بامركم يَقودُ جيوشكم ويغزو عدوكم ويقسِمُ بينكم فَيْئكُم ويأخذُ زكاتكم وأعشارَكم .

خطبة للقاضي عياض

في الحض على التوكل

عباد الله سلِّمُوا الأمور الى من بيده أزِمَّةُ مقاديرها تنجَحُوا ، واشتَرُوا راحة قلوبكم باخلاص التوكل على الله ترْبَحوا ، واعلموا أن الحِرص لا يزيد المرء على ما قُسِمَ له ، وتصاريف القدر تقطَع لكل أمل أمله ، وانما يدرك الانسان بسعيه ما كُتِب له لا ما طَلب ، ويبلُغ بكَدِّه ما قسم له لا ما أمّل واحتسب فأجمِلُوا رحمكم الله في الطلب [illegible] . وتوكلوا على الله حقَّ توكُّله تُرزَقوا ، وأريحوا أنفسكم من النَّصَب في طلب الدنيا والكَدّ ، فانه لا مانع لما أعطى الله ولا مُعطِيَ لما منع ولا

ينفعُ ذَا الَجدّ منه الَجدّ ، ألاَ وإنّ التوكل على الله والثقة به أحــدُ أبواب الايمان ، ومن أفضل درجات العدل والاحسان ، وهو حقيقةُ العُبودية والتوحيد ، ومُوجِب الرضا والتسليم للرقيب الشهيد ، فقد جرى القلمُ بما كان ويكون ، ونفَذ قضاءُ الله بكل خير وشر وحركة وسكون ، وانقطعت الأطماعُ عن تأميل غير ما تقدَّم من مَشيئَاتِه ، (وتمَّت كلمةُ ربك صدقاً وعدْلاً ، لا مبدّل لكلماته ،) فَفِيمَ التعب والطلب وقــد سبق لك في الكتاب ما سبق ؟ وعلامَ اللَّهفُ والأسف على أمر قــد فُرِغَ منه قبــل أن تُخلق ، ألم يضمَن لك ربُّك رزقَك وما وعَد في سمائه ، ألم يُعلِمْك أنه لا مُعقِّب لحكمه ولا راد لقضائه ؟ فعامِلْ ربَّك أيها العبد بالتوكل والتسليم ، تفُزْ بالعيش الهنيّ والثواب الجسيم .

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنتُ خلفَ النبي ﷺ يوما فقال : يا غلام ! اني أُعلِّمُك كلماتٍ ينفعُك الله بهنّ ، احفظِ الله يحفَظْك، احفظ الله تجِدْه تُجاهَك ، اذا سألتَ فاسأل الله ، واذا استعنتَ فاستعِنْ بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قــد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك، جفَّت الأقــلام وطُويت الصحُّف . إنَّ أحسنَ الحديث وأبلغَ المواعظ كلامُ الله تعالى (ومن يتَّق اللهَ يجعلْ له مَخْرَجاً ويرزُقه من حيث لا يحتَسِب ومن يتوكَّل على الله فهو حَسْبُه) جعَلَني الله

وإيّاكم ممن توكل عليه في كل حالاته ، واتّقاه سبحانه حقّ تُقاتِه ، وغفر لي ولكم ولجميع المسلمين .

خطبة للمهدي بن تومرت

خطبها في شيوخ المَصامِدة عاهداً الى عبد المومن

إن الله سبحانه وله الحمد مَنَّ عليكم ايتُها الطائفة بِتأييده وخصَّكم من بين اهل العصر بحقيقة تَوحِيده ، وقيَّضَ لكم مَن ألفَاكم ضُلّالاً لا تهتدون ، وعُمْياً لا تبصرون ، لا تَعرِفُون معروفاً ولا تُنكِرُون مُنكَراً ، قد فشَتْ فيكم البِدَع واستَهوَتكُم الاباطيل وزَيَّن لكم الشيطان أضالِيلَ وتُرَّهاتٍ أُنزِّهُ لِساني عن النُّطق بها وأرَبأ بلفظي عن ذكرها فهداكم اللهُ بِه بعد الضلالة وبصَّركُم بعد العَمَى ، وجمعَكُم بعد الفُرْقَة وأعزكم بعد الذِّلة ورفَع عنكم سلطان هؤلاء المارِقين وسيُورِثُكم ارَضهم ودِيارَهم . ذلك بما كسَبتْه ايديهم وأَضْمَرتْه قلُوبهم « وما ربُّك بظَلّام للعبيد » فجدِّدُوا لِله سبحانه خالِصَ نياتِكم وأرُوه من الشكر قولاً وفعلاً ما يُزكي به سَعْيَكم ويتقبَّلُ اعمالكم وينشر امرَكم ، واحذَرُوا الفُرقَة واختلافَ الكلمة وشتَاتَ الآراء ، وكُونوا يداً واحدة على عدوكم ، فانكم ان فعلتم ذلك هابَكُم الناس وأسرَعوا الى طاعتكم وكُثر أَتباعُكم وأظهرَ اللهَ الحقَّ على ايديكم ، وإلاَّ تفعَلُوا شمِلَكُمُ الذلُّ وعمَّكم الصَّغار واحتقرَتكم العامَّة فتَخطَّفَتْكم الخاصَّة .

خطبة للقاضي أبي حفص بن عُمَر

يحذّر فيها من مذهب الفلاسفة ويحضُّ على اتباع السنة
وهو متأثرٌ في ذلك ، ولا شكَّ ، بحملة المنصور الموحدي على الفلسفة

إياكم والقدماءَ وما أحدَثوا ، فإنهم عن عقولهم حدّثوا . أتوْا من الافتراء بكل أعجوبَة ،وقلوبُهم عن الأسرار محجوبة ، الانبياءُ ونُورهم ، لا الأغبياءُ وغُرورُهم عنهم يتلقّى وبهم يُدرَكُ السُّول ، (عالِمُ الغَيْب فلا يُظهِرُ على غيبه أحداً إلا من ارْتضى من رَسُول ،) الدينُ عند الله الاسلام ، والعِلْمُ كتابُ الله وسُنَّةُ محمد عليه السلام ، ما ضرَّ من وقف عندهما ، ما جهِلَ بعدَهما ، خيرُ نبيّ في خير أمة (يُزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة ،) دلَّهم من قُرْبٍ عليه ، واختَصر لهم الطريق اليه ، فما ضرَّ تلك النفوسَ الكريمة ، والقلوبَ السليمة ، والألبابَ العظيمة ، ما زُوِيَ[1] عنها من العُلُوم القديمة ، نقَّاهم من الأوْضار والأدناس ، وقال كنتُم خيرَ أمة أُخرِجتْ للنـــاس ، كتابُهم أعظَمُ كتاب أنزِل ، ونبيُّهم أكرم نبي أرسِل ، السيدُ الإمام ، لَبِنَةُ التَّمام ، خيرُ البَرِيَّة على الاطلاق بُعِث لِيُتمِّم مكارِمَ الأخلاق ، أُنزِلَ الكتابُ اليه ، (مصدِّقاً لما بين يَدَيْه مِن الكتاب ومُهيْمِناً عليه) هو الشفاء والرحمة ، وفيه العلم كلُّه والحكمة ، معجِزٌ في وَصفه عزيز في رَصْفِه ، لا يأتيه الباطل من بين يديْه ولا مِن خلْفه ،) آياتُه باهرة قائمة ، ومعجزاته باقيـة دائمة ،

١ — ما نُحّيَ وأُبْعِد .

إذ هي للنبوة والرسالة خاتمة ، لا تنقضي عجائبُه ، ولا تنتهي غرائبه ، ماذا أقول ، وقد بهر العُقول ، حسْبي حسْبي (قُلْ لو كان البحرُ مِداداً لكلمات ربّي لَنَفِدَ البحرُ قبل أن تَنْفَدَ كلماتُ ربي) .

وعليكم من جميع اموركم بمزْج الرأْفة بالغِلْظَة واللِّينِ بالعُنْف واعلموا مع هذا أنه لا يصلُح امرُ آخِرِ هذه الأمة الا على الذي صلَح عليه أمرُ أوَّلِها . وقد اخترنا لكم رُجلاً منكم وجعَلْنَاهُ أميراً عليكم . هذا بعدَ ان بلوْناه في جميع احواله من ليله ونهاره ومدْخَلِه ومَخْرجه ، واختبرنا سريرَته وعلانِيته ، فرأيناه في ذلك كله ثَبْتاً في دينه متبصرا في امره واني لأرجو ان لا يُخلِفَ الظنَّ فيه . وهذا المُشَارُ اليه هو عبدُ المومن فاسمَعُوا له واطيعوا ما دام سامعا مُطِيعاً لربه فان بدَّلَ اوْ نكَصَ على عَقِبه او ارتَاب في امره ففي الموحدين اعزَّهم الله بركةٌ وخيرٌ كثير ، والامر لله يُقَلِّدُه مَن شاء من عِباده .

خطبة للمنصور المريني

كان له باسبانيا غزَوات عظيمة ومن بعض خُطَبه فيها
يحضُّ جيشه على القتال قولُه :

يا مَعْشرَ المسلمين، وعِصَابةَ المُجاهِدين : إن هذا يومٌ عظيم، ومَشْهَد جَسيم ، أَلَا وإنَّ الجنة قد فُتِحتْ لكم ابوابُها ، وزُيِّنَتْ أَتْرابُها ، فخذوا في طِلَابِها ، فإنَّ الله اشتَرى من المومنين انفسَهم وأموالَهم بِأَنَّ لهم الجَنَّة .

فَشَمِّرُوا عن ساعِد الجِدِّ مَعاشِرَ المسلمين ، في جهاد المشركين ، فمَن مَات منكم ماتَ شهيدا ، ومَن عاش عاشَ غانِما مَأْجوراً حميدا ، فاصبِرُوا وصابِروا ورَابِطُوا واتَّقُوا الله لعلَّكُم تُفْلِحُون .

خطبة لابن رُشَيْد

قام ابن رشيد للخطبة يوم الجمعة بعد فراغ المؤذن الثاني
ظنّه الثالثَ فكثُر لغَطُ الناس فقال بديهةً

ايها الناس رحِمَكُم الله : إنَّ الواجِبَ لا يُبطِلُه ٱلمَنْدُوب ، وإنَّ الأذَانَ الذي بعدَ الأوَّل غيرُ مشروعِ الوجوب ، فتأَهَّبُوا لطلَب العلمِ وانتبِهُوا ، وتذكَّروا قول الله تعالى (وَما آتاكُم الرسولُ فخذُوه وما نَهاكم عنه فانتهُوا ،) وقد رَوَيْنَا عنه ﷺ انه قال : مَن قال لِأخيه ، والامامُ يخطُب ، أَنصِتْ فقد لَغَى ، ومَن لَغَى فلا جُمُعةَ له ، جَعلِني اللهُ وإيَّاكم ممن عَلِم فعَمِل ، وعَمِل فقُبِل ، وأخلَص فتَخلَّص .

خطبة وعظِية لأبي مَدْيَن الفاسي

عباد الله : نجَا المخِفُّون فخَفِّفوا الاثقال لِتَلْحَقوا ، وفازَ المتَّقُون فان شِئْتُم الفوزَ فاللهَ فاتَّقوا ، وتَرافَق السعداءُ على الجادَّة فايَّاهم فرافِقوا ، وسابَقَ النُّجباءُ الى العبادة فسارِعوا اليها وسَابِقُوا ، ووَصل المُشمِّرون ، فماذا ينتظرُ المقصِّرون ، « هلْ ينظُرون الا الساعةَ أن تأتِيَهم بَغْتَةً وهم لا

يشعرُون » أخرجَ الأمامُ احمدُ في الزُّهد والحاكِمُ في المُستدرك والبَيْهَقي عن ابن عباس أَن رسول الله ﷺ قال لِرَجل وهو يَعِظُه اغتَنِمْ خَمْساً قبل خَمْسٍ ، شبابَك قبل هَرَمِك ، وصِحَّتَك قبل سَقَمِك ، وغِناك قبل فَقْرك ، وفَراغَك قبل شُغْلِك ، وحَياتك قبلَ مَوتِك . « استجِيبُوا لربكم من قبل أن يَأتِيَ يومٌ لا مَردَّ له من الله ما لَكُم من مَلْجأ يومئذ وما لَكُم من نَكِير » . في الحِلْيَة عن بِلال بن سعيد قال : قال عبد الرحمن : يُقال لأحدِنا أَتُحِبُّ ان تموت ؟ فيقول لا . ويقول سوف اعمل ، فلا يحب ان يموت ولا يعمل ، وأحبُّ شيء اليه ان يؤخّر عمل الله ولا يحب ان يؤخر عملَ الدنيا . « يا أيها الناسُ إنَّ وعْدَ الله حقّ فلا تَغُرَّنَّكم الحياةُ الدنيا ولا يغرَّنكم بالله الغَرُور » ولا تتخيَّلُوا الاقامةَ في دار لا بقاءَ لها ، وتظنُّوا ان مَن جَدَّ على الجادَّةِ كمن تباهى بالباطل ولَها ، كلاَّ ! واللهِ إن ما ولَدْناه فللتُّراب ، وما جمَعْناه فللذهاب ، وما شيَّدناه فللخَراب ، وما اكتسبناه ففي كِتَاب ، وكُلَّ انسان أَلزمناهُ طائِرَه في عُنقِه ونُخْرِجُ له يومَ القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، إقرأْ كتابَك كفى بنفسِك اليومَ عليك حَسِيباً » رَوى الامامُ مُسلِم عن ابي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول العبدُ ، مالي مالي ! وانما له من ماله ثلاث ، ما أكَل فأفنى ، أو لَبِس فأبلى ، او تصدَّقَ فأمضَى ، وما سوى ذلك فهو ذاهبٌ وتارِكه للناس . « كَمْ تركُوا من جنَّات وعُيون وزُروعٍ ومَقامٍ كريم ! كذلك وأورثنَاها قوماً آخرين » رَوى الدَّيْلَمِيُّ عن أنس أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال : أَصْلِحُوا دنياكم واعملوا لآخرتِكم كأنكم تمُوتُون غداً. « يا أيها الذين آمَنُوا اتَّقُوا الله ولْتَنظُرْ نفسٌ ما قدَّمت لِغَدٍ ، واتَّقوا الله ان الله خبير بما تعمَلون » جعلَني الله وايَّاكم ممن قدَّمَ من دنياه لأخراه ، واستجاب لربه من قبل ان يأتي يوم لا مَردَّ له من الله ، وأجارني وايَّاكم من عذابه المُهِين ، وغفر لي ولكم ولوالدينا ولجميع المسلمين .

خطبة في التذكير والترغيب

لأبي عبدالله الرُّهُوني

أيُّها الناسُ ، حَصْحَصَ لكم الحقُّ فتبصَّروا ، وتبَيَّن لكم الرُّشْد من الغيِّ فالْزَموا الطاعَةَ وتذكروا ، وحُمِلْتُم على سُلُوكِ الطريق المستقيم فاسْتَقْدِمُوا ولا تتأخَّروا وحُذِّرْتُم من العُدول عنها فخافوا اللهَ واحذَروا ، وأَسْبِغَتْ عليكم النِّعَمُ ظاهرةً وباطِنةً فاعرِفُوا حقها واشكُروا ، واعلموا ان الله لا يُغَيِّر ما بِقَوْم حتى يُغيِّروا ، وايَّاكم والتقصيرَ في العمل فلن تَسْعَدُوا مع التقصير أو تُعذَروا ، وكُونوا من قوم أشرقَتْ لهم أنوارُ الهداية فأبصَرُوا ، وتُلِيَتْ عليهم آياتُ الله فتدَّبروا ، ولا تكونوا ممن استعْبَدَتْهم الدنيا فشَرِبُوا من كؤوس حبِّها حتى سَكِرُوا ، وقطَعُوا أعمارَهم في اتباع شهواتها فخابُوا وَخسِرُوا ، وانهَجُوا سبيلَ الذين استعَدُّوا لِمواطِن القيامة كأنهم شاهَدُوا أهوالَها وحضَروا ، ورأَوْا عذابَ النار فَكفُّوا أنفُسَهم عن السُّوء وانْزَجروا ، وسمِعُوا ما أعدَّ اللهُ لأوليائه في الجنة فاجتَهَدوُا

بالطاعة وبادروا ، وقد تحققتم يا عبادَ الله أنه ليس بعدَ هذه الدار ، منزلٌ ولا قرار ، سوى الجنّةِ أو النـــار ، فاختاروا لأنفسكم وانظروا ... في الصّحيح عنه عليه الصلاة والسلام أنّه قال : ما مِنكم مِن أحدٍ إلاّ سيُكلّمه ربه ليس بينه وبينه حِجاب ولا تُرْجمان ، فينظرُ أيمنَ مِنه فلا يَرى الا ما قدّم وينظر أشأمَ منه فلا يَرى الا ما قدّم ، وينظر تِلقـــاءَ وجْهِه ، فلا يرى إلّا النار تلقاء وجهه ؛ فاتّقوا النارَ ولو بشِقّ تمْرة فمَنْ لم يجِدْ فبِكلمة طيّبة ، إنّ أحسنَ ما أنتم له سامعون ، كلام مَن نحنُ له عابِدُون (يا أيُّها الذين آمنوا قُوا أنفسَكم وأهليكم ناراً وَقودُها الناسُ والحِجارةُ عليْها ملائِكةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يعْصُون الله مـــا أمرَهم ويفعلون ما يُؤمَرُون) .

خطبة للسلطان مولاي سليمان العلوي

في التحذير من بِدَع المواسِم والطوائف الضّالّة

أما بعدُ أيها الناس ، شرَح اللهُ لقبول النصيحة صدورَكم ، وأصلح بعنايته أموركم ، واستعْمل فيما يُرضيه آمِرَكم ومأمورَكم ، فان الله قـــد استرعانا جماعتكم وأوجب لنا طاعتَكم ، وحذّرنا إضاعتَكم ، ولهـــذا نرْثِي لغفلتكم وعَدمِ إحساسِكم ، ونغارُ من استيلاء الشيطان بالبدع على أنواعكم وأجناسِكم . فألْقوا لأمر الله آذانَكم ، وأيقظوا من نَوْم الغفلة أجفانَكم ، وطهِّروا من دَنس البدع إيمانكم ، وأخلِصوا لله سرّكم وإعلانَكم ، واعلموا أن الله أوضحَ لكم طريق السنة لتسلُكوها ، وصرّح

بذم اللهو والشهوات لتملِكُوها ، فامتَثِلُوا أمرَه في ذلك وأطيعُـوه ، واعرفوا فضله عليكم وعُوه ، واتركوا عنكم بدعةَ هذه المواسم التي أنتم بها مُتَلَبِّسُون ، والضلالَة التي يُزَيِّنُهَا أهلُ الأهواء ويَلْبِسُون[١] ، افْتَرقُوا أوْزَاعاً[٢] ، وانتَزعُوا الأموال انتزاعاً وأنفقوها فيما هو حرام كتاباً وسنةً وإجماعا ، وصارُوا يترقَّبُون لِلَهْوِهم الساعات وتتزاحَمُ على حِبال الشيطان وعِصِيِّه[٣] منهم الجماعات ، وكلُّ ذلك حرام ممنوع ، والإنفاقُ فيه انفاق في غير مشروع ، فأنْشُدكُم اللهَ عبادَ الله هل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمِّه سيدِ الشهداء مَوْسِماً . ؟ وهل فعل سيدُ هـذه الأمة أبو بكر لسيد الأنبياء ﷺ مَوْسِماً . ؟ وهل تصدَّى لذلك أحدٌ من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين ؟ ثم أَنشُدكُم اللهَ هل زُخْرِفَت على عهد رسول الله المساجد ؟ أوزُوِّقت أضرِحةُ الصحابة والتابعين الأماجد؟ كأنِّي بكم تقولون في نحو هذه المواسم وزخرفة أضرحة الصالحين وغير ذلك من أنواع الابتداع: حسْبُنا الاقتداءُ والاتباع ، (إنَّا وجدْنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون (وهذه المقالةُ قالَها الجاحدون ، وقد ردَّ الله مقالَهم ، ووبَّخَهم وما أقالهم ، والعاقلُ من اقتدى بالسلَفِ المهتدين ، أهل الصلاح والدين، (خيْرُ القرون قَرْني ثم الذين يَلُونَهم ، ثمّ الذين يلونهم .) كما في الحديث ، وبِالضَّرورة إنه لن يأتِي آخرُ هذه الأمة بأهْدَى مما كان عليه أوَّلُها ، فقد قُبِضَ رسول

١ – أي يخلطون . ٢ – أي فرقا وهو جمع لا مفرد له .
٣ – يعني وسائله التي يستهويهم بها .

الله ﷺ وعَقْدُ الدين قد سُجِّل ، ووَعْدُ الله بإكْمالِه قد عُجِّل ؛ (اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممْتُ عليكم نعمتي ورَضِيتُ لكم الاسلامَ دِيناً)

قال عمر بنُ الخطاب رضي الله عنه على مِنْبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحضرة الصحابة رضي الله عنهم : أيها الناس قد سُنَّت لكم السُّنَن وفُرِضَت لكم الفرائض ، وتُرِكْتُم على الجادَّة ، فلا تَميلُوا بالناس يميناً ولا شِمالاً ، أَلا وإنَّه ليس في دين الله ، ولا فيما شَرع نبيُّ الله ، أن يُتقرَّبَ بغِناءٍ ولا شَطْح ، في فَرَحٍ أو قَرْح ، والذكرُ الذي أمر اللهُ به وحثَّ عليه ومدَح الذاكرين به هو على الوجه الذي كان يفعله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن على طريق الجمع ورفْعِ الأصوات على لسان واحد ، فهذه سنة السلَف ، وطريقةُ صالِحي الخلف ، فمن قال بغير قولهم فلا يُستمَع ، ومن سَلك غير سبيلهم فلا يُتَّبَع ، (ومَن يُشاقِق الرسولَ من بعد ما تبيَّن له الهدى ويَتَّبِعْ غَيْرَ سبيل المومنين نُوَلِّه ما تَولَّى ونُصْلِه جهَنَّم وساءَتْ مَصيراً) فما لكُم يا عبادَ الله ولِهذه البدع ؟ أأَمْناً من مَكْر الله ؟ أم تَلْبيساً على عباد الله ؟ أم مُنابَذَةً لِمن النَّواصي بيديه ؟ أم اغتراراً بمن الرجوع اليه ؟ فتُوبوا واعتبِروا ، وغيِّرُوا المناكر واستغفِروا ، فقد أخذ الله بذنب المُتْرَفِين مَن دُونَهم ، وعاقَب الجمهورَ لمَّا أَغْضَوْا عن المنكر عيونَهم ، وساءَت بالغفلة عن الله عُقْبَى الجميع ما بين العاصي والمُداهِن والمطيع ، ومَن أراد منكم التقرُّب بصدقة ، أو وُفِّق لمعروف من اطعام أو نفقة ، فعلى مَن ذكر الله في كتابه ، ووَعد فيهم بجزيل ثوابه ، كذَوِي

الضرورة غير الخافية ، والمَرْضى الذين لستم باولى منهم بالعافية ، ولا يتقرَّب الى مالِك النَّواصي ، بالبدع والمعاصي ، بل بما يتقرَّب به الأولياء الصالحون ، والاتقياء المُفلِحون ، أكْلِ الحلال ، وقيام الليال ، ومُجاهدَةِ النفس في حفظ الأحوال ، بالأقوال والأفعال ، البَطن وما حَوى ، والرأس وما وَعى ، وآياتٍ تُتلَى ، وسلوكِ الطريقة المُثْلى ، وحجّ وجهاد ، ورعايةِ السنة في المواسم والأعياد ، ونصيحةٍ تُهدَى ، وأمانةٍ تُؤَدَّى وصلاةٍ وصيام ، واجتنابِ مواقع الآثام ، (وأنَّ هذا صراطي مُستقيماً فاتَّبِعُوه ، ولا تتَّبعوا السُّبُلَ فتفرّق بكم عن سبيله) الصراطُ المستقيم كتابُ الله ، وسنةُ رسوله صلى الله عليه وسلم وليس الصراطُ المستقيم كثرةَ الرايات ، والاجتماعَ لِلْبيَات ، وحضُور النساء والأحداث وتغيير الأحكام الشرعية بالبِدع والإحداث ، والتصفيقَ والرقص ، وغيرَ ذلك من أوصاف الرذائل والنقص ، (أفمن زُيِّن له سُوءُ عَملِه فرآه حسَناً) في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : يُجاءُ بالرجل يوم القيامة وبين يديه راية يحمِلُها ، وأناسٌ يتبعونه فيُسأَلُ عنهم ويسأَلُون عنه (إذْ تَبرَّأَ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبَعُوا ورأَوُا العذاب وتقطَّعت بهم الأسباب) فاياكم عبادَ الله ثم ايَّاكم وَهذِه البِدَع ، فانها تترُكُ مَرَاسِم الدين خالِيةً خاوية ، والعُكُوفُ على المناكر يُحِيلُ رياضَ الشرائع ذابِلةً ذاوية ، ومن المنقول عن كل المِلَل ، والمشهور في الاواخر والأوَل ، أنَّ المناكر والبدع اذا فشَتْ في قوم أحاط بهم سُوءُ كسبِهم ، وأظلم ما بينهم وبين ربِّهم ، وانقطعت عنهم الرَّحمات

ووقعت فيهم المَثُلات، وشحَّت السماء، وغِيضَ الماء، واستولت الأعداء، وانتشر الداء، وجفَّت الضروع، ونقصت بَرَكَةُ الزروع، لأن سُوء الأدب مع الله يفتح أبواب الشدائد، ويسُدُّ طرُقَ الفوائـد، والأدبُ مع الله ثلاثة: حفظُ الحرمة بالاستسلام والاتباع، ورعايةُ السنة من غير اخلال ولا ابتداع، ومُراقبَـةُ الله في الضِّيق والاتساع لا ما يفعله هؤلاء المُتَسَمُّون بالفُقراء، وكلٌّ ذلك كذبٌ على الله وافـتراء. عن العِرْبَاض بن سَارِيَة رضي الله عنه قال وعظَنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم موعظةً ذرَفتْ منها العُيون ووجِلَتْ منها القلوب فقُلنـا يا رسول الله كأنَّها موعظةُ مودِّع فاعْهَدْ الينا قال أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، فانه مَن يعِشْ بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المَهديِّين من بعدي، عضُّوا عليها بالنَّواجِد، وإياكم ومُحدَثاتِ الامور فان كلَّ مُحدَثَةٍ بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وها نحن عبـادَ الله أَرشدناكم، وحذَّرناكم وأنذرناكم فمَن ذهب بعـدُ لهذه المواسِم، أو أحدثَ بدعةً في شريعة أبي القاسِم، فقد سعى في هـلاك نفسِه، وجرَّ الوَبالَ عليه وعلى أبناء جنسه، وتلَّهُ الشيطانُ للجبين[1]، وخَسِرَ الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين (فلْيَحْذَرِ الذين يُخالِفُون عن أمره أن تُصيبَهم فتنةٌ أو يُصِيبَهم عذابٌ أليم).

---

١ — أي أوقعه على وجهه.

خطبة وعظية للعربي الزرهوني

على حسب أطوار الانسان وسنيه

عبادَ الله ! ان الله تبارك وتعلى ، كتَب علينا الانتقالَ من هذه الدار، وأمرَنا بالنظر فيها والاعتبار ، والتزودِ منها لدار القرار ، وخالفَ بمقتضى حِكمتِه بين مقادير الاعمار ، فمِن معجَّل تختَرِمُه المنيَّةُ في ريعان شبابه ، وعنفوان عمُره ولُبابه ، ومن موَجَّل يُنسَأ له في أجلِه ، حتى يستوفِيَ ما كُتِب له من رزقه وعَمله ، فالعبدُ لا يدري متى يأتيه حِمامُه ، وتنقضِي بوفاته أيامه ، فما أحقَّه واولاده أن يَعمُر اوقاتَه بطاعة مولاه ، الذي خلَقه وسوّاه ، ليكون يوم لُقياه من الفائزين . فيا مَن بلغ سِنَّ الاحتلام، وحُطَّت عنه الأقلام ، وتُعبِّد بشرائع الاسلام ، خُذْ نفسك بالاجتهاد في الطاعة ، ولا تطلُب الربحَ بغير بضاعة ، ولا تفتَتِحْ عمُرَك بالتفريط والاضاعة ، فتكونَ من الجاهلين . ويا مَن بلَغ العشرين ، لا تطمَئِنَّ الى ما بَقِيَ من السنين ، ولا تغتَرِرْ برَوْنَق شبابك ، فانك لا تدري متى يقف المَنونُ ببَابك ، وتُفرَدُ من بين اصحابك واحبابك ، ويُذهَبُ بك في الذاهبين . ويا من بلغ الثلاثين راجِعْ نفسَك عن هواها ، فقد كمُل شبَابُها واستحكمت قُواها ، فأنفِق جديدَ عمرك في الطاعة ولاترْكَن الى سِواها، وهَبْ انه قد بقي من عمرك مثلُ ما مضى ، فهل تجدُ لِما فرَّطت فيه من صالح العمل عِوَضا ؟ فَفكِّر في امر نفسك وكن لها من الناصحين . ويا من بلغ الاربعين ذهب عنك مُعظَمُ الايام ، وشرَعتَ في النقصان بعد

التمام ، فاخلِصْ الى ربك المَتاب ، وقُلْ كما جــاء في الكتاب : « ربِّ أوْزِعْنيَ ان اشكُر نعمتَك التي انعمتَ عليَّ وعلى والِدَيَّ وأن أعملَ صالحاً ترضاه وأدخِلْني برحمتك في عبادك الصالحين » ويا من بلغ الخمسين ذهب اكثرُ عمرك وأطيبُه ، وبقي أقلُّه وأتعبُه ، وبدت في رأسك طلائعُ المَشيب ، واوشكت شمْسُ عمْرك أن تَغيب ، فهل لك ان تُقلِعَ وتُنيب ؟ وتَسمع وتُجيب ؟ فما أقْبحَ العصيانَ بعد المشيب ، وان كان مُستقْبحاً في كل حين . ويا من بلَغ الستّين بلغتَ العُمرَ الذي أعــذر الله فيه الى العباد ، وعزمتَ على السفَر البعيد فأيْنَ الزّاد ؟ فــتزوَّد التقوى ان الله يحب المتقين . ويا من بلَغ السبعين لِمُقْتَرِبِ الآجال فيــك دلائل ، فاغتَنِمْ ما بقي من ايام عمرِك القلائل ، قبل ان تنتقِلَ الى دار البقاء ولم تَحصُل من صالح الاعمال على طائل ، فتُصْبِحَ من النادمين . ويا من بلغ الثمانين عِشْتَ ما قـد كفاك ، وكلَّت جوارِحُــك وضعُفتْ قُوَاك ، وأبغَضك من كان يحبك ويهواك ، وذهب عنك حُلْوُ العيش وبقي المرُّ فتأهَّبْ للرحيل ، وتهيَّأْ للسفَر الطويل ، واعلم انك عما قريب من الراحلين . ويا من بلغ التسعين وقفْتَ على ثَنيَّة الوداع ، وأشرَفْتَ على اللَّحاق بمن فقدتَ والاجتماع ، فانك وان كنت في الأحياء معدودٌ في الميِّتين . ويا من بلغ المِائة ، وما أظنُّه في هذه الفِئَة ، بلغتَ الغـايَة القُصْوَى من السنين ، وما بعد المائة من بقاء فلا تكن من المغرورين . ويا من غدت سنُّه بين هذه الحدود المحدودة ، والاعداد المعدودة ، إعمَلْ على شاكِلَة

الرحيل ، وتزود للسفر الطويل ، وإياك والتَّسْويفَ والتعليل ، خشيةَ ان يأتيك الموت عما قليل ، فتمُوت وانتَ من المفرطين . خطب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال : ايها الناس ! كأنَّ الموتَ في الدنيا على غيرِنا كُتِبَ ، وكأَنَّ الحقَّ فيها على غيرنا وَجب ، وكأن ما نُشَيِّعُه من الاموات سَفْرٌ عمَّا قليلٍ الينا راجعون نُبوِّئُهم أَجداثَهم ، ونأكُل تُراثَهم ، كأنَّا مُخلدُّون بعدهم . يا أيها الناس اتَّقوا ربَّكم واخْشَوْا يومًا لا يَجزِي والدٌ عن ولَدِه ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً ، إنَّ وعدَ الله حق ، فلا تغرَّنكم الحياةُ الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » اللهم اكْتُبنا في دِيوان من ختَمْتَ لهم بالحُسْنى ، وتمَّمْت لهم الفـــوزَ بالرضوان في المقَرِّ الأسْنى ، ووفِّقنا اللهم لطاعتك ، وأعِنَّا على ذكرك وحسن عبادتك ، انك جواد كريم ، رؤوف رحيم .

المُناظَرات

أ- في الدّين

مناظرة ابي عمران الفاسي لفقهاء القيروان

قال عبد الجليل بن ابي بكر الدِّيباجي : جرَتْ عندنا بالقيروان مسألةُ الكفار هل يعرِفُون الله تعلى أَوْلا ؟ فوقَع فيها اختلاف كثير وتَنازُعٌ بين العلماء . وكان اكثرَ من يعتني بها رجلٌ مُؤَذِّنٌ يركَبُ حِمارَةً ثم يذهب من واحد الى آخر ولا يترُك مُتكلِّماً ولا فَقيهاً إلاَّ ويُناظِرُه في هذه المسألة وعظُمتْ حتى كثُر الجِدالُ بها في الاسواق .

ثم أتوْا ابا عمران الفاسي فقال ما بالُكم ؟ قالوا اصلحك الله انت تعلم ان العامَّة اذا حدثَ بها حادث يفزَعُون الى علمائهم ، وانت تعلم ما جرى في هذه المسألة . فقال ابو عمران ان انتم انصفتُم واحسنتُم الاستماعَ اجبتكم . فقالوا نعم . فقال لا يُكلِّمُني الا واحدٌ منكم . فقصَده ذلك الواحد فقال أَرأيتَ لو انك لَقِيتَ رجلاً وقلتَ له هل تعرفُ ابا عمران الفاسي فقال لك اعرِفُه فقلتَ صِفْه لي فقال هو رجل يبيعُ البَقْلَ والحِنْطَة والزَّيت في سُوقِ ابنِ هشام ويسكُنُ البَصْرَة أكانَ يعرِفُني ؟ قال لا . ثم قال له فلو لَقِيتَ آخرَ وسألتَه عني فقال لك نعم اعرفه . فقلت صفه لي فقال هو

رجل يُدرِّسُ العلمَ ويُفتِي الناسَ ويسكُن بقُرْب السِّمَاط أكانَ يعرفني؟ قال نعم . قال له والاولُ ما كان يعرفُني؟ قال لا ، قال: فكذلك الكافِر الذي يقول إن للمعبود صاحبةً وولداً وإنه جسمٌ من الاجسام ، فانفصَلُوا عن رأيه.

مُناظرة الخرُّوبي واليَسيتَني والهبْطي

وما عقَّب به اليُوسِي عليها

كتب ابو عبد الله الخرُّوبي الطرابُلْسِي رسالةً الى اهل فاس يتكلم فيها على القواعد الخمس فجاء فيها قولُه اثناءَ الكلام على القاعدة الاولى وهي لا اله الا الله : « ومن الادب ان لا يتناول نفيُكَ عند النطق بحرف النفي الا ما ادَّعاه المشركون من الآلهة سوى الله تعلى ولْيَكُن الحقُ جلَّ جلالُه ثابتاً عندك في حالة النفي والاثبات . والى هذا اشار بعضُ العلماء حيث قال : النَّفْيُ لِما يستحيل كَوْنُه والاثباتُ لما يستحيل عدَمُه ، فنقِمَ الناسُ عليه هذه العبارةَ لِما يلزم عليها من الكذب في الخبر الالهي . وكان اليَسيتَني مفتي الحضرة يومئذ فكتب عليه يقول : ان ذلك لا يصح من أوجه ، الاول انه يخالف ما اتفق عليه النُّحاة والمتكلمون من ان الاله المراد به الجنس والحقيقة ولا يبنى مع لا إلّا اذا كان كذلك فهو كُلِّيّ ولا شيء مما ادعاه المشركون بِكُلِّي ، اذ ما يدْعونه ويُعبدُونه جزئيات خارجية مُتشَخِّصة ، الثاني انه لو كان كذلك لكان الاستثناء منقطعا ولا قائِلَ به والاصلُ في الاستثناء الاتصال . الثالث انه ليس فيما ادعاه

كبيرُ ادب بل الادب ان يكون النفي شاملا لوجود كل إلهٍ يُقدَّ سوى الحق سبحانه على ما قاله النحاة او للمَاهِية لا بِقَيْدٍ على ما قاله المتكلمون كما هو معروف في بحثهم مع النحاة حيث يُقيِّدون بالوجود . الرابع ان في كلامه تناقُضاً حيث نقَل عن بعض العلمــاء ان النفي لمن يستحيل كَوْنُه والاثباتَ لمن يستحيل عدَمُه فان من يستحيلُ كونُه مفهومُه كلِّي لا يُحصَر فيما ادعاه المشركون فان سُلِّمَ هذا الكلام لزِمَه التنــاقض . وما قاله هذا العالم هو الحقُّ الذي لا شك فيه » وقد اعترض الهَبْطِي كلامَهُما معاً فقال في بيان وجه الموَاخذة على الخرُّوبي : إنه سلَّط النفي على ما ادَّعاه المشركون ، وما ادعاه المشركون ثابتٌ موجود لا يتنــاولُه النفيُ بالكُلِّية . وقال في وجه الموَاخذة على اليَسيثَني مُخاطِباً له : انكم تعقَّبْتم على الخروبي قصْرَ النفي على ما ادعـاه المشركون فقط حتى إنه لو ادخله في جنس الالاه لِيَعُمَّ لكان مُسلَّما عنــدكم . والحقُّان جِنسَ الاله المعبود بحق ، غيرُ جنس الاله المعبود بالباطل . اذ كل واحد مُمَيَّز بِحدِّه مُحتوٍ على أفراده .

ولما قال الهبطي ما ذُكِرَ ردَّ عليه اليَسيثَني وشنَّع عليه الناس تشنيعا عظيما في قوله إن معبودات الكفار لا دَخلَ لها في النفي ثم وصلت المسألة الى السلطان وهو محمد الشيخ السعدي فبعث الى الهبطي وعقَــد بفاس مجلساً للمناظرة لكنَّ الهبطي لم يشأ ان يدخُل فيهــا فانفصلُوا على غير طائل ولم تزل المسألةُ مثَار نِزَاع شديد بين الطلبة والمؤلفين في التوحيــد

حتى تادت الى العصر العلَوي فتصدَّى لها ابو علي اليوسي وبسطَها بما لا مزيدَ عليه من البيان في كتابه القيم « مَنَاهِج الخَلاص من كلمة الإخلاص » . ونحن نقتَضِبُ من كلامه جُمَلًا نُقرِّر بها معنى ما تقدم ، فانه قال بعد هذا الكلام : واذ قد تعرَّضنا لكلام هؤلاء الائِمَّة فلا بد ان نتصفَّحه بعض التصفُّح ونشير الى ما عند كل واحد في كلامه مما لا بد من الاشارة اليه والتنبيه عليه مُعْطِياً إن شاء الله كلَّ ذي حق حقَّه ، ومُعطِياً ايضاً الحقَّ حقه ، فان لحُوَم العلماء مَسْمُومَة ، والصَّدْع بالحق سُنَّة معلومة . ثم قال :

أما كلام الخروبي فَمَوضِعُ الاعتراض منه هو قوله ان النفي لا يتناول الا ما ادَّعاه المشركون من آلهةٍ سوى الله تعالى فانه يظهر انه اراد الآلهة الخارِجيَّة عند المشركين من حجَر وشَجَر وفلَكَ ونحوِ ذلك فاعترَض عليه اليسيثني بان هذه الخارجية جزئياتٌ ومدخولٌ لا يجِبُ ان يكون كلِّياً إلى آخر كلامه . واعترَضَ عليه الهبطي بان تلك الآلهة الخارجيَّة موجودةٌ فلم يصحَّ نفيُها فان نفيَ الموجود كذِب . وهذا مَبنيٌّ على ان المراد من قوله ما ادعاه المشركون مَصْدُوقُه الخارِجي وليس هذا بواجب أن يُراد ، ولا بد ان تعلم انه من الاشياء الضرورية ان كل لفظ واقع على كلِّي كالانسان والفَرس والشجر ونحو ذلك لا بد له من اعتبارَيْن احدُهما مَفْهومُه وهو ما يتصوَّرُ منه كالحيوان الناطق من الانسان والحيوان الصاهل من الفرس مثلا الثاني مَصدُوقُه وهو ما يقع عليه من الأفراد باعتبار وجود معناه فيه كزيد وعمرو وزينبَ وهندٍ للانسان ، فأما

الأول وهو المفهوم فهو كلي ابداً في نحو هذا وهو مُتَصوَّر في الذهن سواء كان له وجود في الخارج أم لا . وأما الثاني وهو المصدوق فقد يُوجَد للكلي منه واحِدٌ وقد يوجد كثير وقد لا يُوجَد شيء اصلاً كالشريك وبَحْرٍ من زِئْبق .

اذا تقرَّر هذا فنقول قول الخروبي ما ادعاه المشركون يحتمل ان يريد به مَصدُوقه الخارجي كالشجر والحجر وهذا موضع الاعتراض ويحتمل ان يريد به مَفهُومَه وهو مفهوم الشريك الكلي او الشركاء فان المشركين على اختلاف نِحَلِهم وتَبايُن مِلَلِهم من وَثني وفَلكي وثَنوي ومُثَلِّث وغيرِ هؤلاء متفقون على امر واحد هو القَدرُ المشترك بينهم وهو تجويز ان يكون مع الله جلَّ اسمُه وتعالَتْ كلِمَتُه مَن يُشارِكه في استحقاق العبادة ثم لم يقتصروا على هذا التجويز بل حكَمُوا بوجود ذلك غيرَ انهم اختلفوا بعد ذلك فمنهم من يُثْبِتُ شريكا واحداً هو فاعل الشر كالثَّنَوِي ، ومنهم من يُثبت اثنين كالنَّصْرَاني المُثلِّث . وهؤلاء غُلاةُ المشركين القائلون بالشَّركة في الالوهية الحقيقية . ومنهم مَن لا تنْضَبِط حالُه بل يثبت ما اتفق له مما قام له عليه داع الى الشرِكة وباعثٌ الى العبادة كغيرهم من الوَثنيين والفلَكيين ونحوهم فقد اجتمعوا على اثبات الشريكِ المستحِقّ العبادةَ في الجُملة . وهذ مفهوم كلي من غير التِفات الى مَصْدُوقَاتِه الخارجية في زعمهم . ولا شك ان هذا المفهوم الكلي قد ادَّعوه كلُّهم ولا اشكال انه هو المنفي في الكلمة المشرفة فيجب ان يكون هو

المعنى في قول ما ادعاه المشركون فلا يبقى على الخروبي اعتراضٌ لا مِن قِبَلِ اليسيثني لان هذا كلي لاجزئيّ ولا مِن قِبَلِ الهبطي لان هذا مَنْفيّ ليس بموجود ولا يصحُّ وجودُه . ثم قال :

وقولُ المعترِض إن في كلام الخروبي تناقضاً حيث اتى بكلام ذلك العالم فان مَن يستحِيلُ كونُه مفهومه كلي الى آخره يُقال لهذا المعترض مَن يستحِيلُ كونه مفهومه كلي وله مصدوق جزئي وهو معبودُ الكافر بِحَسب وصْفه المدَّعى باطِلا فانَّ كونَه مستحقا لأن يُعبَد مستحيل وهكذا كلام الخروبي له مفهوم كلي ومصدوق جزئي فلِمَ غلَّبْتَ في كلام هذا العالم رعايةَ المفهوم حتى صحَّ كلامُه وفي كلام الخروبي رعايةَ المصدوق حتى بطَل كلامُه ؟ » ثم قال :

واما كلام اليسيثني فمَوْقِعُ الاعتراض منه قولُه ليس فيما ادعاه ، يعني الخروبي ، كبيرُ ادب بل الادب ان يكون النفي شاملا لكل اله يُقدَّر سوى الحق سبحانه الخ فالظاهرُ منه انه يقول ينبغي للخروبي ان لا يقتصِرَ بالنفي على ما ادَّعاه المشركون من الآلهة الباطلة بل يجعل النفي مُتَوجِّها اليها والى غيرها من كل ما يُقدَّر سوى الله تعالى ، ومَبْنَى الاعتراض عليه أنه اراد ان يضم ما وقع عند الخروبي من الجزئيات الخارجية الى كل ما يُقدَّر ليَعُمَّ النفي فيقعُ الاعتراضُ من جهتين . احداهما ان تلك الجزئيات الخارجية موجودةٌ فلا يصح نفيها . الثانية ان في هذا تهافتاً لانه قال اولا في اعتراضه على الخروبي ان الجزئيات لا يصح

ان تكون مدخولة للا ، لان مدخول لا انما يكون جنساً كليا فكيف استباح هنا ان تدخل هي وغيرُها ؟ ولا يُصَيِّرُها انضمامُ غيرها اليها كليةً بعد اذ كانت جزئية . والجواب عن اليسيثني انه ما أراد إدخال المعبودات الجزئية في النفي من حيث هي كذلك وانما مراده ان الادب هو الخروج عن هذا المسْلَك وتَرْكُ الالتفات الى ذوات المعبودات الخارجية وذلك بان يُجعَل النفيُ مُتَسَلِّطاً على كل إلهٍ يُقدَّرُ في الذهن مستحقاً للعبادة غير مولانا جلّ وعزّ كما صرَّح به من غير التفاتٍ الى ما ادُّعِيَ في الخارج وما لم يُدَّع . ثم قال :

وأما كلام الهبطي فمَوْقِعُ الاعتراض منه هو قولُه إن معبودات الكفار لا دَخلَ لها في النفي ، فان القول بذلك يقتضي انها مُسلَّمة متروكة لم يُتعرَّض لابطالها وان الكفار لم يقع الردُّ عليهم فهم مُقرُّون على عبادتها واعتقادِ أُلوهِيَّتِهَا مع ان مدلول هذه الكلمة من ابطال كل إلهٍ سوى الله تعالى واثباتِ الألوهية لله تعالى مما عُلِمَ من الدين ضرورةً . ومَحْمِلُ كلامه عندنا وجهان . احدهما انها من حيثُ ذواتُها اي الحجَر والشجَر والفلَك والنار وغيرُ ذلك لا تُنفَى ، وهذا لا اشكال فيه ويوافق الخصومُ عليه اذ لا إشكال ان الأجرام وكذا الأعراض لا دَخلَ لها في مُستَحِقِّ العبادة المنفي في كلمة الاخلاص . الثاني انها من حيث وصفُها أي كونها آلهةً باطِلةً لا تستحق ان تُعبد ولا ان يُتقرَّب اليها ولا بها لا تُنفَى ايضا . وهذا ايضا صحيح لا شك فيه لان هذا الوصف اعني كونَها آلهةً باطلة لا

تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع موجودٌ لها قائم بها كما هو موجود في اذهان الموحّدين العارفين فلم يَصِحَّ تسلُّطُ النفي عليه من جهتين . احداهما انه موجود وكما لا يصح نفيُ الذوات الموجودة كذات الصنم لا يصح نفي وصفِه الموجود له ككونه معبوداً بغير حق وفتنةً ومَضَلَّةً ووبالا . الثانية ان المنفي في كلمة الاخلاص هو المُثْبَتُ بإلّا لما بعدها فلو كان المنفيُّ هو الالوهيةُ الباطلةُ الموجودة في الخارج لكان ذلك هو المثبَتُ لله تعالى عن ذلك علوا كبيرا ، ولمّا عُلِمَ عِلْمَ اليقين أن المُثْبَتَ لله تعالى انما هو الالوهية الحقِّيَّةُ ، عُلِمَ أنها هي المنفية عن غيْرِه لا الباطلة .

ب - في الأدب

مناظرة مالك بن المُرَحَّل

لابن ابي الربيع النحوي ، في كان ماذا

وقعت هذه اللفظة في شعر مالك بن المرحل فانكرها ابن ابي الربيع وقال : الصواب ماذا كان ، فقال مالك :

عابَ قومٌ كان ماذا ليتَ شِعْرِي لِمَ هذَا

واذا عابوه جهلا دُونَ علم كان ماذا ؟

وكثُر النزاع بينهما وألَّف كل منهما في المسألة مُنتصِراً لرأيه . وكان الذي ألّفه مالك كتابا سماه الرَّمْيَ بالحصَى والضربَ بالعصا وجزّأه ثلاثةَ اجزاء . ولم نقف على شيء مما كتب ابنُ ابي الربيع . ودُونَك

فصلا مما كتبه ابنُ المرحل فيما يشهد لاثْباتِ كان ماذا من الجزء الاول مع اختصارٍ وتصرُّف في بعض الالفاظ لمزيد الايضاح :

ايها القائل :

كان ماذا لَيْتَها عدَمُ　　　جنَّبُوها قُرْبُها نَدم

ليتَني يا مالِ ، لم أَرَها　　　إنهـا كالنار تضطرم

يقول لك مالك : لا بد لك ان تُصبِح من تحتِ طبقٍ على طبَقٍ نيران : كان ماذا ؟ « ونادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ علينـا ربُّـك قال إنَّكم ماكثُون لقد جِئْناكم بالحق ولكنَّ اكثرَكُم للحق كارِهُون »

إلى كم تُقَيِّدُ في كان ماذا تقْييدا بعد تقييد ؟ لقـد حصَلْتَ منها في امر شديد . الى كم تُعيدُ فيها وتُبدِيء ، وتَنظِم وتُنشِيءُ ؟ غرَّك احتمالي لِقَدْحِك ومَزْحك ، وصبْري على أَلَمِ جُرْحِك ، حتى قلتَ :

ما لجُرْحٍ بمَيتٍ إيلامُ[١]

انتهزتَ الفُرصةَ في اذاية صَبُور ، ودلاَّكَ حِلمُه بغُرور ، حتى قلتَ :

كلُّ حِلْمٍ اتى بغير احتمالٍ　　　حجةٌ لاجيءٍ اليها اللِّئام[٢]

---

١ — هو عجز بيت للمتنبي ، وصدره : من يهن يسهل الهوان عليه .

٢ — البيت أيضا للمتنبي وهما من قصيدة واحدة .

تاللهِ لَوْ نُهِيَتِ الأُولى لانْتَهتِ الآخرة ، ولم تكن ٱلْفَاقِرَةُ تتبعها الفَاقِرَة ولكن أغضيْتُ على القذَى ، وصبرتُ على الأذى ، حتى قيل لو قَدرَ لانتصَر . واتَّصل الامرُ فصار دَيْدَناً فلا جرم ان أتعقَّبَ كلامَك ، وأُلفِتَ عليك لَامَك ، فاقول وانما أُخاطِبُ مَن سمِع خطابي ، ونظر في كتابي :

اعلم اعزك الله ان هذا الرجل المشار اليه هو الذي اثار نارَ كان ماذا التي احرقَتْه حتى صاح : ليتني يا مالِ لم ارها . البيتَ ، وذلك انه سَمِع رجلا يُنشِدلي قصيدةً في مَحَلّ كريم جمعني واياه وكان فيها :

واذا عشقتُ يكون ماذا ؟ هل له دَيْنٌ علي فيغتدي ويَروحُ ؟

فقال : لَحنَ هذا الناظم ، لا يُقال كان ماذا ولا يكون ماذا ولا فَعل ماذا ولا أفعَلُ ماذَا ولا يجوزُ ما كان على هذه الطريقة ولا سُمِع . فاستشهدتُ عليه ببيت الجارية وهو :

فعاتَبوه فذَابَ شوقاً ومات عِشْقاً فكان ماذا ؟

وبقول الشاعر :

فَعُدَّكَ قد ملكتَ الارض طرّاً ودانَ لك العِبَادُ فكان ماذا ؟

فقال : هذا لَحْنٌ ولا يُحتَجُّ بمثل هذَا . فقلت له : ايراد العلماء لهذا الشعر وقَبولُهم له حجة على جوازه . وهذا كثير . ذكر ابو علي

البغدادي في الذيل من النوادر : انبأنا الزبير حدثنا اخي هارون بسَنَده عن وهب بن مسلم عن ابيــه قال دخلت مسجد النبي ﷺ مع نَوْفَل بن مُساحِق فمررنا بسعيد بن المُسَيّب فسلمنا عليه فرد ثم قال يا أبا سعيد من أشعَرُ ، أصاحِبُنا ام صاحبكم ؟ يريد عُمَرَ بْنَ ابي ربيعة وقَيْسَ الرُّقيات .
فقــال له ابنُ مساحق حين يقولان ماذا ؟ قال حين يقول صاحبنا :

خَلِيلي ما بالُ المَطايا كأنَّنا   نَراها على الأدبار بالقوم تَنْكُص

الابيات . ويقول صاحبكم ماذا ؟[1] فقال له وهْب : صاحبُكم اشعرُ بالغزل وصاحبنا أكثرَ أفانِينَ شعر ، فلما انقضى ما بينهما استغفر سعيدٌ مائةَ مرة يَعُدُّ بالخَمْس .

قال المملوك : رضي الله عن سعيد بن المُسيّب لم يزد على ان فاوض صاحبَــه في مُباح لم يَجْرِ في كلامه فُحش ولا غِيبَةُ مُسلم ثم استغفرَ الله مائة مرة . هـكَذَا هـكَذَا وإلّا فلا لَا .[2]

اين هذا من الذي قُيِّد فيه ؟ وكَمْ فيهم مِن فَتيـه سُوءٍ خَبيث كثير الأذى والمضرَّة ، يَعِيبُ ويغتاب من غاب عنــه الفا ولا يَستغفِرُ الله مرَّة .

---

١ — الذي بالتتمة المطبوعة من الذيل والنوادر : ويقول صاحبكم ما شاء .
٢ — هــذا عجز مطلع قصيدة للمتنبي في سيف الدولة وصدره : ذي المعــالي فليعلون من تعالى .

وحكى ابو علي قال : قُرِعَ بابُ ابن الرّقاع فخرجت بُنَيّةٌ له صغيرة فقالت مَن هاهُنا فقالوا نحن الشعراء قالت وتُريدون ماذا ؟ قالوا نهاجي اباك فقالت تجمَّعتم من كل أوْبٍ ووِجْهَة على واحد ، لازِلْتم قِرْنَ واحد . قال : فاستحيوا ورجعوا .

قال المملوك . وكذلك حالي الآن بسبتة اجتمع كلٌّ من فيها من اصحابِ هذا الرجل واهلِ بلَده للنقد عليّ ولم يبلغوا ان يكونوا قِرن واحد ، والله المستعان .

واستشهدتُ بحكاية اخرى أخرجها أيضاً في الذيل أولها لما أراد معاوية البيعةَ ليزيد كتب الى مروان وهو والٍ على المدينة ، وفي الحكاية : او تفعلُ كما فعل أبو بكر قال فَعل ماذا ؟ وفيها أو تفعلُ كما فعل عمر فقال فعل ماذا ؟ وبحكاية أُخرى أخرجها ابنُ ظَفَر في كتابه انباء نجباء الابناء اولها بلغني انه لما وُلِد لعبدالله بن جعفر ولدُه معاوية وكان لأم وَلد والحكاية طويلة وفيها من كلام خالد بن يزيد بن معاوية يخاطب عبد الملك ابن مروان بلغني ان الحجاج تزوج الى عبدالله بن جعفر ابنتَه امَّ كُلثوم فغَضِب عبدُ الملك وقال كان ماذا ؟ ولِمَ لا يكون الحجاج كُفْؤاً لها قال خالد يا أمير المومنين اني لم أُرِد ذلك ولكنّكَ تعلَمُ انه لم يكن بين بيْتَيْن من بيوت قريش ما كان بيننا وبين آل الزبير ، يعني من العَداوة، فلما تزوجتَ اليهم انقلب ذلك البغض حبا . واستشهدتُ له بشواهد من هذا النوع وانما كان غرضي ان اثبت ان هذا النوع من الكلام قد قيل

وانه فصيح ولم أتعرّض الى انه على الاتصال ولا على التقديم والتأخير ولا على الانقطاع فتمادى على الانكار . وقال : لا يحتج بأبي عَليّ البغدادي فلم يكن من اهل الصناعة ولا بابن ظَفر . وانما يحتج باهل صناعة العربية . فاستشهدت اله بحكاية أُخرى أخرجها العالم الجليل ابو الفرَج الاصبهاني في كتاب الاغاني حيث قال :

يَا دارُ أقفرَ رَسْمُها بين المحصّب والْحجُون

وفي آخر الحكاية فكان ماذا ؟. واستشهدتُ بحكاية أُخرى اخرجها ابنُ قُتَيْبة في عيون الاخبار قال : مرّ اعرابي بمؤذّن وهو يقول اشهد ان محمدا رسولَ الله بنصب رسولِ الله فقال الاعرابي وَيْحك يفعلُ ماذا ؟ وبحكاية أُخرى من الكتاب المذكور قال : وَصعِد اليَرْبُوعي فخطب وقال اما بعد فاني واللهِ ما أدري مَا أَقول ولا فِيمَ أَقمتُموني أَقولُ ماذا ؟ فقال بعضهم قُلْ في الزَّيْت فقال الزيتُ مُبارَك فكُلوا منه وادَّهِنُوا . وبحكاية أُخرى منه قدم ابنُ جامع مكةَ بخير كثير فقال ابن عُيَيْنة : عَـلامَ يُعطِي الملوكُ هذا الغلامَ هذه الأموالَ ويحبُونَه هذا الحِبـاء ؟ قالوا يُغنّيهم قال يقول ماذا ؟ فهذان رجلان من ائمة العلماء وصناعة العربية قد حكيا في تأليفيهما المشهورين هذه الالفاظ . واستشهدتُ بحكاية أُخرى أخرجها العالم ابو بكر الزُّبَيْدِي وهو من ائمة العربية في تاريخ النحويين واللغويين . حـدَّث بِسَنَده عن العجوري قال : كان ثَعْلَب من الحفظ

والعلم وصدق اللهجة والمعرفة بالعربية ورواية الشعر القديم ومعرفة النحو على مذهب الكوفيين ، على ما ليس عليه احد . وفي الحكاية من كلام ثَعْلب لصِهْره : إذا رآك الناسُ تذهب الى هذا الرجل تقرأ عليه يقولون ماذا ؟

قال المملوك فلما بلغه ذلك قال : لا يتَنزَّل نطقُهم لهذه الالفاظ منزلةَ نقلِهم . قلت فيظهر من قولك ايها الرجل ان الزبيدي وابن قتيبة وثعلب وابا الفرج الاصبهاني وغيرهم كانوا لحَّانين ايضا ، فالحمد لله استوى الماء والخشَبةَ ولا عارَ على مَن لَحن مع هؤلاء . ثم اوقفتُه على كتاب ألّفه ابو علي المَالَقِي في شرح الُجمل هو بايدي الناس وقد تكلم على ماذا فقال : ومِن حُكم ما مع ذا ان الالف لا تحذف منها وإنْ دخل عليها حرفُ الجر فتقول بماذا جئت ؟ وعما ذا سألت ؟ ومِن حكمها انها يعمل فيها ما قبلها وان كانت استفهاما ثم قال : ويُقوِّي ذلك حديثُ أُمِّ حَبِيبة حين قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : هل لكَ في بنتِ ابي سفيان فقال أَصْنَعُ ماذا ؟ انتهى كلامه .

قال المملوك : وخُرِّجَ هذا الحديثُ في كتاب البخاري ومسلم والنسائي وابي داود وابن خيثمة . فلما وقف على الجملة أكْبرها وأعظمها ورأى ان الحديث المذكور تمخّضت عنه بُطونُ الأمّهات الكبار ، ودارت عليه كتائبُ من كتُب الائمة الأخيار ، بين سُمْر القَنا وبِيض الشِّفار ، فحصل في امر عظيم ، ووقع في مُقعِد مُقِيم ، ثم نظر فرأى ان الطرق

كلها تجتمع في هشام بن عروة ابن الزبير رضي الله عنه فقال هـذا نقَله بالمعنى وقـد َلحن فيه فقيل له ولِمَ تقول ذلك ؟ قال : اني لا أراه كان يحسن ادوات النقل وكانت أُمُّه أَمَةً وانفرد بنقل هـــذا اللفظ الذي لا يوجد في كلام العرب . فنقل الطلبةُ كلامَه ، وأكبروا جُرأته وإقدامَه ، فأمِرَ بالتقييد في ذلك لِيُوقَف على كلامـه فاضطُرَّ الى القول بجواز ذلك وقال : أَمَّا أَفعَلُ ماذا ، إذا ورَد في كلام فصيـح فيجوز على ان تكون ما ذا منقطعةً من أفعَلُ ويكون التقدير ماذا تريد ومشَى في تقييـــده على ذلك . ثم تكلم في بيت الجارية فقـــال رأيتُ ابنَ طاهر قد قال انه على الانقطاع . فظهر من كلام هذا الرجل انه لم يكن عنده علم من الحديث ولا من بيت الجارية ولا ان ذلك جائز حتى وقف على كلام ابن طاهر في بيت الجارية بعد وقوع النازلة ، فمِنْ هناك َتدلىَّ وقال ان الحديث يجوز على الانقطاع . وانتَقلْنا ـ بحمد الله ـ مِن أنَّ ذلك لايجُوز البَّتة ولا سُمِعَ الى أنه يجُوز على الانقطاع . ومعَ هذا فلم يزل مصمماً على قوله الاول ان الحديث منقول بالمعنى وان ذلك لحن فيـــه فانه اورد في تقييده ان النقل بالمعنى جائز ، وهذا الذي ذكر لا يُنازَع فيه انما يُنازَع في انه لحن ، وقد فَرَّقَ كلامَه في هشام بن عروة رضي الله عنه في تقييده فاشار في موضع منه انه كان ابنَ أَمة وان اللحن طرأ عليه من قِبَلِها فقال : روَى مُسْلمٌ عن ابن ابي عَتيق قال تحدثتُ انا والقاسم عند عائشة وكان القاسم رُجلاً لحَّانا وكان لأمٍّ ولدٍ فقالت له عائشةُ : مَا َلك َلاتتحدّث كما يتحرك ابنُ اخي

هذا ؟ ثم قالت : أَمَا إني قد علمتُ مِن أَيْن أُتِيتَ هذا أَدّبته أُمُّه وانت أدبتك أُمُّك . قلت : فهذه اشارة الى ان هشاما كان كذلك الى ما صرّح به في مجالسه ، وهذا الذي نُقِل عن ابن ابي عتيق رضي الله عنه لم يَعْنِ به اللحنَ الذي هو فساد الاعراب وانما عَنَى به اخراجَ الحروفَ من غير مخارجها ونحوَ ذلك . كما حكي ان اعرابيا قال لعمر رضي الله عنه أَيُطَحَّى بضَبْي ؟ فقال له عمر انما يقال ايضحى بظبي فقال له الاعرابي كذلك نقول او هي لغتنا . وايضا فان القاسم كان صغيرا وعائشة هي ام المؤمنين وانما قصدت بقولها التعليم والتأديب وليس له ان يقول في هشام بن عروة كما قال ابن ابي عتيق في القاسم ولا ان ينزل نفسه منزلتَه في هذا القول .

قلت : وأشار في موضع آخر الى انه كان قليل المعرفة باللسان قال : ومما يستحق الراوي ان تكون عنده جملة صالحة من اللسان حتى لا يتوحّش من شيء سمع منه واذا رأى منكرا نفَر منه ولا بد ان يتقن جهات الاعراب وابنيةَ الاسماء والافعال . ثم نقل فصلا عن الاصمعي ان اخوف ما اخاف على طالب الحديث اذا لم يعرف اللحن ان يَدخُلَ في جملة قول النبي ﷺ مَن كذَب عليَّ متعمِّداً فليتبوَّأْ مقعَده من النار لانه عليه السلام لم يكن يلْحَن فمَهْما رويتَ عنه ولحنتَ فقد كذبت . قلت : وهذه اشارة اخرى الى ان هشاما لم يكن يُحسِن من ذلك شيئا بحيث انه دخل بمقتضى قوله في الجملة التي تلحنُ فتكذِبُ فتتبوَّأُ مقعدَها من

النار . قلت : وكذلك أشار في موضع آخر الى تضعيفه فقال : ان من المحدثين مَن يُكتَب حديثه ولا يحتَجُّ به . قلت : هذا صحيح في غير هشام بن عروة . قال بعضُ من تكلم في الرجال : ابو الحصين عبيد الله القَدَّاح ليس بالقويّ مكّيّ ضعيف مولىً لبعض اهلها . وقال ابن ابي حاتم سألت ابي عن عبيد الله القداح فقال ليس بالقوي يُكتَبُ حديثه . واما هشام بن عروة فمَعَاذَ الله ان يكون من هؤلاء . وهذه نبذة من اخباره وما قيل فيه رضي الله عنه (وذكرها) ثم قال :

فاما قوله وقد انفرد بهذه اللفظة التي لا تُوجد في كلام العرب فباطل قد جاء في حديث آخر ما يشبه هذا ، اخرج الامام ابو الفرج ابن الجوزي رحمه الله في كتابه صَفْوة الصَّفْوة عن أَبي سعيد عن مسلم عن ابراهيم عن هشام الدَّسْتُوَائي عن عطَاء بن السَّائب قال لما استُخْلِف ابو بكر اصبح غاديا الى السوق وعلى رقَبتهِ اثواب ليتَّجِر بها فلقيه عمر وابو عبيدة فقالا له الى اين تريد يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال : السوق ، قالا تصنعُ ماذا وقد وَلِيتَ أَمرَ المسلمين ؟ قال فمن أين يَطعَمُ عيالي ؟ قالا انطلِق حتى نفرضَ لك شيئا فانطلق معهما ففرضوا له كلَّ يوم شاةً وماكَسُوه[1] في الرأْس والبَطْن . وخرَّج ابو داود في كتابه قال : ناموسى[2] بن اسماعيل قال نا وهب قال نا داود عن عامر عن جابر بن

١ – اى نازعوه فيها . ٢ – اختزال لحدثنا .

سَمُرَة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يزال هذا الدين عزيزاً الى اثني عشر خليفة . قال فبكى الناس وضجوا ، ثم قال كلمة خفية فقلت لابي ما قال ؟ قال كلهم من قريش . حدثنا ابن نُفَيْل قال نا زُهَيْر قال نا زياد بن خَيْثَمة قال حدثني الاسود بن سعيد الهمداني عن جابر بن سَمُرة بهذا الحديث زاد : فلما رجع الى منزله اتته قريش فقالوا ثم يكون ماذا ؟ قال ثم يكون الهَرْج . قلتُ فقد اشترك هشام بن عروة مع غيره في رواية هذا النوع من الكلام لا فرْقَ بين أفعَلُ ماذا وتَصنعُ ماذا وثُم يكُون ماذا . فلينظر في هؤلاء الرواة كما نظر في غيرهم وليبحَثْ فلعل فيهم ابنَ أَمة فيكون الحديث لَحْناً على مذهبه ، ولعل فيهم مثلَ عبيد الله القدَّاح ، اعوذُ بالله من الجهل والضلال . قلت : ثم إن هذا الرجل لما قهرَتْه الأَدِلة ، ووقف موقف الهوان والذِّلة ، احتاج الى المطالعة فوقف على كلام ابن طاهر في بيت الجارية كما ذكر ، وعلى كلام غيره واضطر الى التقييد في ذلك . فقال وهو يمشي الضَّرَاء[1] ويقف ورَاء ورَاء : إنما أنكرت أن يكون ما قبل ماذا عاملا فيها . قال وقد تبين بما لا خفاء معه ان أَفعَلُ ماذا ليس على تقدير ماذا أفعلُ ، وان ماذا منقطعة من افعلُ . لكن بقي ذكر المعاني التي يأتي عليها الكلام فأقول : يظهر لي في افعَلُ ماذا اذا ورد في كلام العرب انه يكون على سِتَّة أوجه ؛ أحدها أن

١ — أي مستخفياً .

تأتي بأفعلُ لِتُعْلِمَ مخاطبَك بالموافقة ثم تقول ماذا أي ماذا تريد. قلت وإذا أردتَ أن تُخَرِّج البيتَ على هذا الوجه كأنَّ العاذل قال له إذا عشقتَ يكون كذا ويكون كذا فعدَّد له ما يطرأ عليه من المِحَن في الهوى فيقول موافقا له: واذا عشقتُ يكونُ اي يكون ما قُلتَ ثم يقول ماذا؟ اي ماذا يكون عليّ؟ الوجه الثاني ان تقول افعَلُ وتسكت على وجه التذكُّر ثم تقول ماذا؟ الوجه الثالث أن تقول افعَل؟ على جِهة الانكار وتمثّل بقول ام حبيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا لنتحدَّثُ انك تريد أن تنكِحَ دُرَّةَ بنت أبي سلمة فقال رسول الله ﷺ بنتَ أُمِّ سلمة؟ الوجه الرابع ان تقول افعَلُ وتحذفُ المفعول تعظيماً للامر وتهويلا. الوجه الخامس ان تقول افعلُ وتحذف المفعول لان الذي بعد ذا يبينه. الوجه السادس ان يكون انتقالا من كلام الى كلام. ثم قال:

واذا جاء افعَلُ ماذا ويفعَلُ ماذا، فقد يكون على وجه آخر غير الوجوه المذكورة وهو ان يكون المفعول محذوفا كما تقول لانسان يقول لك افْعَلْ معي ما فعل فلان فتقول فعَل! أي أدري انه فعل شيئاً ولكني لا أعيِّنُه ثم تسأله عن تعيينه لتنظر في ذلك. ثم قال: وقد يكون على ان تذكر فعَل لتحقّق ما يقال. ومثالٌ من ذلك ان يقول قائل زيد ضرَب فتقول ضرب! على معنى أَقلت ضرب؟ ثم قال: فاذا تُتُبِّع كلامُ العرب ومقاصدها في كلامها فيوجد اكثر ممـا ذكر. قال المملوك: انظر كيف قال أوّلاً انه يكون على ستة اوجه ثم انه زاد وجهين بعد الحصر في ستة اوجه ثم قال

واذا تتبع كلام العرب ومقاصدها في كلامها فيوجد اكثر مما ذكر، فقد صار المنحصر لا ينحصر. ثم قال بعد ذلك: ويمكن ان تجعل ما بمنزلة الذي وذا خبر لمبتدا محذوف ويكون بمنزلة قوله تعالى « تماماً على الذي أحسَنُ » على قراءة من قرأ أحسن بالرفع، وذا اشارة والتقدير افعل الذي هو هذا. ثم قال: ويمكن ان تجعل ذا بمنزلة الذي وتكون الصلة محذوفة على حسب قوله:

وَكَفيْت جانِبَها اللَّتيَّا والَّتي[١]

قلت: انظُر كيف زاد بعد قوله ان الوجوه لا تنحصر وجهَيْن آخرين وهذا كله من قلة التحصيل. ثم انه كر على بيت الجارية فقال: واذا نظرتَ الى الوجوه التي ذكرتُ بدا لك في بيت الجارية غيرُ ذلك فأخرجَ بيتَ الجارية عن الجواز على تلك الوجوه وضعَّفَ الوجه الذي ذكره ابن طاهر وقال انه ضعيف ومعنى سخيف لانه خال عن رَشاقة، عار عن لَباقة في كلام له مُفَقَّرٍ باردٍ تركته ثم قال: وأما البيت الذي وقع فيه الكلام، وزلَّت بسببه الاقدام، فلا يشبه بيتَ الجارية لانه قال: وإذا عشقت يكون ماذا؟ فاذا وقف على يكون وهو قد جعله جوابا لإذا لأنها لا تخلو من الشرط فقد جعل جملة الجواب لا تُفيد الا ما افادت جملة الشرط.

١ ـ أي الخطة الفظيعة التي تقصر عنها العبارة وتحذف الصلة في هذا التعبير حتى في النثر فيقال بعد اللتيا والتي لقصد الابهام والتهويل.

قلت: هذا اعتراض بليد لم يفهم من البيت إلاّ ما وقـــع في اذنيه فان الرجـــل لا يحسن في الادب شيئا ولا يحسن اغراض الشعراء ولا ما جرى عليه عملهم حتى يفهم . هذا قول حبيب :

أَجِبْ أَيُّها الرَّبْعُ الذي أنا سائِلُه

فانه ينظر فلا يرى كلاما متقدماً ولا يسمع قولَ مُخـــاَطب يكون هذا جوابه فيظن ان الشاعر مجنون. قلت : وانا بعون الله أُبين للمبتدئين كيف يُخرَّج البيت الذي فيـــه الكلام عند اهل الصناعة العربية وذلك ان فيـــه :

حقٌّ وان جعل النَّصِيحُ يصيح انا عاشق ، هذا الحديث صحيح
واذا عشقت يكون ماذا هل له دَيْن علي فيغتـــدي ويروح ؟

فكأنَّ الناصح عنَّفه على العشق وعذَله ، وقال له انت عاشق وجعل يصيح وينظر ويسمع فقال حق انا عاشق ، هذا الحديث صحيح ، ثم قال واذا عشقتُ يكون العشق كما تقول وماذا عليَّ فيه ؟ ويـــدل على ذلك بعد هذا :

فيه قضاءٌ ؟ لا ولا كفَّارةٌ فأرِحْ فُؤادِي إنَّ قولَكَ رِيح

فقد تبيَّن المعنى وظهر وجهُ التقرير والاعراب على الطريقة في صناعة العربية وصار يكون جوابا لإذَا على رغم من انكره فان المُنْكِر بعيد

من فهم الشعر ومن قوله ، على انه قد تَكَتَّبَ[1] وتكلف الشعر بالعَروض على ما تقف عليه ان شاء الله . فان قيل لي هذا مذهبك في البيت قلت نعم ! ويمكن تخريجه على اكثر الوجوه التي فسَّرها هذا الرجل ، بعـــد تحصيل الفهم لما قبل البيت كما ذكرتُ لك ولا يبعد عندي التقديم والتأخير من غير عمل كما ابيّن للمبتدي ان شاء الله وذلك انك تقول ماذا افعلـــه ؟ ثم تحذف الضمير فتقول ماذا افعل ؟ ثم تقلِبُ فتقول افعل ماذا ؟ ويتبين لك في أن تقولَ أيُّ شيءٍ افعله ؟ ثم تقول أيُّ شيء أفعل ؟ برفع أي ثم تقول أفعلُ أيُّ شيء بالرفع . فكذلك التقدير في يكون ماذا ! والتقديم والتأخير في الكلام كثير ومن ذلك قوله تعالى : « إنّي لكُما لَمنَ الناصحين» على احد القولين . وقد قالوا : أصبحتَ كيفَ ؟ علَّقه أبو عليّ الفارسي.

وهذا الكلام مُقْتضَب وانما هو تذكيرٌ للعالِم وتنبيه للنائم والله الموفق

واما حديث النبي صلى الله عليه وسلم اعني حديث ام حبيبة فالتقديم والتأخير عندي فيه هو الصواب لأنّ غير ذلك يبدل معناه ويخرجه عن ظاهره ويطمِسُ حُسْنَه ونُورَ فصاحته . واما سائر ما تقـدم فمما يستوي فيه النظر .

قال المملوك : ونظير البيت المذكور قولُ عمر رضي الله عنـــه للاعرابي الذي انشده :

---

١ - يعني تعاطى الكتابة .

يا عُمرَ الخيْرِ رُزِقتَ الجنه أُكْسُ بُنيَّاتي وأُمَّهُنَّه
وكُنْ لنا من الزمان جُنَّه أقسِمُ بالله لَتفعَلَنَّه

فقال له عمر: فان لم أفعل يكون ماذا ؟ فقال الاعرابي:

إذَنْ ابا حفص لأذْهبنَّه

فقال له عمر: واذا ذهبتَ يكون ماذا ؟ فقال الاعرابي:

يَكونُ عن حالي لَتُسْأَلَنَّه يومَ تكونُ الأَعْطِياتُ هِنَّه
ومَوْقِفُ السؤال يَنْتهِنَّه إمَّا الى نارٍ وإمّا جَنَّه

قال فبكى عمر حتى اخضَل لحيْتَه ودعا بِقَميص فدفعه اليه وقال خذ هذا لأَهْوالِ ذلك اليوم لا للشعر. والحكاية رواها ابو علي البغدادي.
والبيت الثاني الذي تقدم وهو:

فعُدَّكَ قد ملكتَ الارض طرا ودان لك العباد فكان ماذا ؟

وقع في حكاية اوردها ائمة الادباء في كتبهم قال جعفر بن القاسم الامير بالبصرة: إني لفي الجامع الاعظم بالبصرة ومعي جماعة يَعِظُونَني اذ وقف عليَّ بعضُ المجانين فقال:

فعدك قد ملكتَ الارض طرا ودان لك العباد فكان ماذا
أَلَسْتَ تصيرُ في لحدٍ ويحوي تُراثكَ بعدُ، هَذا ثُمَّ هذا

ويُنسَبان ايضا لبَهْلول يقولهما لبعض الخلفاء العباسيين وقد لقِيَه في بعض الطرق . ويروى البيت الاخير :

أَلستَ تصير في لحد ويَحْثو عليك التُّربَ ، هذا ثم هذا ؟

ورأيتُ في كتاب ابن ظفَر ان هشام بن المغيرة كان بينه وبين العاصي ابن وائل نَبْوَة وكان ابو جهل بن هشام حديثَ السنّ مُعجَباً بنفسه حديداً فمرَّ بالعاصي بن وائل وهو في نادي قومِه وابنُه عمرو بن العاص بين يديه وهو طفل فقال ابو جهل كلاماً يتهدده به فلم يُجِبْه العاصي بشيء فقال عمرو لابيه : مالك لا تجيبه ؟ قال أقول ماذا ؟ قال تقول اذا كنتَ يومَك ذَا عاجزا مَهِينا فانت غداً أَعجَز ، ولو كنت تعقِلُ أَلْهَاكَ عن وعيدِك ذا ما به تُنْبَز ، فاستُطِيرَ العاصي سروراً وقال أنت ابني حقا وكان قبل ذلك يفضل غيرَه من ولده عليه .

قلت : والحكايات والاشعار التي وقعت فيها كان ماذا و يكون ماذا ونحو ذلك كثيرة وانما اعود الى ايرادها ، لعلمي انه متمادٍ على انكاره وانما احتاجَ الى القول بالجواز في تقييده على الوجوه التي ذكَر للضرورة ؛ وما زال عن قوله إن ذلك لحن ولا يزول ابداً .

●

ج - في السّياسة

مناظرة المهدي بن تُومَرتَ لعلماء مراكش
بحضرة علي بن يوسف بن تاشفين

دخل المهدي بنُ تُومَرتَ وأصحابُه الى مراكش وقد جاهرَ بدعوته واسْتَعْلَنَ أمرُه. فذهب الى المسجد الجامع ولقي هناك أمير المسلمين علي بن يوسف فوَعظه وأغلظ له القول، وكان علي جالساً والوزراء واقفون حوْله فقال الوزراء لابن تُومرت سلِّم سلام الخلافة على الأمير، فقال ابن تومرت وأيُّ أمير؟ انما أرى جواريَ مُنقَّبات. فلما سمع ذلك علي بن يوسف أزال النقابَ عن وجهه وقال صدق، فلما رآه ابن تومرت قال له الخلافةُ لِلّه لا لك ياعليّ، وتمادَى في وعظه وارشاده وجادل العلماء الحاضرين جميعا.

وقيل انه كان سائراً في الطريق فرأى أختَ علي بن يوسف حاسرةً على عادة قومها فوبَّخها توبيخا وعنَّفها فدخلتْ على أخيها تذرِفُ الدموعَ مما لَحِقَها من اهانةِ ابن تومرت وتقْريعِه. وأصبح العلماء والعامّة لا يتكلمون في مراكش الا بأمره، فجمَع له علي بن يوسف مجلساً من علماء المغرب والأندلس يَرأسُهم وزيرُه العلامة مالك بن وُهيْب فلما التأم المجلس للمجادلة تولّى الكلام قاضي المَرِيَّة محمد بن أسود وقال

ما هذه الأقوال التي تُنقَل عنك في حق الملك العادل المنقـاد الى الحق والمُؤثِر لطاعة الله على هواه؟ قال ابنُ تُومَرت ان ما نُقِلَ عني قد قلتُه حقاً ولِي من ورائه أقوال أُخرى ، أما قولُك إن ملككم عادل منقـاد للحق مؤثر طاعةَ الله على هواه ، فهذه أقوال تقولونها وتنصرُونه بها مع علمكم بأن الُحجَّة متوجِّهة عليه ، فهل بلغك يا قاضي أن الخمر تُبـاع في هذه الديار جِهاراً وأن الخنازير تمشي بين المسلمين وأن أموال اليتامى تُؤكَلُ ظُلْماً وعُدواناً ؟ وعدَّد من ذلك جميع المنكرات التي رآهـا ، فلما سِمعَ الملك كلامه ذَرَفتْ عينـاه وأطرَق حياء فسكتَ علمـاء السوء ولم يتكلَّم منهم أحد ، فقال مالك بن وُهَيْب وقد فهم نَفْسيَّةَ ابن تُومرت وأدرك غايته ، نصيحتي لك أيها الملك أن تأمُر بسِجْن هـذا الرجل وأتبـاعه وتُنفِق عليهم كل يوم ديناراً لتُكفَى شرهم والا أنفقت عليهم كل خزائنك ولا يُجْدِيك ذلك نفعاً ، اجْعَل عليه كَبْلاً قبـل أن تَسمع له طَبْلاً . فوافقـه الملك على ذلك ، لكن الوزير يِينَتان بنَ عُمر تدارك الأمر وقال يَقْبُحُ بك أيها الملك أن تَبكي من موعظة رجـل ، ثم تسجنه في مجلس واحد ، فأصغَى الملك لرأيـه وصَرف ابنَ تُومَرت وسأله الدعاء .

مناظرة السلطان زيدان بن المنصور الذهبي

للشيخ يحيى بن عبدالله بن سِعيد الحاحي

كان للشيخ المذكور دالَّةٌ على زَيدان بن المنصور بسبب أنـه أعانه

على حرب الثائر أبي مَحَلّيّ[١] وإنقاذ مراكش من يده فكان بعـــد ذلك يُراسله وينصحه . وكان زَيْدانُ يتحمَّل من ذلك أمرا عظيماً ، ويُداريه أشدَّ المُداراة . وهذه المناظرة تُعطينا صورةً من الصراع العنيف الذي كان يدور بينهما ، وهو صراع بَيْن الأفكار المجرّدة والواقع السياسي الذي لا يعدَم من الحُجَج ما يُناهض به تلك الأفكار ، ولئن مثَّلت المناظرةُ في شخصية الشيخ المذكور مُعارَضةً سياسية جَرِيئة فانهـــا تُمثِّل في شخصية زيدان حكومةً مُتبصِّرة عظيمة الثقة بنفسها .

(قال الشيخ) في خطابه لزيدان بعد الافتتاح[٢] .

وبعد فالباعِث به اليكم أمور ثلاثة مَـــدارُها على قوله ﷺ الدينُ النصيحةُ . قِيلَ لِمن يا رسول الله ؟ قـال: لله ولرسوله ولخـــاصّة المسلمين وعامّتهم ، الأول بيان سبب الرُّكُون اليكم ، الثاني ذكر الحامل على دفع مُناوِئكم ، الثالث ملازمة النُّصح لكم والضجَرُ مما يصدُر من أعوانكم لِلرَّعية ، أما الأمر الأول فله أسباب كثيرة منها مُراعاةُ الجنـــاب النبوي

---

١ - هو الفقيه الشيخ احمد بن عبدالله السجلماسي المعروف بأبي مَحَلّي كان أولاً ينتحل طريق التصوف ثم تصدّى للأمر بالمعروف و النهي عن المنكر وثار على السلطة واستولى على سجلماسة وذرعة ومراكش ثم ظَفِر به زيدان بمعاونـــة الشيخ يحيى بن عبدالله هذا .

٢ – تصرفنا في هذه المناظرة ببعض الحذف والإيصال من غير اخلال بشكلهـا ولا بمضمونها، وذلك رغبة في الاختصار والوضوح .

الكريم في أهل بيته. ورَضيَ الله عن أبي بكر الصديق القائل : أرقُبوا محمدا في أهل بيته ، والقائل : لَقرابَةُ رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ أن أَصِلَ من قرابتي .

وأما الأمر الثاني فلِمَا جرى به القَدَرُ من تغلُّب ذلك الانسان المُسلَّط على الرِّقاب والحرِيم والأموال ، وإدخالِه بتأويلاته البعيدة عن الصواب ما ليس في المذهب حتى تعدَّى ضُروبَ الوُلاة الى سائر الرعية فاضِلِها ومفضولِها ، ومَدَّ معَ ذلك يدَ الوعيد المؤكَّد بالأَيْمان الينا في الأنفس والأموال .

وأما الأمر الثالث فهو ممّا دل عليه الكتاب والسنة والاجماع . أما الكتاب فسورةُ العصر قائمةُ البرهان في كل أوَان وعصْر ، وقد قال تعالى في قضية كَليمه ربِّ بما أنعمتَ عليَّ فلَن أكُونَ ظهيراً للمجرمين ، وقال جلَّ من قائلٍ : وتَعاوَنوا على البِرِّ والتَّقْوى ، ولا تَعاوَنُوا على الإثْم والعُدْوَان . وأما السنة فقولُه ﷺ مَن رأى منكم مُنكَراً فليغيره بيده فان لم يقدِر فبِلسانه فان لم يقدر فبقلبه وذلك أضعفُ الايمان ، وقد كنا مقتصرين على التغيير باللسان والعِلم بكون التغيير العمَلي اليكم ، حتى جذبتمونا اليه ودَللتمُونا بارتكاب أصعَب مَرام عليه ، وقولُه مَن أعان على قتل مسلم ولو بشَطْر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عيْنيه آيِسٌ من رحمة الله . قال العلامة المَوَّاق : من أعان على عزْل أمير وتولية

غـيره ولم يأمَنْ سَفْكَ دم مسلم فهو شريك في دمه إن سُفِك ، ثم أتى الحديث المتقدم استعظاماً لذلك الأمر الفظيع ، فإنا لله وإنا اليه راجعون ، على أننا انخدَعنا بالله حيثُ كتبتَ لنا مراراً وأمَّنْتَ وعاهَـدْتَ ، وكنتُ أتخوَّف من هَـذَا الواقع بأزمُّور وأسَفِي ومَراكُش والغَرْب حتى أتاني القائد عبد الصادق بمصحف ذكر أنه لسلطان تِلمْسان ، في جِرْم صغير وقال لي أمَرني السلطان أن أحلِفَ لك فيه نيابةً عنه علَى بقـائه على العهد فيما بينك وبينه ، ومن تأمين كل من أمنتَه ، وامضاء كل ما رأيتَـه صَلاحاً لأمته ﷺ ثم لم أكْتَفِ بذلك حتى أتاني القـاضي وأكَّد كلَّ ما تقدم مُتحمِّلاً عنك بذلك وبعد استقْرارِك في دارك كتبتَ لي كتابا بانك باقٍ على ما تعاهدنا عليه وأنَّ الامور كلها على مِعْيار الشرع - فما راعني الا وقد أُخفِرتُ في ذِمَّة الله وأماني الذي عقدتُه للناس فمن مَأسورٍ ومُقيَّد ومطْلوب بمال ومَطرُود عن بلده ، واخبارٍ أُخرى تَرِدُ علينا من جهة السواحل ان الناس تُباع فيهـا للعدو دمَّره الله ولم نر من اهْتَبل بذلك ممَّن قلَّدتموه أمورَ الثغور فلم ندْرِ هل بلغك خبرُ ذلك فتسقُط عنـا مَلامةُ الشرع او لم يبلغك فأعْلِمْنا لله تعالى لِتَطمئِنَّ قلوبُنا فاني كاتبتُك في ذلك فلم أرَ جواباً فقضَيْتُ والله من الأمر عجَباً .

واما الاجمـاع فلم نرَ من العلماء من نَهى عن نصيحة خاصّة المسلمين وتنبيههم على ما يصلُح بهم وبالرعية بل عَدُّوه من الدين لحـديث الدين النصيحة وغيره . وما استشعرناه من امتعاضكم من عدم إلاَنةِ القـول في

مكاتبتنا لكم ، فما خاطبناكم قطُّ رعياً لذلك ولو بنصف ما خاطبَ الائمة الأوَلُ به اهلَ زمانهم اتكالا على مطالعتكم لكتبهم وعلمكم بما لم نعلمه من ذلك . ويكفيكم نصحُ الفُضَيْل بن عِياض وسُفيان الثَّوْرِي وإمامِنا مالك رضي الله عنهم لمعُاصريهم من الولاة ، وفيهم من بَكى وانتفَع ، ومن غُشيَ عليه وتوجَّع ، ومن ندم واسترجع ، الى غير ما ذكر على اختلاف الاعصار وتنوع الدول ، فبذلك اقتدينا وبما كان عليه اشياخنا واسلافُنا لكم ولأسلافكم كالفقيه شيخ والدِنا رحمه الله سيدي عبدالله الهَبْطي لجدِّكم المرحوم بكرم الله تعالى ، فطمِعتُ في نُجْح النُّصح دُنْيا وأُخرى . فهذا اصلُ قضيتنا معكم وهلُمَّ جرّاً والذكرى تنفع المؤمنين .

(فاجابه زيدان) :

وبعد ، فقد ورد علينا كتابكم ففضَضْنا خِتامَه ووقَفْنا على سائر فُصوله ثم اننا إن جاوبناكم على ما يقتضيه المقام الخطابي ربّما غيّركم ذلك وأدّى الى المباغضة والمشاحنة . ويُحكى عن عثمان رضي الله عنه انه بعثَ لِعليّ كرَّم الله وجهَه واحضَره عنده والقَى اليه ما كان يجدُ من اولاد الصحابة الذين اعْصَوْصَبُو بأهل الردَّة الذين كان رجوعهم الى الاسلام على يد الصدِّيق ، وهو في ذلك لا يُجيبه ، فقال له عثمان ما اسكتَك ؟ فقال له : يا امير المؤمنين ان تكلمتُ ما اقول لك الا ما تكْرَه وان سكتُّ فليس لك عندي الا ما تُحِب . ولكن لمَّا لم اجد بُدّا من الجواب أرَى ان

اقدم لك مقدمة قبل الجواب وذلك ان الحجّاج لما ولاه عبـــد الملك بن مروان العراق وكان مِن سِيرته ما يُغنِي اشتهارُه عن تَسْطيرِهِ هنا فتأوّل ابنُ الاشعث الخروجَ عليه وتابعَه على ذلك جماعة من التابعين كسَعِيد بن جُبَيْر وامثـــالِه من اولاد الصحابة ولمَّا قوِيَ عزمُهم على ذلك استدعوا الحسنَ البَصْرِي رضي الله عنه فقال لا افعل فاني أري ان الحجاج عُقوبةً من الله تعالى فنَفْزَع الى الدعاء أَوْلَى. وقد علمتَ ما كان من امر عبـــد الرحمان بن الاشعث وسعيد وامثاله. وقَضِيَةَ أهل الحَرَّة لمَّا أوقع بهم جُنْدُ يزيدَ بن معاوية بالحرَم الشريف[1] ما اوقع ، ولمَّا بلغـــه الخبرُ وهو بالشام انشد :

ليتَ أَخوَالي بِبَدْرٍ شهِدُوا   جزَع الخزْرجِ من وَقْع الأَسَل

وشاعَ ذلك عنه وذاع وكان ذلك على عهد أكابِر الصحابة واولادِهم فما تعرّض احدٌ منهم للنكير عليه ولا تصدّى للقيام بكلام.

ونَرْجعُ لجواب الكتاب، فأما ما حكيتَ عن الصِّديق رضي الله عنه في اهل البيت والاحاديث الواردة في انه يجب احترامُهم وتعظيمهم وتبجيلُهم لاجل النبي صلى الله عليه وسلم فان كانَ يجِبُ عليكم تعظيمهم فانه يجبُ عليَّ مِنْ بَاب أَوْلَى ، عملاً بقوله تعالى : « قل لا أسئلكُم عليه

---

١ – يعنى حرم المدينة المنوّرة .

أجراً الاّ المودّة في القربى » واجرى سبحانه وتعالى عادة حكمه ما تصدّى احد لعداوة اهل البيت الا اكبّه لوجهه . واما ما اوردتم من احاديث النصح فاني والله احب ان تنصحني سرّا وعلانيةً مع زيادة شكري عليها واراها منك مودّة واعدّها محبّة ، ولكنْ افعلُ من ذلك ما اقدرُ عليه لان الله تعالى يقول : « لا يكلّفُ اللهُ نفساً الّا وُسْعَها » وقد كثرقولهم. ولمْ آلُ جُهْداً في كذا ، لانَّ النفوس الشريفة العلية لا تترُك من فعل الخير والجدّ في اكتسابه الّا ما عزَّ تناولُه وصعُبَ اكتسابُه عليها .

واما ما ذكرتم من امر ابي محلّي وسيرته وما كان تسلّط عليه لولا ماكان من نُهوضكم اليه،أمَا تذكُرُ استنهاضنا لكم المرّةَ بعد المرة وتكرّرتْ في ذلك اليكم الرُسل حتى اجبت اليه وهُوَ أمْرٌ لا تحتاج فيه لإقامة حجّة غيرَ كونه خرج من الجماعة ، وقولِه صلى الله عليه وسلم مَن أراد أن يشُقّ عصاكم فاقتلوه كائناً مَن كان ، والّا فلو دخل المُلْكَ من بابه وبايعه أهلُ الحل والعقد واخذَ ذلك بوسائطَ مثْلَ بيْعة جدّنا المرحوم التي تضافرتْ عليها علماء المغرب وأهلُ الدين المشاهير ، ولو كان وَصل لذلك بمثل هذه الوسائط لَمَا وجب حربُه ولا القيامُ عليه بما ذكرْتم لان السلطان لا ينْعَزِلُ بالفسق والجوْر ، والّا فان الصحابة رضي الله عنهم في زمن يزيد بن معاوية لا يُحصَى عددُهم وما تصدّى احد منهم للقيام عليه ولا قال بعزْله ، والّا فانهم لا يُقيمُون على مثل ذلك ولو نُشرُوا بالمناشير . واما ابو محلي فبِمُجرّد قيامه يجبُ عليك وعلى غيرك اعانتُنا عليه لانك في

بيْعتنا وهي لازمة لك فالطاعةُ واجبة عليك . واعْلَم ان والدَك افضلُ منك بدليلِ ، (آباؤكم خيرٌ من ابنائكم الى يوم القيامة) وكان عمُّنا عبدُ الملك رضي الله تعالى عنه وسمَح له على ما كان عليه واشتهَر به اعـلاناً . وكان والدُك في دَوْلته وبيعتِه ووفَـد عليه ولم يستنكِفْ من ذلك ولا ظهَر منه ما يخالف السلطَنةَ ولا أنكر عليهــا ولا تعرَّض لما يسوء ملكَ الوقت ولا سُمِع ذلك منه ، فانْ كان راضيا بفِعْله فهو مِثْلُه وان لم يكن راضيا فما وَجْهُ سكوتِه والوِفَادة عليه ؟ واما ما ذكرتُم من أنَّ من اعان على قتل مسلم ولو بشطْر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيسٌ من رحمة الله ، فهذه حجة عليك لا علينا لأني ما سعيتُ في قتل احد ولا قُتِلَ مَن قُتِلَ الا بأمر القضاة واهل العلم . واعلم انه اذا كان هذا وعيداً في قتل الواحد فما بَالُك بمن يُريدُ فتْحَ باب الفتنة حتى لا يقفَ القتلُ على المائة والمائتيْن والالف والخمسةِ آلاف ونَهْب الاموال وكشْف الحريم وغير ذلك . أمَا تعلمُ انَّ أيامَ فتنةِ ابي محلي قـــد هلَك من النفوس والاموال بِسبَبِها ما لا يُحصي عدَدَه حاسِب . ولا يستوْفي نهايَته كاتب ، وكان ذلك في صحيفتهِ لانه المتسبِّب الأول الفاتح ابواب الفتنة لأنه كان يَقتُل كلَّ من انتمى الينا حتى قُتِل بسببه في يوم واحد بمكان واحـــد خمسمائة قَتيل ولولا ابو محلي ما قُتِلوا .

واعظمُ في حُرمة النفوس من هذا قولُه تعالى : « مِنْ أجْلِ ذلك ، كتَبْنَا على بَنِي إسرائِيلَ أنَّه مَن قتَـــل نفساً بغير نفسٍ أوْ فَسادٍ في

الأرض فكأنما قتل الناسَ جميعاً » وليس في قول الموّاق ما يُحتجّ به على السلطان وانما تكلم في أصحاب الخُطَط على الترتيب الذي كان على عهده، مثل اصحاب الشُّرَط كصاحب شُرْطة السُّوق الذي يُنفِّذ عن القاضي وغيرِ ذلك من الولايات. وولايةُ ابي محلي لا تعدُّ ولايةً حتى يُعَدَّ عزلُه عزْلا . وما عند الموّاق وغيرِه وقفْنا عليه وعرَفناه وتلَقَّيناه من الشيوخ الجلّة وعرَفْنا ما عند الشافِعية والحنَفية ودرسْناه المرةَ بعدَ المرةِ . ولستُ ممن ينطبِقُ عليه قولُه عليه السلام: أشقَى النـاس عالمٌ لم ينفَعْه اللهُ بعلمه . ولكن لماذا تجْنَحُ بقول الموّاق لغَرضِك وتجعـلُه حجةً ، ولم تُجِبْنا نحن فيما كتَبْنا اليك فيه في يُونُس اليُوسِي وقلنا لك قال ﷺ الحرَمُ لا يُعيذُ عاصيا قال : ألايِّي هذا ممَّا يُحتجُّ به على أهـل الزوايا ، فأخبِرْنا عن الوَجه الذي منَعتَه به من الشرع ومتَاعُنا عنـده وإمَاءُ أهلِنَا في داره وترتَّب في ذمَّته للمسلمين من الأموالِ والدِّمـاء ما يجِلُّ حصرُه ، فان كنتَ تُريد العدلَ فهلَّا عدلتَ فيه ؟ والناسُ خرجتْ على أطوارها واحبُّوا الفتنة طلباً للراحة فان كنتَ تُصغِي لِمقَالتهم وإسعافِ شهَواتهم والتعرُّضِ للسلطان، فهذا نفسُ خراب العالم .

ورأيتُ أن أُقدِّم لك مقدمةً أمامَ هذا ، وإن كانتْ أدبية ، قيل لابْنِ الرُّومي ، وهو علي بن العباس، لِمَ لَمْ تقُل كعبدالله بن المعتزّ :

كأنَّ آذرْيُونَنـا والشَّمْسُ فيه كَالِيَه
مَداهِنٌ من ذَهبٍ فيها بقَايَا غَالِيَـه

فاجاب بأنْ قال : هُوَ لا يقدِرُ أن يقولَ مثلَ قولي في وصْف الرّقاقـة :

إنْ أنسَ ، لَا أنسَ خبّازاً مررتُ به يدحُو الرّقاقةَ وَشْكَ اللمح بالبصر
ما بين رُؤْيتِها في كَفِّـهِ كُرَةً وبين رؤْيتِها قَوْرَاءَ كالقمر
إلاّ بِمقْـدار ما تَنْـداحُ دائرةٌ في صَفْحَةِ الماءِ يُرْمَى فيه بالحجر

وقال كلٌّ منا يصِفُ أَوانِيَ بيته ، وربُّ البيت ادرَى بما فيه ، واهلُ مكّةَ أدرى بشِعَابها ، والصّيْرفيُّ أعرفُ بنقـد الدينار وقضيةُ الخضِر والكَليم صلواتُ الله على نبينا وعليهما السلامُ فيها كفـايةٌ لمن يعتبر .. فأخبِرْنا كيفَ تُحِبُّ ان نسلك مع الناس في الغَرْب ، فان كنتَ تُحِبُّ أن نسلُكَ فيهم مسلَك مولاي عبد الله[1] فالزمانُ غيرُ الزمان والاسعارُ قـد ارتفعَتْ وبلغت النهاية والله تعالى قد بعث انبياءه وانزلَ كُتبَه بحسَب ما يقتضيه الزمان وهذا يعرِفُه من خالَط الشرائع والكُتبَ المنزلةَ وأخذَ العلم من أفواه الرجال وأدّبَتْه مجالِسُ العلم .

ونحنُ نُلَخِّصُ لكم الكلام على بعض ما أورد الناسُ في الخراج . أما ما بنَوْا عليه فرْضه في صدر الاسلام والدول العظام فـلا نُطيل بذكره لشهرته وأمّا في المغْرِب خصوصاً فأولُ من فرضه عبدُ المؤمن بن

---

١ – هو عم زيدان ويعرف بالغالب وكانت أيامه في غاية الرخاء .

علي وجعله على إِقْطاع الأرض بناءً على ان المغرب فُتِح عَنْوةً واليه ذهب بعضُ العلماء ومنهم مَن يقول ان السَّهْل فُتِحَ عنوةً والجبَل صُلْحاً. فاذا تقرَّر هذا علمتَ ان أهل هذا العصر قد بادُوا واندَثَرُوا فيكونُ السهلُ كلُّه لبيت المال وتعيَّن أن يكون الخراجُ فيه على ما يُرضِي صاحبَ الأرض وهو السلطان والجبلُ تتعذَّر معرفةُ ما كان الصلح عليه ولا سبيلَ الى الوقوف عليه فيَرجِعُ للاجتهاد. وقد اجتهد سلفُنا الكرام رضوان الله عليهم في فَرْضه لأول الدولة الشريفة على وَفْقِ أيمة السنة ومشائخ أهل العلم والدين في ذلك العهد فجرَى الأمرُ على السَّنَن الأقوم الى أن هبَّت عواصِفُ الفتنة لايام ابن عمنا صاحب الجبل[1] وازالَه مولانا الامام وصِنْوَهُ المرحوم عن حواضر المغرب وسَهْلِهِ عند الزَّحف بالاتراك، وامتدت به الفِتنَةُ في الجبل الى أن هلك[2] مع النَّصارى، دمَّرهُم الله في الغَزْوة الشهيرة وجَاءَ الله من مولانا المقدس[3] بالجبَل العاصِم للاسلام من طُوفَان الاهوال فقدَّر رضي الله عنه الاشياءَ حقَّ قدرها ورأَى المغرب غِبَّ تلك الفتن قد فَغَر الأفواه لانتهابه عَدُوَّان؛ عدوٌ عظيم من التُّرك، وعدوُّ الدين الطَّاغِيَة. فاضطُرَّ رحمه الله الى الاستكثار

١ — يريد به محمداً المتوكل الذي لجأ الى الجبل عند زحف عمه عبد الملك المعتصم على فاس بجيش الترك.

٢ — يعني ابن عمه المذكور.

٣ — أي والده المنصور الذهبي.

من الأجناد لمقاومة الاعداء والذبّ عن الدين وحمايةِ ثغور الاسلام فدعا تضاعُفُ الأجناد الى تضاعُفِ العطاء وتضاعُفُ العطاء الى تضاعُف الخراج وتضاعُف الخراج الى الاجحاف بالرَّعية، والاجحافُ بالرعية امرٌ يستنكف رضي الله عنه من ارتكابه ولا يرضاه في سيرةِ عدْله طولَ ايامه، فلم يبق له حينئذ الا أن أمعن النظر في اصْل الخراج فوجد بين السِّعْر الذي بُنِيَ عليه في قيمة الزرع والسمْن والكَبْش الذي تُعطِي الرعيةُ منذ زمان الفرْض بحسبه وبين سعر الوقت أضعافاً . فحينئذ تحرَّى العدلَ فخيَّرَ الرعيةَ بين دفْع كل شيء بوجهِه أو دفع ما يُساوِي سِعْرَ الوقت فاختارُوا السِّعْرَ مخافةَ أن يرتَفِع الى ما هو أكثر فأسعفَهم رضي الله عنه وعرَفَ الناس الحقَّ فلم يُنكِرْه واحد من أهل الدين ولا من أهل السياسية . وليتَ شِعْري لو طالبنا نحن الناسَ اليوم بسِعْر الوقت الذي ارتفَع الى أضعافٍ مُضعاعفةٍ ماذا تقولون وقد انتقدتُم علينا ما هُو أخفّ من ذلك ؟

وامَّا ما تقضيه من العجب لتعطيل أجوِبتِنا عنك حتى نُراجِع منك فان كتابك الكَّدتَ مبناه على قضية أهل أزمور فانفَذْنا مَن أخرج الذي كان به واقصاه عنه وسرَّح من كان عنده فتوقف الجواب حتى يرجع الخديم فحينئذ أجبناكم بما وصلكم . وكَوْنُ تعطِيل الجواب منشأه ما منَّ الله به علينا من رجوعنا الى سرير ملكِنا واجتماعنا بأبناء أمّنا فاعْلَم أن أهل المغرب لما تمالَؤُوا عليَّ وخرجتُ الى المشرق والتقيتُ بالترك

والأروام وجالسوني وجالستهم وخاطبوني وخاطبتهم ، منهم مُشافهةً ومنهم مُراسلةً ، كنتُ ايام مُقامي بارضهم كمُقامي على سرير ملكي لان كبيرهم وصغيرهم ورئيسهم ومرؤوسهم كان ينتجع فضلي ويمدُّ كف رغبتــه لنعمتي وواسيتُ الجميع عطاءً مُترَفاً مع قلة الزاد والذّخيرة ، وترفعتُ عن مُراسلة الاماثل والأكابر من العجم والعرب ولم أَرْكَن لأحد بل تجردتُ بمــا قدرتُ عليه من الأخبِيَة حتى جعلت مَحَلَّة برُمّتِها وخَيْلِها فترامى عليَّ العجمُ بالرغبة وبسطوا أكفَّ الضراعة في المُقــام عندهم والدخول في جُمْلتِهم وعرضوا عليَّ الإقطاعاتِ السَّنيةَ والبِلادَاتِ الملوكية بلُطفِ مقال وأدب خِطاب حتى قال القبطان مُراد رئيسُ المجاهدين : وما مثلك يكون مع الغرب ، ها نحن نخدُمك باموالنا وانفُسنا وبمـا لنا من السفُن حيث اردت واحببت وما انفصلتُ عنهم حتى كتبتُ لهم بخطي اني احمِلُ أهلي وحاشيتي وارجعُ اليهم الا ان تمكن لي الدخولُ في الملك والغلبةُ على البلاد وقد قفلتُ من عندهم ولم يتعلّق ثوبُ عفافي بما يَشينُه معهم ولا مع العَرب ولكن ليس لأحد عليّ منة ولا نعمة إلاّ فضلُ الله تعالى « وكان فضلُ اللهِ عليكَ عظِيماً » .

ثم اني دخلتُ سِجلماسةَ على رغم انف أهلِها وواليها ومنهـا دخلتُ للسوس وجعلتُ وليَّ الله تعالى العارف ابا محمد عبد الله بن مُبارَك واسطةً بيني وبــين اخي حتى اجتمعتُ بأهلي ومالي وبعثَ إليَّ التُّركُ بأحــد

بلكباش اسمه مصطفى صولحي الى السُّوس راغبين انجاز الوعد فجَنحتُ للمسير اليهم .فرأيتُ الأهلَ والأتباعَ قد عظُم عليهم الأمر واستكبروا الخروج فاسعفتُ رغبتهم في المُقام بالمغرب وشيَّعتُ الرسول قافِلاً الى قومه من سِجلماسة عند الدخول الثاني لها ومُغالَبة اهلِها عليها وعزَّزتُه برسول من عندي إليهم بتُحَفٍ وأموال ورَدَ بها عليهم مع رُسُولهم . ثم اني اقتحمتُ مراكش مع أهل فاس على كثرة عَـددِهم وعُدَدِهم وقلّتي ووحدتي وفتحَ اللهُ عليَّ ثم خرجتُ للسوس مرة أُخرى وأوقعتُ بولد مولاي احمد الشريف وجُموعِ مراكش وقد تعصبُوا عليه لانهم شيعةُ جَده ففضَضتُه على رَغْمِهم ونازلتُه بالسَّهْل والحَزْن حتى أمكن الله منه وحكم بيني وبينه . ثم نجم نجم الغَوِيّ ابي محلّي وغُلِبتُ على الرأي وقد قال مَن هو افضلُ مني مولانا علي كرم الله وجهه لا رأيَ لمن لا يُطاع ، ودخل هذه البلاد وخرجتُ انا للسوس بينما تجتمع لنا قبائلُنا في المكان الذي كان اجتماعهم فيه الى ان بلغتُهم وقصد إليهم ابو محلي فقاتلوه ورحَل عنهم بعد أن اثخَنُوا فيه بالقتل ثم وافيتُهم بالمكان والحرب بيننا سِجَال فهل سمعتُم خلال هذه الأحوال كلِّها اني احتجتُ لأحد فيما قلَّ أوجلَّ وهذا كله بحيث لا يخفَى عليك ، اللهم إلاّ أن تَعْتَدَّ الوِفادةَ التي وفدْنا عليك من قبيل الاضطرار والاحتياج فلا نَدْري .

على اني ما قصدتُك لطلب دنيا ، بل لأني كنتُ أسمعُ ما أنتَ عليه من

متانة الدين والصّلاح والاقبال على طاعـــة الله والتمسك بسنة رسول الله ﷺ لا غَرْوَ ومَن كان هـــذا وصفه جديرٌ بان يُقصَد للدعاء والتبرك ولإصلاح القلب . ولو علمتُ أن ذلك يُعَدُّ ويُظَنُّ انه نوع من الاحتياج والله ما كنتُ لأقفَ على أحد ولو انه يملّكني الدنيا بحَذَافِيرها لأن الخير والشر بيد الفاعل المختار وهو أولى إليه بالاضطرار .

واَمّا سِربي فما ترَوَّع قط حتى يأمن . وأمّا مَن كان في الدار التي ذكرتُم فانما هُم أهلِي ومَتْرُوكُ أعمامي . وأما ما أخبرَكُم به القـاضي فكلُّ ما حمل عني فهو حقّ وقد التزمتُه الى الآن إلّا ما طرأ علينا فيـه النِّسيان ذكرونا به فإنّا لا نخرُج عنه .

واما يمين المصُحَف وأني كنتُ حلفتُ فيه للقائد عبـد الصادق فلا واللهِ ما حلفتُ فيه ولا نحلِفُ لأحد الى لقـــاء الله . أَما علِمتَ انّي حضرتُ بيعةَ صاحب المغرب[1] سامحه الله وحضر اولادُ السلطان واستحْلَفهم له إلاّ أنا فانه قال : فلان لا يحلِفُ ولا يَحتاج اليـــه فما نأمُره به يفعَلهُ وعظُم ذلك على إخوتي وظَهرتْ في وُجوههم الكَرَاهِيَّة لأجله . ولكن

---

١ – يعني بيعة أخيه المأمون بولاية العهد أيام أبيهما المنصور .

الذي قلتُ لعبد الصادق احلِف للمرابط[٢] وأنا أُوفي لكَ به ومازالتُ على ذلك الى الآن .

واما الامتعاضُ من عدَم إلانَةِ القول وحُسْنِ الخطاب كما قال اللهُ تعالى : « وقُولُوا للنَّاس حُسْناً » وأنَّك لم تبلُغ ولو نِصْفَ ما خاطب به الأيمةُ رضوانُ الله عليهم أهلَ زمانهم اتكالاً على علمنا به فحسْبِي نُصْحُ الفُضَيل بنِ عِياض وسُفيان الثَّوْري ومالِك بنِ أَنس رضي الله عنهم فهذه المسألةُ حسبي في الجواب عنك والسلام .

•

٢ — المقصود بالمرابط الشيخ يحيى ولفظ المرابط كثيراً ما يطلقونه على السادة والأشياخ .

الرسائل

أ- السلطانيّات

توقيع يوسف بن تاشفين

على كتاب الفونش

كتب الفُونش الى يوسف بن تاشفين لمَّا سمع باستدعاء ملوك الطوائف له وعزْمِه على الجوَاز الى الاندلس ، كتابا يهدده فيه ويُغلِظُ له القول ليصرفه عن الجواز فوقَّع على ظهر كتابه « الجوابُ ما ترى لا ما تسمع » فعَلِم الفونش انه بُلِيَ برجل يفعل ولا يقول .

كتابه بالفتح في واقعة الزلاّقة الى العُدْوة

أما بعد حمد الله تعالى المتكفِّل بنصر أهلِ دينِه الذي ارتضاه ، والصلاةِ والسلامِ على سيدنا محمد أفضلِ رُسُلِه وأكرم خَلْقِه وأسْراه ، فإنَّ العدو الطاغِيَةَ لعنه الله لما قرُبنا من حِماه ، وتوافَقْنا بازائه لَقنَّاه الدعوة وخيَّرْناه بين الاسلام والجِزْيةِ والحربِ ، فاختار الحربَ فوقعَ الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة في يوم الاثنين الرابع عشر لرجب وقال الجمعةُ عيدُ المسلمين والسبتُ عيدُ اليهود وفي عسكرنا منهم خلق كثير والأحدُ عيدنا نحن فتفرقنا على ذلك واضمَر اللعين خِلَافَ ما شرطناه

وعلمْنا انهم أهل خدْع ونقض عهُود فأخذنا أُهبةَ الحرب لهم وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا الينا أحوالهم فاتتنا الانباء في سَحَر يوم الجمعة الحادي عشر من رجب المذكور بان العدو قد قصد بجيوشه نحوَ المسلمين يرى انه قد اغتنم فُرصتَه في ذلك الحين فانتدَبت اليه أبطالُ المسلمين وفُرسان المجاهدين فتغشَّتْه قبل أن يتغَشَّاها[1] وتغدَّتْه قبل أن يتعَشَّاها ، وانْقضَّت جيوش المسلمين في جيوشهم انقِضاضَ العُقابَ على عَقيرَتِه ، ووثبتْ عليهم وُثوبَ الأسد على فَرِيسَته ، وقصدنا بِراَيتنا السعيدة المنصورة ، في سائر المشاهد المشهورة ، في جيوش لَمْتُونة نحوَ الفُونش فلما أبصر النصارى راَيتنا المشتهرةَ المنتَشِرة ونظروا إلى مَراكِبنا المنتَظِمة المظفَّرَة ، وغشيَتْهم بُروقُ الصِّفَاح ، وأظلَّتْهم سحائِبُ الرِّماح ، وزلزَلتْ حوَافِرَ خيولهم رُعودُ الطبول بذلك الفيَّاحِ ، التحَم النصارى بطاغيتهم الفونش وحملُوا على المسلمين حَمْلةً مُنكَرة فتلَقّاهم المرابطون بنية صادقةٍ خالِصَة وهمم عالية فعصفَتِ ريحُ الحرب ، ووكَفَت دِيَمُ السيوف والرماح بالطَّعْن والضرب ، وطاحت المُهج ، وأقبل سيْلُ الدِّماء في هَوَج ، ونزل من سماء الله على أوليائه النصرُ العزيز والفرَج ، وولَّى الفَونش مطعونا في إحدى رُكْبَتَيْه ، طعنةً أفقدته إحدى ساقَيْه ، في خمسمائة فارس من مائة وثمانين الفَ فارس ومائتي الفِ راجِل ، قادَهم اللهُ الى المصَارِع والحَتْف

---

١ — في الاصول فتعشته بالعين المهملة وليس بصواب فان المراد نازلته وغشيته .

العاجل ، وتخلَّص لعنه الله الى جبل هنالك ونظَر النّهْب والنيرانَ في مَحَلَّتِه من كُلِّ حانب وهو من أعلى الجبل ينظُرها شزْراً ، لم يجِدْ عنها صَبْرا ، ولا يستطيعُ عنها دِفاعاً ولا لها نَصْرا فأخذ يدعُو بالثُّبور والوَيْل ، ويرجُو النجاةَ في ظلام الليل واميرُ المسلمين بِحَمْدِ الله قد ثبتَ في وَسط مَراكبه المظفَّرَة . تحتَ ظلال بنوده المَنَشَّرَة منصورَ الجهاد ، موفُورَ الأعداد ، يشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد ، وقد سرَّحَ الغارات في مَحلَّاتِهم تَهْدِمُ بناءَها وتستلم ذخائرَها واسبابَها ، وتُرِيهِ رأيَ العين دَمارها ونِهابَها ، والفونشُ ينظر اليها نظرَ المَغْشِيِّ عليه ويعَضُّ غيْظاً وأسفاً على أنامِل كفَّيْه ، وحين تمت الهزيمة وتتابع الفرار ، عاد رُؤساء الاندلس المنهزمون نحو بَطَلْيَوْس والغار ، وتراجَعُوا حذراً من العار ولم يثْبُتْ منهم غيرُ زعيم الرؤساء والقُوَّاد ، أبو القاسم المعتمدُ بنُ عبَّاد ، فأتى الى أمير المسلمين وهو مَهيضُ الجناح ، مَريضُ عَناءٍ وجِراح [1] ، فهنَّأهُ بالفتح الجميل ، والصُّنْع الجليل ، وتَسلَّل الفونش تحتَ الظلام ، فارّاً لا يهدأ ولا ينام ، ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعمائة فلم يدخل طليطلة الا في مائة فارس والحمد لله على ذلك كثيراً .

---

١ — أبلى المعتمد في وقعة الزلاقة بلاء حسنا وأصيب فيها بجروح .

ظهير[1] له في تلقيبه بامير المسلمين وناصر الدين

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين ، الى الاشياخ والاعيان والكافّة من أهل فلانة[2] أدام الله كرامَتهم بتقواه ووفّقهم لما يرضاه . سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، أما بعد حمد اللهِ اهلِ الحمد والشكر ، مُيسّر اليُسْر وواهب النَّصْر ، والصلاةِ على محمد المبعوثِ بنور الفُرقان والذكر ، فإنّا كتبناه اليكم من حضرَتِنا العَلِية بمراكش حرسها الله في نصف مُحرَّم سنة ستة وستين وأربعمائة وإنّا لمّا منّ الله علينا بالفتح الجسيم ، وأسبَغَ علينا من نِعَمه الظاهرة والباطنة وهدانا إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم ، صلى الله عليه أفضلَ الصلاة وأتم التسليم ، رأيْنا ان نُخَصِّصَ انفسَنا بهذا الاسم لنمتاز به على سائر امراء القبائل وهو أميرُ المسلمين وناصرُ الدين فمن خطَب الخطبةَ العلية السامية فَلْيَخْطُبْها بهذا الاسم إنْ شاء الله تعالى ، واللهُ وليُّ العدل بمَنّه وكرمه والسلام .

---

١ – الظهير في الاصطلاح المغربي يعني المرسوم الملكي وذلك لان حامله يستظهر به .

٢ – يعني المدينة أو القبيلة .

كتاب عبد المؤمن الى الشيخ محمد بن سعد المعروف بابن مَرْدَنيش صاحب شرق الاندلس

يدعوه الى الدخول في دعوتهم ويظن أنه من انشاء الوزير أبي جعفر بن عطيّة

من امير المؤمنين أيّده الله بنصره، وأمدّه بمعُونته، الى الشيخ ابي عبدالله محمد بن سعد وفّقه الله، ويسّره لِما يَرضاه، سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فالحمد لله الذي له الاقتدار والاختيار، ومنه العَوْنُ لأوليائه والإقدار، وإليه يُرْجعُ الامرُ كلُّه فلا يَمْنعُ منه الاستبداد والاستئثار، والصلاةُ والسلامُ على محمد نبيه الذي ابتُعِثَتْ ببعثه الاضواء والأنوار، وعُمِّرت بدعوته الأنجادُ والأغوار، وخَصَم بدعوته الكُفْرَ والكفار، وعلى آله وصحبه الذين هم الكرام الأبرار، والمهاجرون والانصار، والرضا عن الامام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله حين غيّرَتْه الأغيار، وانْعَدمَ الامتعاضُ له والانتِصار . وهذا ـ كتابُنا كتب الله لكم نظراً يُرِيكُم المَنْهَج ويُلَقِّيكُم الأبهجَ فالأبهج، وآتاكم الله من نعمة الايمان، وعِصْمَةِ الانقياد له والإذْعان، ما تجِدُونَ به اليقينَ والثَّلج ـ من حضرة مراكش حرسها الله تعالى، ولا استظهارَ إلا بقُوَّته وحَوْلِه، ولا استكثارَ إلاّ من إحسانه وطَوْلِه .

ولما جعل اللهُ هذا الأمرَ العظيمَ رحمةً لِخَلْقه ومَطِيّةً لِرُقِيِّه وقَرارةً لإقامة حقِّه، وحمّل حَمَلَتَه الدعاءَ إليه، والدّلالةَ به عليه والترغيبَ في

عظيم ما عنده ونعيم ما لديه ، وجعل الإنذار والإعذار من فُصوله المستوْعَبة ، وأحكامه المرتبة ، ومُنتجاتِه المُخلِّصة من الخطوب المُهلِكة والاحوال المُعْطِبة - رأينا ان نخاطبكم بكتابنا هذا أخذاً بأمر الله تعالى لرسوله في المضاءِ الى سبيله ، والتحريض على اغتنام النَّجاءِ وتحصيله ، وإقامة الحجة في تبليغ القول وتفصيله ، فأجيبوا - رفعكم الله - داعي الله تسعَدُوا ، وتمسكوا بامر المهدي - رضي الله عنه - في اتباع سبيله تهتدوا ، واصرِفوا أعِنَّةَ العناية الى النظر في المآل والتفكُّر في نواشيء التغيُّر والزوال ، وتدبروا جَرْيَ هذه الأمور وتصرُّفَ هذه الاحوال ، واعلمُوا أنه لا عِزَّةَ إلاّ باعزاز الله تعالى فهو ذو العزة والجلال ، ولا يغرنَّكُم بالله الغَرور ، فالدنيا دار الغُرور ، وسُوق المِحَال ، وليس لكم في قبول النصيحة ، وابتداء التوبة الصحيحة ، والعمل بثبوت الايمان في هذه العاجلة الفسيحة ، الا ما تُحِبُّونه في ذات الله تعالى من الأمنة والدَّعة ، والكرامة المتَّسِعة والمكانة المرفَّعة ، والتنعُّم بنعيم الراحة المتصلة والنفس المُمتَنِعة ، فنحن لا نريد لكم ولسائر من نرجو إنابتَه ، ونستدعي قبولَه وإجابته ، إلاّ الصّلاحَ الأعمّ ، والنجاح الأتمّ ، وتأملوا سددكم الله من كان بتلك الجزيرة حرَسها الله من أعيانها وزعماء شأنها ، هل تخلَّص منهم الى ما يودُّه ، وفاز بما يدَّخره ويُعِدُّه ، الّا من تمسَّك بهذه العروة الوثقى ، واستبقَى لنفسه من هذا الخير الأدومَ الأبقَى وتنعَّم بما لَقِيَ من هذا النعيم المقيم ويَلْقَى ، وأما مَن أخلَد الى الارضِ واتَّبع هواه ، ورَغِبَ بنفسه عن هذا الامر

العزيز الى ما سِواه ، فقد عَلِم بضرورتَي المُشاهَدة والاستفاضة سُوءَ مُنقَلَبِه ، وخسارةَ مذهبه ومطلَبه ، وتنقَّل منه حادثُ الانتقام اخسرَ ما تنقَّل به ، وحقَّ عليكم ـ وفّقكم الله وسيَّركم لما يرضاه ـ أن تُحسِنُوا الاختيار ، وتصِلُوا الادِّكار والاعتبار ، وتبتدروا الابتدار ، وما حقٌّ من انقطع الى هذا الأمر الموصول الواصل ، وأزْمع ما يناله من خيره المحوُز الحاصل ، ان يناله منكم شاغل يشغَلهُ عن مقصودِه ، ويحيط به ما يصرِفُه عن محبوبه ومَوْدُودِه . فقد كان منكم في أمر أهل بَلنسية حين اعلانهم بكلمة التوحيد ، وتعلُّقهم بهذا الامر السعيد ، ما كان ثم كان منكم في عَقِب ذلك ما اعتمدتموه في أمر أهل لَوْرَقَة ـ وفقهم الله . حين ظهر اختصاصُهم وبَانَ اخلاصُهم ، وليس لذلك وأمثاله عاقبة تُحمَد ، فالخير خيرُ ما يُقصد ، والنجاة فيما يُنْزِح عن الشر ويُبعد ، وانا لنرجو ان يكفَّكم عن ذلك واشباهه نظرٌ موفق ، ومتاع محقق ، ويَجذِبكم الى مُوالاة هذه الطائفة المباركة جاذبٌ يُسعِد وسائق يُرشِد ، والله يمنُّ عليكم بما ينجيكم ويمكن لكم في طاعته أسباب تأميلكم وتَرجِّيكم بمنه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

رسالة من عبد المومن أيضاً الى أهل تلمسان

وهي من إنشاء الكاتب أبي عقيل بن عطية

من أمير المؤمنين أيده الله بِنَصره ، وأمده بمعونته ، الى الطَّلبة الذين بتلمسان وجميع من فيها من الموحدين أدام الله كرامتَهم بتقواه ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد فالحمد لله الذي وسِعَت رحمته كلَّ شيء على العموم والاطلاق وجمعت عصمتُه أهلَ الاجتماع على طاعته والاتفاق ، وتمت نعمتُه تماما على أبلغ وجوه الانتظـــام والاتّساق ، والصلاةُ على محمد نبيه المُبتَعَث لتتميم مكارم الأخلاق ، وعلى آله الطاهرين وصحبـه المتوازرين أُولى البَوَاء الى مَرْضاته والاستباق ، والرِّضى عن الامام المعصوم ، المهدي المَعْـــلوم ، علَم الأعلام ، وذَخيرة الايمان والاسلام ، وبدر الكمال والتمام ، الطالع بأشرف مطالع الاشراق ، الفارِع عند تطاول الرؤوس والأعناق ، الجامع أشتاتَ الفضل وأجناسه على الاستيفاء والاستغراق ، وهذا كتابنا اليكم كتبَ الله لكم فيما خوّلكم النَّماء والزيادة ، ومكَّن في تمكينكم واصلاح شؤونكم الإنالةَ والافادة ، وبسط في أرجائكم ومتعلَّقــات رجائكم اليُمْن والسعادة ، من حضرة بِجَايَةَ حرَسها الله عن أحوال ترتَّب صلاحُها على أفضل وُجوده ، وفُتُوح تتابع افتتاحُها في قريب المعمور وبعيده ، وبَشائِر يُنزَّه بِشرها وسَماحُها عن الجَرْي على مُعتـاد الدأب المـألوف ومعهوده ، وآياتٍ بيّنات أغنى تجَلِّيها واتضاحُها عن كل برهان وجُحودِه ، نسألُ الله سبحانه عوناً يُعِينُ وينهض ، وعمـلاً يتخلَّص بشكر آلائه الباهرةَ ويُمْحِضْ ، وقوةً لا تَنتكِثُ بالعجز عن أداء حقوقه ولا تَنتقِض ،

وقد تقدَّم اعلامُكم واصل الله سرورَكم ، وضاعف شَكُورَكم بما كان من صُنْع الله تعالى في فتح هذه البلاد التي يسَّر مرامها بحوْله واقْتِداره ، ونوَّر ظلامها بأَضواء هـذا الأمر السعيد وأنواره ، وصيَّر

أَباطِحَها وآكامَها مِن مَواطِىء أوليائه وأنصاره، وإنَّ أبا زكرياء يحيى ابنَ العزيز بالله بنِ المنصور[١] وجميعَ إخوَتِه وقَرابته وخُؤُولته حين أتاهم الرائِدُ الذي لا يكذِبُ أهلَه، وانتَحاهم القائد المُبيحُ وعْرَ المنتحى وسَهْله، لم يكن لهم بُدٌّ من التولّي عن قَرارهم والتخَلّي عن أوطانهم وأقطارهم، لِأمْرٍ قضى الله فيه لهذا الأمر المبارك بخير قضائه، وشأنٍ طوَى الخِيرَةَ دَرْجَ تضمُّنِه واقتضائه، فكانَ مَأَمُّهم الذي اعتقدوا مَنعَته وحصانته، واعتمدُوا ثِقتَه عليهم وأمانته، بلدَ قُسَنْطينة عمره الله، لكونه بحيثُ لا ينالُ بقُدرة مخلوق، وأينَ[٢] يسْتَعلي بامتناعه على كل ملحوظ بعين المحاربة أو مَرْموق، وكانت جُمَل من عساكر الموحدين حين اختلال الجملة المذكورة فيه، واعتدادهم في عِداد من يحويه ويؤويه، بجهة القَلْعة حرسها الله على إثْر فتحها المُيسَّر، ونيْل أجرها على الوجه المتخيَّر، فأنهِض منهم بعون الله الى تلك الجهة من رُجِيَ الخيرُ في إنهاضه، وحُضَّ على خدمة هذا الأمر وأغراضه، فحِينَ ألَمَّ الناهضون المذكورون وفَّقهم الله بجهات قسنطينة حرسها الله، فُتِحَ لهم الفتحُ الذي تقدَّم اليكم بيانُ القول فيه واعرابُه، وأوردَ عليكم إبداعُ القدَر في تقريبه واغرابُه، وعلمتم كيف انهزمت له جموعُ الضلال وأحزابُه، وحلّ الموحدون

١ – يعني صاحب مملكة بجاية التي اكتسحها عبد المؤمن في جملة ما اكتسح من بلاد الشمال الافريقي .

٢ – أين هذه، معطوفة على بحيث قبلها .

هناك وفقهم الله بساحة ذلك القطر وثراه، وغشيه منهم ما غشيه وعراه، وما تُرك القَطا به أن يطعَم كَراه .

وكان التَّخييم المُلاصِق، والتَّدويم المراهِق، والحق يتجلّى، والنصرُ يتولّى من إظهار الطائفة العزيزة ما يتولّى، الى أن صرَف اللهُ ألبابَ القوم المذكورين الى قِبْلة الإصابة، وأراهم أن النجاة في جانب هذه العِصابة، والحياة في قرارها الذي هو مقرُّ قَرار اليمن والمثابة، فاتفق رأيهم على انفاذ جماعة منهم فيهم أخو أبي زكرياء وشيوخ صَنْهاجة وقُسَنْطينة معتصمين بهذه العُروة الوثقى، مُستَسلمين للأمر الذي لا يُقابَل بعِناد ولا يُلقَى، سائلين من التأمين والإبقاء ما يدوم خيرُهُ للمحقّ السّائل ويبقى، ووصلت الجماعةُ المذكورة الى هذه الحضرة المحروسة يسعى أملُها بين يديها، ويُعرّف القصد عما لدَيْها، وأنهَتْ ما تحملته من المُخاطبة، وأمّته لَها ولمن وراءها من حُسن العاقبة، فمنَّ الله على جميعهم بتيسير مطلَبهم، واجمال منقلَبهم، وصدروا الى مُرسِلهم تتهلل أسِرَّتُهم، وتتجمل بحُلَل العافية والنعمة الصافية كَرَّتهم، فأتوا قومَهم على تطلُّع الى بشراهم، وتمتُّع بطيب ذِكْراهم، وأعلَموهم بالصُّنع الذي عرَّفهم تعظيمَ صُنْع الله وأدرَاهم، فرأوا أجمعين أن الله سبحانه سنّى لهم بفضله غاية ما طلَبُوا، ورزقَهم من حيث لم يحتَسِبوا، ووهَبهم من إيواءِ الفضل وقبوله فوق ما استوْهبوا، حين لم يكن لهم منجىً إلا الذي نزَحُوا عنه وهَربُوا، وفتحوا أبوابَ المدينة المذكورة عند تيقُّن الأمر وتحققه، وتعرُّف سنةِ هذا الأمر المبارك وعظيم خُلقِه، وخرَجوا عن آخرهم فَرحين بفضل

الله ورحمته الواسعة ، مُستظِلّين بظِلال هذه الدعوة المُحيطة الجامعة ، ودَخل القُطر من أُمَناء الموحدين وغُزاتِهم ، وفّقهم الله من أمر بعِمارته ، والاستقرار في قَرارته ، واستقبل أبو زكرياء المذكور ومَن معه وفقهم الله هذه الجهة حرسها الله على أحسنِ حال وأكرم اقبال ، وأتمّ اللهُ نعمتَه بهذا الفتح المحيط ، والصُّنع المبسوط ، اتماما بلَّغ الآمِلَ غايةَ مأموله ، اوالسائِلَ كافّة مسؤولِه ، فذلك القُطر هو الطَّرَفُ الأعلى والرابطُ الأحقُّ لأوْلَى ، ورأسُ الجسد الذي استَتْبع بعضه بعضاً واستَتْلَى ، وبه انعقدت روابطُ هذا الإقليم العظيم وقواعده ، وفَقدت ضرَرَ من كان ينوي الضرر فَواقِدُه ، ومعه تأَتّى جمعُ شملِه وضَمُّه ، وامساكُ شأنِه كلِّه وعزْمُه ، وبه خُتِمَ كتابُه وكرَمُ الكتاب خَتْمُه ، واللهَ نسألُ بشُكْر هذه النعم المتظاهرة عونا ممدودا ، وحولاً بمعَاقِد المعونة الرّبّانية معقوداً وقوةً تلْقَى من حمْدِها الى كل جديد منها جديداً بمنّه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

توقيعه على رسالة أبي جعفر بن عطية

كان عبد المؤمن قد نَقِم على وزيره أبي جعفر افشاءه لسرّ أفضى إليه به فقَبض عليه ثم نكَبه وقد صدرت من ابي جعفر إليه رسائل استعطاف بليغة يتنصّلُ فيها من الذنب ويعتذر . فوقّع عبدُ المؤمن على إحداها : « الآن وقد عصيتَ قبلُ وكنتَ من المفسدين » .

رسالة أبي حفص الهنتاتي الى عبد المؤمن بالفتح

في ثورة ابن هود ، وهي من انشاء الوزير ابي جعفر بن عطية

كتابُنا هذا من وَادِي مَاسّة بعد ما تجدّد من أمر الله الكريم ، ونصره تعالى المعهُود القـديم ، (وما النَّصرُ إلا من عند الله العزيز الحكيم ،) فَتْحٌ بهر الأنوارَ اشراقاً وأحدق بنفوس المؤمنين إحداقاً ، ونبَّه للأماني النائمةِ جفونا وأحداقا . واستغْرقَ غـايَة الشكر استغراقا ، فلا تُطيقُ الالسُنُ لِكُنْهِ وصفه إدراكاً ولا لَحاقا ، جمع اشتاتَ الطلب والأرب ، وتقلَّب في النعم أكرم مُنقلَب ، وملأ دِلاءَ الأمل الى عَقْدِ الكَرَب[1] .

فتـحٌ تفتَّحُ أبوابُ السماء له وتبرُزُ الارض في اثوابها القُشُب

وتقدمت بِشارَتُنا به جُملةً ، حين لم تُعطِ الحال بشرحـه مُهْلَة : كان اولائك الضالُّون قد بطِرُوا عدوانا وظلما ، واقتطعوا الكُفر معنىً واسْما ، وأملَى الله تعالى لهم لِيزْدادُوا إثْما ، وكان مُقدَّمُهم الشقِيُّ قـد استمال النفوس بخزَعْبِلاته واستهوَى النفوس بِجُهولَاته ، ونَصَب له الشيطان من حِبالَاته ، فأتته المخاطباتُ من بُعْدٍ ومن كَثَب ، ونسَلت إليه الرسُل من كل حدَب ، واعتقدته الخواطِرُ اعجبَ عجَب . وكان الذي قادهم الى

[1] — الكرب حبل يصل ما بين الرشاء والدلو فاذا وصل المـاء الى عقده فذلك غاية الامتلاء ، وهذا مثل .

ذلك ، وأوردَهم تلك المهالِك ، وصولُ مَن كان بتلك السواحل ممن ارتسَم برسم الانقطاع عن الناس فيما سلَف من الأعوام ، واشتغل على زعمه بالقيام والصيام آناءَ الليل والأيام ، لَبِسوا الناموسَ أثوابا ، وتدرَّعوا الرياءَ جلبابا ، فلم يفتَح اللهُ تعالى لهم للتوفيق بابا .

ومنها في ذكر الثائر المذكور[1]

... فصُرِعَ بحمدالله تعالى لِحينِه ، وبادرتْ إليه بَوادِرُ مَنُونِه ، وأَتَتْه وافِداتُ الخطايا عن يَساره ويمينِه ، وقد كان يدَّعي انه بُشِّر بأن المنية في هـذه الأعوام لا تُصيبه والنوائب لا تَنُوبه ، ويقول في سواه قولًا كثيرا ويختَلِقُ على الله إفْكا وزُورا ، فلما رأوْا هيئةَ اضطجاعِه ، وما خطَّتْه الأَسِنَّةُ في أعضائه وأضلاعِه ، ونفَذ فيه من أمر الله تعـالى ما لم يقدِرُوا على استرجاعِه ، هُزِمَ من كان لهم من الأحزاب ، وتساقَطوا على وجوهِهم تساقُطَ الذُّباب ، واعطوا على بَكْرةِ أَبيهم صفَحاتِ الرِّقاب ، ولم تَقْطُر كُلُومُهم الاَّ على الأعقاب فامتلأَت تلك الجهـات باجسادِهم ، وآذنَت الآجالُ بانقراض آمادِهم ، واخذَهم الله تعالى بكُفْرِهم وفسادِهم ، فلم يُعايَنْ منهم إلاَّ من خرَّ صريعاً وسقَى الأرضَ نجيعا ولَقِيَ من أمر الهِنْدِيّات فظيعا ، ودعت الضرورة باقِيَهم الى الترامي في الوادي . فمَن

---

١ — لم نر من ذكرها كلها فاقتصرنا على ما ذكروه منها .

كان يؤمّلُ الفرار ويرتجيه ، ويسبَحُ طامعا في الخروج الى ما يُنجّيه ، اختطفته الأسِنَّةُ اختطافا ، واذاقته موتا زُعافاً ، ومَن لجَّ في الترامي على لُجَجِه ، ورام البقاء في ثَبَجِه ، قضَى عليه شرَقُه ، وألْوَى بِذَقَنِه غَرقُه ، ودخل الموحدون الى البَقِية الكائنة فيه يتناولون قتْلَهم طعْناً وضرْبا ، ويُلَقُّونهم بامر الله تعالى هوْلاً عظيماً وكَرْبا ، حتى انبسطت مُراقَاتُ الدّماء ، على صفحَاتِ الماء ، وحكَت حمرتُها على زُرقَتِه حُمْرةَ الشفق على زُرْقةِ السماء ، وجرت العِبرةُ للمعتبِر ، في جَرْي ذلك الدم جَرْي الأبحُر.

توقيع المنصور الموحدي على كتاب الفونش

كان المنصور الموّحدي حسنَ التوقيع جدا يضرب به المثل في ذلك وكتب إليه الفونش حين كان يستعِدُّ لغزْوَة الأرْك الشهيرة يتوعده ويهدده ويطلب إليه أن يبعث بقِطَع من اسطوله ليجُوزَ هو الى محاربته في عُقْر داره ويكْفيه مَؤُونَة الحركة فلما وصل كتابه الى المنصور مَزّقه وكتب على ظهر قطعة منه « إرْجعْ إليهم فلَنأْتِيَنَّهُم بجنود لا قِبَلَ لهم بها ولَنُخْرِجَنَّهُمْ منها أَذِلَّةً وهم صَاغِرُن » ثم كتب « الجوابُ ما ترى لا ما تسمع » وانشد متمثلا :

ولا كُتْبَ إلّا المَشْرَفِيَّةُ والقَنَا ولا رُسُلٌ إلّا الخَمِيسُ العَرَمْرَمُ[١]

---

١ — البيت للمتنبي ، والمشرفية السيوف والقنا الرماح والخميس العرمرم الجيش الكثيف

توقيع آخر له

طلب يوماً من قاضيه ان يختار له رُجلَيْن لِغَرضَيْن من تعْليم وَلد وَضبْطِ أمرٍ فعرَّفه برَجلَيْن قال في أَحدِهما : هو بَحْرٌ في عِلْمه وقال في الآخر : هو بَرٌّ في دِينه . ولمَّا خرج المنصور احضرهُما واختَبرهُما فقصَّرا بين يَديْه واكذَبا الدعوى فوقَّع المنصور على رُقْعَة القاضي « اعوذُ بالله من الشيْطان الرَّجيم ، ظهَر الفسَادُ في البَرِّ والبَحْر »

رسالة للمأمون الموحدي من انشائه

في الاعلان بابطال دَعْوى المهدي وعِصْمته

من عبدالله ادريس أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين الى الطلَبة والاعيان والكافَّة ، ومَن معهم من المؤمنين والمسلمين ، أوْزَعهم الله شكرَ نعَمه الجسام ، ولا أعدَمهم طلاقة أوجـــه الأيام الوِسَام ، وإنَّا كتبناه اليكم كتب الله لكم عملا مُنقادا ، وسعدا وقَّادا ، وخاطرا سليما ، لا يزال على الطاعة مُقيما ، من مراكش كلأَها الله تعالى وللحق لسان ساطع ، وحكم قاطع ، وقضاء لا يُردّ ، وباب لا يُسَدّ ، وظِلال على الآفاق ، تمحو النّفاق ، والذي نوصيكم به تقْوَى الله والاستعانةُ به ، والتوكلُ عليه ، ولتعلموا أننا نبذنا الباطل وأظهرنا الحـــق ، وأن لا مهديّ

إلا عيسى بن مريم ، الناطق بالصِّدْق ، وتلك بدعة قد أزلناها ، والله يُعِينُنا على القلادة التي تقلَّدناها ، كما أزَلْنا لفظَ العِصمة عمن لا تثبُت له عصمَة ، وأسقطنا عنه وَصْفَه ورَسْمَه ، وقد كان سيدنا المنصور رضي الله عنه[1] هَمَّ أن يصدَع بما به الآن صدعْنا ، وأن يرقَع للأمة الخرْق الذي رقَعْنا ، فلم يساعده لذلك أملُه ، ولا أجَّلَه إليه أجلُه ، فقدم على ربه بصدق نيّة ، وخالص طوية ، وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصَّحابة ، فما الظنُّ بمن لا يدري بأيِّ يدٍ يأخذُ كتابَه ، أُفٍّ لهم قد ضلوا وأضلُّوا ، وسقَطوا في ذلك وزَلُّوا ، اللهم اشهد أننا تبَّرأْنا منهم تبرُّأَ أهل الجنة من أهل النار ، ونعوذُ بك من أمرهم الرَّثِيث ، وفِعْلهم الخبيث ، لأنهم في المعتقد كفار ، والسلام على من اتبع الهدى واسْتقام .

رسالة أخرى له من انشائه أيضا

في توبيخ أهل أندُوَجر[2] على تخلُّفهم عن قتال العدو

الى أهل الجماعة والكافَّة من فلانة ، وقاهم الله عثراتِ الألسنة ، وأرشدهم الى مَحْو السيئة بالحسنة .

أما بعد ، فانه قد وصل من قِبَلكم كتاب وجَّهَ لكم أسهُمَ الانتقاد ،

---

١ — يعني والده المنصور الموحدي .

٢ — مدينة صغيرة بناحية قرطبة .

من جميع الأشهاد ، ورماكم بالداهية الدهياء ، والداء العياء ، أتعتذرون من المجال بضعف الحال ، وقلة الرجال ، لنلحقكم بربات الحجال ، كأنّا لا نعرف مناحي أقوالكم ، وسوء تقلبكم في أحوالكم ، لا جرم أنكم سمعتم بالعدو قصمه الله ، وقصده ذلك الموضع عصمه الله ، فطاشت قلوبكم خوراً ، وعاد صفوكم كدراً وشممتم ريح الموت ورداً وصدرا ، وظننتم أنكم أحيط بكم من كل الجوانب ، وأن الفضاء قد غصّ بالتفاف القنا ، واصطفاف المقانب ، ورأيتم غير شيء فحسبتموه طلائع الكتائب[1] ، تبّاً لهممكم المنحطة ، وشيمكم الراضية بأدون خطة ، أحين ندبتم الى حماية اخوانكم ، والذبّ عن كلمة ايمانكم ، نسّقتم الأقوال وهي مكذوبة ، ولفّقتم الأعذار وهي بالباطل مشوبة ، لقد آن لكم أن تتبدلوا حمل الخرصان ، بمغازل النسوان ، فما لكم ولصهوات الخيول وانما على الغانيات جرّ الذيول[2] ، أتظهرون العناد تصريحا وتلويحا وتظنون أنكم اذا تفرقتم لا نجمع لكم شتاتا ولا ندني منكم نزوحا ، أين المفرّ وأمر الله يدركم ، وطلبنا الحثيث لا يترككم ، فأميطوا هذه النزعة النفاقية عن خواطركم قبل أن نمحو بالسيف أقوالكم

---

١ — هذا مأخوذ من قول المتنبي :

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم اذا رأى غير شيء ظنه رجلا

٢ — هو من قول عمر بن أبي ربيعة :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

وأفعالكم ، ونستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ، ونحن نُقسِمُ بالله لو اعتسفتم كلَّ بيداءَ سَمْلَق[1] واعتصمتم بأمنع معقِل وأحفل فَيْلَق، ما وَنِينا عنكم زمانا ، ولا ثَنَيْنا عن استئصالكم عِنانا ، فلا يغرنَّكم الامهال ، أيها الجهـال ، فأدْوَاءُ الأهواء بالسيف تَنْحسِم ، واذا رأيتم نيوبَ الليث بارزةً فلا تظنون أن الليث يبتسم ، فان كفاكم صريرُ الأقلام وإلاَّ شَفاكم طَرِيرُ الحُسام، والسلام ، على من استقام.

توقيـــع له

رفعت امرأة اليه رقعةً تشكو فيها بجندي نزل دارها وآذاها فوقع عليها : « يُخْرَجُ هذا النازل ولا يُعوَّض بشيء من المنازل » .

رسالة للأمير سليمان الموحدي من انشائه

الى ملك السودان ينكر عليه تعْويقَ التجار

نحنُ نتجاور بالإحسان ، وان تخالَفْنا في الأديان ، ونتَّفق على السيرة المرضية ، ونتألف على الرفق بالرعية . ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة، والجوْر لا تُعانيهِ الا النفوس الشريرة الجاهلة، وقد بلغنا احتباسُ مَساكينِ التجـار ومنعُهم من التصرف فيما هم بصدده ،

١ – السملق : الأرض المطمئنة المستوية .

وتردُّد الجلاَّبة الى البلَد مفيد لسكانها ومعين على التمكين من استيطانها ، ولو شئنا لاحتَبسْنا مَن في جهتنـــا من أهل تلك النـــاحية ، لكنَّا لا نَستصوِبُ فعلَه ، ولا ينبغي أن ننهى عن خلق ونأتي مثلَه ، والسلام .

توقيـــع له

وقَّع الى عاملٍ له كثرت الشكاوى منه « قد كثرت فيك الأقوال ، واعضائي عنك رجاءَ أن تتيقظ فتنْصَلِح الحال ، وفي مبادرتي الى ظهور الانكار عليك نسبةٌ الى شر الاختيار ، وعدم الاختبار . فاحـذر فانك على شفَا جُرُفٍ هَار » .

كتاب السلطان ابي الحسن المريني الى الملك الناصر محمد بن قلاوُون

صاحب مصر ، في شأن رَكْب الحاج المغربي والمصحف الذي خطَّه بيده ووقَفه على الحرم النبوي الشريف

من عبد الله علي امير المسلمين ، ناصر الدين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملك البرَّيْن ، مالك العُدْوَتين[1] ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجـــاهد في سبيل رب العالمين ، ملك البرَّين ، وسلطان العُدْوَتين ، ابي سعيـــد ابن مولانا امير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمـــين ، ملك البرين ،

١ — يعني بالبرين المغرب الأقصى والأدنى وبالعدوتين المغرب والأندلس .

وسلطان العدوتين ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، منح الله التأييـد مقامَه ، وفسحَ لفتح مَعاقِل الكفر وكَسْر جَحافِل الصُّفْر اياَمه .

الى السلطان الجليل الكبير الشهير العادل القاضل الكامل الكافـل الملك الناصر المجاهد المرابط المؤيَّـد المنصور الأَسعد الأَصعد الأَرقى الأَوفى الأَمجد الأَنجد الأَفخم الأَضخم الأَوحـد الأَوفى ناصر الدين عاضِد كلمة المسلمين ، مُحْيِ العـدل في العالَمين ، فاتح الامصار ، حائزَ ملك الاقطار مفيد الاوطار ، مبيد الكفار ، هازم جيوش الأرمن والفرَنْج والكُرْج والتَّتار ، خادم الحرَمين غيْثُ العُفاة غَوْث العُناة مُصرِّف الكتائب مُشرِّف المواكب ، ناصر الاسلام ، ناشر الاعلام ، فخر الانام ، ذخر الايام ، قائد الجنود ، عاقد البنود ، حافظ الثغور ، حائط الجمهور ، حامي كلمة الموحدين ابي المعالي محمد بن السلطان الجليـل الكبير الشهير الخطير العادل الفاضل الكافل الكامل الحافظ الحافل المؤيد المكرم المبجل المكبَّر الموقَّر المعزَّر المعزَّز المجاهد المرابط المثاغِر الأوحـد الأَسعد الأَصعد الأَوفى الأَفخم الأَضخم المقدس المرحوم الملك المنصور سيف الدنيا والدين ، قَسيم امير المؤمنين ، ابقى الله مُلكَه موصولَ الصولة والاقتدار ، محميَّ الحوْزَة حاميا للدّيار ، حميد المآثر المأثورة والآثار ، عزيز الاوليـاء في كل موطن والانصار ، سلام كريم ، زاكٍ عميم ، تشرق إشراقَ النهار صفحاتُه ، وتعبَق عن شذا الروض المعطار نفَحاتُه ، يخصُّ إخاءَكم العلي ، ورحمةُ الله وبركاته .

اما بعد حمد الله الذي وَسِع العباد مَنّا جسيما وفضلا جزيلا ، والهمهم الرشاد بان ابدى لهم من آثار قدرته ، على مقدار وَحدته ، بُرهانا واضحا ودليلا ، وألزم أمةَ الإسلام ، حجَّ بيته الحرام ، مَن استطاع إليه سبيلا ، وجعل تعظيمَ شعائره من تقوى القلوب ، ومَثابات محطّ الأوزار والذنوب فما أجزلَ نعمتَه منيلا ، وأجملَ رحمةَ ربه مَقيلا . والصلاةِ والسلامِ على سيدنا ومولانا محمد المصطفى من افضل العرب فَصِيلة ، في اكمل بقاع الأرض فضيلة ، واكرمها جُملةً وتفصيلا ، المُجتَبى لختم الرسالة، وحسْم ادواء الضلالة ، فأحْسَبَ[1] اللهَ به النبوةَ تتميما والرسالة تكميلا ، المخصوص بالحوض المورود ، والمقام المحمود ، يوم يقول الظالم (يا وَيْلَتى لَيْتَني لم اتَّخِذ فُلاناً خليلا ،) المبوَّإ من دار هِجْرته ، ومَقرّ نُصرته ، محلّا ما بينه وبين مِنْبَرِه فيه روضةٌ من رياض الجنة لم يَزَلْ بها نَزِيلا[2] ، والرضى عن آله الابرار ، واصحابه الاخيار ، الذين فضّلتهم سابقةُ السعادة تفضيلا ، وأمهَلتهم العناية بأمر الدين إلى أن يُوسِعوا الاحكام برهانا ودليلا ، فإنّا نُحيط علمَ الإخاء الاعزّ ما كان من عزم مولاتنا الوالدة قدس الله روحها ونور ضريحها ، على اداء فريضة الحج الواجبة ، وتوْفِيَتِه مَناسِكه اللازِبة فاعترض الحِمام ، دون ذلك المرَام ، وعاقَ القدَر ، عن بلوغ ذلك الوطر ، فطُوِي كتابُها ، وعُجِّل الى مقرّ

١ – أحسبه أعطاه فأكثر .

٢ – فيه اشارة الى الحديث : ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة .

الرحمة بفضل الله مئابُها ، وعلى الله اجرُها ، وعنده يُحتَسب ذُخرُها ، وان لَدينا من نوجبُ اعظامَها ، ونقيمها بحكم البِرّ مقامَها ، وعزمُها الى ما أملته مصروف ، وأملُها الى ما كانت أملته موقوف ، وهي محلّ والدتنا المكرَّمةِ المبرورةِ الأثيرةِ الموقَّرة المبجَّلة المفضلة المعزَّزة المعزَّزة المعظمة المطهَّرة أسنى الله مكانتها ، وسنَّى من هذا القصد الشريف لُبانَتها ، وقد شيَّعناها الى حج بيت الله الحرام ، والمثول بحول الله تعالى ما بين زَمْزَم والمَقام ، والفوز من السلام على ضريح الرسالة ، ومثَابَة الجلالة ، بنَيْل السُّؤل والمرَام ، لتظفر بأملها المرغوب وتنفِر بعد اداء فرضها في كرم الوُجوب .

وحين شخَص لذالكم الغرض الكريم مَوكبُها ، وخلَص إلى قصد الحرم العظيم مذهبُها ، والكرامة تُلحِفُها ، والسلامة ان شاء الله تكنُفُها ، اصحبناها من حُورِ دولتنا وأحْظِيَائِها ، ووجوه دَعْوتنا العلية واوليائها ، مَن اخترناه لهذه الوِجْهة الحميدة الاثر ، والرّحلة السعيدة الوِرْد ان شاء الله تعالى والصدَر ، من أعيان بني مَرين اعزهم الله تعالى والعرَب ، واولاد المشائخِ اولي الديانة والتقوى المالِئين دِلاءَ القِرَب ، الى عَقْد الكرَب ، وكل من له اثَرة مشهورة ، وشُهْرة بالمزايا الراجحة والسجايا الصالحة مَأثورة ، وقصدُهم من اداء فرض الحج قصدُها ، ووِرْدُهم ان شاء الله تعالى من مَنْهَل بركاته الجمّة وردُها ، وهكذا سيَّرنا من تُحَف هذه البلاد اليكم ما تيَّسرَ في الوقت تسْيِيره وان تعذَّر في كثير مما قصدناهُ

ولهذا الغرض اردناه تيْسِيره ، لِطُول المَغيب عن الحضرة ، والشُغْل بتمهيد البلاد التي فتحَها الله عليهـــا في هذه السَّفْرة ، وعيَّنا لايرادها لديكم ، وإيفَادِها عليكم ابا اسحاق ابن الشيخ ابي زكرياء يحيى بن عثمان السُّوَيْدِي، وامـــير الركب الحسن بن عِمْران وغيرهم ، كتَب الله سلاَمتهم، ويَمَّنَ ظعنَهم واقامتَهم ، ومقامُ ذلك الاخاء الكريم ، يُسَنِّي لهم من اليُسْرى والتسهيل القصدَ والسُّؤل ، ويأمرُ نُوابَ ماله من الممالك ، وقُوَّامَ ما بها من المسالك ، لتكمُل العناية بهم في المَمرّ والقُفول ، ومُعظَم قصدِنا من هـذه الوجهة المباركة إيصالُ المصحف العزيز الذي خطَطناه بِيَـــدنا ، وجعلناه ذخِيرةَ يومِنا لِغَدِنا ، الى مسْجدِ سيدنا ومولانا ، وعصمة ديننا ودنيانا ، محمدٍ رسول الله ﷺ بطِيْبَة[1] زادَها الله تشريفـــا ؛ وأبقى على الايام فخرها مُنِيفا ، رغبةً في الثواب ، وحِرْصاً على الفوز بحظّ من اجر التلاوة فيه يومَ المَثاب. وقد عيَّنا بيد محل الوالدة المذكورة فيه ، كرَّم الله جبهَتها ، ويمَّن وِجهَتها ، من المالِ ما يُشْتَرى به في تلكم البلاد المَحُوطة من المستَغلاَّت ما يكون وقفاً على القرَأة فيه ، مؤبّدا عليهم وعلى غيرهم من المالِكيَّة فوائِده ومَجانِيه . والإخاءُ المـــذكور يتَلقَّى من الرُسل المذكورين ما اليهم في هذه الأغراض ألقَيْناه ، ويأمر باحضارِهم لادائِهم بالمُشافَهة ما لدَيْهم أوْ عَيْناه ، ويُوعِزُ باعانتهم على هذا الغرض المطلوب،

---

١ – إسم المدينة المشرفة .

ويُيَسّر لهم أسبابَ التوصل الى الأمل والمرغوب، وشأنه العونُ على الأعمال الصالحة، ولا سيما ما كان من أمثال هذا الى مثل هـذه السبُل الواضحة، وشكرُ بادراتكم مُوطّدُ الاساس، مُطّرِدُ القياس، مُتجدِّدُ مع اللحظات والأنفاس، واللهُ يصل للاخاء العلي نَظْرةَ ايامه، ويُوالي نُصرَةَ اعلامه، ويُبقِي الثغور القصيَّة، والسبُل السرِيَّة مَنُوطة بنَقْضِه وابرامِه، مَحُوطة بمعاضدة اسيافه واقلامه، والسلام الكريم العميم، يخص اخاءكم الاعز ورحمة الله وبركاته.

كتابٌ منه الى الملك الصالح ابي الفداء اسماعيل بن محمد بن قلاوون

في التعزية بوالده وأغراض أُخرى

من عندِ امير المسلمين، المجاهد في سبيل الله رب العالمين، المنصور بفضل المتوكل عليه، المعتمد في جميع أموره لديه، سلطان البرَّين، حامي العُدوَتيْن، مُوثِر المُرابطة والمُثاغرة مُؤازِر حِزْب الاسلام حقَّ المؤازرة، ناصر الاسلام، مُظاهِر دين الملك العلام، ابن أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، فخر السلاطين، حامي حوْزَة الدين، ملك البرَّين، إمام العُدوتين، ممهِّد البلاد، مبدِّد شمْل الأعاد، مجنِّد الجنود، المنصور الرايات والبنود، محطّ الرِّحال، مُبلِّغ الآمال، ابي سعيد ابن امير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، حسَنةِ الايام، حُسام الاسلام، ابي الأملاك، مُشْجي أهل العِناد والإشراك، مانِع البلاد،

رافع علَم الجهاد ، مُدوِّخ اقطار الكفار ، مُصْرِخ مَن ناداه للانتصار ، القائم لله باعلاء دين الحق ، ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، اخلَص الله لوجهه جهادَه ، ويسَّر في قهر عداة الدين مُرادَه . الى محل ولَدِنا الذي طلع في افق العُلا بدراً تمّاً ، وصَدع بانوار الفخار فجلى ظلاما وظُلْماً ، وجمع شمل المملكة الناصِرية فأعلى منها علَما واحيى رَسْما ، حائــط الحرَمين ، القائم بحفظ القِبلتين ، باسِط الامان ، قابض كفّ العُـدوان ، الجزيل النّوال ، الكفيل تامِيلُه بحياطة النفوس والاموال ، قُطب المجـــد وسِماكه ، حَسْب الحمد ومِلاكِه ، السلطان الجليل ، الرفيع الأصيل الحافل العادل الفاضل الكامل الشهير الخطير الاضخم الافخم المُصَان المؤَزَّر المؤيد المظفر الملك الصالح ابي الوليد اسماعيل ابن محل اخينا الشهير عَلاؤُه ، المستطير في الآفاق ثَناؤه ، زين الايام والليال ، كَمال عين انسان المجــد وانسان عين الكمال ، وارث الدُّوَل ، النافِث بصحيح رأيه في عُقودِ أهل المِلَل والنِّحَل ، حامِي القبلتين بعدله وحُسامه ، النـــامي في حفظ الحرَمين اجرُ اضطلاعِه بذلك وقيامِه ، هازِم أحزاب المعاندين وجيوشِها ، هادِم الكنائس والبِيَع فهي خاويةٌ على عروشِها ، السلطان الأجلّ الهمام الأحفَل الأفخم الأضخم الفاضل العادل الشهير الكبير ، الرفيع الخطير ، المجاهد المرابط ، المُقْسِط عدلُه في الجائر والقاسِط[1] ، المؤَيَّـــد المظفَّر ،

١ — أي الظالم فهو من عطف المرادف .

المنعَّم المقدَّس المطهر ، زَيْن السلاطين ـ ناصر الدنيا والدين ، ابي المعالي محمد ابن الملك الارضى ، الهمام الامضى ، والد السلاطين الاخيـــار ، عاقِد لواءِ النصر في قَهْر الأرمَن والفرَنج والتَّتار ، مُحيِي رُسوم الجهاد ، مُعْلي كلمةِ الاسلام في البلاد ، جمال الايام ، ثِمال الأعلام ، فاتح الأقالِم ، صالح ملوك عصرِه المُتقادِم ، الامام ، المؤيَّد ، المنصور المسدَّد ، قَسيم أمير المؤمنين فيما تقلَّد ، الملك المنصور ، سيف الدنيا والدين قلاوون ، مكَّن الله له تمكينَ اوليائه ، ونمَّى دولتَه التي أطلعها السعدُ شمساً في سمائه ، واحسَن إيزَاعه للشكْرِ أنْ جعلَه وارثَ آبائه .

سلام كريم يُفاوِح زَهْرَ الرُّبى مَسْراه ، ويُنـــافِحُ نَسِيمَ الصبا مَجراه ، يصحَبُه رضوانٌ يـدوم ما دامت تُقِلُّ الفَلَكَ حركاتُه ، ويتولاه رَوْح ورَيْحان تُحَيِّيه به رحمةُ الله وبركاته . أما بعد حمدِ الله مالك المُلْك ، جاعِل العاقبة لِلتَّقوى صدْعاً باليقين ودفعاً للشك ، وخـــاذِل من أَسرَّ النفاقَ في النجْوَى فأصرَّ على الدَّخن والإفْـــك ، والصلاةِ والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي محى بانوار الهدى ظُلَمَ الشِّرك ، ونبيه الذي ختَم به الانبياء وهو واسِطةُ ذلك السِّلك ودعا به حجةَ الحق فمادَت بالكَفَرة محمولةُ الأَفلاك وماجتْ بهم حامِلة الفُلْك ، والرضا عن آله وصحبه الذين سلكوا سبيل هُداه فسلك في قلوبهم أجمل السِّلك ، وملَكوا أعِنّة هواهم فلزِموا من محجّة الصواب انجح السلك وصابروا في جهاد الاعـداء ، فزاد خُلوصُهم مع الابتلاء والذهبُ يزيدُ خلوصا على السَّبْك ، والدعاء

لاولياء الإسلام وحُماته الاعلام، بنصرٍ لِمضائه في العِدى أعظمُ الفتك، ويُسْرٍ بقضائه دَرْكُ آمال الظهور وَأَجمِلْ بذلك الدَّرْك. ـ فكتبناه اليكم كتبَ الله لكم رُسوخَ القَدم، وسُبوغ النعَم، من حضرتنا مدينة فاس المحروسة وصُنْعُ الله سبحانه يُعرّفُ مذاهبَ الألطاف، ويُكيِّف مَواهِبَ تلهجُ الالسِنَةُ في القصور عن شكرها بالاعتراف، ويُصرِّف من أمره العظيم، وقضائه المُتلقَّى بالتَّسليم، ما يتكوّن بين النُّون والكاف، ومكانُكم العَتيدُ سلطانهُ، وسلطانكُم المجيد مَكانه وولاؤكم الصحيح بُرهانه، وعلاؤُكم الفسيح في مَجال الجلال مَيْدانُه ـ والى هذا زادَ الله سلطانَكم تمكينا، وافادَ مَقامَكم تحْصينا وتحسينا، وسلَك بكم من سَنَن من خلَفْتمُوه سبيلا مُبينا. فلا خفاءَ بما كانت عقَدَتْه أيدي التقوى، ومهدَتْه الرسائلُ التي على الصفَاء تُطوَى بيننا وبين والدكم نعَّم الله روحه وقدَّسه، وبقُربه مع الابرار في عِلِّيِّين أنَّسه، من مؤاخاة أحكمت منها العهودَ تاليةُ الكُتب والفاتِحَة، وحفِظ عليها مُحكَمَ الاخلاص مُعوِّذَتاها المحبةُ والنية الصالحة، فانعقَدتْ على التقوى والرِّضوان؛ واعتضَدتْ بتعَارُف الأرواح عند تَنازُح الابدان، حتى استحكَمت وُصْلَةُ الوَلاء، والتأمتْ كلُحْمَة النَّسَب لحمةُ الإخاء فما كان إلَّا وشيكاً من الزمان، ولا عجَب قِصر زَمَن الوُصْلة أن يشكُوَه الخُلّان، ورَدَ وَارِدٌ أوْرَدَ رَنِقَ المشارب وحقَّ قولُ « ومَن يَسْأَل الرُّكْبانَ عَن كُلِّ غائب »[1] أنبأنا باسْتِئثار

[1] — هو شطر بيت للشريف الرضي من قصيدة قالها عند توجُّه الحاجّ، وتمامُه وهو المقصود: فلا بد ان يلقَى بشيراً وناعيا.

الله تعالى بنَفْسِه الزّكية ، وإكْنان دُرّته السَّنية ، وانقلابه إلى ما أُعِدّ له من المنازل الرّضوانية بجَليل ما وقَر لِفقْده في الصدور وعظيم ما تأثّرت له النفوس لِوُقوع ذلك المقدور ، حناناً للاسلام بتلك الاقطار ، واشفاقاً من أن يعْتَوِرَ قاصِدي بيتِ الله الحرام من جرّاء الفِتَن عارِضُ الإضرار، ومُساهَمة في نَصيب المِلك الكريم والوصيّ الحميم .

ثم عَمِيَتِ الأخبار وطُويَت طيّ السّجِلّ الآثار، فلم نَر مُخبِراً صِدْقاً ولا مُعْلِما بمن استقرّ له ذالكم المُلْك حقّا ، وفي اثناءِ ذلك حفَزَنا للحركة عن حضرتنا استصراخُ أهلِ الاندلس وسلطانُها ، وتواتُرُ الاخبار بان النصارى أجمعوا على خَرابِ أوطانِها ، ونحن اثنــاءَ ذلك الشأن ، نستخبر الوراد من تلكم البُلدان ، عما أجــلى عنه ليلُ الفِتَن بتلْكمُ الاوطان ، فبعد لأي وقعنا منها على الخبير وجاءَنا بوقاية حرم الله بِكُم البَشير، وتعرّفنا أن المُلك استقرّ منكم في نِصابه ، وتداركه الله تعالى منكم بفــاتح الخير من أبوابه فأطفأ بكم نارَ الفتنة واخمدَها ، وابرأ من أدواء النفــاق ما أعلّ[1] البلاد وافسدَها ، فقام سبيلُ الحج سابِلا ، وعُبِّدَ طريقه لمن جاء قاصدا وقافلا ، ولما احتفّت بهذا الخبر القرائن ، وتواترت بنقل الحاضر المعايِن ، أثار حفظُ الاعتقاد البواعِث ، والودُّ الصحيح تجرُّه حقــا الموارِث ، فأصدرنا لكم هذه المخاطبةَ المتفنّنةَ الأطوار ، الجامعة بين الخبر

١ – اوقعهم في العلـة .

والاستخبار ، الملْبَسة من العَزاء والهناء ثوبي الشّعار والدّثار ، ومثل ذالكم الملِك رضوان الله عليه من تجِلُّ المصائبُ لفقدانه ، وتُحَلُّ عُرَى الاصطبار بموته ولات حِينُ أوانهِ ، لكن الصبرَ أجملُ ما ارتداه ذو عقل حصين ، والأجر أولى ما اقتناه ذو دينٍ متين ، ومثلكم من لا يخِفُّ وقارُه ، ولا يشِفُّ عن ظهور الجزع الحادث اصطبارُه ، ومن خلَفتموه فما مات ذِكرُه ، ومن قُمتُم بأمره فما زال بل زاد فخرُه ، وقد طالت والحمد لله العِيشة الراضية بالحِقَب ، وطاب بين مبداه ومحتضره هنيئاً بما من الأجر اكتسَب ، وصارَ حميدا الى خير منقلَب ، ووفد من كرم الله على أفضل ما منح مُوقِناً ووهَب ، فقد ارتضاكم الله بعده لحياطة أرضِه المقدسة ، وحماية زُوّار بيته مُقَيلة أو مُعرِّسة ، ونحن بعد بسط هذه التعزية ، نُهنِّيكم بما خوّلكم الله أجمَلَ التهنِية ، وفي ذات الله الإيراد والإصدار ، وفي مرضاته سبحانه الاضمار والإظهار ، فاستقبلوا دولةً ألقى العزُّ عليها رِواقَه ، وعقَد الظهور عليها نِطاقَه ، وأعطاها أمانُ الزمان عهدَه وميثاقه ، ونحن على ما عهدنا عليه الملك الناصر رضوان الله عليه من عهود مُوثّقة ومُوالاةٍ محقَّقة ، وثناءٍ كمائمه عن أذكَى من الزهر غِبَّ القَطر مُفتَّقة .

ولم يغبْ عنكم ماكان من بعْثنا المصحفين الاكرمين اللذين خطّتهما منا اليَمين وآوتْ بهما الرغبةُ من الحرمين الشريفين إلى قَرار مَكين ، وأنه كان لوالدكم الملك الناصر تولاه الله برضوانه ، وأورده موارد إحسانه ، في ذلكم من الفعل الجميل والصنع الجليل ، ما ناسبَ مكانَه الرفيع وشاكَل فضله

من البِرّ الذي لا يضيع ، حتى طبّق فعلُه الآفاقَ ذكرا ، وطوّق أعناقَ الوُرّاد والقُصّاد بِرا ، وكان من أجمل ما به تحَفّى واتحَف وأعظم ما يعرفه الملك العلام به في ذلك تعرّف ، إذْنه للمتوجهين إذ ذاك في شِراء رِباعٍ تُوقَف على المصحفَين، ورَسم المراسم المباركة بتحرير ذلك الوقف مع اختلاف الجديدَين ، فجرت أحوالُ القرّاء فيهما بذلك الخَراج المستفاد، ريثما يصِلُهم من خراج ما وَقَفْناه عليهم بهذه البلاد ، على ما رسمه رحمه الله من عناية بهم مُتَّصلة، واحترامٍ في تلك الأوقاف فوائدها به متوفرة متحصِّلة ، وقد أمرنا مُؤدِّيَ هذا لكمالكم ومُوفِدَه على جلالكم كاتِبنا الأسنى الفقيه الأجل الأحظى الأكمل ، ابا المجد ابنَ كاتبنا الشيخ الفقيه الأجل الحاج الأتقى الأرضى الأفضل الأحظى الأكمل المرحوم ابي عبدالله بن أبي مَدْين حفظ الله عليه رُتبتَه ، ويَسّر في قصد البيت الحرام بُغيتَه ، بأن يتفقد أحوالَ تلك الاوقاف ، ويتعَرّفَ تصرُّفَ الناظر عليها وما فعله من سَداد وإسراف ، وأن يتخيّر لها من يُرتَضى لذلك ، ويُحمد تصرُّفه فيما هنالك ، وخاطبنا سلطانكم في هذا الشأن ، جريا على الود الثابت الاركان ، واعلاما بما لوالدكم رحمه الله تعالى في ذلك من الافعال الحِسان ، وكما لكُم يقتضي تخليدَ ذلكم البِرّ الجميل ، وتجديدَ عمل ذلكم الملك الجليل ، وتشييدَ ما اشتمل عليه من الثّراء الاصيل ، والاجر الجزيل ، والتقدمَ بالاذن السلطاني في إعانة هذا الوافِد بهذا الكتاب، على ما يتوخّاه في ذلك الشأن من طرُق الصواب ، وثناؤنا عليكم الثناءَ الذي

يُفاوِح زهرَ الرُّبى ، ويطارِحُ نغمَ حَمام الأَيك مُطرِّبا .

وبِحسَب المُصافاةِ ، ومقتضَى المُوالاة نشرَحُ لكم المتزايداتِ بهذه الجهات ، وننبئكم بموجِب إبطاء انفاذِ هذا الخطاب على ذلكم الجناب ، وذلك أَنه لما وصلَنا من الأَندلس الصريخ ، ونادَى منا للجهاد عزْماً لِمثل نِدائه يُصيخ ، انبأنا أن الكفار قد جمعوا أحزابَهم من كل صَوْب ، وفرض عليهم بَابَاهم اللعين التناصر من كل اوْب وأَن تقصِد طوائفُهم البلادَ الاندلسية بإيجافها ، وتنقُص بالمنازلة أرضَها من أطرافِها ، ليَمحُوا كلمةَ الإسلام منها ويُقلِّصوا ظل الإيمان عنها ، فقدَّمنا من يشتغل بالاساطيل من القُواد ، وسِرْنا على إِثْرِهم الى سبتة مُنتهَى الغربِ الأَقصى وبابَ الجهاد ، فما وصلناها إلا وقد أخذ أخذَه العدُّو الكفور ، وسدَّت أجفانُ الطواغيت مَجازَ العُبور ، وأتوْا من أجفانهم بما لا يُحصى عَددا ، وأرصدُوها بمجمع البَحْرين حيثُ المجازُ إلى دفع العدا ، وتقلَّصوا عن الانبساط في البِلاد ، واجتمعوا الى الجزيرة الخضراء - أعادَها الله - بكل من جمعوه من الأَعاد ، لاكنَّا مع انسدادِ تلك السبيل ، وعَدم أُمور نستعين بها في ذلكم العمل الجليل ، حاوَلْنا إمدادَ تلكم البلاد بحسَب الجُهْد ، وأصرَخْناهم بما أمكن من الجُنْد ، وجهَّزنا أجفاناً مُختَلِسين فُرصةَ الإِجازة ، تتردَّد على خطَرٍ جُهِّزَ للجهاد جِهَازه ، وأمرْنا لصاحِب الأَندلس من المال ، بما يجهِّزُ به حركتَه لمداناةِ مَحلَّة حِزْب الضلال ، واجرينا له ولِجيْشهِ العطاء الجزْل مُشاهرة ، وأرْضخنا لهم من النَّوال ما نرجو به ثوابَ

الاخرة ، وجعلتْ أجفانُنا تتردَّد في مِيناء السواحل وتلجُ ابواب الخوف العاجل لإحراز الأَمن الآجِل، مشحونةً بالعُدَد الموفورة والأبطال المشهورة ، والخيْل المُسوَّمة ، والاقوات المُقَومة ، فمِن نَاجٍ حارب دونه الأَجل، وشهيدٍ مضَى عند الله عز وجل، وما زالت الاجفـــانُ تتردد على ذلك الخطر ، حتى تَلِفَ منهـا سبع وستون قِطعةً غَزْوِيَّة اْجرُها عنـــد الله يُدَّخر، ثم لم نقنع بهذا العمل في الإمداد ، فبعثنا أحدَ أولادنا اسعدهم الله مساهمةً به لأهل تلك البلاد ، فَلَقِيَ من هوْل البحر وارتِجاجه ، والحاحِ العدو ولجَاجِه ، ما به الامثالُ تُضرَب وبمثله يتحدَّث ويُستغرب، ولما خلَص لتلك العُدوة بمن أبقتْه الشدائد ، نزَل بازاء الكافر الجاحد ، حتى كان منـــه بفرسَخَيْن أو أدنَى . وقد ضَرب بعَطَن يُصابِح العدوَّ ويُماسِيه بحرب بهـا يُمْنَى ، وقد كان من مدَدنا بالجزيرة جيش شرِيَت شرارتُه ، وقوِيَت في الحرب إرادتُه ، يُبلون البلاء الاصدَق ، ولا يُبالون بالعدو وهُم منــــه كالشامة البيضاء في البَعير الأوْرَق ، إلا أن المطاولَة بحصارها في البحر مَدة ثلاثةَ أعوام ونصف ، ومَنازَلتها في البَر نحو عامين معقوداً عليها الصَفُّ بالصَّف ، أدَّى الى فَناء الاقوات في البلَد ، حتى لم يبق لاهلِيه قوتُ شهر مع انقطاع المدَد ، وبه من الخلـــق ما يُربِي على عشرة آلاف دون الحُرَم والوِلْد ، فكتب الينا سلطانُ الأندلس يَرغَبُ في الأذن له في عقْـــد الصلح ، ووقَع الاتفاق على أنه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجح ، فاذِنَّا له فيه الاذنَ العام ، إذ في إصراخه واصراخِ من بقُطره من المسلمـــين

توخّينا ذلك المرام ، هنالك دُعِيَ النصارى الى السلم فاستجابوا ، وقد كانوا عَلِموا فناءَ الاقوات وما استرابوا ، فتمّ الصلح الى عشْر سنين ، وخرج مَن بها من فرسانٍ ورجال وأهلٍ وبنين ، ولا رُزِءُوا مالا ولا عُدَّة ، ولا لَقُوا في خروجهم غيرَ النزُوح عن أول أرض مَسَّ الجِلْدَ ترابُها شِدَّة ، ووَصَلُوا الينا فاجزلنا لهمُ العَطاء ، واسلَيْناهم عما جَرى بالجِبَاء ، فمن خيْل تزيدُ على الألف عِتاقُها ، وخِلَع تُرْبى على عشرةِ آلاف اطواقُها ، وأموالٍ عمّت الغني والفقير ، ورعايةٍ شمِلتِ الجميع بالعيش النضير ، وكفَّ الله ضُرَّ الطواغيت عمّا عداها ، وما انقلبوا بغير مَدَرَةٍ[1] عفَا رسمُها وصَمَّ صداها .

وقد كان من لطف الله حين قضى بأخذ هذا الثَّغْر ، ان قدَّر لنا فتْح جبل طارق من أيدي الكُفر ، وهو المُطِلُّ على هذه المَدَرة ، والفُرْصةُ منه إن شاء الله تعالى مُتَيسِّرة ، حتى يُفرِّق عِقْد الكفار ، ويفرج بهذه الجهة منهم مُجاوِرُوا هذه الأقطار ، فلولا إجلاُبهم من كل جانب ، وكونُهم سَدُّوا مسلك العبُور بما لجميعهم من الاجفان والمراكب ، لما بالَيْنا بإصفاقِهم ولحَلَلْنا بعون الله عَقْدَ اتّفاقِهم ، ولكن للموانع أحكام ، ولا رادّ لما جرتْ به الأقلام ، وقد أمَرْنا لذلك الثَّغر بما يزيد به المَدَد ، وتخيّرنا له ولسائر

---

١ — هذه زخرفة لفظية وتسلية باردة وما ضاعت بلادُ الإسلام إلا بمثل هذا التهاون والاستخفاف .

تلك البلاد العُدَد والعَدَد ، وعُدْنا لحضرتنا فاس لتستريح الجيوش من وَعْثاء السَفر ، ونرْتبط الجياد وننتخب العُدَد لوقت الظهور المنتظر ، ونكون على أُهبة الجهاد ، وعلى مَرْقبة الفُرصة عند تمكنها في الاعاد ، وعند عودنا من تلك المحاوَلة ، نُيسِّر الركب الحجازي مُوَجها إلى هناكم رَواحِلَه ، فاصدَرْنا اليكم هذا الخطاب ، إصدارَ الود الخالص والحب اللُّباب ، وعندنا لكم ما عند أَحْنى الآباء ، واعتِقادُنا فيكم في ذاتِ الله لا يَخْشى جدِيده من البلاء ، وما لكم من غَرَض بهذه الانحاء ، فمُوَفّى قصدُه على أكمل الاهواء ، مُوالىً تتميُمه على اجمل الآراء ، والبلاد باتّحاد الود متحدة ، والقلوبُ والأَيدي على ما فيه مرضاةُ الله عز وجل مُنعقِدة ، جعلَ الله ذلكم خالصا لرب العباد ، مذخورا ليوم التّناد ، مسطورا في الأَعمال الصالحة يوم المعاد ، بمنه وفضله وَهُو سبحانه يصِلُ إليكم سعدا تتفاخر به سُعودُ الكواكب ، وتتضافر على الانقياد له صدُور المواكب ، وتتقاصَر عن نيل مَجْده مُتطاوِلاتُ المناكب والسلام الاتم يخصكم كثيراً اثيراً ورحمةُ الله وبركاته .

كتاب السلطان ابي سعيد المريني الاصغر الى الملك الناصر فرَج بن بَرْقوق

يعلمه باستعداده لمناصرته على العدو المهاجم

من عبد الله ووَليِّه عثمان امير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، ناشر بساط العدل في العالَمين ، المقتدي بآثار

آبائه الكرام ، المُقتفِي سُنتهم الحميــدة في نصرة الاسلام ، المُعمِل نفسَه العزيزة في التهمُّم بما قلَّده الله من أُمور عباده ، وحياطةِ ثغوره وبلاده ، سيفِ الله المسلول على اعدائه ، المنتَشِر عدلُه على أقطار المعمور وانحائِه ، ظلّ الله تعالى في أرضه ، القائم بسنته وفرضه ، عمــادِ الدنيا والدين علَم الأيمة المهتدين : ابن مولانا السلطان المظفّر الخليفــة الإمام ملك الملوك الأعلام ، فاتح البلدان والأَقطار ، مُمهِّد الاقاليم والامصار ، جامع اشتات المحــامد ، مَلجأ الصادر والوارد ، الملِك الجوّاد ، الذي حلَّت محبتُه في الصدور محلَّ الأَرواح في الأجساد ، امير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ابي العباس ابن مولانا امير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ابي سالم ابن مولانا امير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ابي الحسن ابن مولانا امير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ابي سعيد ابن مولانا امير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق، وصَل الله تعالى اسبابَ تأييــده وعَضْده ، وقضى باتِّصال عُرْف تجديد سعده وأنالَه من جميل صُنْعه ما يتكفل بتيسير امره وبلوغ قصده.

الى محل اخينا الذي نُوثِر حقَّ إخائه الكريم ، ونُثني على سلطانه السعيد ثناءَ الولي الحميم ، ونشكر ما له فينا من الحب السليم ، والود الثابت المقيم ، السلطان الجليل، الماجد الأصيل ، الأعزّ الخطير المثيل، الشهير الامجد الأرفع ، الهمام الامنع ، السريّ الارضى ، المجاهد الامضى الاوحد الأسنَى ، المَكين الاحمَى ، خديم الحرمين الشريفين ، حائز

الفخرَين المُنيفين ، ناصر الدنيا والدين ، مُحيي العدل في العالمين ، الاجدّ الأوَد المكين الأخلص الأفضل الأكمل ابي السعادات فرج ابن السلطان الجليل، الاعزّ المثيل ، الخطير الأصيل ، الأرفع الأمجد ، الشهير الهمام الأوحد ، الأسمى الاسْرَى الارضى ، المجاهد الأمضى ، خديم الحرمين الشريفين ، حائز الفخرين المنيفين ، الأفضل الأكمل المبرور المقدم المرحوم ابي سعيد بَرقوق ابن أَنَص ، وَصل الله لسلطانه المؤيَّد جَدّاً لا يُعجَم عُوده وعزّا لا يَميل عَمُوده ، ونصرا يملأ قُطرَه بما يُغَصُّ به حَسُوده ، وَعضْدا يأخذ بزمـام أمله السني فيسُوقُه ويقودُه .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

أما بعد حمد الله على سُبوغ نَعمائه ، وترادف لطفه وآلائه ، الذي عرَّفنا من ولائه الكريم ما سرَّنا من اطِّراد اعتنـــائه ، وابهج النفوس والاسماع من صَفاء ولائه، ومُواصلة صَفائه ، والصلاةِ والسلامِ الأكملين على سيدنا ومولانا محمد خاتِم رسله وانبيائه ، ومُبلِّغ رسالاته وانبـــائه ، صاحب المَقـــام المحمود ، والحوض المورود ، واللواء المعقود ، فأكْرِمْ بمقامه وحوضه ولوائه والرضى عن آله وصحبه وأوليائه ، الذين هم للدين بُدور اهتدائه ونجوم اقتدائه ، وصِلةِ الدعاء لمقامكم الكريم بـــدوام عزه واعتلائه واقتبال النصر المبالَغ في احتفاله واحتفائه وحياطة انحائه وارجائه وتأييد عزَماته وآرائه ،

فانا كتبنا اليكم كتب الله لكم سعدا سافرا ، وعزما ظافرا ، من حضرتنا العلية بالمدينة البيضاء[1] كلأها الله تعالى وحرسها ونعمُ الله سبحانه لدينا واكِفَةُ السِّجال ، وولاؤه جل جلاله سابغ الاذيال ، وخلافته التي نرعى بعين البِر جوانِبَها ، ونقتفي في كل مَنقبةٍ كريمةٍ سِيَرها الحميدة ومَذاهبها ، والى هذا وَصل سعْدَكُمْ ، ووالى عَضْدَكم ، وكتابنا هذا يُقرِّر لكم من ودادنا ما شاع وذاع ، ويؤكد من إخلاصنا اليكم ما تتحدث به السمَّار فتُوعِيه جميعَ الاسماع ، وقد كان انتهى الينا حركةُ عدو الله وعدو الاسلام ، الباغي بالاجتراء على عباده سبحانه بالبؤس والانتقام الآخذ فيهم بالعَيْث والفساد ، الساعي بجهده في تهديم الحصون وتخريب البلاد ، وتعرَّفنا انه كان يعلق امله الخائب بالوصول الى اطراف بلادكم المصرية ، وانتهاز الفرصة على حينِ غفْلةٍ من خلافتكم العلية ، والحمد لله الذي كفَى بفضله شرَّه ، ودفَع نقمته وضره ، وانصرف ناكصا على عَقِبِه ، خائبا من نيل أرَبه ، ولقد كنا حين سمعنا بسوء رأيه الذي غلَبه الله عليه ، وما أضمر لخلق الله من الشر الذي يجدُ في اخراه ظلامَه يسعى بين يديه عزمنا على أن نمُدَّكم من عساكرنا المظفرة بما يضيق عنه الفضاء ونُجهِّزَ لجِهتكم من اساطيلنا المنصورة ما يُحمد في امداده المُنَاصرةُ ويرتضى ، فالحمد لله على ان كفَى المؤمنين القتال ، واذهب عنهم الأَوْجال ، ويسَّر

---

١ — هي فاس الجديد .

لهم الأعمال ، وهيأ لخلافتكم السنيَّة والمسلمين ، هناءً يتضمّن السلامة لكم ولهم على تعاقُب الأعوام والسِّنين . و بِحسَب ما لنا فيكم من الود الذي اسست المُصافَاةُ بنيانه ، والحب الذي أوضح الإخلاصُ برهانَه ، وقعَ تخيُّرنا فيمن يتوجه من بابنا الكريم لتفصيل مُجمَلِه ، وتقرير ما لدينا فيه على اتم وجه الاعتقاد واكملِه ، على الشيخ الأجل الشريف المبارك الأصيل الأسنى الحظيّ الأعز الحاج المبرور الأمين الأحفل الأفضل الأكمل ابي عبدالله محمد ابن الشيخ الأجل الاغرّ الأسنى الأوجه الأنوه الأرفع الأمجد الآثر الأزهى الشريف الأصيل المعظم المثيل الأشهر الأخطر الامثل الأجمل الأفضل الاكمل المرضيّ المقدّس المرحوم ابي عبدالله بن ابي القاسم بن نَفِيس الحُسَيْني العِراقي ، وَصل الله سعادتَه ، واحمد على حضرتكم السنية وفادَته ، حسَب مَا يفي بشرح ما حمَّلناه نَقْلُه ، ويكمل بايضاحه لديكم يقظتُه ونُبلُه ، إن شاء الله تعالى وهو سبحانه وتعالى يديم سعادَتكم ويحفظ مجادَتكم ، ويُسنِي من كل خير ارادتكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

بيعة صاحب مملكة بُرْنُو من أقطار السودان

للمنصور الذهبي . أنشأها له كاتب المنصور
عبد العزيز الفشتالي

الحمد لله الذي أعلى لكلمة الحق مَنارا يُسامِي في مطالعها النجوم ، وازاحَ بها عن شمس الهداية المنيرة غياهبَ الغَباوة المُدلَهِمَّة وسحاب

الغَواية المركوم ، وحيّ على الفلاح بها داعي التوفيق الذي نشر للنجاح كتابَه الموقوت واستنجز للسعادة أجلَها المعلوم ، وشرّف هذا الوجود، والعالَمَ الموجود ، بالخـــلافة النبوية ، والامامة الحسنة العلوية ، التي صُرِفَت الوجوه الى قِبْلَتها المشروعة، واستبان الحق بتبلُّج الصباح في مُبايعتها والانقياد لدعوتها المسموعة ، ونسَخَ بدولتها الغراء دُوَلَ الحَيْف التي هي بسيْف النُبوّة المُصْلَت مقطوعة وبلسان السنة مدفوعة ، وقوّضَ بها مبانيَ الادعاء التي هي على غير أساس الشرع الصحيح مرفوعـــة ، وفرّق بكلمتها المجموعة على التوحيد فِرَقَ التثليث التي هي على مُشاقّة اللهِ ورسوله تابعة ومتبوعة ، وخلَع بظهورها على اعطاف الحنيفية السمحة رداءَ العز الفَضفاض ، واستل بتأييدها للدين المحمدي سيفَ الأنفَـــة والامتعاض واشار للأعادي من بأسها المُروَع بلسان الحية النّضناض ، وفجّر للمؤمنين يَنبوعُ رحمتها الجاري على حَصَى عـدلها الرّضراض ، ومهّـــد بسيوفهـــا المنتضاةِ الآفاقَ والأقطارَ تمهيدا أزالَ عن حكمه الاعتراض ، وجلّى بانوارها المتألقة سُدفَ الجهالة التي ادْلهمّ جوُّها وغيّم، واسعد الوجود بِيُمْنِها الذي لبث في أكناف مجـدها وخيّم ، وقضَى لها بتوارُثِ الأرض ومَن عليها ان شاء الله الى عيسى ابن مريم .

والصلاةِ والسلام على مولانا محمد الذي تعاضَدت البراهينُ القاطعة ، على صدق رسالتِه البارعة، ونهج للدين القويم طريقةَ الحق المُثلَى ومادته الشارعـــة ، وسوّغ لمن آمَن به مناهلَ الهدى النَميرة الزُلال ومواردَه

العذبة ومشارِعــه ، نبيّ الرحمة ، وشفيع الأمة ، وعلى آله واصحابه الكرام ايمة الهدى و مَصابيح الظلام .

والدعاءِ لمولانا الأمام ، العلوي الُهمام ، أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ، نَجْل سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، وسليل الوَصيّ والسبطَيْن الأكْرمِين .

وبعد فانه لمَّا أذِن الله في ليل الجهالة ان يَنْجاب ، وفي شمس الحق الوهّاجة ان يرتفع عنها الحجاب ، وفي العز الخلقِ الجِلْباب ، أن يعود الى الشباب ، وفي النجاح والاستقامة أن يُفتَح لهما الباب ، وفي الأمارة ان تُسند لِلسنة والكتاب وتتعلَّق من الشرع باسباب ، تدارك الله سبحانه الوجود واعز العالم الموجود واستطارت الأنوار المُضيئَة للأَغوار والنُّجود ، بطلوع شمس الخلافة النبوية ، والامامة الهاشمية العــلوية ، ففاضت على أديم البسيطة انوارها ، وارتفع الى حيث السُّها والفَرْقَدَيْن منــارها ، وتبلَّج بالاصباح نهارها ولاحت في سماء المجد بُدورها واقمارُها ، وكادت تنهَبُ نجومَ السماء اتباعُها وانصارها ، وانتشرت في الآفـاق والاقطار على البعد والقرب آثارُها ، وهزّت عِطْف الزمان انتشاءً مناقبُها واخبارُها وفاض ببركتها على أكناف المعمور يَمُّها الزاهر وتيَّارُها ، خلافة ينتمي إلى النبوة عُنصرُها وتُستنبَط من رسالة الوحي أسطُرُهـا ، ويُنــاط بعروتها الوثقى خِنْصِرُها ، وامامة عَليٌّ وليُّها والله نصِيرُها والسِّبْط بدرُها

الذي حيَّاه مِنبَرُها وسرِيرُها .

والحمد لله الذي اصطفى من هـذه الدَّوْحة النبوية الشمَّاء ، والشجرة الطيبة الهاشمية التي اصلُها ثابت وفَرْعُها في السماء ، إمــاماً القَى الله له في القلوب حبا جميلا ، ومولىً جعله الله على مَرضاته سبحانه علامة ودليـلا وخليفة استرعاه بحسن الرعي لخلقه وعباده كَفِيلا ، وانتضَى من بأسه وبسَالته لحماية حِمَى الشريعة حُساماً صَقيلا ، مولانا امـير المؤمنين وخليفة الله في الأَرضين ، وسليل خاتم النبيين ، ووارث الانبياء والمرسلين ، المفترَضة طاعتُه على الخلق اجمعين ، والممنُون بامامته المقدَّسة على العالَمين ، بحر النَّدَى والباس ، وعصمة الله للنَّاس . أمير المؤمنين ، المنصور بالله مولانا أبا العباس صلواتُ الله عليه وعلى آله الخلفاء الراشدين والائمة الطيبين الطاهرين ، وطيَّبَ بأنفاس المغفرة لُحودَهم اجمعين . امام تهتزّ لذكره اعطافُ المنابر ، وتتقلّد من شريف دعوته ابهَى من نفيس الجواهر ، وتستضيء البــلاد بإكْليل شرفه الزاهر ، وتسكُن العباد تحتَ ظل رحمته الوارف الوافر ، ابقى الله ايامَه الغُرَّ بقاءً يصحب النصر دوامَه ، وخلَّد له ولأعقابه هذا الأمر الكريم الى يوم القيامة .

ولما طلعت ، ايده الله على هذه الاصقاع الزَّنْجِيَّة طلائعُ امامتــه النبوية وخلافته ، ولاحت في سمائها شهُبُ مناقبه المُنيفة الدالة على فخـامة شرفه وإنَافتِه ، وتُلِيَت لمجده الآياتُ البينات التي تشهد له بتُراث الرسالة ،

وتقضى له على الإسلام وعلى الانام بحكم الوَلاء والكَفالة ، واوضح الله سبحانه للناس من اعتقاد وجوب طاعته والاقتداء بامامته ، والانقياد لدعوته ، وتقليد بيعته ما جاء به كتابه الحكيم ، ووردت سنة نبيّه الكريم كما قال عليه السلام : لا تزال الخلافةُ في قريش ما بقيَ منهم اثنان ، وكما ورد في صحيح الخبر ان الخــلافة في قُرَيش والقضاءَ في الأنصار وفي الحبشة الأذان ، ويدلُّ على هذا تعاضدُ الخبر والعِيان ، فلا نَاكرَ ان ليس في المعمور على هذا الشرط غيرُه ايّده الله من ثان ، فنَهض بدليل الشرع أنه امام الجماعة حقا المستوفي شروطَها ، والوارثُ للخلافة النبوية والحريص على بيضة الإسلام ان يَحوطَها ، وإن القائم بهذا الأمر على الإطلاق غيره دَعِيّ ، ومُحاوِلَه دون اذنه المشروع بِدْعِيّ ، فتعين لذلك ان الرجوع الى الحــق فريضة ، واستبان بما تقرر وعلم ان امارة لا تلاقي في الشروع محلها المشروع منبوذَةٌ مرفوضة ، وعُرْوَتها لذلك مفصُومة ومنقوضة .

فانتدَب لهذه الآثار ، وصحيح الأخبار ، وصرَف الى رضا الله العناية ووقَف من الشرائع المشروعة حيثُ مركزُ الراية ، ومنتهى الغاية ، الرئيسُ ابو العلاء ادريس اكرمه الله انتدابَ مَنْ وقَفت به مَطِيَّةُ التوفيق ، على حضرة الإخلاص والتصديق ، واخــذت بزِمامه السعادةُ الى حيث الفوزُ برضا الله ورضا رسوله حقيق ، والتـأييدُ صاحب ورفيق ، وروضُ الآمال أَنيق وراحُ الراحة والاطمئنان عَتيق الى تقلُّد بيعة امام الجماعة أمير المؤمنين ، المنصور بالله زاده الله تقديسا وتشريفا ، التي تُؤَسَّسُ ان شاء الله على تقوى

من الله ورضوان ، وتشهدُ عقدَها الكريم ملائكةُ الرحمان ، وآثرَ اسعدَه الله أن يؤدي فرضها المعدود من فروض الاعيان ، وحكمَها الذي توجّه به خطابُ الشرع العام الى القاصي والدان ، وينشُرَ سنتَها المشروعة في صُقْعِه وما يليه من الأَصقاع والبِقاع بالسُّودان ، تقلّــداً يستضيء ان شاء الله بانواره ، ويستشرف به العزُّ المكين على مَناره ، ويُخمِد به للجهل جِذْوةَ ناره وتنتظم به في اتباع الحق زُمْرةُ انصاره ويجتــلي به صورةَ انسانه ، ويستوجب من الله عوارف صنعه واحسانِه ويُرهِف به للعدو على العزَمات حدَّ سيفه وسِنانه ، ويقرَع به لرضا الله بابَ القبول ، ويتضاعف له ببركته العمل المقبول ، ويستنشِق بمشهد عقْده الكريم نوَاسِم النبوة ، ويعُود له به الزمان للشباب والفتوة ، ويرفع به منارَ الامارة على قواعد الشرع الوثيقة ، ويعدل به في كل الاحوال عن المجاز الى الحقيقة ، وتتسنّى له به وهْيَ المقصَد الاسنَى والخاتمةُ الحسنى الأُسوةُ الحسَنةُ بإمامَيْ بنِي العباس السفّاح والمنصور ، ويُحيي سنتَهما التي نقلَها ثِقاتُ الاعلام والصُّدور ، في مُبايَعتهما الامام الخليفة المهدي الاكبر سليل سيد المرسلين ، وجــدّ مولانا أمير المؤمنين الذي رأى أمامُ دار الهجرة انه بتُراث الخلافة أولَى واحقّ ، وفي منصب الامامة على شرطها اعرَق ، وبسريرها ومنبرها أَلْيَق .

فتأكّد للمنتدب أيّده الله بهذه الآثار الشريفة ، والمناقِب المنيفة ، العزمُ والقصد ، وأُنجز له فيما اراده صادقُ الوعد ، وساعد نيّتَه الصالحة فيــه السعد ، فبايعه أعلى الله يدَه على الأمن والأمانة ، والعفاف والديانة ، والعدل

الذي يُشيِّدُ المجد أركانه ، مبايعةً شايَعه على عقْدها الكريم ، أكرمَهُ اللهُ ، أتباعُه ، وجُموعُه وأشياعُه ، بحُكْم الوفاقِ والاتفاق ، والمواثيق الشديدة الوثاق ، وبجميع الأيْمان الصادقة الإيمان ، اعطَوْا بها صَفْقَة أيديهم ، ورفَع بها العَقِيرةَ مناديهم عارفين ان يد الله فيها فَوْقَ أيديهم ، وأمضوْها على السمع والطاعة ، والانتظام في سِلْك الجماعة ، امضاءً يدينون به في السر والجهر ، والعُسر واليُسر ، والرخـــاء والشدة ، والأزمان المشتَدّة ، والتزَموا شروطَها طوْعا واستوعَبُوها جنساً ونَوْعاً بنِيات منهم خالصةٍ صادقة ، وعِدَةٍ من الله بالخير لهم سابِقة ، وسعادةٍ بالحسنى لاحقة ، ابرَمُوا عقدَها ، واحكموا وعدَها وعهدَها ، على حكم الكتاب والسنة والجماعة ، والاخذ بسُنّتها اعقاباً عن اعقاب ، وأحقابا اثرَ احقـــاب ، الى يوم القيامة واقتراب الساعة ، لا يلحق عقـــدَها الكريمَ فَسْخ ، ولا يعقُبه بحول الله نَسْخ ، ولا يتطرّق إليه نقضٌ ولا نكْث ولا يشُوبُه بشوائب الشبُهات بحْث ، واجمعَ على هذا اسعده الله بالمواثيق المستفيضة والايمان اللازمة المُغَلَّظة هو واتباعه اجمـــاعاً شرعيا ، وحتمّوه على انفسهم حتْما مَقْضِياً واعتقدوه اعتقاداً أبدياً ، وعرَضوا على التزامه بمشهَد عقده المبارك أفراداً وازواجاً ، وُحدانا وأفواجا ، وأشهَدوا على الوفاء به بأيمـــانهم الصادقة البُرور ، ومواثيقهم المُثلجة للصدور ، قائلين بالله الذي لا إله إلا هو الملك القدّوس العليم بالخفيّات ، والخبير بالآجال الوَفِيّـات ، وبجميـع الرسل الكرام والانبياء ، وملائكة الرحمان في الأرض والسماء ، وعلى

انهم إن حادوا عن هذا السبيل ، وانقادوا لدعاء داعي التغيير والتَّبْديل ، أو انحرفوا عن هذا المنهاج وسنته ، فهُم بُرَآءُ من حول الله وقوته، ومن دينه وعصمته ، ومستوجبين لعذابه وغضَبه وسُخطه ونِقمتِه ، وبُعداءُ من رحمته ، ومن شفاعة نبيه الكريم يوم القيامة لأمّته ، وانهم خالِعُون لربقة الإسلام ، وخارجون عن سنة الرسول عليه السلام ، أعلَنوا بهذا إعلانا تعضُدُه النجوى ، وأدَّوْه بشروطه الجارية على مذاهب الفتوى ، وأحكامِه اللازمة لكلمة التقوى ، استرضاءً لله وللخلافة النبوية ، والامامة العلوية ، ورياضةً للنفوس على بيعتها المباركة الميمونة النّقيبة ، واستيفاءً لشروطها واقسامها الواجبة والمستحبة والمندوبة ، مستسلمين الى الله بالقلوب الخاشِعة، ومتضرعين الى بابه الكريم بالأدعية النافعة ، في ان يُعَرِّفهم خيرَ هذا العقد الكريم ، والعهد الصميم بدءاً وختاماً ، وان يمنحهم بركته التي تصحبهم حالا ودواما ، لا ربّ غيره ولا خير إلا خيره .

اشهد على نفسه بما فيه وعلى رعيته الرئيس ابو العلاء ادريس اسعده الله واكرمه وبتاريخ المحرم الحرام من عام تسعين وتسعمائه من الهجرة النبوية .

كتاب المنصور الذّهَبي الى الشيخين البَدْر القَرافي والزّين البَكري

في إعلامهما ببعض الفتوح وتشوّفه للاندلس

من عبد ربه المجاهد في سبيله احمد المنصور بالله أمير المؤمنين الحسني

الى الفاضل الذي اعتجرَ بالتقوى وهو زَيْنُ العابدين ، وتحلَّى بحلى المعارف الربانية وتلك حلى العارفين ، والسالك الذي برَّز في الطريقة ، وسلك على المجاز الواضح الى الحقيقة ، ففاتَ شأوَ السابقين ، والعارف الذي تجرد عن رُعونة الاهواء النفسانية فكان سلوكه على التجريد الى حضرة الواصلين الشيخ العالم الحجة الوافي ، السيد بدر الدين القَرافي ، والشيخ العارف الواصل ، السريّ الكامل ، سُلالة العلماء ، سِبْط الفضلاء ، ابي عبد الله زين العابدين ابن الشيخ السامي المقام ، قُطب المشائخ الاعلام ، فخر علماء الإسلام ، الشهير البركة في الانام ، ابي عبد الله محمد بن ابي الحسن الصِّدِّيقي ، ابقاكما الله واروا حكما تتعطَّر برَيَاحِين الأُنس ، في حضرة القدس وتشمُّ النفحاتِ الهابَّةَ من رياض المشاهدة الى مدارج الأنس ومَعارِج النَّفس ، وسلام عليكما ورحمة الله تعالى وبركاته :

وبعد حمد الله مُفيض أنوار عناية احمد على صاحبه الصدّيق ، مُظهِر كنوز المعارف الربانية جيلاً بعد جيل من بيت عَتِيق ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي اختار لمرافقته صاحبَه في الغار والعَريش والطريق والرضا عن آله ايمة الخَلْق ، وسيوف الحق ، واصحابه الذين فاضت انوار هدايتهم على الغرب والشرق ، وببركتهم انتَسق لنا الفتح انتِساقَ الاسلاك ، وبفضلهم يعلو سعدُنا على الكفر علوَّ القُطب على دائرة الافلاك - فكتبنا هذا اليكم من حضرتنا السعيدة مراكش حاطها الله وصُنْعُ الله لها مُفعَمُ السِّجال ، وَاسِعُ المجال ، وعزْمتُها الماضية تبعثُ ،

الى العِدَى رُسُلَ الاوْجال . والايام بعز صوْلتها ، ويُمْـن دولتهـــا ، بهذه المغارب باسِمةُ الثغور ، مُوذِنَةٌ باتصال أمرِها العزيز بحول الله الى أن تُطوَى مُلاءَةُ الدهور .

هذا وانه اتصل بعلي مقامنا كتابُكما الذي صدَحتْ على افنـــان البلاغة سواجعه ، وعذُبت في موارد المحبة الصدّيقية منـــاهِلُه ومشارِعُه ولطُفت في كل معنى من المعاني افانِينُه ومَنازِعه ، وتألّفت على الاجادة في كل مقصد من المقاصد مواصِلُه العذبة ومَقاطِعه ، واينعت بازهار العنـــاية الربانية اباطِحُه الفيحُ وأجارِعُه ، ومعه المنظومات التي سحّت بالحِكَم دِيَمُها ، ورَسا في البلاغة ، قَدمُها ، ورَبا في مَنْبِت المواهب الربانية يراعُها الفصيح وقلمها ، وحلّ من نفوسنا موقعها العجيب محلا مِن دُونه الثريا في مطلَعِها والبدر ليلةَ تمامه اعجاباً بها وتنويها بمُهدِيها ، وابتهاجاً بالخوارق التي اطلق الله على لسان مُبديها ، والى هذا فلْيحِط علمكما بان مقامنا تَنفَق فيه على الدوام ان شاء الله نفائسُ بضائعكم ، وتنمُو فيه مع الايام سعُود مطالعكم ، وتسمو فيه على كل مقام مقاماتُكم ، وتستوضح فيه على المحبـــة الصميمة أَماراتكم الواضحة وعلاَماتكم ، فعلى هذا تنعَقِدُ منكم الخناصِر ، وتشتَدُّ الأَوَاخِي والأواصر ، بعز الله ومنه .

ثم مما نستطرد لكم ذكرَه على جهة البُشْرى ، واهداء المسرّة الكبرى إعلاَمكم أن عدو الدين طاغيةَ قَشْتَالة الذي هواليوم العدو الكبير للإسلام

وعميدُ مِلَل التثليث وعبدَة الاصنام لما أَنِس من تلقاء جانبنا نارَ العزم تلتهب منا التهابا ، وبحرَ الاحتفال تضطرب امواجُه الزاخرة بكل عَدَد وعُدَّة اضطرابا ، وهِمَمنا قد همَّت بتجديد الاسطول ، والاستكثار من المراكب المتكفلة للجهاد ان شاء الله بقضاء كل دَيْن ممطول ، وعَلِم ان الحديث اليه يُساق ، والى ارضه بالخسف والتدمير بحول الله يهفُو كلُّ لِواء خفّاق رام خذَله الله مكافاتنا على ذلك ، بما أمّل أن يفُتَّ به في عضدنا الأقوى وعزمنا الذي بعناية الله يزدادُ ويقوَى فرَمى بمخذول من ابناء اخينا عبدِ الله كان رُبِّيَ لديه ، وطوَّحت به الطوائحُ منذ ثمانية عشر عـــاما ، إليْه ، الى مَلِيلِيةَ احدى الثغور المُصاقِبة لغرب ممالكنا الشريفة التي هي الى كفالة ولَدنا وولي عهدنا ، كافِل الأمة من بعدنا ، الامير الاجل الأرضى ، صارم العزم المنتضَى ، وحسام الدين الأمضى ، ابي عبد الله محمد الشيخ المأمون بالله وصل الله لراياته التأييدَ والظهور ، والعزّ الذي يستخدم الايامَ والدهور ، فالتفَّ عليه من اغترَّ بِأَباطيله الوَاهِية البناء ، من اوْباش العامة والغَوْغاء ، ومَن قُضي له من اجناد تلك الناحية بالشقاء جموعٌ تُـــكاثِرُ الرَّمْل ، وتفُوتُ الحصا والنَّمْل ، لاح بها للشقي خُلَّبُ بارِق اكـذبتْه أُمنيتُه اذ صدَقتْه مَنِيَّته ، فصمَّم نحوَه ولدُنا اعزه الله بجنود الله التي اليه ، وبعساكر تلك الممالك التي القينا زمامَ تدبيرها بين يديه فما راع الشقيَّ الا انقضاضُه عليـــه من الجو انقضاضَ الأجدَل ، وتصميمُه اليـه بعزائم تدكُّ الطودَ وتفْلِقُ الصخر والجَنْدَل فاستولى عليـــه بحمد الله للحين ، وعلى جنوده الاشقياء في يومٍ اغرَّ مُحجَّل وساعةٍ انزل الله فيها على الخوارج المارِقين ،

العذابَ المعجَّل ، فاستأصلتهم الشِّفار ، وحصَدت هشيمَهم المُصوِّحَ أَسِنَّةُ النار ، وقُبِضَ على الشقي في يوم كان شِفاءً للصدور ، ومنتزهاً لحملة السيوف وربّات الخدور ، واحرزَ الله تعالى فخر هذا الفتح العظيم ، والمنّ الجسيم ، لوَلدنا اعزه الله عز وجل في خاصّة اجناده ، ونهض وحدَه باعبائه ونحن على سرير ملكنا وادِعون مطمئنون ، واجنادُنا في اوطارنا لاهُون ومفْتَنُّون ، فلم يَحتَجْ الى إنجاده ، من قِبَلنا ولا امداده ، والعاقبةُ للمتقين ، والحمد لله حمدَ الشاكرين .

وعرّفناكم لتأخذوا بحظكم من السرور بهذه البُشْرى التي سرّت الاسلام وساءتْ بحمد الله عبَدةَ الاوثان والاصنام ، وتعلَموا مع ذلك ما عليه الاحوال اليومَ بحول الله لدينا من خفْق راياتِ العزم ، وشحْذِ آراء الحزم ، وإعمال عوامل الجزْم ، الى مُجازَاة عدو الدين ان شاء الله على فعلته التي عادت عليه أسفاً ولهفا ، واعادةِ ما كان اسلف من ذلك إن شاء الله بالمكيال الاوفى ، وقدمنا اليكم التعريف لتمدونا إن شاء الله بأدعيتكم الصالحة في اوقات الاجابة ، وتحرِصوا على التماسها هنالك وبالحرمين الشريفين من كل ذي خضوع وانابة ، أنْ يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله ، ويُنجزَ لنا وعدَه الصادق في اظهار دين الحق على الدين كله ، ويسهلَ علينا بفضله ومعونتِه اسبابَ فتح الاندلس ، وتجديد رُسوم الدين بها واحياءَ أطْلاله الدُّرُس ، حتى ينطلقَ لسانُ الدين في ارضها بكلمة الله التي طالما سكتَ عنها نِداؤُه وخرَس ، وشَرِق بريقِه

فغُصّ وخنَس ، فبِيَده الحولُ والقوة ، وعنايتُه العناية المرجوّة .

ثم نُوصيكم بحُسْن الوقوفِ مع اصحابنـــا فيما يُشترى من الكتب العلمية برسم خزانتنا الكريمة الامامية العلية ، ثم الاتحاف بديوان الشيخ والدكم التماساً لجميل بركاتِه ، وتمسُّكاً بما سَبق من الاجازة العامة في سائر منظوماته وموضوعاته ومَرْوياته ، وهذا موجِبُه اليكم ، والسلامُ الأتم مُعَاد عليكم وحمة الله وبركاته .

توقيعه على كتاب جُؤْذر

لما انتصر جُؤْذَر مولى المنصور الذهبي على اسحاق سُكيَة صاحبِ السودان فرّ هذا أمامه واعتصم ببلده كَاغُو فحاصره جؤذر فطلب الصلح على خراج عظيم يؤديه للمنصور كلَّ سنة فكتب جؤذر بذلك للمنصور يستأمِرُه فيه فغضِب المنصور ووقّع على كتاب جؤذر « أَتُمدُّونني بمـال فما آتاني الله خير مما آتاكم، الآية. » ثم أرسل القـائدَ محمودا باشا وعزَل به جؤْذرا وكان الفتح على يده .

كتابٌ للسلطان مولاي الحسن العَلوي

الى قُضاة مراكش من انشاء الكاتب ادريس بن محمد العَمْرَوي

وبعد فقد بلغنا من أخبار مُتَعاضِدة ، وطُرق عن التحامل مُتباعِدة ،

أن خُطَّةَ القضاء والإفتاء صارت مَلْعَبَةً ومتجرا ، لا يعرف أصحابُها فيها سآمةً ولا ضجرا ، وأن الرُّشا فيها تُقبضُ سرّا وعلانِيَة ، والأحـــكام تصدر بنِيَّة وبلا نِيَّة ، قد عُدِلَ فيها عن منهاج العَدْل ، من غير اكتراث بتأنيب ولا عَذْل ، والحقوق نَزلتْ بَمعرض الضَّيَاع ، والمراتب المعَظَّمة بهذِه البِقَاع ، صارت كسرَاب بِقَـــاع ،[1] وأن بعض القضاة حمَله ما حمَله ، الى التطاوُل للدعاوى البعيدة منه واستجلاب القضايا المصروفة عنه ، وتوْجيه أعوانه للاتيان بالُخصماء من البلاد التي قُضاتها لهم الاستقلال ، ولم يَصدَّه عن الترامي لذلك ما لا يستقلّ به من الأثقال ، مع العـلم بأن من صُرِفت عنه قضية ، فقد صرفت عنه بلية ، لو لم يكن الغرض الدنيوي الذي أغراه ، والشرَهُ الذي استحوذ عليه وأغواه ، حتى ظهرت على القضاة أمارات الغنى والرفاهية ، ودهتهم من الميل للزخارف كل داهيــة ، وتبختروا في الحلل والنَّمارق ، وذهلوا عن الأثر المـــأثور « مَن وَلِيَ القضاء ولم يفتقر فهو سارق » كما بلغنـــا أن طائفة من العدول أُذِنَ لهم في الشهادة افتياتاً من غير اعتبار للشروط التي شرطناها ، ولا وقوفٍ مع الحدود التي بيناها وحددناها ، واتُّخِذ منهم ومن الأعوان والوكلاء أشراك للطمع ، وجسور بناها التهور والهلع ، يُمرُّ عليها ما يُلْمَزُ بأجرة الخطاب وحق العلم[2] وتُعَدُّ للاستئثار بها حالتي الحرب والسلم ، هذا مع أنا بالغنا

---

١ — القاع الأرض المستوية . ٢ — يعني تصديق القاضي للرسم وعلامته .

في ختياركم لتطهير الصحيفة ، وابعـــاد ساحة الشريعة عن الأمور الشّنيعة المُخيفة ، واختبرنا وخَبَرْنا وانتقَيْنا وأبقَيْنـــا ، ولكن صدق الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم « الناسُ كإبلٍ مائةٍ لا تكاد تجدُ فيها راحلة . »

انّي لأفتَحُ عيني حين أفتحُها على كثير ولكن لا أرى أحدا

فاذا كان أهل العلم تصدر منهم هذه الفِعال ، فأي شيء تركوه للجهال، واذا كان منصب الشريعة تُحاز به البراطيل[1] وتبدو من جانبه الرفيع هذه الأباطيل ، فأي مَلام يتوجه على عـــامة الناس ، على اختلاف الأنواع والأجناس .

مَن غُصَّ داوَى بشرب الماء غُصَّتَه فكيف يصنَع من قد غُصَّ بالماء

كيف ولم تزل تُتلَى عليكم آياتُ كتاب الله ، وأحاديثُ رسول الله ، أأنتم عنها ساهون أم أنتم عن التذكرة لاهون ، أفلا تتـدبَّرون قولَ الله : « ولا تأكلوا أموالَكُم بينكم بالباطل وتُدْلوا بهـــا الى الحكَّام لتأكلوا فَريقاً من أموال الناس بالإثْم وأنتم تعلَمُون » وقولَه ﷺ لعَن الله الراشي والمرتشِيَ والرَّائِش أي الذي يمشي بينهم ... هـذا واسأَلوا عن سِيرَة من تقدم من قضاة هذه الحضرة المراكشية كالفقيه السيِّد محمـد عاشور ، والفقيه السيِّد الطالب بن حَمدون ، فقد كانوا من الدين والخير بمكَانة ،

١ ـ البراطيل صغار الأشياء والمراد بها هنا الدراهم سميت بها لصغرها .

وأعطَوْا الُخطَّة حظَّها من العَفاف والصِّيانة ، وخرجوا منها بِيضَ الصحائف حُمْر الوُجوه ، فأعرفوا فضلهم ، واقتفوا سبيلهم ، وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ، واعلموا أننـــا بحول الله لا نزال نبحث عن أحوالكمُ بالتنقيب والتنقير . ونعاملكم بالتحذير قبل التعزير ، وباللِّين ثم الجد ، وبالصَّفْح ثم الَحد ، لان الله كلَّفنا بكُم ، وسائِلُنا عنكم وأمور الشريعـــة عندنا أهمُّ من كل مهم وآكدَ من كل أكيد ، وما على هذا من مزيد ، ان أُريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

توقيعات له

كان رحمه الله كما يُحكى عن المنصور الموحدي حسَنَ التوقيع . فمِمَّا وقَّع به على كتابِ قوْم بالَغُوا في الشكْوى اليه بعبد الله بن موسى وهو ممن احسَنَ اليه ايامَ كوْنه بِسُوسَ قبل وِلَايته « لَا يَسْتَوِي مَن انفقَ مِنكُم مِن قَبْلِ الفَتْحِ وقاتَل »

وكتب اليه الطَّلَبة يَسْتَأذِنونه في اقامة نُزْهَتِهم قبلَ الإبَّان وهُو بفَاس عسى ان يحْضُرَها فوقَّع لهم « حتَّى إِذَا أَخذَتِ الأرْضُ زُخْرُفَها وازَّيَّنَتْ وظَنَّ أَهلُها أَنهم قَادِرُون علَيْهَا أَتاهَا أَمْرُنَا »

ورَفَع اليه أهلُ فاس اعتِذَارَهم عمَّا كان بها مِن الفِتْنَة قَائِلـــين إنَّ ذَلك مِن فِعْل السُّفَهاء ، فوقَّع « السَّفِيهُ إِذَا لَمْ يُنْهَ فهُوَ مَأْمور »

وكَتبَ اليه بعضُ مَشائخ القبائل وقد أَوْقَع بهم « أَتُهْلِكُنَا بما فَعلَ السُّفَهاءُ مِنَّا » فوقَّع له « وسَكَنْتُم في مَساكنِ الذي ظَلموا أنفُسَهم »

(ب) الاخوانيات

رسالة للقاضي عياض الى الفتح ابن خاقان

حمّله فيها تحيةً للرئيس ابي عبد الرحمان بن طاهر

عِمادِي ابا نصر، مُثَنَّى الوزارة ووحيدَ العصر، هل لك في منة تفوت الحصْر، تخِفُّ محملا وتُبلِّغ املاً، وتُشكَر قولا وعملا، شكراً تترنَّم به الحداةُ ثَقيلاً ورَملاً، إذا بلغتَ الحضرة العليـــة مُستَلما، ولقِيتَ الطاهرَ ابن طاهر فخْرَ الوزارة مُسلِّماً، وحلَلتَ من فِنائه الأرحب حرماً، ولَمستَ بمصافحته رُكْنَ المجد يندَى كرَماً فقِفْ شوقي بعرَفات تلك المعـــارف، وانسكْ شكري بمشاعر تلك العوارف، وأَطِفْ إكباري بكعبة ذاك الجلال سَبْعاً، وبوِّيءْ لِوُدِّي في مَقرِّ ذلك الكمال رَبْعاً، وأَبلِغ عني تلك الفضائل سلاما، يلْتَثِم بصريح الحب التِثاما، ويُحسن عني بظَهْر الغَيْب مَقاما، ويسير بأَرَج الحمد إنجادا وإتهاما.

رسالة لابي الحسن بن مروان الرباطي الكاتب

الى ابن الرَّبيب المؤرخ وقد استعار منه نسخةً من تاريخ غريب

يا أخي سدَّد الله آراءك، وجعَل عقلك أمامك لا وراءَك، ما يلزَمني

من كونك مُضيِّعاً ان اكون كذلك ، والنسخةُ التي رُمْتَ اعارتَها هي مؤنسي إذا أوحشني النـاس ، وكاتِمُ سرّي إذا خانوني فما أُعيرُها إلا بشيء أعلمُ انك تتأذّى بفقده اذا فُقِد جزء من النسخة وانا الذي أقول :

أُنسُ أخي الفضل كتاب انيق ‏ ‏ أو صاحبٌ يُعنَى بُود وثيق

فان تُعِرْه دونَ رَهن به ‏ ‏ تخْسَرْه أو تخسَرْ ودادَ الصديق

وربّمـا تخسَرُ هـذا وذا ‏ ‏ فاسْمع رَعاك الله نُصحَ الشفيق

رسالة لابن هانيء السَّبْتي اجاب بها ابا القاسم الشريف

وكان بعث له بقصيدة هَمْزِيّة فردّ عليه بقصيدة مثلها وهذا النثر

هذا بُنَيّ ، وَصل الله سبحانه لي ولك علُوَّ المقدار ، وأجرى وَفْق أو فَوْق ارادتك وارادتي لك جارياتِ الاقـدار ، مَا سنَح به الذهن الكليل واللسان الفَلِيل ، في مراجعة قصيدتك الغرّاء ، الجـالية السرّاء الآخذة بجامع القلوب ، المُوفّية بجوامع المطلوب ، الحسنة المهْيَع والاسلوب ، المتحلية بالحُلَى السَّنِية ، العريقة المنتَسب في العُلى الحسنية ، الجالية اِصَدأ القلوب رَانَ عليها الكسل ، وخانَها المُسْعِدان السُّؤْل والأمـل ، فمتى حامت المعاني حوْلَها ، ولو اقامت حوْلَهـا[1] ، شكت وَيْلَها وعوْلَهـا ،

---

[1] ١ — أي عامها .

وحُرِمَت من فريضة الفَضِيلة عَولَها[1]، وعهدي بهـا والزمانُ زمانٌ، وأحكامها الماضية امانيٌّ مقضية وأمانٍ، تتوارد آلافُها، ويجمع اجماعَها وخلافَها، ويُساعِدها من الألفاظ كلُّ سهل مُمتنِع، مفترق مجتمع، مستأنِس غريب، بعيد الغَوْر قريب، فاضِح الحلى، واضح العُلا، وضَّاح الغُرّة والجبين، رافِع عَمُود الصبح المبين، أيِّد من الفصاحة بأَياد، فلم يَحْفِل بصاحِبَي طَيِّىءٍ وإياد، وكُسِي نَصاعَة البلاغة، فلم يعبأ بهمَّام وابن المرَاغة، شِفاء المحزُون، وعِلم السّر المخزون، ما بين مَنشُوره والموزون.

والآن لا مُلهِج ولا مُبهِج، ولا مُرشِد ولا مُنهِج، عُكِست القضايا فلم تُنتِج، فتَبلَّد القلب الذكي، ولم يرشَح القلم الزكي وعمَّ الإفحام، وغمَّ الاحجام، وتمكَّن الإكداء والإجبال، وكُوِّرت الشمس وسُيِّرت الجبال، وعلَت سآمة، وغلَبت ندامة، وارتفعت مَلامة، وقامت لِنَوْعي الأدب قِيامة، حتَّى اذا ورد ذلك المُهْرَق، وفَرْعُ غصنِه المورِق، تغنَّى به الحَمام الأوْرَق، واحاط بعِداد عُداته الغَصصُ والشرَق، وأَمِن من الغَصْب والسَّرَق، وأقبل الأمن وذهب لاقباله الفَرق، نُفِخ في صُور أهل المنظوم والمنثور، بُعِث ما في القبور، وحُصِّل ما في الصدور، وتراءتْ لِلأدب صُوَر، وعُمِّرت للبلاغة

---

١ — العول في الميراث زيادة السهام على الفريضة فيدخل عليها النقصان بحسب تلك الزيادة.

كُوَر ، وهَمَتْ لليَراعة دِرَر ، ونُظِمَتْ للبَراعة دُرَر ، وعندَها تبيَّن انك واحِدُ حَلْبة البيان ، والسابقُ في ذلك المَيْدان يومَ الرِّهان ، فكان لك القِدَم ، وأقرَّ لك معَ التأخر السابقُ الأقدَم ، فوَحقِّ فصاحةِ الفاظٍ أجدتَها حين أوردتها وأسلتها حين أرسلتَها ، وأزنتها حين وزنتها ، وبَراعةِ مَعانٍ سلكْتَها حين ملكْتها ، وأروَيْتها حين روَّيتَها ، وأوْرَيتها وأصَلتَّها حين فصَّلتها ، ووَصَلْتَها ونظام جعلتَه بجَسد البيان قلبا ، ولمِعْصَمه قُلْبا ، وهصَرْتَ حدائقه غلْبا وارتكبتَ رَوِيَّه صَعْبا ، ونثار اتبعتَه له خديماً ، وصيَّرْتَه لمدير كأسِهِ نديماً ، ولحِفْظ ذِمامه المُدامي أو مُـــدامِه النِّمامي مُديماً ، لقد فتَنتْني حين أتَتْني ، وسَبتْني حـــين صَبتْني ، فذهبت خِفتَّها بوَقاري ، ولم يَرُعْها بعدُ شيبُ عِذَاري ، بل دعَتْ للتصابي فقلتُ مرحباً وحللتُ لفتنتها الُحبا ، ولم أحفِل بشيب ، وألفيتُ ما ردَّ نصابي نُصَيْبٌ ، وان كنَّا فرسَيْ رِهان ، وسابِقَيْ حَلْبة مَيْدان ، غيرَ أن الجِلْدَةَ بَيْضاء ، والمرُجو الاغضاءُ بل الإرْضاء .

بُنَي ، كيف رأيتَ للبيان هذا الطَّوْع ، والخروجَ فيه من نوع الى نوع ، أين صفوانُ بنُ ادريس ، ومحلُّ دعواه بين رحْلة وتَعْريس، كم بين ثُغَاء بقَر الفَلاة وزَئير لَيْثِ الفَرِيس ، كما أَنِّي أعلم قَطعا وأقطَع عِلما ، وأحكم قضَاء وأمضِي حُكما ، انه لو نظَر الى قصيدتك الرائقة، وفريدتك

الحالِيَة[1] الفَائِقة ، المعارَضة بها قَصيدتُه ، المنتَسخة بها فريدَته ، لذهب عَرْضاً وطولا ، ثم اعتقد لك اليد الطُّولى ، واقرّ فارتفَع النزَاع ، وذهبت له تلك العلامات والأطماع ، ونَسِيَ كلمته اللُّؤْلؤية ، ورَجع عن دعواه الأدَبية ، واستغفر ربّه من الأُلْهِية .

بُنَي ، وهذا من ذلك ، ومن الجري في تلك المسالك ، والتبسُّط في تلك المآخذ والمَتارِك ، أينزع غيري هذا المنزع أم المرءُ بنفسه وابنه مُولَع ، حيا الله الأدَب وبنِيه وأعادَ علينا من أيامه وسِنيه ، ما أعلى منَازعه ، وأكبرَ مُنازعه ، واجلّ مَآخذه ، واجهلَ تاركه واعلمَ آخِذَه ، وارقّ طباعه ، واحقّ أشياعه وأتباعه ، وأبعد طريقه ، وأسعدَ فريقَه ، وأقوَم نَهجه ، واوثق نسْجه ، وأفصح عُكَاظه ، وأصدقَ معانِيَه والفاظه ، وأحمدَ نظامه ونِثارَه ، وأغنى شِعارهَ ودِثاره ، فعائبُه مطرُود ، وعاتبهُ مصفُود ، وجاهِله محصُود ، وعالِمُهُ محسُود ، غيرَ ان الإحسان فيه قليل ، ولطريق الاصابة فيه عَلمٌ ودليل ، مَن ظفِر بها وَصل ، وعلى الغاية القُصوى منه حصَل ، ومن نكَب عن الطريق ، لم يُعدّ من ذلك الفريق ، فليهنِك أيها الابن الذكي ، البَرّ الزكي ، الحبيب الحفِيّ ، الصفِي الوفي ، انك حامل رايتهِ ، وواصِلُ غايتهِ ، ليس أوّلُوه وآخِرُوه لك بمنكِرين ، ولا تجدُ أكثرَهم شاكِرين ، ولولا ان يطول الكتاب ،

---

١ — الحالية المحلاة غير العاطلة .

وينحرف الشعراء والكتّاب ، لفاضت ينابيع هـذا الفصل فيضاً ، وخرجت الى نوع آخر من البـلاغة أيضاً ، قرّت عيونُ أودّائك ، ومُلئت غيظاً صدورُ أعدائك ، ورقيتَ درج الآمال ، ووُقيت عين الكمال ، وحُفِظ منصبُك العالي بفضل ربك الكبير المتعالي ، والسلام الاتمّ الانمّ ، الأكمل الاعمّ ، يخصُّك به مَن طال في مـدحه إرقالُك واغذاذُك ، وراض روض حمْدِه وابلُك وطلُّك ورذاذُك ، وغـدت مصالِحُ سعْيه في سعْي مَصالحك وسينفعك بحول الله وقوته وفضله ومنتِه مَعاذُك ، ووسَمْتَ نفسك بتلميذه فسمتْ نفسُه بانه استاذُك ، ابنُ هانيء ورحمةُ الله تعالى وبركاتُه .

رسالة لابي جعفر الجنّان المكناسي بعث بها لابن الخطيب

وقد فاتحه بنظيرتها محرّكاً قريحته

يا خاطِبَ الآداب مهلاً فقد ردَّك عن خِطبتها ابنُ الخطيب

هل غيرُه في الأرض كُفءٌ لها وشرْطُها الكُفاةَ قولٌ مصيب

أصبح للشرْط بهـا مُعرِساً فاستفْتِ في الفسْخ فهل من مُجيب

أيها السيد الذي يُتنافَس في لقائه ويُتغالى ، ويُصادَم بولائه صرفُ الزمان ويُعالى ، وتُستنتج نتائجُ الشرف بمقدّمات عِرْفـانه ، وتُقتنَصُ شوارِدُ العلوم برواية كلامِه فكيف بمداناة عِيـانه ، جلوتَ عليّ من

بنات فكرك عقائِلَ نَواهِد ، واقمتَ بها على معارِفك الجمّة دلائلَ وشواهد ، واقتنصتَ بشوارد بديهتك من المعالي أوابِدَ شوارد ، وفجّرْتَ من بلاغتك وبَراعتك حياضاً عذْبة الموارد ، ثم كلّفتني من اجراء ظَالِعي في مَيْدَان ظَلِيعها[1] ، مُقابلةَ الشمس النيرة بالسِّراج عند طلوعها ، فأخلدتُ إخلادَ مَهِيض الجناح وفررتُ فِرارَ الأعزل عن شاكِي السلاح ، وعلمتُ أنني إن أخذت نفسي بالمقابلة ، وأدلَيْتُ دَلْوَ قريحتي للمُساجلة ، كنتُ كمن كلَّف الأيامَ رجوعَ أمسها ، أو طلب ممَّن علتْه السماء مُحاولةَ لمسها ، وإن رَضيتُ من القريحة بسجيَّتها وأظهرتُ القدرَ الذي كنتُ امتحتُ من رَكِيَّتها ، أصبحتُ مَسْخرةً للرائين والسامعين ، ونَبَتْ عن اسمي دواوينهُم كما تنبُو عن الأشيَبِ عيونُ العِين ، ثم إن امرَك يا سيدي ، لا يُحَلُّ وَثِيقُ مُبْرَمِه ، ولا يَحِلُّ نسخُ مُحكَمه ، فامتثلتُ امتثالَ من لم يجدْ في نفسه حرَجا مِن قضائك ورجوتُ حسنَ تجاوُزك واغضائك ، ابقاك الله قُطْباً لِفَلك المكارم والمآثر وفصًّا لخاتم المحامد والمفاخر والسلام .

●

---

١ — الظالع الضعيف المشي والضليع القوى الشديد ، ويقال لا يبلغ الظالع شأو الضليع .

رسالة للقاضي ابي عبد الله الفشتالي الى ابن الخطيب

جواباً عن مخاطبة مَدْحٍ وثناءٍ بعث بها إليه

وافتْ يجُرُّ الزَّهْوُ فَضْلَةَ بُردِها ... حسناءُ قد أضحت نسيجةَ وحدِها
لله أيُّ قصيـــدة أهديتَ لوْ ... يُهدَى المعارضُ نحوَ غاية قصدِها
لابن الخطيب بهـا محاسنُ جمـة ... يلقَى الخطيبُ فَهاهةً في عـدِّها
سرّ البلاغـة مِنه أودِعَ حافظاً ... قد صانه حتى فشا من عنـدها
في غيْر مَا عقـدٍ نَفثْت بسحرها ... فلِذَا أتى سلْسا مُنظَّمُ عِقْـدها
لم ادرِ ما فيهـا رقمتَ معنـوناً ... من طِرْسها أو مُعلَما من بُنْدها
حتى دفعتُ بهـا لأبعـد غايةٍ ... باعاً تَقاصر في البلوغ لِحـدِّها
حُرَّان من نظْم ونثْر إنْ من ... يَلقاهما يرجعْ بذِلَّة عَبـدها
أولى يـداً بيضاء مُولِيها فما ... لي قدرة حتى اقوم بحمدهـا
ورفضتُ تكذيب المنى متشيعـا ... لِعَليِّ مرءاها بصادِقِ وعْـدها
فبذلتُ شعري رافعاً من قـدرها ... وهززت عِطْفي رافلاً في بُردها

خذْها اعزَّ الله جنابك ، وادَال للأُنس على الوحشة اغـترابَك ، كنَغْبَة الطائر المُتحفِّز ، ونَهبة السائل المُستوفِز ، ورَمقَة اللحظ ، قلِقَـة

اللَّفْظ : قد جمعت من التزامِها وانْقِحامِها بين بُطءِ فنْد[1] ، وصُلُود زَنْد ، ونوّعتْ فِعلَى إقدامِها وإحجامِها الى قاصرٍ ومُتَعدّ . وليتني إذ جادت سحابةُ ذلك الخاطر الماطِر الوَدْق ، وانجاب العَشا عن قريحــة فكرتي بتقاضي الجواب انجياب الطَّوْق ، أيقنتُ اني قد سُدَّ عليَّ باب القــول وأرتِج ، وقلت هذه السالبة الكلية ، لا تنتِج ، فنبذتُ طاعةَ الداعية من تِلكم الإمْرَة ، ولم أفُهْ اذا أعوَزَت الحلْوَة بالمُرَّة . لكنّي قلتُ وُجدُ المكثر كجُهْد المُقِلّ ، والواجب يكْفي الامتثالُ فيــه بالأقلّ ، فبعثتُ بها على عِلّاتها وابلغتُها عذرها في أن كَنَتْ عن شوقها بلُغاتهــا ، وهي لا تعــدَمُ من سيدي اغضاءَ كريم وإرضاءَ مُليم ، والله عز وجل يصِلُ بالتانيس الحبْل ، ويرُدُّ الألفة ويجمع الشمل والسلام الكريم يخُصُّ تلك السيادة ورحمة الله وبركاته .

رسالة لعبد العزيز الفشتالي بعث بها الى المقّري

صاحب نفح الطيب جواباً عن كتاب كتبه له قبيل تشْريقِه

يا نَسمةً عطَست بها انفُ الصَّبا فتضمَّخت بعبيرها قُنَنُ الرُّبــا
هبّي على ساحاتِ احمد واشرَحي شوقي الى لُقياه شرْحا مُطنَبا
وصِفي له بالمُنْحنَى من اضلُعي قلْباً على جمْر الغَضا مُتقلِّبــا

---

١ — فند هو اسم مولى لعائشة بنت سعد بن أبي وقاص يضرب به المثل في البطء .

بَانَ الأحبةُ عنه ، حيٌّ قد ثَوى   منهم ، وآخرُ قد نأى وتغيَّبا
فعسَاكَ تُسعِد يا زمانُ بقُربهم   فأقُول أهــلاً باللقاء ومرحبا

السيادة التي سوّاها الله مِن طينة الشرف والحسب ، وغرَس دَوْحتهَا الطيبة بمعدن العلم الزاكي المَحْتد والنسب ، سيادة العالم الذي تمشي تحت علَم فتياه العلماء الأعلام ، وتخضع لفصاحتــــه وبلاغته صَيارِفَةُ النثر والنظام ، وحملة الاقـــلام ، كلَّما خطَّ أو كتب . واذا استطار بفكره الوقّاد سواجِعَ السَّجع انثالت عليـــه من كل أوْكارها ونسَلت من كل حدَب ، وحكَت بانسجامها السيْل والقَطر في صَبب ، الفقيه العالم العلَم ، والمحصل الذي ساجَلت العلماءُ لِتُدرك في مجال الإدراك شأْوَه فلَمْ ، سيدنا الفقيه الحافظ حامل لواء الفتيا ، ومالك المملكة في المنقول والمعقول من غير شرط ولا ثُنْيا ، أبو العباس احمد بن محمد المقري ابقاه الله تعالى للعلم يفْتضُّ أبكارَه ، ويجني من روضه اليانع ثماره . سلام عليكم ورحمة الله تعـــالى وبركاته كتبَه المحب الشاكر عن ودّ راسخ العـــهاد ، ثابتِ الاوتاد ، مزهوّ الأغوَار والأنجاد ، ولا جديد إلا الشوق الذي تحنُّ الى لقياكم ركائبه وتَرْتاح ، وتَحُوم على موْرِدِ الانس بكم حَوْمَ ذات الجناح على العذْب القَراح ، جمع الله تعالى الارواح المؤتلِفَة على بساط السرور وأسِرَّة الهنا ، واتاحَ للنفوس من حسن مُحاضرتكم قَطْف المُشتهَى وهو غضُّ الجنَى .

وقـــد اتصلَ بالمحب الودُود الرَّقيمُ الذي راقت من سَواد النَّقش

وبياض الطِّرس شِيَاتُه ، وأرانا مُعْجِزَ أحمدَ فبهرَت آياتُه ، وَخبـا سَقْط الزَّنْد لما أشرقَتْ من سماء فكركم آياته ، فاطرَبنا بتغريد طيُور هَمزَاته على أغصان أَلِفاته ، وعوَّدْنا بالسَّبْع المثاني بَناناً أجادت نَثْر زَهراتِه على صفَحاته ، ثم مررنا بتضاعيفه بسُوق الرقيق ، فرمنا السلوك على منحـاها فعَمِي علينا الطريق ، وقلنا واهاً على سُوقِ ابنِ نُباتة وكسادِ رقِيقها ، واستلابِ البهجة عن نفيس دُرَرها وأنيقها ، لاكسُوق نفَق فيهـا سوقُ الغزل ، وعلا كَعْبُ الرامح والأعزَل ، وتظـافَر على سحر النفوس والالباب هاروتُ الجدومَارُوتُ الهزْل ، وقد القينا السِّلاح وجنَحنا للسلم وتهيأْنا للسباحة فوقفنا بساحل اليَمّ ، وسلَّمنا لمن استوت به سفِينةُ البلاغة على الْجودِيِّ ، فأبنا والحمد لله على السلامة بالفهَاهة والعِيّ ، وقُلنا ما لنا وللانشاء ، فهو فضلُ الله يؤتيه من يشاء .

وعذراً أيها الشيخ عن البَيْت الذي عطَست به أنفُ الصبا فقذفت به البديهة من الفَم ، وشَرِقت به صدرُ قنـاة القلَم ، كما شرِقَت صدرُ القناة من الدَّم ، وامَّا ما تحمَّل الرسول من كلام ، في صورة مَلام لا بـل مُدام ، أُترِعَ به مَن سُلاف المحبة كأسٌ وجَام ، فلا وربِّك ما هي إلا نفحةٌ نفحَت ، لا سَمُوم لفَحت ، هزَزْنا به جِذْعَ ادبكم كي يتساقَط علينا رطْبا جَنيّا ، ويهْمِي وَدْقُه على الرَّبع المحيل من أفكارنا وَسْمِياًوَوليّا ، فجاد وأرْوى ، وأجاد فيما روَى ، وأحيا من القرائح ميْتا كان حـديثاً يُروَى ، وطِرْسا بين أنامل الأيام يُنشر ويُطوى ، أحيا الله تعالى قلوبنا

بمعرفته ونوَاسِم رحمته ، وعرَج بارواحنا عند الممات الى المحل الأخصّ بالمؤمن من حضرته .

وأهدي السلام ، المُزْري بمِسْك الختام ، على الفقيهين الأمجـدين ، الصدرين الأنجدين الفذين التّوْأمين ، الفاضلين المُجيدين ، فارسَي البراعة واليراعة ، ورئيسي الجمـاعة في هذه الصناعة ، رَضيعَيْ لِبانـ الأدب وواسطتَي عِقْده ، ومُجيلَي قِدْحه المُعَلَّى ومُورِيَي زَنْده ، المتَّعين بشميم عَراره ورَنْده ، الكارعيْن بالبحر الفيَّاض من هزْله وجِـدِّه ، الآتيين بالجنس والفصل من رَسْمِه وحدّه ، الكاتب البارع ابي الحسن سيدي علي ابن احمد الشامي ، والكاتب البليغ ابي عبدالله سيدي محمد بن علي الوجدي ، واقْرِ لهما الودَّ المستحكم المعَاقِد ، الصافي المنَاهِل العذبَ الموارد ، واني قائمٌ بورْد الثَّناء عليكم وعليهما لدَى المقـام العلي الامامي الناصري دام سلطانُه ، وتمهدت أطواره وأوطانُه . وننهي اليكم ان الفقيه المحب الاستاذ سيدي محمد بن يوسف طلْقُ اللسان بالشكر صادح على أيْك الثناء عن تلكم السيادة بما اوليتموه به من جزيل الإحسان ، وقابلتموه به عند الورود والصدر من البشر والكرامة وجميل الامتنان ، والسلامُ التامُ معَادٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

رسالة للاديب محمد ابن ابراهيم الفاسي الى الشهاب محمود الخفاجي

جواباً عن كتاب بعثَ به إليه

بعد تقبيل ثُريا ذلك الثَّرى ، الذي عبق في الشام عنْبرا ، وقلَّد جِيدَ الزمان دُررا ، لا زال منبَع البيان ، ومنتجع الأعيان ، ولا برِحَ جوهرُ حصبائه يُفضِّله العيان علىّ قلائد العِقيان ، هــذا وَصل إليّ وَصل الله اليك أسبابَ العُلا ، وألبَسك رائقَ الُحلى ، كتابُك الخطير في رُقعة من محاسن لفظك الرائق الجلباب ، المُزْري برَوْنق رَيِّق الشباب ، وبَهجةٍ من بدائع خطِّك المستوقِف للنــاظر ، المخجل بحُسْنه الوَشْيَ الفــاخر ، والروضَ الناضر فأَجْنَاني ثمرَ البِرّ يانعــا ، وجلا علي وَجْــهَ الود ابيضَ ناصعا .

وأرَاني كيفَ انقيادُ القوافي في زِمام البيان سمعاً وَطوْعا

وفتَح لِلمُخاطبة بابا طالما كنتُ له هيّابا ، ورفَع حجابا ترك القلْب وَجّابا ما زلتُ أُغازِلُها أمَلا ، فلا أطِيقُ لها عملا ، وألاحِظُها أَمدا ، أذوبُ دونه كمدا .

وفي تعَب من يحسُد الشمسَ نُورَها ويزْعم ان يأتي لها بِضَريب

لا جرَم انه اقتضاني خالصَ ود وَصحيحَ عهد ، لم يلتفت مني الى

مَعْذِرة ولم يكلْني الى ما في الوُسع من المَقْدرة ، وقد يعودُ على علمك بحرُ القريحة ثَمَدا ، وحُسامُ الذهن مِعْضدا ، فتكلفتُها بحكم هــذا الغرام تحت حصر ونازِح بصَر ، فان سمحتَ بالاغضاء ، وسامحتَ في الاقتضاء ، سلمتُ لك اليد البيضاء وظهرتُ لشكرك بالفضاء ، وأما العــذر الذي توخيتُ ولا عدمت شرَحه وحميتُ بقوة الكلام سَرْحه ، فاني غنيّ عن تكَلُّفات إيضاحه ، ومدّ أَوْضاحه ، فالذي يثبُت في النفوس ، من الود المَصُون المحرُوس ، لا يُخشى عليه من تسلُّط الطُّموس والدُّروس ، ولا أقول ان ودي لك كالتِّبر إذ لا يصفُو ما لم يَشُبْهُ لهيبُ الجمر ، ولا كالراح ، حيث يفتقر في الرِّقة الى المسَاء والصَّباح ، بل اقول ان ودي لك ابيتَ اللعن ، كالفُرات العذْب ، يشفِي غليل القلب ويُطفِي لهيبَ الصبّ ، يحلُّ بالارض الميتة فيُحْيِيهـا ، ويمرُّ بالروضة الذابلة فيُتوِّجها بالازهار ويُحَلِّيها ، وأنتَ أعزكَ الله لا تثْريب عليك إذ كلٌّ يعمل على شاكِلَتهِ ، ويجرِي في أُموره على مقتضى مَرْتبته ، فان حُنُوَّ السيد ، وانت ذاك ، يُستكثر قليله ، واخلاص العَبْـد ، وهو أنا يُستحقَر كما علمتَ جليله ، والحب أغلَب ومعرفة المرء نفسه أصوَب .

وان تفضلتَ بالاستفسار عن احوال العبْــد فان الحال في خَيْر ، والمـآل يعلمه الله تعالى ، وبالُجمْلة فسَهمُ المصيبة ان سدَّده الدهر ، فعلى مثلِه وقَع ، والتألُّم بمثل هذه الحالة قد ارتفع :

ولم أرَ مثل الصبر ، أمّا مذاقه فحُلْوٌ ، وأمّا وجْهُه فجميل

وكذلك كلُّ من دعا الصبر لما شاء أجاب ، وأراه من نشره الأُفق المُنْجاب ، وأقامه بين مَبَرَّات وَأَلطاف ، وأعطاه مما أحب جَنِيَّ قِطاف ولله در القائل :

يعيشُ المرءُ ما استغنَى بخير ويبقَى العُودُ ما بَقِي اللِّحاءُ

وهو الدهر لا يُرَدُّ عن مراده ، ولا يُصادَر في إصداره وإيرَادِه :

فيومٌ علينا ويومٌ لنا ويوم نُساء ويوم نُسَرُّ

على ان طُول الغَيْبَـــة ليس لشيء عَلِمَ اللهُ آثرته على لُقياكم إذْ استَبدِلُه طَوْعاً لكنَّه ارتكابٌ للأَخفّ من الضررين ، واختيار للأَهون من الشرَّين :

عسَى غلطاً يَثْني الزمانُ عِنانَه بدَوْر أُمور والأمورُ تدُور
فتُدرَكُ آمالٌ وتُقضَى مآرب وتَحدُث من بعد الأمور أُمور

فلذلك قَنِعت من البحر الوَشَل ، وسرَحتُ في رياض المُنَى بـين عسى ولعل ، فقد قيل إذا دارَ الفلَك ، فعليك أو فَلَك ، ولله في خلقه أمر لا تُدرِك العقولُ حكمتَه « وهو الذي يُنزِّلُ الغيثَ من بعـــد ما قنَطُوا وينشر رحمته » وما اجتليتُه في كتابك الخطير وروض خطابِك المطير ، استدعى شيئاً من نظم العبْد ونثره ، والتنويه بذلك من خامِل ذكره ، فلا عدمتُ منك مولى على الإحسان مُثابِراً ، وحكيماً لكَسْر

إكْسِير الخاطر جابراً ، مع تشتُّت الحال لبُعْد مَزارك ، ونأْيِ دارِي عن دارك ، وأُقسِم اني صمّمتُ على التغافل عن الجواب وهو الأوْلى بالصواب ، إذ ليس بلَبِيبٍ من يَقِيسُ الشِّبْر بالبَاع والجبـــانَ بالشجاع ، وكيف لا وكلٌّ من تكلف فوق طاقتِه افتضَح لساعتـه ، لكن عـــدَمُ الامتثال مَحذور ، والمُلْجَأ الى ما لا يُطاق مَعذُور ، فتكلفتُ ما يُعرضُ عليك من المُسَمَّطات سوى القصائد المُشار اليها بذكر بعضها فانهـا متقدمةَ على ورود مُشَرِّفَتِكم ومثلك من سَدّ الخلـل وتجاوز عن الزلل ، والله يُبقِيك ، ومن كل سُوء يَقِيك والسلام .

(ج) (المتفرقات)

رسالة للقاضي أبي موسى بن عمران

المتوفى سنة ٥٧٨ الى وَلَـد له بفاس قد ناهَز الحُلم

الى ولدي فلان ، هداه الله وصانَه ، وجمَّله بالعلم والتقوى وزانَه ، كتبتهُ اليكم عن اشتياق كثير ، وبِمشيئة الله تعالى تَتيَسّر الأمور ، ويتكاثف السُّرور ، وإذا وجدْتُكم على ما أحِبُّه من أدوَات الحفظ والأداء ، ولِزَام آداب العقلاء ، جازيتكم بما يُرضيكم ، وبما يزيد على اقصى تمنّيكم ، وقد اجمعت الأيمَّة على ان الراحة ، لا تُنال بالرَّاحـة ، وان العلم ، لا يُنال براحـة الجسم ، فادرُس تروَّس ، واحفَظ تُحفَظ ، واقرَأْ تَرْقَ ،

ومهما رَكَنتَ الى الدَّعة، كنتَ في أهل الضَّعة، وما رأيتَ الناس مُجتمعين على حَمْده فاجتَلِبْه، وما رأيتهم مجتمعين على ذمّه فاجتنِبه، والأعدَلُ الأقسَط، ان تسلُك السبيلَ الأوْسَط:

وما المرءُ إلا حيثُ يجعلُ نفسَه ففي صالح الأعمال نفسَك فاجْعَل

رسالة ابي جعفر بن عطية الى عبد المؤمن يستعطفه بها

عطفاً علينا أميرَ المؤمنين فقد بانَ العزاءُ لِفَرْط الهم والحزَن
قد اغرقَتْنا ذنوب كلُّها لُججٌ ورحمة منكم أنجى من السُّفُن
وصادفَتْنا سِهامُ البَيْن عن عَرضٍ وَعطْفَةٌ منكُم أوْقى من الجُنن
هيهاتَ للخطب ان تسطو حوادثُه بَمن أجارته رُحماكم من المِحَن
مَن جاء عندكم يسعَى على ثقة بِنصره لم يخفْ بطْشاً من الزمن
فالثوبُ يَطهُر بعد الغسلِ من دَرَن والطَّرفُ يُرهَص بعدالرَّكْض في سنَن
انتم بذلتُم حياةَ الخلق كلِّهم مِن دُون مَنّ بها كلّا ولا ضنَن
ونحن من بعض من احيَتْ مكارِمُكم كلتا الحيَاتَيْن مِن رُوح ومِن بَدن
وصِبْيةٍ كفِراخ الوُرْق من صِغَر لم يألفُوا النَّوْحَ في فَرْع ولا فَنَن
قد أوجدتْهم أيادٍ منك سالِفة والكلُّ لولاكَ لم يُوجَد ولم يكُن

تالله لو احاطت بي كلُّ خطيئة، ولم تنفكَّ نفسي عن الخيْرات بطِيئة،

حتى سخرتُ بمن في الوُجود وانِفْتُ لآدَم من السجود ، وقلتُ ان الله لم يُوحِ ، في الفُلْك الى نُوح ، وأبرَمتُ لاحتطاب نار الخليل حَبْلا ، وبرَيْتُ لِقُدارِ ثَمُودَ نَبْلا[1] ، وحطَطتُ عن يونس شجَرةَ اليَقْطِين ، وأوقدتُ مع هامانَ على الطين ، وقبضتُ قبضةً من أثَرِ الرسول فنبذتُها ، وافتَرْيتُ على العذراء البتُول فقذَفتُها ، وكتبتُ صحيفة القَطِيعَةِ بدَار النَّدْوَة ، وظاهرتُ الأحزَاب بالقُصْوى من العُدْوَة ، وابغضتُ كلَّ قُرَشي ، واحببتُ لأجل وَحْشيّ[2] كلَّ حبَشي ، وقلتُ بأن بيعَة السَّقيفة ، لا تُوجبُ إمامَة خَليفة ، وشحذتُ شفْرَةَ غلام المُغيرة بن شُعْبة ، واعتلَقْتُ من حِصَار الدار وقتْل أشْمَطِهَا[3] بشُعْبَة ، وقلتُ تقَاتَلوا رغبةً في الأبيض والأصفر ، وسفَكُوا الدماءَ على الثَّريد الأعْفَر ، وغادرتُ الوجهَ من الهَامَة خَضيبا[4] ، وناولتُ من قَرعَ سنَّ الحسيْن قَضيبا ، ثم كنتُ بحُفْرَةِ المعصُوم لائِذاً ، وبقَبْرِ المهدّي رضي الله عنه عائذا ، لقد آن لِمقالَتي ان تُسمَع ، وأن تُغفَر لي هذه الخطِيئاتُ أجمع ، مع اني مُقتَرِف وبالذنب مُعْتَرِف :

فعفواً أميرَ المؤمنين فمَنْ لنَا ... بِرَدِّ قُلوب هدَّها الخفقَانُ

والسلام على المقام الكريم ورحمةُ الله وبركاته .

---

١ – قدار هو اسم عاقر ناقة صالح .
٢ – وحشي هو قاتل حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد وكان مولى حبشيا لجبير بن مطعم
٣ – يريد به عثمان (ض) ٤ – يشير الى اغتيال علي كرم الله وجهه .

رسالة أبي الخطاب بن دِحْيَة

الى وَالِي بجَايَة يسأله تسْريح خديم له أُخِذَ في غُزاة البَحْر
وقد ارتكَب فيها غريب اللغة على عادته (*)

الشيخ الفقيه الأَديب الجحْجَاح [١] الهِرْمَاس [٢] أبو فلان ، جحْمَظ [٣] الله قَعْثَبانَ [٤] شَفْتَرَتِه [٥] .

هذا الغِطْرِيس [٦] في اليَمّ [٧] أخـذ رجلا لا يملك حَذْرَفُوتا [٨] فيرى الزِّبْرِقَان [٩] فيخاله حُوَّارَى [١٠] ويرى الجُعَل [١١] فيحسبه زَعْبجاً [١٢] وله [١٣] قُرحَة أمحِشَت [١٤] من الحر ، وتعطل كَفْرُها [١٥] فابعَثْ الى هـذا العَثِريّ [١٦] من يَخضِد [١٧] شوكته والسلام .

(*) أنظر ترجمته وبحث العلوم اللغوية في عصر الموحدين في الجزء الأول .

١ — السيد ٢ — الأسد ٣ — لف وشد ٤ — القعثبـان الكثير من كل شيء ٥ — الشفترة التفرق والتكسر — فالمعنى على الدعاء له بجمع متفرق أمره ٦ — المتكبر الظالم ٧ — البحر ٨ — أي شيئاً ٩ — القمر ١٠ — الحوارى الدقيق الأبيض ويراد هنا الرغيف المصنوع منه ، ١١ — ضرب من الخنافس معروف ١٢ — الزعبج الزيتون ١٣ — الضمير يعود على الرجل ، ١٤ — أحرقت وقشرت ١٥ — أي سترها وبرؤها ١٦ — هو الذي لا هم له في دنيا ولا آخرة ١٧ — يقطع .

رسالة الى عبد الواحد المراكشي

من صديق له صبيّ لم يبلغ الاحتلام ، يخبره بفتح بعض الفتوح

كُتِبَ من منزل سُوس وقد تبلَّج فجرُ الفتح فأسفر ، وقال فريقُ الضلال وشيعَتُه أين المفر ، وقد ألقَى النصر جِرَانَه ، وأعزّ الله حزبه المؤيَّد وأعوانه ، وشرْحُ الحال على غاية الايجاز ، لأَجل الاستعجال في انهـــاء هذه البشائر والانحفاز ، أن الناكثين النابذين للعُرْوَة الوُثْقَى ، المتمسكين بالسبب الأشْقَى ، حاصرَهم الموحـــدون أنجدهم الله ، أشدَّ الحصار وقطعُوا عنهم موادَّ المعائش وزَرافاتِ الأنصار ، ولسانُ التأييد يتلو علينا بالعَشِيّ والإشراق ، (ما ينظر هؤلاءِ إلا صَيْحَةً واحِــدةً مالها من فَواق) ولِحينِ ما أخـذ الموحدون أنجدَهم الله في حَسْم دائهم العُضال ، وجرَّدوا لهم من عزَماتهم الصادقة ، ما هو أمضى من النِّصال ، طاحُوا مُجدَّلِين بالحضيض ، ومــلأَ جُثمانُهم الفضاء العريض ، وخيَّب الله ظنونهم الكاذِبَة وآمالَهم ، وصيَّرهم الى أُمِّهم الهاوية فكانت أولى لهم ، ذلك بأنَّهم اتَّبعُوا ما أسخط اللهُ وكرِهُوا رضوانَه فأحبط أعمالهم وأمكن الله من رأسِ ضلالِهم المدعوّ بأبي قَصبَة ، فقهَره الحزب المنصور وغلَبَه ، وحزَّ الحسام منه قُنَّةً ورقبَة ،

عَقْدُ تَوْبَةٍ لميمون الخطّابي[١]

يقول العبد الذي اعترَف بما اقترَف لمولاه، وأقرّ له بما أضاعه لا بما أطاعه على ما منحه من النّعم واوْلاه، الميمونُ بنُ علي الخطّابي، جبَر اللهُ بالتقوى كَسْرَه، وفكّ من حبائل الدنيا أسْرَه، لم ازَل مدةَ أيام بل عدّةَ أعوام، اخالِلُ كل مُخلّ بديني، واستظِلّ من إطالة البَطالة بكل ظلّ مُضِلّ يُرْديني، واخالِفُ كلّ صالح مصلح، واحالف كلّ طالح غير مُفْلح، واجرّ اذيالَ المجُون على ارض الراحة، وأُطلِقُ عِنان مُهْرِ الغفلة في مَيدان النسيان فيُطيلُ جماحه ومَراحه، راكباً مَطايا التّسْويف دون إهمال، مستوطِئا فَرْشَ الكسل والانهماك في الشهوات والانْهمال، مستوطنا رَبْع التصابي بقلة الأعمال وكثرة الآمال، سالكا سبيل الهزْل وطريقَه، تاركا قبيل الجد وفَريقَه، لا أثني عِناني، الى ما يَعْنيني، ولا ازال أُعاني، ما يُعَنّيني، ولطائِفُ الله عزّ وجل التي يضيق عن حمل اصغَرِها الامكنةُ الفسيحة، ولا يُطيقُ بلوغَ شُكْرِها الالسِنةُ الفصيحة، ضاحِيَةُ الورُود، ضافِية البرُود وقد طُنبِّت عليّ قِبابُها وارواقُها، وخُلِعَت بعنقي ثيابُها واطواقُها واطّردت بماء النعمة مَذانِبُها

---

١ — لبهلول المجنون حديث يشبه ان يكون هو الأصل لهذا العقد فانظره ان شئت في كتاب عقلاء المجانين لابن حبيب النيسابوري .

وانهارُها ، وتساوَى في القُدوم بالكَرم ليلُها ونهارُها ، وأَنا مع ذلك لا ازيد إلا غفلةً عن القصد السُّنّي وسهْواً ، ولا استزيد الا اشتغــالا عن المقصود السَّني ولَهْوا ، الى أَن أَجرى الله عادةَ احسانه وجُوده ، وأَرادت مُراداُته السائقة السابقــة اخراجَ العبد المذكور من عدَم الغفــلة الى ظهور الإلهام ووُجوده ، فسلَّط رعْد الخوف على سحائب سمائه فكشَفها وجلّاها ، وحلّ بساحة أرضها سُكْر السلُو فسكَّرها من سواه وخلَّاها ، وقلَّد اجيادَ فكره بقلائد حمدِه وشكرِه وحلَّاها ، وسلَّ من سُوَيْــداء قلبه محبَّة غيره فنزَّهها عنه وسلَّاها فلاحَ إصباحُ النجاح وآذَن ليـــلُ الغفلة بالصباح ، ونادى مُنادي الوُصلة بَمنار العُزلة حيَّ على الفلاح ، وصاح كالِئ صبح النُّجح بالسَّفر الُمعرِّسين شُدُّوا الَمطِيَّ فقد سال نهرُ النهار ، ومال جُرُف الليل وانْهار ، وانفجر عمودُ الفجر بنوره الوَضَّاح ، فلَاح ، فافاق العبدُ المذكور من نوم الرُّكون ، الى السكُون والكَرى ، وشمَّر للسير ذُيولَه وضَمَّر للسبق خُيولَه إذ سمِــعَ عنــد الصباح يَحْمدُ القومُ السُّرى .

ثم كتبَ العبد المذكور عقْدا وعهِدَ مع المولى الجليل عهْــدا ، وهو على خوْف ووَجل يسأله ادراك ما امَّله ، والوصول الى ما أمَّ له ، ويتبرَّأ من حوْله وقوته اليه ، ويتوكل في جميــع اموره عليه ، ويقف بِقَدم الندم بين يديه ، معترفاً بما كان له مقترفاً ، وراجياً ان يكون من بحر الاحسان لدار الامتنان مُغترِفا ، والعقْد المذكور :

هذا ما اشترى المولى اللطيف الجليل، من العبد الضعيف الذليل، الميمونِ ابنِ علي، اشترى منه في صَفْقَةٍ واحدة دون اسْتِبْقاء ولا تَبْعيض، ولا استثناء بتصريح ولا تعريض، جميعَ المنزل المعروف بمنزل القلب والفؤاد، الذي مِن سكانه الاخلاصُ والمحبة والوداد، حدُّه من القِبْلة قبولُه الأوامر المطاعة، ومن الشرق لزومُ السمع والطاعة، ومن الجنوب الاقبالُ على ما عليه أهلُ السنة والجماعة، ومن الغرب دوامُ المراقبة في كل وقت وساعة، بكل ما يخصُّ هذا المبيعَ المذكور ويعمُّه، وينتهي اليه كل حد من حدوده ويضُمُّه، من داخل الحقوق وخارجها، ومداخل المنافع ومخارجِها، وبكل ما له من الآلات التابعة له في التصرُّف، والحواس الجارية معه في حالَتَيْ الاضاعة والتشرف، السالكة مسلكَه في التنكر والتعرف، من يدين ورجلين، ولسان وشفتين، وعينين واذُنين، اشتراءً صحيحاً تاماً، شائعاً في جميع المبيع المذكور وعاماً، ثبتت قواعِدُه، وظهرت بالتسليم الصحيح شواهِدُه، بلا شرط ولا ثُنْيا ولا خِيار، ولا بُقْيا مع حظ نفس ولا اختيار، بثمن رتَّبته العناية الربانية، ونسَخَتْه المشيئةُ الإلاهية، بين عاجل وآجل، فالعاجِلُ العونُ على كل مندوب ومفترض، والصوْنُ عن كل غَرض وعرَض، والثناءُ على النعم الظاهرة والباطنة، واهداءُ الآلاء المتحركة والساكنة. والآجِلُ الفوزُ بالدار القدسية، والحضرة الأُنْسِية، التي فيها ما امتدّ به جناحُ التواتُر بالخبر الصادق وانتشَر، ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطر

على قلب بشر ، من النعيم السَّرمدي ، والحبُور الدائم الأبدي .

سلَّم العبد المذكور هذا المبيع المذكور تسليما تبرَّأ فيه من المَلَكة ، ورفع به يدَ الاعتراض عما يفعل المولى الجليل فيما مَلكه ، وايقن انه المتصرف فيه في سره وجهره ، وعلم ان المُلْك المذكور تحت يد عزّته وقهْره ، يُجري فيه أحكامه القاهرة ، ويُنفِّذ فيه قضاياه الباهرة ، ومقتضى قدرته الظاهرة ، وقد احاط المولى الجليل بهذا المبيع المذكور ، احاطةَ ظُهور ، ولم يخفَ عليه شيء من قليله وكثيره ، وجليله وحقيره ، ومَبانيه ومَساكِنه ، ومتحرِّكه وساكنه ، واطلع عليها اطلاع عليم قدير ، « أَلا يَعْلَمُ مَن خلق وهُو اللطيفُ الخبير » .

ولما أسلم العبد المذكور المبيعَ المذكور وامضاه ، واستسْلم لمولاه فيما حكم به وقَضاه ، تفضَّل عليه مولاه وغَمَره بجوده العميم واولاه ، وجعل له السُّكْنى بهذا المنزل المذكور مدةَ حياته ، والاقامةَ فيه الى حين مماته ، واتيانِ وَفاته ، اذ يستحيل على المولى الجليل الحلولُ في شيء ، أو السكونُ الى شيء ، وهو مُوجِد كلِّ شيء وخالق كل مَيِّت وحيّ ، ومُريد كل رُشْدٍ ومُقدِّرُ كل شيء[١] به قِيامُ جميعُ العبيد ، وعن قَدَره غناهم وفقرُهم لانه الفعَّالُ لما يُريد ، وهو مُيَسِّرُهم لليسرى فمنهم شقيّ وسعيد ، وله الغِنَى عن كل شيء وهو الغنيُّ الحميد .

١ - كذا ، ولعله غي ،

وقد أمر المولى الجليل بخدمة هذا المنزل المذكور خدمةَ التقرُّب اليه ، وجعل له التصرّفَ فيه لقبول امره للفوز بما لديه ، وبهذا المنزل المذكور بسَاتينُ تسمَّى بَساتينَ الاخلاص ، وجنَّات تُعرف بجنات حضرةِ القَلب المعروف بمحلِّ الاستخلاص ، التزم العبد المذكور تسهيل أرضها من شوْك الشِّرْك والارتياب ، وتذليلها من حجَر العُجب والاضطراب ، في حالَتي الحضور والغياب ، وتَنقِيتها من أعشاب الحسد والحِقْد والكِبْر ، وزوال ما فيها من عَوارِض الغِشّ والخديعة والمكْر ، وان يقطع منها كلَّ عُودٍ لا منفعة فيه بحديد الفكر ، مثلَ عُودِ الحِرْص والطمع ، ويغرِسَ مكانَه شجرَ الزهد والورع ، ويُقلِّم اغصان الميْل الى الأدران والاقذار ، وافنانَ الركون الى الأغيار والاكدار ، وقُضْبانَ السكون الى الشهوات والاوطار ، ويفتَح ابوابَ البَذل والايثار ، بمفاتِح الجُود الحميد المساعي والآثار ، ويُطلِق يَنابيعَ التوكُّل على مَصْرِف الاقدار ، وان يَخدُم ما توَعرَّ من سَواقِي مياهها الإخلاصيّة وحِيَاضِها ، ويَمشي بالمصلحة المصلحة لدَوْحاتها وغِيَاضِها ، ويفجِّر بها مياه الصفاء من الأكدار ، المتَّصِلة بساقِيَة الوَفاء في الايراد والإصدار ، والمُلاصِقَة لِسَاقية ترْك الجفَاء في هذه الدار ، حتى يبدُوَ إن شاء الله صَلاحُها ، ويكثُر ببركة الله إصلاحُها ، وتَهبَّ بقبول القَبُول أرواحُها ، وتثمِرَ بجَنَى المُنى أدواحُها ، فتنبت قرَنْفُل التنقُّل ، وعُودَ التقبُّل ، وآسَ الأُنِس

والسَّوْسان ، ويَاسمينَ اليأس من كل انسَان ، ونُعْمَانَ النعمة التي لا يصفها لسان .

وقد علِمَ العبد المذكور أنَّ بخارج هذا المنزل حرَس الله ايمانَه ، وادام أمانَه ، جيْشاً يُغِيرُ عليه في مَسائه وصباحه ، وينتهِزُ فيه الفُرْصَةَ في غُدُوِّه ورَواحه ، ويقطعُ جادَّة السبيل بالمرور عليها الى حضرة الملك الجليل ومَلِكُ هذا الجيش المذكور النفسُ الكثيرةُ الأغراض ، الميَّالةُ الى ما يعرِضُ من الأعراض ، المعتكِفَةُ على المَشارِب المُهلِكة والإعراض ، وخادِمُ الملك المذكور الشهوةُ الموقوفة على خدْمته ، المعدودةُ في أعلى خزَنتِه ، ووزيرُه المفاخرة ، وزِمَامُه المنافسة في زهرة الدنيا وحاجِبُه المكاثَرة ، وقَيِّمُ جيْشه المقدّم ، وفارِسُه الاقدَم ، شجاعُ الغَضب ، الذي عنده يتولَّد الهلاك وبه يكون العطب . وطلبَ العبد المذكور من مولاه الامدادَ بعساكِر العَزْم ، وفوارِس الحزْم ، ورغبَ منه الاعانة بكتائب السَّداد والتوفيق ومَواكِبَ الرُّشد والتحقيق ، وارسالِ جيُوش الاصطبار ، وفوارِس الانتصار في مَيادِين الاختبار ، والتدرّع بدُروع الأذكار ، وجَولان خيْل السعادة في ميادَين الاختيار ، والعَوْن بأعلام العِلم ، والسكُون في حِصْن الحِلم ، حتى يُذهِبَ حدَّةَ النفس ويُزِيلَ كيْدَها ويُميتَها في المجاهَدة بسيوف المُجادَلة ويقطع قوتَها وأَيْدَها ، أو يمدَّ يدَ التسليم بقهرها واضطرارها ، وينطِقَ بلسان اعترافها واقرارها ، أنها اسقطت جملةَ دعوَاها واختيارها ، ودخلت تحت امتثال الاوامر

الربانية ودخــل من باب اللطف في حَرمِ كَرمِ الإلاهية ، فمر الظهورُ بذلك نفسَه ، واظهر الحضُورُ انسَه ، حتى تتطهر النفس المذكورة من الاخلاق العَرَضية ، وتترَقَّى عن الأغيار الأرْضِية ، وتَظْهر عليهـا الشمائل الحميدة والشِّيَمُ الرَضية ، وتُنادى : «يا أيتُها النفسُ المطمَئِنَّةُ ارجعِي الى ربك راضِيَةً مَرْضِيّة »

اشهَد على إشهـاد البائع المذكور مَن اشْهَدَه بِه على نفْسِه عارفاً بِقَدْرِه ، في صِحَّتِه وطَوْعِه وجوَازِ أمْرِه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

اهداء ابي القاسم الشريف ديوان شعره الى ابن الخطيب

الحمد لله الكبير المتعال ، فهو المسؤول ان يَعصِمنا من خطلِ القول وزلَلِ الاعمال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأرسال ، هـذه أوراق ضَمَّنتُها جمـلةً من بنات فكري ، وقطعاً مما يَجيشُ به في بعض الاحيان صدري ، ولو حزَمتُ لأضربتُ عن كتْبهـا كلَّ الاضراب ، ولزِمْتُ في دَفنِهـا واخفائهـا دِينَ الأعراب ، ولكني آثرتُ على المحو الإثبات ، وتمثَّلتُ بقولهم : ان أحسن ما أُوتِيْته العرَبُ الأبيات ، واذاَ هِيَ عُرِضَتْ على ذلك المجد ، وسأَلها كيف نجَتْ من الوَأد ، فقد اوَيْتها من حرَمِكم الى ظل ظليل ، وأحللتُها من فِنائكم الى مُعَرَّسٍ ومَقِيـل ،

وأهديتها عِلْما بان كرمكم بالاغضاء عن عيُوبها كفيل ، فاغتَنِمْ قليـــلَ الهَدِيَّة مني ان (جُهْدَ المُقِلّ) غيرُ قليل ، فحسْبُها شرفا ان تبوَّأت في جَنابك كنفا وداراً ، وكفاها فخرا ومجدا ان عقَدت بينها وبين فكرك عقْدا وجِوارا .

كتاب الاستاذ ابن حكم السلوي الى المقّري الجدّ

وكان بعث له بمحرّر للبيع فسأله ابداله باحرام تونسي

الحمد لله الذي أمر عند كل مَسْجد باخذ الزِّينَة ، وصلواتُه الطيبة ، وبركاته الصَيِّبة ، على مَن ختم به شريعتَه واكمل دِينَه ، وعلى آله واصحابه الذين اتبعوه والذين يتَّبِعُونَه ، وبعد فما تعلَّق به الإعلام ، ان تُعَوِّضوا المحرَّر بإحْرام ، لا يخفى على مِثلكم جِنْسُه ومُجانِسُه ، ومن كلام العرب: كلُّ ثوب ولَابِسُه ، وان أرْبى على ثمن الاول ثمنُ الثاني ، فلستُ عن الزيادة والحمد لله بالوَانِي .

رسالة لأبي بكر بن شبرين

الى ابي الحكَم بن مسعود وهو شاهد بالمواريث يُداعِبُه فيها

أطال الله بقاءَ أخي وسيّدي لأهل الفرائض يُحْسِن الاحتيـالَ في مُداراتهم ، وللمنتقلين الى الدار الآخرة يأمرُ بالاحتيـــاط في أمْواتهم ،

ودامت أقلامُه مشروعةً لِصَرْم الأجل المُنْسَأ مُعَدَّة لتحليل هذا الصنف المنشأ ، من الصَّلْصال والحمأ ، فمِن مَيِّت يُغسَل وآخرَ يُقبَر ، ومن أجل يُطوَى وكفَن يُنشر ... فكلّما خربت ساحة، نشأت في الحانوت راحة، وكلما قامت في شِعْب مَناحة ، اتّسعت للرزق مِساحة، فيُباكر سيدي الحانوتَ وقد احْتَسَى مرقته وأسبَل عَنْفقَته ، ... فيلْحَظُ هذا برفق ، وينظرُ الى هذا شزْراً ، ويأمر بشق الجيوب تارةً والبحث عن المناطق أخرى ، ثم يأخذ القَلم أخذاً رفيقاً ، ويقول وقد خامره السرور : رحم الله فلانا لقد كان لنا صديقاً ، وربما واراه بالازعاج الحثيث ، وقال مستريح كما جاء في الحديث[1] ، وتخْتَلفُ عنـد ذلك المَراتب وتتبيَّن الأصدقاء والأجانب ، فينصرف هذا وحظه التهديد ، والنظر الحديد ، ثم يغشَى دار المَيْت ، ويسألُ عن الكَيْت والكَيْت ، ويقول عليّ بما في البيت، أين رِعاءُ الثّاغية والرّاغية ، أين عتود الأملاك بالبادية ، وقد كانت لهذا الرجل حال وأيُّ حال ، وذُكر في الأسماء الخمسة فقيل ذُو مال ، وعيونُ الأعوان ترْنُو من خلَل ، وأعناقُهم تشرئبُّ الى ما خلفَ الكِلَل ، وأرجلهم تدِبُّ الى الأسفاط دَبيبَ الصَّقْر الى الحجل ، والموتى قد وجبَت منهم الجنوب، وحضر الموروث والمكسوب ، وقُيِّد المطعوم والمشروب ، وعُدَّت الصّحاح ، ووُزِن بالارطال ، وكيل بالأقداح ،

---

١ – يشير الى حديث مستريح ومستراح منه وقد ورد في موت المؤمن والفاجر .

والشهود يُغْلِظُون على الورثة في الأَلِيَّـــة ، ويُسيئُونهم بالسباب في النشأة الأَولية . والروائحُ حينئذ تفغَم الارض طِيبا وتهـــدى الى الأَرواح شذى يفعل في الأَبدان فعلا عجيباً ، والدَّلالُ يقول هذا مِفْتاح الباب، والسَّمْسَار يَصِيحُ قام النداء فما تنتظرون بالثِّيَاب ، والشاهد يصيح فتعلو صَيْحته والمُشْرِفُ يشرِف فتسقُط سُبْحَتُـــهُ ، ... ثم يشْرَع في تقسيم الفَرض ، ولو أُكفِئَت السماوات على الأَرض ويقال لأَهل السهام أحسنوا فان الإحسان ثالث مراتب الإسلام ، وقد نصَّ ابنُ القاسم[1] على أخذ أجرة القَسَّام ، وسوَّغه أصْبَغُ[1] وسَحْنُون[1] ، ولم يختَلِف فيـــه مُطرِّفٌ وابنُ الماجِشُون[1] ، ولعـــل الخروج الى الانبساط يجرُّ عـذراً ، ونسأل الله حمدا يوجِبُ المزيد من نعمائه وشكرا ، والله يَصِلُ عزّ أخي ومجـــدَه ، ويهَبُ له قوَّةً تخصُّه بالفوز عنده ، ويَزِيدُه بصيرةً يتبع بهـا الحقوق الى أقصاها ، وبصراً لا يغـادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، ودام يعُدُّ الخراريب[2] والفلوس والأطمار[3] ، ويملأ الطَّوامير بأقلامه البديعةِ الصَّنْعة ، ويَقْرِنُ الطومَّار بِالطومار ،

---

١ — ابن القاسم والأعلام الأخرى كلها أسماء لفقهاء مالكية معروفون في عـالم القضاء والفتوى ٢ — الخراريب من قبيل الفلوس . ٣ — الطومار الصحيفة .

المقامات

مقامة الافتخار

بين العشر الجوار ×

لعبد المهيمن الحضرمي

برَزْتُ يوماً لخارج بلد فاس الأشهر ، وانتهيتُ الى واديها المعروف بوادي الجوهر ، فلم يكن غيرَ بعيد ، وإذا بمحفل يرتجّ بالغيد ، وقد دار بينهن عتاب ، بألفاظ تعجز عنها ألسِنَةُ الكتّاب ، بيضاء وسمرا ، في مُفاتنة كبرى ، وكاملة وقصيرة في مُعاطاة كثيرة ، وسَمينة ورقيقة ، في معاتبة حقيقة ، وعربية وحضرية ، في مُجادَلة قوية ، وعجوز وصبية ، في مخاصمة بَذية ، فبينما أنا أنظر في تلك الوجوه المُشرِقة والقدود المُروْنَقة ، واذا بجارية يغلبُ ضياءُ وجهها ضياءَ الشمس ، فوقفت بين الصفوف وسلّمت ببنانها الخمس ، ثم تقدمت وقالت :

الحمد لله الذي جعل البيَاض طِرازَ كلّ جمال ، وشرّف أهله بالحياء والكمال وأعطاهم عِزّةً لا تَبيد ، وصيّر السُّمْرَ لهم عَبيد ، ألا

× لم نظفر بنسخة صحيحة لهذه المقامة الا نسختين شديدتي التصحيف وقد بذلنا جهدنا في تصحيحها وسبكها بما يقربها من صنع كاتبها البليغ .

وإنَّ على قلبي جمرة ، من مُعاتبتك يا ذاتَ السُّمْرة أَعِنـدَك يا سمراء ما عندي ، وليس قدُّك كقدي ولا خدُّك كخدي ، جَبيني ذو ابتهاج ، وذَوائبي كقِطـع الزَّاج[1] ، ورشْحُ عَرقي كمِسْكٍ اذْفر ، يرشح من تحتِ البُرْد والمِغْفَر ، وثَغْري أُقحْوَان ، ودِيبـاج وجهي أُرْجُوَان ، وان أسبَلتُ شعري المَضْفور فظلامُ ليل على بياض كافُور ، ثم أنشدت :

قلْ للذي أزرَى بأهل البياض ... ما أنتَ إلا باطلُ الاعتراض
فوردُ خـدي أبـداً زاهرٌ ... في كل فصْل فوقَ خدي رياض
يا حاسِدي مُتْ كَمَداً انمـا ... تُجنَى المُنى من الخدود الغِضاض

ثم سلمتْ بالبَنان ، وأمسكت العِنان ، فتقدمت السمراءُ وحطَّت اللثام ، عن وجه شَهيٍّ الِالْتِثام ، وأبلغت في السلام ، وأَقبلت تواضُعاً على رُؤوسِ الأَقدام ، فوقفت كالغُلام وأفصحتْ في الكلام ، وقالت :

الحمد لله الذي خلق الانسان في أحسَن تقويم وجعله أفضل الحيوان ، وفرَّق بـين الصور والالسنة والأَلوان ، وزيَّن الأَبيض بشعر كالغَسَق ، وامتدَادِ الحاجِبَين وسوَاد الحدَق ، وأَجَلِّ ما يقف له العاشقون اجلالا ، ويرتجلون فيه الأَشعار ارتجالاً ، مِسْكَةُ الخـال ، وعَقْربُ الدّلال ثم

---

[1] – الزاج عقار يصنع منه المداد .

التفتت الى البيضاء وقالت : يا أشبَهَ شيءٍ بجُبْن الرُّوم ، أَخرَقْتِ حجَاب الأَشْرُوم[١] ، ما زال طعامُكِ قليلَ المِلْح ، وَجفْنك كثير الرَّشح ، ولبَنُك أذى ، وعسَلي أنا غِذا ، ولوني لونُ الخمر ، وَطعْمي طعمُ التَّمْر ، ثم أنشدت :

الحمد لله ليس التِّبْرُ كالوَرِق ... قد أحسنَ الله في خلْقي وفي خُلُقي

فالجسم مني نُضار صِيغَ منظرُه ... بمسكة فغدا طِيباً لمنتشِق

يا مَن يعيِّرُنا باللون إنَّ لكم ... جهلا يقود الى الطُّغْيان والحُمُق

كم أسمَرٍ قلبُه كافورة وله ... من السَّعادة نجمٌ لاح في الأُفُق

فلما فرغت من كلامها ، وما أبدعته من حسن نظامها ، تبرقعت بنقابها ، وسلمت على الصفَّيْن ، وقبَّلت أساريرَ الكفَّين ، وإذا بجارية تتخطىّ الرِّقاب ، بعد أن حطَّت النقاب عن ديباج صَقِيل ، ورنت بطرف كحيل ، ومالت بقدّ قويم ورِدْف ثقيل ، فسمعتها تقول : اليكم يا ذوي العقول ، فلعلَّكم تحكمون بيني وبين هذه القصيرة ، فانها عَمِيَّةُ البصيرة ، تعيب الكمال ، وهي الطبقةُ الثانيــة من الجمال ، ثم قالت في الثناء على ذي الجلال وأجادت في المقال :

الحمد لله فالِق الاصباح من بعد الغيوم ، لا اله إلا هو الحي القيُّوم،

---

١ — لعله يعني الفرج فان من أسمائه الشريم ولم نقف على الأشروم .

وصلى الله وسلم على محمد نبيه الذي ارتضاه لنفسه حبيباً وخليلا ، وأرسله لجميع خلقه نبيا ورسولا ، ثم قالت : أين هذه التي تعيبُ ما لا يُعاب ، وتُدخِلُ نفسها في الأمور الصِّعاب ، لا تُحجب عينُ الشمس بالغِرْبال ، والثعلبُ لا يُقابل بالأشبال ، يا هذه خِطابُك إليّ من غير الواجب ، ألم تسمعي أن العين ولو عَلَتْ فوقها الحاجب ، فإلى كم يا زَريعةَ يَاجُوجَ وماجُوج ، يكون فرسُكِ معي للشرّ مَسْروج ، ثم صالت وما اعتدت فأنشدت :

نحن قوم لنا بهاء البُنود	ولدينا تفـاخُرٌ بالقُدود
كلُّ زَيْن أزينُـه بكمالي	وجمالي وغُنْج لحظي وجيدي
وإذا ما القِصارُ قُلِّدْنَ حليـاً	صار كالدر في نُحور القُرود

فلما أتمت كلامها ، وأنهت نِظامَها ، اذا بالقصيرة قـد أقبلت تجرُّ أذيالها وتُواتِرُ أقوالها ، فوَلوَلتْ وصاحت ، وأعلنت بمـا في ضميرها وباحت ، ثم قعـدت على أعلى مكان ، وتكلَّمت بأفصح لسان ، فقالت تخاطب الطويلة : يا شقيقةَ الزَّرافة ، إلى كَمْ تُطيلين هـذه الخُرافة ، يا ناقة العشير[١] ، وقصبةَ النَّشير[٢] ، ويا كامِلةِ الصَّاد[٣] ، وقليلةَ القُصَّاد ، نحن

١ — العشير الزوج والمقصود تشبيهها بالناقة في الطول .

٢ — لعله يريد القصبة التي يرفع بها حبل الغسيل حين ينشر وبالنشير يعرف في لسان العامة .

٣ — الصاد داء يصيب الابل فتسيل انوفها فتسمو برؤوسها .

أهل المعاني الرِّقاق وفِتنةُ العشّاق ، وعلى منظرنا طلاوةٌ ، ورونقٌ وحلاوة ، فأرى لك من الرأي والتدبير أن تأخذي معي في التقصير ، فان الله تعالى خلقَ الكامل والمتوسِّطَ والقصير ، على أن القِصَر والكمال ، انما هو في الأفعال ، ثم قعدتْ على أعلى مكان ، وتكلمت بأفصح لسان ، فقالت :

الحمد لله الملك الكبير ، الذي ليس له حاجبٌ ولا وزير ، وصلى الله وسلم على محمد نبيه وعلى آله ما هبَّ نسيم وفاحَ عبير . ثم أنشدت :

غِزْلانُ الأُنْسِ ذَوُو القِصر وشِفاءُ النفس معَ البصر
فيعيشُ القلبُ بمنظرنا وتقرُّ العين من النظر
وإذا ما الروضَ أتيتَ فلُذْ بقِصار القَدِّ من الشجر
إيَّاكَ النخلَ فانَّ لها طُولاً يهديكَ إلى الغَرر

وبينا هما في طويل من الكلام وعريض ، يتنازعان أبياتَ القريض ، إذا بضجيج ، كضجيج الناس في الحجيج ، والناسُ قد تطاولتْ أعناقُهم ، وشخصت أحداقُهم وإذا أنا بقلّاع ، يسوق مركبا مَوْسُوقا بالسِّلاع ، فقلت ما هذه السفينة ، فقيل لي هذه الجارية السمينة ، فدار المحفِل عليها كالحلقة ، فقلت سبحان من لا يملُّ من خِلْقة ، فحطت من القلق رداءها ، وغاظت بأعكانها حُسّادها وأعداءَها ، وقد تكلل العرق على جبينها

كدُرّ الحباب، وفتنت برَوض خدّها ذوي الألباب ثم قالت:

الحمد لله باسط الرزق وسابغ النعم المنفرد في دَيْمُومِيَّته بالقِدم، والصلاة على خِيرَته من خلقه سيِّدِ العرب والعجم، صلاةً تُنجي العبد يوم المُزْدَحم، ثم اعتمدتْ بكفِّها على عِطفها، ومالت كالبحر الزاخر، فقدَّمت المقادم وأخَّرت المواخِر وقالت: أين هذه المسفولةُ الصوت، الواقفةُ بين مَيْدان الحياة ومَيْدان الموت المنفوضة اللحم، التي حُرِّم عليها كما حُرِّم على بني اسرائيل الشَّحم، المُنَغَّصةُ العيش، الكثيرة الطيش، الضعيفة المِخاخ، الشديدة الفخاخ، النحيلة من غير عِلَّة، الهزيلة من غير قِلة، كُفِّي يا مَسقومة عني هذه الغرارة، واعلمي أن على جسمي من الزينة نضارة، أقتنص بها القلوبَ من غير حِيلة ولا إدارة، ونهْدي وأعكاني، يُغنِياني عن الشُّورة[1] في أركاني، ثم أنشدت:

الحمد لله في سرّ وفي علَن	حمداً يخلصني من ظُلمة المحن
قد نلتُ ما أشتهي في الدهر من أرب	في العقل والقلب مني ثم في البدن
ان البَهاء يزينُ الخلق منظرُه	كما تُزان حُلى الأشجار بالدِّمن
أرحتُ قلبيَ من همّ ومن سهَر	وساعد السعدُ بالأفراح في زمني
يا من تعوّذَ بالتوْبيخ كُفَّ فما	يُشَبَّه العَجْفُ في الأنعام بالسِّمَن

١ – الشورة زينة العروس وثيابها وحليها وما تصحبه معها من متاع لبيت الزوج.

وذهبت لتجلس ، فما استقرَّ بها القعُود ، الاّ وَجارية وقفت كأنها كوكب السعود ، تبتهج باللطف والابتسام ، وتضطرب كما يضطرب الُحسام ، وتبسمُ عن ثغر كاللّثال ، ريقه كالعذب البارد الزُّلال ، ثم قالت : إليَّ إليَّ يا معشر العشاق فعَلى مثلي تُندَبُ الأطلال ويَجري الدمُ الُمراق ، وحمدت الله عز وجل بقولها :

الحمد لله الذي أَودع الحكمة في النفوس الرِّقــاق ، باعثِ الَخلق وناشِرهم يوم التّلاق ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المخصوص بالحوْض والشفاعة واللواء والبُراق ، ما حدَا حادٍ وساق الركبَ اليه مشتاق ، يا مَن حضَر في مجلسنا ، ولاذ بأنسِنا ، أسمعتَ مقالةَ هذه العاهَة ، وما ظهر منها من قلّة النزاهة ، هذه التي تفتحُ فمها مثلَ التِّمْساح ، وتبلَعُ القَرْع وتخرُجها صِحَاح ، وان قربَ منهــا الرجل لَمقْصَدٍ أوْسُول ، غرقَ في بحر بَسُول ، قلبها بالعَلف هائم ، كما تفعلُ البهائم . ثم أبرقت وأرعدت ، وقالت فانشدت:

يا عاهةً ليس لها من خَــلاق	هواكِ قد أنساكِ يومَ التلاق
والحشَر والنشر وأهوالَه	وَخجْلةَ العبد وخوْفَ الَمساق
لو كان للقلب به فكرَةٌ	لكان للجِسْم ضَنىً واحتراق
نحنُ رِقاقٌ في النفوس ولا	يَرقُّ قلبُ الصبِّ الّا ورَاق

ثم قالت : وما حِيلَتُك أيتهــا العاهَةُ إذا جاوزتِ الأربعـــين ،

وأتتك العِللُ بجيش ظاهر غير كمين ، وقد تدلَّتْ منــكِ الحوَاصِل ، وهجرَكِ الصديق المُواصِل ، وتكمَّشت منــك الحلاقِم ، وتفرقت على أعضائك البَلاغِم ، وتعطَّلت منك القوائم ، فلا تتحركين إلا بعَجلة ودَعائم وأنشدت :

إذا رقَّ الحُسام قضى وأمْضَى ... وخطَّ بحدِّه جِيــدَ النِّفاق

وان رَقّ الزُّجاجُ وَراق فيه ... رَقِيقُ الخمر لذَّ لكل رَاق

فتُبصِرُه نحيلاً في نحيــل ... ويعظُم فِعْلُه عنــد المَــذاق

ثم اني سمعتُ صوتاً يصيح ، ويقول بلسان فَصِيح :

مهلاً رُوَيْداً يا جميعَ من حضر ... حتى اقولَ بين بَدْوٍ وحَضَر

من هُنَّ رباتُ الخدود الناضِرة ... ذاتُ الخيام أو نساء الحاضرة

نحن جوارٍ من بنات البــادية ... مَلامِحُ الحُسْن علينــا بادية

فان بدتْ منكنّ لي مكَلِّمة ... أنا التي أردُّها مَكلَّمَــة

ثم حطَّت اللثام ، عن وجه يشبه البدر ليلة التمام وقالت :

الحمد لله الذي أمرُه بين الكاف والنون ، الحــاضر الناظر القاهر الذي بيده ملكوت كل شيء واليه تُرجَعون ، وصلى الله على النبي الذي نوَّر الأفئدة فأبصرت البصائر وقرَّت العيون ، وأنشدت :

قــد مالَ الُحسْنُ الى العَرب — نحنُ الأقمــارُ بلا كَذب
فلنَا أرَجٌ ولنــا غَنَجٌ — ولنـا دَعَجٌ بالسِّحْر حُبِي
ولنــا كرَم ولنا هِمَم — ولنــا ذِمَم للمكْتئب
وِلقَــاصِدِنا فينــا أرَب — فيما يرجــوه من الآرب
قد شرُف مُحْتِدُنَا وكفى — أن المختــارَ من العرب
صلِّ ما دمتَ عليه تفُزْ — يوْمَ الأهوال من الكَرب

ثم قالت : نحن ربّات القلوب ، ومُنتهى غاية كلِّ مطلوب ، جمالُنا أبدعُ جمال ولسانُنا أفصح لسان ، فالعربيةُ بهذا البيان قَمَرٌ في شكل انسان . وسكتت فاذا بجارية حضرية ، ذاتِ جمــال فائق وهمّــة سنية ، نادتْها : كُفِّي عن الجدال ، ودَعِي هذا الاحتيال ، فان مَن بالمعــاطاة يلُوذ ، كمن يدخل بجهله في زُقَاق غير منفوذ ، إياكِ أن تذكري في هذا المحفل نسبا أو قبيل ، وان اردتِ أن تفتحي للحرب باباً فانا على السَبيل ، واعلمي أن رُعيان الجمال ، لا يفتخرُون بحسن ولا بجمال ، ثم قالت :

الحمد لله الذي فضّل على البادية الحاضرة ، وأعطانا الراحة في الدنيــا وأعانـا على طريق الآخرة ، وخصّنا بأحسن الملابس وأيمن المواطن ، وأمّن قلوبنا في الظاهر والباطن ، ووَشّحنا بالحلى والحُلَل ، وأسكنَنــا في القصور والدور في ظل الحُجب والكِلل ، واشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له عُــدّةً للقائه يوم تكون النفوس حاضرة ، والوجوهُ

الناضرة الى ربّها ناظِرة ، وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه واصهاره ، وأزواجه وحزبه وأنصاره ، وقالت : ما أُعطيَت الهمة السنية ، إلا للجارية الحضَرية ، خدّي مُورَّد ، ونحرْي مُفنَّد ، ولا يَرى صدري العابدُ الزاهد إلا تنهَّد ، ثم أنشدت :

أَلا انما الُحسنُ حسْنُ الحضَر … علينا ومنّا وفينا ظَهر
فان كنتِ يا هذه نجمةً … بأعلَى السماءِ فاني قمَر
بسِحْرِ الجفون وغُنج العيون … أسُلُّ القلوب كسَلِّ الشعر
ومِن ليْل شَعْري ظِلامُ المسا … ومن وَجنتَيَّ الصبَاحُ الأغر

فلما أتمت الحضرية الأبيات ، وقد أفصحت في المبادىء والغايات ، اذا بهزة عظيمة في المحفل ، كادَ يرجع أعلاه منها أسفَل ، فأتت عجوزٌ قد اشتبكت مع صبية ، وبينهما مُعاطاة ومجادلة قوية ، والصبية تُنادِي وتقول : كثُر الحمق وقلّت العقول ، يا قومِ اعدِلُوا بيني وبين هذه العجوز ، بكلام يتعقّل ويجوز ، فقالت العجوز : يا هذه الزَمِي الوقار ، وكُفِّي النّقار ، فأنا أفصحُ منك وأعلم ، وأسبق وأقدَم ، ولا أَحقّ بالتعظيم ، مِمن له الحق القديم ، ثم قالت :

الحمد لله راحِم الشيْب ، وساتِر العيْب ، وجامع الناس لِيَوْمٍ لا شكَّ فيه ولا ريب . أنا من ذواتِ العُهود والمواثق ، اجمعُ بين المعشوق والعاشق ، وأُزَوِّجُ العرائس ، وأقبل النفائس ، وأُشرِّف المجالس ، ولا

تجري السفينة إلا بُمحاوَلة الرَّائس ، ألجم الرجل بالشكيمة ، وأُردُّه في الأركان يدُور كالبَهيمة ، على أنني أقضي له المثارب والأوطار ويجدُ عندي كلَّ سلعة لا توجد عند العطَّار ، وأرفعُ المؤُن والوَظائف ، ولا أطالبه بشيء منَ التَّكَالِف ، وأقنعُ منه بالزَّبيبَة ، وأكون له تارةً محدِّثه وتارَة طبيبة ، فانظري أيتها الصبية مَن يكون لك عَوْن ، ولا تمشي على أثري فتغرقي كما غَرِق فرْعون ، فإني أكثرُ منك بحثاً عن المناسِب ، ولي معرفة وذهن ثاقب ، وان شئتِ منـــاظرتي ومناضلتي ففكري في العواقِب ثم أنشدت :

أمِنْتِ الدهر يا بنتَ الزَّواني ... وصارَ لك البها نُصْبَ العيان

فكم طفل قضى في خَفض عيشٍ ... وأخلف ظنّه بعــد الأمان

الهُ العرش عمَّـــرني وأبقى ... سعودي ثم ساعـــدني زماني

جررتُ الذيل في زمن افتخاري ... ونزَّهتُ الجفـــون بمِهْرَجان

وانّي اليـــوم من ستين عاما ... ولكني أعَـــدُّ من الحسان

فيومٌ في المجالس باتّعـــاظ ... ويوم في المحـــافل والمغـــاني

(قال الكاتب) وكانت العجوز مخضُوبةَ البنان ، مُسَوَّكة الفَم وليس لها أسنان ، مصبُوغَة الحاجب والسالف ، تندُب على ما فاتهـــا في الزمن السالف ، ثم أنشدت ، فأجادت فيما قصدت :

إذا جفَّ لَبْنُ التِّين يحلو مَذاقُه ... وأحلَى مَذاقاً في الثمار العجَائِز
عجزتُ وليس القلبِ منيَ عاجزا ... واني لِمن قد رام حربي مُبارِز
فطَعْمي ذَكِيٌّ طيِّبُ النَّشْر عاطر ... وانسانَ عيني للمُحبِّين غامِز

ثم قالت : وان أردت يا هذِه المجون والرَّقاعة، فأنا واللهِ ربَّــةُ الصناعة وأستاذَةُ الجماعة، وإذا بالصبية قد أتت تدرُج درْجَ القطا على الأقدام، وتبدَّت فأقبلت اقبالَ العام، ووَردت وُرودَ الغنى على أهل الإعدام، وهي تزُعم بنفسها كما يزعم البطل المقدام، إذا ساعدته الأيام، ترمق بلحظٍ نائمٍ وتفعل بأشفارها في قلوب العــاشقين ما تفعَلُه الصوارم، ثم نادت : أيتها العجوز الشَّمْطا، يا من كشفَت بعيبها عن نفسها الغِطا، أَمَا قنعتِ يا عجُوز، يا نَشُوز، أما كَفاكِ، سدَّ الله بالشَّوْكِ فاكِ، هيهاتَ هيهات يا عجوز، يا بِنْت الدُّروز، أن يكُونَ لكِ بعد الهرم طلَق، أو يكون الجديد مثلَ الخلَق، أما رأيتِ شعْري الفاحم، وثَغْري الباسم وغُصْني الناعم. ثم حطت النقاب، فأخرجت الشمسَ من تحت السَّحاب، وقد سلمت على القوم فأفصحت، وقالت فأوضحت :

الحمد لله الذي غرَس ريحانة الشباب، في قلوب ذوي الالباب، ثم قالت، وللعجوز أشارت : ويْحكِ لو كنت تبكين على ما مضى، لكان لك أقرب الى الرضى وأنشدت :

نور الشباب له عزّ وسلطــان ... وللسعادة أرجَاء وأوطان
وللمحاسِن أوْصافٌ تقومُ بها ... وللحقــائق آياتٌ وبُرهان

روض الشباب تبدّت فيه أربعة وَرْد وزَهر ونسْرين وريْحان

مَن قال ان زمان الشيب يشبهه عهدُ الشباب فذاك القول بُهتان

يا ليتي العجوزُ انْدُبي ما قد مضى أسفاً ترحّلت عنك أوقات وأزمان

وأنتمُ يا أُهَيْلَ الحسن كلّكم بَيْني وبينكم في الحرب مَيْدان

فلما فرغت الصبية من النِّظام ، أقبلت الجواري والعجوز عليهن مِن أمام ، فقالت لها : بُورِكَ فيك من صبية ، وفي ألفاظك الزكية ، وسأقول بينكن مقالةَ انصاف يقتضيها الحقُّ وجميلُ الأوصاف ، أما البيضاء وذاتُ السُّمْرَة ، فتلك فَانيدَة وهذه تَمرة ، وزينَةُ الدنيا ذَهبٌ ونُقْرة ، ثم قالت للكاملة والقصيرة ، مسألتكما عندي يسيرة ، اذا كانت الصورة الحسناء كاملة ، فهي من النعم الشاملة ، وعلى هذا فالقصيرةُ الذِّراع ، لا يمتدُّ لها في مجال الفخر بَاع ، فان القِصَر مذَلَّة ، بسبب هذه العِلَّة ، فتأدَّبي مع ذات الكمال ، فانها أبهى منك وأمتَعُ للرجال ، ولو كنتِ بالسويَّة معها في الجمال ، ثم قالت للسمينة والرقيقة ، تاللهِ لا أخفي عنكما من معاني الحسن حقيقة ، فالسمينةُ رِيَاض وجِنَان ، والرقيقة رَوْحٌ وريحان ، ثم قالت للبدوية والحضرية ، سأفصل بينكما بحكم الانصاف في هذه القضية ، أما القول الصحيح فكل واحدة منكما في زِيِّها أملح مَليح ، فالعربيةُ تصلح للحضر والسفر ، والحضرية لا تصلح إلا للحضر ، وأما أنا والصبية ، فحجَّتها واضحة وحجتي غيرُ جليّة ، لأنها أبرعُ مني في الجمال ، وأنفعُ للرجال ، وأما العجوز مثلي فقد هرمت بمضايقَة الآجال ، فما لأحد فيها مجال. ثم انصرف القوم ، وارتفع العتاب واللوم .

المقامة الزهرية

في مدح المكارم البكرية لمحمد المكلاتي

حدثنا بِشْر بن سرُور ، عن سهْل بن مَيْسُور ، عن الضحَّاك بسنده عن بَسَّام ، قال : تراءت لي من الأماني الوُجوه الوَسام ، وأنا من نشاط الشبيبة وافرُ الحظوظ والأقسام ، لم يفتني من قواعد اللهو الا الحجّ ، فأقمتُ من قول القائل وظائف العَجّ والثجّ[1] ،

أُحجُجْ الى الروض لتحظَى به وارْمِ جِمارَ الهمّ مُستنفِرا

مَن لم يطُف بالروض في زَهْره من قبل أن يَحلِق قد قَصَّرا

فلبَّيْتُ داعيه ، ، وأصغيت إليه بأذن واعية ، وأزمعتُ المَجاز ، الى المشاعر التي ليس بينها وبين اللذات حِجاز[2] ، وأعملتُ يَعْمَلات العزم ، وأدخلتُ على مُعتلّ التواني عوامِلَ الجزْم ، فتخيرتُ من السمَر أطيب أوقاته ، وأحرمتُ مع حجيج الأُنْس من مِيقَاته ، وسِرت

---

١ — العج رفع الصوت بالتلبية والثج اسالة دم الهدى وذلك في الحج .

٢ — فاصل .

والنسيم معتلّ ، وخدُّ الثَّرى بمدامع الأنداءِ مُبتَلّ ، فأتيت روضا قد توَلّاه الوَلِيّ ، ووسمه الوَسميّ[1] وأظلّتْه راياتُ الصباح ، وباكرت الصَّبا تقبيل نَوْره من قبل أن ترشُف شمسُ الضحى رِيقَ الغوادي من ثُغور الأقاح ، فأقمت منه

حيثُ الغدير وقد أجادت نقشه كفُّ النسيم ومرُّها في جَوْشَن
وغصون أدواح الرياض تهزُّها نَغمُ القُماري بالِغناءِ المُحسَن
ما بين ثَغْر للاقاح مُفَلَّج وجبين نهر بالنسيم مُغضّن
ووُجوهُ هاتيك الرياض سوافرٌ غِيدٌ تُزان في المياه بأعيُن
والأرض تُجلى في رياض أخضر والجوُّ يبرُز في قِناع أدْكَن

وما زلنا بين تلك المنازل نَرْمِي جِمارَ الفوايد ، ونَرِدُ من ذلك أحلى المصادر وأعذب الموارد ، الى أن ارتقت الشمس درَجة العُلى ، واستوتْ لَا إلى هَؤُلاءِ ولا إلى هَؤلا ، فترامَيْنا على تلك الظلال ، مستحسنين قولَ من قال :

وقانا لفْحةَ الرمْضاء وادٍ وَقاهُ مُضاعَفُ الغَيْث العَميم
يصُدُّ الشمسَ أنّى قابلَتْنا فيَحْجُبُها ويأذَنُ للنَّسيم

١ — الوسمي أول مطر الربيع والولي المطر الذي يليه .

وأَسْقَانا على ظمأً زُلالاً ألذَّ من المُدامَة للنَّـدِيم
تَرُوعُ حصَاه حالِيَةَ الغواني فتَلْمَسُ جانِبَ العِقْد النَّظِيم

فإنَّا لكذلك اذْ بَرق الجوُّ فسلَّ علينا نُصولَه المُذَهَّبة ، وارتفعت للغمام قِبابٌ طِيطٌ مطنَّبة ، وجعل السحاب يسُوق المواكب ، وأخـذ الربَّاب[1] يُرتِّب الكتايب ، فتصبَّب عرَقا ، ونادم الروض فغنَّى وسقَى ، فما أغمد سيف ذلك البرق ، ولا انقَشع ذلك الوَدْق ، الا والمساءُ قـد طفَل ، والروض في ثوب الأصيل قد رَفَل

ورب عشية فيهـا طفِقْنا نرُودُ الظلّ والماءَ القَراحا
وقد ضرب الضَّريبُ[2] بها قِباباً على البطحاء أبهجت البِطاحـا
وكان جَنابُهـا الخضرُ آساً فأصبح وهو مُبْيَضّ أقاحـا
كأن الخِضْرَ[3] جرَّبها يَميناً ومدَّ عليها جبريلٌ جنَاحـا

فبِتنا بجيرانَ دَوْلَاب يَهْدِل ، وأغصان تنثني وتعتـدِل ، وسِترُ الظلام ينسدل ، فانجلَى الأفق عن روضة غارَت منها الرياض ، ينسابُ من مَجرَّتها ما يفعم الحِيَاض ، وأنستنا ما طوى النهارُ عنا من المحـاسن ،

---

١ – السحاب الأبيض . ٢ – الثلج .
٣ – هو بكسر الضاد ويخفف بالسكون نبي معروف رُوي انه جلس على ربوة بيضاء فاهتزت تحته خضراء .

ووردْنا من بقية أُنسنا ماءَها غيرَ كدِرٍ ولا آسِن

تَحسِبُ النجمَ في دُجى الليل زهرا في رُباهـا وتحسبُ الزهر نجما

فمتَّعْنا الطرفَ في الروضتين، وحصلنا من الأنس على جنَا الجنَّتين، حتى إذا عبثَ الابتسام بالوجوم، وفاضَ نهرُ المجرَّة على حصْباء النجوم، وكاد جرْف الليل يَنْهار، سمعنا من بين جلَبة الطير والأزهار:

هات المُدامَ إذا رأيتَ شبيهَها في الأفق يا فَرْداً بغير شبيه

فالصبحُ قد ذبَح الظلام بنَصْلِه فغدَتْ حمائمه تُخاصِم فيـه

قال الراوي فأوْجسْتُ خيفةً في نفسي، واعْتَضْتُ الخيفة بـدل أُنسي، وقمت مذعوراً لفرط الدَّهش، والجوُّ بـين الضياء والغبَش، «يُقلِّبُ اللهُ الليلَ والنهار، إنَّ في ذلك لَعِبْرةً لأولي الأبصار،» فتراءَتْ لي وُجوهُ الرياض تَثْعَبُ دما، كأنما اكتست الآفاق من حُمرته عَنْدَمَا، فتوهَّمته من بقايا الشفَق أسفر عنها ضوءُ الفلق، فاذا هُو يُنـادي بلسان طليق: أنا أخو الرياض (الشَّقيق)، كم كسوتُه جمالا، وكَسبتهُ من وَرق وَرَقي مَالا، من وَجْهي تُعرف نَضْرةُ النعيم ومزاجُ كأسي من تسنيم، فدَعْ قولَ عِياض[١]، ووَصفه إيايَ بين الرياض، وخَـلِّ من الألوان

١ – يشير الى بيتي القاضي عياض في الشقيق الآتيين بعد.

المُخْضَر ، واسمع ما قيل الحُسْنُ أحمر فالأزاهِيرُ عساكِرُ وأنا لها أعْلام ، فحَسْبي ما قَال علماء الشِّعْر الأعلام :

وكأنَّ مُحْمَرَّ الشَّقِيــــقِ إذَا تصَوَّبَ أو تَصعَّدْ
أعْـــلَامُ ياقُوتٍ نُشِرْ نَ عَلى رِمَاحٍ من زَبَرْجَدْ

فصاح به (النمَّام) ، أقصر فلي بحضرتكما إلمــام ، متى جمَّلتَ الرياضَ ، ومتى أغنَيْتَ الحياض ، وأنّى لوجهك النَّضْرة ، وقد أبـــدى صفحةً ، ليس لها عرف ولا نَفْحة ، أما ذكرتَ سوادَ قلبك ، وقضاءَ ربك ، وقد جرح القاضي[1] شهادتَك ، وردَّ نِداءك واشادتَك :

انظُر الى الزَّرْع وخاماتِه تحكي وقد ماسَت أمام الرياح
كتِيبَةً خضراءَ مهزُومــةً شقائِقُ النُّعمان فيهـا جِراح

نعم صِبْغُك مستحيل ، وأعلامك مُؤذِنَةٌ بالرحيل عن الوسم المُحيل ، فما النَّضْرةُ ، إلا لِلْخضْرَة ، أو ما علمت أن بها يُشبَّه العذار ، إذا استَدار ، ما أحسَن الرَّيحان في الجلّنــار فان قلتَ نَمَّام فما نمَّ إلا بأمرِه ، ولا باح إلا بسِرِّه

لِمْ كرِهَ النمَّامَ أهــلُ الهوى أساءَ إخواني وما أَحسنوا

---

١ — يريد به القاضي عياض وما في بيتيه من تشبيه الشقائق بالجراح .

ان كان نمَّـامٌ فمَعْكُوسُه من غير تأديب لهم مَأْمَنُ

فناداه (البَان) ، وقد ظهر عليه وبَان ، أيها المفتخر بفيه ، المتحلّي بما ليس فيه ، تسرِقُ السمعَ بأذْنى فَرس ، فشأنه كلُّه خُلَس ، أما علمتَ أن النمَّام في النار أما كفاكَ هذا العار ، بغيضُ الذات ، هادم اللـذّات ، تطيَّرَ من اسمك الناس وما له في الثِّقَلِ من نَاس ،

أقول وطَرفُ النَّرجِس الغضِّ شاخص إليَّ ولِلنَّمام حـولِيَ إلْمـام
أيا ربِّ حتى في الحـدائق أعيُنٌ علينا وحتى في الرياحين نمَّام

ما الحسْن إلا للقَضِيب المشوق ، والقدّ المعشوق ، المكْتسِي فاخرَ الملبس ، الزاهي في الديباج الأطلس ، إليَّ تُنْسَبُ القدود الملاح ، وعلى قامتي يَعْذِلُ العاذل ويلحي اللَّاح .

تبَسَّم زهرُ البان عن طِيبِ نشْره وأقبَل في حسن يجِلُّ عن الوصف
هلُمُّوا اليه بيْن قَصْف ولذّة فان خُصُورَ البان تصْلُح للقَصْف

فأجابه (البَهار) البهَّار ، البادي فضلُه على فضل النهار :

نفَش غصنُ البان أذنَابـه وقَـاسَ وقتَ الصبح عُجْباً وفاح
وقال هل في الروض مثـلي فقد تُعزَى الى قدِّي قدودُ الملاح
فَحدَّق النرجِسُ يَهْزَأ بـه وقال حقّاً قلتَ ذا أم مُزَاح

بل أنتَ بالطُّول تحامَقْتَ يا مقْصودَ عُجْب بالدَّعاوِي القِباحِ
فقال غصنُ البان من تِيهِـه ما هذه الأعيُن إلاّ وِقَـاح

أمَا راقَكَ الياقوتُ الأصفر ، وسَطَ الدر الأبيض على الزُمُرُّد الأخضر ، يشهَدُ بمنافِعي البيِّنة ، في الفصول والأزمنة ، شمُّوا النرجس ولو يوماً في السنة ، فأنا غذاء الرُّوح ، لِمَن يغدُو عـني ويروح ، لطِيفُ المِزاج ، أصلُح للعلاج ، وأُزيل من الدِّماغ مَضَرَّةَ دُخان السِّراج ، وأخِفُّ على العشاق ، يومَ التَّلاق .

وإذا قضَيْتَ لنـا بعَيْن مُراقِبٍ يا رَبِّ فلْتَكُ من عيون النرجس

فنهَض اليه (البَنفْسَج) وثار ، وتكلم بأَلسُن كأنها أوائِلُ النهار ، وقال لا يظهر لك أمر ، ولا يسلَم لك فخر ، إلا على الوَرْد ، فما لأمرك عليه من رَدّ .

خجِلتْ خدودُ الورد من تفْضيله خجَلاً تَورُّدُهـا عليه شاهد
للنَّرجس الفضلُ المُبين وان أَبَى آبٍ وحادَ عن الطريقة جاحِد

فضلٌ قديم ، يعرِفه المُدام والنديم ، وأما أنا فبَهْجة لازَوَرْدِية ، ونَسْمة عَنبرِية ، رَيْحانة الجيوب ، المحبَّبة للقلوب

يا مُهْدِياً لي بنفسجاً أرِجاً يَرْتاحُ صدري له وينشَرِح

بشّرني تصحيفُه عــــاجِلا بأن ضِيقَ الأمرِ ينفَسِحُ

فأقبل (الورد) في جُنوده ، ناشراً لراياتـــه وبُنوده ، مُحمَرَّ الوَجَناتْ ، مُنكِراً على البنفسَج ما جاء به من التُّرَّهات .

ولقد رأيتُ الوردَ يلْطِمُ خدَّه ويقولُ وهو على البنفسج يَحْنَق
لا تَقْرَبُوه وان تضوَّع نشْرُه من بينكم فهو العدُوُّ الأَزْرق

كيف يفخَر النرجس من بـــين الرياحين ، على نُخْبَة الملوك والسلاطـــين .

إن كنتَ تُنكِرُ ما ذكَرنا بعد ما وضحَتْ عليك دلائل وشواهــد
فانظر الى المُصفَرِّ لونــاً منهما وافهَم فمـــا يصفَرُّ إلا الحاسد

ألم تسمع ما قِيل ، مما سيُلْقِي عليكَ القولَ الثَّقيل .

مَن فضَّل النرجسَ فهو الذي يَرْضَى بحُكْمِ الورد إذ يرْأَسُ
أما تَرى الوردَ غدا قاعِداً وقـــام في خِدْمته النَّرجسُ

أنا مُشَرِّف الربيع ، ومُظْهِرُ ما له من البديع ، أُنعِشُ الأرواح ، فأنا عَرُوس الأفراح ، نوافِحُ ذَكِيَّة وروايح شَذِيّة ، أبديتُ ألوانــاً لأهل الأدبْ ، يقضُونَ لها بِالعجب ، فمِنِّي الأبيضُ والأسودُ الحالِك ، ومنِّي وراء ذلك ، أصفرُ فاقِــع ، وما نِصفُه قاني ونِصْفُه ناصِع ،

وبالهِنْد مِنِّي شجَرٌ تُخْرِجُ ورداً عليه مكتوبٌ : لا إِلهَ إلا الله ، محمد رسول الله ، فأنا للرياحينِ مَلِكُ ملوكِها ، ووسَط عُقودِها وسلوكِها .

فمَن ذا يُضاهِيني بوَصْف فَضِيلة   وفضْلِي على كُلِّ الرياحين ظاهر
زماني على الأزمان بي مُتَشرِّف   وفخري لمَن يبغِي التفاخُر قاهر

فرَام (المَنْثُور) ، أن يُراجِعَه بالمنظُوم والمنثُور ، ويذكرَ له من ذلك ما هو مأثور ، فأسكتَه ، وردَّ عليه وبكَّتَه ، وتحاملَ عليه ، ولم يُصغِ اليه ، فأما الأبيضُ فاسْتَسلم ، وأبى الدعاءَ على مَن ظلَم ، وكلٌّ من الاصفر والازرق باحَ بالشكوى ، الى عالِم السّر والنَّجْوى ، فلم يزل يُسِيلُ مَدامِعَه ، ويمدُّ الى الله أصابِعَه ، وعنده تجْتَمِعُ الخصوم ، واليه تعالى ينتهي الظالم والمظلوم .

حاذِرْ أصابِعَ من ظلمتَ فانه   يدعُو بقلْب في الدُّجا مكْسور
فالورْدُ مَا أَلْقاهُ في جَمْر الغَضا   إلّا الدُّعا بأصابِع المَنثُور

قالَ الراوي ، فبينما هُمَا في مُطَارحة وجَواب ، ومفاخرة وإعجاب ، إذْ أقبَلتْ مُطوَّقَة الرياض ، ولها من الجوّ انصِبَاب وانقِضَاض .

ورْقَاءُ قد أخذت فُنونَ الشوق عن   يَعْقُوبَ والالحانَ عن إسحَاق
وأنا الذِي أملَى الهوَى من خاطري   وهْيَ التي تُمْلِي من الأَوْراق

فباحت بشَجَنها ، وتكلّمت على فَنَنِها ، وقالت كلٌّ يُحاوِلُ جُهدَه ، ويقول بما عِنْده ، إليَّ لا لَكُم الفَخار ، وأنتم لنَا أعشاشٌ وأوْكار ، وفرُوعكُم لخطبائِنا مَنابِر ، ولقِيانِنا سَتائِر ، أليس رؤوسكم لأقدامنا خاضِعة ، ولنَا كلّما نزلنا ساجِدة وراكعة ، وإنّا على ما زعمتُم بنا من الجوى وتَبارِيحِه ، آخِذُون في ذكر الله وتَسْبِيحِه ، شُغْلُنا ذلك بالاسْحار ، والعَشِيّ والإبْكار ،

قال الراوي : فبينما أعجبُ مما سمعت ، وأهُمُّ بتَقْيِيد ما رَوَيْت ، إذْ نشأتْ غمامةً تصافح أهْدَابُها الارض ، وتسُدُّ الآفاقَ على الطول والعَرض ، يَحدُوها الرَّعد ، ويستنجزُ منها الوعد .

وكأنَّ صوتَ الرعد خلفَ سحابةٍ حادٍ إذا وَنَتِ الركائِبُ صاحا
أخفَى مسالِكَها الظلامُ فأوقدت من بَرْقِها كي تهتدي مِصْباحا
جادَت على التّلَعاتِ فاكتَست الرُّبى حُللاً أقام لها الربيع وشَاحا

فنشَرتْ الأرض جواهِرَ تَغارُ منها البحور ، وتْزدَانُ بها من أجْيَاد الأزهار اللَّبَّاتُ والنُّحور ، فاختَفت بعد ما تجلّت ، وألْقَت على البِطاح ما فيها وتخَلّت ، ثم قالت يَا ذَوَاتِ الأطْواق ، البائحاتِ بالاشواق ، المُفْتَخِرات على الأدْوَاح ، بالغُدوّ والرَّواح ، بُكاؤكُنَّ كَذِب ، ونَوْحُكُنَّ لَعِب ،

لوْ كان حقا ما ادَّعيْت من الجوى يوماً لما طَرق الجُفون كَراك
أوْ كَان رَوَّعك الفراقُ إذاً لمَا ضنت بماءِ جُفونِها عَيْناك

ما الفضلُ إلَّا لِمَن أحيا الارض بعد أن كاد زَرْعهـا يَهِيج ، فاهتزّت ورَبت وأنْبَتت من كل زَوْج بَهِيج ، فقلائِدُهـا مُدَبَّجة ، ورُؤُوس أشجارِها مُتوَّجة ، فلوْلايَ لم يكن لَكُنَّ مَرْعى ولا مَسْرَحْ في الأرض ولا مَسْعَى . قالَ الراوي : فبَيْنا هي طَلْقُ اللسان ، وتعُد مالهـا من الحسن والإحسان ، إذ طَلَعتْ الغَزَالة ، وهي في مَشْيِها مُخْتالة .

مرآة تبرٍ لم تشح بصياغة كلاّ ولا جُلِيَت بكف الصَّيْقَل
حتى إذا بلغتْ الى حيثُ انتهَت وقَفتْ كوَقْفَة سائل عن مَنْزِل

وهي قايلة أعمالٌ كسَراب ، وعَارِضٌ مُنْجاب ، إذا طلعتْ عليه الشمسُ ذَاب ، ألم تسْمَعُوا بأني يُوح[1] ، أغدُو في مصالح العـالَم وأروح ، فلولاي ما جرَت الانهـار ، ولا تفتَّقت الأزهـار ، قـال الراوي : فلمـا رأيتُ إفراط اللَّجاج ، والتمادي على الحِجَاج ، قلتُ الحق أبلَج ، والبُطْلُ لَجْلَج ، هلَّا أعطيتُم القوسَ بارِيها ، وأسكنتم

---

١ — يوح علم جنس للشمس .

الدارَ بانيهـا ، فمِن كَلام مَن يَعقِل . إذا فاضَ نهرُ الله بطَلَ نهرُ مَعْقِل[1] ، ألم تعلَمُوا أنَّ جامِعَ هذه الفضائل وإمامَها ومالِكَها الذي أحكم انتِظامها ، عالِمَ المسلمين مُحيي سُنَّةَ الفضل في العالَمين الماجد الفاضِل ، السحاب الهاطِل ، السَّني ، السُّنّي ، فخر المغرب الأكبرَ ، محمد بن أبي بَكْر صاحبُ الدِّلاء الكَريم الجَواد ، الكثيرَ الرَّماد ، كافَى الله إنعامَه ، وجازَاه عن مقام الدين الذي أرَاد جِدَارُه أن ينقَضَّ فأقامَه ، فهو الممدوح بكل لسان ، والماجد الذي لم يختلِفْ في فضله اثنان ، والسخِيُّ الذي إذا ملأ الراحة خفَّ عليه التعب ، وإذا ذكر القدر الذي ارتفع هان عليه الفكر الذي انتصب ، كَمْ ساجلت جودَه الغمائم ، فأمست على افتضاحها ثَنايا البروق وهي بَواسم ، متى طرقتَ حِماه والليل قد سَجَى ، تجِدْ حطَباً جزْلاً وناراً تأجَّجا .

تَلُوح في غُرَّة الأَيام بهجَتُه   كأنها مِلَّةُ الاسلام في المِلَل

فاعترفت الأزهار بأنَّ شذاها من نَسماتِه ، وأقرت الشمسُ بأنها من قَسِماته ، وسلَّم الغمام بأنه من صِلاته ، وقال الحمامُ لا أتغنَّى إلا بمدائِحه ، ولا أرِدُ إلا مَواردَ منائِحه ، قال الراوي : فلما وقع التسليم لمُعجِزَاته المحمدية ، ومناقِب أبيه البَكْرية ، قضيتُ المناسِك ، وودَّعتُ المسَالك ، وطُفتُ تلك البقاع طوافَ الوَداع فلما أردتُ

١ — هو معقل بن يسار ينسب له نهر بالبصرة وهو الذي يضرب فيه هذا المثل .

الخروج ، والرجوع على خضرة تلك المروج ، نادتني الأزهـــار من كمائمها ، والثمار من أغصانها ، سمعاً لهذا الماجد الذي صار إجماعـــا ، وأحببتَه أنت عيانا ونحن سماعا ، ونحن نُقْسِمُ عليك بمواهبه التي كاثرت النجومَ عدّا ، وطالت البحرَ مدّا ، إلا ما خدمتَ بهـــذه الفكاهة جَنابَه الفسيح ، وأغنيتَ بها المساكينَ الذين يعملون له في كل بحر[1] من أشعار المَديح ، فقلتُ أجبتُ هـــذا القَسم الكريم ، وإنه لَقَسمٌ لو تعلمون عظيم ، فيا لَه من حجّ مبرور ، وعمَل متقبّل مشكور ، فرائدُ الفوائد في سِلْكه منظومة ، وصحائف لذّاته بالمِسْك مختومة .

١ — هو تلميح الى قوله تعالى : أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر . . .

مَقامَة الحجّام

لابن الطيّب العلمي

أخبرنا بعضُ الظرفاء ، من ذوي المروءة والوفاء ، ممن أعتمِدُ على نقله وروايتِه ، وأحكُم بصحة عقله ودِرَايته ، قال جلستُ يوماً ما مع جماعة من الاحباب ، على شيء من الشراب ، نتذاكر ما مرَّ في أيـــام الشباب ، وبيننـــا شاب حسنُ الصُّورة ، عليه الملَاحـــة مقصُورة ، واللطائفُ في شمائله محصُورة ، إلا أن شعرَ شارِبه قد طال ، واستَرْسَل غايةَ الاستِرْسال ، فسألناه عن سبب طُولِه ، وعَـــدم قَصِّ طَويلهِ ، فقـال أنا أخبركم بخبر يعجَب لذكره الحـاضرون ، ويطرَب لسماعـه المنصِتون والناظرون ، كنتُ من شأني أتزَخْرَفُ في المكَاسب ، وأتخيَّرُ منها ما يناسب ، فصليت يوماً صلاةَ الاستخارة فوجدت نفسي مائلةً الى التجارة ، فقصدت مدينة سِنْجـــار ، وفتحت بهـــا حانوتا بِسُوق التجار ، ووضعتُ فيه من محاسن القُماش ، ما أستعين به على المعَاش ، وزينتُ الدكَّانـــ ، بحسب الإمكان ، وكسوتُها بالاستار عـــلى أربعة أركان ، وعاملتُ أهلَ الاسواق ، بمكارم الاخلاق ، واستعنتُ بالقُرْبة ، عن ليالي الغُرْبة ، فاتفق لي في بعض الأيام ، ضَرُورةٌ الى دخـــول

الحمام ، فوجدتُ في طريقي جماعة من النسوان ، بينهن فتاةٌ كأنها قَضيبُ البان ، فلَمَحتُ من تحت الإزار مِعْصَمها ، وقد سطع صفاؤُه ، وأبصرت من تحت النقاب جِسْمَها ، وقد لمع ضياؤُه فوقفتُ وقد جرى من الجفون دَمِي ، وعجزتُ عن نقل قدمي ، ثم تبعتها من بعيد ، ولاحظتها الى أين تُريد ، فدخلت داراً يدل إتقانُ بابِها ، على سعادة أربابها ، فنظرتُ فإذا بالقرب من ذلك المكان ، خياط يخيط في دُكان ، وعنده من الصنَّاع والأعْوَان ، ذَوُو أذْقان ومُرْدان ، صِنْوَانٌ وغيرُ صِنْوان ، فقلت في نفسي مِن هذا الخيَّاط أستفهِم ، عمَّا عليَّ أُبْهِم ، فرجعتُ الى دكَّاني ، ثانياً عِنَاني ، وأحضرت عدةً من التفاصيل وجئت بها حانوت الخيَّاط بقَصْد التفصِيل ، فجالستُه ، وحاوَرْته وآنَستُه ، وفصَّلتُ ذلك القُماش ، وعجلت له من الاجرة ما يحصل به الانتِعاش ، ففَرِح بحضوري ، واعتنَى بأموري ، ووجدت عنده معرفةً بالادب ، وشكَا لي من ضِيق الحال والسَّغَب ، وأنشدني لنفسه من شعره المستعذَب :

أنا الخيَّاطُ لي رزق ولكن أرَى حالِي من الافلاس عِبْره
ذِراعي فيه من فَقْري مِقَصّ ورزقي خارج من عَيْن إبْره

فاستحسنت نظمَه ، وحملتُ همَّه ، وصارَ يتلقَّى كلامي بالقبول ، ويقف ممتثلا ما أقول ، فسألته عن صُنَّاعِ دكَّانه ، ودِيَار جيرانه ، فما زال يُشِير الى كل دار ويشرح حالَها ، ويعرفني تفصيلها وإجمالها ،

حتى أفضَى الحديث الى الدار التي أختارُهـــا ، وقصدي أن تتضح لي أخبارُها ، فقال هي دار خطيب البلد ، وهو رجل كثيرُ المـــال قليل الوَلَد ، مشهور بالتوقِرَة الزائدة ، ولا له من الأولاد إلا إبنَةٌ واحدة ، وهي روحُه التي بين جنبيه ، والسواد الذي فيه نورُ عينيه ، وقـــد منَعها الازواج ، وخطبهـــا جماعة من البلد ، فلم يسمح لها بالزواج ، فقلتُ والله لقد شوقَتني اليها ، وحدثتني نفسي بخِطْبتها والعمل عليهـا ، فهل تعرِفُ امرأةً تُعرِّفني باسمها ، وتوصل خِطْبتي الى أُمها ، فدلني على عجوز مشهورة في عَقْد النكاح ، تُعرَف بيَاقُوتَةِ المِلاح ، فلمـا لقيتها أوضحتُ لها الحال ، ووَعدتها ان تمَّت المسألة بتُحَف ومَال ، فسمعت كلامي ، وضمِنَت لي بلوغَ مَرامي ، وأنشدتْ :

أنا يَاقُوتَةُ المِلَاح وربِّي ... في أموري هوَ الكفيل بقُوتِ

ان سلكتُ القِفَار جئتُ بوحش ... أو سلكت البحار جئت بحُوتِ

ويقود الصعابَ لُطفُ احتيالي ... بخيُوطٍ تكون من عنكبوتِ

أَلقِني في لَظَى فان غيَّرتْني ... فتَيقَّنْ أَنْ لستُ باليَـــاقُوتِ

ثم فارقتني وذَهبت ، واشتعلت نار وجـــدي والتهبت ، ومضى عليَّ شهر لا أدري أمرَها ، ولا أعرف مُستقَرَّها ، فذرَفت العيون ، وسهِرت الجفون ، وساءت الظنون ، وقلتُ :

غاب الرسول فلم يعُد بجوابِه ... ففهمتُ معنى الحال في تأخِيره

فكأنه لم يلقَ أمرا طـائلا فأراد بالتـأخير سترَ أموره
ما ضره لو جاءني بجَوابه فعلِمْتُ ما قد كان عند حضوره
إن كان خـيراً نلتُ منه بشارة او غيَره فكَّرتُ في تدبـيره

قال : وبعد ذلك حضرت ، وقد انفطَرت كبدي بما انتظرت ، فلاح من وجهها عدَمُ القبول وخيبةُ المأمول ، وقالت : والله لقـد تحيلتُ وتوسلتُ ، فما ظفِرتُ ولا توَصَّلتُ ، لم يُوافِق أبوهـا على زواجهـا ، ولا سمحت نفسه بإخراجها ، ولكنَّ والدتَها رثَتْ لحـالك ووافقت على ذلك ، فقلت لها لقد يئِستُ من حياتي ، ودنَت وَفاتي ، فساعِديني قبل فراق الدنيا بنظرة واحدة ، ولكِ ولأمها ، التكرمةُ الزائدة ، فليس لي غرض غير قُبْلة في جسمِها ، وأخرى في مِعصَمِها :

وبعد ذلك طابَ الموتُ فاغتنِمي اجري ولا تُهمِلي أمري أمُتْ كمَدا
وساعِديني على حال بُليتُ بهـا وعجِّلي فلعلي لا أعِيشُ غـدا

ثم تصعَّدت زفراتي ، وتجـدّدت حسَراتي ، وتزايد شَهِيقي ، وغصصتُ بدمعي لا برِيقي ، فقـالت : أترَضى بذلك النزر القليـل ، قلت : نعم والله عـلى ما نقول وكيل ، فاستصحبتْ من الذهب ما أرضاها ، وركِبتْ سفينةَ النصح ، وقالت بسم الله مُجْراها ومُرْساها ، وذهبت وقدِ دهَت عيْناهـا ، فغابت عني قليلا ، ثم عـادت فرأيت

وجهها جميلا ، وقالت : لقد رثت لك الوالدة ، وسمحت لك بنظرة واحدة ، بعد ان قلت لها لا بأس بنظرة العين ، ورغّبتُها في أجر من يجمع بين المحبّين ، فإياك ان تنقُض عهداً ، او تتعدّى حدا ، وتقرر المعياد يومَ الجمعة وقتَ الصلاه ، ووالدُهـا على المنبر في مُصَلّاه ، فصُمْت ، وتصدقت ، وانتظرتَ ذلك الوقت ، الى ان دنـا الميعاد ، ودخـل الوقت أو كاد ، فخرجت من داري ، وقـد صفت اكداري ، وحسنتُ هيئتي ، وسرّحت لِحْيَتي ، واستعملتُ ما يناسب من الطّيب ، وقصدت دار الخطيب ، فاجتزت بِحَجّـام عنده مِرْآة ، ومِقَصّات مُستحسَنات ، فناولني المرآة حتى رأيتُ وجهي فيهـا ، فوجدتُ شَعر شاربي قد طال ، وتعيَّن ان يُخفَّف ويزال ، فأمرتُه بقصّه ، وان يأخذ منه بمِقَصِّه ، فامتثل أمري ، وقصّ ما طال من شعْري ، فسألته عن اسمِه وأصلِه ، لعلي استدلُّ بذلك على فِعْله ، فقال : اسمي قَتْوَر ، وأصلي من خَيْبَر ، فقلت : اسم عَتيث ، وأصلٌ خَبِيث ، فقصدت إعطاءَه درهمـا عن إجرته ، فسبقتني يـدي الى كِيس الذهب ، لِما طُبِـع عليه الانسان من عجَلَته ، ولما نظر اليه والى ما فيـه من الذهب ، طـار عقله وذَهب فناولته منه دينـارا ، لأكْفَى منه عـارا ، فانكب على قَدمي ، وبالغ في الثناء على كرمي ، وقـال مثلُك من يخدمه الانسان ، وهل جزاء الإحسان ، إلا الإحسان ، والله لقد

اغنيتَني من كرمك ، ولا أعودُ أموت إلا تحت قدَمك ، فأثنيتُ عليه بالخير ، وأسرعتُ عنه في السير ، فأسرع حتى لقيني ولازمني ولاصقني ، وما تأخر عني ولا سبقني ، فقلت له انقطع عني ، ولا تتبعني ، وما الذي تريد مني ، فقال : معاذَ الله أن أُفارقَ من أحسن إليَّ ، وتفضل بهذا الدينار عليَّ ، والله ما أنا من أولاد الزِّنى ، ولا من أبناء الخنا ، هذا والعجوزُ مُراقِبة وُصولي ومنتظرة لِدُخولي ، فاعترَضني جمعٌ من المساكين ، وقالوا تصدَّق علينا ان الله يجزي المتصدقين ، فناولتُه دينارا آخر وقلت صرِّفْه وفرِّقْه عليهم ، وتَولَّ إيصالَ ذلك بيدك اليهم ، فرماه الى الفقراء في الهوَاء ، وقال اقتسموا هذا بينكم على السَواء ، ثم هرولتُ فأدركني ، ودخلت من الباب ، فأراد أن يمسكَني وقال : الى أين يا سيِّداه ، وقد دخل وقت الصلاة ، فلم أردَّ عليه الجواب ، بل أُدخِلتُ وأغلِقَتْ دونه الباب ، فما لبِثَ أن طرق الباب . وقال يا سيدي فاتك الصواب ، قد أُقِيمَت الجمعة ، والأقوام الى الصلاة مُجتمِعة ، فقالت لي المرأة : دع غلامَك يذهب ، فقد تعدى وغلَب ، فقلت والله ما هو لي بغُلام ، ولا لي معه كلام ، فاخرُجي اليه ، والعَنِي وَالِدَيْه ، فخرجتْ اليه ، وأنكرت عليه ، فرمى عِمامتَه وبكى ، وقال الى الله المشتكى سيدي في هذه الدار أدخَلوه ، وطمِعُوا في ماله فقَتلوه ، وزاد في الاستغاثة واجتمع عليه الناس حلقتان

او ثلاثة ، ولم يزل يصرُخ ويستَغيث ، ويقول ألَا مُنجِد ألَا مُغيث ، والعجوزُ راجِفة ، والبنتُ وَاجِفة ، والأمُّ خائفة ، والطوائف واقِفَة ، « أزِفَت الآزِفة ، ليس لها من دُونِ الله كاشِفة » وما زال يَصِيح يا سيدَاه ، يا موْلَاه ، خرج الناس من الصلاة ، فاتَك الثَّواب ، عدِمْتَ الصَواب ، حصَلْتَ وراءَ الحِجاب ، ضُرِب بيني وبينك بِسُورٍ لـه باب ، فخرج الناس من الجمعة ، وعلى البابِ طوائف مُجْتَمِعة ، واتَّصل بالخطيب الخبر ، فبادر إلى داره وحضر ، فرأى الناسَ مجتمعين ، والى الحجَّام مستمعين ، فلمـا وقـع نظره عليه ، أدناه اليه ، وقـال له ما الحديث ، والى كَمْ تصرُخ وتستغيث ، فقال ان سيدي قد دخل الى هذه الدار ، ومعه كِيسٌ فيه الف دينار ، ثم لما أدخَلُوه ، طمِعُوا فيه فقتلوه ، وهو في هذه الدار ، فادخُل وعرِّفْني الأخبار .

قـال الراوي : هـذا ونحن نسمـع الكلام ، ونتوقع الحِمَام ، فوجدت في الدار بئْراً ، فرميتُ نفسي فيها ، وأمرت النساء يسترونها بما يُخْفيها ، فدخل الخطيب الى نسائه ، وعرَّف من قول الحجـام ، وفوَّقَ اليهن سِهام المَلَام ، فحَلفْنَ له بما أرضاه ، وقُلْنَ حـاشَ لله ، فخرج اليه بِغَيْظ شديد وقلبٍ دونه الحديد ، وقـال يا غلام ، دع عنك هـذا الكلام ، فما عندي من يُتَّهمُ بكلامك ، ولا من تَرْميه بسِهامك ، فصَرخ بأعلى صوتِه وقال : قتلوه وليتَني مِتُّ قبل موته ،

ولو كان حيا ما فاتته صلاةُ الجمعة ، ولكان حاضرا وأنا فيها معه ، واحزناه واأسفاه واسيّداه وامولاه ، غرّوك فأدخلوك ، وطمعوا في مالك فقتلوك ، ائذَنْ لي بالدخول ، فأنا أعرف ما أقول ، فأمره الخطيب بالدخول الى داره ، ومعه من الحاضرين من بعثه فضولُه على كشف أخباره ، فدخل الدار في جمع كبير . فأوقعته المقادير على فم البير ، فقال سيدي في هذا المكان ، ولا بد من النزول فيه ولو كان ما كان ، ثم نظر في نواحي البيت واستدعى بإناءٍ فيه زَيْت ، وحلَّ عِمامَته وبلَّ طرَفها ، وأوقدها لِمكيدة عرَفها ، وأدْلاها في ذلك البير ، وأدارها فأنارت أيَّ تنوير ، فرآني جالساً بمكاني وقد حلَّ بي من الويل ما كفاني ، فاستغاث كذب المُماطل ، وجاءَ الحق وزَهقَ الباطل ، سيدي في هذا البير والانسان جارٍ تحتَ المقادير ، فأُخرِجتُ من ذلك المكان ، على أقبح حال وأسوأ شان ، فقال لي الخطيب ان أردتَ الخلاص فاصدُق ، فقلت ما دخلت إلا لأسرِق ، فحُملتُ على تلك الحال الى الوالي فسجنَني وأخذ أموالي ، فبقيتُ في الحبس سَنةً ، في عِيشَة خَشِنَة ، ما رأيت فيها لذةً بيِّنة ، وعلمتُ أَن مَن أحسن لكل رَديء الأصل ، شَقِي كما شَقِيت ، ولقي ما لَقِيت ، وكان مما نظمتُه في حَبْسي مخاطباً لِنَفْسي :

تجنَّبْ رَديَّ الأصل واحذَرْه واجتهد على طَرْدِه فالخيرُ في شَرف النفس

وإيَّاك ان تغترَّ منه بمَلْمَسٍ يَلِينُ وجنِّبْه اجتنابك للرِّجس

فانَّ الافاعي قاتِلٌ سمُّها لِمن تدانى إليها وهيَ لَيِّنةُ الَمسّ

ويكفيك في صدق الوصية ماجرى عليَّ وما لُقِّيتُ من ذلك النَّحس

تقصَّدته بالخير كافى بضدّه واوليته المعروف جازاه بالعكس

وكم ليلةٍ قضَّيتها في عساكر من البَقّ والنَّامُوس في ذلك الحَبْس

أقاسِي الأسى من ذلك المُدْبِر الذي رأى قصدَه نقلي الى ظُلمة الرَّمس

وَضيَّع اموالي وعِرْضي ومَقْصدي ولكن حِمدْتُ الله إذ سَلمَت نفسي

وكانت العادةُ جاريةً بعرض المحابيس على السلطان ، في كل شهر رمضان ، فاحضرتُ بعد سنة بين يديه ، وسألني عن الأمر الذي حُبِسْتُ عليه ، فقلت: لِي قضية اذكرها بين يديك ، واذا انهيتُها فالامر الى الله ثم اليك . فأدْناني، واستفهمني عن شأني ، فذكرتُ له الحكاية على الوجه الصحيح ، واوضحتُ له الحال فلم يحتَجْ الى تصحيح ، فعَجِبَ من حالي، وامرَ بردِّ مالي ، وتبليغ آمالي ، وأمرَ الخطيب ان يزوجني من بنته المذكورة ، وقام بالصداق من عنده على احسن صُورة ، واحضَر ذلك المُدْبِر وسلَّمه اليَّ ، وحكَّمني فيه عند وقوفه بين يَديّ ، فذهبتُ به الى داري ، وصفَتْ بتلك المحبوبة أكداري، فصلبتُه على الباب مَرْجُوما ، وابقيته سَبْعَ ليالٍ وثَمانِيةَ أيامٍ حُسُوماً ، وسمعتُ هاتفا يقول :

قضتْ نحبَها نفسُ هذا اللَّعين وفي صَلْبِه نعمة مُطلقَة

فلا رَحِمَ الله تلك العظـــام ولا بَرِحَت بِلظى مُحرَقة

وما مرَّ به احد إلا لَعنَه ، واستظْرَفه على الخشب واستحسنه ، وانشدت :

نِلتُ جَبْرِي بكسر قلبي وصَبْري وَرقِيبي رأيتُـــه مشْنُوقـــا
رَامَ نفعا فضرَّ من غـــير قصد (ومِنَ البِرِّ مَا يكُون عقـــوقا)

وأقسمتُ لا قصصْتُ شعرَ شاربي ، ولو استرسل الى تَرائِبي ، فهذا سبب طولها ، وقد رضيت بتطويلها ، ثم انشد :

ارى الاحسان عند الحرِّ ديناً وعند النَّذْل مَنْقَصةً وشَيْنا
كما النَّيْسَانِ في الأصداف دُرٌّ وفي بطن الافاعي صار سُمًّا[1]

●

١ – يريد بماء النيسان المطر الذي ينزل في شهر نيسان وهو أبريل ويقولون ان الأصداف البحرية تتفتح فيه وما وقع منه فيها صار دراً كما أن الحيّات تتعرض له فما وقع منه في أفواهها صار سما .

المقَامَة الحِسَابيَّة

لبعض أدباء فاس

(أخبر الراغب بن عبد الوارث) قال خرجت الى وادي فاس ، في إِبَّان ربيع عَطر الأنفاس ، يومَ خميس مع أَنيس ، ينسى الغَريض بتحبيره للقريض ، فانخنا بمنزل ، عن الجموع بمعزِل ، وإِذا شيخ طالع ، مع غلام بارع ، فجلسَا بمرأىً منا ومَسْمع ، وصرَفا وجهَهُما عن المجمع ، وتنازعا الحديث ساعةً زمانية ، بلَغ الشيخُ فيها أمانيه ، ثم أخرج الغلامُ لَوْحا من رُدْنه ، مصنوعاً لعلم الحساب وما كان من فَنّه ، وجعل يرسُم في ذلك اللوح ، بإشارة من الشيخ ممتزجة برَوْح ، فقال لي صاحبي المؤنِس ، ان امر هذا الشيخ لَمُلْبِس ، ولا بد من نقضِ غَزْله ، وإبراز جِدِّه من هَزْله ، فأنشد بصوت يُسمع الصُّم ، وتخرُّ له الجبال الشُّم ، ما قال ابنُ جُزَيّ في مثله ، وقد ابدعَ في قَوْله :

يا نَاصِباً عِلْمَ الحساب حِبَالَةً ⁂ لِقِنَاص ظَبْي ساحر الألباب

(×) هي ثلاث مقامات بخط واحد غير منسوبة توجد بمكتبتنا أثبتنا منهـا هنا اثنتين وتركنا الثالثة لتلاشي بعض كلماتها ويظهر أنها من القرن الثاني عشر .

ان كنتَ تُرزق بالحساب وصاله فاللهُ يرزُقُنا بغير حساب

فدار الشيخَ وانشد، وردَّ بصوت أشدّ :

ما صِدتُه بل صادَني بقِسيِّه وبمدّ شَبْكَةِ صُدغِه الكَتّاب
ووقعتُ في فخّ له ، ذَا غِرّةٍ إذْ لم يكن صَيْدُ الظِّباءِ حسابي

ثم اخذته العزّةُ فتاه ، وأدارَ وجهه الى فتاه ، فانطلق الأنيس ، يُنشد الفتى لِيميس :

يا (مُنيَتي) ومُنَاءي (إرْفع حِجاب) التَّجَنِّي[1]
(جمعتَ) من كل صنف من الجمال وفنّ
ولم يكن في (حِسابي) أن تَصرِف الوجهَ عنّي
ثَنيْتُ قلبيَ لما (كَسَرْتَه) بتَثَنّ

فلم يبرح لقوله ، ولم يتزَحْزح عن محلّه ، فعاد وشاد ، واحسن الانشاد :

يا (مُنيةً) لِي لم يكن لي في (حساب) ان سَيسْنَح

---

١ — فيه تورية بالمنية ورفع الحجاب من كتب الحساب وفي الأبيات التي تليه تورية بالأعمال الحسابية .

(إرفعْ حجابَ) الهجر عن　　صبّ الى اللُّقيــا ترنَّح
فاضت (جداولُ) دمعه　　(وضربتَ)عنه (بالُمجنَّح)
ان كنتَ (جامِعَ) زُخْرُف　　ممَّن وشَى بالله (فاطْرَح)

فما كان باسرع من أن قادَه إبليس، واتى به كما أُتِيَ بعرش بلقيس، والشيخُ يتبع التلميذ، كالذي اخذته النبيذ، وقــد عبس، وما نَبَس، ولا فَاه[1]، مما وافاه، سوى أن قال «ساحِرَانِ تظاَهرا» مُنِيتُ منهما بمــا لم يكن في خــلدي جرى، فحين أبرز بَرَد أسنانه، وأصْلَت للكلام عضبَ لسانه، عرفنا انه ابو سَلامه، فاحسنَّا تحيته وسَلامـه، وقُلنا لندفع لجاجه، بك والله الحاجه، يا ثمرَ غَرْسِنا وعطر عُرْسِنا، قال أبعد ما بِي سحرْتُما، ولفتاي سحَرْتما؟ فما زلنـا نعـــالجُ قلقَه، حتى فتحنا مُغلقه، وقال مُباسِطاً للأنيس، استفززْنا بصوتك المغناطِيس، فانشدَه قولَ مَن قال، واحسن في المقال:

وقالت فتاةُ الُمنْحَنى ذاتَ ليــلة　　وقد سمحت من بعد صَدّ وإعراض
إذا ما مضى ممَّا تبقّى من الدُّجى　　ثلاثةُ أَسْباعٍ وتُسْعٌ من الماضي
اتيتك لا يدري بذاك رَقِيبُنا　　اُجرُّ رداً مِرْطٍ على الأرض فضفاض

---

١ — أي نطق.

فكان ذهابُ الليل عنـــد مجيئهـــا فكم كان بَاقِيه ومَاضِيـــه يا قاض

فطرب طرَباً شديداً ، وانبسط انبساطا جديدا ، وقال اتعرفُ مغزاه ، والى كم ليله تجزّاه ، فقال لَيس لي به يَدان ، ولستُ من فُرسان هـذا الميدان فطوّقنا بفهمه ، ورَنّقنا بعلمه ، قال بشرط أن تكون من الالبّاء، وان لا تعود الى التفريق بين الاحبّاء ، فقال وهو مُضمر الخلاف نعم ، « وما يسرُّني بها حُمرُ النَّعم » فقال انه تجزأ دُجاه وانتشر ، الى خمسمائة وستّةَ عشر ، اربعمائة واثنان وثلاثون لماضيه ، واربعةٌ وثمانون لِباقيه ، تُسعُ الماضي ثمانيةٌ واربعون ، وثلاثةُ اسباع البـــاقي ، ستةٌ وثلاثون ، ومجموع هذين هما الباقي ، فان يمضيَا بلغت رُوحُ الدُّجى التَّراقي ، فقال قد فهمنا ، وبما كثّرت هِمْنا وإنّا لنَظْمَا ، لِورُودِه نَظما ، فقـــال اسمعْ أوتِيتَ فَهْما ، « وقُلْ ربِّ زِدْني عِلْما » :

لقد قسَّمتْ لِ(سَيْرِها) شِبْهَ شَعْرها وبَاقِيه سُدْسٌ غير قِسْمَته ماض

ثلاثةُ اسْبَاع لقـــائل (ابلجٌ) و(ماجدٌ) ابدى تُسْعَ ماضٍ لمُرْتاض[1]

وذَانِ هُما الباقي فان يمضيَا قضى م الدُّجىَ وتجلّى الصبحُ بادِيَ إيماض

لِنا طلعت وابنُ الغَزالةِ طالِـــعٌ غزَالَتُك الشمّاء انتَ بهـــا راض

---

١ — هذا تلخيص للعمل في ذلك بحساب الجمل ، فنقط سيرها ٥١٦ ونقط أبلج ٣٦ ونقط ماجد ٤٨ .

وَهلك ما هو اخصر ، وهو للظمئان اقصر :

دجاها (يَسُرُّها) و(تبكي) لِفَائِتٍ
وبَاقِيه (عِيدٌ) فاقْضِ ما ذُو الحجا قَاضِ [1]

ولك ان تقول ، وهو اقرب للعقول ، انه جزَّأَهُ الى ثلاثةٍ واربعين ، وجعل الماضي ستةً وثلاثين ، وان شئتَ المنظوم ، فخذه غير مكظوم :

دُجاها (جَلِيّ) ما مضى منه (ابلجٌ) وبَاقِيه (بادٍ) فاقض ما ذو الحجا قاض [2]

ثم ادار حديثاً اشهى للنفوس ، من إدارة السُّقاة للكؤوس ، وقال هل بقي في السَّفط ، شيء من ذلك النَّمط ، فانشده قولَ القائلِ ، المشهور بين الأوائل :

غزَالٌ قد غزا قلبي بالحاظٍ واحداق
له الثلثان من قلبي وثُلْثَا ثُلْثِه الباقي
وثُلْثَا ثُلثِ ما يبقى و[illegible] [illegible] للساقي
وتبقَى اسهُمٌ ستٌ لِتقسم بين عشاق

---

١ — نقط يسرها بحساب الجمل ٥١٦ ونقط تبكي ٤٣٢ ونقط عيد ٨٤ والعمل لا يخفى على الحاسب .

٢ — نقط جلى ٤٣ ونقط أبلج ٣٦ ونقط باد ٧ .

فقال وقد ابتسم ، الى كم قلبُه اقتسم ، فقـــال ما لي به دِرَاية ، ولم اسمع فيه رِوَاية ، وان كشفت الغِطـــاء عن المبهم ، فلك اجرُ مَن علَّم وفهَّم ، « قالَ لَقد أوْتِيتَ سُؤْلك » ولكن الشَّرط أملك ، فانّه قسَّمه الى واحد وثلاثين ، كما هو مقرَّرٌ في دواوِين ، وان أحببتَ شَقِيقَه ، على الحقيقة ، فاسمع مني ، واحفظ عني :

قضَّيتُ ثُلثي ليلِ هجرِك باكيا حتى غدا (المجهول) ناراً في جبـــل

وقضيتُ ثُلثي ثُلثِه في جُرْعتي حُرَقَ الهوى نهـــلاً وتاراتٍ عَلل

وابدْتُ ثلثي ما تبَقَّى منـــه في عَلِّي ، لَو انَّه كان تنفعني لَعــلّ

وقصرتُ ثُلثَي ذلك الباقي على نظري لشِبهك في السَّماءِ وقـد كمل

والثُّلثُ وهو الواحدُ الباقي بدا فيه شَقِيقُك قلتُ سبحان الأَجـلّ

وان اتقنتَ بابَ الجبر والمقابلة ، يلُحْ لك وجهُ الحقّ في مُقـابلة ، ولما آذنت الشمس بالغروب ، مال ابو سلامةَ للهرُوب ، فودَّعناه وَدَاعَ كارِه لِغيبته ، وانصرف تلميذه معه وهو تمام بُغيَته .

المقَامَة النطوَانيّة

لـــهُ

(اخبر الراغب بن عبـــد الوارث) قال : انتظمتُ في تِطوانَ برفقاء ، انتظامَ الاخوة الاشقّاء « صِنْوَان وغير صِنوان » ونزلتُ معهم الى البحر ايامَ عيد النَّحر ، ونحنُ في زَيٍّ بني مَرْوان ، فوجـــدنا على طَرفِه ، مِنْطيقاً مَلِكَ بطُرَفه ، ولِداناً لَمْ يملكهم ذُو إيوان ، ذَوِي قُدود أَسِنّة ، وخُدودِ اجِنَّة وثُغور تفترُّ عن أُقْحُوان ، فاصخْتُ له أُذني استمع كلامه ، حتى تحقّق عندي انه ابو سَلامة ، الذي لم يشتمِل على مثله دِيوَان ، ولما انتشر الطعام لدَينا وصَفّه طاهيه بين يدينا ، بعثنا اليـــه بخوَان ، وانتخبنا له ألطف رسُول ، وقلنا له قل هل لك سُول ، في منادمة هؤلاء الاخوان ، فبلَّغه هدِيّتنا ، وادّى إليه وصِيتنا ، فقال لستُ لِرُفقـــائي بِخوّانـــ ، ولا أتركُ الرَّيحان ، لِأُمٍّ غِيـــلان واختارُ الضَّرَاغِم على الغِزلان ، وابدِّلُ السِّلم بالحرب العَوانَ ، فرجع الرسول خائبـاً ، بشاب معه آيِبا ، وقد علا على وجهـــه هوَان ، فلما اخبرنا بخَبرِه الُمستَطرَف أيَّ استطراف ، قُلنا للشابِّ وكان من النُّخب الظِّراف ، ان اتيتَنا به فلك كذا وكذا حُلْوَان ، فذَهب واسرع ، حتى اتاه يَهرَع ، وتخنَّث عليه

تخنُّثَ الغَوَان ، فما لَبِثَ ان وقع في فَخِّه ، وسقط على مُخِّــه ، سُقُوطَ النَّشوان ، ولمـــا جاء بالمصيد ، قال هاَيت القَصيد ، لبَّى دعوَتي دُون لعلَّ ولَوَان[1] ، فشكَرْنا له الصُّنع ، وحبَوْناه دُونَ مَنْع ، ما استَوْجبَ من الحُلْوان ، ثم وثَب ودرَج ، وبَقِي في حرج ، فانشدَ غيْرَ مُتَوان :

صادَني ظبيٌ بِدَلٍّ وغَنج ... وبِطرفٍ ذي احوِرَار ودَعَج

ان خطا يحسُده الخطِّي أو ... يتجلَّى قلتَ من عَــدْنٍ خَرج

ان رنا يرنُو له القلبُ الى ... ما دَعا لبَّيْك من دُونِ حرج

قادني نحوَ بــلاءٍ ورَمى ... بزِمَامي من يَديـه ودَرج

قال الراوي : فقلت مستدعيا كلامه ، سُحِرت والله ابا سلامة ، وحيل بين العِير والنزوَان[2] ، فقال ايهِ يا ابنَ عبـــد الوارث ، حتى متَى تُعينُ اخاك الحارث[3] ، في تبديد شمل السّلوَان ، فقلتُ ليت شعري ألما فرقت اجمع ، ان دعوت الغلمان ، جاءوا اجمع ، فقال إي وَاللهِ ولا عُدْوان ، فدعوناهم لِنَادِينا ، فأجابوا مُنادِينا ، من دون ترَاخٍ ولا توان ، فاماط التَّرَح ، ولبس المرح ، واستحال سخطه لرضوان ، ورأى شابامنهم يجرُّ

١ — هو مخفف من لو أن .

٢ — مثل يضرب لعدم استطاعة الشيء مع الرغبة فيه .

٣ — يعني به الحارث بن همام راوية مقامات الحريري .

رِداءَ مِرْطِه ، ويعضُّ سالفاً له اخرجه من قُرْطه فاستحسنه وقال في الأوان :

قد عضَّ سالفَ شعره من بعد أنْ ابداه من قُرط تحيّر ناظره
خيطُ الظلام من الهلال بدا على قمَر وفي وَسَط الثُّريَّا آخِرُه

فاستحيى الفتى واطلق دلالَه ، فكاد أن يفارق هِلاله ، فقال ايضاً وما تَوَان :

وكأنَّ سالِفَ شَعره في قُرْطه افعى تُطِلُّ من الهلال بِرَاس
ويرُدُّها نشرُ الشُّعاع بخَده لما بدا كالشمس والنبراس

ثم قال كأنكم اضمرتم غِيبة ، وخالجت قلوبكم رِيبة باختياري الذُّكران على النِّسوان ، كلا والذي حَفَّ الجنةَ بالمكاره والنارَ بالشهوات ، ما دَنَّست وجهَ علمي بما ليس لي بِمُوَات ، ولكن طبعني على حبِّ الحسَان مَن سَوَّان ، فما لاح ذُو جمال ، الا استدعاني واستمال ، ولَوَاني وطوان وقد علقتُ بالنساء والولدان غيرَ ما مرّة ، وذقتُ من الهوى حلوَه ومُرّه ، ثمراتٍ مختلفات الالوان ، وغايةُ الامر إن ظفرتُ أن اطرب وامَرح ، وفي رياض المحاسن اسرَح ولا أغوى لِلشَّيطان ان أغوَان :

اذا ما ظفرتُ بوَصل حبيب وزَار على غفلةٍ لِلرَّقيب
تعفَّفتُ عنه ولا مَانِع سوى ان ربِّي عليَّ رقيب

فقلنا يا مُجرِّب حبَّ الولدان والنساء (فَهْو به في كلِّ حُكمٍ ذُو انتسَاء) ايُّما افضلُ حبُّ المُرد أم الغوان ، فأنشد ، وارشد ، لفضِيلة النسوان:

حبُّ النساء شَاع في البَراري كما جرى المثـــلُ في الاقطار
وحُسنُهنَّ طـائلُ الاعمار وغــيرُ مُسرِع الى بَوار
والشمسُ أثبتُ من الأقمار في سَيْرها في الفلك الدوار
لاكنَّهُن داعي افتقـــار بالصَّرْف للدرهم والدينـــار
وقلَّما يَسْلَمْن من إكْثَار

ثم قال ، وما استقال ، ولا تحرَّك منه عُضْوان :

حبُّ الذكور ذاعَ في الامصار كما فشَا الإيمـــانُ في الأنصار
وحُسنهم اوفَقُ للنظّـــار وغيرُ مُحتـاج الى انتظار
والبدرُ لا حرَج فيه جــار والشمسُ بالعكس لدَى الأنظار
لاكنَّهُم اجلبُ لاحتقـــار الى ذَوي الاخطار والاقدار
وقلّما يسلون عن إكثار

ولما نشر علينا احاديثه الاصمعية المنبئةَ عمَّا له من الألمعية ، وظاهِرُ الامر على باطنه عنوان ، نشرنا عليه من التُّحف والملابس ، ما لم يكن لخاطره مُلابس ، حتى احتاج في طَيِّه لِعَوَّان ، فقال شكرَ الله احسانكم إليَّ ، وتفضَّل عليكم كما تفضلتم عليّ ، بتجدُّد النعم تجــدد الملوَان ، وليست الدنيا بفاخِرة ، الا اذا كانت مَطيَّــــة للآخِرةَ ، « وانَّ الدارَ لآخرَةَ لهيَ الحيَوان » وإنَّ من تمام الإكرام ، وليس فيـــه إبرام ، ان

تتكفّلوا لي بهذا الرّهوان[١] ، واشارَ إلى رَهوَان صائد ، فاكتريناه منـــه بالزّائد ، وقُلنا نحن له صُوّان وحيثُ تهيّأ المسير ، سار معنا حيث نسير ، حتى اذا دخلنا المدينة فقدنا الخوّان ولم نَجد مَن يُخبرنا عن مَسالِكه ، والزمنا الشرعُ غَرْم الرّهوانِ لِمالِكهِ ، وطارتْ فعلتهُ بنَا في أرجاءِ تطوان .

١ – هو البرذون .



مقامة

للوزير ابن إدريس

حدثنا الفتحُ بن سَلامة ، عن نصْر بن كرامة ، قال أَلْحفني السعدُ بُرده ، واتحفني بحلوِ عيشه وبَرْده ، وبوّأني مِن حِمَى الخلافة العلوية العليَّة ظِلالا ، وأعلق كفِّي من خدمة الحضرة المولَوِية العبدِ الرّحمانية حِبَالا في دوْلة عَلَوية اعلى العَلاءُ أعلامها ، وحمى الإلاه حِمَاها ، عقَد السعود على التناصر عقدها وذِمَامها واليمن قد واخاها ، فبلغت بطلعتها امنَها ومَرامها ، وتوصلت لِمناها ، وبنى الايمة من قُرَيش مجدها ومَقامها ، بين الوَرى وعُلاها ، حَمَوا الشريعةَ بالسيوف واوضحوا اعلامَها ، وتنوّروا بسنَاها فكنتُ منتظما في سلك كتَّابها ، ومعهوداً في خدمة اعتابِها وصحبت ركاب مولانا العلّيّ العلوي ، وجيشه المنصور المولوي ، في احدى قدَماته من الحوز ، في سفَر اسفَر طالعُه عن وجه الظفر والفوز :

في عسْكَر مَلأ القلوب مهابةً والارضَ خيْلا بالعَوارِفِ يفْهَق
للفَتْح والتمكين فيه دلائلٌ وعليه أَلوِيَةُ السعادة تخْفُق

نَهَضَ لها أيده الله غُرَّة ذي الحجة مُتِمَّ عام (ناشِر)[1] والسَّعدُ

١ — نقطة بحساب الجمل ١٢٥١ .

لمعهود العِنـــاية ناشِر ، والرُّعب يهدم جنودَه ، والسعد ينشُر ألويته وبُنُوده ، والنصر تحت ظلال اعلامه وحفظُ الله من خلْفه وأَمامه :

والدهرُ معتدِلُ الآناء مُقتَبِـــل والشمس حلّت ببُرج السَّعد والشرف

ومطارِفُ السُّندُس بالآفاق قد نُشِرت ، وجُيوش النَّوْر حُشِدت ألوانُها وحُشِرت ،

والارضُ تُجلَى عروساً في ملابِسها وشَّت حُلاها يدُ الانواء بالزَّهر

والنسيم قد عطَّر بنشرِه الأَنديَة ، وغازَل الاغصانَ فنازعها المطَارِفَ والأَرْدِية ، وجرَّ ذيلَ دَلالِه في الآكَام والأَوْدِية :

والرِّيح تَلطِم فيه أَردافَ الرُّبى مَرحاً وتَلْثُم اوْجُهَ الأزهار

ومنابِرُ الاغصان قد قامَت بهـــا خُطباءُ مُفْصِحةٌ من الأطيـــار

وأَلسُن الحـــال تَهْدي الى التفكُّر في مصنوعات الله وتُرشِد ، وكأنَّها تتمثَّل بقول أبي نواس وتُنشِد :

تأَمَّلْ في نَباتِ الأَرض وانظُرْ بَدائِعَ ما بهـــا صنَع المليكُ
عيُونٌ من لُجَيْن شاخِصَاتٌ على أَطْرافِهـــا الذَّهبُ السَّبيكُ
على قُضُب الزَّبَرْجَد شاهـدَاتٌ بأَنَّ الله ليس لـــه شريكُ

والناظِرُ الأَديب المتأمل ، ينشِدُ قول المُجنِّس المُمَثّل :

ان هذا الربيعَ شيءٌ عجيب تضحَكُ الأرض من بُكاء السماء
ذَهبٌ حيثما ذَهبنا ودُرٌّ حيثُ دُرْنا وفِضَّة في الفضاء

والجيشُ المنصور بحرٌ مُتلاطِمُ الامواج ، يسيرُ فيملأُ الفضاء ويُغِصُّ الفِجاج، ويُقيم فيكون هالةً على بَدْر سُعود وشرَف، وسُورَ حِفْظ لَا يُعْرَفُ له طرَف، قد رُصّت صفوفُه ، وتعدَّدت أُلوفُه ، وتنوَّعت اجناسه وصُنوفه :

مِن كُلّ ابيضَ قد تقلَّد ابيضاً عضْباً واسمرَ قد تقلَّد اسمرا

والخيلُ تمرح في أَعِنَّتها ، وتمضي في الُخيلاء على سُنَّتها ، قد حلِيَت من الاسلحة بما راق وراع ، واعجزَ وصفه أَلسُنَ اللُّسْن وأَسَلَة اليَراع !

مُؤَصَّلة من ذِي العقال ودَاحِسٍ وآلِ الوَجيه والنَّعامة والخَيْفا

فمن أَشهب لبِسَ النُّورَ رِداء ، وسابقَ البرْقَ عِدَاء :

فكأنَّه في حَلْيِه وسِلاحه صبحٌ تقلَّد حِلْيَةَ الجَوْزاء

ومِن أَدْهم خلع الليل عليه إهابَه، واثبتَ بين عيْنيه شِهَابه :

فكأنما لطَم الصباحُ جبينَه فاقْتَصَّ مِنْه فخاضَ في أَحشائه

واحمرَ فأَمّا وصفُه فطَهَّم عتيق ، واما لونُه فعقيق ، واصفرَ كأنَّما

صِيغَ من ذَهب ، او خُلِق من لهب :

أَلقى الاصيلُ عليه من نَضارته ... غِلالةً وَشت الظلما حَواشِيها

ومن ازرقَ قد تسربل حُلَّةَ السماء وتحلى بالنجوم ، او رَامَ اِستِرَاقَ السمع فرمته بشُهْب الرُّجوم :

عطايا امير المؤمنين وبِرُّه ... باجناده والبِرُّ بالجند يحمَد

مليك حليفاه التوكُّل والرضا ... واوصافُه علم وحلم وسُؤْدَد

يصاحِبُه أمنٌ ويُمن ورحمة ... ويَعضُده فتح ونصر مجدد

فتى المجد امَّا هديُه فموَفَّق ... رَشيد وامَّا رأيُه فمسَدّد

به الدينُ سامٍ والشريعة غضَّة ... تروق وركنُ المجد عالٍ مشيَّد

وان له في مَقصد الحكم حِكمةً ... يَحُلُّ بها في الله طوراً ويعقد

فلا زال محمودَ المساعي مُؤيّدا ... يغُور ثَناه في البلاد ويُنجِد

فسرنا تحتَ ظلال العدل والأمن ، نستجلي كلَّ حين من غُرَّته الميمونة طالِعَ الفتح واليُمن ، ونَرفُل في أرْدِية المعالي الضافِية ، ونكْرَعُ في بحار الجودِ الصافية ، ونتمسَّك من النُّجح بالعهود الوافية ، ونَرتع في روض الأمان والعافية :

وقد بدتْ لنا وجوه الهدى ... مُسفِرةً ولاحَ نُور الفَلاح

فلما خيَّمْنا بشاطىء وَادي العبيد ، قابَلنا بوَجه الجبَّار العنيد ، وأبدَى مِن مَدهِّ آيةَ الإعجاز ، وقال بلسان حاله لا مَجازَ لا مجاز ، واستعان مِنْ ثَلْج الجبال بالمُذاب ، فارانا بحراً طامِيَ العُباب :

نهرٌ يُرِيك السهمَ سُرعَةُ جَرْيِه والبحرَ عُمْقاً والشفيرَ سعِيرا
فلْيُسْلِمِ النفسَ المُرِيدُ عبُورَه ان لم يكُن لطفُ الإله ظَهِيرا

فأحجَم عن عُبوره القوم ، واستبْشَر بالزَّبُون العارفُ بالسِّباحة والعَوْم ، وبات الناس في الآراء يترَدَّدون ، ولقِصَص الناجين والغَرْقَى يُعدِّدون ، وقُصارى أُمْنيةِ كلِّ واحد عبُورُ ذلك الصراط ، والانتظامُ في سلك الناجين والانخِراط ، حتَّى أنشد بعضُهم واستحْسَن ، وتمَنَّى ما تمنَّى الحَسن[1] :

ألا ليتَ شِعْري هل أَبِيتَنَّ ليلةً بسَهْبِ الثَّنِيِن أو بسَهْبِ بني وَرا
وهل تعبُرَنْ نهرَ العبيد رَكائِبي وهل أترُكَنْ دَايَا وأدواءَها وَرا

فلما تبلَّج أدْهَمُ الليل عن أشْهَب الصباح ، وَحيْعَلَ الداعي بحيَّ على الفلاح ، وتولَّت نجومُ الليل تقفُو إثْرَه ، وغدت سيوف ذُكاءَ تخْرِق سِترَه ، وأدَّى الناسُ النفلَ والفرْض ، وأشرقَت بنُور رَبِّها الارض :

---

١ – يريد به الحسن اليوسي الشهير .

ولاحت لنا شمسُ الغَداة كغَادةٍ بدا حاجبٌ منها وضنَّتْ بحاجب

صدر الأذنُ المولويُّ بالعُبور ، وقُــدِّم له الصَّبُور فالصبور ، وجعلَ فاتحةَ ذلك نجلَه الأسعَد ، وفرْعه الأنجَب الأصعَد ، سيدَنا ومولانا مُحمَّد ، تفاؤلاً لتَستَحسن العاقبة وتُحمَد ، وكانــ قـد تقدَّم الأمر المُطاع بإعداد المعَادي[1] للاعانة على عُبور ذلك العدو العَادِي ، فلم يكُن إلّا أن عبَر الأولُ مُكْتَفِيا بالمُخْتَصر عن المُطوَّل ، وظهَر من لطف الله وسعادة مولانا ما عليه المعَوَّل ، وحمدَ الناسُ اللهَ على ما سهَّل من ذلك وخـــوَّل ، تتابع العُبور على الريح والأعــوَاد ، معَ سلامة الأنفُس والأزوَاد ، وشاهَد الناسُ لجيش مولانا المحْتمِي ، شِبْهَ ما ظهر من الكرامة لعبد الله بن الحضْرَمي ، ولا غرْوَ أنــ يُعطَى التابع حُكمَ المتبوع ، ويظهَر للعيان حقيقةُ مـــا هُو مَرْوِي ومسموع ، ولله قـوم يُسعِدُهم ويُسعِدُ بهم ، ويُظهِر عنايتَه على من تعلَّق بسببهم :

واذا السَّعادةُ لاحظَتك عيُونُها نَمْ فالمخَاوِفُ كلُّهنَّ أمان
واصْطَد بها العَنقاءَ فهي حِبَالة واقْتَد بهـــا الجوْزَاء فهي عِنَان

ولمَّا خيَّمت الجموعُ بالعُدْوَة الاخرى ، ورأوا السلامةَ غَنيمـــةً

---

١ — هي القناطر الخشبية المتحركة .

وذُخرا ، وعايَن الناسُ ما تعوَّدُوه مـــع أمير المؤمنين من النجاة والسعود ، والفوز المشهور المشهود ، والتيسير المعلوم المعهود ، هنـــأ بالسلامة بعضُهم بعضاً ، وجعلوا ذلك بينهم سُنَّةً وفرضاً ، فـــلا تلْقَى غيرَ حامد وشاكر ، ومُقِرّ بنِعَم الله ذاكِر ، واتَّسع لديهم المجال ، في الرَّوِيَّة والارتجـــال ، فمن ناظم وناثر ، ومُقصِّر ومُكاثِر ، ومن قائل :

أرى نَهْرَ العبيد غدا عَنيدا   يُعامِلنا بجَوْر واشْتطاط
عبَرْناه على خَطَر وخَوْف   على غيْر اختِيار واحْتِياط
وذَلَّله الإلهُ لنا فسِرْنا   من الرِّيح المُسخَّر في بِساط
يُهنِّيءُ بالعُبور البعضُ بعضاً   كأنَّا قد عَبرنا على الصراط

ومن مُتمثل في عُبور الوادي ، على المعَادي :

لئِن كُنَّا ركِبْناها ضَلالاً   فيَا للهِ إنــا تائبونا
فأخرِجْنا [illegible]رغوب منها   (فانْ عُدنْا فإنَّا ظالِمُونا)

ومن مُنشِد ، وإلى لُطفِ الله مُرْشِد :

عبَرْتُ نهرَ العبيد قهْراً   على بساط من الهـــواء

ولما حَمِد الناسُ الإيرادَ والإصدار ، واستقرَّت بهم بعد العُبور الدار ، شكَرُوا على فضلِ الله إمامَهم ، وجعلوا القبيلةَ التَّادِليَّة أمامهم ،

المُحاضَرات

خير العلم ما حوضر به

شجاعة ادريس الازهر

حدَّث داودُ بنُ القاسم بن عبد الله بن جعفر الأوْرَبي ، قال : شهدتُ مع ادريس بن ادريس بعض غزَواته للخوارج الصُّفْرِيَّة من البرْبَر ، فلقِيناهم وهم ثلاثةُ أضعافِنا ، فلما تقارب الجمعان ترَّجل ادريس فتوضَّأ وصلّى ركعتين ودعا الله تعالى ، ثم ركِبَ فرسه وتقدم للقتال ، فقاتلناهم قتالاً شديداً ، فكان ادريس يضرِب في هذا الجانب مرة ، ثم يكُرُّ في الجانب الآخر ، فلم يزل كذلك حتى ارتفع النهار ، فرجع الى رَايتِه فوقف بإزائها والناس يقاتلون بين يديه ، فطفِقْتُ أنظر اليه وأُدِيم الالتفاتَ نحوَه ، وهو تحت ظلال البنود ، يحرض الناس ويشجعهم ، فأعجبني ما رأيت من شجاعته وقوة بأسه ، فالتفتَ نحوي فقال : يا داود مالي أراك تديم النظر إليَّ ، قلتُ أيها الامام انه أعجبني منك خِصالٌ لم أرها في غيرك . قال : وما هي يا داود . قلت أولها ما أراه من حسنك وجمالك وثبات قلبك ، ومن طَلَاقة وجْهِك وما خُصِصْتَ به من البِشْر عند لقاء عدوك ، قال : ذلك

بركةُ جدنا رسول الله صلى عليه وسلم ودعائِه لنـــا وصلاتِه علينا وإراثةُ أبينا عــليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكرَّم وجهَه . قلت أيها الإمام أراكَ تبصُق بُصاقاً مجتمعاً وأنا أطلب الرِّيق في فَمِي فــلا أجِدهُ ، قال : يا داود ذلك لاجتماع عقلي وثبات جأشي وعدَمُ الرِّيق من فِيك لطيش لُبِّك وافتراق عقْلِك ، ولمــا خامرَكَ من الرُّعب . قال : فقلت أيها الإمام وأنا أيضاً أتعجب من كثرة تقلُّبك في سَرْجِك وقلة قَرارِكَ في موضعك . قال ذلك مني زَعْمٌ للقتال وعزْمٌ وصرامة وهو احسن في الحرب فلا تظنَّه رُعباً ، ثم أنشأ يقول :

أليسَ أبُونا هـــاشِمٌ شدَّ أَزْرَه وأوْصى بَنِيه بالطِّعان وبالضَّرْب
فلَسْنا نمُلُّ الحربَ حتى تمُلَّنا ولا نشْتكي ممَّا يؤول الى النَّصْب
ولكنَّنا أهـلُ الحفائِظ والنُّهى اذا طارَ أرواحُ الكُمَاة من الرُّعْب

الحسَن الحجّام

كان بين الحسن بن مُحمد بن القاسم بن ادريس من ملوك الادارسة وبين عمِّه احمـــد بن القاسم حروب شديدة ومُنازَعات على الُحكْم ، فَحمَل الحسنُ ذاتَ يومٍ في قتال على فارس من جند عمه ، فطعَنه في المحَاجِم ، ثم فعــل ذلك بثانٍ وثالث ، كلُّ ذلك لا يطعنُهم إلا في

مَوْضِع المحاجم . فقال أحمدُ عمُّه : إنما ابن أخي حجّام ، فَلزِمَه هذا اللقبُ ، وقال فيه الشاعر :

وسُمِّيتَ حجّاماً ولستَ بحاجم ولكن لِطَعْن في مكَان المحاجِم

محاسن الزهد والورع

لما تُوفِّيَ والدُ الشيخ علي بن حِرْزهم ورِثه هو واخوه ابو القاسم فاتفقا على قَسْمِ التَّرِكة بينهما بدون تدخل احد من الناس . وقام عليٌّ الى وِردِه من الليل فجـال خاطرُه في التركة وجعل يفكِّر ما يأخذه منها لنفسه وما يترك لأخيه حتى لم يدرِ ما صلى . فلمـا أصبح بعَث لأخيه أبي القاسم ، وقـال له : أحضِر الشهود حتى أتصدَّقَ عليك بمِيرَاثي في أبي ، فقال له لا تفعل ، فقال له لئن لم تقبل لأتصدقَنَّ به على الجذْمى ، فلما رأى ذلك منه احضَر البيِّنَة وقبِله .

وكان عبد الرحمن بن عاشَ فقيهاً مُتورّعاً من اهل فاس ، باع فُندُقاً من بعض قَرابته وتصدَّق بثمنه ، فمـات المشتري فورِثه منه فباعـه وتصدَّق بثمنه ايضاً ، ولم يشأ ان يقبِضَ عنده ما كان تصدق به .

وزَرع فدّاناً بباب عَجيسة وحصَده ودرَسه ، وكان العام شديداً

فجاءه الناظر عليه ، فقال اخرُج الى زرعك حتى تكْتَالَه ، فقال غداً الجمعة لا اقدر على الخروج ، فقال له ان تركته نُهب ، لأن الناس في حاجة شديدة والموضعُ قريب تُدرك منه الجمعةَ ، فخرج غُدْوةً واشتغل في كَيْلِه ونَقْلِه وأتى المدينة فوجد الناسَ قد انصرفوا من الصلاة ، فتصدّق بالطعام الذي وجد في ذلك الفدان وحبّس الفدانَ على المساكين . وكان للشيخ ابي القاسم بن خَنُّوشة بُسْتان وأُعطِيَ في فاكهته سَوْماً ، فقال للمشتري : اترُكْني هذه الليلة حتى أرى رأيي ، أما ان أنفّذَ لك البيع او أرُدَّه . فلما كان من الغد جاء من أعطاه في البُسْتان ستين ديناراً او أكثر زيادةً على القيمة الأولى ، فبعث الشيخ أبو القاسم للمشتري الأول ، وقال له أعطِيتُ في البُستان زيادة ، فان أردتَ ان تُمسِك بُستَانك بالثمن الأول فافْعَل وان أردتَ ان تأخُذَ الزيادة فهي لك لأني البارحةَ أنفَذْتُ لك البيع بقلبي بالسَّوْمِ الذي أعطيتَني فأخذ المشتري الزيادةَ التي زاد المشتري الثاني ولم يأخذ الشيخُ إلا الثمنَ الأول .

وكان الشيخ صالح بن حِرْزِهم فقيهاً وَرِعاً وهو عمُّ الشيخ علي ابن حرزهم ، رحل الى المشرق فانقطع مدة بالشام ، وفي قَرْيةٍ ببَيْت المقدس قُدِّمَ للصلاة فَبقيَ هنالك حتى نزَل عليه يوماً أبو حامد الغزالي مع أصحابه وكان في المسجد عَريشُ عِنَب قد ظهر فيه الحِصْرِم ، فقال أصحاب أبي حامد اشتَهيْنا حِصْرِماً ، فقال لهم سلوا

إمامَ المسجد على مَن حُبِّس عِنَبُه ؟ فسألوا الشيخ صالحاً فقال لا أدري على من حُبِّس ولا تعرَّضتُ له ولا أكلتُ منه قط ، فأخبروا أبا حامد بما قال ، فقال هذا مغربي له أعوام في هذا المسجد لم يتعرَّض له قطّ وانتم من ساعة واحدة لم تملِكُوا نفوسَكم .

ودعا السلطان ابو الحسن المريني فُقهاءَ الحضرة الفاسية الى وَلِيمَة وما فيهم إلا ذُو صلاح ودِين ، فمنهم مَن قال إني صائم ، ومنهم من أكَل وقلَّل ، ومنهم من أكل الغَلَّات فقط ، ومنهم من شمَّر للأكل عن ساعدَيْه ، ومنهم من قال : هاتُوا من طعام الأمير على وجْه البرَكة ، فإنِّي لا أقدر أن آكلَ الآن ، فسألهم الشيخ أبو ابراهيم الاعرج عن ذلك فقال الاولُ طعامُ شُبْهَة تستَّرتُ منه بالصوم وقال الثاني كنتُ آكل بمقدار ما اتصدَّق لانه مجهُول الأرباب والمُباشِر كالغاصِب وقال الثالث اعتمدتُ القولَ بان الغلاَّتِ للغاصب اذ الخراجُ بالضمان وقال الرابع طعامٌ مُستَهْلك ترتَّبت القيمةُ في ذِمَّة مُستهلكه فحلَّ تَناوُله وقدمكَّنني منه فحلَّ لي وقال الخامس طعام مُستحقّ للمساكين قَدْرتُ على استخلاصه فاستخلصته واوصلته اليهم ، وكان قد تصدَّق بما اخذ .

تحرّي القاضي ابن محسود للعَدالة

كان ابو محمد بن محسود الهوّاري من أهل الفضل والدّين وكان من أهل فاس قاضياً بها فنزل به ضيف فرَهن َغزْلَ امرأته في َسمن يأْتَدِمُ به الضيف فاذا ذلك السمنُ ُمرٌّ لا ُيطاق أكله فبينما ابن محسود في مجلسه اذ نظر السَّمانَ ُمقْبِلاً اليه مع خصمه فقام وأَمر من حضر أن يحكم بينهما فلما عاد الى مجلسه اخبرهم بان ذلك السَّمان قد كان اعطاه سمنا ُمرّا وقال خشيتُ ِمن اجل ذلك ان لا اسمع منه كما أسمعُ من خصمه فكرهتُ الحكم بينهما .

مُلَحُ أهل التصوف

بعث أبو زيد الَهزْميري الى أبي عمران الشولي وكان كثيرَ الصلاة إِنَّه لم يبقَ بينك وبين الله حجابُ الا الرُّكَيْعات فَرَجع اليه أن الاتِّصالَ كان منها فلا كان الانفصالُ عنها .

ودخل ابو عبدالله المقَّري على عبد الرحمن بن عفَّان الُجزُولي وهو يجود بنفسه وكان رآه قبل ذلك ُمعافىً فسأله عن السبب فأخبره انه َخرج الى لِقَاء السلطان ابي الحسن المريني فسقَط عن دابَّته فتضعضعتْ أركانه فقال ما حملك ان تَتكلَّف هذا في ارتفاع سنِّك فقال حبُّ الرِّيَاسة آخرُ ما يَخرُج من قلوب الصدّيقين. وُسُئِلَ ابنُ شاطِر المرَّاكشي

عن معنى قولِ ابن الفارض :

فَلَمْ أَلْهُ بِاللَّاهُوتِ عن حُكْمِ مَظْهَرِي وَلَمْ أُنسَ بالنَّاسُوتِ مَوْضِعَ حِكْمتي

فقال : يقول ما انا بِالْحَلَّاج ولا بِبَلْعام .

وكان ابنُ شاطر هذا ممن صحِب ابا زيد الهزْمِيري وابنَ البنَّاء ورُزِق بمخالطة الاولياء حلاوةَ القبول فلا تكاد تجد من يستثقله وربما سئل عن نفسه فيقول وَليٌّ مَفْسود .

وأعطاه السلطان ابو عِنَان المريني الفَ دينار ليحج بها فمرَّ على تلمسان فصار يدفع منها شيئاً فشيئاً للمتفرِّجين بغدير الوريط شَرْقِيَّ عُبَّاد الى ان نفِدَت فلما ورَد ابو عنان تلمسان لقِيَه بسُوق العطَّارين من منشَر الجلد فقال له ابو عبد الله حَجٌّ مبرور فقال له اذا جهلتَ اصلَ المال فانظر مَصارِفَه ويأبى الله الا ان يُنفق الخبيثُ في مثله فضحك السلطان .

ودخل الأبِلي وهو عالم تلمسان على تلميذه ابي القاسم الفخَّار السَّلوي وهو يعجن طِينَ الفخَّارة فقال له ما علامة قبول هذه المادَّة أكملَ صورة تَرِدُ عليها فقال أن تدفع عن نفسها ما هو من غير جِنْسها من حَجَر أو زِبْل أو غيره فأدركه وَجْدٌ عظيم حتى انه صاح وقام وقعد وبقي هُنيئةً مُطرِقاً برأسه مُفكِّراً ثم قال هكذا هي النفوس البشرية .

وكلٌّ ناطقة في الكون تطربُني

قِيلَ لأبي عليّ الحرّالي المراكشي كيف أصبحتَ فأنشد :

أصبحتُ ألطفَ من مَرّ النسيم اذا
سرى على الرَّوْض ، كادَ الوَهمُ يؤلِمُني
مِن كل معنىً لطيف أجتَلي قدحاً
وكلّ ناطقةٍ في الكَوْن تطرِبُني

وكان بعض تلامذته مُولَعاً بالشراب فعكف ليلةً على الشرب حتى سقط على زجاجة فجرح في وجهه فلما أصبح صارَ الى الشيخ وأثرُ الزُّجاجة ظاهِرٌ عليه فأنشدَه :

لا تسفِكَنَّ دمَ الزُّجاجة بعدَها إنَّ الجروحَ كما عَلِمْتَ قِصاصُ

فخجل التلميذُ وكان ذلك سبَب توْبته .

وكان ابو عبدالله بن ابي بكر الدلائي يُنصتُ لِلسَّماع في آخر عمره ويتأثَّر به فانتهى ذلك لابي العباس ابنِ القاضي فكتب له :

عهِدتُك ما تصبُو وفيك شبيبَةٌ فمالَك بعد الشَّيب اصبحتَ صابيا

فأجابه :

نعَم لاح بَرْق الحسْن فاختطف الحشا فلبَّيْتُه من بعدِ ما كنتُ آبيا

هِمّةُ عالم

كان الفقيه ابو العباس الحَبّاك المكناسي خطيباً بالقَرَوِيّين فعُزِلَ هو والفقيه القَوْرِي القاضي في يوم واحد ، ثم طُلِبَ بعد ذلك لخُطبة جامع الأندلس فابى وقال إن كان عَزلي بجُرحة فلا يحلُّ لكم تقديمي وان كان عن غير جُرحة فقَبُولي من قِلّة الهِمّة .

عالم ابنُ دَلاّل

قال ابو البَركات ابنُ الحاجّ : كنتُ ببجاية وقدِمَ علينا رجلٌ من فاس برَسْم الحج ، يُعرف بابن الحدّاد ، فرَكِبَ الناس في الأخذ عنه والروايةِ لما يَحمِلُه كلَّ صَعْب وذَلُول مع أنه لم تكُن منزِلَتُه هناك في العلم ، فعجِبْتُ لذلك حتى قلتُ لبعض الطَّلبة : لقد أخذتموه بكِلْتَا اليدَيْن ولم أرَكُم مع من هو أعلى قدراً منه كذلك ، فقالوا لي لأنه قدم علينا ونحنُ لا نَعرِفُه في زيّ حَسن بخادِم يخدُمه يظُنُّ مَن يراه ان أباه من أعيان أهل بلَدِه ، فسألناه أحيٌّ أبوه أم لا ؟ قال بل حيّ ، قلنا أهُو من أهل العلم ؟ قال لا هو دلّال في سُوق الخَدم فلذلك آثَرْناه على من هو فَوْقه في العلم ، قال : فقلتُ لهم حُقَّ له أن ترتفِع منزِلتُه ويعلُوَ صِيتُه لتخلُّقه وفضْلِه .

حُسْنُ الجواب

حضَر يحيى بنُ الزَّيْتُوني يومـــاً بين يدي المعتمِد وعنده ابنُ زَيْدُون ، فكأنَّ هــذا استجْهَلَه وأراد أن يُخْجِله ، فقال له : أفاسٍ أنت يا أبا زَكرِياء ؟ يُوهِمُ أنه يسأله عــن بلَدِه ، وخبأ له فيهــا شيئاً ، ففهم ابنُ الزيتوني مُرادَه وأجــابه سريعا منْسُوبٌ اعزَّك الله فَلجَّ ابنُ زيدون في أذاه فقال نِعْمَ الفتى ابُو زكرياء ففهِمَ ابنُ الزَّيتوني انه يريد يعمُّ الفَسْيُ ابا زكرياء فصدمه بمثله ورَماه بشكله فقال له عَبْدُكَ اعزَّك الله يُريدُ عِندَك أي يعمني عندك — لا عند غيرك من الفُضلاء ولما اجابَه الجوابَ المذكور خجل ابو الوليد واستخفَّ الطرَبُ جميعَ مَن حضر . وحضر القاضي المَليلي وعبدُ المهيمن الحضرمي صاحب العلامة لِلسُّلطان أبي الحسن المريني مجلَس السلطان فجرَى ذكرُ الفقيه ابن عبد الرزاق فقال المليلي جمع من الفنون كذا حتى وَضع يدَه على عبد المهيمن وقال للسلطان مُخاطِبا : ويكتب لك احسنَ من ذَا فوضع عبدُ المهيمن يَده على المليلي وقال نعم يا مولاي ويقضي لك احسنَ من ذا .

وحدثَ المقَّري الكبير قال : نظرتُ يومــاً مع ابراهيم بن حكم الكِنَاني السَّلَويّ في تكْمِلة بدْر الدين ابن مالك لِشَرْح التسهيل لابيــه ففضَّلتُ عليه كلامَ ابيه ونازَعني ابنُ حكم فقلت :

عهودٌ من الآباء توارَثها الأبناء فما رأيتُ بأسرعَ من ان قال : بنوا مجدَها لكن بنُوهم لها أبنىَ ، فبُهِتُّ من العجب .

ولما أوقع السلطان مولاي رشيد بأهل الدّلاء كان ابو عبد الله المُرابِط منهم ممن اختصه لنفسه فكان يتردّد اليه مع العلماء على كراهية منه وفهِمَ السلطان ذلك منه فانشده في بعض الايام :

ومِنْ نكَد الدنيا على الُحرّ أن يَرى عدُوّاً له ما من صَداقَتِه بُدّ

ففطنَ المُرابِط وقال على البديهة اصلَح الله الامير وإنّ من سعادة المرء ان يكون عدوّه عاقلا فاستحسَن السلطانُ والحاضرون بديهته وحسن جوابه .

بين عبد المؤمن ووزيره

خرج عبد المؤمن يوماً مع وزيره ابي جعفر بن عطية مُتَنزّهاً الى بعض بساتين مراكش فمرّ في طريقه بشارع من شوارع المدينة فاذا بطاق في دار عليه شُبّاكُ خشَب قد قابله منه وجهُ جارية كأنه الشمس الضاحية قد بادرت الطاقَ تنظُر اليه فنظر اليها عبد المؤمن فأعجبه حسنُها وحلّت من قلبه كلّ محل فقال ارتجالا :

قدَّت فُؤادِي من الشبَّاكِ اذ نظرتْ

فقال ابو جعفر :

حَوْراءُ ترنُو الى العشَّاق بالْمُقَل

فقال عبد المؤمن :

كأنَّما لحظُها في قلب عاشِقِها

فقال ابو جعفر :

سيْفُ المؤيَّد عبدِ المؤمن بنِ علي

وقال ابو جعفر : دخلتُ على عبد المؤمن وهو في بستان له قد أينعَت ثِمارُه ، وتفتَّحت ازهارُه ، وتجاوبتْ على اغصانها اطيارُه ، وتكامل من كل جهةٍ حُسْنُه وهو قاعد في قُبَّة مُشْرِفة على البُسْتان ، فسلمتُ وجلستُ وجعلت انظر يَمْنةً ويَسْرةً متعجّباً مما أرى من حسن. ذلك البستان فقال لي : يا ابا جعفر أراك كثيرَ النظر الى هذا البستان قلتُ : يُطِيلُ الله بقاءَ امير المؤمنين والله ان هذا لَمنظَرٌ حسَن فقال يا أبا جعفر المنظرُ الحسن هذا ؟ قلتُ نعم فسكَت عني فلمَّا كان بعد يومين او ثلاثةٍ أمرَ بعَرْض العسكر آخذِي أسلحتِهم وجلس في مكان مُطِلّ وجعلت العسكرُ تمرُّ عليه قبيلةً بعد قبيلةٍ وكتيبةً إِثْرَ كتيبةٍ لا تمرُّ كتيبةٌ إِلا والتي بعدَها أحسنُ منها جودةَ سلاح وفَراهةَ خَيْل وظُهورَ قُوَّة فلما رأى ذلك التفتَ إِليّ وقال يا أبا جعفر هذا هو المنظر الحسن لا ثِمارُك وأشجارك .

اعاقبه بالحلم

حضر ابو العباس الجرّاوي الشاعرُ والطبيبُ سعيد الغُماري يوماً بباب السلطان يوسف بن عبد المؤمن فقال السلطان لبعض خدَمه انظر مَن بالباب من الأصحاب فخرج الخادم الى الباب ثم عاد اليه فقال احمد الجراوي وسعيد الغماري. فقال يوسف من عجائب الدنيا شاعرٌ من جَروان وطبيبٌ من غُمارة فبلَغ ذلك الجرّاوي فقال « وضرَب لنا مَثلًا ونَسِي خَلْقَه » أعجبُ منهما والله خليفةٌ من كُومِيَة. فيقال ان السلطان لّما بلغَه ذلك قال أعاقِبُه بالحلم عنه والعفو ففيه تكذيبُه .

المنصور الموحدي والفيل

أتى قومٌ المنصور الموحدي بفِيل من السُّودان هديةً فأمر لهم بصِلة ولم يقبَلْه منهم وقال نحن لا نريد ان نكون اصحابَ الفيل .

سوءُ الفال

أهدَى يوسفُ بن تاشَفِين الى المعتمد بن عباد جارية مغنية قد نشأت بالعُدوة فخرج بها الى قصر الزّهرَاء على نَهْر اشبيلية وقعَد على الرّاح ، فغنّته الجارية بهذه الأبيات :

حمَلُوا قُلوبَ الأُسْدِ بين ضُلوعِهم ولَووْا عمائِمَهم على الأقْمار

وتقلّدوا يوم الوَغى هِنْدِيَّـــةً   أمضَى اذا انتُضِيَتْ من الأقْدَار
إن خوَّفوكَ لَقِيتَ كلَّ كَرِيهَةٍ   أو أمَّنُوك حلَلْتَ دَار قَرَار

فوقَع في نفسه أنها عرَّضتْ بساداتها فلم يمْلِك غضَبه ورَمي بها في النَّهر فهَلكت .

وكان الكاتب أبو بكر محمد بن نَصْر الأوْسي مُختصّا بالوزير ابي جعفر بن عطية فقال فيه :

أبا جعفرٍ نِلْتَ الذي نال جعفرٌ   ولا زلتَ بالعَلْيـــا تُسَرُّ وتُحْبَرُ
عليكَ لنا فضْلٌ وبِرٌ ونِعْمــة   ونحن علينـــا كلُّ مَدْحٍ يُحَبَّرُ

وكان ابو جعفر قد احسَّ من عبد المؤمن التغيُّرَ الذي افضى الى قتله . فلمَّا سمعَ هـــذا من أبي بكر تغيَّر وجهُه لأن جعفر بن يحيى كان آخر أمره الصَّلْبَ فكأنَّه نَعَى اليه نفْسَه .

وقفةٌ على الشعراء

قال ابنُ حبُوس دخلتُ مدينة شِلْب من بلاد الاندلس ولي يوم دخلتها ثلاثة أيام لم أطعَمْ فيها شيئاً ، فسألتُ عمن يُقصَد اليه فيهـــا فدلني بعض اهلهـــا على رجل يعرف بابن المِلْح ، فعمدت الى بعض

الوَّراقين فسَأَلتُه سَحَّاءَةً[١] ودَواة فاعطانِيها فكتبتُ أبياتاً امتدِحه بها وقصدتُ داره فاذا هو في الدِّهليز فسلمتُ عليه فرَّحب بي وردَّ عليَّ أحسنَ رد وتلقَّاني أحسنَ تلقّ وقال أحسِبُك غريباً ، قلتُ نعم فقال لي من أيِّ طبَقات الناس أنتَ ؟ فأخبرتُه أنِّي من أهل الأدب من الشعراء ثم أنشدتُه الأبيات التي قلتُ ، فوقعتْ منه أحسنَ موقِع ، فأدخلَني الى منزله وقدَّم إليَّ الطعام وجعل يحدثني فما رأيتُ أحسنَ مُحاضرةً منه ، فلما آن الانصراف خرج ثم عاد ومعه عبْدانِ يحمِلان صُنْدوقاً حتى وضعه بين يدَيّ ، ففتحته فأخرج منه سبعمائة دينار مُرابطيّة فدفَعها اليَّ وقال هذه لك ثم دفع الي صُرَّة فيها أربعون مثقالا وقال هذه من عندي فتعجبتُ من كلامه وأشكل عليَّ جدا وسألتُه من اين كانت هذه لي فقال لي سأحدِّثُك : اني اوقفتُ ارضاً من جملة مالي للشعراء غَلّتُها في كل سنة مائةُ دينار ومنذ سبْع سنين لم يأتني احدٌ لتوالي الفِتن التي دهمت البلاد فاجتمع هذا المال حتى سِيقَ لك واَّما هذه فمن حُرِّ مالي يعني الاربعين ديناراً فدخلت عليه جائعاً فقيراً وخرجتُ عنه شَبْعان غنيّاً .

---

١ — السَّحاءة ُقصاصة من الورق كالسير في عرض رأس الخنصر تلف على الكتاب بعد طيه ويلصق رأسها .

بين اميرين

كتب الاميرُ سليمانُ الموحّدي الى الامير ابي الحسن يومَ جُمعة :

اليومُ يومُ الجمعة   يومُ سرور ودَعه
وشملُنـــا مُفترق   فهـل ترى أن نَجمَعه

فاجابه بقوله :

اليـــومُ يومُ جمعة   وربُّنا قـــد رفَعَه
والشُّرْبُ فيه بِدعَةٌ   فهل ترى ان نَـــدعه

مُلَح نحوية

سُئل ابنُ البنَّاء العددي عن قوله تعالى « ان هـــذان لساحران » لِمَ لَمْ تَعمل إنّ في هذا فقال لما لم يُؤثِّر القولُ في المقول لم يؤثر العامل في المعمول فقيل له هذا لا ينهضُ جواباً فانه لا يلزمُ من بطلان قولهم بطلانُ عمل إن فقال ان هـــذا الجواب نَوّارةٌ لا تحتَمِل ان تُحكّ بـــين الأكُف .

وحدّث أبو القاسم الشاطبي قال لي الشيخ القاضي أبو القاسم الحسني يوماً وقد جرى ذكر حتى التي للابتـــداء وأنّ معناها التي يَقَعُ بعـــدها

الكلام سواءً كان ذلك متعلقا بما قبلها لم يتمّ دُونه أولا بل لا يكُون الأمر إلا كذلك ، قال وحدثني بعضُ الأصحاب أنه سمع رجلاً يصلي أشْفَاعَ رمضَان فقرأ من سورة الكهف الى قوله تعالى ثُمَّ اتَّبع سَبَباً ، فوَقف هناك وركَع وسجَد قال فظننتُ أنه نَسِيَ ما بعدُ ، ثمَّ ركَعَ وسجدَ حتى يتذكَّرَ بعد ذلك ويُعِيد أولَ الكلام ، فلما قام من السجود ابتدأ القراءة بقوله حتى إذا بلَغَ ، فلما أتمَّ الصلاةَ قلتُ له في ذلك فقال أليسَتْ حتى للابتداء ؟ قال القاضي الشريف فيجِبُ أن يُفهم أن الاصطلاح في حتى وفي غيرها من حروف الابتداء ما ذُكِر .

وجلس العلامة محمد الصَّغير الوَرْزَازي ذاتَ يوم حين اقامته بمصر مع جماعة من العلماء والأعيان وقُدِّمَ اليهم طعام فأخرج كلٌّ واحد منهم مِلْعَقَةً معَه وأخذَ يأكُل بها فأخذ هو يأكُل بِيَده وتركَ الملعقَة ، فقالوا له ما هذا يا شَيْخَ المغَاربة فأنشدَهُم متمثِّلا بقول ابن مالك في الألفية :

وفي اخْتِيَارٍ لا يَجِيءُ المنْفَصِل إذا تأَتَّى أَن يَجِيءَ المتَّصِلْ

وقيلَ ان هذه الحكاية وقعَتْ للمُرابِط الدِّلائي .

وجلس بعضُ الطلبة يوماً بين يدَي المنصور الذهبي فأنشَد هذَيْن البيتين :

زَمانِنـا كأَهلِه واهلُه كما تَرى
وسَيْرُهم كَسَيْرِه وسيْرُه الى وَرا

وخفَضَ زَمانِنا عند الإِنشاد فقـال له المنصور كيفَ خفضْت الزَّمـان ، فقـال الطالبُ واللهِ لأَخفِضَنَّه كما خفَضني ، فأعجَب ذلك المنصور .

ومات ابو العلامة الطّرُنْباطِي النَّحْوي فكان في المُعَزِّين له رجلٌ عاميّ جلسَ فقال يا رَسولُ الله برفع رسول ، فقـال له الطرُنْباطي لَحْنُكَ أشدُّ عليَّ من موتِ ابي .

من محاسن التصحيف

قال ابنُ قَطْرال المرَّاكُشي كنتُ بالمدينة إذْ أقبَل رافِضيٌّ بفَحْمة في يدِه فكتَب على جِدار هناك :

مَن كان يعْلَمُ ان اللهَ خـالِقُه فلا يُحِبَّ أَبا بكر ولا عُمَرا

قال فسِرْتُ اليها وجعلتُ مكان يحِبَّ يَسُبَّ فرَجع فوَجده كما اصلحتُ فجعَل يلْتفِتُ يميناً وشِمالاً كأنَّه يطلب مَن فعل ذلك ولم يتَّهِمْني ، فلما اعياه الأمر انصرف .

حديث اللظافة *

اصطحَب ابو اسحاق التلمساني ومالكُ بنُ المرحّل في مَسير فآوَاهما الليلُ الى مُشجَّر فسألا عن صاحِبه فدُلّا عليه فاستضافاه فأضافهما فبسَط قَطِيفةً بيضاء ثم عطَف عليها بخُبْز ولبَن وقال لهما استَعْمِلا من هذه اللَّظافَة حتى يحضُر عشَاؤكما وانصرَف فتحاورَا في اسم اللظافة لأيّ شيء هو منها حتى ناما فلم يرُعْ أبا اسحاق إلا مالكٌ يُوقِظه ويقول قد وجدتُ اللظافَة ، قال كيف ؟ قال ابعدتُ في طلبها بما لم يمُرَّ قط على مسمع هذا البدَوي فضلاً عن ان يراه ثم رجعتُ القَهقرى حتى وقعتُ على قول النابغة :

بِمُخَضَّب رَخصِ البنَان كأنَّه عنَمٌ يكَادُ من اللَّطافة يُعقَد

فسنَح لبالي أنه وَجد اللطافةَ وعليها مكتُوب بالخطّ الرقيق (اللّين) فجعل احدى النقطتَين للطَّاء فصارت اللطافة اللظَافة واللّين اللّبَن وان كان قد صحّف عَنم بِغَنم وظنَّ أن يعقد جُبن فقد قوِيَ عنده الوهم ، فقال أبو اسحاق ما خرجتَ عن صَوبه فلما جاء سألاه فأخبرَ أنها اللبن واستشهد بالبيت كما قال مالك .

---

* أنظر بحث العلوم اللغوية في العصر المريني أثناء الكلام على الحركة العلمية .

نجابة الأولاد

أمرَ المأمون الموحدي بقتل أشياخ الموحدين وأشرافهم فقُتِلوا عن آخرهم ولم يُبقِ منهم على احد ولم يُراعِ والداً ولا ولداً حتى أنه أتِي بولَد أختِه وهو صبي صغير ابنُ ثلاثَ عشرةَ سنةً ، وكان قد حفِظَ القرآن فلما قُدِّم ليُقتَلَ قال له يا أمير المؤمنين أعْفُ عني لثلاث قال وما هي ؟ قال صِغَر سِنِّي وقُرْب رَحِمي منك وحِفظي للكتاب العزيز فأعجبَه قُوة جأشِ الغلام وإقدامُه على الكلام في مثل ذلك المقام ، ثم نظَر الى القاضي المكيدي كالمستَشِير له ، فقال يا أمير المؤمنين « إنَّك ان تذَرْهم يُضِلُّوا عبادَك » الآية فقتَله .

وطُلِبَ الشيخ أبو اسحَق الغافقي لتأديب وَلدٍ لبعضِ رُوَّساءِ سبْتَة فقرأ معه كتاب الجُمَل للزَّجَاجي حتى اذا وَصل لقوله في حروفِ المُضارعة يَجْمَعُها قولُك « نَأْيتُ » قال له ذلك الوَلدُ يا سيدي ينْبَغي أن تُقدَّمَ الهمزةُ على النُّون لما في ذلك من حُسن اللفظ والمناسبَة ، أما حسنُ اللفظ فنأى معناه بَعُد وأنى معناه قَرُب والتفاؤُل بالقُرب حسن ، وأما المُناسبَةُ فهي أن يكون لكل واحد من هذه الأحرف ضِعْفُ ما قَبْله ، فان الهمزة لمعنى واحد ؛ للمتكلّم وحده ، والنون لِمَعنَيَين للمتكلم ومعه غيره أو المعظم نفسه ؛ فهو ضِعْفُ الهمزة ، والياء لأربع معان لِلغائِب والغائِبَين والغائِبين والغَائِبات نحو يقومُ

ويقُومان ويقُومُون ويَقُمْن فهي ضِعْفُ النون ، وأما التاء فهي ضِعْفُ الياء لثمان معان للمخاطَب والمخاطَبة والمخاطَبين والمخاطَبتَين والمخاطِبين والمخاطَبات نحو تَقُوم يا زيد وتقُومين يا هند وتقومان يا زيدان ويا هِندان وتَقُومون يا زيدون وتَقُمن يا هندات وللغائبة والغائبتَين نحو هند تقوم والهندان تقومان ، فلما سمع الشيخ هذا منه قال له : مِثلُك لا ينبغي أن يشغَل غيرَه بل غيرُه هو الذي يشغَله ولم يعُد للقراءة معه .

وكان القاضي محمد ابنُ ابي القاسم ابن سُودَة إماماً بالقرويين وكان يُؤَخّر صلاةَ الصبح تأخيراً مُفرطاً رحمةً بالضعفاء ، فحدَث ان سأل بعضُ المارَّة صبياً مُبَكِّراً الى الكُتَّاب هل يُدرِكُ صلاةَ الصبح بالقرويين فقال واللهِ لا يُمشَى لها إلا بالمِظَلَّة ، كِناية عن انها لا تُصلَّى إلا بقُرب طلوع الشمس .

وقال ابنُ الطيِّب العلمي كنتُ ماراً يوماً في جماعة من الأصحاب ووافق ذلك فصلَ الشتاء فمررنا بين الرياض والقُضُب عاريةٌ من أوراقها فقلت لهم على سبيل الاختبار أيُّكم يخبرني عن الغُصْن لأي شيء يتَعرَّى في البرد ويكتسي في الحر وكان القياس خلافَ ذلك فانقطعوا إلا ما كان من صاحبنا أبي العباس سيدي احمد الشريف فانه قال وهو يومئذ حدَث صغيرُ السِّن جداً إنما يتعرَّى في الشتاء لأن الناس أحوجُ الى

الشمس منهم الى الظل فلو اكتسى لكان حائلاً بينهم وبينها واكتسى في الصيف لأنهم أحوجُ الى الظل فلو تعرَّى لم يجدوا وقايةً من حر الشمس فهو يترك حقَّه في حق الناس ، قال وانت اذا تأملتَ قول الشاعر :

سألتُ الغصنَ لِمْ تعرَى شتاءً　　وفي وقتِ المصيف أراك كاسِ
فقال ليَ الربيعُ على قُدومٍ　　خلعْتُ على البشيرِ به لِباسي

عرفتَ فضْل ما بين الجوابين وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وقد نظَم معنى الشريف الكاتب أبو عبد الله بنُ سلمان من رجال الأنيس :

سألتُ قضيبَ البان لِمْ أنتَ تكْتسِي　　مَصيفاً وتعْرَى في الشتاء من الورَقْ
فقال أَخلِّي الشمس تُسخِنُ زائري　　لاُخلَع سهْمَ البَرْد منه اذا مرَقْ
وألبَسُ ثوبي في المصِيف حنانةً　　لِيأوِي الى ظلي ولولَاه لاحترَقْ

بديهة الجرّاوي

حدَّث صفوانُ بن ادريس أن أبا العباس الجراوي كان في حانوت ورّاق بتونس وهناك فتىً يميل اليه فتناول الفتى سوسَنةً صفراءَ وأومأ بها الى خدَّيه مُشيراً وقال أين الشعراءُ تحريكاً للجرّاوي فقال هذا ارتجالاً :

وعُلْوِيٍّ الجمَالِ اذا تبدَّى أراكَ جَبِينُه بـدراً أنارا
أشارَ بسَوْسَن يحْكِيه عرْفاً ويحْكِي لونَ عاشِقه اصفرارا

الأصيلُ في فاس

قال الشَّرِيشي أخبرَني ابنُ منصور قال خرجتُ بخارج فاس عشيةً مع فتى ورَّاق فنظر الى صُفْرَةِ الشمس واستنشَق بَرْدَ النسيم وأنشدني مرتجِلاً :

انظُر الى الشمس في الأَصيل كأنَّها وجْنتَا عليل
ورَقَّ هذا النسيمُ حتى كأنَّما يشتَكي نُحولي

بين ابن عبدوس وابن الجهم

قال ابنُ عَبْدُوس الفاسي سِرْتُ يوماً الى عليّ بنِ الجهم فأنشدني بيتَين في العِناق :

سقَى اللهُ ليلاً ضمَّني بعد هَجْعة وأدْنَى فؤادي من فؤاد مُعذّبي
فبِتْنا جميعاً لو تُراقُ زجاجةٌ من الماء فيما بَيْنَنا لم تَسرَّبِ

فاقْتدح زَندي لإيراد مثله فقلتُ :

لا وَالمنازِل من نَجْد ولياَلِينا بُعَيدُ اذْ جسدَانا بيننا جَسدُ

كم رامَ فينا الكَرى مع لُطْفِ مسْلَكِه نوْماً فما انفكَّ لا خدٌّ ولا عضُد
ما أنصَفُوني دَعوني فاستجبتُ لهم حتى اذا قرَّبُوني منهم بَعُدوا

الوَجْد مع الوُجْد

كان رجل يتعشَّق قَيْنةً كانت ورِثتْ من مولاها مالا تُنفِق عليه منه فلما فرغ المال ملَّها فقال فيه عقيل بنُ عطِية ابنُ أخِي الوزير ابن عطية :

لا تلْحَه إن مال عن حبِّها فلم يكُن ذَلك من وُدّ
لمَّا رآها قد صفَا مالُها قال صفَا الوَجْد مع الوُجْد

حسن الاعتذار

صبَّح يحيى بنُ عبد المَنَّان السلطانَ أبا العباس المريني عند المساء فأنكَر عليه وظنه ثِملاً فقال:

صبَّحتُه عندَ المساء فقال لي ما ذا الكلامُ وظنَّ ذاك مُزاحا
فأجبتُ إنَّ ضِياءَ وجهِك غرَّني حتى توَهَّمتُ المساءَ صبَاحا

حسن التعليل

سأل السلطان أبو سعيد المريني كاتِبَه عبدَ المهيمن الحضرمي عن

تهادي المُحِبِّين التُّفاحَ دون الخَوخ وكلاهمـــا حسَنُ المنظَر ، طيِّبُ المخْبَر شديدُ الشَّبه بأخيه ، سديدٌ تَشبيهُ الوَجنات بِـــه لمتَوخّيه . فقال مِن عندِ مولانا ، فقال أرى أنَّ ذلك لاشتِمال التفّاح على الحَبّ الذي يُذكِّر بالحُبّ والهوَى ، والخَوخ على النَّوى الذي يُذكِي اسمُه صُفْرةَ الجوَى .

من اللطائف في التشميت

عطَس السلطانُ أبو العبـــاس المَرِيني وكان ابنُ عبد المنَّان حاضراً فقال :

يرْحَمُك الرحمانُ من عاطِسٍ ... وليهْنِك الحمدُ على عطسَتِكْ
ويغفرُ اللهُ لنـــا كلّنا ... وليُسبِل السِّترَ على وجنَتِكْ

وعطَس السلطـــان مولاي سليمانُ وقاريءُ الحديث عنده يقولُ يرحَمُكَ اللهُ من قوله صلى الله عليه وسلم : اذا عطَس احدُكم فليَقُلِ الحمد لله فاذا قال فليقُل له أُخوه او صاحبُه يرحَمُك الله، فقال الشيخ حمدون ابنُ الحاج وكان حاضراً :

عطَسْتَ وقارِيء الحدِيث يقُول ... (يرحَمُكَ اللهُ) قولَ الرَّسُولْ
فكانَ الرسولُ المشمِّتَ إذْ ... عطَسْتَ وذلـــك أعظَمُ سُولْ

شاعر بليد الطبع !

كان ابنُ عَمرو الشَّاوِي قديمَ الصحبة للمنصور وأخيه المعتصم واغترب مع الأخير في الجزائر مدةً مديدةً ولما أفضت الخلافة للمنصور سوَّغه مَغارِمَ مَسْفِيوةَ بجذافِيرِها مُكافأةً على الهجرة إلّا أنَّه استثنى منها أعشارَ الزَّيْت فكتَب له ابنُ عَمْرو بأبيات لِيَشْمَلها العطاء فأعطاها له أيضاً فكان يبيعُ منها بالآلاف من العَيْن وهذه الابيات :

أَبحْرَ النَّدى خيْرَ الملوك سَجِيّةً ... وأفضَلَ سُلْطانٍ رَقَى فوْقَ مِنْبَر

لقد سِرْتَ في الاسلام أحسنَ سِيرَةٍ ... وخُصِّصْتَ بالنَّصْر العزيزِ المُؤَزَّر

أَموْلايَ لاحِظْني بِجُودِك إنني ... فَقيرُ نَوَالٍ من لَدُنْك مُوَفَّر

فهذا زَمانُ الزَّيْتِ قد جاء مُقْبِلاً ... ولي رَغبَةٌ فيه بِغَير تَنكُّر

فمِنْها اشْتِعَالي في الدُّجا وتَطيُّبي ... ودُهْنُ طعامِي ثُمَّ مِنها تَعطُّري

لأنِّي بَلِيدُ الطَّبعِ أشتَاقُ رِيحَها ... فَفِي الزَّيتِ يامولايَ مِسكي وعَنبَري

المودّةُ في القُرْبى

كتبَ الشيخُ التاوُدِيُّ ابنُ سُودَة لِقَاضِي فَاسِ أبي عبدِ الله الهوّاري يَستَعْطِفُه في تَسْرِيح شَرِيفَين مِن السِّجن :

أَقاضِي الوَرى رِفقاً بآل محمّدٍ ... ورَاعِ رِعاكَ اللهُ في حَقِّهم جَنْبا

وذا سابعُ الميلاد فافْكُكْ وثاقهم وكُنْ تالياً إلَّا المودَّة في القُرْبى[١]

فأجابه :

أيا عالِماً قد طبَّق الشرْقَ والغرْبا وأبدَى لنَا مَا يَشْرحُ الصدرَ والقَلْبا
وذاكَ بنُصح لي بنَظْم مُهذَّبٍ وفي طيِّه عتْبٌ وأَحبِبْ به عتْبا
وها أنَاذا في الحين لَبَّيْتُ أمرَكُم وما أبتَغي إلا المودَّة في القُرْبى

إنك لبحر

قصد الشاعرُ أبو بَحْر بنُ عبد الصمد مَرْوَانَ بنَ سَمَجُون الطَّنْجي زعيمَ المغرب وشيْخَه في وقته بقصيدة صنَعها فيه جاء فيها :

فِدًى للفقيه ابْنِ عبدِ المَلِك رجالٌ حلومهم تُسْتَزلّ
يرُومونَ إدْرَاكَ غاياتِه وهَيْهاتَ بالقَول لا بالعمَل
جرَى وجروْا في ميادينِه فجاءَ بها سابِقاً في مهَل
إمامٌ اقامَ منَارَ الهُدَى وعزَّ على أهلِ تلك النِّحَل
وبيَّن للناس فصْلاً فَفصْلاً غَوامِضَ أسرار تلك المِلَل
وضمَّ الى الرأي مَتْنَ الحديث وعِلْمَ الكلام وفَهْمَ الجدل

---

١ — اي قوله تعالى : قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى .

فلما أنشده إياها استحسنها واهتزّ لهــا طرباً وقال له أبو مَن ؟ فقال أبو بحر ، فقال إنك لبحر عند اسمك ووصله بصِلَة سَنِيّة .

حِلْمُ المنصور الموحدي وعِلْمُه

قال ابنُ الخطيب : حدّثني شيخي أبو الحسن بنُ الجَيَّــاب عمّن حدّثه من أشياخه ، قال : عرَض أبو عبد الله ابنُ عيَّاش والـكاتب ابن القالي على المنصور كتَابين وهو في بعض الغَزَوات في كَلَبِ البَرْد وبين يديه كانُونُ جَمْر وكان ابنُ عيَّاش بارِعَ الخط وابن القَــالي ركيكَه ويفضُله في البلاغة أو العكس ، الشكُّ منّي ، فقال المنصور أيُّ كتابٍ لو كان بهذا الخط وأيُّ خطٍّ لو كان بهــذا الكتاب ، فرَضِيَ ابنُ القالي وسخِطَ ابنُ عياش فانتزَع الكتاب من يد المنصور وطرَحه في النار وانصرف فتغيَّر وجْهُ المنصور وابتَدر أحدُ الأشياخ فقال : يا أمير المؤمنين طعَنْتُم له في الوسيلة التي عرَّفتْه ببابكم فعظُمت غَيرتُه لمعرفته بقدر السبب الموَصِّل اليكم فسُرِيَ عن المنصور وقــال لأحد خُدّامه : اذهب الى السَّبْي فاخترْ أجمــلَ نسائه الأبكار وائْت ابن عياش فقل له هذه تطفيء من خُلُقِك ، قال ابن عيــاش يخاطب ولدَه وقد حدَّث الحديث هي أمُّك يا محمــد أو فلان ، وقال ابن خَميس : حدثني خالي أبو عبد الله ابن عَسْكَر أن الكاتب أبا عبد الله ابن عياش كتب يوماً كتابــاً ليهوديّ فكتب فيه ويُحمَلُ على البِرِّ

والكَرامة ، فقال له المنصور : أتقول في كافر يُحمَل على البرّ والكَرامة؟ قال ابنُ عياش ففكّرتُ ساعةً وقد علِمْتُ أن الاعتراض يلزَمُني . فقلت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه ، وهذا عامّ في الكافر وغيرِه ، فقال نعَمْ هذه الكرامةُ والمَبَرّةُ من أين أخذتَها ، قال : فسكَتُّ ولم أجِدْ جواباً قال فقرأ المنصور : أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم لا يَنْهَاكُم اللهُ عن الذين لم يُقاتِلُوكُمْ في الدّين ولم يُخرِجُوكُمْ من دِيَارِكم أن تَبَرُّوهم وتُقْسِطُوا اليهم إنّ الله يُحِبُّ المُقْسِطين فسُرِرْتُ بذلك وشكَرْتُه .

وروَى ابنُ رُشَيْد الفِهْري عن شيخه أبي بكر بن حَبِيش قال : أخبرَني أبو بكر بنُ مُحْرِز قال كان شيخُنا أبو عبد الله الحجَري بقي لم يشهَد الجمعةَ نحوَ أربعين سنة يمنَعُه من ذلك عُذْرٌ كما منَع مالكَ بنَ أنس رضي الله عنه وكان الناس يقولون انما يتركُها لِمَكان ذِكْر المُوحّدين فيها ، فكان ذلك يبلُغُ أميرَ المؤمنين المنصور فيُغضِي عنه ويقول لعلّ له عُذرا .

ويُحكَى أن الشاعر المُجيد أبا بكر بن مُجْبَر أنشد يوسف بن عبد المؤمن قصيدة يهنئه فيها بفتح منها :

إنّ خيرَ الفُتوح ما جاء عفواً ... مِثْلَما يخطُبُ الخطيبُ ارتجالا

وكان أبو العباس الجرّاوي الشاعرُ حاضراً فقطع عليه قوله وقال يا سيّدنا اهتدم بيتَ وضّاح :

خيرُ شرابٍ ما كان عفواً كأنّه خطبةُ ارتجال

فبدر يعقوبُ المنصور وهو حينئذ وزيرُ أبيه وسنُّه قريبُ العشرين وقال ان كان اهتدمه فقد استحقّه ، لِنقله ايّاه من معنى خسيس الى معنىً شريف فسُرَّ أبوه بجوابه وعجِبَ الحاضرون .

مِنْ اكرام أبي العلاء الموحدي للعلماء

قال ابنُ رُشيد أخبرني شيخُنا أبو بكر بن حَبيش قال أخبرني سهلُ بنُ مالك قال : كان الطّلبةُ يحضُرون مجلسَ أبي العلاء فيتذاكرون بين يديه ويتكلم أمير المؤمنين فتكلّم يوماً على السّلَم الذي هو من أقسام البيوع فسكّنَ اللام قال سهل : فأعدتُ السَّلَم وقلت : قال الفقهاءُ في السَّلَم ، والسَّلَمُ مِن حكمِه كذا وكرّرتُه مرات مُعتَنياً بفتحة اللّام ، فنظرتُ اليه يُحدّقُ إليَّ النَّظَر كالمُصغي لِما أقول فلم يُعِدها الى أن انقضى المجلس فلما وصلتُ منزلي أدركني بعضُ مماليكه ومعَه كسوةٌ من ثِيابه وصُرَّةٌ فيها خمسمائة دينار ، وآخر بفرسٍ مُطَهَّم فقال : مولانا يقرأُ عليك السلامَ ويقول لك هذا من ثِيابه ومن رِكابه تُصلِّي فيها وتدعو له وهذه برَسم النفقة .

هي الشمس

كانت الأميرةُ تَميمَة بنتُ يوسف بن تاشفين بارِعةَ الحُسن ، تامّةَ الأدب ، فرآها يوماً كاتبٌ لها وكانت قد أمرَتْ بمُحاسَبتِه وبَرزَت لذلك ، فبُهِتَ . ولمّا نظرت اليه عرَفَت ما دَهاه ، وفطِنَت لِما عَراه ، فأومأت الى نفسِها وأنشدته :

هِيَ الشمسُ مَسكَنُها في السماءِ   فعَزِّ الفُؤادَ عزاءً جميلا
فلَن تستَطيعَ اليها الصُّعُودَ   ولن تَستَطيعَ اليكَ النُّزولا

حيوانات معلّمة

ذكر ابنُ حَمُّويَة السَّرَخسي في رحلته أن قوماً قصَدُوا المنصور الموحدي ومعهم حيَوانات مُعلَّمة ، منها أسَدٌ وغُراب ، أما الأسَدُ فيقصِدُه من دون أهل المجلس ويَربِضُ بين يَديْه ، وربَّما أومأ بالسجود ومدَّ ذِراعَيْه ، وأما الغُراب فكان يقول : النَّصرُ والتمكين لسيِّدنا أمير المؤمنين ، وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

أَنِس الشِّبْلُ ابتهاجاً بالأسَدْ   ورأى شِبْهَ أبيه فقصَدْ
أنطقَ الخالقُ مخلوقاتِه   شهِدُوا والكلُّ بالحقّ شِهدْ
أنّك الخيرَةُ من صَفْوَتِه   بعدَما طالَ على النّاسِ الأمَدْ

فأعطاهم وكَساهم .

أحِبُّ سَلا

أُسِرُ محمّد بن سوّار الأُشبُوني الشاعر وجرَت عليه مِحَن في الأَسر ففَداه ابنُ عشرةَ كريمُ سَلا فمَدحه بمَدائِح كثيرةٍ ومنها قوله :

أُحبُّ سلا من أجل كونِك مِن سَلا ... فكلُّ سَلاويٍّ إليَّ حبيب
لَصيَّرْتَها مِصْراً ونَيْلُك نِيلُها ... وكَفُّك بَطْحاها وأنتَ خَصيبُ [1]

نتيجة العلم

كان في غُرفة المُوَقِّت بمِئذَنَةِ القَروِيِّين ساعةٌ غريبة ، من صُنع المُعَدِّل أبي عبد الله الصّنهاجي وقد وَصفها أحدُ الشعراء بقوله :

رُوحٌ من الماء في جِسم من الصُّفْر ... مُولَّد بلطيف الحِذق والنَّظر
اذا بكَى دار في أحشائِه فَلَكٌ ... خافي المَسير وان لم يَبْكِ لم يَدُر
وفي أعاليه حِسْبانٌ يُفصِّلُه ... للناظرين بلا ذِهن ولا فِكَر
مُترجِمٌ عن مواقيتٍ يُخبِّرنا ... بها فيُوجَد فيها صادِقَ الخبر

---

١ - فيه إشارة الى الخصيب بن عبد الحميد المرادي أمير مِصْر وممدوح أبي نوّاس .

تُقضَى به الخمسُ في وقت الوُجوب وانْ غطَّى على الشمس سِترُ الغَيم والمطر
مُحدِّد كلَّ مِيقَاتٍ تَخيَّرَه ذوُوا التأمل للأَسفارِ والحضَر
نتيجةُ العِلْم والأفكار صَوَّرَهُ ـيا حبَّذا ـ مُبدِعُ الأفكار في الصُّور

تظليل صَحْن القَروِيِّين

كان بصَحن جامِع القرويين بفاس مِظَلَّات من شُقَق الكَتَّان تُنشَر في زمن الصيف لتظليل المصلين يومَ الجمعة أحدَثَها القاضي محمد ابنُ داود وذلك بأن جعَل حِبالاً تجري في حَلَقٍ على جوانب الصَّحْن تُرفَع بها المِظَلَّات وقتَ الحاجة اليها وجعَل في مواضع منها فُرَجاً يتَنَسَّم الناسُ منها الهواء ، وفيه يقول الشاعر مُنوِّهاً بعمَله هذا :

تفسَّحتِ الدنيا بعدْلِك في الورى وفَسَّحتَ لَمَّا ضاق للخَلْق جامِعا
شكَى صَحْنُه شَمْسَ الظهيرة ضاحِياً فأظللته ظِلّا على الوَهج دافِعا

تحت ثُرَيَّا القرويين

جلس الأستاذ المِزيَاتي ومعه محمد بن عَبدُون ومالك بن المُرَحّل ومحمد بن خلَف تحت ثُرَيَّا القرويين الكبرى ليلةَ السابع والعشرين من رمضان وهي تتوهّجُ نوراً فأنشد فيها ارتجالا :

انظُر الى ثُرَيَّةٍ نورُها يصْدَع بالّلألاء سَجْفَ الغَسَقْ

فقال ابنُ عبدون :

كأنَّها في شَكْلِها رَبْوَةٌ ... انتَظَم النَّوْرُ بها فاتَّسَقْ

وقال ابن المرَّحل :

أُعيذُها من شَر ما يُتَّقى ... مِنْ فَجْأَةِ العَيْن بِرَبِّ الفَلَقْ

وقال ابنُ خلَف :

بَاهَى بها الإسْلامُ ما أشْرَقَتْ ... كاسَاتُها عند مَغيب الشَّفَقْ

وذكَر الثَّعالبي قال كنَّا نقرأ المَقامات الحَريريَّةَ بيْنَ العِشاءَيْن بعَنزَةِ جامع القرويين في زَمن الصيْف على الأُستاذ مَنْديل بْن أجرُّوم فجعَل يُقرِّرُ الاستعارةَ في قوله تعالى : فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ فجاءت ريحٌ قويةٌ فضَرَبَت المصابِيحَ الى الجُدُران فأطرَق الأُستاذ ثم رَفع رأسه فقال :

ولمَّا ضرَبْنا في بيان استِعَارَةٍ ... مِثالاً بِصَدْع الحقِّ صَدْع زُجاجُ
أرَتْنا عِيَاناً صدْعها الرِّيحُ إذْ غدَتْ ... تُكَسِّرُ في الجُدْرَان كلَّ سِراج

قاضٍ حضرَمي

كان القَاضي أبو عبد الله مُحمَّد الحَضْرمي والِدُ الرئيس عبد المهيمنِ الحضرمي شديداً في باب القَبُول على الشُّهداء فيُذكَر أن أحد الظَّلمة

عرَض له كتابُ رَسْم في قضية نزلت به فنقَده القاضي ومَطَل في تَخْليصه فتَحيَّل على أن كَتَب بحائِط مجلِس القاضي ما نصه :

بِسَبْتَة قـــاضٍ حضرَميٌّ اذا انتَسب
وفي حَضْرَمَوْتَ الشُّؤمُ واللُّؤمُ في النَّسَب

فمِن شُؤمِه لا يَثبُتُ العَقـــدُ عِندَه
ومِن لُؤمِه يَرْمِي أولي الفضـــل بالرِّيَب

فلما وقعت عينُ القاضي على المكتوب وفهِمَه أمرَ بازالته وأمسك من عِنانه .

فتحتَ لنجْلك بابَ الفتـوح

كان للقاضي أبي عبد الله بن عبد الرزَّاق الجزُولي ولَدٌ قد فُتِنَ به فرُبَّما تدخل في قضايا الناس بما يُرِيبُ فلا ينهَاه ، فقـــال فيه أبو عبد الله العزَفي مُوَرِّياً ببابَين من أبواب فاس :

أقاضِيَ فاسٍ لقد شِنتهَـــا — وأحدثتَ فيها أموراً شَنِيعَة
ظلَمْتَ العِبـادَ ورُمْت العِنَاد — وخادَعتَ في الدِّين كلَّ الخديعة
فتحتَ لنَجْلك بابَ الفُتـوح — وأغلَقْتَ للنَّاس بابَ الشَّريعة[1]

---

١ — باب الفتوح وباب الشريعة من أبواب فاس المعروفة والتورية في الفتوح ظاهرة على أنه جمعُ فَتْـح مُكنَّى به عن الرشوة .

فبادَرَ موْلَى الوَرى فارِسٌ[١] بعَزْلِكَ عنها لِسَدِّ الذَّرِيعة

بين ابن المرحَّل وابن رُشَيْق

كان بين ابن رُشَيْق الثَّعلبي ومالك بن المرَّحل خِصام أدَّى الى تَهاجيهما ، فنظم ابنُ رُشَيْق قصيدةً جاء في مطلعها :

لكِلابِ سبْتَةَ في النُّبَاح مَدارِكُ وأشدُّهـا عند التَّهارُش مالِكُ
شيخٌ تفانَى في البَطَالةِ عُمْرُه وأجلُّ مَحْكِيه الكلامُ الآفِكُ

واتَّخذَ لها كِنانَةً كأوعِيَة الكُتب وكتَب عليها « زِمامٌ مُعجَّل الى مالك بن المُرَّحل » وعمَد الى كلب وجعلها في عُنقه وأوجعه ضرباً حتى لا يأوِيَ الى أحد وطرَده بالزُّقاق ، فذَهب الكلبُ يعوِي وخلَفه من الناس أُمَّة ، وأخِذَ الكتابُ وقُرِيءَ فحُمِل الى ابن المرحل فلم يخفَ عليه أنه من عمَل ابن رُشَيْق ، فقال في جوابه :

كِلابُ المزَابِل آذَيْنَني بأبوالِهنَّ على باب داري
وقد كنتُ أُوجِعُها بالعَصا ولكن عوَت من وَراءِ الجِدار

---

١ – يعني به السلطان أبا عنان المريني .

زكانةُ ابن البنّاء

قال ابنُ شاطِر : كنتُ قاعداً مع ابن البناء بمراكش في دكّان طبيب فاذا برَجُلٍ جـاء اليه وقال له يا سيّدي ان والدي تُوفي وكان متّهماً بالمال ولم يترُكْ لي شيئاً وقيل لي أن ماله مدفون بداره ، فأُحِبُّ أن تعمِلَ خاطِرَكَ معي لوجه الله ، ففكر الشيخ بَرهةً ثم قال للرجل : صوِّر لي صورة الدار في الرمل فصوَّر له الدار من غير أن يدَعَ منها شيئاً فأمره أن يُزيل صورتَها فأزالَها فأمره بإعادتها ثانياً ، ففعل ، فأمره بإزالتِها وبإعادتها ثالثاً وقال له : إن مالَك في هذا الموضع منها ، فانصرف الرجل وبحَثَ في ذلك الموضع فوجَد به المال.

شعر للشريف المومِناني
يُغنّيه ابنُ الطرّاحَة

كان الشريف أبو الحسَين المومناني من العلم والجاه بالمكانة التي لا تُجهل وكان قد وَلِيَ القضاء بمدينة بِجَايَة وحضَر في مجلسٍ كان فيه المُغنّي ابراهيم ابن الطّراحَة فاقترح بعضُ الحاضرين على المغني المذكور أن يغني لهم قولَ بشّار بن بُرْد :

رأَينَ الغَوانِي الشَّيْبَ لَاح بمَفرِقي فأعْرَضْنَ عنّي بالعُيون الفَواتِر
وكُنَّ اذا أبصَرْنَني أو سَمعنَ بي سَعَين يُغَلِّقن الكَرى بالمحَاجِر

وكان من عادة ابن الطراحة ألّا يغني من الشعر ما انتهى الى حفظ المغني محمد ابن يعقوب وسُمِعَ منه، وكان ابنُ يعقوب اذ ذاك في أول ظهوره فقال ابن الطراحة لِمقترحِ ذلك عليه: كلامُكم عندي لا يُرَدُّ، والأمر ممتثــل، فان شئتُم فاقترِحُوا على سيدنا أبي الحسين زيادةً على البيتين، فأنشد الشريفُ بديهةً:

فوَا أسفَا ولّى الشبابُ وقد غدا ... يُنافرُني مَن كان بالأمْس زائري
فلولا مَشِيبي ما أُضيعَتْ مودَّتي ... ولا عادَ محبُوبي القَرِيب مُنافِري

فغنى ابنُ الطراحة الشعر كما طُلِب منه ورَغِب هو.

محتسبٌ وشاعر

روى ابنُ عربي الحاتمي في مُحاضراته قال: أُتِيَ محتسب كان عنــدنا بفاس بشاعر جَنَى جنايةً فأمرَ بضربه فسأله العفوَ حتى أغضَبه فصاح في الضرّاب شُدَّ عليه ففي صيحته تلك ضرط ضرَطاتٍ فقال الشاعر في ذلك والسياطُ تأخذُه:

اسمَعُوني وأعْجَبُوا ... ضرَط المُحتَسِبُ
ضرطة صَــافِيَــةً ... طــارَ منها العَتَب
سَهّلَتْ حلْقَ سَلا ... وعَّرَتْ وادِي سَبُو

سبعـــةً في نَسَقٍ ‏ ‏ بُ بُ بُ بُو بُ بُ بُ

حلَفَ لا يمشِي شاعِره لداره إلاّ على الذهب

كان الشاعر الفيلسوف الموسيقار أبو بكر بن باجة مُنقطِعاً الى الأمير أبي بكر ابن تافلويت المسوفي انصّنهاجي صِهرِ عليّ بن يوسف، ومّما جرى له معَه أنه حضَر يوماً بمجلِسه فألقى عـلى بعض قينَاتِه مُوشّحتَه :

جرِّرِ الذّيلَ أيّمــا جرِّ ‏ ‏ وصِلِ السُّكْرَ منك بالسُّكْرِ

وختَمها بقوله :

عقَدَ اللهُ رايةَ النَّصْرِ ‏ ‏ لأميرِ العُلا أبي بَكْرِ

فلمّا طرَقَ الشعرُ والتّلحينُ سمـــعَ ابن تافلويتَ صاحَ واطرباه وشَقَّ ثيابه وقال ما أحسَن ما بدأتَ وما ختَمتَ ، وحلَف لا يمشي ابنُ باجَةَ الى داره إلاّ على الذهب ، فخـــاف الشاعر الحكيم سُوءَ العاقبة فاحتال بأن جعَل ذهباً في نعله ومشَى عليه .

من حِكاياتهم في العَفاف

ذكر الأستاذ أبو جعفر بنُ الزُّبير قال : أنشدني أبو الخطّاب بنُ

خليل قال أنشدني القاضي أبو حفص بنُ عُمَر لنفسه وقد أُهدِيَتْ له جاريةٌ فوجدَها ابنةَ سُرِيَّةٍ كان قد تسرَّاها فردَّها الى مُهدِيها وكتَب له :

يَا مُهْدِيَ الرَّشاء الذي أَلْحاظُه ... تركَتْ فُؤادِي نُصبَ تلك الأَسْهُمِ
رَيْحانةٌ كلُّ المُنَى في شمِّها ... لولا المُهَيْمِنُ واجْتِنَابُ المَحْرَمِ
ما عن قِلًى صُرِفَتْ اليك وإنما ... صَيْدُ الغَزالةِ لم يُبَحْ للمُحْرِمِ
إنَّ الغزالَةَ قد علِمْنَا قَبْلَها ... سِرَّ المَهَاة ولَيْتَنَا لم نَعْلَمِ
يا وَيْحَ عنْتَرَةَ الذي قد شَفَّه ... ما شَفَّنِي فشدا ولم يَتَكَلَّمِ
(يا شَاةَ ما قنَصٍ لِمَن حلَّتْ له ... حَرُمَتْ عليَّ وليتَها لم تحْرُمِ)[1]

من محاسن الكناية

دخل الفقيه أبو الحسن بنُ الصبَّاغ على القاضي أبي القاسم الشريف السَّبْتي يوماً لأداءِ شهادةٍ عنده فوجد بين يديه جماعةً من الغُزَاة يؤدُّون شهادةً فسمِعَ القاضي منهم وقال لهم هلْ ثَمَّ مَن يَعْرِفُكم ؟ فقالوا نعم ، يعرِفُنا عليٌّ الصبَّاغ فقال القاضي أتَعْرِفُهم يا أبا الحسَن ؟ فقال نعم يا سيِّدي معرفةَ محمد بنِ يَزِيد ، فما أنكَر عليه شيئاً بل قال لهم عرَف

(١) ضمن بيت عنترة والعرب تطلق الشاة على البقرة الوحشية فكنى عنترة بالشاة على المرأة تشبيهاً لها بها ويقال انها كانت زوجة لأبيه فبذلك حرمت عليه .

الفقيه أبو الحسن ما عنده فانظْروا مَن يعْرِفُ معه رَسْمَ حالِكم فانصرَفُوا راضين ولم يرْتَبِنْ الشاهد في شيء من حالهم ولا كشَف القاضي لهم سِتْر القضية وإنما أشار أبو الحسن الصَّبَّاغ الى قول الشاعر :

أُسائِلُ عن ثُمالةَ كلَّ حيّ فكلّهمُ يُجِيبُ ومَن ثُماله ؟
فقلتُ محمدُ بنُ يزِيدَ منهم فقالوا : الآنَ زدتَهم جهالَه

غرِيبَةُ رابَغ

قال ابنُ رُشيد في رحلته : ذِكرُ غريبة عنَّت لنا برابَغ وما عَنَّت ، بل أغنَت في معنى الآية الكريمة وأقنَت ، وهي قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا (ليَبلُونَّكُم اللهُ بشيء من الصَّيد تنَالُه أيديكُم ورماحكم لِيعلَم اللهُ مَن يخافُه ورُسلَه بالغَيب) . صَحبني في الطريق من المدينة على ساكنها الصلاة والسلام الى البيت الحرام أحدُ الشيوخ من شُرفاء المدينة ، فلمَّا وافينا رابَغ رأيتُ أمراً عجباً من تخلُّل الوَحْش ، الغزَال والأرنب بين الجمال والرِّحال ، بحيثُ يناله الناسُ بأيديهم والناسُ يُنادُون حَرام ! حَرام ! والجوارِحُ قد سُلسِلَتْ خِيفَةَ تعدّي جاهل ، يتعسَّفُ المجاهل ، فقال لي ذلك الشيخ الشريف : تأمَّلْ ترَ عجَباً هكذا جرتْ عادَتُنا في هذه الطريق اذا مررْنا به ونحن مُحرِمُون نجِدُ به من الوَحْش ما ترى فإذا عُدْنا مُحِلِّين لم نجِدْ

به شيئاً ، فلما عُدنا كان كما قال فبانَ لي من معنى الآية ما لم يكُن عندي بالمشاهدة .

آخِرُ ما سُمِع منهم

لمَّا احتُضِرَ أبو محمّد الأَصيلي قال : اللَّهم انك قد وعدْتَ الجزاءَ على المصيبَة ولا مصيبَةَ عليَّ أعظَمُ من نفسي فأحسِنْ جزائي فيها يا أرحمَ الراحمين وكان ذلك آخرَ ما سُمِع منه .

ودخل أبو عبد الله المَقَّريُّ على عبد الرحمن بن عفَّان الجزُولي وهو يَجُودُ بنفسه وكان رآه قبل ذلك مُعافىً ، فسأَله عن السبب فأخبرَه أنه خرَج الى لقاء السلطان أبي الحسَن المريني فسقَط عن دابَّته فتضعضَت أركانُه فقال : ما حَملك أن تتكلَّف هذا في ارتفاع سنك فقال : أما علِمتَ أن حبَّ الرياسةِ آخرُ ما يخرُج من قلُوبِ العارفين .

وقال ابنُ الطيِّب القادري : دخلتُ على محمد بن قاسم جسُّوس في مَرضه الذي تُوُفِّي فيه فسمعتُه يُنشِد هذه الأبيات وما فهِمْتُ ما يقول إلا بمشَقَّة :

سلامٌ على أهلِ الحِمَى حيثما حلُّوا هنيئاً لهم يا حبذا ما به حلُّوا
لهُمْ أظهرَ المولى شُموسَ بهائِه فيا ليتَ خدِّي في التُّرابِ لهم نعلُ

متى يا عُرَيْبَ الحيّ يأتي بَشيرُكم   فتبتهجُ الدنيا ويجتمعُ الشَّمْلُ
صِلُوني على مَا بِي فإنّي لِوَصْلِكم   وإن لم أكُن أهلاً فأنتم له أهْلُ

كَلِم نَوابِغ

للكاتب محمد بن سُليمان من رجال الأنيس

إذا حصَلت الألفَة ، سقَطت الكُلْفة . بِكَتْم الأسرار ، تُستَعبَدُ الأحرار . ترْكُ التَّدبير ، أخرجَ يُوسفَ من البِير . الثَّقيل ، هو البَلاء كما قِيل . الجاه ، لا يُفْلِحُ من رَجاه . حُبُّ المال يُطيلُ الآمال ، خَوْفُ العِقاب ، يفُكُّ الرِّقاب . الذلُّ ممقُوت ، ولو جلَبَ الياقُوت . رِزْقُك معك ، حيثُما سِرْتَ تبِعك . الكُرُوب ، أشدُّ من الحُروب . مَن اغتابَك ، فقد أثابَك . العاقِلُ يختار ، وإنْ كان ذا إقتار . الفُرقَة ، هي الحُرْقَة . الشُّرور ، تُميتُ السُّرور . لا ترْضَ بِالسُّؤال ، ولو جَلَب اللآل .

المَقالات

البلاغة النبوية للقاضي عياض

... وأما فَصاحةُ اللسان وبلاغةُ القول فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالْمحَلِّ الأفضل والموْضع الذي لا يُجهَل سلاسةَ طَبْع وبَراعةَ مَنزَع وإيجاز مَقْطَع ونَصاعة لَفظ وجزَالةَ قوْل وصِحَّةَ معَان وقِلَّةَ تكَلُّف أوتِيَ جوامِعَ الكَلِم وخُصَّ ببَدائِع الحِكَم وعَلِمَ ألسِنةَ العرب يُخاطِبُ كل أمة بلسانها ويُحاوِرُها بِلُغتها ويُبارِيها في مَنزَع بلاغتِها حتى كان كثيرٌ من أصحابه يسألُونه في غير موْطِن عن شرح كلامِه وتفسيرِ قولِه ، مَن تأمَّلَ حديثَه وسِيَره عَلِمَ ذلك وتحقَّقه وليس كلامُه مع قريشٍ والأنصار وأهلِ الحجاز ونجْدٍ ككلامه مع ذي المِشْعار الهَمْداني وطِهْفة النَّهْدي وقَطَن بن حارثة العُلَيمي والأَشعَثِ بن قَيْس ووَائِل بن حُجْر الكِندي وغيرِهم من أقيال حضْرَموْتَ ومُلوكِ اليَمن .

وانظر كِتَابه الى هَمْدان : « إن لكم فِرَاعها[1] ووِهَاطها وعَزازَها[2]

---

[1] – أي ما علا منها ضد وهاطها والضمير للأرض [2] – أي ما اشتد منها وصلب

تأكُلُون عِلافَها[١] وترعون عَفاءَها[٢] ؛ لنـا من دِفئِهم[٣] وصِرامِهم[٤] ما سَلَّمُوا بالميثاق والأمانة ولهم من الصَّدَقة الثِّلْبُ[٥] والنَّـابُ والفَصِيلُ[٦] والفَارِضُ[٧] والدَّاجِنُ[٨] والكَبْشُ الحَوَرِي[٩] وعليهم فيهـا الصَّالِغ[١٠] والقَارِح[١١] » وقوله لنَهْد : « اللَّهم بارِكْ لَهُم في مَحْضِها ومَخْضِها ومَذْقِها[١٢] وابْعَثْ رَاعِيَها في الدَّثْر[١٣] وافجُرْ له الثَّمَد[١٤] وبَارِكْ لهُم في المـال والوَلَد ، مَن أقـامَ الصلاةَ كان مُسْلِماً ومَن آتى الزكاةَ كانَ مُحْسِناً ومَن شَهِد أن لا إله إلا الله كان مُخْلِصاً ، لَكُم يا بَنِي نَهْد وَدائِعُ الشِّرْك[١٥] ووَضَـائِعُ المِلْك[١٦] ، لا تُلَطِّط[١٧] في الزَّكاة ولا تُلحد في الحياة ولا تَتَثـاقَل عن الصَّلاة » وكتب لهم : « في الوَظِيفَـةِ الفَرِيضَة[١٨] ولَكُم الفارِض[١٩] والفَرِيشُ[٢٠] وذو العِنَـاق الرَّكُوب[٢١] والفَـلُوُّ[٢٢] الضَّبِيس[٢٣] لا يُمْنَـعُ سَرحُكُم[٢٤] ولا يُعضَدُ طَلحُكُم[٢٥] ولا يُحبَس

---

١ – جمع علف ٢ – مواتها وهو ما لا ملك لأحد عليه ٣ – أي نعمهم ٤ – أي نخلهم ٥ – الجمل الهرم والناب الناقة الهرمة ٦ – ولد الناقة الصغير ٧ – البقرة الهرمة ٨ – ما يألف البيوت من الحيوان ٩ – الكبش الكبير الذي يتخذ للضراب والمراد أن ماذكر يحسب في عدد النصاب ولا تؤخذ الزكاة منه اما لنفاسته أو لخسته وانما تؤخذ من الوسط ١٠ – ما كمل من البقر والغنم السنة السادسة ١١ – هو من الخيل ما دخل في السنة الخامسة ١٢ – المحض اللبن الخـالص والمخض ما أخرج زبده والمذق اللبن المخلوط بالماء ١٣ – الابل الكثيرة ١٤ – الماء القليل ١٥ – عهوده ومواثيقه ١٦ – ما كان يوضع على الأملاك من المغارم ١٧ – أي تمنع ١٨ – الوظيفة الزكاة والفريضة المسنة من النوق ١٩ – المريضة التي عرض لهـا آفة ٢٠ – القريبة العهد بالوضع ٢١ – الفرس الذلول ٢٢ – المهر الصغير من الخيل ٢٣ – الصعب الركوب لعـدم رياضته والمراد أن ذلك كله يحسب في عدد الفريضة ٢٤ أي من الرعي ٢٥ – الطلح شجر عظيم الشوك من العضاه واذا لم يقطع هذا فغيره بالأحرى .

دَرُّكُم[1] ما لم تُضمِرُوا الرِّماق[2] وتأكُلوا الرِّباق[3] مَن أَقرَّ فلَهُ الوَفاء بالعهْد والذِّمة ومَن أَبى فعليه الرَّبوَة[4] ومن كتابه لِوائِل بن حُجْر : « الى الأَقيَال العبَاهِلة[5] والأَرواع[6] المشَابيب[7] » وفيه « في التِّيعَة[8] شَاةٌ لا مُقوَرَّةُ الأَليَاط[9] ولا ضِنَاك[10] وأنطُوا الثَّبجَة[11] وفي السُّيُوب[12] الخُمُس ومَن زَنَامِ[13] بِكْر فاصقَعُوه مائةً واستَوْفِضُوه[14] عاماً ومَن زَنَامِ ثَيِّب فضَرِّجُوه[15] بالأَضامِيم[16] ولا تَوْصِيمَ[17] في الدِّين ولا غُمَّةَ[18] في فَرائِض الله وكلُّ مُسْكِر حرَام ووائِلُ بنُ حُجْر يترَفَّلُ[19] على الأَقيَال » .

أينَ هذَا من كِتَابه لأَنسَ في الصَّدقة المشهور لَمَّا كان كلامُ هؤلاء على هذا الحدّ وبلاغتهُم على هذا النَّمَط وأَكثرُ استِعمَالهِم هذه الألفاظُ، استَعْملَها معهم ليُبيِّن للناس ما نُزِّلَ إليهم وليُحدِّث الناسَ بما يعْلَمون، وكقَوْلِه في حديث عَطِيَّة السَّعدي قال : اليَدُ العُلْيَا هي المُنطِيَة واليَدُ

---

١ – يعني الماشية ذات الدر لا تحبس لأجل المصدق الذي يأخذ الزكاة ٢ – أي النفاق ٣ – جمع ربقة أي ما لم تبطنوا الخلاف وتخلعوا الطاعة ٤ – أي الزيادة في الوظيفة عقوبة له ٥ – أي الملوك الذين أقروا على ملكهم ٦ – جمع رائع ٧ – الزهر الالوان ٨ – أربعون من الغنم ٩ – أي مسترخية الجلد من الهزال ١٠ – كثيرة اللحم سمينة ١١ – أي الوسط ١٢ – الركاز أي الكنز ١٣ – أي من ١٤– غربوه ١٥ – أي أدموه حتى يموت ١٦ الحجارة ١٧ – لا عار ١٨–لا سترة ١٩ – يتأمر ويترأس .

السُّفْلَى هِيَ المنْطاة ، قــال : فكَلَّمنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بلُغَتِنا . وقوله في حديث العَامِري حين سأله فقال له النبي صلى الله عليه وسلَّم : سَلْ عنك أيْ سَلْ عمَّا شِئْتَ وهي لُغَةُ بنِي عَامِر .

وأمَّا كلامُه المُعتــاد وفصاحَتُه المعْلومة وجوامِعُ كَلِمه وحِكَمِه المأثُورة فقد أَلَّف الناسُ فيهـا الدَّوَاوين وجُمِعَتْ في ألفاظِها ومعَانيها الكُتُب ومِنْها ما لا يُوازى فصاحةً ولا يُبارَى بلاغـــةً كقوله : المُسْلِمُون تتكافَأُ دِمَاؤُهم ويَسْعَى بذِمَّتهم أدنَاهم وهُمْ يَــدٌ على مَن سِوَاهم وقولِه : الناسُ كأسْنَان المُشط والمرءُ معَ مَنْ أَحبَّ ولا خَيْرَ في صُحْبَةِ مَن لَا يَرى لك ما تَرى لَه والناسُ مَعـادِنُ وما هلَكَ امرُؤٌ عرَفَ قَدْرَه والمُستَشارُ مُؤتَمن وهو بالِخيارِ مَا لَمْ يَتكَلَّم ورَحِمَ اللهُ عبداً قال خيراً فغَنِم او سكَتَ فسَلِم وقوله : أَسلِمْ تَسْلَم وأسلِمْ يُؤتِكَ اللهُ أجرَكَ مرَّتين وإنَّ أحبَّكم إليَّ وأقربَكم مِنّي مجَالِسَ يومَ القيامة أحاسِنُكم أخلاقاً المُوَطَّئُون أكنافاً الذين يَألفُون ويُؤلَفُون وقولِه لعلَّه كانَ يتَكلَّم بمـا لا يَعْنِيه[1] وقولِه : ذُو الوَجهَين لَا يكونُ عند الله وَجِيهاً ونَهيه عن قِيلَ وقالَ وكثرةِ السُّؤال واضاعةِ المال ومَنعِ وهَاتِ وعُقُوقِ الأمَّهات ووأدِ البنات ، وقولِه : اتَّــقِ اللهَ حيثُ

---

١ — هو حديث أوله أصيب رجل يوم أحد فقالت أمه هنيئاً لك الشهادة فقال : وما يدريك لعله الخ .

كُنتَ وأَتبِـع السيئةَ الحسنةَ تمحُها وخالِق الناسَ بخُلُق حسَن وخيْرُ الأمور أوسَاطُها وقولِه : أحبِبْ حبيبَك هوْنـاً ما عسَى أن يكُونَ بغَيضَك يَوْماً مَا وقولِه : الظُّلم ظلُمَاتٌ يومَ القيـامة وقولهِ في بعض دعائه : أللهمَّ إنِّي أسأَلُك رحمةً من عِنْدك تَهْدِي بها قَلبي وتجمَعُ بهـا أمري وتَلُمَّ بها شَعَثِي وتُصْلِحُ بها غائِبي وترْفَعُ بها شَاهِدِي وتُزَكِّي بها عمَلي وتُلْهِمُني بها رُشدي وتَرُدُّ بها أُلفَتي وتعصِمُني بها من كُلِّ سُوء أللهمَّ إنِّي أسأَلُك الفَـوْزَ في القَضـاء ونُزُلَ الشهداء وعَيْشَ السُّعَداء والنصرَ على الأعداء .

الى ما رَوته الكَافَّةُ عن الكافَّةِ من مَقاماتِه ومُحاضراته وخُطَبِه وأَدعِيَتِه ومُخاطَباتِه وعُهُودِه ممَّا لا خِلافَ أنه نزَلَ من ذلك مَرْتبةً لا يُقَاس بها غيرُه وحازَ فيها سَبْقاً لا يُقْدَرُ قَدْرُه . وقـد جُمِعَتْ من كَلِمَاتِه التي لم يُسبَقْ اليها ولا قَدَر أحدٌ أن يُفرِغَ في قالَبِه عليها كقوله حَمِيَ الوَطِيس وماتَ حتْفَ أَنفِه ولا يُلدَغُ المؤمن من جُحْرٍ مرَّتين والسعيدُ من وُعِظ بغَيْرِه في أخواتِهـا ، ما يُدرِكُ الناظِرَ العجَبُ في مُضَمَّنِها ويذهَبُ به الفكرُ في أدَاني حِكَمِها وقد قال له أصحابُه ما رَأينا الذي هو أفصَحُ منك فقال : وما يَمنَعُني وإنَّما أُنزِلَ القُرآنُ بلِسَاني لِسَانٍ عرَبِيٍّ مُبين . وقـال مرةً أخرى : أنا أفصَحُ العَرب بَيْدَ أنِّي من قُرَيش ونشَأتُ في بَني سَعْد فجُمِع لـه بذلك صلى الله عليه وسلم قُوَّةُ عارِضَة البَادِية وجَزالَتُها ونصَاعَةُ الفـاظِ

الحاضرة ورَوْنقُ كلامِها الى التَّأييد الإلهي الذي مَدَدُهُ الوَحيُ الذي لا يُحيطُ بعلْمه بَشَري وقالتْ أمُّ مَعْبد في وَصفهـا له حُلوُ المنْطق فَصْلٌ لا نَزْرٌ ولا هَـذْر كأنَّ مَنْطقَه خرزَاتٌ نُظِمْنَ وكانَ جَهِيرَ الصَّوْت حسَن النَّغمَة صلَّى الله عليه وسلَّم .

الألقابُ والنعوتُ

لابن الحاج الفاسي

يتعيَّن على العالم أن يتحفَّظ من هذه البِدعة التي عمَّت بهـا البَلْوَى وقلَّ أن يَسلَم منها كبير أو صغير وهي ما اصطَلَحُوا عليه من تسميتهم بهذه الأسماءِ القريبة العهد بالحدُوث التي لم تكُن لأَحد ممَّن مضَى بل هي مُخالِفة للشرع الشريف وهي فلانُ الدِّين ، والعالِمُ أولى من يتحفَّظ على نفسه من هــذه الأشياء ويذُبُّ عن السنَّة في حق نفسه وفي حق غيره . . . ألاَ ترَى أن هذه الاسماء فيها من التَّزْكيَة ما فيهـا فيَقعُ بسببها في المُخـالَفة بدليل كتاب الله وسُنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم وأقوالِ العلماء . أمَّا الكتاب فقوله تعالى : « فلَا تُزَكُّوا أنفُسَكم » وقوله تعالى : « ألَمْ ترَ الى الذين يُزَكُّون أنفُسَهم بَـل اللهُ يُزَكِّي مَن يشَاءُ ولا يُظلَمُون فَتيلاً ، أنظُرْ كيفَ يفترُون على الله الكذبَ وكفَى به إثماً مُبيناً » وأمَّا السنَّة فقولُ رسول الله صلَّى الله عليـه

وسلم : لا تُزَكُّوا على الله أحداً ولكن قولوا إخاله كذا وأظنُّه كذا وأما قولُ العلماء فقد قال أبو عبد الله القُرْطبي رحمه الله في كتابه شرحِ أسماءِ الله الحُسْنَى فقد دلَّ الكتابُ والسنةُ على المَنْع من تزكية الانسانِ نفسَه ، ثم قال : قال علماؤنا ويَجري هذا المَجْرَى ما قد كثُر في الدِّيَار المِصرِية وغيرِها من بلاد العِرَاق والعَجم مِن نَعتِهم أنفسَهُم بالنعوت التي تقتضِي التزكيةَ والثَّناء كزَكِيِّ الدِّين ومُحْيِي الدِّين وعلَم الدِّين وشِبْهِ ذلك هـ.

... فاذا قال مثلاً مُحْيِي الدين أو زكِيّ الدين فلا بُدَّ أن يُسْأَلَ عن ذلك يومَ القيامة ويُقالَ له هذا هو الذي أحيَى الدِّين وهذا هو الذي زكَّى الدِّين الى غير ذلك فكيفَ يكون حالُه إذ ذاك حينَ السؤَال بل حين أخذِهِ صَحِيفَتَه فيجدُها مَشْحُونةً بما تقدم ذِكْرُه من التزكية ؟ وقد اختلف علماؤنا رحمةُ الله عليهم في هذه الآية « ما يَلْفِظُ من قَوْل إلَّا لَدَيْه رَقِيبٌ عَتِيد » هل الملائكةُ الكرام يكتُبون كلَّ ما يتلفَّظ به الشخصُ المكلَّفُ كانَ ما كان أو لا يكتُبون الا ما تضمنَّه الأمرُ والنَّهْي وعلى هذا القول الثاني هي المسألةُ التي نحنُ بسبيلها اذْ انها احتَوتْ على اشياءَ مذْمومة في الشرع الشريف وهي [illegible] لغيره والكذِبُ ومخالفةُ السلف رضي الله

ولو وَقف أمرُنا على هذا لكان قريباً لانه اذا تقرر عندنا أن هـذا كذبٌ وتزكية يُرَجى لأحدِنا التَّوبَةُ والاقلاعُ ولكن زِدْنا على ذلك الامرَ المخوفَ وهو أنّا نرى أن ذلك جائزٌ أو مَنْدُوب اليـه بحسَب ما سوَّلَتْ لنا انفسنا من أن الناس اذا خُوطِبُوا بغير هذه الاسماء تشوَّشُوا من أجل ذلك وتولّدت الشَّحناءُ والبغضاءُ فوضعنا لهم التزكيةَ الخالِصةَ حتى لا يتشَوّشُوا ولا تتولّد البغضاءُ ولا العداوة . لا جَرَمَ أن العداوة والبغضاء والشحناء قد كمنت عند بعضِهم وحصل منها أوْفَرُ نصيب كلُّ ذلك بسبب هذه البدعة فبقيت البَواطن متنافِرةً مع الأذهان في الظاهر فأدّتْ هذه البدعةُ الى الامر المخوف لانّ صفةَ المنـافق ان يكون باطِنُه ومُعتقَدُه خلافَ ظاهِره نعوذُ بالله من ذلك .

ولوكانت هذه الاسماءُ تجوزُ لماكان احـدٌ اولى بها من أَصحاب رسول الله ﷺ إذْ انهم شُموسُ الهدى وأنوارُ الظُّلم وهم انصارُ الدين حقا كما نطقَ به القرآنُ والخيرُ كله في الاتباع لهم في الاعتقاد والقول والعمل . ألَا ترَى الى النبي صلى الله عليه وسلم لمَّا أن دخل بزَيْنَب أمِّ المؤمنين رضي الله عنها قال لها ما اسمك قالت بَرَّةُ ، فكَرِهَ ذلك الاسمَ وقال لا تُزكُّوا أنفسَكم لِما فيـه من اشتقاق اسم البِرّ ومعلومٌ بالضرورة انها ما اخْتيرَتْ لِسيّد الاولين والآخرين الّا وهي من البِرّ بحيث المنتهَى لكنَّه عليه الصلاة والسلام كرِهَ ذلك الاسم وان كان حقيقةً لِما فيه من التزكية فجدَّد اسمها زينب وكذلك فعله عليه الصلاة والسلام مـع جُوَيْرِية أمِّ

المؤمنين (وكانَ اسمها بَرَّةَ أيضا) فاذا كَرِه ذلك في حق مَن فيه ذلك حقيقةً ونهى عنه بقوله لا تُزَكُّوا انفُسَكم فما بالُك باحوالنا اليوم ؟ ومِن هذا الباب ايضاً ما خرَّجه ابو داود في سُننه عن شُرَيْح عن ابيه هَانِيء رضي الله عنه انه لما وَفَد على رسول الله ﷺ مع قومه سمعهم يُكنُّونه بأبي الحَكم فدعاه رسول صلى الله عليه وسلم فقال ان الله هو الحَكَم واليه الحُكم فلِمَ تُكنَّى ابا الحَكَم فقال ان قومي اذا اختلفوا في شيء أَتوني فحكَمْتُ بينهم فرَضِيَ كلا الفريقَيْن بحُكْمي فقال رسول الله ﷺ ما احسنَ هذا فما لَك مِنَ الولَد فقال لي شُرَيْح ومُسْلم وعَبدُ الله قال فمن اكبرُهم قال شُرَيح قال فانتَ ابو شُرَيْح .

فان قال قائل انما هذه الاسماء مَجازٌ لا عِبْرةَ بها وقد صارَتْ ايضاً كاسماءِ الأعلام حتى لا يُعرَف احدٌ الا بها فقد خرَجتْ عن باب التزكية الى باب اسماء الاعلام كالعبَّاس وعَلِي . فالجوابُ ان هذا يرُدُّه ما نُشاهِده في الوجود مُباشرَةً وهو ان الواحدَ منَّا اذا قيلَ له اسمه العَلَمي الشرَّعي كالعبَّاس وعَلِي تشوَّش من ذلك على مَن ناداه به ووَجدَ عليه الحنَقَ لكونه ترَكَ ذلك الاسم وعدَل عنه الى غيره فهذا يُوضِّح ويُبَيِّن أن التزكيةَ باقيةٌ مقصودة في هذه الاسماء وانها لم تبرَح ولم تخرُج عن موضِعها الذي وُضعت له . مع انه لو لم يكُن فيها لا كذِبٌ ولا تَزْكيةٌ لَكان مَنْهِياً عنها لان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن التشبُّه بالاعاجم وهذه الأسماء ما ظهرتْ الَّا من قِبَلِهم . وقد رأيتُ لبعض الشيوخ ممن

يُقتدى بهم في العلم والفتوى والدين يقول إنه ادرك اَباه وَمن كان في سنِّه لا يَتَسَمَّوْن بهذه الاسماء ولا يعرفونها وكان سببها انَّ التُّرْكَ لما تَغَلَّبُوا على الخلافة تسمَّوْا اذ ذاك هذا شَمسُ الدَّولة وهذا ناصِر الدَّولة وهذا نجم الدَّولة الى غير ذلك فتشَّوفت نفوسُ بعض العوام ممن ليس له علم الى تلك الاسماء لِما فيها من التعظيم والفخر فلم يجِدُوا سبيلاً اليها لأجل عدم دُخولهم في الدولة فرجعوا الى امر الدين فكانوا في اول ما حدَثتْ عندهم هذه الأسماء اذا وُلِدَ لاحدهم مَوْلود لا يقدر ان يُكنِّيه فلان الدين الا بامر يخرُج من جِهة السلطان فكانوا يُعطُون على ذلك الاموالَ حتى يُسمَّى ولدُ احدهم بفلان الدين فلما إن طال المَدَى وصار الأمرُ الى التُّرْك فلم يبق لهم بالتسمية بالدولة معنى اذ أنها قد حَصلتْ لهم فانتقلوا الى الدّين ثم فشا الأمرُ وزاد حتى رَجعُوا يُسمُّون اولادَهم بغير مال يُعطونَه على ذلك ثم انتقل اليه بعضُ مَن لا علم عنده ولا عمل ثم صار الأمرُ مُتعارَفاً مُتعاهَدا حتى أَنِسَ به بعضُ العلماء فتواَطئُوا عليه فانّا لله وانا اليه راجعون . كان الناسُ يقتدُون بالعالم ويهتدُون بهَدْيه فصار الأمرُ الى ان يُحدِثَ الاعاجمُ ومَن لا علم عنده شيئاً فيقتدي العالِمُ بهم فلا حول ولا قوة إلا بالله على عكْسِ الأمورَ وانقلاب الحقائق . ولم يرضَ الامامُ الحافظ النَّوَوي رحمه الله من المتأخرين بهذا الاسم قطُّ وكان يكْرَهُه كراهةً شديدة على نُقِلَ عنه وصحَّ وقد وقع في بعض الكتب المنسوبة اليه رحمه الله أنه قال اني لا أجعَلُ احداً في حِلٍّ ممَّن يسّميني بمُحْيي

الدِّين وكذلك غيرُه من العلماء العاملين بعلمهم . وقد رأيتُ بعضَ الفضلاء من الشافعية من أهل الخير والصلاح اذا حكى شيئاً عن النَّوَوي رحمه الله يقول قال يحيى النَّوَوي فسألتُه عن ذلك فقال إنا نكْرَه أن نُسميه باسم كان يكْرهُه . فعلى هذا فهذه الاسماء انما وُضِعَتْ عليهم تفضُّلاً وهم بُرءَاءُ من ذلك .

النارجيل
لابن بطوطة

وهو جَوْزُ الهند وهذا الشجَرُ من اغرَب الاشجار شأناً واعجَبِها امراً وشجرُه شِبْهُ شجر النخل لا فرق بينهما الا ان هذه تُثْمِرُ جَوْزا وتلك تثمر تمراً وجوْزُها يُشْبِه رأسَ ابنِ آدم لان فيه شِبْه العينين والفم وداخِلُها شِبْهُ الدِّماغ اذا كانت خضراء وعليها لِيفٌ شِبْهُ الشَّعر وهم يصنَعُونَ منه حِبالًا يخيطُون بها المَراكِب عوضاً من مَسامِير الحديد ويصنعون منه الحبال للمَراكب والجوْزَة منها وخصوصاً التي بجزائر ذيبة المُهْل ، تكون بمقْدَار رأَسِ الآدَمي ويزعُمون ان حَكيماً من حكماء الهند في غابر الزمان كان مُتَّصلا بملك من الملوك ومُعظَّما لديه وكان للملك وزير بينه وبين هذا الحكيم مُعادَاة فقال الحكيم للملك ان رأسَ هذا الوزير اذا قُطِعَ ودُفِنَ تخرُج منه نخلَةٌ تُثْمِرُ بثمر عظيم يعودُ نفعه

على أهل الهند وسِواهم من أهل الدنيا فقال له الملك فان لم يظهر من رأس الوزير ما ذكرته قال ان لم يظهر فاصنع برأسي كما صنعت برأسه ، فأمر الملك برأس الوزير فقُطِع واخذه الحكيم وغرس نواة تمر في دماغه وعالجها حتى صارت شجرةً واثمرت بهذا الجوز وهذه الحكاية من الاكاذيب ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم .

ومن خواصّ هذا الجوز تقويةُ البدن واسراعُ السِّمن والزيادةُ في حُمْرة الوجه واما الاعانة على الباءة ففِعْلُه فيها عجيب ، ومن عجائبه انه يكونُ في ابتداء امره اخضرَ فمن قطع بالسكين قِطعةً من قشره وفتح رأسَ الجوزة شربَ منها ماءً في النهاية من الحلاوة والبرودة ومِزاجه حارٌّ معينٌ على الباءة فاذا شربَ ذلك الماء اخذ قِطعةَ القِشرة وجعلها شبه الملْعقة وجرَّد بها ما في داخل الجوْزة من الطعْم فيكون طعْمهُ كطَعْم الجوزة اذا شُوِيت ولم يتِمَّ نُضْجها كلَّ التمام ويُتغذَّى به ومنه كان غذائي في ايام اقامتي بجزائر ذِيبة المُهْل مُدَّةً من عامٍ ونصْفِ عام ومن عجائبه انه يُصنعَ منه الزّيتُ والحليبُ والعَسل .

فاما كَيْفِيةُ صناعة العسل منه ويسمون فإنّ خُدّام النخل منه الفازانية يصعَدُون الى النَّخْلة غدواً وعشياً اذا ارادوا اخذ مائِها الذي يصنعون منه العسل وهم يسمُّونه الأطواق فيقطَعُون العِذْقَ الذي يخرُج منه الثَّمَر ويتركُون منه مِقْدار اصبَعَيْن ويربِطون عليه قِدْراً صغيرة فيقطر فيها الماء الذي يسِيلُ من

العِذْق فاذا رَبطها غُدْوةً صعد اليها عَشِيةً ومعه قَدَحان من قَشْر الجوْز المذكور احدُهما مملوءٌ ماءً فيصبُّ ما اجتمع من ماء العِذق في احد القَدَحين ويغسِلُه بالماء الذي في القَدَح الآخر وينجُرُ من العذق قليلاً ويربِطُ عليه القِدْر ثانيةً ، ثم يفعل غدوةً كفعله عَشِيا فاذا اجتمع له الكثير من ذلك الماءِ طبَخه كما يُطبَخ ماءُ العنب اذا صُنِعَ منه الرُّبُّ فيصير عَسلاً عظيم النفع طيّبا فيَشتَرِيه تُجّــارُ الهند واليَمَن والصّين ويحمِلُونه الى بلادهم ويصنعون منه الحلواء .

وأما كيفية صُنْع الحليب منه فان بكل دارٍ شِبْهَ الكُرْسي تجلِسُ فوقه المرأةُ ويكون بِيَدها عصًى في أحد طرَفَيْها حديـــدة مُشرِفَة فيفتَحُون في الجوْزة مِقدارَ ما تدْخل تلك الحديدة ويَجرُشون ما في باطن الجوْزة ، وكلُّ ما ينزل منهـا يجتَمِـعُ في صَحفَة حتى لا يبقى في داخل الجوزة شيء ثم يُمرَسُ ذلك الجريشُ بالمـــاء فيَصِير كلَوْنِ الحليب بياضاً ويكون طَعْمه كطعْمِ الحليب ويأْتدِمُ به الناس .

وأما كيفية صُنْع الزَّيت فإنهم يأخذُون الجوزَ بعد نُضجِه وسُقُوطه عن شجَرِه فيُزِيلُون قِشرِه ويقطعونه قطعاً ويُجعَــل في الشمس فإذا ذَبل طبَخُوه في القُدور واستخرَجوا زيتَه وبه يستصبِحون ويأتدِمُون به ويجعله النساء في شعُورِهِن وهو عظيم النفع .

أصول الطريق

للشيخ زرّوق

أصولُ طريقتنا التي تنبني عليها عشرةُ أشياء : خمسةٌ ظاهرة وخمسةٌ باطِنة . أما الخمسةُ الظاهرةُ فأوُلها مُلازَمة السمع والطاعة لأمراء المسلمين وعامّتِهم وخاصّتِهم من أهل الله ، فلا يُخالف عليهم بقول ولا بفعل بل إيمان وتسليم ، الثاني لزُوم الخَمْس في الجماعة بحسَب الامكان فإن كان في الجامع الأعظم فهُو أوْلَى وتكفِي المرأةُ والصبيُّ وأيٌّ مَن كان مِن المسلمين في تحصيل فضلها ، الثالث القناعةُ بقليل الرزق وكثيره بأيٍّ وجه تحصَّل من الوجوه المُباحة ، الرابع إقامةُ الأوراد الشرعية بِحَسَب ما يكون صالحاً بالانسان في دينِه ودُنياه وذلك يختلِف باختلاف الناس ، الخامس إيثار الخُمول بتَرْك الفضول وعدَم المُنازَعة والعِناد في كل قول وفعل وفي ذلك يقول القائل :

وقائِلَةٍ مَالِي أراكَ مُجانِباً ... أُموراً وفيها للتِّجارة مَرْبَحُ
فقلتُ لها مَالِي بِربحِكِ حَاجةٌ ... فنَحنُ أُناسٌ بالسَّلامة نَفْرَحُ

وأما الخَمسة الباطِنيَّة فأوُلها الاعراض عمَّا يُرجى أو يُخشى من قِبَل الخلق بأن لا يُرجَى [illegible] نفعٌ ولا جلْبٌ ولا يُتوَجّه اليهم [illegible] بان لا [illegible] إيجاك

قلّت أو جلّت إلا منه . الثالث إقامةُ رَسمِ الشريعــة بلزوم الأسباب من غير استناد ولا اعتماد ، بل كما قال ابنُ عَطاءِ الله : لا بُــدَّ من الأسبابِ وُجوداً والغَيْبةِ عنهـا شُهوداً فأثبتها من حيثُ أثبتَهـا الحقُّ بحِكْمته ولا تَسْتَنِدْ اليها لعِلْمك بأَحدِيَّته . الرابع الخُروُج من الكُلَف بأن تُكَلِّف ولا تَتكَلَّف وان جرَى لك شيء من ذلك فلا تُعْدله ودَع الخَلْقَ وما دُفِعُوا اليه فمُرادُ الحق ما هم عليه . الخامس أن لا تعمَل عَمـلاً إلا بقَصدٍ ونِيَّة فكلُّ عمـل لا تصحَبُك فيه نِيَّةٌ ولا قَصدٌ صالِحٌ فلا تَقرَبه فـانه لا فائدة فيه .

وبعدَ هــذه الخمس خمسٌ لا بدّ لك منها ؛ مُجـامَلةُ الخلق ، ومُحاسَنَتُهم في الأمور والحذَرُ منهُم في عـين حُسن الظنِّ بهم ، ومُوافَقتُهم في كل أمر لا يُخالِف الشرعَ ولا يضُرُّ بالدنيا ولا يُنقِصُ العَقل ، وإتباعُ العِلْم في كل وِرْدٍ وَصدَر ، فقد قــال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : العِلْمُ إمامُ العمَل والعملُ تابِعُه . وقال صلى الله عليه وسلم : لِمن استوْصاه اتّقِ اللهَ حيثُ كنتَ وأَتبِـع السيئةَ الحسنةَ تمحُها وخالِق الناسَ بخُلُق حَسَن فمِن ثَمَّ قال الشيوخ : الانسانُ مُبتَــلىً بنفسه والوقُوعُ في المعصية لا يقضي بعدم الاستدراك ، فالواجبُ على المُريـد أن لا يَعزِم على محذور ولا يُفرِّطَ في مأمور فإن وَقع فليُبادر المعصِيَّةَ بالتَّوبة والنَّقيصَة بالإنَابة . والفرقُ بين المعصيَّة والنَّقيصة أن المعصيَّة ما فيه إثمٌ كالزِّنى والنقيصة ما فيه عيبٌ كالطَّمَع .

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : إجعَل التَّقوى وَطنَك ، ثم لا يضرُّك فَرحُ النفس ما لم تَرضَ بالعيْب أو تُصرَّ على الذَّنب أو تسقُطَ منك الخشيَة بالغَيْب اه. وهو مَدارُ الأمر وجُملتُه وبالله التوفيق .

التـاريخ والألفاظ المُسْتَعملة فيه

لأحمد بن عضون

اعلم أن الأدباء والكتَّاب اختلفُوا في التاريخ هل يكون بما مضى من الشهر أو بما بَقِيَ منه أو بهما . فمِنهم من يُؤَرِّخ بما مضى كانَ أقلَّ مما بَقِيَ أو أكثر أو مُساوِياً فيقول لِثلاثٍ خَلَوْن ولِعَشر خلَون ولا يؤَرِّخ بما بَقِي لأنه مجهول لأن الشهرَ يكون من ثلاثين ومن تسعة وعشرين كما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وهذا القولُ ارتضاه الأكثرون لِأَنه أسلَمُ من الكذب . . . ومنهم من يؤرخ بالأقل سواءً كان ماضِياً أو باقِياً قصداً لاختصارِ اللفظ وتقريبه فيقول لثلاثٍ بَقينَ ولا يقول لِسبعٍ وعشرين خلَتْ ويقول لثلاثٍ خلَتْ ولا يقول لسبع وعشرين بَقِيَت . ثم اختلف القائلون بهذا اذا استوَى الماضي والباقي فمنهم من يُجوِّز التاريخ بالماضي وبالباقي أيَّهما شاء ،

ومنهم من يؤرخ بالماضي فقط ، وبعضُ المتأخرين أجاز التحرّز في التاريخ بالباقي فيقول لِثلاثٍ بَقِين ، إنْ بَقِين . والتاريخُ بالليالي دونَ الأيام ، بهذا استمر العمل قديماً حِفظاً على الليلة السابقة وإشعاراً بأن الشهر قَمَرِيّ تسبِقُ الليلةُ نهارَها في دخوله وجرياً على مَهْيَع العرب في تغليب المؤنَّث على المذكر في التاريخ .

قال الرُّعَيْني عَدل أهلُ العصر ومَن قَبلهم قريباً الى التاريخ بالأيام فيكتبون في الأول مِن كذا وفي الثاني ثم يُتبِعُون الأيام يوماً بعد يوم الى آخر الشهر وسقَط بذلك تكلُّف خلَت وخلَوْن وبَقِيت وبَقِين ، وأكثرُ العمل الآن عليه وهو أقبَلُ من الأول ، وليس فيه ما زَعَمُوا من إغفال الليلة فإنَّ الليلةَ وانْ دلَّت على يومها فاليومُ أقوى دلالة عليها لتقدُّمها عليه قال وتحُدُّ المذكّر إن أرختَ بالأيام على الأصل من ثُبوت التاء في الأول وتُسقِطها من الثاني عكسَ المؤنّث ولم تثبت التاء في الثاني من المذكر وإن كان ذلك الأصلَ قبلَ التركيب لئلا تَجمَع بين علامتَي تأنيث في كلمة ، فَإنَّ الاسمين قد صُيِّرا اسماً واحداً من أحد عشر الى تسعة عشر .

واعلم أنه ليس شيءٌ من أسماءِ الشهور يُضاف اليه شهرٌ إلّا ثلاثةٌ رمضان ورَبيعان قيلَ لأنها كلَّها أعلامٌ للشهور الموضوعة عليها أو صِفَات قامت مقامَ الاعلام إلا الربيعَين ورمضانَ فإنها باقيةٌ على الصفة المحضة .

ويقال مُحرَّم والمُحرَم وذو قَعِــدة وذو القَعدة وذو حِجة وذو الحِجة وما سواها من الشهور لا يقال بالألف واللام لأنها أعلامٌ وتلك لُمحَ فيها الوصف الاصلي .

والشهور كلها مُذكَّرة إلا جُمادَى تقول جمــادَى الأُولى وجُمادَى الثانية ويقال جُمادَى الآخِرَة بمدّ الهمزة والأَخِـيرة بقصر الهمزة وياء بعد الخاء ولا يُقال الاخرى فإن الأُخرى تأنيثُ الآخَر بفتح الخــاء وكذلك الايام تُذكَّر كلُّها إلا الجمعة .

وقال في المَنهَج : الأَلفــاظ التي تُستعمَل في أول الشهر : مُفتَتَح ومُهِلّ وغُرّة وصَدْر وعُقْب بضم العين وسكون القــاف أو ضمهما فيقال وذلك في مفتتح كذا وفي مُهِلّه وغُرَّته وصَدْره وعُقْبه ، فأما المُفتتح فيقال في أول يوم منه خاصةً ، وأما الغرةُ فيقــال في اليوم الاول والثاني والثالث ، لا خلافَ في ذلك ، وأما المهل ففيه خلاف منهم من يجعله كالمفتَتح ومنهم من يجعله كالغرَّة ، وأبو عليّ الفــارسي منَع أن يقال في أول يوم من الشهر مُسْتَهَلّ لأَن الاستهلالَ قد انقضى ونصَّ على أن يؤرخ بأول الشهر أو بغُرته أو بليـلة خلت منه ، وأما العُقب بالضم فقال بعض النحويين يقع على ما تقع عليه الغرة ، ومنهم من قال : يقال جئت في عُقْب الشهر اذا جئتَ بعـــد ما مضى ولم يَحُدَّ هذه البَعْدية بيوم ولا بيومين ولا بثلاثة ، وأما الصدرُ فقيل الذي

يظهَر من كلام بعض النحاة واللغويين أنه كالغرَّة وقيل من أوله الى ثُلثه وقيل الثلثان والنصف وكلا القولين مستَقرأٌ من المُدوَّنة .

وأما الالفاظ التي تُستَعمَل في وسَط الشهر فهي وسَط ومُنتصَف وسَواء فيقال : وذلك في وسط شهر كذا وفي منتصَفه وسَوائه ، وهذه الالفاظ ظاهرة في النصف لا غير ويصح في لفظ الوسَط أن يكون للعشْر الأَوَاسِط لأَنها وسَطٌ باعتبار أن قبلَها عشْراً وبعدَها عشراً .

وأما الالفاظ التي تستعمل آخر الشهر فهي عَقِب بفتح العين وكسر القاف أو سكونها ومُنسَلَخ وسَلْخ فيقال وذلك في عقِب شهر كذا ومنسلَخ شهر كذا وسلْخه فالعقب للثلاثة الأَخيرة منه والمنسلخ والسلخ لليوم الاخير منه والصواب أن لا يؤرخَ بالعَقِب لا في أول الشهر ولا في آخره لئلا يُصَحَّف أحدُهما بالآخَر فيقع اللبْس .

قال الرُّعيني وتكتُب في العشرة الأُولى حملاً على المعنى والأَوَل حملاً على اللفظ ، والوُسطى والوسَط والآخِرة والأَواخر ولا تقُل الأُخرى لئلا يلتبس بالتَّواني وتمتنع الأَوائل والأَواسط والآخَر لما فيه من وصف المؤنث بالمذكر .

التوشيحُ والوَشّاحُون

للإفـــراني

التوشيح لغةً مأخوذٌ من الوِشاح قال في الانوار والوِشاحُ خِرْزٌ تنظَّم بجواهرَ وأحجار نَفِيسة نَظْمَين مختلفين تتقلَّد بهما المرأة يلْتقِيان عند صدْرِها وبين كَتفيْها كحمَائل السيف ومنه التَّوْشِيح الذي في الحديث وهو أن يُخالِفَ الرجلُ بين طرفَي الثوب آخذاً لهما من تحت إبطَيْه عاقِداً لهُما على رَقبتِه اه . ومن هذا التوشيحُ عند أهل البديع ومُختَرِعُه قُدامَةُ وهو أن يكُون أولُ الكلام دالّاً على لفْظٍ ولهذا سمَّوْه توشيحاً فإنه يتَنزّل المعنى فيه بمنزِلَة الوِشاح ويتنزّلُ أولُ الكلام وآخِرُه منزلةَ العاتِق والكَشْح اللذين يجول عليهما الوِشاح .

ومن غريب التوشيح البديعي ما ذُكِرَ أن عَدِيَّ بنَ الرّقاع أنشد الوليدَ بن عبد الملك بحضرة جَرير والفَرزْدَق قصيدَته التي أولها : عرفَ الدّيارَ توَهُّماً فاعتادَهــا ، حتى انتهَى لقوله : تُزْجِي أَغَنَّ كَأَنَّ إبرَةَ رَوْقِه ، ثم شُغِلَ الوليدُ عن الاستماع فقطَع عَدِيٌّ الانشادَ فقال الفرزدق إنه سيقول :

قَلَمٌ أصابَ من الدّواةِ مِدادَها ، فلمّا عادَ الوليدُ للاستماع وعـاد

للانشاد قال : قلمٌ أصابَ من الدَّواة مِدادَها ، فقال الفرزدَقُ : واللهِ لما سمعتُ صدرَ بيته رَحِمْتُه فلما أنشأ عُجزَه انقلبت الرحمة حسَداً

وقال الشريف الغرناطي (أبو القاسم الشريف) في شرح المقصورة لما أنشد أبياتَ ابن الزقّاق ومنها :

على عاتِقي مِن سَاعِدَيْها حَمائِلٌ وفي خَصْرِها من سَاعِدَيَّ وِشاحُ

استعمل ابنُ الزقّاق الوِشاحَ في معنى النِّطاق وهو ما تُديرُه المرأةُ على خَصْرِها والوشاحُ ما تتقلّدهُ على عاتِقها فيكونُ منها في مَوْضِع حَمائِل السيف من الرُجل. وقد خُطِّيءَ أبو تمّام في قوله :

مِن الهِيف لو أنّ الخلاخِلَ صُوِّرت
لهــا وُشحاً جالَتْ عليه الخلاخــلُ

لأنه استعمَل الوِشاح في الحِقاب ، وإنما وَصفُوا الوِشاح بالقَلَق والحرَكَة لأن ذلك يدل على رِقّــة الخَصْر وضُمُور البَطن ، وسُمِّي التوشيحُ توشيحاً أخذاً من وَشّح بمعنى زَيّن ، قـــال الثعالبي على قول الحِلّي :

ما رَوضةٌ وشّحَ الوَسْمِيُّ بُرْدَتَها ، ما نصه وشّح هو من التوشيح وهو التّزيين يقال : وشّحتُ الشيء اذا زينته ومنه الوشاح اه.

وأما التوشيح عُرْفاً فقال ابنُ خلدون ان أهل الأندلس لما كثُر

الشعر في قُطرهم وتهذَّبت مَناحِيهِ وفُنونُه وبلَغ التَّنميقُ فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فنّاً سمَّوه بالمُوَشَّح ينظِمُونَه اسماطاً اسماطاً وأغصاناً أغصاناً يُكثِرُون منها ومن أَعاريضِها المختلفة ويسمُّون المتعدِّد منها بيتاً واحداً ويلتزِمُون عدَد قوافي تلك الأغصان وأوزَانها مُتتالياً فيما بعدُ الى آخرِ القِطعة وأكثرُ ما ينتهي عندهم الى سبعةِ أبيات ويشتمل كلُّ بيت على أغصان عددها بحسَب الأغراض والمذاهب ويَنسبُون فيها ويمدَحون كما يُفعَلُ في القصائد اه. ولم يلتزِموا في أوزانه بحْراً من البحور الخمسةَ عشَر بل صَنعُوا على كلّ بحرٍ منها وربَّما استعملوه في الألحان المُوَلَّدة والطُّبُوع المختَرَعة والنَّغمات المستحدَثة الخارجة عن أوْزَان العرب رأساً وهذا الاستعمال أغلَبُ عليهم ، ثم قال ابن خلدون :

وأولُ من اختَرع التواشيح بجزيرة الأندلس مُقدَّمُ بنُ مُعافِر القبري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المَرْوَاني وأخذَ عنه ذلك أبو عبدِ الله أحمدُ بنُ عبد ربه صاحبُ كِتاب العِقْد ولم يظهر لَهُما مع المتأخرين ذكر وكسَدت مُوَشَّحاتُهما ، فكان أَولَ من برَع في هذا الشأن بعدَهما عُبادَةُ القَزَّاز شاعرُ المُعتصِم بن صُمَادِح صاحِب المريَّة وقد ذكَر الأعلَم البَطَلْيَوْسي أنه سَمِعَ أبا بكر بنَ زُهر يقول الوَشَّاحون كلُّهم عِيَالٌ على عُبادةَ فيما اتَّفق له من قوله :

بَدْرُ تَمّ شَمْسُ ضُحَى غُصْن نَقَا مِسْكُ شَمّ
ما أَتَمّ ما أوْضَحا ما أوْرَقا ما أَنَمّ
لا جَرَمْ مَن لَمَحا قد عَشِقَا قد حُرِمْ

وزعمُوا أنه لم يَسْبِق عُبادةَ وشَّاحٌ من مُعاصِريه الذين كانوا زمَنَ الطَّوائف وجاء مِنْ بعدِه جماعةٌ منهم ابنُ ارْفَع رَأْسه شاعرُ المأمون بن ذي النُّون صاحِب طُليطِلة قالوا وقد أحسنَ في ابتداء مُوشَّحتِه التي طارت له حيث يقول :

العُودُ قد ترَنَّمْ بأَبْدع تَلْحِين وشَقَّت المَذانِبْ رياضَ الياسمِين

وفي اثنائها يقول :

تَخْطر ولم تُسلِّم ، عساك المأمون
مُروِّع الكتائِب ، يحْيَى بنُ ذِي النُّون

ثم جاءت الحلْبةُ التي كانت في أيام المُلثّمين فظهَرتْ لهم البدائع فمِنْ فُرْسَان حلْبَتهم الأَعمى التُّطيلي ويحيَى بنُ بَقِي ، ومن مُوشَّحات الأعمى :

كيفَ السبيلُ الى صَبْري وفي المَعالِم ، أَشْجَانُ
والرَّكْبُ وَسْط الفَلا بالخُرَّدِ النَّواعِم ، قد بَانُوا

وذكر غيرُ واحد من المشايخ أن أهلَ هذا الشأن بالاندلس يذكرون أن جماعةً من الوشّاحين اجتمَعُوا في مجلِس من اشبيلية وكان كلٌّ واحد مِنهُم قد صنَع مُوشّحةً وتأنّق فيها فتقدم الاعمى التُّطِيلي فلما افتتَح موشحتَه المشهورة بقوله :

ضَاحِكٌ عن جُمَان ، سَافِرٌ عن بَدْرِ
ضاقَ عنهُ الزَّمان ، وَحَواهُ صَدْرِي

خرّقَ ابنُ بَقِي مُوشّحتَه وتبِعَه البَاقُون وذكَر الأَعْلَم البَطليُوسي انه سمِعَ ابنَ زُهر يقول ما حسَدتُ قطُّ وشّاحاً على قولٍ إلا ابنَ بَقِيّ حِينَ وقَع له :

أما تَرى أَحْمَد في مَجْدِه العَالِي لا يُلحقُ
أَطلَعه الغَرْبُ فأَرِنَا مِثْلَهُ يا مَشْرِقُ

وكان في عصرِهما من الوشّاحين المطبُوعين أبو بكر الأَبيَض وكان في عصرِهمَا أيضاً الحكيمُ ابنُ بَاجة صاحِبُ التّلاحِين المعروفة ، ومن الحكايات التي اشتهَرت عنه أنه حضَر مجلس مخدُومه ابنِ تيفلويت صاحب سرَقُسطة فألقَى على بعض قَيْنَاتِه مُوشّحتَه :

جرِّرِ الذيلَ ايّما جرّ وصِلِ الشُّكْر منك بالشُّكْر

فطرِبَ الممدوح حتّى ختَمها بقوله :

عقَــدَ اللهُ رايَةَ النصر لامير العَــلا أبي بَكر

فلما طرقَ ذلك التلحينُ سمــعَ ابن تيفَلويت صاحَ : واطرباه وشقَّ ثيابه وقال ما أحسنَ ما بدأتَ به وما ختمتَ وحلَف بالأَيمان المغلَّظة لا يمشِي ابنُ باجة الى داره إلا على الذهب فخاف ابنُ باجــة سوءَ العاقبة فاحتال بأن جعَل ذهباً في نعله ومشى عليه وذكر أبو الخطاب بن زُهر[1] أنه جَرى في مجلس أبي بكر بن زُهر ذكرُ أبي بكر الابيض الوشّاح المتقدم الذكر فغَضَّ منه أحدُ الحاضرين فقال كيف تغُضُّ ممن يقول :

ما لذّ لي شُربُ رَاح على رياض الاَقاح
لولا هَضِيمُ الوِشَاح اذا انثَنى في صَباح
أو في الاصيل اَضحَى يقُول ما لِلشَّمُول لَطمتْ خَــدّي
وللشَّمَال هبَّــتْ فَمــال غُصْنُ اعتِدَال ضَمَّه بُرْدي
مِمَّا أبادَ القُلوبا يمشي لنا مُستَريبا يا لَحظه رُدْ نُوبا ويالَماهُ الشَّنِيبا
بَرِّدْ غَليل صَبٍّ عَليل لا يَستَحِيل فِيه عن عَهْد

---

[1] ـ كذا عند الافراني وفي مقدمة ابن خلدون ونظنُّ ان الصواب ابو الخطاب ابن دحية .

ولا يزَال في كلِّ حال يرُجو الوِصَال وهو في الصَّد

واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين محمد بن ابي الفضل ابن شرَف قال الحسن ابن دُوَيْدَة حسدتُ حاتِمَ بن سعيد على هذا الافتتاح:

شمسٌ قارنَت بدْراً راحٌ ونَديم

وابن هُرْدُوس الذي له :

يا لَيْلَةَ الوَصل والسُّعودِ بالله عُودِي

وابن مُؤَهل الذي له :

ما العِيدُ في حُلَّةٍ وطاق، وشَمِّ طِيب وانَّما العِيدُ في التَّلاق ، معَ الحبيب

وابو اسحاق الزُّوَيْني قال ابن سعيد سمعتُ ابا الحسن سهل ابن مالك يقول انه دَخل على ابن زهر وقد أسنَّ وعليه زيٌّ البادية اذ كان يسكن بحصن اسْتَبَّة فلم يعرفه فجلس حيثُ انتهى به المجلس وجرَّت المحاضرةُ أَن أَنشَد لنفسه مُوَشَّحةً وقعَ فيها :

كُحْلُ الدُّجى يَجْرِي من مُقْلة الفَجْر على الصَّباح
ومِعْصمُ النَّهر في حُلل خُضْر من البِطاح

فتحرَّكَ ابنُ زهر وقال انتَ تقول هذا قال اختَبِرْ قال ومن تكون فعرَّفه فقال ارْتَفِع فوَالله ما عرَفْتُك قال ابنُ سعيد وسابِقُ الحلبة التي

ادركتْ هؤلاء هو أبو بكر بن زهر وقد شرَّقت موشحاته وغرَّبت . قال وسمعت أبا الحسن ابن سهل بن مالك يقول قِيلَ لابْنِ زُهر لو قِيلَ لك ما ابْدَعُ ما وقع لك في التوشيح قال كنتُ اقول :

ما لِلْمُوَلَّه من سُكْرِه لا يُفيق يا لَه سَكْرَان

قال في نفح الطيب هذا مَطْلِعُ مُوَشَّح يستَعْمِلُه أهل المغرب الى الآن ويَروى انه من احسن الموشَّحات قلت وابو بكر بن زُهر هو أول من عصر سُلافَةَ التوشيح لاهلِ عصرِه ولذلك قالَ فيه تلميذه ابو الخطَّاب بن دِحْيَة في كتاب المُطْرِب من اشعار أهـل المغرب والذي انفَرد به شيخنا المُوَشَّحـات وهي زُبدَةُ الشِّعر وخلاصتُه. من الفُنون التي أغرَبُ فيها أهلُ المغرب على اهل المشرق .

... قال ابن خلدون واشتهر بعد ابنِ زُهر ابن حَيُّون والمُهْر بنُ الفَرس بغرناطة قال ابن سعيد ولما سَمِعَ ابنُ زُهر قولَه :

لله ما كان مِن يَوْم بَهيج بِنَهْرِ حِمْص على تلْك المرُوج

ثمَّ انعطفنا على فَمِ الخليج

نفُضُّ مِسْكَ الختام عن عَسْجدِيِّ المُدَام

ورِداءُ الاصيـل تَطْويه كَفُّ الظَّلام

قال اينَ كُنَّا من هذَا الرداء وكان معه في بلدِه مُطَرِّف أخـبر ابنُ

سَعيد عن والده ان مُطَرِّفاً هذا دخل علي ابن الفرس فقام له وأكرَمه فقال لَا تفعَل فقال ابنُ الفرس كيف لا أقوُمُ لمن يقول:

قلُوبٌ تصابَتْ بألحاظ تُصيب فقُلْ كيفَ نبْقَى بلا وَجْد

وبعد هؤلاء ابن حَزْمُون بمُرْسِيَة ذكرَ ابنُ الرئيس ان يحيى الخَزْرَجي دخـل عليه في مجلس فانشده مُوَشَّحة لنَفْسه فقال له ابنُ حَزْمُون ما الموشحُ بموَشَّح حتى يكونَ عارِياً عن التكَلُّف قال مثـلَ ماذا ؟ قال على مثل قولي :

يا هَاجِري هل الى الوِصال مِنْـكَ سَبيل
أَوْ هَل يُرَى عن هَواكَ سَال قَلْب العَليـل

وابو الحسن بنُ سهل بن مالك بغرناطـة قال ابن سعيد كان والدي يُعجَب بقوله :

إنَّ سيْلَ الصَّباح في الشَّرْق عادَ بَحراً في أجْمَعِ الأُفْق
فتداعَتْ نَوادِبُ الوُرْق أتُراها خافَتْ من الغَرق
فبكت سُحرةً على الوَرَق

واشتهَر باشبِيلِيةَ لذلك العهد ابو الحسن بن الفضل قال ابن سعيد عن والده سمعتُ سهلَ بن مالك يقول يا ابن الفضل لك على الوشّاحين الفضل في قولك :

فَوا حَسْرَتا لِزَمانٍ مضى   عشيةَ بانَ الهوى وانقضى
وأُفردتُ بالرَّغم لا بالرِّضا   وبتُّ على جمرٍ جَمْرِ الغَضا
أُعانِقُ بالفِكْر تلك الطُّلول   وأَلثمُ بالوَهْمِ تِلْكَ الرُّسوم

قال وسمعتُ ابا بكر الصّابُوني يُنشِد الاستاذ ابا الحسن الدبّاج موشحاتِه غير ما مرَّة فما سمعتُه يقول لله درُّه الّا في قوله :

قسمًا بالهوى لذي حِجْر   ما لِلَيْل المشوق من فَجْر
جمد الصُّبْح ليس يطَّردُ   ما لِلَّيْلي فيما اُظنُّ غدُ
صحَّ يا ليلُ انكَّ الأبدُ
أوْ فقُصَّت قوادِمُ النَّسْر   فنُجُوم السَّماءِ لا تَسْرِي

واشتهر ببرّ العُدْوة ابنُ خلف الجزائري صاحبُ الموشّحة المشهورة:
يــدُ الصباح قــد قدَحتْ   زِنادَ الانوار، في مجامر الزَّهر

وابن زَجر البِجائي وله من موشحة :
ثغرُ الزّمان مُوافِــق   حيّــاك بابْتسام

قال ابنُ خلْدُونَ ومن محاسِن الموشّحات للمتأخّرين موشَّحةُ ابنِ سهل شاعر اشبيلية وسَبْتة من بعدِها فمنها قولُه :

هل درَى ظَبْيُ الحِمَى أن قدْ حمى   قلْب صب حلَّه عن مكنَس

فهْوَ فِي حرّ وخفْقٍ مِثلمــا لَعِبَتْ رِيــحُ الصبا بالقَبَسِ

واما المَشارقةُ فالتكَلُّف عندهم ظاهر على ما عانوْه من المُوَشّحات ومن احسن ما وقع لهم في ذلك مُوشّحةُ ابنِ سَناءِ المُلْك المِصري اشتهرتْ شرقاً وغرباً واولها :

يَا حبيبي ارفع حِجَابَ النُّور عن العِذار
تنظُرِ المسْكَ على الكَافور في جُلنَّـــار
كلِّلي ، يا سُحْبُ تِيجَان الرُّبى بالحُــــــلِي
واجْعَلِي ، سِوَارَهـــا مُنْعَطِفَ الجــدْوَلِ

ومن احسن موشحـــات المَشارقة مُوشّحةُ عبد العزيز بنَ سَرايا الحـــلّي :

شُقَّ جيْبُ الليْلِ عن نَهْدِ الصَّباحِ ايُّهَا السَّاقُون

وله :

جرَّدَ الأفقُ صارِمَ الفَجْر مِن جُفُونِ الغَسَق

تقسيم العلوم الى فلسفية وملّيّة

وبيان ما تواطأت عليه الملة والفلسفة منها

لأبي علي اليوسي

العلوم على الجملة إما قديمة واما حادثة ، وان شئت قلت أمّا فلسفية واما ملّيّة ، أو اما قديمة واما اسلامية ، وهو أضبط لأن من القديم ما ليس بفلسفي كعلوم العرب ، غير أن هذه لمّا لم تكن علوماً مهمّة صحّ أن لا يُبالى بها في التقسيم بل يُقتصر على ذكر الفلسفية والاسلامية وما سوى ذلك يُذكر تبعاً فنقول : أما الفلسفية فمنها مقبول في الملّة ومنها مردود ، والمقبول منه مأخوذ ومنه متروك ، ولنبدأ بتقسيم الفلسفيات جرياً مع عباراتهم فيها مع الإلمام بما يُقبل وما لا ، فنقول : العلم إمّا مقصودٌ لذاته أو لغيره ، أما الأول فهو الفلسفة الأولى المقصودُ بها تكميلُ النفس الناطقة والاطلاعُ على حقائق الأشياء بقدر الطاقة وهو إما نظريّ واما عمليّ ، والأول اما مُجرّد عن المادة مطلقاً وهو العِلْم الالهي أو في الذّهن فقط وهو العِلم الرّياضي أو مُقيّد بالمادّة وهو العلم الطبيعي ، والثاني اما مُتعلّق بنفس الشخص من حيث هي ويسمى سياسةَ النفس وعلْمَ الأخلاق أو بها وبما يحتاج

اليه من شهوات قوَاها وهو علم تدبير المَنزِل ، أو بما يعُمّ وهو المَلَكية والسَّلْطنة ، فان كان الحافظُ لنظامها والقائمُ بأحكامها الظاهرة والباطنة شخصاً دلَّت عليه القِرَانات الكبار وتميَّز عن البَشر بما أُفيضَ عليه من قُوى المجرَّدات فهو النبي وهو دولة النبوءة ، وان كان قائماً بتدبير ظواهرها فقط ودلَّت عليه القِراناتُ المتوسطة فهي السَّلطنة وهو السلطان ، وقد يعُمُّ حكمُه وقد يخصّ .

قلت أما دَلالَاتُ القِرانات الكبار والمتوسِّطة فلا مانعَ منه ، إذ لا مانع أن يُجرِيَ الله تعالى عادَته بخَلْق شيء أو إنزال شيء أو تخصِيص شيء ما بشيء عند طلوع كوكب أو غُروبه أو اجتماعِه بكوكب آخر أو بَيْنُونَتِه عنه أو قُرْبه منه أو بُعْدِه ثم يُلْهِم الله من يشاء من عباده علمَ ذلك فيعلَم ويحكُم به اتِّباعاً لتلك العادة ولا تأثير في شيء من ذلك لشيء ، بل التأثيرِ كله لله تعالى الواحد القهار ، وأما الفيْضُ من قُوَى المجرَّدات فهو وَهْم باطل لا حاصل له ، فكلُّ ما يثبتونه من المُجرَّدات والعقل الفيَّاض باطل ، وإنما الله تعالى واحدٌ موجود واجبُ الوجود وكل موجود من هذه العوالم حادثٌ أَثرٌ عنه خَلقَه بقُدرته ومَشيئته عن عَدم ، وهو تعالى المخصَّص للنبي بما اختَصّ به من النبوءة والكرامة ، وهو المُمِدُّ له ولغيره لا إلهَ ولا فاعلَ ولا مُعطِيَ ولا مانعَ غيرُه سبحانه .

وأما الثاني أعني المقصودَ لغيره ، فإما للذّهن وما يُنَـاط به من المعاني وهو المنطِق ، واما لِلّسان وما يُناط به من الألفاظ وهـو الأدب ، وهذا مُحدَث .

ثم ان الشريعة المطهّرة على القَيِّم بها أفضلُ الصلاة والسلام جاءت بما يُغنِي عن العلوم العمَلية المذكورة فتُرِكَت ، وذلك أن مَدارَها اما على حفظ النفس وهو في الشريعة بالقِصاص ونحوه ، واما على العقل وهو فيها بتحريم ما يُزِيله والحدّ عليه ، أو المالي وهو فيها بالتَّنْمِية بالتِّجارات وسائر المُعامَلات وحَـدّ الحِرَابة والسَّرِقة وتحريم الرِّبا والغِش ونحو ذلك ، أو العِرْض وهو فيها بحد القَذْف مثلاً أو النَّسبِ وهو فيها بتحليل النكاح وتحريم السِّفاح وحَـدّ الزنى ، أو تهذيبِ النفس بالتخْلِية والتحْلِية ، والقيـام بالتعبُّد ومعرفة المعبُود والاعتراف بالشرع ومَن جاء به وهو مبسُوط فيها على أكمل وجهٍ وكذا سياسةُ العِبَاد بالنبوءة والِخلافة فأسقَط المتأخرون هذا القسمَ من علوم القدماء استغناءً عنه واقتصَرُوا على الأقسام الباقية أعني العلم الالهي والرياضي والطبيعي والمنطقي .

أما العلم الالهي فهو العلم الباحث على الموجود من حيثُ ثبوتُـه وما يعرِضُ له أو على المعلوم من حيثُ هو على الِخلاف في موضوعه، ومَنفعتُه تبيينُ المعتقَد الحق من الباطل وسُمِّيَ إلهيـاً لأن فيه أحكامَ

الربوبية وهـذا العِلْمُ هو المقصود بالذات للانسان في كَمـاله وفَوْزه في الدارين وكلٌّ ما سواه من العلوم تَبَعٌ له فما كان منهـــا دينيا فوَسِيلةٌ اليه وما كان دنيوياً فبِمَثابَةِ الخديم له ولهذا توَفَّرت رغباتُ العقـلاء على طلَبِه ثم اختلفت الطرُق اليـه فمِن العقلاء من رَام إدراكَه بالنظر وهم الحكماء ومنهم من رَام إدراكَه بالرياضة بالُجوع والعُزْلة والَخلْوة كالنسَّاك وهم الصُّوفية في مِلَّتنا ومِنهُم مَن رامَه بالنظر وليس من أهـله فأخطَأَ الحقَّ وضلَّ وأَضل كالثَّنوِيَّة والُمعَطِّلَة وسائِر الُمنْكِرين للشرائع، ومنهم من عجَزَ ورامَ التعلُّق بالموْلى تعالى على ما هو شأنُ العُبودية أَوْ غفَل فأمدَّهم الله تعـــالى فضلاً منه ومِنَّةً ببعث الرسل مع التأييد بالعقل الصائب ...

وأما العلم الرياضي فهو العلم الباحث عمَّا تجرد عن المادَّة في الذهن فقط كما مرّ ، وأنواعُه أربعة : علمُ الهندسة ، وعلم الهيئة ، وعلمُ العدد ، وعلم الموسيقى وذلك أن نظَره في الكَمّ وهو اما متَّصل بأن يُفرَض بين أجزائه حدّ مشترَك تتلاقَى عنده وكلاهما أما قارُّ الذات بأن يكون مُجتمِـع الأجزاء في الوجود أولا ، فالأول علم الهندسة وموضوعه الكمُّ المتصِل القارُّ الذات وهو المقدار فهو عـــلم يعرف به أحوال المقادير ولواحِقُها وأوضاعُها وأشكالُها ، ومنفعتُه اكتسابُ الحدَّة وارتيــاضُ الفكر مع ما يستتبع ذلك من المصالح في الأبنية والمنازل وغير ذلك ويتفرع عنه عشرة علوم ، والثاني علم الهيئة وهو العـــلم الباحث عن

الأجرام البسيطة فلكيـــةً أو عنصريةً من حيث الكمُّ والكيفُ والحركةُ والسكونُ وموضوعه الأجرام المذكور من تلك الحيثية فمَرجِعُ مبحثه الزمان وهو الكمُّ المتصل غيرُ القارِّ الذات ، وهـــو محتـاج الى علم الهندسة لأن مقدّمَاتِ بَراهِينه منها والعلوم المتفرعـــة عليه خمسة ... والثالث علمَ العَدد وهو العـــلم الباحث عن العدد من حيث انقسامُه الى الزوج والفرد والى الصحيح والكَسْر وغير ذلك وما يعتريه من الأحوال كالضرب والجمع والقسمة ونحو ذلك وموضوعـــه العدد من تلك الحيثية وهـــو الكَمُّ المنفصِل ومنفعتُه ارتياضُ الذهن وضَبْطُ الأموال والمعاملات ويتنوع الى ستة أنواع ... والرابع عـــلم الموسيقى وهو العلم الباحث عن النَّغَم وما يعتَريها من الإيقاعات وانتظام اللُّحُون المختلفة وإيجاد الآلات الصالحة لذلك ...

وأما العلم الطبيعي فهو العلم الباحث عن الجسم الطبيعي أي المَادّي وهو المحسُوس من حيث هـــو مُعَرَّض للتغيُّر والانفعال والثبات في أحواله وموضوعه الجسم من تلك الحيثية وفائدته معرفة أحـــوال الأجسام البسيطة والمركبة من الأفلاك والعناصر والمُولَّدات والاطلاع على موادهـا وصُورَها وعِلَلها وغاياتها وأعراضِهـــا اللازمة والمُفارِقة وسائر خواصِّها وأسرارها الغريبة ويتفرع منه عشرة علوم ...

وأما المنطق فهو العلم الباحث عن المعلومات التصوُّرية والتصديقية

من حيث التأدِّي بها الى مجهول تصوُّري أو تصديقي ، وموضوعه المعلومات من تلك الحيثية، ومنفعتُه تقويم الفكر عن الزيغ وحِراستُه عن الخطأ في المَدارك ونَاهيك بها فهو المعيار على العلوم كلِّها ولذا قيل مَن لا معرفةَ له به لا وُثوقَ بعلمه ... وهذا آخر العلوم الفلسفية وقد تواطأ على بعضِها الملَّةُ والفلسفة كالعلم الإلهي والطبِّ والعِبَارة[1] والتوْقِيت فهي موجودة في لسان الشرع ، وأُدخِلَ منها في الملة ما عمَّت منفعتُه ، وعظُمت فائدته ، مع هذه المذكورة ، كالمنطق والحساب وما يحتاج اليه من علم الهيئة ومن علم الهندسة كالتكسير ، وكثير منها متروك إلا في الخصوص لعدم الحاجة اليه أو لقصور الهمم عنه ، وجملةٌ منها دنيوية بَقِيَت في أيدي العامّة من الفلاحين والبنَّائين ورؤساء البحر وأهل السحر وخُطاط الرمل ونحو هؤلاء ، ولا بأس بجميعها فنحن لا نلْتَفِتُ الى مَن يُحرِّم علم شيء منها فان العلم في نفسه هو غِذَاءُ العقل ونُزهَةُ الروح وصفة الكمال ، وإنما تختلف ثَمراتُه في الشرف بحسب الموضوع والغاية ، وتختلِفُ الأحكام بحسب النية حتى ان علم السِّحْر الذي يحرُم استعمالُه باجماع لو تعلَّمه أحدٌ ليؤذيَ به مَعصُومَ الدَّم، كان تعلُّمه حراماً كعمَله ولو تعلَّمه لمجرد أن يعرفه فيُميز بينه وبين المعجزة مع ما تقدم من الفوائد كان تعلُّمه جائزاً أو واجباً .

---

١ – يعني علم تعبير الرؤيا .

كما مر ، وعلم الأدب الذي هو جائز باجماع لو تعلَّمه أحد لقصد أن ينبُغَ في الشعر فيهجوَ من لا يجوزَ هجوُه أو يمدح من لا يجوز مدحه كان تعلمه حراما في حقه ، وإنما الأعمال بالنيات ، والمردود منها إنما هو جُمَل من العلم الإلهي أو من علم الطب وعلم الهيئة ونحوها .

القلم في اللغة

لأكنسوس

وهو القلم والمِزْبَر بالزاي والمِذْبَر بالذال المعجمة سُمي بذلك لأنه يُزبَر به ويُذْبَر أي يُكْتَب وقد فرّق بعضُ اللغويين بين زَبرتُ وذَبرتُ ، فقال زبرت بالزاي كتبتُ وذبرت بالذال قرأتُ وسمِّي قلما لأنه قُلِمَ أي قُطِع وسُوِّي كما يُقْلَم الظُّفْرُ وكلٌّ عودٍ يُقطَع ويُحَزُّ رأسُه ويُعَلِّم بعلامة فهو قَلَم ولذلك قيل للسِّهام أقلام ، قال الله تعالى : إذْ يُلقُون اقلامَهُم أيُّهم يكفُلُ مَرْيَم وكانت سِهاماً مكتوباً عليها أسماؤُهم . ويقال للذي يُقلَمُ به مِقْلَم ولِما يُبرَى به مِبرىً ومِبراةٌ وقد بَرْيتُه أبريه بَرْياً وحَصْرَمتُه حَصرمةً عن ابن الاعرابي . وقيل لِما يسقُط عن التَّقليم القُلَامة وعن البَرْي البُراية وجَمْعُ القَلم أقلام وقِلام كجَبَل وجِبال . وقيل لاعرابي ما القَلم فجعل يُفكِّرُ ويقلِّب اصابِعَه

وينظُر فيها فقال لا أدري فقيل له توَّهمه في نفْسِك فقال عُودٌ قُـلِمَ رأْسه وجوَانِبُه كتَقليم الظُّفُر .

ويقال لِعُقَده الكُعوب واحِدُها كَعْب فان كانت فيه عُقْدة تَشينُه وتُفسِده فهي الأُبنَة ويقال لما بَين العُقَد الأَنابِيب واحدُهـا أُنبُوب والمَقَالِم واحدُها مِقلم . والأنابِيبُ والكُعوب تستعمَل ايضاً في الرِّماح وفي كل عودٍ فيه عُقَد وكذلك الأُبَن . فان كان في القَصبة او العُود تأكُّل قيل فيه قادِح وفيه نَقَد وكذلك في السِّنِّ . قال جَميل :

رَمى الله في عَيْنَي بُثَيْنَة بالقَذَى وفي الغُرِّ من أنيابِهـا بالقَوادِح

وقالَ الهُذَلي :

تَيْس تُيُوس اذَا يُناطِحُها يَألَم قَرْنـا أَرُومه نَقِـدُ

ويقال لباطِنه الشَّحمة ولظاهره اللِّيط فان قَشَرت منه قِشْرة قُلت لِطْتُ من القلم لِيطَة أي قشَرتُها واللِّيطُ ايضاً اللونُ قال ابو ذويب :

اذا اصفَرَّ لِيطُ الشمس حانَ انقلابُها[1] .

ويقال للقَصب اليَراع وقال قوم الإبَاء اطرافُ القَصَب والواحدة يَراعة وإباءة قال مُتمِّم بنُ نُوَيرة يذكُر فرساً :

١ ــ الشطر في الاصل غير مستقيم ولم يظهر لنا معناه وهذا عن التاج .

ضافِي السَّبِيب كأَن غُصنَ إِبَاءة　　رَيَّان ينقُضُه اذا ما يُقْرَع

ويقال للقُطن الذي يُوجَد في جَوْف القصَبة البَيْلَم والقِنْصِفُ والفَشغ واحدها بَيْلَمة وقِنْصِفة وفَشغة فان كان فيه عِوَجٌ فذلك الدَّرْءُ وكذلك العُود ، قال الشمَّاخ :

أقامَ الثِّقافُ والطَّرِيدَة دَرْءَها　　كما أَخرَجت ضِغْن الشُّمُوس المهَامِز

والطَّرِيدة خشبة صغيرة فيها حديدة تُسوَّى بها الرماح ونحوها . ويقال لغِشَائه الذي عليه الغِلاف واللِّحاء والقِشْر فاذا نزَعتَه قلتَ قشَرتُه وقَشوته وقَشيته ولَتمتُه وكشأْتُه ولَحَوْتُه ولفأته ولحيته وسحَفته وسحَيْته وسَحَوته وحَلقتُه وجَلهتُه ووسَّفتُه ونقَحتُه ، ويقال لطرَفيه اللذَين يُكتَب بهما السِّنَّان واحدُهما سِنّ والشَّعيرتَان واحدتهما شَعيرة فاذا قطعتَ طرَفيْه وهيأتَه للكتابة قلت قططتُه أَقُطُّه قَطّا وقضِمتُه اقضَمه قضماً والمِقَطُّ بالكسر يُقطُّ عليه والمقَطُّ بالفتح الموضِعُ الذي يُقطُّ من رأسه ، قال أبو النجم :

كأنما قُطَّ على مَقَط .

وقال المقَنَّع الكِندي يصف القلم :

يحفَى فيُقطَم من شَعيرة انفه　　كقُلامة الأظفور في تَقلامِه

فاذا انكسرت سِنُّه قيل قَضِم يَقضَم قَضَماً كحذِر يحذَر حذَراً وكذلك كل تكسُّر في سنّ أو سيْف أو رُمح أو سكّين فان أخذتَ من شَحمتِه بالسكين قلتَ شَحمتُه أشحَمه شحماً فاذا افرطتَ في الأخذ منها قلت بطَّنتُ القلم تبطيناً وحفرتُه حَفراً وقلَم مُبَطن ومحفُور واسم موضِع الشحمة الُحفرَة فاذا تركتَ شحمتَه ولم تأخذ منها شيئاً قلت : أشحمتُه إشحاماً ويقال للشَّحمة التي تحت بَريْةِ القلم الضَّرّة شُبهت بضرَّة الإبهام وهي اللُّحمة التي في أصلها كذا. قال ابنُ قتيبة في آلَةِ الكتَّاب وهو المعروف ولكنَّه خالَف في ادَب الكتَّاب فقال الألْيَه اللُّحمة التي في أصل الابهام والضَرة اللحمة التي تُقابِلُها . فان جعلتَ سِنَّي القلم الواحدةَ اطولَ من الأخرى قلت قلم مُحرَّف وقد حرَّفتُه تحريفاً وان جعلت سِنَّيه مُستوِيَّتين قلت قلم مبسوط وقلَم جَزْم فان سُمِع له صوت عند الكتابة فذلك الصَّرِيف والصَّرِير والرَّشق ويقال قلم مُذنَّب بفتح النون أي طويل الذنَب فاذا كثُر المداد في رأس القلم حتى يقطر المداد قيل رُعِفَ القلم يُرعَف رُعافاً شبّه برُعاف الانف ومجّ يمُجُّ مجّا وأرعَفه الكاتب إرعافا وأمَجَّه إمجاجا ويقال للكاتب استَمْدِدْ ولا تُرعِف ولا تُمجِجْ أي لا تُكثر من المداد حتى يقطر ويقال للخِرْقة التي يمسح بها الكاتب، الوَقيعَة بالقاف وعَن أبي عمرو الشَّيْباني انها الوَفيعَة بالفاء .

النبوغ المغربي

في الأدب العربي

تأليف

عبد الله كنون

الجزء الثالث

النبوغ المغربي

في ميزان القيمة

بقلم الأستاذ الكبير حنا فاخوري

الكتاب الذي كان له الأثر الضخم في العالم العربيّ ، والذي كان فتحاً من الفتوح ، هو كتاب « النبوغ المغربي في الأدب العربيّ » للعلاّمة المحقق والبحاثة المدقق عبدالله كنون الحسَني . كانت دراسات الأدب العربيّ في ازدهار ورقيّ ، وكان النقد ينتقل من طور التقليد الى طور التحرّي العلميّ الصحيح ، وحفلت المكتبة العربية بالكتب تلدها المطابع في خصبٍ عجيب . وفي زحمة هذه الثروة الأدبية لبث المغرب العربيّ مطويّ الصفحات ، مجهولَ الآثار وكأنه بعيد كلّ البعد عن الحركة الفكرية والفنية ، وكأنه لا وجود له في التيار العربيّ الزاخر . فكان لا بد من عبقرية جبارة تتسلح بسلاح الجرأة والإقدام ، وتتصدى للتيار في علمٍ وسلطان ، فتنشر ما طُوي فيه من صفحات ، وتتمّ ما اعتوره من نقص في سلسلة الحلقات ، وتوضح العمل الذي قام به النبوغ المغربيّ في ميدان الأدب ، والمشاركة التي له في رفع بناء الحضارة العربية . وكانت العبقرية التي هيأها الله تعالى لهذا العمل الفريد متجسّمة في ابن المغرب البارّ وعلاّمته الفذّ عبدالله كنون . وله وحده يعود الفضل في إحياء الآثار المغربية التي لا تقل قيمة عن سواها في سائر الأقطار العربية ، وله وحده يعود الفضل في توجيه الدراسة الأدبية توجيهاً يتناول الكلّ دون الجزء ، والبناء الكامل دون الأقسام المقسمة .

والذي يروقك في كتابة عبدالله كنون تلك الرصانة العلمية التي تتحرّى

الحقيقة في غير نزق ، والتي تتتبع أوثق المصادر في غير تحيز ، وتواجه الصعوبات في صبر وهدوء ، وتطلب المستحيل في ثقة العلم الصحيح ، واندفاعة الهمة التي لا تنثني. إنه لا يدلي بالرأي إلا بعد الدرس الطويل ، والمقارنات والتعليلات العميقة ، ولا يقدّم الحكم إلا بعد الجولات الواسعة في عوالم التاريخ والفلسفة والاجتماع والسياسة ، وبعد التنقيب الواسع في زحمة العوامل والبواعث أياً كان نوعها . ومن ثم تراه يفرض أحكامه فرضاً في غير تبجح ، ولا تطفل ، لا بل ترى آراءه ذات فعالية وسلطان تواجه العقل في قوّة ٍ جذّابة وتستولي عليه بما فيها من بلاغة إقناع ونصاعة حقيقة .

ومما لا شكّ فيه ان كتاب « النبوغ المغربيّ » كنز ثمين من كنوز العلم ، ومصدر من أوثق مصادره ، وموسوعة مغربية لا يقدرها حقّ قدرها إلا من لمس النقص في كتب الأدب وعرف هذا الجهل أو التجاهل الذي صدف بالكتّاب عن آثار هذا العالم الغني بعبقريّاته ، العريق في رقيه وحضاراته ، الجليل الأثر في توجيه الفكر العربيّ منذ أقدم عصوره .

حنا الفاخوري

المنتخبات الأدبية
قسم المنظوم

بسم الله الرحمن الرحيم

قسم المنظوم

أَتَيْنَا في قِسْم المَنْثُور وهو الجزء الثاني من هذا الكتاب ، بالآثار والمُنتَخَبات النَّثْرِيَّةِ التي رأينا انها تُعطِي نظرةً صادقةً عن إنتاج أدبائنا في مَيْدان الكِتَابة الفَنِّية والعِلْمِيَّة وما يتَّصِلُ بها من ضُروب القول وأنواع الخطاب .

وبَوَّبْنا تلك الآثارَ والمُنتَخَباتِ بحسبِ الاغراض الكلامية التي تدخُل في مَفْهُوم الادب على الاصْطِلاح القديم ؛ وهو الذي نُؤَرِخه في هذا الكتاب ، على أننا قد تَناوَلْنا بعضَ المَوْضُوعات التي لم تكُن تُعَدُّ في هذا الاصطلاح من مَشْمول الادب ، ولا يَزالُ الحَرْفِيُّون يُبْعِدُونها عن حَظِيرته جُموداً على المَساطِر ، وذلك كموضوع الدعاء الذي أَدْرَجْناه في باب التحميد

والصلاة ، بل إن هذا الباب كلّه من ذلك القَبيل ، وكموضوع البحوث العِلْمية والفنّية الذي عملْنا منه باباً مستقلا هو باب المقالات ، ونحن على يَقين أن القارىء المُتَفَتّح الذّهن سيَجد في ذلك مَتاعاً فِكْرياً ورُوحيًّا وحَلْقَةً لازِمَةً لِضَبْطِ الاتصال بين جَوانب الحياة العقلية والوِجْدانية على اختلاف مَناحِيها .

ونأتي الآن في قِسْم المَنظُوم الذي هو الجزء الثالث من الكتاب بالآثار والمُنتَخَبات الشعرية كما وعدْنا ، مُقَسَّمَةً الى الابواب المعروفة من الحَماسة والغَزَل والوَصْف والمَدْح وغير ذلك ، إلاَّ بابَ الهجاء فإنّا غوّضْناه بباب المُلَح ، وأدْرَجْنا فيه نماذِجَ من الهِجاء التي أكثرُ ما تُراد لشكلها لا لِمضْمُونها .

وقد خَتَمْنا ببابٍ خصّصْناه للمُوَشّحات والأَزْجال جَمْعاً للنظائر وعنايةً بهذا النوع من الادب المنظوم ، إذ كان يُمَثِّلُ حركةَ التجديد في الادب العربي عامةً على النّاطِقَيْن الخاصيِّ والعامّي ، فلم نَرَ بُدًّا من ترجيع صَدَى هذه الحركة في هذا الرّكْن النّائي من بلاد العُروبةِ ، وفاءً بغاية البحث الذي قدّمناه في الموضوع في عَصْرِ المُوَحّدين . وبالله التّوفيق .

الحماسة والفخر

لِلْمَوْلَى إدريس الازهر يُخاطِب بُهْلُول بنَ عبدِ الواحد وقد مال إلى إبْراهِيم ابنِ الأَغْلَب ، عاملِ الرَّشِيد على إفْريقية :

أَبُهْلولُ قد شَمَّتَ[1] نفسَك خُطَّةً تبدَّلْتَ مِنْها عَوْلَةً[2] برَشَاد

أَضَلَّكَ ابراهيمُ عن بُعْدِ داره فأَصْبَحْتَ مُنْقاداً بغَيْرِ قِيَاد

كأَنَّكَ لم تسمَعْ بمَكْرِ ابْنِ أَغْلَبٍ غَدَا آخِذاً بالسَّيْف كُلَّ بِلاد

وَمِن دُونِ ما منَّتْك نفسُكَ خالِياً ومَنَّاك إبرَاهيمُ شَوْكُ قَتَاد

ولِوَلَدِه القاسم لمَّا خرج عيسى بنُ إدريس على أَخيه محمد ، وكَتب له محمد يأمُره بحرب عيسى فامتَنع وقال مُعتذِراً عن ذلك :

---

١ – اي اطمعت نفسك بخطةٍ لم تدركها الاشمّا .

٢ – أي جوراً وميلاً عن الحق .

سأَتْركُ للرَّاغِبِ الغَرْبَ نَهْباً — وإن كنتُ في الغَرْبِ قَيْلاً[١] ونَدْبا

وأَسمُو الى الشَّرق في هِمَّة — يعِزُّ بها رُتَباً مَن أَحبَّا

وأَترُكُ عيسى على رأْيِه — يُعالِجُ في الغَرْب همًّا وكَرْبا

ولوْ كان قلْبي على قلْبِه — لَكُنتُ له في القَرابة قَلْبا

وإن أَحدثَ الدهرُ من رَيْبِه — شِقاقاً علينْا وأحدثَ حَرْبا

فإني أَرَى البُعدَ سِتْراً لَنا — يُجَدِّدُ شوْقاً لَدَيْنا وحُبَّا

ولم نَجْنِ قطْعاً لأَرحامِنا — نُلاقِي به آخِرَ الدهر عَتْبا

وتَبقَى العَداوَةْ في عَقْبنا — وأَكْرِمْ به حين نُعْقِب عَقْبا

وأَوْفَقُ من ذاكَ جَوْبُ الفَلاةِ — وقَطْعُ المَخَارِمِ نُقْباً فَنُقْبا[٢]

ولإِبْراهيم المُؤَبَّل يشكو الزمان ويفتخر :

لِلْبَيْنِ في تعْذيبِ نفسي مَذْهَبُ — ولِنَائبات الدهر عِنْدي مَطْلَبُ

أَمَّا دُيونُ الحادثات فإنَّها — تَأْتي لِوَقْتٍ صادقٍ لا تكذبُ

والبَيْنُ مُغْرًى كيدُه بذَوِي النُّهى — طبْعاً تُطبِّع والطبيعةُ أَغْلَبُ

---

١ — أي رئيساً .

٢ — المخارم رؤوس الجبال والنقب الطريق في الجبل.

أَيقَنتُ أَنّي للرَّزايا مَطْعَمٌ ودَمِي لِوَافِدَة المَكارِه مَشْرَبُ
فأَنا مِنَ الآفاتِ عِرْضٌ سالِمٌ وَجوانِحٌ تُكْوَى وعقْل يذْهَبُ

وللشريف الادريسي الْجغْرافي :

إنَّ عيباً على المَشارِق أن أَرْ جِعَ عنها إلَى ذُيُول المَغَارِبْ
وعجيبٌ يَضِيع فيها غريبٌ بعدَ ما جاءَ فِكرُه بالغرائِبْ
وَيُقاسِي الظَّما خِلالَ أُناسٍ قسَمُوا بينهم هَدايا السحائِبْ

ولعبد المؤمن بن عليّ يستنفِرُ العرب من بني هِلال لِلْغَزْوِ بجَزيرة الاندلس :

أَقِيمُوا إلى العلياء هُوجَ الرَّواحِل[1] وقُودُوا الى الْهَيْجاءِ جُرْدَ[2] الصَّواهل
وَقُومُوا لنَصْرِ الدِّين قَوْمَةَ ثائِر وشُدُّوا على الأعداءِ شَدَّةَ صَائِل
فما العِزُّ الا ظَهرُ أَجردَ سابِحٍ يفُوتُ الصَّبا في شَدِّهِ[3] الْمُتَوَاصِل
وأَبيضُ مَأْثُورٌ[4] كأَنَّ فِرِنْدَه على الماءِ مَنْسُوجٌ وليس بِسائِلِ

---

١ — أي الإبل السريعة .
٢ — الصواهل الخيل وجردها سوابقها .
٣ — أي جريه .
٤ — يعني سيفاً مشهوراً .

بَني العَمِّ مِن عُلْيا هِلَالِ بنِ عامرٍ وما جمعَتْ من بَاسِلٍ وابنِ بَاسِل
تَعالَوْا فقد شُدَّت الى الغزْوِ نِيَّةٌ عَواقِبُها مَنْصُورةٌ بالأَوائل
هِيَ الغَزْوَةُ الغَرَّاءُ والموعدُ الذي تنَجَّزَ مِن بَعْدِ المدَى المُتطاوِل
بها تُفْتَحُ الدنيا بِها تُبلَغُ المُنَى بها يُنصَفُ التحقيق من كل بَاطِل
أَهبْنَا بِكُمْ للخَيْر والله حسْبُنا وحَسْبُكُمُ واللهُ اعدَلُ عادِل
فما هَمُّنا الَّا صَلاحُ جميعِكُمْ وتسريحُكم في ظِلِّ أَخضَرَ هَاطِل
وتَسْوِيغُكُم نُعْمَى تَرِفُّ ظِلَالُها عَلَيْكُمْ بِخَيْرٍ عاجلٍ غَيْرِ آجل
فلا تَتَوَانَوْا فالبِدَارُ غَنِيمةٌ ولِلْمُدْلِجِ[1] السَّارِي صَفَاءُ المَنَاهِل

ولِحَفِيدهِ المنصور هذه الابيات كتب بها الى قَبَائِلِ سُلَيْم من ٱلعرب النَّازِلين بإفْريقية :

يا أَيُّها الراكبُ المُزْجي مَطِيَّتَه على عَذَافِرةٍ[2] تَشْقَى بها الأَكَمُ
بلِّغْ سُلَيْماً على بُعْد الديار بها بَيْني وبينَكُم الرَّحْمٰنُ والرَّحِمُ
ياقومَنالاتشُبُّواالحربَإنخمدَتْ وٱسْتَمْسِكُوابِعُرَىالايمانواعتصِمُوا

---

١ – الذي يبكر ويسري من آخر الليل .
٢ – جمع عذافر وهو الشديد من الابل .

كم جرَّبَ الحربَ مَن قد كان قبلَكُم ... مِن القُرون فبادَتْ دونَها الأُمَمُ

حاشَا الأَعارِبَ أَن ترْضَى بمَنْقَصَة ... يا لَيْتَ شِعْرِيَ هل تَراهُمُ علِمُوا

يَقُودُهم أَرْمَنِيٌّ لا خَلاقَ له[1] ... كأَنه بينَهُم مِن جَهْلِهِم عَلَمُ

اللهُ يعلَمُ أَنِّي ما دَعوْتُكم ... دُعاءَ ذِي قُوَّة يوماً فينتَقِمُ

ولا لَجَأْتُ لأَمرٍ يُستَعانُ به ... مِن الأُمور وهذَا الخَلْقُ قد علموا

لَكِن لأَجزِي رَسُول الله عن نَسَبٍ ... يُنمَى اليه وتُرْعَى تِلكُمُ الذِّمَمُ

فان أَتيتُم فحَبْلُ الوَصْل مُتَّصل ... وان أَبَيْتُم فعِنْدَ السَّيْف نَحْتَكِمُ

وللسيد عبد الله الموحِّد صاحبِ فاس :

أَلَسْتُ ابنَ من تَخشَى الليالي انتقامَهم ... وتَرْجُو نداهم غادِيَاتُ السَّحائب

يَخُطُّون بالخَطِّيِّ[2] في حَومْة الوَغَى ... سُطورَ المَنَايا في نُحور المَقانِب[3]

كتاباً باطرافِ العَوالي ونِقْسُه[4] ... دَمُ القَلْب مَشكُولاً بنَضْح التَّرائِب

١ ـ يعني بالارمني قرقوش مملوك بني ايوب الذي كان ذهب الى بلاد المغرب الادنى واوقد نار الحرب من طرابلس الى تونس مع ابن غانية، وارجع الى فصل توحيد المغرب العربي من الجزء الاول .

٢ ـ اي الرمح، نُسب الى الخط وهو محل تُقوَّم فيه الرماح .

٣ ـ جمع مقنب وهي الجماعة من الخيل تجتمع للغارة .

٤ ـ النقس المداد .

وما كنتُ أَدري قبلَهم ان مَعْشراً أَقامُوا كِتاباً من نفوسِ الكَتائب

ولابي العباس الجراوي في غزوة الأَرك الشهيرة :

هو الفتحُ أَعيا وصفُه النظمَ والنثرا وعمَّت جميعَ المسلمين به البُشْرى
وأَنجَدَ في الدُّنيا وغار حديثُه فراقت به حُسْناً وطابت به نَشْرا
تميَّز بالأَحجال والغُرَر التي أَقلُّ سناها يبْهَرُ الشَّمسَ والبدرا
لَقد أورد الإِدْفُونشُ شيعتَه الردى وساقَهمُ جهلاً الى البطشة الكبرى
حكى فعل إِبليس بأَصحابه الأُلى تَبرَّأ منهم حين أَوردهم بَدْرا
أَطارَتْه شَدَّاتٌ تولَّى أَمامَها شَريداً وأَنسَتْه التعاظُمَ والكُفرا
رأَى الموت للأَبطال حَوْلَيْه ينتقي فطار الى أَقْصَى مصارعه ذُعرا
وقد اوردته الموتَ طعنَةُ ثائر وان لم يُفارق من شقاوته العُمْرا
ولم يَبْقَ مَن أَفنى الزمانُ حُماتَه وجرَّعه مِن فَقد أَنصاره صِبْرا
ودارَت رَحى الهيْجا عليهم فأَصبحُوا هَشيماً طحيناً في مَهبِّ الصَّبا مُذْرى
يطير بأَشلاءٍ لهم كُلُّ قشْعَم فما شئتَ من نَسْر غدا بطنه قَفْرا
فكيف رأى المُغترُّ عقبى اغترارِهِ وكيف رأى الغَدَّار في غيِّه الغَدرا
وكان يرى أَقطارَ أَندلس له متى يَرْم لمْ يُخطِيء بأَسهُمه قَطرا
فسلاَّه يومُ الأَربعاء عن المُنى فما يرْتَجي مما تملَّكه شِبْرا

إذا عزَلتْهُ الـرُّومُ كانت نجَـاتُه وقدأَحرَقَتْجمرُ المنايا بِه عُذرا
فتَعْساً له مـا دام حيـا ولا مُنًى وكسْراً له ما دام حيا ولا جَبْرا

وله في غزوَةِ طُلَيطلة :

قد أُصليتْ نارَها العُداة وأُنجِزَت فيهم العِدَات
وعمَّهم بالدَّمـــار يومٌ تقصُر عن وصفه الرواة
مُشهَّـــر لا تزال تُتـلَى آياتُـــه وهي بيِّنـــات
فتحٌ مَفاتِيحُـــه المواضي والعزَمـــات المُؤَيدات
ردَّت حِمَى الفُونش مُستباحا بِيضٌ من الهند مُرهفَات
ذَلُّوا لأَمْـــرِ الاله قَسْرا وهُم أولُوا نَجْـــدة أُبَاة
وغرَّقت جمعَهم بِحـــارٌ أمواجُها الخيْلُ والكُماة
رأوا لحِزْب الاله صـبْراً والموتُ حُفَّت به الجِهات
فحاولُوا منهم انفِـــلاتاً وليس للخائن انفِـــلات
فلا تسَلْ عن بَنـــات ماءٍ إن صرْصَرتْ حولَهم بُزَاةُ

ولابْن حَبُّوس الفاسي :

رِدِ الطَّرْقَ [1] حتّى تُوافي النَّمِيرا فرُبَّ عَسيرٍ أَتاحَ اليَســـيرا

---

١ ــ الماء الكدر .

وأَرسلْ قَلُوصَك طوراً شَمـــالاً وطوراً جَنوباً وطوراً دَبُورا
وشُنَّ على غازِيات البـــلاد من النَّقْع والرَّمل جيشا مُغيرا
وفِر مـــاءَ وجْهك حتى تجمّ وأَطفِ السَّمومَ به والهَجِـــيرا
وطِرْ حيثُ أنتَ قويُّ الجَنا ح لا عذرَ عندك ان لا تطيرا
ولا تقعنَّ وأنتَ السليـــم حيث تُضاهِي المَهِيضَ الكَسيرا
فأُمُّ الترحُّـــل تدعى وَلُوداً وأُمُّ الإِقـــامة تُدعى نَزُورا
وذو ٱلعجز يرضع ثَدْياً حدُوراً[1] وذو العزم يرضع ثَدْيا دَرُورا
يَعِزُّ على النُّبل أني غـــدوتُ أُكنَّى أديبـــا وأُسمَى فقيرا
وأَني ثبَتُّ لِكَفِّ الزمان يُعرِّقُ عظمي عَرْقاً مُبِـــيرا
ومـــا ذاك أني هيَّابَـــةٌ أخافُ الرحيـل وأَشْنا المَسِيرا
ولكنْ بِحُكْم زمـــانٍ غدا يحطُّ الجِيـــادَ ويُسْمِي الحَميرا

وللقاضي ابي حفص بنِ عُمَر :

نهـــانِيَ حِلْمِي فـــلا أَظلِمُ وعزَّ مكاني فـــلا أُظْلَمُ
ولا بدَّ من حاسد قلبُـــه بنُـــورِ مآثِرنا مُظلِـــمُ

---

١ ـ أي شحيحا .

رحِمْتُ حسودي على أنــه ... يُقاسِي العذابَ وما يَرْحَمُ
هَجانا افْــتِراءً ولسْنا كَما ... يقولُ ولكِنْ كَما يَعْــلَمُ

وللأمير أَبي مالك عبد الواحد المريني :

فَرَّقتُ في المَيْدَان كُلَّ مَليك ... وجمَعْتُ بين جَراءَةٍ ونُسُوك
وجعَلْتُ للإِسْلَامِ حدًّا مالِكًا ... كي لَا يُعَيِّرَه العِدَا بِسُلُوك

وللسلطان ابي الحسن المَريني :

أُرَضِّـي اللهَ في سِرّ وجَهْـرٍ ... وأَحْمِي العِرْضَ عن دَنَسِ ارْتِياب
وأُعْطِي الوَفْرَ مِن مَالِي اختِياراً ... وأَضرِبُ بالسُّيوف طُلَى الرِّقَاب

ولمالك ابنِ المُرَحّل يستنفِرُ المجاهدين لقتال العدو بالأَندلس :

إِسْتَنْصَر الدينُ بكم فاستَقدِمُوا ... فإِنَّكُم إِنْ تُسلِمُوه يُسْلَم
لا تُسْلِمُوا الإِسلامَ يا إِخوانَنَا ... وأَسْرِجُوا لِنَصْرِه وأَلْجِمُــوا
لاذَتْ بكُم اندلُسُ ناشِدةً ... بِرَحِم الدِّين ونِعْـمَ الرحِمُ
فاسْتَرْحَمَتْكُم فارْحَمُوهــا إِنَّه ... لا يَرْحَمُ الرحمنُ مَن لا يَرحَمُ
ما هِيَ إلا قِطْعةٌ من أَرْضِكم ... وأَهلُهــا مِنكُم وانتُم مِنهُمُ
لكِنَّها حُدَّتْ بِكُلِّ كافِرٍ ... فالبَحْرُ[1] مِن حُدُودِها والعَجَمُ

---

١ ـ يقال للبحر كافر من الكفر بمعنى الستر لانه يستر ما فيه .

لَهْفاً على أندلسٍ من جَنَّــة دارَت بها مِنَ العِدا جَهَنَّمُ
استخْلَص ٱلْكُفَّارُ منها مُدُناً لِكُل ذي دِينٍ عليها نَدَمُ
قُرطُبةٌ هِيَ التي تَبْكِي لهــا مَكَّةُ حُزْناً والصَّفا وزَمْزَمُ
وحِمْصُ وهْيَ أُخْتُ بَغْدادَ وما أَيَّامُها إلَّا الصِّبَــا والحلُمُ
اسْتَخْلَصوها مَوْضِعاً فَمَوْضِعاً واقتَدرُوا واحتَكَموا وانتَقموا
وقتَــلُوا وَمَثَّلُوا وأَسَرُوا واحْتَمَلُوا وأَيْتَمُوا وأَيَّمُوا
أيَّامَ كانَ الخوفُ من أَعوانهم والْجُوعُ والفِتْنَةُ وهْيَ أَعْظَمُ
حتَّى إذَا لم يَبْقَ من حياتهــا إلا ذَماءٌ تَدَّعِيــه الذِّمَمُ
دَعُّوا[1] العُهودَ واْعتَدَوْا وما دَرَوْا بِأَنَّهــا بِحَبْلِكُم تَعْتَصِمُ
ظَنُّوا وكان الظنُّ منهم كاذِباً أَن لَيْسَ لِلّهِ جُنــودٌ تُقْدِمُ
ما صدَّقُوا ان وراءَ ٱلْبَحْرِ مَن يغضَبُ للاسلام حِــينَ يُظْلَمُ
ولا دَرَوا أَن لَدَيْكُم حُرْمَةً يحفَظُهــا شَبابُكُم والهَرِمُ
لوْ عَرفُوا قَبــائِلَ العُدْوَة ما عدَوْا على جِيرَانِهم واجْتَرَمُوا
اليومَ يَدْرِي كُلُّ شَيْطانٍ بِها أَنْ قد رَمتْهم بالشُّعاع الأَنجُمُ
تقــدَّمتْ نحوَهُم طلِيعَــةٌ مِن نحوِكُم أَحظَاهُم التقَدُّمُ

---

١ ـ أي دفعوها ونقضوها .

فانتصَفُوا لِلدِّينِ من أَعْدائِه واقترَعُوا عليْهِمُ واقْتَسَمُوا [1]

وامْتَلأَتْ أَيدِيهِمُ من السِّبا وأحسبَتْهُم نِعَمٌ ونَعَمُ

يا أهلَ هذي الارضِ ما أَخَّرَكم عنهُم وانتم في الامور أَحْزَمُ

تسابَقَ الناسُ إلى مَواطِنٍ الأَجرُ فيها وافِرٌ والمَغْنَمُ

تعزَّزَ الكُفَّارُ في دِيَارِهم وعَزمُوا أَن يَهْزِمُوا فهُزِمُوا

فمِن سُيُوفٍ في رُؤُوسٍ تَنْحَنِي ومِن رِماحٍ في ذُرًى تحَطَّمُ

وقامَتِ الحربُ على سَاقٍ فمَا زَلّتْ لأَهْلِ الصِّدْقِ منهم قَدَمُ

باعُوا مِن اللهِ ألْكريمِ أنفُساً كَرِيمَةً فَفاضَ منها الحِكَمُ

دَعاهُم اللهُ إلى رَحْمَتِه وحَيُّهُم بين يَدَيْه يُخدَمُ

يَضْرِبُ بالسَّيْف فيُرضِي رَبَّه وفي رِضَى الربِّ النعيمُ الأَدْوَمُ

مَيِّتُهم قد قَرَّ في رحمتِه اجتَمعوا بِبَابِه وازدحَموا

أَخرَجَه من بَيْتِه إيمانُه وحُبُّه في فِعْلِ مَا يُقَدِّمُ

ما هَمُّهُ إلّا قِتالُ أُمَّةٍ يُكبِرُ عِيسَى قولُهم ومَرْيَمُ

تُشرِكُ بِاللّه وتَدْعُو مَعهُ خَلْقاً يَصِحُّ جِسْمُه ويَسْقَمُ

وتدَّعِي أَنَّ لَه صاحِبَةً وابْناً ولا صاحِبَةٌ ولا ابْنُمُ

---

١ ــ أي أسروهم فصاروا يقترعون على اقتسامهم .

لَمْ يَثْنِـهِ عَن عَزْمِه اهلٌ ولا مالٌ ولا خَوْفُ نَعِيمٍ يُعـدَمُ
كيفَ وعَدْنٌ تحتَ ظِلِّ سَيْفِهِ والحُـورُ عن يَمِينِـه تُسَلِّمُ
وَاللهُ راضٍ عنه والخَلْقُ له يَدْعُونَ مَهْمَا كَبَّروا وأَحْرَمُوا
إخوَانَنا ماذَا القُعودُ بَعْدهُم أَفِي ضَمانِ اللهِ مَا يُتَّهَمُ ؟
هلْ هِيَ إلَّا جنَّةٌ مَضْمونَةٌ او عَوْدَةٌ صاحِبُها مُكَرَّمُ
خُذُوا السِّلاحَ وانفِرُوا وسَارِعوا إلى الذي مِن رَبِّكُم وُعِدْتُمُ
إن أَمامَ البَحْرِ مِن إخْوانِكُم خَلْقـاً لَهُم تلَفُّتٌ إلَيْكُمُ
ونَحْوَكُم عيونُهم ناظِرَةٌ لَا تَطْعَمُ النومَ وكيفَ تَطْعَمُ
والرُّومُ قد هَمَّتْ بِهِم ومَا لَهُم سِوَاكُمُ رِدْءٌ فأَيْنَ الهِمَمُ
كلُّهُم ينظُرُ في أَطْفَالِه ودَمْعُه من الحِذَارِ يَسْجُمُ
أَينَ المَفرُّ لا مَفَرَّ إنما هُوَ الغِيَاثُ أو إسَارٌ أَوْ دَمُ
يا رَبِّ وَفِّقْنا وأَلْهِمْنَا لِمَا فِيه لَنا الخَيْرُ فأَنتَ المُلْهِمُ
يا رَبِّ أَصْلِحْ حالَنا وبالَنا أنتَ بِما فِيه الصَّلَاحُ اعْلَمُ
يا رَبِّ وانصُرْنا على أَعْدائِنا يا رَبِّ واعْصِمْنا فأَنت تَعْصِمُ
يا رَبَّنا ما دَاؤُنا شَيْءٌ سِوى ذُنوبِنا فارْحَم فأَنتَ تَرْحَمُ

ولعبد العزيز المَلْزُوزي هذه المَلْحَمَة البارعة في ذكر غَزَوات يعقوب المنصور المَرِيني بالاندلس وغَزوات بنيه وقبائِل بني مَرين والعَرب .

بِحَمْد ٱلله أَفتَتِحُ الخِطابا ... وَأَبدأُ في النِّظام به الكِتَابا
لعَلَّ الله يُبلِغُني الأَماني ... ويَفْتَحُ بالسرور عليَّ بابا
ويُرشِدُني إلى نقْلٍ صحيحٍ ... ويرزُقني من القَول الصَّوابا
هو المَلِكُ الذي خلَق البَرايا ... وصورَّهُم وقد كَانُوا تُرابا
إلاهٌ واحِدٌ حيٌّ مُريدٌ ... عليم قادرٌ بِالُجود حابَى
تقدَّسَ عن صِفَات الخلقِ طرّا ... وأَنْ يُعْزَى له الوَصْفُ اكتسابا
يُحيط بعِلْم ما تَحْوي عليه ... طِباقُ السَّبع إنْ دُعِيَ استجابا
ويَعلَم في الاراضي السَّبع عِلْما ... يُحيط بِعَدِّ حصْبَاها حِسَابا
ولِمْ لَا وهْوَ أَنشَأَنا امتِنانا ... وواعَدنا على الُحسنَى المَثَابا
وأَنشأَ في السماء لنا بُروجاً ... وأَلْبَسَها بزِينَتِها ثِيابا
وأَجرَى الشمسَ ثُمَّ البدر فيها ... وسخَّر بالرِّياح لَنا سَحابا
لِتَسْقِيَ بَلْدَةً مَيْتاً بغَيْثٍ ... هَمُول بالحياة هَمَى وَصَابا
واجرَى في بَسِيطتها عُيوناً ... مُدَفَّقةً وأَوْدِيَةً عِذابا
وارسَل في الورى منهم رَسُولا ... شفِيعاً مُصطفى يتلو كِتابا

مُحَمَّداً النبيَّ المُجْتَبَى من سُلالَةِ هاشِمٍ فالأَصلُ طابا
وقد أَسْرَى به مولاه ليلاً وجِبْرِيلٌ له اخذَ الرِّكابا
دَنا من حَضْرة العَلْيا تَدلَّى وحَازَ القُرْبَ منه فكَان قَابا
عليه صلاةُ ربِّ العَرْش تَتْرَى مدَى الايام تُورِثُنا الثَّوابــا
وما سحَّت بِماءِ المُزْن سُحْبٌ فحَلَّى الزَّهرُ بالزُّهرِ الهِضابا
هو المبعوث بَشَّرَنَا بِبُشْرَى من الموْلى وانذَرنا ألْعِقابا
وحرَّضَنَا على قتْلِ الاعادي نُضيقُ بهم تِلالًا أَو شِعابا
ونبذُل في جهاد الكُفْر نَفْساً ومالًا قد جَمَعْنَاه اكْتِسابـاً
فصدَّقه أَبو بكر عَتيقٌ وثَانِيه ابُو حَفْص اجابا
وثالِثُهم ابو عَمْرو ووَفَّى ابو حسَن طِعاناً او ضِرابا
همُ الخلفاء اربعةٌ تَواصَوْا على الاسلام صَوْناً واحتجابا
وباقي العَشْرَة المرضِيّ عنهم سَمَوْا وعَلَا ابنُ عَوْفِهم الشهابا
سعِيدٌ وابنُ جَرَّاح وسَعْدٌ زُبَيْرُ طَلْحَةٌ كَرُموا صِحابا
همُ قد بايَعُوا المختارَ حقاً على أَنْ لا يُضَام ولا يُصابا
وانْ تفنَى نفوسُهم احتِياءً لدين ألله بُعداً وٱقْتِرَابا
وهُمْ قد جاهَدُوا في ألله حقًا وسلُّوا في عُداتهم الذُّبابا

عليهمْ رحمةُ الرحمان تَمْلَا بِنُورٍ من قُبورِهم الرِّحابا
فقد بانُوا وَبَانَ مَنِ ٱقْتفاهم خَفَا نورٌ بَدَا منهم وغابا
وعاد الدِّينُ بعدَهم حَقِيراً وَمُنْسَحِقا ومُمْتَهنا مُصابا
وصار بغَرْبِنا ٱلْأَقصى غريباً فَيا لِلدِّينِ يَغْتَرِبُ ٱغترابا
وَلَمْ يُعْلَمْ جهادٌ للأَعادي بهاذِي ٱلأَرْضِ يُحْتَسَبُ احتسابا
إلى أَن فتَّح الرَّحمانُ فيه ليعقوب بن عبد ألحق بَابا
لمولانا أميرِ ٱلْعدل مُلْك به ٱنسَلَبَتْ يدُ ٱلْكفر ٱنسِلابا
ولم نَرَ قَبْلَه في ٱلْعصر مَلْكاً أَرَانا في ٱلْعِدا العَجَب العُجابا
فَهَنَّأَه ٱلإِلَاهُ السَّعْدَ فيه ونِيَّةَ صِدقِهِ برّا أَثابا
دعا لله دعوةَ مُطمئِنّ لِموْلاه دُعاءً مستجابا
فَلَبَّى ٱلله دعوتَهُ وَسَنَّى له ٱلْحسْنَى وَجَنَّبَه ٱلْصعابا
فجَازَ ٱلْبَحْرَ مُجتَهِداً مِراراً يقود إلى العِدا ٱلْخَيْلَ ٱلْعِرابا
فأَلْبَس مُلْكَهمْ ذلاًّ وصارتْ به ٱلاملاكُ تَرتَهِبُ ارْتهابا
أَبعدَ جوازِ أَرْضِ ٱلْبِرْت[1] فَخْرٌ تَزِيدُ به مَنَالًا وَاعتِجابا

---

١ - أي جبال البريني وكان المنصور قد أوغل في أرض العدو حتى وصل الى تلك الناحية .

هو القُطبُ ٱلّذي دارتْ عليه ... نجومُ ٱلسَّعد لا تخشَى اضطِرابا

بنُوه نُجُومُه وٱلْبدرُ فيهم ... وَلِيُّ ٱلعَهد مَن بالفضْل حابَى

أَبو يعقوب مولانا ٱلْمُرَجَّى ... لِيَدْفعَ ٱلخطبَ أن أَرْسَى ونابا

هو ٱلملِكُ ٱلذي أعطَى وأَقْنَى ... وصَيَّرَ طَعْمَ عَيْشٍ مُسْتَطابا

وأَبْناءُ ٱلإمارة تَرْتَجِيهِم ... وأَحفَادُ العُلا ٱعتَصِبُوا اعْتِصَابا

أُوَفِّي حقَّهم فردا ففرْداً ... كَما جَعلُوا الجِهادَ لهم نِصابا

وأَذكُرُ غَزْوَ هذا العامِ حتَّى ... أُذَكِّرُ كلَّ شَخْصٍ ما أَصابا

وأَنشُرُ من فَخار مَرِينَ بُرْداً ... كما احْتَزَبُوا لدِينهم احتِزابا

وأَرْوِي مدْحَهُم في الدهر شِعْرا ... أُدَوِّنُه وأُودِعُه الكِتَابا

لِيَبْقَى ذكرُهم في الارض يُتْلَى ... يَراهُ الرَّكْبُ زَاداً واحْتِقابا

فعِزُّهم مَكِينٌ في المعالي ... وعِزُّ سِواهُمُ أَضحَى سَرابا

سأُودِعُ غَزْوَهم في الرُّوم نصًّا ... نِظاماً لا أَخافُ به اضْطِرابا

وأَذكُر من وَقَائعِهم امُوراً ... يَصيرُ بِهنَّ طَعْمُ الشِّرْكِ صَابا

فهلْ مِن سَامعٍ خبَراً لُباباً ... يُرِدُّ عليَّ بالصِّدْقِ الجَوابا

فيُصْغِي سمْعَهُ نحْوِي امتِنَانا ... يقُول إذا اصبْتُ: لقد أَصابا

وذلك ان مولانا أَناخت عَزائِمُه بطَنْجَةٍ الرِّكابا
فجازَ البَحْرَ في صَفَرٍ خَميساً بخَامِس شَهْرِه رَكِبَ الغُرابا[١]
وحلَّ طَرِيفاً[٢] المولى بجَمْع كَسَا شُمَّ المَعاقِل والهِضَابا
وفي غَدِ يَوْمِهِ ضُرِبت لَدَيْه هنالك قُبَّةٌ تُنْسِي القِبابا
زَهتْ حسناً وجَمَّلها سَناها لها اخْتَارُوا من الحِبَرِ[٣] الثِّيابا
ولم يُرَ مثلُها في الحُسْن لكن قدِ انتُخِبتْ بسَبتَةٍ انتِخابا
فحلَّ بها كأَنَّ الشَّمْسَ لاحتْ بطَلْعَته ازْدهاءً واعتجابا
فيا لَكِ قُبَّةً يحكي سَناها سنا الفَلَك المُحيطِ بها انتِسابا
وخلَّف عامِراً وأَتى قَرِيباً من اركُش[٤] ثمَّ رَامَ به اجْتِلابا
ورامَ نِكَايَةَ الأَعداء فِيه فأَوسَعَه احتراقاً وانتِهابا
ومِنه أَتى شَرِيشاً[٥] في جُموع ووَافَتْه محَلَّتُه[٦] إيَابا

---

١ — الغراب نوع من السفن .
٢ — جزيرة طريف التي في اول المجاز .
٣ — جمع حبرة بالكسر وهي بُرْد يَمان .
٤ — بلدة من عمل شريش تقع على نهر وادي لكه .
٥ — مدينة شهيرة من مدن الاندلس يقال لها بالاسبانية Jerez
٦ — المحلة في الاصطلاح المغربي الجيش والمعسكر .

فأَوسَعت الزُّروعَ بها احتِصادا ‏ ‏ واوسعت الغُروسُ بها احتِطابا

أَذاقَتْ من شَلُوقَة [١] كُلَّ رَبْع ‏ ‏ ورَوْضٍ من قَناطِرها عَذابا

مَدِينَتُها وقَلْعَتُها بُحَيْرٌ ‏ ‏ أَشاعُوا في نَواحِيها الخَرابا

وجَهَّزَ للعِدا منصُورَ جَيْش ‏ ‏ لِيَتْرُكَ دارَهم قَفْراً يَبابا

علَى اشْبِيليَّةٍ أجرَى خُيولا ‏ ‏ فأَوْسَع مَن بِسَاحتها انتهابا

سَبَى منهم وغادَر أَلْفَ عِلْج ‏ ‏ تُطارِدُ عنهم الطَّيْرُ الذِّئابا

وآبَ مُظَفَّراً وابُو عَليٍّ ‏ ‏ أَخُوهُ أَتى وقدْ حَمِدُوا الايابا

وجَهَّزَ جَيْشَه عُمَرٌ ووَافَى ‏ ‏ ذُرَى قَرْمُونَةٍ [٢] يحْكِي العُقابا

ولم يتْرُكْ بها احداً سِوَى مَن ‏ ‏ بها ينكَبُّ في الأَرْضِ انكِبابا

أَتى بغَنائِمٍ ملأَتْ عديداً ‏ ‏ بَسِيطَ الارض بل غَطَّت شِعَابا

وجيْشُ أَبي مُعَرِّفٍ المُعَلَّى ‏ ‏ علَى اشْبِيليَّـــةٍ حطَّ القِبَابا

أَتى بِغَنِيمَةٍ فيهـــا سَبايَا ‏ ‏ وأَوْصَل مِن مَراكِبِهم لُبابا

بِذَاكَ اليوم سَار أَبو عَليٍّ ‏ ‏ إلى بُرْجٍ فصَيَّرَه خَرابا

وغَزْوَة مَشْقَرِيطٍ [٣] ليس تَخْفَى ‏ ‏ فضَائِلُها لقد حَسُنَت مَئابا

---

١ — مدينة تقع في مقاطعة قادس ويقال لها بالاسبانية (Sanlucar) .

٢ — بلدة حصينة تقع شرق اشبيلية .

٣ — حصن بناحية قادس يسمى بالاسبانية (Majaceite) .

ولا أَنسَى البُروزَ على شَرِيشٍ فأَهلُ البُرْج قد ذَاقُوا العَذابا
فذاكَ اليومُ أَعظَمُ يومِ حربٍ رَأَيناه إذا ذكرُوا الضِّرابا
ويَوْمُ وُصولِ مولانا المُرجَّى ابي يعقوب أَشْرَف واسْتَطابا
هناكَ بُروزُ أَهلِ الدِّين ردَّتْ محاسِنُــــه على الدهر الشَّبابا
ولا أَنْسَى القَناطِرَ حين دارَتْ بها الإِسْلاَمُ [١] تُوسِعُها انتِهابا
وأَهْلُ شَرِيشَ لَمّا ان تَراءى وَلِيُّ العَهد قد فَرِقُوا ارْتِعابا
هنالك خصَّص المولى بجَيْش أَبا يعقوبَ مولانا وَحابى
بأَربعةٍ من الآلاف خيْلاً مُسَوَّمـةً مظفَّرةً عِرابا
وأَجْرَى الخيل من كل النواحي على اشْبِيليَّةٍ شَرْفاً وغَابا [٢]
فلم يتْرُكْ بتلْك الارْض خَلْقا أُسارَى او سَبـايا اوسِلابا
فتِلْك غَنِيمَةٌ ما إن سمِعْنا بهذَا العامِ أَكْثرها اجتِلابا
وبعدُ أَتى ابو زيَّان وَافَى شَرِيشاً بالبُروز وما ٱسْتَرابا
بهـــذا اليوم جهَّزه بأَلفٍ إلَى قَرْمُونةٍ وافَى الصَّوابا
وجاء بزَرْعِها وانحازَ عنها إلى اشْبِيليَّةٍ ولهـــا ٱسْتَنابا

١ ــ هو على حذف مضاف اي اهل الاسلام .
٢ ــ الشرف المكان العالي والغاب جمع غاب ويريد بهما جبل اشبيلية وغابتها.

وقتّل أهلَهـــا وسَبَى وَوَلَّى حَميداً في سُرورٍ مَن ٱستطابا
ومولانا ابو يعقوبَ وافى شَلُوقةَ ثُمَّ حرَّقَهـــا ضِرابا
إلى كَبْتورَ[1] أَعمَلَ حدَّ عَزْمٍ لو أَنَّ الهِنْدَ مُسَّ به لَذابا
أحاطَ برَبْعِهـــا بَرًّا وبحراً فدمَّرها وصيَّرهـــا يَبابا
وخلَّف أَرضَها غَبْرَا واضحَت حَمامةُ حُسْنِ مَغْناها غُرابا

***

ولمَّا دوَّخ ٱلْمولى النصارَى وأَلبَسهُم من الذُّل الثِّيـــابا
ولم يتْرُكْ بارِضهم طَعـــاماً ولا عَيْشاً هَنِيًّا مُسْتَطـابا
وأَعْوزَه بها عَلَفٌ وطالَتْ بها حَرَكاتُه قَصَدَ الإيابا
وقد ظَهَرَتْ لِأُسطول ٱلأَعادي علامَاتٌ تَزِيدُ به ٱرْتِيـابا
فلمَّا حلَّ رَبْعَ طَرِيفَ والَى إلى أَجْفَانِه[2] ٱلْغُرِّ ٱلْكِتابا
فَيـأمُر أَن تُجَهَّزَ للاعادي أَساطِلُه فأَسْرَعَت ٱلْجَوابا
فجَهَّزَها ووَافَتْ باحتِفَال وبأْس منه رأسُ الكُفْرِ شابا

---

١ ـ قرية من قرى مدينـــة اشبيلية تقع على الوادي الكبير ويقال لها ايضاً قبتور بالقاف .

٢ ـ جمع جفن بمعنى السفينة .

هُنالِكَ شَنْجةُ[1] وافَى شَرِيشاً بلَيْــــل ثمَّ عايَن مَـا أَرابا

فوجَّه منه أَرْسالَ ٱلنَّصارى إلى ٱلمَوْلَى لِيُسْعِفَه ٱلطِّلابـا

يُطالِبُه بعَقْدِ ٱلصُّلْح يُعطِي له ماذا أَرادَ ومَا ٱسْتَجابا

ولم يقْبَل لهم قَوْلاً وآبَتْ له الأَرْسالُ حَائِرةً خِيَابا

ولم يرْدُدْهم المولى سِوى مِن حَديثِ ٱلْبَحْرِ لا يَرْبو ٱرْتِيابا

فغَرَّبَ جيشُه المنصورُ بحْراً الى أَفْرُوطَةِ[2] ٱلْكُفْرِ ٱنسِيابا

فلمَّا برَّزَ الاسطولُ فرَّتْ جيُوشُ الكفرِفي البَحْرِ ٱنسِرابا

وما أَلْوَتْ على مُتَعَذِّريها ولو سُئِلتْ لمَّا رَدَّت جَوابا

فجاز إلى ٱلْجَزِيرة في سُرور يُجَدِّد غَزْوةً تُبدي العُجابا

فوافَتْه بها ٱلأَرْسالُ تَبْغي بعَطْفَتِـه من الصُّلح ٱقْتِرابـا

فأَسعفَهُم به جازَاه ربي على آرائه ٱلحُسْنى الصوابا

ويَجْعَلُ فيه للإِسْلام طُرّاً مَصَالِحهَا التي تَرِد الطِّلابا

وذلك مِنْ أُمور قد حَكَاها لنا ٱلمَوْلى وأَحْصَاها حِسابا

فبادَر شَنْجةٌ في ٱلصُّلْح حتى تقَرَّب مِن مَدِينَتِه ٱقْتِرابا

---

١ ـ يريد شانتو ابن الفونش العاشر ملك قشتالة .

٢ ـ الأفروطة الأسطول .

وجاءَ لِغيلِه ٱلْأَعْلَى وأَعطَى هَدِيّاتٍ لِمَوْلانا رِغابا
فكانَ هُناك بينَهُما أمورٌ يُنَسِّيني السرورُ بها ٱلخطابا
وأَسرَعَ شَنْجَةٌ للعَقْد حِرْصاً وأَظْهَر فيه للمَوْلى ٱرْتِغَابا
فتمَّ الصُّلْح بينَهُمَا لِعُذْر مبينٍ واضِح والسرُّ غابا
فَهذي جُمْلةٌ والشرْحُ عِنْدي سأُودِعُه بإيضاحٍ كِتابا

* * *

هنيئاً يا مَرِينُ لقد علَوْتم بني ٱلأَملاك بأْساً وٱنتجابا
وفاخرتم بمولانا ٱلبَرايا فأَعطوْكُم قِيَاداً وٱنْغِلابا
أبعدَ الفُنْشِ[1] وٱبنِ ٱلفُنْشِ يَبْغِي رِضاكُم لا يَخافُ به ٱلعِتابا
فحِزْبُ مَرِينَ حزبُ ٱللهِ يحمي حِمَى ٱلإسلامِ لا يَخْشَى عِقابا
إذا سلُّوا السُّيوفَ ترى ٱلاعادي وقد حلُّوا ٱلرُّبى مَدَّت رِقَابا
همُ أَشفَارُ عيْن الملك تَذْري عن ٱلمُلْك ٱلقتامَ او ٱلتُّرابا
وهم مِثْلُ الانامل حيثُ مدت يدُ ٱلامر التي تُعطِي ٱلرِّغابا

* * *

مَرِينُ لقد مَدَحتكُم فوَفُوا لِمَادِحكم بِبُغْيَته ٱلثَّوابا

---

١ ـ يريد الفونش العاشر الملقب بالحكيم وابنه شانتو .

وقد ورّخت دولتكم وصارتْ ... حِلًى يحدو بها ألحادي ألرّكابا
وكلُّ مُنظّم شعراً سيفنى ... ويبقى فيكم مدحي كتابا

ولابي العباس أحمد بن علي ألمليّاني ألمراكشي الكاتب صاحب علامة السلطان أبي يعقوب المريني :

العزُّ ما ضُربتْ عليه قِبابي ... والفضلُ ما اشتملتْ عليه ثِيابي
والزّهرُ ما أهداه غُصنُ يَراعتي ... والمِسْك ما أبداه نِقْس كِتابي
فالمجد يمنع ان يُزاحم مَوْرِدي ... والعَزْم يأْبى أن يضام جَنابي
فاذا بلوتُ صنيعةً جازَيْتُها ... بجميل شكري او جزيل ثوابي
واذا عقدتُ مودّةً أجريْتُها ... مَجْرى طعامي من دَمي وشرابي
واذا طلبتُ من ألفراقد والسُّها ... ثأراً فأوشكْ أن أنال طِلابي

وللرئيس عبدِ المُهيْمن الحضْرمي :

أبتْ هِمّتي ان يَراني امرؤٌ ... على الدهر يوماً له ذا خُضوع
ومَا ذاك إلّا لِأنّي اتّقيْتُ ... بعِزِّ ألقناعة ذُلّ الخُشوع

ولابي زَيْد المكوديْ :

نحنُ بنُو مَكُّودِ ... أهلُ ألتُّقى والجُودِ

نَكُرُّ في ٱلأعادي كَكَرَّةِ ٱلأُسُودِ

ولِدَاوُد بن عبد المنعم الدُّغوغِي يَصِفُ مَعْرَكَة وَادي المَخَازِن ،

جَنَى ٱلنصر ما بين ٱلظُّبَا وٱلكَنائنِ[1] على سَابقَات المذكيات الصَّوافِنِ[2]

فبين المعالي وٱلْمَآثِرِ[3] في ٱلْوَغَى يجُولُ الذي يَبْغي ٱقْتِحامَ ٱلْمَدائِن

هي ٱلسُّورُ مَن يجتزه حلَّ بِسَاحِها فحلَّ له منها ٱمتلاكُ ٱلمَخَازن

ومَن لم يخُضْ بحرَ الحرُوبِ فلا يُرَى لِحَوْزَتِهِ دون العدا خَيْرَ صائن

ومن لم يخُضْها بالثَّبَات فرأْيُهُ يَفِيلُ[4] ويُمسي حظُّه جِدَّ خَائن

وماذا يُفِيدُ الجيشُ إن كان ربُّه كَسِيبَسْطِيَانٍ[5] عندَ وادي المخازن

يقودُ لها ما يحجُب الشمسَ نَقْعُه مَيَاسِرُهُ لا تلتقي بميَامِن

أتى سَادِراً يختال في غُلَوائه وفي صدْرِه للدين غَلْيُ ٱلضَّغائن

يُسَرِّبُ نحوَ ٱلْمَغْرِبَيْنَ جُنودَه كمِثْلِ الدَّبَا[6] عن مَاخِراتِ ٱلسَّفائن

---

١ – الظبا السيوف والكنائن جمع كنانة وهي الجعبة التي تجعل فيها السهام.

٢ – جمع صافن وهو الفرس الذي يقوم على ثلاث قوائم من نشاطه .

٣ – جمع مأثور وهو السيف .

٤ – يخطىء .

٥ – Sebastian هو ملك البرتغال الذي قاد حملة وادي المخازن فكانت الكرة عليه وراجع الفصل الاول من عصر السعديين الجزء الاول .

٦ – صغار الجراد .

وما قصدُه إلا انتهاكُ حَرِيمِه ... ودَكُّ صَياصِيه[1] وبعْثُ الدَّفائِن

وقَوْدُ أُسارى المُسلمين لأَرْضه ... يُقَدِّمهم للصَّلْبِ مِثْلَ ٱلْقَرائِنِ

ولهْوٌ بأَبكار ٱلْخُدور بناتِنا ... فيُصْبِحْن من خُدَّامه وٱلسَّوادن[2]

فذا مَكْرُه واللهُ يمكُرُ مكْرَه ... به، إذْ حداهُ نحوَ تلك الأَماكِن

فخَيَّم في تلك ٱلْجِهات وعَيْنُه ... لِمَرَّاكُشَ الحمراءِ لا لِتطَاوُن

ولكِنَّه مع حَفْلِه بمَدافِع ... وبيضٍ وسُمْرٍ وٱمتِلاءِ ٱلْكَنائن

تخلَّف رَبْطُ الجأْشِ عنه فرَدَّهُ ... على خِزْيه صِفْرًا ولَوْمَن فَراسن[3]

تجمَّع جندُ الله من كل وِجْهةٍ ... وقد غَصَّ من مَدينه كلُّ دائن

من ٱلْمَلِك ٱلْمِقْدام فالعُلَماءِ فا ... لشُّيوخِ أُولِي التقوى وأهلِ ٱلْبَواطن

وتِلْوُهم الأَجنادُ وٱلناسُ كُلُّهمْ ... تضِلُّ بهم أبصارُ كل مُعايِن

فشَبَّتْ لَظى الهيجاءِ ليس وَقُودُها ... سوى أَنْفُسِ الشجعان وَسْطَ الميَادِن

إذا أَرْعدَتْ تلك المَدافِعُ أَبْرقَت ... صَقيلاتُ بِيضِ الهند[4] فوقَ اليَمائِن[5]

---

١ — حصونه .

٢ — جمع سادنة وهي الخادمة .

٣ — جمع فرسن وهو خف الشاة والبعير .

٤ — اي السيوف الهندية الصقيلة .

٥ — جمع يمين مزادا بها اليد .

فَلَوْلا البُروق الخاطِفَاتُ من الظُّبا ... لَما أَبصرَتْ عينٌ خِلالَ المَداخِن

قد ٱنقضَّت الفُرسانُ منّا عليهم م ... ٱنقِضَاضَ صُقُورِ الجوِّ فوْقَ الوراشِن[1]

وصابَرَ كلٌّ قِرْنَه فمُجنْدَلُ الثَّرى ... وَجَرِيحٌ ساحِبٌ لِلمَصَارن

وهامُهم مثلُ الكُرِينَ[2] وقد غدَت ... سنَابِكُ خَيلِ ٱلله مثلَ المحاجن[3]

وسِيبَسْطِيانٌ كفَّنَتهُ مِيَاهُه ... هَزِيماً ، وماءُ ٱلنهر أَفظَعُ كافِن

فحين قضَى ٱلْبَتَّارُ في ٱلْكُفر ما قضى ... وأَشلاؤُه تَتْنٌ بغَيْر مدَافِن

رأَيْتَ أُلوفاً من رُؤُوسٍ تجمَّعت ... ويا لَيتَها أَيضًا جِدَارُ ٱلْمَآذِن

هنالك نصرُ ٱلْمُؤمنين مُؤَزَّرٌ ... على كلِّ ذي كفر ، تَهجَّم ، ضاغِن

فذلك يومٌ مثلُ بدْر وصِنْوِه ... حُنَيْنٍ بأَيْدي المؤْمنين ٱلْمَيامِن

لقد ذاق فيه البُرْدُقِيزُ من الرَّدى ... جزاءَ منَاحِيسٍ خزَايَا ملاَعِن

بغَوْا فجَنوْا جَنْيَ ٱلْبُغاة فأَصبحوا ... سِمادَ ٱلْفَيافِي لا سِمَادَ ٱلْفَدادن

فَلِلثُّكْلِ ما كانَ ٱلْهَزِيمُ لأَرْضِه ... وللصَّقْر مَن ذاقُوا ٱلرَّدى ، وٱلشواهِن[4]

---

١ — جمع ورشان وهو نوع من الحمام البري .

٢ — جمع كرة .

٣ — جمع محجن وهو العصا المنعطفة الرأس والمراد المضرب الذي ترمي به الكرة .

٤ — جمع شاهين وهو طائر من الجوارح

فنَحمَدُ ربَّ ٱلعَرشِ إذْ كان دِينُنا ... لأَهْلِ ٱلوَغى وٱلبَأْسِ خيْرَ المعادِنِ

ولأبي حامد الفاسي :

ومُنْكِرٍ فَضْليَ ما سَاءَنِي ... بَلْ سَرَّنِي مَا نفسَهُ أَلْزَما
مَن أنكرَ ٱلشمسَ بصَحْوٍ ضُحىً ... أَمْضَى على عَيْنَيْه حُكمَ ٱلْعَمى

ولأبي عليّ ٱليُوسِي يُفاخِرُ أَهلَ فاس وكانت بينه وبينهم مُنافَسة :

على رِسْلِكُم يا أَهلَ فاسٍ فإنني ... فتىً لست بالفَدْمِ ٱلْغَبِيِّ ولا ٱلْغُمْرِ
أَنا ٱلصَّارِمُ الماضِي ويَاربَّ نَافِثٍ ... يَخْلَقُ[1] في ٱلْبَحْثِ الأَديمَ ولا يَفرِي

وله ايضاً :

إني امرُؤٌ لا أَنثَني غَبَناً ... يومَ المِصَاعِ بصَفْقَة الوَكْسِ[2]
وإذا ٱستَطَالَ ٱلْبورُ من فَرِقٍ[3] ... لا يَنْزوِي خَلَدي على رِجْس
وإذا ٱلزَّمانُ أَحالَ نائِبُه ... حَالي عفَفْتُ فلَمْ يُحِلْ نَفْسي

---

١ – من خلق الأديم اذا قدره قبل القطع وهو ينظر الى قول الشاعر :
ولأنت تفري ما خلقت ... وبعض القوم يخلق ثم لا يفري
٢ – المصاع بالكسر المجالدة .
٣ – البور الفاسد من كل شيء .

وإذا ٱسْتَطابَ ٱلْهُونَ مُحْتَسِبا ... نَذْلٌ فلسْتَ تَراه في كَأْسي
أَرْعَى ٱلْهَبِيدَ[١] على ٱلْقِنَان إذا ... كان ٱلْفُراتُ يُشابُ بالكِرْس[٢]
وإذا ٱسْتُسِمْتُ ٱلخسْفَ في بَلد ... يوْما زَمَمْتُ لِغَيْره عَنْسي[٣]
كلُّ ٱلْبِلادِ لذي الحجا وَطَنٌ ... والنَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو جِنْس

وللأَدِيب محمد بن احمد بن ٱلشَّاذلي ٱلدِّلائي المتوفى سنة ١١٣٧

ما إن يَعِيبُك فَقْدُ الحَلْي والحُلَلِ ... إن أنتَ بالهِمَم ٱلشمَّاء كُنْتَ مَلي
قد ضَلَّ من ظنَّ ان المال يَرْفَعُ ما ... أَوْهَى ٱلسؤالُ بِعرْضٍ فيه مُبتَذَل
لابارَكَ ٱللهُ بعدَ ٱلْعِرْضِ في عَرضِ م ... الدُّنيا ولا نِلْتُ ما بِالعزِّ لم أَنَل
ورُبَّ جَاهِــلةٍ هبَّت تُعاتِبُني ... أَن كنتُ عن غَمْرِ عيشٍ مُوثِرَ ٱلْوَشَلِ
قالتْ رأَيتُك ذَا قوْل تُحَـبِّرهُ ... أَزْهى من ٱلروض غِبَّ الواكف الهَطِل
وفي المُــلُوك له كُفْؤٌ فأُمَّهمُ ... حتى يُعِيدُوك ذا خَيْل وذا خَوَل
ولستُ أُصْغِي وان لَجَّت لِتَعْذِلَني ... عن مَنْهَج ٱلصَّوْن بالتَّعتَاب والْعَذَل
وإنَّ مِنْ كَرَمِي بُخْلِي بشِعْرِيَ عن ... تَقْرِيظِ ذي كَرَمٍ أَوْ ذمِّ ذي بَخَل

---

١ ــ الهبيد الحنظل .
٢ ــ الكرس بالكسر ما تبدد من البول والبعر .
٣ ــ ناقتي .

فَإِنْ تَرَيْنِي مُذيلاً ما حَييتُ له ... في غَيْرِ ذِكْرِ الْوَغى والأَعْيُنِ النُّجُلِ

يأْبى إِبَائي وآبائي ويأْنَفُ لي ... مجدٌ أَنافَ ـ ولم يقْنَعْ ـ على زُحَل

نفسُ الكَرِيم تعافُ الوِرْدَ يصحَبُه ... ذُلٌّ على ظَمَاٍ في الجَوْف مُشتَعِلِ

* * *

لو كُنتُ سائِلَ غيْرِ اللهِ لم أَسَلِ ... غيْرَ المَذاكِي[1] وغَيْرَ البِيضِ والأَسل

ما شِمْتُ[2] بارِقَ عضْبٍ كنتُ شائِمَه ... إلا انتَجعْتُ[3] به أَحْيَا من السَّيَل

لا تَرْضَ بالعَيْشِ في ظل الهوان وخُضْ ... لِنَيْلِ عزٍ غِمَارَ الموْتِ والثَّكَل

فليسَ يُدرِكُ بالجُبْنِ البَقاءَ ولا م ... الاقدام يَقْضي بما لم يُقْضَ في الازل

حلَبْتُ شطْرَيْ صُروفِ الدَّهر[4] من عَدمٍ ... ومن يَسارٍ ومن صَابٍ ومن عَسل

فما بطِرْتُ لإِثْراءٍ ولا حَسبَي ... بدتْ به خَلَّة تنْتابُ من خَلَل

وكنتُ إِذا بدالي من حِلِيً عطَلٌ ... أُلفِيتُ من حَلْي فَضْلي غيرَ ذي عَطل

وَشْيُ الـ... ...ـدُه فَوْقَ صفْحَتِه ... يُغْنيه عن شِيَةِ الأَغْماد والحُلَل

---

١ – جمع مذك وهو من الخيل ما تم سنه وكملت قوته .

٢ – شام البرق نظر الى سحابته اين تمطر .

٣ – الانتجاع طلب الكلأ .

٤ – هو من قولهم حلب أشطر الدهر اي جربه وعرفه .

ولأبي حفص الفاسي :

قُلْ لمن يعْلُو على ٱلنَّا ـ س بآبـــاءٍ سَراة :
ليْسَ مِن شأْني فَخارٌ بعِظَام ناخِرَاتِ
ما فَخارُ المرْء إِلَّا بعُلوم زاخِرَاتِ
وسَجـــايا ومَزايَا وهِبَاتٍ وَافِرات
ونِضَـــالٍ بنِصَالٍ في مَجالِ ٱلْغَمَرات
وجِفانٍ كالجَوابِي[1] وقُدورٍ رَاسِيَاتِ

وللأديب مُحمد بن ٱلطيِّب سُكَيْرِج المتوفى عام ١١٩٤ :

أَلَا قُلْ لِغُمْر جَاهِلٍ وحَسُود غَبِيٍّ بَليدِ ٱلطَّبْع حِلْفِ جُمُود
يُنَافِسُ في ٱلْعَلْياء حَبْراً مُهَذَّبا لهُ في مَقام المجْد خيْرُ شُهود
لَعَمْرِي لَقد أَرْقَيْت نفسَك لِلْعُلا بِلَا سُلَّم إِذْ لَمْ تَبُؤْ بِفَرِيد
وحاوَلْتَ أَمرًا لستَ تعلَم أنه تَمَنَّع عن ذي مَنْعَةٍ وعَديد
فكَم ظَلْتُ أسعَى في رَشادك عَلَّني أَراكَ حَذُورًا مِن شَديدِ وَعيدي
فها أَنا ذَا مُسْتَجْمِعَ ٱلفِكْرِ راكِباً مَطِيَّةَ فَخْرٍ في مَقــام شُهود

---

١ – جمع جابية وهي الحوض الذي يجمع فيه الماء لشرب الابل .

تيَقَّظْ لِقَوْلي واْسْتَمِعْ كلَّ حُجَّة ... فإنَّك يا ابْنِ ٱلْقِنِّ بَيْتُ قَصِيدي

وخُذْ مِن قِرَى ٱلأبطال ما أنت طالب ... فلستَ على راجي ٱلنَّدى بِشَديد

ولا تأسَ إن أبصرتَ زِلْزالَ بارِقٍ ... تَقَدَّمه نَكْباء ذاتُ خُلود

وإنَّك ما نَبَّهْتَ مِنِّي نائماً ... فللطَّعْن فاصْبِرْ واعْتَجِرْ بِضُمُود

فأمَّا اكْتِسابُ المجْدِ من عَهْدِ يَعْرُبٍ ... فما هو عن أسلافِنا بِبَعِيد

وأما ٱلعُلا فاسْأل ترَى فَضْلَ أهلِنا ... فكَمْ حمَلُوا للمُصْطَفى من بُنُود

وأما رِعَايَاتُ ٱلذِّمام فإنَّها ... بأذْيالِنا نِيطَتْ بِغَيْرِ جُحود

وأما ٱلنَّدى فانظُر بعَيْنك حيَّنا ... فإنَّ عُيونَ المرْءِ خيْرُ شَهيد

تُخَبِّرُكَ ٱلآنامُ عنِّي حَقِيقَةً ... بأنِّيَ في لَخْمٍ أعزُّ وَلِيد

ذَوِي الحسَبِ الموفورِ والحِلْمِ والتُّقى ... وكلِّ فَخارٍ دَاثِرٍ وجديد

إذا بَرزَت يَوْماً طَلائِعُ حِزْبِهِم ... ترى ٱلعِزَّ يُومِي نحْوَها بسُجود

تراهُم لدَى ٱلْهَيْجاء أُسْدًا فَواتِكاً ... وفي ٱلسِّلْم سُبَّاقا لكل مَشيد

أكُفُّهم تجْري على كل حالةٍ ... بحَرْب وسِلْم من ندًى وَجسِيد[1]

ولِحُرْمَة بن عبد الجليل ٱلعلوي ٱلشِّنْقِيطي يَفْتخر بقومه :

دَمٌ أهْدَرَتْه سادَةٌ علَوِيَّة ... وما كان فيهم مثلُ ذلك منكَرا

---

١ الجسيد الدم .

وماٱسْتنصروا غيرَ ٱلصَّوارِم ناصِرًا ... وأغنتهمُ عمَّـــن أتى مُتنَصِّرا

يخُوضُونَ يومَ ٱلرَّوْعِ في لُججِ ٱلرَّدى لأنَّ مَنالَ ٱلْعز فيهنَّ ، أَبْحُرا

يُسابق عَزْرَائِيلَ وقْعُ سيوفهم ... اذا ما مُحَيَّا الحرب أصبح مُسفِرا

فكَمْ مَشْهَدٍ في الحرب يُثني عليهمُ ... وكم مَعشر من بأسهم كان أزْورا

تَراهُمْ وليس الدهر الا نَوائِباً ... إذا كَبُرتْ تلك النوائبُ ، أكْبَرا

سما للمعـــالي مَن تقدَّم منهمُ ... ويسمُو على آثاره من تأخَّرا

مَـآثِرُهم حَلْيُ الزمان لَو انَّه ... على صُورة الانسان كان مُصوَّرا

فكَم من فتى منهم يرُوقُك علمُه ... ويَهْزِمُ من أنجاد وَادَان عسْكَرا [2]

ويجْعَل في إحدى يديه مُهنَّدا ... طريراً وفي الأخرى كتاباً مُطرَّرا

يُحِبُّ الردَى يوم الوغى فكأنه ... اذا مـات فيه لا يَزَالُ مُعمَّرَا

بطرْفِك فانظُر كي تَرَى بعضَ مَجْدِهم اذا أنتَ عن ادراكه كنتَ مُقْصِرا

وللوزير ابن ادريس العَمْراوي :

شِعْبي وشِعْبُ الغَوانِي غيرُ ملْتَئِم ... وَوَصْلُهُنَّ أرَى ضَرْباً من الحُلُمِ

---

١ – أي ناصراً .

٢ – وادان قبيلة كانت في حرب مع قوم الشاعر .

كَمْ لي أُسائل عن سَلْمى وجارتِها ... وعن رُسُومٍ عفَتْ وأَيْنُقٍ رُسُم

وكم أُكَفْكِفُ دمْعاً في مَرابعِها ... ضَلاًّ وأسأل عوْناً وَاكِفَ الدِّيَم

والشَّيبُ قد لاح في فَوْدِي وَقَنَّعنِي ... والسيفُ أَحسَنُ فِعْلاً منه في اللِّمَم

أَسْرَى بليــل شبابي فاستنَار به ... كغَاسِقٍ لاحَ في دَاجٍ من الظُّلَم

وبصَّر العَيْنَ سُبْلَ الرُّشد فانبعثت ... أَخلاقُه لِطِلاب المَجْد والكَرم

نفْسِي عن الكُبَراءِ القَدْرِ قد كَبُرت ... وفَوْقَ هَامِ الثُّرَيا قد عَلَت هِمَمِي

ماذا يقول ذوُوا البَغْضاء في رجلٍ ... خالٍ عن الكِبْر مُكْسًى حُلَّةَ الحِكَم

والعُرْبُ بالبَاب والاخبار سائِرةٌ ... وألسُنُ الخلق تُبْدي كُلَّ مُكْتَتَم

أُصونُ مـاءَ المُحيَّا عن إراقتــه ... ليس الدَّناءَةُ والإلحاحُ من شِيَمي

ولا أُمُدَّنَّ عيني نحو عارِفَـة ... من كَفِّ نذْلٍ ولو أَرْبَى على هَرِمٍ[1]

وكم فتى لِجَنَابِ المُلك مُنتَسِبٍ ... أَعْدَى على المال من ذِئب على غَنَم

يظَلُّ يُسْدِي ويَهْذِي في زَخَارِفه ... وليْس يصْدُق في ضَرْب من الكَلِم

وله أيضاً :

سَلِ الرُّوَاةَ عن نفَثَاتِ شعري ... فكم أَبْرَأْنَ مَن قَلْب سقيم

---

١ — هرم بن سنان الجواد المشهور ممدوح زهير بن أبي سلمى .

وكم أَظهرْن جوداً من بخيـــل وكم أولدْن من فكرٍ عقيم
فان الشعر في التحقيق سِحْرٌ كما قد جاء في الأَثر الكريم
ولي في نَظْمه القِدْحُ المعلَّى وأسرارٌ تغيبُ عن العليم
فأنظِمُ حين أنظِمُ رائعات تفوقُ الدرَّ في العِقْد النظيم
وارفَع بالمَديح مقـــام قوم وان كانوا ذوي أَصل لئيم
واحمِل بالهجاء مَنَـــار قوم وان كانوا ذَوِي قَدر عظيم
ولي قلمٌ له بأسٌ شديـــد يُثَلِّم حدُّه حـــدَّ الصَّريم[1]
ويترك ضربُه الأقران صرْعى لدى الميْدانِ بالضَّرْب القويم

ولمحمد بن الشيخ سيِّدي الشنقيطي :

أزِف الرحيـلُ فقرِّبا أجمالنـا ثُمَّ انميا[2] فوقَ الجمال رِحالَنا
إنَّا إذا بلدٌ نبا يوما بِنـــا حَملت لآخرَ نُجْبُنا أثقالَنـــا
دَيْدانُنا أن لا نُنيطَ حبالَنــا الا بأحبُل من يُحبّ وصالنـــا
نَطْوِي على الشَّعَث الْمواصِلَ ما طوى صدراً على أن لا يشُدَّ حِبالنا

١ -- الصريم كالصارم : السيف

٢ -- ارفعا .

ستراً عليه وفي هواه ووصْلِه نغْضِي ولو آبَاءَنا عُذَّالَنـــا
واذا رماه الدهرُ كنَّا دُونَه تُرْساً ونمْنَحُ مَن رماه نِصالَنا
مـا إن تَقِي أَموالُنا مُهَجاتِنـا كلَّا ولا مُهجاتُنا أَموالَنـــا
واذا دعا كنّا الجوابَ وان سعى كنَّا حَوَالَيْـه وكان خِلَالنـــا
ويُصيبُ مَن صافَى العدُوَّ عداوتُنا وَينـالُ من وَالى الوَلِيَّ نوَالَنـا
خُلقاً لَنـا لا صالحين لِغَيْره خُلُقا وليس بِصَالح الَّا لنـــا

الغزل والشوق والنسيب

قال المولى إدريسُ الثاني :

لوْ مُدَّ صَبْري بِصَبْر الناس كلِّهم — لَكَلَّ في رَوْعتِي أوْ ضلَّ في جزَعي
بانَ الأحِبَّةُ فاستبدلتُ بعدهم — همّاً مُقيماً وشَمْلًا غيرَ مُجتَمِع
كأنّني حين يُجْرِي الفكرُ ذِكْرَهم — على ضَميريَ مَجْبُولٌ على الفزع
وكيف يصْبِرُ مَطْوِيٌّ هَضائِمُه[1] — على وَسَاوِسِ هَمٍّ غيرِ مُنْقَطِع
اذا الهموم توافَتْ بعد هَجْعَتِه — كرَّتْ عليه بكأس مُرَّةِ الجرع

وقال ابنُ القابِلَة السبتي :

وَوَجْه غَزَال راقَ حسناً أَديمُه — يَرى الصبُّ فيه وجْهَه حين يُبْصر
تعرَّض لي عندَ اللِّقاء به رَشا[2] — تكادُ الحُمَيَّا من مُحَيَّاه تقْطُر

---

١ – يعني جوانحه .
٢ – الرشأ ولد الظبية .

وَلَمْ يَتَعَرَّض كي أَراهُ وإنمـا أَرَادَ يُرِينِي أَنَّ وَجْهِيَ أَصْفرْ

وقال الكاتبُ أبو بَكْر بن عطاء السَّبْتي مُقاطعاً :

سأَمْنَعُ قلْبي أَن يكون لكم مَثْوَى وأَستَدفِعُ البَلْوى وأَسْتَصْرِفُ اللَّهْوا
وما سرَّني بَعْدَ الرِّضا إذْ غدرتُم وغادَرْتُم بين الحشا هَضْبَتي رَضْوَى
وصيَّرتُم العُتْبَى عِتَاباً فكلَّما أَبُثُّكم شَجْوِي تَزِيدُونني شَجْوَا
قضَى اللهُ أَن أُقصَى وأَصفيكم الهوى وغَيرِي يُستَدْنَى وان كان لا يَهْوى
وما كان ظنِّي قبلَ ذَا أَنَّ حاسِدي بِمَنْهَلِكُمْ يَرْوَى وأَنِّي لا أَرْوَى
وما جَلَّتِ البلوى عليَّ وإنَّما شماتَةُ أَعدائي أَجلُّ من البلوى

وقالت السيدة أمَة العَزيز الحُسَيْنِيَّة :

لحاظُكم تَجْرَحنا في الحشا ولحظُنا يَجْرَحكم في الخدود
جُرْحٌ بجُرْحٍ فاجعَلُوا ذَا بِذَا فما الذي أَوْجَبَ جُرْحَ الصُّدود

وقال ابو الحسن بن زِنْبَاع :

نِزَاعٌ ما أَرى بك أَم نُزُوع لقد شقِيَتْ به منك الضُّلوع
يرُوعُك أَو يَرِيعُك كلُّ دَاعٍ أَكلُّ مُثَوِّبٍ داعٍ سميع
جهِلتَ وقد علاك الشيب أَمراً يقوم بعِلمه الطفل الرضيع
ولولا ذاك مـا قدَّرتَ أَني أَنوءُ بحمل مـا لا أستطيع

فحسبُكَ أَوْ فحسْبِي منك دهر يَشِتُّ بصَرْفِه الشملُ الجميع
وشوق تقتضيه نوىً شَطُونٌ فتقضي عنه واجبَها الدموع
حملتَ الحبَّ مُؤْتَمَناً عليه فكيفَ يضيعُ ذلك أَو يَذيع
لقد جشّمتَ نفسَك مُتلِفات بكل ثَنِيَّةٍ منها صريع
وحالُ الصب تَخضِبُه دموع كحال القِرْن يَخضِبُه نَجيع[1]
وقد تحمِي الدُّروعُ من العَوالِي ولا تحمي من الحَدَقِ الدروع
ورُبَّ فتى تُراعُ الاسْد منه تَقَنَّص قلبَه الرَّشأُ المَرُوع

وقال أيضاً : ويحتوي على معان فلسفية رائعة :

لَهَواكَ في قلْبِي كريقِكَ في فمي غيْرِي يقُولُ الحُبُّ مُرُّ المَطْعَم
فأَدِرْ علَيَّ بمقلتَيْكَ كؤُوسَهُ حتَّى يدِبَّ خُمارُه في أعظُمِي
إن التلدُّدَ[2] في هواكَ تلذُّذ لو كانَ أَقتَل من زُعاف الأَرْقَم
فأَجِبْ بحب لا يُثِيرُ مَلامةً مُلِئَت بمُوَلِيبه عيُون النُّوَّم
شغَلَ النَّواظِرَ والقلوبَ ولم يَدَعْ مَنْ لم يَسِمْهُ من الأَنام بِمِيسَم
ومن العجائب شغلُ شيءٍ واحدٍ في الحال أَمْكِنَةً ولم يَتَقَسَّم[3]

١ — النجيع الدم .
٢ — التلدد : التحير والزعاف السم القاتل والأرقم أخبث الحيات .
٣ — يعني والشيء الواحد لا يحل مكانين في زمن واحد .

وأَقامَ أَزمِنةً وليس بجَوْهر[1] وجرَى وليْسَ بمَائِع مَجْرى الدَّم
يا أيها القمرُ الذي إنسانُه يرمي أناساً للعيون بأَسْهُم
لم أُبْدِ حبَّك غيرَ أن جوانحي فاضت به فيْضَ الإِناءِ المُفْعَم
لا ذنْبَ لي عِلِمَ الذي أسرَرْتُه نظَراً ولم أرمُزْ ولم اتكَلَّم
وأَمرتَ بالشكوى اليك وانما يُنمَى الى الانسان ما لم يَعْلَم
ولَرُبمَّا لم تُشكِني فأَماتَني يأْسِي فذَرْني تحتَ أمرٍ مُبهَم
وتلافَني قبل التَّلافِ فإنني من حِمْيرٍ وسيَأْخذونَك في دَمِي
الطَّاعِنين بكُل أسمَر مِدْعَسٍ[2] والضَّاربين بكل أَبيض مِخْذَم[3]
والوارِدين الصادِرين اذا الوغى لَقِحَتْ بجَمْرتها وجُوهُ الحُوَّم
ولعلَّهم تسمُو بهم هِمَّاتُهم أن يُدرِكُوا في الظَّبي ثأْرَ الضَّيْغَم

وقال محمد بن عبد الكريم الفَنْدِلَاوِي الفاسي عُرِفَ بابن الكَتَّاني :

وما أَبقَى الهوى والشوقُ منِّي سوى نَفَسٍ تردَّدَ في خَيال

---

١ – أي بل عرضا والشأن أن العرض لا يبقى زمانين .
٢ – المدعس الرمح .
٣ – المخذم السيف القاطع .

خَفيتُ عن المَنِيَّةِ أن تراني كــأنَّ الروحَ منّي في مُحال

وقال علي بنُ يَقْظَانَ السَّبْتي :

أَإِخْوانَنا ما حُلْتُ عن كَرَمِ العَهْد
فيا لَيْتَ شِعْرِي هل تغيَّرْتُمُ بَعدي
وكم مِن كُؤُوسٍ قد أدرتُ بِودِّكم
فهل لِيَ كأْسٌ بينكم دَارَ في وُدّي

وقال القاضي عياض :

رَأَتْ قَمَرَ السَّماءِ فأذْكَرَتْني لَيَالِيَ وَصْلِها بالرَّقْمَتَيْن [1]
كلانَا نَاظِرٌ قَمَراً ولكن رَأَيْتُ بعَيْنِها ورَأَتْ بِعَيْني [2]

وقال أيضاً :

أَقولُ وقد جَدَّ ارْتِحَالي وغرَّدت حُداتي وزُمَّتْ للفِرَاق رَكائبي
وقد غَمِصَتْ من كثرة الدمع مُقْلَتي وصارَتْ هواءً من فؤادي ترائبي
ولم تَبْقَ إلَّا وَقْفَةٌ يَسْتَحِثُّها وَداعِيَ للأَحْباب لا للحَبائِب

---

١ – الرقمتين اسم موضع .
٢ – يريد رأيت القمر الحقيقي الذي هو المحبوبة ورأت القمر المجازي الذي هو قمر السماء وهذا على سبيل المبالغة .

رَعى اللهُ جيراناً بقُرْطُبةَ العُلا وسقّى رُباها بالعِهادِ السَّواكِب
وحيّا زماناً بينهم قد أَلِفْته طَلِيقَ المُحَيا مُسْتَلانَ الجوانِب
أَإِخْوانَنا باللهِ فيها تذكَّرُوا مَعاهِدَ جارٍ أَوْ مودَّةَ صاحِب
غدوتُ بهم من بِرِّهم واحتِفائهم كأَنِّيَ في أَهلي وبين أَقارِبي

وقال الامير ابو الربيع سليمانُ الموحِّد :

أَقولُ لِرَكْبٍ أَدْلَجوا بِسَحْرَةٍ قِفُوا ساعةً حتى أَزُورَ رِكابَها
وأَملأَ عيني من مَحاسِنِ وجهِها واشكُو إِليْها أَن أَطالت عِتابَها
فإِنْ هي جادتْ بالوِصالِ وأَنعمتْ وإِلَّا فحَسْبِي أَن رأَيتُ قِبابَها
وقَفْتُ بها أَشكُو وأَسكُبُ عَبْرَةً على غير بينٍ ما عرفتُ انسِكابَها
فأَوْمَتْ برَخْصٍ من بَنانٍ مُخَضَّبٍ وحطَّت على البَدْرِ المُنيرِ نِقابَها
وقالت أَيبكي البَيْنَ من قد أَرادَه ويشكُو النوى من قد أَثار غُرابَها
ولما تناءَتْ دارُها وتباعدت وعاقت على بُعد المَزار خِطابَها
كتبتُ اليها أَشتكي أَلَمَ النَّوى لعلِّي أَرَى يوماً إِليَّ كِتابَها
وكنتُ أَرى أَن الجوابَ تعلَّلٌ وقد زاد ما بي إِذْ رأَيت جَوابَها

وقال أَبو حفص ابنُ عُمَر :

همُ نظَرُوا لواحِظَها فَهامُوا وتَشْرَبُ عقلَ شارِبها المُدام

يخاف الناسُ مقلتَهَا سواها أَيذْعَرُ قلبَ حامله الحسام
سما طرْفي اليها وَهْوَ بَاكِ وتحتَ الشمس ينسكب الغمام
وأذكر قدَّها فأنوح شوقاً على الاغصان تَنْتَدِبُ الحَمام
وأَعْقَبَ بينَهَا في الصدر غَمّاً اذا اغتربَتْ ذكاءُ أتى الظَّلام[1]

وقال :

أغارَ على الصَّبِّ من أنَّبَهْ هو الحبُّ من يُطْفِه ألْهبه
نأى القلبُ عني وشوقي معي فلِلّه أمري مَا أعجَبه
يحِنُّ فؤادي الى قاتِلي كذاكَ الهوى عِند من جرّبه
تَرِقُّ شمائلُ مَن ذَاقَه وتلطُف شَمْأَلُ مَنْ هَذَّبه[2]
يجود لمسْخِطِه بالرِّضا ويطلبُ راحةَ مَنْ أتعبه
اذا شفَّ قلبي غرامُ الهوى دعا بالنَّعيم لمن عذَّبه

وقال :

مشَتْ كالغُصْنِ يَثْنِيه النَّسيمُ ويعدُوه النسيمُ فيستقيم
لها رِدْفٌ تعلَّقَ في ضعيف وذاك الرِّدْفُ لي ولها ظَلُوم

---

١ — ذكاء الشمس .

٢ — الشمْأَلُ الريح التي تهب من الشمال والمراد تخفّ روحه .

يُعذِّبني اذا فكرتُ فيـه ويُتعِبُها اذا رامت تقوم
وما حُبِّي لها الا عذاب عليه من نَضارَتِها نَعِيم

وقال يُشَبِّبُ بجمال الأعرابيات :

مها القَفْرُ لا دُمْيَة المَرْمَر[1] وفي العُرْب لا في بني الأَصْفَر[2]
بنفسِي يَعافِيرُ تلك الخِيام[3] ومَسْرَحُها في النَّقَا الأَعفر[4]
ملاعِبُ يصبُو اليها الحكيم ويُسْلَبُ فيها فؤاد الجري
وفيها الظِّباء بَنَاتُ الأُسود غَيارَى متى بَغَمتْ تزْأَر[5]
فخِيسُ الهِزَبْر كِنَاسُ الغَزال به الشِّبْل نَاشٍ مع الجُؤْذَر
تُخالِسُها نَظَراً تحته غرامٌ به الحَيُّ لم يَشْعُر
وباللَحظ يُقْدَحُ زَنْدُ الهوى فطَرفٌ غَرٍ وفُؤادٌ بَرِي[6]

١ – أي هُنّ شبيهات ببقر الوحش لا بتماثيل الرخام التي تشبّه بها الحضريات .
٢ – بنو الاصفر الروم ويعني انهن سمر لا بيض كالروميات .
٣ – اليعافير الغزلان .
٤ – النقا الرمل والأعفر الذي له لون العفر وهو التراب .
٥ – البُغام صوت الغزال والزئير صوت الأسد يعني انهن محروسات بالشجعان من قومهن .
٦ – يعني أنهن يغرين العشاق بنظراتهن وقلوبهن خاليات من الغرام .

وقـــال :

هذا فُؤَادِي أَقْصَدَتْهُ الأَسهُم مَن ذا يَرَى تلك الْجُفونَ وَيسْلَمُ
يا غُرَّةً حكَمَ الجمالُ لها على شَمْسِ الضحى وأَصابَ فيما يَحْكُم
يحكي الجئاذِرَ جِيدُها ولِحاظُها هيهَاتَ دُون الْعـــالم الْمُتَعَلِّمُ
وكأَنَّ قامتَها ونَغْمَة لفظهــــا غُصْنٌ عليه بُلْبُــلٌ يَترنَّمُ
يُضْحِي الْخَلِيُّ إذا رآهـا عاشقاً والعقل تُوقِظُهُ اللحاظُ النُّوَّم

وقال أبو عبدالله ابنُ المَحْلَى السبتي ، وهو من شعر الإشارة :

أَبوحُ بما أَلْقَـــاهُ فهو مُباح فَقَبْلِيَ أَربْابُ المحبة باحوا
اذا بَاحَ مَن قَبْلِي ولم يلقَ بعضَ ما لَقِيتُ فانّي مـــا عليَّ جُناح
أَأَحبابَنا لا تَحْسِبُوا الصبرَ بعْدَكم سَخِيّا ولَا ان الدمـوع شِحَاح
وان فَنِيتْ أَجسادُنا وقلوبُنــــا فتلك العهود السّالِفاتُ صِحاح
سمَحتُ لكم بالنفس كي أَربَح الرِّضا على ثِقَـــة أَنَّ السماحَ رَبَاح
فُؤَاديَ مُنقَادٌ اليكم مُذَلَّلٌ فَمالي إذَا لَجَّ العَذُول جِمَـــاح
وهلْ مِن سَبِيلٍ ان أَطِيرَ إليكم وقد حُصَّلي رِيشٌ وقُصَّ جَناح
تغيَّر وَقْتِي بَعْدَكُمْ فَكأَنَّمَــــا صَباحِي مساءٌ والمساءُ صَباح
وما تفضُلُ الأَيامُ أخرَى بِذَاتِها ولَكِنَّ ايام المِلاح مِلاح

خَرِسْتُ عن الشكوى اليكم مَهابةً وألسُنُ حالي بالغَرام فِصاح
تَمَتُّع لحظي سِنَّة في جمالكم فانْ لاحظَ الأغيار فهو سِفاح
ويا عجباً أنّي أسِيرُ وأنني أُناشِدُكم أن لا يُتاح سَرَاح
اذا هزَّ أربابَ السَّماع تواجُدٌ فحَظِّيَ منه زَفْرةٌ وَصِيَاح
فها انا عند الباب مُنُّوا أو اطْرُدُوا فَما ليَ عنه كيف كان بَراح

وقال ايضاً :

غَرامي دَعاني والعَذُولُ نَهاني فوَجْدٌ وعَذْلٌ كيف يَجْتَمِعان
امَا عَلِمَا اني على الشَّحْطِ والنَّوى مُقيمٌ واني والهوَى أخَوَان
يقولُون لي مَن ذَا دعاك لِما نَرَى فقلتُ دعاني حبُّه فدَعاني
ضَمانٌ على قلْبي الأسَى بَعْدَ بُعْدهم اذا لم يكُن يومُ اللِّقا بِضَمان
أُعَلِّلُ نفسي بالسُّلوِّ تعَلُّلاً وتلك امانٍ ما بهن امَان
اذا خَفَقَ البَرْقُ اليَماني بأُفْقِكم أُقابِلُ ذاكَ الخَفْق بالخفقان
وان هَمَلَتْ مُزْنُ السَّحاب بأرضكم يُغالِبُها دَمْعِي على الهَمَلان

عى اللهُ جيرانَ العُذَيْبِ وَاهْلَه ... وان أترَعُوني مِن هَوىً وهَوان
مُ وعَدُوا بالغَوْرِ[١] ثمّ تراوغُوا ... وهُمْ عَنَفُوا بالنَّعْفِ[١] من بَدلان
صدُّوا على صَدًّا وبالخَيْف خوَّفوا ... وبَانُوا بذَاتِ ٱلبَيْن صَوبَ أَبَان
بِن حُجِبُوا عن نَاظري فكأنَّهم ... بِقَلْبي يَرَاهُم فِيـــه رَأْي عِيَان
ان عَمِيَت انبَاؤُهُمْ حَيْثُ يَمَّمُوا ... فَسِرّي يَرْعَاهم بكل مَكان

وقال الخليفة عُمَر المرتَضَى الموحِّدي :

لِيلٌ دمعُ مُقْلتِه دَلِيــــلُ ... على ان ٱلحَشا فِيها غَليل
لَمَّ بِبَــــابِكُمْ يَبْغِي شِفاءً ... لِدَاء ٱلبُعْد فَهْوَ لَهُ قَتِيـــل
نِيلوني رضاً منكم وقُرْبــــاً ... وحاشَا فضْلَكُم ان لا تُنِيلوا
لئِن قطَعَتْ سبيلَ الوصل عنّي ... خُطوبٌ شَرْحُها عندي يَطُول
شافِعُ ما اقترفتُ هَوَانُ ذلي ... وأَعظَمُ شافع اني ذَلِيــــل
فحسبي انَّني عبــــدٌ قَطُوع ... وحسبُك انّك المولَى الوَصُول

وقال عبد العزيز المَلزُوزي:

أَعْلِمتَ بعدَك زفْرتي وأَنِيني ... وَصَبابتي يومَ النَّوَى وشُجوني

---

١ — هذه أسماء مواضع معروفة وقد راعى فيها المناسبة اللفظية للجناس .

أَوْدَعْتَ اذودَّعْتَ وَجْداً في الحشا ... ما إنْ تَزَالُ سهامه تُصْمِيني

وَرَقِيبُ شَوْقِكَ حاضِرٌ مترَقِّب ... إنْ رمتُ صبراً بالأَسَى يُغْرِيني

مِن بَعْدِ بُعْدِكِ ما رَكَنْتُ لراحة ... يوماً ولا غاضت عليك شُؤُوني

قد كنْتُ أَبكي الدمعَ أَبيضَ ناصعاً ... فاليوم تبكي بالدماء جُفوني

قل للذين قد ادَّعوا فَرْطَ الهوى ... ان شِئْتُموا عِلْمَ الهوَي فسَلوني

إني أَخذتُ كثيرَه عن عُرْوَة ... ورَوَيْت سائِرَه عن المَجْنونِ

وقال أبْنُ عَبْدون لمكناسي:

يا جِيرَتي وَمَنِ أسْتَجرتُ بهم ... من جَوْر عِزِّهم على ذُلِّي

عوَّضتُموني بالوِداد قِلى ... وأَبدلْتُمُ الإِنصاف بالمَطْل

وشغَلتُمُ بالِي بِهَجْرِكُمُ ... وَبَالِه عن كلِّها شُغْل

ما هكذا فعلُ الكِرام بِمَن ... منْهم تعوَّدَ اجمَلَ الفِعْل

علَّقتُ حبْلَ محبتي بِكمُ ... بِحياتكم لا تَقْطَعُوا حَبْلي

ما كانَ أَندَى ظِلَّ عِيشَتنا ... إذْ كان مُنتَظِماً بِكم شمْلي

إذْ نَجْتَني ثمَرَ المُنى ذُلُلاً ... في رَوْض أُنس وافِر الظل

عُودُوا إلى عادات وَصْلِكمُ ... لا تَحْرِمُوني لَذَّةَ الوصل

حاشاكُمُ والفَضْلُ شِيمَتكُمْ ... أَن تُعقِبُوا الإِخصاب بالمَحْل

وإذا أَبَيْتُم غيرَ جَوْرِكُم فالجَوْرُ منكم غايَةُ العَذْلِ
إنْ شِئْتُمُ قتْلي فها أنا ذا لا تحذَرُوا مِن طالِبٍ ذَحْلي[1]

وقال مالك بنُ المُرَحَّل :

تملَّكتُم عقْلي وطَرْفي وَمَسْمَعِي وروحِي وأَحْشائي وَكُلِّي بِأَجْمَعِي
وَتَيَّهتُموني في بَديعِ جمالِكم فلم أَدْرِ في بَحْرِ الهوَى أَيْنَ مَوْضِعي
وأَوْصَيْتُموني لا أَبُوحُ بِسِرِّكم فباحَ بما أُخفي تفيَّضُ أدمعي
فلما فنى صبْري وقلَّ تَجَلُّدي وفارَقَني نومْي وحَرَّمتُ مضجعي
شكَيْتُ لقاضي الحُبِ قلتُ أَحِبَّتي جَفَوْني وقالُوا انتَ في الحُبِّ مُدَّعِ
وعِنْدي شُهُودٌ بالصَّبابَة والأَسى يُزكُّونَ دَعْوايَ إذا جِئْتُ أَدَّعِي
سُهادي وشَوْقي واكْتِئابي ولَوْعَتي ووَجْدي وسُقْمي واصْفِراري وأدمعي
(ومِن عَجَبٍ أَنِّي أَحِنُّ اليْهِمُ وأَسأَلُ شوقاً عنهمُ وهُمُ مَعي)
(وتبكي دماً عيني وهم في سوادها ويَشْكُو النَّوى قلبي وهم بين اضلعي)

وقال في عَرُوضِ الدُّوبَيْت المَجْزوء وهو من اختراعه :

الصبُّ إلى الجمال مَائِل والحبّ لصِدقه دلائل

---

١ ـ الذحل : الثأر.

والدمع لِسائلي جوَاب إن روجِعَ سائل بسائل
والحسن على القلوب وَالٍ والقلب إلى الحبيب وَائِل
لو ساعَد مَن أَحبَّ سعْدٌ ما حال عن الحبيب حائِل
يا عاذلي إليكَ عنّي لا تَقْرَبْ ساحتي العواذل
ذا نازل كمثْل ظَبْي يشْقى بلحْظه المُنازل
ما بين جُفونِهِ حُسام مَخارِقُه له حَمائِل
والسيف يبُتّ ثم ينبُو واللَّحْظ يُطَبِّقُ المَفاصل
والسهم يُصيب ثم يخْطي واللَّحظ يمرُّ في المَقاتل
مهلاً فدَمي له حلالٌ ما أقْبَلُ فيه قول قائل
إن أَقصَدَني فذاك قَصْدي أَوْ جدَّلني فلا أُجادِل
يا حسن طُلوعه علينا والسُّكْر بِمَعْطَفَيْه مائل
ظَمْآن مُخَفَّفُ الأَعالي ريَّان مثَقَّل الأَسافل
قد نمَّ به شذا الغوالي إذ هَبَّ ونَمَّت الغلائل
والطيبُ مُنبِّه عليه مَن كان عن العيان غافل
والفتح مُحرِّك إليه مَنْ كان مُسكَّن البَلابل
والسحرَ رَسُولُ مقلَتَيْه ما أَقرَب عَهْده ببابِل
والروض يُعيرُ وجْنَتَيه ورْداً كهَوايَ غيرُ حائل

والليّن يهُزّ مَعْطِفَيْـــه كالغُصن تهزُّه الشمائـــل
والكأسُ تلوح في يدَيْه كالنجم بأسْعَد المَنــازل
يسقِيك بريقه مُداماً ما أملَح ساقياً مُواصِل
يَسْبِيك برقّة الحواشي عِشْقاً ولَطافَةِ الشَّمائـــل
ما أحسَن ما وَجدْت خدا اذ نجمُ صِباي غيرُ آفل

وقال محمد بن احمد الشّبُوكي الفاسي :

ألا مبلِغٌ عني مَغَاني شَبُوكَةٍ سلاماً كعَرْف المَنْدَل الرّطبِ والنّد
دِيَار بها قلْبي مُقِيمٌ وان نأتْ بجسْمِيَ عن أطلالِها أَيْنُق البُعْد
عهِدْتُ بِهَا عهْدَ الهوى لا يشُوبُه
مِنَ الصَّفْو تكْديرٌ منَ القمَر السَّعْد

وقال الامير أبو علي ابنُ السلطانِ أبي سَعيد المريني

أغالِبُ فيك الشَّوْقَ والشوقُ أغْلَبُ
وأَطْلُبُ منكَ الوصلَ والنجمُ أَقرب
ويُطمِعُني قلبي بوَصْل وإنّني سأعْلَمُ حقاً أنّ قلبي يكذِب
حياتي وموْتي في يَدَيْك وإنّني أموتُ وأحيَا حينَ ترضى وتغضَب

فلا الوَصْلُ يُحْيِيني ولا الْهَجْرُ قاتِلي ولا مِنْكَ بُدٌّ ، لا ولا عَنْكَ مَهْرَب

وقال ايضاً :

مِلْ يا نَسِيمُ على غُصونِ المَنْدَل وانْعَمْ بتلك المَائِسَاتِ المُيَّـل
وإذا مرَرْتَ على الدِّيار فَسَلْ بِهَا عن راحِلٍ عنْها ومَن لَمْ يَرْحل
زَمُّوا المَطِيَّ وخلَّفُوني بَعْدَهُم تَجْرِي دُموعِي في رُسوم المَنْزِل

وقال السلطان ابو عِنَان المَريني :

يَا رَامِياً بالنِّبَال مِن غَنَج وصائِلاً بالنِّصَال من دَعَج
وبَادِياً كالْهِلالِ في سُحُب وطافِحاً مِن سُلافَةِ الفَلَج
وباسِماً عن لَئَالِىءٍ نُسِقَتْ وناسِماً كلَّ عَاطِــرٍ أرج
رِفْقاً بِقَلْبِي فانَّ فيه هوًى ولا تُطِلْ في المَلال والحَرَج

وقال ايضاً :

جِسْمي أَضَرَّ بِـه السَّقام والجَفْنُ قد عَدِمَ المَنَام
يا هاجِــري مِنِّي على أنْــوارِ غُرَّتِكَ السَّلام

وقال الوزير عبدُ المُهَيْمن الحضْرمي:

نفسي الفِداءُ لِعَهْدٍ كنْتُ اعْهَدُه وطيب عيش تقَضَّى كلُّه كرَمُ

وجيرةٍ كان لي أنسٌ بوَصْلهمُ   والأُنسُ أَفضلُ ما في الوصلِ يُغتَنَم
كانوا نَعيمَ فؤادي والحياةَ له   فالآنَ كلُّ وُجودٍ بَعدَهم عدَم
بانوا فعادَ نَهـــاري كلُّه ظُلَماً   وكان قُربُهم تُمحَى به الظُّلَم
والعيْنُ منّيَ لا تَرْقَا مَدامِعُها   كأنَّها سُحبٌ تَهمِي وتنْسَجِمُ
تبكي عُهودَ وِصالٍ منهم سلَفَتْ   كأنما هُنَّ في إنسانِهـــا حُلُم
لَئِن ضحِكْتُ سُروراً بالوِصالِ لقد   بكَيْتُ حُزناً عليهم والدُّموعُ دَمُ
هُمْ عَلَّموني البُكا ما كنتُ أَعرِفُه   يا لَيْتَهُم علَّموني كيفَ أَبْتَسِمُ

وقال ابو عبد الله المَكُّودِي

رُحماكَ بي فلقد خلَّدْتَ في خَلَدي   هَوى أُكابِدُ منه حُرْقَةَ الكَبِد
حلَلْتَ عَقْدَ سُلُوّي عن فؤادي إذ   حَلَلْت مَنه مَحَلَّ الروحِ من جسدي
مَرْآكَ بدري وذِكْراكَ الْتِذاذُ فمي
وَدِينُ حُبِّكَ إضماري ومُعتَقَدي
ومن جَمالِك نورٌ لاحَ في بَصَري   ومن وِدادِكَ رُوحٌ حَلَّ في خَلَدي
لا تَحسِبَنَّ فؤادي عنك مُصطَبِراً   فَقَبْلَ حبك كانَ الصبرُ طَوْعَ يدي
وهاكَ جِسْمِيَ قد أَوْدَى النُّحولُ به   فلَوْ طَلَبْتَ وُجوداً منه لم تَجِد
بِما بِطَرْفِك من غَنَجٍ ومن حَوَرٍ   وما بِثَغرِك من دُرٍّ ومن بَرَد
كُنْ بين طرْفي وقلْبي مُنصِفاً فلقد   حابَيْتَ بعضَهما فاعْدِل ولا تَحِد

فقال لي قد جعلتُ القلبَ لي وَطناً وقد قضَيْتُ على الأجفان بالسَّهد
وكيف تطلب عدلاً والهوى حَكَمٌ وحكمُه قطُّ لم يَعْدِل على أَحد
مَن لي بأغيدَ لا يَرْثي لِذي شَجَن وليسَ يعرف ما يلْقاه ذو كَمَد
ما كنتُ من قَبْلِ إذْعاني لِسَطْوَته أَخال أنَّ الرَّشا يسْطو على الأسد
إن جاء بالوعْد لم تَصْدُق مَواعِدُه فإن قَنِعْتُ بزُور الوَعْد لَمْ يَعِد
شكَوْتُه عِلَّتي منه فقال : أَلاَ سِر للطَّبيب فما بُرْءُ الضَّنا بِيَدي
فقلْتُ إن شئْتَ بُرْئي او شِفا أَلمِي فبارْتِشاف لَماكَ الكَوْثَرِيِّ جُد

وقال :

غَرامِي فيكَ جلَّ عن القِياس وقد أسْقَيْتَنيه بِكُلِّ كاس
ولا أنْسَى هَواكَ ولوْ جَفاني عَلَيْك أَقارِبي طُرّاً وناسي
ولا أدري لِنَفْسيَ من كَمال سِوَى أنِّي لِعَهْدِكَ غيْرُ ناس

وقال ابو العباس الجزنائي :

أَعَلِمْتَ ما صَنَعَ الفِراق غَداة جَدَّ به الرِّفاق
وَوَقَفْتَ منهم حيثُ للنَّظَرات والدَّمع اتِّساق
سَبَقَتْ مَطايَاهُم فما أبْطا بِنَفْسِك في السِّباق
أأطَقْتَ حمْلَ صُدودِهم أَلبَيْن خَطْبٌ لا يُطاق

عن ذَاتِ عِرْقٍ[1] اصْعَدوا اتقُولُ دَارُهم العراق
ما ضَرَّهم وهُم المُنى لوْ وَافقُوا بعضَ الوِفاق
وتيَامنُوا عُسْفَان[2] ان يَقِفُوا بمُجْتَمَع الرِّفاق
قالُوا تفرُّقُنا غداً فشُغِلْتُ عن وَعْد التَّلاق
عَمْداً رأوا قتْلَ العَميد فكانَ عَيْشُك في نَفَاق
اوْلَى بِجسْمِك ان يَرِقَّ ودَمعِ عَيْنِكَ ان يُرَاق
امَّا الفُؤادُ فعندَهم دَعْهُ ودَعْوى الاشْتِيَاق
اعْتَادَ حُبَّ مَحَلِّهم فرَحِيبُ صَدْرِك عَنه ضَاق
واهاً لِسَالِفَةِ الشَّباب مَضَتْ بأَيَّامي الرِّقَاق
أَبْقَتْ حرارَةَ لَوْعَةٍ بَيْنَ التَّرائِب والتَّراق
لا تَنْطَفِي ووُرُودها من ادمُعي كأْسٌ دِهَاق

وقال :

يا مُوحشِي والبُعْدُ دُونَ لِقائِـــه أَدْعوكَ عن شَحْطٍ وان لم تَسْمَع
يُدْنِيك مني الشوقُ حتى إنَّني لأَرَاكَ رَأيَ العين لولا أَدْمُعِي

---

١ – ذات عرق مكان وهو مهل أهل العراق .

٢ – عسفان قرية على مرحلتين من مكة .

وَأَحِنُّ شَوْقاً للنَّسيم اذا سرى ... بحديثكُمْ وأُصيخُ كالمُستطلِعِ
كانَ اللّقاءُ فكان حظّي ناظري ... وسطاالفراقفصارحظّي مَسْمَعي
فابعثْ خيالك تَهْدِه نارُ الحشا ... إنكان يجهلُ مِنْ مقامي موضعي

وقـال :

أَيُجْمَعُ هذا الشَّمْلُ بعد شَتاته ... ويُوصَلُ هذا الحبلُ بعد انْبِتَاتِه
أَمَا لِلَّيالي آيةٌ عِيْسَوِيَّةٌ[1] ... فتَنْشُرَمَيْتَالأُنسِ بعد مَمَاتِه
ويُوردَعَيْني بعدَ مِلْح مَدامِعي ... برُؤْيَتِهِ في عَذْبِهِ وفُرَاتِه

وقال الرئيس ابو العباس العزَفي :

لكُم حِمًى في فُؤَادي غَيْرُ مقْرُوب ... فضَائعٌ في هَوَاكُمْ كُلُّ تأْنِيب
إن كان ما سَاءَني ممَّا يَسُرُّكم ... فعذِّبوا فقد استَعْذَبْتُ تعذِيبي
عُودُوا الى الوَصْل اوعُودُوا عليَّ لَكُم ... وبادِرُوا فَرِضاكُمْ طِبُّ مطْبُوب[2]
كم أُرسِلَتْ أَدْمُعي تَتْرَى بصِدْقي في ... دَعْوَى هَوَاكُم فقابَلْتُم بتكْذيب
وَلَاذَ بالصَّبْر قلبي حين غالَبني ... شوْقي كما لاذَ غالِبٌ بمَغْلوب
لَوْلا الحبيبُ الذي ينأَى بنأْيكُم ... ما كان قُرْبُكُم عندي بمَحْبوب

---

١ – منسوبة الى عيسى عليه السلام وكان من آياته احياء الموتى .
٢ – المطبوب المسحور .

تشكَّتْ جيَادي ما أَضرَّ بها   من طُول ركْضٍ وإسْئادٍ وتأْويب
مِنْكُم رَشأٌ لَوْلا لَواحِظُهُ   ما كانَ قَلْبي من صدْري بِمَسلوب
بَدَا خرَّت الالحاظُ ساجِدةً   لِنُورِ وَجْهٍ بتاجِ الحسْن مَعْصُوب
لُ حَبَّةَ قلبي خالَه ابداً   يصْلَى بجَمْرٍ على خدَّيْه مَشْبوب
لتْ عقَارِبُ صُدْغَيْه وَحفَّ بها   حيَّاتُ وَحْفٍ[1] مَعَ الأَذْيال مَسْحُوب
نِي القلوبُ فَتَجْنِي وَرْدَ وَجْنَته   فتَنْثني بين مَلْسُوع ومَلْهُوب
رِيَاضُ حُسْنٍ رِمَاحُ الهُدْبِ مُشْرَعَةٌ
للذّب عنهـا بطَعْن غَيْر تَذْبِيب[2]
ها مَصارِعُ للعشاق دَامِيةٌ   فكلُّهم بين مطْعُون ومَضْروب

وقـال :

لَّكْتَ رِقِّي بالجمَال فأَجْمِل   وحكَمْتَ قلبي باعتِدَالِكَ فاعْدِل
نتَ المليكُ على المِلاح ومن يجُرْ   في حُكْمه الَّا جُفُونَك يُعْزَل
نقيل أَنتَ البدرُ فالفضلُ الذي   لكَ بالكَمال، ونَقْصه لم يُجهَل
ولا الحظُوظ لكُنت انتَ مكانَه   ولكانَ دُونَك في الحَضيض الأَسْفل

---

١ ــ الوحف الشعر الكثير شبه ضفائره بالحيات .
٢ ــ التذبيب : الدفع .

عيْنَاكَ نَازَلَتِ القُلوبَ فكلُّها إمَّا جريحٌ او مُصابُ المَقْتلِ
هزّت ظُباها بعد كَسْرِ جُفُونِها فأُصِيبَ قلبي في الرَّعيل الأَول
ما زلتُ أعْذَلُ في هواك ولم يَزلْ سمعي عن العُذَّال فيك بِمَعْزِلِ
أصبحتُ في شُغْل بحبك شاغِلٍ عن أن أُصِيخَ الى كلام العُذل
لم أُهمِلِ الكِتمان لكنْ أدمُعي هَملتْ ولو لم تَعْصِني لم تَهْمُل
ما في الدَّبور[1] ولا الجَنُوب جوابُ ما أُهدِي اليك مع الصَّبا والشَّمْأَل
حَمِّلْتُها من طِيبِ عَرْفك نفْحَةً تُحيِي ذَماءَ عَليلِكَ المُتَعَلِّل
إن كنتَ بعدي حُلتَ عمَّا لم أَحُل عنه وقد أَهْمَلْتَ ما لم أُهْمِل
او حالَتِ الاحوالُ فاسْتَبْدَلْتَ بي فأنا بِحُبِّي فيك لم أسْتَبدِل

وقال :

لِيَ في سَبْتَةٍ سكَنْ حُبُّه في الحشَا سَكَنْ
فهْوَ يَزْدادُ جِدَّةً مَعَ إبْلائِه الزَّمنْ
أَصْبحَ القلبُ عِنْدَهُ وبغرْناطةَ البَدَنْ
إنَّ هارُوتَ[2] لَوْ رَآى سِحْرَ أَلحاظه افْتَتَنْ

---

١ – الدبور الريح الغربية وباقي أسماء الرياح المذكورة معروفة .

٢ – هاروت هو أحد ملكين كانا ببابل يعلمان الناس السحر واسم الثاني ماروت .

رَشأٌ سِحْرُ بابلٍ بيْنَ عيْنَيْه قد كَمَنْ
زَارني والرَّقيبُ قد غابَ والليلُ حينَ جنّ
بَعْدَ بُعْدٍ حنى الضُلوعَ على الشَّجْو والشَّجَنْ
فشَهِدْنا على نِكَاحِ ابْنِ مُزْنٍ ببِنْت دَنّ[1]
ونَعِمْنا إلى الصَّباحِ كرُوحَيْنِ في بَدَنْ
وسَكِرْنا فظُنَّ خيْراً بنَا واتْرُكِ الظِّنَنْ

وقال :

وَعدَتني ان تَزُور يا أَملي فلَمْ أَزَلْ للطَّريق مُرتَقِبا
حتى اذا الشمسُ للغُروبِ دَنَتْ وصَيّرَتْ من لُجَيْنِها ذَهبا
أَنسَتْ بالبَدْر منه حِينَ بَدا لأنّه لوْ ظَهَرْتَ لاحْتَجبا

وقال :

هَجْرُكم ما لي عليه جَلَدْ فأَعيدوا لي الرِّضا او فعِدُوا
ما قَسا قَلْبيَ مِن هَجْرِكمْ ولقد طالَ عليه الأَمَدْ

وقال ابنُ هانئٍ السبتي مُوَرِّيا :

ما لِلنَّوى مُدَّتْ لِغَيْر ضَرورَةٍ ولَطالَما عَهْدي بها مَقْصُورَهْ

١ — ابن المزن الماء وبنت الدن الخمر ويعني بنكاحها مزجها .

إنَّ الخليل وإن دَعَتْهُ ضرُورَةٌ ... لم يَرْضَ ذاكَ فكيفَ دُونَ ضرورهْ

وقال ابو القاسم الشَّريف :

زارَتْ بأَكْرمِ لَيْلة وَفَّى بها ... حَقَّ الزيارة زائِرٌ ومَزُورْ
نَتَطارَحُ الشَّكْوى وقد شَرَدَ الكَرى ... عنَّا فَنُنْجِدُ في الهوى ونَغُورْ
ثم انْجَلَى الاصباح فالتَفَتَتْ كما ... يَرْنو غَزَالُ الرَّبْرَب[1] المَذْعُور
حتَّى اذا قامَتْ تَمُدُّ بنورها ... مُتَبَلِّجَ الاصباح حين يَنُور
طارَ الفؤادُ فصِرْتُ أعجَبُ وهْوَ في ... شَرَكِ الهوى قد صِيدَ كيف يَطير

وقال :

ظفِرْتُ بلَثْمِها فَبَدا احمِرار ... بوَجْنَتِها يزيدُ القَلْبَ وَجْدا
فأغْراها بِيَ الوَاشِي فظَلَّتْ ... تَلُومُ ولم أكُن مِمَّنْ تَعَدَّى
فما كانَتْ سِوى قُبَلٍ بِفِيها ... جَنَيْنَ أَقاحِياً وغَرَسْنَ وَرْدا

وقال :

غَزَالُ أُنسٍ كم اسْتَدْنَيْتُهُ فنَأى ... عنّي وأعْرَضَ مُزَوَّراً بجانِبه
طالَتْ عَلَيَّ لَيالٍ في هواه كما ... طالَتْ عليه لَيالٍ مِن ذَوائبه

---

١ ـ الربرب : القطيع من بقر الوحش .

وقال أبو بكر بن شبرين :

أخذتِ بكظم الرُّوحِ يا ساعة النَّوى
وأضرمتِ في طيِّ الحشا لاعجَ الجوَى
فمَن مُخبِري يا ليتَ شِعْري متى اللِّقا
وهل تحسُن الدنيا وهل يَرْجِع الهوى ؟

سلا كلُّ مشتاق وأقصرَ وجْدُه — وعند اللِّوى وجْدي وفي ساكني اللوى
ولي نِيَّةٌ ما عِشْتُ في حفظ عهدهم — إلى يومَ ألقاهُم ولِلْمرْءِ ما نوى

وقال أيضاً :

متى تَسْمَحُ الدنيا بِقربِكم متى — لقد عاثَ هذا البَيْنُ ظلْماً وعنَّتا
ألا قبَّح الله الفِراقَ فانه — لأَصعَبُ ما يَلْقاهُ من دَهرِهِ الفتى
أفي كل يَوْم رِحلةٌ بعد رِحْلةٍ — لقد أتْعَبَتْنا رِحْلَةُ الصيفِ والشِّتا
وكنْتُ أُرَى ذا قوَّة وشَبِيبَة — ولكن تولَّتْني اللَّيالي فولَّتا
وكيفَ احتمالي ذاك والرُّكْنُ قد هوى
وهــذا مَشيبي بالحِمام مُبكِّتا

وقال أيضاً :

يا من أعاد صباحي فَقْدُه حَلَكاً — قَتَلْت عبدَك لكِنْ لم تخَفْ دركا

مُصيبتي منكَ ليْسَت كالمَصائِب لا ولا بُكائِي عليها مثل كُلِّ بكا
فمَن أطالِب في شرْع الهوى بِدَمِي لَحْظي ولَحْظُكَ في دَمِي قد اشْتَركا

وقال السلطان ابو العباس بنُ ابي سالم المَريني :

أَمّا الهَوى يا صاحبي فأَلِفتُه وَعَهِدْتُهُ من عهد ايام الصِّبا
ورأيتُه قوتَ النفوس وحَلْيَها فتَخِذتُه دينـــاً إليَّ ومَذْهَبا
ولَبستُ دُون الناس منه حُلَّةً كان الوَفاءُ لها طِرازاً مُذْهَبا
لكنْ رأيتُ له الفراقَ مُنَغِّصاً لا مَرْحباً بفِراقِنا لا مَرْحَبا

وقال الكاتب محمد بنُ أبي مَدْيَن :

عزَّ صَبْري ولم أكُن بالجَهُول عندَ ما آذَني مَسيرُ الحُمُول
ها أَنا في الطُّلول أُرْسِلُ دمعاً ليس الاَّ به شِفاءُ العَليـل
لَم تَكُن أَدْمُعِي بِأَوَّل دمـع طلَّه العاشِقُون بين الطُّلُول
فدُموعي الغِزارُ طُوفَانُ نُوحٍ وضُلوعي الحِرارُ نارُ الخَليل
لِهُبوبِ الشَّمال مِلْتُ ارْتِياحاً فكأَنِّي شَرِبتُ كأْسَ شَمُول
والتِزَامُ الرُّبوع صيَّرَ جِسْمي مُشْبِهاً مِنْهُمْ لِكُلِّ نَحيل
آهِ مِمَّا أَضرَّ بي من غَــرامٍ واشتِياقٍ ولَوْعَــةٍ وغَليل
سادَتي هل الى الوِصال سَبيلٌ إنَّني لم أَجِدْ له من سبيل

إنْ أَمُتْ في الهوى فغيرُ نكيرٍ كَمْ لها في ذوي الهوى مِن قتيل
فارحموا مَن شكا لغيرِ رحيمٍ بعدكُم واستنالَ غيرَ منيل
نالَ عِزّاً بكم وذلَّ لديكُم فاعجبُوا منه للعزيز الذليل
وبشوقي بعثتُ قلبي رسولاً فارفقُوا لا يحلُّ قتلُ الرسول
أنا عبدٌ لكم على كل حال كنتمُ ليس لي بكُمْ من بديل

وقال يحيى ابن مَليل من أهل فاس تُوفي سنة ٧٥٠ .

عسَى الايامُ ان تُدني نَزُوحا وتَشفي بالكَرى جفناً جريحا
وتُبدِلَنا التَّنائيَ بالتَّداني وتُبرِئَ باللِّقا قلباً قريحا
عساه أَن يُلِمَّ به خيالٌ يُزيلُ السُّقْمَ والمرَضَ الصحيحا
فداءُ الهجْرِ ليس له دواءٌ سوى وَصْلِ الأَحِبَّة إن أُتيحا
لقد بلَغَ المنَى مَن واصَلُوه ونالَ الفوزَ والتَّجْرَ الرَّبيحا
فهل مِن مُنْصِفٍ مِن حُكمْ دهر غدا جوْراً بوَصْلِكُمْ شَحِيحا
أَعِدْ يا صاحِ ذِكْرَهُم وصِفْ لي حديثاً عنهُمْ كَيْ أَستَريحا
وقلْ هل حافظوا عهْدي وراعَوْا وداداً أَم نَسَوا وُدّاً صحيحا
فذكْرُهُمُ مُنَى قلبي وإني إذا بَصَري رأَى برْقاً لَموحاً
أَحِنُّ لأَرضهم ويزيدُ شوقي إذا ما شِمْتُ من نَعْمانَ رِيحا
ولو أَنِّي شكَوْتُ إلى جَمادٍ لَحُقَّ له لحالي أَن يَنُوحا

أَلا سَقْياً لأَيَّــام تقضَّت عَذولي كان لي فيها نَصِيحا
وكنَّا لا نَرى في الحب هَجْراً ولم نَدْرِ البِعــاد ولا النُّزُوحا
ولم نَشْكُ النَّوَى حتى رَمَتْنا بِأَسْهُمِهـا على قَدرٍ أُتيحــا
فَنَثَّرَتِ انْتِظــامَ الشَّمْل منا واصبح رَبْعُهم رَبْعاً طَرُوحا[1]
أيا مَن قد أَذابَ الجِسْم هَجْراً تَرَفَّقْ قد أَتَيْتُكَ مُسْتَمِيحا
وقد أقرَرْتُ مَوْلائي فَكُنْ لي بِمــا عَوَّدْتَني مولًى صَفُوحا
وداوِ بِرَغْم حسَّادي جُفــوناً بَكَتْ بعدَ الدموع دماً سَفُوحا
ولازَمتِ البُكا والسُّهْــدَ لَمَّا أَبى شوْقُ الأَحِبَّة ان يَرُوحا

وقال القائد عبدُ الرحمن القَبائِلي المتوفى سنة ٨٠٢

أَتسْمَعُ في الهوى قوْلَ اللَّواحي وقدْ أَبصَرْتَ خِشْفَ بَني رَباح
غَزَالٌ خَلَّفَ الصبَّ المُعَنَّى من الوَجْد المُبَرِّحِ غيْرَ صاح
وقد قَتَلَتْ ـ ولا إِثْمٌ عَليها ـ مِرَاضٌ جُفُونه كلَّ الصِّحاح
يقولُ ولَحْظُه بالقلب يُزْري عَلامَ تُطيلُ وَصْفِي وَامْتِداحي
فقلتُ فُنونُ حُسْنٍ فيك رَاقَتْ قضَتْ للقلب بالعِشْق الصُّراح
جبِينُك والمُقَلَّــدُ والثَّنايا صَباحٌ في صَباح في صَباح

١ ـ اي بعيداً .

وقال ابنُ جابرٍ المكناسي :

تاللهِ بعد أَحِبَّائِي الذين مَضَوْا وخلَّفوني رَهِينَ البَثِّ والشَّجَنِ
ما أَبصَرَتْ مُقْلَتِي من بَعْدهم حسناً ولا نظرتُ إلى شيء فأعجبني

وقال مُوَرِّياً :

إن خِفْتَ من فَتْكِ المُهَنَّدِ والقَنا فاذا رَنَتْ واذا مَشَتْ لا تَقْرُب
في قَلْب بُرْقُعِها محَاسِنُ أَنْزَلَت قَمَر السَّماءِ لَنا بقَلْبِ العَقْرَبِ [1]

وقال كذلك :

حلَّت عَقاربُ صدْغهِ مِن خَدِّه قَمَراً فَجَلَّ بِها عَن التَّشْبِيه
ولقد عَهِدْناهُ يَحُلُّ بِبُرْجِها فَمِنَ العجَائِب كيف حَلَّت فيه

وقال السلطان محمد المتوكل السَّعْدي :

خَليليَّ ما يخفَى انحصاري عن الصِّبا فَخلّا عِقالي قد أَضرَّ بي الرَّبْطُ
ولا تَحْفِلا مَن لامَ أوْ تَتَلَوَّما فانَّ بِحَار اللَّوْم ليْس لها شَطُّ

---

١ ـ في قلب برقعها اي داخلـه وبقلب العقرب اى بالبرقـع اذ هو مقلوب العقرب كما لا يخفى والتورية في كون العقرب من منازل القمر .

وقال السلطان المنصور الذَّهبي :

مِن عنبر الشَّحْر أوْ من مِسْكِ دارينِ[١] بَلى ومنه نُسَيْمات الرَّياحِين
مُهَفْهَف ان تَثنّى قُلْتَ مقْتضَبُ من قُضْب نَعْمان أو من كُثْب يبْرِين[٢]
ذَنْبي إلَيْه - ولا ذَنْبٌ - محبَّته مِن أَجْلها بِسَهام اللَّحْظ يرْميني

وقال :

أَقامَ بِقَلْبٍ في هَواه مُقَلَّبٍ وأَنّى له بينَ الضُّلوع مُقامُ
فَيا شادِناً مَرْعاه حَبَّةُ مُهْجَتي أَما لِحَشاً أَقَمْتَ فِيه ذِمامُ

وقال السلطان أبو المعالي زَيْدانُ بنُ المنصور الذَّهبي :

فتَنَتْنا سَوالفٌ وخدود وعُيونٌ مُدَعَّجات رُقود
ووجوهٌ تبارَكَ الله فيها وشعُورٌ على المَناكِب سود
أَهلكَتْنا المِلاحُ وهي ظِباءٌ وخضَعْنا لَها ونَحْنُ أُسود

وقال أيضاً :

مَرَرْتُ بقَبْرٍ هامِدٍ وَسْطَ رَوْضَة عليه من النُّوّار مثل النَّمارق
فقلتُ لِمَن هذا فقالوا بِذِلَّة تَرَحَّمْ عليه إنه قبرُ عاشِق

---

١ - اسم فرضة بالبحرين ينسب اليها المسك .
٢ - موضع كثير الرمل .

وقال عبد العزيز الفَشْتالي :

حينَ أزمعْتُ عند خَوْف البعاد وعدَتْني من الفِراق العوادي
قال صحبي وقد أطلْتُ التِفاتِي أيَّ شيءٍ تركْت قلتُ فؤادي

وقال أبو عبد الله الوَجْدي الكاتب المتوفى ١٠٣٣ ﻫ

لبِس الصُّفْرَةَ كيْ يَزْهُو بِها شادِنٌ مِن جَنَّة الْخُلْد نَفَرْ
خِلْتُهُ من حُسْنِه لَمَّا بَدا هالَةَ الأُفْق بوسْطاها القَمَرْ

ولأبي سالم العَيَّاشِي :

ولمْ أنْسَها يقْظانَةَ الهمِّ في الحشا مُبَلْبَلَةَ الأشْجان وَسْنانَةَ الطَّرْفِ
تقولُ وقد جدَّ الرَّحيلُ أهكَذا تُحَمِّلني ثِقْلَ الفِراق على ضُعْفي
أتترُكُ أفراخاً كزُغْب القطا وما رَحِمْتَ بَنيكَ إذسلوتَ عن الإلْف
فقلْتُ لهـــا كُفِّي الملامَ فأعرَضَت
كَخِشْفِ النَّقا تَسْتَعرِضُ الدمعَ بالكَفِّ
فودَّعتهـــا والقلْبُ مُنْطَبِقٌ على أسَاهُ وَدَمْعِي لا يَمَلُّ من الوَكْف
عَليْكِ سلامٌ لا زِيارَةَ بَيْنَنا مَعَ البُعْدِ إلاَّ أن أزورَ معَ الطَّيْف

وقال احمد بنُ عبد الواحد الشَّريف المتوفى ١٠٠٩

مَن مُنقذي من شادنٍ فاتن يُؤْثِرُه البدْرُ على نَفْسِه
إذا انتضى من لحْظِهِ مُرهفاً ما أقْربَ الانسانَ من رَمْسِه

وقال ابو عَليّ اليُوسِي مُتشوقاً إلى زاوية الدّلاء[1] :

أَلا لَيتَ شِعْري هل أرى مِن ثَنِيَّة عِضاها كَصفُوف الكَتائِب تُشْرِف
وهل أَرِدَنْ من سَلْسَبِيلِ مَوَارِدٍ هُنَاكَ لِمَعْسُولِ المَبَاسِمِ تَرْشُف
وهل أَرَيَنْ مَغْنَى الدّلاءِ عشيةً كأنّ بقاياها بِنَاءٌ مُفوَّف
ذكرتكم وَهْناً وإنّي لَمُدْلِجٌ بأجوازِ أَقطارِ الصّحارى أُطوِّف
فقلتُ وقلبي ضِمْنَ شجْو ولَوْعةٍ وَجفْني بمَنْثُور الجُمَان يُكَفْكِف
أَدَاراً سُقيتِ الوَبْلَ غيرَ مُبَرِّحٍ
ولا بَرِحت عنكِ الحوادثُ تُصْرَف
لَقد هِجْتِ في القلب العَميد صَبَابةً تكادُ لها صُمُّ الجبال تقصَّفُ

وقال مُورّياً :

وعادلٍ عن الهوى عاذلٍ يدعُو لأَمرٍ في الهوى إمْر
قال اسْلُهم واصبِرْ فكم ذائقٍ أَمرَّ في الهجر من الصّبْر
وزَعْ عِنانَ القلب عما جرى علَيْه من بَلْواهُ أَو يَجْري
فأيُّ عُذْرٍ في اتّباع الصِّبا قلتُ له إن الهوى عُذْري

---

١ ـ انظر التعليق على صفحة ٢٦٩ بالجزء الاول

وقال الأَمير محمَّد العَالِم بنُ السلطان مولاي اسماعيل العَلَوي أيامَ خلافته بِسُوس يتشوَّق الى مدينة فاس :

أَلا ليتَ شِعري هل أُنزِّهُ ناظري ... ولِلنَّفْسِ إِقْبَالٌ بوَادِي الجوَاهر
أُمتِّع طرْفي في رِيَـــاضٍ أَنيقةٍ ... وأقطِف أزهاراً بها كالزَّواهر
بِحيثُ تُرَى أُسْدُ العَرِين صَرِيعةً ... وقد فتَكَتْ فيها ظِبَاءُ المَقاصر
وحيث تُرَى غُلْبُ الحدائق سَلْسلَتْ
حَدِيثاً صَحِيحاً عن نَسِيم الأَزَاهر
وقد نسَجت كفُّ النسيم عَشيةً ... دُروعَ مِيَاه بين تلك النَّوَاعِر
وأَصبحَتِ الأَطْيَارُ فَوْقَ غُصونِها ... فصاحاً تَقُصُّ فوقَ خُضرِ المنابر
سقَى اللهُ أَدْوَاحاً بفاسٍ عهِدتُها ... تُغَازِلُ أنوَاءَ الغُيوثِ المَوَاطِر
ولا برِحَتْ عينٌ تَراها قَريرةً ... وان قَذَفَتْ بالقَلْب جَمْرَةَ حائر
لكَ اللهُ من إلْفٍ بِدَرْعَةَ[١] جِسْمُهُ ... وَقَلْبٌ بفَاسٍ في قُدَامَة طَائر
تُراوِحُه الأَشواقُ في كل ليلة ... فَما بَيْنَ مُزْوَرٍّ هَواه وزَائِر
ولو انَّهُ يُعْطَى على قدر مِثْلِه ... لَكَانَ له ما بَيْنَ يُسْرٍ[٢] وياسِر

١ – اسم اقليم مغربي معروف .
٢ - يسر اسم ماء لبني يربوع وياسر جبل في منازل أبي بكر بن كلاب .

وقال أخوه الأمير زَيْدان :

لم أَنسَ يومَ زارني قمَري … فَكَمُلَ الأُنْسُ به اذْ جلس
قبَّلتُ منه الخــدَّ مُخْتَلِساً … وانَّما العَيشُ الشهيُّ خُلَس
ومِــلْت للثَّغر على غِرَّة … مِنْه فما أَطْيَبَ ذاكَ اللَّعس
فجادَ لي بالرِّيق حيثُ دَرَى … أَنِّي عليلٌ لا أُطِيقُ النَّفس
وبتُّ نَشْوَانَ بِعَــافِيَـةٍ … أَغْتنِمُ الفُرْصَةَ عنــد ٱلْغَلَسْ

وقال ابنُ زَاكُور :

يا رَعَى اللهُ لَيالٍ قد خلَتْ … كلَئَـالٍ في سُلُوك من نُضَار
وعهوداً سلَفتْ لي بــالحِمَى … فسقَى الوَبْلُ الحِمَى غيرَ مُضَار
حيثُ لا هَمَّ ولا غَمَّ سوى … رَنَّةِ العُود وكاسَاتٍ تُــدَار
من عُقَـارٍ كنُضَارٍ أَفرِغَت … في أَبَارِيقَ حكَتْ شُهْبَ الدَّرَار
علِّلُوا قَلْبَ الشَّجِي من شُرْبِها … مَا أُحيْلَى الشُّربَ من تِلْكَ العُقار
مَعْ ظِبَاءٍ كَلِفَ القلبُ بِهِم … سمَحُوا بالوَصْلِ مِن بَعْد نِفَار
في رِيَاض كَزَرَابٍ نُمِّقَتْ … بِشَقِيــقٍ كَعَقِيقٍ وَبَهَــار
أَأَرَى أَحْظَى بوَصْل بعد مــا … بَعُدَت من طاقتي تِلك الدِّيار
فعلَى آرامِهــا من مُدْنِــفٍ … شائِــقٍ نَشْرُ سلامٍ كالعَرار

وقال مجنساً :

ذابَ قلْبِي من الصُّدودِ ولولَا ... ما أُرَجِّي من الوصال قَضَيْتُ
ليتَ شِعْرِي وهل يَرِقُّ لحالي ... من هَوِيتُ فإنني قــد هَوَيْتُ

وقال :

ولَقَدْ ذَكَرْتُكَ بالرُّبى من لَمطَةٍ[١] ... ونَسِيمُهَا يُهْدِي إليَّ أريجـا
فاهْتاج ريحُ الشوق بين اضالِعي ... يُذْكِي لظَى وَجْدي فأَجَّ أجِيجا

وقال :

ذكرتُك والبحرُ طلْقُ المُحَيَّا ... علٰى مَتْنِه رَوْنَقٌ وَابتِهاج
فـآضَ سَرِيعاً يُحَاكِي فُؤَادي ... لِأَمْوَاجِهِ لَدَدٌ وانْزِعــاج
أَلَا لَيْتَ شِعْرِيَ يجمَعُنـا ... بِلادٌ له من سَنَاك سِرَاج

وقال ابن الطيّب العَلَمي :

اشكُو الى اللهِ لا إلى أَحَـدِ ... غَمَّ الفِرَاق الذي على كَبَدي
ومـا أُكابِدُ فيـه من تَعب ... لقد خَلَقْنـا الإنسان في كَبَـدِ

---

١ – لمطة اسم قبيلة مغربية شهيرة .

غابَ الذي غِبْتُ في مَحاسِنِه وسارَ من بَــلَد الى بَلَد
قطعتُ عنـه يدَ الوَفا فنأى يا لِلْوَرى بِيَدي قطَعْتُ يدي
بدرٌ بـأُفْق القُلوب مَطْلِعُـه يفْتَرُّ عـن دُرَرٍ وعـن بَرَد
رَوَيْتُ عن ثَغْرِهِ النِّظامَ الى أَنْ شِخْتُ بين الرَوِيِّ وَالوَتِد
وَلِي لِسَانٌ يَزِينُـــه لَسَنٌ أَكَادُ فيـه أُقاسُ بالصَّفَدي[1]
ظَلَّتْ دموعي في الخد مُطْلَقَةً يَوْمَ الوَداع والقَلْبُ في صَفَد
يقولُ إن قلتُ مُت مِن شغَفٍ ما إِنْ أَرَى لِلْقَتيل من قَوَد

وقـــال :

تَفَتَّحَ وَرْدٌ يانِعٌ فوقَ خده أَلَا فانظُروا ورْداً تفتَّح في الخد
وفي ثَغْرِهِ وَرْدٌ مُنِعْتُ وُرودَه وما ضرَّه لوْ جَاد بالوَرْدِ والوِرْد

وقـــال :

يا طلعةَ البدر في ليل من الشَّعَر يا فِتْنَةً خُلِقَت في صُورة البَشر
ارْحَمْ شَهِيـداً له في الحب مُعتَرَكٌ بين المباسِم والالحاظِ والطُّرَر

وقال الاديب ابو عبدالله الشَّرْقي صاحِبُ الْعَلَمي :

---

١ – هو الأديب صلاح الدين الصفدي المعروف .

مَن لي بها تَخْتَالُ في حَلْيِها كروضة تختال في زَهْرِهــا
فبِشْرُها ارحَبُ من بِشْرِهــا ونَشْرُها اطيَبُ من نَشْرِهــا
وخدُّها ابهجُ من وَرْدِهــا ونُورُها أَلطَفُ من نَوْرِهــا
وقدُّها أَرْفَــعُ من غُصْنِها ووجهُها ابيضُ من فَجْرِهــا
العيشُ والجنةُ في وَصْلِهــا والموتُ والنِّيران في هَجْرِهــا
عاطَيْتُهــا راحــاً مُشَعْشَعةً كمِثْلِ ياقوتٍ على نَحْرِهــا
راحُ أَراحَ الأُنسُ فِكْري بها من شَارَةِ الدُّنيا ومن شَرِّهــا
وهيَ في مجلس أَفرَاحِهــا كأَنَّها الزَّبَّاءُ في قَصْرِهــا
لو تُسْعِدُ الدنيــا بِزَوْرَتِها لاصْطَلَحَ الناسُ على شُكْرِها

وقال :

بعثَ الحَبيبُ كِتابَهُ لِيَعودَني وَيَرَى اكْتِئَابي بعْدَهُ وَهُيَامِي
فكأَنَّمَا أَمر الفُــؤَادَ بضَلَّةٍ والجَفْنَ أَن لا يَهْتَدي لِمَنام

وقال ، وهو تَلْخِيصٌ بديع لِقصَّة الحُب من أولها الى اخرها :

بَدْءُ الغرام مُجُونٌ وبعد ذاك شُجُونٌ
والحبُّ نفــعٌ وضُرّ وَجَنَّــة وجُنُونٌ
ورَاحَــةٌ وبَــلاءٌ ومُنْيَــةٌ ومَنُونٌ

فـــاحفَظ فُؤادَكَ منه فَما هُنَـــاكَ أمـين
أَوْلَا فمُتْ بـه وَجْـداً فالموتُ فيـــه يَهُون

وقال الوزيرُ ابنُ ادريس وارتكب فيها انواعاً من البديع :

سحَرتْكَ بالطرف الكَحِيلِ الساحر وبحُسْن قَدٍّ كالقَضيب الزاهر
وبغُرَّة كالفجر تحت ذوائِبٍ كدُجُنَّةٍ فاعجب لِحُسْن باهر
وبنُقْطة مِسْكِيَّة في وَجْنَـــةٍ وَرْدِيَّة ذَاتِ الأَريـج العـاطر
وبريقِهـا المَعْسُولِ إلاّ انـه يشْفِي الحشَا من كل داءٍ ضائر
رِيقٌ أَعزُّ عليَّ من نَيْل المُنى وَأَلذُّ من رَشْفِ الرَّحيق لخاطري
مَاذَا وَكَمْ اوقعتَني في حَسْرة وجلَبْتَ لي من شِقْوةٍ يا نَاظري
وَلَكَمْ جَمَحْتَ بِتِيهِ مَيْدان الهوى مَا بَيْنَ جَيْش قوَاضِب وبَوَاتِر
وتركْتَنِي في حَيِّ لَيْـلَى مُثْخَنـاً بِظُبى ظِباءٍ لم أَجد من ناصر
يا سَعْدُ هل لي في الهوى من مُسْعِدٍ بشِفَا شِفَاهِ اللُّعْس تَحْت غدائر
ام هل بِنَجْدِ هَوَاهُمُ من مُنْجِد لِمُتَيَّم في حـاجر بمَحَـاجِر
فَتَكَتْ عيونُ العِينِ في أَحْشائه بشِفَارِ أَلْحَاظٍ رَمَتْ بخَنَاجر
وسطَتْ عوامِلُ قَدِّهِنَّ بقَلْبِه فَغَدا أسِيرَ عَوَامِلٍ ونَوَاظر
أَوْثَقْنَه بِحِبَال وَعْدٍ مُخْلَف وشدَدْنَ أَسْرَ وَثَاقِه بمَعاذِر
نفسي الفـداءُ لِظَبْيَةٍ فتَّانـة فتَّـاكة بشِفَـار شَفْر فـاتر

نَامَتْ نواظِرُها وقد سلَبَتْ كرَى | طَرْفِي بطَرْفٍ بَابِليٍّ ساحرِ
وغدا الجمالُ بأسرهِ في أَسْرِها | والسِّحْرُ أَيَّد جُنْدَه بعَساكرِ
فإذا بَدَتْ سجَد العُيون لحسنها | تَسْبِيحُها : سُبحان ربِّي الفاطرِ
وترى القلوبَ خَوَاشِعاً لجمالها | مكسورةً من كَسْر طَرْفٍ كاسرِ
شمسٌ على غُصْن تكَوَّن في نَقَا | من تَحْت ليْلٍ ذَوَائِب وغدائرِ
نصَبتْ قِسِيَّ حوَاجِبٍ موْتورةٍ | بالسِّحْر تَرْمي كلَّ صَبٍّ ناظرِ
فكأنَّما هارُوتُ عن أجفــانها | يَرْوِي فيُسْنِدُ ساحِرٌ عن ساحرِ
ورعَتْ رعَاها اللهُ في رَبْعِ الحشَا | حَبَّ القُلُوب ولم تَخَفْ من زَاجرِ
غَيْداءُ قد وَرِثَتْ محَاسِنَ يُوسفٍ | نَاهِيكَ من حُسْنٍ بَهِيٍّ باهرِ
وتوطَّنَت بالمُنْحَنى من أَضلعي | ومُحَصَّبَ الأحْشا رَمتْ من حاجرِ
فغَدَوْتُ ما بَيْنَ الأَنام مُتَيَّما | بجمالهـــا ومُهَيَّما في سَائرِ
وغَدا عَذُولي عاذِراً في حبِّها | فاعْجَبْ لِعَاذِل ذي غرام عاذرِ
كم من عَذُولٍ في الهوى ومُكَاشِحٍ | غَابَتْ شوَاهِدُه بوجه سافِرِ
ولكَمْ رَقِيبٍ في الهوى أَلَّفْتُه | بالشعر حتى عاد عند أوَامري
ولكَمْ نظمتُ سُلُوكَه في غادة | فأتتْ قلائِدُه بدُرٍّ فـــاخرِ
ولكم لَيَالٍ قد خَلَوتُ فَرِيدةٍ | والكاسُ نجمٌ في سَماءِ أزَاهِرِ
ومُدِيرُنا رَفَع العَقِيرةَ منشداً | قِطَعاً أَلَذَّ من المُـــدام الدائرِ

يشدو فيبدُو الدُّر من أصْدافه ثَغْرٌ وَشِعْرٌ مَعْ عقُودِ جواهر
سَقْياً لأَيام الوِصَال وقُرْبها وَزَمَانِ أُنْس بالأَوَانس زاهر
إنِّي لأَذْكُرُهُ فأَحسِبُ أنني من كَثْرَةِ الاشواق بَيْنَ مَحَاضِري
وأقولُ للأَيام هل من عَوْدة لِزَمَاننا الماضِي بوَصْل حاضر
فعَساءِ يظهر لي المَتـاب بعَـوْدة وَيُكَفِّرُ الماضي بحُسْن الآخِر

وقال :

أَلا خَبِّرُوا ذاتَ الخلاخل والقُرْط بأَنِّي مِلْكٌ للجمال بـلا شَرْط
لقــد اودَعَتْ قلبي وحقِّك لوعــةً
غداةَ غدَتْ بين الوِشاحَيْن وَالمِرْط
تَمِيسُ كَخُوطِ ألبَانِ غَازَلَه الصَّبا وتُسْفِرُ عن بَدْرٍ وتَفْتَرُّ عن سِمْط
رَمَتْني بسهم الغُنْج عن قَوْسِ حاجب فأَصمَتْ فؤَادَ المُسْتَهام وَلَم تُخط
وما كانَ بَدْءُ الحب الا بنَظْرة وتَبْتَدِيءُ النِّيرانُ من ضَرَم السَّقْط
عجبْتُ لها مُذْ وردَ الحسنُ خدَّها وَزَيَّنَه كَفُّ المحاسِن بالنَّقْط
وَحلَّتْ بقَلْب المُسْتَهام وأَهلُهـا بذَاتِ الغَضا ما بَيْنَ نَعْمانَ والشَّطِّ

وقال في سِرْبِ نِسَاء تعرَّضتْ للسلطان ببلاد زمور :

أَظباءَ زَمّور سلبتم مهجتي بقَنا القُدودِ وصارِم اللَّحَظات
وهتكْتُم بالقَهْر حِصْنَ تَنَسُّكي بجُيوش حُسْنِ خَرِيدَة ومَهاة
شُنَّتْ علينا بالنواظر غَــارَةٌ فأَخذتُم الأَلْبَابَ في الثَّارات

كُفُّوا لِحاظَكُم الكَحيلَة وارْدُدُوا أَسْلابَ أَلبابٍ على المُهَجَات
أوْ لا أبيحُوا للشِّفَاهِ شِفَاءَهَا ولْتَسْتَحِلُّوا لَثْمَ تِي الوَجَنات
قالتْ أَفي شرْع الغرام تَحَكُّمٌ أَرَأَيْتَ مِن حَكَمٍ على الفَتَيات
نحن الملوك على الملوك وإنَّما احكامُنا بالقَهْرِ والغَلَبات
الجوْرُ عدْلٌ عندنا والظُّلْمُ حقٌ بيْنَنا والذَّنْب كالحسَنات

وقال القاضي ابو عبدالله بن طاهر الهَوَّاري وهو من تَبْدِيل القَلْب :

قد سبَى عقْلِيَ مَعْسُولُ اللَّمَا باللَّمَا المعسول عقلي قد سَبَى
عذَّبَ القلبَ اخْتياراً بالهَوَى بالهوَى القَلبَ اخْتياراً عَذَّبا
قد أبى الوصْلَ ولكِنْ أرْتَجِي أَرْتَجِي الوَصْلَ ولكن قَدْ أبى

وقال في مليح يسبَح :

ومُجرَّدٍ قد لاحَ وسْطَ الماء مُتَلأْلِئاً كالدرَّة البيضاء
أَبدَى لنا من رِدْفه دعْصَ النَّقا والخَصْرُ أَخصَرُ ما يَرَاهُ الرائي
يطفُو ويرْسب والمحاسِنُ تُجْتَلَى بتَخالُف الأَوْضاع والأَنْحاء
عوَّذْتُه كيْ لا يُصابَ بأَسْهُم من أَعْيُن النُّظَّار والرُّقَباء

وقال الاديب ابو العباس احمد بن الرِّضي بن عثمان المكناسي .

هوًى يعلو فأَخفِضُه اصطِبارا فما يزدَادُ بي الا أُوَارا
وأَضْرِبُ عن حديث الحب صفحاً فتَسْتَهْوِينيَ الذِّكْرَى افْتِكارا
لبِستُ الحب فوق العَظْم جِلداً وقَيْسٌ حازَه ثَوْباً مُعارا
فإن تَعْجَب ففي أَمْرِي عجيب يَرَى أَهلُ ٱلْهوى فيه اعتِبارا
أَلَيْسَ الدَّمعُ يُبْرِدُهم غَلِيلا فما لِلدَّمع لِيَ يَزِيدُ نارا
ولوْ كالشَّمْس او كالبدْر أَضحَى مُحَيّا مَنْ هَوِيتُ لَقُلْتُ زَارا
ولكن فيه عينُ الشمس غابتْ وأَما البدرُ أَبْصَرَه فحَارا
تعالى اللهُ كم أَهْدَى بِسَهْم من الأَهداب للكَبِد انْفِطَارا
ولجَّ ٱلْعَاذِلُونَ فَأَوْسَعُوني غَداةَ رأوا لواحِظَه اعْتِذارا
أَبيتُ وكلُّ من يهوى يَبِتْ في ضُيوف الحب يَقْرِيه الجِمَارا
أُفَكِّرُ في مَباسِمِه التي مَن يضِلُّ يقُول جهْلاً واغترارا
ثُغُورٌ ام لآلِي الدُّر تَنْدى اجادَ النَّسْق ناظِمُها جُوَارا
جَرَتْ انهارُ كوْثَرِها رُضاباً ولو حقَّقْتَ قُلْتَ جرت عُقَارا
أَغُصْناً مالَ بالأَلباب مِنَّا فنَرْجُو الوصلَ يُطْلِعُه ثِمارا
أَكَلَّفْتَ ٱلرِيَاضَ تَذُوبِ نِشْراً فقد أَعْيَى المَيَامِنَ وٱلْيَسارا
وما أَغْنَى غَنَاءَك في كِفَاء يُسَابِق غُصْن بانِكَ حيث سار

متى أَشْمُمْ عِذَاراً في أَصيل فأَفْضح رَنْدَ نَجْدٍ والْعَرارا
فَتَحْظَى بالْمُنَى منا نفوسٌ تَرَى إذْلاَلَهَا فيك افْتِخاراً

وقال محمد بن الشيخ سيدي الأَبييري الشنقيطي :

ما للمُحِبّين من أَسْرِ الهوى فادِ ولا مُقيدٌ لِقَتْلاَهُم ولا وَادِ
ولا حميمٌ ولا مَوْلًى يَرِقُّ لهم بل هُم بِوادٍ وكُل الناس في وَاد
يا رَحْمتي لِهمُ ما كانَ أَصبَرَهم على مُعاناة جمع بين أضْداد
والناسُ إِلْبٌ عليهم واحدٌ فلذا مَا إنْ تَرَى من يُوَاسِيهِم بإسعاد
إما عَذُولٌ وإما ذُو مُراقَبَة أَوْ زَاعِمُ النصْح أَو سَاعٍ بإفساد
إن أَظْهَروا ما بِهم لِيمُوا وإن كَتَمُوا
لاقَوْا بِما كَابَدُوا تصْديع أَكْبَاد
وَهَيِّن كلُّ ما لاَقوه عندهُم لو أَن أَحبابَهم ليسُوا بصُدَّاد
يا عاذِلين أَقِلُّوا اللَّومَ ويُحَكُمْ إِنِّي لِمَنْ رامَ قوْدِي غيرُ منقاد
ولا يُلِينُ قناتي غمزُ غامِزها ولا يُقِيمُ ثِقَافُ العذْل مُنْآدِي
أَحيْثُمَا كنتُ أَو يممتُ من جهة أُلفِي رقيباً ولوّاما بمِرْصاد
ما اعتادَ قلبي الصِّبا لكنَّ من ملكَت
يَدُ الغرام يعودُ غيرَ مُعتَاد
يزدادُ باللَّوْم حبُّ الصادقين هوًى وَاهاً لحب بطول اللوم مُزْداد

والطّرفُ للقلب مرتادٌ ولا عجبٌ في قفْو منتجع آثار مرتاد
والحبُّ أمرٌ عزيز ليس مرتبطاً في حكمه عند من يدريه بالعاد[١]

وقال السيد محمّد الحرّاق المتوفى سنة ١٢٦١ وهو من شعر الاشارة :

أحبّتنا إن الغرامَ أصابني وغيّبني حتى تحيّرتُ فيكم
فإن رُمتُ نوْماً فارق النومُ مقلتي وان رُمت بسطاً خفتُ سلْواي عنكم
وان كنتُ من اهلي قريباً اخاف ان تروا من محبٍّ حالةَ البُعد منكمُ
وان كنتُ ناءٍ عنكم خِلْتُ أنني أقصِّر عن نهْج العبيد لديكمُ
على كلِّ حالٍ ليس في الحبِّ راحةٌ أموتُ شهيداً والسلامُ عليكمُ

وقال :

أتتْ في الدُّجى كي لا يراها رقيبُها ويخلُصَ من شرِّ الوُشاة حبيبُها
فنمَّ بها إشراقُ نورِ جمالها وأخبر عنها إذ تضوَّع طيبُها
فوالله لا يخلو بها غيرُ عاشق رقيقُ المعاني في الامور لبيبُها
فنى فبدتْ في موضع الوَصْل وحدها ولمّا يكُنْ شيء هناك يُريبُها

١ - العاد جمع عادة .

وقال مُضَمِّناً قول المجنون في آخره :

أماطَتْ عن محَاسِنهـــا الخِمارا ... فغادرت العقولَ بها حُيارى
وبثّتْ في صميم القلب شوْقا ... توقّد منه كلُّ الجسم نــارا
وألقتْ فيه سِرّاً ثمَّ قالت ... أرى الإفشاء منك اليوم عَارا
وهل يَسْطيعُ كَتْمَ السِّر صبٌّ ... اذا ذُكِرَ الحبيبُ لَدَيْهِ طارا
به لعِبَ الهَوي شيْئاً فشَيئا ... فلَمْ يشعُرْ وقد خَلَع العِذارا
الى أن صارَ غَيْباً في هواهـــا ... يُشيرُ لِغَيْرهـــا ولَها اشَارا
يُغالِطُ في هَواها النَّاسَ طرّا ... ويُلْقي في عيُونِهم الغُبارا
ويَسْأَلُ عن معَارفِها الْتِذاذاً ... فيَحْسِبه الوَرى أن قد تَمارى
ولو فهموا دَقائِقَ حُبِّ لَيْلَى ... كفاهُم في صبَابتِه اختبارا
إذا يبدُو امرؤٌ من حَيِّ ليلى ... يذلُّ له وينكسِرُ انكسارا
ولوْلَاها لما اضْحَى ذلِيلاً ... (يُقبِّلُ ذا الجِدار وذَا الجدارا
وما حُبُّ الدِّيار شغَفْنَ قَلْبي ... ولكنْ حُبُّ مَن سكَن الدِّيارا)



الوَصف

للقاضي أبي الحسن بن زِنْباع يصف الربيع :

أَبدَتْ لنا الايامُ زَهْرةَ طِيبِها ... وتسَرْبلَتْ بنَضِيرِها وقَشِيبِها
واهتزَّ عِطْفُ الارضِ بعدَ خُشوعِها ... وبدَت بها النَّعماء بعد شُحوبِها
وتطلَّعتْ في عُنفُوانِ شبابِها ... من بعدما بلَغتْ عُتِيَّ مَشيبِها
وقفَتْ عليها السُّحْبُ وقفةَ راحِمٍ ... فبكت لها بعُيونِها وقُلوبِها
فعَجِبْتُ للأَزْهار كيف تضاحكت ... ببكائها وتباشَرت بِقُطوبِها
وتَسَرْبلَت حُللاً تجُرُّ ذُيولَها ... من لَدْمِها فيها وشَقِّ جُيوبِها
فلقد أَجادَ الْمزْنُ في إِنجادِها ... وأَجادَ حرُّ الشمس في تَرْبيبِها
ما أَنْصَفَ الخيريُّ يمنعُ طيبَه ... لِحُضورِها ويُبيحُه لِمَغِيبِها[1]
وهي التي قامَتْ عليه بِدِفْئِها ... وتعاهَدَتْه بَدرِّها وحَليبِها

---

[1] — الخيري زهر يعرف بالمنثور تذكو رائحته ليلاً ويقول له العامة مسك الليل .

فكأنَّهُ فرضٌ عليه مُوقَّتٌ ووُجوبُه متعلق بوُجوبها[١]
وعلى سماءِ الياسَمِين كواكبٌ أبدتْ ذكاءُ العَجْزَ عن تغييبها
زُهْرٌ توَقَّتْ لَيْلَها ونهارَها وتَفوت شأْوَ خسوفها وغروبها
فَضلَتْ على سِرِّ النجوم بأَسْرِها ونُموّها في الخلْقتَين وطيبها
فتأرَّجتْ ارجاؤُها بهُبوبها وتعانَقَتْ أزْهارُهـــا بنكوبها
وتصَوَّبتْ فيها فروعُ جداوِلِ تتصاعدُ الابصارُ في تصْويبها
تطفو وترسُب في أُصولِ ثِمارِها والحسْنُ بينَ طُفُوِّها ورُسُوبها
فكأنَّما هي مُوجسَاتُ أَساوِدٍ تنْسَابُ من أنْقابها لِلُصُوبِها[٢]
بادِرْ كُؤُوسَ الأنسِ في حافَاتِها واجعَلْ سَديدَ القَوْل من مَشْرُوبها
فَحَديثُ إخوان الصَّفاءِ لَذاذَةٌ تُجْنَى ويُؤْمَنُ من جِنَايَةِ حوبها
وارْكُضْ الى اللذَّاتِ في مَيْدانها واسْبِقْ لِسَدِّ ثُغُورها ودُروبها
أَعْرَيْتَ خيْلَكَ صيفَها وخَريفَها وشِتاءَها ، هذَا أَوَانُ رُكُوبها
أَوَمَا تَرَى الازهارَ ما مِنْ زَهْرَةٍ إلَّا وقد رَكِبَتْ فَقار قَضيبها
والطَّيرُ قد خفَقتْ على أفْنانِهـا تُلْقِي فُنونَ الشَّدْوِ في أُسلوبها
تَشْدُو وتهْتَزُّ الغصُونُ كأنَّمـا حَرَكاتُها رَقْصٌ على تَطْريبهـا

---

١ – أي وجوب ذلك الفرض عليه مرتبط بوجوب الشمس يعني غروبها .
٢ – جمع لصب وهو الشق في الجبل ونحوه .

وللقاضي عِياض في خامات زَرْع بَيْنَهـا شقائقُ نُعمان هبَّت عليها ريح :

انظرْ الى الزَّرْع وخامـاته تحْكي وقد ماسَتْ أَمامَ الرِّياح
كَتيبةً خضْراءَ مَهْزُومَـة شقائِقُ النُّعْمانِ فيها جِرَاح

ولأَبي العبَّاس ابنِ غازي السَّبْتي يصِفُ ناقة :

حرْفٌ كمِثْل الصَّادِ إلاّ أَنها بعدَ السُّرى جاءَت كحَرْف النُّون
كالبدر قدَّرَهُ الالَهُ منـازِلاً في الأُفْق حتى عاد كالْعُرْجُون

ولأَبي بكر ابن تَافَلْوِيت في سيفٍ هزَّه علي بن يوسف ابن تاشفين ارتجالاً :

هزَزْتَ حُسامـا فشبَّهتُه غَديراً من الماء لكن جَمَد
فلمَّا بـدا لِيَ إفرنـدُهُ لَهيباً من النـار لكن خَمَد
فـلولا الجُمُود ولولا الخُمُود لسَالَ لَدَى الهزِّ أَو لاتَّقَـد

ولابن عَبْدُون المكْناسي يصِفُ نَهراً وَرَدَتْه عِصابةُ طَيْر :

قم انظُرِ النَّهر في انْصِبَابه كأَنَّه الصِّلُّ في انْسِيَابِـه
قـد انتَحتْـه ظِباءُ طَيْر مُقْتَحِماتٍ عـلى جنَابـه

تَنْقَعُ من مائِه أُوَامــاً وَتَلْقُطُ الحبَّ من حَبَابِــ

وله في المشيب :

لَمــا تراءتْ لِلْمَشيب بمَفْرِقي شُهْبٌ أَغَرْنَ على شَبَابِي الأَدْهَمِ
أَبْدَى التَجَهُّمَ مَن أُحِبُّ أَمَادَرَى أَنَّ الدَّيَاجِي حُسْنُهَــا بِالأَنْجُمِ

وله في مدينة مَكْنَاس :

إن تَفْتَخِرْ فاسٌ بما في طَيِّها وبأنهــا في زِيِّهــا حَسْنَاءُ
يَكْفيكَ من مَكْنَاسَةٍ أَرْجَاؤُها والأَطْيَبانِ هَوَاؤُهـا والمَاءُ

ولابن جابر المكْناسي فيها :

لا تُنكِرَنَّ الحسنَ من مكناسةٍ فالحُسْنُ لم يَبْرح بها مَعْرُوفا
ولَئِنْ محتْ أيدي الزَّمان رُسومَها فَلَرُبَّما أَبقَتْ هناك حُرُوفــا

ولابي العباس العَزَفي في صِفةِ لَيْلة :

وكَمْ ليْلةٍ نِلْتُ فيهــا المُنَى وباتَ لِيَ الحِبُّ فيهــا نَجِيّا
إذَا ظَلَّ لَحْظِيَ في جُنْحِهــا هدَتْ وَجْنتاه الصِّراطَ السوِيَّا
أُرَاعُ فــأسأَلُ عن صُبْحِها فيَرْجعُ لي جُنْحُها ثَمَّ هَنِيّــا

إلى أَن بَـــدا لِيَ سِرْحانُها يُحاوِلُ للجَدْيِ فيهـــا رُقِيّا[1]
فيا لـــكِ من ليلةٍ بِتُّهَـــا أُنادِمُ بَـدْرَ دُجاهـــا البَهِيّا
حكَتْ ليـــلةَ ٱلسَّفْح في حُسْنها
فأَصبحتُ أَحكِي الشَّريفَ الرَضيّا[2]

ولمالك بن المرحل يصف قِصَرَ الليل :

وعَشيةٍ سبَقَ الصباحُ عِشاءَها قِصَراً فما أَمسَيْتُ حتى أَسْفَرا
مِسْكِيَّة لبِسَتْ حُلَى ذَهَبِيَّة وتَجلا تَبسُّمها نِقاباً احمَرا
وكأَنَّ شُهْبَ الرَّجم بعضُ حُلِيّها عثَرَتْ بهِ من سُرْعَةٍ فتكَسَّرا

وله في وَصْف مَدينة سَبْتَةَ :

إخْطِر على سَبْتَةَ وانظُرْ الى جمالِهـــا تَصْبُ إلى حُسْنِه
كأَنها عُودُ الغِنَـــاءِ وقد أُلقِيَ في البحر عـــلى بَطْنِه

ولأبي القاسم الشَّريف يصِفُ دُولَابا :

وذاتِ حَنينٍ تَستَهِلُّ دمُوعُها سِجاماً إذا يحْدُو رَكائِبَها الحادي

---

١ – السرحان الفجر ، والجدي نجم الى جنب القطب تعرف به القبلة .

٢ – يشير الى قوله :

يا ليلة السفح هلاّ عُدتِ ثانيةً سقَى زمانَك هطالٌ من الدِّيَم

تعجبتُ أَنْ ليْست تريمُ مكانَها ولَم تَخْلُ من تأْوِيب سَيْرٍ وإسْئَاد

وأرصَدْتها في الروض أيَّةَ عُدَّةٍ فَكَانَتْ لِدَفْعِ المَحْلِ عنه بِمِرْصاد

تخالَفَ ماءُ المُزْنِ حُكماً وماؤُها

وكلٌّ على روض الرُّبى رائحٌ غادِ

فيُنْجِدُ هذا بعد ما كَانَ مُتْهِماً وذاكَ تَرَاهُ مُتْهِماً بعد إنْجَاد[1]

لِئنْ قذفتْ ذَوْبَ اللُّجَيْن على الثَّرى

لَقَدْ خلَّصَتْه القُضْبُ حَلْياً لأَجْياد

وله يصف رُمْحاً :

وَأَحَمَّ مَمْطُولِ الكُعُوبِ اذا اقْتضَى

مُهَجَ الكُماةِ فَدَيْنُهُ لا يُمْطَلُ[2]

مُتَوَقِّدٌ حتى أَقُولَ أَذَابِلٌ بِيَدَيَّ مِنْهُ أَمْ ذُبَالٌ مُشْعَلُ

لوْلَا التِهابُ النَّصْلِ أيْنَع عُودُه مِمَّا يَعُلُّ من الدِّماء ويَنْهَلُ

فاعْجَب له إن النَّجيعَ بِطَرْفه رَمَدٌ ولا يَخْفَى عليه مَقْتَلُ

---

١ – نجد ما ارتفع من أرض تهامة الى العراق يقال أنجد وأتهم اذا أتى نجدا او تهامة ومن ثم جاء التشبيه في قول شاعرنا .

٢ – الأحم الأسود ، وممطول الكعوب مقوم العقد .

ولابن الجنَّان المكناسي ممَّا كتبه على دَوْر خشَبيّ بِدَاره :

انظْر الى مَنْزل متى نظَرتْ عيناك يُعْجِبْكَ كلُّ ما فِيه
ينْبِيءُ عن رِفْعَةٍ لِمالِكه وعن ذكَاء الحجَا لِبَانِيه
ينَاسِبُ الوَشْيُ في أسافِله ما يَرقُم النقشُ في أعالِيه
كأنَّه روضةٌ مُدبَّجَةٌ جادَ لها وَابِلٌ بهَامِيه
فأظْهَرتْ للعيون زُخْرُفَها ووافقَتْها على تجَلِّيه
فَهْوَ على بَهْجَةٍ تَلُوحُ به ورَوْنَقٍ للجَمال يُبْدِيه
يشْهَدُ للساكنين أن لهم من جَنَّة الخُلْد ما يُحاكِيه

ولعبد المُهَيْمن الحضْرَمي يصِفُ النَّخل في سِجِلْماسة :

لقد راقَنِي مَرْأى سِجِلْماسةَ الذي يُقِرُّ له في حُسْنه كلُّ مُنْصِف
كأنَّ رُؤُوسَ النخْل في عَرَصاتِها فَوَاتِحُ سُورَاتٍ بآخِر مُصحَف

وللفقيه المَغِيلي في مَدِينَة فاس :

يا فاسُ حيَّا اللهُ أَرضَك مِن ثَرًى وسقاكِ من صَوْب الغَمام المُسْبلِ
يا جنَّةَ الدنيا التي أَرْبَتْ على عَدْنٍ بمنظرها البَهِيِّ الأجمَلِ
غُرَفٌ على غُرَف ويجري تحتَها ماءٌ أَلَذُّ من الرَّحيق السَّلْسلِ
وبساتنٌ من سُندس قد زُخرِفت بجَدَاولِ كالأَيْم أو كالفَيْصلِ

وبجامع القرويّ شرّف ذكره — أنسٌ بذكراه يهيج تململي
وبصحنه زمن المصيف محاسنٌ — فمع العشيّ الغرب فيه استقبل
واشرب بتلك البيلة[1] الحسنا به — واكرع بها عني فديتك وانهل

وللأستاذ مَنْديل ابن أجرّوم يصف الطبيعة خارج باب الفتوح بفاس :

أيّها العارفون قدْ الصّبوح — جدّدوا عهدنا بباب الفتوح
جدّدوا ثمّ أنسنا ثم جدّوا — نسرح الطرف في مجال فسيح
حيث شابت مفارق اللوز نوراً — وتساقطن كالنّجين الصّريح
وبدا منه كلّ ما احمرّ يحكي — شفقاً مزّقته أيدي الرّيح
وكأنّ الذي تساقط منه — نقط الحْن من دم مسفوح
وإذا ما وصلتم للمصلّى — فلتحلّوا بموضع التّسبيح[2]
وبطيفورها فطوفوا لكيما — تبصروا من ذراه كلّ السّطوح
ولتقيموا هناك لمحة طرف — لتردّوا به ذماء الرّوح

١ – البيلة اسم سقاية من الرخام بصحن القرويين والكلمة معربة م pila الاسبانية .

٢ – في مخطوط نثير الجمان مكان هذا العجز : فلتجلّوا مواضع التسبيح ولعله أنسب للمعنى .

ثم حُطُّوا رِحَالَكُم فوقَ نَهْرٍ كُلٌّ في وَصْفِهِ لِسَانُ المديح
فَوْقَ حافَاتِهِ حدَائِقُ خُضْرٌ ليس عنها لِعَاشِقٍ من نُزُوح
وكَأَنَّ الطُّيورَ فيها قِيَانٌ هَتَفَتْ بَيْنَ أَعْجَمٍ وفَصِيح
وَهْيَ تدعوكُمْ الى قُبَّةِ الجَوْ زِ هَلُمُّوا الى مَكَانٍ مَلِيح
فِيه ما تَشْتَهُون مِن كُلِّ نَوْرٍ مُغْلَقٍ في الكِمَام او مَفْتُوح
وَغُصُونٍ تَهِيجُ رَقْصاً إذا ما سَمِعَتْ صَوْتَ كُلِّ طَيْرٍ صَدُوح
فأَجيبُوا دُعاءَها أَيُّها الشَّرْبُ وخَلُّوا مقَالَ كُلِّ نَصِيح
واجْنَحُوا لِلمُجُون فَهْوَ جَدِيرٌ وَخَلِيقٌ مِنْ مِثْلِكُم بالجُنُوح
واخلَعُوا ثَمَّ لِلتَّصابي عِذاراً إِنَّ خَلْعَ العِذَارِ غَيْرُ قَبيح
وإذَا شِئْتُمْ مَكَاناً سِوَاه هُوَ أَجْلَى مِن ذَا لَكُمْ فِي الوُضُوح
أَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ لِنَحْوِ خَلِيجٍ جاءَ كالصِّلِّ من قِفَارٍ فِيح
عطَّرَتْ جَانِبَيه كَفُّ الغَوَادِي بِشَذَا عَرْفِ زَهرِها المَنْوح
قُلْ لِمِهْيَارَ إن شَمِمْتَ شَذَاها قَوْلَ مُسْتَخْبِرٍ أَخِي تَجْرِيح
أَيْنَ هذَا الشَّذَا الذكِيَّ مِنَ القَيْصُومِ والرَّنْدِ والغَضَا والشِّيح
حبَّذَا ذلكَ المِهَادُ مِهَاداً بَيْنَ دَانٍ مِن الرُّبى ونَزُوح
ثُمَّ مِن ذلكَ المِهَادِ أَفِيضُوا نَحْوَ هَضْبٍ من الهُمُوم مُرِيح
فِيه لِلْحُسْن دَوْحة وروايا وانْشِرَاحٌ لِذي فُؤَادٍ قَرِيح

وحِجَارٌ تُدْعَى حِجَارَ طُبُول غَيْرَ أَن التطبِيلَ غيرُ صَحِيح
تَنْشُر الشمسُ ثَمَّ كُلَّ غدوٍّ زَعْفَرَاناً مُبَلَّلاً بِنُضوح
وَسَبُو¹ من هناك يَسْبِي عُقُولاً ويُجَلِّي لِحاظَ طَرْف طَمُوح
وعيُونٌ بها تَقِرُّ عُيُون وكِلَاها يَأْسُو كُلُومَ الجَرِيح
فُرِشَتْ فوقَها طنافِسُ زَهْر لَيْسَ كالعِهْن نَسْجُها والمُسُوح
كُلَّما مَرَّ فوقَهُنَّ طَلِيحٌ عاد مِن حُسْنِهِنَّ غيرَ طَلِيح
فانْهَضُوا أَيُّها المُحِبُّونَ مِثْلي لِتَرى ذات حُسْنِها المَلْمُوح
هكَذَا يُرْبَحُ الزَّمان وإلَّا كلُّ عَيْش سِوَاه غَيْرُ رَبِيح

ولابْن عبد المنَّان من قصيدة في مديح أبي عِنان المَرِيني يصفُ الساعة العجيبة التي نصبَها بواجهة مدرستِه الشهيرة بفاس :

وآلةٍ للمواقيت استقَلَّ بها صنعٌ تفوتُ النُّهى لطفاً صنائعُه
أبياتُها عددُ أبراج السماء ولا قُطْب ولا فَلك تُدرَى مواضِعُه
يجري الهلالُ عليها جريَها أبدا على المنازل صُنعٌ فاقَ بارِعُه
وفي البيوت جَوارٍ كلٌّ واحدة منهن خُصَّت بميقات تُطالِعُه
حتى إذا جدَّ إسراعاً لِوِجْهَته وحُمَّ منه فراقٌ حان واقِعُه

---

١ — سبو نهر عظيم بالمغرب يمر قرب فاس .

وأذَّن الطيْر من أعلى مَراقِبه ... بِبَيْنِه مُعرِباً عن ذاك قارِعه
ثَارت هنالك توديعاً له ودنت ... الى الغِناء على ذُعْر تُشايِعه
وفي اليمين كتابٌ باسم مَوْقِتِها ... الى الإمام وقد أوْمَتْ تُبايِعه
وشامخ المُرتقَّى آوى لأفْرُخِه ... بالوَكْر وهو أمينُ السِّرب وادِعه
أُتيحَ عَمْداً له مُستَشْفِع سبِط ... رحبُ القَذال صقيلِ الطَّرف لامِعه
أحوَى الأديمِ يُجارِي دُونَما قدَمٍ ... هُوجَ الرياحِ حديدُ الناب قاطِعه
جمٌّ التقلُّب لم تُؤْمَن غوائِلُه ... غَدْراً وتُحْذَرُ من ختْلٍ خدائِعُه
يسْعَى له الحِينَ بعد الحين يَرْزَأه ... ثُكْلاً فيصفَرُّ خَوْفاً أو يُقارِعه
كذلك الليلُ لا ينفكُّ مُختلِفاً ... اليه وَهْوَ عن الأفراخ دافِعُه
ومثله لأخِيهِ ينتحِيه ومـا ... إنْ مِنهُما لَيْله الَّا مُقارِعه
كأنَّما الصلُّ أمسى مُمْسكاً فاذا ... ما ساعةٌ ذهبت ثَارت مَطالِعه
وظنَّها آخرَ الساعات قد أذِنت ... بفطْره فَسَاً للفَرْخِ لاسِعُه
رياضُ حُسن بَدا لولا سُعودُك لم ... تُستَجْلَ يا مَلِكَ الدنيا بدائِعُه

وله أيضاً من قصيدة أُخرى فيه يصف قتل الأسد بين يديه ودخول المحتال في الأكْرَة المُعَدة لذلك وهي أكرة مستديرة من خشب يحركها رجل في وسطها يطعن الأسد بحديدة فيظفَرُ بها الأسد طامعاً في المحتال فتدور به وهو لا يقدر على المحتال بمنع الأكرة

ويصف شبكة صيد الأسد في الفلاة نصبت لأخذه بالقصر والثور الذي كان من عادته قتل الأسود في ذلك الموطن وروض المصارة والناعورة المنصوبة فيه :

وضبارم[1] رحب اللبان تقله ... صهب[2] متين خلقها، عبل الشوى
يفتر عن ناب كأطراف القنا ... بيضا وينضو مخلبا حد الشبا
فتكت به في القصر سمر رماحه ... بأكف أسد دوخت أسد الشرى
أمسى صريعاً والدماء سلافة ... أتراه سكراً مال من تلك الطلا[3]
وثنى على زأراته كشحاً وقد ... كانت يرددها فرادى أو ثنى
لكن ألسنة القواضب أظهرت ... ما أضمرت جنباه من سر الحشى
ولقد رماه قبل مصرعه الردى ... من معضلات مكايديه بما رمى
ومخاتل في جوف دائرة طوت ... أضلاعها منه على شهم فتى
يحكي بها رألا[4] ببيضة سبسب ... لم تنفرج عنه فأنهدها كوى
يمشي الهوينا وسطها فتقله ... عدواً وما إن تشتكي ألم الجوى

١ — أسد .
٢ — لعله يريد قوائمه .
٣ — الخمر .
٤ — الرأل ولد النعام .

حسِب الغَضَنْفَرُ مُرْتَقاها كَعْبَةً فَدَنا يُطيلُ بِها الطوافَ وقد سَعى
ولَرُبَّما أَلقى عليها لامِساً بأُكُفِّه وسما وقبّل إذ سَما
لكنه خبُثَتْ سرائِرُهُ فلم يُحْمَدْ على الإلمام منها بالجزا
عجباً له ولِجأْش طفل لم يَهَبْ أَسدَ الشَّرى وقد استشاط وقد دَدَا[1]
هذا ولم يُبْصِر هناك بِمَلْجَأ واقٍ وقد تركوهُ مُنفرِداً سُدى
قد كان طُلَّ دمٌ له لما رَنا أَسَدُ العَرين له غضوباً وارْتَمى
لو لمْ تَقُم بالثَّأْر منه أساوِدٌ[2] كانت هنالك كامِناتٍ لا تُرى
منهن فاغِرَةٌ له أفواهها بأَكُف كَرْكَبَة ومنها ما التَوى
لم تُرْخ شَدَّ وثاقه حتى ثَوى تابُوتَ مقبور وقد ظن الثَّوى
ومُدرِّب الرَّوْقَين[3] أَصفَرَ فاقِع راقَ النواظرَ نضْرةً لمَّا بدا
ما زال يدعُو للنِّزال أُسامةً ولقد أَشار بظِلْفِه لمَّا دعا
ولقد أراه مكان مَصْرعه وقد أَوْمى بساحِ القَصْرِ ينكُثُ في الثرى
ولقد أَطالَ وقُوفَه مستقبِلاً حِذَرَ الهِزَبْرِ مُبارزاً حتى انْبَرى
وعَدا له والظنُّ يقضي أن يُرى وقد اعتلاه فكان عكْساً ما قضى

---

١ – استشاط ترجع للاسد، ودَدا اي لعب، ترجع للطفل .
٢ – يعني حبال الشبكة .
٣ – اي القرنين ويصف الثور .

جالت عليه صدمةٌ من حَارِثٍ[1] تُنْسِيكَ صدْمَةَ حَارِثٍ يومَ الوغى

أَعجِبْ بها من صدمة قد عفَّرت لِبَدَ الهِزَبْرِ وَأَوْهَنَتْ منه القوى

لا تَلْحِ رَوْقَ الثَّوْرِ ان أَبصرتَه عن جانب الليث الطَّعين وقد نبا

ما كلَّ دون كُلاه لكن ساعةٌ بقيت له ولكل عُمْرٍ منتهى

فدعَنْه في دَعَةٍ الى أمثالها ولْتعذرنَّ الليث يا مَلِكَ الهدى

أَعدى فريسَتَهُ عليه قولُك : ا بْقَ لذا وقولُك للغضنفر لا بَقا

عاجلتَ ذا هُلكاً فلم يُفلِتْ وقد أَبْقَيْتَ ذا منّا فجانَبه المَنا[2]

إن الإلٰه قضى بأن يَجْري القَضا طوعاً لما شاءَ المطيع المرتضى

وَعُلاكُم ما حارِثٌ بمُقاوِمٍ لأبيه لولا أَنْ أردت به الرَّدى

ولقد رَأَت منه العيونُ عجيبةً رَاقتْ. وقد أَبلى النواظرَ والنُّهى

فَأَبِحْهُ جناتِ المَصارةِ خالداً فيها فبالجنَّات يجزى ذو البَلا

أَحسِنْ بها من روضةٍ غناء قد غنَّى الحَمامُ بها طَرُوباً أو شَدا

حاكَتْ بِهَا الأَنوَاءُ مُطْرَفَ سُندس

أَرِجٍ وَشَاه يدُ الرَّبِيعِ بما وَشَى

وبجانب البيضاء منها مُرتقى جبَّارة الأَرجاء سامِية الذرى

---

١ — حارث من أسماء الأسد ويكنى أيضاً أبا الحارث .

٢ — المنا : الموت .

كرحى الصَّياقِل ما سقتْ لِتُدِيرها رِجْلٌ ولا نُسبت لإمْهاءِ المُدى[1]
أَتَرى حُسامَ النَّهْرِ جلَّل متْنَه صَدأٌ فما تنفكُّ تجلُوه جلا
فلَكٌ مضى في الروض ما حكمتْ به
أَدْوَارُه والقُطبُ منه وما اقتضى
فقضى برَفْع الماء الا أنه قد خفَّض الأدوَاحَ عيشاً والرُّبى
حسْنٌ بديع في حِمَى ملكٍ به حسُنَ الزَّمانُ ولاحَ في أبهى حُلى

وللشيخ إبراهيم الفِجيجي من قصيدته الصَّيْدية الكبيرة يصفُ الصيدَ وحياةَ الصائد وتَنقُّله في البَرِّيَّة وما في ذلــك من المتاع النَّفْسي والجِسْمي .

يلومونني في الصَّيْد والصَّيْدُ جامِعُ لأشياءَ للانسان فيها مَنافِع
فأوَّلها كَسْبُ الحلالِ أَتتْ به نُصوصُ كتاب الله وهْيَ قَوَاطِع
وصِحَّةُ جسم ثم صِحَّةُ ناظِر وإحكَامُ إجْرَاء السوَابِق رَابع
وبُعْدٌ عن الرُّذَّالِ مَعْ صَوْنِ هِمَّة وإغْلَاقُ بَابِ القِيل والقَال سابع
وأيضاً لِعرْضِ المرء فيه سَلامَةٌ وحِفْظ لِدِينِهِ وذلك تاسِع
وفيه لأهْلِ الفضل والدِّين عِبْرةٌ وتذْكِرَةٌ لها لَديْهم مَوَاقِع

١ – أي شحذ السكاكين .

ويُورِثُ طِيبَ النفس والجودَ والسَّخا
ويَأْلفُ منــه الصَّبْرَ مَن هُو جَازِع

ويَنْفِي الهُمومَ المُبْرمَاتِ عن الفتى وَيَقْمَعُ وَفْدَ الشَّيْب كَيْلا يُسَارِع

ويُورِثُ عند الالْتِحَامِ شَجَاعَة وفيه من السرِّ الخَفِي بَدائع

كَرَعْي نِظَام وانْقِيَادِ رَعِيَّةٍ وَحِفْظِ جَنَابٍ من عَدُوٍّ يُنازِع

وتدْبيرِ أَمرِ الحرْب والفَتْك بالعِـــدَا
وَصَيْدِ أُسودِ الإنس والوَحْشُ تَابِع

إذ الحرْبُ خدْعَة وَكَيْدٌ فرُبَّما تَحَيَّل بالقَنْص الدُّهاةُ التَّبائع

فَأَظْفَرهُمْ بكلِّ عادٍ مُعانِدٍ على غِرَّة فضَرَّجته الضَّراجِع[1]

ويُصفِّي دِمَاغَ المَرْءِ والجسْمَ جُمْلَةً مِنَ اخْلاطِ سُوءٍ أو فُضُول تُصَادِع

ويُغْنِي عن الطبِّ الصَّعِيب عِلاجُه وما مِثْلُه للحُزن والسُّقْم دافِع

وقد جاءَ سَافِرُوا تصِحُّوا وَتَغْنَمُوا وذلِكَ من قَوْلِ النُّبُوَّة شائِـع

وما رِيءَ مَفْلوجــاً مُرِيغُ طَرِيدَةٍ
حَكَى عَنْ ذوِي التجْريب قومٌ بَلاتِع[2]

وأيضاً يَزِيدُ في الذكاء وفي الدَّها وذلِكَ كلُّه الى العَقْل رَاجِع

---

١ – جمع ضرجع وهو النمس .

٢ – جمع بلتع وهو الحاذق بكل شيء .

وفيه حظُوظُ النَّفْسِ مِن كل بُغْيةٍ وكلُّ سرور بالُمبَـاح فوَاسِع
كَقَنْصِ ظِبَاءِ الإِنْس فى حِلٍّ صَيْدِها
وقَنْصِ ظِبـاءِ الوَحْش او مَـا يُضَارِع

***

بنَفْسِي عَفِيفاً مُتْرَفا ذا نَزَاهَة له في سَماءِ المَجْد والسَّعْد طَالع
على هَيكَلٍ نَهْد وفَوْق شِمَالِه وَقُورٌ من الصُّقُور أَبيضُ نَاصِع
تَصامَمَ عن لوْم اللِّئام على السُّرى وما زَالَ مشغُوفاً به وهو يَافِع
وغابَ غَدَاةَ القَنْص عن كُلِّ غِيبَةٍ وعن كُلِّ ما تُصَانُ منه المَسامِع
فأَصْبَح سِلْماً للورى يَطَأُ الثَّرى وتَنْظُره فَوْقَ الثُّرَيَّا القَنابِع[1]
فلا خُلْطَةَ تُرْدِي ولا سُوءُ عِشْرَةٍ ولا هَتْكُ هَيْبَةٍ ولا مَن يُصانع
أَخا ٱلْعَدْلِ لٰكِنْ في سِوَى كُلِّ طَائر
وجارٍ أَمَـامَ الُمرْسَلات يُسارِع

***

أَخِي هَل تَرى الأَيامَ تَجْمَعُ شَمْلَنا ونَحْنُ على جُرْدٍ سِراعٍ تُطاوِع

---

١ ـ جمع قنبع وهو القصير.

لَدى كلِّ رَبْوَةٍ وأَجْرسُ طَيْرنا | لها زَجلٌ من فَوْقِنا وقَعاقِع
فَنَقْضِي من السُّلْو ان بعضَ غَرامِنا | ونَجْني جَنى اللَّذَّات والدهرُ خاضِع
ونَجْعَلُ ذاتَ الجر جاراً لِعَهْدِنا | فمِنَّا للاقْتِناص ماضٍ وراجع
ونَرْقُب في رُبَى الغَمِيم ونَخْلَةٍ [1] | بكُلِّ صَيودٍ خاضِب الكَفِّ دارعُ
طويل ثَلاثٍ لا كطولِ بُغاثِها [2] | جَناحٌ وعُنْقٌ ثم طالَت أَصابعُ
قَصيرُ ثلاثٍ من زِمِكَّى [3] وريشِها | وساقٍ تُقَوِّي الرَّصْعَ إن هو راصِع [4]
رَحِيب ثَلاثٍ وهْي ما هِيَ كَفُّه | وما بَيْن مَنْكِبَيْه والصَّدْرُ واسِع
عَظِيم ثلاثٍ رَأْسه ثم فَخْذه | ومَنْسِره مِجْزَار ما هو صارِع
عليه سِماتُ الفَتْكِ إمَّا نَظْرته | أَطلت حواجِبٌ وغارَتْ مدامِع
طَمُوحٌ كثيرُ الالتفاتِ مُسلَّطٌ | لِأُمِّ السُّلاح [5] الدَّهرَ منه فَجائع
ثَقيل متى يُحْمَلْ خَفِيفٌ طلُوعُه | كأَسْرَعِ مَا في السَّهْم ان هُو واقع
ظَلُومٌ غَشومٌ من صُقُور شَمارِخٍ | لِخزَّانِها [6] والطَّيْر منه تَوادُع

١ ـ الغميم ونخلة موضعان ببلد الشاعر .
٢ ـ البغاث شرار الطير .
٣ ـ الزمكى ذنب الطائر .
٤ ـ الرصع الضرب والطعن .
٥ ـ هي الحبارى سميت بذلك لملازمته لها حتى قيل سُلاحها سِلاحها .
٦ ـ جمع خزَز وهو ذكر الارنب .

لهُ عُدَّةٌ من نفسه في مَخالِبٍ شَديدٌ سَوادُها حِدادٌ لَوَاسِع
يفرُّ الى اليَحْبُور[1] مِيلَين بُكْرَةً وأَكْثَرَ بالأَصِيل إن هُوَ جَائِع
بِيُمْناه بارقٌ[2] مُحيطٌ بِزَنْده من الفِضَّة البَيْضاء كالسَّيْف لامِعُ
كذلك في يُسْرَاه ثانٍ وجُلْجُلٌ تَلَوَّن بالإِبْرِيز أَصْفَرُ فاقِع
إذا انْقَضَّ خلْتَ البَرْقَ والرِّيحَ عاصِفاً ورعْداً بِهِ زَجْرٌ على الطَّيْر واقع
دَوِيُّ جَلاجِل ولَمْعُ خلاخِل وَخَفْقُ جَناحٍ كلُّ ذلك فاجِع
إلى قَهْرِ غالِب وصَوْلَةِ سَالِب وهَتْكِ مَخالِبٍ إذا هُوَ سادِع[3]
هُنالِكَ يُلْقِي الخَرْبُ[4] خوفاً سُلاحَه وهَيْهات ما السُّلاح للخَرْب نافِع
ويَلْجَأُ لاتَ حِينَ يَأْوِيه مَلْجَأٌ فلا الأَرضُ تُنْجيه ولا الجوُّ مانِع
وتُبْصِرُه يَحْكي أَسِير فوارِس يَجرُّ ذُيولَ الذُّل يَعْثُر خانِع
ذُؤَابَتُه في كَفِّ مَن لا يُقيلُه يُساقُ بِها لِلمَوْت وهو يُوادِع
وتَندُبُه حُبارَيَاتٌ أَلِفْنَه بِفَيْفاء مَجْهَل وَهُنَّ جَوازِع
يُرِدْنَ الفِرارَ لم يَجِدْنَ سَبيلَه ويَحْشُرُهُنَّ الخوفُ والخوفُ رادِع

---

١ ـ فرخ الحبارى .
٢ ـ اي خلخال بارق .
٣ ـ اي ذابح .
٤ ـ الخرب محركاً وسكنه ضرورة ذكر الحبارى وسلاحه نجوه يلقيه على الجارح فينتف ريشه .

أَلاَ لَيتَ شِعْرِي هل تَعُودُ لنا المُنى وَتُسْعِفُنا الأَيامُ والسَّعْد راجِ
وتَكْنُفُني والصَّحْبَ صَحْراءُ بُخْتُرى[١] ويَجْمَعُنا بِجَبْل شَتْوانَ جَامِع
ونُرْسِل في شَرْياطَةِ الجرِّ طَيْرَنا وفي دارةِ الأَرْجام[٢] والحيُّ ناجِع
ونُحْيي دَوَارِسَ الرُّبوعِ التي عَفت مَشات لِقَنْصِها بها ومَرابِع
ونَنْزِلُ من مَخْروفها[٣] كلَّ مَحْبَر[٤] مَخَزّ[٥] تفُوتُ الحصْرَ فيه الفَعافِع[٦]
عَفاءٍ[٧] غَرِير[٨] الصيْدِ ما سارَ قانِصٌ به حِقْبةً ولَم يُرَعْ فيه رائِع
كَسَتْهُ سَحيقَةٌ[٩] من الجَوْدِ ديمَةٌ بُرُوداً كَوَشْيٍ لَوَّنَتْه الصَّوانِع
ونَشْهَدُ حُسْنَ الصُّنْع فيما نُرِيغُه من الوَحْش أَو نَرُوغُه وهو هاجِع
ونَسمَعُ تَغْرِيدَ الطُّيور اذا غَدتْ لِمُخْتَلِفِ الأَصْوات صُبْحاً تُراجِع
على كل مَيَّادٍ يُرَنِّحُه الهوى وتُطْرِبُهُ الأَلحانُ والغُصْن يانِع

---

١ ــ بختري وشتوان موضعان .
٢ ــ شرياطة الجر ودارة الارجام موضعان ايضاً .
٣ ــ اي المطور بمطر الخريف .
٤ ــ المحبر الارض التي يكثر فيها الحبارى .
٥ ــ المخز الارض التي يكثر فيها الخزز .
٦ ــ جمع فعفع وهو الصغير من الغزلان .
٧ ــ العفاء الارض التي لم توطأ .
٨ ــ من الغرة يعني انه غير منتبه للصائد .
٩ ــ سحابة ذات سحق وهول من الرعد والبرق .

فيهتزُّ شوقاً إن تُغنِّ بلابلٌ ... وان رنَّت الورقاءُ فهو يُطاوع

ونقطُفُ نور الزَّهر من كلِّ روضةٍ ... ونقتحِمُ الغُدْران وهي نواقِع

يَعاليلُ[1] في قلتٍ[2] يُصفِّقُها الصَّبا ... فمُغترِف بالكفِّ منها وكارِع

يُنافِحُنا بالطِّيب نبتُ شواهِقٍ ... وتنضحُ من نبت الخُزامى دوافِع

فمن لم يُحرِّكْه الرَّبيعُ وزهرُه ... ولا العودُ حين تعتريه الأصابِع

ولم يتأثَّرْ بالسَّماع ونحوِه ... ولم يَشتمِلْه الصَّقرُ إن هُوَ دافع

ولم تستفِزّه الظِّباءُ ولا المَها ... اذا اعترضتْ وألجأتها الهجارِع[3]

ولا اهتزَّ إذ رأى الحبارى بدت له ... تميسُ وفوقها البُزاةُ طوالِع

فترقُصُ طوراً ثم تُبدي ذوائباً ... وتُومي بكُمَّيْها وطوراً تُبايِع

ولم يَدْرِ قطُّ ما الغرام وما الهوى ... ولا مُوجِعات القلب اذ يتواجع

فذلك مُختلُّ المِزاج حقيقةً ... ولا شك لِلْحِمار فيه طبائع

* * *

ألا يا حسودُ مُتْ بغيظِك حسرةً ... على قلبِك المُسودِّ لا سُدتَ طابِع

أبالحسدِ المذمومِ تطمعُ في العُلا ... ولا غيرَ الَّا الغِلُّ والشُّحُّ هالِع

---

١ ـ نفاخات تكون فوق الماء .

٢ ـ والقلت النقرة في صخرة ونحوها يجتمع فيها الماء .

٣ ـ الكلاب السلوقية .

أَمِ المَجْدَ تَبْتغي وتامُل نَيْلَه ولا وَصْفَ إلا العَجْزُ والجُبْنُ خالع

إذَا لَمْ تَسُدْ بالعِلْمِ وَالحِلْمِ والتُّقى وبالجُود والإقْدَام إنَّك رَاضِع[1]

كأنِّيَ لم أَرْقبْ مَساءَ بِشَدْنَقٍ[2] على طَللٍ والغيْثُ طَلٌّ وهامِع

ولم أَتَخَيَّرْ عن بِساطِي ونُمْرُقي بِسَاطَ نَقِيِّ الرَّملِ والفَجُّ وَاسِع

بِذَات العَلَنْدَى او بِذَاتِ الهَبَوَّرى[3]

عِطَاش الفَيافي حيث لا مَن يُطالع

وأَرْض تَحارُ في مَجَاهِلِها القَطا ولا تَهْتَدي تَسيرُ فيها الطَّلائع

نَرُوحُ ونَغْدُو في نَعِيمٍ تَوُدُّه وتَتْرُك مُلْكَها الملوكُ التَّبابِع

ونحنُ على سَلامَةٍ من طَوائِقٍ على جِيفَةِ الدُّنيا سُدًى تتقَاطع

فَلا طَارِقٌ يغْشَاك الا نَقَانِقٌ وإلّا وُحوشٌ حوْلَ بَيتي رَواتع

ولا رَاكِبٌ بغلاً لَهُ عَقْلُ بَغْله ولا سُوقَةٌ تَضِيق منها الشَّوارِع

ولا مَلِكٌ فَظٌّ ولا ذُو تَجبُّر ولا حاكمٌ بالجَوْرِ تدعُو الاقارِع

ولا عَائِبٌ أَمراً رَأَيْتَ صَوابَه ولا حَاسِدٌ فَضْلاً بِفَضْل يُتابع

ولا جَارُ سُوءٍ لَيْسَ يأْمَنُ جارُه بَوَائِقَه إنْ غاب او هُو هَاجِع

---

١ — لئيم .

٢ — الشدنق صنف من البزاة .

٣ — ذات العلندى أي أرض ذات شجر اسمه العلندى وكذا ذات الهبورى.

ولا مَاكِرٌ يُرِيكَ شُهْداً وَيَنْثَنِي فَيَسقِيكَ أَدْهَى السُّمِّ لَيْسَ يُضَارِع
ولا مُتَلَصِّصٌ يُرَاقِبُ عَوْرَةً وَيُبْدِي سِمَاتِ النُّسْك وهو يُخَادِع
ولا سَارِقٌ لِلسَّمْعِ لِلْقِيل لاقِطٌ ولا فَاسِقٌ يَرْمِي بِمَا هُو صَانِع
ولا مُتَعَرِّضٌ لِلأَعْرَاضِ مُولَعٌ بِتَمْزِيقِهَا تَأْتِيكَ منه الفَظَائِع
ولا أَهْلُ فِتْنَةٍ حَرَامٌ جِوَارُهُم على مَاذَوُو الفُتْيا عَلَيْه تَتَابَعُوا
فَما إن تَرَى لِلَحْمِ الإِنْسان آكِلًا ولاكِنَّ لَحْمَ الصَّيْد ما مِنْه مَانع

وَخَيْلِي حَلِيبُ الشَّوْل صِرْفاً شَرَابُهَا
وَمَا فِي النَّصِيِّ رَعْيُهَا لا المَزَارِع

وتعلِفُ أَبيَضَ الشَّعِير وأَنْتَقِي لها من نَباتِ الارض ما هُو نَافِع
وفي جِيرَةٍ إِخْوَان صِدْقٍ أَجِلَّة كِرَام السَّجايا وَالمَعَالي طَبَائِع
وفي لَذَّة الدنيا وأَرْغَدَ عَيْشِها فلولا سُيُوفٌ لِلصُّروف قَوَاطِع
وداعِي الرَّحِيل كلَّ يوم يَرُوعُني وَهَوْلٌ وَعَوْلٌ في الفريضة وَاقِع
لَطابَ السُّرُور واطْمَأَنَّتْ نفوسُنا ولاكِنَّهَا دُنْيا سَرِيعاً تُقاطِع
فلا عَيشَ إِلَّا عَيشُ أُخرى لِمُبْتَغٍ نَعِيماً مُقِيماً دائماً لا يُوَادِع

---

١ – النصي نبت من أطيب المرعى وفي قوله لا المزارع تعريض بأصحاب القرى .

ولعبد العزيز الفَشْتالي يصِفُ القُبَّة الخَمسينِيَّة من مَباني المنصور الذَّهبي على لِسانها :

سَمَوْتُ فخَرَّ البدرُ دُونِيَ وانْحَطَّا
وأَصبَح قُرْصُ الشَّمْس في أُذُني قُرْطا

وصُغْتُ مِن الإِكْليل تاجاً لِمَفْرِقي وَنِيطَتْ بِيَ الجوْزاءُ في عُنقي سِمْطا

وَلاحتْ بأَطْواقِي الثُّرَيَّا كأَنَّها نَثِيرُ جُمانٍ قد تَتَبَّعْتَه لَقْطا

وعدَّيتُ عن زُهْر النُّجوم لأنَّني جعَلتُ على كِيوَان رَحْلِيَ مُنحطّا

وأجريتُ من فَيْض السماحة والنَّدى
خَليجاً على نَهْر المجرَّة قد غَطَّى

عقدتُ عليه الجسْر لِلفَخْر فارتَمتْ اليه وُفودُ ٱلْبَحْر تَصْرِفُ ما أَعطى

تَنضْنَضَ ما بَيْنَ ٱلْغُروس كأَنه وقد رَقْرَقَتْ حصباؤُه حَيَّةٌ رَقْطا

حَوَالَيْهِ مِن دَوْح الرِّياض خَرائدٌ وغِيدٌ تَجُرُّ من خمائلها مِرْطا

اذا أَرْسلَتْ لَدْنَ ٱلْفُروع وفتَّحت جنَى الزَّهْر لَاح في ذَوَائِبها وَخْطا

يُرنِّحُها مَرُّ النسيم اذا سَرَى كما مَالَ نَشْوانٌ تشرَّبَ إِسْفَنْطا[1]

يشُقُّ رِياضاً جادَها الجودُ والنَّدَى سَواءٌ لَديها الغَيْثُ أَسْكَبَ أَم أَخطا

---

١ – الخمر العالية .

وسالت بسلسال اللجين حياضه — بحاراً غدا عرضُ البسيط لها شطا

تطلَّعُ منها وسط وسطاه دُمْيةٌ

هي الشمسُ لا تخشى كسوفا ولا غمْطا

حكت وحبابُ الماء في جنباتها — سنا البدر حلَّ من نجوم السما وسْطا

إذا غازلتها الشمس ألقى شعاعُها — على جسمها الفضِّي نَهْراً بها لُطَّا

توسَّمْتُ فيها من صفاء أديمها — نُقوشاً كأن المسك ينقطها نقطا

اذا اتَّسقت بيض القباب قلادةً — فإنِّي بها في الحسن دُرَّتها الوُسْطى

تكنَّفني بيضُ الدُّمى فكأنَّها

عذارى نضَتْ عنها القلائد والرَّيْطا

قدودٌ ولكن زادها الحسنَ عُرْيُها — واجمل في تنعيمها النحتَ والخَرْطا

نمتْ صعداً تيجانها فتكسَّرت — قواريرُ أفلاك السماح بها ضغْطا

فيا لَكَ شأواً بالسعادة آهلا — بأكْنافه رحْلُ العُلا والهدى حُطَّا

وكعبة مجدٍ شادها العزُّ فانبرتْ — تطوفُ بمغناها أماني الورى شوْطا

ومسرح غزلان الصَّريم كناسها

حنايا قبابٍ لا الكثيبَ ولا السَّقْطا

فلُكْنَ بِهِ ما طابَ لا الأَثْلَ والخمْطا

ووسَّدْن فيه الوَشْي لا السِّدْرَ والأرْطى

ثَراهُ من المِسْك الفَتِيتِ مُدبِّر اذا مَازَجَتْه السُّحب عاد بها خِلْطا
وان باكَرته نَسْمةٌ لسَرى بها الى كُلِّ أَنْف عَرْفُ عَنْبره قسْطا
أقرَّت لـه الزهراءُ والخُلْدُ وانتقت
أَوَاوِينُ كِسْرى الفُرْس تَغْبِطه غَبْطـا
جَنَابٌ رِوَاقُ المَجْد فِيـه مُطَنَّب
على خَيْر مَنْ يُعْزَى لِخَيْر الورى سِبْطا

وله مِمَّا كُتِب ببَهْوها بِمَرْمَر أَسْوَد في أَبيض :

لله بَهْوٌ عزَّ منـه نَظِـيرُ لَمَّا زَهى كالرَّوْض وهْوَ نَضير
رُصِفَتْ نُقُوشُ عُلاه رَصْفَ قَلائِدٍ قد نَضَّدَتْهـا في النُّحور الْحور
فكأَنها والتِّبْرُ سَالَ خِلالَها وَشْيٌ وفِضَّةُ تُرْبِهـا كَافور
وكأَن أَرضَ قَراره دِيبَاجَةٌ قد زَانَ حُسْنَ طرازها تَشْجير
واذا تَصَاعَدَ نَدُّه نوْأً فَفِي أَنْماطِـه نَوْرٌ بـه مَمْطور
شأْو القُصور قُصُورُها عن وَصْفِهِ سِيَّان فِيـه خَوَرْنَقٌ وسَدِير
فإذا أَجلْتَ اللَّحظَ في جنَباته يَرْتَـدُّ وهْوَ بِحُسْنِه مَحْسُور
وكأَنَّ مَوْجَ البِرْكَتَيْن أَمامَه حَرَكَاتُ سَجْفٌ حرَّكَته دَبُور
صُفَّت بِضفَّتها تَمَـاثِلُ فِضَّة مَلكَ النُّفوسَ بِحُسْنها تَصْوير
فتِديرُ مِن صَفْو الزُّلال مُعتَّقاً يَسْرِي الى الأَرْواح منه سُرور

ما بَيْن آسادٍ يَهيجُ زَئيرُهـا وأَساوِدٍ يُسْلي لَهُنَّ صَفِير

ودَحتْ من الانهار أرضَ زُجاجةٍ وَأَظَلَّها فَلكٌ يُضيءُ مُنِير

رَاقتْ فَمِنْ حَصْبائِها وفوَاقِعٍ تطْفُو عليهَا اللُّؤْلُؤُ المنثور

يا حُسْنَهُ من مَصْنَع فَبَهاؤُه باهَى نُجومَ الأُفق وهيَ تَنُور

وكأَنَّما زهرُ الريـاض بِجَنْبِه حيْثُ التَفَتَّ كواكِبُ وبُدُور

ولِدَسْتِه الأَسْمَى تَخَيَّرَ رَصْفَه فخْرُ الورَى وإمامُها المنصور

ولأَبي الحسن الشَّامي في النَّعْل النبويَـة الكريمة وأشارَ الى كِتَاب المقَّري أَزهارِ الرياض بأخبار عِياض وقد رُسِم فيه مِثال النعل الشريف بماءِ الذَّهَب واللَّازَوَرْد :

دَعُوا شَفَـةَ المشتاق من سُقْمِها تُشْفَى
وتَرْشُف من أَسآرِ تُرْبِ الهُدى رَشْفا

وتَلْثِمُ نَعْلاً للنبيِّ كريمـةً بها الدَّهْرَ يُسْتَسقَى الغَمامُ ويُسْتَشْفَى

ولا تَصْرِفُوها عن هَوَاها وسُؤْلها بِعَذْلِكُم فالعَدلُ يَمنعُها الصَّرْفا

ولا تَعْتِبُوها فالعِتابُ يَزِيدُها هُياماً ويَسْقِيها مُدامَ الهوى صِرْفا

جفَتْها بِكَتْمِ الدَّمعِ بُخْلاً جُفونُها فَمَن لامها في اللَّثْم فَهْوَ لها أَجْفى

لَئِنْ حُجِبَتْ بالبُعْد عنهم فَهذِه مَكارِمُهم لَمْ تُبقِ سِتْراً ولا سَجْفا

وان كَانَ ذاكَ الخَيْفُ مُلْفى وصَالِهم
فَهَا نَفْحَةُ الإفْضَال قَرَّبت المُلْفى

فحرَّكت الاشواقَ مِنَّا لِرَوْضَةٍ أَبَاحَ لنا الإسعادُ من زَهْرها قَطْفا

زَمَاناً بِهِ مَوْصُولَنا نَالَ عَائِداً
وأَكَّدَ نعْتُ الوَصْلِ من نَحْوِهم عَطْفا

تولَّى كمِثْل الطَّيف إن زَار في الكَرى
وإلَّا كَمِثْل البَرْق ان سَارع الخَطْفا

كأنَّا وما كُنَّا نجُوبُ منازِلًا يَوُدُّ بها المشتَاقُ لو رَاهقَ الحتْفا

ولم تُبْصِرِ الأَبصَارُ منها مَحَاسِناً ولم تَسمَع الآذَانُ من ذِكْرها هَتْفا

كذَاكَ اللَّيالي لم تَحُلْ عن طِبَاعها
مَتى وَاصَلَتْ يَوماً تصِلْ قَطْعها أَلفا

فلا عَيْشَ لي أَرْجُوه مِن بَعْد بُعْدِهِم
وَهَيْهَاتَ يرجُو العَيْشَ مَن فارَق الإِلْفا

* * *

أَيا مَن نَأَتْ عنه دِيَارُ أَحِبَّةٍ
فمِنْ بَعْدِهِم مِثْلي على الهُلْك قَد أَشْفى

لَئِن فَاتَنا وَصْلٌ بمَنْزِل خَيْفهم فَهَا نَفْحَةٌ من عَرْفِهم للحَشا أَشْفى

وَهاذِيكَ أَنفَاسُ الرِّيَاضِ تَنَفَّست بِرَيَّاهُمُ فاسْتَشْفِينَّ بها تُشْفى
وقُلْ لِلأُلَى هَامُوا اشْتِيَاقاً لِبَانِهِم هلُمُّوا لعَرْفِ ٱلْبَانِ نَسْتَنْشِقِ العَرْفا
فَصَفْحَةُ هذا الطِّرْسِ ابدَتْ نِعالَهم وصارَتْ لهُ ظرْفاً فيا حُسنَهِ ظَرْفا
تعالُوا نُغَالي في مَدِيحِ عَلائِهَا فرُبَّ غُلُوٍّ لم يُعَب رَبُّه عُرفا
وللهِ قومٌ في هَوَاهـــا تَنَافَسُوا وقد غَرَفُوا من بَحْرِ امداحِها غَرفا
وإنّا وإنْ كُنَّا عــلى ٱلْكُل لم نُطِق
نُحَاوِلُ بعضَ ٱلْبَعْضِ مِن بَعْضِ ما يُلْفَى
لئِن قَبّـــلُوا أَلفـــاً نزِدْ نحنُ بَعْدَهم
على الأَلف ما يَسْتَغْرِقُ الفَرْدَ والأَلفا
وان وَصَفُوا واسْتَغْرَقُوا الوَصْفَ حَسْبُنا
نُجِيلُ بِرَوْضِ الحُسْنِ من وَصْفِهِمْ طَرْفا
ونَقْبِسُ من آثَارِهِم قَدْرَ وُسْعِنا ونَرْكُضُ في مِضْمارِ آثَارِهِم طِرْفا

* * *

أُنَادِيكَ يا خَيرَ البَرِيَّةِ كُلِّهَا نِدَاءَ عُبَيْدٍ يَرْتَجِي العَفْوَ واللُّطفا
وإنِّي مُحِقٌّ في هَوَى حُبِّك الذي يفُلُّ جُيُوشَ الهَمِّ انْ أَقبَلَتْ زَحفا
وما أَنا فيه بالذي قال هَازِلاً[1] (أَلَيْلَتَنَا إِذْ أَرْسَلَت وَارِداً وَحْفا)

---

١ – هو ابن هانيء الاندلسي وقد ضمن الناظم مطلع قصيدته .

وللأديب أبي عبدالله المكلاتي في كتاب أزهار الرياض موَرِّياً:

أتى برياض في عياض وردّها مظالم كانت قبل معضلة الداء
وفاضت بنيل العلم منه أصابع ومن عجب قبض الأصابع بالماء
خليليّ هذي معجزات لأحمد فلا تنكرا إن ردّ عيناً الى الراء[1]

ولمحمّد ابن ابراهيم الفاسي في رقعة أنفذها الى الشهاب الخفاجي وهو بمصر :

أسقيط طلّ في حديقة آس أم ذا حباب دار فوق الكاس
أم درّ ثغر الأقحوانة باسم أم دمع طرف النرجس النعّاس
أم جنّة جنّ النسيم بحسنها أغصانها من ذاك في وسواس
أم هذه زهر النجوم تزيّنت منها النجوم هداية للناس
أم ذا هو السحر الحلال حلا أم العذب الزلال وكلّ عضو حاس

---

١ ـ هذه الأبيات لا كفاء لها في الحسن وقد اشتملت على توريات بديعة تنبيء عن براعة صاحبها في صناعة البيان على أن فكرتها مستوحاة من قول علي بن هارون المالقي :

ظلموا عياضا وهو يحلم عنهم والظلم بين العالمين قديم
جعلوا مكان الراء عيناً في اسمه كي يكتموه وأمره معلوم
لولاه ما فاحت أباطح سبتة والروض حول فنائها معدوم

أَم رُقْعَةٌ رفَعت لواءَ بَيانِها . فأتى البَديعُ لها ذَليلَ الرَّاس
نطَقَتْ بكُلِّ فضيلةٍ ظلَّت لها الأَحداقُ بين مُحقِّق او خاس
أَلشِّعْرُ فاخَر أَنجُمَ الشِّعْرَى بها والجوُّ قالَ : الفضْلُ لِلقِرْطاس
مَن ذا يُطاوِلُها ومَطلَعُ نورها أُفُقُ الشِّهاب وظُلْمة الأَنقَاس
وافَتْ فما وَفَّيتُ بعضَ حقُوقها إلَّا ببَذْل النَفْس والأَنفاس
طارَ الفُؤادُ لها فقال وقارُها (ما في وُقوفِكَ ساعةً من بَاس)[1]
جاءَتْ تُحدِّثُ عن محاسِنِك التي شُدَّت الى حُسْن الثَّنا بِمِراس
أَمَّا الفَصاحةُ صحَّ أَنكَ قُسُّها بالرَّغم من غُمْر حَسُود قاس
لله دَرُّ عَقيلَةٍ أَبرَزْتَها عقلَتْ ببَهْجتها عُقولَ النَّاس
مِن كلِّ بَيْتٍ كادَ يُشْبِهُ لَفظُه مَعْناهُ كُلُّ دَقَّ عن إحساس
شَرَحتْ لِيَ الوُدَّ القَديمَ وذكَّرت قَلْباً فدَيْتُك لم يكُن بالناسي
ما أَخطأَت رُشْداً وان تكُ أَبطأَتْ خيْرُ اللِّقا ما كانَ بَعْدَ اليَاس
فالحُبُّ أَن أَرضى بما تَرْضى وَها حُبِّي وحَقِّك راسخاً بأَساس

ولعبد السلام بن سوسن من رجال الريحانة في القمر ونسبت لغيره :

دَعْ ذَا وقُلْ للنَّاس ما طَارِقٌ يطرُقُهم جهْراً ولا يتَّقي

---

١ - هذا مطلع قصيدة لأبي تمام في المعتصم .

ليس له رُوحٌ على انه يركَبُ ظهرَ الأَدْهمِ الأَبلق
شيخٌ رأى آدَم في عصْرِه وَهْوَ الى الآن بخدّ نقي
وَهْوَ بوَسْطِ البحر مَع قومه لَا يَنْثني عن نهجه الضيّق
هذا ويمْشِي الأَرض في لَيْلةٍ أَعْجب به من مُوثَق مُطلَق
فتارةً ينزِلُ تحتَ الثَّرى وتارةً وسْطَ السَّمَا يرتقي
وتارةً يُبصَر في مغرب وتارَةً يُبْصَر في مشرق
وتارَةً تُبْصِرُه سابحاً يجْري بِشاطِي ٱلْبَحْر كالزَّورق
وتارة تحسِبُه وَهْوَ في ضَيْعَتِه وٱلْبَعْضُ منه بقي
ذُبَابَةً مِن صارم مُرْهَف بَارزَةً من جفنِه الْمطبق
يدْنو إلى عِرْس بها حسنُها يختطِفُ الابصار بالرَّونَق
حتى اذا جَامَعَها يرتَدي بحُلةٍ سوْداءَ كالْمحْرَق
وهْوَ على عادَته دائماً يُجامع الأُنْثى ولا يَلْتَقِي
ثم يجُوبُ ٱلْقفرَ من اجلها مُشتَمِلاً في مُطرَف أَزْرَق
حتى إذا قابَلَها ثَانِياً تشكُّه بالرُّمح في ٱلْمفرق
وبعْدَ ذَا تُلْبِسُه خِلْعَةً يا حُسْنَها في لونها الْمونِق
فَجِسمُهَا من ذَهَب جامد وَجِلْدُه صِيغَ من الزِّئبق
ثُم يُرَى في حال إتْمامه مِثْل مِجَنِّ المِحْرَبِ الْمُلْتقِي

وهوَ إذا أَبصَرْته هكَذا   أحسَنُ من صَاحِبَةِ المَفْرِق

ولأحمد بن يحيى الشَّفْشَاوُني المتوفى ١٠٠١ في رَوْض ابن رضوان الكاتب بفاس :

أجنَّةُ الخُلْد هذي يا ابنَ رضوان   ام حُسْنُ روْضِك فيه حار تِبْياني
أمَا ترَى الطيرَ بالأَدْوَاح ساجعةً   أَدْمتْ انامِلَها اوتارُ عِيدَان
تحْكِي مَزامِيرَ مَن لانَ الحديدُ له   تشدُو بالاجْزَال في رَصْدو زَيْدان[1]
تَنْفِي عن الصبِّ ما بالقَلْب من كُرَب   بَلْ تَتْرُكُ الصَّب في تيهِ الهوى عَان
فالبَانُ يرقُص من تَرْجِيعها طرَباً   والزَّهْرُ يفتَرُّ عن أَثغار مَرْجان
والماءُ مُنسَكِبٌ والظلُّ مُنسَحِبٌ   ولِلنَّسِيم هُبوبٌ يُنعِشُ الفَاني

ولابي عيسى المهدي الغزَّال من رجال الانيس في مُغَنِّية :

غَنَّتْ فأَغْنَت عن سَماعِ العُود   غَيْدَاءُ صَالَتْ باللِّحاظ السُّود
وُرْقُ الحَمامِ تعلَّمَتْ أَلحانَها   فلذَاك تُلْفَى عَذْبَةَ التَّغْريد

ولابن الزُّبَيْرْ النحوي المتوفى سنة ١٠٣٥ في الخَمْرة :

إركَبْ جَوادَ اللهو واشْرَب على   وَرْد الخُدود تحْتَ ظِلِّ الشَّعَر

---

١ — الرصد والزيدان نغمتان موسيقيتان .

والكَاسُ في يُمْنَى مُدِيرٍ لها   نَجْمُ الثُرَيا في يَمِينِ القَمر

ولابن الطِّيب العلمي فيها :

تفَتَّحتْ ازهارُ رَوْض السُّعود   وغنَّتِ الاطيارُ في كُلِّ عُود
فَباكِرِ اللّذاتِ في رَوْضةٍ   ما بَيْنَ مِزْمَار وَدَفٍّ وَعُود
وقُمْ الى الرَّاح وَرِدْ ظَرْفها   فطالَما أمَّلتَ منها الوُرُود
صَهْباءُ يعلُوها الحبَابُ كما   تعلُو على نحْرِ الغواني العُقُود
في كَاسِها مَاءٌ ولكنَّه   في القَلْبِ مثلُ النَّار ذَاتِ الوَقُود
ولا تمِلْ عن شُرْبها ابداً   مِن بَأْس وَاشٍ خِفْتَه او شُهود
فكم زَنتْ بِكْراً مع ابْنِ سَما   ولم تَجِبْ يوْماً عليه الحُدود
شمسٌ اذا غابت بجَوْف امْرِيءٍ   أشرَق في خَدَّيْه بَدْرُ السعُّود
فهاتِها مِنْ كَفِّ حُلْوِ اللَّما   لِكنَّه للصَّب مُرُّ الصدود
كأنها حمْراءَ في كَفِّه   مَعْصورةٌ من وَرْدِ ذاتِ الخُدود
سَاقٍ أطارَ النومَ عن مُقْلتي   وكَمْ سباني بالعُيُون الرُّقُود
أَطْلَقَ دَمْعي مِن أَلِيم الجَفا   والقَلْبُ قد أَوْثَقه في قُيود
أَدْخَلَ ذاكَ الخَصْرَ في عَدمٍ   ورِدْفُه أَخرَجه للوُجُود
فذاك مِن ضَعْفٍ يَقُوم وذا   من ثِقْلهِ ما زَال يَبْغي القُعود

وله فيها :

أَقولُ لِلْمَحْبُوب في رَوْضةٍ والطلُّ يَسْقِي والثَّرَى يَشْرَبُ
زَوِّجْ بِبِنْت الكَرم إبنَ السَّما فالطَّيْرُ في مِنْبَره يخطُب

ولصاحبه ابي عبدالله الشَّرقي فيها :

أدْنُ مِن الدَّنِّ فكَمْ تَهرَبُ إنَّ ذهابَ العقل لِي مَذْهَبُ
واشْرَبْ بكَأْس صِيغَ من فِضَّةٍ لكِنْ بتَسْكَاب الطِّلاَ مُذْهَب

وله في مُباكَرة الصَّبُوح :

ياصَاح صَحَّ اللهوُ والطيرُ صاحْ وأنْذَر الدَّاعي بقُرْبِ الصَّباح
قُمْ بَاكِر الرَّوْضَ بِبِكْرِ الطِّلا واشْرَبْ على زَهو الخدُود المِلاَح

وله في صفة رَوْض :

يا حُسْن رَوْض في الجنان أَرِيضْ لِبَرْقِهِ في شرق قَلْبي وَمِيضْ
جَمع أَشْتاتَ الهوى عندَه نَهْرٌ صَحيح ونَسِيمٌ مَريضْ
هذا لَهُ الأَزْهار باسِمَةٌ وأَدْمع الطَّلِّ لِذَاك تَفِيضْ

ولابن زَاكُور يصف روضاً :

مُدَّ للسُّلْوان أَشْراكَ النَّظَر في ابتهاج الروض من وَجْد المطر

وتلقَّ الأُنس عن آسِ الرُّبى ... وارْوِ طَيَّ النَّور عن نشْر السَّحر
وارتَشِفْ ثَغر أقــاحٍ باسِماً ... واصْطَبح بالطل من كأْس الزهر
والْتَثِمْ وجهَ الْمنى مستبشِراً ... حيثْ رامَ الغُصنُ تقبيل النَّهَر
وجلا الوَردُ خدُوداً أُشْرِبَت ... خَمْرَة العِقْيان من فَرْطِ الخَفر
وانْبَرى النِّسْرين يُهدى ذهباً ... في صِحافٍ مُفْرغات من دُرَر
وحبَا الخيريُّ أَنفاسَ الصَّبــا ... نفَحات أَنشَرتْ ميْتَ الفِكَر
وانتشى البُستانُ من خَمْرِ الحيا ... فاستقَاءَ النَّورَ من ذاك السكَر
نظَّمت في جيــده أَنداوُهُ ... عِقْدَ دُر كلَّما ماسَ انتَثر
قيّد الأَلحــاظَ في بهجتـه ... واجْلُ غَيْم الغَمّ عن شمس العِبَر
واعتَبِر بالنَّــوْر يذْوِي بينما ... هو معشوق لِشَم وبصَــر
واشكُر اللّهَ عـلى آلائـه ... انما ينجَحُ سَعياً مَن شَكر

وله أَيضاً :

حدَّث عرفُ الصَّبا عن نفحة الزهَر ... عن الغصون عن السُّقْيا عن المطر
قالوا جميعاً شَرُودُ الأُنس مقتَنَصٌ ... بين الرُّبى بشِباك الشم والنظر

وله في هيَجان البحر ، وكان أَراد السفر الى الجزائر :

يا أَيُّها البحرُ مَهْلاً ... فَقد دَهانا اهْتِيَاجكْ

إِنَّا هَمَمْنا بِأَمر … منع مِنْهُ انْزِعَاجُكْ
لَوْ كُنْتَ تَدْرِي لأَبْدَى … سِيما السُّرور ابتِهاجُكْ
يا لَيْتَ شِعْري إِلى كَمْ … يَحْكي فُؤَادي ارْتِجاجُكْ

وقال في مَدِينَة تِطْوان :

تِطْوانُ ما أَدْراكَ ما تِطْوَانُ … سَالَتْ بها الأَنْهارُ والخُلْجَانُ
قُلْ إِن لَحاكَ مُكابِرٌ في حُبِّها … هِيَ جَنَّةٌ فِرْدَوْسُها الكِيتانُ [١]

ولأبي علي اليُوسِي في عَلاقة الزَّهر بالمَطر :

إِنَّ بَيْنَ الغَمام والزَّهر الغَـضّ لَرِحماً قَديمَةً وإِخاءَ
بانَ إِلْفٌ عن إِلْفِه فَتوارَى … في الثَّرى ذَا وذَاكَ حلَّ السَّماءَ
فإذا ما الغَمامُ زَارَتْ جَناباً … آذَنتْ فِيه بالحَبيب اللِّقاءَ
ذَكَرَتْ عهْدَهُ القَديمَ فَحنَّتْ … عند لُقْيَاهُ فاسْتَهَلَّتْ بُكاءَ
فَترى الزَّهْرَ بارِزاً مِن خَبَايا … هُ يُحَيِّي الوُفودَ والأَصدِقاءَ
بادِيَ البِشْرِ والبَشاشَةِ جَذْلا … نَ لَبُوساً من كُلِّ لَوْنٍ رِداءَ
ثَمِلاً من شَمُول شَمْسِ الضُّحَى وَهْـ … وَعلى بُسْطِ سُنْدُسٍ خَضْراءَ
رَاقِصاً والصَّبا تُهَنِّيهِ وَالوُرْ … قُ، غَواني القِيَانِ، تَشْدو غِنَاءَ

---

١ ـ كيتان متنزه بديع في تطوان .

وله يصف أيام الشباب :

وطَنٌ عهدتُ به الشبيبةَ والصِّبا إلْفَيْن ليس أخوهما بمُنَكَّد

ورفَلْتُ في أثواب عيش باسِقٍ عذَباتُه أَنِقِ المُحَيَّا أَرْغد

وقطفتُ من زَهْر السرور نواضرا وهصَرتُ منه بالغصون المُيَّد

أيّامَ كنتُ رَخيَّ بالٍ في ذَرَى حَدِبٍ عليَّ مُوَسِّنٍ[1] ومُوَسِّد

ألهُو بأحداث الزمان مُرَاغِماً لأُنوفها عَبثَ الوَليد المُسْتدي[2]

مُرخَى العِنان بروض كلِّ لُبانَة سَرحاً بها سَرْحَ الفَلُوِّ المُخْضِد[3]

لا أختَشِي ظُفرا ولا نَابا ولا أشجَى لِبَيْن مُغْور أَو مُنجِد

والدهر سِلْمٌ والخُطوب غوافلٌ والعيش غَضٌّ والأماني حُفَّدي[4]

ما دَوْحَةٌ فينانَةٌ أَو روضة بِخميلَة أَو في يَفَاع أَنجَد

سحَبت عليه ذُيولها مُزْنُ الحَيا وسخَت عليه بكَفِّ واكِفها النَّدي

---

١ — الذرى الجانب والساحة والحدب العاطف المشفق والموسن المنوم من السنة وهي أول النوم .

٢ — المستدي اللاعب بالجوز يقال سدى الصبي بالجوز واستدى اذا رمى بها لاعباً .

٣ — الفلو المهر والمخضد الذي يجاذب المزود من النشاط والمرح .

٤ — أي خدامي ، جمع حافد وهو الخادم .

يُسقَى من الوَسْميّ مُترَع كأسِه ويُصان مِن نسْج الوَلِيِّ ببُرْجُد[1]

من كُل سابِغة الذُيول كأنها عَكَرٌ تُسامُ على الرُّبى بالمرْعِد[2]

نَشَر الجَنُوبُ جُمَانَها[3] فتقلَّدَتْ لبَبُ الرياض بحَلْيِهــا المتبدِّد

فتدفَّقت أنهارُهــا وتفتّقت أزهارُها في روْضِهَا المستأسِد[4]

وتساجَلتْ أَطْيارُها وتمايَلتْ أشجارُهــا كالثَمَل المُتَمَيِّد

وجرى لطيفُ نسيمها بِرِيَاضِهَا جَرْيَ الزُلال بغُصْنِها المتأوِّد

مــا شئت من ثمر يلذّ ومنظر أَنِقٍ وصوْتٍ في الغُصون مُجَسَّد[5]

وحباب جِرْيال يُخالِجُ ساقِيَ أُملودٍ بها فَحْم الذَوائِب مُمْــأَد[6]

أو أَمْنُ ذي فَرْدٍ خاشِع لُبّه أو غَفوةُ الإصباح للمتهجِّــد

أَوْ عذبُ شارِعة الفُرات بِذي ظمأ أَوْ وَصْلُ حِبّ بعد هجرٍ مُبعَد

---

١ – الوسمي مطر الربيع الأول والولي الذي يليه والبرجد الكساء المخطط .

٢ – هذا وصف للسحاب والعكر الابل الكثيرة والمرعد صوت الراعي شبهه بالرعد .

٣ – يعني الريح الجنوبية والمراد بجمانها قطرات المطر على التشبيه .

٤ – الملتف النبات .

٥ – المجسد المحسن على أنواع .

٦ – فحم الذوائب أسودها ومماد ممال .

بألَذَّ من تلك الليالي لَوْ مَحَا ما خطَّه الدبرَانُ سعْد الأَسعُد[1]

وللوزير ابن ادريس :

نادَى السُّرورُ بسَعْدِكُمْ فَتَنَزَّهوا فالرَّوْضُ قد أَهْدَى حُلاه وخزَّهْ
بَسط الرَّبيعُ به بِساطَ زَبَرْجد قد أَحسَنَتْ أَيدِي السَّحائِبِ طَرْزَهْ
قد كَان كَنْزاً في التُّرَاب مُطَلْسماً فَتَحَتْ رُقَى كَنْزِ الغمائم كَنْزَهْ
أَبدَتْ خبايا الارض من بَرَكاتِه ما أَوْضَحت لُسْنُ الكمائِم رَمْزَهْ
طَلَعت طلائِعُه بكل ثَنِيَّةٍ تُهْدي بَدائِعَه وتَنْشُر بَزَّهْ
وجُيوشُه النوَّارُ تَظْهَرُ في الرُّبى أَعلامُه تُبْدي عُلاه وعِزَّهْ
مَلِكُ الفصول له التقدُّمُ بينها مَن رَامَ شأْوَ سنَاه منها عزَّهْ
فخَرَ الزمانُ بصَيْفِه وخَريفِه وشِتائِه يومَ الفخار وبَزَّهْ
مُتصرِّفٌ في الارض عِند ورُودِهِ فأَشبَّ نَرْجسَه وشَيَّبَ لوْزَهْ
تتنفَّسُ الجنَّاتُ فِيه أَما تَرَى أَرَجاً سرَى أَحيا الفُؤادَ وهزَّه

وله في عَريش عِنَب ·

عرائِسُ الرَّوْضِ تَزْهو في عَرائِشها
لها خدُورٌ لِصَوْنِ الحُسْنِ والحسبِ

---

[1] - الدبران وسعد الأسعد من منازل القمر وهذا من قول الشاعر :
اذا دبرانا منك يوماً لقيته أؤمل أن ألقاك غدوا بأسعد

قد رُبّيتْ في مِهادٍ ما يُحَرِّكه إلّا النَّسيمُ إذا يَهْفو على كَثَبِ
وأَرضَعتْها ثُديَّ السُّحْبِ دِرَّتَها في كلِّ حينٍ ولم تَبْرُزْ من الحُجُبِ
فأَصْبَحَتْ بعد مـــا تمَّتْ رِضاعَتُها
تُعْزَى الى الكَرْمِ لا تُعْزَى الى السُّحُبِ
تَكادُ تَسقُطُ سُكْراً في أَريكَتِها لَوْ لَمْ تَقُمْ بِسَريرِ العُودِ والقَصَبِ
فيها لأَهْلِ التُّقى شُكْرٌ، ومُهْمَلُه[١] وِزْرٌ لأَهْلِ الهَوى وذا مِنَ العَجَبِ

١ – يعني سكرا .

الآدابُ والوصَايا والحِكَم

للشيخ يَعْلَى أَبي جَبَل دفين باب يَصْلِيتَن من فاس المتوفى ٥٠٣ هـ في الحث على السفر .

سافِرْ لِتَكسب في الاسفار فائدةً فرُبَّ فائدَةٍ تُلْفَى مع السفر
ولا تُقِم بمكَان لا تُصِيب به نُصحاً ولو كنتَ بين الظل والشجر
فان موسَى كَليمَ الله أَعْوزَه عِلمٌ تَكَسَّبه في صحبة الخَضِر

وللقاضي عياض في ضده :

تَقَعَّدْ عن الأَسفار ان كنتَ طالبا نجاةً ففي الاسفار سبعُ عوائق
تشوُّق إِخوان وفقدُ أَحِبَّة وأَعْظمُها يا صاحِ سُكْنَى الفنادق
وكثرةُ إِيحاش وقلةُ مُؤْنِس وتبذيرُ اموالٍ وخِيفةُ سارق
فان قيل في الأَسفار كسبُ مَعِيشة وعِلمٌ وآداب وصحبَةُ وامِق
فقد كانَ ذَا دهراً تقادَمَ عهدُه وأَعقَبه دهرٌ شديد المضايق

فهذا مَقالِي والسلامُ كما بَدا وجرّب ففي التجريب علمُ الحقائق

وله وجنّسه :

اذ ما نشَرْتَ بِساطَ انبساط فعنه فديتُك فاْطوِ المِزاحا
فان المِزَاح كما قد حكَى أُولُو العلمِ قبلي عن العِلمِ زَاحا

وللمهدي بن تُومَرت :

أَخذتَ بأعضادِهِم اذ نَأَوْا وخلّفَك القَوْم اذ ودَّعوا
فَكَمْ أَنتَ تنهَى ولا تنتَهِي وتُسْمِعُ وَعظاً ولا تَسْمَعُ
فيا حجَر السَّنِّ حتى متى تَسُنُّ الحدِيدَ ولا تقطَعُ

وللقاضي أَبي حَفْص ابنِ عُمَر :

تَنَبّك يا غا فلا فانْظُر وعيْنَيْك غَمِّضْهُا تُبْصِر
إذا أُرْسِلَ الطَّرْفُ هام الفؤاد وَبَعْضُ المَرائي عَمَى المُبْصِر
وآفَةُ قلْب الفَتى عينُه فإنْ تَرْعَ قلْبَكَ لا تنظُر

وله أيضاً :

العِلمُ يكْسُو الحُلَل الفاخره والعلمُ يُحْيي الأَعظُم الناخره
كَمْ ذَنبٍ أَصْبحَ رَأْساً بِه ومُذْنِبٍ أَبحُرُه زاخره

مـــا شَرفُ النِّسْبة الا التُّقى أين تميم لأنفس الفـــاخره
مَن يطلب العزَّ بغَـــيْر التقى تَرْجعْ عنـــه نفسُه دَاخِره
أَعْرِضْ عن الدنيا تكُنْ سيداً بلْ مَالِكاً فيهـــا وفي الآخره

وللاستاذ أبي القاسم ابن الشَّاطّ وجنّسه :

إني سلكتُ من انقباضِي مَنْهجاً ونهجتْ من صَمْتِي على مِنْهَاج
وتركتُ أَقْوَالَ البرِيَّـــة كُلّها كي لَا أُميِّزَ مادحـــاً مِنْ هَاج

ولابن البنّاء العددي :

قصدتُ الى الوَجازَة في كلامي لِعلْمي بالصَّوابِ في الاختصار
ولم أَحذَرْ فُهوماً دون فهمي ولكن خِفْتُ إزراءَ الكبار
فشأْنُ فحولَة العلمـــاء شأني وشأنُ البسْط تَعْلِيمُ الصِّغار

ولابن عبد الملك المراكشي :

من لم يصُنْ في أَملٍ وجْهَه عنك فصُنْ وجهَـــك عن رَدِّه
واعْرِفْ له الْفضلَ وعرِّفْ له حيثُ أَحلَّ النفس من قَصْده

ولمالك بن المرَحّل وقد التزَم افتتاحه بما ختم به :

بأيِّ دواء ام بأيِّ أيدٍ يُداوَى عذرٌ من نباضٍ مَشِيب

بَباضٌ كما لاحتْ كواكبُ سُحرةٍ تُريك طُلوعاً مُوذِناً بغُروب
بَشيراً نَذيراً لاحَ كالفجر صادقاً على كاذبٍ حُلو اللسان خَلوب
بُنَيَّ أبك لي ان البُكا يبعثُ البكا وليس جَوابي منك غيرَ وجيب
بحاراً ركبناهـا بغير سفائن غُروراً فإن نَهْلِك فغَيْرُ عَجيب
بَرتْنيَ يوْماً آيةٌ في بَرَاءة فان ضحِكَتْ سِنيِّ فضِحْكُ مُريب
بنَيْتُ لها قلبي على كُرَة الأَسى فلم تَتَغَيَّر لاختلاف خُطُوب
بَكى صاحبي حتى إذا مَال في الثَّرى وسالَتْ مآقيه كمِثْل غُروب
بسطتُ له كفِّي وقبَّلتُ كفَّه وقلتُ له هذا مَقـامُ كَئِيب
بِحقِّك لا تَبْرَح أُطارِحْكَ لَوْعَتي على نَغَم مِن أَنَّـةٍ ونحيب
بِداراً الى هاذي الدموع فربَّما غَسَلتَ ذُنُوبـاً جَمَّة بذَنُوب
بِدايَةُ حال ان تَـدُمْ فلعلَّما ورُبَّ طلوع كان بعد مَغِيب
بَنِي الدَّهر أمَّا الدهرُ فهْو عدُوكم وان لَاح يوماً في ثياب حَبيب
بَوارِقُه لا رِيَّ فيها لَعاطِشٍ ولا خِصْب في أَنْوَائِه لجدِيب
بَلاكُمْ وأَبْلاكُمْ تقلُّبُ صَرْفِه فَيَا وَيْحَها من أَنْفُس وقُلوب
بصائِرُها في الرُّشد غيرُ ثَوَاقبٍ وأَبصارُها في الغيِّ ذَاتُ ثُقوب
بَعيدٌ من التوفيق مَن بات ساهراً رَجـاء بعيدٍ لا مخافَ قريب
بَطِيءٌ لَعَمْري من سَرى الليلَ كلَّه وأصبحَ حول الحي بعد لُغُوب

بَخيل لعمري مَن دعاه حبيبُه هلُمَّ الينا وهْوَ غيرُ مُجيب

وقال على مِنْواله :

جَديرٌ بأن يَبْكي على نفْسِه أسىً فتىً كلَّما تُرجى له توبةٌ تُرْجا[1]

جَبانٌ عن التقوى جَريءٌ على الهوى قريبٌ من المَهْوَى بعيدٌ من المَلْجا

جرى في مَجال اللهو مِلْءَ عنانه الى الآنَ ما ألقى لِجاماً ولا سَرْجا

جنَى ماجنَى واسْتَسْهَل الأمْرَ في الصِّبا فلمَّا نهاه الشَّيْبُ عن فِعْله لَجَّا

ولابن جابر المكناسيّ :

أيا مَن أرادَ التخلُّصَ مِن دُناه لِخَوْف إِذَا يَاتِها

اذا شئتَ تسلَمُ من شرها فسلِّمْ لَهم في حُوَيْجاتِها

ولابن رُشَيْد الرَّحال :

تغرَّبْ ولا تَحفِلْ بفُرقة مَوطنٍ تَفُزْ بالمُنى في كل ما شِئْتَ من حاج

فلولا اغترابُ المِسْك ما حلَّ مَفرِقا ولولا اغترابُ الدَّرِّ لم يحظَ بالتَّاج

---

١ - تؤخر .

وللسلطان ابي عِنان المَرِيني :

واذا تصدَّر للريَاسة خاملٌ جرت الامورُ علىالطريق الأَعوج

وللعلامة المكُودي من مقصُورَتهِ في السِّيرة النبوية :

أرقَّني بَارِقُ نجْد إذْ سرَى يُومِضُ ما بَيْن فُرادَى وثُنَى
أَهبَّني إذْ هَبَّ منه مَوْهِنًا[1] ما سدَّ ما بين الثريا والثرى
شَمِمتُ من أَرجائه إذْ شِمْتُه رِيحَ صباً أَضوعَ من رِيح الكِبا[2]
فَيالَه من بارق ذكَّرني من الهوى ما كنتُ عنه في غِنى
أَثارَ شوقا بـان مني كامناً بين ضلوع طالَما فيها ثوى
فكان قلبي المُجْتَوَى اذ هاجه كالزَّنْد إذْ أَوْرَاهُ مُورٍ فورَى
وسحَّ سُحْب مُقْلتِي فما بقِي نوعٌ منِ الدمع بها الاّ همى
ما كنتُ ادري قبلَ ان أُنفِدَه أَن البُكى يمنعُني من البُكى
وليلةٍ سبَحْتُ في ظَلْماتها اذْ سَحَبتْ فضُولَ أذيالِ الدُّجى
أَلِفْتُ فيها كلَّ ما أَأفيْتُه يوُهِي القُوى الا التسلِّي والكَرى
طالت وما أَطَّل نائي صُبحها إلاَّ بِإعْيا[3] ما لدَيْها من تَوى

---

١ – الموهن كالوهن نحو منتصف الليل .
٢ – عود البخور .
٣ – أي بغاية .

قد وقفتْ نجومُها في أُفْقها … وقْفةَ حيْرانَ طويلِ المُشتكى

جُبتُ بها وَحْدِيَ قفْراً سبْسَباً … ليس به الا النَّعامُ والمَها

نَائي الزَّيازِي والفَلا دَانِي الصَّفا … خالِي القَيافي والذُّرى خافِي الصُّوى

قَطعتُه ببَازِلٍ ذِي مِرَّةٍ … يُنَوِّعُ السيْرَ بأَنْواعِ المُشَى

فتَارةً يُعمِل فيها الخَيْزَلَى … وتارة يَعدُو عليها الهَيْدَبى

كأَنَّ رَحْلي اذ علوتُ ظهْرَه … فوقَ مَتينِ المتْنِ وَجْرِيٍّ القُوى[1]

مِن وَحْشِ مَهْمهٍ بعيدٍ غَوْرُه … ذِي أكرُعٍ أَصلبَ من صُمِّ الصَّفا

يقذِفُ بي من فدْفدٍ لفَدْفدٍ … وينتَهي بِي من فَلا الى فَلا

حتى اذا انتضَى الصباحُ نصْلَه … وقدَّ جِلبابَ الدَّياجي فانفرى

كأَنه كَتائِبٌ قد نُشِرَتْ … رايَاتُها على الأكَام والرُّبى

أَحسَّتِ الشُّهْبُ بها فأَجْفلَتْ … وأَمَّت الغَربَ وجدَّتْ في السُّرى

إِذَا أَنَا بِبُقْعَةٍ غِيطَانُها … جَرى بها سلسالُ نَهْرٍ وانحنَى

كأَنَّه مِعصَم خَودٍ غَادةٍ … على رِداءٍ قد وَشَاه مَن وشَى

وظلّ رَوْضٍ راضَه صَوْبُ الحَيَا … فاعتَمَّ من نورْ حُلاه واكْتَسى

باكَره وسْمِيُّه فانفتَحَتْ … كِمامُه عن زَهْرٍ طيِّب الشَّذا

---

١ – منسوب الى وجرة مكان كثير الوحش .

وهزَّ أَيدي الرِّيح منـه قُضباً غنَّى بها الطيرُ الاغَنُّ وشَدَا
ونشَرَتْ شمسُ الغَداة أَيـدَعاً[١] فيه وقَـــد بلَّله قَطْرُ النَّدَى
أَحْسِنْ به رَوْضاً ذَكِيّاً عرْفـه مُعطَّراً دَانِي القُطوف والجنَى
وقفتُ طِرْفي بـإِزَاءِ دَوْحـــه أَسرَح طَرْفي في مَبانِيه العُلى[٢]
واشتَكِي دهراً دهاني صَرْفُه لَمّا قَضَى بالبَيْن فيما قـــد قضى
منازلٌ كانت بِنَـا أَوَاهِـــلاً نِلْنا بهـا حِينـاً أَسالِيبَ المُنى
كم بتُّ في أَفيائِهـا أَجري الى غايَاتِها بطِرْفٍ جِدّ ماكَبـــا
وكم سحَبْتُ اذ صَحِبْتُ غِيدَها برَوْضها ذَيْلَ السُّرور والهنـــا
وكم مدَدْتُ مـن سُرَادِقٍ على ضفَّة نَهْر أَرِج رَحْبِ الذُّرى
وكم سعِدْتُ اذ صَعِدْتُ صَهْوةً لِمنْزَه ذي نُزَه لمن رَنـــا
وكم هَصرتُ فيه من غُصْنِ نَقا من قَدّ ظَبْي أَهيفٍ طاوي الحَشا
وكم لَثمتُ زَهْر ثغر أَشْنبٍ من شادِنٍ عذْب الثَّنايا واللَّمى
وكم رَشَفتُ من رُضاب سَلسلٍ يفعَلُ بالأَلباب أَفْعـالَ الطِّلا
أَيامَ أَزهـارُ المُنَى مُونِقَـــةٌ والدهرُ ذُو وَجْه مُنِيرٍ مُجْتَلى
تُزَفُّ لي من الأَمــاني آمِناً عَرَائِسٌ ذَوَاتُ حَلْي وحُـــلى

---

١ – أي زعفراناً والكلام على التشبيه .
٢ – الطرف بالكسر الكريم من الخيل وبالفتح العين الباصرة .

أنَّى أُرَجِّي لِفُؤادي سَلْوةً من بَعْد بُعْد المونِقات المُجتَلى
يا لَيتَ شِعْري والاماني خُدَع هل يُرْجِعُ الدهرُ لنا عهْداً مضى
وهل لنا من عَوْدة لِمَعْهَد صبَوْتُ فيه جُلَّ ايام الصِّبا
إذْ لا مَشيبَ فوْقَ فَوْدي يُرعَوَى من شَيْنه ولا رَقِيبَ يُختَشى
أَيامُ أَنْسٍ أَسْرعت في خَطْوِها كذا اللَّذاذَاتُ سرِيعَاتُ الخُطا

* * *

يا قَلْبُ لا تجْزَع فأَنتَ قُلَّبٌ وأنتَ عندي ذُو دَهاء وحِجا
فلا يهُولَنكَّ صَرْفُ الدهر في ما قد جَنى عليك من خطْب النَّوى
فكُلُّ وصْلٍ ينتَهِي لِفُرْقَة تفْري العُرى منه وان طال المدَى
والدهرُ في صرُوفِه ذُو عجَب يُدنِي بها كلَّ جديد للبِلى
يُبكي اذا أَضحَك يوما أهلَه ويُعقِبُ الكَربَ اذا العيشُ صفا
كم مَلِك في نَجْدة من مُلكه يضيقُ عن جُنوده رَحْبُ الفضا
قد ملَكَ الارضَ ورَاضَ صعْبَها وشَيَّد القُصورَ فيها والبُنى
أخْنَى عليه دهرُه وعاقَه عن كل ما شَيَّده وما بَنى
أين الأُلى سادُوا وسَاسُوا مُلكَهم كمِثْل سَاسَان وعادٍ وسَبا[1]

---

١ — ساسان أبو الملوك الساسانية من ملوك الفرس، وعاد وسبأ من العرب البائدة.

دارتْ على أَدْؤُرِهم[1] دَوائِرُ وجُرِّعوا كاسَ المَنَايا والرَّدى
وأين بانِي إرَمٍ[2] وجَيْشُه صارُوا رَمِيماً تحتَ أطباقِ الثرى
ومُلكُ كِسْرى حينَ تمَّ أَيْدُه أوْهتْه أَحداثُ الزمان فوَهى
ولَمْ تُقَصِّرْ عن مُلوكِ قَيْصَر حتى أَبادَتْهُم وطاحُوا في البَرى[3]
ولم تدَعْ من مُلْك غسَّان فتىً سامَى المَعالي في ذُراهـا فَسما
وكم ملوكٍ قَهروا بمُلْكهم أُسْدَ الشَّرى صارُوا حديثاً في الدُّنا

***

هاذي هِيَ الدنيا فلا يَغْرُرْك ما تَراه فيهـا من سُرور وهَنا
فانفُضْ يَدَيْك من عُراها وارْمِها وادْرَأْ بها ان كنتَ من اهل النُّهى
وظُنَّ بالإخوانِ شَرًّا واخْشَهُم وصَيِّر الأَحبابَ منهم كالعِدا
وان جهلتَ حالَهم فاخبُرْ فما يَخْبُر قوماً احدٌ إلاَّ قَلى
وَسِرَّك اكتُمْه عن الخَلق ولا تُطْلِع عليه احداً من الوَرى
واقْنَع على عزّ بما يَكْفي ولا تَحْرِصْ فان الحِرْصَ ذُلّ للفتى
وسايِرِ النـاسَ على أَخلاقِهم وساعِد المُسْعِد واحْمِلْ من جَفا

---

١ — جمع دار .
٢ — مدينة هائلة بناها شداد بن عاد .
١ ـ البرى : التراب .

وصافِهم وان أساءوا نيـةً فإنمـا لكل مَرْءٍ ما نَوى

كم من صديق مُظهرٍ لوُدِّه لكن له قلبٌ على الحِقْد انطوى

يَبَشُّ في وجْهكَ ان لاقَيْتَه وان تَغِبْ يَغْتَبْك في كل مَلا

يُذيعُ ما يَراه من قُبْح وان رَأى جميلاً منك أخفَى ما رأى

فاترُكْ إخَـا مَن هذِه شِيمَتُه واهجُرْه في الله ودَعْه والعَمى

ولا تهابَنَّ ذوي الجهـل وان راقك منهم مُنتَدى ومُنْتَمى

كم من أُناس كالأَناسي منظَراً فَهُم اذاً أَشْبَهُ شيء بالدُّمى

وكم أُناسٍ فى الدُّنا ليس لهم من العُلا الا الأَسامي والكُنى

يَرَوْنَ أن المَجدَ والعَلْياء في ما يُغْتَنى من أُبَّهات وكُسى

ليس العلا والمجدُ الاَّ لامْرِيء رنا الى أُفْق المعـالي وارْتَقى

وصمَّم العزمَ على ترك الهوى وجدَّ في طِلاب ما يُجْدي الثنا

وانتَعل الشُّهبَ الدَّراري رفعـة وامتَهد البَدْر المنير واعتَلى

وما المَعالي غـيرُ علْم رائق يُصَيِّرُ المرءَ على أعلى السُّها

طُوبَى لمن برَّزَ في مَيْدانِه وابتَدر السَّبْقَ لديه وجَرى

وجدَّ فيه وحَماه جـدُّه حتى ارتقى منه بأَسْمَى مُرتَقى

ودانَ بالدِّين القـويم والعُلى وازْدان بالخُلْق الجميل والتـقى

***

لِلّهِ قَــومٌ قمَعوا انفسَهم عن الهوى اذ قَرَعُوا بابَ الرضى
عابُوا نفِيس الدُّر والعِقْيان اذ باعُـوا نفوسَهم بأنفس عُلا
وأَنت يا نفسُ شُغِلْتِ بالهوى حتى هَوَيْتِ منه في قَعْرِ هُوى [1]
فَرَّطتُ إذ أفرطتُ في اكتساب ما يُردي ولَم أَسلُكْ سبيلَ من نجا
كم خضتُ في بَحْرِ المعاصي جامحاً لا أَرْعَوي نُصْحاً لِلَحْي من لَحا
وكم تَعِبْتُ اذ تبِعْتُ أَملاً قد انقضَت لَذَّاتُه وما انقضى
واحَسْرتَا قد مَرَّ عُمْري ضائعاً بين خُزَعْبِلاتِ لَهْوٍ وهَوى
هَلَكْتُ في الهُلاَّك لولا أنني ذَخرتُ ذُخْراً أَرْتَجي به الهُدى
وليس ذُخري غير مدْح احمدٍ سيدِ أَهل الأَرضِ طُرًّا والسَّما

ويقول في اخرها مُنَكِّتاً على ابن دُرَيْد وحَازِم في مدحهما غيرَ الذات المُصطَفوِية :

مقْصورةٌ لكِنَّهـــا مقصورةٌ على امْتِداح المُصطفَى خيْرِ الورى
فُقتُ علاءً كُلَّ ذي مقصورة وإن هُمُ نالوا الأَيادي واللُّهـا
فحازِمٌ قد عُدَّ غـيرَ حازم . وابنُ دُرَيْد لم يُفِدْه ما درى

---

١ ــ جمع هوة وهي الحفرة العظيمة .

ما شِبْتُها بِمَدْح خلْقٍ غيْرِه لِرُتبَةٍ أَحظَى بها ولا جَدا

وللشيخ ابراهيم التازي دفين وَهران :

أَما آن ارعِواؤُك عن شَنار كفى بالشَّيْب زَجْراً عن عُوار
أَبَعْدَ الأَربعين ترُوم هَزْلا وهل بعدَ العَشِية مِن عَرار
فخلِّ حُظوظَ نفسِكَ والْهُ عنْها وعن ذِكر المنازل والديار
وعَدِّ عن الرَّبابِ وعن سُعاد وزَيْنَبَ والمعازِف والعُقار
فما الدنيا وزُخرُفها بشيء وما أَيامُها الا عَوار

وله ايضاً :

ياصاحِ من رُزِقَ التُّقى وقلا الدُّنا نال الكَرامَةَ والسعادةَ والهنا
فاصرف هَوَىٰ دنياك واصرِم حبْلَها دَارُ البَلايا والرزايا والعَنا
وودادُها رأْسُ الخطايا كلِّها مَلعونَةٌ طوبى لِمَن عنها انثَنى
لا تغْتَرِرْ بِغُرورها فمَتاعُها عَرضٌ مُعَدّ للزوال وللفنا
لَعِبٌ ولَهْو زينَةٌ وتفاخُر .لا تخدَعنْك جِنانُها مُرُّ الجنى
خَدَّاعةٌ غدَّارة مكَّارةٌ ما بلَّغت لِخَليلها قطُّ المُنى

١ ــ اطلبها فقد نشرناها بشرح لطيف وترجمة مطولة لناظمها .

اليومَ عندك جاهُها وحُطامها وغداً تراه بكَفّ غيْرِك مُقتَنى
فاقْبَل نَصِيحةَ مُخْلِصٍ واعْمَلْ بهَا يُدنيكَ من رِضوان ربك ذي الغِنى

ولابن غازي :

عجِبْتُ لَمبتاع الضلالة بالهدى ولَلْمُشْتري دُنياه بالدين أَعجَبُ
وأَعجَبُ من هذين من بَاعَ دِينَه بدُنْيا سواه فهو اخزَى وأَخْيَبُ

وللشيخ رضوان الجَنوي :

لا تركَنَنَّ الى اهل الإمارة في امْرٍ تُحَاوِلُ واقْطَعْ دُونَهم أَملا
وان أَرادُوكَ يوماً مَّا على عمل «كُلِ التُّراب ولا تعْمَل لهُم عَملا»

وللامام القَصَّارِ :

تِسعٌ أَبى منهـا أُولـو الأَحلام والهِمَم السَّنية
إلّا بحـال ضَرُورة تدعُو لهـا معْ حُسْن نِية
وهْيَ الشهـادةُ والوسَـا طةُ والحكومـةُ في القضية
وكذا الإمامةُ والوِدْ يعَةُ والتعَرُّض للوصية
ثم الاجـابـةُ للطَّعا مِ وللولائم والهَدِيـة
فسَد الزمانُ واهلُه إلا القليلَ مِن البَرِيـة

ولابي زيد البُوعقيلي وجنّسه :

تجبَّر بعضُ الناسِ كِبْراً ونَخوةً وعمَّ جميعَ الناس منه فسادُ
فيا أَسفِي ان الافاضل قد مَضوْا فَقَام علينا الارذُلون فسادُوا

وللشيخ عبد السلام جَسُّوس :

اذا ما خُصَّ بالاموال ناسٌ وخَصَّ اللهُ قلبك بالعُلوم
فلازِمْ شكْرَ ربك كلَّ حين اذا ما كنتَ من أهل ٱلفُهوم
وسافِرْ عنهمُ بالقلب سافِرْ وحُطَّ الرحلَ في باب الكريم

وله أيضاً :

اذا ما اعتزَّ ذُو جهل بمال وعُظِّم في نفُوس الجاهلينا
فاهلُ العلم أعلا النـاس قدراً وأعظمُ عند رب العالمينا

وللشيخ عبدالله العياشي :

قامت قِيامَةُ مَن شابَتْ نَواصِيه
فلْيتّقِ اللهَ ولْيتْرُكْ مَعَـاصِيه

وله :

فوِّضِ الامرَ الى مَن حُكمُه نافـذٌ في كل ورِْد وصَدَر

واذا نازَعك الوهم فقُــل كلٌّ شيء بقضاء وقَــدر

ولابي العباس الهلالي من نصيحته :

يا أيها الانسانْ هُبَّ من كَراك واصْحُ من السُّكْر الذي قد اعْتَراك
ان الرحيلَ يا أخي قريب وكلُّنــا مسافِر غريب
والموتُ لا يفوتُه عريبٌ[1] فكَيف لا يزَوَّد الأَريب
فَيا لَه من سفَرٍ ما أَطوَلَهُ ويالَه من هائل مــا أَهوَلَه
كفَى الِحمامُ واعظاً لمن عقل فانظُر فكم من قاطن قد انتَقل
يا عجباً لغافــل بَطّــالِ مِثْلي ، حَليفِ لَهْوه الُمطــال
لو ظلَّ يخشَى ضرْبَ صاحب امير كَدِر عيْشُه وغُصَّ بالنَّمير
ولم يكُن عن حزنه بِلاه ولا بُمصْغِي الأُذْن للَملاهي
وكيف يلهُو وهْو كلَّ حــال منتظرُ الموتِ والارتحــال
وفتنــةِ القَبْر وهوْلِه الشديـد وموقِف الحشْر وكَرْبِه المديـد
وكلِّ هوْلٍ بعده ممــا تذُوب له الصَّفا الصمُّ فكيف بالقلوب
وكيف ينسَى سكَراتِ الموت وهوْلَه وحسَراتِ الفــوْت
وكيف يلهُو ويلَذُّ مطعَما معْ عِلْم ذاك إِنَّ ذا مِن العَمى

---

١ – أي أحد وهو من الأسماء اللازمة للنفي .

فأعدِدَنَّ للرحيـــل الزّادا واافتقِـــد المِزْوَد وَالمَزادا
والْزَمْ طِلابَ العلم بالاخلاص لكي تَرى منــاهجَ الخلاص
فالعلمُ نورٌ والجهـالةُ حلَك ومَن سرى في ظلمة الجهل هلك
والعلمُ ما أَكْسَب خَشْيَةَ العليم فمَن خلا عنهـا فجَاهل مُلِيم
لانه ميراثُ الانبيـــاء فلم يحُزْه غيرُ الاتقيـــاء
لذاك قيل العلمُ يدعُو العمَلا إن يُلْفِه قرَّ والا ارْتحلا
فاعْمَلْ بمَا علِمت تُورَثْ علمَ ما لم تكُ تعلمُ وترَبح مغْنَما
واعلَم بأن كـدَر الذنوب يكسِفُ نورَ العلم في القلوب
ألا ترَى الذُّبال في المصباح اذا صفا ارضاك في اصْطِباح
وان يكُنْ بوَسَخ مُلَطّخا كُسِف نورُه لذاك وطَخَا[1]
فاحذَر على النور الذي وُهِبْتا وان تُضِع نورَ الالاه خِبْتا
وزيِّن العلمَ بزينَة الورَع واقْنَع فخِذْنُ الحرْص في الذل كَرع
ان القناعـــةَ أعزُّ مُلْك وحِرْفَـةُ[2] القُنوع شرُّ هُلْك
واطلُب شِفاءَ قلبك المريض من قبل ان تُغَصَّ بالجَريض[3]

---

١ – أي أظلم .
٢ – أي السؤال فهو ضد القناعة .
٣ – أي الموت .

ولا تظنَّ البُرْءَ من دَوَاكْ[1] الا بقَطْمِ النفس عن هَواكْ
فاجهَدْ أخيَّ واجتَهِدْ وجاهِد عسى بفضل الله أن تُشاهِد
واستَنجِدَنْ مولاكَ في جميع ما ترُومُه فلَنْ يزَال مُنعِما
فما به تطلبُه تيَسَّرا وما بنفسك فقد تعسَّرا

* * *

واحتَلْ على نفسك بالتَّدريج فانه أذهَبُ للتَّحْرِيج
وخالِفَنَّها ولا تُطِعْها وارْعَ الودائع ولا تُضِعْها
وهي الجوارِحُ التي بها اكْتِساب للخير والشر وخَفْ يومَ الحساب
فانَّها مسئولةٌ في الآجِل شاهدةٌ بما جَنَتْ في العاجِل
فمَن عصَى بواحِد منها فقَد فتَح باباً للجحيم قَدْ وَقَد
وأصلُها القلبُ فعالِجْ داءه واحْسُ بمَرْهَم التقَى سَوْداءه
صلاحُه صلاحُها لِمَن خبَر والضدُّ بالضد كما جاء في الخَبر
وأصلُ داءِ القلب حبُّ العاجلة فانبُذْه واحتفِلْ بأمر الآجِلة
ولا يكُن همُّك في الطعام والشُّربِ تلك شِيمَةُ الطَّغام[2]
ما ملأ المرْءُ وعاءً شرّا من بطنه فاحذَر وُقيتَ الشرا

---

١ – هو مصدر دَوِيَ كجَوِيَ يعني مرض وسُلّ .
٢ – أي رُذال الناس .

ولازِم السنةَ واهجُر البِدَعْ فالطُّرْقُ قد سُدَّت على مَن ابْتَدعْ
ولازمِ الصَّمتَ الحميدَ الا عن ذِكْر مولاك الكريم جَلاَّ
أو مَا جرَى مَجْراه مما تَنْتفِع به ليوْم هائِل وتَرْتفِع
فكلُّ ما يَحصيدُه اللّسان يجِدُه يومْ الجزآ الانسان
ولْتكُ مَعْنِيّا بحُسْن الخُلْق تحُزْ رضا الحَقّ به والخَلْق
واحرِصْ على العُزْلة ما استَطعْتَ وان تَسِرْ من دُونها انقَطعْتَ
فخُلطةُ الناس أخي عِقال والقِيلُ لازِمٌ لهم والقَال
فدَعْهمُ تُرِحْهمُ وتسترِحْ فقلَّ من خالَطهُم ثم رَبِح
واقْطَعْ اذا رُمتَ العُلا العَلائِق وادْفَع بجُنَّةِ التُّقى العَوائِق

ولابي علي اليوسي :

إنّا أُناس لستَ تُبصِرُنا نَتحيَّنُ الطُّعَم[١] التي تُزري
يَعْرَى الفتى ويجُوعُ وهو يُرى مُتجمِّلاً بالصّبر والبِشر
والحرةُ الشمَّاء رُبّتما جاعتْ ولم تُرضِع على أجْر
والموْرِدُ العذْبُ الفُرات اذا رآتْه[٢] حُمُرٌ سِيمَ بالهَجْر

١ – جمع طعمة وهي الماكلة والمكسب .

٢ - هو من باب الحذف والإيصال مثل قولهم في المثل أحشك وتروثني .

وإذا ترى طيراً بمزبلةٍ فالطيرُ غيرُ البازِ والصَّقْرِ
وإذا رأيتَ المرءَ مُحتَسِياً كأسَ الهوانِ فليسَ بالحُرِ
والحرُّ ليس حياتُه بسوى عزِّ الجَنابِ ورفعةِ القَدْرِ
لا بالطَّعامِ ولا الشَّرابِ ولا استِلْقائِه بأرائِكٍ وُثْرِ
وإذا تُزايِلُكَ الحياةُ فما من عِيشةٍ تبقى ولا عُمْرِ
وسُؤالُ ذي لُؤْمٍ وذي بَخَلٍ ورجاؤُه لِنوائبٍ تَجْري
أنكى لقلبِ أخي المروءةِ من نَقْلِ الجبالِ وحَمْلِ الصَّخْرِ
وأضرُّ من كلِّ المصائبِ ان عظُمَتْ عليك وكُلُّها شَر
وتقلُّدُ للمَنِّ من يَدِه غُلٌّ على هاديك[1] في الأَسْر
بل وخْزَةٌ في القلبِ ناكِئَةٌ بل طَعْنَةٌ في لَبَّةِ النَّحرِ
وغِناكَ عنه بالقناعةِ في حالَيْكَ من عُسْرٍ ومن يُسْر
أجدى من المُلْكِ الذي جمعتْ أبناءُ هُرْمُزَ غابِرَ الدهرِ
وألذُّ من سِنَةِ الشبابِ على جِدَةٍ ومن وَثْرٍ على وِثْرٍ[2]
ولِباسُ صَوْنِكَ عن تملُّقِه أبهى من الاستَبْرقِ الخُضْرِ
وحُلاَ الوَقارِ عليكَ أجملُ من أن تحتَلِي بقلائدِ النَّضْرِ

---

١ — الهادي : العنق .

٢ — هو من قول بعض العرب : اعجب الاشياء وثر بالفتح على وثر بالكسر اي وقاع على فراش وثير .

وصُبَابةٌ من ماء وَجْهك أنـ ـفَسُ من رحيق سَلْسَلٍ غَمْر

فاذا عرتْك الحادِثاتُ فَثِقْ بمَليكها ذي الخَلْق والامر

واصبِرْ لِرَوْح الله مُرتجِياً فلتحمدَنَّ عواقِبَ الصبر

ان اصطبار المرء مُفتتِح مُتَغلَّقَ البأساء والعُسر

ومُنفِّس عنه الكُروبَ اذا ضاقت بهنَّ جوانِحُ الصدر

كم من حزين بات مُكتئبا مُتَسَعِّر الأحشاء ذا زَفْر

لا يرتجي بجلباب ليلته أن ينثني طرفاه بالسَّفْر

فأتته ألطـافٌ مُنَفِّسةٌ لِفؤاده من حيثُ لا يدري

ولكم بُعَيْدَ الضِّيق مِن سَعة ولكم بُعَيْدَ العُسر من يُسر

هل بعدَ مُعتَرَك الظلام سِوى بَلَج الصَّباح وطَلْعة الفجر

واذا تحاوِلُ نَيلَ مَكرُمة فانهض اليها نَهضَةَ الشِمْر [١]

واركَبْ جوادَ الجِد مُكتفِياً ذَيلَ المَلالة مِنكَ والفَتر

واعلَم بأنَّ الغوص في لُجَج خُضر يحقُّ لجالِب الدُّر

ولدى الرِّباح الكُثْر يَحمَدُ ما جابَ المفاوِزَ صاحبُ التَّجْر

ولدى الصَّباح يكونُ مُغتبِطاً وينالُ بُغيَته الذي يَسري

---

١ – الشمر بالكسر البصير النافذ .

وتسنمنَّ ذرى الامور ولا تُخلِد الى سَفسَافِها الخِضْر

واعلَم بانك ما استطعْتَ جَنَىً الا لِطيب الجذْر والبَذْر

والكَرْم يجدِي المجتني عِنبا والشّوْك لا يجْدِي سوى الشّصْر [1]

ولكَم ترى مَرعىً ولستَ ترى كَرِعايةِ السّعْدان والثّغْر [2]

والناسُ كالغَوْغاء هائمةٌ لَوْ كانَ يبْلُو الناسَ ذو خُبْر

والمرْء كلُّ المرْء بَينهُم ذو المَلْبَسِ الزّاهِي وذو الوَفْر

لا ينظُرون الى الوَفاء ولا فضْلِ الذّكاء وثاقب الفِكْر

فتوَخَّ في الناس الوَفِيَّ اذا عاشرْتَهم وحذارِ ذا الغَدْر

واسبُرهمُ قبل الإخاء ولا تغْترَّ في الإخوانِ بالسّبْر

كم من أخٍ مَذِقِ الوِداد على ما فيه من إحَنٍ ومن سِبْر [3]

إن تلْقَهُ فالشّهد مقوَلُه وإذا تَغيبُ يكونُ كالصّبْر

واذا تُصادِفُ ذا الضّناء فكُن منه ولوْ صافاكَ ذا حِذْر

وأسِمْ سَوائِمَ سَرْحِه طُرراً مَطْرُوقةً من مَسْرَحِ السّرّ

وصُنِ السّرارةَ [4] واللُّباب ولا تبذُل له مِنها سوى القِشْر

---

١ — الطعن والوخز .

٢ — السعدان والثغر من أفضل المرعى .

٣ — السِّبر بالكسر العداوة .

٤ — سرارة الشيء اطيبه وخالصه .

فلَرُبَّما يلْوي الزمانُ بــه فيكُون أَبصرَ فيـك بالضُرّ

واذا تُصاحِبْ أَو تُجالِسَ أَوْ تَسْتَبَّ فالْتَمِسَنْ ذوي القَدْر

فصَداقَةُ النُّبهـــاء مَفْخَرة وكذا نِواؤُهُمُ[1] مــن الفَخر

وصَداقةُ اللؤَمـــاء مُعقِبة لُؤْماً كَمِثْل حِكَاكِ ذي العُر

والسَّاقِطُ الوَاني ، مُشاتِمُـــه كالبَائِع العِقْيــان بالصُّفْر

والحظُّ والمِقْدار ما حُصِرا في ذي الذكاء يَبيتُ يَسْتَمْري

بـــلْ مِنْحةٌ أَزَلِيَّة نَشأَت بِيَديْ مُدبِّرهـــا على قَدْر

واذا نظَرْتَ وَجدْتَ في قَرَنْ غُمْر الغِنى وجهالَــة الغُمْر

وتَرى اللبيبَ يبيتُ في ضَفَفٍ[2] بهُمومِـــه مُتقَسَّمَ الفِكْر

لِيكُون فضْلُ حِجا الفتى عِوَضاً عن فَضْل مَال الأَنْوَك الكُثْر

وتكُونَ أَحكَامُ الإلَاهِ جرَتْ في الخَلْق عن غَلَب وعن قَسْر

والمرءُ ممدودٌ له أَجَــلٌ فَتْحٌ مَداهُ نَصائِبَ الغُبْر[3]

فأَعِدَّ لليوم الذي خضَعتْ فيه الطُّلا لرَوَاجِب الدُّعر[4]

وتحوَّلتْ فيــه الذين هُم قُنَنُ الذُّرَى شَمَمـــا الى الذَّر

---

١ — اي عداوتهم .

٢ — الضفف قلة المال مع كثرة العيال .

٣ — جمع أغبار وهي بقايا الشيء .

٤ — الطلا الأعناق .

وتدوسهم أقدام طائفة كانت لديهم موقع السخر
وازمم ركابك للرحيل غداً إن الخليط غدوا على ظهر
وتسل عن ليلى فقد أزفت عنها النوى ومضاضة الهجر
واعلم بأن الوجه[1] ذو شحط ومخاوف ومجاهل غبر
فتزودن وخير زادك من تقوى المهيمن سامع الأمر
واذا ارتحلت فلا تشذ وسر وسط الخليط ومعظم السفر
وحذار رحلك يقتفي سبلاً[2] عن نهجهم فيضل في القفر
وارع البطاح اذا مرعن ولا ترقين بحالق وعر
واذا ظمئت ففي الاصيل فرد فرداً عن الضوضاء والكدر
واذا رأيت سفينة خرقت فتأن لا تعجل الى النكر[3]
واذا تكون نزيل ذي كرم رحب الذرى متفضل غمر
لا يعدم العافي نداه ولا يعتل عن ذهل وعن فقر
فارح فؤادك أن يكون به هم إلى زاد على ذكر
وحذار أن يلقاك مرتجياً ما يجتبيه سواه من حبر
وكن الخلي وأنت صائفه عار النزيل على الذي يقري

---

١ — أي القصد والنية في السفر والمقصود سفر الآخرة .

٢ — أي يتبع بينات الطريق ويترك النهج القويم ، والمعنى مقتبس من قوله تعالى : « وإن هذا صراطي مستقيماً » الآية » .

٣ — تلميح الى قصة موسى مع الخضر في خرق السفينة .

وللعلامة المَرْغِيثي :

مَن لم يكُن يرضَى بما قد قُسِم فهو ظَلُومٌ ظَنَّ أن قد ظُلِمْ
يسْخَطُ حيثُ السُّخْط لا يقتضِي نفعاً ولكن ضُرُّه قد عُلِمْ

ولأبي عبدالله الخُمْسِيي المتوفى بدمشق ١١٥٨ .

خُبْزُ شَعيرٍ وماءٌ بِيرٍ يكون قُوتِي معَ السَّلامة
أفضلُ عندي من خفض عَيْش تكُون عقباه للنَّدامة

ولأبي عبدالله الشَّرْقي :

كلُّ امرىءٍ يصبُو الى مِثْلِه وطائرٍ يأوِي الى شَكْله
مَن لا يكونُ الخَيرُ في فرْعِه فكيف كان الخيرُ في أصله
مَن أجمعَ الناسُ على لُوْمه خابَ الذي يطمع في فَضْله
مَن جارَ في الحُكْم بلا قُدْرةٍ لم تأتِه القُدرة في عَدْله
ومَن أهانَ النَّاسَ ظُلْماً لهم دلَّته دُنياهُ على ذُلِّه

وله في شكْوى الزمان وغدْر الاخوان :

وما في الدهر غيرُ أخٍ خَؤُونٍ لِوَرْد الظُّلم يُسْرِع كالظَّلِيم[1]

---

١ — الظليم ذكر النعام .

وَلَمْ أَرَ مُنصِفاً الا قليــــلاً بِصِدْقِ الـود والقَلْبِ السَّليم
ولم أُنكِرْ من الايام عَيْباً سِوى رَفْعِ اللئيم على الكريم

ولابي حفص الفاسي من قصيدة على مِنْوال لامية العجم:

لا تَعْتِبَنَّ على دهرٍ تُساء به فما على الدَّهر من عَتْبٍ ومن عَذَل
واستَغْنِ بالله لا يُغْنِيك ما جَمعتْ أيدي الأَنام وغيرَ اللهِ لا تَسل
وكيفَ تسألُ عبداً لا غَناء له أَمْ كيف تَسْأَل ذَا فَقْرٍ وذا بَخَل

ما اعتَضتَ عن بذل ماء الوجه من عِوَضٍ
يوماً ولو نلتَ ما ترجوه من أمَـــل

والمالُ يُبذَلُ في الاعراض تالِله فلا تَنلْه بعِرْضٍ فيهِ مُبتذَل
والماجِدُ الفَخْم لا ينفكُّ مُعتقِلا رُمحَ الإبايَةِ من سُوءٍ ومن خَطل
يحمِي الذِّمارَ ويُصْمِي من يُحاربه ويَستَقِلُّ فلا يلْوى على رَجُل
وليس يُلفَى على الإثراء ذا بَطرٍ ولا من الفضلِ في الإفلاسِ ذا عَطل
تأْبى له الهِمةُ الشَّماءُ مُحجِمةً عن موقفِ الذلِّ ان يرعَى مع الهَمل
ويشمَخِرُّ بأَنفِ العِزِّ منقبضاً عن رُتْبة نالها الأَوْغاد بالحِيَل
ومُورِثُ العز ربُّ العز أجمَعِه فالعِزُّ بالله لا بالمال والخوَل
والانسُ بالله لا بالنَّاس قاطبةً والنصرُ بالله لا بالبِيض والأَسَل
والحرُّ يستَفُّ تُربَ الارضِ مُحتَمِلاً وليس للمَنِّ من كَعْبٍ بمحتَمِل

ويهجُر المَنهَل العذبَ البَرُودَ اذا ... ما مُنَّ بالورْدِ عن لَغْبٍ وعن غَلَلِ [١]

مُلكُ القناعة لا تنفكُّ إمْرَتُه ... في ظِل عز مديد غير متنقِلِ

فنَمْ به غير مَزؤُودٍ [٢] ولا وَجِلٍ ... ففي القناعة منْجاة من الغِيَلِ

وان سئِمتَ أو استوْخمتَ منزلةً ... فعالِج النفسَ بالتَّرحال والنُّقَلِ

فالسلسَلُ العَذبُ في الانهارِ مُطَّرِدٌ ... وراكِدُ الماء لا يخلُو من الدَّخلِ

وخُضْ لِنَيْلِ العُلا بَحْرَ المكارِهِ لا ... تجْبُن فما يُدْفَع المقدور في الأَزلِ

وان ظفِرْتَ بغمْرِ العيش في دَعَةٍ

فاذكُرْ رَفيقَكَ إذ أصبحْتَ ذا وَثْلِ [٣]

ما أيسَر المرءَ والاتباعُ مُعسِرةٌ ... ولا اعتَلى قدرُه والأَهلُ في نَهَلِ [٤]

ولن تَرَى لعَريقٍ المجد من سِمَةٍ ... كشيمَةِ الحِلْمِ والإغضاءِ والرَّسَلِ [٥]

ماضرَّ بدرَ الدجى في الافق تنبحُه ... سودُ الكِلاب وقد أسرى على مَهَلِ

واصبِرْ على مضَضِ الحسَّاد مُتَّئِداً ... فالصبرُ يُورِيك ما لولاه لم تَنَلِ

أمَا يسرُّكَ أن القومَ قد ضمِنَت ... صدورُهم أعظمَ الأدْوَاء والعِلَلِ

يا وَيْحَهُمْ كلّما زاد الفتَى شرفا ... زادوا به أسَفاً يُدني من الاجلِ

---

١ ــ عن تعب وعطش .

٢ ــ مذعور .

٣ ــ مال .

٤ ــ عطش .

٥ ــ السهولة واللين .

أولى لهم سخطوا صُنعَ الحكيم فما اولاهُمُ بعظيم الخزي والفشَل
وللأعادي أيادٍ جلّ موقعُها عندي فكم جنّبوني موقعَ الزَّلل
وكم تجشمتُ طُرقَ الجد مُعتجزا ثوبَ الصيانة عن عجز وعن كسَل
وكم لبستُ دُروعَ الحزم مُمتطياً سوابقَ العزم لم انكل ولم أهل
وكم تسنّمتُ أعلى ذِروةٍ فغدتْ منازلي بهمُ تُربى على زُحــل
فقل لمن لاحظَ العلياءَ ناظِرُه فصار ينهضُ نهضَ الشارب الثَّمِل
أبالتكاسُل تبغي نيلَ مأثرة هيهاتَ كم بين ذي عزم وذي وَهل
عن ساقِ جِدِّك شمّرْ ذيلَ مُحتزِم ذي قُوة غيرَ هيَّاب ولا وَكِل
وقُلْ لمن يَبْتغي صفواً بلا كدَر لا بُد في العيش من صابٍ ومن عسَل
ودون شُهْد المُنى من نحْله إبَرٌ فاصبرْ لها ان اردت الفوز بالنّحَل [١]
وسامِح الخِلَّ ان زلّتْ به قدَمٌ فلستَ تُبصِر خِلاّ غير ذي زلل
وان تضعضع ركْنُ الود منه فلا تعْجَل وقد خُلِق الإنسانُ من عجل
فاشدُدْ قُواه وحاذر أن تُعنّفه فرُبَّ نفسِ امرىء تغتاظُ بالعذَل
آهٍ فألسِنَة التجريب قائلةٌ توَهُّمُ الخِل في الدنيا من الخلَل
وانما الخِلُّ من يُوليك نائلَهُ دأباً ويُنجِد عند الحادث الجلَل

١ ـ جمع نحلة وهي العطية .

ويكتمُ السرَّ إن افشاه ذو سفه ... ويجبُر الخلَلَ المرمُوقَ بالخِلَل
ويحفظُ الودَّ في سر وفي علَن ... ويذكُرُ العهدَ في ضنْك وفي غَفَل
ويصحبُ الصدقَ في جدٍّ وفي هزَل ... ولا يُخالِفُ بين القول والعمل
فمُبرَمُ العهد منه غير منفصِم ... ومُضمَر الود فيه غير منفصِل
وآيةُ الصدق في دعواه بيِّنَةٌ ... من رامَ نقضَ عُراها الدهرَ لم يصِل
فرُضْ على اليأس منه نفس ذي كرم ... وكُن خليقا بذي الأخلاق واحتَمل
فانها عقباتُ المجد يوشك أن ... يقتحِم الندبُ منها وعرة السُّبل
ودونك العِلمَ لا تبغي به بدلاً ... وكيف يرضى أخو التمييز بالبدَل
فالعِلمُ نورٌ مبين يُستضاء به ... وخطّةٌ ما لها في الحُسْن من مثل
فاملأْ جِرابَك منه غيرَ مكترِث ... بما يراه أخو كِبْر وذو خَجل
وروِّض النفسَ واستكمِل فضائلها
تجني ثمارَ المنى من روضها الخضِل
وتجتلي انجماً زُهراً وآونَةً ... بدورَ تمّ وأخرى الشمسَ لم تزُل
تلك السعادةُ لا جاهٌ وميْسَرةٌ ... ولا الترفُّه والإرفاهُ في الحلَل
فالمرءُ بالنفس لا بالجسم مرتفعٌ ... والسيفُ بالنصل لا بالغِمْد والخِلَل
والنفسُ أنفسُ ما يُعنى اللبيبُ به ... فاربأْ بنفسك أن تُعنى بمُنسَفل
والجأْ الى الله في أمرٍ تحاولُه ... وابرأْ الى الله من حوْل ومن حِيَل

وكِلْ إلى اللهِ كلَّ الأمر واغْنَ به عمَّن سواه فإنَّ الله خيرُ ولي

ولابن الوَنَّان من قصيدته الشَّمَقْمَقِيَّة التي مدَح فيها السُّلطانَ محمد بن عبدالله وقد ألغيْنا هذه الصفة العَرضية واعتبرناها كما هي قصيدةً ادبيةً ولم نطوِّلْ بشرح غَريبها وتفْسير إشاراتها إلاَّ مَا خفَّ اعتماداً على قُرْب ذلك من مُتناوَل القارىء بسبب الرجوع الى شُرُوحها العَديدة * :

مَهْلاً على رِسْلِك حادي الأَيْنُق ولا تُكلِّفْها بما لم تُطِق
فطالما كلفتَها وسُقتَها سوْقَ فتى من حالها لم يُشفِق
ولم تزل تَرمِي بها يدُ النوى بكل فجّ وفَلاةٍ سَمْلَق
وما ائْتَلَتْ تذْرَعُ كلَّ فدْفدٍ أذرُعها وكلَّ قاعٍ قَرِق
وكلَّ ابطَحَ واجْرَع وجزْع وصَريمة وكلَّ أبْرَق
مجاهِلٌ تحارُ فيهنَّ القَطا لا دِمْنَةٌ لا رَسْمُ دارٍ قد بَقِي
ولم تزلْ تقطَعُ جِلبابَ الدُّجى بِجَلَم اليد [1] وسَيفِ العُنق
فما استراحتْ من عبور جَعْفَرٍ [2] ومن صعُود بِصَعِيد زَلَق
إلاَّ وفي خَضْخاض دمْع عينِها خاضَتْ وغابتْ بسرَابٍ مُطبِق

* – ولنا عليها شرح مختصر طُبع مراراً .
١ – أي بأيديها الشبيهة بالجلم وهو المقراض .
٢ – أي نهر .

كأنما رَقْراقه بحرٌ طمَى والنُّوقُ أمواجٌ عليه ترتقي

وكلُّ هودَجٍ على أقتابها مثلُ سَفينٍ ماخرٍ أوْ زَورَق

مرَّت بها هوجُ الرياح فهيَ في تفرُّق حيناً وحيناً تلتقي

وكم بِسَوْط البغي سُقتَ سوقَها سوقَ المعنِّف الذي لم يتَّق

حتى غدت خُوصاً عِجافاً ضُمَّراً أعناقُها تشكُو طويلَ العَنَق [١]

مَرثومةَ الأيدي شكَتْ فرطَ الوَجا لكنَّها تشكُو لِغَيْر مُشفِق

من بَعْد ما كانت هُنَيْدَةً غدتْ أكثرَ من ذَوْدٍ ودُونَ شنَق [٢]

ولئن تمادَيْتَ على إتعابها ولم تكُن منتهياً عن رَهَق

فسوف تعرُوكَ على إتلافها نَدامةُ الكُسَعِيِّ والفرزْدق

وكُنتَ قد عُوِّضتَ عن أخفافها خُفَّيْ حُنَيْن ظافِراً بالأَنق

لأنتَ أظلمُ من ابن ظالِم إن كنتَ مِن بعدُ بِها لم ترفُق

رفقاً بها قد بلغَ السيلُ الزُّبى واتَّسعَ الخَرْقُ على المرتِّق

وهَبْ لأيديهِنَّ أيداً ولها مَتْناً مَتيناً ما خلا عن مَصْدَق

فما لِظُعْن حمَلَتْ من مِرَّةٍ بِظَعن أوْدَى بها في الغَسَق [٣]

---

١ — العنق نوع من السير فسيح .

٢ — الهنيدة مائة من الابل والذود ما بين ثلاث وعشر، والشنق ما بين عشر الى عشرين .

٣ — الظعن جمع ظعينة وهي المرأة الظاعنة والظعن بالفتح السفر .

اسأتَ للعيد وللنوق ولي إساءةً بتوبة لم تُمحق
لولم يكن بحبّ حِلْم أحنفٍ والمِنْقري قلبيَ ذا تعلّق
حملتُ رأسك على شبا القنا مُروّعاً به حُداةَ الأينُق
فُسْق فلا نَعِم عوفُك ولا أَمِنَ خوفُك ولا تَدرَنفِق
ودَع يسوقُ بعضُها بعضاً فقد دنا وُلُوجها بوَعْر ضيّق
ولتتّخِذني رائداً فانني ذو خِبرة بمُبْهمات الطُرق
إن غرثتْ علفتُها ولو بما جمعته من ذهب وورِق
او صَدِيتْ أوردتُها من أدمعي نَهرَ الأُبُلّةِ ونهر جِلّق

***

رِفْقاً بها شفيعُها هوادجٌ غدت سماءً كلّ بدر مُشرق
من كل غيداء عَروب بضّةٍ رُعْبُوبة عيطاء ذات رَونق
خريدة مَمْسُودة رقراقةٍ وهنانةٍ بَهنانةِ المُعتنق
وقُلْ لربّات الهوادج انجلين آمِنات فزع وفرَق
فإنني أشجَعُ من رَبيعةٍ حامِي الظّعينة لدى وقت اللقي
فربّما يبدو اذا بَرَزْنَ لي ريمٌ إليه طار بي تشوّقي
لُبنى وما أدراك ما لُبنى بها عُرِفتُ صبّا مُغرما ذا قلق

١ ــ اي لا تمش سريعاً .

تسبي بثغر أشنَبٍ ومَرشِفٍ قد ارتوى من قرقف مُعتق
وناعِم مُهيكَل وفاحم مُرجَّل وحاجب مُرَقَّق
وعقب مُحجَّل ومعصِم مُسوَّر وعُنُق مُطوق
ومُقلةٍ ترمي بقوس حاجب لاحِظَها بسَهْمها المفوَّق
تمنعُ مسَّ جِسمها لثوبها ثلاثةٌ مثلُ الأثافي في الرُّقي
حُقّان من عاجٍ وقعبُ فِضّة من ظاهر وباطنٌ كالشّفق
وزادَ مِسْكُ الخال ورد خدها حُسناً وقد عمَّ بِطيب عَبِق
وقبّلتْ أقدامَها ذوائبٌ سُودٌ كقلْب العاشِق المُحترَق
كم أودَعت في مُقلتي من سَهَر وأضرمت في مُهجتي من حُرَق
ولا يَزالَ في رياض حُسنها يسرح فكري ويجولُ رَمقي
ولا تَسَلْ عما أُبثُ من جوى وما تُريقُ من دموع حَدَقي
يومَ اشتكى كلٌّ بما في قلبه لِحُبِّه بِطَرْفه بما لَقي
ما عُذرُ من يشكو الجوى لمن جفا وهوَ لدمع عينه لم يُرِق
آهٍ على ذكر ليالٍ سلفت لي معها كالبارِق المؤتَلِق
في معهدٍ[1] كنّا به كنخلَتي حُلْوانَ[2] في وصل بلا تفرُّق

---

١ ـ المعهد المكان لا يزال القوم يتعاهدونه .

٢ ـ هما نخلتان كانتا بقرب مدينة حلوان يضرب بهما المثل في طول الصحبة .

نِلْنا به ما نشتهي من لذّة ودَعةٍ في ظل عَيْش دَغْفق
ازمانَ كان السعدُ لي مساعدا ومُقلةُ الرقيب ذاتُ بَخَق [١]
واليومَ قد صار سلامُ عزّةٍ يُقنِعُ من لُبنَى اذا لم نلتق

* * *

والله لو حلّت ديار قومها واحتجبت عني بباب مُغلَق
لزُرتُها والليلُ جَوْنٌ حالك وجفنُها لم يكتحل بأَرق
مع ثلاثةٍ تقي صاحبها ما لم تكن نونُ الوقاية تقي
سيفٌ كصمصامة عَمْرو باترٌ لا يُتَّقى بِيَلَب ودَرق
وبين جنْبيَّ فؤادُ ابن ابي صُفرةَ قاطع قرا ابن الأزرق
وفرسٌ كداحِسٍ أو لاحِقٍ يومَ الرِّهان شأوُه لم يُلْحَق
تقْدَحُ نيرانَ الحُباحب سِراً فِرْه عند خَبَب وطَلَق
كالريح في هُبوبه والسِّمْع [٢] في وثوبه وكالمَها في فَشَق [٣]
به أجوسُ في خلال دارها وأنثني كالبارِق المؤتلِق
فان تكُ الزبّا دخلتُ قصرَها وكقصير سُقتُها للنَفَق

---

١ ـ اي عور .

٢ ـ هو ولد الذئب مع الضبع .

٣ ـ اي نشاط ومرح .

وَمن حَمَاها كَكُلَيْبٍ فَلَهُ جسَّاسُ رُمْح راصِدٌ بالطُّرق
لا بدَّ لي منها وإن تحصَّنتْ بِالأَبلق الفَرد وبالخَوَرْنَق
لا بد لي منها وان عثَرْتُ في ذَيْل الحُسام والسِّنَان الأزْرق
فإن ظفِرْتُ بالمُنَى من وَصْلِها بالَغتُ في صِيَانة العِرْض النَّقي
وإن بقِيتُ مثلَ ما كنتُ فلا زلتُ بغيضَ مَضجعي ونُمْرُقي
أشُنُّ كلَّ غارةٍ شعْوَآ على مَن يحْمِها في مِقْنَب أو فَيْلَق
وفي خَمِيس من خِيار يَعْرُبٍ ذوي رِماح وخيول سُبَّق
مِن أسرتِي بَني مُلوكٍ فهمُ اطوعُ لي من ساعدي ومَرْفِقي
سِل ابنَ خلدونَ علينا فلَنا بيَمَنٍ مآثرٌ لم تُمْحَق
وسَلْ سُليمانَ الكَلاعي[١] كم لنا من خبر بخَيْبَرٍ وخَنْدق
ويومَ بدْر وحُنَيْن وتَبُو كَ والسُّوَيق وبني المُصْطَلِق
بِهم فخَرتُ ثم زاد مَفخَري بأَدَبي الغضّ وحُسْن منطقي
وزان عِلمي أَدَبي فلَن ترى مَن شعرُه كشِعري المُتمَّق
فان مدحتُ فمديحي يُشتفَى به كمِثل العَسل المُروَّق
وان هَجَوْتُ فهِجائي كالشَّجي يقِفُ في الحلْق ومثل الشَّرَق
فبشِّرَنْ ذاك الحسودَ انه يظفَرُ في بحر الهجا بالغَرق

١ ــ هو عالم مشهور من مؤلفي السير له كتاب الا كتفا في سيرة المصطفى .

وقُلْ له اذا اشتكى من دنس … انتَ الذي سلكتَ نهجَ الزَّلَق
وقفتَ في الجُرأة خاصِي أسد … فمُتْ بغيظك وبالرِّيق اشْرَق
وما الذي دعاكَ يا خَبُّ الى … ذا الأُفْعُوان ذي اللسان الفَرَق[1]
نطقتَ بالزُّور أمَا كنتَ تعي … أَن البَلا مُوَكَّل بالمنطق
ولم تخفْ من شاعر مهما انتضى … سيفَ الهجا فَرى حِبالَ العنُق
فلْتَقِ نفسَك بكفِّك ولا … تسُم فَصيح النُّطق بالتمَشْدُق
فذاكَ خيرٌ لك واستَمِعْ الى … نُصْح الحكيم الماهر المدقِّق
فكُن مُهذَّبَ الطِّباع حافظاً … لِحكَم وأدب مُفتَرِق
وعاشِر الناسَ بخُلُق حسَنٍ … تُحمَدْ عليه زمَن التفرُّق
ولا تُصاحِبْ مَن يَرى لنفسه … فضلاً بلا فجزل وغيرَ المتَّقي
وكُلُّ من ليس له عليك مِن … فضل فلا تُطمِعْه بالتملُّق
وفوِّقَنْ سهمَ النُّمَيريِّ لِمَن … لِطُرق العلياء لم يُوفَّق
وافْعَلْ بمن تَرتَاب منه مثلَ فِعْ … ل المُتَلَمِّس اللبيب الحذِق
القى الصحيفةَ بنهْر حِيرَةٍ[2] … وقال يا بنَ هِنْد ارعُد وابرُق
ولا تَعِدْ بوَعد عُرقوبَ أخاً … وفِهْ وفاء سَمَوْأل[3] بالأبلق

---

١ ـ اي المفروق والفرق في لسان الحيات معروف .
٢ ـ الحيرة بأل واسقطها الشاعر ضرورة ، مدينة .
٣ ـ السموأل بأل واسقطها الشاعر ضرورة ايضاً .

شحَّ باذرُع امرىءِ القَيْس وقد ترك نَجْلَــه غسيلَ العَلَـــق
ومثـــل تجارٍ لابي دُوَّادَ لا تطمعْ به ان لم تكُن بالأَحمق
واحمد جليساً لا تخافُ شره وكابْن شوزٍ لن ترى من مُطْرِق
ونَمْ كنوْم الفَهْدِ او عَبُّودَ عن عيْب الورى والظنَّ لا تُحقق
ولْتَكُ ابصَر من الهُدهُد والزُّرْ قَا بعَيْب نفسِك المُحقَّـــق
وكُــن كمِثْل واسِطيٍّ غفْلةً عن شَتْم ضارِعٍ وعتْب سُقَق [١]
واعْدُ على رِجْلَيْ سُلَيْكٍ هارباً من قُرب كُلِّ خُنْبُق وسَهْوَق [٢]
وكُن نديمَ الفَرْقَدَيْن تَنجُ من مُنقِّص ومـــن طُرُوِّ الرَنَق
وكن كعَقْربٍ وضَبٍّ معَ مَن عليك قلْبُه امتَــلاَ بالحَنَق
تُمَّتَ لا تعْجل وكُنْ أبطأَ من غُرابِ نُوح او كَفِنْد المُوسِقي
مَضى لِنارٍ طالِباً بعدَ عامٍ جآ بِهــا يسُبُّ فرْطَ القلق
وخُذْ بثَارِك وكُن كمَن اتى بالجَيْش خَلْفَ شَجَرٍ ذي وَرَق
وانتهِز الفُرصةَ مثل بَيْهَسٍ وبالمُدَى لحْمَ العُداة شَرِّق
وكابنِ قَيْسٍ بِهِمُ كُن مُولِماً وَلِيمَــةً شهِيرةً . كالفَنْدَق

١ ــ الضارع الذليل والسقق المغتاب .
٢ ــ الخنبق البخيل والسهوق الكذاب .

يوم مِلاكِهِ بأُمِّ فَرْوَةٍ عرْقَب كلَّ ذاتِ اربعٍ لَقي

ولا تَدَعْ وان قدرتَ حيلة فهي اجلُّ عسكر مُدهْدِق

إن كان في سفك دم العِدا الشِّفا سفكُ دم البريء غيرُ أَلْيق

ولا تُحارِبْ ساقِط القَدر فكم من شَاهةٍ قد غُلِبت ببَيْذَق

وكم حُبارى أَمَّها صَقْرٌ فلم يظْفر بغير حتفه بالذَّرَق

وكم عيونٍ لأُسود دَمِيَتْ بالعَضّ من بُعوضها الملتصِق

والخُلْدُ قد مزَّقَ أَقوامَ سَبا وَهدَّ سُدّاً مُحكم التأنُّق

ولا تُنقِّصْ أَحداً فكلُّنا من رَجُل وأَصلُنا من علق

لا تُلزِم المرءَ عيوبَ أَصلِه فالمسكُ أَصلُه دمٌ في العنُق

والخمرُ مهما طَهُرتْ فبينها وبين أَصلِها بِحُكم فرّق

ولا تُوَيِّسْ طامعاً في رتبة لِمثلها نظيره لم يلْحق

فالزَّرْدُ يوم الغار لم يثبُتْ له فضلٌ وكان الفضلُ للخَدرْنَق [١]

وقَوْسُ حاجِبٍ برَهْنِها لدى كسْري اطمَأَنَّ قلبُه مما لَقِي

لا تغْشَ دارَ الظُّلْم واعلم أنها أخربُ من جوف حِمار خَلَق

ولا تَبِـعْ عِرْضَك بِيعَةَ أَبي غُبْشان بَيْـعَ الغَبْن والتبلْصُق [٢]

---

١ ـ اي العنكبوب .

٢ ـ اي الخديعة .

باعَ السّدانةَ قُصيّا آخذاً عِوَضاً نِحياً مِن أمّ زَنْبَق[1]

ولا تكُنْ كأشعَبِ فربما تلْحَقُ يوما وافِدَ المُحرّق

ولا تكُن كواو عمْرو زائداً في القوم أو كمثل نُونِ مُلحَق

لا ترجُوَنْ صفواً بغَيْر كَدَرِ فذا لَعمرُ اللهِ لم يتّفق

لا تكتُم الحقَّ وقُلْه مُعلِناً فهو جَمالُ صوتك الصَّهْصَلِق

وصِحْ به شِبْهَ شَبِيبٍ وأبي عُرْوَة والعبّاسِ عند الزَّعَق

لا تأمَنِ الدهرَ فان خَطْبه أرشقُ نبلاً من رُماة الحدَق

لا تنس من دُنياك حظّا والى كالطّلَقاني[2] والخَصِيب انطَلِق

واعضُل كهمّام بنات فكْرة ضَنّا بها عن غير فَحْلٍ مُعْرِق

كي لا تَقُولَ بلسان حالها مقالَ هِنْد ألْقِ مَن لم يَلِق

وسلْ مُهُور كِنْدَةٍ ان تُهْدِها لِذي ندىً كالبَحر في تدفق

لا تهجُ من لم يُعطِ واهجُ من اتى الى السَّراب بالدّلاء يستقي

وعُدْ لِما عُوِّدَت من بذْل اللُّها فالعودُ أحمَــدُ لكل مُمْلِق

ولا تَعُدْ لحرب مَنْ مَنَّ ولو مَنَّ[3] فما غَلَّ يداً كمُطْلِق

---

١ ـ من كنى الخمر .

٢ ـ هو الصاحب بن عباد .

٣ ـ اي الذي اعطى ولو اتبع العطاء بالمن .

والعَوْدُ يُخْتار على مَن كان كالـــمُختار أَو مَن كان ذا تَزَنْدُق
والصَّمتُ حصنٌ للفتى من الردى وقلَّ مَن شرَّ لِسانِهِ وُقِي
وان وجدتَ للكلام موضِعاً فكُن عَراراً فيهِ أَو كالأَشْدَق
لا تبْخَلنْ بردٍّ ما استَعرتَه كضَابيءٍ فالبُخْلُ شرٌّ مُوبِق
شحَّ برد كلْب صيْـــد وهجا أَربابَـــه ظلماً فلم يُصدَّق
ومـاتَ في سِجْن ابن عفَّان كما قضَى الإِلهُ مِيتَة المُحزْرَق[1]
ونجلُه من أَجلِه اجَلُه مِن سطْوَة الحجَّاج لم يكُنْ وُقي
واستُرْ عن الحسَّاد كلَّ نِعمة كم فاضِلٍ بكأْس مَكْرِهم سُقي
فصاعدٌ على مَديح وَرْدةٍ أَصبَح مُنحَطاً بقوْل سَهْوَق
وافخَر كفَخْر خالد بالعِير والنَّفير لا بِحُلَّة من سَرَق
واتخذ الصبْرَ دِلاصاً سابغاً وبمِجَنِّ عُمَر لا تَتَّق
وان حَملتَ رايَة الامر فكُن كجعفَر أَوْدَعْ ولا تَسْتَبِق
قد قُطِعتْ يداه يومَ مُوتَةٍ ولم يَدعْها لِكَمِيّ سوْحَق[2]
لكِنَّه احتضَنها لِحُبهـــا فيا لَه من سَيِّد مُوفَّق
وكن اذا استُنجِدتَ مثل مَن غزا أَرضَ العدا بكُل طِرْف أَبلَق[3]

---

١ ــ هو المحبوس المضيق عليه .

٢ ــ السوحق : الطويل .

٣ ــ يشير الى غزو المعتصم لأرض الروم بالخيل البلق وفتحه لعمورّية .

وسُمْ عدوَّ الدين بالخَسْف وكُن مثلَ أبي يُوسفَ ذي التخبُّقِ[1]
ردَّ كتابَ مَن دعاه للوغى منهم مُمزَّقا لِفَرْط الحَنَق
وقال إني لا أُجيب بسوى جَيْش عَرمْرَم وخَيْل دُلُق
وضرَب الفُسطاطَ في الحِين وقد أحاط جيْشُه بهم كالشَّوذَق
وكان ما قد أبصَرُوا من بأْسِه أبلَغ من جَوابِه المُشبْرَق
يا صاحِ واشغَلْ فُسحةَ العُمْر بما يَعْني وزُرْ غِبًّا رُسومَ العَيْهَق[2]
وابكِ على ذنْب وقلب قد قَسا كالصَّخْر من هواه لم يستفق
بمُقْلَةٍ كمُقْلَةِ الخنْسَاء اذْ بكَتْ على صخْر بلا ترفُّق
أو كبُكَا فارِعَةٍ على الوَليـ ـد وبُكاءِ خِنْدِف وخِرْنِق
أوْ كُن مُتمِّما بُكَا مُتمِّمٍ على الذنوب وارْجُ عفْوَ مُعتِق
وكُن خَمِيصَ البطن من زاد الرِّبا وخمرةَ التقوى اصطَبِحْ واغتَبِق
وحصِّل العلمَ وزِنْه بالتقى وسائِرَ الاوقات فيه استغْرِق
ولْيكُ قلبُك له افرغَ من حَجَّام ساباطَ ومَن لم يعشق
ولا تكُن من قومْ مُوسَى واصطَبِرْ لكَــدِّه وللملالِ طلِّــق
فالعلمُ في الدنيا وفي الاخرى له فضلٌ فبشِّر حِزبَه شرًّا وُقِي
واعْنَ بقول الشعر فالشعرُ كما لٌ للفتى ان به لم يَرْتَزِق

١ – أي الترفع ويريد به يعقوب المنصور الموحدي .
٢ – أي اللهو .

والشعرُ للمجد نِجادُ سيفِه وللعُلا كالعِقْد فوقَ العنُق

ولمحمد بن الطالب اليعقوبي الشنقيطي من ميميّته التي عارض بها ميمية حُمَيْد بن ثَوْر الهلالي :

أرانا لِصَرْف الدهر صَرْعَيْن[1] مُقْعَصاً
فَمُضْميً ومُنْميً إن تَخَطّاه أهْرَما

وما مات مَن أبقى ثناءً مخلَّدا وما عاش مَن قد عاش عيشا مُذمَّما

وما المجدُ الا الصبر في كل موطن وأن تَجشُم الهولَ العظيم تكرُّما

وما اللؤم الا أن يُرى المرء غابطاً لَئيماً لمالٍ في يَدَيْه إن اعْدَما

فذاك الذي كالموت في الناس عيشُه ومَن عدَّ مالاً مالَه كان ألأَما

وما الدهر الا بيْن لينٍ وشِدّة فمَن سُرَّ مسياً فيه أصبح مُرغَما

وما الحزم الا مِرَّةُ النَّفس تقتنَى لشدته من قبل أن تَتَحكَّما

وما العجز الا أن تلين لِمَسِّها فتضْجَر من قبل الرخاء وتَسأما

وليس الغنى الا اعتزازُ قناعة تُجلُّ أخاها أن يُذَلّ ويُشتَما

وما الفقر الا أن يُرى المرءُ ضارِعاً لنكبة دهر قد ألَمَّ فيقحما

وخيرُ الرجال المُجتَدي سيبُ كفه وأجرَأُهم عند الكريهة مَقْدَما

---

١ ــ اي ذوى حالين : اما مصاب مقتول واما موفر مبقى .

وشر الرجال كل خَبّ مُرامِقٍ اذا ما دعا الداعي لأمر تلعثما
تجنَّبْ صِحابَ السوء ما عشتَ انهم لَكَالجرْب يُعْدِينَ الصَّحيحَ المُسلَّما
وراعِ حُدودَ الله لا تتعدَّها وصغِّرْ وعَظِّمْ ما أهانَ وعظَّما
وَراعِ حُقوقَ الضيف والجار إنّه لَعمرُكَ أَوْصى أن يُبَرّ ويُكرَما
وان جَهِلَ الجهالُ فاحلُم وربما يكون عليك العارُ أن تتحلَّما
وبالحسَن ادْفَع سيئاً فاذا الذي يُعاديكَ كالمَوْلى الأَحَمِّ وأَرْحما
ولا تقربَنّ الظلمَ والبغي فاطَّرِحْ فغِبُّهما قد كان أَردَى وأَشأَما
وما اليُمْن الا البِرُّ والعدلُ والتقى وما الشؤْم الا أن تخونَ وتأْثَما

المدحُ والتهنئة والاستعطاف

لابن الزَّيتُوني من قصيدة في المعتضِد بن عبَّاد يَستنْجِزُه :

سفينةُ الوعد في بحر الرَّجا وقفَتْ فامنُنْ بِريحٍ من الإنجاز يُجْرِيها

وللقاضي ابي الحسن بن زِنْباع يُخاطب الفتحَ بنَ خاقان :

هوًى مُنجِدٌ يلقَى به الليلَ مُتْهِمُ يُصرِّح عنه الدمع وهو يُجَمْجِمُ
يَبِيتُ يُداري أَوْ يُدارِيءُ ما به ويَغْلِبُه امـــرُ الهوَى فيُسَلِّم
لأَجْفانِه من كل شوْقٍ مُؤَرِّقٌ ومِن أَيْنَ للمُشْتاق شيء يُنَوِّم
وليس الهوى ما الرأْيُ عنه مُزَحْزِحٌ
ولـكِنَّهُ ما الرأْيُ فيـــه مُقَحَّمُ
وأَعذَرُ أَهـل الحب كلٌّ مُدلَّهٍ يَرى أَنَّ مَن يُهدي له النصحَ أَلْوَم
وأَجلَدُ ابنـاءِ الزمـان مرزَّأٌ يُقاسِي خُطوبَ الدهر وهو مُتيم
ويَصعُب حملُ الهمّ والهمُّ مفردٌ فكيفَ تَرى في حَمْله وهو تَوْأَم
ولولا أَبُو نصْرٍ ولَذَّاتُ أُنْسِه تقَضَّت حياتي كلُّها وهي عَلْقَم

فتىً فتَح اللهُ المعارفَ باسْمِه ومن دونها بابٌ من الجهل مُبْهَم
تأَخّر في لفظ الزمـــان وإنّه بِمَعْناه في أعبـــائه مُتقدم
أَتوْا بالمعاني وهي دُرّ مُنظَّم وجاءَ بِها من أُفْقها وهي أَنجم
وما يَستوي في الحكم راقٍ وغائِصٌ لقد نالَ أسنى الرُّتبَة المُتَسنِّم
إليك أَبا نَصْر بَديهةَ خاطرٍ تَوالَى عليه الثِّقْل وهْو مُقسَّم
أَهبتُ بهِ للقول وهْوَ لِمَا بِه فلَبّى ولم يُسْعِدْه نُطق ولا فَمُ
وكم مِصْقَع لا يَرهب القول فعلُه ثَنَتْه خطوبٌ ما انثنت وهْو مُفْحَم
ولو لم يكُن إلّا وَداعُك وحدَه لأَشفَق منه يَذْبُلٌ ويَلَمْلَمُ
فما يَصْنعُ الانسانُ وهْو بِفَهْمه يُحِسُّ بأشتات الامور ويَفْهَم
وقد كُنتَ تُشكِيني من الدهر دائباً فقد صِرتُ أَشكُو منكَ ما أنت تعْلَم
عليك سلامٌ تَسْحَبُ الريحُ ذَيْلَه فيَعْبق منه كلُّ ما يُتنَسّم
وان لم يكُن الاّ وَداعٌ وفُرْقةٌ فانَّ فؤادي قَبلك المُتقَدّم

ولابن حَبُّوس يمدح عبد المؤمن وقد حلّ بالرباط :

أَلاَ أيُّهذا البحرُ جاوَرك البحرُ وخيَّم في أرجائك النفع والضرُّ
وجاشَ على أمواهِك العقلُ والحِجا وفاضَ على أعطافِك النهيُ والأَمر
وسال عليك البَرُّ خيلاً كُماتُها اذا حاولت غزْواً فقد وجب النَّصر
لعلك يُطغِيك اشتراكٌ سمعتَه فذلك بحرٌ لا يُشاكِله بحر

فأنتَ خديمُ الشمس والبدرِ عُنوةً وتخدُمه في أَمره الشمسُ والبدر
ويحْوِيكَ شطرُ الأَرضِ تعمُر بعضَه وفي صدْره الأَفلاكُ والبَحر والبَر
وقد وَسِعَ الأَيام جوداً ونَجْدةً وليس لما تأتي به عنده قَدْر
وما لك مِن معنىً تُشارِكُه به سوى خُدَعٍ في النطق زَخْرَفها الشِّعر
وما لكَ من شيءٍ يُشير الى التي تَفُوهُ بها الا السَّلاطَةُ والهَذْر
وليس اشتراكُ اللفظ يُوجِبُ مَدْحَةً
ولكِنَّه إن وافَقَ الخَبَرَ الخُبْرُ

وله فيه لما فتح مدينة بجاية وهي النَّاصِرية :

مَن القومُ بالغَرْب تُصْغِي الى حديثِهِمُ أُذُنُ المشْرق
جرَوْا والمنايَا الى غايةٍ فلم يَسْبِقوها ولم تَسْبقِ
بِأَيْديهمُ النارُ مشبوبةً فمهما تُصِبْ باطلًا تُحْرق
يقودُهُمُ مَلِكٌ أَرْوَعٌ تَفرَّد بالسُّؤْدَدِ المُطْلَق
تخيَّره اللهُ من آدمٍ فما زالَ مُنحدِراً يرْتَقي
الى الناصرية سِرْنا معاً ولَّما تفُتْنا ولم تَلْحق
إلى بَرْزَةٍ في ذُرَى أَرْعَنٍ تَجِلُّ عن السُّورِ والخَنْدق
يعوذُون منَّا بِموْلَاهُمُ ومولاهُمُ عاذَ بالزَّوْرَق

وأكْسَبَهُ خوفُه رِقَّةً فلو خاضَ في البحر لم يَغْرق

ولأبي العباس الجَرّاوي يهنىء يوسف بن عبد المؤمن بفتح :

عن أَمرِكُم يتصرَّفُ الثقلان وبِنَصْرِكُمْ يتعاقَبُ المَلَوان
وبما يسُوءُ عدوَّكُمْ ويسرُّكُم تتحرَّكُ الأَفلاكُ في الدَّوَرَان
جاهدتمُ في اللهِ حقَّ جِهاده ونهضتُمْ بحِمايةِ الإِيمان
وتركتمُ أَرضَ العِدا وقلوبُهم في غاية الرَّجفان والخفقان
وغزاهمُ الدينُ الحنيفيُّ الذي كُتِبَ الظهورُ له على الأَديان
كتَب الإِلهُ لكم فُتوحاً في العِدا هذا لها وسِواه كالعُنْوان
هذا مقامُ المصطفى يا فَوْزَ من حازَ النِّيابة فيه عن حَسَّان
مَن يعْرِفِ الرحمن حقّاً يعْتَرِفْ بحقُوقِه لخليفةِ الرَّحمان

وله يهنيه بإبْلاله من مرض :

سَتَمْلكُ أَرضَ مصرٍ والعِراقَا وتجري نحوَكَ الأُمم اسْتِباقا
اذا لم يتَّفِقْ رأيٌ ورأيٌ أَفادا في محبَّتك اتفاقا
صفا لك كلُّ قلب غيرُ صافٍ وزَحْزَح عن ضمائره النِّفاقا
وحقُّكُمُ ، وحقُّكم عظيم لقد حسُنَ الزمانُ بِكُم وراقا
وقد بلغ الوجودُ بكم مُناه وقد أَمِنَت عصا الدين انْشِقاقا

أَميرَ المؤْمنين ومَن عليه ... سَنا الإِسلام يأْتلِقُ ائْتِلاقا
ويا ملكاً أَحسَّت كل أرض ... الى أَرض أقام بها اشْتياقا
يحنُّ اليك يومٌ غيرُ آتٍ ... ويشكُو الذاهِبُ الماضي الفِراقا
شكوتَ فأَيُّ قلب غيرُ شاكٍ ... وأَيُّ العيْشِ لم يَمْرُرْ مَذاقا
ولولا عَطفَةُ الإِبلال كنّا ... بنارِ الوَجْد نَحترِقُ احترا قا

وله يهنئه بالعيد :

شمِلَت ببقائكمُ النعمُ ... وسمَت برجائكمُ الهِمم
وهمَتْ دِيَمٌ من راحتِكمْ ... هيهاتَ تُساجِلُها الدِيَمُ
وعنَت لعزائمكم عَرَبٌ ... تشقَى بصَوارِمِها العَجم
أُسْد تنقادُ الأُسْدُ لها ... بُهَم تنقادُ لها البُهَم[1]
حُمِدت شِيَمُ الأَيام بكم ... ولكم ذُمَّت منها الشِيَم
بهرتْ أَنوارُ خِلافَتِكم ... وسماءُ العلم بها عَلَم
فرأَى مَن ليس له بَصرٌ ... ووَعى مَن كان به صَمَم
وأَناف المجدُ على زُحَل ... وأتى بغرائبه الكَرَم
أَعيى البلغاءَ مقامُكمُ ... ولو ان مَقالَهُمُ حِكَم

---

١ ـ جمع بهمة وهو الشجاع الذي يستبهم مأتاه على اقرانه .

أَأَلعِيــدُ أحقُّ بتَهْنِئَة فله بِكُمُ فخْرٌ عَمَم
دمتُمْ والكلُّ يلوذُ بكُمْ مِن صَرْف الدَّهر ويَعْتَصِم

وله في يعقوب المنصور عند تقبُّضِه على الثَّائر الجزيري :

قضَى لك اللهُ بالتأْييد والظفَر وبالسعادة في ورْد وفي صَدَر
آثرتَ في نُصْرة الدين المَسيرعلى طِيب المُقام وبِعْتَ النومَ بالسهَر
مُظفَّر ما لِمَغْرُور يُطالِبُه في الأَرض من مَلْجأ عنه ولا وَزَر
جدَّ الجزيريُّ في إتلاف مُهْجته حتى تورَّط في أُحْبولَة القَدر
نارٌ من الفِتْنة العَمْياء أَطفأَها سعدُ الإمام وحدّ الصَّارم الذَّكَر
ما زالَ إبليسُ في الأَقطار يُوقظُها وتَرْتَمي من شِرار الخلق بالشَّرر
زاد الشقيُّ على الخُفَّاش مُشْبِهه ضُعْفَ البَصيرة إذ ساوَاه في البَصَر
جارَى إلى سقَرٍ أَصحابَه فهَوَوْا فيها سِراعاً ووَافاهم على الأَثَر
إنَّ الذي اتَّخذ الأَهْواءَ آلِهَةً على الضَّلال مُصِرٌّ غير مُزْدَجر
والوعظُ في النَّاس مقبولٌ ومُطَّرَح كالخطِّ في الماءِ أَوكالنَّقْش في الحَجر

وله فيه عند إيابه من غزوته الأُولى للأَندلس :

إيابُ الإمام حياةُ الأُمَمْ تَوالَى السُّرورُ به وانتظَمْ
وجادَ به الأَرضَ صَوْبُ الحَيا وجلَّى الظلامَ به بدرُ تَمّ

فشُكْراً لِخَيْلٍ وفُلْكٍ دَنَتْ بِمُسْتَأْصِلِ الظُّلْمِ مَاحِي الظُّلَمْ
إذا حَــلَّ في بلدةٍ أَمْرَعَتْ فطابَ جَناها وفاحَ الْمَشَمّْ
وقامَ بأَقْطارِهــا عَدْلُه وصَوْبُ نَداهُ مقامَ الدِّيَمْ
إذا الخطْبُ جَيَّشَ نحوَ الورى تَصدَّى له عزْمُه فانهزَمْ
سلِ الدهرَ عن بطْشِه بالعِدا تُجِبْ من وراء الدُّروبِ العَجَمْ
فتُوحٌ عِظامٌ جَناها الزَّمــانُ لِذي هِمَمٍ دُونَهُنَّ الهِمَمْ
نصيحَتُــكم يا مُلوكَ الوَرَى نَصيحَةَ مَــن ليس بالْمُتَّهَمْ
أَنيبُــوا اليــه ولُوذُوا بــه تفُوزُوا وأَلْقُوا اليه السَّلَمْ

وله فيه بمناسبة استقلاله من مرض :

بُرْءُ الامامِ حياةُ الخلقِ كلِّهِم عَمَّ السرورُ به وانثالتِ النعمُ
شكَا فلا مُقْلَةٌ إلا أَضرَّ بها سُقْمٌ ولا قَلْبَ الا شفَّه أَلمُ
تجهَّم الدهرُ لَمّا أن شكا وبَدا بِبُرْئِه وهْو طَلْقُ الوَجْهِ مُبتَسِمُ
صحَّت بصحته الآمالُ وانتعشَتْ وزاحمت زُحَلًا في أُفْقِه الهِمَمُ
أَفاضَ عدلًا على الدنيا وأَلبَسها نوراً فلم يَبْقَ لا ظُلْمٌ ولا ظُلَمُ
وبثَّ في كل إقليمٍ هُدًى ونَدًى فليس يوجد لا جهْلٌ ولا عَدَمُ

لولا سِياسَتُه ما كان مُلْتَئِماً ... شَعْثٌ ولا كانت الأَسبابُ تنتظم

والله يختص أقواماً بِرَحْمتـــه ... تجري بحكمته الأَرزاقُ والقِسَم

حاطَ الإِلهُ لنصر الدين مُهجتَه ... وعُوفيت تلكمُ الأَخلاق والشِّيَم

والامير سليمان الموحدي يُخاطب المنصور عندوُفود العرب والغُزّ من بلاد المشرق عليه وكان هو بحال هَجْر فرضي عنه وقرَّبه :

يا كعبةَ الجود التي حجَّتْ لها ... عَرَبُ الشَّآم وغُزُّها والدَّيلَمُ

طُوبى لمن أَمْسى يطوفُ بها غداً ... ويَحُلّ بالبَيْت الحرام ويُحْرِم

ومن العجائب أَن يفوزَ بنظْرة ... مَن بِالشَّآم ومَن بِمكَّة يُحْرَم

ولميمون الخطَّابي في مدح سيد الوُجود :

حَقيقٌ عَلَيْنا أَن نُجيبَ المَعالِيا ... لِنفْنِيَ في مَدْح الحَبِيب المَعانيا

ونَجْمعَ أَشتاتَ الأَعاريضِ حِسْبَةً [1] ... ونَحْشُر في ذاتِ الإِلهِ القَوافِيـــا

ونَقْتدَّ [2] للأَشْعار كلَّ كتِيبةٍ ... لنَصْر الهُدى والدِّين تُرْدي الأَعاديا

فأَلسنُ أَربابِ البَيان صَوارِمٌ ... مَضارِبُها تُنْسي السُّيوفَ المَواضِيا

١ ـ اي احتساباً واخلاصا لله .

٢ ـ اي نقود .

لِنُطْلِعَ من أَمداحِ احمدَ أَنْجُماً تلوح فتَجلو من سَناه الدَّياجيا
كَواكِبَ إيمانٍ تلُوح فيَهْتَدي بأَنْوارها مَن بات يُدْلِجُ سارِيا
سَهَوْتُ بِمَدْحِ الخَلْق دَهراً وهذه سُجودٌ لِجَبْري كلَّ ما كنتُ ساهيا
فلا مَدْحَ الا للذي بِمَديحِه تُطيعُ اذا ما كُنتَ بالمَدْح عاصيا

* * *

رسُولٌ بَرَاهُ اللهُ من صَفْوِ نُورِه وأَلْبَسَه بُرْداً من النُّور ضافيا
وما زالَ ذاكَ النورُ من عَهْد آدمٍ يُنيرُ به اللهُ العصورَ الخَواليا
ثَوى في ظُهورِ الطيِّبين يصونُه وَديعةَ سِرٍّ صار بالبَعْث فاشِيا
وخَصَّ بُطونَ الطيِّبات لِحَمْله لِيَحْمِلَ فَرْعاً للسيادة زاكيا
به وَزَنَ اللهُ الخلائقَ كلَّهم فألفاهُ فيهم راجحَ الوَزْنِ وافيا
وأنقذَنا من نارِه بِظُهوره ولوْلاه كان الكلُّ بالكُفْر صاليا
وآدَمُ لمَّا خافَ يُزْري بذَنْبِه توَسَّل بالمُختار لله داعيا
فتابَ عليه اللهُ لمَّا دعا به وأَدْناه منه بعدَ ما كان نائيا
وقد يهجُر المحبوبُ في حالةِ الرِّضا ويَأْبى الهوى أن لا يُصدِّقَ واشيا
(وعينُ الرِّضا عن كُلِّ عيبٍ كَليلةٌ ولكنَّ عينَ السُّخْطِ تُبْدي المَساويا)
وأدرَكَ نُوحاً في السفينة رَعْيُه فخَلَّصَه إذ كان فى الموجْ جاريا
وما زَالَ سامٍ وهْوَ ثاوٍ بظَهْره على أَخَوَيْه بالفضائل سامِيا

فخُصِّص حتى بالمكان كرامةً وأُسْكِن في أعلىَ البلاد مَراقيا
فأُنزِل حامٍ بالجَنُوب مُجانبا ويافِثُ في أَقصَى الشَّمال مُواريا
وأُنْزِل سامٍ للفضيلة وَحدَهُ بأوْسَط مَعْمُورِ البلادِ الأَعاليا
وبادَر جبريـلُ الخليلَ لأَجْله لِيَحْمِيَه اذْ أبْصَر الجمْرَ حامِيا
ويَخبُر في وقْتِ البَلاء يَقِينَه فصادفَ وِرْدَ الخُلَّة العذبَ صافيا
فقال له هل تسأَلَنَّ كفايـةً فجَاوبَه حسْبِي بِرَبِّي كَافيا
فكانت عليه النَّارُ بَرْداً كما أَتى بـه وسلاَماً وهْيَ نَارٌ كَما هيا
وجازَاهُ في الإسْرَاء عنها نَبِيُّنا وأَلْهمَها فوقَ السماوات سَارِيا
فلما انتَهى جبريـلُ عند مَقامه بحيثُ يَرى نوزاً وحُجْباً عواليا
أشارَ على المختار أنْ سِرْ فإنَّه مَقامي فلا اعْدُوه ما دمتُ باقيا
فنَاداهُ يا جبريلُ هل لكَ حاجةٌ إلى الله فأسأَ لْها لِتُعطَى الامانيا
فقال له سلْه لأَبسُط رغبـةً على النار منِّي للعُصاة جَناحيا
فدُلِّيَ في أُفق المهابه رَفْرَفٌ وزُجَّ بُراقُ العِزّ في النُّور رَاقيا
ومن أَجْله خصَّ الذبيحُ فِداءَه وفي ظَهْره المختارُ أصبح ثَاويا
فَـداه بِذبْـح عظَّم اللهُ شأنـه لأَنْ كانَ دهراً في الفرَادِيس راعيا
وثنَّى بعبد الله حامِل فضْلـه فكان بذاك الفرْع للأَصْل وَاقيا
لذلك ما قال الرسولُ مُنَبِّها أنا ابنُ ذَبِيحَيْها يعُدُّ المعاليا

وعفَّ ابُوه اذْ دعتْه لِنَفْسِها فتَاةٌ رأتْ نورَ النُّبوءة ضَاحيا
مضَى ولذاك النُّور بيْنَ جَبينه شعَاعُ سَناً يُعْشِي العُيونَ الرَّوانيا
فأَعرَضَ عنها ثم سَارَ لشأْنه وكانَ له الرحمانُ بالحِفْظ واقيا
وعادَ وقد أَدَّى امانةَ ربِّه لأُمَّته وعْداً منَ الله ماضِيا
ومرَّ على حيِّ الفتاة فنُودِيَتْ هَلُمِّي تُصادِفْ لوْعَةَ الحُب رَاقيا
فقالتْ لهُم قد كانَ ذلك مُدةً لأَمْرٍ عصَيْنَا في هَواه النَّواهيا
اردتُ بان أُعطَى سَناه وقد مضَى لَعَمْري به مَن كانَ بالحق قاضِيا
وكم طالبٍ ما لا يُنَال وقاعدٍ سعادتُه تُبدي له السُّؤْل دانيا

* * *

وكَم شاهدتْ من آيةٍ امُّه به يَصيرُ بِها جِيدُ الديَانة حالِيا
رأتْ في مَعاليه مَرائِيَ جَمَّةً وصدَّقت الاثارُ منه المَرائيا
وقيل لها بُشراكِ فُزتِ بخَيْر من يُرى فوقَ أَكنافِ البسيطة ماشيا
وحفَّت به الاملاكُ في حين وَضْعه بَليْلةِ إِفْضالٍ تَزِينُ اللياليا
وبشَّر رضوانُ الجِنانَ بخَلْقه ففَتَّح جناتِ النعيم الثَّمانيا
ونادَى مُنادي العزِّ طوفوا بأَحمدٍ جِهاتِ الدُّنا طُرّاً وعُمُّوا النواحيا
بَدا واضِعاً كفَّيْه بالارض رافعاً لِعَيْنَيْه نحوَ الأُفْق بالطرْف ساميا
وأعْوَلَ ابليسُ اللَّعينُ وقال قد يَئِسْتُ وقِدْماً كنتُ للكُفْر راجيا

وسار الى صَنْعاءَ شيْبَةُ جَدِّه فحل محلاّ للوفـادة تَاصيا

وحيّا بغُمْدانَ ابنَ ذي يَزَنٍ بها وهنّأه بالُملْك اذ عَاد وَاليا

فقرَّبه دون الوُفود وخصّه لِيَسْمع قولاً في الرِّسالة شَافيا

وقال له انا وَجَدْنا بكُتْبِنا نَبِيّاً يُرى في نحو أَرْضِك دانيا

يمُوتُ أَبــوه ثمَّ تهلِكُ امُّـه ويكفُلُه بعضُ العُمُومَةِ كافيا

وقال له والبَيْتِ ذي الُحجْبِ زارَه وفودُ الوَرى جابُوا اليه الفيافيا

لأنتَ على ما يَقْتَضِي الوعدُ جدُّه فَشيِّدْ به للمَجد ما كنتَ بانيا

وقال له احفَظْ ما اقولُ فانَّه سيَمْلِكُ ارضي اذ أرى الُملْك واهيا

وقَوْلُ هِرَقْلٍ اذا أَظلَّ زَمانُه يقولُ أَرى مُلْكَ الِختَان مُوافيا

وطالَع فيه مُصْحَفَ الأُفْق ناظِراً كما زَعَمُوه يَسْتَشيرُ الدَّراريا

فلم تَنقَضِ الأَيامُ حتى أَتى له كتابُ رَسُول الله للحَقِّ داعيا

فبَاحَث عنه اهلَ مكَّة سائِلاً وكانَ بأَوْصافِ النُّبُوءَة داريا

ولبَّى الُهدى لمَّا دعَاه تَجاهُله وهَـام قليلاً ثم أُلْفِيَ سالِيا

ووِرْدُ الرِّضى لا يَهْتَدي لسبيله فيَرْوى به مَن كان في البَدْءِ صاديا

وإيوانُ كِسرى اهْتَزَّ ليلَةَ وَضْعِه وباتَ عليـه قصْره مُتداعيا

وزادَ بِرُؤْيا الُموبَذَان[1] ارْتِياعُه فأَذْهَلَه أَن يَسْتَبِين المساعيا

---

١ ـ الموبذان عند الفرس هو القاضي الكبير ورؤياه مذكورة في كتب السيرة.

وفسّرها شِقٌّ[١] وشَقَّ غُبارَه ... سَطيحٌ بسَجْعٍ قصَّ ما كان رائيا
فنَصَّ على إرْسالِ احمَدَ مُثْبِتاً ... لدينِ الهدى بالرغم للكُفْرِ ماحيا
وأُخمِدَت النيرانُ نيرانُ فارسٍ ... وكانت تَلَظَّى الفَ عامٍ تَواليا

* * *

وحُمِّل ذاكَ الحِلْمُ حِجْرَ حَليمَةٍ ... لِتُرْضِعَه دَرَّ الفَضائل صافيا
أَبى حملَه النِّسوانُ لليُتْم وانبَرَتْ ... له فرأَتْ من حينها الرِّزْقَ ناميا
فحازَتْ به السبقَ الأَتانُ[٢] كرامة ... وأَخصَبَ مرْعاها ففاق المَراعيا
وشارِفُها[٣] اذ لا تبِضُّ بقَطْرة ... فصارت به ثَجّاً تُرَوِّي الصَّواديا
وفي حَيِّها وافاهُ جبريلُ قاصداً ... وأَقبلَ مِيكائِيل بالأَمرِ تاليا
فشَقَّا به صَدْرَ النبي لِشَرْحه ... فكان لِما يُلْقى له اللهُ واعيا
وردَّه في الحينِ الْتِئاماً فما تَرى ... سِوى أَثرٍ ما زال للشَّرْحِ باقيا
وجاءا بمَنْديلٍ وطَسْتٍ ليَغْسِلا ... بماءِ الرِّضا قلْباً عن الله راضيا
وعادَ أَخوه[٤] فازِعاً مُخبِراً بما ... جَرى من مَخُوفٍ كان للأَمْرِ جاريا

---

١ – شق وسطيح من كهان العرب ، وقد فسرا رؤيا الموبذان بظهور النبي العربي .
٢ – يعني أتان حليمة .
٣ – الشارف الناقة المسنة .
٤ – يعني من الرضاعة .

فسارَتْ به من حينه نحو أُمّه تخافُ عليه إن أقام العَوادِيا
وما زال مَحْرُوساً أَمِيناً مُؤَمَّناً سَبُوقا صَدوقاً سامِيَ القَدْرِ عاليا
حَيِيّاً وَفِيّاً خاشِعاً مُتَواضِعاً كَرِيماً حَليماً يَسْتَفِزُّ الرَّوَاسِيا
وفي سَيْرِهِ للشّام شامَ بِقُرْبه بُروقَ الهُدى مَن لم يكُن قط رائيا
أَكَبَّ عليه في طريق مَسيره بِدَيْر بَحِيرا [1] للهُدى مُتَراميا
ولمّا رأى تلكَ العلامَةَ لم يَزَلْ لِمَا وافقَ الكُتْبَ القديمَةَ باكيا
وكانتْ به مِن عِلَّة الشَّوق غُلَّةً فساقَ له منها الطبيبَ المُداوِيا
وقِصَّتُه في ذا المَجاز وعَمُّه به ظَمأٌ قد صَيَّرَ الصبرَ فانيا
فأهْوَى ولا ماءٌ إلى الأرض راكِضاً ففجَّر يَنْبوعاً من الماءِ جاريا
وكم بانَ مِن يُسْر لِمَيْسَرةٍ [2] بهِ يَرُدُّ أخا سُكْرِ الغَواية صَاحِيا
فكان إذا اشْتَدَّ الهَجِيرُ أَظَلَّه غَمامٌ عليْه لا يَزالُ مُماشِيا
وأخبَره نسطورُ بُصْرى [3] بِبَعْثه فأظهَر مِن غَيْب الرِّسالة خافيا

* * *

وبُغِّضَت الاصنامُ للمصطفَى فلَمْ يَزَلْ هاجِراً فِعْلَ الضَّلالَة قالِيا

---

١ ـ هو راهب نصراني رأى النبيّ ﷺ في رحلته الأولى إلى الشام فعرفه بعلامة النبوّة .

٢ ـ هو غلام خديجة وكان صحبه (ص) في سفره بتجارتها الى الشام .

٣ ـ هو راهب نصراني آخر ، رأى النبي (ص) في سفره الثاني للشام فبشّر ميسرة ببعثه

وكان يَرى ضوءاً يلوح لِعَيْنِه ويسمَعُ تسْليما عليـــه مُحاذِيا
ويأتي حِراءَ للتحنُّث قاصِداً مُحِباً لأَسباب الوِصال مُراعيـاً
ويخرُجُ من بيْن البُيوت لعلَّه يُحدِّث عنه النفسَ في السِّر خاليا
وكان رآه اللهُ أكرمَ خَلْقِه فأرسلَه بالحق للحق هــــاديا
وأسرى به ليلًا الى حَضْرة العُلا فما زالَ فيها للحبيب مُناجِيـا
وسارَ على ظهْر البُرَاقِ كرامَـةً له رَاكباً اذ سار جِبْرِيلُ ماشيا
ولما أتاهُ الوَحيُ وارتاعَ قلْبُـه لِشِدَّة مـــا قد كان منه مُلاقيا
فسارتْ به عمْداً خديجةُ زَوْجُه لتسأل حبْراً بالزْمانـــة فانِيا
وكان امرأً قدمارَس الكُتْبَ قارِئاً وباتَ لضِيفانِ المعارف قاريـا
فبشَّره أن سوفَ يطلُع صبْحُـه فيكْشِفُ من لَيْل الغَواية داجيـا
وقال له يا ليتَني كنتُ حاضِراً بها جَذعاً أُوليك نَفسي وماليـا
ووَقْتُك إن يُدرِكْ زَماني يومَه ومَن لي بِه أنصُرْكَ نصْراً مُواليـا

* * *

وآيَتُه في الغار اذْ نَزَلا به وكان له الصِّديقُ بالصدق ثانيـا
وقد أرسلَ اللهُ الحمامَ وشيَّدتْ من النُّسْج أيدي العنكبوت مبانيا
فدافَـعَ عـن صديقـه ورَسُولِه بأَضْعَف أَسبابِ الوُجود مُقَاويا
وكم آيةٍ خصَّت سُراقَةَ اذ مشى على أَثَرِ المُخْتار للغار قَافيـا

فشاهَدَ آثاراً من الخَسْف كاد أن يكُون لَقارُون السِّفاهِ مُواخيا
ولما دعَــا بالهاشِميّ أَجارَه فأبصَره في الحِين مِن ذاك ناجيا
وأَصحَبه منهُ ظِهــيراً مُكَرَّماً بخَطّ أَبي بكْر يُخيفُ الدَّواهيا
وأَخبرَه أن سوْف يفْتَح أَمرُه مدائنَ كِسْرى والبلادَ الأَقاصيا
ويُجعَل في كفَّيْه من بعد فتْحها سِواراه ممَّا يُحْرِزُ الدِّينُ ساميا
فأَخّرَها الفاروقُ في حين فَتْحها له عِدَةً بالصــدق فيها مُباهيا
وآيَتُهُ في خيْمَتَيْ أُمِّ مَعْبَدٍ وفي الشّاة اذ لم تَبْقَ تَصحَبُ راعيا
وفي الذِّيب اذْ أقْعى وأَخبرَ مفْصِحاً عن المُصطفَى والذيب ما زال عاويا
وفي الضَّبِّ لمَّا أَن دَعاه أَجابه وقال له لبَّيْك لبَّيْك داعيا
وآيتُه اذ فارَق الجِذْعَ فضلُه فحنَّ اليه الجِذْعُ بالحال شاكيا
وإنَّ انْشِقاق البَدْرِ أَعظمُ آية تدلُّ على مَن كان للدِّين راويا
وفي الجمَل الآتي بحَضْرة صَحْبه لِيَشكوَ تكليفَ المشقّة راغيا
وقِصَّتُه في المَحْل لمَّا دعا لهُمْ فأبصَرْت سُحْباً كالجبال هَوَامِيا
وسالَ به وادي قَنــاةَ لأَجْلِه ثلاثين يوماً لم يزل مُتَواليا
وفي قصَّة الزَّوْراء للخَلْق آية وذِكْرى لعِبدٍ كان للذكر نَاسيا
دعا بِإناءٍ ليس ينْقَعُ مَاؤُه لِقلَّته بالريِّ مَن كان صــاديا
ففاضَ نَميرُ المــاءِ بين بنانه وكان وَضوءاً للكَتيبَة كافيا

وبَرَكْوَتِه يومَ الحُدَيْبِيَّة التي أفاضَ بها اللهُ البَنانَ سَواقِيا

وإشباعُه الجمَّ الغَفيرَ بقَبْضَةٍ من التَّمْر حتى شاهَدُوا التَّمْرَ باقيا

وإخبارُه بالشيْءِ من قبل كوْنِه فيأتي على النصِّ الذي قال حاكيا

فأخبر ذَا النُّورَيْن أنْ سَيُصيبُه على الامرِ بَلْوى تُعْقِبُ الامرَ واهيا

وأخبَر عمّاراً بأن حيـاتَـه سيَقْطَعُها بالقَتْل مَن كان باغيا

وقال لذِي السِّبْطَيْن أشقَى الورَى الذي

سيَخْضِبُها مِن هَامَـة الرَّأس داميا

يُصادِفُ نورَ الشيْبِ أبيضَ ناصِعا فيَسْقِيه صِرْفُ الحَتْف احمَرَ قانيا

ونصَّ على السِّبْط الشهيدِ بكَرْبَلاء فقام له الدينُ الحَنيفِيُّ ناعيـا

وفي الحَسَن الزاكِي أبانَ بأنـه سيُصْلِحُ بَيْنَ الناس للأجرِ ناويا

وقال لقومٍ [١] ان آخِرَكُم بها مَماتاً سيصْلَى فاحِمَ الجمر حامِيا

وقال اذا ما ماتَ كِسْرى فما ترى سَمِيّاً له أُخرَى الليـالي مُسامِيا

وأخبر عن موْتِ النَّجاشيِّ حِينَه وبينَهما موْجٌ من البحر طاميا

وقال على قُرْب الحِمام لبِنْتِه تَمُوتين بَعْدي فافرَحي بلقائيا

وآيته جلَّتْ عن العدِّ كَثْرةً فما تبلُغ الاقوالُ منها تَناهيا

---

١ – يعني من الصحابة : آخرُكم موتاً في النار ، فكان بعضهم يسأل عن بعض ، وكان سَمُرَةُ بنُ جُنْدُب آخرَهم موتاً ، اصطلى بالنار فاحترق .

وأعظمُها الوحيُ الذي خصَّه به فبلَّغ عنه آمراً فيــه ناهيـا
تحدَّى بـه أَهلَ البيان بأَسْرِهم فكلُّهم أَلفَاه بالعَجْز وانيـا
وجاءَ به وحْياً صرِيحاً يَزيدُه مرُورُ الليالي جِدَّةً وتَعاليـا
تضمَّن أَحكامَ الوُجود بأَسْرِها وعمَّ القضايا مُثْبِتاً فيه نافيا
وأَخبرَ عما كان أَو هو كائنٌ يُرى ماضِياً أَوْما يُرى بعدُ آتيا
ووافق أَخبارَ النبيئين كلِّهم وتَمَّمَ بالغـــايات منها المبَاديا
وما كتَبتْ يُمناه قطُّ صحيفةً ولا رِيءَ يوما للصَّحائِف تاليا
عليه سلامُ الله لا زَال رائحاً عليه مَدَى الأَيام حقًّا وغادِيا

ولمالك بن المرحل يهنيء المنصورَ المريني بفتح مراكش :

فتحٌ تبسَّمت الاكوانُ عنه فَما رأيتَ أملَح منه مَبْسِماً وفَمـا
فتح كما فتَح البستانُ زهرتَـه ورجَّع الطيرُ في أفنانـه نَغما
فتح كما انشقَّ صبحٌ في قميص دُجىً
وطرَّفَ البرقُ في أَرْدَانِـه علَمـا
اضحت له جنةُ الرضوان قد فُتِحت أَبوابُها وفؤادُ الدين قد نَعِما
الحمدُ لله هذا ما وُعِدْتَ بـه يا خيرَ مَن وَلِيَ الدنيا ومَن حكما
لن يُخْلِفَ اللهُ وعدًا كانَ وَاعدَه
فاشكُرْ يضاعِفْ لك الحَظَّ الذي قَسِما

بفتْح مرّاكُش عمَّ السرورُ فما   يكَابِدُ الغَمَّ الا قلْبُ مَن ظَلما
حبا بها اللهُ مولانا الاميرَ كما   حبا أَباه فأَسْنى فتْحُها لَهُما
فلم يزل سعْده المأْلوفُ متَّصلا   بسَعْد والِده المنصورِ مُنتظما
فدولةُ الدين والدنيا قد اختلَفتْ   في الفتح والنصر والتأييد بَيْنهما
أفاقَت الارضُ من نوم بها وَصَحَتْ
وأصبحَت وهْيَ تَلْجِي الشُّكْرَ والْحُلُما
لما رأَتْ رايةَ السلطان قد رُفِعَت   في أُفْقها قَرعَتْ اسنانَها ندما
فاسْتقْطَفَتْ منه قوْلًا من سَجيَّته   أَن يحقِرَ الذَّنب والعُوارَ إن عَظُما
مِن سُنة الله ان يُحيى خليقَته   على يَدَيْك وأن يَكْفِيَها النِّقَما
وأَن يُقيمَ بك الاسلامَ من أَوَدٍ   وأَن يُديمَ بك الاحسانَ والنعما
وأَن يُقِرَّ عيونَ المسلمين وأن
يَشْفِي الصدورَ وان يُبْرِي بِك السَّقَما
بُشْراكَ يا مالكَ الدنيا وحافظَها   فأَنت أَفضلُ مَن آوَى ومَن رَحِما
إنَّا نسَخْنا مَعالِيكَ التي رَأَفت   فلم نَر البأْس فيها بُزَّ للكُرما
كما نظَرْنا الى يُمْنَاكَ من كَثب   فلم تَرَ السَّيْفَ فيها يُسْلِمْ القَلَما
لله منك مليكٌ لا نَظِيرَ له   لولاكَ كان وُجود الدين قد عُدِما
مَلْك بصيرٌ بأَدواء الامور له   رأْيٌ نجيح وطِبٌّ يذْهِبُ الأَلَما
عدلُ الحكومة ماضِي العَزْم معتدل   كالرِّيح يُمْضي بعَدْل كلَّما عزَما

سيفٌ وسيبٌ وعدلٌ بعد مقدُرةٍ وبطْشَةٌ وَأَنَاةٌ تجمَع الحِكَما

ان غابَ عنك فان الأُذْن شاهِدةٌ

وان تُشاهِـدْه لم ينطِقْ وقـد فَهِما

اللهُ أعطاه عِلْماً من لَدُنْـه فلم يحتَجْ الى أحدٍ في عِلْم مَن عَلِما

ومَن تخيَّره للدين خالِقُـه أَعطاه نوراً يُجَلِّي الظُّلْمَ والظُّلَما

سُبحانَ مَن بِجَميع الفَضْل أفرَده ومَن حباه السجايا الغُرَّ والشِّيما

فلِلْورى أن يقولوُا عند رؤْيته ما كان ذا بشراً بل مَلْأَكاً كَرُما

مولايَ يهنِيك ما أُعْطِيتَ من ظَفَر على عِداً أصبَحُوا في حَيْرةٍ وعَمي

وعن قريب الى يُمناكَ مَرجِعُهم فلا يُجازَى امرؤٌ الا بما جَرَما

أين المفرُّ وخيلُ الله تطلبُهم لا يعصِمُ اللهُ منهم غيرَ من رُحِما

كم من مُصِرّ يُلاقي ما جنت يَدُه وتائِبٍ آئبٍ بالتوبة اعتَصما

أنت الامامُ لبعض السهْوِ تحْمِلُه وبعضُه يُحبِط الاعمالَ والحُرَما

وقد كفَى الله كف الخائِنين وقد أَقال عثْرةَ من أَخطَآ وقد رَجَما

يا بنتَ فِكْري ضَعِي عنِك النِّقاب اذا

بلَغْتِ حضْرتَـه ثم انشُري النُّظُما

وذكِّريه فان الذكرَ منفعةٌ وذاكَ في مُحْكَم التنزيل قد رُسِما

مِن عبْدِه مالكٍ مملوكِ دولَته على القديم ويرعَى السيدُ القُدَما

ولابي جعفر الجنَّان المكناسي يُهنِّي نَقِهاً من مرض :

إِلْبَسِ الصحة بُرْداً قَشِيباً وارشُف النِّعمةَ ثَغْراً شَنيبا
واقطِف الآمال زَهْراً نضيراً واعطِف الإِقْبال غُصْناً رَطيبا
إن يكُن ساءَك وَعْكٌ تقضَّى تَجِد الأَجرَ عظيماً رَحيبا
فانتَعِشْ دهرَك ذا في سُرور يُصبِح الحاسدُ منك كَئِيبا

وللعلامة ابن هانيء السَّبتي مُراجِعاً أَبا القاسم الشريف عن شعر بعثه اليه من نفس الوَزْن والرَّوي:

لولا مَشِيبٌ بفَوْدي للفُؤَاد عصَى أَنضَيْتُ في مَهْمَه التَّشْبِيب لي قُلُصا
واستوقفتْ عبرَاتي وهْي جارِيةٌ وكْفاءَ تدْهَم ربعاً للحبيب قَصا
مُسائلاً عن لياليه التي انتهزَت أَيْدِي الأَماني بها ما شِئْته فُرَصا
وكنتُ جاريتُ فيه منْجَرى طلَقاً مِن الاجادة لم يَجْمَح ولا نَكصَا
أَصابَ شاكلَة المَرْمِيّ حين رَمى من الشَّوارد ما لولاه ما اقْتُنِصا
ومَن أَعدَّ مكانَ النبل نبْلَ حِجى لم يَرْض الا بأَبْكار النُّهى قَنصا
ثم انثَنى ثانِياً عِطْفَ النسيب الى مدْح به قد غلاَ ما كان قد رَخُصا
فظلتُ أَرفُل فيها لِبْسةً شرُفَتْ ذاتاً ومُنتَسَباً أَعْزِزْ بها قُمُصا
يقُول فيها وقد خُوِّلتُ مِنْحَتها وجُرِّعَ الكاشحُ المُغْرى بها غُصَصا

هذي عقائِلُ وافتْ منك ذا شرف لولا أياديه بِيعَ الحَمْدُ مُرتَخَصا
فقلتُ هلاّ عكَستَ القول منك له ولم يكن قابلاً في مدحه الرُّخصَا
وقلتُ ذي بِكْرُ فِكْرٍ من أخي شَرَف
يُردِي ويُرضي بها الحُسَّاد والخُلصا
لها حُلىً حسَنِيَّاتٌ على حُللٍ حُسْنِيَّةٍ تَسْتبي مَن حَلَّ أو شَخَصا
خوَّلتُها وقد اعتزَّت ملابِسُها بالبَخْت ينقاد للانسان ما عَوِصا
خُذْها أبا قاسِمٍ مني نتيجةَ ذي وُدٍّ اذا شِيبَ وُدٌّ للورى خَلَصا
جاءت تُجاوِبُ عمَّا قد بعثْتَ به ان كنتَ تأخذ من دُرِّ النّحور حصَى

ولابن عبد المنَّان في أبي عِنان المَريني حين ظفَره بالثائر أبي مَهْدي:

مُحيَّاك أبهى لا الهلالُ ولا البدر وريقُك أشهَى لا الزُّلال ولا الخمر
ولحظُك أنكَى لا البواتِرُ تُنتَضى وعرْفُك أذكى لا الأزاهِرُ تفترّ
أيا مَلِك القَلْب الذي جارَ في الهوى عليْه ترفَّق رُبَّما وَهنَ الصبْر
ويا باخِلاً حتى بطَيْف خيالـه نشَدتُك هل في الطَّيْف تَبعثُه وِزْر
أَعندَك أَنِّي منذُ أَضمَرْتَ هَجْرةً
هجَرتُ الكَرى سُهْداً سوى سِنَةٍ تعْرُو
ولم يُبْق مني السُّقْمُ الا صُبابةً بِحُكم الهوى العُذْرِي عندَ الهوى عُذْر

أَلِفتُ الهوى حتى اسْتلَنْتُ صِعَابَه   وحتى تساوَى عندِيَ الحُلْوُ والمر
وقال وُشاةُ الحب: سِحْرٌ أصابَه   فهل علِموا مِن لَحْظ مَن ذلِك السِّحر
لك الخيرُ هذا نعت حالِيَ جملةً   وشرحاً فهل للعَطْف مِن بَعْدِهِ ذِكْر
بِنَفْسِيَ نَشْوَانُ المَعاطِف عاطفٌ   كغُصْن النَّقا كالظَّبْي خامَره ذُعْر
له الوُدُّ مني والخُلوص وعنْدَه   تجَنٍّ كما تهوَى المَلاحةُ أَوْ هَجْر
ألا إن إنْعام الخليفةِ فارسٍ   لنا الصفوُ منْ فَيَّاضِه وله الشكر
مليكُ ملوكِ الارض أوحدُها الذي   به علَت العلياءُ وافتخر الفخر
غمامُ النَّدى الهطالِ والجوُّ أغبرٌ   وليثُ الفِدا والبِيضُ قانِيَةٌ حُمْر
اذا ما تراءى البدرُ يوماً ووَجْهُه   تحيَّرت الأَبصارُ أَيُّهما البدر
تأخر عصراً في الملوك وإنه   اذا عُدَّ املاكُ الزمان له الصَّدر
إمامُ الهدى شكراً على النِّعم التي   يَضيقُ اذا عدَّدتُها العَدُّ والْحصر
لك الجودُ تُردي المارقين جنوده   باقطارهم من قبل ان تَمرَح الشقر[1]
وغاوٍ رنا في هُوَّة الملك قاذفاً   به البغيُ والرأي المضلل والغدر
أغار على الدين الحنيف يَهدُّ من   قواعده ما شاده القادة الغرُّ
ورام مراماً دونه النجمُ سارياً   ولم يدرِ جهلا انها المرتقى الوعر

١ - أي الخيل .

وهيهات يأبى اللهُ ذلك والعلى ودين الهدى والملك والبيض والسّمر
جنى ثمر الايمان بالبغي واعتدى يؤمّل جهلاً ان يؤيده الكفر
فيا عجباً بعـــد السعادة ناله شقاءٌ وبعد الربح حُمَّ له خُسر
سعى راشداً شطراً (من العمر) وافراً فلما تناهى السعي واكتمل العمر
عصى الله في الشطر الأَقلّ سفاهة ألا انه ذاك الذّراع أو الشبر
ورام غنى بالصفر أو سدَّ خلة وهيهات يُغني فقر ذي الخلة الصُّفر
وأمّل في أعدادِهم كتْمَ نَفْسِه وإضْمَارَها منعاً فأخرجها الجبر
لعلّك عيسَى رُمْت باسْمِك بِرَّهُم وما كُلُّ عيسى حظُّـه مِنهم البِر
دعوتَهم للغدر لّما تخِــذْته سَبِيلًا فقَالوا بدْعَةً أمْرهَا إمْرُ
فكانَ النَّصارى منكَ أوفى بذِمَّة وأكرَم عهداً إنَّ ذا لَهُوالوِزْر
لئن رمتَ دُنْيا أنتَ قاره نُها الذي
له الَحرثُ والأَنعام والَخيلُ والتِّبْرُ
وان كنتَ للأخرى جَنَحْتَ ـ ولم يكُن ـ
أعِدْ نظراً ان شئتَ ما هكذا الامر
أويْت الى تلك الرُّبا غير صالِح فأدركَك الطُّوفان وهو الظُّبا البُتْر
وجُردٌ كأمْثال الرّوابِي سَوانحٌ وغُلْبٌ كأُسْد الغاب يقدمُها النّصر
وسعدُ إمام يخدُم الدهرُ سعدَه وتجري بما يُومي به الأَنْجُم الزُّهر

١ — يعني النصارى وكان هذا الثائر قام بجبل طارق ولعله استعان بالاسبان.

ألا يا أميرَ المؤمنين الذي اهتدى ... بنُور هُداه الباهِر ٱلبَدْوُ والحَضْر
أطعتَ مليكَ الناس ربَّك فاغْتدى ... يُطِيعُك فيما رُمتَ مِن أمْرك الدهرُ
وأنتَ الذي جدَّدتَ بعْدَ دُروسِها ... مكارمَ قِدْماً كانَ أخلَقَها العَصْر
منَحْتَ فأوسَعْتَ البلادَ رغائباً ... ففي كل حَيٍّ حاتِمُ الجود أو عَمْرُو
تداعت لك الاملاكُ دُونَك رغبةً ... ولا نَجمَ يُستَهْدَى وقد طلَع الفجر
كأني بأقْطار البلاد مُنِيبِهــا ... ومَن لم يُنبْ قد قادَه الطوعُ والقَسْر
وأنّس أرْجَآ تُونسٍ أمرُك الذي ... هو العدلُ يُرضِي مَن له الخَلقُ والامر
وجاشَتْ ببطحَاها الجيوشُ وأصبحتْ ... تقُول بنُو العبَّاس قد فُتِحتْ مصر [١]
لَعَمْري لقد زِنْتَ الخلافةَ فاغتدت ... يُقصِّر عن أوصافها النظمُ والنثر
وراقت بك الدنيا جمالًا وبهجةً ... فإظلامُها صُبْح وإصْباحُها بِشْر
وأنجمُها حَلْيٌ ونَجْوى نسِيمها ... ثناءٌ بما تُولي وإيمــاضُها ثَغْر
ودُونكَها عذراءَ أجلُو عَرُوسَها ... عليك ومَرْجُوُّ القبول لها مَهْر
لها نَسبٌ في السِّحْر تعرِفُه النُّهَا ... وان قالت الاسماعُ والدُّها الشِّعْر
وهُنِّيت عيدَ النَّحر والفتحَ إنهُ ... لك العيدُ منه والعِدَا لهُم النَّحر

---

١ — هو تلميح لقول ابن هانيء :

تقول بنو العباس قد فتحت مصر ... فقل لبني العباس قد قضي الأمر

بقيتَ لدِين الله رِدْءاً وعِصْمةً فما غيرُ عَلْيَاك الزمانُ له ذُخْر

وللقاضي أبي عبدالله الفَشْتالي في أبي عِنَان أيضاً :

أيَا إماماً ندَى كَفَّيْه قد وَكَفا حسْبي اعتصامي بحبلٍ منكمُ وكَفى
وكيف أصرِفُ وجْهَ القصد عن ملِكٍ
ما صدَّ عني سنَا بِشْر ولا صَرفا
ما إنْ شكَوتُ بما أضنى تطلُّبُه الاَّ وَجدتُ به لي من ضَناي شِفَا
ولا وقَفتُ عَليه مُنتهى أَمَلي الا قضَى وطراً منه ومَا وقَفا
في كلِّ يومٍ له تجديدُ عارِفَة مهْما انقضَت هذه لهذه ائتَنَفا
وليس مِمَّن يرى انْ لا يُتيحَ يداً حتى يُقام له بِشُكْر ما سلَفا

ولمحمد بن أحمد الشَّبُوكي الفاسي يمدح أَبا فارس المَرينيِّ ويحرِّضه على الشيخ عامر بن محمد الهَنْتَاتي صاحب جبل هنَتاتَة لَمَّا خرَج عليه بابْن أخيه الملقَّب بالمُعْتمد :

أَبانَ في حبِّهِ ما قال عاذِلُه دمعٌ جرى فوق صَفْح الخدِّ هامِلُه
فبات من وَطْأة التَّفْريق ذا وَجَل يستَنْجِدُ الصبر عَوْناً وهو خاذِلُه
صبٌّ إذا ما بدا بالرَّقْمتَين له وَمِيضُ بَرْق الحِمى هاجت بلابِلُه
يبكي لِمَنْزِل أُنْسٍ بانَ آهِلُه وظَاعِنٍ عنه قد شطَّت مَنازِلُه
يا حُسْنَ عَصْر بهم قضَّيْتُه زمَناً رقَّت حواشيه اذ راقت أصائِلُه

كأنَّ صَوْبَ دموعي بَعْدَ بُعْدِهِم سَيْبُ المليك اذا وافاه سائله
عبد العزيز الذي عزَّت بدولته مهايعُ الحق وانجابت دلائله
وأَصْبح المُلْكُ في أَمْن وفي دَعَة من بعد ما كان غالَتْه غوائله
عادتْه بعدَ عناً منْه نَضارتُه فعادَ يانِعُـــه واشتَدَّ كاهِله
كالرَّوْض باكَره طَلٌّ على ظَماٍ وجـــادَه بعد ذاك الطَّلِ وابله
هو الامام الذي مَن أَمَّ ساحتَه جادت عليه بجَدْواهـــا أَنامله
ومن تَخلَّفَ جهلاً عن إِجابته سارتْ اليه على عِلْم صَواهِله
قل للذي عنه أَقْصَتْه جرائِمُه وعقَّلته عن الْعَلْيا مَعاقِله
زُرْ حضرَة الملك الميمونِ طالِعُه تحظى بما انتَ في دنياك آمِله
فطبعُه الصَّفْحُ والمعروف شِيمَتُه والحِلْم والصَّوْن والتقوى شمائله
وابْلِغ جميع العِدا أَنْ سوف يشمَلُهم
من الظُّبا كلُّ ماضي الحـــدِّ فاصله
هذا المليك أَتاهُم في كتائبه لِنَسْخ آجالهم تُنْضَى رواحِله
بكل خِرْقٍ(١) طويل الباع مُتَّئِد مُقَصِّرٍ عُمْرَ مَن تَلقَى مَناصله
وجَحْفَلٍ فيه سُمْر الخطِّ مُشرَعَةٌ قد حجَّبَتْ أَنْجُمَ الشِّعْرَى قساطِلُه(٢)
سيعلَمُ الغُمْر عُقْبَى ما جَناه اذا كلَّت مواضيه وانْقَضَّت كلاكِلُه

١ – الخرق : الكريم السخي .
٢ – جمع قسطل ، وهو الغبار الساطع في الحرب .

فانْهَضْ اليهم أَميرَ المسلمين فقد أُعطيتَ كلَّ المُنى فيما تُحاوِله
مَنْ ذا ينازِلُ جيشاً أَنت قائِدُه يوم الكريهة أَو مَن ذا يُناضِله
أَلا ترى المائِق الرِّعْديد حين عَتَا وأَضْمَر المكْرَ صادَتْه حبائِلُه
ظن الظَّنِينُ بأَنْ يَسْمُو ويَعْلوَ في دُنيا سَمَتْ وعلت فيها بواطِله
فغادرتْه الصِّعَادُ الزُّرْقُ مُنْجَدِلاً فوق الصَّعِيد تُنَاجِيه جَنَادله
دُنياه تضحَكُ من أَحواله عجباً به وفي الحَيِّ تبكيه أَرَامِلُه
فَليَهْنِ دينَ الهُدى من بَعد صَدْمتِه أَن أَنتَ يا ذا المُحيَّا الطَّلْق كافِلُه
لم يَنْتَصِبْ قطُّ في الدُّنيا لِواءُ عُلًى الاَّ ومن آل عبد الحق حَامِلُه
مولايَ مولايَ دُمْ ما عشتَ مصطحِباً عُلًى وفَخْراً وعِزًّا لا تُزَايِله
إِن سار جَيْشُك فالتَّأْييدُ يقدمه والنَّصْرُ عاجِله يقْفوه آجِلُه

ولسعيد بن علي الجُزُولي الحامِدي في محمد الشَّيْخ القائم السَّعْدي يذكر انتصاره على العدو بالسواحل الجنوبية .

لله ما غَضْبَةٌ هاجتْ فما تركَتْ للمسلمين بأَرض الشرك من وَطَر
فَعالُ مُنْتَقِم لله مُلْتَزِم في الله مُعْتَصِم بالله مُقْتَدِر
رُوح الخِلافةِ قُطْبٌ تَسْتَدِيرُ به رَحى المكارم بين البَدْوِ والحَضَر
زانَ الزمانَ بأَخلاق له شهِدَتْ بأَنَّ أَيَّامَه للدهر كالغُرَر
ناهِيكَ من شرَف يُنمَى الى حَسب عُدُوله بَيِّناتُ الوَحْي والسُّور

يا بَهْجة الدِّين والدُّنيا التي بلغَتْ به العِنايةُ شأْوَ السَّبْعَةِ الزُّهر
جمعتَ شَمْلَ المعالي بعد فُرقتِها فباتَ ثَغْرُ الفَخار غيرَ مُنْثَغِر

وقال النابغة الهَوْزالي في إبلال المنصور الذَّهبي من مرضِه :

تردَّى اذى من سُقْمِك البَرُّ والبحر
وضجَّتْ لشكوى جِسْمك الشمس والبدر
وباتَ الهدى خوفاً عليك مُسهَّداً وأصبحَ مَذْعورَ الفؤادِ النَّدى الغَمْر
فلمَّا أعاذَ اللهُ صحَّتَك التي أفاق بها من غمِّه الْبَدْوُ والحضْر
تَراءَت لنا الدُّنيا بزينة حُسنها وعادَ الى إبَّانه ذٰلك البِشْر
وصارَ بِكَ الإسلامُ في كلِّ بَلْدة يُهَنَّا ويدعُو أن يَطول لك العمر
وصحَّت لنا الآمالُ بعد اعْتِلالها وعادت الى الايناع اغصانُها الخُضْر
ولا غَرْوَ ان خافتْ على عَيْلَم النَّدى
اذا اغْبرَّ وجْه الأَرْض واحتَبس القَطْر
لِسَيْب ابي العباس أنضَتْ عِجافَها قَديماً فخافت أن يعاودَها الضر
لَئِن صَدِيَت بِيض المعالي لقد غدت
نَشاوى الكُماةُ البِيض واللُّدْنُ السُّمْر
بَقِيتَ لهذا الدين تحمي ذِمارَه ويَحْميك ربُّ الْعَرْش ما بقي الدهر

وله يهنيه بفتح السودان ودخوله في طاعته :

أَلَمَّتْ وقد أَلْوَى على وَصْلِها الهجر كما افْتَرَّ إثْرَ اللَّيل عن ثَغْرِه الفَجْر

وجلّى وقد لاحتْ دُجى الليل وجهُها
كما نضّ سجَف الليل من وجهـه البدر

تُساقِط لي درًّا لقَطتُ فريده بأنْمُل سمْع فيه عن غيره وقْر
تُحَدِّث عن مَسْرى سوارٍ رَمتْ بها مَرام تَضِلُّ النَّهْج في فيحها الزُّهْر
تَحامى هواها الطيرُ من خَشْيَة الرّدى قديماً وأعيا الريحَ مَسلكُها الْوَعْر
وجشّمَها المنصورُ خُرْس كَتَائب تُحمَّلُ ما يروي فيحمِلُهُ الصَّبر
تُقـاد نَواصيها بكل مُتوَّج نَمَتْه إلى عدْنان آباؤُه الغرّ
على كل محبوكِ السَّراةِ اذا جرى مع الريح فاتَ الريحَ من عَدْوه حَضْر
صوافِنُ ينموها وَجيهٌ ولاحِقٌ مُطَهَّمَةٌ دُهْمٌ ومَقْوُرَّة شُقْر (١)
بمُرْهَفَةٍ مَأْثُورَةٍ مَشْرَفيَّـة تَوْمٌّ غِرارَيْهـا رُدَيْنِيَّة سُمْر
غدَت تَحمِلُ الموتَ الزُّؤَامَ يَحُوطُها ويكنُفها يُمْنٌ يُشيِّعه نَصْر
فحلّتْ بأرض السُّود لم يَثْنِ عزْمَها مَهَالِكُ صدَّ عن مسالكها الذُّعْر
ورامت بَنُو حام لجهلٍ بقَدْرِها دِفاعاً فباتَتْ فوق آنافِها العَفْر
همَى فوقَها وطْفُ المنايا بحاصِب طَوامِي عِبال النَّبْل من فَيْضِهِ جَمْر
لقد ذكَر الحبْشَانُ من وقْعها بهم وقيعَةَ يوم الفيلِ لو ينفَع الذِّكر
هنيئاً أَمير المومنين فقد قضَى على كلِّ من ناوَاك أَسيافُك البُتْر
لئِن أَسْلَمت أَرضُ الجنوب مَقادها فعَن كَثَبٍ تُلقِي مَقاليدها مِصْر

---

١ — مقورة بوزن مصفرة مهزولة .

وَتَزْوَرُّ زَوْراءُ ٱلْعِراق فتَهْتدي اليكم وأَعناقُ العِدا خُضَّع صُغْر
وتخفُق بالوادي المقدَّس رايةٌ عليْك وتَهْوِي فيه أَلْوِيةٌ حُمْر
فدُمْ لِفُتُوحٍ يُستَحثُّ لِنَيْلها الى كل قُطْرٍ منكَ ذُو لجَبٍ مَجْرُ

ولعبد ٱلْعزيز ٱلْفَشْتالي يمدَحه ويهنِّيه بالمولد الشريف :

همُ سلَبُوني الصبرَ والصبرُ من شاني وهُمْ حرمُوا من لذَّةِ الغَمْض أَجفاني
وهمْ أَخفَرُوا في مُهْجَتي ذِمَمَ الهوى فلم يَثْنِهِمْ عن سَفْكِهَا حُبِّي الجاني
لَئِن أَترَعُوا من قَهْوَة البَيْن أَكْؤُسي فشَوقُهُمُ أَضحَى سَميري ونَدْماني
وان غادَرَتْني بالعَراءِ حُمُولهم كفَى أَنَّ قلبي جاهدٌ إِثْرَ أَظعاني
قفِ العِيسَ واسْأَلْ رَبْعَهم أَيَّةً مضَوْا أَلِلجزْع سارُوا مُدْلجين أَمِ ٱلْبَان
وهل بَاكرُوا بالسَّفْح من جانِب اللوى مَلاعِبَ آرامٍ هُناك وغِزْلان
وأَيْنَ استقَلُّوا هل بِهَضْب تِهامةٍ أَناخُوا المطَايا أَم على كُثْب نَعْمان
وهل سالَ في بَطْن المَسِيل تشوُّقاً نُفُوسٌ ترَامَتْ للعُلا قبل جُثْمان
واذْ زَجرُوهَا بالعَشِيِّ فهل ثَنى أَزِمَّتَهَا الحادِي الى شِعْب بَوَّان
وهل عرَّسُوا في دَيْر عَبْدُون ام سَروْا يؤُمُّ بِهم رُهْبانُهم دَيْر نَجْران
سَروْا والدُّجى صِبْغُ المطَارِف فانثَنَى بأَحداجِهم شَتَّى صفاتٍ وأَلْوانِ
وأَدْلَجَ في الاسحار بِيضُ قِبَابِهم فَلُحْنَ نُجوماً في مَعارِج كُثْبان

لكَ اللهُ من رَكْب يَرَى الارضَ خُطْوَةً

اذا زَمَّهــا بُدْنـاً نوَاعِمَ أَبْدَانـ

أَرِحْهَا مَطايا قد تمشّى بها الهوى ... تَمَشّي الحُمَيَّا في مَفَاصِل أَبْدان

وَيَمِّمْ بها الوادِي المقدَّس بالحِمَى ... بِهِ الماءُصَدًّاوالكَلا نَبْتُ سَعْدان

وَأَهْدِ حُلُولَ الحِجْر منه تَحِيَّةً ... تُفَاوِحُ عَرْفاً ذا كِي الرَّند وَالْبَان

لقد نفَحتْ من شِيح يَثْرب نَفحةً ... فهاجَتْ معَ الأَسحارشَوْقيوأَشجاني

وفَتَّتَ منهاالشَّرْقُفيالْغَرْبِمَسْكَةً ... سحَبتُ بها في أَرض دارينَ أَرْدَاني

وأذكَرني نَجْداً وطِيبَ عَرارِه ... نَسيمُ الْصَّبا من نحْو طيْبَةَ حيَّاني

أَحِنُّ الى تِلْك المعاهِــد إِنَّها ... مَعَاهِدُ راحاتي ورَوْحي ورَيْحَاني

وأهفُو معَ الاشواق للوطن الذي ... به صَحَّ لي أُنسي الهَنِيُّ وسُلْوَاني

وأَصبو الى أَعْلام مكَّة شائقاً ... إذا لاحَ برقٌ من شَمام و ثَهْلان

أُهيْلَ الحِمَى دَيْني على الدهرِ زَوْرَةٌ ... أُحُثُّ بها شَوْقاً لكمْ عزْميَ الواني

متَى يَشْتَفي جَفني القَريحُ بِنَظْرَةٍ ... يُزَجُّ بها في نُورِكم عَيْنُ إنساني

وَمَنْ لي بأَنْ يدْنُو رضاكم تَعطُّفاً ... ودَهْريَ عنّي دائماً عِطْفَه ثان

سَقَى عَهْدَهمبالخَيْفِ عِهْدٌ[1] تَمُدُّهُ ... سوافِحُ دَمْعٍ مِن شُؤُونيَ هَتَّان

وأنعَم في شطِّ الْعَقيق أَرَاكَةً ... بأَفيائها ظلُّ المُنَى والهوى دَان

وحيَّا ربوعاً بَيْن مرْوَةَ والصَّفا ... تحِيَّةَ مُشْتاق لها الدَّهرَ حيْران

---

١ — اي مطر .

ربوعاً بها تتلو الملائكة العُلا أفانينَ وَحيٍ بَيْن ذِكرٍ وقُرْءان
وأولَ ارضٍ باكَرتْ عرَصاتِها وطرَّزت البَطْحاَ سَحائبُ إيمان
وعرَّس فيها للنُّبوءة مَوْكِب هو البَحْرُ طام فوق هضْبٍ وغيطان
وأدَّى بها الرُّوحُ الامينُ رِسالةً أفادت بها البُشْرى مدائحُ عنوان
هنالك فضَّ ختْمَها أشرفُ الوَرى وفخرُ نِزارٍ مِن مَعَدِّ ابْنِ عدْنان
محمَّد خير العَالَمين بأسرِها وسيد أهلِ الارض والإنْس والجان
ومَن بشَّرتْ بالبَعْث من قَبْل كوْنه نوامِسُ كُهَّان وأَخْبارُ رُهْبان
وحِكمَةُ هذا الكون لوْلاهُ ماسمتْ سماءٌ ولا غاضت طَوافحُ طُوفان
ولا زُخرِفتْ من جنَّة الخُلْد أرْبُعٌ تُسَبِّحُ فيها أُدْمُ حُورٍ وولْدان
ولا طَلَعتْ شمسُ الهُدى غِبَّ دُجْيَة تجهَّم من دَيْجورها ليلُ كُفْران
ولا لَحِقتْ بالمذْنبين شفاعــةٌ يذودُ بها عنْهم زَبانِيَ نِيران
له مُعْجِزاتٌ أخرَستْ كلَّ جاحد وسلَّت على المُرْتاب صارِمَ بُرْهان
له انْشَقَّ قُرْصُ البَدْر شِقَّين وارتوى
بماءٍ همَى من كفِّه كلُّ ظَمْئان
وأنطقَت الأَوْثان نُطْقاً تبرَّأتْ إلى الله فيه من زَخارف مَيَّان
دَعا سَرْحةً عَجْماَ فلبَّتْ وأقبلَتْ تجُرُّ ذُيولَ الزَّهر ما بَيْنَ أفْنان
وضاءتْ قصُورُ الشَّام من نُوره الذي
علا كلَّ قُطْرٍ نازِحِ القُطْر أوْ دان

وقد بهَّج الأنواءَ بدَعوتهِ التي كَسَتْ أَوْجُهَ ٱلْغَبْراءِ بَهْجَةَ نَيْسان

***

وإنَّ كتـــابَ الله أعظمُ آيةٍ بهاافتَضح المُرْتابُ وابْتأَس الشَّاني
وعدَّى على شأْوِ ٱلْبَليغ بَيانُه فهَيْهات منه سَجْعُ قُسٍّ وسحْبان
نَبيُّ الهُدَى مَن اطلعَ الحقَ أَنْجُماً محَى نورها أَسدافَ إِفْكٍ وبُهْتَان
بعِزَّتهـــا ذَلَّ الأَكاسِرَةُ الأُلى هُمُ سلَبُوا تِيجَانَها أَهلَ ساسان
وأَحرَزَ للدِّين الحنيفِيِّ بالظُّبا تُراثَ المُلُوكِ الصِّيدِ من عَهْدِ يُونان
ونقَّع من سُمْرِ ٱلْقَنا ٱلسمَّ قَيْصراً فجَرَّعـــه منها مُجاجَةَ ثُعْبان
وأَضحَت رُبُوعُ ٱلْكفْرِ والشِّرْك بَلْقَعاً
يُناغِي الصَّدَا فيهنَّ هـــاتِفُ شَيْطان
وأَصبحتِ السَّمْحاءُ تَرُوق نَضارةً وَوَجْهُ الهدى بادي الصَّباحة للرَّاني
أَيا خيْرَ أَهْل الارض بَيْتاً ومَحْتِداً وأَكرمَ كلِّ الخلقِ عُجْمٍ وعُرْبان
فمَن للقَوافي أَن تُحيطَ بوَصْفِكم ولوْ سَجلَتْ سبْقاً مَدائحَ حسَّان
إِلَيْك بَعثْناها أَمَانِي أَجْدَبت لِتُسقَى بمُزْن من أَياديك هَتَّان
أَجِرْني إذا أَبدَى الحسابُ جرائِمي وَأَثْقَلت الأَوْزَارُ كفَّةَ مِيزَاني
فانت الذي لولا وَسائلُ عِزِّه لَما فُتِحتْ أَبوابُ عفوٍ وغُفْران
عليك سلامُ اللهِ ما هبَّت الصَّبا وماسَت على كُثْبانها مُلْكُ قُضْبان

وحمّل في جَيْب الجَنُوب تحيةً يفُوحُ بمَسْراها شذاً كُلِّ تِرْبان[1]
الى ٱلْعُمَرَيْن صاحِبَيْك كِلَيْهِما وتِلْوِهما في ٱلفصل صِهْرِكَ عُثْمان
وحيَّا عَلِيًّا عَرْفُها وأَرِيجُها ووَالى على سِبْطَيْك أَوْفَر رِضْوان
اليك رسولَ اللهِ صَمَّمْتُ عَزْمَةً اذا أَزْمَعَتْ فالشَّحْطُ والْقُرْب سِيَّان
وخاطَبتُ مِنّي ٱلْقَلْبَ وهو مُقَلَّب على جَمْرَة الأَشواق فيك فلَبَّاني
فيا ليتَ شِعْري هل أَزُمُّ قلائصي اليكَ بداراً أو أُقَلْقِلُ كِيرَاني[2]
وأَطْوي أَديمَ الارض نحوك راحلاً نَواجِيَ المهارى في صحَاصِح قِيعَان
يُرَنِّحها فرطُ الحنين الى الحِمى اذا غَرَّد الحادي بهنَّ وغنّاني
وهل تمحُوَنْ عني خطايا اقترفْتُها خُطىً لِيَ في تِلْكَ ٱلْبِقاع وأَوْطان
وماذا عسَى يَثْني عِنَاني وإنَّ لي بآلِك جاهاً صَهْوَةَ ٱلعِز أَمْطاني
إذا صدَّ عن زُوَّارِكَ ٱلْباسُ وٱلْغِنى فجُودُ ابنِك المنصور أحمد أَغناني
عِمادي الذي أَوْطا السِّمَاكَيْن أَخمَصي وأَوْفى على السَّبْع الطِّباق فأَدْناني
مُتَوِّج أَملاكِ الزَّمان وإن سَطا أَحلَّ سُيوفاً في مَعاقِدِ تِيجان
وقاري أُسُودِ ٱلْغَاب بالصِّيدِ مِثْلِها اذا اضْطرب الخَطِّيُّ من فوق جُدْران
هِزَبْر اذا زار البِلادَ زَئِيرُه تضاءَلُ في أَخياسِها أُسْدُ خَفَّان

---

١ — جمع تراب .
٢ — جمع كور وهو الرحل .

وان أَطلَعتْ غيمَ القَتام جُيوشُه وأَرْزَم في مَرْكُومه رَعْدُ نِيران
صَبَبْنَ على أَرضِ ٱلْعُداة صَواعِقاً أَسلْنَ عليْهم بَحْرَ خسْفٍ ورَجْفان
كَتائبُ لو يَعْلُون رَضْوى لَصدَّعت صَفاه الجِيادُ الجُرْدُ تعدُو بِعِقْبان
عَديدَ الحصَى من كل أَرْوعَ مُعْلَم وكل كَمِيٍّ بالرُّدَيْنِيِّ طعَّان
اذا جَنَّ ليلُ الحربِ عنهم طُلَى ٱلْعِدا هَدَتْهم الى أَوْداجِها شُهْبُ خُرْصان
مِن اللاءِ جرَّعنَ ٱلْعِدَا غُصَصَ الردى وعفَّرْن في وجْهِ الثَّرى وجْهَ بَسْتان[1]
وفتَّحْنَ أَقطارَ البلاد فاصبحت تُؤَدِّي ٱلْخراجَ الجَزْلَ أَملاكُ سُودَان
إِمامُ البرايا مِن عَليٍّ نِجَارُه ومن عِتْرة سادُوا الورَى آلِ زَيْدان
دعائِمُ إيمانٍ وأَركانُ سُؤْدَدٍ ذَوُو هِمَمٍ قد عرَّست فوقَ كِيوان
همُ ٱلْعَلَويُّون الذين وجوهُهم بدورٌ اذا ما احْلولَكتْ شُهْبُ أَزمان
وهم أَهلُ بيتٍ شيَّد الله ملكَه على هَضْبة العَلْياءِ ثَابتَ أَرْكان
وفيهم أَتى الذكرُ الحكيمُ وصرَّحت
بفَضْلِهم آيَاتُ ذِكْرٍ وقُرْءان
فُرُوعِ ابنِ عمِّ المُصْطَفى ووَصيِّه فناهِيك من فخْرَيْن قُرْبَى وقُرْبان
ودَوْحة مجْد مُعْشِب الروض بالعُلا يُجادُ بأَمْواهِ الرِّسالة ريَّان
بمجدِهم الأَعلى ٱلصَّريح تشرَّفَت مَعَدٌّ على العَرْباء عادٍ وقَحْطان

---

١ — تعريب سبستيان وهو ملك البرتغال المقتول في وقعة وادي المخازن .

اولائك فخْري ان فخرتُ على الورى
ونافسَ بيْتِي في ٱلْوَلا بيْتَ سَلْمان[١]

اذا اقتسم الُمدَّاحُ فضل فخارهم وقِسْمِيَ بالمنصور ظاهِرٌ رُجْحان

امامٌ له في جَبْهَةِ الدهر مَيْسَمٌ ومن عزِّه في مَفْرِق الُملك تَاجان

سما فَوْقَ هاماتِ النجوم بِهِمَّةٍ يَحُومُ بها فوق السموات نَسْرَان

وأَطْلَع في أُفْق المعالي خلافةً عليها وِشَاحٌ من علاه وسِمْطان

اذا ما احتَبى فوق الأَسِرَّة وارتدى على كِبْرياء الُملك نَخْوَةَ سُلْطان

توسمتَ لُقْمانَ الحِجا وهو نـاطِقٌ
وشاهدتَ كِسْرى ٱلْعَدْل في صدْرِ إِيوَان

وان هزَّهُ حُرُّ الثناء تـدفَّقت أَنامِلُه عُرْفـاً تدفُّقَ خُلْجان

أَيا ناظرَ الاسلام شِمْ بارِقَ الُمنى وباكِرْ لروضٍ في ذَرَا المَجد فَيْنان

قضَى اللهُ في عَلْياكَ ان تَمْلِك الدُّنا وتفتَحها ما بَيْن سُوسٍ وسُودَان

وأَنَّك تطْوِي الارضَ غيرَ مُدافَعٍ فمِنْ أَرْضِ سُودان إِلى أَرْض بَغْدان

وتملأَها عدْلًا يرفُّ لِوَاؤُه على الحَرَمَيْن او على رَأْس غُمْدان

فكم [illegible] العراق بك ٱلْعُلا وزُفَّت بك ٱلْبُشْرى لأَطراف عَمَّان

فلو شارفت شرق ٱلْبلاد سيوفكم أَتاكَ اسْتِلابا تاجُ كِسْرى وخاقان

---

١ – يعني به بيت لسان الدين ابن الخطيب السلماني وقد مر في ترجمته ان ممدوحه المنصور كان يباري به لسان الدين .

ولو نشَر الاملاكَ دهرُكَ أصبحتْ عِيالاً على علْياكَ ابناءُ مَرْوان
وشايَعك السفَّاحُ يقتاد طائعا برايَته السَّوداءِ اهلَ خُراسان
فما المجدُ إلا ما رفَعْت سماكه على عَمد السُّمْر الطِّوال ومُرَّان
وهاتِيكَ ابكارُ القوافي جَلَوْتُهَا تُغازِلُهنَّ الحُور في دار رِضْوان
أتَتْك أميرَ المؤْمنين كأنها لَطائِمُ مِسْك أوْ خمائِلُ بُستان
تعاظَمن حُسْناً أن يُقالَ شَبيهُها فَرائِدُ دُرٍّ أوْ قَلائِدُ عِقْيان
فلازِلْتَ للدُّنيا تحوطُ جِهاتِها وللدِّين تَحْميه بِمُلك سُلَيْمان
ولا زِلت بالنَّصْر العزيز مُؤَزَّراً تُقادُ لك الاملاكُ في زِيِّ عُبدان

وللاديب أَبي عبد الله محمد بن عبد الله الجُزولي يمدحُ السلطان مولاي اسمعيل العلوي ، وهي أمثَلُ ما قِيلَ فيه :

مولاي إسمَعِيلُ يا شمسَ الورى يا مَن جميعُ الكائنات فِدًى له
ما انتَ الا سَيْفُ حقٍّ مُنتَضًى أللهُ مِن دون البَرِيَّة سَلَّه
مَن لا يَرى لك طاعةً فاللهُ قد اعمَاه عن طرُقِ الهُدى وأَضلَّه

وللشيخ عبد الواحد بن محمد الشريف البوعناني يُهنّيه بفَتْح العَرائش :

ألا أَبْشِر فهذا الفَتْح نور قد انتظمت بعزِّكُم الامور
وطيرُ السعد نادَى حيث غنَّى قد انشرحت بفتحكم الصُّدور

وقد وافتكُمُ الخيراتُ طرّاً وطاب ٱلْعيش واتّصل السرور
حَمَيْتُم بيضةَ الاسلام لمّا بِعَيْن الحق قد حُرِسَت ثغور
وجاهدتُم وقاتلتُم فأَنتُمْ لِدين الله أَقمارٌ تُنير
واطلعتُم صوارِمَكم نجُوماً لَدَى هَيْجاءَ صاحِبُها كَفُور
فأَنت ٱلْبَدْرُ يوم السِّلْم حُسْناً وفي يوم ٱلْوغى أَسَدٌ هَصور
وفي ثَغْر ٱلْعرائش قد تبدَّى لِقَدْرِكُمُ على الشِّعْرَى الظُّهور
لقد كان الُملوكُ فساوَموها وراُموها فبان لها نُفُور
فلمّا جئتَها انقادت وقالت اليك بحق مولانا المَصير
ملكتَ قيادَ عزَّتِها ببذل فما أَغنى الحِصَار ولا العُبور
قهرتَهُم بأبطال ضِخَام على الهيْجاءِ كلُّهُم جَسُور
فكم رأْسٍ[1] من الكفار امسى قطِيعَ الرَّأْس مَجْروراً يَخُور
وكم نَحْرٍ قِلَادُته رِماح وسِنُّ الرُّمح مرْكَزُه النُّحور
وكم أَسرى وكم قتْلى بأَرض وكم جَرْحى دماؤُهم تفُور
تمرُّ بها الطيور فتَنْتَقِيها وباتَ الذئبُ وهو لها شَكُور
وأَضحى كلهم نشاوى على طرَبٍ وما شُرِبتْ خُمور
فبُشْراكم بهذا الفتح بُشْرى وبشراكم بما مَنَّ الغَفُور

١ – يعني رئيساً كبيراً بمثابة الرأس فيهم.

به زادت مـآثِرُكم عُلوًّا وقد عظُمَت به لكمُ الأُجور
أَلا يا معشَر الكفار هـذا يُبدِّدُكم وليس له فُتور
أَلا يا أَهـلَ سبتةَ قـد أَتاكم بسَيْـف الله سُلطانٌ وقُور
اذا ما جـاءَ سبتةَ في عشيٍّ تُزَفُّ له اذا كان البُكور
ووهرانٌ تنادِي كُلَّ يوم متى يأْتي الامامُ متى يزُور
متى يأْتي ويفتحُها سريعـاً ويلحق أَهلَهـا منهم ثُبُور
فيهزِمُهم ويقتـلُهم ويَسْبِي وسيفُ الحق في يده يَنُور
ايا مولاي قُمْ وٱنْهَضْ وشمِّر لأَنْدَلُسٍ فأَنت لها الامـير
وجاهِدْهم وحـارِبْهم وفَرِّقْ جُمُوعَهُم فربُّكُم النَّصير
ولا يَمنعْ بفضْل الله منهـا كما قـد قيل بَرٌّ اوْ بُحُور
لِسَان الحـال يُنشدُ كلَّ يوم ومعنى الحال تَفهَمُه الصدور
بقُرْطُبةٍ تَنـالُ المجدَ طرّا ويأْتي العزُّ والملك الكبير
وذلكُمُ بعون الله سهـلٌ ومِنْ بَرَكَاتِكُم امرٌ يسير
ايا مولايَ إِسمعيلُ هذا عُبَيدكُم الضعيف المستجير
ينادِيكُم بنادِيكُم ويـدْعُو دعاءً لا تُعيِّيه الدُّهـور
فيا ربَّ الـبرية يا الهي ويا رَحمانُ يا نِعمَ المُجير
أَثِبْ هذا الاميرَ بكل خير ولا تجعَل تِجارتَه تَبُور
وأَبقِ الملكَ فيه وفي بَنِيه ولو كَرِهَتْ زُيُودٌ او عُمُور

ونحن رعيةٌ نرجو هناءً • بالسلطان تنتظِمُ الامور
عليكم من عُبَيْدِكم سلامٌ • مَدى الدنيا يُضَمِّخُه العَبير
يعُمُّ جنابَكم ما قال صبٌّ • الا أَبْشِرْ فهذا الفتحُ نور

ولعبد الله العَلَوي الشّنْقيطي يمدح الأَميرَ محمَّد العالِم ابنَ السلطان مولاي اسماعيل :

دَع العِيسَ والبَيْداءَ تذرَعُها شطْحا • وسُمْها بُحورَ الآل تَسْبَحُها سَبْحا
ولا تُرْعِها الا الذَّميلَ فطالما • رعَتْ نَاضِر القَيْصُوم والشِّيح والطَّلحا
ولا تُصْغِ للناهين فيما نَوَيْتَه • وخَفْ حيثُ يُخفي الغِشَّ من يُظهر النُّصْحا
فكُن قمراً يَفْري الدُّجا كلَّ ليلة • ولا تكُ كالقُمْريِّ يَسْتَعْذِب الصَّدحا
وقارِضْ هُمومَ النفس بالسَّير والسُّرى • على ثِقَة بالله في نَيْلك الرِّبحا
وأُمَّ بِسَاطَ ابن الشريف محمد • مُبيد العِدا ذكرا ومُبْدي الهُدى صُبْحا
فتىً يسَعُ الدنيا كما هي صدرُه • فأَمسى به صدرُ الديانة مُندَحّا
ومن هديه ساوى النهارَ وليلَه • فأَمسى يُنير الخافقين كما أَضحى

ومَن هو غيثٌ أخضَلَ الأرضَ روضُه فلا يظمأُ الآوي اليه ولا يَضْحى
وليثٌ بحقِّ الله لم يُبقِ رُعبُه عُواءً لكلب التُّرَّهات ولا نَبْحا
أميرٌ ملوكُ الكفر أضحوا لسيفه كما تبتغي الذبحَ في عيدها الأضحى
تَزيدُ على الفاقات فيضاتُ كفِّه فيَغْرَقُ في التيَّار مَن يأمَلُ النَّضْحا
فلا تَرُمِ التشبيه فيه فقد جرى مع الظَّاهر المُدْني الى الشُّكْر المِلْحا
سعى وسعَوْا للمكرُمات فأقصَرُوا ولم يرضَ حتّى استكمل الكرم القُحّا
وفلَّق فيهم بيضةَ المجد قاسمٌ فناولَهم قَيْضاً [1] وناوله المُحّا
فتى يستقِلُّ البحرَ جودُ بنانِه على حالة استكثار حاتم الرَّشحا
مَساعيه في الخطب الجليل يرُومُه كآمال مَنْ يرجوه تستصحب النُّجحا
صِفاتٌ كدُرِّ البحر صفواً ولُجِّه حساباً فمَن يأتي على مائه نَزْحا
وآياتُ علم أغمَدَ الجهلَ نورُها وغايات جِدٍّ ليس تطلابها مَزْحا
ورأيٌ يُريه اليومَ ما في حَشا غدٍ ويكشِفُ عنه من دُجا ليله جُنْحا
وبِشْرٌ مُحيّا علَّم الصبحَ ما السَّنا وقَبْضٌ أرى النارَ التأجُّجَ واللَّفْحا
وتأليفُــه أشتاتَ كل فضيلة ومكرُمةٍ غرّاءَ تُعجِزُنا شَرْحا
كفانا اتخاذ الفالِ في القَصْد يُمنُهُ فلسنا نخطُّ الرملَ أو نضرِبُ القِدْحا
مَهيبٌ مَخُوفٌ بطشُه تحتَ حِلْمه عفوٌّ يرى إلاّ عن الباطل الصَّفْحا
فأقدَمَ حتى فارَق الجبنَ صافِرٌ [2] وجادَ الى أن عاف مادرٌ [3] الشُّحّا

---

١ — القيض قشر البيض .

٢، ٣ — صافر ومادر مثلان يضربان في الجبن والبخل .

ولم تُذْعِن الأَعداءُ مَحْضَ مودَّةً اليه ولكن إنَّما كَرِهُوا ٱلْقَرْحا

رأَوْا ضَيغماً يُعطي الحروبَ حقوقَها

وإن تَضعِ الأوْزارَ يُبْرِمْ لها صُلحا

ويستغرقُ الأَوْقاتَ في الجدِّ كلَّها ولا يَهَبُ التَّلْعابَ ما يَسَعُ اللَّمْحا

مُواصِلةً حبل الجهاد جيادُه ووَقْفٌ على غَزْوِ العدا عدْوُها ضَبْحا

مُعادِيه معطًى بالحياة مَنِيَّةً وبالجنَّة الأُخْرى وبالسُّنْدُسِ المِسْحا

ايا ابْنَ أَمير المؤْمنين وسيفَه وصَمْصَامَه إن يرفع الضربَ والنَّطْحا

تُشابِهُه خَلْقاً وخُلْقاً فسامِه الى ٱلْفَلَكِ الأَعْلى فانَّك لا تُلْحى

تَهَنْدَستِ ٱلْعَلْيا فاحْرَزْتَ جِسْمَها لإِحرازِكَ النُّقْطاتِ والخطَّ والسَّطحا

فكم من حديث كان يُسنَد للنَّدى ولكنه لولا نَوالُك ما صحّا

فأَعطَيْتَني الأَعيانَ والْعِينَ والْكُسا

وبيضَ الظُّبا والنُّوق والخَيْل والطَّلحا

فلا زلت للاسلام عيداً مُفضَّلاً تنغِّصُ حسْنَاهُ السَّعانِينَ والفِصْحا[1]

أَبُوك لِحُكْم الشَّرع ولاَّكَ عَهدَه فلم تلْقَ كدًّا للسُّؤَال ولا كَدْحا

وأَعطاكَه اذ ليس غيرُكَ أَهله وللعقل نورٌ مَيَّز الحُسْن والقُبْحا

كفى درَّه فخراً تحلِّيك سِمْطَه ومَنعُكَه تلك المعرَّة والْقَدْحا

---

١ — السعانين والفصح من أعياد النصارى ويقال في اولها الشعانين بالشين .

فأهدى إليك الدهرُ بَلْقيسَ مُلْكِهِ
وأبدى لك الكرسيَّ والعَرْش والصَّرحا

وولاك ربُّ العَرْش مُلْك بِقاعِها   وأصحبكَ التمكينَ والنصر والفتحا
اليك بها يا كَعبَةَ المجد كاعباً   من الشِّعْر لا تُسطاع أركانُها مَسْحا
اذا شَهِدَت زكّى الأعادي حديثَها   وان اثخنَت عنّا قلوبَهم جَرْحا
أُكَلِّفُها فرضَ المحال أداءَها   لِشُكر ندًى لا ينتَهي مُزنه سَحّا
فخُذْها ابنةَ الحاءِ التي الحمدُ مبتدا   لها وبها خلّاقُها كمَّل المَدْحا

ولأبي عَلِيّ اليُوسي في الشيخ ابن ناصِر من داليته الكُبرى:

كَمْ سُنَّةٍ أحيَيْتَ بَعْدَ إماتةٍ   وضَلالةٍ أخمدتَ بعد تَوَقُّد
وافَيْتَ والبدعُ الحوادث قد دَجَتْ   ظُلُماتُها والجهلُ وَاري الأَزْنُد
والدينُ مطموسُ المعَالِم والهُدى   بيضُ الأنوقِ ولُقْطَةٌ لم تُنْشَد
والسُّنةُ الغرّاءُ قَفرٌ مُوحِش   ما فيه مِنْ هاد ولا مِن مُهتَد
نشَبتْ بِضَبْعَيها مَخالِبُ ضَيْغَم   مِن مَأْلَف العادات عَادٍ مِحْرَد [1]
ومَحا المُحاقُ بُدورَها فتكَنَّفَتْ   مُقَلَ النُّهى ظَلْماءُ ليْلٍ سَرْمَد
وعفَتْ أعاصير الهَوى آثارَها   فاسْتَبْهَمَتْ عن ناشِدٍ او مُنْشِد
واستَوْثَقَت أَيدي الغَوايةِ والهَوى   بأَزِمَّةِ الألباب، شُلَّت مِن يُد [2]

---

١ – اي معتدٍ غاضب من الحرد وهو الغضب.

٢ – جمع يد كعصا وعصي يدعو عليها بالشلل.

والعِلْمُ ضاحٍ ظِلُّه[١] وصدى التُّقى قد صَمَّ[٢] والغَيُّ اعتَلى بمُجَنَّد[٣]

فكشفْتَ جلْبابَ الجَهالةِ عن سَنا بَدْرٍ لسائِمَة الضَّلال مُبَدِّد

بَلْ ضَوْءِ صُبْحٍ بَلْ نَهارٍ ناسِخٍ آياتُه لَيْلَ الشكُوكِ الزُّرَّد[٤]

ولابْنِ زاكور يمدَحُ الشيْخَ عَلِيَّ بَرَكَة :

إلى مَ فؤادي يذُوب زَفيرا لقد كِدتُ أَقضي مُعَنًّى حَسيرا

عَراني من الوجد ما قد نَفى كَرايَ وأذكى حَشايَ سعيرا

فمِن رِقَّةٍ قد حكَيْتُ نَسيما ومن دنَف قد حكَيْتُ نَقيرا

وشيَّبَني والشبابُ نضير صُدودُ الأُلَى أَودَعُوني زَفيرا

ومَن لسَعَتْه أَفاعي الصُّدود فأَجدِرْ به أن يَشيبَ صَغيرا

فماذا على وُدِّهم لَوْ دَنا وما ضَرَّ لو نَعشُوني يَسيرا

وماذا على عاذِلي لَوْ غَدا عَذيراً لِمَنْ كان مثلي أسيرا

فيا عاذِلي لا تكُنْ عاذري ولستُ أُؤَمِّل منك عَذيرا

ويا هاجِري لا تَكُن واصِلي إلى أن تُوَازي الحصَاةُ ثَبيرا

فمُذْ شمْتُ بَرْقَ العُلا والهوى لدى بَرَكاتِ العُلا مُستَطيرا

---

١ – اي ذاهب .

٢ – اي انعدم .

٣ – اي بجيش مجند .

٤ – اي الخانقة .

سلَوتُك فانجابَ ليلُ الأسى وأسفر صُبحُ السُّرور بَشيرا
فلا مُقلَتي تَستَهِلُّ دَماً ولا كَبِدي تتداعى فُطورا
ومن شامَ برقَ العلا مُستَطِيرا فلا يَعْدَمَنَّ دَداً وحُبُورا
وهانَ عليَّ الذي قد لَقيتُ لَمَّا سَقاني نَداه نَميرا
وأنقَذني مِن ظلام الهوى وكان لِقَلْبي المُعَنَّى مُجيرا
إمامٌ تَسَرْبَل بالمَكرُمات وأرْخى إزار العَفاف كَبيرا
وَطاوَلَ بَدْرَ السَّماء مُنيراً وساجَلَ قَطْرَ الغَمام غَزيرا
وأضْحَى لِكَأْس المعالي مُديرا وأمسَى لرَوْض العُلوم سَميرا
تَواضعَ حِلْماً فزاد ارْتِقاء وَرام خَفاءً فزاد ظهورا
ومَن رَام إخفَاءَ بَدْر الدَّياجي بِجُنْح دُجىً زادَ نُوراً كَثيرا
تناهَتْ مَذاهِبُه في العلا فليس يُرى لِسواها ظَهيرا
فطَوْراً تَرَاه لقَوْم بَشيرا وطوْراً تراه لقوم نَذيرا
وكائِنْ تَراهُ يفُكُّ المُعَمَّى ويُوضِح ما كان صَعباً عَسيرا
إلى رقّة لوْ حَواها النَّسيم لما قَصَفَ الدَّهرُ غُصْناً نَضيرا
ونَظْمٍ يُنَسِّيك شِعْرَ جَرير إذا أنت عَايَنْتَ منه سُطورا
وَوجْه جَلى البِشْرُ عنه الوجومَ فليس يُرى أبداً قَمْطَريرا
تُضيءُ الدَّياجيرَ غُرَّتُه فتَحْسِبُها قَبساً مُسْتَنيرا
ألا هَلْ أتى مَعْشَري أنَّني عَلِقْتُ بتَطْوانَ عِلقاً خَطيرا

وَآوَيْتُ مِنْهَا إِلَى جَنَّةٍ فلا شَمْسَ فيها ولا زَمْهَرِيرا
لدَى عَالِمٍ قد حوى عالَماً وحَبْرٍ تَضمَّن خَلْقاً كثيرا
وأَلْحَفها مِن مَحَاسِنِه بروداً حكَتْ سُنْدُساً وَحريرا
وأَسْرَجها بِسرَاج الهُدى وكم مَكَثَت قبل تَحْكي قُبورا
فلا نَجْدَ إلا اسْتطارَ سَناً ولا غورَ إلا تَلأْلأَ نُورا
ولا غُصْنَ إلا تَثَنَّى ارْتياحاً ولا طيْرَ إلا تغَنَّى سُرورا
وضاء سناها وضاع شَذَاها فشِمْت سَناً وشَممْتَ عَبيرا
إمَامَ ٱلْورَى بِشَفيع ٱلْورَى أَصِخْ لِنِظامي وكُنْ لي عَذِيرا
وأَسْبِلْ عليه بُرودَ ٱلْقَبول فلسْتُ حبيباً ولستُ جَرِيرا
وهبْني كذَاك فمَنْ لي بما أُحلِّي به مجدَك المُسْتَنيرا
ومَن أَرْهقَتْه خُطوبُ الدُنا فكَيْفَ يحُوكُ ٱلْقَرِيض ٱلنَّضِيرا
فعُذراً لِمَن خانَه دهرُه وأَخنى عليه الزَّمانُ مُغيرا
ودُونك مِنِّي سلامَ كريم يُفاوِحُ عرْفُه رَوْضاً مَطِيرا

وللقاضي ابن طاهر الهوَّاري يمدح ابا حَفْص ٱلْفاسي:

طابَتْ بطِيب حياتِك الاعمارُ وجرَت برِفْعة قدْرِك الاقدار
وعلا على الجَوْزاءِ أَخمصُك الذي تصبُو الى تَقْبيله الأَحرار
وسَمَتْ بك ٱلْعلياءُ فوقَ مَنازِل مِن دُونها الافلاكُ والأَدْوار
وجَلَوْتَ في أُفق السِّيادة غُرَّةً تعنُو لِبَهْجة حُسْنها الأَقمار

وأَتتْ بك الأَيَّامُ عِلْقاً طالَما ضنَّت به فِيما مضَى الأَعصار
سَعِدَت بك الايامُ وابتهج الورى ورقتْ بغُرَّة وَجهك الأَمْصار
وقضَى لك الرحمنُ أَنَّك مُخْمِلٌ بجَمِيل ذِكْرك مَنْ إليه يُشار
حلَّاك بالعِلْم الشريف فأَشرقَتْ بحُلِيِّك الآفاقُ والاقطار
أَحْيَيْتَ روضَ فنُونِهنَّ بُعَيْدما عفَت المعالم مِنْه والآثار
وجلوت منهُ عَرائِسَ ٱلْفِكْرِ التي تَخْتَال منها ٱلْعُونُ والأَبْكار
وسرَتْ بِهِمَّتك المعارفُ في ٱلْورى وجلَت بِنُور فُهُومِك الأَسرار
وبَدت بِحُسْن بَيانِك الحِكَم التي نطقَت بها من قَبْلك ٱلأَحبار
لكُمُ التَّقدُّمُ في ٱلْورى، سِواكُمُ يُعزى له ٱلتَّقْصِير والإِقْصار
هَيْهات سِرٌّ ٱللهِ أُودِعَ فيكُم وٱللهُ يَفْعلُ كُلَّ ما يَختار
فَلَئِن تَلَوْتَ السابقين فإِنَّما أَنتَ ٱلَّذي تختارُه ٱلأَنظار
أَنْشَأْتُ إِخْبارِي بِوَصْفِك مَادِحاً فزَها بك الإِنْشاءُ وٱلإِخْبار
مَن لي بإِحْصَاءِ الثَّناء على ٱمْرِيءٍ شرُفَتْ لحُسْنِ مَدِيحِه ٱلأَشعار
أَنَّى لِمِثْلِي أَنْ يُحِيطَ بوَصْفِه ولَوَ انَّه في مَدْحِه مِكْثار
خُذْها أَبا حَفْصٍ إِليك مَدِيحَةً من صَفْوِ وُدّ لم يَشِبه غِيار
وٱللهُ جلَّ ثَناؤُه يُولِيكَ من عِزِّ ٱلْمَكانة فَوْقَ ما تَخْتار
وَعَلَيْك يا عَلَمَ ٱلْهُداة تَحِيَّةٌ تَحْكِي ذَكِيَّ نَسِيمِها ٱلأَزهار
ما رنَّحت أَيدي ٱلصَّبا قُضُبَ الرُّبا وترنَّمتْ في أَيْكِها ٱلأَطيار

وللعلامة الطيّب بن صالح الغُماري الرَّزيني في السلطان مولاي سليمان ٱلْعلوي :

كَمْ بالصَّريمَةَ[1] منْ جُذَيْل[2] عَبْقَري يَفْري فلا يُلْوى على مُتَعذِّر

قَذَفَتْ بهِ قذَفُ النَّوى قلْبَ ٱلْفَلا مُتَعَجِّراً[3] ثوبَ الظلام الأَعْجَر

فرْداً كسيف بل كسَنْهم قد هفَا ريشُ الزَّماع به الى مُسْتَنْفر

يُضحِي مع الكُدْرِي ويُمْسِي تارةً ضَيْفاً لِسِرْحان ٱلْفَيَا في ٱلْمُقفر

في الليلة الظلماءِ يعتَسِفُ ٱلْفَضَا وكأنَّما يَمْشِي بلَيْل مُقْمِر

يرمِي بهمَّته مخاطِرَ دُونَهَــا هِمَمُ الزَّمان لِغَيْرِه لم تَخْطُر

لِيَؤُمَّ مولانا سليمانَ الذي قالَ السماحُ عليه أَثْني خِنصِري

هُو في ملوكِ الارض غيرَ مُدافَع فيهم بمَنْزِل مُقْلَةٍ من مَحْجَرِ

عِلْماً وحِلْماً في مقــام تحكُّم وشمَائِلاً تزكو بطيب ٱلْعُنْصُر

ما إن يُرَى إلاَّ بصَهْوَةِ سابِح يمشي ٱلْعَرَضْنَة[4] أَو بصَهْوَة مِنْبر

لم يَخْلُ من ضرب الجيوش ببعضها إلاَّ لدَفَّة مُصْحَف أَو دَفْتَر

وإذا ٱسْتَراحَ النَّاسُ في دَعةٍ لهم لم يَخْلُ منهم في الجهاد الأَكْبَر

---

١ – اسم مكان .

٢ – من قولهم هو جذيلها المحكك اي الملتجأ اليه في الامور .

٣ – اي مشتملاً .

٤ – هي مشية فيها نشاط .

وتراه يستقصي وكان وظيفُ من ... ندريه بين مقصِّر أو مُقصِر

مــا زال يعتدُّ العتاد مُشمِّراً ... من حزمــه للحادث المتنمِّر

تلقاهُ يومَ الرَّوع فوق مُطهَّمٍ ... يختالُ بــين أسِنَّة وسنَّور [١]

مُتقلِّداً سيف الحماسة سافِراً ... لكنَّه من بأسه في مِغفَر

والخطُّ قد طافتْ به خرصانُها ... من كل أسمَر ذا بــل مُتأطِّر

والخيلُ تمرحُ في الأعِنَّة شُزَّباً ... يعثُرن في قِصَد [٢] القَنا المتكسِّر

حتى إذا اعتجر العَواليَ والظُّبا ... والشمسُ جلَّلها دُخانُ العِثْيَر [٣]

وأسِنَّةُ المرَّان في أرْجــائه ... كالشُّهب تلْمَعُ في خِلال كَنَهْوَر [٤]

وبدَا أميرُ المؤمنين بمِقْنَبٍ ... زَجِلٍ كَلَيْثٍ في الهِياج غَضَنْفَر

عاذَتْ رعِيَّتُه به وتأنَّقتْ ... من عدله في ظِل عيْش أخْضَر

ما كاد سِرْحانُ الفلا من عدْله ... يَعْدو بظَبْي بالصَّريمة أعْفَر

ألْقَوا بإقْليد الأمور وأصبَحُوا ... يَرِدُون ماءَ الأمْن غيرَ مُكَدَّر

يُهدون من نشْر الثناء له شذاً ... وكأنَّما فتقُوا لطائِمَ [٥] عَنْبر

---

١ – اي سلاح .

٢ – جمع قصدة وهي القطعة .

٣ – اي العجاج .

٤ – الكنهور: السحاب المتراكم .

٥ – جمع لطيمة وهي نفيجة المسك

ولأبي عبد الله أكَنْسُوس في تَهْنِئَة السُّلْطان مولاي عبد الرحمن العلوي بالمولد الشريف :

عَهْدي بِكُم جيرَةَ ٱلْبَطحاء مَوْصُول ... يا ناسيَ ٱلْعَهد إنَّ ٱلْعَهدَ مَسْؤُول

أَشِيمُ بَرْقاً سرَى من نحو رَبْعِكُمُ ... وفضْلُ ذَيلي بوَبْل الدمع مبْلُول

فيُلْهِبُ الشَّوْقُ أَحْشاءً مُروَّعَةً ... مِنِّي ولِلشَّوق تَرْوِيعٌ و تَهْويل

يا ليتَ شِعْرِيَ والأَيامُ شِيمَتُها ... تَمَنُّعٌ وَضَمِيرُ ٱلْغَيب مَجْهول

هل من وَفاءٍ بوَعْد من أَحبَّتنا ... والْوعدُ عند حِسَان الدَّلِّ ممطول

وهل تَرى مُقلتي داراً عهِدتُ بها ... بيضاً يُلاحِظها سُمْرٌ بَهالِيل

سُقِيتُ حبَّهم قِدْماً على ظماٍ ... فحبُّهم في ضمِير الروح مَجْبول

يا حبَّذا في هَواهم ما غَدَوْتُ به ... كأنني طافحٌ بالراح معلول

لا أَجتَلي أَحداً إلاَّ تمثَّل لي ... في وَجْهه من أَحِبَّتي تماثِيل

وذاك أَنْ قد سرى في ٱلْكون سرُّهم ... وليس أَنَّ ٱلْهوى زُورٌ و تَخْيِيل

فوَالذي سجَدتْ في شَطْرِ كَعْبَته ... أَهلُ ٱلْخشوع لهم ذِكر وتهليل

لقد سرَى سرَيانَ الرُّوحِ في جسدي ... غرامُهم فأَنا مِن ذاك مَتْبُول

يالائمي إنَّ فَرْطَ الْحبِّ معذرتي ... وفي الصَّبابة لي عِرْقٌ وتأْصِيل

فكيف أُصْغِي إلى اللاَّحِين إن عَذَلوا ... فعاذلي الْمُبْتَلَى بالْحبِّ مَعذول

نَعَمْ فلِي كبِدٌ تهتاجُ لوعَتُها ... إذا دَنا من رَبيع النُّور تَجْلِيل

شهْرٌ تشرَّف بالإسلام حُقَّ له ... بين ٱلمَواسم تعظيم وتبجيل
شهْرٌ تَعَاظَم مجداً أن يُماثِلَه ... عيدٌ ولا زَمَنٌ بالفَضْل مَشْمول
شهر غدا غُرَّةً في كل مَكْرُمة ... وأيْن من غُرَّةٍ في ٱلفخر تَحْجيل
فيه تكوَّن كونُ الفضل وانفَتَحتْ ... ابوَابُه وأتانا ٱلعِزُّ والسُّول
فيه تفجَّر كلُّ الخير مُنبَجِساً ... على الخلائق طرّاً فهو مبذول
فيه البشائر قد لاحتْ أشعَّتُها ... فيه تعيَّن للخيرات تسهيل
وزُخرِفَت لعباد ٱلله جَنَّتُه ... وٱستَبْشر الملأُ ٱلاعلى وجِبْريل
في ليلةِ المولد الاسمَى وسُحْرَته ... يا أُمَّةً سعِدَتْ بالمصطفى قُولوا

قُولوا وتِيهُوا على الأكوان وافتَخِرُوا
فقوْلُكم لِمكَان الصدق مَقْبول

أهلاً بمولد خير ٱلمرسلين وَمن ... له على الكل تَسْييدٌ وتَمْويلُ[١]
بمَوْلِد الصَّفْوة الأعلى الرسولِ الى ... كلِّ الوجود وما للحق تَبْديل
سرّ العوالِم والأرواح عُنْصُرها ... مَن ذِكْرُه في قديم الذكر منقُول
ألْوَاحُ مُوسَى بن عِمْرانٍ مُبشِّرةً ... ببعثه وبقُرْب البعث إنْجيلُ
يا مَن بدا رُوحه للخَلْق مبتدئاً ... وجِسْمُه لِمنَاط الوحي تَكْميل
يا دوحةَ الحقِ يا مَجْلَى المحامد يا ... مَن نُطْقُه كلُّه وَحْيٌ وتنزيل
لك اللِّواءُ لواءُ الحمد يشملنا ... مِن ظِلِّه عند هوْل ٱلعرش تظليل

---

١ – أي سيادة وولاء من السيد والمولى .

لك الشفاعةُ والحوضُ ٱلْمُعَدُّ لنا لك الجِنَان جِنَانُ الْخُلد تَنْفِيل
لك المَقامُ الذي قد عزَّ مَدْرَكُه برُؤْيَةٍ مالها في الصِّدق تأويل
إن لم يُطِقْ حَمْلَها موسى الكليم فقد عاينتَ ربَّك والتقديس مَسْدول
لك الوسيلةُ والجاهُ ٱلْعظيم إذا ما أنت فوق نطاق العرش محمول
يا من يُخَلِّصُ مَن أضحى لمدْحَتِه على جنابٍ كريمٍ منه تطفيل
هذي مَدائِحُ راجٍ أن يكونَ له من الرسول بإذْنِ الله تَنْزِيل
صلَّى عليكَ مُفيضُ الجود منك على كل الخلائق والتَّعْميم تسْجِيل
والآلِ والصَّحْبِ ما زُمَّت على مَرحٍ الى زِيارتك العِيسُ المَراسِيل
يا حاشِرَ الخلق يا ماحي الضَّلال ويا مَن مدْحُه لرضى الرحمن توْسِيل
يا واضِعَ الإصْرِ عنَّا في شَريعته فضلاً ومَن قبْلَنا بالإصْر مَغلول
تركتَنا وسبيلُ الحق واضحةٌ أعلامُها ومُحيَّا الدين مغسول
بآلِ بيتِك والذكرِ الحكيم لنا كل اعتصام اذا ما اغتالت الغول
هذا حفيدُك سُلطانُ الملوك أبو زَيْد امامٌ بنصر الدين مَشْغول
سِبْطِ الخلائِق باني العزِّ في شرَف عالٍ على مَجْدِهِ للناس تَعْوِيل
قَرْم تدارَكَت العليا سعادَتُه لَمَّا غدا وإلَيْه الأَمرُ مَوْكول
ما زالَ مُجتَهِدا في الله مُنْتَصِرا بالله والسيفُ في يُمْناه مسلول
حتى استنارَت نجومٌ للهدى فَلها والحمدُ لله تقويمٌ وتعديل
فهْو المؤَمَّل للسَّمْحا يُجَدِّدُها مِن بَعْد ما عزَّ للتجديد تأهيل

وهوَ الذي سُنَّةُ المختار قد حَييَتْ به وقد سامَها وَهْنٌ وتعْطيل
وهوَ المؤَيّد بالإسعاد هِمَّته لِبنْيَة العِزِّ تَشْيِيدٌ وتطْوِيل
فنضله روضَةٌ غَنَّاءُ دانيــة قُطوفُها ، وَجَنَى كفَّيْه مَعْسُول
وبأْسُه في ديار الكفر صاعِقة فيها لحزْب ذَوي الأَهواء تَنْكيل
يا خِزْيَ مَن حادعن منهاج طاعته وَيْلُمِّه إنــه وَالله مثْكول
إن سار يوماً الى الهيْجاء تَتْبَعُه أَجْنَادُ جُرْد أَبابيلٌ أَبابيل
مِن كُلِّ أَرْوَعَ في إقْدامه بَطرٌ وسَيْفُه من قِرَاع الهَام مَفْلول
يجُرُّها كعَدِيد الطِّيس عابِسَةً وما لَه غَيْرُ وجــه الله مأمول
يُعنَى به النَّصرُ لا يَنفَكُّ يلزمه كَأَنَّه عِلَّةٌ والنصر معلول
وعزْمه نافذ لا شيءَ يحجُبه فكلُّ ما يبتغي في الحين مَفْعول
وتلك سنَّةُ رَبِّي في عَزائِمه وما لِسُنَّة ربِّ الناس تَحويل
وللسعادة أَسبابٌ مقدَّرة في سابق العِلْم لا كسْبٌ و تَحْصيل
مِن أُسرَة زيَّنَ الأقطارَ ملكُهمُ كأنَّ مُلكَهُم تاجٌ وإكليل
بنُو عَليٍّ أَدامَ اللهُ عزَّهمُ فهُمْ لِمَغْربنا عزٌّ وتفضيل
يا أَيُّها المَلِكُ الأَتقى المحيط به من الجلالة إجمالٌ وتَفْصيل
بقيتَ للمولِد المبرور تَشْهَدُه وعزُّه بجلالٍ منك مَكْفُول

المُلَحُ والطُّرَفُ

قال سعيد بنُ هِشَام المصمودي يهجُو بَرّ غَواطة ومُتَنَبِّئهم القَائم بدِيَانتِهم[1] :

قِفِي قبل التفرُّق فأخبِرينا ... بقَولٍ صادق لا تَكذِبينا

بأمر بَرابرٍ خسِرُوا وَضَلُّوا ... وخَابُوا لا سُقُوا ماءً معِينا

يقولون النبيُّ أبُو عُفَيْر ... فأخزَى اللهُ أُمَّ الكاذِبينا

أَلَمْ تَسْمَعْ ولَمْ ترَ يَوْمَ بَهْتٍ[1] ... على آثارِ خَيْلِهم رَنِينَا

رَنِينَ الباكِيات بهم ثُكالى ... وعَاوِيةٍ ومُسقطةٍ جَنينَا

سَيَعْلَمُ أهلُ تامَسْنا إذا ما ... أَتوْا يومَ القِيامةِ مُقْطَعِينَا

هُنالِك يُونسٌ وبَنُو أبيه ... يقُودُون البَرابرَ حائرِينَا

وقال عبد الله الكفيف الطنجي يهجو حامِيمَ الغَماري الذي ادعى النبوءة في قبيلته غُمارَة وظفِرَ به الناصِرُ المَرْواني :

---

١ ـ اسم لمكان وقعت فيه معركة بين ابي عفير والقبائل التي لم تدن له بالطاعة .

وقالوا افتراءً إنْ حاميمَ مُرسَلٌ إليهم بدين واضح الحق باهر
فلقد كذّبتم بدّد الله شملكمْ فما هو إلا عائرٌ وابنُ عائر
فان كان حاميمٌ رسولاً فإنني بإرسال حاميم لأوّلُ كافر
روى عن عجوزٍ ذاتِ إفكٍ كَهينةٍ تُقارنُ في أسحارها كُلَّ ساحر
أحاديثَ زُورٍ حاكَ إبليسُ نسجَها فسيّرها ديناً وبيلَ السّرائر

وقال ابنُ حبُّوس يأمر بمعاملة الناس على مذهب أبي زيد السّرُوجي :

أعِدَّ لِنابحيك عصا وأقضِم ماضغيك حصى
وشعْشِع للورى شرقا مع الساعات أو غصصا
وكُن وَرْداً خُبَعْثِنةً [1] يُراوِغ منهم قنصا
وعامِلْ بالخديعة من لقيتَ وبادِرِ الفُرَصا
وغمِّضْ عينك النَّجلاء حتى تُنعَت الحوصا
وهُزَّ لمعشر سيفاً وهزَّ لآخرين عصا
وكاثِرْ من يدبُّ لكَ الضَّرا [2] واخرُص كما خرصا
ولا تَعْتِب عليه فلو ظفِرتَ به لما خلصا
وسُوءُ ظنّنا بكل أخ يُقاسِمك الثنا حِصَصا

---

١ — الورد والخبعثنة من اسماء الأسد.
٢ — أي مَن يختلك وهو مثل ، واخرُص أي اكذِب .

ولا تَخْفِل بأمَّعَـةٍ يَخَالُ الشَّحْمَةَ البَرَصا
ولا تَحْرِص فَرُبَّ فتى مُضاعٍ عندما حَرَصا
وحِرْصُ الطائر الوَا قِع صيِّر جوَّه قفَصا .
لقد رُخص الإخاءُ وأَهْوَنُ الأَعلاق مَا رَخُصا
وقد ذَهب الوَفاءُ فلا يقـول مُغَـالِطٌ نقصا
فلا تَلْزم مكانَ الظـل إن وافَيْتـه قَلَصا
وغنِّ لذا الزمـان اذا انْتَشى وازْمُر اذا رَقَصا
ومَن شهد الُخطوب وعَاش مثلي يَشْرَح القِصَصا

وقال الجرَّاوي يهجُو قومَه بني غَفجُوم مُتذرّعاً بذلـك الى هجو أَهل فاس وخاصةً بني المَلْجُوم منهم :

يا ابْنَ السبيل اذا مررتَ بتَادِ لَا لا تنزِلنَّ على بني غَفجُـوم
أَرضٌ أَغار بها العدوّ فلن ترى الَّا مُجاوبَـةَ الصَّدى للبُوم
قوم طوَوْا ذكر السماحةِ بينهم لكنّهُم نَشرُوا لِوَاءَ اللُّوم
لا حظَّ في أَموالهم ونَوالِهم للسائـل العافِي ولا المحرُوم
لا يملِكون إذا استُبيحَ حريمُهم إلا الصُّراخَ بِدَعْوة المظلوم
يا ليتَني من غيرهم ولَوَ انَّني من أَهل فاس من بني المَلجُوم

وقال في هجاء أَهل فاس أَيضاً :

مشى اللؤْمُ في الدنيا طريداًمشرَّداً يجوبُ بلادَ الله شرْقاً ومغربا

فلما أَتى فاساً تلقـــاه أَهلُها وقالوا له أهلاً وسهلاً ومرحبا

وقال يهجو الاستاذ ابن الياسمين :

إسْتُ الُحبارى ورأْسُ ٱلنَّسر بينهما لوْنُ ٱلْغُراب وأنفاسٌ من الجُعَل
خذْها إليكَ بحُكْم ٱلْوَزْن أَرْبعةً كالنَّعْت والْعَطْف والتوكيدِ والبَدل

فأَجابه ابنُ ٱلْياسمين بقوله :

ياأعْرَقَ الناس في نَسْلِ ٱلْيَهُود[1] ومَن تَأْبى شمائِلُه التفصيلَ للجُمل
خذْها بحكم اجتماع النمِّ واحدةً تُغني عن ٱلْعَطف والتوكيد وٱلْبدل

وقال شاعرٌ مُتَحامِقٌ مَراكشي يُعرف بابن تَلِّيس يهجو الجراوي وكان يجالس قوماً يعرفون ببني الشَّحمات :

بنُو الشَّحمات أنتُم خيرُ آلٍ وأَكْرَمُ مَن تَسامَى بالُجدود
أرى نجل الَجراوي لكم جليساً وحُرِّمت الشحومُ على ٱلْيهود[1]

وقال أبو الحجاج ابن نَمَوى في الاستاذ ابن ٱلْياسمين وكان قد استقبح صورته واستحسن كلامه :

أَيها اللَّابسُ لونَ الليل ثوباً حين أَظلم

---

١ — نسبه الى اليهود لان جراوة قبيلته كانت تدين باليهودية قبل الاسلام على ما قيل .

والذي يُضْمِرُ داءً منه يوماً ما تَأَلَّم
أنتَ من أَقبح خـــلق الله ما لم تتكلَّم
بِشذُورٍ باهراتٍ سافراتٍ لو تُجسَّم
أَصبحت في كلّ جيدٍ حسَنٍ عقداً منظّمْ

فلما بلغ ذلك ابنَ ٱلْياسمين قال :

أَيها ٱلْفاسِي أَتى ريحُك قبْلَ النَّجْو يَفْغَم
في قريضٍ حسَن الصُّو رة بالهجْو مُجذَّم
فقبلناه وقد جَـا ءَ لنا بالمدْح مُعلَم
ثم قلنا بمِزاحٍ منك يوماً ليس يُعدَم
إنَّما الشأْنُ فقيهٌ عالِمٌ ليس يُعلَّم
لا تراهُ الدَّهرَ إلاَّ بغَريم ٱلْكَأْس مُغْرَم
وإذا صَلَّى رياءً كان فيها مثْل أَبْكَم
في ثيابٍ كرَبيع قد سرَى فيها الُمحَرَّم
ذا جوابي وهو ظُلْمٌ لك وٱلْبادىءُ أَظلَم

وقال الامير سليمان الموحدي ملغزاً في ٱلْقَلم والدواة :

وَمَيْتٍ بِرَمْسٍ طَعْمُه عند رأْسه إذا ذاق من ذاك الطَّعام تكلَّما
يقومُ فيمشي صامتاً مُتكلماً ويرجع للقبر الذي منه قُوِّمَا

فلا هو حيٌّ يستحق كرامةً ولا هو ميْت يستحق ترحُّما

وقال في ٱلعين :

وطائرةٍ تطير بلا جَناح تفوتُ الطائرين ومـا تَطِير
إذا ما مسَّها الحجرُ اطمأَنَّتْ وتأْلَمُ أن يُلامِسَها الحرير

وقال في جاريةٍ اسمها أُلوف :

خليلَيَّ قُولَا أَيْن قلبي ومَن به وكيف بَقَاءُ المرءِ من بعد قَلْبه
ولو شِئْتُما إِسْم الذي قد هَوَيتُه لَصَحَّفْتُما أمْري لكُم بعد قَلْبِه

وقال مَيْمُون الخَطَّابي في ادِّعاء ابن تُومَرْتَ للمَهْدَوِيَّة :

وَجد النُّبوءَةَ حُلَّةً مَطْوِيَّةً لا يستطيعُ الخلقُ نَسْجَ مثالهـا
فأَسرَّ حَسْواً في ٱرْتِغَاءٍ[1] يبتغي بِمُحاله نَسْجاً على مِنْوالها

وقال عبد العزيز المَلْزُوزي وقد مرِض بالحُمَّى في مراكش :

لِمَرَاكُشٍ فضْلٌ على كل بـلدة وما أَبصرَتْ عينٌ لها من مُشابِه
ومـا هِي الا جَنَّةٌ قد تزَخرَفت ولكنَّها حُفَّت لنا بالمكَارِهِ

وقال مالِك ابنُ المرَحّل يخاطِبُ نفسَه حين بلغ ثمانين سنة :

يا أَيهـا الشيخُ الذي عُمْرُه قد زادَ عشراً بعد سبْعِينا

---

١ — هو مثل يقال للرجل يظهر انه يشرب الرغوة وهو في ذلك ينال من اللبن

سكِرْت من أكْوَاسِ خَمْر الصِّبا   فحَدَّك الدَّهرُ ثمانينا

وقال في المعنى الذي لأجله يَفتَتِحُ الشعراءُ قصائدهم بالتشبيب:

ضلَّ المحبُّون إلاَّ شاعراً غزِلاً   يُطارِحُ المدْحَ بالتَّشبيب أوْطارا
لا يشتكي الحبّ إلّا في مَدائِحِه   دَعْوَى لِيُصْغِيَ أسماعاً وأبصارا
كضارِب آلعُود وشَّى فيه تَوْشِيَةً   وبعدَ ذلك غنَّى فيه أشْعارا

وقال في خضاب الشيب:

مررتُ عليها والخضابُ لمائه   وَبيصٌ وريحُ المسك قد كاد يسْطَع
فقالت مليحٌ ما أرى غيرَ أنّه   (سحَابةُ صيْف عن قليل تَقَشَّع)

وقال وملّح في ذِكْر ساقِ حُر وهو ذَكر القَماري:

رُبَّ رَبْع وقفتُ فيه وعهْد   لم أُجاوِزْه والركائبُ تَسْري
أَسأَلُ الدّار وهي قَفْرٌ خلاءٌ   عن حبيبٍ قد حلّها منذ دَهْر
حيث لا مُسْعِدٌ على الوَجْد إلّا   عينُ حُرّ تَجُودُ أَوْ سَاقُ حُرّ

وقال في رجل أَشهب انتحَل شعره:

خالَفني أَشهبُ في مَـــذْهبي   وَمالكٌ وافقَه أَشهَبُ
فَمَذْهَبي مُخْتَرَع نادِرٌ   وسَرَقُ الشعر له مَذْهَبُ

وقال على هذا المِنْوال مُورّياً:

مَذهَبي تقْبيلُ خدّ مُذهَب   سيِّدي ما ذَا تَرى في مَذْهبي

لا تُخَالفْ مالكاً في رأيِه … فبه يأْخذُ أَهلُ المغرِب

وقال في امرأة شوْهاء تَزَوَّجها على سبيل المَجانة:

اللهُ أَكبَرُ في مَنار الجامع … من سَبْتَة تأذِينَ عبدٍ خاشِع

الله أَكْبرُ للصلاة أُقِيمُها … بين الصُّفُوف من البَلاط الواسع

اللهُ أَكْبر مُحرِماً ومُوَجّهاً … وَجْهي إلى ربِّي بقلب خاشِع

الحمدُ لله السلامُ عليكمُ … آمينَ لا تفتح لكل مُخَادِع

إن النساءَ خدعنني ومكَرْن بي … ومَلأْنَ من ذكر النساء مسامعي

حتى وقعتُ وما وقعت لجانب … لكن على رأسِي لأَمْرٍ واقع

واللهِ ما كانت اليه ضرورةٌ … لكنَّ أَمرَ الله دُون مُدافِع

فخطبنَ لي في بيت حُسْن قلن لي … وكذَبْن بل هو بيتُ قبْح شائع

بِكْراً زَعمْن صغيرةً في سنهـا … حسناءَ تُسْفِر عن جمال بارع

خَوْد لها شعَر أَثيثٌ حالـك … كالليل يجلُو عن صباح ساطع

حوراءَ يرتاع ٱلْغزالُ إذا رنَتْ … بجُفون خِشْف في الخَمائل راتِع

تَتْلُو ٱلْكِتابَ بغُنة وفصاحـة … فيَميلُ نحو الذكر قلبُ السامع

بَسَّامة عن لوْلوءٍ مُتَناسق … من ثَغرها في نَظْمه المتَتابع

أنفاسُها كالرَّاح فُضَّ خِتامُهـا … من بعد ما خُتِمَتْ بمِسْك رائع

غَيْداءَ كالغُصْنِ الرطيب إذا مَشَتْ … نَاءت بِردْف للتَّعَجُّل مانِع

تخطُو على رِجْلَي حمامةِ أيْكَةٍ … مخضُوبةٍ تُصْى فؤاد الخاشع

وَوَصَفْن لي من حُسْنِها وجمالها ما ٱلْبعضُمنه يُقيمُ عُذْرَ الخالع
فدَنوتُ واستأْمَنْتُ بعد توحُّش وأطاع قلبٌ لم يكن بِمُطاوع
فحملْنَني نحوَ الوَليِّ وجِئْنني بالشَّاهِدَيْنِوجِلْدكبش واسع[1]
وبغَرْفة من نافع[1] لِتَفاؤُل واللهِ عزَّ وجل ليس بِنَافِع
فشرَطْنَ أشراطاً عليَّ كثيرة ما كنتُ في حَمْلي لها بالطَّائع
ثم انفصَلْتُ وقد علمتُ بأنني أُوثِقْتُ في عُنقي لها بجَوَامِع
وتركْنني يوماً وعُدْن وقلن لي خُذْ في ٱلْبِناءِ ولا تكن بمدافع
راصْنع لهاعُرساً ولا تُحْوِجْإلى قاض عليك ولا وكيل رافع
فقرعتُ سِنِّي عند ذاك ندامةً ما كنتُ لولاأن خُدِعتُ بقَارع
ولَزِمنني حتى انفصلتُ بمَوْعِدٍ بعدَ اليمين إلى النهار الرابع
فلو انَّني طَلَّقتُ كنتُ مُوفَّقاً ونفَضتُمن ذاك النكاح أَصابعي
لكنطمِعتُبان أرى الحُسنالذي زوَّرْن لي فذَمْت سُوءَ مطامعي
فنظرتُ في أمر ٱلْبِناء مُعجِّلا وصنعتُ عُرساً يالَها من صانع
وطمِعتُ أَن تُجلى وأَبصُروجهها وتقرَّ عيني بالهلال الطالع
فذكرن لي أَن ليس عادةُ أهلها جَلْوَ ٱلْعَروس وتلك خُدعةخادع
وظننتُ ذاككماذكَرْنولم يكن وحصلتُ منه في مَقام ٱلْفَازع
وحمَلْنني ليلا الى دارٍ لهــا في موضع عن كل خير شاسع

---

١ – لعل ذلك كان عادة عند الطبقات الشعبية في سبتة والنافع هو الرازيانج

دارٍ خراب في مكانٍ مُوحش ما بَيْن آثار هناك بَلاقــع

فقعدتُ في بيت صغير مظلمٍ لا شيء فيه سوى حَصِير الجامع

فسمعت حِسًّا عن شِمَالِيَ مُنكَراً وتنحنحاً يحكي نَقِيقَ ضفادع

فأردتُ أن أنجُو بنفسي هاربا ووَثَبْتُ عند الباب وَثْبة جازع

فلقيتْهن وقـــد أَتيْنَ بجذوة فَرَدَدْنني وَحَبَسْنني بمَجامِع

ودَخلْن بي للبيت واسْتَجْلَسْنني فجلستُ كالمقْرور يومَ زَعازع

وأَشرْنَ لي نحو السماء وقُلْن لي هذي زُوَيْبِعَةٌ وبنتُ زوابع

هذي خلِيلَتُك التي زُوِّجتَها فاجلِس هنا معها لِيَوْم السابع

وتهنَّأَ النُّعمَى التي خُوِّلْتَها فلقد حصَلْتَ على رياض يانع (١)

فنظرتُ نحو خليلتي مُتأَمِّلًا فوجدتُها محجُوبةً ببراقــع

وأَتيتُها وأَردتُ نَزْعَ خِمارها فغدَتْ تُدافعني بجدّ وازِع

فوَجأْتُها في صَدْرها ونَزَعْتُه وكشفتُ هـــامتَها بغيظ صارع

فوجدتُها قَرْعـــاء تحسب أنها مقروعـــةٌ في رأسها بمقَارع

حولاء تنظُر قَرْنها في ساقِهــا فتخالُها مبهوتةً في الشارع

فَطْساء تحجُو أن رَوْثة أنفها قُطِعَت فلا شلَّت يمينُ القَاطع

---

١ — فيه وصف الرياض وهو جمع بالمفرد وذلك من مجاراة الاصطلاح العامي .

صمّاء تُدعى بالبَريح [١] وتارةً بالطَّبْل أو يُوتَى لها بمقَامع
بَكماءَ إن رامتْ كلاماً صوَّتت تصويت مِعْزَى نحوَ جَدْيٍ راضع
عَرْجاءَ إن قامت تُعالِجُ مَشْيها أَبْصرَتْ مِشْية ضالع أَوخامِع
فلقيتُها وجعلتُ أبصُقُ نحوها وأَفِرُّ نحوَ دُجاً وغيْث هامع
حيْرانَ أَعْدُو في الزُّقاق كأَنني لِصٌّ أَحسَّ بطالب أَو تابع
حتى إذا لاحَ الصباحُ وفتَّحُوا بابَ المدينة كنتُ أَوَّل كاسع
واللهِ ما لي بعد ذاك بأمرها عِلْمٌ ولا بأُمور بيتي الضائع

وقال أَبو عبدالله المكودي ، وبعَثَ له بعضُ إخوانه بشراب مَذيق :

بعثتَ بخَمْر فيه ماءٌ وإنَّما بعثتَ بماء فيه رائحةُ الخمر
فقلَّ عليه الشُّكر إذ قلَّ سُكْرنا فنحن بلا سُكْر وأنتَ بلا شُكْر

وقال أَبو ٱلقَاسِم الشريف في طُفَيْلي :

قالوا أَبو بكر متَى ما حضر الاكل طلع
وإن تكن وليمةٌ يخُبُّ فيها ويضع
ما أَعجَبَ السعدَ الذي ساعد ذلك اللُّكَع
فقلتُ حقاً قلتُم لكنَّه سَعْد بَلَع

١ — اي النداء العالي .

وقال العلّامة ابن غازي في تلاميذه الجاحدين :

أقمتُ بمَكْناسةٍ مُدَّةً أُعلِّمُ أبناءَها ما ٱلكلام
فلمـــا توهَّمه بعضُهم عليَّ به بَخِلوا والسّلام

وقال رابح بنُ عبد الصمد المَدْيوني ٱلفَشْتالي (من أهل ٱلقرن العاشر) في أبي الفضل الشريف المكّي :

أَكُلُّ هَجينٍ ابعَدَتْه يَدُ النَّوى يلُوذُ بأَبْواب الورى يتكَفَّف
وكلُّ زَنيمٍ جاهلٍ قدرَ نَفْسِه يُزاحِمُ أَهلَ البيْت كي يَتَشرَّفُ

وله في أَسْوَد :

وأَسود يفْتَتُّ الدُّجى من جَبينه تَشَاءَمتُ من رُؤْياه عند المُلاقاةِ
له نِعْمَةٌ ليست تَليقُ بمِثله من النعمة المغبوطَة الحسناتِ

ولابن الخطيب الزَّرْوِيلي المتوفي ٩٩٣ يهجو مدينَةَ مراكش ؛

ما كان ظني وحقِّ الله فُرْقتكُم لو أَن مرَّاكُشا كانت تُواتيني
أَظَلُّ في نَصب مما أُكابِدُ من نفْضِ الغُبار ومن طَرْد الذّبابين
وطُول ليْلي في كدّ وفي تعَب ما بين بَقّ ونَاموس يُناغِيني
أَبيتُ أحرس فَرْشي من عقاربها والقلبُ في فِكر منها وتخْمين
اذا رأَيتُ سَواداً مَرَّ بي وأَتى ظنَنْتُها عقربا ذبَّتْ لِتُوذِيني

لم يبقَ في الفَم ضِرْس أَستَعِدُّ به — أفناه مَضْغُ الحصَى من الطَّوَاحين
مُنُّوا عليَّ بإطلاقي بفَضْلِكُم — هذا العَجاجُ بها قد كاد يُعْميني
لم يبق في الكيس فلسٌ استعين به — أَفنَيتُ ماليَ في غسْل وتصْبِين

وله في القَصْر الكَبير :

إرْحل من القَصْر واسمع قول ذي ثِقَةٍ — إن المُقامَ به ضَربٌ من الحُمُق
إن لم تَمتْ في أوان الحر مُحتَرقاً — لم تنجُ فيه زمانَ البرد من غَرق

ولابن عَمْرو الشاوي في العدول الجهال :

إن العُدولَ الأُلى جاد الزمانُ بهم — عن العدالة والتوفيق قد عَدلُوا
أَحداثُ سنٍّ وأَلبابُ كسِنِّهمْ — تاللهِ لوشهدُوا في الكَلْب ما قُبِلوا

وقال عبد الملك التَّجْمُوعتي يهجو البربر :

همْ البرابر لا ترجو نوالَهمُ — وسَلْ من الله تعجيلَ النَّوى لَهمُ
لا بلَّغ اللهُ قلباً منهمُ أَملاً — وبلَّغَ الله قلبي ما نوى لهم

وقال ايضاً فيهم :

فلو كنتُ في الفردَوْس جاراً لبَرْبَرٍ — لَحَوَّلتُ رَحْلي من نعيمٍ الى سقَرْ
يقولون للرَّحمن بابا بجَهْلهم — ومن قال للرحمن بابا فقد كفَرْ

وأجابه العلامة اليُوسي بقوله :

كَفي بكَ جهلاً أن تحِنَّ الى سقَرْ بديلاً من الفِرْدَوْس في غير مُستَقَرّ
وتجهل معنىً مُستبِيناً مَجازُه لدى كل ذي فهم سليم وذي نظر
فان أبا الانسان يدعوه انه كفيلٌ وقيُّوم رحيمٌ به وبَرّ
ومَن قال للرحمن بابَا فقد عَنى به ذلك المَعنى المَجاز وما كَفَرْ
وقد قال عيسى إنني ذاهب الى أبي وأبيكم جاء ذلك في الأَثَرْ

وقال اليُوسي ، أنفذه في رُقعَة مع طعام لبعض ضِيفانه :

كُلوا واعذُروني في التخلُّف إنني رأيتُ اتِّباع الظَّرف ليس من الظَّرف[1]
وأحسنُ ظَرفي تركُ ضيفي كما يشا
وليس ارتقابُ الضيف من شِيَم الظَّرْف[2]

وقال الطبيب عبد القادر بن شقرون معمِّيا في التَّمْر المَجهول[3] :

ما أَحمَرُ اللَّوْن حُلوُ الطعم مَعسُول يُعزَى لذات عِقاصٍ زانَها طول
قد شاع معرُوفُها بين الورى كرماً فاعْجَبْ لمعروف أم وهو مجْهول

---

١ – الظرف الأول بمعنى الاناء والثاني اللطافة والأدب .
٢ – الطرف بالفتح والكسر الفتى الكريم .
٣ – يطلق التمر المجهول في المغرب على اجود انواع التمر واضخمه .

وقال كذلك في اللَّفْت البلدي وهو السَّلْجَم :

مَا أَبيضٌ في خدِّه حُمْرةٌ يرفل في ثوْب من السُّنْدُس
قد بيعَ في السُّوق على حُسْنه مَظْلَمَةً بالثَّمن الأَبخَس
أَلَّفْتُ في أَوْصافه جُمَلاً مُعجِبَةً للحاذق الأَكْيَس

وقال محمد بن الشيخ سِيدي الشنقيطي في رجل أكول اسمه : نحن وكان يدَّعي الشرف :

ما هزَّ عِطْفَيْ كَمِيٍّ يومَ هيجاء بين الأَواني كذِي النُّونَين والحاء
فرد يقوم مقام الجمع وهو لِذا يُدعى بمضمَر جَمْع بينَ أَسماء
يسطُو بأَسلِحَةٍ للأَكلِ أَرْبَعَةٍ يدٍ وفَمٍ وبَلْعُوم وأَمْعـــاء
تخال لُقْمَاتِه العُظمى بِراحته كَراكِرَ الإِبْل أَو جَماجِمَ الشَّاء
ما بين طلْعَتَها فيها وغيْبَتِها في فِيه الاَّ كلَمْح الطَّرف للرَّائي
فتنبَوي كَدُلِيٍّ خـــانَ ماتِحَها أَشطانُها فترامَت بين أَرْجاء
فبان أَن الذي يَحويه من شرف قد صحَّ لكنَّه بالهاء لا الفَاء

وقال الأَديب عبدالسلام الزموري المتوفي ١٢٧٩ في شراب الشاي :

الحمد لله الذي نعَّمنا بكلِّ مطعوم به أَطعَمنا
وكلِّ مَشروب لذيذ طيِّب حُلو حَلال كالغمام الصيِّب

مثل الأَتاي (اللَّنْدُريزي) مذهبَه على صفا صِينِيَّـــة مُلْتَهِبَه
تطايَر الهمُّ لديه وانشرح صدرُ الذي يشرَبُه من الفرح
فان يكن مُعَنْبراً [١] فذاك في مذهبنا المعروف خيرُ ما اصطُفِي
وذا الى ثلاثةٍ او أَربُعـا من الأَحبَّة وما زاد ادْفَعا
ما لم يكن مُغَنِّياً او مُطرِبا او ذا مَلاحةٍ يُـرَى مُحبَّبا
فَهْوَ الذي يُقيمُه ويُحسِنُه وكلُّنا من يده نَستْحسِنُه
وان يكُنْ مُنَعْنَعاً فذاك لا وحقِّكُم يصلُح الا لِلمَلَا
او للذي أُولِعَ بالحَنَّاوى [٢] او اشْتكى ضُرّا فللتَّداوى
خُذه فدَتْك النفس من قبل الطعام او بعده فما عليـــك من مَلام
إلَّا اذا كان الطعامُ كُسْكُسا فكلُّ مَن أَخَّره فقـــد أَسا
ووقتُه وقتُ سرور وانبساط وحيثُما دعـا لِشُربه النشاط
وقتُ الصباح عندهم مُستَحسَن لكنَّه بعـــد العَشاء أَحسَنُ
اذ وقتُه وقتُ فراغ البـال وراحةِ القَلب من الاشغال
والأَمن من كل ثقيل يدخُل او خبرٍ على النفوس يثقُل
مع اتِّساع الوقت المُنادَمـــهْ ولذةِ الجـــلوس والمُكالمـهْ
وذاك في الصَّباح لا يتَّفِقُ وهُوَ من بعد العَشا مُحقَّقُ

---

١ — يضيف بعض الناس العنبر الى الشاي فهو المعنبر .

٢ — اي النوع الرديء نسبة الى الحناء على غير قياس .

أَكْرِمْ بذاكَ الوقتِ وقتِ الكُرما وانَّما الليلُ نهار النُّدما
يُومن فيه مَعَ غلْق الباب وسَدْل ما يسْتُر من حِجاب
وَاختَرْ له من الشُّموع الأَبيضَا كأَلسن الأفعى اذا تَنَضْنَضا
على دُخانِ العُود اذ يَحْتَرِق وماءِ وَرْد عِطــرُه ينتشق
ولا أَرى الأتــايَ بالقِنْديل والزَّيتِ والمِنْخاس والمِنْديل
اذ كلُّ امره على النظافَــة قد انبنى وشرْطه اللطافــة
لا سيما الساقِي الذي يُناوِلُه كذلك الكأْس الذي تَستَعْمِلُه
وشربُه على خــلاء المعِدَة جازَ على شرط حضور المائِدة
تاخذُ منها لقمةً او لُقمَتَيْن من قبل أن تشرَب منه حَلْقَتَيْن
وأَخِّرنــه مطلقاً حيْثُ تلا ما كان مالحاً يُرَى مُخلَّلا
وشُربُه على الشِّوَاءِ والكَبابْ يفتح للصحة منه ألف بابْ

الرثاء وذكر الموت

لأبي الحسن المُسَفِّر في المَوْت وفلسفته ، ويُقال إنها وُجدت تحت وِسادته بعد وفاته :

قُــلْ لإخوانٍ رأوْني ميتاً فبكَوْني ورثوني حزَنــا
أعلَى الغــائب منّي حزنكُم أم على الحــاضر معْكُم هاهُنا
أتظنُّون بــأنّي ميْتُكُم ليسَ ذاك المَيْت واللهِ أنــا
أنا في الصُّور وهذا جَسَدي كانَ لبْسِي وقَميصي زَمَنــا
أنا كنزٌ وحِجَــابي طَلْسَمٌ من تُراب قــد تَهيَّا للفَنــا
أنا دُرٌّ قــد حواني صَدَفٌ طِرْتُ عنه فتخلّى رَهَنــا
أنا عُصفورٌ وهــذا قفَصِي كان سِجْني فألِفْتُ السَّجَنــا
أشكُر اللهَ الذي خلَّصَني وبنَى لي في المعَالي رُكُنــا
كنتُ قبلَ اليومَ ميْتاً بينكم فحَيِيتُ وخلَعْتُ الكَفَنــا
فــأ نا اليوم أناجي مَــلأً وأرَى اللهَ جِهــاراً علَنــا
عاكفٌ في اللوح أقرَآ وأرَى كلّ ما كان ويَأتي ودَنــا

وطعــــامي وشرابِي واحدٌ هو رَمْزٌ فـــافهَمُوه حسَنا
ليس خمْراً سائِغاً أو عَسلاً لَا ، ولَا ماءً ولكِنْ لَبَنـــا
هو مشْرُوب رسولِ الله اذْ كان يَسْري فِطْره مع فِطْرنـــا
فـافهَمُوا ٱلسرَّ ففيـــه نبأٌ أيُّ معْنًى تحت لفظٍ كَمَنـــا
فاهدِمُوا بيْتي ورُضُّوا قفَصِي وذَرُوا الطَّلْسَم بعدي وَثَنـــا
وقَمِيصي مزِّقُوه رمَـــاً ودَعُوا الكلَّ دفيناً بيْنَنـــا
قـــد ترَحَّلتُ وخلَّفتُكُمْ لستُ ارْضَى دارَكُم لي وطَنـــا
حَيٌّ ذِي الدار نَوُومٌ مُغْرِقٌ فـــاذا ماتَ أطارَ الوَسَنـــا
لا تظُنُّوا الموتَ موْتـــاً إنَّـــه لَحَيـــاةٌ هي غَـــايَاتُ المُنَى
لا تَرُعْكُم هَجْمَةُ الموْتِ فمـــا هِيَ الا نُقْلَةٌ من هَاهُنـــا
فاخلعُوا الأجْسادَ عن انْفسِكمْ تُبصِرُوا الحقَّ عِيَاناً بيِّنـــا
وخُذُوا في الزَّاد جُهداً لا تَنُوا ليس بالعَاقِل منَّا مَن وَنَى
حسِّنُوا الظن برَبٍ راحِمٍ تَشكُروا ٱلسَّعْي وتأْتُوا أَمنـــا
مـــا أرى نفسِيَ الا أنتُـــمُ واعْتِقادي أنكُم أنتُم أنـــا
عنصُرُ الأنْفس منَّـــا واحدٌ وكذا الجِسْمُ جميعاً عمَّنـــا
فمتَى مـــا كَانَ خيْرٌ فلَنـــا ومتى مـــا كان شَرٌّ فَبِنـــا
فـــارحَمُوني ترْحَمُوا أنفُسَكم واعْلَمُوا أنَّكُمُ في إثْرِنـــا
أسألُ اللهَ لنَفْسي رحمـــةً رحِمَ اللهُ صديقـــاً أمَّنـــا

وعليكُمْ من سَلامِي صَيِّبٌ وسلامُ الله بـــداً وثُنَى
أبـدَ الدَّهر الى يومَ يَرى بعضُنا بعضاً لرحْبٍ وهَنـــا

ولأَبِي جعفر بن عَطِية يبكي نفسَه حيث نكَبه عبدُالمومن :

أَنوحُ على نفسي أم انتظِرُ الصَّفحا فقد آنَ أَن تُنْسَى الذنوب وان تمحَى
وها أنا في ليلٍ من السُّخط حائِرٍ ولا أهتَدِي حتى ارَى للرّضا صُبْحا

ولَمِيْمُون الخطَّابي يَرثي عَبد الله بن ابي بكر ابنِ الجَدّ ويعزّي أباه وهو يومئذ وزيرُ اشبيلية وعظيمُها وكانت حاضرةَ الاندلس :

أرجّةُ الصَّعْق يوم النفخ في الصور أم دكّةُ الطُّور يوم الصعق في الطُّور
أم هَدَّةُ الارض اظهاراً لما زجرَتْ به الخَلِيقَةَ من إيقاع مَحْذُور
أمِ الكواكِبُ في آفاقِها انتَثرتْ وباتت الشمسُ في طيّ وتكْوِير
ما للنهـار تَعرّى من ثياب سَنا وشابَهَ الليلَ في أثواب دَيْجُور
قد كان للصُّبح طِرْفٌ زانَه بَلَقٌ مُقسِّم الخَلْق بينَ الدَّجن والنُّور
فما المُلِمُّ الذي غشَّى بدُهْمته أديمَه عنبراً من بعد كافور
أَصِخْ لتَسمع من أنبائها نبـــأً يطوِي من الأُنْس فيها كلَّ منشور
وانظُر فان بَني عَدْنانَ ما حُشِرُوا الا لرُزْء عظيم القـــدْر مشهور
وافى مع العيد لا عادتْ مَضاضَتُه فشابَ سَلْسالَه الاصفَى بتكْدير
واعتامَ داراً لها في السبق جَمهرةٌ من المفاخر أزْرَت بالجمَـــاهِير

رَمى قُرَيْشاً فأصمَى سهمُ حادثه ... أبنـــاءَ فِهْر بتوفيق المقَادير
فخانها الجَدُّ في ابن الجَدّ يومَ قضَى ... وأثَّر الخطبُ فيهـــا أيَّ تأثير
لله والمجــدِ مـا أبقـاه من أَثَر ... أُخرَى الليالي بِطيبِ الذكْر مَأثُور
نوَّارةٌ عند ما راقت بدَوْحتهـا ... أهوتْ الى التُّرب من بين النَّواوير
جارَ الذبولُ عليها عندما ملأتْ ... مَعَاطِسَ الدهر من طيبٍ وتعْطير
وسيفُ بأسٍ لِكَسْرِ الخطب أغمَده ... صَرْفُ الحوادث فيها بعد تَكْسير
قضَى فوافَق شهرَ الصوم مُرتحِلاً ... ووافَقَ الشهرَ في فضل وتطهير
واختاره خاطِبُ الخطبِ المُلمِّ به ... للصَّبْر كُفؤاً فأمضى العَقْد للحُور
فسار للحَيْن مسروراً وخلَّفنــا ... للحُزْن فاعْجَب لِمحزُون بمَسْرور
ناديتُ ياحادِيَ الاحزان يومَ حدا ... أظعان قلبِيَ رِفْقاً بالقَوارير
فالوَجدُ والدمْعُ من حُزنٍ قد اقتَسمَا ... قلبي وجَفْني بمنظُوم ومنثور
فالقلبُ بالغَيْظ في تصعيد مُسْتَعِر ... والجفنُ بالفَيْض في تصْويب مَمْطور
وسائقُ الخَطْب يشدُو الحاملين له ... يسوقُهم سوْقَ حادي العيرِ للعير
وللملائك في آفـاقها زَجَـلٌ ... قــد شفَّعتْه بتَهْليـــل وتكبير
تَثنى المصابُ على شيخ الجزيرة في ... عَقْد وحَــلّ وتقديم وتأخــير
ذاقَ الرزَايا على مقدار مَنْصِبـه ... والابتلاءُ على قــدر المقَادير
إن كان فرَّق شملَ الأُنس منه فكم ... أوْلاَه لِلْجَـدّ من جمع وتَوْفير
يا دهرُ حمَّلتَه وقْعَ الخطوب ولم ... تزَل تُنفِّـــذ عنــه كلَّ مَأمُور

أردتَ بالصبر مِنْه أن تُقيمَ لنا ... بُرهانَ تقديمه للخَيْر والخِير
يا عامرَ التُّرب كمْ خلَّفْتَ من كَبِد ... ومن فُؤادٍ بِثاوِي الحُزن مَعْمور
لو كنتَ تُحمى وتُفدَى للعُلا ابتدرت ... آلافُها بالقَني أو بالقَناطير[1]
وانَّما الموتُ حكم ليس يدخُلُه ... نَسْخٌ لِخَلْق وعدْلٌ دون تَجْوير
يقضي على الأُسْد في الآجام حاكِمُه ... وفي الكِنَاس على البِيضِ اليَعافير
ويمتطِي الشُّهبَ في شُمِّ الجبال كما ... في الوَكْر يَعتامُ أفراخ العصافير
أعظِمْ بآيَتِه مِن آيَة عظُمَت ... فليس تُدرَكُ في حال بِتفْسير
فسلِّم الامرَ فالاقدار قد نَفذتْ ... وكلُّ شيء بتدبير وتقدير
ما فقرُ ذِي الفَقْر عن جَهْلٍ وعن كَسَل ... ولا غِنَى المرء عن كَيْس وتَشْمير
ولا الحِمامُ بنَقْص في المِزاج ولا ... ضُعف الطَّبيعة عن أسباب تدْبير
فكَمْ صحيحٍ قضَى فيها بلا مَرَضٍ ... وكم مريضٍ أقامتْه لِتَعْمير

★ ★ ★

فاسمَعْ بقَلْبك فالاشياءُ ناطِقَةٌ ... وألْسُنُ الحالِ تُغني كلَّ تَحْرير
مُقدِّمات الليالي طالما فضَحت ... نَتائِجُ الغَدْر منها كلَّ مغرور
جمعُ السَّلامة معدومُ الوُجودِ بها ... فكم بها للرَّدى من جَمْع تكسير

---

(١) القنا جمع قناة وهي الرمح والقناطير المال الكبير جمع قنطار .

والكونُ طِرْسٌ وهذا الخلق أحرُفه والحَرْفُ ما بين مَمْحُوّ ومَبْتُور
والدهرُ يُعرِبُ والافعالُ يُظهِرُها طوعاً ويُعْجِمُ منها كلَّ مسطور
وانما الخلقُ أسماءٌ تَعاوَرَها إعرابُه بين مرْفوع ومَجْرور
وكلهم في مَدَى الاعمار تحسِبُهم كحالِها بين مَمْدود ومَقْصور
والموتُ مثلُ عَرُوضيٍ يُقطِّعُ من أبياتِهِم كلَّ موزُون ومكْسور
يا مَن يُؤمِّلُ أن يبقَى وقد نُفِضَتْ أيْدِي المقادير من إبْرام تقدير
هذي الحقيقةُ لا ما حدَّثتْكَ به آمالُ نفسِك عن دُنياك من زُور
لا تخدَعنْكَ الليالي إنَّ فِتنَتها كادَتْ فكادَتْ تُرِينا كلَّ محذُور
كم باكَرتْ بِعَبُوس الخَطْب من مَلِك قد كان بالبِشْر وضَّاحَ الأَسارير
سائلْ بكِسْرى مَليكِ الفُرْس هل تركت له المَنايا جَناحاً غيرَ مكسور
وانْزِل بصَنْعاءَ في قصر ابنِ ذي يزَنٍ تُلْمِمْ بقَصْر على الأَغيار مقصور
واعبُر على حِيرَةِ النُّعمان مُعتبِراً تَعبُرْ بأطْلال نُعمَى ذاتِ تغْيير
وأين مَن كان سِجْنُ الجنِّ في يده والإنسُ والجنُّ في قَهْر وتسخير
وأين مُخْترِقُ الدنيا بعَزْمَتِه يطوِي البلادَ معاً طيَّ الطَّوامير[1]
بادُوا فليس بها بادٍ يُحَسُّ بِه منهم وأفناهُمُ رَيْبُ الدَّهارير

★ ★ ★

(١) جمع طومار وهي الصحيفة .

هوَ القضاءُ أبا بكر أصِبْتَ به فاصبرْ وسلِّم له تسليمَ مأجور
والله يحرُس علياكم ويرْفعُ عن سامِي مَعاليك أنواعَ المحاذير

ولابي العباس الجزنّائي يرثي جاريته صُبْحاً :

يا صاحِبَ القبر الذي أعلامُه درَستْ ولكن حبُّه لم يدرُسِ
ما اليأسُ منكِ على التصبُّر حامِلي أيأَسْتِني فكأنّني لم أيأسِ
لما ذهبتِ بكل حُسْن أصبحت نفسي تُعاني شَجْوَ كلِّ الانفُس
يا صبحُ ايامي ليالٍ كلُّها لا تنْجَلي عن صُبْحك المُتنفِّس

وله يُخاطب قبْرَها :

يا قبرَ صُبْح حلّ فيك لمُهْجتي أسنَى الأَماني
وغدوتَ بعد عِيانها أشهَى البقاع الى العِيان
أخشَى المنيةَ إنها تُنئِي مكانَك عن مَكاني
كم بين مَقبُورٍ بفَا س وقابِرٍ بالقَيْرَوان

وللعلامة ابي بكر بن شَبْرين السبتي يرثي بَلديّه العلامة ابنَ هانيء :

قد كانَ ما قال البَريد فاصبِرْ فحُزنُك لا يُفيد
أوْدَى ابنُ هانيءِ الرّضى فاعتادني للثُّكْل عِيد
بحرُ العلوم وصَدْرُها وعميدُها إذْ لَا عَميد
قد كان زَيْناً للوُجود فَفيه قد جُمِع الوُجود

العِلْمُ والتحقيقُ والتو فيقُ والحَسَبُ التَّلِيد
تندَى خلائِقُه فقُل فيها هِيَ الروضُ المَجُود
مُغْضٍ عن الإخوانِ لا جَهْمُ اللِّقاء ولا كَنُود
أَوْدَى شهيداً باذِلاً مَجْهُودَه نِعْم الشَّهيد
لمْ أنسَه حِين المَعارِفُ باْسمه فينا تُشيد
وله صُبُوب في طِلا ب العِلم يتْلُوه صُعُود
لله وقتٌ كان ينـ ـظِمنا كما نُظِم الفَريد
أيامَ نغدُو أوْ نَرُوح وسَعْيُنا السعيُ الحَميد
وإذِ المَشيخَةُ جُثّمٌ هَضَبات حِلْم لا تَميد
ومَرادُنا جمٌّ النبات وعَيْشُنا خَضِر بَرُود
لَهْفي على الإخوانِ والأ تْراب كُلُّهمُ فَقيد
لَوْ جِئْتُ أوطاني لأنكَر ني التَّهائمُ والنُّجُود
ولَرَاعَ نفسي شَيْبُ مَن غادَرْته وهْو الوَليد
ولَطُفتُ ما بين اللُّحود وقد تكاثَرت اللُّحود
سَرْعانَ ما عاثَ الحِمَام ونحنُ أيقاظٌ هُجُود
كم رُمتُ إعمالَ المَسير فقيَّدتْ عزْمي قُيود
والآنَ أخلَفتِ الوُعود وأَخلَقت تِلك البُرود
ما للفتَى ما يبتغي فاللهُ يفعلُ ما يُريد

أعَلَى القديمِ المُلْكِ يا وَيْلاه يَعترِض العَبِيد ؟
يا بَيْنُ قد طَال المَدى أَبْرِقْ وأَرعِدْ يا يَزِيد [١]
ولِكُلِّ شيءٍ غايَةٌ ولَرُبَّما لَانَ الحديد

★★★

إيهٍ أبا عبدِ الإله وبَيْننا مَرْمىً بَعيد
أينَ الرَّسائلُ منكَ تأتينا كما نَسْقِ العُقود
أينَ الرُّسوم الصالحاتُ تصرَّمتْ اينَ العُهود
أنعِمْ مساءً لا تُخَطِّيك البشائِر والسُّعود
واقْدَم على دارِ الرِّضا حيثُ الإقامةُ والخُلود
والْقَ الأَحِبَّةَ حيث دارُ المُلْك والقَصْرُ المَشيد
حتَّى الشهادةُ لم تفُتْك فَنجْمُك النجمُ السَّعيد
لا تَبْعدَنَّ وِعْدْ لَو انَّ البدءَ في الدنيا يَعُود
فَلئن بَلِيتَ فانَّ ذكرَك في الدُّنا غَضٌّ جَديد
تاللهِ لا تَنْسَاك أندِيَةُ العُلا ما اخْضَرَّ عُود
واذا تُسومِحَ في الحقوق فحَقُّك الحقُّ الأكيد

(١) تلميح لقول الكميت : أبرق وأرعد يا يزيد فما وعيدك لي بضائر .

جادَتْ صداكَ غَمامَةٌ يُرْمى بها ذاكَ الصَّعيد
وتعَهَّدَتْكَ من المُهَيْمن رحمَةٌ أَبداً وجُود

وله يَرْثي مَلِكَ غرناطة المُغتالَ محمدَ بنَ اسماعيل بن الأحمر :

عَيْنُ بكّي لميت غادَرُوه في ثَراهُ مُلقىً وقد غدَرُوه
دَفَنُوه ولم يُصلِّ عليْه أحدٌ منهم ولا غسَلُوه
إنما ماتَ حين ماتَ شَهيداً فأقامُوا رَسْماً ولم يقصِدُوه[1]

ولابن عبـــد المنَّان يرثي الحاجب أبا عبد الله التَّميمي وفيه جِناس وتَوْرية :

مَن كان يبكي ماجداً فلْيَجُد بالمدمع السَّكْب على الحاجب
يَمَّمَ وجْهَ المجـــد فاغْتــاله صَرفُ الرَّدى لم يخش من حاجِب
عينٌ أصابتْه ويا قُرْبَ مـــا في الوجه بين العيْن والحاجِب

وللشيخ القَصَّار على ما نسَبه اليه غيرُ واحدٍ من الأَثْبات بخُطوطهم والبيتُ الاولُ رأيناه في كتُب القدماء فهو مُضمَّن :[2]

---

(١) يعني دفنه دون غسل ولا صلاة كما يدفن الشهداء وذلك للهرج والفتنة

(٢) من غريب امر هـــذه الابيات اننا رأيناها في كتاب (منتخبات ادبية) للاب بشير إجيا اليسوعي ج ٢ ص ٣١ تحت عنوان (وصيتي) منسوبة لمحمد الدكدجي؛ فيا لأدبيات المغرب اليتيمة من الاهمال !

(زُرْ وَالِدَيْكَ وقِفْ على قَبْرَيْهِما فكأنّني بِكَ قد نُقِلْتَ اليْهِا)
لو كُنتَ حيثُ هما وكانا بِالبقَا زاراكَ حبْواً ، لا على قَدَمَيْهِا
أَنَسيتَ عهْدَهما عشيّةَ أُسْكِنا دارَ البِلَى وسكَنْتَ في دارَيْهِا
ما كان ذنبُهما اليكَ وانما منَحاكَ مَحْضَ الوُدّ من نَفْسَيْهِا
كانا إذا ما أبصَرَا بِكَ عِلّةً جَزِعا لِمَا تشكُو وشَقّ عليهِا
كانا اذا سَمِعا أنينَك أسْبَلا دمْعَيْهِا أسفاً على خَدَّيْهِا
وتَمنّيا لو صادفَا لكَ راحةً بِجَميع ما يَحْويه مُلك يدَيْهِا
فَلتلْحقَنَّهما غداً او بعدَه حتْماً كما لحِقَا هُما أبويْهِا
ولَتَقْدَمنَّ على فِعالك مثلَ ما قدِمَا هُما ايضاً على فِعْلَيْهِا
بُشْراكَ إن قدَّمتَ فعلاً صالحاً وقضَيْتَ بعضَ الحق من حقَّيْهِا
وقرأتَ من آيِ الكتاب بقدْرِ ما تَسْطيعُه وبعثْتَ ذاكَ إلَيْهِا
فاحفَظْ بُنَيّ وصِيّتي واعمَلْ بها فعسَى تَنالُ الفوْزَ من بِرّيْهِا

وللشيخ رِضْوان الجَنْوي :

إذا شئتَ أن تبكي فَقيداً من الورَى وتَندُبه بعد النبيّ المكرَّم
فلا تبكِيَنْ الا على فَقْدِ عالِم يُبادِرُ بالتفهيم للمُتعلّم
وفقدِ إمامٍ عادلٍ قام مُلكُه بانوار حُكْمُ العَدْلِ لا بالتحكُّم
وفَقدِ شُجاعٍ صادق في جِهاده وقد كُسِرتْ راياتُه في التقدُّم

وفَقْدِ سَخِيٍّ لا يملُّ من العطا ليطفئ بؤسَ الفقر عن كلِّ معدم
وفقدِ تَقِيٍّ زاهدٍ مُتورِّع مُطِيع لرب العالمين مُعظِّم
فهُم خمسَةٌ يُبْكَى عليهم وغيرُهم إلى حيثُ أَلقتْ رحلَها أمُّ قَشْعم[1]

وللشيخ ابي عثمان سعيد بن علي الجزُولي الحامدي يَرثي المولَى محمد الحرّان ابنِ محمد الشّيْخ المَهْدِي السّعْدي وقد توفي سنة ٩٥٥ وكان يُذكَر بالشجاعة والحِلْم والعِلْم :

أتَرْوِي الاماني والاماني سَرابُ وتُغْني المغاني والمغاني خَرابُ
إلى مَ التَّعامي والتعلُّل بالمُنَى وقد قُرِّبتْ للظاعنين رِكَاب
خَلِيلي من سُودِ الليالي أساوِدٌ تَعضُّ بصَرْف والمنايا لُعَاب
فمَن تكُن الايامُ يوماً سررْنَه فإنّي بأيامِ الزمـان مُصاب
نَعِيٌّ أتاني والنعيُّ محمد[2] رَددت عليه والدموُع جَواب
بُكاءٌ لمن شدَّت عُرى الملك كَفُّه ومَن رأيُه في المعْضلات شِهابُ
مَهيباً تُلاقيه القبائلُ والقَنـا فتُغْضي وأعمارُ الكُماة نِهاب
كريم غذَتْهُ المَكْرُمَاتُ وسيِّد نَمَتْه كِرامُ الناس طابَ وطابوا
أتتْه المنايا خِلْسةً حيثُ أيقنت بأن اخْتِلاسا في القلوب غِلاب
فتىً نِيطَ حُبُّ المأثُرات بلَحْمه فهُنَّ حُلاه والمديح ثِيـاب
فياليتَ مَن نادى صَداه يُجيبُه كما كان مَن ناداه فهْوَ يُجاب

(١) الداهية والمنية . (٢) يرد النعي بمعنى الناعي والمنعي .

وإنَّ طلابَ الناس للعُرْف بَعْده وقد غيَّبُوه في الثَّرى لَعُجاب
لقد بَثَّ بثَّ الحُزْنِ في الارض هُلْكُه فكلُّ عميدٍ في البلاد مُصاب
نَعتْه القوافي للعوافي فأعولَتْ بَنَاتُ الفيافي أنسُرٌ وذئَاب
أظُنُّ صُروفَ الدهر تحدُثُ بعده ستَحْلو وإنَّ الحادثاتِ لَصابُ
كما حالَ حالُ الطَّيِّبات لفقْده [1] عن العَهْد حولاً فالعذَابُ عذاب [2]
عظيمٌ ألَمَّ في عظيمٍ بمثْله وبين الشُّكول في القياس نِساب
فيَا طيِّباً طاب الثَّرى بعظَامه قضَيْتَ ولم يُلْمِمْ بساحك عَاب
سلامٌ ورضوانٌ عليكَ ورحْمَةٌ يُوافيكَ منها في الضَّريح رِغاب
عليكَ أبا الحرَّان صبراً فذُقْ به دواءً لأدْواءِ الزمان يُشاب
رُزِئْتَ جليلاً فاحْتَسِبْهُ فإنه وإن جلَّ خطْبٌ فالعَزاء عِصاب [3]
لعلَّ مِساسَ الرُّزء يقدَح ما به تُهدُّ صِلادٌ او تُفتُّ صِلاب
فكُن هَضْبةً نأوي اليها فإنَّما الخطوبُ سُيولٌ والملوك هِضابُ
على أنه التمحيصُ والمَيْزُ حاكمٌ بأنَّك تِبْرٌ والملوكُ تُراب
فإن غاضَ منه جعْفرُ البأسِ والنَّدى ففي البَحْر والخُلْج العِظَام حِسَاب
وما ضَاع مجْدٌ قطُّ حُفتَ بقُبَّة فكيْفَ وقد حَفَّ القبابَ قِبابُ
رعى اللهُ للإسلام فيها بُدُورَه وأخْصَب منها للانام جَناب

---

(١) حال يحول حولاً: تبدل. (٢) بكسر العين في الاول وفتحها في الثاني.
(٣) ما عصب به.

وللاديب عليّ بن احمد مِصْباح يَرثي الشهيدَ أبا الفضل جَسُّوس :

حــلَّ بالدين يا لَقوم بَلاءُ أحجمتْ دونَ وصفــه الشعراء
قُتِلَ اليومَ أعلمُ الارض ظُلْماً فَبِه في الاسلام يُحقّ العَزاء
قَتلوه مِن أَجل أن كان أُستا ذاً أعزّتــه السُّنَّةُ السمْحـاء
قتلوه من أَجل أن كان عن سُبْـــل الهوى فيه نُفْرَةٌ وإبـــاء
قتلوه أَن كان للشَّرْع شمساً ليس تخفِي ضياءَها الظلماء
قتلوه أن كان حِصْناً به تُمْنَـــعُ عمَّا تُرِيـــده الاشقياء
قتلوه من اجل أن كان للشَّرْ ع حُسامـاً تَهابُـــه الامراء
قتـــلوه أن كان للحق قَوّا لاً ومَا إن تُضِلُّه الأَهواء
فانظُروا الدينَ أَنْ قضى نحبَه عبـــدُ السلام أوْدَت بـه الغرباء
واذا نُودِيَ العبـادُ ليوم الـفصل جـاؤوا وهُم له شُهَداء
وهُناكَ الإلاهُ والخَلْقُ والأ مْلاكُ طرّاً عن قَتْلِه خُصَماء
ما يكون الجوابُ منهم اذا مَا سُحِبُوا في لظًى وبِيسَ الجزاء
لَهْفَ نفسي عليه هُدَّت به اليو مَ من الدين هَضْبَةٌ قَعْساء
لَهْفَ نفسي عليه ما لشُموس العلـــم حيث اختفت عليه انْجِلاء
عذّبوه حيّاً وقد كانَ سِيَّيْ نِ لدَيـه السرّاءُ والضرّاء
واجتَنوْا مالَه الذي سوف يُجْنى بُؤْسَهم حـين لا يَقِيهم نَجاء
فغَدا عائِلاً واولادُه والاهــــلُ طرّاً جَميعُهم فُقَراء .

غيْرَ أَنْهم لِمَا رأوه من الله وانـ أمْلَقوا فهُمْ أَغنياء
صَبرُوا للقضاء واحتَسبُوا الاجـــرَ وما غيَّرتْهُمُ البأساء
ثم طافُوا به على الناس في الاسْو اق كيما يكُون ِمنهُم عَطاء
فغدا المسلمون يُلْقُون أموا لاً عليه رجالُهم والنِّساء
ما حبوْها الا لظنِّهمُ أنـ سوْفَ يأتي له بِهن الفداء
ثم مِن بعد ذا سقَوْه المنايا ليس واللهِ بعد هذا بَلاء
يا لها مِن مُصيبَةٍ سار في الار ض وفَوْق السَّما بها الإنباء
عمَّت المسلمين رُزْءاً فأضحت كلُّ عيْن منهم عراها البُكاء
يابنَ جسُّوس إن تكُن حبَست للخو ف عنكُم لِسانَها الأُدباء
فأنا اليومَ مُفْصِحٌ بِرثَاكم مِثْلما صخْرها رثَتْ خَنساء
فلْيَقُل مَن يَشاءُ ما شاءَ ولْيَفْعَلْ فَبِي مِن بَلْواكُم بُرحَاء
فعسَى إن لَقِيتُكم يومَ حشْر تشْفَعُنْ لي فإنكُم شُفَعاء

وللشيخ أبي عليّ اليُوسي يرثي زَاوِيةَ الدِّلاء لمَّا أوقع بها السلطان مولاي رشيد العلوي سنة ١٠٧٨ :

أُكَلِّفُ جفْنَ العين أن ينثُر الدرَّا فيأبى ويعْتاضُ العَقيق بها حَمْرا
وأسألهُ أن يكتُم الوجدَ ساعةً فيُفشِي وإنَّ اللومَ آونةً أغْرى
وقد كنتُ أستَصْحيه حتى توقَّدت جُذَا الوَجد فاسْتَسقيتُه يُطفىءُ الجَمْرا
على أنَّ دمعَ العيْن فضْلُ حُشَاشةٍ تُذاب فماذا ينفَعُ الدمعُ أن يُجْرى

وكَانت سُروحُ الهم عنِّي عَوازِباً وبعدالنَّوى أضحتْ مرا تعُها اَلصَّدْرا
وكانت عيونُ الحادثات غوافلاً زماناً وخطْبُ الدهر كان بِنَا غِرّا
لَيالِيَ كان البَيْنُ عن جيرَةِ الحمى صَدُوداً ونظمُ الشمل لم يَسْتَحِل نثْرا
وكانت مُدامَاتُ الوصال مُدامَةً على القَوْم صِرفاً لا مَزِيجا ولا نَزْرا
تَجاذَبُ أخدانُ الصفاءِ كُؤوسَها فلا تَخْتَشِي منها خُمارا ولا سُكْرا
فَبَيْنا ليالي الوصل بيضٌ وروْضُه بفَيْض النَّدا كانَتْ مَرا بعُه خُضرا
عدَتْ غُدوةً أيدي الحوادث فاخْتَلَت ★ خَلاها[1] فعادَتْ بعدَ نَضْرتها غُبْرا
وأبدَلْنَ مَأنوسَ الديار وأهلَها بوَحْشٍ وحوَّلْنَ الأَهيلَ بها قَفْرا
وبَيْنا جُموعُ الحيِّ كالرَّاحِ شِبْتَها بماءٍ فما تخشى جفاءً ولا نَعْرا
وكالفرقَدَيْن الطالعَيْن تألَّفا وصاحِبَي المَلْك الذي نادَم الشِّعْرى[2]
أصابتْهُم عينُ الكمال فغادَرتْ أكُفَّهمُ من كلِّ ما جمعتْ صِفْرا
ورَدَّتْهم مثل الثُّرَيّا اذا رأتْ سُهَيْلاً بشَحْط البَيْن اوواصلٍ والرّا[3]
فأصبح في ارجائها البُومُ مُنشِداً يُرَدِّد مما قال مَن قد خلا شعْرا :
(كأنْ لم يكُن بين الحَجُون الى الصَّفا أنيسٌ) بَلَى لكن هوى جَدُّهم عثْرا

---

(١) الخـــلا النبات الرطب الرقيق واختلاؤه قطعه . (٢) هو جذيمة بن الأبرش ونديماه الفرقدان . (٣) كناية عن البعد والفراق فان الثريا نجم شامي وسهيلا نجم يماني وأما واصل فهو ابن عطاء شيخ المعتزلة كان يلثغ بالراء فيبدلها غيناً ولاقتداره على الكلام يتجنبها فلا تقع في كلامه .

فلا جَفْنَ الّا وهو مُغْضٍ على ٱلْقَذا ... ولا عين الا من نَجِيع الشَّجا حَمْرا
ولا وَجْدَ الا وهْوَ مُرِخ سُدُولَه ... ولا هَمَّ الا وهو يكْتَنِفُ ٱلفكْرا
صبَرتْ فؤادي للخطوب فلم يزَلْ ... به رَشْقُها حتى تقضّى فلا صَبْرا
وأَزمعتُ نَهْرَ الدمع[1] عنّي تعزّياً ... فلما جرَى كالنَّهْر لم أَملك ٱلنَّهرا
ووجهتُ نحو الحيّ أَعرِبُ عن هوَى ... ضَميري فلا أَلفَيْتُ زيداً ولا عمْرا
وأَحسُب ما قد كنتُ أَحسُب دائماً ... فخطَّتْ بنَانُ ٱلْبَيْن في راحتي صِفْرا

***

أَلَا قُلْ لأَرواح الصَّبا لا تُغادِنا ... فإنّا بأَرواح الجَنُوب لنا ذِكْرى
وقل لِبُروق الشّرْق تُغْمِدْ سيُوفَها ... فإن بُروقَ الجَوْف[2] صيَّرْنَها بُتْرا
بِلادٌ اذا ذُقْنَا رُضاب مَعِينها ... فما لِرُضاب العِين نَلْتَمِسُ الثَّغرا
وان نحن رُحْنا بالشَّذا من رياضها ... رَبِحْنا فما نرجو على العَنْبَر التَّجْرا
رياضٌ اذا أَبصرْتَها ونشقْتها ... فلا تذكُرَنْ نجداً ولا تذكُرَنْ شَحْرا
وأَزْرِ على من كان حنَّ صبَابةً ... اليها قديماً إِذْ على مِثْلها يُزْرى
فمن لي بوَادِيهَا اذا فَاح رَنْدُه ... ومَن لي بمَرْعاها اذا أَطلَع المَشْرا[3]

---

١ — اي زجره وهو بهذا المعنى في قافية البيت .
٢ — أي الشمال .
٣ — المشر : النبات الأخضر .

وَمَن لِي بِرَوْضاتٍ يفُوق ضِياؤُها
عليالشَّمْس حُسْناً كلَّما ابتهجَتْ زَهرا
وَهَيْهاتَ وادٍ يُنْبِتُ الرَّنْدَ أَيكُه
وَهَيْهاتَ رَوْضٌ يُطْلِعُ الشمسَ والبدْرا

وعَذْب فُرات تستَقِيه وقايةً ... وتَطعَمُه رَاحاً وتُبصِرهُ دُرّا
فهل نَفحةٌ تَكفِيني المسكَ فائِحاً ... وهلشرْبةٌ تكفِينِي الشَّهدَ مُستَمْرَا
وهل طلعةٌ تكفيني البدرَ طالعا ... وهل لَمْعةٌ تكفيني الثَّغرَ مُفْتَرّا
وهل وقفةٌ بينَ الطُّلول التي قضت ... صُروفُ الليالي في مَعالِمِها نَذْرا
هنالك إخوانُ الفؤَاد وفِتْيَةٌ ... همُ للحَشا خمرٌ فما يطلُبُ الخمرَا
نُزايلُهم لا عن هوًى لِنواهُمُ ... كما لفِطَامٍ زايَلَ المرضعُ الظِّئْرا
وَنَنْأَى عِجالًا عنهم مثلما نأى ... ابو صِبْيَةٍ عنهم اذا يمَّمَ القَبْرا
فمِنَّا إلَيْهم صَبْوَةُ ابنِ مُلَوَّحٍ[١] ... ومنهُمشجَاالخنْسَاءاذ فارَقتْصَخْرا
فما أنزرَ الصبرَ الجميلَ على النَّوى ... وما أغزَرَ الدمعَ الطويلوما أجْرى
فلولا هوى نجدٍ وطيبُ نسيمها ... ورِيحُ خُزاماها اذا ساوَقَ الفَجْرا
وعذبٌ فُراتٌ سَلسبيلٌ سَخَتْ به ... أكفُّ الغوادي في حدائِقِها غَمْرا
ومَشْمُولَةٌ صَهْبَاءُ ما قطُّ شابَها ... براوُوقِه الحاني ولا حلَّت القِدْرا
بها هامَتِ الارواحُ من قبلِ خَلْقِنَا ... ومِن بَعْدما كُنَّا وإذ نبلغُ الحشرا

---

١ – يعني قيس بن الملوح صاحب ليلى العامرية .

فكَم ولّهتْ فِكْرَ ابنِ عيسى ومالكٍ
وكم أطربتْ سهْلاً وكم اشغلت بِشْرا [١]

اذا ما تحسَّاها الفتى لم يخفْ بها جُناحاً ولكن يرْتَجِي عندَها أَجْرا

تُحَمِّلُه الأَوْزَارَ غيرَ مُذَمَّم بأعبائها العُظمى ولم يَكسِبِ الوِزْرا

وتُبرِدُ غُلَّاتِ الحشا وتَشُبُّها أُوَاراً وتعطِي الرُّشدَ والسَّفَهَ الحِجْرا

وتُورِثُه قبْضاً وبَسْطاً وفُرقةً وجَمْعاً ونِسْياناً وتُورِثُه شِعْرا

فلولا رَجاءُ الفوْز منها بشَرْبةٍ
تُداوي عَقابيلَ الهوَى والجوَى المُضْرَى

لكانَتْ أكُفُّ البَيْن تصْدعُ بالجوَى
زُجاجةَ أحشائي فلا أَمْلِكُ الجَبْرا

على أنَّ هذا الدهر ليس بضَارِعٍ له غيرُ مَن أمسى بأحدَاثِه غُمْرا

* * *

هُوَ الدهرُ لا يُبْقِي على مُتَخَشّعٍ ذَليل ولا ذي نَخْوةٍ مُزْدَهٍ كِبْرا

حُسام اذا ما صمَّمَ الدهر في امرىءٍ غذَا دَمُه بين الورى خَضراً مَضْرا [٢]

وسيلٌ إذا ما يمَّمَ الارضَ أصبحت أخاديدَ وانفلَّت كَرادِسُها كَسْرا

---

١ – احمد بن عيسى الخراز ومالك بن دينـــار وسهل بن عبدالله التستري وبشر الحافي من كبار الصوفية .

٢ – غذا: سال ، وخضراً مضراً: هدرا .

وليثٌ هَصُور ما تغَشَّى حظيرةً فيَسْطُوَ إلَّا أنعَمَ ٱلْعَضَّ وٱلْعَقْرا
غشُومٌ فما يَرْتاع من بأْس خادِرٍ كَمِيّ ولا من حُسْنِ ساكِنَةٍ خِدْرا
فليس عجيباً ما أتى من عجائِب ولو أطْلَع ٱلْغَبْرَاءَ واسْتَنْزل الخَضْرا
وليس بنَزْر ما أبادَ وما بدَا ولا بغَريبٍ ما أعلَّ وما أبْرا
فكم من عظيم يعْتَلي فَوْق باذِخٍ من المجد أرْدَتْه صَوارِمُه حَدْرا[1]
وكم من مليك كان يُزْهى بثَرْوة وعزّ ولا يألو اعتلاءً ولا فخرا
تغَشَّاه بالارزاء حتى كأنما له تِرَةٌ منه فلم يأْلُه دَفْرا[2]
وأفرَط في استنفاد ما قد أعَدَّه وما عدَّ حتى ما استطال وما أثْرى
أدارَ على دارًا صريفَ صُروفِه وأتبعه غلَّابُهُ المَلِكَ الحَبْرا
فأَوْدَع ذاك التُّربَ بعد أسِرَّةٍ وأودعَ هذا بعد بَسْطَتِه تَبْرا[3]
وناوَى بني ساسانَ في غُلَوَائِها وعِزَّتِها ٱلْعُظمى فذلَّلها قَسْرا
وغادَر في تِلك المدائِن أعيُناً لِعَيْنٍ غدَت من رَيْب أحداثِه خَزْرا
تُحلِّي نُحوراً بالمَدامِع حَسْرةً وكانت تعالَى أن تُحَلّيها شَذْرا
وصَيَّرها مَقْصُورةً بعد بَسْطَةٍ ومَجْد على نَشْزٍ بِبَطْن الثَّرى قصْرا
ومدَّ إلى تلك المَقاصِير كَفَّه فلم يَدَعِ ٱلْبَيْضاء فيها ولا الصَّفْرا

---

١ – نزولاً وهبوطاً
٢ – ذلا .
٣ – هلاكاً .

وأشرَقت الأَرْجاءُ منها بشِرْعة حَنِيفيَّة من بَعد ما أظلَمتْ كُفْرا
وجرَّ على أَولادِ جَفْنَة ذَيْـلَه فجَرَّعها حَتْفاً وأَلْبَسها صُغْرا
فكانُوا لِآفاتِ الزمان جزائِراً وكانوا قديماً آفةً تُتْلِفُ الجُزْرا
وأنحى على لَخْم فعفَّى رِبَاعَها ورَامَ بني بَدْرٍ فأتبعها بَدْرا
وأَدْرَكَ أَوْتاراً بِسَيْفٍ ويَبْهَسٍ فعَادا كأَنْ لم يُدْرِكا قبْلَه وَتْرا
وطَمَّ على مَرْوَانَ إذ ثَلَّ عَرْشَها فماخافَ عُقباها ولا احْتَمل الإِصْرا
وعادَ على بغدادَ فاجتَثَّ مُلكَها ولم يَحْتَرِمْ أملاكَها ٱلنُّجُبَ الغُرا
ورَامَ ابنَ عبَّاد بخَسْفٍ فنَاله وأَعلَقَ مُنْتَاشاً به النَّابَ والظُّفْرا
أَسيراً بأَغْمَاتٍ كأَنْ قد فُدِيَ به مَن احتَلَّ في تلك الجَزيرة مِن أَسْرى
ولم يَرْثِ إذ يَبْكيه فيها سَريرُه ومِنْبَرُه والدَّهرُ ما يَخْتشي نُكْرا
فهل تَمْتَرِي في صَوْلة الدهر بعدَما أَتَتْك على ذِكْر وقائِعُه تَتْرى
وكم من مُحب صادقِ الحب رَوْضة أنيقة أزهار تَوَسَّطَت ٱلْغُدْرا
إذا رامَ وَصْلَ الحِبّ ألفاه في الهوى
يُسَارِعُ لا هَجْراً يخاف ولا غَدْرا
على أُلفةٍ وٱلْعيشُ دانٍ قُطوفُه كأنَّهما ٱلْفَرْخان قد أَلِفَا ٱلْوَكْرا
فلم ينشَبِ الدهرُ المُشتِّتُ أن فرَى من ٱلْوَصْل ما قد أَبْرَماه وما زَرَّا
وأَوْلاهُمَا بالقُرْب بَيْناً وبالهوَى جَفاءً وبالوَصْل ٱلْقَطيعة والهَجْرا
وأبدلَ ذاك الأُنسَ وَحشاً وَغُمَّةً وذاك اللّذيذَ ٱلْغَضَّ مُسْتوْبَلًا مُرّا

فلا تَهْتَبِلْ بالحادثات ولا تَثِقْ … فما وَهَبتْ يوماً فمَوْهَبُها مُعْرى
مُقرَّبُها مُقْصًى ومَرْفُوعُها لَقًى … ومُنهَلُها مُظْماً ومَكْسُوُّها مُعْرى
ولا تَرْكَنَنْ للدَّهْرِ إنَّ نعيمَه … ظِلالُ سَحابٍ يَمْسَحُ السهلَ والْوَعْرا
فبينا تراها قد كَسَتْك بِبُرْدِها … تجافت بأمْيالٍ فألبَسَت الحَرَّا
مَلُولٌ فما باقٍ على عَهْـــد خُلَّة … ولا مُسْتَدِيمٌ فيك يُسْراً ولا عُسْرا
فإن سَرَّ فلْتظفَر وإن ساءَ فاصْطَبِر … لِعَوْدَتِه فالدَّهرُ ما يألفُ الصَّبْرا
عَشِيرٌ متى يُحْسِن فقد بَرَّ عِشْرَةً … وإلَّا فكُن بالصبر في حُكْمِه البَرَّا
وإن كان يمضي الخَطْبُ والحرُّ لم يَنَل … جِراحاً ولا عاراً به فكُن الحُرَّا
وإن سبقَتْك الحادثاتُ بفائت … فسوف يُريه الدَّهرُ فانتظِر الدَّهرا
أَلم ترَ أَن الدَّهر حُبْلَى أَنِيَّةٌ[1] … ولادَتُها يوماً وإن لم تكُن تُدْرى
فمِن مِنَح تُسْلي ومن مِحَن تُسِي … نَتائِجُها صُغْرى على المرْءِ أو كُبْرى

***

ولا تأْمَنَنْ أَبْناءَهُ ان تحبَّبُوا … إليْكَ فمَنْ يُشْبه أَباه فقد بَرَّا
وكلُّ بَني دَهْر فأَشْباهُ دَهْرِهم … على ما قضَى اللهُ الكريمُ وما أَجرى
متى ما ارْتَجَوْا رَغْباءَ منك تقرَّبوا … اليك وأَبْدوا خالِصَ الْوُدِّ والْبِرَّا
وأَخْفَوْا ذَميماً كان فيك وأَظْهَروا … جَميلاً وقالُوا ذُو مَحَاسِنَ لا تعرى[2]

---

١ — اي مدركة توشك ان تضع حملها .

٢ — لا تجحد .

فذلك أَحرَى أَن يُجِلُّوا ويُنْصِتُوا … إليك رَشاداً كان قَوْلُك أَو تَبْرا
وإِنْ لم يُرَجُّوا منك خيراً رأَيتَهُم … جَفاءً وإِعراضاً يُوَلُّونك الظَّهْرا
ويَنْثُون عنك المُنْدِيات وإِنْ رَأَوْا … جميلاً أَعاروه الغِشاوة والوَقْرا
فلا تُصْغِ سَمْعاً للذي ذَمَّ منهم … ولا للذي أَبدى الجميلَ وإِن أَطْرى
فإِنَّ بَني الدُّنيا عبيدُ هَواهُم … على مرْكَز الأَهوال دَوْرَتُهُم طُرًّا
وإِنَّ هَوَاهُم حيثُ تَرْتَقِبُ الغِنى … وليس هوَاهُم حيثُ تَرْتَقِبُ الفَقْرا
إِذا ما رَأَوْا ذا الوَفْرِ لاذُوا بذَيْلِه … وإِن لم يَنالوا من سَحائِبه قَطْرا
وإِن بَصُروا بالمُمْلِق اهتَزأُوا به … ومَدُّوا إِليه طَرْفَهم نَظراً شَزْرا
وقالُوا بَغيضٌ إِن نأَى ومتى دَنا … يقُولوا ثَقيلٌ مُبْرِمٌ أَدْبر الفَقْرا
فإِن غاب لم يُفْقَدْ وإِن عَلَّ لم يُعَدْ … وإِن مات لم يُشْهَدْ وإِن ضافَ لم يُقْرى

***

وفي اللهِ للمرء اللبيبِ كِفايَةٌ … عن الناس والمحرُوم مَن حُرِمَ الأَجْرا
فكن رابِئاً بالنفس عنهم ومُغْضِياً … بعَيْن الحَشا عما تَكَنَّفت الغَبْرا
ولا تَجْعَلَنْ في غير مولاك هِمَّةً … فمِنْه تَرى لو تَعْلَمُ النفعَ والضرَّا
وإِن شئتَ وُدًّا فيهِمْ وتوَفُّرا … لِعِرْضِك أَو شئْتَ النَّباهة والذِّكْرا
فشارِكْهُم فيما بكَفِّك واكْفِهِم … مُؤُونك واسْتَبْقِ التَّجَمُّل والسِّتْرا
وخالِلْ ولا تَكْلِم وجامِلْ ولا تَرِمْ
وواصِلْ ولا تَصْرِم ولكن خُذِ الحذرا

ولا تَقْتَحِمْ عيناكَ ذا سَمِلٍ ولا ... تَرَ المرءَ مَزْهُوًّا فتُعْظِمه قَدْرا

فإنَّ ٱلْفَتى بالنفسِ لا اللِّبْسِ مَجْدُه ... فما شانَ دُرًّا كَوْنُ أَصْدافِه كُدْرا

وما ذَا على ٱلْعَضْبِ الذي رَثَّ جفنُه ... إذا كان في الهيجاء يُنْعِمُكَ ٱلْبَترا

وإنَّك تُلْفي الناسَ كالنَّبْت ذابلٌ ... لَذيذٌ وغَضٌّ كُلَّما ذُقْتَه مَرَّا

وقَدْ ما يكون التِّبْرُ في التُّرْبِ تختفِي ... مَكانَتُه حتَّى تُخَلِّصَه سَبْرا

وإن كنتَ لا تعْتَدُّ إلاَّ بِمَلْبَس ... فَسِيَّانِ من يُكْسَى ٱلْعَمائمَ والخُمُرا

وإن ٱلْغِنى ما أَورثَ المرءَ في الورى ... مَحامِد في الدُّنيا وعَلْياءَ في الأُخرى

وكم مُتْرَفٍ لم يرأم الضيفُ ساحه ... وكم تَرِبٍ طابَتْ مَحامِدُه نَشرا

فلا خيرَ فيمن لا يُعاشُ بظلِّه ... ولَوْ فاقَ تَحْليقاً بجوِّ ٱلْعُلى النَّسرا

ولا مال في الدنيا لمن ليس راشحاً ... بفَضْل على العَاني ولو جمع الوَفْرا

ولا مَجد للمِسِّيك يوماً ولو حوى ... وأَثَّلَ ما قد كان أَثَّله كِسْرى

فأَغْرِقْ على العَوْراتِ منك بِسابغٍ ... من العُرْف تَغْفِر ما تُساءبه غَفْرا

وان تُعْوِزِ النُّعمى فجُدْ بِبَشاشةٍ ... فخَيْرُ القِرى أن تبذُلَ الرَّحبَ والبِشرا

وعاصِ الهوى إن الهوانَ معَ الهَوى

وفي الصَّبْرِ عِزٌّ فاسْتَسِغْه ولو صِبْرا

فمَن للهوى أَلقى القِيادَ فقد هوى ... ولو أَنَّهُ في المجْد قد وَطِيءَ النَّسرا

وكُن بالذي آتاكَهُ اللهُ من جَدىً ... قَنُوعاً رَضُوا تبلُغ الأَنجُمَ الزُّهرا

وَمن لم يكُنْ مُسْتَغْنِياً بقَناعة ... فليس بِمُنْفَكٍّ عن الناس مُعْتَرَّا

وَمَن لم يكن يَستَرْغِدُ ٱلْعَيْشَ بالرِّضى بِقِسْمَتِه لم يَبْرَحِ الدهرَ مُضطَرّا
وَمَن لم يكن بالحَزْمِ مُحتَزِماً فقد فَرَى حبلَه عن نُجْحِهِ قبل أن يُفْرى
وَمَن لم يُبادِرْ صيدَه وهو مُعْرِضٌ لِيَرْمِيه كانَ العَناءُ له قَصْراً
ومن يَشْرِ بَخْساً نُوقَه وهيَ شُوَّل عِجافاً تمنَّاها لَدَى غَيْره شَكْرى
ومن يَصْطَنِعْ عُرْفاً الى غير أَهلِه فليس بلاقٍ من جزاءٍ ولا شُكْراً
ومن يَحْتَسِبْ يَهْمِلْ كما الغَيْثِ وابِلا فلا العقل يجْفو بالعِهاد ولا الصَّبرا
ومن لا يُثَقِّفْ مَتْنَه الدينُ والحجا ويَرْمِ الورَى يَلْقَ المُثقَّفة السُّمْرا
ومن لا يُجنِّبْ قولَه دنَس الخَنا فلا يَمتَعِضْ يوماً اذا سَمِع الهُجْرا
ومن يَبْغِ بَذْلاً بالسِّباب وبالنَّوى يكُنْ بنُضارٍ جيِّد يَشتَري الصُّفْرا
ومن يصحَبِ الأَمجادَ تَنْظُفْ ثِيابُه وَمَن يصحَبِ الأَرذالَ يكْسى بها العُرّا
ومن لا يجالِسْ من يُجانِسُ لم يَدُم له أَحدٌ فالاسدُ ما ترأَمُ الحُمْرا
وَمَن لم يُجاوِزْ بالصَّديق ويلْحَه يجِدْ لُبَّه نَغْلاً[1] إذا نَزَع ٱلْقَشْرا
ومن يَرْمِ بالبُغْضِ ٱلوَدُودَ معنِّفاً لِيَصْفُوَ يُورِثْ قلبَه البُغْضَ والغِمْرا
ومن لم يَكُنْ يُبْدي سَجاياه يُبْدِها إذا ما ارتَجى ٱلرَّغباءَ أَو آنسَ الذعْرا
ومن يطلبِ ٱلعَلْياء يُلْفِ مَذاقَها هَبيداً[1] لَذُوعاً للحناجر لا يُمْرى
ومن يَسْرِ في دَرْكِ المعالي بهِمَّة لَجُوجٍ رَمُوقٍ للعُلا يَحْمَدِ السَّيْرا
ومن لا يزَلْ كَلّاً يُمَلَّ وتحْتَمِلْ به الأَرضُ أنّى سارَ من ثِقْلِه وِقْرا

---

١ — اي مراً كالحنظل .

ومن لا يكُنْ يُرْجى لخَطْب فلا يَكُن
فتًى في نَديّ وليكن ناهِداً بِكرا

ومن لم يُخلّ النَّفسَ ثم يُحلّها فقد أخطأ المرتادَ من أمّه ظهْرا
ومَن يدّخرْ تقوى الإله وذكْرَه على كُلّ حال يَحْمَدِ السَّعْي والذّخرا
ومَن يغْنَ بالموْلى فلن يَعْدمَ الغِنى إذا لم يَجِدْ يوْماً لجَيْناً ولا نضْرا

ولعبد الله بن محمد العَلوي الشنقيطي يرثي عُمَر التّروزي :

هو الموت عَضْبٌ لا تخون مَضارِبُه وحوض زُعاف كلُّ من عاش شاربه
وما الناس إلاّ وارِدُوه فسابق إليه ومَسبُوق تخُبُّ نجائبه
يُحبُّ الفتى ادراكَ ما هو راغب ويُدركه لا بُدَّ ما هو راهِبُه
فكم لابسٍ ثوبَ الحياة فجاءه على فجْأةٍ عادٍ من الموت سالبه
ولسنا نسبُّ الدهرَ فيها يُصيبنا فلا الدهرُ جالِيه ولا هو جالِبُه
مضى مُشرقَ الأيام حتى اذا انقضَت ليالي أبي حَفْصٍ توالت غَياهِبُه
نقيبٌ نَسينا كلَّ شيءٍ لِرُزْئِه تُذكّرُناه كلَّ آنٍ مَناقِبُه
أناعِيَه أرسلتَ عَزلاء مُهْجتي فها دَمْها جِملاقُ جَفْني ساكِبُه
طوَى نعيُه وعْيي فها أنا غائِبٌ عن الحسّ فيه ذاهِلُ العقل ذاهِبُه
تمكّن من نفسي بنَفْس سَماعه جوىً فيه كلّي ذاب قلْبي وقالَبُه
أهاذي السحابُ الغُرُّ وهي مُلثّةٌ بواكيه أم تلك الرعودُ نوادِبه
لقد صحَّ موتُ المكرُمات بموته وصرَّح ناعيـــه ولَوّح ناعِبُه

دعاهُ السميعُ المستجابُ وطالما دعا الأَجْفَلى [١] وَالعَامُ أَشهَبَ آدِبُه
هو السيد المُمتَدُّ في الناس ذكرُه وفي البوْس كفَّاه وفي البأْس قاضبُه
يُلايِنُ مُرْتاضاً أَريباً وينبري هِزَبراً أَبا أَجْرٍ [٢] على مَن يُغاضبه
فتىً يَهَبُ الآلافَ عفْواً وتنكفي مَخافَته الآلافُ حين تُحاربه
تنوَّع فيه الناسبُون فكلُّهم الى كل جِنْس كامِل الوصف نَاسِبُه
فلِلأَبْحُر الرّاوُون أخبار جُودِه وللقَمر الراوُون كيف مَناصِبُه
والأُسد الواعون شدةَ بأْسِهِ وما دفعت في كل حرب مَناكبُه
يجدُّ فيُفْني مَن يُناوي مهابةً ويُجْدي فَتُغْني مَن يُوالي مَواهبُه
عَلانيــةً يأْتمُّه الجمُّ وارداً فيُضْرِبُه [٣] أَو مارِداً فيُضارِبه
يُناجى بما في نفس عافيه قلبُه فيُتحِفُه ما فيــه نيطَتْ مآربه
فلم يُغْنِه المَجد الذي هو حائز تُراثاً عن المجد الذي هو كاسِبُه
على حزْمه من طبعه مُتَعَقِّب يُباعِدُه الأَمر المَلُومَ مُقارِبُه
مَعاطِفُه ما ضِقْنَ ذَرعاً بحادث جليلٍ وان كانت تُخاف مَعاطِبُه
إِمامُ ندىً في جامع المَجد راتبٌ تُحيلُ القضايا أَن تُنال مَراتِبه

---

١ – هي كالجفلى الدعوة العامة للطعام .
٢ – أي أشبال جمع جرو .
٣ – أي يعطيه .

مُنوَّرُ مرآة الفــؤاد مُوَفَّق ... تَراءى له من كل أمر عَواقِبه

تُفرِّق ما يكفي البرية كفُّه ... وتجمَعُ من فوق التراب تَرائبه

على يده الطُّولى تقمَّصتُ مِطْرفاً ... من العِزِّ والاثراءِ ها أنا ساحبُه

إلى بابه في كلِّ تَيْهاء منْهجٍ ... يُؤَدّي إليه طالبَ العُرف لاحِبُه

سقَى الله قبراً ضمَّه وَبْلَ رحمةٍ ... من الرَّوْح والرَّيحان تَهمي سحائِبُه

وأَوْفَض في وحْشِ التراب بروحه ... الى حيْثُ أتراب الجِنان تُلاعِبُه

وللاديب الطّيب بن مسعود المِرَيني المتوفى ١١٤٥ :

أتيتُ القُبورَ أُداوي بها ... قَساوَةَ قلبي التي أَجِدُ

وقمتُ اسائِلُ عن أهلها ... وهيْهاتَ لا خبر يُوجَد

رأَيتُ مَصارِعَهم عِبْرةً ... تُذيبُ حُشاشةَ من يشْهَد

أَقاموا قليلاً وقد رَحلوا ... وغابُوا وبالعَوْد ما وَعدُوا

كأَنَّ حيــاتَهم حُلُمٌ ... أفاقُوا به بعد ما رَقَدُوا

دعاهُم على الرغم داعِي الرَّدى ... فلبَّوْه حين انقضَى الأَمد

وقد هَدمَ الموْتُ لذَّاتِهم ... وغُيِّر عيشُهُمُ الارغَد

وحلُّوا بُطُونَ الثّرى تحتَهُم ... تُرَابٌ وفوقَهُم جَلْمُد

وقد انكَرتْهُم معارِفُهُم ... وخانَهُمُ الأَهلُ والوَلَدُ

تَساوَوْا بأَجْمَعِهم تحتَها ... فسِيَّان الأَحمرُ والأَسْوَدُ

على كل ما قَدَّموا قَدِموا وما زَرَعتْ يَدُهم حَصدوا

ولابن الطيب العَلمي يرثي ابنَ زاكُور :

قَضى أخو النظم والنثر ابنَ زاكور فجـــادَ دَمعي بمنظُوم ومنثور
وامتدَّ شوْقي بمقصُور الحياةِ له ما حِيلَتي بين ممدُود ومقصور

ولابن زاكور يرثي امرأةً من قَرابته :

سَقَى الرحمانُ قبراً ضمَّ شخصاً تسَرْبَلَ بالمكارم وارتداها
ونضَّر مضجَعاً لفَتاة صِدْق حَوى غُرَرَ الفضائل إذحواها
لقد كانت تحضُّ على المعالي وتندُبُ للمكارم مَن أباها
وقد كانت بأُفْقِ الفضل شمساً فحَطَّتها المنيةُ عن ذُراها
وألبَسها المنُونُ حلى كُسُوف فهلاَّ فضْلُها الوافي حَماها
فكم أَحيَتْ مواهبُها كئيباً احلَّتْه النـوائبُ في حِماهـا
وكم ربَّتْ بأنعُمهـا يَتيماً قَلَتْه أُمُّـــه حتى سَلاها
لئن ماتَتْ فما ماتَتْ حُلاها وان أَودَتْ فما أَودَى عُلاها
فقد أبقَتْ مآثِرَ مُشْرِقاتٍ تُخبِّرُ عن عُلاها في نَواها

وللوزير ابن ادريس يرثي السلطان مولاي سليمان العلوي :

نَبأٌ عَرا أَوهى عُرى الايمان وأَبانَ حُسْنَ الصبْر عن إمكان
شُقَّت لموْقِعه القلوبُ وزُلْزِلت أَرضُ النُّفوس ورُجَّ كلُّ مكان

فَقْدُ الامام أَبي الربيع المرتضى — جَزِعَت لِعُظْم مُصابه الثَّقلان
وبكَت عيونُ الدِّين ملْءَ جفونها — وجْداً عليه وكلُّ ذي ايمان
لما نَعى الناعون خيرَ خليفةٍ — وعرى الفؤادَ طوارقُ الأَحزان
مزَّقتُ ثوبَ تجلُّدي من فَقْده — ونَثَرْتُ درَّ الدمع من أَجفاني
عجَباً لموْتٍ غالَه اذْ لم يَخَفْ — فتك الملوك وسَطْوَةَ السلطان
وسَمَا لمَنْصِبه المُنيف ولم يهَب — غَضَب الجنود وغَيْرَةَ الأَعوان
لو كان يُمنَع خاض فُرسانُ الوَغَى — حِرْصاً عليه مَواقِدَ النِّيران
وحَمَوْه بالنفس النفيسة إنَّما — يَحْمُونَ رُوحَ العدل والاحسان
لاكِنْ قضاءُ الله حُمَّ فلا يُرى — للمَرْءِ في دَفْع القضاء يَدان
والموت مُورِدُ كَلِّ حي كأْسَه — وَسِوى المهيمن في الحقيقة فان
إن غاب عنا شخصُه فلقد ثَوى — فينا الثناءُ له بكل لسان
ومناقبٌ ومفاخرٌ ومآثِرٌ — شاعتْ له في سائر الأَوطان
ومعارِفٌ وعوارِفٌ ورسائلٌ — ومَسائِلٌ قد أُوضِحَتْ ومعان
وبدُورُ أَوْلادٍ وَآلٍ قد قفَوْا — آثاره في العلم والعرفان
تخذوا الديانةَ والصِّيانةَ شِرْعةً — وتقلَّدوا بِصَوارِم الإِيقان
اخلاقُهم ووجوهُهم واكفُّهم — كالزُّهْر والأَزهار وَالأَمزَان
ان حارَبوا أَبدَوْا شَجاعَةَ جدِّهم — او خاطَبُوا أَزْرَوْا على سَحْبان
مِن كُل من جَعل القُران سَميرَه — وسَما بوَصْف العلم وَالتِّبيان

كم آيةٍ ظهرتْ له وكَرامةٍ دامتْ دلائلُها مَدَى الأَزمان
قد كانَ أَوْحدَ دهرِه وزمانه في العلمِ والتَّحقيق والإِتقـــان
قدكانَ فرداً في البلاغةِ ان جرَتْ أقلامُـــه بهَرَتْ بِسحْرِ بَيَان
مَن للعُلا مِن بَعْده مَن للنُّهى مَن للتُّقى وتِـــلاوةِ القرآن
يا رَمْسَه ماذا حوَيتَ من العُلى وطَوَيْتَ من علمٍ ومن عِرفـان
يا رَمْسُ كمْ واريْتَ من كَرَمٍ ومن جُودٍ ومـن فَضلٍ ومِن إحسان
يارَمْسُ كيفَ حَجَبْتَ عنَّا شَمْسَه وضِياؤُهـــا في سائِرِ البُلْدان
فَلَوَ اسْتَطعتُ جعلت في قلْبي قَبره حبّاً وأَحْشَائِي من الأَكْفـــان
ولَوَ انَّ عُمْري في يدي لوَهبْتُهُ وَفَدَيْتُـه بالأَهـــلِ والاخوان
لاكن يُخَفِّفُ بعْضَ أثقالِ الأَسى علْمِي بـــه في جَنَّة الرضوان

•

الموشحات والأزجال

لابْنِ غُرْلة مُوشَّح غَزَلي :

يامن حكى خدُّه الشَّقائقْ ... وما لَه في ٱلْبَهَا شَقِيق
ترَكْتَني بالدُّموع شارِق ... لمَّا بَدا خدُّك الشَّرِيق

***

سَلَلْتَ من ناظِرَيْك صارِمْ ... للفتْك يا شَادِنَ الصَّرِيمْ [1]
وسِرْتَ يَوْمَ ٱلْفِرَاق سَالِمْ ... وقد تركْتَ الحَشا سَلِيم [2]
مَتَى أَراكَ ٱلْغدَاةَ قادِمِ ... يا مَن حَديثِي به قَدِيم
شيَّبْت مِن أَجْلِك المَفَارِقْ ... وسِرْت معْ جُمْلَة ٱلْفَرِيق
ما بيْن حادٍ حَدَا وَسَائِقْ ... قَلْبِي بِمَن ساقَه وَسِيق

***

لِسَائِل الدَّمْع صرت ناهِرْ ... مُذْ سالَ في وَجْنَتي نَهَرْ

---

١ ــ الصريم : الرمل ، ويعني غزال الصحراء .

٢ ــ اي ملسوع .

وَسِرْتَ وَٱلْقَدُّ مِنك خاطِرْ وٱلْقَلْبُ مني على خَطَرْ
لستُ على ذَا الجَفَا بِقَادِرْ لكِنْ بهذا جرَى ٱلْقَدَرْ
سهمُ النَّوَى من يَدَيْك مارِقْ وقد غَدَا للدِّما مُرِيق
فاسْمَحْ بوَعْدٍ يكُون صادِقْ ولا تَكُنْ تهجُرُ الصَّدِيق

●

قلبي غدَا للجَحِيم صالِ يا مَنْ بِسَيْف الجُفُون صَالْ
وغَيْرُ مَغْنَاكَ ما حَلالي فَلِمْ تَرى قَتْلَتي حَلالْ
يا ناحِلَ الخَصْر كالْخَلالِ [1] يا كامِل ٱلوَصْف والخلالْ
ساعاتُ عُمْري غدَتْ دَقائق لمَّا بَدا خَصْرُك الدَّقيق
تَنْطِقُ عن إذْنِه المَناطِقْ تقُولُ بالرِّدْفِ ما نُطِيقْ

●

يا حادِيَ ٱلعِيس مَعْكَ أَحْوَى رِقِّي بإِحسَانِه حَوى
رِيمٌ له ٱلْقلْبُ صارَ يَهْوَى نَجْمِي به في ٱلْهوَى هوَى
لكِنَّه بَعْدَ ذاكَ أَلْوَى دَيْنِي ولِلْعِشْق مَا لَوَى
قَد سرَّح النَّوْمَ فهْوَ طالِقْ عن مُقْلَة دمعُها طَلِيق
وأَنكَر ٱلعَهْدَ والمَواثِق وعَهْدُ ودّي به وَثِيق

●

---

[1] ـــ العود الذي يُتخلل به .

جَبينُه يُخْجِلُ الدَّرارِي وثَغْرُه يَفْضَحُ الدُّرَرْ
والخَدُّ أَزْهى من النَّضار نزَّهت في حُسْنه النَّظَر
عليه سطرٌ من ٱلعِذارِ كَمْ عاذِلٍ فيه قد عَذَرْ
جَمالُه يفتِنُ ٱلعَواتِقْ وخمْرُ أَرْيَاقِه عَتيق
وطَرْفُــه بالنِّبال راشِقْ وقدُّه كالقَنَا رَشيق

•

يا مَن بِسُقْم الجُفُون أعْدى جِسْمِي وبي أَشْمَتَ ٱلعِدَا
أَجرَيْت دَمْعي فصارَ مدًّا وطالَ ما بَيْننا المَدَى
مُضْناكَ بالهجْر مات صَدًّا وما جَــلَا قلبَه الصَّدَا
يا منْ حوى الحُسْنَ فهو فائِقْ من سَكْرَتي فيه لا أُفيق
فارْسِلِ الطَّرْفَ مِنْك طارِقْ واْقْطَعْ على سَلْوَتِي الطَّريق

•

قد ساعَدَ ٱلوقتُ يا نَديمْ فقُمْ بنَا للْهوى نُديمْ
واسْتَجْلِها معْ رَشا كَرِيمْ يرْنُو بأَلْحَاظِه كَرِيمْ[1]
كَأَنَّه قَلبي ٱلكَليمْ وكَأْسه جَذْوَةُ الكَلِيمْ[2]
بِكْرٌ غدَتْ في الدِّنان عاتِقْ ما الحُرُّ من رِقِّها عَتِيق

---

١ — اي كظبي ابيض .

٢ — يعني موسى عليه الكلام .

تُنِيرُ في ٱلْكَأْسِ شِبْهَ بارِقْ إنْ مَزَجْتَ صِرْفَهَا بِرِيق

وله أيضا هذه الموَشَّحة وتُعْرَفُ بالعَرُوس :

مَن يصيد صَيدا فليَكُن كما صَيْدَى
صَيْدِي ٱلْغَزالَهْ مِنْ مَراتِع الأُسْد

●

كَيْفَ لا أَصُولُ واقْتَنَصْتُ وَحْشِيَه
ظَبْيَةٌ تجُولُ في رِدا [1] سُوسِيَّه
صَاغَها الجَلِيلُ فهي شِبْهُ حُورِيَّه
تَنْثَني رُوَيْدا إذْ تَمِيسُ في البُرْدِ
تَعْجِن ٱلْغِلالَهْ والرِّدَا مَعَ النَّهْدِ

●

رُبَّ ذاتِ لَيْلَهْ زُرْتُهَا وقد نامَتْ
والرَّقِيبُ في غَفْلَه والنجُومُ قد مالَتْ
رُمْتُ منها قُبْلَهْ عند ضَمِّها قالتْ
قَرَّ قَرَّ وأهْدَا لا تَكُنْ مُتَعَدَّى

---

١ — منسوبة الى اقليم سوس .

تَكسِر النِّبَالا[١] وتَفْرِط ٱلعِقْدِ[٢]

●

خَدُّها الأَسِيل بدَتْ منه أَنْوار
طَرْفُها الكَحِيلْ سُلَّ منه بَتَّار
ها أَنا ٱلْقَتيل فهَلْ يُؤخَذُ الثَّار
قد أُسِرْتُ عَبْدا ولم أَكُنْ بالعَبْد
مُتُّ لا مَحَالَهْ فاطْلبُوا دَمي بَعْدِي

ولسعيد بن إِبْرَاهيم السَّدْراتي هذا المُوَشَّح في مدح الامــير إِسمعيل بن الاحمر :

نُشِرَتْ فيــكُم بنِي نَصْر لأَبِي الصِّدْق رايَةُ النَّصْر
أَيُّ شَهْم وأَيُّ صِنْدِيـدِ حازَ إِرْثَ السَّمَاح والجُودِ
شيَّدَ المَجْدَ أَيَّ تَشيِيدِ
لم تُخَادِعْهُ أَلسُنُ الشُّكْرِ فَهْوَ في الدهر طيِّبُ الذِّكْرِ
ثاقِبُ الذِّهنِ وافِرُ ٱلعَقْلِ عالِمٌ بالعُلُوم والنَّقْلِ
جُعِلَ النصرُ منه في النَّصْلِ

---

١ — النبالة ويقال النبايل في الدارجة المغربية : الاسورة الرقيقة .

٢ — بالكسر وهذا اللحن هو التزنيم الذي عيب على ابن غرلة ، راجــع ص ١٣١ من الجزء الاول .

ضَيِّقُ الحزْمِ واسِعُ الصَّدر بارِعُ الحُسْنِ باسِمُ الثَّغْرِ
أيُّ بَدْرٍ بِطَالِعِ السَّعْدِ سعِدَتْ منه رُتْبَةُ المَجْد
لم تجِدْ راحتَاهُ عن رِفْد

صادِقُ الوَعْد سابِقُ الفَخْر جالبُ النَّفْع دَافِعُ الضُّرِّ
رَافِعُ الحَقِّ باسِطُ العَدل قاهِرُ الظُّلْم قاتِلُ المَحْل
مانِعُ البَغْي مانِحُ البَذْل

مُذْهِبُ الضَّيْم عاجِلُ البِرِّ ناجِحُ الفِعْل ذاهِبُ العُسْرِ
يا أَبا الصِّدق أنت مولانا كَمْ نوالٍ بذَلْتَ أغنانا
رُقْتَ حُسْناً وفُقْتَ إحسَانا

لكَ جُودٌ كوَابِلِ القَطْر ومَقامٌ أَرْبى على النَّسْرِ

وللمَنصور الذَّهبي هذا المُوَشَّح الغَزلي :

رَيَّانُ من ماء الصِّبا أَهْيَفُ مُمْتَلِي البُرْدِ

●

كالغُصْن هزَّته الصَّبا فوقَ الرُّبى الشُّهْب
قد قلتُ، لمَّا أنْ سبَا بحُسْنِه ، لُبِّي:
من عَيْنِه سلَّ ظُبا وأَغْمَدَها في قَلْبي

●

أَسَرَني ماضي الشَّبَا أَوْطَفُ مُرَنَّح ٱلْقَد

●

يا فَاضِحَ الرَّوْض سَنا وَمُخْجِلَ ٱلْبَـــدْر
وقاطِعِي ظُلْمـــاً عَنَا ومَن مَقَرُّه صَــدْرِي
إنْ لم تكُن شَمْسَ دُنا فإنَّهـــا تَجْري

●

عَلِقْتُه من الظِّبا خِشْفاً يَسْطُو على الأُسْدِ

●

قلت له وقـــد نهد وجـــدَّ في حَرْبي
وغَلَب الظَّبْيُ الأَسَدْ وفازَ بالغُلْب
الشَّمْسُ بُرْجُها الأَسَدْ فاسْعَ إلى قَلْبِي

وللسيد ٱلْعرَبي ٱلْمَنالي مُوَشَّح إشاري :

أَلطَّرْفُ دَافِقْ وٱلْقَلْبُ خافِقْ
فكيْف أُخفِي والحالُ ناطِقْ

●

حـالِي يُنَادِي عـــلى فؤادِي
مِسْكِينُ هـذا لا شَكَّ عاشِقْ

قد كانَ قُرْبي عونـاً لِقَـلْبي
عـلى اسْتِتَارِي من الْخَلاَئِقْ

•

فـانظُرْ حَبيبي الى الذي بِي
إن كَان يُرْضِيك أَنا مُوافِـقْ

•

قالَتْ لي رُوحِي بِي عَـيْنُ مَليح
مُتْ في غَرَامِه إن كنتَ عاشِقْ

•

وَلِهْ تجرَّدْ عن كلِّ مَقْصَدْ
فَمَهْرُ وَصْلِه قَطْعُ العَلاَئِقْ

•

مَوْلاي لَبَّيْكْ لبَّيْكَ لَبَّيْكْ
فَلَيْس لِلْعَبْـدِ عنْكَ عـائِقْ

•

بِحَقِّـكَ ارْحمْ مَنْ أَنتَ أَعْلَمْ
بِهِ وَوَاصِلْ ولا تُفَارِقْ

•

ولابْنِ زَاكُور هذا المُوَشَّح في وَصْفِ الطَّبيعة والْحثّ على الْغَبوق :

جاءَ الأَصِيل مُحْيِ قَتِيل النَّائِبَات
قُمْ يا حَمِيم نُبْرِد حَمِيم الحسَرات
قَدُكَ مِن الأَشجَان يا مَن لَهُ قَلْبٌ رَقِيقْ
أَصْغِ إلى أَلْحَان وُرْقٍ تُنَادي من سَحِيقْ
قد أَيْنَعَ الْبُسْتان فهاتِها مِثْل الْعقِيق
تُشفِي غَليل صبٍّ عَليلْ ذِي زَفَرَات
هَبَّ النَّسِيم يَهدِي شَمِيم الزَّهَرات
والشمس بالْوَرْسِ تَرْقُم بالرَّقْصِ مُلا
تفعَلُ بالنَّفْسِ فِعْلَ الخَليع بالطِّلا
حيَّ على الأُنسِ يا ذا الأَسَى وانْظُر إلى
غُصْنٍ يَميل بِصَباً بَلِيل ذِي نَسَماتْ
مَنْ لا يَهِيم بِشَذَا النَّسِيم أَقسَى الْقُساة

وله آخر من معناه :

أَرْسِلْ جِيادَ النَّظَرِ واعْتَبِرِ وأْشرَبْ طِلَا السُّلْوَان
وذُدْ شَرُودَ الْغِيَرِ ولْتَشْكُرِ مَن طَرَّزَ البُسْتَان

حَلَّاهُ غبَّ المطرِ بالزهرِ مُكَلَّلَ التيجان
وطائرُ البِشرِ صدح لِأَنْ قدح زَندَ المنى السَّعْدُ
باكِرْ مَعَاهِدَ الفرحْ فقد شرح جمالَهَا الوَرْدُ

●

واعتنقتْ هِيفُ الغصونْ يستنشرونْ جواهرَ الأطواق
كأنَّهم مُدلَّهون مُتيَّمون سَمَتْ لهم أشواق
وللبنفسج عيون لا ينعسون تبكي من الإيراقْ
والنَّرجسُ الغضُّ نفحْ لمَّا اصطبحْ من نَشْرِه نَدُّ
فاركُضْ سوابقَ الفرحْ فقد جرحْ خُدُودَه الوَرْدُ

●

وزانَ وجناتِ الشَّقيقْ ندًى رَقِيقْ رُواؤه يَبْهَرْ
كأنَّما على العقيقْ دُرٌّ أنيقْ من أنفسِ الجوهرْ
أو دمعُ مَن ضمَّ العشيقْ يشكو الحريق بخدّه الأحمرْ
يسلو به مَن انتزحْ مِن المرحْ مَن للنوى مَدُّوا[1]
لبِّ منادِيَ الفرحْ فقدْ جرحْ خُدُودَه الوَرْدُ

وله أيضاً في الرَّبيع :

جلَّ صنيع البديع الفاعِل المُختار

١ ـ هذا مفعول قوله يسلو.

حلّى الرَّبيع الرَّفيـــع بِحِلْيَة النُّوار
بسرّ بَديع لِي مُذيع سَرائِرَ الأَزْهار
الروض رَاضَ وَهْوَ راضْ غصُونَ أَشْجاره
شِفَا المِراض في مِرَاض جُفُون أَنْواره

٭

صحَّ العَليل مِنْ غَليل نَسِيمه المِعْطار
إذْ في مَمِيلْ النَّخيـــل من غُصْنِه أَسْرار
وفي مَسِيل[1] سَلْسَبيل مِياهه اسْتِعْبـار
فِعْلُه مَاضْ عند قَاضْ أَفكارِ زُوَّاره
إذْ لا اعْتِراضْ في اقْتِراضْ نُقُودِ أَزْهاره

٭

ولا جُناحْ في مُبَاحْ أَلْحان وَرْشانِه
وهل يُتاحْ ارْتِيـــاحْ الا بِرَيْحانه
تَرْوِي الرِّياحْ عَن صِحَاحْ آثارَ نَيْسانه
مَن في الرِّياضْ والحيـــاضْ أَجَلُّ أَوْطاره
فيه تَرَاضْ عن تَراضْ بَناتُ أَفكاره

---

١ — هذا مفعول قوله يسلو .

ولهُ مُوَشَّح غَزَلي على وَزْن لَيْل الهوَى يَقْظان [١] :

مَن عَلَّم ٱلْغِزْلانْ ٱلْفَتْك بالليْث الجري
وَسَلَّطَ ٱلْعَيْنَان [٢] على قُــلُوب ٱلْبَشَر
يا ضَرَّة الشَّمْسِ اللهَ في الصَّبِّ ٱلْكئيب
يا مُنْيَة النَّفسِ هَجرُكَ للنَّفْس مُذِيب
حَدَّثني حَدْسِي أنَّك لِلُّبِّ سَلِيب

●

بأَسْهُم الأَجفان ذات ٱلعَذابِ الأَكْبرِ
مُصْمِيَةِ ٱلْوَلْهَــان بالدَّعج والحورِ
ما ضَرَّ يا مَحْبُوبْ يا هاجري بلا ذُنوبْ
لو تُنْعِشُ المطْلوبْ بلفظِك ٱلْعذْب الخَلُوب
بغَاية المرْغــوبْ مِن وَصْلك المُحْيِي القُلوبْ
تَذكر يا وَسْنَان ياذَا الرُّوَاءِ الأَنْضَرِ
لَيَاليَ ٱلْبُسْتَان تحت ٱلْعَريشِ الأَخضر
وأنــا في نشْوَةْ من خَمْر ثَغْرك النَّمي

---

١ – هو موشح مشهور لابن سهل الاسرائيلي .

٢ – رفعه على لغة من يلزم المثنى الالف في الاحوال كلها .

مُهَيِّج الصَّبْوَهْ لِكلٍّ من لم يَعْشَقِ
لم تَعْرُنـا جفْوَهْ تُثِيرُ نار حُرَقي

•

ما بَيْنَنَا نَدَمانْ إلا أَرِيجُ الزَّهرِ
أَوْ نَغْمَةُ ٱلوَرْشانْ على غُصُون الشجَر
والبَدرُ من بُعْـده يرقُبنَا بكل عَيْن
أَرسـل مـن وَجْده عَيْنا علينا الفرْقَدَيْن
فغـابَ في قَصْده وخيبَةُ الرُّقبان شَيْن

•

والوُرْقُ في الأَغصان فاقَتْ حَنِين الوتَر
بمُطْربِ الأَلْحان عند الصَّباح المُسْفِر
تُثِـيرُ أَشْواقي بصَوْتِها المُبْري السَّقَمْ
قامتْ عـلى سَاقِ اذ عنبَرُ الليل بَسَمْ
عن ثَغْـر أَشْواق تشْدُو بطِيبِ النَّغمْ :

•

مَقَال ذي أَشْجان حِلْفِ أَسىً وضَرَرِ
« ليلُ الهَوى يَقْظَان والحُبُّ تِرْبُ السَّهَرِ » .

وله توشيح من وزن «شُقَّ جَيْبُ اللَّيْل عن نَحْرِ الصَّبَاحِ» [١] تَخلَّص فيه للمَديح :

عَلِّلاني فلقد جاء الصباح بسُلافِ الرَّاح
وأَمزَجاها بلمى غيدٍ صِباح وامْلإِ الأَقْداح
واسقِياني فلقد غنَّى وصاح طائرُ الإصباح
إنَّ في الكاسات من خَمْرِ الدِّنان سَلْوَةَ المحْزون
فاشربنْها فلقد آنَ وحان زَمنٌ مَيْمُون

●

مُذ بدَت تطلُـع أَقمارُ المُدام في سَنَا الفكرِ
قوَّضَ الأَشْجَانَ من بعـد ٱلتئام رائِـدُ ٱلبِشْرِ
مثلما قوَّضَ غِربانَ الظَّـلام أَجـدَلُ ٱلفَجْـر
يا لها من خمْـرَةٍ رقَّت مَعان مَن بها مَلبُون [٢]
حاكَتِ الأَقمارَ في أَيْدي ٱلقِيـان في اللَّيالي الجُون

●

مَزَجتْها رَاحـةُ الإسكَندَر بَشرَى سرنْديبْ
فلذا أَزرت بطعْـم ٱلسكَّر وأَريج الطِّيبْ
وأَشبَّت بسناها الابهَـرِ أُمنيَّـاتِ الشِّيبْ
فاسْقِنِيها قَهْـوَةً تكسو ٱلبَنَان عَنْدَمَ المَطْعُونْ —

١ — هو موشح مشهور لصفي الدين الحلي .
٢ — الملبون من به مثل الكسر من شرب اللبن والمراد من سقى بها .

مَكَثَتْ في الدَّنِّ دَهْراً مُذْ زَمان صانَها افْرِيدُون

●

بِنْتُ كَرَم حُبِيت كَرْمَتُهـا لأَبـي بَلْقِيـسْ
وسقاهـا فبدتْ نَضْرَتُها أَرِسْطاطَاليسْ
خلْتُهـا لما غَشتْ سورَتُهـا في حشا البِنِّيس[1]
زَجَل الرُّهبـان يوم المَهْرجان في حِمى عَبْدون
أَو فُؤَادي إذْ عـلاه الخفقان فهْو كالمَجْنُون

●

هاجـه ذِكْرُ عُهُـودٍ باللِّـوى في ظَلال البَانْ
وبِرُوحي ياعَذُولي في الهـوى شادِنٌ فَتَّـانْ
وجهُه والبـدرُ في الحُسْن سَوا فهُما مِثْـلانْ
يا لَهُ من أَحْورِ الجَفْن يَرانْ لحظُـه المَسْنُون
وجفا عيني الكرى لمّا جفانْ وَصْلهُ الممنونْ

●

لَيْتَ إذْ مَزَّق صَـبْري بالجَفا وسَبَـا لُبِّـي
وكَسا جِسْمِي الضَّنا والدَّنَفا وبَرَى قَلْبـي
يَتَّقِي الرَّحمَـن فيمَن أَتلفـا دُون مَا ذَنْب
فلقد أَوْدى بروحي الهَيمان وكسَانِي الهـونْ
وحكَى لوْني مِمَّا قد عَرانْ صُفْرَةَ العُرْجون

---

١ ــ البنيس مثل الدن للخمر .

يا حيـاةَ ٱلرُّوح صِل ذا ٱلمُبْتَلى بالهوى قَهْرا
لا تظُنَّ القَلبَ منه قـد سَلا أَو نوَى غـدْرا
لا ومَن فضَّلـهُ ٱللّهُ على خَلقِه طُـراّ
الرَّسُول المُصطفى الثَّبْت الجَنان ذي السَّمَى ٱلمَيْمُون
مَن حَبَـاه ٱللّهُ بالآي ٱلحِسان والنَّبا ٱلمَكنون

ولابن الطيب ٱلْعَلَمي توشيح في وزن « يا لَيلَة ٱلْوَصْل وكأْس ٱلْعُقَار »[1] :

يا ليلَة السُّكْر ويَوْم الخُمار بين الصِّغار علمتُها لاكْوَاس رميَ الجِمار
باتَ يحَيِّينا نسيمُ الرِّياضْ
حتى اكتَسى الليلُ قمِيصَ البَياض
كأَنَّما يَمْلَا الطَّلا من حِيَاض
مُهَفْهَفٌ يُنْسِيكَ ذاتَ الخِمار غِبَّ ٱلْمَزار يُديرُ باليُمنى لناو ٱلْيَسَار
فاشْرَبْ فما في شُرْبها من جُنَاح
هذا غُرَابُ الليل ضَمَّ الجَناح
وقَهْقَه الإِبريقُ والطَّيْرُ ناح
وفاحَ كالعَنبَر نشْرُ ٱلْعَرار بين الثِّمار وأَنْشَدَ ٱلْقُمْرِيُّ حيِّ الديار
واستَنْطَق الاوتارَ تحت ٱلْوَرَقْ
ظَبْيٌ صفا منه الجَبِينُ ورَقّ

١ – هو موشح مشهور لشهاب الدين العَزازي.

نامَ وأَهدى للعُيونـ الأَرَقْ

عارِضُه فوق الخدود اسْتَدار ثم اسْتَنار وأَلْبَس الحُمرةَ ثوبَ اخْضِرار

بدرٌ على جيْش المِلاح ظهَر[1]

يَعبَقُ ريحُ المسك منْها ظَهرْ

فهل رأَيتَ الغُصْن لَمَّا زهَرْ

مُستَأْنِسٌ أَصبحَ يَبْغِي النِّفــار فما يُزارْ ووجهُه الجنَّةُ حُفَّت بنــارْ

لما استَحلَّ الوصلَ لي واسْتَبَاح

في ليلةٍ تُنسِي اللَّيـالي الصِّباح

قلتُ وقد أَسفَر وجْهُ الصَّباح

« يا ليلةَ الوَصْلِ وكَأْسَ العُقار دُونَ اسْتِتَار علَّمْتُماني كيفَ خَلْعُ العِذار »

وللقاضي محمد بن طاهر الهوَّاري هذا الموَشَّح في مليح شريف :

شـادِنٌ بالغَرامْ يَستفِزُّ الغَـريم

وَصْـلُه لا يُرامْ والهَوى لا يَريمْ

●

أَغيَـدٌ لا يَقِيلْ مُهجَتي بالْمُقَـلْ

وبطَرْفٍ كحيـل حلَّ فيه الكَحَـلْ

وبخَـدٍّ أَسِيـلْ فوْقَ غُصْنِ الأَسَل

---

١ ــ غلب وانتصر .

بُخْـــلُه بالسّلام أَضنَى قلْبي السَّليم
ليتَـــه بالكلامْ أَحْيى صَبًّا كَلِيمْ

●

وَحْشَةُ الهــاشِمي صيَّرَتْني هَشِيمْ
مَن غـــدا لَائِمي في هَـواهْ لَئِيم
أَيُّهـــا الفاطِمي صِلْ مُحِبّاً فَطِيم
لَحظُه كالحُسامْ لِفُؤَادِي حَسِيم
مُظْهِرٌ بابْتِســـام دُرَّ ثغْـر بَسِيم

وللشيخ محمد الحرّاق هذا الموشّح الإشاري :

زالَ عن قَلْبي تَولُّه[1] الفَنا وصَفــا أَمْري
إذْ غدا لِي كلُّ رَبْعٍ وطنَا وانْتَفَى نُكْرِي

●

كلُّ مَاء قد حوَتْه شَرْبتي فــأَنا رَيَّانْ.
لستُ يوماً أَحتَسِي من خَمْرتي وأنا نَشْوانْ
من رَآنِي ثابتاً في حَيْرتي ظَنَّني وَسْنانْ
لم أَزَلْ بينَ هُناكَ وهُنــا دائمــاً أَسْري

١) دخله الكف وهو في الرَّمَل صالح .

وأَزُجُّ الفَقْرَ في عَيْنِ الغِنى   إذْ هُما سِرِّي

●

مِن جُيُوبِي كلُّ طِيبٍ عَبِقا   عنـد إيقَـاني
عَجَباً كيف يُنـافيني البَقَا   فَـأَرَى فَـانِي
وَوُجودِي كلَّ شيْءٍ سَبَقَا   ليسَ لي ثَاني
شارِباً أُلْفَى وَمَشْرُوباً أَنا   وأَنـا غَيْري
وإذا غَيْري بدَا فهْوَ أَنـا   للَّذي يَدْرِي

●

إذْ بُطُوني يَقْتَضِي لي سَاتِرا   في مَقَامِ البَيْنْ
وظُهورِي يبْتَغِي لي مُبْصِرا   في ضِيَاءِ العَيْنْ
فأَنا في البَيْن والعَـيْن أُرَى   واحداً في ٱثْنَيْنْ
ظاهِرٌ منِّيَ مـا قـد بَطَنا   فاعْرِفُوا قَدْري
مَن رآني يجْتَنِي زَهْرَ المُنى   مُـدَّةَ ٱلْعُمْرِ

وهذا زَجَلٌ في النقد الاجتماعي لابن شُجَاع من أَهل تَازَة :

المالْ زينَةْ الدنيا وعزُّ النفوس   يُبَهِّي وجوهاً ليست هِيَ باهْيا[1]

١ـ تقوم الف الاطلاق في العامية مقام التاء المربوطة ويلاحظ هذا في كل ما يأتي من ذلك .

فيها كلّ من هو كتير الفلوس ولوه الكلام والرتبة العاليـا

●

يكبر من كثر مالو[1] ولو كان صغير ويصغر عزيز القوم إذ يفتقر
من ذا ينطبق صدري ومن ذا يصير يكاد ينفقع لولا الرجوع للقدر
حتى يلتجي من هو في قومو كبير لمن لا أصل عندو ولا لو خطر
لذا ينبغي يحزن على ذي العكوس ويصبغ عليه ثوب فراش صافيا
اللي صارت الأذناب أمام الرؤوس وصار يستمد الواد من الساقيا

●

ضعف الناس على ذا وفسد ذا الزمان ما يدروا على من يكثروا ذا العتاب
اللي صار فلان يصيح بأبو فلان ولو رأيت كيف يرد الجواب
عشنا والسلام حتى رأينا عيان أنفاس السلاطين في جلود الكلاب
كبار النفوس جداً ضعاف الأسوس هم ناحيـا والمجد في ناحيـا
يروا أنهم الناس ويرونهم تيوس وجوه البلاد والعمدة الراسيـا

وله زجل غرامي :

تعب من تبع قلبو ملاح ذا الزمان اهمل يا فلان لا يلعب الحسن فيك

---

١ – يقوم الواو المتولد عن اشباع الحركة قبله مقام الضمير هنا وفيما هو مثله مما يأتي في هذه الأزجال .

ما منْهم ْمليح عاهدْ إلَّا وخان   قليل مَن عليه تحْبْس ويحْبْس ْعليك

●

ْيتيهُوا على العشّاق ويتمنّعوا   يتعَمّدوا تقطيع ْقلُوبْ الرّجال
وان وَاصْلُوا من حِينْهم يقْطْعُوا   وان عاهْدُوا خانُوا على كُلّ حال
ْمليح كانْ ْهويتُ قلبي وْست معُو   وصيّرت من خدّي ْلقدَامُو ْنعَال
ومهّدت لُو من وسْط قلبي ْمكَان   وقُلْتْ لقلبي اكْرم لمن حلّ فيك
وهوّن عليك ما يعْتريك من ْهوَان   فلا بد من هَوْل الهوى يعْتِريك

●

حكّمْتُو علي ورْضيتْ به أَمير   فلو كان يَرى حالي إذَا ْيبصْرُو
يرْجع مثل درّحوْلي بوجه ألْقدِير   مردِيه ويتعطس ْبحال انْخْرُو
وتعلّمت من ساعا بسَبْق الضّمير   ه ْيفهَمْ ْمرَادُو قبل أَن يذْكْرُو
ويحتَل في مطْلوبُو ولوان كان   عصرفي الربيع أَوفي اللّيالي يْريكْ
ويمشِي يسُوقو ولو كان باصْبِهان   ه إيشْ ما يقُول يحْتَاج يقُولُو يْجيك

ومن زَجل سياسي للكفيف الزرهوني يذكر فيه هَزيمَة أَبي الحسن المريني بافريقية وانقطاع خَبره عن رَعيَّته :

سُبْحان مالِك ْخواطر الأُمْرا   ونْوَاصِيها في كُلّ حين وزْمان

إن طِعْنا عطْفَهم لنـــا قَسْرا وان عْصِينَاه عاقْب بكُلّ هْوَان

•

كُنْ مَرْعِي قُل ولا تكُن راعِي فالرَّاعي عن رَعيَّتـه مَسْؤُول
واسْتفتح بالصَّلاة على الدَّاعي للإسلام والرّضا السَّنِي المَكْمُول
على الخُلفا الرَّاشْدين والاتْباع واذكُر بعْـدهم إذا تحبّ وقْول
احُجَّـاجـاً تحللوا الصَّحْرا ودّوْا سَرْح البلاد مْعَ السكّان
عَسْكر فَـاس المنِيرة الغرَّا وَيْن سَارت بـه عْزَائم السُّلْطان

•

أَحُجَّاجاً بالنَّبي الذي زُرْتُم وقْطعتُم لُو كْلاكْل البيْـــدا
عن جيْش الغَرْب حِين يسْأَلكُم المَتْلُوف في افْرِيقْيــا السوْدا
ومَن كَان بالعْطَايا يزّودْكـم ويدَع برِّيَــة الحجـاز رَغْدا
قَام قُل للسدّ صادف الجزْرا ويعْجز شوط بعد ما يْحفَــان
ويزفّ كردُوم وتهب في الغْبْرا أي ما زَاد غزالهم سَبْحَان

•

لوْ كان ما بين تُونس الغَرْبا وبْلاد الغَرْب سدّ اسكَنْدَر
مَبْنِي من شرْقها الى غَرْبا[1] طبْقَة بْجْديد وثَانيا بصْفَر

١ــ يعني غربها فالهاءُ فيه مختلسة .

لا بُدّ للطّير ان تجيب نبَا او يَأتِي الرِّيح عنهم بفَرْد خْبَر
ما اعْوصْها من امور ومَا شرّا لو تقْرا كلّ يُوم على الدّيوَان
لَجْرَتْ بالدّم وانْصدع حَجْرا وهْوَت الخراب وخافَت الغزْلان

•

أَدْرِ لي بعَقْلَك الفحّاص وتفكّرْ لي بخاطْرك جَمْعـا
ان كانْ تعْلَم حْمَام ولا رقّاص عن السُّلطـان شْهَر وقبْله سَبْعا
تظْهر عند المهيمن القْصَاص وعْلامات تُنشَر على الصَّمْعا [1]
الّا قوْم عارْيين بلا سْترا مجهُولين لا مْكَان ولا إمكَان
ما يدرُوا كِيف يصّوروا [2] كْسرا وكِيف دْخلُوا مدِينة القيرَوان

•

اموْلاي ابو الحسن خْطِينا الْبَاب قَضيّـة سيْرنا الى تُونْس [3]
فقنا كنّا على الجْرِيد والزّاب وَاشْ الك في اعْرَاب افْريقيا القُوبْس
ما بلْغك من عُمَر فتَى الخطّاب الفارُوق فاتح القُرى المُولْس
مْلْك الشّام والحْجاز وتَاجْ كِسْرى وفْتح من افْريقيا وكَان

١– يريد الصومعة .
٢– اي يكسبون كسرة .
٣– راجع فصل الوجهة السياسية من العصر المريني في الجزء الاول .

ردّ ولدت لُو كرَّة ذكرى ونقل فيهـــا تفرَّق ألاخـــوان

•

هذا الفَارُوق مُردِي الاعوان صرَّح في افريقيا بذا التصريح

وبقَت حمَى الى زْمان عثمان وفْتحها ابن الزُّبير عن تصحيح

لما دْخلتْ غنَائمها الدِّيوان ماتْ عْثمان وانقلْبت علينا الرِّيح

وافْترق الناس على ثلاثة أَمرا وبقِي ما هو للسكُوت عُنْوان

اذا كان ذَا من مـــدّة البَرَا أَشْ نعْمل في اواخر الأَزْمـــان

ومن زَجل لابن داوُد يتضمَّن قصةَ الجواري العشر التي صاغَها عبدُ المهيمن الحضرمي في شكْل مقامة ذكرناها في الجزء الثاني :

أَنا ندُور في فاس بين زْناقي ودْرُوب بالطَّبْع والتأدُّب

حتى سمعتْ هَوْل في واحد الزَّنقا[1] بين الرِّيَام دَعَقَا[2]

لمَّا سمعتْ ذا العْياط يا حَضْرا اوْقفت رِدْت خبْرا

وانظْرت في الرْيام وْجدتهم عشْرا بَيْضـــا ولَوْن حَمْرا

ورقيقَة غْزال في بْلاد الصحرا واخرى مْلات عَبْرا

واخْرى شطَّا مثل غصْن البَـــان وقصيرة وردَة في كُمّ مَلِك

١– الزقاق .

٢– خصومة .

والبلديةْ بزِينها الفتّانِ وعَرْبية كُستَها باللّك [١]

وعجُوزَة متهدّمة الأسنان وصبيّة بشفَارهـا تهْلك

من بَعْد ما هَدُّوا حضِرُوا هناك أجوَاد

وقفُوا وقد ردّوا وتأدّبوا الاغْيَـــاد [٢]

والضدّ مْعَ ضدُّوا يْتعايْروا الجْهَـــاد

بيْضا مْعَ الحْمِيرا وشطًّا مْعَ القْصِيرا وعْجْوزَة والصّغِيرا

والسّاكْنا البلادبالوَجْه المحْجُوب وعَرْبيّة بغَنْبُـــوب [٣]

واللِّي مْلَات بالشّحَم في عَرْقا واللِّي تْبَــلَاتْ برِقّا

●

نطْقت وقالت البيضا حُسْني هَاج لَوْني أبيض كما العَاجْ

بدني كما الغُصْن بيدِّين نسّاج وانتِ كَذَاك التمْسَاح

بَيْن البْياض وبَيْن السّواد دْرَاجْ مثل النّهَــار والدّاجْ

النّسْري [٥] واللّوْز والازْهار والسُّوسَان والياسْمين لَوْني

وكْواكب والشمْس والاقمار من وَجْهي والصّبْح من حُسْني

---

١ – بالحمرة التي هي لون اللـّك .

٢ – يريد جمع غيداء .

٣ – يعني بوجهها المكشوف .

٤ – كذا في الأصل ، فهل يدخل الأكفاء الزجل ؟

٥ – أي النسرين .

وأنتِ لوْنك يحْكي للقَار ودْنيتي[1] يا سَوْدا تعَانْدْني
اوعاي مع عَملك او اصْمتِ وباعدني
وانظر إلى لونـك وانظرْ إلى لوْني
عندي أَحسن منّـك في الـــدار تخدْمني
لون البياض زهْوا لهْ العبَاد تهوى نصْف الجْهال هُوا
انظُر بفكرتك في الثّوب المجْلوب صاحب البياض محبوب
وما السوَاد مَن راد يتنَقَّى باطل كذاك يشْقَى

●

نطقت وقالت السمرا بالزعاج[2] لوْني بديع وهّـــاج
يشرق كما الخَمْرِ في قطعان الزَّاج نسمـة وطِيبَـــة وعْلاج
وبمَآ الذّهب كيْتكْتب التَّاج ونَقْش القَباقب العاج
مارِيت في البياض سوى خَمسا مَعْروفين بالثِّقـل والبراد
ملْح وجير وثلْج به تُكسا ورخام وعاج في البياض قدّاد
منجُوسين وقَلهـــا بَخْسا[3] تحت الأَقدام يجرُعوا النّكاد
ورِفعة الاسْوام تُعرَف للاسْمَر
شُهدُ العَسَل ومدام والمِسْك والعَنْبَر

---

١ – اي من البلاء ان تكوني انت منافسة لي.

٢ – يريد بانزعاج .

٣ – اي وما ابخسها .

والتِّبر حين يغنام والبرْهمان الاحمر

والتمْر في اوانُو والزَّهر في أَغْصانُو والعُود فِي مْكانُو

الاحْمَر بْديع في الماكول والمشْرُوب ما فيه شيء معيوب [1]

وللعَذْراوي زَجلٌ يُعرف بالصَّبوحي :

الصُّبْح كَشْريف أَرخى ذَيْل إزَارُو ولْبس من الديبـاج غْفَارا

والليل كغْلام أَسْود شابْ عْذَارو وشْعَل مـــن البياض مْنارا

•

الصُّبح كَنسر يتَعلَّى والليل سالد مْع غْرابُو

والضوء في سْماه تولَّى وارْسل على الظلام عْقَابُو

انظُر تَرَ حْمام القِبْلا مِثْل الامام في مْحرابُو

الفَلَك كيف دار بصَنْعة دوَّارُو وخْفَـا كواكبُ السَّيَّارا

هبَّ النسيم بين الداعي ونْهارُو شوَّش دْواحْنا المَسْرارا

•

الأَشْجار بارْزة في حْليها تُجلى على سْواقي البُستان

ومْياه خَلْخلت رْجليها والزهر دارْ لْها تيجان

---

١ ـــ نشرنا هذا الزجل بتمامه مع بحث قارنّا فيه بينه وبين مقامة الحضرمي في مجلة تطوان عدد ٥

مدّت من الكمام يديها تطلب من الكريم الغفران
الأغصان كلّ واحد يغرم دينارو يعطي على الصباح بشارا
والطير كالخطيب طلع في منبارو وعظ والاغصان سكارى

●

اقبلت محاسن الغدويّا للوالعين وللّي تابوا
والروض في ثياب نقيّا يعبق على طراف جنابو
والمبرج كسنا ذهبيا يرمي على الرّقيب شهابو
صبّ تشوف يا ساقي من بلّار اسعَ وطف بالخمّارا
واعطف على شموس مقامك واقمار وكمّل على وجوه الدّارا

●

اغنم معَ المليح صباحك أما ترى الزمان في غفلا
واشعل من الهنا مصباحك من لا يفوز ما يسلا
إذا اجرت بك رياحك جفنك يعوم فوق الحملا
خلّ عدوّك يتقلب فوق جمارو وادّ من السّرور إمارا
من جاد لو زمانو يقطف نوّارو الايّام صاحيا معطّارا

وللشيخ الحراق زجل غرامي :

جاد الزمان واستبشر قلب الهايم وتحلّى بالسّعد حين صاب مناه
نكى الحسود وظفر بالعزّ الدّايم واصبح يتبختر في ثياب هناه

●

طاب السرور

مع البدور
بيض النحور
فاغنم كأس الرَّاح ها حبيبك زارْ
اسق ودُور
وانف الشرور
طول الدهور
ساعة السلوان فايدة الاعمار
آتِ المليح واعصي باللوم اللايم واعمل في ايامك ما تهواه
وانشد من أشعارك في الحسن القايم نجمك صاح صار في صعود سماه
صِل الشراب
فالنكاد غاب
والخير صاب
وسرج الفرجات شعشعت الانوار
رشف الاكواب
مع الاحباب
عين الصواب
فا زهى في زمانك لو تعيش نهار
نظرة في الحبيب تمحي كل جرايم والرحمن كريم يا اللي يرجاه

إذا مَا رْضى ما تنْفَعْ عْزايمْ لَوْ باعْمَال الْخيْر كلّها تَلْقَاه

وله أيضاً :

زَارْ حبيبي بَعدْ مَا جْفا وتْبدَّد كَربْي
وتْيقَّنْتْ بْخَاطْرُو صْفَا حِينْ بْغَى قُرْبي
واجْذْبني بالصّدقْ والوْفَا واقْلعْ عن حَجْبي
واظْهَر لي سرَّ ما خْفَا عنّي في جَذْبي
نارْ غْرامُو ما تنطْفا عُمْري من قَلْبي
ما مِنّي لِلُو مْخَالْفا يَقتُلْ أو يَسْبي
لامُوني في هْواهْ مَا كْفى واتّقوا عْجْبي
وَانَا حَالي ما يْنْتفى راسْخ في شُرْبي
نِلتْ وْصالُو بالْمسَاعْفا ما هُو منْ كَسْبي
غِير تْلاقِيتو مْصادْفا سَابْقَة من رَبّي

وله كذلك :

جَادْ عليّ بْرضَاه
الحبيب اللّي حَبّيتُ زارْني وانعم لي بالوْصَال
حِين اشْرق نُورْ بْهَاه
كلّ شي بالقَهْر نْسِيتُ يا اهْلي عقْلي اذا شفتوه زَال
ما بي غِيرْ هْواه

بَانْ فيَّ بَعْد ما خْفِيتُ والغْرَام اذا هُو تْقَوَّى وِصَال
مَا يقْدرْ مَن يَلْقَاه
شُوفْ حَالي حينْ لْقِيتُ حاطْ بِي واقْهَرني بالنّصَال
كلّي في الحقّ مْنَاه
قال لي غِيرك مَا ريتُ يا لُوَالْهِ زوّل شكّ الْخيَال
مَا تَمَّ غِير الله

وللسيد عبد القادر العَلَمي المتوفى سنة ١٢٦٦ زجل غزَلي :

الخَالْ غلاَمْ عَسَّاسْ في رَوْضَةْ منعَّما
كِينُّو ضْرِغَام [1] في يمِينُو حَرْبَة لِيَ اوْ ما
منْ حَاذَاه يَتْركُو رميم
صُنْع العَلَّام نُقْطَة في صْفْحَةْ مكرَّما
ما نْزلتْ باقْلام حكْمت ربِّي رَافع السّمَا
كَوْن الله الدَّايم القدِيم
وْجعَاب ارْوَام [2] وكْوَابس [3] للضَّرْب رَايْما
ما تْقبلْ تَذْمَام في مكَاتْب كُفَّار ظَالْما

---

١ – يعني كأنه .
٢ – أي جعاب بنادق رومية وهو يريد الحواجب والعيون .
٣ – جمع كابوس وهو في العامية المغربية المسدس .

مَوْلُوعَة بالقَتْل والهْجِيم

واِلجِيـــدْ رَام قُدَّام جْلِيب وهـــاْيِها
شْرَادات اللَوْهام على العفَّـــة والطّيب قَايْها
ما تقْرا أَمَان مَا تْقِيم

زِين الأَعجام[1] العَيْن الشُّهْلا النَّـــاْيِها
والبْيَـاض تْمَام وحْرُوف الزِّين المْسّقْما
وصْف الزّين في صنعَة حكيم

قَامَـة الأَعْلام جُبِيْن وغُرَّة مْبسّما
حُسْن بغَيْر وْشَام وخْدُود كوَرْدَة نَاسْها
صُنْع الله المَلِك العْظِيم

وله أَيضاً :

راحْ الوقْتولا بْقَا الَّا وقت المْعَـانْقـا
كُبّ وِرَا[2] وارْخِي رواق
والاشجَار البَاسْقا والأطْيَـــار النَّاطْقا
عمّرت بْلُغاها اسْوَاق

---

١ - أي جمال عجمي غير عربي فهو كالبيت المشهور :
الله اكبر ليس الحسن في العرب كم تحت لمة ذا التركي من عجب
٢ - اي املأ الكأس وناولها .

كُبّ الصَّهْبا الخَارْقا في كِيسان بْنَادْقا[1]

من زَاجْ بْلاد العِرَاق

تظْهر خَمر بَارْقا في الاوَاني شَارْقا

كَلوْن سْحِيق الرّهَاق[2]

وله من زَجَل في مدْح المَوْلى ادريس الأَكْبَر :

بْوجُودْك يا سْراج مَحْفل أهل اليَقِيْن

سْعَد الغَرْب بعد كَانْ في بُرْج نْحِيس

انْتَصْرت مــلّة النّبي وتْشهَر الدِّين

والحقّ اسْتَقام منْهَجو بَعْد التَّنْكِيس

وقْطَع سيْف الهُدَى رْقاب المرْتَدِّين

نالقَهْر ولا بْقَى رْهيب ولا قِسِّيس

نبنَـــات مْساجـــد العِبَـــادَة للمْبِيْن

وفْنُون العِلْم بالتّـــلاوة والتّدْرِيسْ

بْوجُودْك يا سِيْدنَا مَوْلاي ادرِيسْ

---

١ — يعني من صنع البندقية .

٢ — يريد به الزعفران .



مصادر الكتاب

لهذا الكتاب مصادر عامة وخاصة ، أما العامة فهي التي تتناول موضوع المغرب مع غيره من الموضوعات كالتواريخ الكبرى ودوائر المعارف وكتب التراجم الجامعة، وما الى ذلك ، وأما الخاصة فهي التي لا تتناول الا المباحث المغربية فقط ، من تاريخ وتراجم وأدب وهذه كلها من المصادر المظان ، أما غير المظان ككتب الفقه والحديث والتفسير والعربية وبقية العلوم الأخرى ، والشروح والحواشي والرسائل الموضوعة في مختلف المسائل والمجاميع الأدبية والصحف والمجلات فضلاً عن السماعات والوجادات الموثوق بها كل الوثوق فانها تكاد تكون أكثر مصادره ولا سيما في الجزأين الثاني والثالث المشتملين على الآثار والمنتخبات الأدبية ، ويعسر علينا تعداد هذه المصادر التي لا تنضبط فنقتصر هنا على ذكر المصادر المظان عامة وخاصة .

المصادر العامة

ابن الأبار

تكملة الصلة – ط. مدريد ١٨٨٦ .

معجم أصحاب أبي علي الصدفي – ط. مدريد ١٨٨٥ .

الحلة السيراء
اعتاب الكتاب } مُصوَّر مخطوط الاسكوريال .
تحفة القادم

ابن الأثير

الكامل في التاريخ – ط مصر ١٣٠١ – ١٣٠٢ .

أحمد بابا السوداني

نيل الابتهاج بتكميل الديباج – ط . مصر ١٣٥١ .

أحمد توفيق المدني

تقويم المنصور – ط. الجزائر ١٣٤٨ .

ابن الأحمر (**اسماعيل**)

نثير الجمان فيمن ضمني وإياه الزمان ، مخطوط خاص .

الادريسي (الشريف)

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق–القسم الخاص بالمغرب والسودان ط. ليدن ١٨٦٦ .

ادوارد فنديك

اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ط. مصر ١٣١٣ .

اسماعيل باشا البغدادي

اظهار المكنون في الذيل على كشف الظنون – ط. استنبول ١٣٦٤ .

هدية العارفين في أسماء المؤلفين وأثار المصنفين – ط. استنبول ١٩٥١ .

ابن أبي أصيبعة

عيون الأنباء في طبقات الأطباء – ط. بيروت ١٣٧٦ .

الافراني (محمد الصغير)

المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل – ط. فاس ١٣٢٤ .

ابن بسّام

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول والجزء الأول من القسم الرابع ط. مصر ١٣٥٨ – ١٣٦٤ .

ابن بشكوال

الصلة – ط. مدريد ١٨٨٢ .

ابن بطوطة

الرحلة المسماة بتحفة النظار – ط. مصر ١٣٢٢ .

البكري (**ابو عبيد**)
المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، طرف من كتابه المسالك والممالك ط. الجزائر ١٩١١ .

بلا فريج (**أحمد**)
الأدب الأندلسي ، بالاشتراك مع عبد الجليل خليفة ط. تطوان ١٣٦٠ .

البلغيثي (**احمد**)
الابتهاج بنور السراج - ط. مصر ١٣١٩ .

بيل (**الفريد**)
برنامج المخطوطات العربية الموجودة بخزانة القرويين – ط. فاس ١٩١٨ .

التمجروتي (محمد)
النفحة المسكية في السفارة التركية – ط. باريز (بدون تاريخ) .

التمنارتي
الفوائد الجمة في اسناد علوم الأمة – مخطوط خاص .

ابن تومرت (المهدي)
أعز ما يطلب وما معه – ط. الجزائر ١٣٢١ .

الجراوي (أبو العباس)
الحماسة المغربية – مصوّر مخطوط استنبول .

جوزيف ماكيب
مدنية العرب في الأندلس ، ترجمة الدكتور تقي الدين الهيلالي ط. بغداد ١٣٦٩ .

حاجي خليفة
كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون ط. استنبول ١٣٦٠ .

ابن حجر العسقلاني
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ط. حيدر أباد ١٩٤٥ – ١٩٥٠ .

الحجوي (محمد)

الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي–ط. الرباط وتونس وفاس ١٣٤٠ -١٣٤٩

ابن حماد

أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم – ط. الجزائر ١٣٤٦ .

الحميدي

جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ط . مصر ١٣٧٢ .

ابن خاقان (الفتح)

قلائد العقيان – ط . مصر ١٣٢٠ .

مطمح الأنفس – ط . مصر ١٣٢٥ .

ابن الخطيب (لسان الدين) .

الاحاطة في تاريخ غرناطة الجزء الأول والثاني – ط . مصر ١٣١٩ ومُصَوَّر مخطوطِ الاسكوريال رقم الحلل في نظم الدول – ط . تونس ١٣١٦ .

اعمال الأعلام ، القسم الثاني الخاص بالأندلس ط . الرباط ١٣٥٣ .

اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية – ط . مصر ١٣٤٧ .

معيار الاختيار المعروف بمقامات البلدان – ط . فاس ١٣٢٥ .

الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة – مخطوط خاص .

ريحانة الكتاب – مُصَوّر مخطوط مكتبة الاسكوريال

الخفاجي (الشهاب)

ريحانة الالبا – ط . مصر ١٣٠٦ .

طراز المجالس – ط . مصر (بدون تاريخ) .

ابن خلدون (عبد الرحمن)

تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر – ط . مصر ١٢٨٤ .

التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ط . مصر ١٣٧٠ .

ابن خلدون (يحيى)
بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – ط . الجزائر ١٣٢٩ .

ابن خلكان
وفيات الأعيان – ط . مصر ١٣١٠ .

ابن خير
معجم ما رواه عن شيوخه – ط . سراقوسطة ١٨٩٣ .

خير الدين الزركلي
الأعلام الطبعة الجديدة – مصر ١٣٧٣ – ١٣٧٨ .

الدباغ (عبد الرحمن)
معالم الايمان في معرفة أهل القيروان وذيله لابن ناجي – ط . تونس ١٣٢٠ .

ابن دحية (ابو الخطاب)
المطرب من أشعار أهل المغرب تحقيق ابراهيم الابياري وآخرين – ط . مصر ١٩٥٤ .

دوزي (رينهاريت)
ملوك الطوائف ترجمة كامل كيلاني – ط . مصر ١٣٥١ .

دي سلان (البارون)
فهرس المخطوطات العربية بمكتبة باريز الوطنية – ط. باريز ١٨٨٣ .

الرجراجي (عبد الله)
فهرس المخطوطات العربية للخزانة العامة ، بالاشتراك مع س. علوش – ط. باريز ١٩٥٤ .

ابن رحمون (التهامي)
شذور الذهب في خير النسب – مخطوط خاص .
الانجم الزاهرة في الذرية الطاهرة – مخطوط خاص .

ابن رشيد الفهري

رحلة ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين الى مكة وطيبة – مخطوط الاسكوريال .

ابن ريسون (محمد بن الصادق)

فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العَلَمي بأمر الأمير – مخطوط خاص .

ابن زاكور

رحلة نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان – ط. الجزائر ١٣١٩ .

ديوان الروض الأريض في بديع التوشيح ومنتقى القريض – مخطوط خاص .

ابن الزبير (أبو جعفر)

صلة الصلة ، القسم الأخير منه – ط. الرباط ١٩٣٧ .

ابن الزيات (أبو يعقوب)

التشوّف الى رجال التصوّف – مخطوط خاص .

الزياني (أبو القاسم)

رحلة الترجمانة الكبرى التي جمعت أمصار المعمور كله براً وبحراً - مخطوط خاص.

الساحلي

بغية السالك في أشرف المسالك – مخطوط خاص .

السائح (محمد)

المنتخبات العبقرية لطلاب المدارس الثانوية – ط. الرباط ١٩٢٠ .

سركيس (يوسف)

معجم المطبوعات العربية والمعربة – ط. مصر ١٣٤٦ .

ابن سعيد المغربي

المغرب في حلي المغرب تحقيق الدكتور شوقي ضيف – ط. مصر ١٩٥٣ .

الغصون اليانعة في محاسن شعراء المـــائة السابعة تحقيق ابراهيم الابياري - ط. مصر ١٩٤٥ .
عنوان المرقصات المطربات ، نشر محمد عبد القادر ، الجزائر ١٩٤٩ .
رايات المبرزين وغايات المميزين ، نشر غرسية كوميز - مدريد ١٩٤٢ .

السيوطي (جلال الدين)

حسن المحاضرة في تاريخ مصر القاهرة – ط. (بدون تاريخ) .
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة – ط. مصر ١٣٢٦ .

ابن شاكر الكتبي

فوات الوفيات – ط. مصر ١٣٩٩ .

الشريسي (ابو العباس)

شرح المقامات الحريرية – ط . مصر ١٣٠٦ .

شكيب أرسلان (الأمير)

الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، ٣ مجلدات – ط . مصر ١٣٥٥ – ١٣٥٨ .

الشماع

تاريخ الدولة الحفصية – . ط تونس .

الصفدي (صلاح الدين)

الغيث المسجم في شرح لامية العجم – ط . مصر ١٣٠٥ .
الوافي بالوفيات ، الجزء الأول – ط . استنبول ١٩٣١ .

صفوان بن ادريس

زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر نشر عبد القادر محداد – بيروت ١٣٥٨ .

الطبري (ابن جرير)

تاريخ الأمم والملوك – ط . مصر ١٣٢٦ .

ابن ظافر الأزدي

بدائع البدائه – ط . مصر ١٣١٦ .

ابن عبد الحكم المصري

فتوح افريقيا والأندلس – ط . الجزائر ١٩٤٢ .

ابن عبد الملك المراكشي

الذيل والتكملة ، الأجزاء الثلاثة المصورة بالخزانة العامة بالرباط ، ومصور جزء الاسكوريال .

ابن عبد المنعم الحميري

صفة جزيرة الأندلس ، انتخبها من كتابه الروض المعطار ليفى بروفينسال – ط . مصر ١٩٣٧ .

ابن عذارى

البيان المغرب في اخبار المغرب ، الاول والثاني ط . بيروت ١٩٥٠ الثالث ط . باريز ١٩٣٠ الرابع ط . تطوان ١٩٥٨ .

ابو العرب (محمد بن تميم)

طبقات علماء افريقية وما معه – ط . الجزائر ١٣٣٢ .

ابن عربي الحاتمي

محاضرة الأبرار ومسامرة الاخيار – ط . مصر ١٣٠٥ .

رسالة القدس – ط . ١٩٣٩ .

ابن عمار

نحلة اللبيب بأخبار الرحلة الى الحبيب – ط . الجزائر ١٣٢٢ .

العياشي (أبو سالم)

رحلته المسماة ماء الموائد – ط. فاس .

عياض (القاضي)

ترتيب المدارك وتقريب المسالك الى معرفة أعلام مذهب مالك - مخطوط الاستاذ محمد بن أبي بكر التطواني .

فهرسته المسماة بالغُنية — مخطوط خاص .

ابن غازي (محمد)

الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون — ط. فاس ١٣٣١ .

الغبريني (أبو العباس)

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية — نشر ابن أبي شنب — الجزائر ١٣٢٨ .

غريط (محمد)

فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان — ط. فاس ١٣٤٧ .

الغزال (أحمد بن المهدي)

رحلة نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد ، نشر فريد البستاني العرائش — العرائش ١٩٤١ .

الغزيري

فهرس المخطوطات العربية بمكتبة الاسكوريال — ط . مدريد ١٧٦٠ — ١٧٧٠ .

الغساني

رحلة الوزير في افتكاك الأسير — ط. العرائش ١٩٤٠ .

ابن غلبون

تاريخ طرابلس المسمى بالتذكار ط. مصر ١٣٣٩ .

فؤاد السيد

فهرس المخطوطات المصورة بمعهد احياء المخطوطات العربية بالاشتراك مع الدكتور لطفي عبد البديع — ط. مصر ١٩٥٤ — ١٩٥٦ .

ابن فرحون

الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب – ط. مصر ١٣٥١ .

ابن الفرضي

تاريخ علماء الأندلس – ط. مدريد ١٣٩١ .

فريد وجدي (محمد)

دائرة معارف القرن العشرين – ط. مصر ١٩١٠ .

الفشتالي (محمد بن علي)

نظم الوفيات لابن قنفذ والزيادة عليها – مخطوط خاص .

أبو القاسم الشريف

رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة – ط. مصر ١٣٤٤ .

ابن القاضي (أحمد)

درة الحجل في غرة أسماء الرجال – ط. الرباط ١٩٣٤ .

لقط الفرائد من حقاق الفوائد – مخطوط خاص .

قدري حافظ طوقان

تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك – ط. مصر ١٩٤١ .

القرافي (بدر الدين)

توشيح الديباج - مخطوط خاص .

القفطي

اخبار العلماء بأخبار الحكماء – ط. مصر ١٣٢٦ .

القلقشندي

صبح الأعشى – ط. مصر ١٩١٣ – ١٩١٨ .

ابن قنفذ (ابن الخطيب القسنطيني)

وفياته المسماة شرف الطالب في أسنى المطالب نشر هنري بيريس - مصر

أنس الفقير وعز الحقير - مخطوط خاص .

الكتاني (عبد الحي)

فهرس الفهارس - ط. فاس ١٣٤٦ - ١٣٤٧ .

الكعاك (عثمان)

موجز التاريخ العام للجزائر - ط. تونس ١٣٤٤ .

كنون (عبد الله)

التعاشيب - ط. تطوان ١٣٤٢ .

واحة الفكر - ط. تطوان ١٣٤٨ .

خل وبقل - ط. تطوان ١٣٧٨ .

شرح مقصورة المكودي - ط. مصر ١٣٥٦ .

شرح الشمقمقية - ط. مصر ١٣٥٤ .

المنتخب من شعر ابن زاكور - ط. العرائش ١٣٦١ .

الكوهن (الحسن)

طبقات الشاذلية الكبرى - ط. مصر ١٣٤٧ .

كيين روبير

فهرس المخطوطات العربية بمكتبة مدريد الوطنية ط. مدريد ١٨٨٩ .

المالكي (أبو بكر)

رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية الجزء الأول نشر الدكتور حسين مؤنس - مصر ١٩٥١ .

مبارك الميلي

تاريخ الجزائر في القديم والحديث - ط. الجزائر ١٩٣٢ .

المحبي

خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر – ط. مصر ١٢٨٤ .

ابن مخلوف التونسي

شجرة النور الزكية في طبقات المالكية – ط. مصر ١٣٤٩ .

المرادي (محمد خليل)

سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر – ط. مصر ١٢٩١ .

المراكشي (عبد الواحد)

المعجب في تلخيص أخبار المغرب – ط. مصر ١٩٤٩ .

ابن أبي مريم

البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان – ط . الجزائر ١٣٢٦

ابن معصوم

سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر – ط. مصر ١٣٢٤ .

المقري (أحمد)

نفح الطيب – ط. مصر ١٣٠٢

أزهار الرياض في أخبار عياض ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين – مصر ١٣٥٢ .

فتح المتعال في مدح النعال – ط. حيدر أباد ١٣٣٤ .

ابن ناصر (أحمد)

رحلته الحجازية – ط . فاس ١٣٢٠ .

الناصري (أحمد بن خالد)

زهر الأفنان من حديقة ابن الونان – ط. فاس ١٣١٤ .

طلعة المشتري في النسب الجعفري – ط. فاس (بدون تاريخ) .

النباهي (أبو الحسن)

المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا – ط. مصر ١٩٤٨ .

الونشريسي (أحمد)
المعيار المغرب والجامع المعْرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب – ط. فاس ١٣١٥ .

ياقوت الحموي
معجم البلدان – ط. مصر ١٣٢٤ .
معجم الأدباء المسمى ارشاد الأريب طبعة الدكتور فريد رفاعي مصر ١٣٥٧ .

يوسف أشباخ
تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ترجمة محمد عبدالله عنان – ط . مصر ١٣٧٧ .

اليوسي (الحسن)
المحاضرات – ط. فاس ١٣١٧ .
القانون في ابتداء العلوم – ط. فاس ١٣١٠ .
مناهج الخلاص من كلمة الاخلاص – ط. فاس ١٣٢٧ .
ديوان شعره – ط. فاس .

المصادر الخاصة

ابن ابراهيم (عباس)
الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام – ط. فاس ١٣٥٥ – ١٣٥٨ .

الافراني (محمد الصغير)
نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي – ط. فاس (بدون تاريخ)
صفوة ما انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر – ط. فاس (بدون تاريخ)

أكنسوس (محمد)
الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي – ط. فاس ١٣٣٦ .

ابن أبي محمد صالح (أحمد بن ابراهيم)
المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح – ط. مصر ١٣٥٢ .

الأنصاري (محمد بن القاسم)
اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سَنِيِّ الآثار – ط. باريز ١٣٥٠ .

بروفينسال (ليفي)
مجموعة رسائل موحدية – ط. الرباط ١٩٤١ .

البيدق (أبو بكر الصنهاجي)
أخبار المهدي بن تومرت وابتداء أمر الموحدين – ط. باريز ١٩٢٨ .

الجزنائي (أبو الحسن)
زهرة الآس في بناء مدينة فاس – ط. الجزائر ١٣٤٠ .

أبو جندر (محمد)
مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح – ط. الرباط ١٣٤٥ .

الحضرمي (محمد)
بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة من مدرس وأستاذ وطبيب ، قطعة منه – مخطوط خاص .

الحلبي (أحمد بن عبد الحي)
الدر النفيس في مناقب الامام ادريس بن ادريس – ط. فاس ١٢٩٩ .

داود (محمد)
تاريخ تطوان الجزء الأول – ط. تطوان ١٩٥٩ .
مختصر تاريخ تطوان – ط. تطوان ١٣٧٥ .

ابن أبي زرع
الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس – ط. فاس ١٣٠٣ .

الزياني (أبو القاسم)

الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب ، قطعة منه نشرها هوداس ١٣٠٣ .

الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب – مخطوط خاص .

ابن زيدان (عبد الرحمن)

اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس – ط. الرباط ١٣٤٧–١٣٥٢.

الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة – ط. الرباط ١٩٣٧ .

ابن سودة (عبد السلام)

دليل مؤرخ المغرب – ط. تطوان ١٣٦٩ .

السوسي (محمد المختار)

سوس العالمة – ط. فضالة ١٣٨٠ .

المعسول ، الجزء الأول – ط. الدار البيضاء ١٣٨٠ .

ابن عثمان (محمد)

الجامعة اليوسفية في تسعمائة سنة – ط. الرباط ١٩٣٧ .

ابن عَسْكَر (محمد)

دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشائخ القرن العاشر – ط. فاس ١٣٠٩

العلمي (محمد بن الطيب)

الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب – ط. فاس ١٣١٥ .

الفاسي (المهدي)

ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتبّاع – ط. فاس ١٩٠٥ .

الفشتالي (عبد العزيز)

مناهل الصفا في أخبار دولة الملوك الشرفا ، الجزء الثاني – مخطوط خاص .

القادري (عبد السلام)

الدر السني في بعض من بفاس من أهل النسب الحسني – ط. فاس ١٣٠٨ .

القادري (محمد بن الطيب)
نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني – ط. فاس ١٣١٠ .

ابن القاضي (أحمد)
جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بفاس – ط . فاس .

الكتاني (جعفر)
الشرب بالمحتضر والسر المنتظر من معين بعض أهل القرن الثالث عشر – ط . فاس ١٣٠٩ .

الكتاني (محمد بن جعفر)
سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بمدينة فاس - ط. فاس ١٣١٦ .
الأزهار العاطرة الأنفـــاس بذكر بعض محاسن قطب المغرب وتاج مدينة فاس – ط. فاس ١٣٠٧ .

كنون (عبدالله)
مدخل الى تاريخ المغرب – الطبعة الثالثة تطوان ١٣٧٩ .
أمراؤنا الشعراء – ط . تطوان ١٣٦١ .
ذكريات مشاهير رجال المغرب ٢٥ حلقة ط . تطوان .
رسائل سعدية – ط. تطوان ١٣٧٣ .

مؤلفون مجهولون
الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية – ط . تونس ١٣٢٩ .
مفاخر البربر – ط . الرباط ١٣٣٤ .
الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية نشر ابن أبي شنب – الجزائر ١٩٢٠ .

مُلين (محمد الرشيد)
عصر المنصور الموحّدي – ط . الرباط ١٩٤٦ .

المنوني (محمد)
العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين – ط . تطوان ١٩٥٠ .

ابن الموقت (محمد)
السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية – ط. فاس ١٣٣٦ .
تعطير الأنفاس في التعريف بالشيخ أبي العباس – ط. فاس ١٣٣٦ .

الناصري (محمد المكي)
الدرر المرصعة في أخبار صلحاء درعة – مخطوط خاص .

الناصري (أحمد بن خالد)
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى – ط. مصر ١٣١٢ .

النميشي (أحمد)
تاريخ الشعر والشعراء بفاس – ط. فاس ١٣٤٣ .

مصادر أجنبية

لم نستعمل من المصادر الأجنبية الا القليل لأن موضوع كتابنا قلما تناوله الباحثون الأجانب ولكننا على كل حال استعنا في بعض المواضع بالمصادر التالية :

C. Brockelmann تاريخ الأدب العربي
Ges chichte der Arabischen Liiiratur - Leyde 1943 - 1949.

Angel Gonzalez Palencia تاريخ الأدب الاسباني
Historia de La Literatura Arabigo - Espanola - madrid 1928.

تاريخ اسبانيا الاسلامية
Historia de La Espàna musul anana - madrid 1922.

Encyclopédie de L'Islam. دائرة المعارف الاسلامية
ed. française - Leyde 1908 - 1938.

E. Lévi Provençal مؤرخو الشرفاء
Les Historiens des Chorfa - Paris 1922.



محتويات الكِتاب



فهـرس الكتـاب

الجزء الأول

ـ الدراســة ـ

الجزء الثاني

ـ المختارات النثرية ـ

الموضوع صفحة

الموضوع صفحة

الجزء الثالث

ـ المختارات الشعرية ـ

صفحة

الآداب والوصايا والحكم

صفحة

المدح والتهنئة والاستعطاف

النبوغ المغربي في الأدب العربي

طبعة جديدة تأليف الأستاذ عبد الله كنون

قرأه وعلق عليه الأستاذ عبد السلام الهراس

للاستاذ الكبير السيد عبد الله كنون فضل كبير على المغرب في رفع مستوى الثقافة وفي التعريف بالادب المغربي ونشره في الآفاق . وهو من الطليعة المغربية التي لها دور عظيم في النهضة المغربية التي اعتمدت ـ في اول امرها ـ على السلفية واعتنقت آراء جمال الدين والكواكبي ومحمد عبده وتأثرت باساليبهم وتفاعلت مع النهضة الادبية في المشرق وتاثرت بما يجري هناك من معارك ادبية ؛ ولعقيدتها الاسلامية كان حبها يميل لمصطفى صادق الرافعي ؛ ولهذه الطليعة في نفسي خاصة تقدير عظيم لاني تربيت في اجواء علمهم وثقافتهم وقد تاثرنا بهم تاثرا كبيرا ، وكنا نقرا ونحن تلاميذ في الابتدائي كل ما يكتبون ونحفظ كل ما يقولون ، وكان النبوغ المغربي من الكتب التي قراناها وشعرنا اذاك باننا امام عمل ضخم ومجهود جبار ، الا ان الانسان قد يتغير رايه في كثير من الاشياء والاشخاص عندما يودع مراحل الطفولة والتلمذة وخلال تطور عقليته ودراسته ؛ فيبدو له الشارع الكبير زقاقا ضيقا ؛ والساحة الواسعة الارجاء فسحة محدودة والصخرة العالية حجرة متوسطة ؛ والخطيب المصقع متصنعا تافها ، والكاتب النحرير سطحيا ضيق الافق الا ان هناك اشياء واعمالا واشخاصا تحتفظ دائما بمنعة ضد هذه النسبية وتظل ابدا منطوية على القيمة الموضوعية رغم التطورات والاحداث ؛ بل قد يحدث احيانا ان تكون لها نسبة ايجابية صاعدة .

والنبوغ المغربي من الكتب التي ضمنت لنفسها المناعة والخلود ويبدو الآن عملا ضخما ومجهودا كبيرا كما كان في اول عهده لانه لم يعتمد في نيل قيمته على بساطة القراء او انخفاض المستوى الثقافي والعلمي وانما حدد مستواه حسب ما تقتضيه طبيعة البحث العلمي الرصين ؛ ومما زاده تلك المناعة قوة هو المجهود العظيم الذى بذل في طبعته الثانية مما ابرزه كتابا جديدا في اسلوب رائع .

والنبوغ المغربي عمل ادبي ووطني كتبه الاستاذ السيد عبد الله كنون بدافع التاثر والشعور بفراغ ميدان الادب العربي من الانتاج الادبي المغربي وجهل العرب ـ وحتى المغاربة ـ بالتراث المغربي في هذا الميدان .

وهناك عامل قوي كان يحمل امثال الاستاذ عبد الله كنون على ابراز الحضارة المغربية والكشف عن عظمة المغرب وتاريخه ـ وهو التهجمات الاستعمارية على المغرب في الميدان الثقافي والعلمي والديني والافتراء والتزييف والاباطيل التي كان يرميه بها ويخترعها للحط من قدره ؛ فكان لابد اذن من المقاومة الفكرية والنضال ، ولا يقدر هذا ((الرد الفعل)) الا الذين عانوه اشد معاناة ؛ ولقد راينا احدى صور هذا الشعور في محاضرة الاستاذ محمد الحمداوي في مهرجان تطوان الثقافي التي كان عنوانها ((الحضارة المغربية بين الاصالة والاقتباس)) .

ولهذا فان كتاب النبوغ المغربي يعتبر ثمرة للشعور بالخطر الاستعماري على تاريخ الادب المغربي وهو صورة رائعة لرد فعل عنيف في المجال العلمي ؛ ولم يكن هذا الرد تلقائيا ساذجا وانما كان مركزا وعن روية تامة اذ استطاع ان يكشف للعالم اجمع عن نبوغ المغرب وعبقريته في المجال الادبي .

وإذا كان المرحوم الأمير شكيب ارسلان يقول في الطبعة الاولى لهذا الكتاب : « ... ان من لم يقرأ كتاب النبوغ المغربي في الادب العربي فليس على طائل من تاريخ المغرب العلمي والادبي والسياسي ... بل انه اولى بهذا الوصف من نفح الطيب لانه خلاصة متحولة وزبدة ممخوضة .. »

وإذا اعترف كارل بروكلمان بانه استفاد كثيرا من كتاب الاستاذ عبد الله كنون الذي فات بحثه في الادب العربي – اذا كانت هاتان الشخصيتان العظيمتان تدليان بما للنبوغ المغربي من قيمة جليلة فما عساي ان اقول .. وبالاخص في الطبعة الجديدة التي تعد بحق اروع من الطبعة الاولى .

وبين يدي مجلد ضخم يبلغ حوالي الف صفحة بورق صقيل وطباعة انيقة وقد طبع هذه المرة في لبنان ، ولست ادري ماذا كان يمنع مطابعنا المغربية ان تتشرف بطبع هذا الكتاب القيم ؛ ان دور النشر في بلادنا اصبحت كثيرة ولكنها ما تزال تجري من وراء الربح السريع ، ولذلك تكثر من طبع الكتب المدرسية ولكنها لن تقوم برسالتها الحقة الا اذا تحملت مسؤولية نشر التراث المغربي والانتاج الجديد في هذا الوطن .

وقد لاحظت ان الاستاذ الجليل اعاد صياغة كثير من العبارات ، وبعبارة الفها من جديد كما ادخل تعديلات على بعض الافكار والتعليلات ، وقد اعيدت كتابة بعض الفصول كالوسط الفكري في عصر الفتوح وقد خفف هنا من حملته العنيفة السابقة على البربر وعقليتهم « التي نسجت من الجهل والغباوة ولم يكن عندهم استعداد لقبول ما جاء به العرب من مدنية وعرفان .. » ولكن الاستاذ في الطبعة الجديدة غير الفصل وان ابقى على بعض الافكار الاخرى ، وقد ترجم في هذا الباب لمن فاته في الطبعة الاولى مثل دراس بن اسماعيل وابو جيدة والاصيلي وابن العجوز كما ذكر اسماء شخصيات علمية وادبية جديدة .

وفي هذه الطبعة اعطى الاستاذ المؤلف للدولة المرابطية حقها بعد ان لم تنل من الطبعة الاولى الا النزر اليسير ، وقد افرد لها فصلا خاصا بها استهله بقوله : « قد آن للبحث العلمي ان ينصف دولة المرابطين ويقول فيها كلمة عادلة لا تتأثر بعصبية بلدانية ولا بحمية دينية » .

والواقع ان الاغراض الشخصية والعواطف الجارفة والروح المسيحية المتعصبة كان لها الحظ الاوفر في تشويه سمعة المرابطين وتصويرهم بصور الوحشية والغلظة والبعد عن المدنية ، وما خلت امة من طبقة المتنفعين من الفساد ، الذين تهيىء لهم الاجواء الفاسدة والتدهور السياسي والاخلاقي في الامة شروط حياتهم وسعادتهم ، وكما ان للاتجاهات الصالحة مناضلين يسترخصون انفسهم واموالهم في سبيل نصرة المثل العليا فكذلك للباطل والانحطاط والاتجاهات المتعفنة مناضلون ومخلصون وماذا كان ينتظر من عصابة من الماجنين والمتنفعين من التعفنات؛ يقضون لياليهم في اللهو والعبث وفي الدس والمكر والاستغلال ، ويعيثون فسادا ، وينخرون جسم الامة الاسلامية في الاندلس – ماذا كان ينتظر منهم اذ قام رجل صالح يردعهم عن منكرهم ، ويجتث فسادهم، ويحرمهم لذائذهم ، وينغص عليهم انحلالهم وانحرافهم؛ انهم لا شك – كما وقع بالفعل – مفجرون احقادهم ومرسلون لسانهم في السب والشتم في هذا الرجل ودولته وتمتزا زوالها كما نرى في مواقف كثير من الاحزاب ازاء بعضها وبالاخص في الدول المتخلفة ، كذلك كانت قصة المرابطين مع الاندلسيين او بعبارة اصح مع الطبقة الفاسدة والحاكمة منهم والذين اضاعوا كثيرا من الاجزاء الاندلسية واوشكوا ان يسلموا ما تبقى منها الى النصارى كما وقع بالفعل بعد ان ضعف المغرب عن الدفاع عن الاندلس .

وقد كشف الاستاذ المؤلف عن اسباب الطعن في المرابطين ودافع عنهم دفاعا حارا بمنطق رزين واسلوب رائع وروح علمية ، وابرز ان المرابطين كانوا كرماء؛ حلماء مع اعدائهم واستشهد لذلك بشواهد عدة ؛ كما انهم اكرموا المعتمد اكراما بالغا عندما انزلوه طنجة واغمات المدينة العظيمة المزدهرة ، وتركوا له الحرية التامة ، وكان الشعراء يفدون عليه ويتصلون به اتصالا حرا ..

وقال المؤلف عن رعاية المرابطين للادب والعلوم : « ليس هناك من ينكر ان الازدهار الذي عرفته الاندلس ايام المرابطين والموحدين بعدهم يكاد يفوق ما كان لها من قبل .. والحياة العلمية والادبية التي ازدهرت ايام الموحدين ليست الا غرس ورعاية المرابطين » . والحق ما قاله المؤلف الكريم لان الحياة العلمية ليست امرا تلقائيا مفاجئا فلابد من غراس ومغارس واجواء ملائمة سابقة ولولا المرابطين الذين اعطوا للمغرب الاسلامي بما فيه الاندلس اول قوة عظيمة يرهبها الاعداء ، واشاعوا الامن والرخاء واتاحوا الفرص للاتصال لما كانت تلك النتائج الاجتماعية والعلمية والادبية التي شهدناها اوائل الموحدين وبعدهم .. ويقول المؤلف : « وما وقع من اضطهاد لبعض الافكار

والعلماء في عهد المرابطين والموحدين وقع مثيله في الاندلس من قبل » . ولعل هذه النزعة اندلسية .. ويؤيد الاستاذ رايه بدلائل ؛ ويبين ان احراق كتاب الاحياء تولى كبرها ابو عبد الله بن حمدين قاضي قرطبة . وقد اسهب المؤلف في الدفاع عن المرابطين من الناحية السياسية والروح العلمية ويبين انه كان للمرابطين ذوق ادبي وقدرة على الحكم الفني ؛ وضرب لذلك امثلة كما وجه امثلة اخرى كانت تفهم على غير حقيقتها ؛ وقد كان اختيار المرابطين لكتابهم دليلا على ذلك الذوق والتقدير لمنزلة الكتاب .. ويمتازون بالتجاوز عن الادباء الاعداء الذين كانوا يضمرون لهم السوء كموقفهم مع ابي محمد بن ابي الخصال وكان هذا يحقد عليهم ــ وهو ينعم في ظلهم ــ ويهتبل الفرص لنفث حقده وبث عواطفه الصريحة ؛ وقد تفطن امير المسلمين لمقامزه ؛ يقول المؤلف : « ولا ندع هذه الحادثة تمر دون ان نقيمها حجة على من يتهم المرابطين بعدم الذوق الادبي وكثافة الاحساس الفني .. فكيف فطن علي بن يوسف لمقامز ابن ابي الخصال وتورياته التي ظن انها تخفى على مخدومه ان لم يكن مثقفا ... » (ص 80 ج 1) .

وقد تكلم الاستاذ المؤلف عن ولوع الاسرة المرابطية الحاكمة بالادب والشعر ولم يقتصر ذلك على الرجال بل شاركت النساء بنصيبهن في ذلك كالاميرة بنت يوسف بن تاشفين وزينب بنت ابراهيم ؛ وقد ترجم الاستاذ لبعض علماء وادباء هذا العصر ...

وقد راينا في الطبعة الجديدة فقرات رائعة عن مدى تقدم المغاربة في ظل الموحدين في ميدان الطبخ والحلوى حيث كان لدى الموحدين اكثر من خمسمائة لون من الوان الطعام والشراب والحلوى مما يدل على الحضارة والرقي ؛ كما تحدث عن العالمات ومشاركة المراة في النهضة العلمية .

وقد ترجم في باب الموحدين ــ لشخصيات جديدة لم تذكر في الطبعة الاولى مثل ابي القاسم الجزاري وابي محمد صالح وعبد الجليل القصري ــ من القصر الكبير ــ وابن فرتون وابي حفص عمر ؛ وقد فعل مثل ذلك في الكتاب كله .

واذا انتقلنا لقسم النصوص وجدنا انفسنا امام نصوص جديدة لم تذكر في الطبعة الاولى وتصحيح نسبة بعضها كما قال في المقدمة ؛ ويقول المؤلف في المقدمة : « ويقوي الداعي الى هذا التصحيح اننا راينا الذين كتبوا في موضوع الادب المغربي يقلدوننا في تلك الاغلاط .. » وباختصار فان الطبعة الجديدة للنبوغ تحمل معنى الجدة في الشكل والمضمون مما يدل على الجهود الجبار الذي بذله المؤلف في سبيل امته ووطنه ، وبذلك سيظل اسم الاستاذ عبد الله كنون دائما مقترنا بالادب المغربي باعتباره البطل الاول والمبرز في هذا الميدان فجزاه الله عن امته خير الجزاء .

وبعد فاننا نرجو ان يقدم لنا الاستاذ الجليل دراسة وافية عن المراجع في الادب المغربي وعن قيمتها وعن اماكن وجودها .

كما نطالبه أن يؤلف لنا كتابا خاصا بالنصوص للادب المغربي خلال عصوره الاسلامية بما فيها الغث والسمين .

واخيرا اعتذر اذا انا لم اف التعليق حقه لان ذلك الامر شاق بالنسبة لضيق الوقت وارجو ان اوفق للكتابة عنه بكل تفصيل عندما تتاح لي الظروف .